ما وراء الطبيعة

لقاءات العرب

التحويل الى حبر الكتروني

التجميع في مجلد واحد







الأعداد (10) ومضاعفاتها

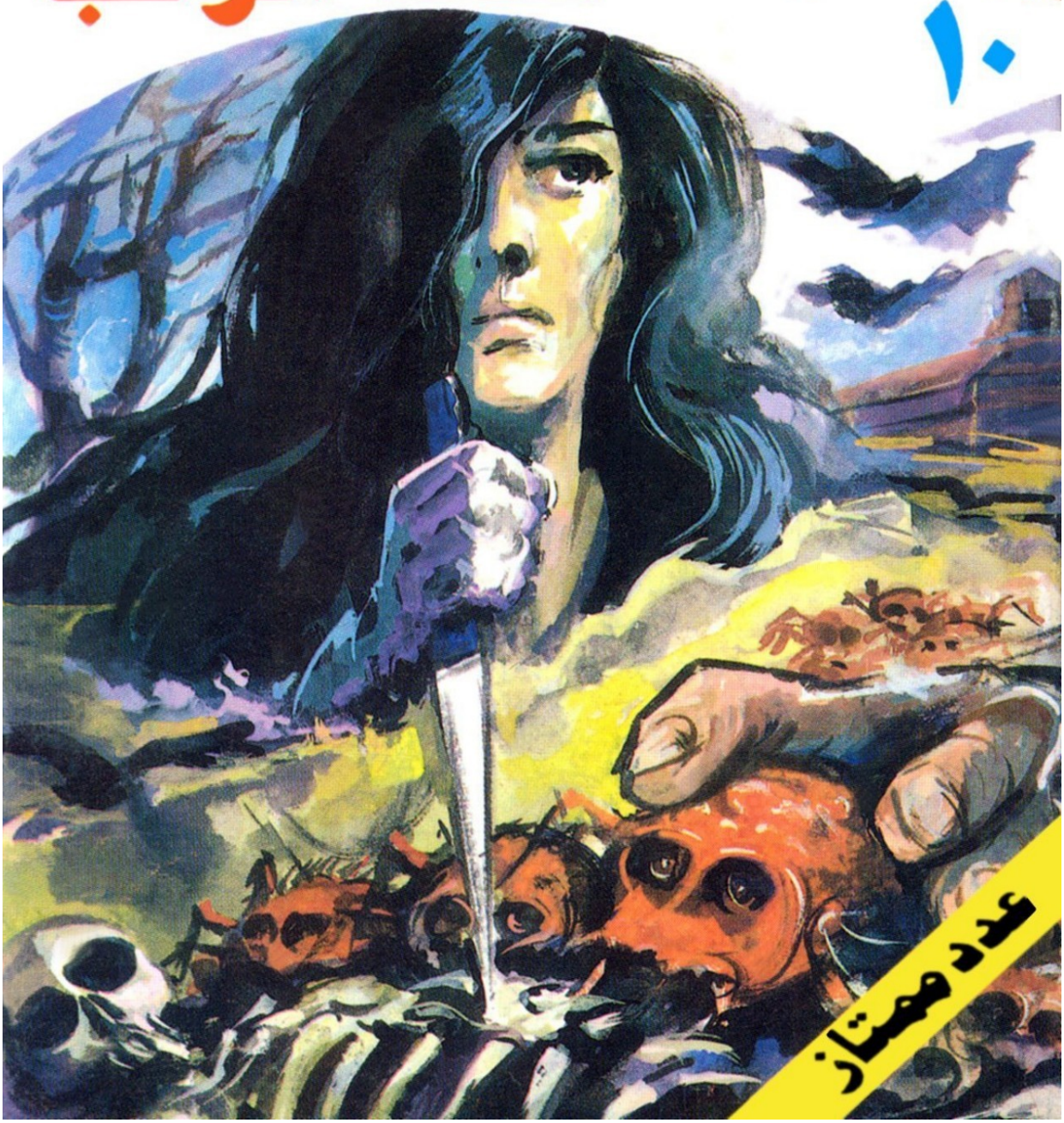
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

ماوراء الطبيعة

حلقة الرعب

١٠



عدد ممتاز

مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٠

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

حلقة الرعب

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

مقدمة..

منتصف الليل...

النوم قد جافاني.. والسعال يعابث شعيباتي الهوائية.. وفناجين القهوة العديدة تحتشد في خلايا مخي داعية إياي كي أكتب قصة أخرى..

هل تعرفون من أنا...؟

تعرفون...

لكني أرى بينكم وجوهًا جديدة بريئة لم يسعدني الحظ بالجلوس معها من قبل، لهذا أقول - لهذه الوجوه فحسب - أن إسمي هو (رفعت إسماعيل).. شيخ فان يملك مئات القصص المفزعة التي كان طرفًا فيها بشكل أو بآخر...

ماذا أحكي لكم اليوم...؟...

في هذه المرة لن تكون حكايتي كالتي تعودتموها من قبل، سأحكي لكم قصصًا عدة قصها علي بعض الأصدقاء في أمسية شتاء رهيبة.. وكان محورها جميعًا هو الخوف.. الخوف الموروث غير المبرر الذي نحمله بين ضلوعنا ولا نجد له منطقًا ولا نهاية...

إن الطقس بارد حقًا...

اقتربوا يا رفاق من مجلسنا وخذوا أماكنكم.. هل لكم في قدح من (الكاكاو) أو حفنة من (أبو فروة)؟.. هل تحبون أن تقتربوا أكثر من المدفأة؟..

إفعلوا ما يحلو لكم..

لأن الليلة ليلة غير عادية.. واللقاء غير مسبوق...

إنها حلقة الرعب...

حلقة الرعب..

- أنا أمقت الشمس والزهور!
قلتها مشعلًا سيجارتي مديرًا ظهري لهم، لمدة ثوان لم يصدقوا أنني قلت ذلك، ثم أنهم انفجروا ضاحكين في هستيريا..
سمعت صوت (عادل) الضاحك:
- لن تتغير أبدًا يا (رفعت).. دائمًا نفس التعليقات والآراء الشاذة التي تتعمدها لمجرد الغرابة..
وصوت (سهام) الساخر:
- معنى هذا أنك تحب الظلام والوحل؟!
وصوت (هويدا) الحاني:
- أنا أفهم ما يعنيه.. إنه يعشق الغموض والخيال، لكن الشمس والزهور أشياء واضحة مألوفة إلى حد لا يطاق..
وصوت د. (سامي) يقول برزانة:
- إن الشخصيات المكتئبة المتجهمة هي نوع من فطر (عيش الغراب) الذي لا ينمو إلا حيث الظلام والرطوبة..، السوداوية لا تنتعش إلا في المطر والرعود..
ثم شعرت بعيونهم تتلاقي على ظهري.. ويسألون:
- وما رأيك أنت يا د. (رفعت)؟..

* * *

ما رأيي أنا؟..
لا أدري حقًا...
من أكون أنا حتى أعرف كنه نفسي..؟
كنت أتأمل الليل البهيم في الخارج ملصقًا أنفي بزجاج النافذة البارد، وقطرات المطر تنهال على الدروب فتتناثر قطرات الوحل هنا وهناك، على حين تتكسر المرئيات عبر خيوط الماء المنزلقة فوق زجاج النافذة ببطء.. ببطء..
ثمة كشاف سيارة هنا أو هناك يمزق الظلام ويدوى صوت الأمواج الممزقة تحت عجلاتها، على حين تتكاثف قطرات بخار الماء الضبابية أمام عيني، والقشعريرة تغزو عمود الفقري إذ أتصور البرد بالخارج وأقارنه بدفء الداخل..
صوت (أم كلثوم) ينبعث من المذياع باعثًا في قلوبنا مشاعر حزينة تكاد عيوننا تندى لها (كان هذا الخميس يوافق حفل (أم كلثوم) الشهري، وكان احتشاد الأسرة حول المذياع طقسًا مقدسًا في تلك الأيام)..
وللحظة تتوهج الغرفة باللون الفضي الباهر.. ثم.. برووووم!.. يدوى هزيم الرعد معلنًا تصادم النجوم..

- يا لها من أمسية!
قالها (عادل) وهو يقف خلفي يرنو إلى ما أرنو إليه.. ثم استطرد..
- أعتقد أنه من الحكمة أن نبقى جميعًا هنا حتى تهدأ (النوّة)..
- هي آخر (نوّات) العام..
قال (عادل) في خبث وهو يربت على مؤخرة رأسي:
- يا لك من نحس!.. إنها أسوأ لحظة ممكنة يغادر فيها رجل (القاهرة) ليزور خطيبته في (الإسكندرية)..
- ألا في سبيل الحب ما أنا فاعل..!
وهنا سمعنا صوت مدام (ثريا) زوجة د. (سامي) تدعونا في حماس إلى العشاء، من ثم فارقنا موقفنا عند النافذة الموصدة واتجهنا إلى مقعدين وثيرين في قاعة الجلوس المريحة...
جميلة هي فيللا الدكتور (سامي) وأثاثها ينم عن ذوق سليم.. وكانت ربة الدار حريصة على استخدام المساحات الشاسعة الخالية من الأثاث مع استعمال لونين فحسب هما الأزرق والأبيض، والإفراط في توزيع نباتات الظل.. كل هذا كان مريحًا للعين إلى حد لا يوصف..
وكانت هناك مدفأة (كيروسين) تتوهج باعثة الدفء المادي والمعنوي في عروقنا، أما الذي زاد الدفء إلى حد لا يمكن التعبير عنه فهو جبل الساندوتشات الذي جلبته لنا ومعه عربة الشاي بما عليها من أقداح أنيقة..
هل تفهم هذه اللحظات؟.. حين يتجمل الوجود وتشعر في روحك برضا قاتل عن الآخرين وعن نفسك..؟.. حين تتمنى أن تظل في هذا الزمان والمكان حتى تموت؟..
لا وقت للتفلسف لأن هؤلاء الزملاء سينسفون الساندوتشات نسفًا - كالمحرومين - والجبل يتناقص.. تعال نر ما تحويه.. لحمًا باردًا.. جبنًا.. لا بأس.. لا بأس...
شرعت ازدرد في جشع حين دنا (عادل) من أذني وهمس:
- ارحم قليلًا..!.. تأكد أولًا من أن (هويدا) تأكل...!
- لكنها تملك مثلي فمًا ويدين...
- إنها اللياقة أيها الهمجي..!.. اللياقة!
حملت ساندويتشًا من البيض (لا أحبه أبدًا) واتجهت إلى (هويدا) وألقيته في طبقها وقلت لها بفم مليء بالطعام:
- كلي هذا..!..
ثم عدت لمقعدي غارقًا في نظرات الحنق التي يصوبها لي (عادل)..
لماذا يرمقني بهذا الشكل؟.. لن أفهمه أبدًا..
شرعنا نأكل في صمت اللهم إلا من صوت المضغ المنتظم..
بعين شبه وقحة أتأمل الجالسين حولي.. تلك المجموعة التي وحدتها الصداقة وقسوة الطبيعة..، تعال أعرفك بهم.. هيا!.. لا تخجل!..
أنت تعرفني جيدًا فلا داعي لأن أصدع رأسك بكلماتي التي حفظتها عن ظهر قلب.. أنا هو أنا دون تفاصيل..
أما هذه الفتاة - نصف الحسناء - فهي (هويدا) خطيبتي.. وجوارها (سهام) شقيقتها و(عادل) زوج الأخيرة، وهي مجموعة متلاحمة لابد أنك تعرفها إذا كنت قد قرأت مغامرتي مع آكل البشر

أو لعنة الفرعون..

أما هذا الملتحي ذو النظارة السميكة فهو (شكري الأشموني).. وهو موظف على المعاش ويمارس أغرب هواية يمكن لإنسان أن يمارسها.. تصوروا أنه - هذا المعتوه - يهوى كتابة قصص الرعب؟!..

ثم أنت تعرف هذا الأصلع ذا النظارة دون شك.. فكر قليلًا..!.. نعم..! هو بعينه د. (محمد شاهين) أستاذ (الأنثروبولوجي) الذي وحدتني معه حكاية جاري آكل البشر، وهو - كما قلت لك - إنسان بريء إلى حد لا يوصف حتى أنك لو وصفت له صراعك مع أسدين وجدتهما في غرفة نومك أمس لقضى حياته يصف شجاعتك للناس، ولظل يدخل غرفة نومه في هلع كل ليلة خشية أن يجد أسدين هو الأخر..!..

أما مضيفنا وامرأته - د. (سامي) وحرمه - فمن أكثر الناس رقيًا وتحضرًا وثقافة، ولما لم يكونا قد رزقا بأطفال فإن (السعار الاجتماعي) - ولا أجد لفظة أخف وطأة - كان يدفعهما إلى تصرفات غير عادية مثل دعوتنا إلى العشاء.. تخيل هذا!!..

كان د. (سامي) أستاذًا للأمراض النفسية لكنه لم يدخل عالم النفس من باب كلية الطب.. بل من باب كلية الآداب، لهذا كان يؤمن بأساليب التحليل النفسي ويعلق صورة (فرويد)1 المرعبة في غرفة مكتبه.. كان أديبًا أكثر منه طبيبًا.

مشكلته الوحيدة هي أنه لا يفتح فاه إلا ليعلمك شيئًا جديدًا، وقد يكون هذا محتملًا بعض الوقت.. أغلب الوقت.. لكنه - بالقطع - غير محتمل طيلة الوقت..

كان د. (محمد شاهين) متواجدًا في (الاسكندرية) وهو – بالصدفة - صديق قديم لمضيفنا.. ثم.. أنت تعرف كيف تتم هذه الأمور.. فلان يعرف فلانًا.. وعلان صديق علانه.. من ثم تكون الدعوة جماعية، وها نحن أولاء مجتمعون في هذه الأمسية نقضي وقتًا ممتعًا.. لولا الأحوال الجوية السيئة التي جعلت من المتعذر عودتنا لديارنا..

والواقع أن حرم د. (سامي) كانت اجتماعية حقيقة لا تصنعًا، تمقت الأكسجين وتعشق ثاني أوكسيد الكربون.. وكانت سعيدة فخورًا بكل هؤلاء الأوغاد المزدحمين في دارها يأكلون طعامها ويحسون شرابها..، لكن (هويدا) كانت عصبية قلقة لأنها الآنسة الوحيدة الموجودة هنا.. وأمها العجوز وحدها في الدار مع حفيدها إبن (سهام) و(عادل)..، لهذا قربت مضيفتنا جهاز الهاتف منها كي تخبر أمها أنها ستعود متأخرة بعض الشيء، وتطمئنها على أن (سهام) معها وزوجها و..!.. أنا..!..

- ولكني خائفة...

- من أي شيء؟..

قالت (هويدا) وهي ترتجف مقفلة - لا شعوريًا - ياقة قميصها:

- من كل شيء.. البرد.. الظلام.. الأمطار..

ردد (شكري) عبارتها في رصانة وهو يلوك بقايا الساندويتش الأخير، وبدا الشرود على وجهه:

- البرد.. الظلام.. الأمطار..

ثم رفع عينيه تجاهنا.. واستطرد بنفس الشرود:

- مفردات الرعب الأبدية...

أشعلت سيجارة.. وقربت مطفأة السجائر مني.. وقلت:

- وماذا في ذلك؟.. أي جديد في كل هذا؟..
رد (شكري) وهو يشعل سيجارة بدوره ويسحب المطفأة من أمامي.
- إن لدينا كل ما يلزم لقصة رعب جيدة.. البرد.. الظلام.. الأمطار.. ودراما المكان الواحد حيث يجتمع مجموعة من الأشخاص يتوقعون الشر...
- نسيت القمر...
- وعواء الذئاب.. لابد من وجود عواء ذئاب..!
قال (عادل) وقد بدأ الحديث يروق له:
- خاصة إذا ما تخيلنا أن هذه الفيللا تطل على المقابر..!
صاحت (سهام) في هلع وقد توترت أعصابها:
- (عادل)!.. هل جننت..؟
- أنا أمزح يا ملاكي.. أمزح.. أحاول أن أكون طريفًا لا أكثر..!
- وقد فشلت...!
خفض (عادل) رأسه في شيء من الحرج على حين واصل (شكري) الكلام معابثًا لحيته كعادته:
- ألا تجدون متعة ما في كل هذا؟..
تبادلنا النظرات لوهلة.. ثم تساءلت (هويدا) في أدب:
- عم تتحدث؟
تأمل طرف السيجارة المشتعل هنيهة.. وغمغم:
- متعة الرعب.. ألا تشعرون بها..؟
- هل تمزح..؟
قالتها وقد تقلص وجهها في إعلان صريح عن سماجته..، إلا أن د. (سامي) تدخل بطريقته الرقيقة المنطلقة مؤيدًا كلام ضيفه:
- إنه يعني ما قال يا آنسة (هويدا).. إن هناك لذة حقيقية في الرعب يعرفها الجميع، ولهذا يدفع الناس مالًا كي يدخلوا دور السينما ليرتجفوا في الظلام مع أفلام (دراكيولا) و(فرانكنشتاين)..، ولهذا يدخلون بيت الأشباح في مدينة الملاهي...
سألت (سهام) وهي تضع ساقًا فوق ساق:
- وما تفسير ذلك؟
- هناك تفسيرات عدة.. قيل أن الرعب الذي ترينه في السينما هو رعب (مروض).. وفي أعتى لحظات الفزع تقولين لنفسك أن كل هذا وهم.. كله خيال.. وأنك بعد انتهاء الفيلم ستعودين لدارك سالمة..، ولهذا تمارسين في استمتاع هذا التلذذ الماسوشي...
حركت شفتيها في تعثر محاولة نطق الكلمة:
- ما... ماسوشي؟..
- ماسوشي.. أي لذة التعذب.. لذة الشعور بالألم، وهي موجودة لدينا جميعًا بقدر متفاوت.. لكنها دائمًا هنالك.. والدليل هو نجاح أفلام الرعب...
اطفأت لفافة تبغي ونظرت نحو (شكري) متسائلًا:
- وهل كتابة قصص الرعب مجزية يا أستاذ (شكري)..؟

- يا له من سؤال!
- لست مأمور ضرائب.. فلا تخشن شيئًا..
أطفأ بدوره لفافة تبغه.. وأجاب في شيء من المراوغة:
- إنه سؤال لا تتوقع إجابة له.. فالقول أنها غير مجزية يعني أنني فاشل أو غير موهوب، وأنا لن أقول هذا عن نفسي أبدًا..
- إذن هي مجزية..؟
- لا تحاول انتزاع الكلمات من حلقي.. ثم إن (أدب الرعب) في (مصر) مجرد رضيع يحبو وليس له أية جذور عتيقة في تراثنا اللهم إلا قصص (النداهة) و(الغولة) و(المزييرة).. لهذا أتحرك وحدي في الظلام..
- وما جدوى أن يحاول الكاتب إفزاع قرائه؟
- لأنهم يحبون ذلك!
قالها في عصبية وقد بدأ يشعر أنني أحاول استفزازه عمدًا (ولم يكن مخطئًا في الواقع)..، وهنا تدخل د. (محمد شاهين) بصوته الواهن:
- ثم أن هناك كتابًا عالميين مثل (إدجار آلان بو) و(برام ستوكر) و(ماري شيللي) كتبوا قصصًا مفزعة ولم يتهمهم أحد بأنهم ليسوا أدباء..
قال د. (سامي) في سرور:
- هذا يؤكد ما قلناه آنفًا.. إن الناس تحب أن تخاف..، ولكن ليكن ذلك خوفًا مقننًا محدودًا..، والآن تأملوا جلستنا هذه.. نحن جالسون في الدفء والأمان في حين تعربد العواصف والأنواء في الخارج..، أليس هذا مثيرًا..؟ أليس هذا فاتنًا؟.. كل هذا الرعب بالخارج لكننا هنا في مأمن ولن يضيرنا شيء..، عندئذ نشعر باللذة ونتجه نحو زجاج النافذة - كما فعل د. (رفعت) منذ دقائق - كي نرمق الدروب المظلمة ونتخيل ما إذا كان سيحدث لو لم نكن هنا؟!..
قال (عادل) وهو يصب مزيدًا من الشاي لنفسه:
- تأكيدًا على كلامك.. كنا نطلب من جدتنا أن تحكى لنا قصص الجان ثم نتوسل إليها أن تتوقف.. وبعد ثوان نعود لنرجوها دامعين أن تواصل السرد!
وابتسم ابتسامة غامضة وقال:
- وكما قلت أنت: (الرعب المروض).. أحب أن (أتخيل) ما سيحدث لو صادفني مصاص دماء على سلم داري.. لكني لا أحب أبدًا أن يحدث ذلك!!
- هذا هو بيت القصيد..
ساد الصمت لبرهة.. ثم قالت (هويدا) في مرح:
- من الغريب أن يكون هنا حشد ممن لهم باع لا بأس به في عالم الرعب..
وأشارت نحوي إشارة ذات معنى:
- (رفعت اسماعيل) خطيبي العزيز الذي تطارده المصائب حيثما ذهب..
وأشارت نحو (شكري).. وابتسمت مستطردة:
- وكاتب قصص رعب.. ربما الوحيد في بلادنا.. و..
والتفتت في اتجاه د. (سامي).. وهمست:
-.. وأستاذ في علم النفس يفهم بواعث الرعب وجذوره..

أضفت أنا مشيرًا إلى د. (محمد شاهين):
-.. وأستاذ في (الأنثروبولوجي) يعرف أبعاد الخوف في الحضارة الإنسانية..
قال (عادل) ناقرًا على صدره:
- وأنا؟.. لست بائع فجل أبدًا وإن لدى - كرجل أمن - ما يقال في هذا الصدد..
قالت (سهام) وهي تربت على ركبته:
- حقًا قلت.. أما أنا فإن لي باعًا لا بأس به في الخوف من الفئران وبالتالي فإنني لن أظل صامتة...
نهضت (هويدا) في مرح كطفلة تلهو.. وصاحت ضامة كفيها:
- فليقل كل منا ما يثير فزعه أكثر من غيره!!
يا لها من فكرة!.. إن هذه الفتاة مخبولة تمامًا..!.. هذا الظلام وذاك الطقس اللعين ثم تقترح هذه اللعبة؟..، لماذا تخليت عنك يا (ماجي)؟.. ما كنت مقترحة شيئًا كهذا قط حتي لو طلبت أنا..
قلت في برود حقيقي:
- يا صغيرتي.. لقد سئمنا جميعًا ألعاب حفلات الكلية هذه!
شد (عادل) معصمي في قسوة.. وغضب:
- (رفعت)!.. إنك تفسد كل شيء وتحيله إلى جهد ثقيل ممل.. ألم أقل لك أن تتحمس ولو مرة واحدة في حياتي؟!
- بلى.. سأتحمس.
وجلست في تعاسة لآخذ دوري في هذه المهزلة..
وبدأت الأصوات تتوالى:
- أخاف الفقر..
- أخاف المرض..
- أخاف الفئران..
- أخاف اللصوص..
- أخاف...
- لحظة يا سادة..
قالها (شكري) رافعًا كفه وقد بدا عليه الملال.. ثم أستطرد:
- كلنا نخاف هذه الأشياء.. وكلنا نعرف أن الآخرين يخافونها، المعضلة الحقيقية هي الفزع غير المبرر.. الفزع الذي لا ندري منطقًا له لكنه يكبلنا بقيوده..
(الفوبيا).. هذه هي الكلمة المناسبة..
قالها د. (سامي) وقد وجد من واجبه أن يعلمنا مصطلحًا جديدًا:
- نعم.. نعم.. (الفوبيا).. هناك مخاوف عديدة في حياة كل منا لا يدري لها مصدرًا ولا تفسيرًا لكنها قائمة..
- يقال أن مصدرها خبرات دفينة في العقل الباطن منذ الطفولة لا نذكرها لكنها تصحو عند اللزوم.. مثلًا.. لماذا نخاف الظلام؟..
هل هي تلك الخبرة القاسية الأولى حين وجدنا أنفسنا وحيدين عاجزين في الظلام بينما أمنا غافية؟!..

بتؤدة قال د. (محمد شاهين) وهو يفرك يديه:

- إذا سمحت لي.. هناك أيضًا نظرية (الوجدان الجمعي).. فحين كان ظلام الليل ينسدل على الإنسان البدائي كان هذا يعني هجوم الدببة والوحوش، وبمرور الزمن لم يعد الخطر قائمًا لكن الخوف ظل حيًا في فصوص عقلنا..، ونفس الشيء ينطبق على خوف المرتفعات (أكروفوبيا) والأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا)..

قلت وأنا أشعل سيجارة أخرى أمام نظرات (هويدا) المتوعدة:

- قرأت أن كابوس السقوط الشهير حين يحلم الواحد منا أنه يسقط في هاوية بلا قرار ثم يصحو فجأة غارقًا في العرق.. هذا الكابوس هو إحياء لذكرى نوم الإنسان البدائي فوق غصون الأشجار حين تتخلى قبضته عن الغصن أثناء نومه.. فيهوي..



قرأت أن كابوس السقوط الشهير حين يحلم الواحد منا أنه يسقط
فى هاوية بلا قرار ثم يصحو فجأة غارقًا فى العرق ..

ابتسم د. (سامي) في غموض وقال:
- تلاحظ أن كابوس (السقوط) ينتهي دائمًا قبل أن تلمس الأرض..
- صحيح.. ولكن ما معنى هذا؟
- إنه إنذار.. مجرد إنذار وليس فيلمًا سينمائيًا له نهاية..
البريق الفضي.. ثم.. بروووووم!!..
وثبت (هويدا) في صدر شقيقتها ترتجف.. في حين وقف (عادل) متصلبًا وبدت مخايل التوتر على وجوه الرجال..، لماذا يصر هؤلاء الحمقى على كهربة الجو بهذه الأحاديث المسمومة؟.. لماذا لا يتحدثون عن شيء مبهج كالفيضانات والزلازل والمجاعات؟!..
- إن الحديث عن الخوف.. مخيف!
قالتها زوجة د. (سامي) وهي تجمع الأقداح، فنهضت المرأتان تساعدانها على حين د. (سامي) يغمغم وهو يعود لمقعده:
- لكنه يعيننا على فهم أنفسنا أكثر..
قال (شكري) مصرًا على لعبته السخيفة:
- والآن.. ليقل كل منكم ما يخشاه أكثر من غيره..
قلت وأنا أطفئ السيجارة:
- لو سمحتم لي بالبدء.. أعتقد أن (ألفريد هتشكوك) قد تحدث عن ثلاثة كوابيس رئيسية في تحفه الثلاث: (نفوس معقدة) وناقش فيها الخوف من الأماكن الغريبة.. (جنون) وناقش فيها الخوف من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم.. (دوار) وناقش فيها خوف المرتفعات..
هز رأسه في فتور بمعنى أن ما أقوله سخيف وغير مفيد.. ثم نظر نحو (سهام) و(هويدا) وزوجة الدكتور.. وسألهن:
- السيدات أولًا.. ماذا يفزع مدام (سهام) غير الفئران؟
نظرت للسقف وهي تمسك الصينية.. وتساءلت:
- فزعًا غير مبرر؟!
- بالتأكيد...
قالت في شرود بعد ثوان من التفكير:
- إنني أخاف المرآة.. أخاف من صورتي فيها وما قد تفعله حين أدير ظهري لها...!
تبادلنا النظرات.. ثم قال (شكري) في رضا:
- لا بأس.. إن المرايا تلعب دورًا لا بأس به في التراث الإنساني.. والخوف والتطير منها معروفان من قدم...
قالت (هويدا) وهي ترتجف كعادتها:
- أما أنا فأخاف الصور المحملقة التي تتابعني عيناها حينما ذهبت..
- هي خدعة بصرية قديمة.. وكل صورة يمكنها أن تتابعك إذا تعمد الرسام وضع المقلة في مركز العين، وكل رسام إعلانات يعرف كيف يعطى هذا التأثير.. وأنت يا مدام (ثريا)..؟
ابتسمت زوجة د. (سامي) وهزت كتفها.. وفكرت قليلًا:

- دعني أفكر.. ما الذي يثير رعبي؟.. نعم.. أنا أخاف كثيرًا مما يحدث على شاشة التلفزيون بعد انتهاء الإرسال حين ننام جميعًا..!

- خوف غير مألوف.. لكنه يعكس الرعب الكامن فينا جميعًا من المجهول..

ثم إنه نظر إلى د. (محمد شاهين) متسائلًا.. فهز هذا الأخير رأسه في تواضع بمعنى أنه لم يستعد للإجابة بعد... ثم غمغم:

- لا أدري حقًا.. لكنني أخاف خوف الحيوانات!

- تعني تخاف الحيوانات؟

- كلا.. أخاف خوفها.. حين يتوتر قطي الأليف أو يبدأ كلب في النباح دون سبب يكاد قلبي يقف هلعًا..

قلت وقد أثارت هذه النقطة ذكرياتي:

- إن ثقة الإنسان في غريزة الحيوان تجعله متأكدًا أن الحيوان يشعر بما لا نراه نحن، وهذا الخوف أثبت نجاحه كمقياس في الزلازل والفيضانات وحرائق الغابات، ولن أنسى ما أنسى توتر الجمل حين خرج حارس الكهف الرهيب يبحث عني.. ولا فرار الكلاب من طريق (هويدا) ليلة أن طاردها حارس المومياء..

وأنت يا د. (سامي)..؟

قال د. (سامي) في كياسة:

- الكابوس الخاص بي هو: أننا نسافر كثيرًا تاركين الفيللا خالية.. لو أن كاميرا تصوير التقطت ما يحدث فيها في تلك الآونة.. فماذا سنرى على الفيلم عند عودتنا؟!!

وابتلع ريقه في رعب.. وأضاف:

- وأخاف الأضواء الخافتة وأفضل عليها الظلام الدامس..!

قلت أنا وقد تذكرت كوخ (ميدوسا):

- أوافقك تمامًا..

ثم سألت (شكري) عما يثير هلعه.. فقال على الفور:

- الكابوس الشهير.. أن تستعين بشخص على خطر يتهددك فيتضح لك أنه جزء من الخطر..، كلنا نعرف قصصًا كهذه.. الحمال الذي يسير في غابة يعيش بها رجال لا وجوه لهم.. يجد رجلًا يدير له ظهره فيهرع مستنجدًا به كي يحميه في أثناء اجتياز الغابة، عندئذ يلتفت له الرجل في بطء فيكتشف الحمال أن الرجل بلا وجه..!..

صاحت النسوة الثلاث أن يا للرعب.. وطلبن من (شكري) أن يكف عن هذه القصص الشنيعة.. فضحك في تلذذ مرددًا:

- إنها (تيمة) قديمة جدًا في الأساطير الشعبية وقصص الرعب..

قلت وقد بدأ الموضوع يروق لي:

- ثمة (تيمة) أخرى تثير هلعي دائمًا.. فكرة (لم أكن أعلم وقتها كذا....) وهي تتكرر في كل شيء.. موثق العقود (هاركر) يبيت ليلته في قصر (دراكيولا) غير عالم بما يعنيه الإسم.. لكن القارئ يعلم!، كلنا نعرف أن جدة (ذات الرداء الأحمر) هي ذئب متنكر لكنها لا تعرف...، هي (تيمة) أدبية لكنها تثير رعبي دائمًا...

تنهدت (سهام) في إنهاك.. ودمدمت:

- تبًا لها من أمسية!!.. من الذي بدأ كل هذا؟
- (هويدا) أختك.. حين تحدثت عن البرد والظلام والأمطار..
- وأنت سعيد بكل هذا؟
- ولم لا..؟!
- لأن...
وتوتر وجهها واتسعت عيناها ونظرت لخارج الحجرة.. ثم همست:
- صه!.. أكاد أقسم أن هناك من يتحرك في الردهة..!.. بل أنا واثقة من ذلك..
قف شعر رؤوسنا جميعًا وتصلبت أطرافنا على المقاعد.. لحظات ثم دوت ضحكة (سهام) القاسية..
- كنت أداعبكم ايها السادة!.. أداعبكم... من الواضح تمامًا انكم مستمتعون بهذه الأحاديث.. لأنكم شجعان.. شجعان حقًا..!
قال (عادل) في حنق:
- (سهام).. لقد توترت أعصابنا بما يكفي فلا تزيدي الأمر سوءًا...
نهض (شكري) في عصبية.. وهتف:
- لقد أوجدنا الرعب.. لم يكن له وجود لكننا خلقناه وصنعنا له كيانًا ماديًا ملموسًا..، لقد صار هو الضيف التاسع في هذا البيت.. بل إنه صار أكثر الحاضرين تأثيرًا وفعالية..، ألا تدركون روعة هذا..؟
تعالت سبعة أصوات حانقة أن نعم..
هز رأسه في ضيق.. ونظر لساعته.. كانت تقترب من منتصف الليل والعاصفة مستمرة..، رفع رأسه متسائلًا:
- هل ننصرف الآن محاولين العودة لبيوتنا بأية طريقة؟
قال د. (سامي) في أريحية لا أثر للافتعال فيها:
- مستحيل.. ستبقون هنا، وستنام السيدتان مع زوجتي.. أما الرجال فينامون هنا معي.. لا مشكلة هنالك..
- لا أحد يرغب في النوم..
ثم لوح (شكري) بيده في الهواء وهتف:
- لنواصل لعبتنا الرهيبة.. فليحك كل منا قصة مرت به.. قصة تتعلق بالفزع الغامض الذي تحدثنا عنه الآن..
- (ديكاميرون)!
قلتها في سخرية، وبالطبع لم يفهم أحد عما أتحدث سواه ود. (سامي) من ثم قال الأول مؤمنًا على كلامي:
- هو كذلك.. مثل الـ (ديكاميرون)2.. لقد تخيل الإيطالي (بوكاتشيو) أن الطاعون اجتاح بلدًا، وأن رجالًا ونساء اختبئوا عشرة أيام حتى يرحل الوباء.. وشرع كل منهم يحكي قصة لتزجية ساعات الفراغ، على أن قصصهم كانت تدور - غالبًا - حول المجون والخيانات الزوجية.. أما (الديكاميرون) المصري فسيدور حول الخوف..
- يا لها من فكرة!..

- فلنبدأ.. وفي نهاية الأمسية سنختار أفضل قصة ونمنحها مكافأة..
وضاقت عيناه وعبث بلحيته وهو يعود لمقعده مستطردًا:
-.. مكافأة خاصة جدًا..
-.. وما هي؟..
نظر لي في شرود...
ثم ابتسم...

* * *

القصة الأولى



تحكيها: (سهام)

- ١ -

قالت (سهام) وهي تخفض صوت المذياع:
- إن الغرام القديم بين الأنثى والمرآة معروف منذ الأزل..، ولئن كانت النساء يعرفن جيدًا كيف يرين الشيء دون أن ينظرن إليه، فإن الشيء الوحيد الذي تنظر له المرأة بإمعان لهو المرأة...

* * *

أنتم تعرفون - وأقولها بكل شجاعة - إنني و(عادل) زوجي محدودا الدخل، لكن المرأة الذكية لا تكف لحظة عن البحث عن متنفس لتجميل شقتها..، وقد وفقت إلى العثور على قطع أثاث في منتهى الأناقة بقروش معدودة.. عندئذ كانت بعض لمسات التجديد كفيلة بتحويلها إلى تحفة حقيقية..
وفي ذات يوم كنت أتسوق حين وجدت رجلًا يبيع بعض الأشياء التي تحمل طراز العظمة الغابرة..، مقاعد صالون مذهبة تكومت كيفما اتفق فوق عربة يد.. ومرآة مزخرفة الإطار ملقاه بإهمال ما بين المقاعد، لكن المدهش بالنسبة الى هو أن زجاجها كان سليمًا وصقيلًا وبحال ممتازة..
ولما سألت الرجل عن ثمنها وأنا أتحسس جنيهاتي الخمس التي أطبقت عليها كفًا ملوثة بالعرق، كان رده أنه يريد خمسة جنيهات!..
كان الإغراء قويًا.. وأنا لست حمقاء.. هذه المرأة تفوق هذا السعر بمراحل، ولم تستغرق الصفقة طويلًا.. أربع جنيهات ونصف ثمن المرأة وربع جنيه كي يحملها صبي يعمل معه إلى داري..
وعدت للدار حاملة كنزي الصغير متسائلة في قلق عن رد فعل (عادل) إذ يرى ما جلبته..، إن الرجال لا يفهمون هذه الأشياء أبدًا.. وسيكون من الصعب أن يفهم كيف اشتريت مرآة بالمبلغ الذي كنا سنأكل به طيلة الشهر3..
كنا لم ننجب بعد.. ؛ لهذا لم أخش شيئًا حين وضعت المرأة في صالة البيت وشرعت أتأملها..
كانت فاخرة بلا شك، وإطارها المذهب المليء بالزخارف يعكس عظمة غابرة لو تناسينا أكوام الغبار المحشورة بين هذه الزخارف.. وتساقط القشرة الذهبية في عدة مواضع، أما المرآة ذاتها فكانت سليمة تمامًا بلا خدوش ولا عيوب في الطلاء..
لابد أن هذه المرأة كانت تزين بها في قصر أمير أو أحد بكوات ما قبل الثورة، لكنني لم أفهم قط كيف وصلت ليد هذا البائع.. ولماذا باعها بهذا الثمن البخس..؟
أحضرت خرقة وزجاجة كحول وبعض الماء والصابون وصنعت مزيجًا لا بأس به لتنظيف الإطار المتسخ..، وبدأت أعبث هنا وهناك بأطراف أناملي.. خطوة بخطوة بدأ الماء يستحيل للون الأسود لكن حال المرأة لم يتبدل كثيرًا..
وهنا اصطدمت أناملي بشيء ما..

كان ثمة شيء محشور بدقة في أحد التجاويف على جدار المرآة الخارجي، وحاولت إخراجه لكني فشلت..، تناولت مفكًا وشرعت أعالج هذا الشيء حتى تمكنت من انتزاعه وبدأت أتفحصه..

كان ذلك الشيء وريقة صغيرة برمها أحدهم بشدة حول نفسها حتى غدت أقرب إلى المسمار، وهكذا استطاع أن يدسها في الثقب..

ببطء وحذر فتحت الوريقة لكنها كانت مهترئة تمامًا وتمزقت بين أناملي قبل أن أتمكن من فتح جزء صغير منها..، من ثم كورتها ورميت بها أرضًا وعدت أواصل عملي..

كنت أرى انعكاس وجهي في المرآة بزاوية عيني، وأعتقد أنه كان واقعًا في مجال ما يسميه الأطباء بـ (البقعة العمياء) التي ترى فيها الشيء لكنك لا تميزه.. فقط أشعر ببقعة وردية هي وجهي حولها هالة سوداء هي شعري..

ولكن...

لا أدري.. للحظة خيل لي أن انعكاس وجهي في المرآة يلتفت للناحية الأخرى!!.. أنا لست مخبولة.. هذا هو ما شعرت به... رفعت وجهي نحو المرآة سريعًا فلم أر سوي وجهي المرتعب يرمقني في حيرة..

أخرجت لساني فأخرج وجهي لسانه، قطبت فقطب وجهي، لوحت بيدي اليمني فلوح الانعكاس بيده اليسرى..

لا مشكلة هنالك..

هي مجرد مرآة بريئة أخرى...

لكن ما سر هذا الإحساس العصبي الذي ينتابني؟

* * *

حين جاء (عادل) بعد انتهاء عمله كان واضحًا جدًا ومباشرًا في رأيه الذي أبداه فيما يتعلق بهذه المرأة..، وبالطبع قال إنني مدللة وعابثة ولا أتحمل المسئولية وأنه - بالتأكيد - كان يتمنى لو كان متزوجًا من واحدة أخرى لا تبدد ميزانية البيت في شراء المرايا..

- لكنها مرآة جميلة..

- وكذلك حمامات السباحة.. كلها جميلة.. لكننا لا نملك حمام سباحة في الصالون!

وبعصبية فك ربطة عنقه ودلف إلى الحمام تاركًا إياي واقفة في الصالة لا أدري ما أفعل ولا ما أقول..، وهنا استدرت - عفوًا - تجاه المرآة فلمحت شيئًا عجيبًا..

كأن صورتي في المرأة كانت ترمق ظهري بحدة طيلة الوقت، وحين التفت لها نجحت - بالكاد - في استعادة مظهرها البريء..!، وعادت كما كانت مجرد انعكاس لي..

اقتربت منها وشرعت أتأملها..

بالطبع كان معنى هذا أنها تتأملني هي الأخرى..

كانت - ككل صور المرايا - تشبهني تمامًا لكني (ولا أدري إن كنت واهمة أم لا) تبينت نوعًا من القسوة في شفتيها الرفيعتين.. بل إن ابتسامة ساخرة تلاعبت على ثغرها!..، أسمعكم تضحكون.. تقولون إنني رأيت انعكاسًا لهواجسي وحالتي النفسية وأن من كان يضحك بقسوة هو

أنا وليس الانعكاس..، لكني أقسم لكم إنني لم أكن أهذي.. أنا واثقة أن هذه الصورة كانت تختلف عني اختلافًا طفيفًا..

في هذه اللحظة دوى صوت باب الحمام ينفتح.. وبرز (عادل) ممسكًا بمنشفة واتجه نحو غرفة النوم.. وسألني دون اكتراث:

- ماذا حدث يا (هانم)؟.. هل جننت؟..

كلا.. لن أصارحه بمخاوفي.. أولًا ؛ لأن الارتباط بين الجنون وكثرة النظر في المرايا قوي في أذهاننا، ثانيًا: لأنه سيعتبر أية ملاحظة أقولها على المرآة اعترافًا مني بأنني خدعت وأضعت ماله هباء..، وثالثًا: لأن الأمر كله أسخف من أن يحكي...

وهكذا مضى اليوم..

لكنني لم أنسى في كل لحظة أمر فيها أمام المرأة أن أفاجئها بنظرة صاعقة علني أفاجئ (الأخرى) وهي غير مستعدة لتقليدي...

لكن ظني خاب في كل مرة.. أخيرًا انتصف الليل.. نام (عادل) كلوح الخشب في حين كان النوم يجافيني..

كان الطقس حارًا ورطبًا.. وقطرات العرق اللزج تحتشد على جبيني وفوق شفتي العليا، وكان الظمأ يحرقني..

نهضت لاهثة إلى الصالة لأرشف جرعة ماء من الثلاجة الصغيرة..

وفي الضوء الخافت المنبعث من جوف الثلاجة اختلست نظرة إلى المرآة التي كنت قد نسيت كل شيء عنها..

إن هذا غريب..

هذا المشهد لا يمت بصلة لصالة داري...

اقتربت في حذر من المرآة.. وكما توقعت لم أر أي انعكاس لي فيها.. لقد رحلت (الأخرى)..

أما ما رأيت فكان صورة كلاسيكية غريبة وضبابية.. كأنها امرأة.. نعم.. هي كذلك.. امرأة جميلة جدًا تتزين وهي تنظر لي من الجانب الأخر للمرأة..، وكانت ترتدي ثيابًا غريبة واسعة الأكمام مليئة بالدانتيللا.. وكانت الخلفية مزدانة - هي الأخرى - بستائر يبدو أنها ثمينة..

لم تكن الصورة واضحة لأن إضاءتها كانت تعتمد على ضوء الثلاجة الخافت، ولابد أنني لبثت بعض الوقت ثابتة كالطود شاخصة البصر إلى هذه الصورة التي لا أدري عنها أي شيء..

ثم.. بدأت أرى انعكاس صورتي من جديد..

ترى ما معنى هذا.. وما هو أصلًا؟..

عدت إلى الفراش مشوشة الذهن حتى أنني نسيت أن أشرب..، وفي الظلام حاولت استرجاع المشهد مرارًا..

حتى غلبني النعاس...

* * *



أننى لبثت بعض الوقت ثابتة كالطود شاخصة البصر إلى هذه

الصورة التى لا أدرى عنها أى شىء ..

صارت الأيام التالية جحيمًا..

فلم تكن عيناي تبرحان المرآة قط.. وطيلة الوقت يعاودني ذلك الشعور المزعج أن هذه المرأة البادية ليست انعكاسًا لي، بل هي مخلوقة أخرى تعيش هناك وتمثل أنها انعكاسي.

كانت نظرتها الثابتة الساخرة تثير هلعي..

لكنني لم أجرؤ قط على أن أصارح (عادل) بهواجسي لأن الرجال يعتبرون النساء هستيريات حتى يثبت العكس..

بل إنني جرؤت ذات مرة أن ألمح له أن:

- تلك الصورة التي في المرآة تفزعني..

ابتسم في سخرية بركن فمه.. وقال:

- إن هذا ليس جديدًا...!

ترى ماذا كان يعني بهذا التعليق؟!..

بعد ستة أيام تكرر ما حدث في تلك الليلة، وكان ذلك في الصباح بعد أن انصرف (عادل).. مررت أمام المرآة شاردة الذهن فشعرت ذلك الشعور الغريب بأن هناك من يراقبني، نظرت للمرآة نظرة صاعقة فوجدت شيئًا يختلف..

في المرآة كان هناك رجل.. رجل يرتدي بذلة وردية ويضع على رأسه طربوشًا ويشذب شاربه الرفيع الجميل بمشط صغير.. كان ينظر لي في ثبات.. ثم بدأ يعدل وضع الطربوش منتقيًا الوضع الأمثل...، ثم أخرج سيجارة رفيعة من علبة تبغ معدنية أشعلها وشرع يبتسم بخبث راضيًا عن نفسه..!

بدأت الصورة تذوب.. بينما هلعي يتشكل ويصحو..

وحين عاد انعكاسي القديم إلى السطح الزجاجي مددت يدًا متشككة باردة كالثلج إلى المرأة.. وفي توجس أدرتها حول محورها الطولي..، إن هذه المرآة مسحورة..

أقسم على ذلك.. كأنها نافذة تطل على كون آخر لا أعرف عنه شيئًا.. ثقب في حائط يفصلنا عن عالم مجهول..

إن هذه الرؤى ليست انعكاسًا لحالتي النفسية، وليست وهمًا.. لا يمكن أن يكون هناك وهم بهذه الدقة.. الدانتيللا في ثياب المرأة وستائر غرفتها وثياب الرجل المتحذلقة.. لم أسمع عن وهم تملؤه الدانتيللا من قبل..!

والآن أمامي ثلاث خيارات..

إما أن أصارح (عادل) لعل عقلين هما أفضل من عقل واحد - كما يقولون - مع استعدادي التام لقبول الاتهام بالعته..

أو أن أتخلص من هذه المرآة بالبيع أو التحطيم أو (التسريب) لكنني لست - حتمًا - ممن يفقدون خمس جنيهات بهذه السهولة..

وإما أن أتجاهل الأمر برمته متظاهرة أن المرايا المسحورة ليست من الأشياء المرعبة..!

إن الخيار الأخير يناسبني لأسباب لا تخفى على أحد..

وكذا مرت أيام عدة والمرآة في موضعها..

إلى أن جاء ذلك اليوم...

* * *

قرع أحدهم جرس الباب فذهبت لأفتحه.. وكانت (هويدا) شقيقتي ومعها (هاني) خطيـ... أعني أحد الأصدقاء4..، وقد أشاعا جوًا محببًا من المرح في الدار.. وكان هناك الكثير من الثرثرة والضحك.. خاصة حين انفجرت زجاجة المياه الغازية في وجه (هاني) وأنا أفتحها..

ثم إن هذين الوديعين العزيزين فارقاني بعد أن أبديا إعجابهما الشديد بالمرآة، ذلك الإعجاب الذي اعتدته من كل ضيوفي وكنت أتقبله في رضا تام.. وأرجوهم أن يرددوه على مسمع من زوجي..

كان (هاني) شابًا وسيمًا هادئًا كالنهر لا يكف عن الابتسام.. وكان يتقبل كلماتي القاسية ومداعباتي اللاذعة في رقة ملائكية حتى أنني كنت أقول لـ (هويدا) إنها مخطو.. أ.. صديقة لجثة..!..

وكانت هي تضحك أولًا رغمًا عنها ثم تقرر أن تغضب.. وتدمع عيناها وتوصي مرارًا ألا أقول ذلك عنه..

ما علينا..

المهم أنهما انصرفا.. فنهضت أعيد للشقة رواءها وأنظف مطفأة السجائر وأعيد زجاجتي المياه الغازية للمطبخ و...

مرة أخرى تتكلم المرآة..

هذه المرة كان المشهد مألوفًا..

نفس منظر الصالة الذي تعكسه دائمًا..، لكن كان هناك شيء غير عادي..، فبدلًا من أن أرى نفسي حيث وقفت أمامها.. وجدت انعكاس (هاني) و(هويدا) واضحين تمامًا.. وكانا يضحكان.. وفي يدي كانت زجاجة المياه الغازية تبصق رغوتها...

ذات المشهد الذي حدث منذ عشر دقائق.

لقد فهمت ما يحدث هنا..

هذه المرآة تختزن الصور التي تحدث في مجالها لبعض الوقت ثم تعيد إخراجها في لحظات عشوائية غير متوقعة..

كأنها كاميرا تصوير تدون الصور على فيلم ثم تعيد عرض ذلك الفيلم في أوقات بعينها..

وهذه الأحداث قد تعود إلى الثلاثينات. كما تدلني ثياب المرأة والرجل - أو تعود إلى عشر دقائق مضت كما حدث الآن..

ولكن ما سر هذه المرآة الخبيثة التي تتظاهر إنها انعكاس صورتي؟...

لن أعرف أبدًا..

لكني - على كل حال - أملك أعجب شيء رأيته في حياتي..، ولكم من مشاهد عرفت ولكم من أسرار فهم هذه المرآة!.. كم من جيل مر أمامها وتجمل أمامها ثم ولى بعيدًا..

إن هذه المرآة خطيرة.. لكنها فاتنة.. فاتنة إلى حد لا يصدق..

* * *

إن المرآة تراقبني..!

لهذا أخذت واجب الحذر ولم أبد أمامها إلا في أحسن صورة.. فمن أدراني أن جيلًا قادمًا لن يجلس أمام زجاجها يطالع أسراري في شغف؟!..

يجب أن أكون صريحة.. لقد كان الفضول أقوى مني.. كنت أجلس الساعات أمامها منتظرة سرًا جديدًا من أسرار ملاكها السابقين وكلي نهم.. كأنها دائرة تلفزيونية مغلقة تتجسس على هؤلاء الناس..، إن هذا ليس أخلاقيًا تمامًا لكن التجسس على قوم عاشوا قبلي بعشرات الأعوام ولا أدري من هم ؛ هذا التجسس لم يبد مشينًا إلى هذا الحد..

رأيت مئات الصور لتلك الغرفة ذات الستائر التي عرفت أنها وردية..

شاهدت عشرات المرات تلك المرأة تثبت قرطًا أو تطلي شفتيها.. لمحت أكثر من مرة ذلك الرجل - والواضح أنه كان زوجها - يمشط شعيرات شاربه..

دعك طبعًا من المرات العديدة التي رأيت فيها نفسي أفعل شيئًا أو آخر.. أو أرمق المرآة في توجس..

والمرات العديدة التي رأيت فيها (عادل) يروح هنا وهناك مرتديًا منامته الشهيرة ذات الخطوط الزرقاء الطولية..

لقد كان كل هذا ممتعًا وأثار شغفي..، لم يكن جهاز (التلفزيون) منتشرًا وقتها وبالتأكيد لم يكن لدينا واحد..، ولقد جعلتني هذه المرآة أفهم ما هو (التلفزيون) قبل أن اراه..

* * *

إلا أن (عادل) بدأ يرتاب في أمري..

وسألني أكثر من مرة عما إذا كنت أحاول تعلم التنويم المغناطيسي الذاتي، ثم صارحني أنه يخشى على حالتي العقلية كثيرًا من حملقتي المستمرة في هذا السطح الصقيل..

إلا أنني كنت مبهورة تمامًا حتى كدت أجتاز عالم المرأة كما يحدث في القصص الخيالية داخلة إلى ذلك العالم المعكوس خلفها، حيث اليمين يسار والعكس.. وحيث يتقدم المرء للأمام متى سار إلى الخلف..!.. لم أفعل ذلك بل كدت..

وفي ذات مساء كنت جالسة وحدي أمامها حين رأيت مشهدًا عجيبًا..

رأيت (هويدا) و(وهاني) ورأيت نفسي..

وكانت الوجوه ممتقعة كالحة والحركات عصبية..، أنا واثقة تمامًا أن هذا المشهد لم يحدث أمام المرآة قط.. فضلا عن أنني لا أملك ثوبًا أزرق ياقته بيضاء، و(هويدا) لا تملك معطفًا أسود...

كان (هاني) يتحدث بشراسة غير عادية ويلوح بقبضته.. بينما (هويدا) تدفن رأسها بين كفيها وتبكي ثم ترفع رأسها محاولة إقناعه بشيء ما.. أما أنا فكنت ألعب دور المصلح ما بين الطرفين.. ثم...

بمنتهى القسوة رفع (هاني) كفه وصفعها، فهببت - كما هو متوقع - صارخة محاولة إيقافه مرددة أشياء لابد أنها من قبيل (هل وصلت الأمور إلى هذا الحد؟.. أتضرب أختي أمامي أيها السافل الوقح؟!!).. نعم.. لا بد أنني كنت أقول ذلك.. إلا أنه دفعني دفعًا بعيدًا عنه.. وصاح مرددًا شيئًا ما ثم انصرف تاركًا المرأتين الباكيتين..

وبدأت الصورة تذوب..
وهنا تقلصت أحشائي..
ما معنى هذا الذي رأيته؟
إن هذا المشهد لم يحدث قط.. فهل هذه المرأة تتنبأ؟.. إن كل شيء يؤكد ذلك.. لكن كيف؟..
وكيف يتبدل الملاك الرقيق (هاني) إلى شيطان يضرب النساء.. ومتى سيحدث ذلك؟..
أنا واثقة أن المستقبل لا يمكن التنبؤ به.. لكن ما هذا الذي رأيت؟
هل هو كابوس لا أكثر سببه توتري وخشيتي على مستقبل أختي؟ لن أدري أبدًا..
لكن فكرة لا بأس بها خطرت لي..
سأعلق تقويمًا على الجدار المقابل للمرآة لتنعكس صورته على زجاجها..
وهكذا - لو شاهدت مرة أخرى مشهدًا مستقبليًا - أمكنني أن أعرف تاريخه التقريبي بمجرد نظرة إلى التقويم المعلق خلف ذلك المشهد.. حتى ولو كان الرقم مقلوبًا لكنه مقروء..
أحضرت مسمارًا ومطرقة وصعدت على مقعد لأعلق التقويم..، وهنا تذكرت شيئًا مرعبًا..
لقد كان شيء يشبه التقويم معلقًا بالفعل على الحائط فوق رأس (هويدا) في المشهد الذي رأيته منذ دقائق.. لكني لم أعبأ به كثيرًا..!
أما الأغرب فحدث عندما عاد (عادل) من عمله..
لقد نال الترقية - أخيرًا - إلى رتبة (نقيب).. وكان سعيدًا كالمهر الصغير.
وقد اشترى لي هدية لأني - كما قال - زوجته الصابرة الباسلة..
- لم أكن أعرف مقاييسك لكن البائعة كانت تماثلك حجمًا وطولًا.. لهذا طلبت منها أن تنتقى ثوبًا يناسبها هي..
نظرت له في جزع.. وبشفتين مرتجفتين سألته:
- (عادل).. هل هو ثوب أزرق ذو ياقة بيضاء؟..
تبدلت نظرته الودود إلى دهشة لا حد لها.. وسألني:
-.. وكيف عرفت؟!

* * *

- ٢ -

عند هذا الجزء من القصة كان (شكري) قد وصل لقمة الاستثارة وشرع يشعل سيجارة تلو الأخرى، في حين تصلبت (هويدا) في مقعدها وقد بدا واضحًا أنها تسمع القصة للمرة الأولى برغم الدور الذي لعبته فيها، ولم يفتني أن ألاحظ - في خبث - النظرة الجانبية التي اختلستها مدام (ثريا) للمرآة الكبيرة المعلقة في القاعة..

قال (شكري) وهو يعابث لحيته وقد اتسعت عيناه:

- إن هذه القصة تلعب على وترين.. الخوف الكامن في الإنسان من المرايا.. ثم الخوف من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم...

قالت (سهام) في ضجر:

- لم أفلسف الأمر مثلك وقتها.. كنت متوجسة فحسب..

قال (شكري) وقد بدأ (يتألق) حقًا:

- لكنك لمست معنى الرعب الحق..

- أستاذ (شكري)..

قلتها في كياسة.. فنظر لي متسائلًا.. استطردت:

- كلنا نعرف أنك إنسان ذكي ورائع.. فهلا تركتها تكمل القصة؟!

نظر لي هنيهة باحثا عن رد يخرسني.. ثم آثر السلامة وأشار لها في استسلام كي تكمل كلامها..

* * *

قالت (سهام):

صار الأمر شبه مؤكد بالنسبة لي خاصة حين علمت أن (هويدا) ابتاعت معطفًا أسود بعد يومين من هذا الحادث.. أي أن الأمر صار ممهدًا تمامًا للمشاجرة التي سيكشف فيها (هاني) عن أنياب شراسته..

هل أنذرها؟.. لا أدري.. أنا متأكدة من استحالة التنبؤ.. لكن كيف تحتشد كل هذه المصادفات؟.. إن رأسي يكاد ينفجر حقًا..

وساعات أطول أقضيها أمام تلك المرآة اللعينة..

ذات مرة شاهدت تلك المرأة جالسة أمام المرآة.. وكانت تتزين كعادتها على الجانب الآخر من الجدار الزجاجي، ثم رأيت الرجل يدخل ويقف خلفها وتدور بينهما محادثة شبه غاضبة، لم تدر رأسها نحوه لكنى فهمت أنها تحدث انعكاسه في المرآة متعمدة تجاهله.. كان الرجل يلوح بخطاب معين ويزمجر.. وبدت هي مشدوهة لكنها تحاول التظاهر أنها أقوى..

ثم.. تصلبت عيناها.. ورأيت الرجل يمد يده في جيب بدلته ويخرج مسدسًا صغيرًا جميل الشكل ويصوبه نحو رأسها... و...

ذابت الصورة وعدت أرى انعكاس وجهي.. كان وجهي - في المرآة - يضحك بخبث.. ثم.. غمزة ماكرة بالعين اليسرى جعلتني أقفز مترًا إلى الوراء..!.. لم أكن أنا صاحبة الغمزة.. وإلا فأنا على حافة الجنون ولا أدرى شيئًا عن نفسي..

ما معنى هذا الذي رأيت؟...

لا جدال هنالك..

لقد رأيت شروعًا في جريمة قتل حدث في مكان ما من أربعينات هذا القرن..

ولا يمكن أن تكون هذه الصورة وليدة عقلي الباطن...

ولكن من قتل من؟..

* * *

بعد أيام فوجئت بمشهد أكثر غرابة..

ذرات رمل وأحجار تملأ المشهد وتحيله ظلامًا تامًا.. لا شيء على الإطلاق يمكن تبينه أو استيضاحه.. فما معنى هذا؟..

ثم عادت الصورة تعكس وجهي كالعادة..

وهنا دق جرس الباب..

لم يكن (عادل) في الدار بسبب استغراقه في إحدى المأموريات.. لذا ذهبت وفتحت الباب وكان القادمان هما (هويدا) و(هاني)..، (هاني) الوديع الرقيق الذي يتدفق حياء وبرغم هذا لم أستطع أن أستريح له.. لقد سممت هذه المرأة نظرتي له إلى الأبد، لقد تحدث الأستاذ (شكري) ود. (رفعت) عن الأشخاص الودودين أكثر من اللازم..، وهذا الخوف موجود في قصص كثيرة.. إن الساحرة تدعو (هانز) و(جريتل) إلى تناول الفطائر لأنها تريد التهامهما.. ساحر (علاء الدين) يتظاهر بأنه أصدق أصدقاء أبيه..

علمونا هذا ونحن بعد أطفال، لهذا كنت على استعداد تام لأن أمقت هذا الفتى..

الشيء الأسوأ هنا هو أن (هويدا) كانت ترتدي معطفها الاسود!!..

جلست (هويدا) تشكو لي مضايقات البحث عن شقة.. وبدأت تلوم (هاني) على تراخيه..، من ثم بدأ يحتد ويدافع عن نفسه بعصبية..

إلى هنا - قلت لنفسي - ليس الموقف موقف صفعات.. ولن يزيد عن مشاجرة عادية.. لن يزيد عن ذلك أبدًا..

وهنا قالت (هويدا) في حنق:

- دعينا من هذا البائس.. وحدثينا عن نفسك..

- أنا بائس؟!

كان الغضب يلتمع في عينيه.. يا لك من معتوهة يا (هويدا)..، إنها لا تعيره اهتمامًا.. بل وتقول لي محاولة تغيير الموضوع:

- أريد أن أرى الثوب الجديد الذي ابتاعه لك (عادل).

- الـ... الثوب الأزرق..؟!

- نعم.. نعم.. ذو الياقة البيضاء.. ارتديه ودعيني أراه عليك!!

- مستحيل!!

كنت أدافع عن سعادة أختي وسعادتي.. لن يجرؤ مخلوق على إرغامي على ارتداء هذا الثوب..، ولولا أنه هدية من (عادل) لحرقته..، إنها تلح - الحمقاء - لأنها لا تعلم شيئًا.. ولا تعلم أن (هاني) سيصفعها أمامي بعد دقائق..

وهنا لاحظت أن صورة المرآة تتبدل.. لقد صرت مدربة تمامًا على معرفة هذه اللحظات.. لم يلاحظا قط أنني أنظر إلى المرآة لأنني لم أكف عن الكلام وأنا أرمقها بطرف عيني:

-.. إنه مغسول.. ثم إنه...

رأيت صورة (عادل) يصيح في عصبية.. وأنا أردد شيئًا ما في هلع وأحاول منعه..، ثم.. التقويم يشير إلى أن هذا سيحدث بعد أسبوع..

-.. ضيق جدًا ولا يناسبني.. و...

(عادل) - في المرآة - يمد يده لجيبه ويخرج مسدسه ويصوبه نحوي..

-.. ولونه ليس...

وفقدت سيطرتي على أعصابي...

انفجرت أبكي في حرقة.. حتى (عادل) أيضًا لن أثق فيه بعد اليوم.. وقد قالت المرآة أنه سيحاول قتلي..، (هويدا) و(هاني) يتساءلان في جزع عما دهاني ويطيبان خاطري، أن المرأة التي تبكي حين تتحدث عن ثوب جديد هي - دون شك - مصابة بالعته..

حين انصرفا في النهاية كنت منهارة تمامًا.. وآليت أن أخبر (عادل) بكل شيء..

* * *

ما أرقك يا (عادل)!!

ربما تتقلب بنا الأيام وتولد خلافات لم نتوقعها..

لكني سأظل مدينة لك أبدًا بالبساطة والتلقائية وقابلية التصديق التي أبديتها نحو كلماتي، لم يتهمك أحد قط بأنك مرهف الحس ولا أنك متفهم...

لكنك - من أجلي فقط - ارتكبت هذه الخطيئة: إظهار الحنان...

نهض (عادل) إلى المرآة وتفحصها في شك، ثم أشعل سيجارة وقال:

- أنت حمقاء يا (سهام).. إذ أنني بالتأكيد أتوق إلى خنقك لكني لن أطلق عليك الرصاص لأي سبب..!

ثم قلب إطار المرآة وتأمله:

- في البدء يجب أن نعرف ما إذا كانت هذه الرؤيا خاصة بك أم أنني قادر أيضًا على رؤيتها..، ثم نحاول معرفة مصدر هذه المرآة..

قلت في حذر محاولة ألا أبدو حمقاء:

- (عادل).. لماذا لم تتهمني بالخرف.. وبأن بقائي وحيدة في الدار قد أنهك أعصابي..؟..

- لأن هذا غير صحيح..!

وهكذا.. مضت الساعات و(عادل) جالس في مقعده يتأمل المرأة حتى أنني بدأت أفهم شكه في حالتي العقلية حين كنت مكانه..

ساعة تلو الساعة يجلس في مقعده يدخن ويصغي للراديو..
ولا بد أنها كانت الواحدة صباحًا حين سمعت صوته الملهوف يناديني، فهرعت حافية القدمين لأرى ما هنالك.. إلا انني وجدت انعكاسًا بريئًا لوجهينا على الزجاج، وقال (عادل) في ارتباك.. وهو يخشى ألا أصدقه:
- لقد حدث... رأيت.. رأيت..
- نعم.. ماذا رأيت؟
- رأيت فتاة شابة تنظر لي في ذهول وقد بدا أن الخوف يقتلها..
- وكيف كان طراز ثيابها؟..
هرش رأسه في حيرة:
- لا أدري.. مثل أفلام الخمسينات.. تقريبًا..
- إذن هي مالكة المرآة بعد الرجل والمرأة..
نظر لي (عادل) بعينين زائغتين.. ثم قرر أن يواصل المشاهدة وأمرني أن أنام لأن سهرته ستمتد طويلًا..

* * *

حين صحوت في الصباح وجدته ما زال جالسًا..
كانت مطفأة السجائر طافحة بالأعقاب، وفي عينيه لمحت نظرة غريبة..
نظرة شك لم أرها من قبل..
- (عادل).. هل ثمة شيء جديد؟
نظر لي في شرود.. ثم هز رأسه أن لا..، ونهض إلى غرفته ليرتدي ثيابه استعدادًا للذهاب للعمل طالبًا مني أن أعد له فنجان قهوة..
- ولن تتناول إفطارًا؟..
- لا...!
قالها في عصبية لا مبرر لها..، وانصرف تاركًا إياي غارقة في أفكار سوداء عن سر تبدل أطواره..، إن الأمر يتعلق - بالتأكيد - بشيء رآه في المرآة في تلك الليلة.. فما هو؟
أستطيع أن أجبره على الكلام فيما بعد.. أما الآن فإن الدار متسخة كحظيرة جياد.. وعلي أن أنظف كل هذا..
وهنا - أعترف - أقول أن تنظيف ما تحت السجاجيد ليس هواية محببة لدى، ولربما فعلت ذلك كل شهرين مع الماء.. لكن الوقت قد حان لذلك اليوم..
بدأت بقلب جوانب السجادة كاشفة عما تحتها حين وجدت الوريقة.. الوريقة القديمة التي دسها أحدهم في إطار المرآة وعجزت أنا عن فتحها.. ترى ما الموجود فيها؟.. إن الأمر لم يثر اهتمامي يوم ابتعت المرآة، أما اليوم فالفضول يقتلني..، أحضرت قطعتين من القطن وشرعت أحاول برفق فتح الورقة التي اهترأت تمامًا من محاولتي الخرقاء الأولى..، ها هو ذا شيء ما يتبدى لعيني.. كتابة بحروف لاتينية.. بلغة لا أعرفها (أنا لا أجيد سوي بعض الإنجليزية وأعرف الفرنسية من منظرها فقط).. لهذا فردت الورقة ودسستها تحت زجاج (البوفيه) حتى يحضر (عادل)...

وهنا دوي صوت الباب ينفتح..
دخل (عادل) في عصبية..، وهز راسه محييًا.. وتساءل:
- وحدك؟.. حسن.. إن معي بعض الزملاء.. أعدي لنا ثلاثة أكواب من الشاي.. شاي ثقيل..
دخلت المطبخ لأشعل الموقد وأضع البراد حين سمعت صوت قرعات متتالية آتيًا من الصالة، تسللت برأسي لأرى ما هنالك، فوجدت رجلا ضخم الجثة - واضح أنه مخبر - يهوي فوق المرآة بمطرقة كبيرة محاولًا تهشيمها.. إن أية مرآة تحترم نفسها تتهشم بعد ضربة واحدة أما هذه اللعينة فتحملت عشرات منها دون جدوى..



فوجدت رجلاً ضخم الجثة ــ واضح أنه مخبر ــ يهوى فوق المرآة
بمطرقة كبيرة محاولاً تهشيمها ..

تبادل (عادل) نظرة ذات مغزى مع رجل أشيب الشعر يقف بجواره.. ثم أخرج مسدسه وركب شيئًا طويلًا على فوهته (فهمت أن هذا كاتم صوت كي لا يفزع الجيران) وصوبه نحو المرآة.. دوت عدة طلقات مكتومة لكن شيئًا لم يحدث..!.. ارتدت الطلقات متدحرجة على الأرض..

- ما رأيك يا د. (سامي)؟..

سأل الرجل الأشيب.. فهز هذا رأسه في حيرة..، ثم قال بصوت رزين:

- أقترح دفنها في هوة سحيقة بالجبل..

وهنا صاح المخبر في هلع مشيرًا إلى المرآة:

- إنها تضحك.. تضحك!

المرآة تشير لنا وتضحك في سخرية!.. إن فشلنا في تدميرها قد راق لها إلى أقصى حد..، حتى أنها لم تعد تخفي ذلك..

شرع المخبر يحوقل ويبسمل.. في حين ظل (عادل) يرمق المرآة في صرامة.. كانت لحيته نامية وإرهاق ليلة أمس مرتسمًا على تجاعيد وجهه.. إلا أنه كان قد وصل لقراره..

- (بيومي).. أحمل هذه المرآة وضعها في (البوكس)..

وهنا أصدرت وسوسة بشفتي منادية (عادل)، فهرع ليرى ما بي وقد بدا عليه شيء من الضيق لخروجي من المطبخ، قلت له هامسة:

- من هؤلاء؟

- مخبر عندي وأستاذ أمراض نفسية من أصدقائي القدامى..

- وهل عرفت شيئًا عن المرآة؟

- وجدنا بائعك.. وعرفنا منه أنه ابتاع المرآة من مخلفات بيت مهندس ريّ.. وكان هذا قد ابتاعها من مزاد صودرت فيه أملاك أحد أعيان ما قبل الثورة.. والملاحظ هنا أنه...

- ماذا؟

- كل من امتلكوا هذه المرآة قتلوا أو انتحروا.. كلهم.. لقد جلبت هذه المرآة الخراب لبيوت عدة..

- وهل رأيت شيئًا أمس؟

احمر وجهه وهمس في ضيق:

- أشياء مشينة.. بخصوصك..، إن هذه المرآة اللعينة كانت تبذر الشك في نفسي تجاهك طيلة الليل..!

- ولهذا جئت على غير موعد وسالت إن كنت وحدي؟!

نظر لي في حيرة.. ولم يرد.. ثم أنه أدار ظهره ليلحق بالرجلين لولا أن ناديته مرة أخرى:

- (عادل).. الورقة تحت زجاج (البوفيه) كانت في المرآة.. لا أدري بأية لغة كتبت..

اتجه على الفور ومد أظافره ليخرج الورقة..

ثم إنه نادى الرجل الأشيب وشرعا يتفحصانها..، هتف الرجل في ثقة وهو يتأمل الورقة:

- لاتينية.. لغة لاتينية.. أنا أقرؤها إلى حد ما.. فلنر ذلك.. الشيطان يسكن هـ.. هذه الـ.. هذه المرآة.. لا.. لا تصدقوا ما.. منه.. ترونه منه..

ثم رفع رأسه مرددًا العبارة كاملة:

- إن الشيطان يسكن هذه المرآة فلا تصدقوا ما يريه لكم..

نظر له (عادل) في حيرة.. وهمس..

- ومن تظنه كتبها؟

- لن نعرف أبدًا.. لكنه كان صادقًا.. هذه المرآة تعابث من يملكها وتريه أحداثًا من الماضي وأحداثًا كاذبة من المستقبل.. وبالتالي تختلط عليه الحقائق ويجن أو يؤذي أحباءه..، على أنها كانت صادقة في نبوءة واحدة..

- وما هي؟

- منظر الأحجار الذي ملأ صورتها.. كانت تعرف تمامًا أنها ستنهي حياتها دفينة في الجبل بين الصخور.. وهو عقاب تستحقه تمامًا..

- إذن فلنسرع بإنهاء هذه المأساة..

وسمعت جلبتهم إذ ينصرفون..

وسمعت انغلاق الباب..

فخرجت وحدي إلى الصالة أنظر إلى الركن الفارغ الذي احتلته المرآة لشهر كامل.. الركن الذي غدا بالتدريج أهم أركان الدار..

فشعرت بحنين لا يمكن تبريره..!

هل أنا حقًا عاطفية وحمقاء إلى هذا الحد؟..

* * *

القصة الثانية

لماذا ارتجف القط ؟

يحكيها: د. (محمد)

- ١ -

قالت (سهام) وهي ترشف (الكاكاو):
- ماذا تقولون عن هذه القصة؟..
قالت (هويدا) مبتسمة:
- إذا ما تناسينا أنني لا أعرفها بتاتًا، يمكن القول أنها غريبة.. لكنها غير مرعبة..
قلت وأنا أشعل سيجارة أخرى:
- بالعكس.. هي مرعبة لكنها غير غريبة.. إن (كوابيس المرآة) قديمة قدم المرأة نفسها، على أن إحساس الناس بالرعب يتفاوت بتفاوت سعة خيالهم..
ونظرت نحو د. (سامي) مبتسمًا:
- إذن أنت تعرف هذه القصة.. وظللت صامتًا كل الوقت.
- الرجل المهذب هو من يتحمل سماع النكتة لنهايتها قبل أن يعلن أنها قديمة..
- كلام لا بأس به.. والآن.. فليقل د. (محمد شاهين) قصته..
أجفل الرجل الطيب - وكان موشكًا على النوم - وصاح في ارتباك وهو يجلس معتدلًا:
- ماذا؟.. ولماذا أنا بعدها؟
- إنها الحروف الأبجدية.. (سهام) ثم (محمد)..
- آه.. إذا كان الأمر كذلك.. إن قصتي..
ثم تذكر شيئًا.. فنظر لي معاتبًا.. وهتف وقد (تبيّن) أنني أتلاعب به..
- أية حروف أبجدية؟.. لو كان هذا صحيحًا لبدأت مدام (ثريا) ثم تلاها د. (رفعت).. ثم...
كدت أموت غيظًا فقلت له ماضغًا (فيلتر) السيجارة:
-.. إذن.. الترتيب بحسب السن..!
تنهد في ارتياح وقال:
- ما دام الأمر كذلك لا مشكلة هنالك.. والآن اصغوا لي....

* * *

قال د. (محمد):
كما قلت لكم من قبل.. إن لغرائز الحيوان هيبة واحترامًا في نفوسنا نحن البشر الذين أوهنت الحضارة حواسنا..، إن الحيوان يرى أفضل منا ويشم أفضل منا ويسمع أفضل منا.. أما الأهم فهو أن الحيوان يملك حاسة الخطر.. الحاسة التي لا نملك منها سوى النزر اليسير أو لا نملكها على الإطلاق..

* * *

كنت طالبًا قرويًا بسيطًا أعيش في (القاهرة) المدينة الصاخبة القاسية التي لا ترحم..، كانت الحرب قد انتهت منذ أعوام واستسلمت (ألمانيا).. وكانت هناك حركات ثورية تغلي واضطرابات وآمال كبار..، لكني كنت بعيدًا عن كل هذا في قوقعتي الخاصة..

كان رفاقي في الجامعة يثرثرون ويرافقون الفتيات ويمرحون ويتأنقون..

لكني كنت منزويًا في حيائي الريفي الطبيعي.. والأمل الخافت الذي لا ينفك يراودني: ستفخرون يومًا أنكم عرفتموني..!

أي ضير في أن تسخر الفتيات من حذائي؟.. لقد سخرت فتاة من (بنيامين فرانكلين) يومًا ما وأطلقت عليه (الكائن العجيب) ثم لم تلبث أن قبلت بكل فخار أن تكون زوجته حين صار المصلح والعالم الأمريكي الأشهر..

أي ضير في أن يتهكم الشباب على ثيابي؟.. إن (بيتهوفن) كان كريه الرائحة قليل الاستحمام.. و(ألكسندر دوماس) كان قبيحًا كقرد.. وحتى (أينشتاين) اتهمه مدرسوه بالتخلف العقلي...

كنت واثقًا أنني أصنع نفسي..

وكنت أجد ما بين صفحات الكتب ما ينسيني عذاب اللحظة..

لكن شعورًا واحدًا كان يمزق فؤادي...

الوحدة..!

الوحدة المريرة التي لن أتحملها يومًا آخر بأي حال.. كنت أعيش في غرفة حقيرة في أحد أحياء القاهرة الشعبية.. وكانت بعض أسر العمال تسكن جواري، فلم يمنعني هذا من إدراك أية متعة يعيشها هؤلاء البؤساء بين أسرهم.. صوت الضحكات.. لعب الأطفال.. الشجار.. عبارات السباب.. كل هذا كان يمزقني تمزيقًا، وحتى قشور البطيخ الملقاة في الزقاق كانت تؤلمني.. فهي كميات أكبر بكثير مما يستطيع شخص واحد أن يلتهمه..!

كنت أحيا في هذا الجحيم..

وبدأت أفهم لماذا يتزوج البشر.. إنه الضمان الوحيد كي تجد إنسانًا آخر ملكك لا يتركك وحيدًا أبدًا..

كنت غارقًا في لجة الكآبة حين قابلت (جمعة)..!

كان صغيرًا بحجم قبضة اليد.. قذرًا كمصرف للمجاري.. شرسًا كالنمر.. جائعًا كسمكة وليدة.. تعسًا كالشيطان.. وحيدًا مثلي..

هنالك أمام بابي وجدته.. مجرد قط وليد منبوذ يرتجف بردًا وجوعًا ويموء بتلك الطريقة الصامتة الواهنة التي تجيدها القطط وتسلب بها قلوبنا.

حملته إلى الحجرة.. ووضعته في سلة الخبز الفارغة التي أرسلتها لي(الحاجة) من قريتي، وأحضرت له بعض الفاصوليا التي كنت قد طهوتها لنفسي فأعرض عنها في اشمئزاز مبديًا رأيًا لا بأس به في طهوي..

فتحت له علبة من السمك المحفوظ وشرعت أضع أمامه قطعًا منها فذاقها بلسانه أولًا.. ثم بدأ يأكل..

حين انتهى راح يلعق أسنانه بلسانه، فحملته في قبضتي إلى صنبور الماء وغسلت جسده وسط محاولات إفلاته المضحكة وموائه الرفيع (من حسن الحظ أننا كنا في (يوليو) لأن غسيل القطط الصغيرة تحت الصنبور خطأ قاتل!).

ثم جففته وشرعت أرمق شعره الثائر المحتشد في أشواك..
وكان هذا هو الحب الأول في حياتي..!..
أسميته (جمعة) لأنني كنت مثل (روبنسون كروزو)5 وحيدًا في جزيرة قصية إلى أن وجد صحبة، وهذه الصحبة كانت بدائيًا جاءه في يوم جمعة، فأسماه بنفس الاسم..
لقد غير (جمعة) حياتي تمامًا..
صار لي هدف أحيا من أجله وأعود لداري من أجله..
كان يرقد على قدمي حين أنام.. ويلعق وجهي مع شعاع الفجر الأول.. ويرتمي على ظهره معابثًا خفي..، ثم يتربع على مكتبي الحقير أمامي إذا أدرس مصدرًا ذاك الهرير الرائع المنتظم..
الواقع أنني كنت أملك يقينًا لا يتزعزع أن هذا القط هو أخي..
فقط هو مصاب بعيب خلقي بسيط يجعله يمشي على أربع ويأكل السمك ويموء، ولابد لي أن أقبله كما هو لأني أحبه!..
ظلت الأيام تدور بنا..
وفي الأوقات القليلة التي كنت أفارقه فيها إلى قريتي كنت أعطي مفتاح الحجرة لـ (آمال) ابنة الجيران كي تطعمه..
كان هذا في الفترة السابقة للقائي بـ (داغر)..

* * *

اسمه عجيب.. أعلم ذلك..
لكن وجهه أكثر غرابة.. فهو شاحب اللون رمادي العينين تتطاير خصلات شعره الأبيض في الهواء.. ضخم.. مهيب... وكانوا يقولون أنه من أصل تركي يبرر مظهره غير المألوف واسمه العجيب..
وكان من أوائل الشباب الرقيع الذي تخلى عن الطربوش.. وبرغم أن كثيرين قد حذوا حذوه في تلك الأيام - أواخر الأربعينات - إلا أنه كان أولهم..
قابلته في الجامعة يدرس الفلسفة..
كان على النقيض مني في كل شيء.. ولن اشرح كيف..
لكنه كان شخصية مغناطيسية يلعب ذات الدور الذي تلعبه البلورة الصغيرة حين تعلقها في سائل مشبع..، إنه مركز تبلور.. وآراؤه وكلماته تغدو هي (الرأي العام) بعد أيام من قولها..
ومن اللحظة الأولى أدركت أنه لن يكون صديقي...
لكن (داغر) أصر على العكس...
وكان له ما أراد..

* * *

كنت جالسًا في المكتبة أطالع بعض كتب علم الأجناس حين وجدته يتخذ مقعده جواري..، العطر الغريب الذي يذكرك بشيء لا تدري كنهه وأنامله الدقيقة كأنامل أفضل عازفي البيانو..
قال لي وهو يقلب صفحات كتاب:

- إننا زميلان.. هل تعرف ذلك؟.. إذن لماذا لا نتعرف؟
- (محمد شحاته).. من إحدى قرى (القليوبية)..
ابتسم في شيء من الرقة الممزوجة بالتهكم.. وقال:
- إسمي (داغر).. (داغر السفير).. وعلى كل حال أنا لم أطلب معرفة محافظتك..
- هي العادة لا أكثر..
وبدأنا نتحدث.. كان مسليًا وواسع العلم لكنى لم أستطع أن أحبه.. نفور لا سبب له ينتابني تجاهه، ذلك النفور الذي فسرته بحقدي المحتوم على طالب مثله يملك كل شيء...
لكنه كان لزجًا كالذبابة..، كانت نظراته محملقة ثابتة إلى درجة مزعجة تسلبك حريتك تمامًا.
الخلاصة أنه كسب أرضًا بعد هذه المحادثة.. وصار من يجذب مقعدًا إلى جواري في أي مكان أجلس فيه دون أن أتمكن من الاعتراض..
هل هو اجتماعي إلى هذا الحد الذي يحرص معه على ألا يفلت طالب من دائرته؟.. أم هو يتسلى بهذا النمط الساذج الغريب الذي كنته؟... إن لديه أصدقاء كثيرين ويمكنه دائمًا أن يشغل وقت فراغه..
بل أنه - صدق أو لا تصدق - طلب زيارة داري..!
كدت أجن.. وطفقت أولول وأصرخ وأؤكد له أن داري ليست دارًا بل هي أقرب إلى الحظيرة أو السوق أو مخزن الكرار..، وأنه حتمًا لن يحب رؤيتها فضلًا عن دخولها.. فلا داعي لهذا التودد..
إلا أنه ابتسم في لزوجة.. وأكد لي:
- إنني على غير ما تحسب.. وجميع الأماكن عندي سواء...
- ما دمت مصرًا..، على الأقل سأجد لك كوبًا مكسورًا هنا أو هناك يصلح لتشرب فيه شايًا..!
- كما تريد...
وفي مساء الأربعاء أولجت مفتاح الباب في القفل.. ودخلت الغرفة ومعي هذا الأخ المتودد.. وشرعت أزيح الزجاجات المكسورة والخرق وعلب السمك المحفوظ الفارغة التي تسد طريقه إلى المقعد الخشبي الوحيد..
- ليست غرفتك بشعة إلى هذا الحد.. تبدو لي كغرف الرسامين التأثيريين في (مونبارناس).
لم افهم هذه العبارة لكنها أكدت لي انه قد سافر إلى هذه الـ.. الـ.. مومبراس مرارًا.. ولا بد أنه مكان رائع فيما عدا غرف الرسامين التأثيريين القذرة التي تملؤه!، ما علينا.. سأعرفه بأخي السنوري (جمعة) الذي سيعطي لحديثنا أرضًا أوسع.. خاصة وكل الناس مولعون بالحديث عن الحيوانات والأطفال..
- (جمعة)..!.. أين أنت؟.. أيها الهر السخيف..!
- هل لديك هر؟
سألني وقد تبدل تعبير الارتياح المرتسم على وجهه.. لا أكذب إذا قلت أنه بدا قلقًا ومتوترًا..
سألته في مداعبة واضحة:
- يبدو أنك لا تحب القطط؟..
- ولا الحيوانات عمومًا..
- ولكن صبرًا حتى ترى (جمعة)..

وركعت تحت الفراش باحثًا عن ذلك القط العنيد..
كان هنالك في الركن المظلم متكورًا حول نفسه وقد انتفشت شعيراته والتمعت عيناه في الضوء كفيروزتين، وكان يصدر زئيرًا متوترًا غير عادي.. فلما مددت يدي نحوه أصدر فحيح الأفعى..



وركعت تحت الفراش باحثًا عن ذلك القط العنيد ..

إن هذا القط خجول أكثر مما توقعت..
امتدت يد (داغر) إلى ظهري حيث انحنيت راكعًا تحت الفراش.. وسمعت صوته الرخيم العميق يغمغم:
- دعك منه الآن..
فليكن..، وعدت أزحف على ركبتي خارجًا، ووقفت على قدمي أمام الفتى الذي مد يده يزيل شيئًا ما من على ذقني.. ويبتسم:
- وجهك غارق في الغبار وخيوط العناكب... لقد أنذرتك..
وعلى السقف تحرك صديقي البرص مغادرًا داره ما بين ألواح الخشب التي تدعم الحجرة..، وهو حدث غير مألوف في هذه الآونة من العام. لكنه حدث وأرجو ألا يلاحظ ضيفي ذلك..
دعوته للجلوس فجلس على مكتبي المتهالك الذي أدرس عليه كيف أكون أعظم إنسان في العالم، وبدأ يتحسس كتبي بيد فضولية..
- تدرس كثيرًا..
- ليس لدي عمل آخر..
- قراءاتك متنوعة..
- إنه ذلك الظمأ المقدس للمعرفة..
وشرعت أعد له كوبًا من الشاي مكتشفًا - في كل ثانية - أية حياة حقيرة أحياها وأية هاوية أنا مترد فيها، وهو الاكتشاف الذي كان يعاودني كلما زارني أحدهم.. لا يوجد براد نظيف.. لا ملعقة غير صدئة.. لا كوبًا غير مشروخ.. تبًا لها من حياة..!
على أنه لم يبد مهتمًا بكل هذا..
بل أنه أخذ كوب الشاي بتؤدة ونوع من الامتنان.. ثم اخرج علبة تبغ جلدية أنيقة وناولني لفافة رفضتها شاكرًا:
- لا أدخن.. شكرًا..
أشعل لفافته في تؤدة وبحث بعينيه عن مطفأة لكني أشرت له ألا مانع من إلقاء الرماد على الأرضية..، بدأ يدخن لحظات.. ثم قال لي:
- أنت لا تدخن.. وتقضي الوقت في الدراسة.. إنك نموذج الطالب المجد الذي كنا نرى صورته في كتب المطالعة الابتدائية..
سرني هذا المديح لكني فطنت إلى أنه كان يتهكم.. إذ أردف:
-.. وطبعًا تتوقع أنك تبذر بذور مجدك وأن هذه الغرفة هي الشرنقة التي ستحلق منها فراشة آمالك..
- لا أدري.. لكنني أحاول..
قال لفظة فرنسية لم أدر معناها.. لكنها - بالتأكيد - تحمل معنى الهباء أو كما نقول (كان غيرك أشطر).. ثم أنه رشف جرعة شاي.. وقال:
- أنت غارق في الحلقة الدامية الشهيرة.. من لا يستحق يجد.. ومن يستحق لا يجد.. ومن الحمق أن تظن أن هذه الحلقة كانت تنتظرك دون ملايين البشر كي تحطمها..

آه!.. ها نحن أولاء قد بدأنا نغمة التعالي.. هو ذا ذلك المدلل ابن المدينة يحاول بمقص من منطق أن يزيل جناحيّ..

قلت في فتور:

- لكني أحاول.. أليس كذلك؟..

لمس نغمة الجفاء في صوتي فقرر أن يتبسط قليلًا.. وبدأ يثرثر عن (العقاد) و(طه حسين) ومعارك الأحزاب.. إلخ...

ليت كلب الجيران يكف عن النباح لحظة.. ماذا دهاه هذا المخبول؟

مضت لحظات ونباح الكلب مستمر ويتعالى.. مع صوت سباب من جاري أبي (آمال) يصف كلبه بأقذع النعوت..

توتر (داغر) بعض الشيء وبدا أنه غير قادر على الاستمرار.. ثم كور بقايا لفافة تبغه ورمى بها أرضًا.. وتنهد:

- سنواصل حديثنا في وقت آخر..

وتهيأ للانصراف مما سرني كثيرًا وإن تظاهرت بالعكس.. وعلى باب الحجرة استدار وتشمم الهواء الراكد.. وهتف:

- تذكر.. أنت تستحق ما هو أفضل..

* * *

حين عدت لغرفتي شعرت بروحي تضيق حتى لتتصاعد إلى السماء.. لقد نجح هذا الوغد في إفساد التعود الذي كنت أستعين به على حياتي، ورغم أنني ريفي فإن دارنا كانت أجمل وأنظف من هذه الغرفة مئات المرات..

لا تظلموني يا رفاق..

ربما أنا ضعيف الشخصية أو طيب القلب لكن ليس إلى هذا الحد..

ومهما كان أحدكم يحب زوجته فهو خليق بأن يمقتها إذا ظل هناك من يقبحها في عينه ليلًا نهارًا.. إن الرضا كوب من الحليب تكفى ذبابة انتقاد واحدة كي تعكره إلى الأبد..

أما المشكلة الحقيقية فكانت مع (جمعة)..

إن هذا الهر الأبله كان متوترًا متحفزًا بشكل غير عادي، بل إنه ظل يرتجف طيلة الساعتين التاليتين وعزف عن الأكل حتى كدت أموت رعبًا عليه..

كانت العاشرة مساء حين قرعت الباب (آمال)..

ابتسمت في رقة معتقدًا أنها جاءت بعذر مختلق لمجرد أن تتبادل كلمتين أو ثلاثًا معي قبل أن تأوي لفراشها.. صحيح أن هذه الفتاة لم تبد مطلقًا أي اهتمام بي لكني كنت أضع (بنيامين فرانكلين) نصب عيني..!

لكنها كانت جادة..

كانت متوترة حقيقة لا تمثيلًا..

وقالت وهي تبتعد عن الباب في حياء:

-.. لا مؤاخذه يا سي (محمد) على مضايقتك.. ولكني كنت عائدة للبيت حين رأيت هذا..

- رأيت ماذا يا (آمال)؟
أشارت إلى الأرض.. إلى عتبة غرفتي الخشبية.. وتساءلت:
-.. من أين يأتي كل هذا النمل؟.. ولماذا يهرب من غرفتك أنت بالذات؟..

* * *

- ٢ -

قلت وأنا أعابث قداحتي -

- إن قصتك يا د. (محمد) تحمل روائح مألوفة لي.. هذا اللقاء لا يمكن أن يكون لقاء زميلين.. وإنني لأشم روائح د. (فاوست) بشكل أو بآخر..

ثم نظرت له في حدة.. واستطردت:

- هل أنت واثق أن (داغر) هذا لم يكن الشيطان؟.. وأنه لم يعرض عليك بيع روحك مقابل المجد أو الحكمة أو الثراء؟!!

قاطعني (شكري) في عصبية هاتفًا:

- هأنتذا تفسد القصة هذه المرة..!

نظرت له في غل.. من العجيب أن كراهية عارمة - لا مبرر لها - قد تسللت إلى علاقتي بهذا الملتحي، مقت غريب لعينيه الوقحتين - وسيجارته التي يلوكها طيلة الوقت - قد ملأ روحي.. وبرغم أنه يكبرني بعشرين عامًا على الأقل إلا أن نفورنا قد وصل إلى درجة القتل..!..

قال د. (محمد شاهين) في حياء:

- صبرًا د. (رفعت)... صبرًا.. إنك لواجد الإجابة على علامات استفهامك بعد دقائق..

ثم أنه تذكر شيئًا.. فصاح محنقًا:

- بالمناسبة.. قلت لي أننا نحكي القصص حسب ترتيب السن.. هذا غير صحيح وإلا لكان أولنا هو الأستاذ (شكري)!.. تذكرت ذلك الآن!

ماذا أقول لهذا الرجل..؟

- د. (محمد)..

- نعم؟..

- هلا أكملت قصتك اللعينة هذه؟!!

* * *

قال د. (محمد) مواصلًا حكايته وقد احمرت أذناه قليلًا: حين انصرفت (آمال) بدأت أدرك أن هناك شيئًا ما ليس على ما يرام.. بالواقع لم يكن أي شيء على ما يرام..

ركعت على ركبتي أتتبع سرب النمل الطويل الكثيف كأنه رسم بفرشاة سوداء على خشب الأرضية..

ها هو ذا.. إنه يتعرج حول نفسه متجهًا إلى أحد شقوق الحائط الكثيرة.. الموضع الذي يفر منه كل هذا النمل..

ما معنى هذا..؟

هجرة نمل في هذا الوقت من العام..؟

وقط متوتر كأنما أوصلت ذيله بقابس الكهرباء..

وبرص يعدل عن رأيه في الوقت الملائم لبدء البيات الشتوي..
وكلب يعوى كالمسعور دون سبب واضح..
كل هذا متزامن مع ذلك الشاب غريب الأطوار والمظهر.. الذي كان عندي من لحظات..
إن هذا يعني.....
وانتصب شعر رأسي (كان عندي شعر رأس في تلك الآونة) واستحال جلدي كجلد الإوزة..
لقد فهمت الحيوانات والحشرات ما لم أفهمه أنا..

* * *

ومضيت أجول الغرفة في قلق:
كان (جمعة) قد هدأ قليلًا لكنه متكور كالجورب القديم في ركن الفراش ويرمقني في توجس..
كف عن الهلع أيها القط السخيف.. أرجوك..
لم تعد لدي أعصاب تتحمل كل هذا..
ولكن.. ما سر هذا الإسم الغريب الذي يحمله؟.. إنني واسع الثقافة - كما تعلمون جميعًا. وكان من السهل أن أقول لنفسي أن (داغر) معناها (لص) وهي كلمة عربية فصحى لكننا نسينا معناها.. أما (السفير) فهو إسم مليء بالدلالات.. خاصة إذا ما استبعدنا معناه القريب الدارج..
أنا أعرف أن (لوسيفر) هو الاسم اللاتيني للشيطان.. وقد كان في الأصل يعني (الزُهرة) حين تغدو (كوكب صباح) ثم اقترن بالشيطان في الديانة المسيحية لأنه كناية عن الخيلاء التي تقود صاحبها للهلاك..
فهل ثمة دلالة معينة لتشابه حروف (لوسيفر) و(السفير)؟!..
إنني غزير العلم - كما تدركون جميعًا - وتفهمون أن الأدب العالمي هو مملكتي الخاصة.. وإن قصصًا مثل (فاوست) و(أحزان الشيطان) لا تغيب عن مخيلتي..
لماذا لا نعرف شيئًا عن نشأة (داغر) ولا اسرته ولا عنوان داره..؟ لماذا يزور الجميع لكن أحدًا لا يزوره..؟
الوغد..!.. لكم كان ناعمًا مهذبًا مؤذيًا كالأفعى...
كانت الساعة تدنو من منتصف الليل وكان النمل قد أنهى هجرته غير المفهومة.. والقط في موضعه السابق..، حين سمعت دقًا متواصلًا على الباب..
فوثب قلبي إلى فمي..
اتجهت للباب في تؤدة وألصقت وجهي به.. وتساءلت:
- من هناك؟
كان هذا هو صوتي المرتجف.. المتوجس.. الرفيع كصوت سحلية مشنوقة..
وهنا سمعت الصوت الذي سيظل يفعم كوابيسي:
- إنه أنا.. (داغر).. إفتح يا (محمد)..!

* * *

- دا.. دا.. (داغر)؟.. مـ.. ماذا تريد؟

قال في سخرية:
- ليس لعب الشطرنج بالتأكيد.. نسيت مفاتيحي عندك..
- لحظة..!
ووثبت كالملسوع إلى حيث كان جالسًا.. فوجدت المفاتيح التي تحدث عنها.. غريب هذا!.. أنا واثق من أنه لم توجد مفاتيح طيلة المدة التي تلت رحيله.. هذه المفاتيح برزت فجأة..!
حملتها بين إصبعين - كالثعبان - واتجهت للباب.. هل أفتحه؟..
لا أدري.. لكني - حتمًا - لن أتمكن من تمريرها أسفله.. إذن لا مناص من فتح الباب.. مددت يدي للقفل وأزحته في توتر.. ودخل (داغر) الغرفة.. كان وجهه الوسيم صارم الملامح يتلألأ بين الظلال وهو يدلف للحجرة وعيناه تلمعان ببريق غير مريح.. بريق لم....
مياااااووو..!
انشب (جمعة) مخالبه في الملاءة وقوس ظهره ثم وثب بقفزة واحدة إلى ما تحت الفراش.. فقال (داغر) وهو يهز رأسه:
- إن هذا القط غريب الأطوار..
والتقط المفاتيح ودسها في جيبه.. وأردف:
- لماذا تحتفظ بهذا الوحش الشرس في دارك؟..
كنت أنا أتعوذ وأردد الأدعية كي يتركني هذا (الشيء) سالمًا هذه الليلة.. وإلى الوراء تراجعت ثلاث خطوات..
- ماذا بك يا (محمد)؟.. لا تبدو طبيعيًا... هل حدث ما يضايقك؟
كان يدنو مني في تؤدة وعلى شفتيه ابتسامة معسولة..
- ابتعد عني..!!
- لماذا؟.. لماذا لا أدنو منك؟
كنت أتراجع للخلف محاذرًا أن أصطدم بالمكتب..
- ابتعد أيها الشيطان!!
ضحك والتمعت عيناه وتبدت أسنانه البيضاء النضيدة:
- أنا شيطان؟.. إنك ذكي يا صديقي..!
- أنت...
وهنا حدث الشيء.. الشيء الذي لم أتخيله في أفظع كوابيسي..
شممت رائحة غبار.. ثم هوى عرق خشبي عملاق من السقف.. وتطاير الغبار أكثر.. ثم بدأ الجحيم..
أخشاب تتهاوى.. الأرض تميد تحت قدمي.. قرقعة.. صخب.. صوت تهشم..، (راغب) يحاول أن يقول شيئًا ثم يسقط أرضًا.. عواء القط.. عواء الكلب.. رائحة عطن.. صراخ نسوة..
ثم لا شيء...

* * *

في مستشفى (القصر العيني) صحوت لأجد نفسي ملفوفًا في الضمادات وعشرات الأصوات تردد أن الحمد لله.. وفهمت ما هنالك..

لقد انهار طابقان من المنزل المتداعي الذي كنت أسكن فيه ولم يصب - بالطبع وكما هي العادة - سواي و(داغر)..

(داغر) المنحوس المسكين الذي عاد ليأخذ مفاتيحه دقيقة واحدة.. دقيقة واحدة لكنها كانت كافية كي ينهار المنزل فوق رأسه ومن حسن حظه أنه لم يقض نحبه..

(داغر) سليل الأرستقراطية الذي لعبت برأسه السياسة فانضم إلى إحدى المنظمات اليسارية المتطرفة.. وتنصلت منه أسرته.. تاركة إياه يمارس دورًا اختاره لنفسه في توعية البؤساء من أمثالي بقسوة وضعهم الطبقي المتدني.. توطئة لضمهم إلى المنظمة..

(داغر) الذي تلقى جزاء حماسه المبالغ فيه في صورة كسر في الفخذ والذراع وارتجاج مخ لا بأس به..

الواقع أنني - في تلك اللحظة - لم أعد أمقت ذلك المعتوه إلى ذلك الحد..، طيلة حياتي كنت أتعاطف مع الفريق الخاسر...

حاولت أن أكسب صداقته من جديد.. لكنه كان قد تعلم درسًا لا بأس به، لهذا أفلت منى وعاد للدراسة من جديد.. وإن كان قد فقد مغناطيسيته أو لم يعد يعبأ بها..، ثم إن (البوليس السياسي) استضافة بعض الوقت مما شفاه نهائيًا من التودد..

* * *

وفي المستشفى زارتني (آمال) وأمها.. وكانت سليمتين تمامًا، وكانت الأم قد أعدت لي بعض الحمام والأرز المعمر كأفضل هدية تعرفها لمريض (ولم تكن مخطئة تمامًا في هذا)..

أخبرتني في تفاؤل أن البيت أمكن إعادة ترميمه فلم يعودوا بلا مأوى.. وأقسمت أغلظ الأيمان أن آكل أمامهما في فراشي..، فلم أكذب خبرًا إلا أنني تجنبت سؤالها عن قطي وعن العزيز (جمعة) الذي كان شريك حياتي لفترة وجيزة.. ثم ولى بعيدًا ككل ما هو رائع..

- قطك بخير يا سي (محمد)...

قالتها (آمال) في نعومة.. مما جعل وجهي يتهلل طربًا غير مصدق لما تقول..، أردفت مبتسمة:

- إن الحيوانات تشعر بالخطر قبلنا... لهذا نجا بعمره في تلك الليلة..

شرد ذهني وأنا ألوك الأرز إلى أحداث الأمسية.. هروب النمل وتوتر القط وذعر الكلب، كانت تشم الخطر وتتحفز ضده..

لكنى - كما هو واضح - أسأت فهم رسالتها وحسبت زائري المقتحم نوعًا من الـ....

إن مشاكلي لم تنته.. بل - بالأحرى - بدأت..

لكني أملك هدفًا.. وأعرف كيف أحقق هذا الهدف، لا أذكر كم من عظماء التاريخ قد انهارت غرفهم فوق رءوسهم.. لكني واثق من أنهم كثيرون..، وعما قريب سيفخر كل معارفي أنهم عرفوني.. وأنهم أحضروا لي الأرز والحمام حين كنت مريضًا جائعًا محطمًا..!

سيكون الغد حافلًا..، وفيه كل شيء ممكن.. أما اليوم.. فلأنم ملء جفوني..

* * *

القصة الثالثة

حشرة الشيطان ..!

يحكيها: د. (رفعت)

- ١ -

كانت الساعة هي الثانية بعد منتصف الليل..
لقد هدأت الأمطار المصطدمة بزجاج النافذة.. لكن العواصف مستمرة...
وكنا جالسين نتحدث عن قصة د. (محمد)..
قال (عادل) في تهكم وهو ينهض ليريح ساقيه المتصلبتين:
- مرة أخرى تخدع يا د. (محمد) وتعطي صبغة غير مادية لأمور مادية تمامًا.. هل تذكر قصتك مع آكل لحوم البشر؟..
- إن ما حدث كان خديعة.. لكن رعبه كان حقيقيًا..
قالها (شكري) وهو يدون بعض الأفكار في (أجندة) صغيرة.. ثم أنه نظر لي متسائلًا:
- والآن.. قصتك يا د. (رفعت)..
نهضت واضعًا يدي في جيبي.. وتفكرت حينًا.. ثم غمغمت:
- لا أدري حقًا.. إن لدى عشرات القصص.. لكنها جميعًا طويلة ولن تترك مجالًا لراو آخر..
ثم تذكرت شيئًا.. (يوسف).. وحشرة الـ (أنثروفاجا).. و.... كيف نسيت هذه القصة؟.. كيف..؟..
رفعت رأسي في تؤدة.. وقلت:
- حسن.. هناك قصة قصيرة نوعًا ولربما شوقتكم.. لكن عدوني إذا شعرتم بالملل أن تخبروني بذلك.. لا أحب أن أكون سمجًا أو ثقيلًا..
- غريب أن تقول أنت بالذات هذا!!
كانت هذه العبارة بالطبع صادرة من خصمي الطبيعي (شكري).. لكني تجاهلته وبدأت أروى قصتي للأناس المحترمين الآخرين..

* * *

قلت لهم:
إن أشد ما يثير رعبي لهو الجهل بالخطر..، وفي كل قصصي أردد عبارتي الخالدة: (لم أكن أعرف ذلك.. لأني كنت ساذجًا.. ساذجًا)..، تخيلوا لحظة دخول (ذات الرداء الأحمر) لجدتها التي لا تعرف أنها ذئب متنكر.. كلنا نعرف ذلك لكنها لا تعرف.. حتى لنكاد نصرخ: إهربي.. إهربي!.. لكنها – بالطبع - لا تسمعنا..
(جوناثان هاركر) يزور قصر (دراكيولا) وهو الوحيد الذي لا يعرف من هو (دراكيولا)...، رائحة الكبريت انبعثت من (كاترين) في القبو المظلم لكني لم أربط بين ذلك وبين مصاصي الدماء..
وفجأة تلتمع الحقيقة كضوء شهاب..
ويدرك بطل القصة - بعد فوات الأوان - أنه في مأزق حقيقي..
عندئذ تولد ذروة القصة..

* * *

كنت أدخر هذه القصة لأحكيها لقرائي.. لكن لما كانت أقصر من اللازم فإنني سأحكيها لكم الآن في حلقة الرعب الوليدة هذه..

كان ذلك في عام ١٩٦٤..

قابلته في الطريق العام في مكان ما من شارع (شريف)..

هل كنت رائحًا أم غاديًا... مكتئبًا أم متفائلًا؟.. أصلع الرأس أم غزير الشعر؟.. لا أذكر.. لكني - فقط - أذكر أن رؤيته فتحت أمامي كونًا من الذكريات..

كان بدينًا متلاحق الأنفاس يبلل العرق الغزير جبينه وموضع شاربه وتحت إبطيه، وكان يرتدي قميصًا صيفيًا واسعًا وبنطالًا رثًا.. الخلاصة أنني استشعرت أن أحواله على غير ما يرام...

سددت أمامه الطريق بجسدي ورسمت أفظع ابتسامات الرد على سحنتي.. فرفع نحوى عينين مذعورتين كأنما ناديته من كون آخر سحيق..

وللحظة احتشد للعدائية ثم بدأ يتذكر..

- (رفعت).. (رفعت إسماعيل)..!

- (يوسف).. (يوسف شوقي)..!

- يا لك من وغد قديم!

- ما زال لسانك يقطر لطفًا..!

هل تعرف هذه اللحظات الخالدة؟..

لحظة لقاء صديقين قديمين حين يتهاوى سد الأعوام.. وحين تبدأ - تلقائيًا - نغمة الحساب:

- ماذا فعلت أنا؟ وماذا حققت أنت طيلة هذه الفترة؟..

كم من الأحلام أثمرت شجراته وكم ذبل؟.. أية أمراض لم تحسبها تصيب مثلك وأصابتك؟.. ما أسماء أطفالك وهل هم حقًا موجودون أم أنك لم تنجب بعد؟.. هل ارتفعت خطوة أم هبطت خطوة أم أنك ما زلت كما أنت؟..

وكالعادة تم الاتفاق على اللقاء..

أعطاني وريقة صغيرة متسخة رسم فوقها - كيفما اتفق - كروكيًا يبين مكان داره، ودعاني إلى أن أزوره.. وليكن ذلك غدًا إذا أمكن...

وفي الموعد كنت هناك حاملًا علبة صغيرة من الشوكولاتة ورزمة من الذكريات، أنا أفهم هذه النوعية من الأمسيات.. سيعرفني على سيدة بدينة متشككة يقول لي إنها (المدام) وعلى مجموعة من الأطفال الوقحين الذين يضعون الميركيروكروم على ركبهم.. ولسوف يقدم لي زجاجة مياه غازية وقدح شاي ولربما بعض (الجاتوه).. ثم نمضي الوقت في كلام من نوع: هل رأيت فلانة؟.. أين فلان؟.. هل تذكر كذا.. وكذا..؟.. كانت أيامًا رائعة ليتها تعود..، ثم نفترق على وعد بلقاء آخر.. وكالعادة لن يكون هناك لقاء آخر..!..

هكذا تمضي الأمور دائمًا..

ليس لي أن أتوقع أكثر..

لأنه لن يكون هناك أكثر..

* * *

كانت شقته تنم عن ذوق رائع..
ودون جهد أدركت أنه غير متزوج..
لا تستطيع زوجة أن تنسق شقتها بهذا الذوق الرائع، دعك من أن الأطفال لن يدعوا حجرًا فوق حجر..
السؤال الوحيد هنا هو ذلك التناقض ما بين ثيابه الرثة وشقته الفاخرة المريحة للأعصاب..، كيف ذلك؟.. وما سر عدم زواجه حتى تلك اللحظة ما دام غير مجنون مثلي؟..
إن الإجابة آتية لا ريب فيها..
أما الآن.. فلألعب دور صديق الصبا الودود..
إن (يوسف) بحاجة إلي لسبب لا أدري كنهه.. وعلي ألا أخيب ظنه...

* * *

جلست في غرفة الصالون على حين أخذ يصدر أصواتًا تدل على الترحيب والحماس..
ثم أنه أحضر لي صينية عليها زجاجة مياه غازية، وهو يثرثر عن أصدقاء الصبا ويسألني عن أسماء عديدة.. وعن مهنتي.. وعن رحلاتي.. وعن كل شيء..
- (رفعت)..!.. إنني بحاجة إليك..!
قالها - دون مناسبة - وكنت أتوقعها تمامًا.. ثم انفجر في البكاء دون أي مبرر.. وأنا لا أحتمل هؤلاء السخفاء الذين يبكون فجأة.. فهم يجعلون الحياة غير محتملة..
لكني نهضت نحوه وقمت بواجبي تجاه صديق يبكي..
قدمت له منديلي ثم عدت لمقعدي وشرعت أدخن وأرمقه في دهشة، تمخط في المنديل - اللعين! - ثم أعاده لي شاكرًا فطويته ودسسته في جيبي مشمئزًا..
- معذرة يا (رفعت).. كل ما في الأمر هو أنني..
- نعم.. نعم.. تشعر بالوحدة.. هذا واضح..
- كلا.. انت لا تفهم..
ثم جلس جواري وحدق في عيني بعينية المذعورتين الغائصتين في لحم وجهه البدين - كأنهما ثقبان في كرة من الصلصال - وجفف العرق من على جبينه وبدأ يلهث..
- إنهم خلفي..!
- حقًا..؟!
قرب وجهه من وجهي.. وهمس في جزع:
- أقسم لك.. إن هي إلا دقائق.. ساعات.. أيام ويجدون مكاني، وعندئذ..
- وعندئذ:
- عندئذ سيتذكرون!
الآن اتضح لي الأمر.. أنا أعرف هذه السمات وأفهم هذه النغمة تمامًا ولقد سمعتها مرارًا من قبل..، حين دعاني (يوسف) إلى داره كنت أخاله يخفى لي ما هو أفضل من (البارانويا)6 لكنه -

للأسف لم يكن يملك سواها.. وها هو ذا يردد نفس الكلمات التي نسمعها في كل حالة عن الآخرين الذين يبحثون عنه ويراقبونه...



الآن اتضح لى الأمر .. أنا أعرف هذه السمات وأفهم هذه النغمة

تمامًا ..

يجب أن أنصرف.. ولكن في سلاسة لأن مريض (البارانويا) مرهف الحس ويمكن أن يغدو عدوانيًا.. كما أنه في أقرب فرصة سيعتبرني (منهم) مما يجعل بقائي وحيدًا معه خطرًا لا بأس به..

- يتذكرون ماذا؟..

-.. يتذكرون أنني السبب في وجودهم..!

- آه..!.. فهمت..!

ولعنت في سري أعباء الصداقات القديمة..

لماذا - أنا بالذات - كلما قابلت صديقًا قديمًا وجدته قد غدا لصًا أو قاتلًا أو مجنونًا؟!..

كان يجفف عرقه في عصبية ويقول:

- في كل ليلة يجافي النوم عيني وأدعوا الله ألا تكون هذه هي الليلة المختارة..

هرشت عنقي في تؤدة.. ثم قررت أن أجازف:

- (يوسف).. لماذا لا تتحدث بالتفصيل؟.. أنت تتصرف وكأنني على علم مطلق بكل ما تقول..

- حقا؟

- إن كلماتك المبتورة تدعوني لإساءة الفهم كما تعلم..

- وتظنني معتوهًا؟

هززت رأسي محاولًا أن أنفي ذلك ثم وجدت ألا داعي لذلك فهو منهك ومستسلم ولن يفيده بشيء أن أنكر..

قال في لوعة:'

- لا ألومك كثيرًا.. أنا نفسي لا أملك الثقة الكافية كي أنفي ذلك أو أؤكده، وأحيانًا ما أحسب كل ما مررت به كابوسًا ثقيلًا.. ولكن.. لماذا لا أحكى لك كل شيء بالتفصيل؟.. هل أنت مرتبط بموعد اخر؟

- بتاتًا..

- إذن سأحكي لك كل شيء..

* * *

سأحاول هنا أن أكون دقيقًا وأن أحكى كل ما قاله لي على مدى ثلاث ساعات، بالطبع هناك تفاصيل منسية لكنها - أو هذا ما أرجوه - غير جوهرية في قصتنا..

حدثت قصته في عام ١٩٥٧..

في ذلك الوقت لم يكن (يوسف) في (مصر).. بل كان موفدًا إلى (ألمانيا) في رحلة دراسية بغرض الحصول على درجة علمية في الآفات الزراعية ومقاومتها.. تلك الدرجة التي - لأسباب سنعرفها فورًا - لم ينلها قط..

كان الفتى منبهرًا تمامًا بكل شيء...

وخاصة بأستاذه العجوز (أوبرمان) الذي أيقن تمام اليقين أنه يعرف كل شيء عن أي شيء يخطر لك..

وكان فريق عمل مكونًا من فطاحل العلم مجتمعًا في ذلك المعمل قرب (لايبزيج) عاكفًا على دراسة الاحتمالات التي لا تنتهي للتوازن البيئي..، والسيطرة البيولوجية على الآفات..

حين يزخر بيتك بالفئران يمكنك دائمًا أن تبتاع سمًا.. لكن الحل الأدنى للطبيعة هو أن تبتاع قطًا، وفي (مصر) يلتهم سمك المبروك قواقع البلهارسيا. أو هذا ما يحاولون عمله. ويلتهم سمك الـ (جامبوشيا) يرقات البعوض..، وهكذا تعالج الطبيعة نفسها بنفسها..

لكن التوازن الطبيعي لعبة خطرة..

ففي بعض ولايات الهند - على سبيل المثال - اعتادوا تربية الوطاويط لتلتهم الفئران.. لكنهم - بعد أعوام - ألفوا أنفسهم أمام وباء حقيقي من الوطاويط..

كان العلماء الألمان يحاولون الحصول على افضل شيء من القوانين البيولوجية دون أن يفسدوا اتزان الطبيعة..

وهم يلعبون على ورقة رابحة إسمها (قانون الانتخاب الطبيعي)..

لم تكن الهندسة الوراثية متقدمة في ذلك الزمن السعيد ولا كل اللعب بجينات باكتيريا (إ. كولاي) البريئة الذي نسمع عنه اليوم..

لهذا كانوا يعتمدون على قانون الطفرات..، وعلى قابلية الصفة وليدة الطفرة على الاستمرار في عدة أجيال تصير كلها بالتدريج حاملة لهذه الصفة..

وعن طريق توليد عدة أجيال ترسخ الصفة وتتم تنقيتها وإضافة ما يلزم لها..، ولو أن مثل هذه التجارب تجري على بشر لاحتاجت ملايين السنين حتى تظهر نتائجها..

لكنهم كانوا يتعاملون مع نوع من الخنافس تشبه خنفسة (أبو عيد) المعروفة عندنا.. ومعها يمكنك إنتاج عدة أجيال في شهور..

كانت سلالة جديدة قد بدأت تنشأ لا علاقة لها بالأجداد.. وانطلاقًا من ولع العلماء بالأسماء المعقدة والرطانة فقد أسموها بالاسم اللاتيني (إنتوفاجا)، وهو - لمن يعنيه الأمر منكم - خليط من مقطعين لاتينيين معناهما (آكلة الحشرات)..

نعم.. هذه الحشرة الوليدة تأكل الحشرات الأخرى التي قد تتطفل على المزروعات، إن (الإنتوفاجا) أمينة على النبات.. شرسة مع أية حشرة لصة تسول لها نفسها الآثمة أن تسطو على الحقول..

(الإنتوفاجا) تتوالد كالأسماك - أو أسرع قليلًا - وحركتها سريعة وشهيتها جامحة.. ولونها أخضر تعجز الطيور عن تمييزه واصطيادها.. وفي حالة انفلات عيارها يمكن القضاء عليها بجرعة صغيرة من أي مركب فوسفوري عضوي.. جرعة لا تؤذي أي كائن أكبر منها...

إن الـ (إنتوفاجا) هي الحل السعيد لكل مشاكل الزراع..

لكن الألمان حذرون ولا يدعون شيئًا للمصادفة، وهم لن يعمموا الفكرة قبل تمحيص لا بأس به لعشر سنوات على الأقل لأنهم يعلمون أن الخلل البيولوجي يكون في الغالب فادحًا عسير الإصلاح..

والبحث العلمي هو نوع من اللحوم القاسية الألياف التي يجب أن تُطهى على نار هادئة لساعات طوال قبل أن تقدم للآكلين..

لكن (يوسف) كان عجولًا..

وكان - كما قلنا آنفًا - منبهرًا بكل شيء..

لهذا شرع في غرفته الصغيرة الأنيقة يصغي لموسيقا (باخ) السماوية ويحلم بما يمكن أن تحققه هذه الحشرة في (مصر).. أن يأتي اليوم الذي تبيد فيه هذه الحشرة ديدان القطن بعبع زارعي القطن ومصاصة دماء الاقتصاد المصري..

أن تملأ هذه الحشرة حقولنا لاعبة دورها الهام بإخلاص وأمانة ودون كلل..

إنه المجد..

* * *

بمرور الوقت بدأ الأستاذ (أوبرمان) يلاحظ تبدلًا في تركيز ومواظبة تلميذه.. أنت تعرف كيف يبدو الإنسان الذي استعبدته فكرة واحدة وكيف يتصرف، ها هو ذا (يوسف) يكف عن البحث في المراجع المطلوبة منه.. ولا يدون الملاحظات.. ويتأخر في الاستيقاظ صباحًا..

ثم أنه يحوم - أكثر من اللازم - حول معامل التحكم البيولوجي حيث تجرى تجارب (الإنتوفاجا) التي لم يكن له دور حيوي فيها..

ولعدة مرات أنذره الأستاذ...

ولعدة مرات توسل له (يوسف) أن يعطيه دورًا أكبر في تجارب هذه الحشرات، لكن العالم الألماني كان صارمًا لا يتزحزح...

وبدأت الخطة تختمر في ذهن (يوسف)..

إنه الآن - بعد ستة شهور - على خبرة لا بأس بها بما يفعلون وهو قادر على البدء في تجاربه الخاصة في هذا الصدد..، فقط تلزمه بعض البويضات وعدة حضانات توفر الظروف البيئية المثلى للفقس، على أن (الإنتوفاجا) كانت حشرة قوية يمكنها - كالصرصور - أن تعيش في ظروف قاسية جدًا سواء في القيظ أو البرد..، ولم تكن ثمة حاجة للتحذلق المعملي..

وهكذا..

طلب إجازة من هيئة البحوث ليعود فيها إلى (مصر)..

ثم أنه تسلل للمعمل وبجفت صغير نقل بعض الشرائح الزجاجية التي تراصت فوقها البويضات إلى علبة صغيرة مغلفة ومبطنة بالقطن الطبي..

واعد حقائبه وودع أساتذته مؤقتًا...

لكنه - هو وحده - كان يعرف أنه لن يعود أبدًا..

* * *

كانت شقة صغيرة في (بنها) هي داره حيث يعيش وحيدًا، وهو في هذا يشبهني كثيرًا.. إلا أنه يختلف عنى في أن فكرة ضخمة صاخبة كانت تنسية هذه الوحدة ولا تدع له وقتًا لأي شيء سواها.. إن الأفكار المصطخبة في رأسه كانت تجعل شقته مزدحمة، وكان يثرثر مع الأحلام.. ويتشاجر مع مخاوفه.. ويضحك من دعابات لم يقلها أحد..

هل جن؟.. لا.. لا أظن ذلك.. لكن كل الظروف كانت مهيئة لذلك لو لم يجد ما يشغله فلا يترك له وقتًا للجنون..

وكانت الحشرة هناك..

الحشرات اللامعة خضراء اللون شديدة الأناقة التي غادرت بويضاتها لتوها كي تتعرف جدران معمله والأقفاص الزجاجية المضاءة التي أعدها لها.. وتلتهم الذباب والصراصير وديدان القز التي كان يأتيها بها..

كان يعرفها حشرة حشرة حتى ليكاد يطلق عليها أسماء مميزة..

ويقول (يوسف) - ولا أدري كيف - أنه بدأ يفهم أن لكل حشرة شخصية متميزة وشكلًا متفردًا يفرقها عن زميلاتها..!

ومضت الأيام..

وبدأت الإناث تنتفخ بالبيض ثم تتحرك في تؤدة وثقة كي تضعه في صفوف متراصة على ألواح الزجاج الرقيقة المثبتة أفقيًا في أقفاصها..

وهكذا ولدت السلالة (إ- ١) أولى سلالات هذه الحشرة في (مصر)..

وما أن اشتد عود الصغار حتى نقلها إلى قفص زجاجي آخر وشرع يعرضها لمؤثرات بيئية قاسية..، في البدء عرضها لدرجات حرارة مرتفعة يومًا بعد يوم.. وكما هو متوقع هلك أكثرها لكن ما بقي منها كان قادرًا على تحمل درجات غير واردة أصلًا..

ثم جاء الجيل التالي (إ- ٢) قادرًا على ذلك كله..

وشرع في كل يوم يبتكر مشكلة جديدة أو عائقًا من نوع آخر وذلك حتى وصل إلى الجيل (إ- ٥٨)..

التقط بالجفت واحدة من الحشرات وطفق يتأملها..

كانت تختلف تمامًا عن الحشرة الأولى التي (استعارها) من معمل البحوث الألماني حتى كأنها نوع آخر مستقل تمامًا..

كانت أضخم حجمًا.. ولونها يميل إلى الحمرة.. ومنظرها غير مريح على الإطلاق.. وكانت تئز بصوت رتيب مفزع..

لكنها كانت (ابنته).. وكان يحبها كما يجب أن يحب ابنته..

مد يده في رفق أمامها..

فتحركت في حذر ودنت من أنامله.. وأحس بها تتلمسها بفمها..

ثم كانت العضة قاسية.. لكنه تقبلها في استخفاف بنفس الطريقة التي تتقبل بها أنثى الذئب عضات جروها الحانية لأذنيها..

- إنك قد صرت شرسة يا فتاة.. هيا إنزلي!

قالها وهو يمد يده ليلتقطها حيث وقفت فوق كف يده الأخرى..

لكنه فوجئ أنها متشبثة.. متشبثة إلى حد أنه قاتل قتال الشهداء كي ينتزعها من لحمه.. وحين استطاع أخيرًا وجد خيطًا من الدم ينسال من بقعة حمراء صغيرة في كفه..

- إذن أنت تحتاجين إسمًا آخر..

ووضع قطعة قطن على موضع النزف مفكرًا:

- (أنثروفاجا).. آكلة الإنسان..!.. نعم.. هو كذلك!.. هذا الاسم يلائمك تمامًا وأنت السبب في ذلك ولا أحد سواك!

وهكذا..

مضت الأيام في سلام..

إلى أن حدثت الكارثة التي يتوقعها ويعرفها ويخشاها كل عالم تمضي بحوثه دون مشاكل..، لابد من مصيبة ما..

وكانت هذه المصيبة في حالتنا هي عربة رش المبيدات التي تجوب الشوارع في وقت الغروب، وكان معمل (يوسف) مفتوح النوافذ في تلك الآونة طلبًا للتهوية.. وكان هو عاكفًا على تشريح إحدى حشراته تحت المجهر حين سمع صوت الموتور المألوف.. وامتلأت الغرفة بضباب ال (د. د. ت) طيب الرائحة شديد السمية حتى أن (يوسف) لم يعد قادرًا على رؤية كفيه.. كفيه اللذين راح يلوح بهما في هستيريا محاولًا إزاحة الدخان صارخًا كالملسوع:

- توقفوا يا أولاد الـ (.....)..!.. توقفوا..!.. إنكم تقتلونهم!

كان يعرف تمامًا ما سيجده عند انقشاع الضباب لأن الاقفاص الزجاجية كانت كلها مفتوحة من أعلى..

يا للكارثة!.. يا للخسارة..!..

في كل الأقفاص كانت (بناته) منقلبات على ظهورهن وقد لفظن أنفاسهن.. عشرات الأجيال.. مئات الحشرات.. إنه لم يتصور أن في العالم كله مشهدًا بهذه القسوة والبشاعة.. كل المجهود المضني الذي ضاع هباء..

لم يعد يرى شيئًا لأنه كان يبكي..

الدموع تشوه الموجودات.. وتسيل من أنفه فيحاول منعها بشهقات قصيرة متوالية..

على الأرض تربع ممسكًا برأسه ينشج.. وفجأة سمع الأزيز.. وثب على قدميه كالملسوع إلى مصدر الصوت.. ولدهشته وجد عددًا من الحشرات من سلالة (إ-٥٨).. عددًا لا يتجاوز العشرين.. وكانت حية.. واهنة ضعيفة لكنها حية..

يجب إخراج هذه المخلوقات إلى الهواء الطلق..

إن الخيط لم يفارق أنامله بعد.. ويمكنه أن يجذبه ويعيد لفه حول إصبعه..

وفي حماس تخلص من الحشرات الميتة وبدأ يعد المكان لاحتضان هذه السلالة الناجية التي سره أن وجد بين أفرادها خمس إناث...

وهنا نشعر بالقلق..

ونود ان نصرخ في (يوسف) ألا يفعل..

لقد تحملت هذه الحشرات جرعة قاتلة من ال (د. د. ت)..

وهذا يعني أنها صارت منيعة تقريبًا.. وستورث هذه المناعة للأجيال التالية..

لكن (يوسف) لا يعلم ولا يتوقع شرًا..

وهذا هو بيت القصيد...

* * *

- ٢ -

التمع ضوء البرق الفضي فاستدرنا في توتر نرمق ستائر النافذة وشعرنا بالقشعريرة..
قالت مدام (ثريا) وقد بدأ جفناها يزدادان ثقلًا:
- هل يرغب أحدكم في النوم؟
كان حديثها موجهًا لعدد محدود منا لأن رأس د. (محمد) كان قد تهاوى فوق صدره وتعالى صوت غطيطه، وكذا ألقت (سهام) برأسها للوراء وفغرت فاها.. أما (عادل) فكان يرمقني بعينين دمويتين يكاد الدم ينفجر منهما لولا غشاء الملتحمة الرقيق..
إن قصتي - كما هو واضح - لم تلق حماسًا كبيرًا..!
لكن ما عزاني كان هو د. (سامي) بجلسته المهتمة المتحفزة.. و(هويدا) التي انحنت للأمام كأنما انكسر ظهرها نصفين وقد أراحت ذقنها على قبضتها..
دعك من (شكري) العدواني المتحمس المستعد في أية لحظة لضربي..
قال (شكري) وهو يأخذ سيجارة من علبتي:
- إنها قصة لا بأس بها حتى الآن.. وهي تلعب على الوتر الإغريقي القديم: الإنسان الذاهب في إصرار أحمق إلى نهايته..
- إنه الافتتان.. الانبهار.. الفضول الذي جعلني أصر على استكمال تجربة مصاص الدماء.. وأقبل تشريح مومياء الفرعون..
ابتسم (شكري) في غموض.. وغمغم:
- الواقع يا د. (رفعت) أن اهتمامنا واحد.. ويمكن لتعاوننا أن يفضي إلى نتائج لا بأس بها.. فلديك ذكرياتك الرهيبة ولدي الموهبة..
- أشكرك.. لكني أملك بعض الموهبة أنا الآخر..
قال د. (سامي) وهو يتمطى:
- أكمل يا د. (رفعت) قبل أن تفلت خيوط القصة منا.. إن النعاس يهاجمنا وهو كفيل بأن يفسد كل شيء..

* * *

أين قد توقفت؟..
آه!.. عند السلالة التي نجت من المبيد الحشري ومحاولة (يوسف) أن يبدأ كل شيء من جديد...
لقد استغرق الأمر عدة شهور...
إلا أنه - وبعد جهد مضن - استطاع أن يتملّى جليًا السلالة (إ- ٦٠) تلهو في قفصها الزجاجي..
لقد تغيرت هذه الحشرات كثيرًا جدًا...
لونها أدنى إلى لون الدم، وحجمها يقارب حجم الجرادة، وشراستها كسمكة قرش..، صحيح أن تغير لونها أفقدها مزية هامة هي (المماهاة) أو بمعنى آخر قدرتها على الاختفاء وسط خضرة

المزروعات بعيدًا عن عيون أعدائها الطبيعيين: الطيور..
لكنه بدأ يعتقد أن الطيور تحتاج لشجاعة غير عادية كي تفكر في اشتهاء هذه المخلوقات البشعة..

* * *

كان هذا هو يوم الجمعة..
وبعد سهرة طويلة مع أوراقه وملاحظاته دخل فراشه لينام...
كم نام بالضبط..؟.. لا يذكر..
لكنه واثق أن صوت أذان الفجر كان يتسرب عبر مصراع النافذة حين سمع ذلك الأزيز المألوف..
أدرك (أنهم) في مكان ما من الغرفة معه..
وحين مد يده لمفتاح الكهرباء..، وحين فتح عينيه في دهشة، وحين نهض من الفراش باحثًا بقدمه عن خفه..
كان يتوقع كل شيء سوى ما رآه...
لم تكن هناك واحدة منها ولا اثنتان.. بل عشرات..
عشرات الحيوانات الحمراء فوق الدولاب وعلى السجادة وفوق الستائر وتحت الفراش.. وكانت تموج بالحياة والصخب وتتحرك بثقة هنا وهناك، وتتزاوج.. وتلهو.. وتستكشف المكان..
فرك عينيه متوقعًا أن يصحو من الكابوس غارقًا في العرق..
لكن كل شيء ظل كما هو..
كيف غادرت هذه المسوخ أقفاصها؟.. وكيف وصلت هنا؟..
لقد صار الأمر خطيرًا..
هرع إلى الغرفة التي اتخذها معملًا وأضاء النور ليجد أن السلالة (إ- ٦٠) هي التي غادرت قفصها الزجاجي..، الغريب في الموضوع أنها استطاعت بشكل ما أن تزحزح الغطاء الثقيل وتنسل من تحته مغادرة سجنها.. والأغرب هو أنها عرفت طريق غرفته مسترشدة بالرائحة أو الإدراك فائق الحس لا يدري بالضبط..
لقد تفوقت هذه الحشرات على نفسها..!..
وكأي مصري صميم يجد جيشًا من الحشرات على باب دولاب غرفته ؛ خلع (يوسف) خفه بغية ضرب أكبر عدد من هذه الحشرات..، وهوى به على مجموعة منها..
لكن ما حدث كان عجيبًا..
وكأنما يضرب صفحة الماء.. اتسعت دوامة من الحشرات بلمح البصر تاركة قلب الدائرة فارغًا حيث تهوي ضربته، فما أن رفع يده حتى التأمت حشود هذه الكائنات في ثقة وعادت تمارس حياتها..!..
جرى كالمجنون إلى زجاجة المبيد الحشري التي يضعها تحت الفراش وبدأ ينفث السائل السام على هذه الحشود..، لكن النتيجة كانت سلبية.. وكأنما أسعد الحشرات أن تستحم قليلًا بهذه المادة عطرة الرائحة...

المشكلة الأدهى كانت هي أن هرس هذه الكائنات مستحيل، فلو لم تراوغ.. تبقى حقيقة أن طبقتها (الكيتينية) المغلفة لها قاسية جدًا...

وكأنك تحاول هرس بارجة حربية..

وهكذا لم يبق أمامه سوى أن يجلب دلوًا وبعصا طويلة يسقط ما تيسر من هذه الحشرات في الدلو توطئة لإعادتها للقفص الزجاجي..

عملية مملة مرهقة اقتضت أربع ساعات من الجهد المتواصل..

إلا أنها انتهت أخيرًا، وأمكنه أن يعود للنوم في غرفة خالية من الأزيز..

هذا - بالطبع - بعد أن تأكد من إحكام غلق القفص..

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلمح فيها بصيص الخطر وسط ظلمات غفلته..

* * *



خلع (يوسف) خفه بغية ضرب أكبر عدد من هذه الحشرات ..

وهوى به على مجموعة منها ..

لكنه نسي (عبد العزيز)..
و (عبد العزيز) - إذا لم تكن تعلم - هو الخادم العجوز الطيب الذي يبتاع له حاجيات السوق وينظف الشقة يوميًا ثم يغادره في الظهيرة ويتقاضى خمس جنيهات في الشهر..
ومن الإهانة لذكائكم أن أقول أن (عبد العزيز) كان ممنوعًا من دخول المعمل رغم علمه بما يدور فيه..، كان (يوسف) ينظفه بنفسه إلا أنه - في الصباح التالي - وجد المعمل في حال يرثى لها من أثر أحداث الأمس.. حال لا يمكن تقويمها..
لهذا طلب من العجوز أن يعالج الأمر بحنكة..، وخرج إلى الشرفة يدخن ويرمق العالم بعينين لا تريان..
ثمة شيء يحدثه أن الأمور لا تمضي كما يجب..
إن هذه الحشرة توشك أن تكون منيعة..
وسلوكها الجماعي يثير حيرته إلى حد غير عادي..
إنها ذكية.. نشطة.. لا تتصرف بذعر الحشرات التقليدي..
فما معنى هذا؟..
يوجد حل واحد ألا وهو التخلص من السلالة (إ- ٦٠).. ربما عن طريق دفنها، وليحاول أن يبدأ من جديد باحثًا عن أجداد أغبى وأضعف لها..
نعم.. هو كذلك....
و.....
دخل من الشرفة قاصدًا المعمل مناديًا الخادم العجوز:
- (عبد العزيز)!.. ألم تنته بعد؟..
لم يرد الرجل، وهذه هي مشكلة الشيوخ.. كلهم مصابون بتصلب عظام الأذن وصمم الشيخوخة..
- (عبد العزيز).. أين أنت؟
وفي تؤدة دخل من باب المعمل مواصلا النداء:
- (عبده)!.. هل توفاك الله؟
لم يدر أبدًا إلى أي حد كان صادقًا..
هناك - جوار المنضدة - وجد أسوأ كوابيسه وقد تحقق..
لن أصف المشهد.. لكنكم تستطيعون أن تتخيلوه..
وتستطيعون أن تتخيلوا وجه (يوسف) في اللحظة التي أدرك فيها أي مأزق قد جلبه لنفسه..
وأية كارثة..

* * *

- ٣ -

الحيرة...!

الحيرة القاسية نحو ما ينبغي عمله.. وكيف الخروج من ورطته هذه..

ليس من المستحب أن يجد البوليس هذا المشهد لأن محاولة تفسيره ستكون عسيرة بعض الشيء..

وناظرًا إلى مسرح الأحداث بدأ يفهم كنه ما حدث..، والمفزع هنا أن الحشرات جذبت كم العجوز وأسقطته أرضًا.. فالعجوز لم يكسر قفصًا زجاجيًا عن طريق الخطأ كما قد يتبادر لذهنكم..

نعم.. لن أحكى التفاصيل لأن هناك سيدات بيننا لكني سأكتفي بالقول أن (يوسف) أصابه الهلع.. الهلع البري الوحشي.. فلم يدر ما يجب وما لا يجب..

كل ما فكر فيه هو إبادة هذه الكوابيس مع أثر جريمتها..

- سامحني.. فلن يضيرك هذا..

قالها موجهًا كلامه للعجوز الذي كان يعرف أنه لن يسمعه..، وهرع إلى المطبخ.. ها هي ذي زجاجة الكيروسين وعلبة الثقاب..

وبدأ يسكب السائل على الحشرات وعلى الجدران.. على كل شيء في المعمل..

ثم أسقط موقد (بنزن) على الأرض، وأشعل الثقاب وفر من الشقة سريعًا بعد ما أغلق بابها..

وفي بئر السلم دخن سيجارة بيد مرتجفة وقلب واجف.. ثم عاود الصعود ليجد - كما توقع - الدخان خارجًا من أسفل الباب..

وخرج الجيران ليروا ما هنالك وقدموا شموا رائحة الدخان، فوجدوه يحاول فتح باب الشقة في هستيريا (وكان ذعره حقيقة لا تمثيلًا)، ثم إن بعضهم استدعى رجال الإطفاء الذين اقتحموا الباب..

لقد أتت النيران على كل شيء..

وفي المعمل تناثرت ذرات رماد لم يعرف أحد كنهها، وكيف لهم أن يخمنوا أن هذه الأجسام السوداء هي ما تبقى من السلالة (إ- ٦٠)؟..

وحتى تقرير المعمل الجنائي لم ير في القصة كلها سوى خادم عجوز بائس أوقع موقد (بنزن) مشتعلًا على الأرض ولم يدرك ما حدث إلا بعد فوات الأوان...

نموذج آخر للإهمال المؤسف في حياتنا..

أما (يوسف) فقد ترك كل شيء خلفه وجاء يعيش في (القاهرة)، ولا داعي للقول إنه صار حطامًا بشريًا..

سيظل شبح العجوز يطارده.. ومشهد الحشرة البشع.. وكل ما تلا ذلك من ملابسات درامية..

لكن الله تعالي رحيم وسيغفر له أكذوبته وطموحه المدمر ما دام قد أراح البشرية من هذا الكابوس الشنيع..

دعا الله كذلك أن يغفر له جريمة حرق حشرات حية وهو يعلم أنه لا يحرق بالنار إلا خالقها، لكنه لم يكن يعرف أية وسيلة أخرى لتدمير هذه الكارثة البيئية التي أوجدها..

كان بحاجة لهدية الأيام التي لا تقدر بثمن..

النسيان..

* * *

وفي شقته الجديدة بدأ يمارس حياة رتيبة..
وأخذ يتكسب عيشه عن طريق العمل كمحرر علمي لإحدى الصحف، يرسل لها أخبارًا من نوع (دواء جديد للسرطان) و(انتهت مشكلة الصلع)..
إلى آخر هذه السخافات التي لا يمكن الإمساك بها أبدًا..
أما هوايته في ساعات فراغه فكانت هي تحقيق طموح قديم له: أن يصير بدينًا كالفيل!، وقد بذل كل مرتخص وغال من أجل هذا الطموح.. حتى برز كرشه وصار كرة من الزبد غزيرة العرق متلاحقة الأنفاس...
وهكذا..
كانت الأيام تمضي.. وجذوة الذكرى تخبو.. وسمنته تزداد.. ومقالاته تتوالى..
إلى أن ظهرت الحشرة..

* * *

جالسًا في غرفة مكتبه سمع الأزيز أولًا.. الأزيز الذي جعل شعر رأسه ينتصب وأمعاءه تتقلص..
شيء واحد في الكون يمكنه إصدار هذا الأزيز وهو لن ينساه أبدًا..
نهض في توجس إلى الشرفة الموصدة وأرهف السمع.. ثم انحنى على ركبتيه ودقق البصر..
ها هي ذي..
كانت منهكة خائرة القوى لكنها هي.. هي..!
ولقد تمكنت من الزحف تحت (شيش) الباب داخلة إليه..، ولكن ليتفحصها أولًا..
مد يده – في تقزز- إلى الحشرة الوحيدة.. ووضعها على مكتبه وتأملها في توجس.. إنه لن يخطئ هذا الشكل وهذا اللون.. إنها واحدة من سلالة (إ- ٦٠) المشئومة
لقد بحثت عنه ووجدته..
مهتدية بحاسة لا تخيب فعلت..، مهتدية برائحته فعلت..، مختبئة في ثيابه فعلت..
المهم أنها قطعت هذه المسافة الشاسعة كقط أليف يقطع البلدان في أثر صاحبه..، لم تنسه بعد كل هذه الشهور..
وقد وجدته..
فهل هي أول الغيث؟!

* * *

حبس الحشرة كي يتأكد من أنها لن ترسل إشارة بيولوجية ما لصديقاتها، ثم عاد إلى غرفة نومه يرتجف..

لم يتصور قط أن هناك حشرات ناجية لكن هذا حدث، ومن المؤكد أنه نساها في مكان لم تمسه النيران من الشقة.. أو

وهنا أدرك في رعب أن هناك احتمالًا آخر لكن يجب الإستيثاق منه أولًا..، لهذا هرع إلى الحشرة وأمسكها بأنامله وقرب عود ثقاب ملتهبًا من جسدها..

ولدهشته لم يحدث لها شيء.. وظلت تحاول التملص..

لقد كانت هنالك طفرة.. وهذه الطفرة جعلت بعض الحشرات ذات طبقة كيتينية عازلة للحرارة ولا تشتعل، وبالتالي استطاعت بعض الحشرات أن تنجو من الحريق الكبير...

ولكن هذا يعني..

نعم يعني ذلك..

يعني أنه لو عادت الى (أنثروفاجا) لزيارته فلن يستطيع القضاء عليها أبدًا!!

* * *

قلت لـ (يوسف) وأنا أضع ساقًا فوق ساق وأتأمل الغرفة:

- إذن.. هذه الحشرات لعنة أبدية..

مسح قطرات العرق من على جبينه وهتف:

- أظن ذلك.. ولو أنها تملك الذكاء الذي أؤمن أنها تملكه فهي ولابد آتية للانتقام مني كما ينتقم الابن من أبيه الذي حاول قتله!

- وكيف تمضي وقتك الآن؟

- في الترقب..!

تأملته في شرود محاولًا أن أقرر ما إذا كان مجنونًا أم عاقلًا..

لم أحاول أن أتبين ما إذا كان كاذبًا أم صادقًا لأنه بالتأكيد صادق في رعبه..

إن هذا الزميل في ورطة.. لكن من أدراه أن هناك حشرات أخرى؟

لماذا لا تكون هذه الحشرة التي رآها هي الوحيدة؟

- لأن ثلاث حشرات زارتني بعدها في مدة أسبوع!

- آه!.. فهمت...

ثم نظرت لساعتي..، إنه يحتاجني طبعًا لكن هذه مشكلته لا مشكلتي..

فلن أقضي حياتي جواره بانتظار أن يحدث شيء ما..، لهذا نهضت غير عابئ بعينية المناشدتين..

- إسمع يا (يوسف).. أنا...

- إبق معى ساعة واحدة!

- ولكن....

- ربع ساعة آخر....

أنا أفهمه تمامًا.. وهو يرتجف هلعًا من الوحدة والعودة لمخاوفه لكن ماذا بيدي أن أفعل؟.. إن لدى مشاغلي وأعباء حياتي..

- (يوسف).. إن هذا لن يغير شيئًا.. كل ما يمكنك عمله هو سد كل فتحات دارك في إحكام.. وقضاء أطول وقت ممكن بين الناس...

احمر وجهه حقًا.. ونهض صائحًا ملوحًا بكفيه:

- كذا أنت!.. مثلهم جميعًا!.. كلهم يبدون علامات الفهم ثم يهرعون للحاق بفيلم السهرة حامدين الله على أنهم ليسوا في وضعي!!

ثم أرغى وأزبد.. وشعرت به يدفعني للباب دفعًا..

- اذهب... اذهب لتحصى أرباح اليوم وتغازل فتاتك وتلتهم أفخر الطعام.. ثم تنام شاعرًا بأنك فعلت ما عليك تجاه معتوه مثلي!.. ها.. اذهب...

وقبل أن أفهم ما حدث انغلق الباب خلفي كصفعة انهالت فوق قفاي، فلم أتمالك نفسي من الشعور بالإهانة..

* * *

شارد الذهن مطرقًا للأرض أدرت وجهي لأنصرف..

وهنا استرعت انتباهي مساحة كبيرة من اللون الأحمر على درج السلم الرخامي والجدار..

دققت بصرى أكثر على ضوء المصباح الكهربي الخافت فوق الباب، فميزت عشرات.. بل مئات الحشرات متراصة على الأرض وعلى الجدار..

حشرات ضخمة حمراء اللون لا توحي بالثقة أبدًا..

حشرات أعرف وصفها.. وأعرف جيدًا معنى وجودها هنا..

لقد جاءت - كما توقع (يوسف) - ووقفت على الباب تنتظر..

كانت تتحرك حركات دوامية منتظمة عصبية بعض الشيء، كأنها تشعر بالتململ بانتظار شيء ما..

وكان منها من تعبث هنا وهناك.. ومنها من تستكشف..

لكنها جميعًا كانت تنتظر..

* * *



فميّزت عشرات .. بل مئات الحشرات متراصة على الأرض

وعلى الجدار ..

يجب أن أعبر هذه البحيرة من الأجساد المقززة طالبًا نجدة..
لكن ما إن حركت قدمي حتى وجدت أنه من المستحيل أن أطئ الأرض لأن هذه الأشياء تكدست في الموضع الذي ستهبط فيه قدمي.. من الواضح أنها تتأهب لجذب الحذاء أو شيء مماثل.. لا مخرج من هذه الناحية..
تراجعت للخلف في تؤدة وبطء محاذرًا أن تبدر مني حركة عصبية..
وقرعت الجرس في هستيريا..
مرتين.. ثلاثًا.. ولا استجابة..
بحيرة الحشرات تخضع لنوع من المد.. ولسانان أحمران يسيران ببطء نحوي...
افتح أيها الأحمق..!.. افتح..!
خمس حشرات تزحف من أعلى باتجاه يدي الضاغطة على الجرس..
- (يوسف)!.. إفتح!.. أرجوك!
بعد ثوان كالدهر سمعت صوته المتشكك من خلف الباب:
- ماذا تريد؟.. قلت لك أن ترحل للجحيم!
هذا هو ما سيحدث لو لم تفتح!
لسان أحمر ثالث يلحق برفاقه.. هل أنا أحلم أم أن هذه الحشرات تهاجم بأسلوب (الميمنة - القلب - الميسرة) العسكري العتيد؟!
- (يوسف)!.. إنهم هنا..!
- هم؟..
- افتح الباب لترى!
سمعت - حامدًا الله - صوت المزلاج ينفتح، ثم لمحت وجهه الذي اسود ما أن رأى المشهد..، ومن فمه خرجت شهقة..
وقبل أن يغلق الباب لا شعوريًا.. بادرت بحشر جسدي في الفتحة الضيقة ثم جذبته خلفي.. وأغلقت الباب بإحكام...
- إذن لقد ضعنا!..
أخذ يرددها في هستيريا وقد تفككت صواميل جهازه العصبي تمامًا.. الدموع في عينيه واللعاب يتساقط من شدقه..
- ضعنا.. ضعنا!
- أشكرك على دقة معلوماتك..
- لا تحاول يا صديقي.. لا تحاول!
عليك اللعنة!.. لست في شوق للمزيد من التوتر.. إنني بحاجة للحظة تعقل واحدة منك كي أعرف...
- هل هناك تليفون هنا؟
هز رأسه يمينًا ويسارًا أن لا..
رفعت قدمي وشرعت أهوى بكعب الحذاء على الأرض محاولًا بدقات متوالية أن أنبه الجيران..، وبعد عشر دقائق نظر لي بوجهه المتراخي المستسلم متسائلًا عما أفعله بحق السماء.

- يا له من سؤال!.. أحاول لفت انتباه الجيران..
- لا تحاول.. لا أحد بالطابق السفلي.. كلهم في المصيف!
- إذن قضي علينا؟
- بالتأكيد...

لكني لم أستسلم.. أنا لا أخاف الموت لأنه كأس سنرشفها جميعًا، لكني أمقت أن أموت على صورة طعام في أحشاء هذه الحشرات القذرة وهذا من حقي فيما أظن..

شرعت أجوب الغرفة مفكرًا..

هذه الحشرات لا تتأثر بالنار ولا المبيدات الحشرية ولا يمكن سحقها بالحذاء.. إذن كيف؟... لا بد من وسيلة ما..

آه!.. الماء.. قوة الماء الجارفة التي لا تقاومها الحشرات..

هرعت للحمام.. فوجدت خرطومًا مطاطيًا طويلًا لحسن الحظ.. فقمت بتثبيته إلى فوهة الصنبور وفتحت هذا الأخير..

وقبل أن ينهي الماء رحلته الطويلة بالداخل ركضت إلى باب الشقة وفتحته بحذر وصحت في (يوسف):

- لا تتحرك.. ابق خلفي..

واعتصرت طرف الخرطوم بين أناملي لأزيد قوة اندفاع الماء..

ثم صوبته نحو البقع الحمراء..

وانطلق الماء يكتسح الأجساد البشعة التي لم تمت لكنها فقدت تماسك صفوفها، وبدأ طريق يولد ما بين هذه الصفوف..

كنت أضغط على أسناني محكمًا التصويب ومن حين لآخر أسقط بعض الحشود من على الجدران..

ببطء نتقدم.. ببطء شديد حذر..

و...

فجأة توقف اندفاع المياه من فوهة الخرطوم..

لقد انقطعت المياه في أتعس لحظة ممكنة!

* * *

نظرت نحوه في حيرة.. إلا أنه فارقني وهرع لداخل الشقة.. ثم سمعت صوته يصرخ مفسرًا لي:

- لا شيء هنالك.. إن ضغط المياه أدى لانفصال الخرطوم من فوهة الصنبور..
- إذن أحسن تثبيته بيدك.. ولا تدعه ينفصل..

وعاد الماء يندفع وعدت أحاول تطهير المدخل إلى أن وصلت لدرجة معقولة من الفراغ تسمح لنا بالمرور دون خسائر..

- هلم يا (يوسف).. اترك الصنبور وتعال..

فلم يرد..

رفعت صوتي أكثر وأنا أرش الحائط طلبًا للإتقان:
- (يوسف).. أسرع قبل أن تلتئم صفوفهم..!
فلم أتلق - مرة أخرى - ردًا..
ركضت إلى الداخل بعد أن تركت الخرطوم على الدرج..
ودخلت الحمام فوجدت.....
لقد فات الأوان.. فات..
لم أدر - ولم يدر هو - أن الحشرات يمكنها الخروج من البالوعة كما تفعل الصراصير..، ولابد أنه كان غارقًا في محاولة تثبيت الصنبور فلم يدرك أن الحشرات قد هاجمت شقته على جبهتين كأي جيش منظم يحاصر مدينة..
من خلفه زحفت.. و..!...
لقد انتهى (يوسف) على يد ابنائه وبناته..، السلالة (إ- ٦٠) التي تكاثرت وتمكنت من العثور عليه وجعله يدفع الثمن..
انتهى (يوسف) وجاء دوري..
جريت - كما تتوقعون يا رفاق - إلى الباب والتقطت الخرطوم مواصلًا عملية الإخلاء..
من الغريب هنا أن الحشرات لم تبد متحمسة لمهاجمتي كأنها قد زهدت القتل، وكأنها جاءت في مهمة محددة وهذه المهمة قد انتهت..
وشرعت أثب درجات السلم..
إلى الشارع..
إلى سيارتي..

* * *

كانت ليلة كابوسية..
مئات الرجال يعملون في صبر...
علماء حشرات.. خبراء بيئة.. رجال شرطة.. مهندسون زراعيون..
وكانت الحقيقة المروعة التي لم يهضموها قط هي أن هذه الحشرات منيعة تمامًا..
ولم يجدوا وسيلة سوى جمعها يدويًا أو بالرفش وتكديسها في صناديق كما هي، واضطروا إلى تفكيك شبكة مجاري البناية كي يتأكدوا من أنهم لم ينسوا ذكرًا وأنثى في مكان ما..
أما عن الصناديق فقد دفنوها تحت عمق سحيق وأهالوا فوقها أطنانًا من التربة..
وأبتكر العلماء مركبًا سامًا لا بأس به طهروا به المنطقة وشبكة الصرف تحت الأرض..
وبالطبع شقة (يوسف) كلها..
لكن التعتيم الإعلامي كان كاملًا فلم يدر واحد من العامة بما حدث..
لقد عشت أهوالًا عديدة بعد هذا الحادث، وأزعم - دون ادعاء كبير - أنه لم يعد يزور كوابيسي وأنني تذكرت تفاصيله الأليمة هذه الليلة فقط استجابة لطلبكم..
إلا أنني ما زلت أجفل كلما سمعت صوت أزيز في مكان ما من شقتي.. وهو انعكاس شرطي له ما يبرره في الواقع

* * *

إن من يبحث في مراجع علم الحشرات بدقة اليوم سيجد صورة تمثل حشرة ضخمة حمراء اللون لا توحي بالثقة..

وسيعرف أنها قد انقرضت تمامًا إلا من عينات محفوظة في بعض كليات العلوم بمصر..، وسيعرف أن اسمها اللاتيني هو (أنثروفاجا) ومعناه (آكلة البشر)..

أما الإسم الدارج لها - بعيدًا عن الرطانة - فسهل تذكره..

لقد أسماها العلماء المصريون بإسم..

حشرة الشيطان....

* * *

القصة الرابعة

الزائرة ..

يحكيها: د. (سامي) وحرمه

- ١ -

أنهيت قصتي وتثاءبت.. فقد جاء دوري لأنعس بينما يحكى الأخرون قصصهم لجمهور وهمي...

قال (شكري) في جفاء وهو يتمطى:

- لا بأس بها.. لكنها بشعة أكثر منها مرعبة!

- وما الفارق...؟

- كالفارق بين سماع زئير الأسد ورؤية الأسد نفسه..!، في الحالة الأولى ينتابك الرعب.. أما في الحالة الثانية فتصدم..، وقصة الرعب الجيدة تفسح مجالًا للخيال لكنها لا تصدمك...، لا مجال في قصة الرعب الجيدة لوصف العيون المقلوعة والجثث النخرة و... و...، لكنها توحي لك بذلك..

قلت في غيظ مقاومًا رغبتي في اقتلاع عينيه:.

- تنسى أن هذا حدث لي فعلًا ولست، مسئولًا عن (الإحكام الأدبي) للأحداث..، لا يمكنك أن تقول أن (الثورة الفرنسية) ركيكة أو مفتعلة مثلًا..!

- على كل حال.. أعتقد أن أفضل قصص الليلة هي قصة د. (محمد شاهين) حتى الآن.. فهي تحمل جو التوتر والنذير الغامض وتحشد توترك.. ثم تفاجئك بأنك كنت مخدوعًا..

وهرش رأسه في إنهاك مستطردًا:

- ما دمت لم أحك قصتي بعد فإن قصصكم لديها فرصة.. والآن دعونا نسمع - أو بالأحرى نستمع إلى - قصة د. (سامي)...

تبادل د. (سامي) وزوجته النظرات ثم قال في رقة:

- حسن.. أعتقد أن مدام (سهام) قد أفسدت قصة المرآة التي كنت أدخرها لكم..، لكن عندي لحسن الحظ قصة لا بأس بها، ويمكننا أن نتبادل سردها..

قالت مدام (ثريا) وهي تدعك عينيها الحمراوين:

- إحك أنت.. وسأصحح لك التفاصيل..

* * *

قال د. (سامي):

- إن الخوف من المجهول. ومن الأشياء التي تحدث خلف ظهورنا - لخوف عتيد..، وفي حالتي كان كابوسي الخاص يتعلق بالأشياء المفزعة التي تحدث في دارنا بعد أن نتركها ونسافر..، لو أن عينًا سحرية وصفت لنا ما حدث في المكان الخالي.. فأي شيء سنراه؟..، كانت هذه الفكرة تؤرق صباي وشبابي وواضح أنها ستؤرق شيخوختي..

* * *

هي هواية التصوير الفوتوغرافي التي بدأت كل هذا الفزع..

أرى وجوهكم تتساءل عن الكيفية التي يسبب بها التصوير الفوتوغرافي رعبًا لأحد..، انتظروا دقائق وستفهمون كل شيء..

كنت - في تلك الأيام من عام ١٩٦١ - فخورًا بآلة التصوير العاكسة التي ابتعتها من (الدانمارك)، وقضيت أوقاتًا لا بأس بها أجرب عدساتها وأصور عشرات التأثيرات الخاصة..

ثم بدأت ألتقط صورًا لنباتات الظل في داري...

كنت بحاجة ماسة إلى تعلم الصبر مع كائن ممل بطيء التغير كالنبات، خاصة حين تحاول الإحساس بنموه بشكل ملموس...

وتفتق ذهني عن وسيلة مشابهة لأسلوب (تسريع الزمن) المستعمل بكثرة في تصوير النباتات والزهور. في هذا الأسلوب يتم التقاط صورة للحدث المراد متابعته على فترات متباعدة.. صورة كل ثلاث ساعات.. أو صورة كل يوم..، المهم أن عرض هذه الكادرات يجري بسرعة أربعة وعشرين كادرًا في الثانية (حسب أكثر آلات العرض شيوعًا) وهكذا يولد مشهد لم يوجد قط..

إنك بهذا الأسلوب تري غصون اللبلاب تزحف كالأفاعي متسلقة الجدران، والورود تفغر فاها كطيور وليدة، والأغصان ترقص مترنحة تجاه النور..، إنك تحصل على حياة محمومة أسرع إيقاعًا من حياتنا وأكثر إبهارًا..

لكني لم أكن أملك جهاز عرض سينمائي..

كل ما كان في جعبتي هو (فانوس سحري) متهالك، يمكنه أن يعرض الشرائح الشفافة على الحائط، وعن طريق سرعة تغيير الشريحة المعروضة أستطيع أن أخلق انطباعًا زائفًا بالحركة، وهي بالطبع ليست حركة ناعمة كالتي نراها في السينما بل هي مجرد انتقالات عصبية خاطفة كأنها تجارب (لوميير) الأولى..

لكني كنت منبهرًا بالنتيجة..

وكانت نتائج تصوير شروق الشمس باهرة.. تخيل معي الأفق المظلم الذي يبدأ في التلون.. ثم يثب قرص الشمس في ثقة وسط اللون الأحمر كي يبعث الدفء والنور من حوله..

تخيل ما يمكن أن يحدث لو صورت النباتات بنفس الأسلوب...

لكنها تجربة قاسية:

ولسوف أحتاج إلى صورة في العاشرة صباحًا وصورة في العاشرة مساء كل يوم لمدة أسبوعين حتى أحصل على نتيجة ما..، وأنا رجل مشغول.. مشغول..

ليس لدى ترف تكريس ليلي - إن لم يكن نهاري أيضًا - لهذا السخف حتى ولو كنت شغوفًا به..، خاصة و(ثريا) مصابة بفقدان ذاكرة مزمن يصعب معه أن تتذكر شيئًا كهذا..

لهذا ابتكرت جهازًا رائعًا..

هذا الجهاز هو نوع من الدائرة الكهربية التي تنغلق كلما لامست عقارب الساعة العاشرة صباحًا أو مساء..، ويتكون من منبه وعدة أسلاك وبطارية.. وقد أوصلتها بضاغط الكاميرا الذي يفتح الحاجب ويبدأ (الفلاش) في ذات اللحظة..

أما الكاميرا فوضعتها فوق حامل وأحكمت ضبط شباك رؤيتها على لقطة متوسطة لنباتاتي الجميلة، وكان موضع هذا الحامل هو في الصالة.. هنا.. قرب هذا المقعد.. هل ترون المكان جيدًا؟..

إن هذا الموضع يظهر أصص النباتات بوضوح، ويظهر كذلك مشهدًا خلفيًا عامًا للصالة كلها كما لا بد أنكم لاحظتم..

وما أن أحكمت إجراءاتي واطمأننت على كل شيء..

حتى بدأت التنفيذ..

ومن هنا تبدأ قصتنا..

* * *

كانت التجربة مسلية..

وقد اعتدت و(ثريا) سماع الى (كليك) صباحًا ومساءً، فكانت تبتسم في إعجاب وأبتسم أنا في تواضع متظاهرًا أنني لست ذلك العبقري الذي تظنه...

إن آلية اختراعي تعمل بكفاءة تامة..

كنا - كما تعلمون جميعًا - كثيري الخروج لزيارة المعارف لأننا نحب الجو الاجتماعي أو - كما يقول د. (رفعت) - نعشق ثاني اوكسيد الكربون ونكره الاوكسجين..

لكننا كنا مطمئنين في كل مرة إلى أن الكاميرا تؤدي عملها كخير ما ينبغي..

كان عداد الكاميرا يدنو من الثلاثين لقطة، وكان الشغف يملؤني لرؤية النتيجة.. صحيح أنها لن تكون في إتقان آلات التصوير السينمائي لكنها - على الأقل - ستخدم الغرض..

* * *

كنت أتردد على عيادتي بعد الظهر حيث أقضي ساعتين أو ثلاثًا مع مشاكل مرضاي...

وعلى النقيض من عيادات الأطباء النفسيين المزدحمة التي يستعملون فيها العقاقير ؛ فإن عيادة (المحلل النفسي) تعتمد على مريضين أو ثلاثة يأتي الواحد منهم ليرقد على أريكة مريحة ويثرثر عن نفسه، على حين يجلس المحلل عند رأس المريض واضعًا ساقًا على ساق يدون ما يقال في (بلوك نوت) صغير أو - إذا كان متحذلقًا - يجلس جوار بكرة جهاز التسجيل الدائرة ويكتفي بالأسئلة..

إن أساليب التحليل النفسي معقدة وتحتاج لصبر لا ينتهي..، كما أنها تحتاج لطبيب لاه عن المادة غير متعطش للكسب.. بل للمعرفة..

ومع حديث المريض المسترسل.. او حكايته لأحلامه.. أو تداعى المعاني غير المقصود.. أو تفسيره لصور مشوهة يريها الطبيب له.. أو تحت تأثير التنويم المغناطيسي ؛ يبدأ المحلل يجد خيوطًا تقوده إلى جذور مريضه النفسية وتتجمع أجزاء الصورة..

هو - بلا جدال - فن معقد لكني أحبه..

وكانت الحالة الجديدة التي تؤرقني هي (سوزان)..، فتاة في الثلاثين من عمرها غير متزوجة وعلى قدر لا بأس به من الثراء والجمال..، كل شيء فيها كان أسود.. ثيابها.. شعرها.. عينيها، وكانت تسدل خصلات شعرها على جانب وجهها الأيمن إمعانًا في الغرابة..

هذه الفتاة - قلت لنفسي - ممن يعتقدن أن غموض المرأة (موضة) لها جاذبيتها، وغالبًا ما يتضح أن هذا الغموض يخفي تفاهة وسطحية لا مثيل لهما.. إن من قرأوا (النظارة السوداء) لـ

(إحسان عبد القدوس) أو (أبو الهول الذي لا سر له) لـ (أوسكار وايلد) سيعرفون على الفور ما أعنيه..

المشكلة هي أن هؤلاء الفتيات - مدعيات الغموض - يكن دائمًا فريسة الشعور بالاضطهاد وأنه لا يوجد إنسان مرهف الحس بما يكفي كي يفهمهن..، وفي الغالب هي لم تأت للمحلل النفسي إلا لأنها (تراهن) يفعلن ذلك في السينما، ولان المحلل النفسي جزء من هالة الغموض التي تريد أن تخلقها حول ذاتها..

قلت هذا لنفسي في جزع..

وبدأت أتأهب لساعة من الملل والرغبة في طردها..

لكنها - إذ رقدت على الشيزلونج - بدأت تتكلم..، وكان ما قالته لي غريبًا إلى حد لا يصدق..

إسمها (سوزان) كما قلت لكم.. واسمحوا لي ألا أذكر باقي اسمها ولا مهنتها لأن الطبيب النفسي لا يحق له أبدًا أن يفشي أسرار مرضاه مقرونة بما يدل عليهم..



لكنها ــ إذا رقدت على الشيزلونج ــ بدأت تتكلم .. ، وكان ما
قالته لى غريبًا إلى حدّ لا يصدق ..

ومشكلتها كما قالت لي هي أنها..
-.. بلا مفر.. لا أجد مفرًا ولا مهربًا منها..
فكان طبيعيًا أن أسألها:
- ومن هي؟
- (لميس)..!
- هل هي عدوة قديمة لك أو شيء من هذا القبيل..؟
عابثت خصلات شعرها في توتر.. وهمست:
- بل أسوأ.. إنها أنا!...
- وهي تعيش داخلك؟
- بالفعل.. وتجبر جسدي على إطاعتها..
وأنا يا رفاق طبيب نفسي عتيد، شاب شعري في أروقة اللاوعي ودهاليز (الأنا العليا) وسراديب الـ (هي)..، وأزعم أنني رأيت وسمعت كل شيء.. من العجوز الذي تدعوه البعوضة لتحرير العالم إلى الفتاة التي تخشى أن تخنقها البراغيث في فراشها..
لهذا تبينت على الفور نغمة (الفصام) الشهيرة..، وهي موجودة - بدرجات متفاوتة - في كل منا بدءًا بتناقضات المزاج البسيطة وانتهاء بالصورة القصوى المريعة التي رسمها (ر. ل. ستيفنسون) في رائعته (د. جيكل ومستر هايد)..
إلا أنني تركت الفتاة تتكلم..
- أحيانًا أشعر بها تتحرك في أعماقي وتقول لي: أنا هنا أيتها الحمقاء!.. أنا حية أعرف خواطرك وأحلامك، وهذا الجسد لا يسع سوى واحدة منا.. ولن تكوني أنت هذه الواحدة، إنني أقوى شخصية منك وأذكى.. إنني أحصل على ما أريد ولا أرتجف خلف الأبواب الموصدة عاجزة عن فتحها..، لهذا لا فرصة لك أيتها الحمقاء.. لا فرصة على الإطلاق..
توقفت عن الكتابة في مفكرتي.. وسألتها:
- وهل نجحت في الاستيلاء على جسدك تمامًا؟
لهثت وأرجعت رأسها للوراء وبللت شفتيها بلسانها:
- ليس بعد.. لكنني - حين يجن الليل - وأغرق في النعاس أعرف أنها استحوذت علي، أعرف أنني أغادر الفراش وأتسلل مغادرة الدار لأعيش حياتها الغامضة التي لا أدري شيئًا عنها، إلا أنني - في الصباح - أجد آثارًا كثيرة.. تذاكر قطار.. بطاقات.. خدوشًا في معصمي كأنني كنت أجتاز دغلًا متشابك الأغصان.. جروحًا في أصابعي.. إلخ..
- ولم يحدث قط أن عدت للسيطرة اثناء ممارستها لحياتها..؟
اتسعت عينها اليسرى - غير المغطاة - رعبًا.. وهمست:
- مرات قليلة.. وكنت أجد نفسي في أماكن لا أعرفها.. أماكن غامضة مرعبة، لهذا كنت أفر من ذاتي فورًا وأترك (لميس) تتصرف، لأنها ما دامت وصلت لهذه الأماكن فهي تعرف كيف تخرج منها..
قلت بصوت رزين محاولًا تهدئة أعصابها:
- أماكن مرعبة.. هلا أوضحت أكثر..؟

نظرت لي حيث جلست عند رأسها أدون ما تقول.. وقالت:
- لا أدري.. مقابر وسط الشواهد الكئيبة.. زقاق خلفي مظلم تعوي فيه القطط السوداء في شراسة.. قفص الأسد في حديقة الحيوان وهو يرمقني في تكاسل متسائلًا عما إذا كنت أصلح للعشاء.. محرقة جثث في دولة أجنبية.. عشرات الأماكن..
مرة أخرى توقفت عن الكتابة:
- تعنين أنها ساقت جسدك لقفص الأسد؟
- بالضبط..
- لكننا متفقان على أنه لا يمكن لإنسان أن يدخل هناك، فضلًا عن أن يخرج.. ألا يعني هذا أن الأمر مجرد كابوس منك؟
صاحت في ضيق كأنما أذهلها غبائي:
- نعم.. أنت لا تعرف (لميس)..
- لكن.. هذا يعني أنها..
- نعم!.. هي شيطانة وأكثر.. بل هي تجيد اختراق الحوائط والسفر عبر المحيطات، كل هذا مستعملة جسدي الفاني الضعيف..!
.....
حتى بعد كلماتها الأخيرة لم أشعر بلحظة دهشة..
إن القصة دائمًا هكذا..، ولقد سمعت أسوأ منها بكثير.. وتفسير العامة الجاهز لهذه القصص هو مس الجن..، أنا مؤمن بالجن طبعًا لكننا نعلق على شماعته كثيرًا من الاضطرابات النفسية التي يمكن علاجها، ومن الممكن أن تكون هذه الحالة واحدة منها...
أخذت أسألها عن بيئتها ونشأتها..
فشعرت بخيبة أمل..
إن (سوزان) شخصية إيجابية مثقفة بكل ما في الكلمة من معان.. ونشأتها لا غبار عليها، فلن أجد عقدًا ولا إحباطات في حياتها من أي نوع...، وحتى شماعة (الإحباط العاطفي) التي نعلق عليها المشاكل النفسية لا وجود لها هنا..
لأن الفتاة مخطوبة لشاب مهذب وسيم أعرفه جيدًا، وأعرف أن فتيات كثيرات كن يتمنين قطع ذراعهن من أجل الفوز به...
إذن ما هي المشكلة؟
ماهي جذور (الفصام) في شخصية كهذه..؟
إن المرض العقلي ليس عدوى وليس كارثة قدرية مفاجئة.. بل إن له أرضية ممهدة في شخصية نسميها - نحن أطباء النفس - باسم (شخصية ما قبل مرضية) - ثم تأتي الصدمة.. عندئذ يولد المرض النفسي الذي قد يأخذ صورة اختلال طفيف يعرفه المريض ويفهمه ويكافح للخلاص منه واسمه (عصاب).. أو اختلال خطير لا يعرفه المريض ولا يفهمه بل ويكافح كي يقنع الآخرين به.. وهذا الاختلال الأخير نسميه (دهان)...
وهي تسمية مهذبة لكلمة (جنون)7..
كانت (سوزان) شخصية قويمة تمامًا..، وكان الحديث معها لمدة ساعتين كافيًا لإقناعي بسخف انطباعي الأول عن ادعائها الغموض...

وتدريجيًا بدأت أدرك أنها ستكون حالة مرهقة تتحدى ذكائي وخبراتي في عالم النفس..، لكنني - بالطبع - لم أصدق حرفًا مما تقول..

- لهذا أزمعت أن أحضر معي دليلًا..

قالتها وهي تعبث في حقيبتها باحثة عن شيء ما.. فسألتها:

- دليلًا على ماذا؟

- على أنني كنت هناك..

وأردفت مفسرة وهي تطبق يدها على ما كانت تبحث عنه:

- أمس استعدت سيطرتي على نفسي.. فوجدت أنني واقفة في قاعة مظلمة تملؤها نباتات الظل.. ولم يكن هناك أحد..، كنت أدرك أنني سأتلاشى بعد ثوان لهذا أمسكت بأول شيء وجدته أمامي ودسسته في جيبي لأتأكد في الصباح من أنني لم أكن واهمة..

- منطق لا بأس به.. وما هو هذا الشيء..؟

فتحت كفها لتريني ذلك الشيء، فتجمد الدم في عروقي..

لم أستطع أن أصارحها أني - في هذه اللحظة - أدركت تمامًا إلى أي حد هي صادقة..

لا يوجد سوى منديل واحد في (مصر) كلها يشبه هذا الذي تمسكه..

منديل سماوي اللون تلوث بعصير المانجو وبه أثر حرق من سيجار مشتعل.. وعليه الحرفان الأولان من اسمي..

لأنه منديلي الذي نسيته في قاعة الجلوس أمس..!

* * *

- ٢ -

توقف د. (سامي) عن الكلام وأخذ يتأمل وجوهنا في استمتاع إذ أثار شغفنا إلى حد كبير..
قال (شكري) وهو يرشف القهوة التي أعدتها له مدام (ثريا) كي يحتفظ بحيويته وتحفزه المزعجين:
- لا بأس بتاتًا.. لقد نجحت في بعث التوتر في عروقنا.. وأعتقد أن النعاس قد فر من عيون الكثيرين..
قلت أنا وقد بدأ وعي يتلاشى حتى أنني كنت أجد صعوبة في ترتيب أفكاري:
- هناك من تحدث عن تصوير النباتات.. من هو؟.. وماذا حدث في قصته هذه؟!..
ابتسم الجالسون في رقة.. وتبادلوا النظرات، ثم قال د. (محمد) وهو يربت على خدي:
- صح النوم!.. إن تصوير النباتات هو قصتنا الحالية هذه!
- حقًا؟.. و.... و... ماذا حدث فيها؟
- لم يحدث شيء بعد..
- إذن لماذا تحدث.. ما اسمه بالضبط؟.. د. (سامي).. نعم.. هو كذلك.. لماذا تحدث عنها؟
- هذا ما سنعرفه حالًا..
قال د. (سامي) في لهجة معتذرة:
- لم يكن هذا إطنابًا يا د. (رفعت).. صدقني.. فقط اصغ لباقي القصة..
- حسن.. حسن.. قل ما عندك...

* * *

تناسيت هذا الحادث الغريب..
ولم أشعر الفتاة بما يعتمل في ذهني من خواطر سوداء على أنني كنت أترقب اليوم الموعود في شغف حقيقي..
لقد انتهى الفيلم الذي ظللت ألتقطه في صبر طيلة أسبوعين وثلاثة أيام وأمكنني أن أعيد تعبئته وإرساله للتحميض..
وبعد ثلاثة أيام وصلني مظروف به ستة وثلاثين كادرًا شفافًا، فقمت بترتيبها - بحسب رقم اللقطة - في منصة العرض الدائرية للفانوس السحري..
وناديت (ثريا) التي أعدت لي كوبًا من الليمون إمعانًا في الاستمتاع والتلذذ بالحدث الذي جعله خيالانا ديناصوريًا..
أطفأت النور وأضأت كشاف الجهاز فارتمت الصورة على الشاشة تظهر أكبر عدد من نباتاتنا الحبيبة..
وبدأت أتأمل الكادرات ببطء في البداية على أن أزيد سرعة التحريك فيما بعد حين أتأكد من جودتها جميعًا..

وكانت (ثريا) أول من لاحظ..
في الكادر السابع كان ثمة شيء غير مألوف..
ووجمنا ونحن نرمق ما نراه، عاجزين عن تفسيره...
- هو جزء من ساعد واصابع يد..
قالتها (ثريا) ووثبت إلى الشاشة لتشير بإصبعها شارحة وجهة نظرها، تلك الوجهة المعقولة إلى حد كبير..، فمن طرف الكادر الأيمن كان هناك شكل مبهم - لقربه من العدسة. لكنه يتشكل في صورة ساعد ويد مفتوحة الأصابع.. إن هذا لغريب!
- هل هي يدك؟
- أنت تعرف أن هذا الركن محرم علينا منذ بدأت مشروعك..
- إذن يد من هي؟...
- يد شخص مر أمام الكاميرا في العاشرة من مساء اليوم الثالث...
- وهل هذا طبيعي؟.. لا يوجد سوانا في هذا البيت..
- استمر في العرض وسنرى..
وبدأت الكادرات تتوالى...
وفجأة - عند الكادر السابع عشر - لمحنا شيئًا آخر..
كان هناك كتف.. نعم كتف يدخل من إطار الكادر الأيسر.. وكالعادة بلا تفسير..
وتوالت الكادرات..
الكادر الحادي والعشرون كان يظهر شيئًا قريبًا من ظهر فتاة ترتدي ثيابًا سوداء تمامًا، أما الكادر الثلاثون فكان ظلامًا كله كان هناك من كان يقف أمام العدسة لحظتها..
ما معنى هذا؟
معناه أن هناك من يتسلل إلى دارنا..
وهذا التسلل حدث في العاشرة مساء من اليوم الثالث واليوم الثامن واليوم العاشر والخامس عشر.. من بدء التجربة..
- لقد خرجنا في اليوم الثالث لزيارة آل (محفوظ)..
- بل آل (منصور)...
وخرجنا في الأيام التالية جميعًا..
قالت (ثريا) وهي تتأمل إحدى الصور:
- معنى هذا أن هناك من كان ينتهز فرصة مغادرتنا للدار كي يدخلها..
شردت نظرتي وأنا أقلب في ذهني الاحتمالات:
- ولكن.. هل سُرق شيء من الفيللا؟.. لا أظن..
- لم يسرق شيء.. أنا واثقة..
عدت أفكر بصوت عال وأنا أرشف الليمون:
- إذن لماذا يتسلل أحد للفيللا؟.. ثم تخيلي أنك لصة - لا سمح الله - دخلت إلى دار غاب أهلها، ثم.. هوب... يسطع فلاش الكاميرا وتعرفين أنهم أعدوا طريقة ما لالتقاط الصور أوتوماتيكيًا.. عندئذ ماذا تفعلين؟

- بالطبع أحاول تدمير الكاميرا أو الفيلم لأن عليه دليل تسللي، أو أفر من الدار ولا أعود لها أبدًا..

. لكن المتسلل لم يفعل هذا.. فما سر ذلك؟..

لم تجد إجابة..

وكذا أنا....

ظللنا صامتين نرمق الكادر شاردي الذهن..، ثمة خطر يتهددنا لكننا لا نعرف كنهه.. شرخ في جدار أمننا يتسع ببطء..

وبالطبع نسينا كل شيء عن تجربة النباتات!

* * *

لم يكن منطقيًا أن نبلغ الشرطة..

إذ لم يسرق شيء من الفيللا على الأقل في الوقت الحالي..

المنطقي هو أن نتأكد من غلق الأبواب والنوافذ بإحكام عند مغادرتنا لها، والمنطقي كذلك أن نعيد التجربة مع شيء من سعة الأفق..

أما المنطقي أكثر من كل هذا هو أن نخرج ثم نعود للفيللا في (كبسة) مفاجئة في العاشرة مساء..

ولقد نفذنا كل هذا بدقة تمامًا..

ونقلنا الكاميرا إلى ركن قصى من الصالة يتيح لها التقاط صورة شاملة لكل ما يحدث، وبالتالي لن تحوي الصور القادمة أجزاء من فتيات غامضات بل الفتيات أنفسهن..!

وفي اليوم الأول تعمدنا الخروج محدثين أكبر ضجة ممكنة ليعرف من يراقبنا أننا خرجنا...

ولم نعد في العاشرة مساء لنترك فرصة أكبر للمتسلل..

أما في الأيام التالية فكنا نعود في أوقات مفاجئة، لكننا - كما هو واضح - لم نلق ما يريب..

وبعد خمسة أيام اخذت الفيلم لتحميضه، على صور هذه المرة وليس شرائح فانوس سحري.. وذلك لنسهل تداولها ودراستها..

فماذا - تتوقعون - كانت النتيجة؟..

نعم.. هو كذلك.. لم يظهر المتسلل سوى في الصورة الأولى..، أي أنه لم يأت سوى مرة واحدة أو هو توقع عودتنا في المرات التالية فلم يأت..

كانت الصورة مألوفة لي.. مألوفة تمامًا..

الغريب أنها كانت تقف في مواجهة الكاميرا في ثقة مزعجة، كانت تعرف أن صورتها تلتقط.. وتريد أن تظهر استهانتها بنا..

الثوب الأسود والشعر المنسدل يغطى نصف الوجه والوقفة الشامخة..

ألم تعرفوها بعد؟.. هل نسيتم قصة المنديل..؟

إنها (سوزان) طبعًا..

أم هل أقول.. (لميس)؟!

* * *

في هذه المرة قمت بإبلاغ الشرطة..
وكان ضابط البوليس هو (عادل)، ولعل هذا هو سر صداقتنا.. وأنتم لم تنسوا بعد استشارته لي في قضية المرآة المسحورة إياها..
وكان (عادل) نشيطًا.. بل جم النشاط..
خطته انقسمت إلى جزءين: الجزء الأول هو العثور على الفتاة ومواجهتها بصورتها.. وهذا سهل لأن لدي اسمها وعنوانها ورقم تليفونها..
الجزء الثاني: هو تدبير كمين لها في ليلة نغادر فيها الفيللا..
لكن الجزء الأول كان سلبيًا.. لأن الفتاة تعمدت إعطائي معلومات مزيفة عن بيئتها، وحتى خطيبها الذي كنت أعرفه لم يكن خطيبها ولم يرها في حياته.. هكذا أخبرني في النادي..
كانت تكذب بإحكام لتملك هي زمام المبادأة.. فلا تراني إلا حين تريد هي..!..
أما الجزء الثاني فلم يسفر عن شيء بعد أسبوعين من مراقبة الفيللا.. ولولا الصورة لاعتبرني (عادل) مخرفًا..
لقد ذابت الفتاة.. تبخرت...
- لكنها لم تؤذك ولم تسرقك!
قالها (عادل) مواسيًا.. فصرخت في حنق:
- وهل هذا سبب كاف كي أشعر بالسعادة إذ تدخل (الفيللا) كل ليلة لتفتشها ركنًا ركنًا؟!..
- ثم.. كيف تدخل؟
في حنق نظرت له.. وتنهدت هامسًا:
- أنت لا تعرف (لميس)!

* * *

وقضيت و(ثريا) أيامًا سوداء كقلب الكافر.. الشرخ في جدار أمننا صار أخدودًا.. ثم فالقًا جيولوجيًا يوشك أن يبتلع حياتنا كلها..
لو أخذنا بظاهر الأمور أيقنا أن الفتاة صادقة في كل حرف قالته لي، وهذه الـ (لميس) تأخذها - بعيدًا عن كل قوانين الطبيعة - إلى أماكن غير عادية، ولم تكن الفتاة كاذبة حين وصفت لي قاعة الجلوس في الفيللا بدقة.. بل وكان معها دليل مادي لا يدحض..
ثم جاءت صور الكاميرا لتدعم القصة..
وهنا - يتساءل أحدكم - لماذا بيتي بالذات؟!
إن الإجابة غير مشجعة على الإطلاق..
متشبثين بحبال الطب النفسي إلى النهاية، فتذكر أن الشخصية الثانية في حالات (الفصام) تمقت المعالج بشدة باعتباره يحاول تدميرها لصالح الشخصية الأولى..
وهكذا يسهل معرفة سر زيارة (لميس) المتكررة لداري...
إنها - بدقة علمية - ترغب في الخلاص مني..

أو هي تدبر لي شيئًا ما سيكون وبالًا فوق رأسي..
والفالق يتسع أكثر...

* * *

وفي تلك الليلة..
كانت عقارب الساعة تدنو من العاشرة..
وكنت أنا مختبئًا خلف مقعد في قاعة الجلوس.. نعم... هو ذلك الكرسي الذي تجلس فوقه يا د. (رفعت)!.. هو ذاته..
كنت أنتظرها.. ولم أتوقع أنها ستأتي..
لكنها جاءت..
وفي ضوء القاعة الخافت لمحت ثوبها الأسود، ووسط الصمت المطبق سمعت حفيف ثوبها وقرعات كعبيها..، كانت تسير في تؤدة..
وانتصب شعر رأسي..



ووسط الصمت المطبق سمعت حفيف ثوبها وقرعات كعبيها ...

كانت تسير في تؤدة ..

لم يعد هناك مجال للشك في حقيقة الأمر..، إن هذه الفتاة قد خرقت كل حواجز الطبيعة، واجتازت الأبواب المغلقة والنوافذ الموصدة لتكون هنا..

إنها (شيء) ولا يمكن ان تكون كائنًا بشريًا..

وفي ذعر امتدت يدي إلى مفتاح النور فساد الضوء المكان.. رفعت وجهها نحوي في بطء.. وابتسمت ابتسامة غامضة..

كانت شاحبة... لكنها هي هي.. ذات الملامح والشعر المنسدل، لكن في ملامحها كانت هناك قسوة غير عادية..

- (سوزان)!

كذا ناديتها فلم يبد عليها أنها سمعت شيئًا..

- (لميس)!

بدأت تستجيب أخيرًا..، وفي برود - كلوح ثلج يتهشم - تساءلتُ:

- أنت؟

- بالطبع أنا..

ارتسمت ضحكة وحشية على ثغرها، وبدأت تسير نحوى في تؤدة..

- جئت أراك وأسألك.. لماذا تريد قتلي؟

- أنا؟.. ولماذا؟

- من أجل المخلوقة التافهة (سوزان).. أنظر!.. هي لا تخترق الجدران ولا تطير ولا تلتهم النيران.. أما أنا فأفعل..!

وتقلص وجهها وهي تواصل التقدم نحوي.. وأردفت:

- إنك قد اخترت المعسكر الخطأ..

ولمحت نصل سكين يلتمع في يدها.. أخرجته من حزامها الفضي..

- وعليك أن تدفع الثمن..!...

صحت وأنا أثب للوراء محاولًا أن أطيل اللحظة الفاصلة قدر الإمكان (وحتى لا أستسلم للهلع):

- (لميس)!.. كفي عن هذه اللعبة!

- أية لعبة؟

- لعبة الجنون.. إنك ترين الكثير من الأفلام، وتعتقدين أن الفصام يزيد من غموض المرأة وسحرها..

وازددت تراجعًا للوراء محاذرًا أن أصطدم بقطع الأثاث:

- لكنك لن تخدعيني أبدًا..

همست بصوت كفحيح الأفعى وهي ترفع السكين:

- كنت أنتظر هذه اللحظة.. لكنى شئت أن أفزعك أولًا.. أن أتركك تتساءل عن كنه ضيفتك الغامضة أيامًا وأيامًا..

وانقضت على صارخة بالفرنسية (دون مبرر في الواقع):

- لقد انتهت الكوميديا!!

كانت قد صارت في النقطة المناسبة تمامًا..

وحين لمست الحبل، وانطلقت مجموعة الميكانزمات المعقدة التي أعددتها لها في صبر، وحين سقطت شبكة الصيد المعلقة بإحكام من السقف لتكبل حركتها.. كنت آمل ألا يكون الفكاك من الشباك جزءًا من مواهبها الخاصة...

أجل.. هي طريقة بدائية شبيهة بأساليب قبائل (الزولو) في صيد النمور لكنها كانت تعمل بكفاءة، ولقد قضيت أربع ساعات مع (ثريا) صبيحة اليوم نجرب إمكانات هذا الاختراع.. ثم أننا تظاهرنا بالخروج بسيارتنا في التاسعة مساء توطئة لأن أعود أنا متسللًا أنتظر الزائرة..

الزائرة التي تتلوى في شباكها كالنمر دون أية مبالغة أدبية..

لو لم نكن في المدينة مكبلين بالقوانين لطعنتها برمح واسترحت بالًا..

لكني مرغم على طلب الشرطة للأسف وبسرعة قبل أن يتمكن هذا الوحش الكاسر من تمزيق سجنه بالسكين.. عندئذ لا يعلم سوى الله ما قد يحدث...

* * *

وجاء رجال الشرطة وحملوها - كالخنزير البري الهائج - إلى المكان الأخير الباقي لها كي تذهب إليه..

وقالوا لي أنني نجوت بأعجوبة، وأن الزملاء في مستشفى الأمراض العقلية سيواصلون مسيرتي، وقالوا إنهم آسفون على عدم تصديقي في بدء الأمر لأنهم لم يملكوا خيطًا واحدًا يقودهم إليها..

قالوا هذا وسمعته..

لكني كنت أدرك أن المأساة لم تنته بعد، وأننا لم نصل للنهاية السعيدة المطلقة التي تختتم بها الأفلام السينمائية..

إن في القصة جانبًا غير مادي لم يتضح بعد..

إذ كيف دخلت هذه الشيطانة داري عشرات المرات؟!

* * *

ومرت الأيام في هدوء تام..

وكنت أتردد على عيادتي بانتظام كما هي العادة..

إلى أن جاء ذلك اليوم...

ذلك اليوم الذي فتح فيه الباب ولمحتها داخلة..!

كانت أسنانها النضيدة البيضاء تنفرج عن ابتسامة مشرقة معسولة، وكانت ترتدي ثيابًا زاهية اللون وقد عقصت شعرها..

أما أنا.. لا داعي لوصف ما حدث لي لحظتها..

لقد وثبت مترًا إلى الوراء ومترين لأعلى.. وقفز قلبي إلى حلقي كالبرغوث..

صحت في صوت مختنق:

- أنت؟

هزت رأسها يمينًا ويسارًا في مرح.. وهتفت:

- افتقدتني؟ كنت منشغلة إلى حد ما..

وجذبت كرسيًا.. وجلست عليه وقد وضعت حقيبتها على ساقيها كأن شيئًا لم يحدث، وكأنها بانتظار لحظة البدء..

- لـ.. لحظة من فضلك..!

وبيد مرتجفة مددت إصبعي لقرص التليفون وطلبت رقم مستشفى الأمراض العقلية.. ثوان ثم ردت ممرضة ملول فسألتها عن د. (صابر) صديقي..، وبعد دقائق سمعت صوته يتساءل عما هنالك..

خفضت صوتي إلى درجة الفحيح.. وهمست:

- د. (صابر).. هذا أنا.. (سامي).. نعم.. بخير.. بخير.. كلهم على ما يرام.. لا وقت للاجتماعيات أرجوك!.. قل لي.. متى خرجت تلك الفتاة من عندكم؟.. الفتاة المصابة بالفصام...

سمعت صوته المعدني من السماعة يهتف:

- من؟.. تعني (سوزان) أو (لميس)؟.. بالتأكيد هي ما زالت في ضيافتنا.. فمن قال أنها خرجت؟!

- مـ.. متأكد؟

ضحك لثوان ثم سمعت صوته الواثق يردد:

- طبعًا!.. بل إنها جالسة في مكتبي في هذه اللحظة.. هل تريد أن تحدثها؟.. هاك هي!.. د. (سامي) يريد أن يحييك يا (سوزان)!

رفعت عيني إلى الجالسة أمامي وكانت ترمقني بنظرة ثابتة فيها سخرية خفيفة، على حين سمعت الصوت المألوف في السماعة:

- د. (سامي)..!.. كيف حالك؟.. أريد أن أعتذر عن كل الإزعاج الذي سببته لك..!.. إنهم هنا طيبون حقًا وإنني لأتحسن باستمرار..

هيه!.. د. (سامي)..!.. لا تحقد علي.. لماذا لا تجيب؟!

في بطء أعدت السماعة لموضعها ورفعت عيني نحو الجالسة أمامي..

- ما بك يا د. (سامي)؟.. كأنك ترى شبحًا!

قالتها بنفس النظرة الغامضة الساخرة..

وهنا تصلب جسدي.. ووقفت ببطء شديد.. وبصوت لم أعرف أنه صوتي سألتها:

- من أنت؟

- هل تمزح؟

- بل.. ما أنت؟!

- ياله من سؤال!.. أنا (سوزان) بالطبع..

- إذن من هي نزيلة المستشفى؟

قالت في بساطة وهي تنقل ساقًا فوق ساق:

- وهل هناك نزيلة في المستشفى؟

كنت قد انتهيت تمامًا.. ولم أدر تمامًا حقيقة ذلك الذي أفعله، لكني كنت أضرب المكتب بقبضتي.. وأصرخ في هستيريا:

- إسمعيني أيتها الفتاة!.. أنا لن أتحمل أكثر!.. ابحثي عن أحمق آخر تتسلين عليه بألاعيبك.. أما أنا فقد انتهيت تمامًا..

وكانت هي محافظة طيلة الوقت على وقار جلستها.. مكتفية بأن تطقطق بشفتيها في تصعب مرددة عبارات من نوع:

- كذا؟.. حقًا؟.. يا للخسارة!..

وكنت قد وصلت للنهاية فأرجعت ظهري للوراء وغطيت وجهي بكفي.. ولذت بالصمت..

ساد السكون الثقيل اللزج بضع دقائق..

ثم إنني رفعت وجهي نحوها.. وهمست:

- اذهبي!.. أنا لن أستطيع معاونتك!

- ولكن...

- اذهبي عليك اللعنة!!

نظرت لي لحظة ثم أنها جمعت حقيبتها واتجهت للباب في تؤدة وكبرياء..، وعلى الباب استدارت ونظرت لي نظرة خاوية من المعنى ثم أغلقته وراءها...

* * *

في الصباح التالي على مائدة الإفطار بدأت أشعر بالتحسن..

كأن حملًا ثقيلًا انزاح عن كاهلي..

وهنا سمعت زوجتي تقول وهي تضع الصحيفة أمامي:

- هل قرأت هذا الخبر..؟..

توقفت عن المضغ وأنا ألمح صورة (سوزان) في ركن الخبر العلوي..

ولم تكن عيناها مفتوحتين بل مغلقتين.. وخصلات شعرها الأسود كالمبتلة تغطي أكثر وجهها.. كانت ميتة.. ميتة جدًا..!

وبيدين مرتجفتين وعينين زائغتين عرفت أنها وجدت غريقة في النيل وأنهم لم يعرفوا من هي قط....

أنا فقط كنت أعرف...

أنا الذي بادرت بالاتصال بالمستشفى سائلًا عنها، والجواب - كما توقعت - هو أنها اختفت أمس في السابعة مساء..

زنزانتها أو حجرتها - كما قالوا - كانت محكمة الغلق لكنهم لم يجدوها بالداخل، وفتشوا كل مكان دون جدوى..

لكنهم لم يعلموا أنها في أعماق النيل في تلك اللحظات.

* * *

وتبقى أسئلة بلا جواب...

هل انتحرت (سوزان) لتستريح من المس الشيطاني الذي أصابها، والذي لم يعد لدي شك في وجوده؟..

أم أن (لميس) حاولت أن تسبح بهذا الجسد الذي لا يجيد السباحة في مغامرة طائشة أخرى من مغامراتها..؟

ومن هي التي جاءتني بالأمس؟..

هل هي (سوزان) أم (لميس)؟.. ومن هي التي كانت في المستشفى؟.. وكيف وصل الفصام إلى درجة انقسام الجسد المادي ذاته؟!..

إن رأسي ينفجر..

بل - الأدهى - هل هلكت فعلًا أم أنها حاولت إقناعها بذلك؟.. التفسير الوحيد لكل هذا هو المس الشيطاني - نعوذ بالله من الشيطان الرجيم - الذي أصاب تلك الفتاة، وبالتالي خرج الأمر من دائرة المنطق والماديات إلى آفاق ما وراء الطبيعة..

ولا داعي للقول أن الكابوس سيعيش حيًا فينا ما حيينا..

وأنني - حتى اليوم - أترك الكاميرا من حين لآخر كي تلتقط صورة تلقائية للقاعة عند خروجنا، فقط لأتأكد من أنها لم تعد..

* * *

لقد ظنت البائسة أن شفاء المريض من جرثومة الدرن لا يكون إلا بقتله!، ربما كان هذا سخفًا.. وربما كان جنونًا.. لكني لا ألومها كثيرًا.. لقد كانت مريضة.. وطلبت العلاج.. لكن الطبيب لم يدر كيف يتصرف...

نسيت أن أقول لكم شيئًا أخيرًا..

إن الصور التي التقطناها لها قد مرت بنوع غريب من التحلل العضوي فلم يعد لها أثر..

لقد رحلت الزائرة بعيدًا حاملة كل ما قد يذكرنا بها..!..

* * *

القصة الخامسة

أنا و (العاقّ) !

تحكيها : (هويدا)

- ١ -

الساعة تدنو من الرابعة صباحًا... لقد انتهت بالفعل أية فكرة للعودة إلى ديارنا (هذه الليلة)..
لا أدري متى ولا كيف انتهت لكننا فجأة أدركنا حقيقة أننا (غدًا) ..!
قال (شكري) في عصبية قاذفًا بعقب سيجارته إلى الأرض (ثم تذكر أنه ليس في داره فالتقطه ودفنه في المطفأة):
- أنا أمقت النهايات المفتوحة!
قلت وأنا أتثاءب:
- وأنا أحبها!.
- أحب وضع النقط فوق الحروف.. من فعل ماذا ولأي غرض؟..
هذه هي ميزة القصة.. أن تضعك في وضع المراقب اليقظ العليم.. فإذا لم تحقق لك هذا فما جدواها إذن؟.. وما الذي يميزها عن الحياة؟!
قال د. (سامي) في بساطة:
- أنت مُصر يا أستاذ (شكري) على اعتبار قصصنا مؤلفة.. ولكن هذا هو ما حدث بالضبط.. يمكنك أن تحبه أو لا تحبه لكنه حدث!...
وكما قال د. (رفعت) لا يمكنك أن تتهم الثورة الفرنسية مثلًا أنها ركيكة!
هرش (شكري) لحيته في ضيق.. وغمغم:
- كنت أصبو إلى اتضاح الأمور و..!..
وهنا سبحت الغرفة في الضوء الأبيض الخاطف الجزء من الثانية.. وثبنا كالملسوعين من مقاعدنا ونحن بعد لم نعرف ما الذي نعتقده.. لكن د. (سامي) رفع كفه في تؤدة وهتف:
- إنه ميعاد التصوير الجديد!.. هل نسيتم؟.. لقد أعددت لكم مفاجأة صغيرة لأختبر أعصابكم بعد قصتي..!..
وهنا برزت مدام (ثريا) من خلف الستار حاملة الكاميرا وفوقها الفلاش.. وكانت تضحك في تشف حقيقي...
- يا لها من فكرة!
- إذا كان المطلوب هو الرعب في حد ذاته.. فلا تنكروا أنني قد وفقت إلى حد كبير..!.. لقد وثبتم من مقاعدكم ككرات البنج بونج!
قالت (هويدا) وهي تتنهد وتستريح في جلستها:
- لقد صارت أعصابي كالزنبرك المشدود.. وسأنفجر صارخة في وجه أي شخص في أية لحظة!
أشرت لها.. وابتسمت:
- لقد جاء دورك في الإرعاب بعد الارتعاب..
نظرت للسقف في حيرة وخجل.. ثم غمغمت:
- دوري أنا؟

- طبعًا..
- قصة مرعبة؟
- نعم.. ولكن لا تحكي قصة المرآة لأن (سهام) حكتها.. ولا تحكي قصة الفرعون (أخيروم) لأنني حكيتها للقراء..
قالت وهي تحملق في السجادة معابثة نقوشها بطرف حذائها:
- إن هذا صعب.. ولكن.. مهلًا.. عندي قصة أعتقد أنها ستشد اهتمامكم إلى حد ما..، أنت تعرفين (ميمي) صديقتي يا (سهام) وتعرفين مشاكلها بعد سفر زوجها (بلبل) للخارج تاركًا إياها وحيدة مع (مشمش).. إن (ميمي).....
قاطعتها في كياسة:
- أ... (هويدا).. هل يضايقك كثيرًا ذكر الأسماء الكاملة بدلًا من أسماء التدليل المستفزة هذه؟!.. سيكون صعبًا علي أن أتذكر من هو (بلبل) و(مشمش) و(ميمي)..
نظرت لي في ضيق.. وهزت رأسها مستسلمة:
- ليكن.. ولكن لا تقاطعني ثانية..!...

* * *

قالت (هويدا):
- أنا أمقت الأطفال...، أعرف أنه من العار أن تعترف امرأة بذلك.. لكنكم لستم أغرابًا..، نعم أنا أمقت الأطفال خاصة حين يصلون إلى السن الكريهة التي يمكنهم فيها جذب ذيول القطط وكسر المزهريات الثمينة.. السن التي تتلوث فيها أنوفهم بالمخاط وركباتهم بالميركيروكروم ويصدرون أصواتًا سخيفة عند اللعب..!
أمقتهم.. ولم أكن متجنية تمامًا في ذلك...

* * *

- (هويدا).. لقد توفيت خالتي!
قالتها وانفجرت في البكاء..
- (مها)!.. لا عليك يا حبيبتي.. كلنا سنشرب ذلك الـ..... إلخ.. إلخ...
شرعت أواسيها عبر سماعة الهاتف لكنها - بالطبع - لم تصغ لحرف من كلامي..
ثم إنها استنشقت دموعها.. وهتفت عبر السماعة:
- (هويدا).. لقد جاءني الخبر من (كفر الزيات) منذ دقائق.. وعلي أن أذهب هناك الآن..
كانت (مها) تعيش وحدها في (الإسكندرية) بعيدًا عن عائلتها التي احتشدت كلها في (كفر الزيات)، وكان زوجها قد سافر للخارج لكنها لم تستطع ترك الدار والإقامة في مسقط رأسها.. وذلك لظروف العمل ومدرسة (مجدي) ابنها الوحيد..
وكنت أعرف ما ستطلبه بالتأكيد لأن امتحانات ابنها تبدأ بعد غد، ولا يمكنها إضاعة وقته بالسفر معها.. ولا يمكنها ألا تسافر.. من ثم...
- أريدك أن تعني بـ (مجدي) حتى أعود..

- لا مانع..
قلتها بصوت مبحوح لأنني - كما قلت لكم - أمقت الأطفال، لكن نداء الواجب لا يعرف الميول الشخصية..
لهذا أردفت في استسلام:
- هل تحضرينه لي أم آتي لأخذه؟!
- لا يا حبيبتي.. أريدك ان تأتي لتمضي الوقت معه هنا..
لأنه - كما قالت لي- لن يستطيع أن يركز أفكاره في بيئة مغايرة - وربما معادية - مثل بيتي.. وقد أثار هذا حنقي.. إن هذا (المفعوص) في السنة الثالثة الابتدائية فأي شيء ستفعل وتقول حين يصير في الثانوية العامة!!
- ولكني لن أترك أمي..
- لن أتأخر يا (هويدا).. أقسم لك.. سأعود مع الليل.. وعندئذ تعودين مشكورة لدارك، على أنني سأطلب منك ذات الشيء غدًا..
- فليكن...
إن بضع ساعات لن تضر أحدًا خاصة ودارها قريبة من داري ولن يكون الانصراف مشكلة..
وهكذا.. ذهبت لأعمل (جليسة أطفال) دون أجر..

* * *

ما أن دخلت من الباب حتى ارتمت (مها) في أحضاني دامعة العينين ذابلتهما..، وأخذت تنهنه وتمخط على كتف ثوبي الجديد وأنا أردد عبارات من نوع (كلنا سنموت، استراحت المسكينة، البركة فيك)..
حتى غلبني البكاء فشرعت أبكي معها..
ثم أنها أغلقت أزرار ثوبها الأسود وقادتني إلى الداخل..
وكان طفلها (مجدي) واقفًا يرمقني ممسكًا بقط أبيض ضخم..
(مجدي) الذي طالما وصفته امه بأنه يملك من الذكاء ما يفوق سنه بمراحل وبشهادة كل المربين الذين صادفوه..



وكان طفلها (مجدى) واقفًا يرمقنى ممسكًا بقط أبيض ضخم ..

وحين رأيته عرفت أنه هو..!
ذلك الطراز المزعج من الأطفال الوقحين المدللين المدمرين الصاخبين المتوحشين المخربين القذرين الكذوبين الـ..... كل الصفات القاتلة التي يمكنني تعدادها إلى يوم الدين..!
لقد وقعت في الشرك ولا حول ولا قوة إلا بالله..
كانت (مها) تهرول بفردة حذاء واحدة هنا وهناك شارحة لي (طقوس) دارها.. وإلى المطبخ قادتني وأشارت إلى الموقد:
- هاك.. أرز وبطاطس أعددتهما له على عجل.. إذا جاع مساء يمكنك أن تطعميه... و....
وهرعت إلى الثلاجة وفتحتها وهي ترتدي فردة الحذاء الأخرى:.
- هاك.. مياه غازية وآيس كريم.. في الثامنة مساء بعد أن يتناول عشاءه... و....
ثم التقطت حقيبتها وهرعت إلى الباب.. وهتفت قبل أن تخرج:
- خذي الحذر.. ولا تدعيه يشنق القطة فهو يحاول ذلك من شهور..!
- يشنق ماذا؟!!
- القطة.. ولا تدعيه طبعًا يأكل الصبار الموجود في الشرفة..!
ثم أنها عانقتني.. وانفجرت باكية:
- آه!.. يا خالتي الحبيبة!
ودعتها على السلم وأنا لا أرى شيئًا من الدموع أنا الأخرى..
ثم عدت لأبدأ مهمتي المستحيلة..

* * *

كان واقفًا في الصالة كما تركناه واضعًا يده في جيبه وبيده الأخرى يمسك بالقطة..
وكانت عيناه وقحتين شرستين إلى أقصى حد..
قلت له في حزم وأنا أشير إلى غرفته:
- والآن يا (مجدي) اترك القطة وابدأ المذاكرة..
لم يبد علامة توحى بسماع ما قلت.. وفي برود سأل:
- أنت المربية الجديدة..؟
- أنا صديقة أمك..
- وستعنين بي؟
-.. وأجبرك على المذاكرة كذلك..
- وكم دفعت لك أمي؟!
صعد الدم إلى رأسي.. وصحت به:
- كف عن الوقاحة وادخل غرفتك..!
لثوان التقت عينانا وتصادمت الإرادتان.. ثم خضع أخيرًا وألقى بالقط على الأرض وهتف وهو يهز كتفه:
- لقد ذاكرت بما يكفي..

- إذن زد على ما يكفي..
نظر في عيني.. وابتسم - أوقح ابتسامة رأيتها في حياتي - وغمغم:
- ألا تخافين من (العاوّ)؟
- (عاوّ)؟!
وهنا تذكرت تلك اللفظة السخيفة من أيام طفولتي..
(العاوّ) هو غول عملاق أو شيطان هائل أو جني جبار أو كلب ضخم أو - باختصار - هو كل ما يخيف الأطفال، إن هذه الكلمة تلخص في براعة مئات الكائنات الشيطانية، ومهمة (العاوّ) - كما تراها الأمهات - تتلخص في التهام الأطفال الأشقياء..
أنا أيضا كنت أخاف (العاوّ) ولكن كان ذلك منذ دهر..
يا لذكريات الطفولة ويا لمخاوفها..!..
لقد كان (العاوّ) متعدد النشاطات.. فهو يلتهم الفتيات الصغيرات اللواتي تتسخ ثيابهن، أو يهملن وضع الشريط ليعقصن شعورهن، أو يضعن إصبعًا في أنفهن، أو يكذبن، أو يضربن الأولاد... أو... أو...
كانت النجاة من (العاوّ) ضربًا من المستحيلات..
لكنني نجوت.. نجوت...
واليوم أنا شابة ناضجة في الثلا... آ.. في الخامسة والعشرين من عمري ولن يستطيع أي (عاوّ) أن يلتهمني دون مسائلة قانونية..
- ألا تخافين من (العاوّ)؟
كان السؤال معلقًا بعد..، وكان ينتظر إجابة..
- أنا لا أخاف (العاوّ) لأنه لا يلتهم سوى أمثالك..
انفجر يضحك..
ضحكة غريبة عصبية لم تكن متوقعة من طفل.. وسمعته يهتف:
- إذن.. هل يضايقك أن تعرفي أن (العاوّ) هو أنا؟
- حقًا؟.. سيغمى على..
- تظنين أنني أمزح..
- اسمع أيها القرد الصغير.. لن أسمع كلمة أخرى..
ابتسم في ثقة..
ثم اتجه إلى حجرته متبخترًا بشكل مبتذل..
سيكون من الصعب علي ألا أقتله في الساعات التالية..

* * *

أمضيت ساعة كاملة أستمع للراديو وأتصفح المجلات النسائية التي وجدتها على الأريكة.. كانت (مها) قد أخرجت بعض (الباترونات) وأعدت مقصًا وقماشًا حين جاءها النبأ المشئوم كما هو واضح..
وهنا شعرت بتأنيب ضمير..

لماذا جئت من داري إذن ما دمت سأكتفي بسجن هذا الطفل؟.. وأية رعاية أقدمها له بجلوسي هنا..؟

نهضت في تثاقل إلى غرفته وفتحت الباب..

- (مشمش)..!.. هل تبغي شيئًا؟..

ودلفت إلى الحجرة فلم أجده..

كانت الغرفة خاوية تمامًا.. غرفة طفل أنيقة ومهندمة لكن الحوائط كانت مزدانة بصور شيطانية لوحوش ومصاصي دماء إلخ.. صور تم قصها من المجلات وإلصاقها على الحائط..

ويا له من مزاج لطفل في التاسعة من العمر..!

كانت الستارة تتطاير عبر باب الشرفة المفتوح إلى داخل الحجرة.. وكانت رائحة الليل العطرة تملأ هواءها.. الليل الوليد البكر..

جريت إلى الشرفة لأبحث عنه فلم أجده!..

طار صوابي رعبًا وانحنيت على سور الشرفة باحثة عن جثة صبي في التاسعة من عمره مهشمة على الأسفلت فلم أجد واحدة.. و...

كرانك!..

نظرت للخلف فأدركت أن باب الشرفة قد أغلق دوني!..

لقد فعلها الشيطان!.. ولابد أنه اختبأ تحت الفراش بعد ما فتح باب الشرفة ليغريني بدخولها..، وما إن دخلت حتى فعلها!

والآن أنا في مأزق!.. لن يفتح لي وسيخرب في البيت كما يشاء حتى تعود (مها).. يمكنني أن أصرخ وأقرع الباب مرارًا لكن كل هذا سيبوء بالفشل فهو يعرف ما سيحدث له لو فتح الباب!..

ماذا أفعل إذن؟..

ظللت ربع ساعة أرمق الناس من الشرفة عاصرة ذهني بحثًا عن حل ملائم فلم أجد..

ثم إنني نظرت إلى الباب من فوق كتفي فرأيت الباب مفتوحًا..!

إذن لقد عاد وفتحه لي بعد أن أرعبني قليلًا..

إن هناك - برغم كل شيء - بعض الآدمية في هذا الطفل..

لن يكون عقابه أسطوريًا كما أزمعت..

وفي تؤدة دخلت الحجرة..

كان جالسًا على مكتبه منهمكًا في الدراسة..

في يده قلم رصاص وأمامه كتاب مفتوح به بعض مسائل الكسور..، وحين رآني ابتسم في رقة.. وهتف:

- أنت في الشرفة يا طانط (هويدا)؟!

صعد الدم إلى رأسي، وصحت مقلدة لهجته:

- يا سلام... في الشرفة يا طانط (هويدا)!.. يا للأدب والرقة!...

ومن تظنه حبسني بالداخل أيها القرد الصغير؟!

بدت عليه دهشة حقيقية:

- هل كنت محبوسة؟.. لماذا لم تناديني؟!

شعرت بأنني سأصاب بجلطة مخية من الغيظ.. فاكتفيت بأن اقتربت منه واعتصرت أذنه في غل:

- اسمع يا فتى!.. لو حدث هذا ثانية فلن تجد أمك بقايا تدفنها!

قال متأوهًا وهو يضغط على أسنانه:

- أنت.. آه!.. شرسة الطباع...

بعد ثوان بدأ غضبي يتلاشى.. فاختلست نظرة إلى كتابه وأطلقت سراح أذنه..، إنه لا يجيد الحساب أيضًا.. الطفل الذي يعتقد أن ثمانية في تسعة تساوي أربعين هو طفل في مأزق دراسي..!..

- ألا تعرف جدول الضرب؟

رفع رأسه نحوي ممسكًا بأذنه اليسرى الحمراء كالدم.. وفي تؤدة غمغم:

- كلنا لا نعرف جدول الضرب!

- ومن انتم؟

- نحن مصاصو الدماء!

ثم ضحك ضحكته الغريبة الساخرة..

* * *

بعد نصف ساعة ذهبت لغرفته، ووقفت على الباب سائلة:

- هل تريد أن تأكل الآن؟

رفع رأسه نحوى وهرش في رأسه:

- ماذا أكل؟

- أرزًا وبطاطس...

باشمئزاز مط شفته السفلي وتثاءب:

- لا أريد...

- لابد أن تتعشى..

- ولماذا يأكل (العاوّ) أرزًا وبطاطس ما دمت أنت موجودة؟!

* * *

بعد قليل خرج للصالة حيث كنت جالسة، وشرع يدور حولي كأنما يريد شيئًا فسألته وأنا أتصفح المجلة دون أن أرفع عيني:

- جعت؟

- نعم.. ولكن ليس للبطاطس!

ووقف أمامي يتأملني بعض الوقت، فتظاهرت أنني لا أعبأ حتى بسؤاله عما يريد.. إن هذا الطفل قد بدأ يثير أعصابي إلى حد غير معقول لكنني لن أدعه يشعر بذلك..، قال وهو مستمر في تأملي:

- إن أمي أكثر أناقة وجمالًا منك!

- شكرًا.. أعرف ذلك..
- وأنفها أصغر..
- لم أطالبك بالزواج منى...
ثم إننى تمالكت أعصابي، ونظرت له في برود:
- هل ستأكل أم لا..؟
- هل يمكنني شرب بعض المياه الغازية؟..
- لا بأس.. ولكن القليل منها جدًا...
جرى إلى المطبخ وسمعت صوت فتح الثلاجة، ثم صوت صب سائل فوار.. وبعد ثوان جاءني حاملًا كوبًا به قليل من السائل الأسود الرغوي وقدمه لي، وفي رقة وكياسة طلب مني أن أشربه كعربون صداقة لأنه يشعر أنني لم أرتح له كثيرًا..
بدأت أشرب في شك متوقعة شركًا آخر لكن المشروب كان لذيذًا منعشًا وشعرت أن حقدي يذوب تدريجيًا..، أما هو فجلس على الأرض عند قدمي يداعب القط البدين في فظاظة..
دقائق ثم قال لي دون أن ينظر نحوي:
- كانت عندنا مربية قبلك..
- قلت لك إنني صديقة (ماما) ولست مربية..
هز رأسه في تؤدة بمعنى أن هذا ليس خطئًا جوهريًا.. واستطرد:
- كانت سيدة طيبة.. لكنها مرضت مرضًا شديدًا..
- إن مربيتك لابد أن تصاب بالسرطان والسكر وارتفاع ضغط الدم..
- كان لونها يبهت.. ويبهت.. كل يوم.. حتى صارت صفراء كالبرتقالة..، وخف وزنها وظهرت عظامها..
- وهل جاء لها الطبيب؟
- نعم.. نعم.. وقال إنها مصابة بالـ.. باللامينا..
- تعنى.. أنيميا؟
- ربما كان ذلك.. ولم يعرف أحد السبب.. ثم تركتنا.. وتقول (ماما) إنها ماتت في المستشفى..
تنهدت في صبر.. وهمست وقد تذكرت ما حكته لي (مها) عن هذه القصة الأليمة:
- رحم الله الجميع..
- لكنهم لم يعرفوا أو نسوا حقيقة هامة.. هذه المرأة كانت تنام جواري في الفراش كل ليلة..!..
وهذا هو خطأ الكبار.. إنهم لا يصدقون الصغار أبدًا مهما حدث.. ولطالما أنذرتهم!
لم أفهم ما يعنيه فنظرت له متسائلة..
ازدادت بسمته الوقحة اتساعًا.. ثم قال من بين أسنانه:
- ألم تفهمي بعد المأزق الذي أنت فيه..؟!
واتسع ثغره أكثر وأكثر.. وأردف:
- وحيدة مع (العاوّ) في شقة موصدة بالمفتاح!!

* * *

- ٢ -

- موصدة؟.. ماذا تعنى بموصدة؟
- أنا أغلقتها بالمفتاح من الداخل!
قالها في فخر وهو يثب للخلف مبتعدًا عن منالي..، في حين صحت في ذهول:
- ولكن.. لماذا؟.. وأين المفتاح؟
- أخفيته!
نهضت نحوه في شراسة عازمة أن أرتكب أولى جرائم القتل في حياتي..
لابد أن السفاحين جميعًا يبدءون هكذا..، لكنه تملص من يدي وشرع يقهقه ويصفق..
- لن أخبرك مهما فعلت بي...
ثم إنه جرى للمطبخ فهرعت خلفه لأرى ما سيفعل..
كان عائدًا من هناك حاملًا علبة دواء صغيرة يبدو أنها فارغة، وما أن رآني حتى وثب جانبًا رافعًا العلبة في يده.. وعلى الغلاف قرأت كلمة (ميبروباميت)، وهذه الكلمة مألوفة لي لأنها الدواء المنوم الذي كنت أعالج به بعد الانهيار العصبي الذي تلا انفصالي عن (ها....) أعني بعد أرق مستمر عانيت منه..
ولكن ما معنى هذا؟
- معناه يا طانط (هويدا) أنك شربت عشرة من هذه الأقراص في كوب المياه الغازية!!
- أيها الشيطان الصغير!.. ولكن لماذا؟
صاح في براءة كأنما أهنت طفولته:
- وكيف أمتص دماءك - أنا (العاوّ) - ما لم تنامي؟
إن هذا الطفل مجنون أو ممسوس.. ليست هذه تصرفات أطفال أبدًا.. هل حقًا شربت هذا المنوم؟.. إذن سيكون أمامي ربع ساعة قبل أن أدخل غيبوبة عميقة لأن هذه الجرعة سامة بالتأكيد..، والواقع أنني بدأت أشعر بليونة في ساقي ودوار في رأسي وثقل في جفني..
- (مجدي)!.. هات المفتاح فورًا!
- مستحيل..!؟
صحت في هستيريا:
- ولكن لماذا تفعل ذلك؟
- لأنني (العاوّ)!
ثم أردف وهو يتواثب حولي كالضفدع:
- هل سمعت عن (الثاليدوميد)؟
تصلب جسدي إذ سمعت هذه الكلمة..
لم أتصور قط أن يعرف طفل في التاسعة من عمره معناها أو نطقها..
ولقد أعادت لي ذكرى ذلك العقار المشئوم الذي أنتجته إحدى شركات الأدوية في أوائل الستينات كمسكن للحوامل، وكانت نتيجته كارثة.. لقد ولد جيل كامل من الأطفال بلا أطراف

وكانت مصيبة في العالم وأفلست الشركة وتم وقف إنتاج العقار8..
ولكن ما دخل هذا العقار فيما يحدث؟...
قال مفسرًا وهو يلهث من جراء مراوغتي:
- أنا من أطفال (الثاليدوميد).. أحضره أبي من الخارج لوالدتي، وجئت أنا للكون بكامل أطرافي..، إلا أن العقار كان له أثر غير متوقع في وظائفي الحيوية.. ولم يشعر (بابا) أو (ماما) بالفارق لأنني أجدت إخفاءه!
ثم اقترب مني خطوة والتمعت عيناه:
- لا أستطيع الحياة دون دم!.. ومشكلتي هي العثور عليه.. في البدء كانت المربيات وأصدقائي في المدرسة لكنها كانت كميات محدودة، أما اليوم فقد سنحت لي الفرصة كاملة لإرواء ظمئي..!!
تراجعت للوراء على الرغم مني بضع خطوات.. وصحت:
- كف عن خداعي!!
ابتسم في ثقة.. وسألني:
- بصراحة.. هل رأيت طفلًا في سني يتحدث ويتصرف مثلي؟
- بصراحة.. لا..!
- إذن صدقني ما أقول.. وعلى كل حال سيتضح الأمر بعد دقائق!

* * *

وثبت إلى الوراء صائحة في هستيريا:
- سأصرخ!.. وساعتها ستشرح قصتك للجيران!
طقطق بشفتيه في أسى.. وهمس:
- وإذا كانت هذه دعابة سخيفة من طفل..، هل فكرت كيف ستفسرين موقفك؟!
- إذن سأوسعك ضربًا حتى أهشم عظامك.. ووقتها لن يمكنك إيذائي حتى لو فقدت الوعي..
عاود الضحك في ثقة.. ومن فمه خرجت الكلمات القاسية:
- ذات المشكلة.. كيف تفسرين للجيران ولأمي وللشرطة قيامك بتهشيم عظام طفل بريء؟.. أمانة طلب منك رعايتها.. إن القسوة لن تنتهى من هذا العالم أبدًا!
نفس الشعور الذي ينتابني حين ألعب الشطرنج مع (رفعت) وهو من هو في إجادة اللعب..، كل الخانات مغلقة وكل لعبة لها خطرها الجسيم.. واتخاذ القرار مشكلة..
ولكن لابد من حل..
- إذن سأقيدك بالحبال حتى تصل أمك!
- عندئذ أصرخ أنا داعيًا الجيران كي يروا ما تخفيه النساء من شر خلف مظهرهن الرقيق..!
والتمعت أسنانه البيضاء المسوسة.. وأردف:
- ألم تفهمي بعد المأزق الذي أنت فيه؟
إن وعيي يتخلى عني..
يجب أن أكبل هذا السفاح أو أشله قبل أن أنام..

من الممكن أن أقتحم الشرفة وأصرخ كي ينقذني أحدهم لكن الاحتمال ما زال قائمًا في أن تكون هذه لعبة أطفال سمجة، ولكم أمقت أن أرى نفسي - أنا الخجول البائسة - أحدث فضيحة في الحي كله من أجل لعبة أطفال، دعكم طبعًا من نظرة (مها) إلى صديقتها الهستيرية التي لم تتحمل رعاية طفلها ساعتين..!

عليك اللعنة يا (مها) أنت وطفلك الكريه!..

أية تربية تلك التي تنجب سفاحًا كهذا..؟!..

وفي ثقة - كأي زعيم (مافيا) نال من خصومه - دلف لحجرته مرددًا:

- سأدرس قليلًا حتى تستعدي!!

يا للوغد!..

وحدي وقفت في الصالة أترنح..

لا جدال هنالك!.. إن وعيي يتسرب.. وقدمي تتحولان إلى هلام.. ورأسي تزن طنين..

يجب أن أتصرف...

لن أصرخ.. لكني سآخذ بالحل الأحوط..

سأقيده وليكن ما يكون، وحين تعود (مها) سأخبرها بكل شيء.. ولسوف تصدقني.. نعم.. لابد أنها تعرف دعاباته وتتوقعها.

وجدت بكرة من (قطان) الستائر فحملتها في يدي وتحاملت على نفسي داخلة الغرفة.. ستكون معركة قصيرة لكنها ضرورية..

عندئذ رأيت..

رأيت هذا الشيء واقفًا في وسط الغرفة مديرًا ظهره لي..

وحين سمع خطواتي استدار للوراء نحوي..

كان يمسك بجثة القط الأبيض وقد تلوث عنقها بالدم..، أما عيناه فكانتا حمراوين تمامًا.. وكان الدم يسيل على فمه ويلوث ذقنه..



كان يمسك بجثة القط الأبيض وقد تلوث عنقها بالدمَ ..

وفي تؤدة ألقى الجثة أرضًا وهمس لاهثًا:
- لقد طال الانتظار.. طال..
ثم اتجه نحوي وهو يهمس:
- والآن فلينته كل هذا..!.. لقد استنفد (العاوّ) صبره!
الضباب يزداد كثافة.. الصمت يغزو أذني.. لم تعد لي قدمان..
فقط أذكر أنني سقطت على الأرض وهو يجثم بجسده الصغير فوقي.. مجرد طفل لكني أدركت أنه لم يكن سوى الشيطان ذاته..، هل كنت أصرخ؟.. لا أذكر.. فقط أذكر وجهه الشرس وعينيه و...
وشعرت بيد (مها) تنهضني من على الأرض وتهتف:
- أرى أنك و(مشمش) صرتما صديقين!.. لكنك تضيعين وقته بهذا اللعب يا (هويدا).. لماذا أغلقتما الباب بالمفتاح؟.. وأنت يا (مشمش).. ألم أقل لك أن تكف عن قلب جفني عينيك؟!.. يا لها من عادة سيئة!.. ولماذا لوثت دمية القط بالحبر الأحمر ولماذا لوثت وجهك به؟!.. تبًا!.. إن هؤلاء الشياطين الصغار سيؤدون بنا للجنون!!
نهضت مضعضعة باكية.. وسالتها:
- الـ.. الأقراص.. الـ (ميبروباميت)؟
فهتفت في لا مبالاة:
- أنت تعرفين.. هذه العلب تصلح تمامًا لحفظ البهارات بعد أن تفرغ.. ولكن لماذا تسألين؟.. (مشمش)!... قلت لك مرارًا ألا تحبس القط في الدولاب.. حرام!... أحيانًا أحسبني قد أنجبت شيطانًا..!.. على أنني راضية عن انسجامكما معًا يا (هويدا) خاصة وأنني ذاهبة إلى خالتي غدًا وسيكون عليك أن تكرري خدماتك اليوم..
وأدمعت عيناها.. وفي هستيريا ولولت:
- آه!.. يا خالتي الحبيبة!!

* * *

القصة السادسة

حكاية ليلة واحدة ..

يحكيها: الأستاذ (شكري)

- ١ -

ضحكنا حتى ادمعت عيوننا بعد أن أنهت (هويدا) قصتها..
وقال د. (سامي) وقد استعاد حيويته تمامًا:
- يا له من طفل!.. وإنني لأتساءل عن السفاح الذي سيكونه حين يكبر..، إنه شخصية (سايكوباثية)9 بكل ما في الكلمة من معان، وإن تكيفه مع أخلاقيات المجتمع فيما بعد لجدير بالدراسة..
ثم أردف وقد استعاد طبيعة المدرس:
- إن أقسام العقل الباطن هي (الهي) و(الأنا) و(الأنا العليا).
ويمثل القسمين الأخيرين ما نسميه الضمير.. والطفل عبارة عن (هي) خام بلا شوائب.. مجرد غرائز تتحرك بلا أدنى وازع من ضمير..، لهذا يتمتع الأطفال بالأنانية والشراهة والقسوة إلى أن يعلمهم المجتمع كيف يكبحون غرائزهم.. وتنمو (الأنا) في عقولهم..
قال (شكري) في كياسة:
- لا أفهم كل كلماتك.. لكني أعتقد أن هذه القصة جيدة حقًا وبها ذلك الرعب المتوتر النظيف الذي أصبوا إليه..، هل لدى أحدكم اعتراض على أنها أفضل قصص الليلة؟
- لم نسمع قصتك بعد..
نظر (شكري) لساعته فوجد أنها الرابعة والربع فجرًا.. فهز رأسه في حيرة.. وتساءل:
- إنه الفجر.. لن يتسع الوقت..
- إنه الجمعة فلا داعي للاستعجال..
جلس (شكري) على أريكة واسعة وبدأ يسرد قصته..

* * *

قال (شكري):
المستغيث من الرمضاء بالنار..!..
هذا هو كابوس عمري..، الكابوس الذي نعرفه جميعًا.. أن يكون رجل الشرطة الذي نستنجد به من القتلة هو القاتل!، أن يكون البيت الوحيد الذي يختبئ به (حسن) من الذئب هو بيت الذئب!.
إن هذا الرعب لا يوصف..
لكنه كامن في شخصيتي منذ كنت شابًا..

* * *

الملجأ.. الملجأ..!..
العواصف تزأر من حولي وتلتهم أطراف معطفي.. في حين تنبح الكلاب في ديارها النائية..
والخيال..!.. ما أقسى الخيال!.. حين يكشر عن أنيابه في عقل مريض مثل عقلي..

عقل يسره بالتأكيد أن يرسم لي عشرات الخيالات المريعة والأطياف المرعبة.
عبر الحقول المظلمة أمشي..
أنظر للوراء فأرى ظلامًا..
أرنو للأمام فأجد ظلامًا..
أنظر لقدمي فأبصر ظلامًا..
كلما رفعت عيني لأعلى خيل لي انني سمكة ستسقط في (وعاء الدب الأكبر) الذي ترسمه النجوم في السماء إذ تلتمع خلف أستار الغمام...
نجوم بكر ترسل ضوءًا أوليًا.. ولكنه ضوء وليد لم يتلوث بعد..
ذلك الضوء الذي سقط على وحوش ما قبل التاريخ.. وعلى (يوليوس قيصر).. وعلى جند (عمرو بن العاص).. وعلى (بيتهوفن)..
هو بعينه ذلك الضوء الخافت البكر..
حفيف النباتات تحتج على سحقها تحت قدمي..
بركة ماء ضحلة أخوضها هنا أو هناك..
الريح.. الريح قبل وبعد كل شيء..
إنني في حال سيئة..
ويجب أن أجد ملجأ ما في مكان ما..

* * *

لا تسألوني كيف وصلت هناك..
ربما هو خلل في محرك سيارة، وربما هو قطار تعطلت محركاته فوقف الظلام كوحش مريض همد جسده، وربما هو كابوس..
المهم أنني كنت هناك..
وأنني يجب أن أصل إلى مكان ما..
حيث يعيش الآخرون.
يجب أن أجد نارًا.. وأشم تبغًا.. وأسمع كلمات آدمية وإلا جننت..
إن الخوف يتشكل من حولي..
أرى وجهه وعينيه وذراعيه مبتورتي الأصابع تمتدان نحوي..
أشم رائحته العطنة الملوثة بالعرق..
وأسمع أنفاسه المذعورة اللاهثة..
وأحس بزحفه الحثيث في اتجاهي..
ملجأ.. ملجأ!

* * *

ثم رأيت النار.. دائرة اللهب الحى الدافئ تحيط بالمكان..

وما دام هناك لهب فهناك بشر..، لقد قالوا قديمًا: لا يوجد دخان دون نار.. وأقول أنا: لا توجد نار دون بشر..

أصابتني العدوى فتسرب دفء النار إلى قلبي...

وهرعت متلاحق الأنفاس إلى هناك..

وعلى الضوء الذهبي المتراقص كانت هناك نار يعلوها إناء لصنع الشاي مرتكزًا فوق ثلاثة أحجار - أو كما يقول العرب (أثافي) -.. وكانت هناك بندقية عتيقة على الأرض خطت عليها أرقام بدهان أبيض مما دلني على أنها بندقية خفير..

وعلى بعد أمتار كان ذلك العجوز جالسًا مدثرًا في معطف أصفر من مخلفات الحرب..، وكان يرشف كوبًا من الشاي الأسود..

كان وجهه - كالنجوم خلف الغمام - متسربلًا بالظلال التي ألقاها الوهج على ما حوله..

لكني ميزت شاربه الأبيض الكث ولحيته غير الحليقة..

اقتربت في تؤدة حتى بلغت موضعه.. وكان قد اصطنع لنفسه سقيفة صغيرة من أعواد الجريد تؤدي غرض حمايته من العواصف، على الأقل بالنسبة للعواصف القادمة من خلفه..

- سلام عليكم يا (حاج)..

قلتها في كياسة وأنا أقترب منه.

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. اقترب يا بنى..

كان صوته متحشرجًا غليظًا...

وإذ دنوت منه، كان وجهه الآن واضحًا لعيني.. أرى الحاجبين الكثين الأشيبين والعينين الرماديتين اللتين أفسدت الشمس والغبار بياضهما منذ دهر حتى صار رماديًا هو الأخر..، وكانت سحابة بيضاء تغطي إحدى الحدقتين..

أما أسنانه النخرة من تحت شاربه الكث فقالت لي إنه يفرط في تدخين (المعسل)..

وكان يرتدي (بول أوفر) قديمًا رثًا تبرز شعيرات بيضاء من تحت ياقته العالية كأنها شعيرات من عنق ضبع عجوز..

- تشرب شايًا؟

قالها دون أن ينتظر ردي.. وفي يدي وجدت كوبًا من الشاي الأسود تتسرب سخونته المحببة إلى كفي..

آه من صوت الرشفة الجائعة تبعث الحياة في أعصابي الواهنة؟

قال وهو يتأملني في اهتمام:

- غريب؟

- هذا واضح.. أنت تعرف القرية كلها طبعًا..

- بل أنا لا أعرف أحدًا في القرية..!

معلومة غريبة لكنني فسرتها لنفسي بأنه وافد حديثًا إلى هذه المنطقة أو شيء من هذا القبيل..

أردف وهو يحسو الشاي:

- قلت لنفسي إن من يمشي هنا ليلًا هو ولابد غريب..

ولم يفسر أكثر.. بل مد أنامله في النار - دون أدنى خوف - والتقط بضع قطع مشتعلة من الفحم، ثم استدار للوراء والتقط شيئًا ما عرفت أنه (جوزة) صغيرة.. وبدأ يعبئ المعسل بأنامله، ثم رص

الفحم فوقه وبدأ يمتص الدخان الأبيض ويطلقه من منخريه في حنكة كقاطرة عجوز وحيدة..
- هل لك فيها؟
سألني وهو يقرب عصا الغاب مني فهززت كفيّ شاكرًا أن لا..
بعد دقائق من الصمت الذي له رائحة التبغ ؛ عاد يتكلم:
-.. إنهم يخشون (شاكر بك)..
في حيرة سألته:
- هل هو.. قاطع طريق مثلًا؟!
انفجر يضحك.. يضحك.. يضحك.. وصدره العجوز يهتز بالسعال كأنه صندوق خشبي مليء بالبلى..
يضحك ويسعل.. ويسعل ويضحك..
ثم بصق بعيدًا.. وقال:
- إن (شاكر بك) لا يوصف بكلمات.. لكنه موجود.. ويتحرك.. وكلهم رأوه ولزموا بيوتهم لأنهم يعرفون ما سيحدث في المرة القادمة..
- أعني.. هل هو شرير؟
قال وهو يتأملني في هدوء:
- ليس شريرًا.. المصيبة أنه ليس شريرًا.. بل هو إلى الحزن أقرب، لكنه ملعون.. وكل من رآه لم يعش يومًا آخر..
تحفزت هوايتي العتيدة لقصص الرعب، ودنوت منه أكثر:
- هلا حكيت لي قصته..؟
- ستخاف جدًا.. هل تفهم معنى هذا؟
- إن الخوف.. مهنتي..
- إذن سأحكي لك كل شيء..

* * *

سأحاول هنا أن أحكي القصة التي حكاها لي العجوز بأسلوبي أنا لأنه - بالطبع - لم يكن يملك أية حاسة أدبية..
لقد وقعت القصة في ثلاثينات هذا القرن...
وبرغم أنني سأحكي القصة بشكل و(تكنيك) أكثر رقيًا فإن سحرًا خاصًا لا يتكرر كان يغلف صوت العجوز المنهك وقرقرة (الجوزة) وقرقعة النيران والضوء الخافت والعاصفة..
إن هذا السحر لا تقدر على نقله سوى السينما، ولا يقدر أديب على تصويره ولا رسام على رسمه مهما بلغا من موهبة..
لهذا.. سامحوني.. سأقتل نصف سحر القصة بأسلوبي الأعرج..
كان (كمال باشا) يملك قصرًا في تلك المنطقة..
وكان طيب القلب، إلا أن زوجته التركية المتغطرسة كانت تختلف عنه كثيرًا، ولم يتهمها أحد يومًا بالرقة أو حسن معاملة الفلاحين..

لكنها لم تؤذ - على الأقل - أحدهم قط..
وكان لهما إبن يدعى (شاكر)..، إبنهما الوحيد الذي يملك - بحكم الوراثة القريبة - كل هذه الضياع والأراضي والبشر..
ككل العاطلين بالوراثة كان مستهترًا فظًا، وحين كنت تراه وهو يمتطى صهوة جواده مرتديًا قميصه الأبيض مفتوح الصدر تبرز منه خصلات شعره الأشقر، وعضلاته تتشبث بلجام الجواد، عيناه الزرقاوان الشريرتان تلتمعان في وجهه الوسيم.. كنت تظن أن هذا هو الشيطان ذاته قادمًا ليملأ الأرض جورًا..
وكان السوط في يده يتلوى كالأفعى باحثا عن ظهور ليمزقها..
أما (الحمزاوي) فهو أجير بسيط غُلِّف كعباه بطبقة سميكة من (القشف) يضل فيها الثعبان طريقه بين الشروخ..، وفي عينيه اللتين أكل الرمد نورهما ترى نظرة قهر أزلية..
كان على النقيض من (شاكر) تمامًا.. ولم يكن ثمة مجال لأية مقارنة أصلًا..
لكننا سنفهم كل شيء بعد قليل...

* * *

في ذلك اليوم كان أطفال (الحمزاوي) يلهون قرب القصر.. حين لمحوا (شاكر) عائدًا على صهوة جواده من سهرة حتى الفجر أمضاها عند المأمور...
وفي براءة أطلق أحد الصغار دعابة على (شاكر)...
مجرد دعابة طفولية من التي يتجاهلها أي شخص متزن..
لكن (شاكر) لم يكن متزنًا..
كان ثملًا تمامًا كعادته في ساعات الصباح الأولى..
لهذا لم ير الأمور كما ينبغي أن يراها..
يقول الشهود أنهم رأوا النيران - كحقيقة لا مبالغة - تنبعث من عينيه، واحمر وجهه.. وارتجف شاربه الأشقر الجميل..
ثم إنه ركل بكعبه بطن الجواد..
فانطلق هذا بين صفوف الأطفال يدوس هذا ويركل ذاك، على حين استخدم (شاكر) سوطه ليزيد. من جرعة الإيذاء..
مأساة قصيرة لا داعي لها أبدًا..
لكنها حين انتهت كانت هناك أربعة أجساد صغيرة محطمة تتلوى في الغبار..
وكان (شاكر) يلهث منهكًا فوق صهوة جواده، وقد بدأ يدرك - للمرة الأولى - بشاعة هذا الذي فعله..
وهرع الفلاحون ليروا ما حدث على صوت ولولة النسوة، وكان من بينهم والد الأطفال.. (الحمزاوي).. الذي احتاج لخمس دقائق كي يفهم ما حدث..
وكان القاتل قد ترجل من على صهوة الفرس.. ووقف مشوش الفكر لا يدري ما يفعل وكيف يفعله..، إن الأمر لم يكن يحتاج منه سوى الفرار إلى صديقه المأمور الذي سيصلح كل خطأ.. لكنه - كما قلنا - كان عاجزًا عن التفكير..

في تؤدة اقترب منه (الحمزاوي) وعيناه في عينيه..
لم تكن هناك نظرة عتاب ولا لوم ولا غضب ولا شيء على الإطلاق.. فقط نظرة ثابتة لا تتزحزح..
وفي رزانة قال:
- ما كان يجب أن تفعل ذلك يا سعادة البيه!!
حتى في موقف كهذا لم ينس أن يبجل سيده!، أما (شاكر) فكان يرتجف من الانفعال لكنه لم ينبس ببنت شفة..
- ما كان يجب ذلك..!!
إن الفأس في يده والقاتل أمامه..
لقد كان ما حدث متوقعًا.. متوقعًا أكثر من اللازم..
ولم يتدخل أحد لإنقاذ (شاكر)..
وحتى هو لم يحاول إنقاذ نفسه..

* * *



ولم يتدخل أحد لإنقاذ (شاكر) ..

وحتى هو لم يحاول إنقاذ نفسه ..

أما ما حدث بعد ذلك فلا داعي لذكره.
مطاردة الأب المذعور المكلوم في الحقول..، وكلاب المأمور ورجال الشرطة.. والجياد الثائرة الغضبى..
كان مشهدًا لا يوصف لما يمكن تسميته (صيد الإنسان)..
ثم عادوا به مكبلًا بالحبال ووجهه متورم من جراء كعوب البنادق والركلات، وتطوع كل من رجال الشرطة بإظهار حماسه لإرضاء المأمور بالمزيد من العنف..
وحوكم (الحمزاوي).. وأعدم.. فلم تكن أمامه فرصة نجاة..
وكانت هذه نهاية القصة..
أم هل أقول بدايتها..؟

* * *

بعد ذلك بأعوام بدأت القرية تثرثر..
حكايات كثيرة عن شبح يجوب الحقول في الظلام..
جثة (عبد الودود) المذعورة التي وجدوها، وجثة (محمد الحمزاوي) التي ارتسمت على وجهها أعتى علامات الهلع..
كل هذا ذكر الناس بالحادث خاصة والأخير هو شقيق (الحمزاوي)..
وبدأت الإشاعات تسري:
لقد كان (شاكر بك) يذكرهم بالشيطان أو - على أقل تقدير - بقوة شر كاسحة من دنيا ما وراء الطبيعة..
لهذا قالوا إنه عاد في صورة شبح كي ينتقم من القرية..
البعض قالوا إنه عاد في نفس صورته القديمة على صهوة جواده ليطارد الفلاحين البائسين بين الأحراش..
والبعض قالوا إنه يتخذ صورًا أخرى خادعة.. كطفل ضل طريقه.. أو فتاة حسناء تطلب العون.. أو خفير ساهر ينتظر..! (ألا تلاحظون شيئًا غير عادي هنا؟!..)
المهم أنهم أجمعوا على أنه يجذب الحمقى نحوه..
عندئذ تكون نهايتهم...
وفي الصباح الباكر يجدون جثة مذعورة في حقل ما..

* * *

وهنا يسأل البعض:
- كيف تصف الضحية صورة الشبح بعد أن ماتت؟!
اسألوا عن ذلك (أم فكري)..
فهي - كما تزعم - أفلتت من ثلاث محاولات متلاحقة لقتلها من قبل الشبح، وهي - بالمناسبة - أرملة (الحمزاوي)..

ولقد رأت فتاة جميلة، وشابًا وسيمًا، وشيخًا طاعن السن..
وكلهم طلبوا منها العون أو طلبت هي منهم العون ليلًا..
وعندئذ..
كان ذلك الشخص - أو الشيء - ينتظر حتى تدنو منه ويبدأ في التحول إلى حقيقته المريعة..
لكنها كانت تتوقع الشر دائمًا..
وكانت أسرع انعكاسًا في الفرار.. وأعلى صوتًا في الصراخ..
ولهذا ظلت حية حتى اليوم..

* * *

دارت الأيام.. وجاءت الثورة والتأميم..
ورحلت الأسرة إلى (أوروبا)، وبدأت في القرية قوانين جديدة وعلاقات طازجة وأسر أخرى لا تعرف شيئًا عن هذه القصة
..
لكن الرهبة ظلت حية في الأذهان...
إن الشبح لم يرحل مع عائلته بل استوطن القرية..، وظل يمارس هوايته القاسية مع الأهالي والغرباء.. بل وخاصة الغرباء الذين ترميهم حماقتهم في طريقه ليلًا..
ولا داعي للقول إن الخروج ليلًا صار نوعًا من (التابو) المحرم في هذه القرية يتوارثه الأبناء ولا يدرون سببه..، فإن كان الخروج محتمًا فليكن ذلك في جماعة..
والدرس الأكثر أهمية هو: لا تثق في مسافر متعب.. أو امرأة تستغيث بك.. أو طفل ضال.. أو - وهذا للعلم - خفير ساهر لم تره في القرية قط..

* * *

أنهى الخفير الساهر قصته وجذب أنفاسًا متلاحقة من (الجوزة) وسعل ثلاث مرات.. ثم نظر لي منتظرًا رد فعلي..
تبادر سؤال إلى ذهني.. سؤال هام جدًا:
- قلت إنك لا تعرف أحدًا في القرية؟
- بالفعل.. فأنا من عزبة قريبة..
- لكنك تعرف الأسطورة؟
ضحك.. والمزيد من البلى يتدحرج في الصندوق الخشبي:
- بالطبع.. هع هع.. وكيف لا أعرفها وأنا.. أنا....
ثم لم يكمل عبارته.. ونظر للافق.. وغمغم:
- اقترب الفجر..
- تبدو قلقًا..
قال وهو يضع (الجوزة) جانبًا:
- كل القصص السابقة حدثت قبيل الفجر..

- وأنت.. كيف لم يقابلك (شاكر) هذا بعد؟
نظر لي في غموض وانعكاس اللهب يلتمع على أنفه ولم يرد..
عدت أسأله وأنا لا أشعر بالارتياح:
- ما سر كلمتك عن الحزن الذي يشعر به الشبح؟
نظر لي مرة أخرى.. وغمغم:
- هل الشيطان سعيد؟.. لا أحسب ذلك يا بني..
أنا أفهم ذلك..
وأفهم كيف يشعر الشبح بالوحدة والذعر والحاجة إلى رفاق.. لكنه عاجز عن ذلك للأبد لأن مهنته هي أن يفزع الناس حتى الموت..
لكن الوقت ليس ملائمًا لهذه الأفكار..
لأن العجوز ينهض في تثاقل.. وينظر لي عبر ألسنة اللهب قائلًا:
- لقد حان الوقت!!
.....

* * *

في الصباح وجدت جمهرة من الناس واقفين حيث كان الكوخ العشوائي الذي أمضينا فيه الأمسية..
اقتربت فسمعت أصواتًا تردد:
- هو الخفير من عزبة (النحال)..
- لقد مات!..
- وعلى وجهه علامات الذعر!
وفي مركز الدائرة رأيت العجوز راقدًا على ظهره وقد غطوا وجهه بمعطفه الأصفر المتآكل الذي هو من مخلفات الحرب..
عندئذ عرفت أنه لم ينج بحياته طيلة هذه الأعوام إلا ليقابل (شاكر بك).. وليصير قصة أخرى يحكيها الفلاحون في ذعر لأبنائهم ولأبناء أبنائهم..
حقًا إن حياة الأشباح لقاسية!..

* * *

خاتمة الحلقة

يحكيها: د. (رفعت)

خاتمة الحلقة

كانت أضواء الفجر الدموية تتسرب من النافذة وكأنها دماء الليل المسفوح ؛ حين أنهى (شكري) قصته..

قلت له وأنا أهشم علبة سجائري الخاوية:

- قصة سخيفة يا أستاذ (شكري)..!.. فهي تشبه عشرات القصص المشابهة التي تحكى في كل مكان من العالم.. وليس جديدًا فيها سوى موت الخفير بعد أن ظنناه هو (شاكر)..

قال د. (سامي) مبتسمًا وهو يتثاءب:

- هي مجرد تكرار لفكرة (الرعب الموجه في اتجاه خاطئ).. وهي التي سمعناها في قصة د. (محمد) وقصة (هويدا)، وبالتالي هي لا تستحق انتظارنا لها طيلة الأمسية..

ابتسم (شكري) في غموض.. وقال وهو يعبث في جيبه:

- أنتم إذن لم تحسنوا فهم نهاية القصة!

- أية نهاية؟.. تقول إن الخفير قابل الشبح..

ضحك.. ونهض متجهًا إلى (هويدا) وهو يغمغم:

- نعم.. ولكن متى؟.. ولكن دعونا من هذا.. إن الفجر قد جاء وهو حتمًا لا يناسبني.. والآن أعتقد أن أفضل قصص الأمسية هي قصة الآنسة (هويدا) ما دامت قصتي لم ترق لكم.. هل لدى أحدكم اعتراض؟.. لا؟.. حسن.. ها هي ذي هديتك يا صغيرتي فلا تفتحيها إلا وأنت وحدك..

وقدم لها علبة صغيرة مغلفة بالورق اللامع.. ثم ابتسم لصاحب وصاحبة الدار محييًا:

- كانت أمسية رائعة وكنتم خير مضيفين.. لكني مضطر للانصراف فورًا وأرجو ألا تكون هذه وقاحة مني..

وقبل أن يتكلم أحدنا.. كان (شكري) قد غادر الفيللا..

* * *

ما إن انصرف (شكري) حتى جلسنا صامتين هنيهة..

ثمة شعور عام بأن هناك شيئًا غير مريح في كل ما حدث وقاله (شكري) في ختام الأمسية..

تمطى د. (محمد) في كسل وابتسم:

- أظن أن الوقت قد حان كي ننصرف..

في لهفة صاحت مدام (ثريا) وكأنما أهينت:

- إن هذا لن يكون.. ليس قبل الإفطار!

- سيدتي.. لا تقتلينا خجلًا أرجوك.. كفانا أنكما لم تريا الفراش ليلة أمس..

أقسم د. (سامي) أغلظ الأيمان إنهما استمتعا بكل ثانية وإنهما لن ينسيا هذه الأمسية أبدًا.. بل إنه رجانا أن نكررها..!

قلت وأنا أتمطى أنا الآخر:

- وهكذا.. تنتهي حلقة الرعب الأولى..، وإنني لأسائل نفسي عما سيبقى منها بعد أن ننام للظهيرة..
- حذار وإلا فاتتك صلاة الجمعة..
- ربنا يستر!
وبدأنا نحتشد للانصراف، لبس من خلع الحذاء حذاءه.. وزرر من خلع المعطف أزرار معطفه.. واصطحبت مدام (ثريا) السيدتين إلى حجرتها لتمشطا شعرهما الذي غدا نوعًا من الليف بعد الأمسية..
كان الخدر اللذيذ - خدر السهر وبرد الفجر - يعابث كلماتنا وأفكارنا، وكنا نتحرك كأنما نحن آليات مبرمجة.. هل تفهم هذا الشعور؟..
وبالطبع تكون أقل دعابة كافية لجعلك تنفجر ضحكًا.. الدعابة التي ستندهش ظهرًا من مدى سماجتها وسخفها..!
سألني (عادل):
- هل حقًا ستعود للقاهرة بحالك هذه؟.. مستحيل!.. سنقرأ اسمك في صفحة الحوادث وصفحة الوفيات معًا..
- إذن سأنام عندك حتى أفيق وأسافر بعد صلاة الجمعة..
- ليكن...
دنت مني (هويدا) وكان السهر قد لعب برأسها تمامًا حتى أنساها قناع الجلال والرزانة الأنثوية، فتثاءبت - كفرس النهر - واعتصرت ذراعي في قبضتها.. وقالت:
- قل لي.. ما هو الغريب في خاتمة قصة (شكري)؟
- لا أدري حقًا..
- ولماذا انصرف بهذا الأسلوب الدرامي..؟
ابتسم في استخفاف:
- ربما لأن قصته كانت واهية ومملة.. وهو أدرك ذلك قبل أن نصارحه..، ولهذا لم يتحمل خيبة الأمل..
- قال شيئًا عن الفجر...
- هل قال ذلك؟.. لا أذكر..
في الخارج كانت الطرقات غارقة في الماء والوحل وكان الهواء نديًا مغسولًا كأنه خلق لتوه..، وكان ضوء النهار الأزرق الباهت يرتمي في كسل عبر الطرقات..
لوح د. (سامي) وزوجته بأيديهما لنا إذ احتشدنا في سيارة (عادل) وسيارتي..
وانطلقنا إلى ديارنا بعد أمسية طويلة.. طويلة..

* * *

كان نومًا بلا أحلام...
نومًا أسود مغلقًا بألف مفتاح..

كنت فقط أفتح عيني من حين لآخر وأتساءل: أين أنا؟ متوقعًا أن الباب بالتأكيد عند قدمي وجهاز الراديو على يساري.. ثم أجد كل شيء مختلفًا فأجفل وأنهض.. وبعد جزء من الثانية أدرك أن هذه الستائر الزرقاء وهذا الدولاب الأبيض هي أجزاء من حجرة نوم الضيوف عند (عادل)..، من ثم أريح رأسي على الوسادة وأبتلع ريقي بصوت مسموع.. وأغيب عن الكون..

.....

- (رفعت)..!.. (رفعت)!..

هامسًا أول الأمر.. ثم بعنف أكثر..

وفي النهاية جثم على صدري - كالكابوس - وشرع يهزني كأنما ينفض الروح من جسدي..، فهمست في وهن:

- (عاد..).. (عادل).. مـ.. ماذا هناك؟

شعرت بسماعة الهاتف الباردة تندس في أذني.. وسمعت (عادل) يهتف في عصبية:

- حدثه!

- مـ.. من هو؟

- (شكري) طبعًا يا أحمق!.. هو على التليفون..

- (عادل).. أنت سمج.. أنا لم أنل كفايتي بعد.. أرجوك أن...

ولم أكمل العبارة لأني غبت عن الكون ثانية..

عادت الاهتزازات.. وسمعت صوتًا معدنيًا مألوفًا يهتف من السماعة:

- صباح الخير يا دكتور..!.. إنها الحادية عشرة..؟

- و..و.. كيف صحوت أنت بعد سهرة البارحة..؟

- صحوت لأني لم أسهر معكم..!!

- ماذا تعني؟

- أعني أنني لم أستطع الحضور لأني مريض بالأنفلونزا.. ولم أستطع الاتصال بكم لأعتذر.. إنها الأمطار..!

وثبت في الفراش كالمجنون راميًا الأغطية بعيدًا..

- ماذا تقول؟!

فأكد لي ما قاله مسبقًا وهو يعطس..

- إذن من كان معنا أمس؟!

- وهل كان هناك أحد معكم أمس؟

نظرت إلى (عادل) في حيرة فهز رأسه.. وأشار لي أن أنهى المكالمة ثم أشعل سيجارة امتصها في قلق..

وضعت السماعة وأخذت منه سيجارة أخرى.. وهتفت في حنق:

- إن هذا المتحذلق يلهو بنا!!

- هل تظن ذلك؟

- إنه يحاول أن يخلق قصة سابعة!

نفث عادل الدخان في فتور.. وغمغم مضيقًا عينيه:

- يبدو صادقًا..!

- ماذا تعني؟..
هز كتفيه غير عالم بالرد المناسب، وقال:
- لا أدري حقًا..
كنت قد نهضت من الفراش، وشرعت أبحث عن نظارتي جوار المنبه الموجود على (الكومودينو)..، المنامة الشتوية ذات الخطوط الطولية الزرقاء.. وربطة عنقي التي سقطت من فوق الشماعة حيث علقتها في إهمال..
- ارتد ثيابك واغسل وجهك.. وتعال لتأكل شيئًا..
وفي الصالة كان ابنه يلعب هنا وهناك في حين كانت (سهام) بعد غافية، وكان (عادل) قد أعد لنفسه وللطفل بعض البيض المحترق والخبز المتفحم والشاي الشبيه ببول مرضى السكر..
جلست متثاقلًا على المائدة التهم بعض هذه الاشياء المفزعة، وأرسم بوجهي تعبيرات سخيفة علها تضحك الطفل الذي وقف يرقبني في حيرة ورعب فاغر الفم متصلب الجسد..
- وجه ابنك يدلني على أنه مصاب باللحمية يا (عادل)..!
- مرحى!
ثم إنه قال في فتور وهو يحك ذقنه:
- هل تدري فيما أفكر؟.. إن الذي كان معنا ليلة أمس لم يكن (شكري)!!
- ماذا تعني؟.. هل سنعود لهذا؟
اتسعت عيناه وحملق في وجهي:
- ألم تفهم نهاية قصته؟
ومضى يتجول في المكان عاقدًا يديه خلف ظهره مفكرًا بصوت مسموع:
- أنا رجل شرطة، وحين تحدث جريمة قتل يكون أول سؤال نسأله هو: من آخر من رأى القتيل حيًا؟.. ولقد مات الخفير في قصته.. ومتى؟.. عند الفجر.. عندما لم يعد هناك جزء باق من الليل كي يقابل الخفير قاتلًا آخر.. هل تفهم هذا؟.. لقد حكى (شكري) قصته بعد أن حذف منها جزءًا صغيرًا، لكنه لمح لنا بما حدث بدقة..
ونحن لا ننسى آخر كلماته الغامضة: (نعم.. لكن متى؟، أنتم لم تحسنوا فهم القصة).. هل فهمت؟
وهرش مؤخرة رأسه:
- ثم فراره المذعور عند الفجر.. كل هذا يشير بإصبع الاتهام نحوه، لكننا لم نكن على استعداد كي نفهم..
قلت في توتر وقد بدأت أفهم:
- يا للهول!.. إذن (شكري) هو..
- هو (شاكر بك) نفسه.. إن تشابه الاسمين واضح..
- ولماذا يفضح نفسه؟
- لأنه يتسلى.. يلهو بنا.. وكان الفزع هو هدفه الوحيد!!
- هذا الافتراض يصعب إثباته..
ابتسم في ثقة ونظر لي:
- بالعكس.. يمكننا إثبات أن (شكري) الحقيقي كان مريضًا أمس ولم يغادر الفراش... ويمكننا البحث عن القرية التي كان بها إقطاعي إسمه (شاكر كمال) قتله فلاح إسمه (الحمزاوي)، وعن

خفير من عزبة الـ... الـ...
- النحّال...
قلتها مصححًا وهن ذاكرته.. ثم أردفت:
- إن هذا مفزع.. إذن فلتبحث وبسرعة..
- بقيت نقطة نسيناها..
- وما هي؟..
- الهدية التي قدمها لـ (هويدا).. ماذا كان فيها؟!

* * *

- فيها ساعة جيب ذهبية نقشت على ظهرها عبارة بالفرنسية.. ومعها بطاقة صغيرة..
قالتها (هويدا) وهي تمد يدها لنا بالعلبة التي أهداها إياها (شكري) أو (شاكر)..
أمسكت بالساعة التي كانت نقوشها وأناقتها خير دليل على ثمنها.. وكانت رائحة العظمة الغابرة تفوح منها..
قلبتها في تؤدة وتأملت الحروف المنقوشة على ظهرها، وبلغتي الفرنسية المتوسطة استطعت أن أقرأ العبارة التالية:
صنعت في سويسرا خصيصًا للسيد (شاكر كمال).
لقد كان هذا الـ (شاكر) ثريًا إلى درجة امتلاك ساعة (عمولة) من (سويسرا) عليها اسمه، والحق يقال أنها كانت تنطق بالترف والفخامة.. حتى أنني شعرت بغبطة لأنها ستكون لي يوم أتزوج (هويدا)!!..
أما البطاقة فكانت مكتوبة بالعربية وبخط أنيق للغاية:
- لم يكن الخوف معنا.. لأنه كان أحدنا!!
ظللت أتأمل كل هذا في غباء..
فصاحت (هويدا) في براءة عذبة:
-.. ماذا يضايقك في كل هذا يا (رفعت)؟!
- يضايقني كل هذا..!
واستطردت في غموض:
- لقد كان (شكري) على حق.. إن قصته هي أكثر القصص رعبًا في حلقة الرعب..!!

* * *

في الأيام التالية احتشدت علامات الاستفهام..
(عادل) اكتشف أن قصة (شكري) صحيحة، وأن القرية - مسرح الأحداث - تقع قرب (الإسكندرية).. ربما على مسافة أميال معدودة من الفيللا التي قضينا فيها أمسيتنا تلك.
(شكري) أثبت يقينًا أنه لم يكن معنا في تلك الأمسية..، وقال إنه كان يرغب في أن يشاركنا حلقة الرعب لأنه - كما قال - يحب هذه الأشياء كثيرًا..!

على أنه لم يصدق قط - ومن يلومه؟ - قصة شبيهه الذي قضى معنا أمسية كاملة دون أن نشك فيه، وهو مصر على أن الأمر كله دعابة حاولنا إقناعه بها لنسخر منه..

أما د. (سامي) فاكتشف أمرًا أكثر طرافة..

هل تذكرون الصورة التي التقطتها زوجته كنوع من اللعب بأعصابنا بعد روايته عن الزائرة؟..

هذه الصورة كانت تظهر وجوهنا المنبهرة جميعًا في ضوء (الفلاش) لكنها لم تظهر (شكري) بتاتًا..!..

كان مكانه في الصورة فارغًا، برغم أنني أذكر جيدًا أنه كان جالسًا إلى يميني يحك لحيته في ضيق ويتمنى لو كانت الأمور أكثر وضوحًا في قصة (لميس)..

كان في مركز الصورة.. لكنه لم يبد فيها..

* * *

لقد انتهت حلقة الرعب..

ولم يعد أمامي سوى أن أجمع أوراقي وأنام..

تسالونني عن رأيي في كل هذا.. أقول لكم إنها مجرد انطباعات لا حقائق..

لا شك أنني سأبدو سخيفًا إذا ما تحدثت عن شبح الثري المستهتر الذي سئم حياة الأشباح وراح يفتش عن الصحبة..

وكانت هذه الصحبة هي نحن..

وكأي شبح يحترم نفسه كان يهوى الرعب..

هل تذكرون كيف بدأنا نحكي أقاصيص الرعب؟ ومن كان المحرك الذي دفعنا دفعًا لهذه الأحاديث الرهيبة دون أن يكل أو يرهق..

وكلما سقط واحد منا فريسة النعاس كان هو يزداد نشاطًا ويحركنا حيث يريد في سلاسة غير عادية..

لقد كان يلهو ويسلي نفسه..

وفي نهاية الأمسية أخبرنا من هو..

لكننا لم نفهم...

لم يكن الخوف معنا.. لأنه كان أحدنا!

كان (شكري) هو الخوف البري غير المبرر ذاته، وكان يحيا في كل قصة من القصص..

كان هو الشيء الغريب الذي شعرت به (سهام) يراقبها من المرآة، وهو النذير الغامض الذي جعل قط د. (محمد) يجفل، وهو الذي جعل حشرات (يوسف) تتوحش، وهو الذي كان يدخل فيلا د. (سامي) كل ليلة..، وهو الشيء غير المريح الذي أفزع (هويدا) في عيني الطفل..، وهو ذات الشيء الذي كان يفر منه بين الحقول:

كان (شكري) موجودًا في كل هذا..

لأنه هو الخوف الأولي البكر..

وفي تلك الليلة لم نكن ثمانية..

بل كنا سبعة..

وكان الخوف ثامننا..

* * *

وبعد...

كانت هذه هي حلقة الرعب الأولى التي ستحيا في ذاكرتنا ما حيينا.. ولا ريب في أنها ستكون الأخيرة بالنسبة لأكثر من شاركوا فيها.. لأن الظروف لن تتكرر مرة أخرى، وهم لن يتركوها تتكرر..!

أما أنا...

فالقارئ يعرفني جيدًا..!، ويعرف أنه لو كانت هناك حلقة رعب أخرى في أي مكان من الكون فأنا - بلا جدال - عضو فيها..!

وكيف كان لي أن أعرف أن لقائي مع د. (لوسيفر) قريب.. وأنني سأدخل معه عالمًا آخر من القصص الكابوسية التي لا تنتهي، وكيف كان لي أن أعرف أنني سأكون طرفًا فيها جميعًا؟..

ولكنني - كما هي العادة - كنت ساذجًا.. ساذجًا...

كانت أحداثًا رهيبة.. ولسوف تشاطرني الرأي حين أحكيها لك..

لكن هذه حلقة أخرى.

د. رفعت إسماعيل
القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة..

حلقة الرعب..

القصة الأولى - إنعكاس..!

- ١ -

- ٢ -

القصة الثانية - لماذا ارتجف القط؟

- ١ -

- ٢ -

القصة الثالثة - حشرة الشيطان..!

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

القصة الرابعة - الزائرة..

- ١ -

- ٢ -

القصة الخامسة - أنا و(العاوّ)!

- ١ -

- ٢ -

القصة السادسة – حكاية ليلة واحدة..

خاتمة الحلقة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

حلقة الرعب

اجتمعوا في تلك الليلة يتحدثون عن الرعب .. الرعب الوحشي الأوّلي الذي لا تدري له سببًا، كانت لدى كل منهم قصة .. وكان لكل قصة مستمعون، وهكذا دارت حلقة الرعب، لكنهم لم يدركوا أن خيوط الفجرِ الأولى ستنسج لهم قصة أكثر هولًا من كل ما حكوه وسمعوه ..!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة الكاهن الأخير

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

سيجموند فرويد: أبو التحليل النفسي.

[←2]

يؤمن كثير من نقاد الأدب أن (الديكاميرون) هي الميلاد الحقيقي لفن القصة القصيرة.

[←3]

أرجو ألا ينسى القارئ أن أحداث القصة في الستينات.

[←4]

نست (سهام) هنا أن د. (رفعت) موجود.. وهو ثاني خطيب لـ (هويدا)..، كانت زلة لسان تداركتها سريعًا.. لكنها ستكرر نفس الخطأ مرارًا.. !

[←5]

قصة (دانييل ديفو) الذي يؤكد أنه استوحاها من بحار إسمه (الكسندر سلكيرك). لكن التشابه بينها وبين أسطورة (حي بن يقظان) يثير الشك حول (ديفو).

[←6]

جنون الاضطهاد.

[←7]

معذرة على التفاصيل لكن د. (سامي) يحب دائمًا أن يتخذ دور المعلم، وعلينا أن نتحمله في شجاعة !

[←8]

حقيقة.. وللأسف عاد العقار للظهور في بعض الدول النامية برغم أنف منظمة الصحة العالمية..

[←9]

سايكوباثية: شخصية شريرة مريضة في تكيفها مع المجتمع..

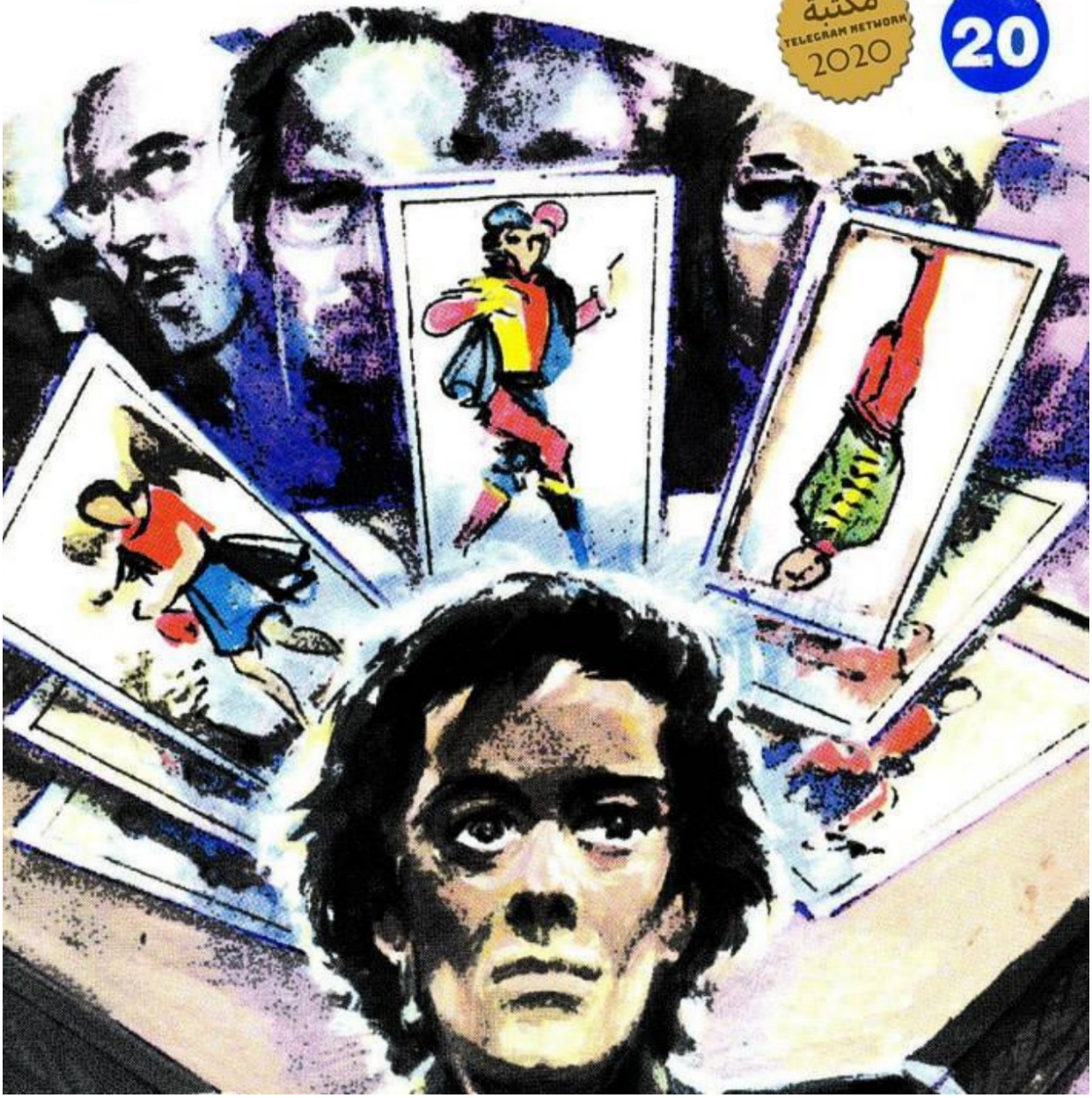
روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

حكايات التاروت

20

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

٢٠

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

حكايات التاروت

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقتباس أو تقليد أو تزييف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المرتكب للمساءلة القانونية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

مقدمة

تحية لكم...

الدكتور (رفعت إسماعيل) الشيخ الثرثار الذي لا يكف عن انتظار الموت، قد عاد ليصدع رءوسكم بالمزيد من الحكايات المفزعة، الحكايات التي أفني عمره كله بينها..

نعم.. لم يمنعني هذا من أن أحب أحيانًا.. أصغى للحن حالم أحيانًا.. أقتطف زهرة رقيقة أحيانًا.. أرسم الشمس إبان الغروب أحيانًا..

لكني - أعترف - لم أحظ قط بسعادة خالصة، وكانت فكرة زوال السعادة تنغص علي كل شيء..، حتى والزهرة في يدي كنت أتخيل ذبولها..، وحتى وحبيبتي معي كنت أتصورها محمولة إلى القبر أو إلى دار رجل آخر سواي..

متشائم..؟.. كذا يقولون..

مريض؟.. ربما..

لا أطلب تفسيرات نفسية من أي نوع.. كل ماهناك هو أنني أستمتع بصحبتكم حقًا.. ولسوف أحكي لكم قصة لا بأس بها هذه الليلة.. فدعونا من التحليلات..

لقد أحببتم حلقة الرعب.. واليوم أقدم لكم حلقة الرعب الثانية، وهي - كالعادة - حشد من القصص القصيرة مربوطة في نسيج قصة واحدة كبيرة..

وقد حدثت هذه الأحداث عام ١٩٦٨ بينما شيخكم (رفعت) في سن الرابعة والأربعين..

هلموا اتخذوا مقاعدكم..

إن د. (رفعت إسماعيل) سيحكى لكم حلقة رعب جديدة..

* * *

حكايات التاروت

لم أكن قد غادرت الولايات المتحدة بعد..

كنت أمضي أيامي مع صديقي المحامي الأمريكي (جيري) بعد تلك التجربة النفسية المروعة التي عشتها مع قصص (إدجار آلان بو).. والتي لم أفهم قط هل كانت هلوسة شديدة، أم هي تجربة روحانية نادرة الطراز..

وطبعًا - أنت تلاحظ أنه لم يأت بعد - لحق بي صديقي العتيد (هاري شيلدون) خبير الكمبيوتر الشاب قادمًا من (فلوريدا).. فمن الصعب أن أمر على الولايات المتحدة مر الكرام دون أن ألقاه..

وحتى هذه اللحظة لست واثقًا من هو النحس الحقيقي.. أنا أم هو.. فما إن يظهر الأخ (هاري) حتى يتحرش بنا (الزومبي) وتلاحقنا لعنة (شاكال) اللعين.. وكل مسوخ الأرض..

كان مرحًا كعهدي به، وأمضينا أيامًا لا بأس بها نسترجع الذكريات التي قل أن تكون لدى واحد آخر سوانا..

عرف حكايتي مع النبات القاتل والكاهن الأخير و (براكسا) حسناء المقبرة.. على أن أشد ما أثار اهتمامه هو قصتي مع (إدجار آلان بو)، خاصة حين عرف أنني عشت تفاصيل قصص لا أذكر أنني قرأتها قط..

وبمراجعة مجمع أعمال الأديب الأمريكي العظيم استطاع أن يجد كل ما تكلمت عنه..، لقد استطاع (بو) أن يقودني إلى عالمه الخاص لا مراء في هذا..

وطلب مني (هاري) أن أصحبه ليلقى ذلك الدجال (سام كولبي)، فهو يثير شغفه حقًا..

وفي ليلة صيف باسمة ركبنا إحدى سيارات أجرة (نيويورك) الصفراء المجنونة قاصدين بيت الرجل..

استقبلنا الرجل بملامحه الودود الطفولية التي مازالت تثير الهلع في قلبي، فأشرق وجهه حين رآني ودعاني إلى الداخل متحمسًا.. صحيح أننا جئنا على غير ميعاد، لكنني صرت شخصًا عظيم الأهمية يستحق أن يفتح له صالة كبار الزوار لو أن عنده واحدة..

قمت بتعريفه بصديقي (هاري) وأخبرته أن (جيري) غارق في الأعمال فلم يستطع المجيء.. ثم دخلنا المنزل الكئيب.. كان كما هو لم يتغير بعد... وعلى المائدة المستديرة كانت هناك علبتان من الطعام المحفوظ وطبق وقدح من الشوكولاتة يتصاعد منه الدخان..

في حماس ذهب الرجل القميء إلى رزمة من المجلات في ركن الغرفة، فأخرج منها واحدة وفتحها على صفحة معينة وطواها وهرع نحوي ليريني إياها..

كانت هناك صورة فوتوغرافية لذلك الإقرار الذي كتبته له بخطي، وعنوان المقالة الرنان يقول: طبيب يعترف بمبدأ التناسخ - (كولبي) يصف تجربته الخاصة..

استشطت غضبًا.. وقلت من بين أسناني:

- لكني لم أقر مبدأ التناسخ لحظة.. إن ما كتبته يقول إنني عشت تجربة غير عادية لا أدري كنهها...

تساءل (هاري) وهو يتأمل غلاف المجلة:

- مجلة (ماجيك)؟.. ياللطباعة الرديئة!.. واضح أنها لا تلقى رواجًا كبيرًا.. وأنت يا (رفعت).. كيف سمحت لنفسك أن تنخرط في هذا الهراء؟

قلت وقد احمرت أذناي:

- لم أنخرط فيه.. لكنها شهادة حق سمحت لنفسي أن أقولها.. وما كنت لأقول سوى ما رأيت وعرفت..

هتف (كولبي) في حماس:

- لقد أحدث المقال دويًا في أوساط المهتمين بالروحانيات ونشر مرتين.. وسر نجاحه يعود لأن موضوع التجربة هذه المرة ليس معتوهًا ضعيف الإرادة.. بل هو رجل مثقف ناضج يسره بالتأكيد أن يثبت أنني نصاب!

- أنت كذلك! - قلتها وأنا أعيد له المجلة - وأعتقد أن كل شيء غريب، رأيته لم يكن لك فضل فيه.. لقد كدت تقتلني بتجربتك المخبولة تلك.. لكن لتقل إنك كنت إشارة البدء التي نقلتني إلى عالم لا يصدق..

هتف غير مبال بالإهانة:

- إنه المجد!.. أنت نقلتني إلى عالم لا يصدق من الشهرة والاحترام العلمي.. واليوم أنا مدعو إلى (نادي السحر) باعتباري ضيف شرف.. والفضل لك..

غمغم (هاري) وهو يجلس على أحد المقاعد واضعًا يديه في جيبه:

- نادي السحر؟.. اسم غريب!.. وهل هذا النادي يقدم لضيوفه حساء أجنحة الخفافيش في جماجم بشرية؟ وهل تتسلون هناك بذبح الأطفال الرضع؟

أطلق (كولبي) صرخة احتجاج.. وهتف:

- لا تكن سخيفًا يا مستر (شيلدون).. إن هذه الفكرة الصبيانية عن السحر لا تليق بك بل بقراء القصص المصورة..

- في رأيي أن القصص المصورة أكثر احترامًا.. فأنا خبير (كمبيوتر) يا سيد (كولبي).. ولا أتعامل إلا مع الحقائق الملموسة والمقدمات التي تقود إلى نتائج.. ولو أنني فتحت ذاكرة (الكمبيوتر) اليوم ووجدت برنامجًا لم يكتبه أحد فإنني لعلى استعداد أن أومن بسحرك هذا..

اتسعت عينا (كولبي) وفيهما ارتسمت نظرة حالمة، أقسم إن الرقة الرومانسية غزت سمنته الكريهة..

قال في افتتان:

- لا يهمني رأيك كثيرًا برغم احترامي له.. اليوم يجلس سحرة الولايات المتحدة يستمعون لي وأنا أتكلم.. وهذا هو كل ما أبغى من الكون..

قلت وأنا أشعل لفافة تبغ وأتخذ مقعدًا:

- كنت أظن السحر والروحانيات موضوعين منفصلين..

- إن السحر هو...

ثم تقلص وجهه ألمًا.. وهتف:

- معذرة.. الحمام.. إنها (البروستاتا) كما تعلمان..

وغادرنا مسرعًا كعادته، فنظر إلي (هاري) مندهشًا ولسان حاله يقول:

- ماذا دها هذا الرجل؟

قلت له بلا مبالاة:
- لا عليك.. إن (بروستاتا) هذا الرجل صارت موضوع الساعة بالنسبة لمن يزوره أو يحاول فهم حرف من كلامه..
بعد ثوان عاد الرجل من الحمام وقد بدت عليه معالم الارتياح.. وقال وهو يجرع ما بقي في القدح من (شوكولاتة).
- كنت أقول إن السحر والروحانيات وعلم (الباراسيكولوجي) كلها مسميات توضع في خزانة واحدة هي (الميتافيزيكس) أو علوم ما وراء الطبيعة.. نحن في هذا المجال أبناء عمومة.. ونحن نلتقي في بيت الأسرة الكبير المسمى (نادي السحر) من حين لآخر ليلقي كل منا محاضرة عما عرفه أخيرًا في هذا المجال..
ثم التمعت عيناه.. ببريق مجنون.. وهتف:
- هل تحبان أن تحضرا أحد هذه الاجتماعات؟
قلت له وأنا أتأمل السمكتين تسبحان في حوضهما غير عابئتين بشيء من هذا الهراء:
- بلى.. لكنني كنت أحسب هذه الاجتماعات مقصورة على الصفوة.. أعني أنه يجب أن تكون معك بطاقة تعريف أو تحمل معك قبعة فيها أرنب أو شيئًا من هذا القبيل..
- لا شيء من هذا..! - قال وهو يطوح رأسه يمينًا ويسارًا:
- المهم أن تترك معتقداتك البالية في دارك لا أكثر ولا أقل..
- من الممكن أن أفعل هذا..
نظر إلى الساعة على الحائط.. وقارنها بساعة جيب عتيقة أخرجها من صدار بذلته.. ثم قال:
- ليكن.. إن الحفل يبدأ بعد نصف ساعة.. فاستعدا لكي نذهب.. نصيحة يا مستر (شيلدون).. أتوسل إليك أن تتجاهل طريقتك العدائية الهجومية بعض الوقت إن هناك من لا يحبون هذا ممن نحن ذاهبون إليهم... احتفظ لنفسك بعقليتك الجدلية النقدية بعض الوقت وأعدك أن تعرف أكثر..

* * *

كان اللقاء في شقة فاخرة في حي (بارك أفينيو).
مجموعة من الخدم الذين يرتدون زيًا موحدًا يهرعون هنا وهناك حاملين أقداح الشراب.. وفي صدر القاعة مائدة هائلة عليها وعاء ضخم مزركش يحوي شرابًا ينقلونه إلى الأقداح بمغرفة كبيرة - مثلما يفعلون في حفلات الكوكتيل - جوار عشرات الأصناف التي يستحيل أن تعرف كنهها بالضبط..
ثمة شيء شبيه بديناصور مذبوح جواره شوكة وسكين - عرفت فيما بعد أنه ديك رومي عملاق - وأطباق ملأى بأشياء يمكن أن تكون عيونًا مقلوعة أو صراصير محمرة أو أنوفًا بالصلصة..
لن أفهم أسلوب الطهى الأمريكي أبدًا... وعليك - أنا لن أفعل هذا ما حييت - أن تنقل إلى طبقك عدة أصناف من هذه الأشياء المرعبة لتلتهمها بلذة في المكان الذي اخترته لنفسك..
ناديت (هاري) وطلبت منه أن ينتقى لي شيئًا آكله.. شيئًا ليس مخنوقًا ولا موقوذًا، ولم يطبخ بالخمر، ولا يحوي لحم الخنزير، ولا يحوي تعويذة سحرية ما، ولا يثير منظره الذعر في قلبي!

نظر لي في حيرة:
- المهمة عسيرة.. فأنا نفسي أجد صعوبة في انتقاء شيء مأمون..
ثم أشرق وجهه بابتسامة عذبة وقال:
- لحظة!.. وجدت لك الحل السعيد!
ومد يده ونقل إلى طبقي عودين من الكرفس..!

* * *

بفم مليء بالكرفس شرعت أتأمل المكان..
كانت الموسيقا العذبة - المصنف العاشر لأحدهم - تنبعث من لا مكان.. كأنما هي الكل الذي نحن فيه، حيلة بارعة كما ترى.. ولابد أن السماعات مدفونة في مكان ما تحت أقدامنا..، حتى الإضاءة ذاتها تأتي من لا مكان.. الجدران ذاتها تضيء بلون أزرق خافت يبعث الانتعاش في روحك..
في البدء شعرت بالخجل لأنني الوحيد الذي لا يرتدى (الفراك) في هذا الحفل المنشّى (بالمناسبة، أرجو أن يفتيني أحدكم عن كنه الفراك بالضبط حتى أشتري لنفسي واحدًا في الحفلات القادمة).
ثم بدأ خجلي ينزاح حين رأيت شبانًا يرتدون (الجينز)، ورجالًا يرتدون بذلات أقل ما يقال عنها إنها أسوأ من بذلتي..
لقد كان طابع هذا الحفل هو البساطة والبذخ.. البساطة في التقاليد.. والبذخ في الإمكانيات..
وحتى هذه اللحظة لا يوجد شيء غير عادي..
كانت هناك فتيات ترتدين ثياب السهرة ويرحن هنا وهناك متظاهرات بالمرح والانطلاق، وكان هناك رجال واضح أنهم بلغوا الذروة في الثراء أو على المناصب.. يحيط بهم - إذ وقفوا معتدين بأنفسهم - رجال ونساء يتظاهرون بالاهتمام المتصوف بما يقال.. كأن ثراء الإنسان يكفي لجعله أحكم الحكماء..
الخلاصة أنه جو مقيت..
وأنا يا رفاق خفاش آدمي.. أهوى الظلام والوحدة وأمقت الأضواء والناس، وسر حبي الوحيد للحفلات هو أنني أكل فيها كالحيتان.. لذلك لا تتوقعوا مني أن أحب هذا الحفل الذي لم أظفر فيه سوى بعودين من الكرفس..
ولكن أين (هاري) وسط هذه الفوضى؟
آه!.. هو ذا واقف يتحدث مع شقراء لا ترتدي شيئًا تقريبًا..
كنت أظن أن هذه الأساليب المراهقة بعيدة عن رجل متزوج من امرأة حسناء تحبه.. لكني كنت مخطئًا على ما أظن..
وأين (كولبي) في كل هذا؟
ها هوذا.. ضيف الشرف المرتقب للحفل.. إنه يمشي هنا وهناك بثيابه البالية يمازح هذا ويكلم ذاك.. لكن من الواضح أن أحدًا لا يعبأ به بتاتًا.. إنه مجرد رجل مضحك يثير الشفقة لا أكثر ولا أقل..

بالطبع كان يختفي من حين لآخر عن ناظري.. إنها البروستاتا كما تعلمون.. لو أن هناك جمعية لهواة التبول لصار هذا الرجل رئيسها الشرفي.. إنني أضمن له هذا على الأقل..

ولكن.. أين السحر وسط كل هذا؟..

إن هي إلا حفلة مرحة أخرى.. صحيح أنني لم أر مثلها إلا في السينما، لكنني أشعر بالملل وكأنني أفنيت عمري كله في حفلات مماثلة.. لهذا اتجهت بثقة إلى (البوفيه) المفتوح فملأت طبقي بالكرفس.. ثم اتجهت إلى أريكة وثيرة أمامها مائدة صغيرة.. فأرحت جسدي عليها وأشعلت لفافة تبغ، وأخذت أتسلى بإلقاء الرماد على السجادة الفاخرة، وأراقب هؤلاء البلهاء..

* * *

كانت عقارب الساعة تتجه نحو الحادية عشرة مساء..

حين ظهر رجل في العقد السادس من عمره.. متأنق.. أشيب الشعر.. يرتدي منظارًا معلقًا إلى صدره بسلسلة ذهبية..

ظهر هذا الرجل يشق طريقه بين زحام القوم المتمايلين والمتمايلات حتى وجد لنفسه موضع قدم.. ثم صاح بصوت جهوري معدني:

- هير هير[1]

فساد الصمت إلا من نغمات البيانو القادمة من لا مكان.

- يسرني - أنا رئيس رابطة سحرة (نيويورك) - أن أقدم لكم ضيف حفلنا الليلة..

نظرت بطرف عيني إلى (كولبي).. فوجدته وقد احتقن وجهه.. ولا شعوريًا شرع يحك حذاءه في ساق بنطاله ليزداد لمعانًا.. ثم يتقدم إلى الأمام.. إنها لحظته المنتظرة..

- إنه لرجل فذ.. وهو شرف مهنتنا بعطائه الذي لا يكل، وجهوده المخلصة من أجل علوم ما وراء الطبيعة..

ويتقدم (كولبي) عبر الصفوف يزيح هذه.. ويبعد هذا قاصدًا مركز الحلقة، حيث وقف الرئيس يقول:

- أعرف أنكم لستم جميعًا من المهنة.. بعضكم ضيوف عليها.. وبعضكم لم يسمع عن هذا الرجل العظيم!.

وهنا كان (كولبي) قد وصل إلى الرئيس.. ومد يده نحوه..

- أرجوكم جميعًا أن تحيوا... الدكتور (لوسيفر)!!

وتعالى صوت التصفيق على حين شرع (كولبي) يدور بعينيه في بلاهة.. إذن لم يكن هو المقصود.. إذن..

شعرت برغبة عارمة في الضحك مازجتها الشفقة.. كلنا يعرف هذا الشعور المرير.. هو ذا (كولبي) ينسحب وقد بدا لي كأنما صار عاجزًا عن رفع كتفيه لأعلى.. سقطتا إلى جانبه على شكل رقم (٨).. واحمرت أذناه أكثر فأكثر، على حين شرع الجمع - الذي لم يلحظ سوء التفاهم هذا - يردد الأغنية الشهيرة في حفلات التكريم:

"لأنه رجل لطيف طيب.. لأنه رجل لطيف طيب.. ولا أحد ينكر ذلك.."

وهنا لم أعد أنظر إلى (كولبي)..

تركزت عيناي على ذلك الرجل النحيل الذي يرتدي السواد والذي وقف يحيي الناس جوار الرئيس..

طويل القامة كان.. كل ما فيه أسود.. شعره.. ثيابه.. لون عينيه.. على عنقه قلادة ذهبية هائلة الحجم.. وفي أصابع يديه عدد من الخواتم الماسية يفوق قدرتي على العد..، وكان هناك قرط يتدلى من أذنه اليمنى (ولم أكن قد رأيت من يرتدي القرط بين الرجال في ذلك الوقت)..

كان رهيبًا.. وأدركت أنه يستغل هذا الإيحاء خير استخدام.. لقد أدرك أن له طابعًا شيطانيًا لا تخطئه العين، لهذا استكمل هذا الطابع بانتقاء الثياب السوداء وتسمية نفسه بإسم (لوسيفر) الاسم اللاتيني للشيطان.. إسم معناه (أمير البهاء) لأن الكبرياء تقود إلى الهلاك..

شعرت بكراهية له من اللحظة الأولى، وتمنيت أن أرحل أنا و (هاري) الآن..

لكن شيئًا في أعماقي أمرني أن أنتظر وحتى يفرغ هذا المخبول من كلامه.. لابد أن أعرف الشيء الذي منحه كل هذا (البرستيج) بين أقرانه.. كل السحرة يخرجون أرنبًا من القبعة، فهل هو يخرج منها أفراس نهر؟!.. كل السحرة يشطرون المرأة إلى نصفين فهل هو يشطرها إلى ثلاثة؟!..



تركزت عيناى على ذلك الرجل النحيل الذى يرتدى السواد

والذى وقف يحيى الناس جوار الرئيس ..

على أنني كنت مخطئًا هنا حين خلطت بين السحر (الاستعراضي) الذي يؤدى على المسارح، والسحر الخفي الذي يمارس في غرف مغلقة..

فالنوع الأول معروف ودائمًا ما ينكشف عن ألعاب حواة تافهة.

أما النوع الثاني فلا أعرف عنه حرفًا...

رأيت هذا المدعي يرفع يده لتهدأ الجلبة.. ثم يقول:

- سرني هذا الترحيب!

كان صوته كمظهره.. أسود.. قاتمًا.. كئيبًا..، على أن له سحرًا مغناطيسيًا غامضًا يجعلك تود لو سمعت أكثر..، صوته كان أشبه بتلك النبرات الرتيبة التي تخرج من حنجرة الببر القوية حين يغفو بعد أن التهم فريسته بالكامل..

- إنني أجد قلوبًا مخلصة ملأى بالحب في هذا المكان.

حب؟.. عم يتحدث هذا المعتوه؟.. لكنني لاحظت نبرة صوته واللهجة الأجنبية الواضحة في كلماته.. واضح أنه ليس أمريكيًا.. ربما هو من (أوروبا) الشرقية أو (روسيا) أو شيء من هذا القبيل..

كما لاحظت أنه في العقد الخامس من العمر مثلي..

- عودوا لمرحكم.. أما عني أنا فلسوف أجلس في صومعة الأحلام مع مستر (كلارتون) مضيفنا الكريم.. فمن أراد أن يلحق بي هناك فبه أسعد.. وله قلبي يطرب.. أما الأخرون فهم سعداء من أجله.

واستدار ليتجه إلى حجرة جانبية ومعه رئيس الرابطة الذي عرفت الآن أنه صاحب الدار وأن اسمه (كلارتون).

لم يفتني كذلك أن ألاحظ الأسلوب الغريب الذي تكلم به على غرار (به أسعد) و (له قلبي يطرب) ليعطي كلماته طابعًا غريبًا يوشك أن يكون كنبوءات العرافين..

إن (كولبي) نموذج للنصاب الأبله.. أما (لوسيفر) فهو من طراز راق شديد البراعة.. إنه النصاب نجم المجتمعات.. ولن أدهش لو كان ثراؤه واسعًا كحيلته..

عاد الحفل إلى صخبه السابق... الضحكات الأنثوية تدوي.. والخدم يروحون هنا وهناك... (هاري) يأتي إلي - لا أدري من أين - ليقول لي وهو يجرع كأسه:

- هل معك لفافة تبغ؟...

- أظن هذا.. حسبتك لا تدخن.

- أنا كذلك.. تلك الشقراء طلبت أن أقدم لها واحدة!

- عليك اللعنة!.. أنا أمقت هؤلاء الكرماء على حسابي.. خذ العلبة كلها ولكن أعدها لي..

قال وهو يدس العلبة في جيبه:

- ما رأيك في هذا الجو المسموم؟

- عرفنا ألعن منه مع سحرة (الفودو) في تلك الليلة.. هل نسيت؟

- وكيف أنسى؟.. قل لي.. لماذا لا نتبع هذا المخبول إلى صومعته كما قال؟...

- لا!..

- لكنك مولع بالتجارب الجديدة.. إن الفضول يقتلني.. لحظة يا صغيرتي!.. لقد أحضرت لك سجائرك..

وهنا دنا مني (سام كولبي).. قصيرًا تعسًا مبعثر الهندام.. وفي عينيه نظرة من يرجوني أن أنسى ما حدث.. قال لي:

- كذا ترى! - وتنهد - إنه لجو غير عادي!

- لا أرى شيئًا غير عادي.. مجرد حفل صاخب على درجة من التحرر..

- هذا لأنك لم تدخل الصومعة!

نظرت في عينيه البريئتين، فوجدت دعوة لا تحتاج إلى ترجمة.. إنه يتحرق شوقًا كي يلحق بهذا الـ (لوسيفر) في اجتماعه الخاص.. وأنا حقًا لا أرغب في أن أرى هذا النصاب مرة أخرى.. أريد العودة إلى داري وآخذ حمامًا فالنوم.. أرجوك.. أريد أن آكل شيئًا عوضًا عن الكرفس...

وهنا رأيت (هاري) عائدًا لي حاملًا علبة التبغ وبحنق صاح:

- أنت وسجائرك!.. كالعادة تستعمل أرخص نوع من التبغ على الإطلاق.. لقد كادت الفتاة تموت بالالتهاب الرئوي بعد نفسين!

- لم أطلب منها أن تحب سجائري.

قال وهو يتأبط ذراعي وذراع (كولبي):

- والآن دعونا من هذا الهراء.. هلما بنا نر هذا النصاب!

رفعت يدي في احتجاج صامت، لكن (كولبي) هو الآخر كان متحمسًا ووجدت أنني - في الواقع - أدفع إلى الداخل دفعًا..

ماذا ستخسر - قالا لي - لو ألقيت نظرة؟.. لقد وعد الرجل أنه (بنا يسعد) و (لنا قلبه يطرب) لو منحناه هذه السعادة؟ ثم إنك لا تعرف (لوسيفر) إنه الرجل يسيطر على مفاتيح السحر كلها - والكلام لـ (كولبي)- وهو ليس نصابًا كأكثر العاملين بهذه المهنة القذرة.. وبمعنى أقرب إلى فهمكما..

- إنه لرجل يعرف ما يتكلم عنه!.

وهكذا سمحت لنفسي - هذه المرة فقط - أن أدخل صومعة الدكتور (لوسيفر).. وكما تعرفون عني: كنت ماذا؟.. ساذجًا.. ساذجًا..

* * *

رائحة البخور هذه...

رائحة البخور تفوح بها الغرفة، الغرفة التي يسودها لون أخضر غريب، فلم أكن واثقًا هل هو انعكاس من الجدران، أم أن هناك مصدرًا للضوء الأخضر؟

الزخارف الشرقية تملأ المكان.. وثمة مبخرة من السقف، على حين تناثرت النوافذ (الأرابيسك) الموصدة في أرجاء القاعة..

حتى السجاد كان إيرانيًا سميكًا غاصت فيه أقدامنا حتى كاحلها.. لقد حرص من أثث هذه الحجرة على افتعال طابع عربي من الذي يثير خيال الأمريكان.. حتى أنهم وضعوا زنجيًا عاري الجذع إلا من صدرية مذهبة جوار الباب الذي تغطيه الستائر ليوحوا للداخلين أن هذا عبد من عبيد ألف ليلة وليلة..

وكانت هناك جارية حسناء تحمل (الدلة) تطوف بها على الجالسين تملأ أقداحهم بشيء أعتقد أنه قهوة.

هذه هي الصومعة إذن، وسمعت صوت البر يزأر:
- مرحبًا بك يا (كولبي) أنت ود. (رفعت) ومستر (شيلدون)!
ارتجفت لهذه البداية وكدت أؤمن أنها معجزة.. ثم تذكرت أن (كولبي) الثرثار بالتأكيد قد حكا للرجل كل شيء عنا..
كانوا جالسين على الأرض على طنافس عربية موشاة بالذهب.. حول ما يشبه (طبلية) صغيرة مسدسة الزوايا، كأنما خرجت من تحت يد أفضل صانعي (خان الخليلي)، لكنه دائمًا ذلك الجو الشرقي المفتعل الذي لا يجيد الغربيون محاكاته.. فهم لا يعرفون عنا سوى قصص ألف ليلة وليلة ولوحات (ديلاكروا)..
الضوء الأخضر الساطع يغلف الوجوه.. دنوت من المجلس واخترت إحدى الطنافس وتربعت عليها.. وجلس (هاري) إلى يميني و (كولبي) إلى يساري.. وشرعنا نتأمل الجالسين.. كانوا خمسة بالإضافة إلى (لوسيفر) والأخ (كلارتون).. وبعد دقائق دخلت الغرفة امرأتان فجلستا إلى المائدة معنا.. إحداهما شابة لا بأس بها والأخرى عجوز لابد أنها فقدت طفلها في حروب (الهكسوس)..
ظل الصمت هو السائد بضع دقائق..
لا نفعل شيئًا سوى أن نتبادل النظرات.. متى ينتهي هذا الهراء؟.. ثم إن (لوسيفر) بدأ يتكلم.. بصوت بطيء النبرات عميقها، يتكلم.. عن أي شيء بالضبط؟.. لا أدري في الواقع.. مجرد كلام فارغ لا أول له ولا أخر عن وحدة الكون والعقيدة (المانوية) والوصول إلى الحقيقة عن طريق فهم أنفسنا أكثر.. إلخ...
ملت على أذن (كولبي) هامسًا:
- هذا المخبول.. هل هو ساحر أم عراف أم مدعي نبوة من الذين تزخر بهم بلادكم، والذين في بلدي يحملونهم إلى أقرب مصحة عقلية حيث تتكفل بعض صدمات كهربية بشفائهم تمامًا؟!
- حنانيك.. لا تسخر منه إنه..
وهنا دوي صوت البر:
- أنا عالم يا د. (رفعت)!.. لا أكثر ولا أقل!!
رفعت عيني نحوه فوجدته يرمقني بعينيه السوداوين الثابتتين.. ما أقواهما من عينين!.. كأنهما خلقتا للتنويم المغناطيسي.. وسمعته يقول وهو يرفع شيئًا ما في قبضته:
- هل سمعت عن أوراق (التاروت)؟
تأملت الأوراق التي يقبض عليها في قبضته.. بالطبع سمعت عنها وبالتأكيد أعرفها.. هل أنسى الأم (مارشا) في (جامايكا) ونبوءتها عن القلعة والتراب الأحمر؟.. أعرف هذه الأوراق برسومها المشؤومة، لكني لا أعرف شيئًا عن مغزاها ولا معناها..
قال د. (لوسيفر) وهو يجيل عينيه بين الجالسين:
- هناك من يؤكد أن كلمة (تاروت) مأخوذة من الكلمة الهيروغليفية (تاروش) ومعناها: الطريق الملكي.. ومن يؤكد أنها مأخوذة من كلمة (روتارو) اللاتينية ومعناها: الدائرة.. لقد حاول الكثيرون معرفة متى وكيف نشأت هذه الأوراق لكن الجميع فشل في ذلك.
قال صاحب الدار (كلارتون) وهو يرفع منظاره إلى أنفه:
- في كتاب (العالم البدائي) يزعم مؤلفه (كورت) أن هذه الأوراق ظهرت في (أوروبا) في القرن الرابع عشر.. لكنها ظهرت في الشرق قبل ذلك بعهد سحيق.. ربما كانت تعود إلى عهد الفراعنة

أنفسهم..
قال أحد الجالسين وهو رجل أسمر له وجه كئيب ممتقع:
- إن (ستيوارت كابلان) عاكف الآن على كتابة كتاب (أوراق التاروت) يتحدث فيه عن لغز هذه الأوراق[2].
دون كياسة تساءلت أنا عاجزًا عن الفهم:
- لا أفهم.. ما هي جدوى هذه الأوراق أصلًا؟.. أليست نوعًا من (فتح الكوتشينة) لا أكثر؟
تحركت العينان الثاقبتان نحوي.. وسمعت صوت الحشرجة:
- ليس الأمر بهذه البساطة.. لقد عكف الدكتور (يونج) تلميذ (فرويد) الشهير على دراستها ثم أعلن رأيه: إن (التاروت) هو أسلوب لتنمية الحدس واتباع منهج عملي يلائم وجود الإنسان في هذا الكون..، والعالم الإنجليزي (ليفي) يقول: إن (التاروت) يتيح لمن لم ير العالم قط أن يمتلك المعرفة الكاملة بالكون ويتحدث في كل المواضيع ببراعة..
بالمناسبة.. أنت مصري يا د. (رفعت) وكان من واجبك أنت أن تحدثنا عن (التاروت) على حين نصغي لك.. إن (التاروت) في الغالب اختراع فرعوني قديم..
أضاف (كلارتون) في حماس موجهًا الكلام لي:
- يزعمون أن كهنة مصر دونوا فيها كل أسرار حضارتهم التي أحسوا بقرب اندثارها.. وكان ذلك في العام الألف قبل المسيح..
تساءلت الفتاة بصوت بدا التوتر يغزوه:
- وكيف وصل (التاروت) إلى أوروبا؟.
- وصل إلى (انجلترا) مع طوائف الغجر.. وصنع أول (تاروت) بها في عهد الملك (هنري الثامن)..
وهنا قطع (هاري) خيط الكلام ليتساءل:
- دعونا من تاريخ هذه الأوراق.. ما الذي تنتويه بالضبط؟
شاعت ابتسامة غامضة في وجه د. (لوسيفر) وشرع (يفنط) الأوراق دون أن ينظر إليها.. ثم أجاب:
- أنوي أن آخذكم إلى رحلة نادرة خارقة للعادة.. وأداتي هي (التاروت).. كان لابد لي من أن أخبركم بشيء عنه قبل أن أبدأ.. والآن من سيكون الأول؟!
ساد الصمت.. فملت على أذن (كولبي) هامسًا:
- من هو د. (لوسيفر) هذا؟
قال هامسًا دون أن يحول بصره عن المشهد:
- لا أحد يعرف.. يقولون إنه من (المجر) وإن اسمه (فرانتز لوسيفر).. وقد جاء إلى (الولايات) منذ ثلاثة شهور.. ويقال إنه أثار حيرة الجميع بما يصنعه بهذا (التاروت).. حتى أن مستر (كلارتون) الذي لم يعد شيء يبهره، قد استضافه عنده بصورة دائمة وأعد له هذه الغرفة خصيصًا..
- يسأل عن الأول.. الأول في ماذا بالضبط؟
- لا أدري.. ربما سيرينا بعض قدراته التنبؤية..
وببطء شديد دارت عينا الرجل الثاقبتان بين صفوفنا..
خطر لي في هذه اللحظة مدى سخف ملاحظتي حول العينين القويتين، فالعينان وحدهما غير قادرتين على التعبير عن شيء.. كل ما تملكانه هو أن تتسعا لتوحيا بالرعب أو تضيقا لتوحيا

بالمكر، الحاجبان هما ما يعطي العينين تأثيرهما الكامل..، هما ما يعطي العينين إيحاء الطيبة والضعف، ويعطيانها إيحاء الحزن، ويعطيانها إيحاء الشر..

المخيف في هذا الـ (لوسيفر) أن عينيه لم يكن فوقهما سوى حاجبين مسطحين أفقيين لا ينمان عن شيء.. وهذا في حد ذاته يثير الرعب في قلبي..

صوت البير الراضي عن شبعه يتردد:

- الحق أقول لكم إنني لواجد بينكم من يستحق شفقتي.. إن بينكم يا إخوان من لا يصدق.. فله الحسرة تغمرني، وبينكم من يسخر.. فمنه أشعر بالحنق، وبينكم من لا يبالي.. فإليه نصحي أن يعيرني أذنيه الفانيتين بعض الوقت.

شعرت بالتوتر.. فأنا أمتاز عن الآخرين بأنني قابل للدخول في كل هذه القوائم.. أنا بالفعل لا أصدق ولا أبالي وأسخر!.. وبالتالي أنا سببت للرجل الحسرة والحنق وواجبي أن أعيره أذني الفانيتين بعض الوقت!.

نظر لي د. (لوسيفر) نظرة باردة.. وجرع قدح القهوة الذي كان أمامه.. وأشار إلى ما وراء كتفي..

- لا!

قلتها في إصرار، إذ رأيت الجارية آتية إلى حاملة (الدلة) لتصب لي بعض القهوة في فنجاني.. تلبية لإشارته..

والسبب معروف.. بعد تجربتي السابقة مع (كولبي) لا أجد لدي استعدادًا كي أشرب شيئًا ما قد يحوى عقار هلوسة، أو شيئًا مماثلًا..

أريد أن أكون بكامل قواي العقلية لأرى ما سيحدث.. إذا كان هناك ما سيحدث حقًا..

ثم إن د. (لوسيفر) واصل الكلام:

- إن لي أن أفترض أن من لحقوا بي يريدون أن يعوا المزيد عن غدهم.. وإنه لمما يثير دهشتي أن أرى – بالصدفة - هذا الحشد من ذوي المصائر المكفهرة.. كلكم تريدون بصيصًا من الغد.. وليس من الحكمة أن تروا هذا المصير.. فهل حقًا أنتم على ذلك عازمون؟!

ساد الصمت هنيهة..

لم أعتد من قبل أن أرى عرافًا يقول (لزبائنه) إن مصيرهم أسود وأن غدهم قاتم.. من المعتاد أن يقول لهم إن كل شيء تمام وإن الأيام القادمة هي أسعد الأيام.

على كل حال أنا لا أومن بهذا الهراء.. ورأيي هنا صارم لا يتزحزح، لا يوجد تنبؤ بالغيب لدى بشر.. ولو أن هذا النصاب كان يعلم الغيب حقًا لصار حاكم العالم بعد أسبوع..

إن الإنسان الذي يعرف الغيب لقادر على أن يكسب كل أوراق اليانصيب، ويعرف أين تتوقف الكرة في لعبة (الروليت)، ويعرف كل الخطط الحربية وأرقام حسابات البنوك وأسئلة امتحان الثانوية العامة..!، إنسان كهذا لن يجلس في غرفة يشرب القهوة ويحاول أن يبهرنا..

قطعت المرأة العجوز حبل أفكاري قائلة بصوت رفيع مرتجف:

- إنك أثرت فضولنا يا د. (لوسيفر).. هل تعني أن كل الجالسين هنا مستقبلهم قاتم؟.. ما سر هذه المصادفة؟

ابتسم ابتسامته الغامضة وقال:

- لأن كل الجالسين هنا - أو أكثرهم - من اللاعبين بالنار.. لا مصادفة هنالك في أن يحتشد في مكان واحد عدد ممن ستحترق أناملهم...

تنهدت المرأة.. وغمغمت:
- أنت تثير رعبي بكل هذا.. ولا يسعني إلا أن أطلب منك أن أكون الأولى..
ومدت العجوز يدها نحو د. (لوسيفر) فناولها الأوراق، وطلب إليها أن تخلطها بنفسها.. فهو يريد أن يلقح الأوراق كلها بمغناطيسية الشخصية، وأن تكرس تفكيرها كله لمحتوى هذه الأوراق..
وفي أذني همس (كولبي):
- تتكون أوراق (التاروت) من ٧٨ ورقة في صورتها الكاملة، منها ٥٦ ورقة تدعى (السر الأصغر) هي التي ولدت منها أوراق اللعب المعروفة حاليًا.. أما الـ ٢٢ ورقة الباقية فتدعى (السر الأعظم)..
ولهذه الأوراق ترتيب معين يمكن للملمين بـ (التاروت) أن يجدوا فيه قصة كاملة..
- إذن سيحكي لنا هذا الرجل سبع قصص..
- بالتأكيد.. فالجالسون هنا سبعة..
كانت السيدة قد انتهت من خلط الأوراق فأعادتها إلى د. (لوسيفر)، الذي تناولها..
وبهدوء بدأ يقلب الأوراق بترتيب معين.
الصور الزاهية الغامضة تتراءى لعيني في الضوء الأخضر الغامض.
وبدأ د. (لوسيفر) يتكلم.
وكانت هذه حلقة الرعب الثانية.
لقد دارت العجلة ولن تتوقف إلا حين يقرر هو ذلك..
لأنه رجل لطيف طيب...
ولا أحد ينكر ذلك..

* * *



وبهدوء بدأ يقلب الأوراق بترتيب معين ..

الحكاية الأولى

ماذا أصاب (لويز)؟

بطولة: ليليان مازورسكي

(لقد كان الجواب قريبًا منك يا سيدتي لكنك لم تفهمي قط)..



الاسم : ليليان مازورسكي

السن : ٥٦ عامًا .

المهنة : سكرتيرة سابقًا .

الحالة الاجتماعية : أرملة وأم لثلاثة .

الإقامة : نيويورك .

الجنسية : أمريكيـة لكن أصولهـا تعود إلى (بـولندا)

وقد نزح أبوها إلى الولايات المتحدة عام ١٩٠٢، وهو عامل طباعة أصلًا .

الهوايات : إن مسـز (مازورسـكي) اجتماعية جدًا ، وتهوى صحبة البشـر ، وفي هذه الأمسـية اصطحبتها صديقة ابنتها (لويز) لتقابل هؤلاء القوم الخارقين للعادة.

بالإضافة إلى ذلك هي تهوى سماع موسيقا العشرينات وأغاني (نات كنج كول).

قال دكتور (لوسيفر) وهو يرتب الأوراق أمامه:
- والآن دعينا نر يا مسز (مازورسكي)...
أجفلت المرأة حين سمعت اسمها..، ولم أر في هذا معجزة ما.. فمن أسهل الأمور أن تعرف أسماء المدعوين إلى حفل..
كانت الورقة الأولى هي ورقة (الساحر).. تمثل ساحرًا يقف أمام مائدة عليها أشياء عديدة.. [فيما بعد عرفت أن هذه الورقة تشير إلى المهارة والثقة بالنفس، بينما يرى (أنطوان كورت) الفرنسي أنها ترمز إلى القرن الأول للديانة المسيحية، على حين يرى علماء النفس أنها ترمز لانبثاق (الأنا) في النفس البشرية].
الورقة الثانية كانت (المشنوق) وكالعادة تمثل شابًا معلقًا من قدمه اليمنى إلى المشنقة.. وتشير هذه الورقة إلى الاستسلام والتضحية بالنفس...
الورقة الثالثة هي (القوة).. وتمثل رجلًا يصارع أسدًا..
ثم جاءت ورقة العالم.. ثم ورقة المحاكمة..
وأخيرًا جاءت الورقة المشئومة: الموت.. يظهر فيها هيكل عظمي يمسك بمنجل يحصد به الرءوس..
وفيما بعد عرفت أن هذا الرسم المميز للموت في خيال الإنسان، إنما استمد أساسًا من أوراق (التاروت). وعرفت كذلك أن رقم هذه الورقة الكئيبة هو (١٣) !.. دائمًا هي الورقة الثالثة عشرة..
اتسعت عينا المرأة ذعرًا إذ رأت هذه الورقة.. هتفت في د. (لوسيفر):
- هلا أوضحت لي معنى هذا؟!
نسق د. (لوسيفر) الأوراق بترتيبها الذي خرجت به.. ثم قال:
- لو أننا تتبعنا رأي علماء النفس في هذه الأوراق يا سيدتي لقلنا إنك تعانين من إحساس بالذاتية جد مفرط، مما يضطرك إلى التضحية لتتأقلمي مع المجتمع، وعندئذ تتكاملين روحيًا مع العالم وتولدين من جديد، وتنتهي خشيتك من الموت..
ثم ابتسم ابتسامته الكريهة وأردف:
- لكننا لسنا بصدد علم النفس هنا، السحر - يا سيدتي - هو إسم اللعبة.. فأصغي جيدًا لما سأقول.....

* * *

في هذا اليوم - الذي حتمًا مر بها منذ أيام - عادت مسز (مازورسكي) إلى دارها شاعرة بالحنق..
لقد كان يومًا نحسًا كله.. فحين ذهبت إلى (السوبر ماركت) لم تجد كيس النقود معها، وخرجت منه لتجد ورقة مخالفة على زجاج سيارتها الصغيرة لأنها وقفت في الممنوع..
تصاعد الدم إلى رأسها وتراجعت بالسيارة إلى الوراء.. طبعًا لتكسر رفرف السيارة الواقفة خلفها..
وخرج صاحب السيارة يسب ويلعن متسائلًا عن القانون الذي يسمح لهؤلاء العجائز المتصابيات بقيادة سياراتهن في قلب (نيويورك) محطمات سيارات البسطاء الأبرياء الذين لا

وقت لديهم لهذا الهراء..
المهم - نوجز القول - اضطرت البائسة إلى كتابة شيك لهذا الرجل الذي ينفجر غضبًا...
ثم إنها رأت أن اليوم قد حقق ما يكفي من النحس، فالسياسة المثلى الآن في العودة إلى الدار.. فاحتساء كوب من اللبن.. فالنوم قبل أن تحدث كارثة أخرى..
وهكذا - ترون - عادت السيدة (مازورسكي) إلى دارها..
وهنا نلاحظ عدة أشياء بخصوص هذه السيدة:
أولًا: هي تعيش في ضاحية نائية بعيدة عن قلب المدينة.
ثانيًا: لا يوجد جيران قريبون على بعد ميلين.
ثالثًا: هي ليست وحيدة في دارها لأن معها ابنتها (لويز)، وهي آخر من بقي في الأسرة بعد ما تزوج (مارك) ونزح إلى (أوهايو) وبعد ما تزوج (بوب) ونزح إلى (كاليفورنيا)..

* * *

هنا كف د. (لوسيفر) عن سرد القصة والتفت إلى مسز (مازورسكي) وتساءل في كياسة:
- هل كل شيء دقيق حتى هذا الجزء؟
شحب وجهها وغمغمت:
- لا بأس.. استمر إذن.
وعاد د. (لوسيفر) يواصل قصته..

* * *

لم تكن (لويز) في الدار لأنها خرجت مع صديقتها الجديدة (هارييت).. هكذا عرفت الأم حين قرأت الـ (ستيكر) الملصق على الثلاجة..انتزعته في غل وهشمته بين أناملها، ثم فتحت الثلاجة وأخرجت دورق اللبن وصبت لنفسها كوبًا كبيرًا باردًا..
منذ أن دخلت (هارييت) في حياة (لويز) لم تعد (لويز) هي هي.. فتاة السبعة عشر عامًا الرقيقة المرهفة التي تعزف البيانو وتقرأ الشعر ليلًا قد أصابها تغيير ما..
إن (لويز) نحيلة ترتدي منظارًا وثيابها كلاسيكية محتشمة راقية.. أما (هارييت) فصاخبة حمراء الشعر ترتدي أي شيء وكل شيء..، ومن المؤسف أن الأم لم تجد قط لديها الشجاعة كي تطردها أو تأمرها أن تترك ابنتها وشأنها..
ومن يومها تخرج (لويز) كثيرًا.. وتتأخر عن الدار كثيرًا.. وحين تعود لا تكف موسيقا (الروك أند رول) الصاخبة الشنيعة عن الدوي في حجرتها مرددة أسوأ أغنيات فريق (هو) أو غيره من أسماء هؤلاء الشياطين الذين يسمون أنفسهم فرقًا..
وكانت الأم تشعر بارتياح شديد لصديقة ابنتها (ماري) التي تناسب طباعها إلى حد كبير.. ولم تكن تريد من (لويز) سوى أن تمضي مع (ماري) فترات أطول..
ثم إن د (لوسيفر) نظر باتجاه الفتاة الجالسة معنا.. وتساءل:
- هل أنا مخطئ في هذا يا (ماري)؟
أبعدت الفتاة خصلات الشعر التي تغطي نصف وجهها وقالت:

- لا.. استمر أرجوك..

* * *

إلى هنا والقصة عادية تمامًا..
من من الآباء هنا لم يمر بها وهو يتعامل مع إبن في سن المراهقة؟..
إن الأصدقاء قد يكونون شعلات من نار ما إن تضع ابنك بينهم حتى يحترق.. وقد يكونون قطعًا من جليد ما إن يلامسهم ابنك حتى يتجمد..، الخلاصة أنه لن يكون بمعزل عنهم أبدًا، وواجبك كأب أن تنتقي له الأصدقاء معتدلي الحرارة حتى لا يتجمد أو يحترق..
تلكم الخواطر دارت - ولابد - في ذهن الأم فوجدت نفسها تسكب كوب الحليب ثم تنتزع ثيابها ذاهبة إلى الفراش وقد أحست بأنها عازفة عن أكل أي شيء.. إن الفارق الزمني المهول بينها وبين ابنتها - أكثر من أربعين عامًا - يجعل أي احتمال للتفاهم بينهما مستحيلًا.. كان من الأوفق لها أن تكون جدتها، وهي نفسها لا تدري سر الظروف التي قادتها إلى الحمل في الأربعين من عمرها.. حتى أنها ظلت ترتقب في هلع أن تولد ابنتها مصابة بتخلف عقلي أو عيب خلقي مروع.
لكن شيئًا من هذا لم يحدث والحمد لله..

* * *

صوت الباب ينفتح..
صوت خطوات ابنتها تنسل إلى الداخل..
هرعت حافية القدمين إلى مدخل الدار.. وهتفت في ابنتها:
- ألن تتناولي عشاءك؟
تعمدت ألا تلقى تحية المساء أو تعلن عن وجودها كي تحافظ على كونها مرعبة للفتاة..، ورسمت على وجهها تعبير حزم مسرحيًا، فالحقيقة المؤسفة هي أنها لم تستطع قط أن تكون حازمة مع طفلتها..
- تناولته بالخارج..
قالتها الفتاة.. شاحبة.. غريبة الأطوار مبعثرة المنظر قليلًا..، ثم إنها هرعت إلى غرفتها دون إضافة أخرى..
في هذه المرة لم تحتمل مسز (مازورسكي) هذا الذي يحدث كل ليلة تقريبًا.، هرعت إلى غرفة الفتاة بدورها وفتحت الباب بعنف لتجد ابنتها واقفة أمام النافذة تنظر عبرها إلى الليل المظلم بالخارج..
- (لويز)! - صاحت في عنف - ماذا دهاك بالضبط؟
هل أنت واثقة أنك بخير؟
ودون أن تدير الفتاة ظهرها.. همست:
- أرجوك ألا تشغلي بالك بي..
لكن مسز (مازورسكي) كانت في غاية الانشغال بالفعل.. منشغلة منذ زمن سحيق.. منشغلة إلى حد إجراء تحريات واسعة عن ابنتها.. منشغلة إلى حد تفتيش حجرتها ركنًا ركنًا.. منشغلة إلى حد

كشف القميص عن معصمها ليلًا بحثًا عن آثار إبر، فهي لم تكن واثقة من أن ابنتها لا تتعاطى شيئًا ما..

هي قد قرأت مرارًا أن المراهق مدمن المخدرات يحرص على ارتداء ثياب شتوية في الحر ليغطي معصميه بها.. والوقت كان صيفًا.. وبرغم ذلك ترتدى (لويز) قميصًا طويل الكمين..

- إلى أين ذهبت أنت و (هاربيت)؟

- لا شيء.

قالتها الفتاة ومطت شفتيها اشمئزازًا:

- ذهبنا إلى السينما.. وزرنا بعض الصديقات.. كان كل هذا مملًا..

- ومتي تناولت العشاء إذن؟

- ليس عشاء بالمعنى الحرفي.. بعض البطاطس المحمرة و(كولا)..

إذن قد حان الوقت للعب دور الأم الحانية:

- سأعد لك العشاء.. ولسوف تأكلينه..

- ولكن أنا لا...

- (لويز)!.. من فضلك افعلي شيئًا من أجلي.. شيئًا واحدًا..

وإلى المطبخ ذهبت مسز (مازورسكي).. أعدت بعض الكبد مع البصل.. يا ليت زوجها (بول) كان هنا.. إن سلطة الأب لشيء شديد الأهمية لا تشعر به سوى الأمهات.. تمامًا كما أن عناية الأم شيء هام لا يفهمه إلا أب يحاول تغيير (الكافولة) لطفله.. كان (بول) يفهم هذه الأمور.. ومن يدري؟. لربما كانت واهمة في ظنونها.. لربما ابنتها تمر بأزمة نفسية عابرة وهي في سن يشعر جيدًا بالحرمان الاجتماعي..

نعم.. هي بالتأكيد في حاجة إلى رأي طبيب نفسي أو خبير تربوي.. إن هذا الذي يحدث ليس..... آي!..

وفي جزع تأملت الجرح في إصبعها.. لقد مزقته السكين تمزيقًا.. والدم يسيل على رخامة المطبخ..

- مامي!... هل جرحت نفسك؟

هتفت (لويز) في هلع.. ثم إنها تقدمت من أمها وأمسكت إصبعها.. متى دخلت المطبخ؟.. إن الأم لا تذكر شيئًا من هذا..

المهم أنها أمسكت إصبع الأم، وفي رفق وحنان شرعت تمتص الدم من عليه، وهو مشهد ألفته الأم جيدًا ولم تندهش له.. ما أثار دهشتها هو التلذذ الواضح في ملامح (لويز).. هو البريق الغامض في العينين.. كأنها قطة تلعق اللبن في رضا..

ودون كلمة اخرى انتزعت الأم إصبعها.. وإلى الحمام جرت لتأخذ من الصيدلية قطعة من البلاستر..

وفيما هي عائدة إلى المطبخ، كانت (لويز) جالسة أمام طبق الطعام تلتهمه في جوع واضح.. وتقول لها:

- يجب أن تكوني حذرة يا (ليلي).

- اسمي (مامي).. وللمرة الألف أقول لك إنني امرأة من الطراز العتيق.. وفي مراهقتي لم أكن أنادي أمي باسمها..

- هلمّي يا (ليلي).. لا تتشبثي بالألفاظ هكذا..
- اخرسي يا (لويز)!
فخرست الفتاة.. ولما كان الليل قد توغل، صعدت كلا المرأتين إلى غرفتيهما لتناما..
ولم تتبادلا تحية المساء بالطبع..
لكن الأم - في فراشها - لم تستطع أن تهدأ بالًا.. صوت موسيقا (الروك) يتعالى من غرفة طفلتها طاردًا كل احتمال للنوم..
وأخيرًا تسمع صوت الـ (ستريو) يغلق.. وتسمع الـ (كليك) المميزة لانغلاق النور الكهربي في غرفة الفتاة..

* * *

الظلام الدامس.. صوت الساعة الرتيب.. صوت أنفاسها..
ولكنها تتبين صوتًا آخر.. صوتًا لا ينتمي لأوركسترا الليل التي ألفتها واعتادتها.
ما هو أصل هذا الصوت؟.. وما مصدره؟..
نهضت في تؤدة إلى الباب وأصاخت السمع.. فلم يكن ثمة شك فيما سمعته.. إنه لصوت قدمين حافيتين دقيقتين تزحفان فوق الأرض.. لا داعي للمزيد من الإنصات ولتفتح الباب لترى..
بالتأكيد هما قدما ابنتها.. فاللصوص لا يملكون أقدامًا حافية دقيقة على قدر ما تعلم..
فتحت الباب حين كان صوت كالون الباب الخارجي ينغلق.. إذن لقد رحلت الفتاة.. ولكن لأين؟.. وفي هذه الساعة؟..
إلى مدخل الشقة هرعت.. أضاءت الأنوار كلها.. فتحت باب الشقة ووقفت ترمق الظلام الدامس بالخارج.. تستنشق رائحة هواء الليل الصيفي المترعة بزهور البرتقال..
لا أحد على مرمى البصر..
- (لوييييز)!
بأعلى صوتها نادت.. لكن أحدًا لم يكن هناك ليرد عليها سوى نباح كلب من بعيد.. كأنها لمسة أخيرة يضيفها مخرج عبقري على مشهد سينمائي يصف الوحشة..
- (لووييز)!
كالملسوعة أغلقت الباب.. هرعت إلى حجرة ابنتها وفتحتها.. الفراش خاو ومنسق.. أي أن الفتاة لم تنم قط..
على الفراش كان هناك شيء ما..
وإذ تدقق النظر أكثر تعرف ما هو.. منظار ابنتها الذي لا ترى بدونه تقريبًا.. إذن (لويز) خرجت.. خرجت إلى مكان لا تدري أين هو (لا يوجد مكان من أي نوع قرب هذا البيت المنعزل)..
والأدهى أنها خرجت حافية القدمين.. ودون منظار.. فكيف تستطيع أن تتبين أي شيء؟..
شرعت تتأمل الغرفة بدقة أكثر، فكان أن وجدت مجموعة من الكتب.. قربت عينيها من أغلفتها لتقرأ العناوين..
يا لها من مواضيع!.. (عن الأشباح).. (أنا مشيت مع زومبي).. (مصاصي الدماء يحيون)..

وكانت هناك بعض مجلات على غلافها مصاصو دماء ينقضون على أعناق نسوة صارخات..
تبًا لها من ثقافة!.. ما الذي يثير شغف ابنتها في هذه المواضيع الكئيبة الشنيعة؟.. هل لهذا ارتباط معين بتغير شخصيتها الواضح؟..
هل هذه هي الليلة الأولى التي تغادر فيها البيت؟...
كيف لم تستطع أن تسمعها من قبل إن لم تكن هذه أول ليلة؟..
وهنا جاءها الجواب المريع في صورة خاطر غير مكتمل.. ثما صار فكرة واضحة توشك أن تغدو حقيقة:
لأن هذه هي أول ليلة تمتنع فيها عن عادتها في احتساء الحليب قبل النوم!..
نعم لا شك في هذا.. هي تجرع كوبًا من الحليب كل ليلة، ولم تفعل ذلك اليوم فقط بسبب تعكر مزاجها..
فهل لهذا السبب وحده لم تنم؟.. هل لهذا السبب سمعت قدمي طفلتها وهي تتسلل خارجة؟.. وهذا يعني أن هناك من يدس لها منومًا في الحليب.. ولا يوجد مشتبهون كثيرون للأسف..
كان التفكير يقتلها حتى أنها - عمدًا - ذهبت للمطبخ، وصبت لنفسها كوبًا من السائل الأبيض الدسم..
سأرى - قالت لنفسها - ما إذا كان هذا اللبن منومًا، فإن كان كذلك استرحت من الانتظار المتوتر.. وإن لم يكن كذلك استرحت من الشكوك.. و.. آووووه! إن.. النعاس..... يغا.....
لقد كان اللبن كذلك!

* * *

- هالو.. (ماري) هذا أنا أم (لويز).. هلا أتيت إلي بعض الوقت؟.
- أكيد يا سيدتي.. هل حدث شيء ما؟
- لم يحدث بعد.. لكني أعرف أنه سيحدث..
ووضعت سماعة الهاتف بانتظار (ماري) صديقة عمر (لويز).. إن (ماري) لفتاة متزنة عاقلة، لكنها - حين جاءت - لم يكن لديها الكثير كي تقدمه للأم.. فقد نأت (لويز) بجانبها عنها، ولم تعد تزورها أو تكلمها هاتفيًا.. إن الصداقة لا تشترى ولا تطلب ولقد أحست الفتاة بأنه لم يعد لها مكان في حياة صديقتها.. فابتعدت في كياسة وصمت..
- وماذا عن هذه الـ (هاربيت)؟
حدقت الفتاة في أظفار يديها.. وغمغمت:
- حمقاء هي.. غير متزنة.. لكن لها مغناطيسية خاصة.. وكل من يتعامل معها يمر بهذا الطور المريب.. لقد حاولت أن تضمني إلى سلسلة مفاتيحها لكني أبيت.
ثم اقشعر جلدها.. وهمست بصوت كالفحيح:
- الحق أنها فتاة مرعبة!
- ولماذا هي مرعبة؟
- لا أدري.. عاداتها.. شاحبة الوجه جدًا.. تحب الليل والظلام.. أنا لم أرها في ضوء النهار قط..

قالت الأم وقد تذكرت الكتب التي وجدتها في غرفة ابنتها:

- وهل لديك فكرة عما يفعلن حتى ساعة متأخرة من الليل؟.. هل لديك تفسير لخروج (لويز) وحيدة بعد منتصف الليل؟

- لا أدري يا مسز (مازورسكي).. ربما هي مصابة بداء المشي في أثناء النوم.

- لم تشك منه طيلة عمرها..

- ألم تسأليها عن سبب خروجها؟

- بلي.. سألتها في الصباح حين أفقت من إغماءتي..

وتذكرت مسز (مازورسكي) ما حدث..

في ساعة متأخرة من الصباح صعدت لغرفة الفتاة.. وجدتها نائمة في الفراش منهكة تمامًا.. قدماها العاريتان متسختان بالوحل الجاف الذي سارت فوقه ليلًا.. لهذا تتسخ ملاءاتها سريعًا.. تحت عينيها هالتان سوداوان قبيحتا المنظر.. وكالعادة أغلقت كمي قميص نومها وعنق ثوبها بإحكام شديد كأنها تدارى شيئًا ما.

مدت الأم يدها وفتحت الزر الذي كان يغلق كم القميص ورفعته لأعلى لتتأمل الساعد الناحل.. لم تكن هناك آثار إبر.. ولكن كان هناك ثقبان دقيقان متباعدان في لحم الذراع كأنما نجما عن نابين حادين..

نابين حادين؟!...

وبدأ جلد ذراعي الأم يتصلب..

لماذا لم تعد (لويز) ترتدى الأيقونة حول عنقها؟.. لماذا انتزعت ستائر الغرفة البيضاء وجعلت أمها تضع بدلًا منها ستائر زرقاء سميكة؟..

لماذا لم تعد تستحم؟..

* * *



صعدت لغرفة الفتاة ..

وجدتها نائمة فى الفراش منهكة تمامًا ..

كان البروفسير (هندريكس) موحيًا بالثقة إلى حد كبير، إذ جلس واضعًا ساقًا على ساق يصغي لكلام الأم، ويرمقها بعينين زرقاوين لا تطرفان.. كان طبيبًا نفسيًا لكنه مولع - كذلك - بعالم الخوارق.. ويقبل قصص الأشباح دون تشنج كبير..

سألها إذ فرغت من قصتها:

- هل كفت (لويز) عن الاستحمام؟

- نعم..

- هل تنام أكثر النهار وتسهر الليل كله.

- نعم..

- وهل رفضت أن تأتي معك إلي؟

- نعم..

نقل ساقًا على ساق.. وغمغم:

- لو أننا أخذنا رأي الطب النفسي في هذا لكان لدينا احتمالان..

وفتح إصبعيه السبابة والوسط ليعد عليهما:

الاحتمال الأول: هو تفاعل هستيري لضغوط تحيط بابنتك..

الاحتمال الثاني: هو أن ابنتك قد أدمنت عقارًا ما.. وعندئذ كنت ستلاحظين العلامات المعتادة: أكمام طويلة - آثار إبر في الذراع - زكام حتى في الصيف - حكاك مستمر بفعل (بق الكوكايين) كما يسمونه - أشياء ثمينة تختفي من الدار - فقدان شهية..

ـ بعض هذه الأعراض موجود.. لكن أكثرها لم يظهر عليها..

- يبقى لدينا الاحتمال غير العلمي.. وهو أن ابنتك قد أصيبت بمس شيطاني.. إنها في سن المراهقة ومن الوارد تمامًا أن تمس في هذه السن..

كانت الأم قد قرأت قصة (طارد الأرواح الشريرة) لـ (بيتر بلاتي) وكادت تموت هلعًا.. لكنها تعلمت الكثير عن هذا الموضوع من الرواية.. وهي كانت ميالة لتصديقه.. ربما عن رغبة خفية في أن تشعر أنها لم تذنب كأم.. لو أن ابنتها أصيبت بالهستيريا أو الإدمان لكان الذنب على رأسها.. أما الأرواح الشريرة فهي تأتي وتذهب دون قانون خاص، ولا ذنب لأحد فيها..

نصحها البروفسير أن تأخذ رأي أحد المختصين في الموضوع.. ورشح لها عالمًا مجريًا سيأتي إلى الولايات المتحدة بعد شهر، وعرض عليها أن يقدم لها دعوة إلى الحفل الذي سيحضره هذا العالم لتكريمه..

كان إسم هذا العالم هو..... (فرانتز لوسيفر).

* * *

وهنا كف د. (لوسيفر) عن الكلام المباح، وابتسم ابتسامة مشرقة (إذا كان لي أن أقول هذا) وقال لمسز (مازورسكي):

- هذه هي حكايتك يا مسز (مازورسكي).. وكلها مرسومة أمامي على أوراق (التاروت).. فهل نسيت شيئًا؟!

ازرق وجه المرأة (أعني أنه احمرّ لكن في الضوء الأخضر يصير الأحمر أقرب إلى اللون الأزرق).. وبلعت ريقها..

- أنت تعرف كل شيء عن القصة.. ولكن كيف عرفت هذا من الأوراق؟

- هذا سرى الخاص.. وأنتم لهذا تسألون وأنا أجيب..

قلت له عاجزًا عن البقاء صامتًا:

- أعني أنه كان يجب أن تكون هناك ورقة عليها كوب لبن.. وورقة عليها فتاة نحيلة ترتدى منظارًا.. وورقة عليها سكين مطبخ..، وإلا فكيف تحكي كل هذه القصة؟

- لو كان (التاروت) بهذه البساطة لصار لعبة أطفال، ولما كانت هناك درجات (دكتوراه) فيه..

قالها بإباء وشمم.. وأدركت أن الرجل يكرهني بعنف، وأنني صرت عدوه العتيد... سنرى بعد قليل ما سيقول عن (تاروتي) أنا..

في استسلام تساءلت مسز (مازورسكي):

- لقد جئتك مع (ماري) العزيزة لنعرف منك ما ينتظرنا والحل لهذه المشكلة..

- لقد تأخرت كثيرًا يا مسز (مازورسكي)..

- تأخرت عن ماذا؟

- دعيني أحك لك ما سيحدث..

* * *

قال د. (لوسيفر):

- في ذلك اليوم ستعودين يا مسز (مازورسكي) إلى الدار عازمة على اتخاذ إجراء صارم..

ستكونين قد اتخذت قرارًا بألا تنامي الليل أبدًا، ومنذ أيام تكفين عن احتساء اللبن ليلًا لأنك لا تريدين أن تفوتك لحظة خروج ابنتك..، وبالفعل لم يحدث قط أن الفتاة خرجت منذ صرت متنبهة لما عساه يحدث..

إجراء حكيم.. والإجراء الأكثر حكمة هو انتزاع سلك الهاتف من القابس، وتخبئة هذا الجهاز المقيت في خزانة ثيابك..

إلا أنك في هذا اليوم ستتخذين قرارًا أكثر تطرفًا...

ستغلقين الباب على الفتاة تمامًا.. ستختارين لها السجن الانفرادي حتى تشفى مما هي فيه..

وهكذا تتأكدين من أن بالمنزل ما يكفي من الطعام، ثم توصدين الباب الرئيسي وتضعين المفتاح في مزهرية عملاقة بالردهة..

- إن (لويز) تخرج عدة مرات في النهار.. وتخرج مرة واحدة في الليل لتعود في ساعة متأخرة.. هذا - بالطبع - إذا ما تناسينا خروجها الذي كان يحدث بعد نومك.

هذه المرة لن يخرج أحد.. لا أنت ولا هي..

ولئن كان ما تعانيه إدمانًا للمخدرات فلسوف يشفيها السجن منه..

ولئن كان مسًا شيطانيًا فها هي ذي معك تراقبينها طيلة الوقت، وحتمًا ستعرفين الحقيقة..

أحيانًا كان جرس الباب يدق لكنك كنت تتجاهلينه، لأنك أخبرت معارفك وبائع الحليب والصحف أنك سافرت مع (لويز) لزيارة أخيها في (أوهايو).. فلن يفتقدك أحد حتمًا..

إن كل هذا جميل..
لكن الحكمة كانت تقضي بأن تستدعى أحد أخويها ليكون معك، ولعمري هذا هو الخلل الأساسي في الأسرة الأمريكية: تفككها..، لقد صار ابناك بعيدين عنك جدًا، وفيما عدا مكالمة هاتفية كل شهر.. لم يكن الأمر ليختلف عنه لو كانا قد توفيا منذ زمن..
ستمضين الساعات يا سيدتي تشاهدين التليفزيون..
ستعدين لها الطعام وتصعدين لغرفتها تتوسلين لها كي تأكل شيئًا.. لكنها ستظل صامتة راقدة في الفراش تنظر إلى السقف بعينين زائغتين..
أحيانًا ستنجحين في دس قطعة لحم أو بيضة مقشورة بين شفتيها الجافتين.. وهذا على الأقل سيبقيها حية..
لكن لنقل إنك لن تشعري براحة أبدًا من كل هذا.. فأنت تتوقعين غضبًا عارمًا.. هياجًا.. محاولات انتحار تمنعينها في آخر لحظة.. أما كل هذا السكون والصمت فأمر لا يطاق..

* * *

وفي يوم غير عادي ستصعدين إلى حجرتها..
وبالمصادفة لن تكون هناك، وهو حدث غير عادي في الفترة الأخيرة، وفرصة ذهبية لك كي تعيدي التفتيش..
ذات الكتب الرهيبة.. ذات شرائط (الروك آند رول) جوار جهاز التسجيل ذي البكرتين.. وبقايا طعام..
فتحت درج مكتبها باحثة عن كتابات خاصة بها، فلم تجدي شيئًا معينًا سوى الأيقونة التي كانت لا تفارقها.. ومنظارها..
وهنا سترين ظلًا يتحرك على الحائط فتديرين وجهك لتري ما عساه يكون هناك..
عندئذ ستجدين (لويز) واقفة على الباب تبتسم ابتسامة شيطانية وتسمعينها تقول لك:
- هل وجدت ما تبحثين عنه يا أماه؟
وإذ ترين وجهها ستفهمين الحقيقة..
لقد كنت حمقاء تمامًا..
ألم تربطي قط ما بين تغيير طباعها.. وتلذذها بلعق الدماء التي سالت من إصبعك.. نومها طيلة النهار وسهرها ليلًا.. وخروجها تحت أستار الظلام إلى القفار.. و(هاربيت) التي تخيف صديقاتها..
ثم الأكمام الطويلة دائمًا.. كانت تخفي بها أثر الأنياب في معصمها.. فلماذا؟
الواقع يا سيدتي أن هذه هي طباع مصاصي الدماء. لقد كان الجواب قريبًا منك لكنك لم تفهمي قط..
والآن - وأنت تتراجعين بظهرك للوراء وهي تتقدم منك - تعرفين أنك كنت حمقاء حين لم تدركي ذلك..
حمقاء حين حبست نفسك في بيت واحد مع هذا المسخ الذي يتضور جوعًا..
حمقاء حين لم تصدقي كلماتي هذه..
لكن الأوان قد فات يا سيدتي..

فات للأسف..

* * *

حين انتهى (لوسيفر) من سرد حكايته ساد الصمت بعض الوقت، إلا من صوت الأنفاس الثقيلة وحفيف أوراق (التاروت) بين أنامله وهو يعيد خلطها..

بعد قليل تساءلت مسز (مازورسكي) بصوت مبحوح:

- ومتى يحدث هذا؟

- لا أدري.. ربما الليلة بعد عودتك من هنا..

- وكيف أمنعه؟

- تلك مشكلتك أنت.. إنما أطلعتك على ما سيكون ولك أن تصدقي أو لا تصدقي..

همست المرأة كأنما تحدث نفسها:

- من العسير علي أن أصدق.. لقد تركتها في الدار الآن و.. ولكن.. بالفعل أعترف بأن تفسيرًا كهذا خطر على بالي مرارًا.. إن (لويز) تخيفني.. طفلتي البريئة التي أرضعتها من صدري تخيفني!

وتهانفت.. فربتت الفتاة على كتفها.. أردت أن أقول لها إن كل هذا لن يحدث لأن (لوسيفر) هذا نصاب بالتأكيد.. لكنني وجدت أن الأصوب هو أن أنتظر ريثما تنتهي هذه الجلسة المشئومة..

- من التالي؟

دوى صوت البر ناظرًا إلينا.. فرفع الرجل الأسمر كئيب الوجه يده طالبًا أن يكون هو المختار..

ناوله د. (لوسيفر) الأوراق وترك له أن يخلطها..

أخذها منه وشرع يقلبها على المائدة المسدسة أمامه..

ثم بدأ يتكلم..

* * *

الحكاية الثانية

(اللعبة)

بطولة: جون ميلز

(لنقل إن الصفقة التي أعرضها عليك لهامة جدًا.. إنها تساوى حياتك ذاتها.. والثمن الذي أعرضه عليك قريب من هذا).



الاسم : جون ميلز
السن : ٤٤ عامًا .
المهنة : مدير شركة .
الحالة الاجتماعية : متزوج ولم ينجب .
الإقامة : نيويورك.
الهوايات : للأسف مستر (جون) لا يهوى سوى القمار، وقد أضاع مبالـــغ طائلة من المال في (لاس فيجاس). إن هذا قد أضر كثيرًا بوضعه الاجتماعي والمالي وكاد يودي بزواجـــه إلى النهاية مرارًا لو لـــم تكن زوجته تحبه . إن القمار لهو مرض اجتماعي شبيه بالإدمان وكلاهما يحتاج إلى علاج نفسي صارم .. وللأسف لم يطلب (ميلز) علاجًا كهذا .

الحالـــة الصحية : كما لنا أن نتوقع من ملامح وجهه ، مســـتر (ميلز) مريض بداء عضال في كليتيه .. وهو منذ زمن يعيش مهددًا بإنهاء إقامتـــه في عالمنا هذا .. ولعل هذا يعزيه نوعًا عن كونه لم يأت بأطفال إلى هذا العالم .

كانت الورقة الأولى هي بالفعل أول ورقة في (التاروت).. وتمثل (الجوكر) - المهرج - بثيابه المزركشة، يمسك بيده اليمنى عصاه، واليد اليسرى ارتفع إصبعها السبابة إلى السماء.. بينما يطأ بقدمه كلبًا شرسًا..، ولم يزل العلماء حائرين بصدد هذه الورقة.. لماذا يرفع إصبعه السبابة إلى السماء؟.. هل هي آثار عقيدة التوحيد في الثقافة الإنسانية؟.. وهل هو يطأ الكلب رمزًا إلى مصارعة الشهوات؟..

بعد هذا جاءت ورقة الشيطان.. وأمامه سيدة مذعورة تداري وجهها عنه، ثم ورقة النجم.. التي تظهر امرأة تسكب الماء في البحر من وعاء فخاري،

بعد هذا جاءت ورقة المحاكمة.. ثم ورقة الكاهنة العظمي...

كف د. (لوسيفر) عن تقليب الأوراق ورفع عينيه نحو مستر (ميلز).. وقال له.

- لك أحكي ما أرى.. ما كان وما سيكون.. ولكن عساك لا تهاب الموت.. لأن الردى ينسال من أوراقك..

وهنا سمعنا ذلك الصوت المألوف يتساءل في حرج:

- معذرة.. هل توجد هنا دورة مياه؟.. إنها (البروستاتا) كما تعلمون!

هتف (كلارتون) بصوته المعدني:

- اجلس يا (كولبي) ولا تكن مهرجًا.. إن أحدًا لن يغادر الصومعة حتى ينتهي د. (لوسيفر) من ممارسته.

- سأموت!

- اجلس يا (كولبي)!

وهكذا شرع د. (لوسيفر) يحكي ما يراه..

* * *

كان مستر (ميلز) يعرف جيدًا نهايته المحتومة..

يعرفها منذ تأمل الطبيب صورة الأشعة، وأنزل المنظار على أنفه ليتمكن من أن يحدج مريضه بعينيه الشبيهتين بسحابتين ممطرتين..

قال له كعادة الأطباء الأمريكيين في صدم مرضاهم:

- إن كليتيك معطلتان يا مستر (ميلز). وهو عيب خلقي قديم فيهما يجعلهما مليئتين بالحويصلات، عديمتي النفع.

- لكني لم أشك منهما قط..

- الكلية عديدة الحويصلات قد لا تعلن عن وجودها قبل سن الأربعين..

ثم وضع الأشعة جانبًا وأردف:

- ثمة حلول مؤقتة كما تعلم كالغسيل الكلوي ومحاولة زرع كلية.. لكن حتى نجد واحدة يمكننا القول إن حياتك مهددة بالخطر تمامًا..

ثم أشار نحو الباب في كياسة:

- والآن أرجو أن تسمح لي بفحص المريض التالي.

* * *

وهكذا - وبهذه القسوة - عرف (ميلز) أن إحدى قدميه في عالمنا هذا والأخرى في عالم يخشاه بقوة كما خشية (هاملت) من قبل، برغم اشتياق هذا الأخير إلى سبات طويل..

سحقًا للطبيب!.. قال له هذه الكلمات وذهب ليلعب الجولف.. أو قالها وذهب ليتناول الغداء.. أو قالها وذهب ليلقى حبيبته..، لم يدرك قط أنه - ببضع حروف - زلزل حياة إنسان.. خلخلها من جذورها فلم تعد ثمة قيمة لشيء..

الآن فقط يتذكر كفاحه للوصول إلى منصب مدير الشركة.. يتذكر محاولاته للإلقاء بشراكه حول (جين) حتى تحبه.. فتقبل في ليلة صيف باسمة أن تكون زوجته..

كل هذا كان هراء.. كل هذا من أجل لا شيء..

* * *

ولم يصارحها قط بما عرفه..

إن تلك العزيزة الرؤوم لا تستحق أن تتألم ألمًا لا جدوى منه..

فقط هي لاحظت جهامته وجنوحه للصمت. وفسرت الأمر على أنه مشكلة ما في العمل.

أما هو فكانت حساباته محكمة..

إنه مواظب على دفع قسط بوليصة التأمين على حياته. وهؤلاء الحمقى لم يعرفوا قط أنه مصاب بـ.. ماذا كان اسمه؟.. نعم.. تحوصل الكليتين الخلقي..، ولو أنه قضى النحب بعد قليل سيكون لدى (جين) العزيزة مبلغ محترم من المال..

المشكلة هي أنه يريد لها ما هو أكثر..

* * *

في ذلك الوقت اندمج أكثر في القمار، وصار أكثر ترددًا على حلبات سباق الخيل، وهو سلوك جد غريب من رجل يفترض فيه أن يكون أكثر تجردًا وزهدًا في الموبقات..

لكن ذلك - كما قلنا - كان داء عضالًا فيه، يحتاج إلى رأي الطب النفسي..

هناك بوجهه الشاحب الكئيب كان يجلس يتأمل عجلة الروليت أو أوراق اللعب أو تلاحق حوافر الخيل.. ويمسح قطرات العرق الباردة المتلاحقة فوق جبينه.. ويخسر.. دائمًا يخسر..

لكنه - ككل المقامرين - كان يأمل في أن تكون المرة القادمة أوفر حظًا.. المشكلة هي أن هذه المرة القادمة لا تجيء أبدًا...

وكان هذا هو الوقت المناسب ليظهر (جيروم) في حياته...

* * *

إن (جيروم كلايد) لإنسان مقيت حقًا..

هو كسول.. مهمل.. شديد الذاتية والإحساس بالاضطهاد مما يجعله مرءوسًا سيئًا لكل إنسان حتى ولو كان هذا الإنسان هو (ميلز)...

إن الموظف الذي يتكلم طيلة الوقت عن حقه المهضوم لهو موظف يثير الغثيان.. خاصة إذا ما كان لا يفعل شيئًا تقريبًا..

إن (ميلز) يتمنى دومًا أن يطرده لكنه حقًا لا يدري لماذا لا يفعل ذلك.. ربما لأن (كلايد) لم يكن يظهر لعينيه إلا لحظة يكون (ميلز) رائق المزاج أو منهمكًا إلى حد أن ينسى طرده..

وكان (كلايد) يمارس لا شيء تقريبًا في المكتب.. لا أحد يدري ما يقوم به ولا أحد يهتم...

كالثعلب العجوز يجلس أمام الآلة الكاتبة يطبع أشياء لا يعرف أحد كنهها.. يكتب خطابات لم تطلب منه.. ويسطر جداول لم يردها أحد.. ثم يذهب للغداء أو تناول القهوة، ويعود ليسب ويلعن الحمقى الذين لا يدركون مدى كفاءته..

الخلاصة أنه مخلوق مقيت، ولم تكن البشرية لتفقد بوفاته أكثر مما تفقده إذا توفى خنزير بري في (إندونيسيا)..

وفي ذلك اليوم كان (ميلز) في حلبة السباق يراقب الخيول ذوات الأسماء الموحية مثل (لاري السريع).. (مثلث برمودا).. (كابوتشينو) تهرع في الحلبة وصياح الناس يصم الآذان..

وكان هو يضع منظاره المعظم على أنفه والجريدة تحت إبطه مراقبًا ما يحدث..

لقد راهن على جواد يدعى (سومبريرو).. وهذا الجواد متفوق يتمتع بكل خواص النجاح فيما عدا عيبًا واحدًا: هو أن (ميلز) قد راهن عليه.. وبالتالي صارت خسارته مؤكدة...!

وبالفعل أصيب الجواد بالبله والعته والشلل الرعاش في ثوان.. وصار هو الأخير في المضمار..

أنزل (ميلز) منظاره وتثاءب ونظر إلى الساعة.. هل عساه يراهن على جواد خاسر آخر.. أم يعود إلى البيت؟..

وهنا شعر بيد ثلجية تلمس ذراعه..

- نهارك سعيد يا مستر (ميلز)!

كان هذا هو (كلايد) الذي بدا له منفرًا أكثر من أي وقت مضى.. كان قصير القامة منحنيًا للأمام كالقرد.. ورأسه الأصلع يلتمع في ضوء الشمس بمادة زيتية كريهة.. وكانت أسنانه النخرة تفضح أعواما طوالا قضاها في التدخين واحتساء القهوة..

- لم أعرف أنك هنا..

قال (ميلز) في تحفظ:

- أحيانًا أجد نفسي راغبًا في قتل الملل..

- أنا كذلك.. لقد راهنت على (سومبريرو) مثلي.. وكالعادة خسر.. مرحبًا بك في نادي الخاسرين يا سيدي!

هز (ميلز) كتفيه عازمًا على الرحيل دون تعليق، لكن الرجل أوقفه بجذب كمه.. يالها من وقاحة!.. ماذا يريد هذا المخبول؟

- أريد أن نجلس معًا ونتحدث.. هل تمانع؟

- لا أرى ما...

- أرجوك يا سيدي.. لسوف أقدم لك عرضًا لا يرفض..

- إذا كان الأمر كذلك.. لربما كانت (الكافتريا) مناسبة..

* * *

- إن كلانا مقامر بالفطرة يا مستر (ميلز)..

كانت هذه هي العبارة الافتتاحية التي بدأ بها (كلايد) حديثه، وكان هذا شبيهًا بأن تبدأ القصيدة بكفر صريح.. فهب (ميلز) محنقًا يوشك على الرحيل.. لولا أن دعاه (كلايد) إلى الجلوس فالهدوء لأن ما سيقوله سيثير اهتمامه حتمًا..

- إذن تكلم..

صب الرجل الكريه لنفسه بعض القهوة وقال:

- من المفهوم لي يا سيدي أنك رجل مريض تمامًا.

- من قال هذا الهراء؟...

- إنني أعمل في شركتك.. وأدخل مكتبك أحيانًا، ولا يعدم الأمر أن أجد تقريرًا طبيًا أو نتيجة تحليل من حين لآخر..

صعد الدم إلى رأس (ميلز):

- أنت تتجسس علي إذن يا (كلايد)!

رشف (كلايد) قهوته في استمتاع.. كان من الذين يجدون أروع اللذات في أن يكرههم الأخرون.. قال:

- لا يهم المصطلح الذي تستعمله... سمه تجسسًا.. سمه اطلاعًا على بواطن الأمور، لكن النتيجة واحدة..

تنهد المدير التعس في استسلام.. سيصغي لهذا الوغد بعض الوقت ثم ينهض غاضبًا ويطرده من الشركة أول شيء غدًا:

- حسن.. قل عرضك اللعين.

قال (كلايد) وهو يضع بعض (مبيض القهوة) على قدحه:

- لنقل إذن إنني أملك ما تريده أنت.. أنت بحاجة إلى كلية وأنا أملكها..

- لحظة أيها المعتوه.. إن توافق الأنسجة..

- هذا هو أجمل ما في الموضوع.. لقد هيأت المصادفة أن أكون أنا من نفس فصيلة الدم وذات نوعية الأنسجة، لقد قرأت نوعيتها على التقرير الطبي الخاص بك.. وإنه لنوع نادر حقًا.. لكني أعرف أنني أملك نفس الشيء.

- وهل من المعتاد أن يعرف كل إنسان نوعية أنسجته؟

- طبعًا.. فأنا أجريت فحص الأنسجة كي أتبرع بكليتي من أجل المرحومة زوجتي.. لكنها ماتت قبل أن.... إهئ!

وسالت دمعتان من عيني الوغد مسحهما، وأخرج منديلا كبيرًا قذرًا تمخط فيه.. ثم عاد يرشف القهوة..

تساءل (ميلز) في غل:

- أنت تعرض علي مالم أطلبه..

- بالعكس.. إنني أمنحك فرصة الحياة والاحتفاظ بكل ما قد حققته.. إن هذا يعني المزيد من الأفراح.. المزيد من الرحلات إلى (هاواي).. المزيد من المال.. المزيد من المضايقات لموظفيك..

ثم نظر - بعيني الثعلب - إلى عيني (ميلز):

- لن تجد كلية مماثلة بسهولة..

ولم يكن (ميلز) بحاجة لسماع هذا.. فهو يعرف جيدًا أنه لا توجد كلية متوافقة نسيجيًا معه حتى الآن.. لقد طال انتظاره كثيرًا دون جدوى.. حتى ظن أنهم - في مركز رعاية الكلى - قد نسوا رقم هاتفه..، وجلسات غسيل الكلى - أو ترويق الدم - لم تعد محتملة أكثر من هذا..

لهذا انتقل للخطوة التالية:

- كم تريد مقابل كليتك اللعينة هذه؟

ابتسم (كلايد) ابتسامة الأب الذي يسمع لغو طفله:

- إن (كلايد) يا سيدي لا يبيع كليته بمال العالم.. إنه يبيعها لأنه يريد ذلك.. وبمقابل مختلف عما تظنه..

- إذن ماذا تريد بالضبط؟

أخرج الرجل ورقة وخط عليها بقلمه بضع كلمات، ثم ناولها إلى المدير.. ودون كلمة أخرى أخرج ورقة مالية دسها تحت فنجان القهوة.. ثم نهض مسرعًا لينصرف..

وقبل أن يرحل هتف:

- تعال إلى هذا العنوان في تمام الثامنة مساء إذا ما كان الموضوع يعنيك حقًا.

* * *

الثامنة مساء إلا الثلث..

و (ميلز) في غرفة النوم بداره يربط رباط عنقه أمام المرآة.. ثم يذهب إلى الخزانة فيتناول مسدسه.. يدس فيه بضع طلقات ثم يضعه في جيب السترة من الداخل..

ثم يخرج إلى الردهة فيلثم زوجته طالبًا منها أن تتمنى له حظًا هو أحوج ما يكون له..

- إلى أين أنت ذاهب بالضبط؟

- ذاهب لزيارة.... صديق حميم..

ثم يتركها ويستقل سيارته (البويك) السوداء ينهب بها الطرقات إلى العنوان الذي خطه له (كلايد) على الوريقة..

لماذا شعر بالقلق؟.. لماذا أخذ المسدس معه؟.. لا يدري حقًا.. لكنه شعر بالتوجس من هذه الصفقة التي لا يستعمل فيها المال.. حين ينتهي الحديث عن المال في المعاملات التجارية يبدأ الحديث عن الدم أو الشرف أو أي شيء آخر.. وهذا النوع من المعاملات يحتاج إلى أن يكون المرء مسلحًا.. قلقًا..

حي قذر من أحياء (نيويورك) هو.. حيث يقف تجار المخدرات في الظلام ينتظرون (مرضاهم) ليزيدوهم رهقًا..، وفتيات الليل يرحن هنا وهناك..

على حين يقف الزنوج جماعات يقطعون الطريق على المارة ملوحين بمداهم...

وفجأة تمر سيارة الدورية بأضوائها الملونة التي تمسح أرجاء الشارع، فيختفى كل هؤلاء كأنما هي عصا ساحر..

هو ذا العنوان المذكور.. منزل حقير عتيق مدخله في زقاق خلفي مليء بأوعية القمامة التي تتشاجر فوقها القطط السوداء المشعثة.. وثمة رجل سكير يمسك بزجاجة صغيرة من الكحول يرقد على الأرض في شبه غيبوبة..

للحظة شعر (ميلز) أنه في فيلم سينمائي يمثل الحياة السرية لمدينة (نيويورك).. وفي توجس أغلق سيارته وصعد الدرج المهدم قاصدًا شقة موظفه (كلايد).

* * *

- مرحبًا بك يا مستر (ميلز)..

قالها الرجل وهو يفتح له الباب...، ثم قاده عبر صالة عطنة الرائحة إلى مائدة خشبية عتيقة جوار النافذة..

- أرجو أن تجعل نفسك مستريحًا..

وبالفعل استراح (ميلز) على مقعد من الخشب الجاف.. وجذب (كلايد) مقعدًا آخر ليجلس على الطرف الآخر من المائدة وأراح كوعيه عليها ورفع ساعديه عاقدًا أنامله تحت ذقنه غير الحليق، أو الحليق بموسى عمرها قرنان..

وفوق رأسيهما كان هناك مصباح كهربي يتدلى من سلك طويل إلى ارتفاع شديد الانخفاض مما ألقي ظلالًا غير محببة على الإطلاق على وجهيهما..

بعد دقائق من الصمت بدت - كما يقول الكتاب دائمًا - كأنها دهور.. قال (ميلز) في نفاد صبر ممزوج بالرعب:

- هلم.. قل عرضك..

تعود الابتسامة اللزجة إلى وجه (كلايد) ويقول:

- لنقل أن الصفقة التي أعرضها عليك هامة جدًا.. إنها تساوى حياتك ذاتها.. والثمن الذي أعرضه عليك قريب من هذا..

- تعني حياتك أنت؟

- إن كلينا مقامر يا مستر (ميلز) يعاني من إدمان هذا الداء العضال.. الرغبة المجنونة فيما هو أكثر.. العجز عن التوقف في اللحظة المناسبة.. والحاجة إلى الشعور بالخطر.. أليس كذلك؟

- لا أفهم ما ترمي إليه..



وأخرج شيئًا رماه على المائدة .. كان مسدسًا قبيح المنظر ..

مد الرجل يده إلى جيبه وأخرج شيئًا رماه علي المائدة.. كان مسدسًا قبيح المنظر من النوع ذي الساقية الدوارة..

- ما هذا يا مستر (ميلز)؟

ـ مسدس.....

- هل تعرف (الروليت الروسي)؟.. المسدس الذي لا يحوي في خزانته سوى طلقة واحدة ويتبادل المتبارزان تصويب المسدس إلى رأسيهما وضغط الزناد، حتى تأتي الطلقة من نصيب أحدهما؟.. أنا أعرض عليك الآن نوعًا من هذا (الروليت الروسي)..

هب (ميلز) غاضبًا.. وقد تصاعد الدم إلى رأسه:

- إذن المسألة هكذا.. أنت قد جننت تمامًا وتتوقع مني أن أشاركك هذا العبث.. اسمح لي أن أقول لك..

رفع الرجل عينية الشبيهتين بعين القط نحو (ميلز)، وغمغم بصوت لا انفعال فيه:

- هلا تركتني أواصل كلامي يا مستر (ميلز)؟.. أنا لن أشترك في هذه اللعبة.. أنت من سيمارسها أمامي لتسليني.. فلئن نجوت من أربع طلقات متتابعة فزت بكليتي التي سأكتب لك إقرارًا بتبرعي بها قبل البدء.. ولكن إذا هلكت فإنني سأرتب الأمر ليبدو كأن هناك من قتلك في هذه الأحياء الإجرامية.. وهكذا تنال زوجتك بوليصة تأمينها كاملة..!

ببطء جلس (ميلز) لاهثًا متسع العينين.. خيط من العرق البارد ينساب على جبينه..ويفعم لسانه بمذاق الملح...

خرجت الألفاظ متهدمة متخاذلة:

- أنت.. مجنون.. تمامًا..

- ربما..

- وماذا تستفيده أنت؟

- أستفيد لذة التوتر والإثارة - واتسعت عيناه - وأستفيد تعذيبك، وأنت تعرف أنني لم أحبك قط يا مستر (ميلز) كما أنك لم تمل لي لحظة..

- وما هو الضمان أنك تبر بوعدك لو أنك خسرت؟

- أنا لم أمتنع يومًا عن دفع خسائري.. وعلى كل حال سأكتب لك كمبيالة بأي مبلغ تريد.. أستردها بعد إجراء زرع الكلية.. كما سأعطيك إقرارًا موقعًا مني بالتبرع..

- وكيف أعرف أن كليتك تصلح حقًا؟

مد (كلايد) يده إلى جيبه فأخرج حزمة من الأوراق البالية فناولها إلى رئيسه.. وقال:

- خذ وقتك في دراسة هذه التحاليل.. إنها تثبت دون شك أن كلامي صائب.. إن عليها توقيع أطباء محترمين لاشك في كلامهم.. دعك من أن حالة الأوراق الرثة تدل على أنها معي من زمن ولم أقم بتزويرها خصيصًا لك.

مد (ميلز) يدًا مرتجفة نحو الأوراق.. ثم أحجم.. من الجنون أن يساير هذا المخبول.. من الخطب أن..!.. ثم عاد يفكر.. من يدري؟

لربما كان هذا هو الصواب بعينه.. الحقيقة أن غريزة أخرى تحركت في دمه: غريزة المقامرة.. التي لم يعبر عنها أديب قط مثلما عبر عنها العبقري الروسي.(دستويفسكي) في روايته (المقامر)..

كان العرض مغريًا لكنه لم يستطع قبوله..
- يمكنك أن تبدأ الآن يا مستر (ميلز).. أو خذ وقتك في التدبر وعد إلي أي يوم تريد في هذه الساعة..
نظر (ميلز) إلى الرجل بعينين زائغتين ولم يقل شيئًا..

* * *

مستحيل أن أقبل.. من أدراني أن هذه ليست ألعوبة قذرة من رجل يرغب في إذلالي أو الخلاص مني؟
لكن الحل سيكون عادلًا.. حل المشكلة سيوضع في كف الحظ.. ولسوف يلقي الحظ النرد.. وسأكون الرابح في الحالتين.. إما حياة صحية بلا متاعب.. وإما موت سريع يريحني ويمنح امرأتي الثراء..
وحين عرض التقارير الطبية على طبيبه ذي العينين الغماميتين كان يتمنى أن يخبره الرجل أن الكلية لا تصلح.. ولكن...
- مرحي!.. كيف وجدت هذا المتطوع؟.. إن كليته تناسبك كأفضل ما يكون.. وإنك لمحظوظ يا صديقي إذ وجدت الواحد في المليون الذي تناسبك كليته والذي يقبل منحك إياها!
كم ستدفع لهذا الرجل الكريم؟
نظر (ميلز) إلى الطبيب مبلبل الفكر.. ثم غمغم:
- لا شيء.. سألعب معه لعبة صغيرة!!

* * *

قال د. (لوسيفر) وهو يتأمل أوراق (التاروت) المبعثرة أمامه:
- وهكذا يا مستر (ميلز).. سمعت عن قدومي إلى (نيويورك)..
وهأنتذا قد جئت إلى صومعتي كي تسألني عن رأيي..
هل قلت كل ما يدور بذهنك؟
تحشرج صوت الرجل.. ابتلع ريقه بصوت مسموع:
- نعم.. كنت دقيقًا يا سيدي..
- الحق أقول لك يا مستر (ميلز) أنك لفي ورطة.. لكن (التاروت) يقترح الحل الصحيح للمشكلة و....
دوى الصوت:
- أرجوكم.. البروستاتا!
- صه!.. لا يقاطعني مقاطع حتى أفرغ من هذا..
وبدأ د. (لوسيفر) يحكي بقية القصة..

* * *

في الثامنة من أحد الأيام ستذهب إلى دار (كلايد) يا مستر (ميلز).. نعم.. أعرف أنك ستفعل لأني أفهم تكوينك النفسي جيدًا.. ولكن دعنا نر ما سيحدث..

إن الرجل يرحب بك في حماس، ويدعوك إلى الجلوس على المائدة إياها.. وفي هذه المرة يحضر ورقتين..

يكتب على الأولى كمبيالة بخمسين ألف دولار ويوقعها ويمنحك إياها، وعلى الثانية يكتب إقرارًا بأنه يتبرع لك بكليته.

وهنا تخطر لك الفكرة.. لماذا يظن هذا الأحمق أنك غير قادر على أخذ الورقتين والانصراف، ثم الضغط عليه كي يقبل؟.. هكذا دون أية تضحيات من أي نوع؟

لكن الرجل يقرأ ما يدور برأسك من أفكار، وترى المسدس في يده مصوبًا نحوك.. مسدسًا غير الذي ستجرى به اللعبة:

- مستر (ميلز).. إنك رجل شريف ملتزم بكلمتك فلا تحاول أن تخدعني.. هذا المسدس محشو بالكامل وسأطلقه عليك دون تردد لو حاولت أن تفر.. وبعد انتهاء اللعبة - لو ظللت حيًا - لن أقلق من احتفاظك بالورقتين لأنك أنت من سيطارني وقتها مطالبًا إياي بالوفاء بالتزامي..

وهكذا تجلس إلى المائدة يا مستر (ميلز) وقد فهمت أن الرجل أذكى مما ظننته فيه..

ويحضر لك المسدس ذا الساقية الدوارة ورصاصة واحدة.. فتقوم بتعبئتها.. ثم تناوله المسدس كي يقوم بتدوير الساقية عدة دورات حتى يختلط عليك الأمر..

بعدها يقول وهو يناولك المسدس:

- ستجرب أربع مرات.. لست ملمًا بقانون الاحتمالات كي أحدس احتمالات وفاتك.. لكني أقول لك إن فرصة العثور على الرصاصة لا بأس بها..، بالطبع لن تجرب ست مرات و إلا كانت فرصة العثور على الرصاصة مائة في المائة.. هل أنت مستعد؟.. إذن أبدأ..!

الأدرينالين يتصاعد إلى أذنيك ورأسك.. أطرافك باردة كالثلج.. قلبك واجف راجف..

الآن فقط تدرك معنى الخطر.. لكن شيئًا من اللذة غمرك وسط هذا.. (كلايد) أيضًا سييدو راضيا..

ويرتجف نشوة وقد جرفته حمى المخاطرة..

والآن ترفع فوهة المسدس إلى رأسك و... كليك!..

- الطلقة الأولى!.. إن احتمالات موتك تتزايد!

ترى كيف يكون الشعور بطلقة رصاص تمزق مخك؟ بالتأكيد لن تحس بشيء.. فقط يختفي هذا العالم وتجد ذاتك في عالم آخر.

لكنك خائف.. خائف..

وفي بطء ترفع الفوهة إلى رأسك وتضغط الزناد مغمضًا عينيك.. حتى (كلايد) ذاته أغمض عينيه..

كليك!..

لقد نجوت من نصف الاحتمالات، فكيف يكون نصفها الآخر؟..

ودون أن يطلب منك الرجل ذلك ترفع الفوهة مرة ثالثة إلى رأسك.. وتضغط الزناد...

.....

وأمام عيوننا المذهولة شرع د. (لوسيفر) يجمع أوراق (التاروت) من فوق المائدة المسدسة ويعيد خلطها.

- أ.. د. (لوسيفر).. ماذا حدث بعد ذلك؟

- في ماذا؟. في هذه القصة؟

- آه.. لقد انتهت عند هذا الحد..!

هتف (ميلز) في حنق وهو يزحف على ركبتيه - إذ كان جالسًا القرفصاء - ليدنو من المجري النصاب متسائلًا:

- لم أفهم.. هل سأموت أم لا؟.. أنا لهذا جئت..

بلا مبالاة قال (لوسيفر):

- يمكن القول إنك لم تمت.. فورقة الموت لم تظهر.. لقد انتهت أوراقك بورقة الكاهنة العظمى التي تشير إلى أن الموت هو نهاية كل كائن حي لكنها لا تشير إلى موتك بصفة مباشرة..

- ومعنى هذا؟..

- أنصحك أن تخوض هذه التجربة.. فلا يوجد خطر داهم عليك..

وساد الصمت على حين ازداد (ميلز) شحوبًا..

ومن خارج الصومعة تعالت ضحكة أنثوية مرحة.. إنهم يلهون بالخارج على حين تدور هذه المسرحية المرعبة بالداخل..

- والآن.. من التالي؟

رفع (هاري) - ذلك المخبول - يده..

كان مدفوعًا بطبيعته القتالية الميالة إلى التحدي.. فناوله د. (لوسيفر) الأوراق ليخلطها بمعرفته..

وكانت هذه هي الحكاية الثالثة..

* * *

الحكاية الثالثة

(فودو)

بطولة: هاري شيلدون

(النكرومانسر) يمزق جثث الموتى ليعرف أسرارهم.. أما ساحر (دمية الدم) فيمزق أجساد الأحياء ليتعلم منهم).



الاسم : هاري شيلدون

السن : ٣٦ عامًا .

المهنة : خبير حاسبات آلية .

الإقامة : فلوريدا .

الحالة الاجتماعية : متزوج وأب لطفل واحد .

الهوايات : ككل أمـــريكي قح يهوى (هاري شيلدون) الترحال ورؤية الجديد . له اهتمام خاص بشعوب وثقافات جزر الكاريبي ، يهوى كذلك التصوير الفوتوغرافي .

سمات شخصية :

إن (هاري شيلدون) إنسان متحضر شجاع وإن كان على درجة ما من التهور والاندفاع . وهو صديق حميم لـ د. (رفعت إسماعيل) وقد سبق لنا أن دنونا منه في أسطورتي (الموتى الأحياء) و (اللهب الأزرق) ، وعرفنا أكثر خصائص شخصيته . ونضيف هاهنا أنه - مثل (رفعت) - يخلق المتاعب لنفسه حيثما ذهب . وأخيرًا هو زوج مخلص نوعًا وأب طيب .

مالت مسز (مازورسكي) على أذن (ماري) وهمست شيئًا ثم نظرت إلى ساعتها في قلق..
سألها د. (لوسيفر) وهو يرتب الأوراق علي المائدة، ودون أن يرفع عينيه إليها:
- هل ثمة ما يقلق السيدة؟.. هل تأخرت؟ قالت السيدة في شيء من التهيب:
- في الواقع نعم.. إنها الواحدة صباحًا.. وكنت أرغب في..
- لكننا لم نقرأ (تاروت) الآنسة الصغيرة بعد.. أعدك أن هذه الحكاية لن تكون طويلة.. وبعدها نطالع (تاروت) الفتاة..
فلنر ما لدينا هنا.. آه!.. ورقة الساحر.. ثم ورقة الإمبراطورة.. ثم ورقة العاشق.. فورقة القلعة.. ثم ورقة..... الموت.. ولا شيء سواه.. الورقة الثالثة عشر برسمها المقيت تلتمع في الضوء الأخضر أمام عيوننا..
ملت على أذن (كولبي) هامسًا:
- هذا الرجل لا يستعمل سوى أوراق السر الأعظم الاثنتين والعشرين فلماذا لا يستعمل الباقي؟
- في بعض بقاع الأرض - ومن بينها المجر - لا يستعملون سوى أوراق السر الأعظم.
- وما هي أوراق السر الأصغر؟
- هي أربع مجموعات: مجموعة السيوف وعددها أربع عشرة ورقة تنتهي بورقة تمثل ملكًا فملكة ففارسًا.. ثم مجموعة العصي ولها ذات الترتيب.. ثم مجموعة الكؤوس.. ثم مجموعة الدراهم.. وبهذا تغطي هذه المجموعات شئون الصحة والعمل والحظ والمال.. أما الملك فيرمز إلى....
- لا مناقشات جانبية يا (كولبي)!
كذا دوى صوت (كلارتون) المعدني يأمرنا أن ننتبه إلى ما سيقول النصاب الأكبر.. فلذنا بالصمت..
قال د. (لوسيفر) وهو يحدق في (هاري):
- إن لك لقلب محارب.. عهدك أن تثور أولًا ثم تفكر.. وإن هذه لشيمة الشرفاء الخالين من الضغائن.. لكن لك قصة رهيبة.. ولك أحكيها دون إبطاء..

* * *

هناك من سطا على منزل (هاري)..
هذا هو ما أدركه الرجل حين عاد إلى داره مع زوجته (لندا) وطفلهما الصغير الجميل (جيمي)..
كان الباب الأمامي مهشمًا..، ولم يحتج الرجل لكثير ذكاء كي يعرف ما حدث بينما هو في حفل زفاف مع أسرته..
هرع إلى هناك.. ودخل من الباب المهشم ليجد آثار العبث في كل موضع من البيت الجميل المتسق..
كانت خزانته الحديدية مفتوحة.. هناك من صهر قفلها بلهب (الأوكسي أسيتيلين) ليسطو على محتوياتها..

وياله - ذلك اللص - من أحمق!... إن (هاري) لم يكن ثريًا يومًا.. كل ما كان بالخزانة هو مائتا دولار وبعض مخططات (الكمبيوتر) الهرمية التي أعدها لنظام مصرفي مستحدث..

الواقع أن (هاري) ورث هذه الخزانة عن أبيه.. وكما أن أباه لم يستطع قط أن يضع فيها ما هي جديرة به كذلك كان شأن (هاري) الذي ورث ضيق الحال عن أبيه..

لهذا أثار دهشته أن يقوم أحد بسرقة هذه الخزانة الحمقاء التي لا تحوي أي شيء تقريبًا، وأجرى اتصالًا هاتفيًا بالشرطة.. فجاء رجالها وقاموا برفع البصمات والتقاط بعض صور للباب.. ثم عادوا أدراجهم.. دون كثير أمل في معرفة السارق..

* * *

عندما جلس (هاري) و (لندا) في الصباح يفرزان الموجودات التي اختفت من الخزانة، تذكر (هاري) أن هناك شيئًا بالغ الأهمية قد فقد من داخلها.. كيف نسى هذا الشيء؟

لم يصارح (لندا) بأنه قد تذكر ما حدث..

لم يخبرها بأنه يعرف الشيء الوحيد الناقص في الخزانة...

إنه يتذكر الآن.. طبولًا.. أجسادًا راقصة يتناثر العرق من مسامها.. جماجم تشتعل النيران من عيونها.. (كوديكا).. (كوديكا).. الموتى الأحياء ينشرون سلطانهم في تلكم البقعة من (جامايكا).. ثم الحفل.. ذلك الجو الشيطاني المشئوم..

هنالك خلف الشجرة يختفي مع د. (رفعت) يراقب ما يحدث، ويقوم بتسجيله صوتًا وصورة على حين تقف تلك الساحرة الحسناء تحرق دمى.. وأية دمى!

(رفعت) هو من تنبه إلى الشبه القوي ما بين الدمية و (لندا) زوجة (هاري).. ولم لا؟.. ألم تهاجم امرأة ما (لندا) في السوق وتسرق خصلة وافرة من شعرها الأشقر هذا الصباح؟!



لم يصارح (لندا) بأنه قد تذكر ما حدث ..

لم يخبرها بأنه يعرف الشيء الوحيد الناقص في الخزانة ..

نعم.. (هاري) يذكر مناورة (رفعت) اليائسة التي نجحت برغم كل شيء من أجل سرقة الدمية.. ثم الفرار..

ولم يجرؤ (هاري) على تصديق كل ما قاله (رفعت) من سخف عن (الفتيش) تلك الدمى التي تصنع مشابهة لشخص ما.. ومن المفترض أن ينتقل الإيذاء من الدمية إلى هذا الشخص[3]..

لكنه بدأ يصدقه..

وحين رأى ما دها (لندا) حين أخذ (جيمي) الصغير يتسلى بأطراف الدمية المماثلة لها.. حين رأى ذلك لم يعد يشك في الموضوع من أساسه.. وأيقن أن هناك أسرارًا في هذا الكون لا يعرف الإنسان عنها حتى القشور..

وإذ عاد إلى (جامايكا) كان قد أزمع أن يداري هذه الدمية إلى الأبد.. لم يجرؤ على دفنها أو إغراقها أو حرقها طبعًا، لأن معنى هذا أن ينسف (لندا) دون رجعة..

لهذا وضعها في كيس من البلاستيك.. ودس هذا الكيس في كيس ورقي أكبر حجمًا.. ثم وضع هذا الأخير في الخزانة..

ومن يومها نسى كل شيء عن (الفتيش) وعن رحلته التعسة إلى (جامايكا) مع ذلك النحس (رفعت إسماعيل)..

لكنه اليوم يتذكر..

ويعرف أن هناك خطرًا جامحًا يهدد (لندا)..

* * *

"خذ الحذر في التعامل معه.. فكل ما سيحدث له سيحدث لها.. تخيل مثلا أن فأرًا قرض منه قطعة، أو أن رماد سيجارة ملتهبًا سقط فوقه!"

[الأم (مارشا) في (أسطورة الموتى الأحياء)]

* * *

والآن يمكن تخيل ما سيحدث..

سيعود السارق إلى داره.. يعد لنفسه قدحًا من الشراب ويشعل لفافة تبغ فظيعة الرائحة (إن الخمر والسجائر هما خبز اللصوص).. ثم يجلس على الفراش متربعًا.. وبلعاب يسيل يبدأ في عد الدولارات ويشعر بخيبة أمل لا توصف.. ثم يمد يده - والأمل يتواثب في صدره - إلى الكيس الورقي ويمزقه.. ويمزق الكيس البلاستيكي بداخله فيجد هذه الدمية القبيحة ذات الشعر الأشقر!..

عندئذ من الطبيعي أن نتوقع أنه سيثور...

سيمزق أوصال الدمية.. أو يرميها في المرحاض.. أو يضعها فوق شعلة الموقد ليحيلها إلى كتلة من الكربون..

فماذا سيصيب (لندا) وقتها؟!..

* * *

ولما كان (هاري) من طراز متسرع حار الدماء، فإنه لم ينتظر دقيقة واحدة.. إن الوقت يمضي وقد مرت ليلة كاملة على السرقة.. وهو لا يعرف السبب الذي جعل اللص ينتظر كل هذا الوقت، لكنه - حتمًا - لن ينتظر أكثر..

أدار قرص الهاتف طالبًا صديقًا قديمًا له.. (جابرييل) إبن الأم (مارشا) الساحرة الجامايكية..، كان (جابرييل) بالصدفة في (فلوريدا) منذ شهرين يبحث عن مزيد من الدولارات، كان يعمل ناد في ناد ليلى على سبيل رفع الدخل.. وبالمناسبة يشكل المهاجرون من (الكاريبي) جالية لا بأس بها في (أمريكا) ويسمونهم (سبيكس).. وهي كلمة تحمل رنينًا ما من الإهانة لا يفهمها سوى الأمريكان..

- أريد (جابرييل)..

سمع صوتًا ذا لكنة أجنبية يتساءل:

- من يريده؟.. هل أنت شرطي؟

- لا.. أنا صديق..

دوى الصوت ينادي:

- (جابرييل).. ثمة رجل يدعو نفسه صديقًا ها هنا!

ثم صوت (جابرييل) نفسه:

- هاللو..

- (جابرييل).. أنا (هاري شيلدون).. أنا بحاجة لعونك يا رجل..

وللرجل حكى القصة كاملة.. إن هذه الأجواء ليست غريبة على (جابرييل).. بل هو تربى في أحضان السحر الأسود إذا صح هذا التعبير.. ومن الصعب أن تكون أمك ساحرة (فودو) كما تعلم..

- أنت في مأزق يا مستر (شيلدون) - قال (جابرييل) - إن هذه الدمية لخطر حقيقي.. وأرى أن تأتي إلي لنذهب إلى أمي..

- وهل هي هنا؟

- طبعًا.. إنها تحب الولايات المتحدة ولم تكن لترضى بأن أتركها وحيدة في (كينجزتن).. هاك عنواني.. أراك هناك بعد ساعة.

* * *

وتم اللقاء في الموعد المرتقب..

ومن النظرة الأولى أدرك (هاري) أن الساحرة العجوز قد أحالت سكنها المتواضع في هذا الحي إلى نسخة أخرى من شقتها في (جامايكا).. الجلود المعلقة على الجدران.. والأثاث النابي عن الذوق.. والسيجار المشتعل في يدها.. بل خيل لـ (هاري) انها نقلت الرائحة الخانقة معها..

لقد ازدادت المرأة شيخوخة.. لكن عينيها احتفظتا بذات البريق.. وطالت أظفارها أكثر..، وصافحت (هاري) صائحة بصوتها الرفيع:

- هيه!.. أنت هنا إذن أيها الأشقر؟.. وأين صديقك الأصلع كثير الكلام والتدخين؟.. ألم يزل حيًا على الأقل؟ اجلس.. آه!.. أرى أنك ما زلت أحمق متسرعًا.. لماذا لم تعهد لي بتلك الدمية كي

أجردها من سحرها؟ ولكن لا عليك.. إن الأم (مارشا) تعرف.. تعرف كل شيء.. هيه!..لماذا لا تجلس؟!.

جلس (هاري) على طرف الأريكة البالية.. وقال:

- أرى يا سيدتي أن حيويتك لم تتزحزح..

- هذا حق.. ولكن ليكن معلومًا لديك أن الأم (مارشا) لا تفعل شيئًا دون مقابل..

- تعنين المال؟..

ضحكت ضحكتها الرفيعة المجلجلة الشبيهة بصرير باب:

- لا طبعًا.. هي هي!.. يبدو أنك لم تعرف الأم (مارشا) بعد..

* * *

هنا تدخلت أنا في الكلام.. فلم أقدر على أن أظل صامتًا إلى هذه النقطة.. سألت (هاري) في دهشة:

- (هاري).. هل ما حدث قد مر بك حقًا أم أن الدكتور (لوسيفر) يتنبأ لك؟

في غموض ابتسم الرجل.. ونظر نحو د. (لوسيفر).

- (هاري).. يجب أن تقول..

واصلت الإلحاح.. فنظر لي (هاري) والابتسامة على شفتيه.. كان يتعمد المحافظة على الابتسام كديدن من يتظاهرون بالثقة بالنفس وإن لمحت خللًا واضحًا في هذا القناع الأجوف..

غمغم وهو يحك رأسه:

- الواقع أن هذا حدث منذ شهر.. وقد نسيت الموضوع تمامًا.. لكن.. أظن أن د. (لوسيفر) هذا يعرف ما يتكلم عنه..

للمرة الأولى بدأ الفأر يلعب في عبي كما يقولون.. مددت يدي إلى لفافة تبغ وأشعلتها متجاهلًا التحذير الصامت في عيني (كولبي) و (كلارتون) صاحب الدار..

كان (لوسيفر) قادرًا بالتأكيد على معرفة قصة مسز (مازورسكي) ربما من (ماري) صديقة ابنتها، وربما من د. (هندريكس) طبيبها النفسي (هل كان هذا هو اسمه؟)..، وكان (لوسيفر) قادرًا على معرفة قصة (ميلز) فلربما ثرثر بها هذا الأخير..

ولكن كيف - أكاد أجن - استطاع أن يعرف شيئًا عن (هاري)؟.. (هاري) الذي أعرف جيدًا أنه لم يحك شيئًا لأحد.. (هاري) الذي لم يفارقني منذ أتينا هذا البيت.. حتى أنا لم أسمع بهذه الحكاية قط..

وتأملت - وسط حلقات الدخان - وجه (لوسيفر) الشيطاني، بينما عيناه النفاذتان عارمتا القوة تجوبان وجوهنا.. الثقة بالنفس في صورة إنسان.. ومن حين آخر يميل على مستر (كلارتون) مضيفنا يتبادل وإياه بضع كلمات هامسة.. ثم دوى صوته الجهوري:

- لا داعي للمزيد من المقاطعات.. وأنت يا مستر (كولبي).. هلا خرجت لتريح نفسك قليلًا بدلًا من جلوسك هنا تتواثب كالبرغوث؟

في امتنان وثب (كولبي) على قدميه.. غادر الصومعة مهرولًا بينما دخان البخور يمتزج بدخان سيجارتي.. ومن مكان ما تنبعث موسيقا شرقية ممسوخة من التي يستعملها الغربيون دون أن

يفهموا كنه (الربع تون)..
وعاد صوت البير الراضي عن نفسه يتكلم..

* * *

قامت الأم (مارشا) بعمل رائع..
عمل رائع إذا كان لنا أن نطلق هذا على كل التعاويذ التي راحت ترددها.. وكل البخور الذي أطلقته.. وكل التلوي المحموم حول جورب (لندا) الذي كان (هاري) قد سرقه لها باعتباره شيئًا حميمًا من أشيائها..
ثم إنها سكبت بعض الماء على النار التي أضرمتها في الجورب.. فتصاعد دخان خانق الرائحة من الجورب المصنوع من ألياف صناعية.. شرعت تردد عبارات لا حصر لها واللعاب يتناثر من فيها..
وحين انتهت - أخيرًا - مدت يدها المخلبية إلى (هاري) داعية إياه أن يمسح وجهه بالرماد..
- هكذا يمكننا القول إننا عزلنا المرأة الشقراء عن دميتها.. ونحن الآن في مأمن..
- إذن أستطيع العودة إلى داري...
- بالتأكيد.. لكن لا تنس ما قلته لك.. لقد قلت إنني أفعل ذلك مقابل ثمن..
- وأنا مستعد لدفعه دون إبطاء..
قالت وهي تجفف يديها من الماء.. وتبتسم في ثقة:
- أريد بعض قطرات من دمك!

* * *

- هل حقًا تعنين ما تتحدثين عنه؟
كذا سألها (هاري) ذاهلًا غير عالم بم يرد عليها..
- الأم (مارشا) لا تمزح أيها الأشقر..
سألها وهو ينظر نحو (جابرييل) باحثًا عن مهرب:
- هل لي أن أعرف السبب؟
- قلت إن هذا هو أجري وليس لك أن تسأل.. ولكن ثق إن الأم (مارشا) لا تنتوي إيذاءك.. لنقل إنها بحاجة ماسة إلى دماء شاب أبيض شجاع من أجل (الفودو).
وجد (هاري) أن عليه ألا يبدل طابع الشاب الشجاع غير المؤمن بالخزعبلات..، فمد يده إلى الأم وعلى وجهه ابتسامة الواثق من نفسه..
ابتسمت المرأة في رضا وتناولت كأسًا زجاجية، وسكينًا.. ثم أمسكت بكف (هاري) المفتوحة، وبنصل السكين أحدثت شقًا سطحيًا صغيرًا ثم تركت الدم تسيل منه قطرات إلى الكأس..
- كذا.. لقد انتهيت تمامًا..
وناولته قطعة من ألياف الكتان بللتها بزيت خاص.. وأمرته أن يضغط بها الجرح بعض الوقت..
ثم أومأت له كي ينصرف، وقالت إن الأمور ستكون على ما يرام بخصوص (لندا) فليس عليه أن يقلق على شيء..

* * *

قال د. (لوسيفر):

- هكذا.. يمكننا القول إن هذا هو ما حدث لصديقنا (هاري) منذ شهر أو أكثر..، ولا شك في أنه نسي الأمر تمامًا.. ولكني ذكرته به لأنه قد قارف خطأ جسيمًا..

المرء لا يترك قطرات من دمه لدى ساحرة (فودو) ويرحل.. صحيح أنك تعرفها.. صحيح أنها صديقة قديمة لك.. صحيح أنها أنقذت حياتك من (الزومبي) يومًا ما..

لكنك - والحق يقال - لم تكن حذرًا، فالمرء لا يستطيع أن يثق بساحرة.. إن هؤلاء النسوة يتقلبن كالبحر ذاته.. ولديهن ما لا ينتهي من الألاعيب الشيطانية.

إليك أوجه نصحي.. هل ما زالت هذه المرأة وولدها داخل الولايات؟..هل تستطيع الاتصال بهما؟

قال (هاري) في حيرة:

- نعم.. ولكن لم....؟

- لأنك ستدعو (جابرييل) إلى كأس من الشراب، ثم تأخذ الكأس وعليه بصماته إلى الشرطة.. عندئذ يتضح لك أن السارق الذي فتح خزانتك هو بعينه (جابرييل)!!

تبادلت و (هاري) نظرة حيري.. ثم توليت السؤال:

- ولماذا يفعل ذلك؟

- لأنه يريد أن تجيء إليه وإلى أمه بكامل إرادتك طالبًا العون.. وقد فعلت ودفعت الثمن من دمك الذي منحته لهما بإرادتك الحرة، ودون ضغوط خارجية.. هل فهمت؟

- حتمًا لا..

قال د. (لوسيفر) وهو يمد يده طالبًا بعض القهوة:

- ألم تسأل نفسك لماذا يسطو أحد على خزانتك أنت بالذات ويتجشم كل هذا العناء مع أنك لم تشتهر بالثراء يومًا؟.. الأمر واضح لا لبس فيه.. كان يريد شيئًا ما من الخزانة غير المال.. وهذا الشيء هو الدمية..

- ولماذا يريدها؟.. ولماذا يريد دمي؟..

- لأن هناك أسلوبًا سحريًا يعشقه سحرة (الفودو).. هو أسلوب (دمية الدم)... اصنع (فتيشًا) لإنسان - مثل (لندا) - وضع عليه قطرات من دم إنسان يحبه - مثلك في هذه الحالة - ثم اغمس الدمية في مياه المستنقع ثلاثة أيام.. ثم ادفنها في الرمال شهرًا..، والنتيجة هي أن صاحب (الفتيش) يتلاشى تمامًا بينما تحل جميع صفاته ومزاياه في الساحر..

- تعني أن هذا نوع من فنون (النكرومانسي)؟

- لا.. (النكرومانسي) يمزق جثث الموتى ليعرف أسرارهم.. أما ساحر (دمية الدم) فيمزق أجساد الأحياء ليتعلم منهم..

- ولماذا تريد الأم (مارشا) هذا؟!

- لأنها تريد أن تتحول إلى أمريكية شقراء!.. إن هذا منطقي جدًا خاصة منذ جاءت إلى (الولايات المتحدة)، ووجدت نفسها تحت خط الفقر مع ابنها.. لقد فقدت كل سلطة لها وكل نفوذ، وهي

تتمنى لو كانت أمريكية بيضاء كالأخريات.. لو أنها لم تكن (سبيكس)..
تنهد (هاري) ونظر إلى أوراق اللعب المشئومة المتراصة على المائدة.. وتساءل:
- لو كان كلامك صحيحًا.. فلماذا لم يحدث هذا حتى الآن؟
- ثلاثة أيام وشهر.. تلكم هي الفترة اللازمة لوقوع التلاشي.. وأنت منحت المرأة دمك منذ شهر.. أي أن التحول قد يقع في أية لحظة من الآن فصاعدًا..
ثم رشف رشفة من القدح.. وأردف:
- عليك أن تسترجع الدمية منها بأي ثمن.. وإلا...
ثم شرع يكمل، القصة لـ (هاري)..

* * *

ذات يوم ستعود لدارك يا مستر (شيلدون) شارد الذهن.. فأنت عاجز تمامًا عن استرداد الدمية.. ولم تستطع أن تجد (جابرييل) في أي مكان..
وحين ذهبت إلى مقر الأم (مارشا) لم تجدها..
ستفكر لحظتها في مدى خطورة تجاهل الأمر.. لم لا تتجاهله؟..
إن الأمر كله مجرد كلام قاله د. (لوسيفر)، وليس بالضرورة هو الصواب.. لماذا لا يكون هذا الأخير مجرد نصاب؟..
وتنادي على (لندا)..
- (لندااا)!.. حبيبتي.. أنا قد عدت..
فلا تجدها.. تقول لنفسك إنها في المطبخ حتمًا..
تصعد إلى هناك فلا تجدها كذلك.. هل خرجت؟.. هل تزور جارتك؟
وأين ذهب الشيطان (جيمي)؟..
لن تصدق ما حدث إلا حين ترى بقع الدم على (الموكيت) خارج غرفة النوم.. ستدخل.. وعندئذ ترى كل هذا الهول على الأرض.. فوق الفراش... وعلى الجدران. وآثار كفها المخضبة بالدم..
لم تستطع البائسة أن تفهم ما يحدث لها..
أما الشيء الذي سيثير انتباهك حين تهدأ العاصفة الأولى..
الشيء الذي ستراه ما بين الدموع التي تغمر مقلتيك.
الشيء الذي ستتذكره على الفور..
هو جورب أسود صغير نصف محترق يلتف عنقها.. الجورب الذي أعطيته لساحرة (الفودو) منذ شهر واحد..
وإلى جوار الجورب ترى ألياف كتان مألوفة الشكل وقد تلوثت بقطرات من دماء..
إن الأم (مارشا) لامرأة أمينة قل أن تجد مثلها هذا الزمن..
امرأة لا تنسى إعادة ما اقترضته!..

* * *

انتهت القصة..

ولمحت (هاري) يحاول التظاهر بأنه لا يرتجف.. لكن هذا زاد الأمر سوءًا.. ومن الذي يجرؤ على لومه؟..

مددت يدي نحو معصمه مواسيًا.. وهمست:

- إن هذا إلا رجم بالغيب يا (هاري).. فلا تقلق.. ما الذي يدفع (مارشا) لهذا؟.. أعتقد أن هذه المرأة أقوى بمراحل من أن تلجأ لحيلة تافهة تجعلها بيضاء..

قال (هاري) في توتر:

- لا أدري.. لكن القصة ملأتني قلقًا.. يجب أن أذهب للمرأة وأحاول استرداد الدمية منها ولو كلفني هذا تحطيم عظامها..

- هذا بفرض أنها أخذتها حقًا!

دوى صوت د. (لوسيفر) البري يقول بتؤدة:

- والآن من التالي؟.. إن صحبتكم لتملؤني حبورًا.

قلت في كياسة:

- ألا تجد أنه من الغريب أن نكون كلنا منحوسين إلى هذا الحد، ثم نحتشد في مكان واحد؟

- لا غرابة - قالها وهو يخلط الأوراق - إن من جاءوا هنا إنما هم بالفضول مدفوعون.. أي أنهم يهوون الخوارق، ومنهم من جاءوا طلبًا للنصح أي أنهم في ورطة حالية.. وكلا النوعين يمكن أن يرى الجانب المظلم من القمر..، والآن.. من التالي؟

آه!.. الآنسة الصغيرة.. إنها تريد الانصراف مع صاحبتها السيدة (مازورسكي).. هلا أخذت الأوراق وقمت بخلطها لي يا صغيرتي؟

فعلت الفتاة ذلك وهي ترتجف.. حتى أن الأوراق سقطت منها مرارًا..، كان وجهها الملائكي الشفاف يعكس أقسي علامات الرعب، وقلت لنفسي في دهشة: ترى أي سر مخيف تطويه هذه الفتاة المرهفة - كأنها (سنو وايت) - خلف ضلوعها؟.

هوذا د. (لوسيفر) يتكلم...

تعالوا نصغ إليه...

* * *

الحكاية الرابعة

(والآن نرجوكم الصمت!)

بطولة: ماري جوليم

(لقد جاء دورك يا صغيرتي.. لكنها - أعدك - لن تكون لحظات طويلة!).



الاسم : ماري جوليم

السن :١٧ عامًا .

المهنة : طالبة .

الإقامة : نيويورك .

الهوايات : هي فتاة رومانسية تحب الشعر والموسيقا وتعزف عزفًا رديئًا جدًا على البيانو ، لها مجموعة محدودة من الصديقات أهمهن (لويز مازورسكي) . تحب أجواء الرعب وعوالم ما وراء الطبيعة بصفتها سوداوية المزاج . وستكون هذه الهواية وبالًا على رأسها .

صفات عامة :

إذا ما تغاضينا عن هوايتها اللعينة هذه لأمكننا القول دون تحفظ إن (ماري) فتاة عاقلة رصينة تنتمي بطباعها وأخلاقها إلى عصر الخمسينات الجميل .. ودليلنا على هذا هو أن مسز (مازورسكي) تثق بها بشدة ..

بأنامل رقيقة شرعت (ماري) تخلط الأوراق..
ثم ناولتها عبر المائدة إلى الطبيب المجرى غريب الأطوار..، وعادت تثني ساقيها تحتها كقطة صغيرة.
- معذرة يا د. (لوسيفر)!.. دورة المياه.. إنها البروستـ..
دوى صوت (كولبي) المرتبك المحرج.. لكن د. (لوسيفر) أخرسه بإيماءة حازمة من يده..
ثم إنه أمسك بأوراق (التاروت) وشرع يفرزها على المائدة.. متجاورة.. متماسة.. أما أنا فكنت أحاول أن أفرد ساقي اللتين تخشبتا من جلسة القرفصاء هذه..
لماذا يصر هذا النصاب على الجلوس على الأرض؟.. ما الفارق لو مارس ألعابه هذه فوق مائدة؟.. إنه فقط يحاول أن يحدث تأثيرًا سيكولوجيًا علينا.. وهذا التأثير ناتج عن ارتباط السحر بالشرق.
وبمعنى أدق: بألف ليلة وليلة..، لكن كل هذا يكون صبيانيًا إذا كان (لوسيفر) غربيًا يجلس مع مجموعة من الغربيين..
على كل حال.. مددت يدي إلى رباط حذائي، ودون تردد انتزعت الحذاء نفسه.. و.. آه هـ هـ!.. يا للنشوة والراحة...
لمحت أنف (لوسيفر) يتقلص.. وعلى وجهه تعبير اشمئزاز.. دعه يتساءل عن مصدر هذه الرائحة.. فلو كان عرافًا حقًا لما عجز عن معرفة أن هناك من انتزع حذاءه تحت المائدة المسدسة!..
والآن دعنا نتأمل الأوراق...

* * *

أولًا: ورقة الحكيم الجالس ممسكًا بعصا الحكمة.. وقد جلس النسر تحت قدميه..، علماء النفس يقولون إنها ترمز إلى نمو البديهة لدى الإنسان.. ويقول (كورت) إنها ترمز إلى سلطة البابا في القرن الرابع الميلادي، بينما يجمع مستعملو (التاروت) عامة على أنها ورقة تعني الرحمة - الشفقة - الكياسة..
بعد هذا جاءت ورقة (القلعة) التي تظهر رجلين تقتلهما الصاعقة وهما يحاولان اقتحام قلعة كبيرة..
ثم جاءت أوراق الشيطان.. فعجلة الحظ.. ثم - في النهاية - ورقة الموت إياها!.. لقد صار هذا مملًا..
إن هذا الـ (لوسيفر) شبيه بلاعبي الثلاث ورقات في بلدنا.. وأكاد أظنه يخفي ورقة الموت هذه في كمه ليبرزها كل مرة..
سمعت صوته البيري يتردد في السكون:
- لعمري أنت تلعبين بالنار أيتها الفتاة.. ولك أحكي كل شيء.. لكنني لا أبغى مقاطعة..
- ليكن يا سيدي..

* * *



بعد هذا جاءت ورقة (القلعة) التى تظهر رجلين تقطلهما الصاعقة

وهما يحاولان اقتحام قلعة كبيرة ..

كانت (ماري) مولعة بكل ما هو غريب..
صحيح إنها فتاة تقليدية مهذبة أحسن أهلها تربيتها؛ إلا أنها كانت تملك ذلك الولع المريض بالرعب.. الرعب الذي يولد تلك الرجفة غير المسبوقة في روحها.
كانت - تذكر - في السابعة من عمرها، حين ارتكبت خطأ ما.. (ماذا كان بالضبط؟).. المهم أن أمها رأته خطأ فادحًا..
جرتها من ذراعها إلى القبو.. رائحة العطن وخيوط العنكبوت.. ثم إنها أوصدت الباب عليها.. الظلام الدامس.
" مامي!.. مامي! ".. أرجوك!.. سأكون فتاة طيبة!
قالتها مرارًا.. بكت.. ضربت برأسها الحائط دون جدوى.. الظلام هو حين تصحو كائنات لا تدري كنهها لكنها جميعًا ذوات أنياب ومخالب.. كلها قادمة كي تلتهمها..
الفكرة تمزقها.. لكنها - في الوقت ذاته - تمتعها.. تجعلها ترتجف بالنشوة واللذة.. ثم ينتابها الذعر فتصرخ أكثر..
وحين انتهت هذه الخبرة كانت (ماري) قد صارت مدمنة رعب، وكان هذا يناسب شخصيتها الهادئة الصموت..
في فراشها قرأت كل ما كتب عن المذءوبين ومصاصي الدماء والقبور التي تنفتح ليلًا لتبرز منها أيد ذوات مخالب.. إن الرومانسية والسوداوية والرعب شيء واحد متداخل.. وإلا فكيف كتبت (ماري شيللي) زوجة الشاعر الشهير قصة (فرانكنشتاين)؟
وكيف مزج (إدجار آلان بو) الرعب بالشعر؟.. لكن (ماري) لم تصارح مخلوقًا بعالمها الخاص خاصة و (لويز) صديقة عمرها لم تعطها الاهتمام المناسب..
وهنا ظهرت (هارييت) على الساحة..

* * *

قابلنا (هارييت) قبل هذا.. وعرفنا أنها حمراء الشعر صاخبة خرقاء.. وعرفنا أنها شاحبة اللون تعشق الظلام والليل..
وعرفنا أنها شخصية مغناطيسية تسجن كل من يدخل دائرتها بين خيوط العنكبوت.. ولقد كانت (هارييت) عنكبوتا كبيرًا..

* * *

في تلك الليلة جلست أربع فتيات في دار إحداهن يتبادلن المزاح والقفشات..
فإذا دنونا بالكاميرا أكثر وجدنا بينهن فتاة ناحلة ترتدي منظارًا غليظًا.. هذه الفتاة هي (لويز مازورسكي)،.. الفتاة الأخرى حمراء الشعر التي لا تكف عن الضحك الخبيث هي (هارييت).. أما هذه الفتاة الملائكية البتول فـ (ماري).. والفتاة الرابعة السمراء التي ترتدي البنطال القصير هي (هيلين).. صاحبة الدار...

وكما نرى لا تكف (هارييت) عن المزاح - البذيء نوعًا - والكلام عن الفتيان، بينما (لويز) و (ماري) شديدتا التحفظ تضحكان على سبيل المجاملة لأنهما لم تعتادا هذا...

تقول (هارييت) وهي تضع قدميها على الأريكة:

- دعونا نلعب لعبة مسلية..

- مثل ماذا؟

- مثل محاولة تحضير الأرواح!

* * *

برغم احتجاج (هيلين) و (لويز) رجحت كفة (هارييت) و (ماري)..

لم لا؟.. إنها لعبة لا بأس بها.. ولم تجربها واحدة منهن ربما باستثناء (هارييت) التي يخيل لهن أحيانًا أنها تعرف كل شيء في الكون..

إن الأمر سهل.. ستحضر (هيلين) فرخًا من الورق تكتب على هامشه الحروف الأبجدية كلها.. وتحضر كوبًا زجاجيًا..

وبعد إطفاء الأضواء وترديد تعاويذ معينة تضع كل فتاة منهن إصبعًا على قاعدة الكوب.. عندئذ يبدأ الكوب في التحرك مشيرًا إلى الحروف تباعًا.. والحروف تقول كلمات ما..

- لكنها مخاطرة! - قالت (لويز): لقد قرأت أن هناك طريقة ما لصرف الأرواح وإلا أصر بعضها على البقاء!

- هراء! - قالت (هارييت) - كل الأرواح تنصرف بمجرد أن ينتهي الكلام معها..

في الضوء الخافت المخيم على المكان، جلست الأربع صديقات حول الكوب الموضوع فوق الورقة، والورقة بدورها على الأرض..

- روح من نطلب؟

وهكذا..

تساءلت (هيلين).. فأجابتها (هارييت) دون تردد:

- لقد أثيرت تساؤلات عديدة حول (جاك) السفاح.. كثيرون زعموا أنهم عرفوا شخصية ذلك السفاح الذي أثار ذعر (لندن) في القرن الماضي، بل إن أحد المحكوم عليهم بالإعدام صاح وهو على خشبة المشنقة: أنا جا..!..، ثم انفتحت المصطبة ولقى حتفه قبل أن يعرف الجلاد ما إذا كان هو (جاك) السفاح أم لا..، إن هذا الرجل للغز من ألغاز تاريخ الجريمة.. وأعتقد أنني راغبة في سؤال روحه عن هذا السر..

ارتجفت (ماري) من هول الفكرة:

- إنك تزيدين الرعب رعبًا.

- ولم لا؟.. أليست الإثارة هي ما نريد؟

ثم اتسعت عيناها الخضراوان الشبيهتان بعيني قط.. وهمست بصوت كالفحيح:

- والآن.. نرجوكم الصمت!

* * *

طلبوا روح (جون دوليتل) ذلك الرجل الذي لم يكمل كلامه على المشنقة.. وطفقوا ينتظرون..
لكن دون جدوى.. كانت التجربة فاشلة من اللحظة الأولى.
وفي ساعة متأخرة من الليل انصرفت ثلاث فتيات في سيارة (هارييت) الرياضية عائدات إلى بيوتهن..
على حين ودعتهن (هيلين) على الباب.. ثم دلفت إلى الداخل..
فما إن دخلت (ماري) دارها.. وما إن بدأت تنزع ثيابها حتى سمعت جرس الهاتف يدق.. فهرعت إليه ترفع السماعة قبل أن يصحو واحد من أهل الدار الذين ناموا منذ ساعات..
- هاللو!
- (ماري).. أنا (هيلين)..
- ماذا هنالك يا (هيلين)؟
سمعت صوت صديقتها الملهوف:
- ذلك الكوب.. الكوب الذي لعبنا به تلك اللعبة اللعينة.. هل كان في وضع مقلوب حين تركتم الدار؟!
يا له من سؤال غريب!.. ردت (ماري) في غير اكتراث:
- بالطبع لا أذكر.. ولكن.. أحسبه كان مقلوبًا.
- بالتأكيد كان كذلك..
في لهفة تردد صوت (هيلين) المرتجف:
- حين اوصلتكم للباب وعدت إلى حجرتي، وجدت الكوب في وضع معتدل.. فوهته إلى أعلى..
- أنا لا أرى أهمية لما...
- ألا تفهمين يا حمقاء؟ أنا لم ألمس الكوب.. كما لم تمسسه إحداكن وهذا يعني أن هناك من قلبه..!
- ومع ذلك من المحتمل أن واحدة منا قلبته وهي شاردة الذهن..
- لم يحدث يا (ماري).. لم يحدث.. أستطيع أن أقسم على ذلك..
أنا خائفة يا (ماري).. خائفة!
تنهدت (ماري) في صبر:
- إن هذا كله هو تأثير اللعبة - إن كان لنا أن نسميها كذا - على أعصابك.. إن توترك يجعلك تعيشين أوهامًا قاسية..
ثم ابتلعت ريقها ووجهت لصديقتها دعوة ترجو ألا تقبلها.. لو أنها تعرف العامية المصرية لسرها كثيرًا تعبير (عزومة مراكبية) فهو يعبر بدقة عما تفكر فيه الآن..
- هل تريدين أن آتي لأمضي الليلة معك؟
نعم.. فإن (هيلين) ستمضي هذه الليلة وحيدة..
فأبوها منفصل عن أمها.. وأمها طبيبة يضطرها عملها إلى البيات خارج الدار أحيانًا كثيرة.. إن هذه البائسة ستمضي ليلة رهيبة حقًا.. لكنها لم تزل قادرة على التظاهر برباطة الجأش:
- لا يا (ماري).. سأكون بخير.. ليلة طيبة..
- ليلة طيبة..

* * *

لماذا لم تصدقها؟

لماذا لم تعر الأمر اهتمامًا؟..

كان بإمكانها أن تذهب إليها.. وكان بإمكانها أن تدعوها إلى المبيت معها.. وكان بمقدورها أن تطلب لها الشرطة..

لكنها لم تفعل شيئًا من هذا.. ذهبت لتنام وتحلم بعشرات الكوابيس.. بأكواب ملأى بالدماء سرعان ما تنقلب لتسيل على ثوبها.. وترى (هارييت) تبتسم كاشفة عن أسنان ناصعة البياض إلى حد مريب، بينما الدم يسيل من شعرها الأحمر..

وحين صحت في الصباح غارقة في العرق كريه الرائحة، أدركت أنها ستقطع علاقتها مع (هارييت) الحمقاء من الآن فصاعدًا..

لن تكون مفتاحًا في ميدالية (هارييت) تتسلى بهزه لإحداث صليل.. الأخريات صرن مفاتيح لكنها لن تكون..

وبعد قليل وصلتها مكالمة من (لويز) تخبرها أن (هيلين) قد لقيت مصرعها!...

* * *

تحت أغصان شجرة الصفصاف العجوز جوار سور المدرسة: التقت الفتيات الثلاث: (هارييت) - (ماري) - (لويز)..

كن واثقات أن أحدًا لا يسمعهن ولا يختلس إليهن النظر.. وكان موضوع الندوة هو: ماذا حدث لـ (هيلين)؟..

لقد سمع الجيران صرخات قادمة من الشقة.. وأسرعوا بمحاولة اقتحام الباب.. ثم طلبوا رجال الشرطة..

وجاءت الشرطة وقاموا باقتحام الباب الموصد.. ثم فتشوا الشقة بعناية، فلم يجدوا شيئًا.. لا جثث فتيات ولا دماء ولا آثار عنف.. هذه شقة نظيفة منسقة غادرها صاحبها..

لم يستطيعوا أن يلوموا الجيران، فما داموا قد أجمعوا على أنهم سمعوا صراخًا فمن العسير أن يكون هذا وهمًا.. ولكن ماذا حدث بالضبط؟

الإجابة كانت في زقاق خلفي قذر بالمدينة..

والذي وجدها هو متسكع كان يسير هناك، حين وجد جثة فتاة في مقتبل العمر وقد خنقت بحبل غليظ.. لا داعي طبعًا لوصف حال الجثة لأن هناك سيدات هاهنا.. لكن هذه الصورة تقليدية جدًا، ويعرفها هواة قراءة هذه الأشياء المريعة في صفحة الحوادث بالجريدة.

كما لا داعي طبعًا أن نهين ذكاء القارئ بالثرثرة عن بحث رجال الشرطة عن صاحبة الجثة.. إنها (هيلين) طبعًا..

ولكن من قتلها؟.. ولماذا غادرت دارها في ساعة كهذه؟

لم يستطع البوليس أن يعرف من كان معها في تلك الليلة.. لكن صديقاتنا الثلاث يعرفن..، ومن الواضح أنهن لن يخبرن رجال الشرطة بشيء حتى لا يقعن في مصيدة الشكوك والاستجوابات..

لكن (هارييت) أبدت ملحوظة مروعة:

- (جاك السفاح) كان يقتل باستعمال حبل من الليف حول العنق!..
نظرت إليها (ماري) واتسعت عيناها رعبًا:
- ماذا تعنين؟
- أرى أن الأمر لا يمكن أن يكون مصادفة!..
- ماذا تعنين مرة أخرى؟
- كلامها عن الكوب.. لقد كان (جون دوليتل) هو (جاك السفاح) بالفعل.. ومن الواضح أن روحه قد لبت نداءنا.. لكنها لم تنصرف..!.. إن الروح تتسلي بقتلنا وقد بدأت بصاحبة الدار أولًا..
- يا للهول!.. (هاريت)... لا تقولي هذا..
- لكنه الشيء الوحيد الممكن قوله.
وفي حزم نظرت للفتاتين المذعورتين.. وصاحت:
- لنأخذ الحذر إذن.. ولا داعي لذكر كلمة واحدة عن لعبة تحضير الأرواح هذه.. فلا أحد يعلم عنا سوى أننا من شلة (هيلين)، سنحضر الجنازة غدًا ونبكي كثيرًا ثم ينتهي الأمر..
ونظرت إلى ساعتها واحتضنت حافظة أوراقها قائلة:
- هيا بنا ننصرف الآن.. ولتعمل كل منا على حماية نفسها.. ولتأخذ رأي أهل العلم في الموضوع إذا استطاعت..
ثم رفعت أصبعها السبابة محذرة:
- والآن.. أرجوكما الصمت!

* * *

ومرت أيام..
وكما لنا أن نتوقع.. ابتعدت (ماري) عن صديقتيها (لويز) و (هاريت) وقد لاحظت التبدل الذي بدأ يطرأ على طباع الأولى.. لكنها لم تستطع أن تجد له تفسيرًا..
وكانت تلك المحادثة بينها وبين الأم.. وبالمناسبة كانت (ماري) هي صاحبة الاقتراح على الأم باستشارة البروفسير (هندريكس) الذي كانت (ماري) تثق برأيه تمامًا..
إن (ماري) لا تدرك أن التغير الذي طرأ على (لويز) سببه تحول هذه الأخيرة إلى مصاص دماء.. ولو عرفت لأصابها الهلع.. ولحكت هذا للبروفسير.. إن الربط ما بين وفاة (هيلين) وتحول (لويز) إلى مصاص دماء كان سيلقي الضوء على القصة كلها.. كان سيلقي الضوء على (هاريت).
لكن (ماري) لم تعلم..
فقط ذهبت إلى البروفسير وحدها.. وله حكت القصة كاملة طالبة رأيه..
لكن الرجل لم يكن يملك ما يقوله سوى اعتقاده (أن هناك شيئًا شريرًا في هذه القصة)..، وأوصاها - كالعادة - باستشارة عالم روحاني مجرى اسمه (لوسيفر)..، وها هي ذي قد جاءت إلى حفلنا الليلة ومعها أم (لويز).. امرأة أخرى ملأى بعلامات الاستفهام التي تبغي لها جوابًا..
ومال د. (لوسيفر) مقربًا وجهه من (ماري)
- أتراني أخطأت يا (ماري)؟!

* * *

لم يخطئ د. (لوسيفر) في حرف..
فالقصة كانت كما حكاها دون تغيير..
قال د. (لوسيفر) وهو يتأمل الأوراق:
- مرة أخرى تتجاهلين يا (ماري) علامات واضحة كشمس الظهيرة.. من هي (هارييت).؟ أين تسكن؟
- لا أعلم.. تقول إنها من (بنسلفانيا) أصلًا، وقد التحقت بالمدرسة المسائية منذ شهرين..
- هكذا! -هتف في انتصار - فتاة حمراء الشعر شاحبة الوجه لا تظهر إلا في الليل.. ولا أحد يعرف أين تسكن..
- تعني أنها.. أنها مصاص دماء؟
- بل أعني أنها ساحرة.. هناك كتاب صدر في عام ١٤٨٧ في عهد البابا (إينوسنت الثامن) اسمه (مطرقة الساحرات).. هل قرأه أحد؟![4]
همهم (كولبي) و (كلارتون) أن نعم.. فالكتاب معروف لهما بوصفهما من (المتخصصين)..، وفي رفق سأل (كلارتون) الفتاة:
- هل في جسد (هارييت) هذه علامة مميزة.. مثل وشم أو خال غريب الشكل؟!
حملقت الفتاة في المائدة بعض الوقت.. ثم غمغمت:
- ربما.. على لوح كتفها الأيسر..
بانتصار هتف د. (لوسيفر):
- وهذا هو القول الفصل.. يقولون إن الساحرات يكن على علاقة بالشيطان، وهذه العلاقة تترك أثرًا معينًا في أجسادهن.. أظن أن (هارييت) هذه ساحرة شريرة تلهو بكن.. مرة عن طريق روح (جاك السفاح) ومرة عن طريق لعنة مصاصي الدماء..
أشعلت لفافة تبغ.. وتساءلت وأنا أثني فخذي تحتي:
- وماذا تقترحه أنت؟
- الحرق للساحرة.. والوتد لمصاصة الدماء!
تبادلت و (هاري) نظرة حيرى.. ثم سألت الرجل:
- كنت أظنك تمارس السحر، ولم أتوقع أن تكون لديك هذه الآراء الحازمة بصدد الساحرات!.. كنت أنتظر منك موقفًا أكثر تفتحًا نحو زميلات العمل!
- هناك سحرة وهناك سحرة.. إن (هارييت) هذه تمارس سحرًا أسود مشئومًا.. وأعتقد أنها كالأفعى نفعها لا يذكر وضررها يفوق الوصف.. والخلاص منها هو السبيل..
وأشار نحو (ماري) الممتقعة.. وقال:
- دعيني أحك لك ما سيحدث.....

* * *

لأنه رجل لطيف طيب..
ولا أحد ينكر ذلك..

* * *

ملأى بالأسئلة والحيرة تعودين إلى ممارسة عملك وحياتك الطبيعية أي (ماري)..
الآن أنت تخشين كل شيء.. ترتجفين فرقًا من كل ظل.. ولم يعد الرعب يروق لك كما كان في الماضي..
إن ما سمعته عن (لويز) وصورة (هيلين) المقتولة لا تبرح خيالك..
حتى أنك - في دارك - تصيرين عاجزة تمامًا عن البقاء وحدك في غرفة، حتى العزاء والسلوى تجدينهما في صحبة طفل صغير مثل أخيك.. أو عجوز مثل والدتك.
لكن العلامات تتوالى..
لماذا تجدين كل كوب تتركينه مقلوبًا؟.. وما سر الدم على منشفتك التي تتركينها في الحمام؟.. وما سر الرقم (٣) المكتوب على البخار المتراكم فوق مرآة الحمام؟.. ما سر ذات الرقم تجدينه مكتوبًا فوق غبار الطاولة؟
ستنادين كل فرد بالدار تسألينه:
- لماذا كتبت هذا على المرأة؟
وسيجيب - مع هزة من الكتفين - قائلًا:
- لم أكتب شيئًا.. لماذا تسألين؟

* * *

لماذا تتكرر معاكسات الهاتف هذه الأيام؟
في كل مرة يدق الجرس فترفعين السماعة.. فلا تسمعين صوتًا على الجانب الآخر..
- هالو!.. هالو!
لا شيء سوى اللهاث البطيء المتحشرج.. والانتظار.. لماذا بالضبط؟
- هاللو!.. أجب أيها الوقح!
وتضعين السماعة في عصبية.. ثم ترفعينها مرة أخرى آملة في سماع من يتكلم..لكن لا جدوى.. دائمًا الصمت المطبق واللهاث..

* * *

وحين تغادرين الدار ليلًا ستعرفين أن هذه هي رحلتك الأخيرة..
أنت لا تريدين، لكن قدميك تتحركان كأن لهما حياة خاصة بهما.. تنسابين كقطرة الندى متسللة من الدار.. تعالجين الأقفال.. تضعين الحذاء في قدميك وتخرجين إلى الشارع المظلم... وتمشين..
صوت الكلاب تنبح من بعيد.. والبرد.. تضمين معطفك على جسدك المرتجف وتواصلين المسير.. إلى أين؟..
لا تدرين..لكن قدميك تعرفان الطريق..
وتدخلين ذلك الزقاق المظلم المهجور وتقفين هنيهة تنتظرين، ثم تسمعين صوتًا يناديك:

- (ماري)!.

صوتًا هامسًا رقيقًا.. فتنظرين إلى الوراء.. لتجدي (سيلويت) ذلك الرجل واقفًا عكس النور فلا تبدو لك ملامحه.. يسد طرف الزقاق وفي فمه لفافة تبغ مشتعلة تبدو كجمرة من جهنم..

- لقد انتظرت قرنًا من أجل هذه اللحظة.. ويمد يده في جيبه ليخرج شيئًا ما.. شيئًا أقرب إلى حبل ملفوف..

عندئذ تفهمين حقيقة رقم (٣)..

أنت الثالثة في دائرة الانتقام.. دائرة ألاعيب (هاربيت)..

لقد جاء دورك يا صغيرتي.. ومع (جاك السفاح) العائد..

لكنها - أعدك - لن تكون لحظات طويلة!..

* * *



ويمدّ يده فى جيبه ليخرج شيئا ما .. شيئا أقرب إلى حبل ملفوف ..

انتهى (لوسيفر) من سرد قصته..

جمع أوراق (التاروت) وراح يعيد خلطها، على حين تنهدت الفتاة في رعب.. وتحسست عنقها كأنما تشعر بحبل (جاك السفاح) عليه ثم تساءلت:

- هل.. هل هذا هو كل شيء؟

- بالفعل..

- وكيف أمنعه؟

- الجواب يكمن في (هاربيت)..

نظرت الفتاة إلى الأم.. ثم أعلنتا أنهما راغبتان في الرحيل.. فقد تأخر الوقت كثيرًا، فأشار لهما (لوسيفر) بيده إشارة وقور معناها أنهما تستطيعان الانصراف..

- شكرًا لك يا د. (لوسيفر) - قالت مسز (مازورسكي) -: على كل ما قدمته من أجلنا.. أنت أنرت لنا الغد المظلم.. ولقد وثقنا بعلمك. فاستحققنا أن نعرف..

هز الوغد رأسه في تواضع.. لم أر في حياتي تواضعًا هو أقرب إلى الغرور من هذا..، وانتظر حتى نسقت المرأتان ثيابهما وغادرتا الصومعة.. ثم نظر نحونا.. وتساءل:

- بقي اثنان.. أنت يا (كولبي).. و د. (رفعت).. بمن أبدأ؟

قلت له محتجًا:

- نسيت مستر (كلارتون)..

- إنه قد مر بتجربة (التاروت) بالفعل.. وذلك منذ أسبوعين..

- إذن أبدأ بـ (كولبي)..

- ليكن..

وناول الأوراق إلى (كولبي).. وابتسم..

ابتسامة لها ألف معنى..

* * *

الحكاية الخامسة

(مذءوب!)

بطولة: سام كولبي

(ستطلق مسدسك.. ولكن ماذا تستطيع رصاصة فضية واحدة أن تفعل؟).



الاسم : سام كولبي .

السن : ٥٠ عـامًا .

الإقامة : نيـويـورك.

المهنة : نصـــاب .

سمات شخصية : أعتقد أننـــا عرفنـــا الكثيـــر عن (كولبي) في القصة السابقة (أســـطورة بو).. ولمن لم يقرأها نقول إنه معدوم البراعة بائس جدًا .. وبرغم أنـــه يهودي فهو لا يملك مالًا يذكر، ولـــم يحرز نجاحًا مهنيًا من أي نوع . وعامة هو رجل بلا خطر .. طيب القلب لكنه لا يبعث الراحة في النفس ، وأنت لا تســـتطيع أن تثق به أكثر من ثقتك بثعبان عجوز لم يعد قادرًا على اللدغ .

الحالة الصحية : لا يحتاج الأمر منك أن تكون إخصائيًا في المســـالك البولية كي تعرف أن (بروستاتا) هذا الرجل تحتاج إلى استئصال عاجل .

بدأ د. (لوسيفر) في تصفح أوراق (تاروت) (كولبي).. ولقد بدا لي غريبًا أن يعكف ساحر على قراءة طالع ساحر آخر..

ثم وجدت الأمر ليس غريبًا إلى هذا الحد.. فلكم ذهبت إلى طبيب عيون أو قلب برغم أنني طبيب أنا الآخر..

لن أحكى لك ما أظهرته الأوراق منعًا للإملال.. فكلانا لا يفهم منها شيئًا.. سأحاول أن أدخل إلى القصة مباشرة... ظهر رجل عند مدخل الحجرة لم أتبين وجهه جيدًا في الضوء الخافت.. وتساءل:

- د. (لوسيفر).. هل ستظل وقتًا أطول هاهنا؟.. إن الكثيرين قد عادوا إلى ديارهم وكذا سائق السيارة ينتظر..

ابتسم (لوسيفر) وغمغم:

- كذلك (كولبي) ود. (إسماعيل) ينتظران.. إنني سأبقى هنا فترة أطول يا عزيزي..

نظرت إلى ميناء ساعتي.. إنها الثالثة صباحًا..

شعرت بمعدتي تتقلص جوعًا.. يبدو أنني هضمت ما أكلت من كرفس بسرعة غير متوقعة.. كما أن علبة سجائري صارت فارغة كعقل ضفدع، وأخشى ألا أجد من يبيع تبغًا عند عودتي..

لكني وجدت (هاري) يتابع الكلام في شغف، فقررت أن أنتظر بعض الوقت.. لكن لن أسمح لهذا المعتوه (لوسيفر) أن يقرأ طالعي.. أنا أعرف طالعي جيدًا: سأعيش بعض الوقت ثم أموت.. وموتى آت لا محالة.. ربما الآن وربما بعد مائة عام.. لا يهم...

وكذا.. جلست القرفصاء أصغي لما يقول د. (لوسيفر) عن (كولبي)..

* * *

يقول الأب (جونز) وهو يرسم علامة الصليب:

- هناك مذءوب في دار (هالبروك).. أنا واثق من هذا.. لكننا بحاجة إلى من يفهم هذه الأمور..

* * *

إن الناس يحبون من ينصب عليهم...

لهذا وحين وقعت الواقعة؛ لم يجد الأب (جونز) من يلجأ إليه سوى (سام كولبي)..

على الأقل هو يعرفه منذ زمن.. وصحيح أن (جونز) - كقس كاثوليكي - لم يكن يحب اليهود البتة، فإنه وجد أن الوقت ليس مناسبًا لمعاداة السامية إذا كان (كولبي) هذا سيقدم الخلاص لمجموعة من الأرواح المعذبة..

وإلى دار (كولبي) ذهب في تلك الليلة بردائه الكهنوتي الأسود الطويل وعلى رأسه قبعة سوداء مما أعطى مظهره كله صرامة أثارت الرعب في قلب اليهودي النصاب..

وبعد احتساء أقداح الشوكولاتة الساخنة التي لا يشرب (كولبي) سواها.. وبعد ما ذهب (كولبي) ثلاث مرات إلى دورة المياه بسبب البروستاتا كما تعلمون..

بعد كل هذا وجد الأب الوقت ملائمًا كي يفتح الموضوع..

قال وهو يحرك ساقًا ليضعها فوق ساق:
- لك جئت يا (كولبي) لأنني لا أعرف لمن ألجأ..
هز (كولبي) رأسه في تواضع.. وجلس يجفف عرقه:
- على الرحب والسعة..
قال الأب وهو يمسك كوب الشوكولاتة بكلتا راحتيه:
- الأمر يتعلق بقضية.. لنقل إن لها حساسية خاصة بالنسبة لي كرجل كنيسة.. لا أدري ما إذا كنت تفهم قصدي؟.
- استمر أرجوك..
- أنت تعلم أننا نتلقى اعترافات عديدة في مهنتنا ولا يحق لنا الكلام عنها بأي ثمن.. لكنني أجد نفسي مضطرًا إلى أخذ رأيك حتى نتمكن من منع جريمة قبل وقوعها الأمر الذي سيمزق ضميري أبد الآبدين..
ثم تقلص وجهه.. بدت تجاعيده في الضوء الخافت كأنما أخاديد في أرض صحراوية لم تعرف المطر دهرًا.. وأردف:
- أتراك تعرف شيئًا عن المذءوبين؟

* * *

المذءوب من أقدم الأساطير في تاريخ البشر..، وهي أسطورة الرجل الأدمي الذي يتحول إلى ذئب عندما يكتمل القمر بدرًا.. ويعيث في الأرض فسادًا ليلة كاملة، ثم في الصباح يعود إلى طبيعته ويكون من العسير معرفة شخصيته[5]..
ويوصي العالمون بهذه الأمور من يهاجمه مذءوب أن يحرص على إصابته أو انتزاع مخلب من يده.. عندئذ يمكن في الصباح العثور على صاحب الإصابة أو من فقد إصبعًا من يده.. ويقتل بنصل من فضة..
يقول العلماء إن خرافة المذءوب هي تفسير شعبي لمرض (البورفريا) الناجم عن اختلال تمثيل الحديد في الجسم.. من ثم يكتسب المريض سحنة شاحبة وأنيابًا حادة وأظفارًا طويلة.. ويستطيل شعر حاجبيه ويتجعد جلده، ويهاب نور الشمس..
أي أنه يتحول - حرفيًا - إلى ذئب بشري، لهذا سمى العلماء هذا المرض باسم (مرض الرجل الذئب).
على أن هناك شواهد عدة مريبة على هذه الأسطورة.. لقد وصفها أطباء يونانيون لهم ثقلهم.. ومنهم (مارسيليوس السايدي) من (أركاديا) حين تحدث عما يدعى (لايكا أنثروبي).. أي (حالة التصور الذئبي) حيث يأكل المريض اللحم النيئ ويعوي كلما رأى القمر بدرًا..
حتى العلماء العرب شديدو الرصانة كتبوا عن هذا المرض.. ومنهم (ابن سينا) و (الزهراوي)، وقد دعوه بـ (القطرب) بضم القاف والراء.. وهي محاولة لتعريب حروف (لايكا أنثروبي) في صورة قريبة من فهم العقل العربي..
إن (كولبي) لم ير في حياته مذءوبًا.. لكنه لا يرفض وجودهم أبدًا..

* * *

- نعم.. أعرف الكثير عنهم في الواقع..
- إذن قد وجدت ضالتي..
ووضع الأب القدح على المائدة المستديرة.. وقال:
- منذ شهر زارني واحد من آل (هالبروك) في الكنيسة..
أنت تعرف أن المعترف يدخل غرفة مظلمة حتى لا أرى وجهه أو أعرف من هو، في حين أجلس أنا بالخارج أصغي إلى كلماته.. وبهذا لم أعرف قط من هو..
- قلت إنه من آل (هالبروك)..
- نعم.. إن آل (هالبروك) يترددون علي بانتظام للاعتراف.. وأنا أعرفهم من لهجتهم الإيرلندية الواضحة.. ثم إن كل رجال الأسرة لهم ذات الصوت المميز..، صدقني إنني واثق بأنه من هذه الأسرة..
- وهل هم كثيرون؟
- حوالي أربعة رجال - بما فيهم الأب - وامرأتان.. الأم والابنة.. وهم عائلة منغلقة متدينة..
- أرجو أن تستمر..
- قال لي هذا المعترف: إنه يريد أن أعاونه لأنه بحاجة إلى الخلاص من اللعنة التي تلاحقه.. لقد هاجمه مذءوب منذ يومين في شوارع (نيويورك).. وهو لم يتبين شيئًا من ملامحه سوى أنه كان يرتدي ثياب رجل عادي إلا أن رأسه رأس ذئب..
- إن هذا صعب التصديق.
- ربما.. لكن الرجل بدا لي صادقًا.. قال إن المذءوب جرحه في ذراعه ثم فر عبر الأزقة، وعاد (هالبروك) هذا إلى داره.. وأخفى هذه التجربة المروعة عن ذويه.. زعم لهم أنه جرح في حادث سيارة.. وقام بتضميد الجرح..، المشكلة هي أنه يخشى أن يتحول بدوره إلى مذءوب حين يكتمل القمر بدرًا..
- وماذا قلت له؟
- بالطبع قلت له إن كل هذا وهم.. ونصحته بأن يعود إلى داره ويصلي كثيرًا.. ولسوف يمر كل شيء على ما يرام...
ابتسم (كولبي) ابتسامته الطفولية الوديعة:
- إذن لقد انتهت المشكلة..
هز القس رأسه في إنهاك وقال:
- بالطبع لا.. ما حدث بعد ذلك هو أنني قرأت في جريدة الأمس أن ابنة (هالبروك) قد لاقت حتفها..، وجدوها في الفناء الخلفي للدار ممزقة تمامًا.. وكان ضياء القمر يغمر المكان، حضر رجال الشرطة وتفحصوا الجثة ثم أعلنوا أن من فعل هذا مجنون حتمًا.. مجنون وله أظفار مخلبية طويلة وأنياب..، أضف إلى هذا أن آثار الأقدام التي شوهدت جوار الجثة هي أقرب إلى آثار أقدام كلب كبير - أو ذئب - إذا أردنا الدقة..
- وحفظ الموضوع..

- بالتأكيد.. لا يوجد دليل على شيء..، لكنني - أنا وأنت - نجد شيئًا مألوفًا في كل هذا..، يبدو لي أن ما قاله ذلك البائس الذي كان يخشى أن يصير مذءوبًا.. يبدو لي على شيء من الصواب.. هناك مذءوب في دار (هالبروك)..

- وما المطلوب مني؟

- أريدك أن تجده.. وتمنحني فرصة تخليص روحه كاملة، فإن كان ذلك فهو خير.. وإلا كان علينا أن نعدمه!

ثم مد يده وصافح (كولبي) في حرارة:

- إنني أعتمد عليك يا سيدي!

* * *

لم يستطع (كولبي) أن يرفض العملية..

ولم يكن هذا عن حب للعمل الإنساني أو مقت للمذءوبين.. كل ما هنالك هو أنه لم يطق أن يقول لا لعرض مغر كهذا.. لقد تصاعد الغرور الشخصي إلى رأسه.. بالإضافة إلى أنه لم يعتد أن يعلن جهله بما يجهل.. دائمًا هو (كولبي) العبقري الذي يفهم في كل شيء ولا يخفى عليه شيء..

ثم هو - وهذا لا ينكر - جائع منذ أسابيع، وبحاجة إلى بعض المال حتى ولو كان هذا المال ملوثًا بالدماء التي تسيل من مخالب المذءوبين..

وهكذا...

قضى يومين يطالع كل ما كتب في مراجع السحر عن (الويروولف) أو (المذءوب) أو (مسخ الذئب) أو (القطرب).. أيا ما كان اسم هذا الداء..

ثم إجماع عام في المراجع كلها على أن الخلاص للمذءوب لا يكون إلا بالموت.. موت بالفضة دائمًا..

وهكذا جلس (كولبى) إلى مكتبه، وشرع يسبك رصاصة من الفضة دسها في مسدسه.. ثم وضع المسدس في جيبه وذهب إلى موعده مع الأب (جونز).

* * *

العقبة الأولى: هي دخول الدار بشكل طبيعي يسمح بملاحظة أفراد الأسرة..

العقبة الثانية: هي معرفة المذءوب.. وهي مهمة عسيرة حقًا.. لأنه سيكون شخصًا عاديًا تمامًا..

وقد رتب له الأب (جونز) الأمر..

ذهب معه إلى دار (هالبروك)، وزعم لرب الأسرة (برنارد هالبروك) المحامي المتقاعد الذي بلغ من الكبر عتيًا.. زعم له أن (كولبي) هو رجل تحر مكلف بالتحقيق في سلسلة جرائم غامضة كلها تماثل ما حدث للفتاة، وأوصاه خيرًا بـ (كولبي) لأن بعض التعاون معه قد يجنب ضحايا آخرين ميتة بشعة..

وأدرك (كولبي) أن القس محبوب في هذه الدار وذو شعبية؛ لأن الحب انعكس عليه هو نفسه في صورة استقبال ودي محبب للنفس.. واستطاع (كولبي) أن يصنف الأسرة..

١ - الأب: المحامي الإيرلندي والشيخ الداهية.
٢ - الأم: عجوز شمطاء حبيسة مقعد متحرك.
٣ - أوسكار: الابن الأكبر - ٢٨ سنة - محاسب.
٤ - كلود: الابن الأوسط - ٢٩ سنة - مدرس.
٥ - جورج: الابن الأصغر - ٢٩ سنة - مدرس.
وكانت الجلسة - التي استغرقت ساعتين - عادية جدًا خالية مما يثير الشبهات، لا شيء يثير الريبة
سوى أن (كلود) يبدو كالذئب في ملامحه الصارمة وعينية الرماديتين الميتتين..، وسوى أن (جورج) يصدر صوتًا غريبًا - كزئير الضواري - حين يلتهم اللحم، وسوى أن (أوسكار) له أظفار أطول من اللازم، وسوى أن الأب يصدر صوتًا كعواء الذئب كلما سعل.
مجرد عائلة بريئة أخرى.. ولا شيء يريب..

* * *

قال د. (لوسيفر):
- وهكذا غادرت الدار يا (كولبي) دون تقدم يذكر..، لكنك لم تنس أن تخبرهم أنك ستعود يوم الرابع عشر من (يوليو) لتواصل التحريات..، وطبعًا لا داعي للقول إن هذا هو اليوم الذي يكتمل فيه القمر بدرًا..
ومط عنقه إلى الأمام وابتسم:
- سيكون هذا بعد أسبوع من الآن.. أليس هذا صحيحًا؟
- بلى.. بلى.. كل ما تقول صواب..
- وهل لديك الآن منهاج عمل معين؟
قال (كولبي) في حماس:
- سأقضي الليل معهم.. الجميع في مكان واحد...
- وإذا تحول أحدهم إلى مذءوب..
- سيتلو الأب (جونز) صلواته.. فإن لم تجد كانت رصاصة من الفضة كافية جدًا..
ضحك د. (لوسيفر) ضحكته الطويلة المقيتة.. ثم قال:
- لن يكون الأمر لعبة أطفال يا (كولبي).. دعني أحك لك ما سيحدث، وكما أراه في أوراق (التاروت)

* * *

ليلة الرابع عشر من (يوليو)..
الليلة يكتمل القمر بدرًا.. ويكشف مذءوب عن نفسه ويلقي ساحر متحمس نهايته.. أو لعله المذءوب الذي سيلقاها؟..
ليلة الرابع عشر من (يوليو)..

هأنتذا يا (كولبي) في قاعة الاستقبال لدى هذه الأسرة اللطيفة.. وقد وضعت المسدس ذا الرصاصة الفضية في جيبك، وحولك يجلس أفراد الأسرة غير فاهمين لما تعتزمه..

يقول الأب في تململ:

- أنا لا أدري لماذا جمعتنا يا مستر (كولبي).. ولماذا تصر على أن نحتشد جميعًا في مكان واحد؟

تقول أنت في ذكاء وأنت ترمقهم:

- صبرًا سيدي.. فهناك أشياء ستتضح بعد قليل..

ثم تنظر إلى الباب في قلق:

- أرجو منك أن توصد الباب وتعطيني المفتاح!

- لحظة!.. لو كنت تظن أن...

- أنا لا أظن شيئًا يا سيدي.. أرجوك أن تطيعني..

- ليكن.. آمل أن تنتهي هذه المهزلة حالًا..

ويأمر الأب ابنه الأكبر أن يذهب فيوصد الباب.. ثم يعود بالمفتاح ليناوله للأب.. وينظر هذا إلى (كولبي) نظرة تقول:

هأنذا أمضي معك إلى نهاية هذا الهراء..

عندئذ تتساءل يا (كولبي) في توتر:

- هل النوافذ موصدة؟

يتنهد الأب في سأم:

- ف ف ف!.. نعم.. هلا أوضحت الآن؟

- ليس بعد.. إنني..

وهنا يثب الابن الأوسط (كلود) متوترًا.. يجيء يمينًا ويسارًا.. كل عضلة في جسده تهتز.. ثم يقول:

- أنا.. أنا بحاجة إلى الخروج..!.. لابد..!

لابد؟..

مرحبًا بك يا صديقي في نادي المذءوبين.. تميل في مقعدك نحوه.. وعلى وجهك ترتسم علامة النصر:

- لماذا تحتاج إلى الخروج يا (كلود)؟

- لأن.. لأنني أريد ذلك!

- ولماذا تريد ذلك؟

- إن لي ارتباطات قـ.. قوية.. أنت لا تفهم..

- بالعكس.. أفهمك تمامًا.

ويجلس الفتى متوترًا تلك الجلسة التي هي إلى الوقوف أقرب.. وتبدأ الشكوك تحتشد في ذهنك.. إن الأب (جونز) لم يأت هذه الليلة، ومعنى هذا أنك حر في التصرف.. مطلق القرار..

ولكن.. عليك الانتظار أكثر حتى تتأكد..

* * *

وتمر الثواني.. تتجمع في صورة دقائق.. والدقائق تحتشد في شكل ساعات.. ساعة ونصف على وجه التحديد ذهبت فيها إلى الحمام أربع مرات لأنها البروستاتا كما يعلم الجميع..

علامات التوتر تزداد على (كلود).. يئن.. يمسك ذراعه.. ثم إنه يداري وجهه بعض الوقت.. و... ويسقط أرضًا..

يهرع (أوسكار) نحوه ليرفعه بين ذراعيه القويتين بينما الأم تولول من مقعدها المتحرك..

ينيمه (أوسكار) على الأريكة.. فتسير أنت مسرعًا لترى وجهه ذا العينين المغمضتين.. لا جدال هنالك.. لم يكن وجه (كلود) مشعرًا كهذا من قبل.. لم تكن أسنانه حادة إلى هذا الحد.. ولم تكن له هذه المخالب.. ثمة تحول لاشك فيه يحدث الآن..

تمد يدك إلى جيبك وتخرج المسدس..

- ما هذا الذي تفعله يا أحمق؟

يدوي صوت الأب متسائلًا.. فترد وأنت تتراجع عن الفتى فاقد الوعي دون أن تبعد فوهة المسدس عنه:

- لا جدال هنالك أيها الأب.. إن ابنك مذءوب.. وهو من مزق جثة ابنتك منذ شهر.. ستتكفل رصاصتي الفضية بإنهاء المأساة بشرط أن تكونوا شهودي على هذا التحول..!

عندئذ تدوي الضحكات..

الجميع يضحك.. الأب حيث وقف جوار المدفأة.. (أوسكار) حيث جلس على الأريكة جوار أخيه.. وحتى الأم على مقعدها المتحرك..

وحين استطاعوا أخيرًا أن يتمالكوا أنفسهم، نظروا إلى وجهك المليء بالحنق.. وعادوا يضحكون..



يدوى صوت الأب متساءلا .. فترد وأنت تتراجع عن الفتى فاقد الوعى دون أن تبعد فوهة المسدس عنه :

- أنا لا أهذي - تقولها غاضبًا - انظروا إلى وجهه لتدركوا مبلغ صدقي!
قال الأب وهو يخرج يده من جيبه:
- هو هو هو!.. أنت صادق يا (كولبي).. هو هو!.. لكنك أبله!
عندئذ ترى مخالبه..، وترى شعر حاجبيه الذي يزداد كثافة..
وترمق الأم حيث جلست على مقعدها فتراها تعض على شفتيها بنابين حادين واللعاب يتساقط من فيها..
أما (أوسكار) و (جورج) فكان الشعر قد غطى وجهيهما تمامًا..
- ألم تفهم بعد يا (كولبي) إننا عائلة من المذءوبين؟.. وأن الداء انتقل إلينا جميعًا من (جورج) الشهر الماضي بعد ما قتل أخته وجرحنا جميعًا؟.. ألم تفهم بعد أنك وحدك في بيت موصد الأبواب وسط خمسة مذءوبين؟!
ستصرخ يا (كولبي) لكن أحدًا لن يسمعك..
ستطلق مسدسك.. ولكن ماذا تستطيع رصاصة فضية يتيمة أن تفعل؟!...
لقد انتهت مشاكلك مع البروستاتا... إلى الأبد..!
أنهى د. (لوسيفر) قصته المروعة وهو يهتز كاتمًا ضحكة.. ثم إنه أمسك أوراق (التاروت) اللعينة وشرع يطويها وينشرها بين يديه في الضوء الأخضر الكئيب..
كان (كولبي) يرتجف كورقة، ولم يفلح أحدنا في تهدئته.. وأدركت أنه يرى الموقف الآن بكل تفاصيله الرهيبة..
- كلهم مذءوبون؟
- كلهم!
- دون استثناء؟
- دون استثناء؟
ثم إن (لوسيفر) نظر نحوي.. وداعب القرط في أذنه.. ثم قال لي في لهجة محببة للنفس بصوته الساحر..
- الآن لم يبق سواك أي د.. (رفعت).. ولقد عهدتك لا تصدق حرفًا منذ جلسنا.. كمن يرى البهاء السماوي كاملًا ثم يأبى أن يؤمن..
قلت وأنا أنفث دخان التبغ في وجهه متظاهرًا بالثبات.
- نحن كمسلمين نأبى أن نصدق أن هناك من يعرف الغيب.. والمنجمون يكذبون ولو صدقوا..، إنها مسألة عقيدة إذا أردت رأيي.. وإيماني يعتمد على ألا أؤمن بأشياء كهذه..
- لكنك ستجرب (التاروت)..
- إن هي إلا لحظة وهن بشري.. فضول لا أكثر..
ابتسم وتبادل النظر مع (كلارتون)..
- أنت سمعت وعشت نهايات هؤلاء الجالسين..
- وماذا عن نهايتي؟
- إن الأمر فيما يتعلق بك يا د. (رفعت) لبسيط جدًا.. فأنت كهل وتعيش وحيدًا.. وأنت رجل مثقف تعرف جيدًا كل الأشياء المرعبة التي قد تحدث لكهل وحيد.. مثلك يا د. (رفعت)!

* * *

الحكاية السادسة

(خطوات في الردهة)

بطولة: د. رفعت إسماعيل

(نظرات خالية من التعبير، لكنها - في ذات الوقت - تقول الكثير جدًا..!)



الاسم : رفعت إسماعيل

السن : ٤٤ عامًا .

المهنة : طبيب بشري

وأستاذ جامعي .

الجنسية : مصري .

الحالة الاجتماعية :

ذئب عجوز متوحد .

الهوايات : بلا هوايات إلا إذا اعتبرنا التدخين هواية ، وحظـــه العاثر يوقعه دومًا مـــع مصاصي الدماء والموتى الأحياء والسحرة والمذءوبين . لكنه لم يحب هذا يومًا ولم يسع له . إن حياة (رفعت إسماعيل) لهي سلسلة طويلة لا تنتهي من التورط .

سمات شخصية : أصلع كحوض لأسماك الزينة ، نحيل كالقلم الرصاص ، معتل الصحة كمســـتعمرة درن كاملة ، يدخن كـ (برلين) حين دخلها الحلفاء.

ناولني د. (لوسيفر) أوراق (التاروت) كي أخلطها..
شعرت بقشعريرة حين لامست أناملي أنامله الباردة الصلبة..
الأوراق نفسها كانت ناعمة الملمس كالأفعى (أنا لم ألمس أفعى في حياتي لكن لابد أنها كذلك)..
تفوح برائحة لا سبيل لوصفها هي مزاج من التوابل والقدم والعطور الشرقية..
بدأت أركز ذهني - مخلصًا - في أي شيء.. لكن سدى..
ظل تفكيري مبعثرًا فوق رمال الاهتمامات البشرية..، وخطر لي للحظة أن هذا سيؤدي إلى فساد التجربة ثم تذكرت أن التجربة فاسدة من الأصل، ولن تنجح بأي منطق..
وفرغت من تقليب الأوراق فأعدتها له..
بدأ الرجل يفرز الأوراق على المائدة في تؤدة:
ورقة الموت الكئيبة أولًا..!..
نظر لي في تهكم لحظة.. ثم غمغم:
- قصتك تبدأ بالموت. فكيف تنتهي؟.. أعتقد أنك من أصحاب الباع الطويل في النحس يا صديقي!
- هذا ليس جديدًا على..
وشرع يتأمل باقي الأوراق..
ورقة المحاكمة.. ثم ورقة القمر.. ثم ورقة المشنوق...
قلت له متهكمًا:
- يبدو لي أنني سأقتل رجلًا ما حين يكتمل القمر.. وتتم محاكمتي وأعدم شنقًا!
- صه!
قالها لي في حزم.. وقد بدا لي كأنما يركز تفكيره بعنف.. ثم أردف:
- حسب التفسير السيكولوجي لهذه الأوراق.. أنت مضطر للتضحية ليعود ميلاد نفسك.. يجب أن تسمو بذاتك فوق الوجود المادي..
- هذا كلام عائم بلا رأس ولا ذيل..
- صبرًا.. إن السحر هو التفسير الوحيد الذي أركن إليه هنا..
وشرع يحكي لي ما يرى..

* * *

- أنا مشرفًا على رحلة طلابية؟!
هكذا هتف د. (رفعت) وهو يقرأ اسمه الذي أرسلته له رعاية الشباب بالكلية مطالبة إياه بأن يكون مسئولًا عن رحلة طلابية إلى القناطر الخيرية..
شرع الرجل يولول ويصرخ.. فهو آخر من يصلح لهذه المهمة السقيمة بين كل أساتذة الكلية..
لكن هؤلاء القوم كانوا مصرين كالكابوس.. وقالوا له كلامًا لا أول له ولا آخر عن علاقة الطالب بالأستاذ، وعن الأبوة، وعن الدور الريادي للأساتذة.. و....

وهكذا وجد العجوز (رفعت إسماعيل) نفسه جالسًا في مقعد خلفي من الحافلة يصغي لهرج الطلبة ومرجهم، وقرع الطبول وتصفيق الأكف..

وتلك الأغاني السخيفة المبتذلة التي يرددها كل الطلاب في كل الرحلات منذ كان هو نفسه طالبًا..

الصبر يا د. (رفعت)!.. الصبر!..

ظل يردد هذا في سره وهو يمضغ لفافة تبغه العاشرة ويتسلى بقراءة صفحة الوفيات في الجريدة..

كان يرجو أن يتركوه وشأنه لكنهم لم يرحموه.. أقحموه في عشرات الألعاب السخيفة الجماعية على غرار (كيلو بامية) وسواها.. وكان عليه أن يبتسم على الرغم منه بينما هؤلاء الفتيان والفتيات المفعمون بحب الحياة إلى حد المرض يهتزون حوله مرددين الأغاني والدعابات..

بالنسبة لـ (رفعت) كان واجبه أمام نفسه يتلخص في أن يمنع طالبًا من أن ينتحر أو طالبة من أن تدهمها سيارة.. لكن المرح شيء اختياري لا يمكن إرغامك عليه بقرار حكومي..

* * *

وفي القناطر الخيرية واصل هؤلاء المهرجون عبثهم.

وفي ظل شجرة وارفة جلس د. (رفعت) يدخن ويرمق المهزلة البشرية الجارية أمامه..

ثم إنه من يده إلى جعبته فأخرج الكاميرا العاكسة التي كان قد اشتراها من (انجلترا) منذ عشرة أعوام.

لم يكن (رفعت إسماعيل) من هواة التصوير.. لكنه أحس بحاجته إلى استعمال الكاميرا قبل أن تتلف من طول إهمالها..

راح يتنقل هنا وهناك يختار كادرات متوازنة تعكس جمال الطبيعة، وإبداع خالقها.. لكنه - كلما ذهب إلى مكان - وجد الكادر يمتلئ بعشرات الأوغاد الذين لا تدري من أين يأتون. كلهم يبتسمون وقد كونوا الصفين الشهيرين: الصف الجالس على ركبتيه.. والصف الواقف خلفه، ولا بأس بواحد أو اثنين من الصف الخلفي يمدون إصبعين ليرسموا قرونًا فوق رءوس الغافلين في الصف الأول!.. والكل يرسم على وجهه بسمة بلهاء..

عليكم اللعنة جميعًا..!

كان د. (رفعت) يعرف الموجودين جميعًا، إن لم يكن بالاسم فعلى الأقل بالوجه.

لهذا أثار انتباهه شابان يقفان بمعزل عن الآخرين.. أحدهما شاب وسيم متأنق يعاني من ظاهرة (الألبينو) التي يسميها العامة بـ (عدو الشمس).. فهو أحمر اللون أبيض شعر الرأس والحاجبين والأهداب.. وعيناه رماديتان محمرتان..، والآخر كان فتاة بارعة الجمال ترتدي منظارًا أسود..

وكلا الشابين كان يمسك بكف صاحبه، وبدا أنهما ينأيان عن الجمع ولا يكفان عن تبادل الهمسات، أو الجلوس متقاربي الرأس في ظل إحدى الأشجار.. إنه الحب إذن..

مال (رفعت) على أذن أحد الطلبة سائلًا عنهما.. فهو لم يرهما من قبل وبالتأكيد لم يدرس لهما قط.. فأجابه الطالب:

- إنهما (عادل) و (هالة).. زوجان شابان من السنة الثالثة.. منعزلان تمامًا ولا يختلطان بأحد.. مهذبان..

- لم أرهما قط..

- جاءا من الإسكندرية هذا الشهر فقط.. وهما يثيران التساؤل دائمًا لكن أحدًا لم يستطع معرفة ما هو أكثر..

نظر د. (رفعت) إلى الزوجين الشابين حيث وقفا يتأملان بعض الزهور.. لم يستطع أن يخفي حسده لهما.. كلاهما شاب وسيم ويحب الآخر.. هذه هي السن التي يمكن للمرء فيها أن يستمتع بالحب ويتوحد بالطبيعة..، هو أيضًا كان تواقًا إلى الحب في هذه السن.. لكنه كان عاجزًا عنه.. مجرد طالب ريفي خجول عاكف على الدراسة.. وعلى تدبير حياته بالملاليم التي ترسلها له أمه من القرية.. وها هو ذا - بعد كل هذه الأعوام - عاجز عن الحب لأن القطار قد ولي بعيدًا..، حينما كان قادرًا على الحب لم يكن يملك.. وحينما ملك لم يعد قادرًا على الحب.

المهم.. رأى أن من واجبه نحو (عصفوري الحب) هذين أن يلتقط لهما بعض الصور خفية.. بشرط أن تبدو كأنها جاءت بالصدفة..

اتجه نحوهما وصوب الكاميرا..

وهنا حدث شيء غريب.. رآهما يفران من أمام العدسة كأنما هي فوهة بندقية مصوبة نحوهما..

غريب!.. لماذا يتصرفان هكذا؟.. وبدأ القلق يزحف إلى قلبه...

هل هما حقًا متزوجان؟.. ربما يزعمان هذا كي يظفرا بحرية أكثر، وعندئذ لن يرحبا بصورة فوتوغرافية تسجل علاقتهما..

ثم إنه استبعد هذا الاحتمال..

يخفيان علاقتهما عن من إذا ما كانا - بالفعل - يشهدان عليها مائة طالب وأستاذهم؟!..

هل هما متدينان من النوع الذي يؤكد تحريم التصوير؟.. لا يبدو عليهما أي نوع من التدين العادي أو المتطرف..

حاول مرة أخرى.. فمرات.. أن يلتقط صورة تضمهما..

لكن النتيجة واحدة في كل مرة.. أيقن (رفعت) أن هناك سرًا ما..

وفي المرة الأخيرة - بدافع العناد - اختبأ خلف كتف أحد الفتيان الواقفين أمامه.. والتقط صورة للشابين..

ولم يفته - عبر (محدد الرؤية) - أن يدرك أن الفتاة أدارت وجهها نحوه.. ورأته من خلف منظارها الأسود.. لكن بعد فوات الأوان.. ورآها تجذب ذراع زوجها لتلفت نظره..

انتهى اليوم وبدأت رحلة العودة في الحافلة..

وفي المقعد الخلفي جلس د. (رفعت) يوزع الابتسامات متظاهرًا بالسرور بينما الضوضاء تصم أذنيه. إن هؤلاء الحمقى يعتقدون أن السبيل الأوحد للتعبير عن الحياة هو الصخب.. لو أن (ديكارت) هنا لغير مقولته الشهيرة إلى (أنا أصرخ إذن أنا موجود).

ولم يفت د. (رفعت) أن يلاحظ أن الفتى عدو الشمس لم يكف عن اختلاس النظر إليه..

نظرات طويلة خالية من التعبير..

لكنها - في ذات الوقت - تقول الكثير جدًا..

* * *

إلى هنا انتهى د. (لوسيفر) من كلامه.. ونظر لي ليسألني سؤاله التقليدي:
- هل ثمة خطأ فيما قلته؟
لم أستطع أن أرد..
إن الحقيقة المروعة هنا.. الحقيقة التي لم أستطع أن أفندها هي أن كل ما قاله صائب.
أنا قمت بهذه الرحلة فعلًا قبل قدومي إلى (الولايات المتحدة) بأسبوعين.. وكل ما ذكره صواب بلا أدنى تحريف..
كنت آمل أن يكشف لي عن زيفه.. إذ إنني أنا الوحيد الذي يستحيل أن يعرف عنه أي شيء..
في حالة مسز (مازورسكي) و (ماري) كان الرجل قادرًا على معرفة قصتهما من د. (هندريكس) خاصة وهذا الأخير هو من أوصاهما باستشارة د. (لوسيفر)..
في حالة (كولبي) لا توجد مشكلة.. فهذا الأبله لا يحسن الاحتفاظ بسر وقتًا أطول من الوقت الذي تمتلئ فيه مثانته..
في حالة (هاري) ظننت أنه ثرثر بشيء ما للشقراء التي كان معها وهي نقلت فحوى الحديث إلى د. (لوسيفر)..
وفي حالة (جون ميلز).. من يدري؟.. لربما كان هو نفسه متعاونًا مع (لوسيفر) كما يحدث كثيرًا مع وسطاء قارئي الأفكار..
أما أنا.. فالحق أقول إنني لا أملك أدنى فكرة..
ابتلعت ريقي وبصوت غريب قلت:
- أرجو أن تستمر..!

* * *

قال د. (لوسيفر):
- أنت لم تحمض الفيلم بعد يا د. (رفعت).. أرسلته إلى المعمل ثم نسيت كعادتك كل شيء عنه..
لكنك ستتذكر أمره حين تعود إلى (القاهرة).. وستذهب لاستلام الصور.. وعندئذ ستجد ما يثير قلقك.
لن تجد هذين الشابين في الصورة التي التقطتها لهما...
ستجد الخلفية والمشهد الطبيعي وحتى كتف الفتى الذي احتميت به.. لكنك فيما عدا ذلك لن تجد شيئًا..
إلى البيت ستعود حائرًا يا د. (رفعت) عاجزًا عن الفهم..
ما معنى ذلك؟..
معناه - بكل بساطة - أن هذين الشابين من مادة مغايرة لنا.. مادة لا تعكس الضوء..
أنت تعرف من قراءاتك أن هذا هو شأن الأشباح والأطياف ومصاصي الدماء.. فهل ينطبق شيء من هذا على هذين؟..

إن أحدًا من طلابك لا يعرف من أين جاءا ولا أين يذهبان بعد ساعات الدراسة.. إذن يحتمل الأمر أي شيء.. إنهما يذهبان إلى مجرة أخرى أو تحت الأرض أو إلى تابوت خشبي.. لا فارق.. المهم أنهما كائنان مخيفان..

الأسوأ هنا هو ما تلاحظه من آثار عبث في شقتك..

هناك من دخل الشقة في أثناء سفرك.. لم يسرق شيئًا (وأنت لا تملك ما يسرق).. لكنه بحث بعناية وصبر.. عن ماذا؟..

الأمر واضح ولا يحتاج بحثًا.....

* * *

وفي المساء تحكم إغلاق الشقة عليك.. ثم تدخل فراشك..

وبرغم مئات الخواطر القلقة يتسرب النعاس إلى عينيك ببطء.. ببطء.. وتنام...

إلى متى؟.. لا أحد يعرف... لكنك تصحو في قلب الليل على صوت خطوات في الردهة..

تهرع - حافي القدمين - إلى باب الغرفة، وتصيخ السمع.. نعم.. لا جدال في أن هناك من يمشي في الردهة..

تفتح الباب بعد أن تخرج مسدسك من تحت الحشية.. وبحركة مسرحية تمد يدك إلى مفتاح النور..

وتضيئه فلا تجد أحدًا.. تسمع صوت الخطوات يبتعد متجهًا إلى غرفة المكتب.

فتهرع إلى هناك.. وتمد يدك إلى زر الإضاءة..

وهنا تراهما...

لقد تبدلا كثيرًا والحق يقال..

لم يعد شيء في وجهيهما يمت لوجوه البشر.. بل هما كتلتان هلاميتان تسيلان باستمرار ويقطر منهما سائل أخضر لزج إلى البساط..

أما يداهما فقد. تحولتا إلى نوع من المجسات كأيدي الأخطبوط.. لكنهما كانا يرتديان ثياب الذكر والأنثى..

وترى الذكر فيهما يقف وراء المكتب المفتوح منهمكًا في تقليب الأوراق.. أما الأنثى فتقف جوار خزانة الكتب تفرزها وتلقى كتابًا تلو الآخر على البساط..

- معذرة على تطفلنا يا د. (رفعت).. ومعذرة على أننا لم نكلف نفسينا بالتحول إلى صورتكم!



لم يعد شيء في وجهيهما يمت لوجوه البشر .. بل هما كتلتان

هلاميتان ..

كذا يدوي صوت الذكر وهو جالس على المكتب لا يتحرك.. ثم يردف وهو يمسك مجموعة الصور بين يديه الرخوتين:

- أنت تفهم أننا لا نرغب بتاتًا في أن يرى هذه الصورة أحد..! فالفيلم عاجز تمامًا عن تسجين انعكاس أجسادنا..

- مـ.. من أنتما؟

- إنه لسؤال عسير.. لكنك تستطيع القول إننا مخلوقات قادمة من أعماق الأرض.. ونحن مكلفان بتعرفكم ودراسة أحوالكم ومدى استجابتكم لاحتمال الغزو!

- هل.. هل تمزح؟

- إن ملامح وجهي تؤكد لك أنني لا أمزح.. أرجو أن تترك هنا السلاح جانبًا فهو عديم النفع مع الكتل البروتوبلازمية من أمثالنا..

ثم ينهض متجها نحوك:

- كنا نحاول أن نتأقلم معكم لكن فضولك جعلك تتسرع.. حاولنا العثور على هذه الصور مرارًا في أثناء سفرك لكن سدى.. والآن وقد تخلصنا من الصور..

يقولها وهو يحاصرك ما بين الجدار وبين زوجته:

- حان الوقت للتخلص ممن رأى هذه الصور..!

.....

* * *

انتهى د. (لوسيفر) من الكلام فشرع يجمع أوراق (التاروت) ويدسها في علبة لامعة أنيقة..

ثم نظر لي بعينيه الحادتين النفاذتين:

- هل هناك أسئلة؟

قلت محاولًا تمالك أعصابي:

- حسبتك ستقدم لي نبوءة منطقية..لكنك قدمت لي قصة من قصص الخيال العلمي من طراز (إنهم بيننا)..

- أنت عائد إلى (مصر).. ولسوف ترى ما إذا كان د. (لوسيفر) نصابًا آخر أم عبقريًا..

قال (كلارتون) وهو ينهض على قدميه بصعوبة:

- والآن يا سادة.. إذا لم يكن لديكم مانع.. إن د. (لوسيفر) منهك وبحاجة إلى قسط من راحة..

نهض (هاري) و (ميلز) و (كولبي) أما أنا فظللت أرمق (لوسيفر) في ثبات بعض الوقت.. ثم غمغمت وأنا أقابل نظرته الحادة بمثلها:

- إن لي سؤالا أخيرًا يا د. (لوسيفر)..

- أي شيء..

- من أنت؟

نظر لي في صمت بعض الوقت.. ابتسامة خفية تلاعبت على ركن فمه الأيسر.. ثم نهض دون كلمة أخرى مغادرًا المكان مع (كولبي) و (كلارتون)..

* * *

ارتديت حذائي وتأبطت ذراع (هاري) لأتمكن من المشي.. ثم غادرنا الصومعة إلى قاعة الاحتفالات الهائلة بالخارج، التي خوت على عروشها تمامًا، فلم يعد بها سوى اثنين أو ثلاثة من السكارى.. وأطفئت أكثر الأضواء.. وسادت الفوضى المكان من أطباق فارغة متسخة وزجاجات مبعثرة وأعقاب سجائر.. بينما الخدم يعملون جاهدين على تنظيف كل هذا..

إنها الساعات الأولى من فجر يوم جديد...

* * *

خاتمة الحلقة

(لأنه رجل لطيف طيب.. ولا أحد ينكر ذلك!)

مرت أيام علي أنا و (هاري) لا نتحدث عن شيء سوى ما كان في تلكم الأمسية الطويلة الشبيهة بكابوس..

بصعوبة كنا نصدق أن كل هذا كان حقيقيًا، وأننا حقًا كنا هناك مع هذا الرجل غريب الأطوار.. وسط هذا الحفل الشاذ..

وفي الصحف قرأنا خبر سفر د. (لوسيفر) العالم المجري الشهير في شئون ما وراء الطبيعة عائدًا إلى وطنه..

عندئذ فقط استطعنا أن نصدق أن كل هذا مر بنا..

* * *

جلست و (هاري) في ذلك الصباح المشمس نتحدث عن نبوءات د. (لوسيفر) الست لمن كانوا معه..

قلت لـ (هاري) وأنا أشعل لفافة تبغ وأريح ساقي على مقعد آخر في الحديقة:

- مهما قلت لي.. أنا لا أؤمن بقدرة مخلوق على معرفة الغيب.. هذا الرجل كان يهذي بما لا يعلم..

- كان دقيقًا في شرح كل ما يدور بخلدنا.. أنت تذكر هذا..

اعتدلت في جلستي.. وقلت:

- أعترف أن هذا صحيح.. لست واثقًا من أنكم لم تثرثروا فيما يتعلق بكم، لكني واثق من أنني لم أفتح فمي..، في بلدي يوجد عدد من الدجالين الذين يزعمون قدرتهم على الاتصال بعالم الغيب.. وأكثر هؤلاء يعتمدون على اللحظات التي يثرثر فيها (الزبائن) قبل أن يدخلوا لهم..، ثم هم يعتمدون على الفراسة والحدس الشخصي إلى حد كبير.. إن دخول امرأة يعني في الغالب أنها تشكو من العقم.. ودخول فتاة قبيحة متقدمة في العمر يعني أنها تشكو من قلة الخطاب..

ابتسم (هاري) في تهكم:

- لا أحسب هذا يسري هنا.. فلا شيء في ملامحي يوحي بأنني فقدت دمية (فودو).. ولا شيء في ملامحك يوحي بأنك قمت بتصوير شابين غريبين..

ثم أضاف وهو يتخلل بأنامله شعره الأشقر:

- هل خضعنا جميعًا لتنويم مغناطيسي أمكنه معه أن ينتزع أسرارنا من الصدور؟..

- لا أظن.. ليس التنويم المغناطيسي الجماعي سهلًا إلى هذا الحد..

- ربما هو شيء دسه لنا في القهوة؟

- حتمًا لا.. أنا لم أحتس قهوته.. وكذلك (كولبي)..

ثم أضفت وأنا أرمي عقب السيجارة بعيدًا:

- حتى لو عرف بصيصًا من الحقيقة فهو غير قادر على صنع هذا المزيج المحكم من التفاصيل.. (مارشا) وابنها.. مسز (مازورسكي) وسيارتها الصغيرة وعاداتها في شرب اللبن.. تفاصيل رحلة يقوم بها طلبة طب مصريون إلى القناطر.. مستحيل أن يلفق كل هذا وإلا كانت هناك أخطاء فاضحة..

- إذن ما رأيك؟

نظرت إلى وجهه.. وقطبت حاجبي:
- رأيي أن هذا الـ (لوسيفر) يقرأ الأفكار حقًا..

* * *

أما عن الجانب التنبؤي من عمله.. فلا أدري..
لقد كانت كل حكاية من حكاياته تنقسم إلى جزأين: ما حدث وما سيحدث..
الجزء الأول: ينتهي دائمًا بجلسة قراءة الطالع هذه.
والجزء الثاني: يبدأ بها..
الجزء الأول: صادق ودقيق ولا تفسير له سوى قراءة الأفكار..
الجزء الثاني: لا يمكن معرفة دقته.. لكنه كان ينتهى دومًا بنصيحة.. والآن تعال نجر إحصائية لما تنبأ به الرجل:
١ - قصة مسز (مازورسكي): تنبأ لها بالموت على يدي ابنتها مصاصة الدماء.. ونصيحته واضحة: يجب أن تقتل ابنتها قبل أن تقتلها.. أو على الأقل ترسل في طلب ابنيها ليكونا معها..
٢ - قصة (جون ميلز): القصة الوحيدة التي لم تنته بالموت. إنه ينصح الرجل بالإقدام على التجربة.
٣ - قصة (ماري جوليم): تلقى (ماري) حتفها على يد (جاك السفاح) الذي عادت روحه تعيث فسادًا في عالمنا.. النصيحة هنا هي حرق (هارييت) التي يوحي كل شيء بأنها ساحرة.
٤ - قصة (كولبي): يموت على أيدي أسرة من المذءوبين الإيرلنديين.. وعلى (كولبي) أن يتحاشى اللقاء يوم ١٤ يوليو أو يتسلح بعدد أكبر من الطلقات الفضية.
٥ - قصة (هاري): في هذه القصة لا يموت (هاري) بل زوجته الحبيبة - وهذا أسوأ - وعليه أن يسترد دمية (الفودو) قبل فوات الأوان من الأم (مارشا).
٦ - قصتي أنا: ألقى حتفي بيد غريبين من أعماق الأرض.. ولا أدري كيف أتحاشى هذا أو أنجو منه.
ست قصص وخمسة موتى بأبشع الأساليب وأغربها.. كأن أحدًا لا يمكن أن يموت في حادث سيارة أو بنوبة قلبية.
وإنني لأسائل نفسي..

* * *

بعد أسبوع بدأت أشياء كثيرة تتضح..
الحادث الأول هو حادث غريب تحدثت عنه الصحف النيويوركية بالتفصيل:
امرأة عجوز تعيش مع ابنتها وحيدتين في الدار، قامت هذه المرأة بقتل ابنتها الشابة مستعملة وتدًا خشبيًا (لأنها مصاص دماء) على حد قولها.. وقد أسلمت نفسها للشرطة فور الانتهاء من عملها المقيت هذا.
أثبتت تحريات الشرطة أن الفتاة كانت مدمنة مخدرات، وقد أصابها ذلك الداء الزنيم من صديقاتها. لقد كانت تخبئ مخزون المخدرات في مكان ما بقرب البيت.

هكذا..

على ضوء هذا الخبر يمكننا تفسير تصرفات (لويز) المريبة كلها.. شحوبها.. خروجها الليلي الغامض.. وحتى أثر العضة في معصمها.. إنها أسنانها هي بينما كانت الحاجة للمخدر تمزقها!..

الخبر الثاني هو: مصرع مدير شركة في أحد أزقة (نيويورك) برصاصة في رأسه.. كان الاعتقاد السائد هو أن عصابة ما قد قتلته ورمت جثته هناك، لكن الطب الشرعي أكد من احتراق الجلد واتجاه الطلقة أن الحادث كان انتحارًا.. كذلك أثبت اختبار (المولاج) أن آثار النترات موجودة على أصابع الجثة مما يؤكد أن مصرعها هو انتحار، وبالتالي لا يستحق المتوفي قيمة بوليصة التأمين على حياته والتي كان سيحصل عليها لو مات بطريقة طبيعية.

الخبر الثالث هو: محاولة فتاة شابة إحراق صديقتها إذ أوثقتها وقامت بسكب البنزين فوقها.. وكانت على وشك إشعال عود ثقاب حين استغاثت الضحية بالجيران. قالت المتهمة إنها تتهم صديقته بالتسبب في مصرع صديقة ثالثة لهما. ومن المعروف أن هذه الصديقة الثالثة قد هاجمها مختل نفسي في أحد الأزقة وخنقها بحبل.

الخبر الرابع: محاولة مشعوذ أن يغتال أفراد أسرة إيرلندية زاعمًا أن هناك مسخًا ذئبًا بين أفرادها.. بل إنه كان يعتقد أن الأسرة كلها مسوخ ذئاب وأعد لهم مسدسًا محشوًا برصاص فضي..، ويبدو أن هناك رجل دين أقنعه بهذا..

النتيجة: تم عرض المشعوذ على الطبيب النفسي..

* * *

قلت لـ (هاري) شاعرًا بالزهو:

- هل رأيت؟.. كل تنبؤات (لوسيفر) كانت زائفة.

هز رأسه في حيرة وقال:

- بالفعل.. كلها أوهام بلا أساس..

- لقد أجاد هذا الرجل زرع الشكوك في نفوسنا.. الشكوك التي لا سبيل إلى دحضها.. وغدا كل واحد منا على استعداد لعمل أي شيء كي ينجو.. وها هي ذي النتيجة:

مسز (مازورسكي) قتلت ابنتها المدمنة بدلًا من أن تعالجها.. إن سلوك مدمن المخدرات لمريب، ويمكن الإيحاء بسهولة لضعاف الشخصية أن مدمن المخدرات قد أصيب بمس شيطاني..، نفس الشيء حدث مع (ماري) التي حاولت أن تحرق (هارييت) على أساس أنها ساحرة.. لم تكن (هارييت) سوى فتاة عابثة ماجنة.. ربما هي من حرض (لويز) على الإدمان.. لكنها لم تكن ساحرة..، أما مستر (ميلز) البائس ذو طبيعة المقامرين.. فكان من السهل إقناعه بالتمادي في لعبة هي الانتحار بعينه.. وقامر المسكين مقامرته الأخيرة وخسر.. وتخلص الشيطان (كلايد) من جثته.. وها هو ذا (ميلز) قد خسر حياته ومبلغ التأمين.. وظفر بالجحيم الأبدي..، أما عن (كولبي) فمن حسن الحظ أنهم أوقفوا هذا المعتوه قبل أن يسبب مذبحة.. وماذا عنك يا (هاري)؟

تحاشى نظرتي.. وغمغم:

- مهما كان.. سأسترد هذه الدمية!

- هذا من حقك لو أنها كانت عند (جابرييل) حقًا.. لكني أنصحك ألا تتهور - وأنت كذلك - في محاولة الحصول عليها..

ضيق (هاري) عينيه.. وتساءل:

- ولكن لماذا حاول (لوسيفر) دفعنا جميعًا إلى الهلاك؟..

قلت في ثقة وأنا أحك رأسي:

- لأنه - كما يقول اسمه - شيطان!

* * *

نعم.. كان (لوسيفر) شيطانًا..

شيطانًا يتسلى بتحريض الأبرياء على الشر.. وإثارة الهلع في نفوسهم من أبنائهم... من أصدقائهم..

يدفعهم إلى إلقاء أنفسهم إلى التهلكة..

لقد بذر بذور الشر في نفوسنا.. ثم رحل تاركًا لها أن تورق وتغدو أشجارًا سامقة ترتوي بالدماء والكراهية.

نعم.. كان (لوسيفر) شيطانًا.

ودليلي على هذا هو رد سفارة (المجر) على ما نشر بالجريدة، من أنها لا تعرف مواطنًا لها يدعى (فرانتز لوسيفر)..

إذن فمن أين جاء هذا الرجل؟..

قالوا إنه سوفييتي فار من وراء الستار الحديدي.. وقالوا إنه من (أمريكا اللاتينية)..

لكنني لا أرى داعيًا لكثرة التساؤل.. ولا تخبط الآراء..

لقد جاء هذا الرجل من سقر..

* * *

وهكذا تنتهي حكايات (التاروت).. أو حلقة الرعب الثانية..

تسألونني عما حدث لي أنا بصدد نبوءتي..

طبعًا لن أعرف شيئًا حتى أعود إلى (مصر) وأقوم باستلام الصور الفوتوغرافية إياها..

وإن كنت أتوقع بالفعل شيئًا غير مألوف بصددها..

ستكون هذه هي الأسطورة القادمة..، أما عن حلقة الرعب الثالثة فلكم أحكيها بعد عشر قصص أخرى كما تعودنا..

قد ألمح لكم بجزء منها الآن..

ولكن هذه حلقة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

حكايات التاروت

الحكاية الأولى (ماذا أصاب لويز؟)

الحكاية الثانية (اللعبة)

الحكاية الثالثة (فودو)

الحكاية الرابعة (والآن نرجوكم الصمت!)

الحكاية الخامسة (مذعوب!)

الحكاية السادسة (خطوات في الردهة)

خاتمة الحلقة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

حكايات التاروت

عدد من الغرباء .. وأوراق لعب .. وساحر غريب الأطوار .. من صنعها ؟! .. من لعب بها أول مرة ؟! لا أحد يدري.. لكن هذه الأوراق ستحدد مصائرهم .. وستكون هذه المصائر شنيعة .. شنيعة إلى حدّ لا يُوصف!!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة عدو الشمس

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[1←]

(اسمعوا وعوا) هكذا كان المنادون في الأسواق يجمعون القوم.

بالفعل صدر هذا الكتاب بعد عامين.. وبعده بعامين أخرين صدر كتاب الإنجليزي (ألفريد دوجلاس). [2←]

[←3]
هذا الأسلوب من أقدم الأساليب للسحر في التاريخ، ولسوف نقرأ عنه أكثر حين نطالع (أسطورة الطوطم) [د. رفعت إسماعيل].

بسبب هذا الكتاب الأحمق أعدمت محاكم التفتيش نساء بريئات كثيرات. [4←]

تحدثنا بشيء من التفصيل عن هذه الأسطورة في (أسطورة الرجل الذئب). [←5]

روايات مصرية للجيب

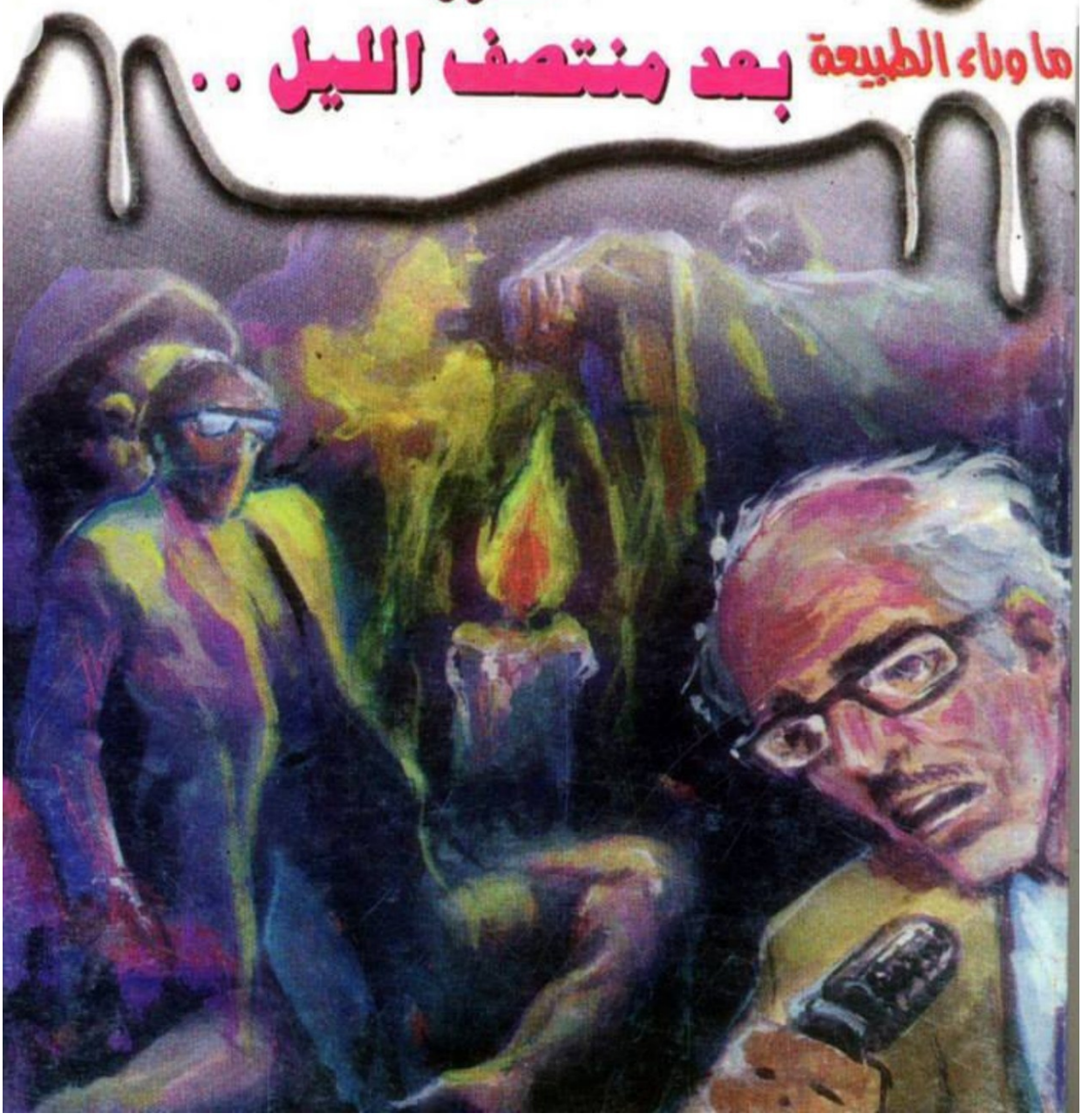
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

30

أسطورة

هاوية الطبيعة

بعد منتصف الليل ..



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة..

فرغت من مطالعة بعض مجلات أمراض الدم التي جاءتني بالبريد اليوم.. لشد ما يهرول الطب بخطوات مذهلة! إن التوقف عن الاطلاع يومًا واحدًا يعني أن يسبقك الآخرون بعام كامل..

مرة أخرى تسألونني عن جدوى الدراسة العجوز على المعاش، يحيا وحيدًا ويخطو إلى القبر بخطوات تماثل خطوات الطب.. إن لم تكن أسرع..

أقول إنني أحترم العلم حقًّا.. والميت الحق عندي هو من كف عن التعلم.. إن دنو الموت يضايقني حقًا لأنني لن أعرف أبدًا هل توصل (مونتانييه) الفرنسي إلى إيجاد مصل (الإيدز) أم لا؟ وهل صار لقاح البلهارسيا صالحًا للاستخدام التجاري؟ وهل يمكنهم تقسيم الكبد المزروع إلى ستة أجزاء تناسب ستة مرضى؟

أنتم - بعون الله - ستعرفون.. أمّا أنا فاحتمالات ذلك واهية جدًا.. لهذا أكتفي بأن أعرف آخر شيء عرفوه... حتى آخر دقيقة قبل موتي..

الآن حان وقت الثرثرة....

لقد أرحتكم مني - إلى حدٍ ما ـ ثمانية أعداد كاملة.. منذ أن زأر (المينوتور) في متاهته.. وحتّى هلك (الجاثوم) في مخبئه..

البعض لم يحبّ هذه الإجازة.. والبعض أحبها..

لكني - كما قلت مرارًا - أزور غبًا لأزداد حبًّا.. وخير لي أن يُقال لماذا لا يكتب؟ من أن يُقال: لماذا يكتب؟

سأعود لكم من جديد.. وعسى أن يكون قرارًا صائبًا..

لكني سأكرر موضوع الخطابات هذا كلما تراكمت عندي..

إن الجدّة والتشويق هما غرض السلسلة، ولا دخل الشخص معين بهذا الغرض.. وإلا لصار اسم السلسلة (مذكرات رفعت) أو (أبو الرفاع يحدثكم)....

القصة القادمة هي عدد خاص جدًا.. إن حلقة الرعب الثالثة توشك على البدء.. فهل جميعكم هنا؟

لا بأس.. في هذه المرّة لن أحكي شيئًا.. بل سأستعمل شريط تسجيل قديمًا عندي.. يعود إلى العام ١٩٦٩ و ١٩٧٠

ومعًا سنستمع إلى حلقات مختارة من برنامجكم..

(بعد منتصف الليل)...

الصفحات التالية هي تفريغ لحلقات مختارة من البرنامج الإذاعي (بعد منتصف الليل)، الذي كان يُذاع في الواحدة صباحًا أسبوعيًا، ونال شعبيّة كبيرة في عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٠، ثم منعت الرقابة إذاعته بسبب تأثيره السلبي على نفسية الأطفال.

مقدمة البرنامج الثابتة

صوت صرير باب ينفتح ببطء..

ثم صرخة امرأة..

بعدها تبدأ موسيقا فاخرة متوجسة..

ويدوي صوت المذيع هادرًا بلهجة منذرة:

بعد منتصف الليل

عزيزي المستمع..

هل لديك خبرة مخيفة بعالم ما وراء الطبيعة؟ هل هناك خطر معين يطاردك؟ هل ترى أشياء مريبة لا يمكن تفسيرها؟ لاتتردد.. ارفع سماعة الهاتف واطلب رقمنا فورًا.. سنصغي إليك.. ونحاول حل مشكلتك وإزالة مخاوفك.. مع ضيفنا الدكتور (رفعت إسماعيل)..

عزيزي المستمع.. أنت لست وحدك!

(تتعالى الموسيقا من جديد.. ويبدأ ذكر أسماء الفنيين).

تقديم: شريف السعدني

الهندسة الإذاعية: أسامة نجم.

إخراج: جلال القصاص.

(أخيرًا تخفت الموسيقا وتبدأ الحلقة)...

* * *

بـعـد منتصــف الليــل

(صوت ضحكة.. ثم صوت [شششش!] يمنع صاحب الضحكة من الاسترسال).

شريف:

أعزائي المستمعين.. يسعدني أن ألتقي معكم في هذه الساعة المبكرة من صباح الجمعة.. أعرف أن أكثركم يقاوم النعاس الآن إن لم يكن قد نام فعلًا.. لكني أعدكم بأنكم ستفتحون عيونكم إلى أقصى اتساع لها.. فهذا البرنامج يتحدث عن كل ما هو غريب وغير مألوف.. وله مزية أخرى مهمّة هي أنكم أنتم من يصنعون الإثارة والطرافة.. إن قصصكم هي وقود آلة الرعب التي لن تكف عن العمل من الآن فصاعدًا..

يسرني أن أقدم لكم ضيفًا دائمًا لهذا البرنامج.. د. (رفعت إسماعيل) الذي بدأ يحرز شهرة لا بأس بها بعد ما كتب وقيل عن خبراته في عالم ما وراء الطبيعة.. مرحبًا بك يا دكتور..

رفعت:

مرحبًا بك يا (شريف)..

شريف:

أرجو ألا نكون قد أثقلنا عليك بالسهر إلى هذه الساعة؟

رفعت:

إنني وطواط آدمي لا ينتعش إلا ليلًا.. والليل على كل حال مناسب تمامًا لما ننوي التحدّث عنه.. ثم إن له مزية أخرى.. من المؤكد أن الأطفال جميعًا قد ناموا...

شريف:

بعضهم لم يفعل..

رفعت:

هذا البعض لا يمكن إفزاعه على كل حال.. فهو مرعب بما يكفي..

شريف:

(يضحك في مجاملة).. هاها! يقولون يا دكتور إنك لا تترك سرًا غامضًا أو مرعبًا إلا وتقحم نفسك فيه إقحامًا.

رفعت:

أعترف بأنني لا أتعمد البحث عن المتاعب.. يقول الشاعر الألماني (فلهلم بوشه): لا أحد يشتري الفئران.. الفئران تهرع من تلقاء نفسها إلى دارك!

لقد حاولت دومًا أن أكون شخصًا عاديًا كالآخرين لكني فشلت.. أعتقد أنني مصاب بنوع خاص من النحس..

شريف:

وهل حقًّا تعتبر نفسك هادمًا للأساطير؟

رفعت:

لا أظن.. كنت أعتبر نفسي كذلك يومًا ما.. ثم بدأت أوقن أنني لا أعرف شيئًا عن أي شيء.. إن الحياة غامضة حقًّا.. والتجريب هو المقياس الوحيد لمعرفة كنه أسطورة ما.. لكني..

شريف (مقاطعًا):

حتى لو كانت الأسطورة؟

رفعت (في ضيق):

لا تقاطعني.. لكني لم أصادف حتى اليوم أسطورة تصطدم بالدين وتثبت صحتها.. قد تصطدم بالعلم وهذا يحتمل الجدال.. لكنّها لا تصطدم بالدين أبدًا إلا واتضح أنها أكذوبة...

شريف:

ما هو في رأيك الهدف المرتقب من برنامجنا هذا؟

رفعت:

لا هدف سوى أن أحصل أنا على مكافأة حضوري هنا.. وتحصل أنت على راتبك.. إنّه هدف لا بأس به أبدًا.. لكنّ - إذا حاولنا أن نتناسى الماديات ـ فإنّه يوجد هدف مرموق في حد ذاته هو أن نشعر بالرعب..

شريف:

هلا أوضحت لنا هذه النقطة بشكل مفصل؟ ما هي جدوى أن نخاف؟

رفعت:

يقول مخرج أفلام رعب شهير: إننا نحب أن نجرب أسوأ الأشياء على الإطلاق.. حتى إذا انتهى العرض شعرنا بسرور عارم لأننا مازلنا أحياء وبصحة جيدة.. فهذا يشعرنا بالتفوق وقدرتنا على الاستمرار...

شريف:

أعترف بأنها نظرية عسيرة التصور...

رفعت:

يسمون المبدأ كله باسم Catharsis أو (تطهير).. فانت حين ترى الرعب تغسل من مخاوفك الداخلية الكامنة.. والأمر على كل حال لا يخلو من صدق.. فكل الأطفال يعشقون قصص (الغولة) وثرثرة الأمهات عن (العاو).. أفلام الرعب تحقق أعلى الإيرادات.. وبيت الأشباح في مدينة الملاهي مكتظ دائمًا.. بل إنني أرى هذا الميل في أشياء بسيطة.. في زحام المتزاحمين حول حادث سيارة.. وفي كل من المتجمهرين نزعة ماسوشية خفية لتعذيب النفس برؤية مشهد الضحايا المشوهين.. بعدها يعود كل منهم إلى داره وقد تم تطهيره[1]!

شريف:

وهل تختلف ميول الجمهور حسب المتغيرات الاجتماعية؟

رفعت:

يقال إن خوف أمريكا من الغزو الشيوعي في الخمسينات ـ الفترة التي يسمونها بـ (المكارثية) - أدت لانتشار قصص الغزو الخارجي والاستحواذ الشيطاني وتيمة (هل أمك هي أمك حقًّا؟).. إنها تيمة شهيرة ومفزعة.. والمعنى واضح: هل يأتي يوم يتحول فيه جيرانك وأهلك إلى شيوعيين؟

شريف:

هل تعني أن صناع هذه القصص كانوا يريدون قول هذا؟

رفعت:

لا بالطبع.. لقد قالوا هذا دون أن يعنوه.. لقد تحركوا لا شعوريًا في تيار الوجدان المحرك للمجتمع.. وقدموا أعمالًا فنية تكلمت تلقائيًا.. إن الشيوعيين خطر داهم على المجتمع الأمريكي.. لكنهم - وهذا المخيف - يبدون مثلنا بالضبط....

شريف:

هل ثمّة أمثلة أخرى؟

رفعت:

يقولون ـ مثلًا ـ إن قصص مصاصي الدماء تنتشر حين يسود الرخاء والاستقرار الاجتماعي.. في حين تسود قصص (الزومبي) و(المذوءبين) في فترات القلاقل والتضخم والثورات.. إن مصاصي الدماء في القصص يكونون متأنقين أثرياء وراقين إلى حد كبير.. أمّا المذءوب فهو رمز للطبقة العاملة المطحونة.. وكذلك الزومبي هو في وضع اجتماعي أكثر سوءًا...

قصص الأشباح تزدهر كلما ازداد الواقع ضيقًا وبؤسًا.. فهي وسيلة لا بأس بها للفرار من الواقع..

شريف:

هل الرعب هو فقط مصاصو الدماء والمذءوبون والأشباح والبيوت المسكونة؟

رفعت:

بالطبع لا.. إن الخيال الإنساني وغد لا يهمد أبدًا.. وحيث يوجد خيال يوجد خوف.. والرعب يبدأ معنا منذ ميلادنا.. هل تذكر جولة المعلم بين الصفوف في المدرسة الابتدائية ليختار طلبة عشوائيين، يسألهم سؤالًا عسيرًا؟ العصا في يده.. وخطواته تدنو منك.. وأنت تحاول ألا تنظر نحوه حتى لا يراك.. إنّه يدنو.. قلبك يوشك على التوقف.. وفجأة تشعر بيده الغليظة على كتفك.. وصوته الصارم يقول: والآن لنر ما سيجيب به هذا الحمار!!

شريف:

يا للهول يا د.(رفعت)! إنك قد أعدت لي الرعب من جديد!

رفعت:

هكذا ترى أن الرعب ليس هو بالضرورة المومياوات العائدة للحياة..

شريف:

أنا أتحدث عن الرعب الميتافيزيقي أساسًا..

رفعت:

حتى هذا الرعب له أبواب لا تنتهي.. أبسطها ما تشعر به حين تعود لدارك ـ وأنت تعيش وحيدًا ـ لتجد أن جهاز التلفزيون مفتوح أنت تعرف جيدًا أنك أغلقته قبل خروجك! عندها تشعر بهذه الرجفة الغامضة.. وتغمغم في قلق: ثمّة شيء ما يحدث هنا!

شريف (في قلق):

الواقع أنني مستمتع بهذا الحديث.. لكننا بانتظار المكالمة الهاتفية الأولى.. ولا أدري لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟ إن المستمعين لم يألفوا البرنامج بعد، لكنهم سيتسابقون بعد قليل على

الاتصال.. ثق بهذا...

رفعت (في استرخاء):

أنا لست قلقًا.. مادمت سأنال أجري في جميع الظروف..

شريف:

دعني أسألك يا د. (رفعت).. يقولون إنك إنسان ملول حقًّا.. وتكره الإصغاء إلى ثرثرة الناس.. فكيف قبلت أن تأتي معي ها هنا؟

رفعت (يضحك):

أنا كما قلت.. لكني وجدت فيك أشياء كثيرة أفتقر إليها يا (شريف).. فأنت شاب ووسيم.. ولامع.. إنك ذلك الشاب الذي كنا نراه مرسومًا في كتب القراءة القديمة، بنظافته وشعره المصفف وأظفاره المقلمة وجلوسه معتدل الظهر على (القمطرة).. ثم إنك متحمس.. وأنا لا أفهم كيف يتحمس الناس لأي شيء.. لهذا كان أقوى مني أن أرفض عرضك.. فأنت مخلوق جدير بدراسته كخلد الماء وذبابة (تسي تسي)..

شريف:

لا أدري أهذا مديح أم سباب أقاضيك عليه.. لكنى أشكرك على كل حال.. بالمناسبة: ما هي (القمطرة)؟

رفعت:

يبدو أنه المكتب.. كانت كتب القراءة القديمة تحتم أن (تضع الحُلة فوق المشجب) و(تضع القرطاس فوق القمطرة).. ثم (تتبلغ ببعض الخشنكان).. أي تأكل البسكويت!

شريف:

لا أدري.. هل ستكون الحلقة الأولى كلها حوارًا بيننا؟ إنني أنتظر المكالمة الأولى بفارغ الصبر، وأعتقد أنها لن تأتي اليوم.. ربما....

(صوت رنين الجرس المُلِح).

لحسن الحظ! الحمد لله على أنّ هناك واحدًا ساهرًا في الجمهورية.. آلوه؟

صوت فظ:

لقد فعلتها!

شريف:

فعلت ماذا بالضبط؟

الصوت:

كل ما أمرت به! كان صراخهم شنيعًا لكني لم أرحمهم!

شريف لـ (رفعت):

تبدو بداية طيبة حقًّا.. مارأيك؟

رفعت (في ملل):

إنني لشديد الحماس.. لكني لا أعرف كيف أظهر حماسي..

شريف:

هلًا عرفنا من المتكلم من فضلك؟

الصوت:

كيف؟ ألا تعرفني يا (جودة)؟

شريف في (امتعاض):

(جودة)؟

الصوت:

أنا الحاج (ششماوي).. لقد كسبت القضية.. ولن أتنازل عن حقي مهما حدث.. كما أمرتني بالضبط.. إن الحلوان عندي.. فقطعة الأرض هذه....

شريف:

لحظة.. لحظة.. يا حاج (ششماوي)! الرقم خطأ.. هذا رقم الإذاعة.. إننا.....

الحاج:

معذرة.. فصوتك هو صوت (جودة) بالضبط.. كليك!

شريف (في خيبة أمل):

ظننت أننا سنبدأ العمل.. ليست قضايا الأراضي ملائمة لهذا البرنامج.

رفعت:

كل يبكي على ليلاه.. وبالتأكيد يتساءل الرجل عن سر بقاء هذا المجنون ساهرًا بعد منتصف الليل مادام ليس هو (جودة)..

(رنين الهاتف من جديد)..

شريف:

عسى الا يكون هو من جديد... آلو.. برنامج (بعد منتصف الليل).. هل تريد سرد مشكلتك للدكتور (رفعت إسماعيل)؟

صوت طفل:

أمس جاءت طانط (ناني) عندنا.. وكان (ميدو) معها!

شريف (في رقة مصطنعة):

من تريد يا صغيري؟

الطفل:

لقد سرق (ميدو) مسدسي.. لكني ركلته في مؤخرته..

شريف:

آلو! ضع السماعة حالًا أيها الطفل المتشـ..... يا صغيري العزيز!

صوت امرأة:

معذرة يا أستاذ.. عيب يا (زيزو)! معذرة يا أستاذ.. فابني لا يأكل إلا إذا تركت له الهاتف ليعاكس من يريد.. ويختار أرقامًا عشوائية!

شريف:

لا عليك.. إنّه يملك حاسة إعلامية لا بأس بها... (كليك)..

رفعت:

ربما كان تركه ليموت جوعًا حلًا أكثر إغراء.. إن بعض الأطفال يكونون مرعبين أكثر من كل ما ننوي الكلام عنه...

شريف (في ضيق):

مكالمتان خاطئتان! إن هذا يفوق قوانين المصادفة..

رفعت:

لا شيء يتم بسهولة معي أبدًا.. ولعل كوني أتوقع الأسوأ دائمًا قد جعل الحياة بالنسبة لي حشدًا من المفاجآت السارة! فالأمور لم تكن بهذا السوء الذي حسبتها به قط..

(رنين جرس الهاتف)..

شريف (متوجسا):

هذه المرّة.. هذه المرّة.. لو لم يكن مستمعًا فلسوف تنهار أعصابي.. آلو! من يتحدث؟

صوت امرأة:

أنا (نهلة).. أليس هذا برنامج (بعد منتصف الليل)؟

شريف (يتنهد):

بالتأكيد يا سيدتي..

نهلة:

أحاول الاتصال منذ عشر دقائق كاملة دون جدوى..

شريف:

كانت هناك مكالمتان قبلك كما تعلمين.. لا بد أن المذياع جوارك؟

نهلة:

للأسف لا.. هل د. (رفعت) معك؟ أخبرني البواب أنه هنا..

شريف:

حتمًا.. إنّه يسمع ما تقولين..

نهلة:

قل له إنّه نسي صنبور الماء مفتوحًا، وأغرقت المياه شقته! لقد اضطررنا إلى تهشيم باب الشقة.. أنا زوجة الأستاذ (زكريا) ساكن الشقة السفلى.. كليك!

شريف (في نفاد صبر):

هل ترى أن تذهب لتنقذ سجادة الصالون؟

رفعت:

لا داعي.. لقد فات الأوان.. وهم قد اقتحموا الشقة لإغلاق الصنبور.. فلا فائدة من إفساد البرنامج...

شريف:

يخيل إلى أنه قد فسد بالفعل.. إن النحـ....

(رنين جرس الهاتف)..

آلو! من معي؟

صوت امرأة:

هل هذا هو برنامج (بعد منتصف الليل)؟

شريف:

حتمًا يا سيدتي.. هل لي أن أعرف من أنت؟

المرأة:

لا أنوي الإفصاح عن ذلك.. إن اسمي لا يعني أحدًا سواي.. وعلى كل حال يمكنني أن أحكي قصتي مباشرة...

شريف:

كلى آذان مصغية.. وضيفنا كذلك....

المرأة:

حسن.. تبدأ القصة كما يلي....

* * *



الحلقة الأولى

الزوج الذى عاد

تحكيها : مجهولة الاسم

الحلقة الأولى
(الزوج الذي عاد)

تحكيها مجهولة الاسم

«لقد ارتكبنا خطأ جسيمًا يا سيدتي.. خطأ من النوع الذي لا يكفي الندم لإصلاحه.. خطأ لا يكفي إغلاق نوافذنا وأبوابنا ليلًا كي نتفادى عواقبه!»

المرأة:

أصارحك القول يا أستاذ (شريف) إنني خائفة..

شريف:

أرجو أن تتجاهلي وجودي وتوجهي الحديث إلى د.(رفعت) مباشرة.

المرأة:

حسن.. أنا خائفة يا د. (رفعت).. إنّه ذلك الخوف الذي لا يوجد مصدر عقلاني له.. فحينما تخشى الفئران تربي قطًا.. وحينما تخشى اللصوص تغلق نوافذك أو ترخص مسدسًا.. لكنّ حينما يكون خوفك غير ذي وجود مادي يكون اجتنابه شبه مستحيل..

رفعت:

أفهم تمامًا ما تقولين يا سيدتي.. إن الخوف من الغد مثلًا لا حل له..

المرأة:

هكذا أنت تفهمني.. والآن أحدثك عن نفسي بشكل أفضل.. أنا امرأة في الأربعين من عمري حاصلة على شهادة متوسطة.. ومتزوجة منذ عشر سنوات.. لكني لم أرزق أطفالًا..

رفعت:

يبدو لي أسلوبك في الكلام مثقفًا.. إنك تعرفين جيدًا ما تتحدثين عنه..

المرأة:

لأنني علمت نفسي بنفسي.. ولا تنس أن (العقاد) لم تكن معه شهادات سوى الابتدائية.. إن التعليم يختلف كثيرًا عن الثقافة.. والذكاء يختلف كثيرًا عن كليهما..

لقد تزوجت في الثلاثين من عمري.. كان عليّ أن أعني بأمي وشقيقاتي...

إنها تلك القصة المكررة دائمًا: الأم العجوز لا تكف عن نصح ابنتها بالزواج (لكي أطمئن عليك يا بنيتي قبل أن أموت).. والفتاة تقول في إباء وشمم ممزوجين بلذة استشهاد لا شك فيها:

(لا أريد الزواج يا أمي.. فلا ينقصني شيء).. لكنها تعرف أن أمها تعرف أنها لا تعني ما تقول..

وأنها قلقة.. وأنها تشعر بشمعة العمر إذ تحترق..

إن البنات لا يقلقن على تأخر زواجهن بسبب حاجة فسيولوجية معينة أو خوفهن من العنوسة أو شوقهن للأمومة.. أعتقد أنهن يقلقن لسبب واحد يا د. (رفعت).. هو رؤيتهن لصديقاتهن يتزوجن واحدة تلو الأخرى..

هل تعرف ذلك الشعور الممض؟ لحظة استلام بطاقتك من السجل المدني أو استعادة كراستك في المدرسة الابتدائية؟ الصوت ينادي واحدة تلو الأخرى.. الكل يسترد أوراقه.. تدريجيًا تجد نفسك واقفًا وحدك بانتظار من يناديك بدورك.. ذلك القلق الرهيب والشعور بأنك قد سقطت سهوًا من فوق مائدة الحظ.. وأن أحدًا لن يبحث عنك تحتها!

هل تفهمني؟ لكم من حفل زفاف حضرت! وكم من صديقة فارقت.. كأنني أشيع جنازتها وأعود منهكة من قبرها.. لكنّ عزائي الوحيد كان دائمًا هو أنني اخترت ذلك بمحض إرادتي..

وفي الصباح كنت أعمل سكرتيرة براتب ضئيل في مكتب حكومي.. حيث لا أفعل أي شيء ولا أنال أي أجر على هذا (اللاشيء)..

وفي المساء كان البيت ولا شيء سواه.. أعمال البيت والمذاكرة لأخوتي.. و(قزقزة) اللب على الأريكة أمام شاشة التلفزيون جوار أمي...

وغدًا يوم آخر... ليس أكثر مللًا ولا أقل..

ثم ظهر الحاج (صبحي)..

إن الاسم مزيف طبعًا..

رجل في الخمسين من عمره طبعًا.. تاجر يكسب كثيرًا دون أن يكلفه الأمر سوى بعض المكالمات الهاتفية والشجار بصوت عالٍ.. ويبدو أنه بدأ حياته مع هؤلاء الذين يزايدون في المزادات دون نية شراء حقيقيّة.. ومن ثم يبادر الخصوم إلى دفع حلوان له كي يتركهم وشأنهم... أردت أن أقول لك إنّه قادر على المتاجرة بكل شيء وأي شيء..

رآني الحاج ـ الذي لم يتزوج بعد لانهماكه في الإثراء ـ في أثناء زيارته لمكتبنا الحكومي.. هنا يجب أن أعترف لك يا د.(رفعت) بأنني لست قبيحة.. إنني من النوع الذي يصفونه في إعلانات الزواج بـ (سمراء ملفوفة القوام حاصلة على مؤهل متوسط، وتقدس الحياة الزوجية)..

رفعت:

أعرف هذا السخف.. ولا أدري كيف يكتب رجل محترم عن نفسه أنه (أبيض اللون مثقف)؟!

المرأة:

كان لا بد أن يقع الرجل في هواي.. كلهم يفعلون هذا ثم يحجمون.. كانوا في البداية يحجمون لأنّهم يعرفون أنني سأرفض.. ثم صاروا يحجمون لأنّهم لا يعرفون سر عدم زواج فتاة لا بأس بها حتى سن الثلاثين.. لكنّ الحاج كان يعرف ما يريد بالضبط...

ولم ألبث أن وجدته في صالون دارنا المتواضع.. ولم يكن سيئًا إلى هذا الحد.. فهو لا يرتدي جلبابًا أو يبصق على السجادة على الأقل.. كما أنه لم يكن يستعمل السباب أكثر من اللازم.. لم يكن يبدو كفرسان الأحلام طبعًا.. ولم يكن يركب حصانًا أبيض لكنه يركب سيارة فاخرة.. ثم.. أنت تعرف كيف تتم أمور كهذه.. يسموّنه (النصيب).. وأنا لا أجد اسمًا أفضل للحظة تخلي الفتاة عن إصرارها على الرفض.. لا بد من لحظة ما.. ولا بد من شخص ما يكون موجودًا في هذه اللحظة.. هذا هو نصيب الفتاة..

شريف:

معذرة على مقاطعتي إياك.. لكنّ لو كنت تظنين هذا برنامج (رسالة)[2] الخاص بالمشكلات الاجتماعية فنحن.....

رفعت:

دعها تتكلم يا (شريف).. إنها تضعنا في الجو.. ولا أعتقد أنك ستجد من يبدأ مكالمته قائلًا: إن هناك مصاص دماء في حمام شقتي..

المرأة:

ربما أطلت الكلام.. وإنني لأعتذر.. المهم أننا تزوجنا.. وأننا عشنا حياة لا بأس بها أبدًا.. لم يبخل بشيء وبر بوعده في رعاية إخوتي ووالدتي.. فقط لم يرزقنا الله بأطفال..

وككل رجل شرقي أبى كبرياؤه أن يسمح له بإجراء الفحوص اللازمة، وكنت أنا الضحيّة التي يمكن إرغامها على إجراء كل شيء عرفه الطب ولم يعرفه.. صرت فأر تجارب لا يمرّ على يوم دون إجراء نفخ أنابيب أو أشعة على الرحم أو.. أو....

بدأ يتحدث عن الزواج من جديد.. بدأ يتحدث عن قطار العمر الذي يجري دون طفل يحمل اسمه (كأنه اسم طارق بن زياد).. بدا يتحدث عن حاجة المرء إلى ابن يقف إلى جواره في شيخوخته ليتهمه بالعقوق...

وكانت أمي هناك...

وبالطبع كانت لنا زيارات عدة إلى ألعن مجموعة من النصابين ذوي (السر الباتع) إياهم.. كلهم ملتحون يجلسون في قاعة يفعم البخور هواءها.. وكلهم يتحدثون عن (عمل) مدفون على عتبة داري أو في حشية فراشي أو في مقبرة ما.. مبالغ طائلة حصلوا عليها مني دون جدوى..

وبدأ نفور زوجي يزداد.. مأمورياته وصفقاته التي تستدعي السفر تتزايد ولم أكن بحاجة لذكاء كبير كي أعرف أنه ـ غالبًا ـ قد تزوج..

ماذا أفعل؟ لا شيء... إن البكاء صامتة في دورة المياه لهو العلاج الحاسم للمقهورين وغير القادرين على الإيذاء أو اتخاذ رد فعل إيجابي.. وعلى كل حال لم يغير معاملته الماديّة الشريفة لي..

ثم جاء اليوم الموعود...

رفعت:

يبدو أن القصة ستبدأ هنا..

المرأة:

كنت أعرف أنه يمرّ بمشاكل ماديّة طاحنة.. يبدو أن مشاكله الأسرية قد جعلت حاسة الكسب عنده أقل رهافة.. وقد خسر كثيرًا جدًا في فترة قصيرة حتى إنني سمعته ينهنه في دورة المياه ذات ليلة.. فعلمت أنّ هذه الدورة تحولت إلى نوعٍ من (حائط المبكى) لكل أفراد الدار..

كان عصاميًا.. ولأنه عصامي كان ينفر من مصارحة امرأته بشيء.. ولم يكن يطلب رأي أحد أو عون أحد.. لم يكن يثق سوى برأيه هو...

وبعد أسبوع واحد سافر إلى الإسكندرية..

كان هذا هو اليوم الأخير له على ظهر الأرض..

لم يجدوه في أي مكان.. كانت بذلته على الرمال.. وقال أكثر من شاهد أنهم رأوا رجلًا يجتاز المياه في الظلام برغم الأمواج العاتية.. واجتاز البراميل غير عابئ بصرخات المنذرين.. بعدها لم يروه ثانية.. وعاد لي أحدهم بالبذلة.. و.. (تهانف).. إهئ!

رفعت:

أ.. حسن.. هل ترين أن نرجئ المكالمة إلى أن؟ إن دموع الأنثى هذه....

المرأة (تسترد أنفاسها):

لا.. لا.. لا داعي.. لقد وجدوا خطابًا في جيب البذلة يخبرهم من هو ويقول: إغفري لي يا (....) فقد فاضت بي الديون.. أعلم أنني أترك لك عبئًا مهولًا أعانك الله عليه.. اتصلى بالمحامي وهو سيخرجك من هذه الورطة..

وبعد ما تلقّيت العزاء واكتشفت أنني أبدو فاتنة في الثياب السوداء؛ وبعدما عدت إلى بيت أمي - كالعملة الزائفة - اتصلت بالمحامي، وكان رأيه قاطعًا بخصوص بيع منزل زوجي.. لكنّ المشكلة

كانت أكبر مما تصورت.. فأملاك زوجي لا يمكن حصرها.. ومن المستحيل أن أعرف ما آل إليّ بالوراثة وما آل لزوجته الأخرى إن وجدت..

وقضيت والمحامي ساعات سوداء ننقب في أوراق زوجي الفقيد، وفي مكتبه بوسط المدينة..

إن عقلي غير معد لأشياء كهذه.. ولم أتصور قط أن كل هذه العقود وكل الشروط الجزائية وكراسات الشروط يمكن أن توجد في مكان واحد.. وعليّ أنا بالذات أن أجد دربي وسط كل هذا..

لهذا تحولت إلى طفلة مذعورة ترمق بابا المحامي في لهفة وانبهار.. إن الرجل الذي يفهم هذه الأشياء لهو رجل قادر على كل شيء..

لكن المحامي لم يكن كُلّي القدرة كما ظننت..

قال لي متعبًا وهو ينزع عويناته:

- «لا شيء.. إن أهم الأوراق غير موجود هنا..»

- «والحل؟»

- «هل تعرفين له مقرًا آخر؟»

- «لا.. إلا إذا...»

وفكرت في زوجته الأخرى لو كانت هناك واحدة..

ربما كانت الأوراق عندها.. ولكن أين هي؟ ومن هي؟ لماذا لم تظهر حتى هذه اللحظة؟

ظللت أبحث شهورًا عن بصيص من نور دون جدوى.. زرت قريته ونمت في غرفته لأفتشها بدقة.. ليس الأمر طمعًا مني.. بل هو محاولة للفرار من الديون التي كبلني بها والتي لم يكف ثمن المنزل لسدادها.. كل ما وجدته لدى زوجي لا يكفي لسداد ربع ديونه...

واسقط في يدي..

لماذا لم يكتب كل شيء بالتفصيل في رسالة الانتحار هذه؟

شريف:

واضح أنه كان يحسب المحامي يعرف..

المرأة:

الله أعلم.. وربما هو يعابثني على سبيل دعابة قاسية أخيرة.. ربما كان في قبره بأعماق البحر يضحك هازئًا مني..

المهم أن المحامي جاءني بعد شهرين وقدم لي فكرة غير عادية..

رفعت:

تحضير الأرواح طبعًا!

المرأة:

كـ... كيف عرفت؟

رفعت:

القصة هكذا دائمًا!

المرأة:

إنك لشخص مخيف..

رفعت:

بل الحياة هي النمطية أكثر من اللازم.. لنعد لموضوعنا..

المرأة:

كان المحامي يعرف رجلًا من جمعية الأرواح المصرية.. قال لي إنّه موثوق به ويجيد عمله.. وإنه شخصيًا جربه في استحضار روح أبيه.. هل تؤمن بتحضير الأرواح يا د. (رفعت)؟

رفعت:

لا أدري.. كانت لي ثلاث تجارب فاشلة، واحدة منها مع نصاب يهودي.. لا أزعم أنني أنفي الموضوع أو أؤكده.. فنحن لا نعرف عن الروح سوى أقل من القليل.. أقول فقط إنني لم أر تجربة ناجحة قط.. إن النصابين في هذا المجال لم يتركوا مكانًا للصادقين.. لكني أعتقد أنك لست جديدة على مناخ السحر والسحرة هذا..

المرأة:

إن ما تقوله يخيب أملي.. كنت أحسبك مررت بألف تجربة على الأقل تعرف معها الحقيقة كاملة...

رفعت:

إن الروح من أمر ربي ولن يغير رأيي ولا رأيك هذه الحقيقة.. والآن هلا أكملت القصة؟ ربما كان لي رأي في آخرها..

المرأة:

كما قلت أنت: لقد اعتدت هذه الأجواء فلم أخشها كثيرًا.. صحيح أنني لا أجد سوى نصابين.. لكنّ تحضير الأرواح له جو راقٍ يختلف كثيرًا عن جو (الأعمال)، و(الهدهد المصاب بالبواسير)، و(شمهورش) المزواج الذي يهيم بكل حسناء تكثر من تأمل نفسها في المرآة..

ذهبت والمحامي بناء على ميعاد مسبق إلى منزل الدكتور (عدلي) في الهرم.. وهو رجل متأنق راق يوحي بالثقة.. تأملني في اهتمام وسألني عما أريده من الروح التي أطلبها.. فقلت له - بين مكذبة ومكذبة - إنني أبغي سؤال روح زوجي عن موضع أوراقه..

قال دكتور (عدلي) - وهو يداعب حبيبات مسبحة من العقيق - إنّه يمرّ بتجارب عديدة مماثلة.. فالموتى - للأسف - ينسون دومًا إن يضعوا أوراقهم في مكان ظاهر قبل الموت.. ثم سألني:

- «كيف مات الفقيد؟»

- «مات منتحرًا.. لم يكن هذا بسببي!»

قطب جبينه في شرود.. وتساءل وهو يداعب المسبحة:

- «هذا سيئ.. هل أنت مستعدة لتحمل تبعات تحضير روحه؟»

- «تبعات؟»

- «طبعًا.. إن أرواح المنتحرين تكون قلقة شرسة.. وأحيانًا تصر على البقاء.. ولو كنت كاذبة بصدد أنك لم تكوني سبب انتحاره فلسوف نعرف هذا بسهولة!»

- «حسن أنا مستعدة»

وعرفت أن تحضير الأرواح يتم بعدة طرق.. أشهرها أسلوب لوحة الحروف الأبجدية التي يتحرك فوقها كوب مقلوب... ويسمونها لوحة (الويجا).. ثم هناك طريقة الوسيط الذي يتكلم بلسان الفقيد ويرد على الأسئلة.. وطريقة الزجاج الأسود.. وطريقة السلة.. ومشكلة طريقة السلة هي أنها سهلة إلى حد يجعل الكثيرين يجربونها في بيوتهم.. الأمر الذي يرى د. (عدلي) أنه شبيه بمخاطرة تحضير قنبلة نوويّة في مطبخ الدار..

وكان الدكتور (عدلي) عاتبًا على الأستاذ (أنيس منصور) الذي كتب طريقة السلة بتفاصيلها في أحد كتبه[3]، مما جعل الكثيرين يجربونها في ديارهم جاهلين ما ينتظرهم من خطر مريع..

وكان رأى د. (عدلي) هو أن أسلوب الوسيط هو الأمثل.. فهو يجعل الروح والمتلقي على اتصال مباشر.. هل لدي اعتراض؟ لا؟ إذن لنبدأ الآن.. وقد كان.. وفي مساء الثلاثاء ٢٣ سبتمبر بدأت التجربة..

أظلمت الأضواء فيما عدا ضوءًا أحمر خافتًا.. وأدار أسطوانة هادئة الموسيقا.. وأشعل عودًا من البخور جعل الضوء الأحمر نفسه ذا رائحة...

وجلسنا - نحن الثلاثة - حول منضدة صغيرة...

وراح د. (عدلي) يتلو بعض الآيات القرآنية.. ثم أغمض عينيه.. وهمس مرددًا اسم زوجي مرارًا.. بعدها ساد الصمت..

كان ينتظر قدوم الروح..

(شريف) (في حماس):

ألم تشعري بالذعر؟

المرأة:

إن الجو المقبض يحرك الخيال.. لكني كنت واثقة أن شيئًا لن يحدث.. ولو حدث فهو خدعة.. مثلما يحدث دائمًا.. شريط تسجيل.. كلام من البطن.. شخص مختف في المكان يتكلم.. أي شيء..

رفعت:

لاتقولي إنك وجدت شيئًا من هذا...

المرأة:

بتاتًا.. يبدو لي الرجل صادقًا.. لقد فشل على كل حال! ولو كان نصابًا لكان نجاحه في تحضير الروح مؤكدًا..

رفعت:

ماذا تقولين؟ فشل؟! لم أتوقع هذا..

المرأة:

هذا ما حدث.. لقد مر وقت طويل علينا.. هو يهوم رأسه يمينًا ويسارًا في حركة تشبه النوم..

رفعت:

يسمونها الـ (ترانس)...

المرأة:

أيًا كان اسمها.. رأيت وجهه يتقلص.. العرق يحتشد على جبهته.. عيناه انفتحتا لكنّ حدقتيه لم تكون هناك.. كانتا في مكان ما أعلى محجريه..

أي أنني رأيت عينين بيضاوين تحدقان فيّ بإصرار..

ثم إنّه صرخ من بين أسنانه.. وقال: إن الروح تأبى أن تستجيب لي.. إنها ذائبة في الأثير.. أو شيء من هذا القبيل..

رفعت:

كلهم يقولون هذا..

المرأة:

كان الأمر واضحًا بما يكفي.. ورحت أتأهب للنهوض، حين سمعت صوت مقعد يتحرك في طرف الغرفة.. مقعد يتحرك وحده..

عندها استرخي جسد د. (عدلي).. لم يسترخ تمامًا لكنه كف عن التشنج على الأقل.. وبصوت عميق متحشرج ناداني باسمي....

شريف:

أي أن الاتصال قد تم...

المرأة:

هذا هو ما حاول إقناعي به.. لا أدري هل تفهمني أم لا.. لقد كان الصوت عامًا جدًا.. شائعًا للغاية.. الصوت الذي يمكن أن يصدر من أي حاج تجاوز العقد السادس من العمر.. يمكن أن يكون هو صوت زوجي الراحل ويمكن ألا يكون.. هذه مسألة تحتمل القولين...

رفعت:

ومحتوى كلامه.. ألم يدلك على شيء؟

المرأة:

قال لي إنّه لا يفهم سر استدعائي له.. فقلت له إنني أريد أوراق ممتلكاته..

قال لي إنّه يكرهني وإنه لا يرغب حقًّا في أن يخبرني بشيء.. ثم أضاف أنه مضطرب نفسيًا لأنّه وافد جديد على عالم الأرواح.. وبالتالي لا يبغي مزيدًا من الكلام...

وانتهت الجلسة فوجدت د. (عدلي) يعتدل.. ويعود تدريجيًا إلى طبيعته.. راح يجفف عرقه.. ويحل ربطة عنقه.. وأضاء الأنوار...

ثم قال: إنها أصعب تجربة اتصال يقوم بها في حياته.. لقد كان هناك شيء ما غير مفهوم يعوق الأمر.. كأن هناك من يعيده إلى الأرض باستمرار كلما حاول الابتعاد عنها..

ثم سألني: هل عرفت ما تريدين؟

قلت له: لا..

قال لي: كنت أتوقع هذا.. فالمنتحرون لا يتميزون بالمودة ولا لطف المعشر..

سأله المحامي عما إذا كان هناك ما يمكن عمله..

قال الرجل: علينا أن نكرر الجلسة مرارًا.. فلربما يلين الفقيد...

لم أجرؤ على مصارحته برأيي فيه.. إن النصابين هم أكثر الناس إيحاء بالثقة بالتأكيد.. وإلا فكيف ينجحون في عملهم؟

شريف:

وهل كررت المحاولة كما طلب؟

المرأة:

بالطبع لا.. إنّه يطلب خمسين جنيهًا في كل جلسة.. وهو ثمن أفضل الموت ولقاء زوجي مباشرة على دفعه.. لكنّ القصة لم تنته بعد..

بعد هذه الجلسة الفاشلة بثلاثة أيام كنت في بيت أمي.. كنت جالسة على الأريكة (أقزقز) اللب كدأبي أمام التلفزيون.. وكانت أمي غافية ـ ككل المسنين - جواري.. بينما نام إخوتي..

لابد أن منتصف الليل قد اقترب..

أنت تعرف يا د. (رفعت) هذا الشعور الغريب الذي ينتاب العصبيين.. الشعور بأن هناك من يراقبك.. تشعر به يتركز هناك في مؤخرة رأسك.. ويدفعك دفعًا إلى الالتفات.. وكان عليّ أن ألتفت إلى الوراء.. إلى الردهة التي تمتد أمام باب المطبخ...

عندها رأيت - لربع ثانية - رجلًا يرتدي منامة زرقاء، وهو يدلف إلى المطبخ ليتوارى عن عيني داخله!

في عصبية هززت أمي لتصحو وشعر رأسي ينتصب هلعًا:

- «ماما.. هناك شخص ما بالمطبخ!»

- «أحقًا! بسم الله الرحمن الرحيم!»

- «أقسم على هذا..»

- «و.. وماذا نفعل... ننادي الجيران؟»

لكنّ جزءًا من عقلي كان يردد باستمرار: أنت واهمة.. أنت ترين أشياء لا وجود لها ككل النساء.. لهذا قررت أن أرى بنفسي أولًا..

كانت سكين المطبخ على المائدة جواري.. لهذا تناولتها.. أنا لا أعرف كيف أقتل إنسانًا بسكين لكني تظاهرت أمام نفسي بأنني أعرف...

دخلت إلى المطبخ بخطوات حذرة.. ووالدتي ورائي.. وقبل أن أضغط زر الضوء الكهربائي عرفت أنني سأراه...

رفعت:

عمن تتحدثين بالضبط؟

المرأة:

زوجي طبعًا! أنا لا أتحدث عن فأر.. في البداية رأيت جسده المظلم واقفًا أمام الموقد.. ثم أضات النور فرأيت تفاصيله التي لن أنساها أبدًا.. رأسه الأصلع المحمر قليلًا بفعل الشمس.. وشعره الأشيب على جانبي رأسه.. وشاربه الكث الأحمر كصلعته.. ومنامته الزرقاء المميزة.. والعرق الأبدي على جبهته.. كان ينظر لي دون أن يدير وجهه نحوي..

لا أدري كيف أعبّر عن...



رفعت:

تريدين القول إنّه كان في وضع (ثلاثة أرباع خلفي) كما يقول المصورون..

المرأة:

تبًّا لمصطلحاتك هذه! لم يكن الوضع يسمح بعمل دراسة عن جماليات الكادر.. كان هناك فحسب.. وكان يتأملني في صمت ولوم..

فتحت فمي لأصرخ.. لكنه لم يعد هناك.. لم يعد أمامي سوى المطبخ الخاوي البائس.. وعرفت عندها أن أمي رأت ذات الشيء معي!

ولك أن تتخيل الآن كيف قضينا ليلتنا.. قضيناها متلاصقتين نقرأ القرآن ونرتجف ونتساءل عن سر هذا..

شريف:

هل انتهت القصة عند هذا الحد؟

المرأة:

بل كانت البداية.. البداية لتواجد مكثف له في كل مكان.. في الحمام.. في الصالة.. عند مدخل الشقة.. في غرفة النوم..

دائمًا هو هناك بمنامته الزرقاء ونظرة اللوم في عينيه الحمراوين.. ودائمًا لا يقول شيئًا تقريبًا.. وفي كلّ مرّة يختفي بذات الكيفية الدرامية...

كان يترك لنا الكثير من الهلع والصراخ والجنون..

وطلبنا آراء الكثيرين ممن يفهمون في هذه الأمور.. لكنهم كانوا هم الجهل مجسمًا أو الادعاء مجسمًا أو النصب مجسمًا..

إن أكثر الاقتراحات احترامًا كان أن نترك المنزل... ولكن إلى أين؟ لقد بعت شقته منذ زمن..

رفعت:

أفهم هذا.. إن هجر البيوت المسكونة لنوع من الترف لايصلح إلا للأثرياء.. أمّا هنا فالتأقلم هو الحل الوحيد...

المرأة:

ثم من قال إنّه لن يقتفي أثري حيثما ذهبت؟ لقد أحال حياتنا جحيمًا.. والأسوأ هو أنني ظللت عاجزة عن فهم سر متابعته لي.. لماذا هذا الوقت بالذات؟ ولماذا يرمقني بهذا اللوم؟ أنا لم أوذه في شيء.. أم أنه ليس من حقي أن أتألم لأنّه أذاني مرارًا؟

شريف:

لعلها تجربة تحضير الأرواح إياها؟ لعل د. (عدلي) لم يتمكّن من صرف الروح؟

المرأة:

ذهبت إليه واقترحت عليه شيئًا كهذا.. لكنه قال إنّه عاجز تمامًا عن تفسير الأمر.. وقال إننا يمكن أن نقوم بمحاولة جديدة لتحضير الروح.. بعدها يمكن أن نسأل الحاج عن سبب نقمته على...

وكانت التجربة الثانية مقنعة نوعًا....

لقد تحرك المقعد في مرحلة مبكرة.. وهذا يعني تواجد الروح في الغرفة.. وقد سألت الوسيط حين ناداني باسمي:

- «لماذا تطاردني يا حاج؟»

- «إنّه الانتقام!»

قالها بصوت وأسلوب قريب جدًّا من زوجي الراحل...

سألته وأنا أرتجف:

- «لماذا؟»

- «لأنك غبية حمقاء.. أغبى من رأيت في حياتي.. لقد كان كل شيء على ما يرام لي لكنك أصررت في غباء على...»

- «على ماذا؟»

- «على أن تعلمي!»

لم أفهم ما يريد قوله.. فسألته السؤال الذي كان يؤرقني كامرأة:

- «هل أنت متزوج من أخرى؟»

مرت هنيهة من الصمت.. ثم قال في هدوء:

- «لم أكن قبلها.. لكني بعدها فعلت!»

- «بعد.. بعد ماذا؟»

قال في غموض:

- «إن اللبنانيات يتمتعن بسحر غريب!»

ثم بلهجة عاتية الاتهام:

- «وأنت أفسدت كل شيء.. كل شيء!»

حاولت أن أستفهم أكثر لكنّ الوسيط أفاق من غيبوبته.. وعرفت وقتها أن الهدنة مع الروح قد انتهت.. ستعود الحرب سجالًا بيننا..

رفعت:

هل أنت تتحدثين من دارك الآن؟

المرأة:

نعم.. أنا جالسة في الصالة كعادتي.. أنتظر ميعاد الظهور اليومي.. لن يلبث أن يعبر الصالة بتؤدة أمامي.. أو يفتح باب الحمام ليخرج منه.. أو أراه واقفًا من وراء كتفي وهو يرمقني بذات النظرة.. إنّه كابوس لا يمكن الخلاص منه أبدًا..

رفعت:

وهل انتهت القصة عند هذا الحد؟

المرأة:

نعم.. لقد كانت الجلسة الأخيرة أمس فحسب.. وقد انغلقت كل الأبواب أمامي فلم يعد هناك سواك يا د. (رفعت).. هل يُمكنك أن تفتح لي ثغرة من النور؟

رفعت:

لا أدري هل أستطيع أم لا.. لكنّ هذه القصة تذكرني بخبر قرأته في الجرائد منذ شهر أو أكثر.. ربما في الأسبوع الأخير من سبتمبر.. متى قلت إنك قمت بجلسة التحضير الأولى؟

المرأة:

الثلاثاء.. ٢٣ سبتمبر.. لن أنسى هذا التاريخ أبدًا..

رفعت:

حسن.. الخبر كان عن وفاة مصري مجهول الشخصية في (بيروت).. وجدوه ميتًا في فندق واتضح أن بيانات هويته مزورة.. كانت هناك صورة للمتوفي.. صورة لن أنساها لأنّها تشبه صديقي الدكتور (محمد شاهين) - أطال الله عمره - إلى حد كبير.. رأس أصلع وشارب كث وشعر أشيب ثائر على جانبي الرأس.. هل يذكرك هذا الوصف بشيء؟

المرأة:

لا أعتقد..

رفعت (بغيظ):

ألم تذكري هذه الصفات منذ ثلاث دقائق حين وصفت زوجك؟!

المرأة:

أه! لكنّ زوجي مات قبل هذا التاريخ بشهور...

رفعت:

هذا هو بيت القصيد.. والآن أفسحي خيالك وصدرك لما سأقول.. زوجك يمرّ بضائقة مالية لكنه تاجر بارع راضٍ عن نفسه.. تاجر غير مثقف لا يمكن أن يشعر بالاكتئاب.. الثقافة والاكتئاب والانتحار أشياء من عالم واحد.. وزوجك لا ينتمي لهذا العالم بالتأكيد.. إنه ليس ممن ينتحرون تحت أية ظروف..

لم يجد أحد جثة زوجك.. أوراقه المهمة مختفية.. ماذا نجد في كل هذا؟ نجد أنه قد فر بعيدًا عن مسئولياته ودائنيه بعد ما أقنع الجميع بانتحاره...

إلى أين ذهب؟ لقد تحدث - وهو شبح - عن (لبنان).. كل الفارين يهربون إلى لبنان ولا أدري لذلك سببًا.. يمكننا القول دون خطأ كبير إنّه فر إلى (بيروت) ليبدأ حياة جديدة.. ومعه بالتأكيد ما يلزم لبدء تجارة جديدة ناجحة.. ألم تقولي إنّه يتاجر بكل وأي شيء؟

المرأة:

بلى.. ولكن هذا عسير التصديق.. و.. وجلسة تحضير الأرواح؟

رفعت:

ألم تفهمي بعد؟ أنت حين ذهبت لبيت د. (عدلي) مع المحامي لم تعرفي ما ستقومين به.. لقد وجد الرجل عسرًا شديدًا في استحضار الروح في البداية.. لم يجدها.. ثم بعد قليل جاءت الروح وكانت مرتبكة مذعورة...

ما معنى هذا؟

معناه ببساطة أنكم قمتم بتحضير روح شخص مازال حيًّا!

شريف:

يا للهول!

المرأة:

هذا.. هذا جنون!

رفعت:

ربما.. لكنّ ما حدث بعد ذلك يستحق وقفة.. ففي أحد فنادق (بيروت) هوى رجل في العقد السادس من عمره ميتًا دون سبب واضح.. إن النوبات القلبيّة تفسير جاهز مناسب دائمًا.. لكنهم لو تأكدوا من لحظة الوفاة لوجدوا أنها في مساء اليوم الثالث والعشرين من سبتمبر!

لقد انتزعتم روح الرجل منه لتسألوها عن مكان الأوراق.. ولن يدهشني أن يكون الرجل حاقدًا عليك لأسباب واضحة!

المرأة:

يا للهول! تعنى أنه كان حيًا لحظتها؟

رفعت:

كان.. في بداية الجلسة.. لكنه لم يعد كذلك في نهايتها.. لقد ارتكبتم خطأً جسيمًا يا سيدتي.. خطأً من النوع الذي لا يكفي الندم لإصلاحه... خطأً لا يكفي إغلاق نوافذنا وأبوابنا ليلًا كي نتفادى عواقبه!

شريف:

هل أنت واثق من هذه النظرية يا د. (رفعت)؟

رفعت:

هذا يتوقف على صدق المعطيات التي بين يدي...

المرأة:

و.. وماذا عساي أن أفعل؟!.. إن هـ.. هذا مخيف...

رفعت:

يمكنك استشارة د. (عدلي).. فهو المسئول عن وضعك في ورطة كهذه..

المرأة (في هلع):

د. (رفعت)! الغوث! أنا لم.... إنّه أمامي الآن!

رفعت:

زوجك؟ هل عاد؟

المرأة:

نعم.. نعم.. إنّه يقف أمامي.. يرمقني بتلك النظرة الثابتة التي... ابتعد عني يا (عباس).. أنا لست مسئولة عن شيء.. الخطأ خطؤك أنت!

رفعت:

لا أدري هل أنت تهلوسين أم لا.. لكني أنصحك بعدم البقاء وحيدة...

(صوت صراخ.. أشياء تنقلب):

إنها متمسكة بسماعة الهاتف.. هذا الإصرار يروق لي حقًّا!

(شريف) (في رعب):

هل يوجد ما يمكننا عمله؟

رفعت:

معلوماتي أن الأشباح لا تؤذي سوى المعنويات.. إن هذا الرجل يقودها إلى الجنون ببطء.. وهذا هو كل ما يقدر عليه.. لو تمالكت أعصابها قليلًا فقد...

المرأة:

د. (رفعت)! افعل شيئًا آآ.. إنّه لا يريد الرحيل... بل هو يدنو مني باستمرار وهو يشير إليّ بإصبعه.. إنّه يتهمني! لا أريد أن.. آه! الشرفة! إنّه يريد أن أتجه إلى الشرفة.. لا بد أنّ هناك ما يثير اهتمامه هناك.. هاها: لم لا؟ لا بد أن المنظر رائع من هناك!

رفعت:

لا تتهوري يا... عليك بإيقاظ أسرتك! إنّه يريد أن يغريك بالـ...

المرأة (في هستيريا):

ماذا بوسعك أن تفعل؟ أنت لست أنا.. هاها! ماذا بوسع أي واحد أن يفعل؟ هيهي! الشرفة! نعم.. أنا أتوق لاستنشاق هواء المساء.. وداعًا يا د. (رفعت).. لقد كانت معرفتك ممتعة حقًّا!

رفعت:

أرجوك لا! لا تفعلي! إنّه..... (كليك!)... لقد وضعت السماعة!

شريف:

هل.. هل تعتقد أنها ستفعلها؟

(رفعت) (في أسى):

أنا لا أعتقد.. أنا واثق.. إن مخايل الذعر الحيواني الذي يستحيل التعقل معه واضحة تمامًا.. ومن يدري؟ ربما هي تشعر بعقدة ذنب معينة...

شريف:

تعني تحضيرها لروحه؟

رفعت:

بل قبل ذلك.. من يدري؟ ربما لم تكن الديون وحدها هي سبب فرار الرجل.. إن أمثاله يهوون المواجهة وربما دخول السجن.. فهم يعتبرون السجن جزءًا لا يتجزأ من تجربتهم...

شريف:

إذن هي كاذبة بصدد معاملته لها؟

رفعت:

إننا لا نرى سوى أخطاء الآخرين.. كما أننا حين نقود السيارة لا نرى كشافاتنا أبدًا بل كشافات السيارات الأخرى.. وقد تعلّمت أن كل من يحكي مشكلة يضع نفسه في صورة الحمل المجني عليه عديم الأخطاء.. وبالتالي أعتقد أنها لم تكن حملًا إلى هذا الحد مع الذئب الذي هو زوجها.. إنها قادرة على تحطيم حياته وإشعاره بفارق السن بينهما وعجزه عن الإنجاب.. وحين فر منها ومن مسئولياته ظلت هي تفتش عن أمواله في نهم إلى حد تحضير روحه لتخبرها...

لقد تلقت درسًا قاسيًا على يد الزوج الذي عاد...

* * *



الحلقة الثانية

حكاية من المشرحة

يحكيها : د. عصام عبد القادر

الحلقة الثانية
(حكاية من المشرحة)

يحكيها: د. عصام عبد القادر

«في قاعة مظلمة تفوح فيها رائحة (الفورمول).. وعلى منضدة من مناضدها؛ يرقد ذلك الرجل وعيناه لا تفارقان وجهي.. أينما ذهبت.. شرقًا أو غربًا.. شمالًا أو جنوبًا..».

المقـدمــة

شريف:

ها نحن أولاء يا سادة نجتمع للقاء الرعب الأسبوعي مع د. (رفعت إسماعيل).. أرجو أن تكونوا ساهرين جوار أجهزة المذياع، وأن تتأكدوا من أن الأطفال قد ناموا.. لقد كانت حلقة الأسبوع الماضي الخاصّة بمصاصة الدماء في مدرسة البنات شائقة حقًّا[4].. لقد تلقّيت عشرات المكالمات تبدي إعجابها بها ـ الحلقة ـ ولكن الجميع ينسى أن نجاح هذا البرنامج لا يعود لنا.. بل لكم.. أنتم من تمدون...

رفعت (في ملل):

(أنتم من تمدون آلة الرعب بقصصكم لتعمل ولا تتوقف أبدًا).. اختصر يا (شريف).. اختصر.. لقد كررت هذه العبارة عشر مرات منذ الحلقة الأولى..

شريف (لا يخفى غيظه):

لكنها الحقيقة..

رفعت:

إن كون الشمس تأتي من الشرق لا يعني أن تذكر هذا طيلة اليوم.. وعلى كل حال نحن نثرثر بانتظار المكالمة الأولى.. هل قرأت ما نشر بالصحف أمس عن انتحار أرملة في (العباسية) بعد مرض نفسي طويل؟

شريف:

هل تعتقد أنها بطلة أولى حلقاتنا؟ لكنّ شهرين قد...

رفعت:

بالتأكيد لم تفعلها في تلك الليلة.. لكنّها فعلتها أول من أمس.. لم يختلف الأمر كثيرًا. الخبر يقول إنها زوجة تاجر انتحر بدوره منذ فترة بسبب الإفلاس.. وأنها لم تنجب.. وإنّها كانت تعيش في بيت أسرتها... لا توجد أرامل كثيرات بذات الصفات على ما أظن..

شريف:

ولماذا وكيف ظلت حية هذين الشهرين؟

رفعت:

لقد قاومت.. لكنّ حدودها تنتهي عند هذه النقطة... يا لها من مأساة...

(رنين الهاتف)..

يبدو أنّ هذا هو زبون الليلة...

شريف:

آلو؟ برنامج (بعد منتصف الليل).. هل لي أن أتعرف المتحدث؟

صوت شاب:

كيف حالك يا أستاذ (شريف)؟ أنا د. (عصام عبد القادر).. طالب بالسنة الرابعة من كلية الطب...

رفعت:

إنها عادة طلاب الطب العتيدة.. ما إن يخطو أحدهم إلى داخل الكلية بعد إنهاء دراسته الثانوية حتى يصر على تسمية نفسه (دكتور).. على كل حال.. مرحبًا بك يا دكتور.. لعلك واحد من تلاميذي؟

د. عصام:

بالواقع لا.. أنا من كلية أخرى....

شريف:

هلا بدأت السرد من فضلك؟

عصام:

إنها قصة تعود إلى السنة الأولى من كلية الطب. هل تذكر هذه السنوات يا د. (رفعت)؟ هذه النشوة والرهبة والفخر الداخلي.. وشعورك بأن الحياة قد اختارتك أنت دون سواك كي تخبر أسرارها.. إنّه ذلك الانبهار المجنون بلفظة جديدة ذات مذاق لاتيني حريف.. حينما تكف البطن عن أن تكون بطنًا وتتحول إلى Abdomen... وتتكلم بتلك اللغة الركيكة التي يستعملها طلبة الطب التي تمزج بين العربيّة واللاتينية.. وتتشدق بها في كل مكان حتى في الحافلة.. حاسبًا أن الناس يرنون لك في إعجاب..

رفعت (في سأم):

أفهم كل هذا.. صدقني..

عصام:

بالطبع كانت المشرحة هي المكان ذو الثقل الأعظم في نظرتنا للأمور.. فهي أول ما يثب لذهن الناس حين تتكلم عن دراسة الطب.. كنا نرمق اللافتة القديمة التي كتب عليها (المشرحة) في شوق وخوف.. هناك يكمن الموت بكل غموضه ورهبته.. وهناك الأجساد البشريّة التي تنتظره أن نفتحها لنعرف سر الحياة.. كل واحد فينا كان يعتقد أنه سيعرف كل شيء بمجرد أن يمد يده إلى الجثة.. وبغرور الشباب لم يسأل نفسه عن سر فشل كل من شرحوا الإنسان - من عهد (فيز اليوس) حتى اليوم - في اكتشاف سر الحياة.. إن الأمر يختلف معك.. لأنك هو أنت...

وجاء اليوم الموعود....

دخلنا القاعة الرطبة في رهبة.. كانت هناك فتيات معنا.. لكنّ أكثرهن تراجعن إلى الوراء بضع خطوات وقد تقلصت وجوههن في اشمئزاز..

رائحة (الفورمول) تعبق الجو.. وهي ألعن رائحة يمكن شمها.. وتأثيرها على العينين والأنف يوشك أن يكون قاتلًا لمن لم يعتدها...

وعلى مناضد متراصة متلاصقة رأيناها...

تلك الأشياء الرهيبة التي تجمدت في الأوضاع التي هلكت بها..

بدافع من كبرياء نواصل التقدم.. اللعنة على أول من يتراجع..

وناظرين إلى تلك الأشياء بدأنا - رويدًا - نفقد خشيتنا الأولى.. إن هذه الجثث تكاد لاتمت إلى الأحياء بشيء.. لقد جعلها (الفورمول) أقرب إلى تماثيل خشبية غامقة اللون يصعب أن تصدق أنها آدمية.. تماثيل هائلة الحجم من الصلصال البني..

وفارقنا ذعرنا.. وبدأنا نتخذ مقاعدنا ونتزاحم حول المناضد.. وقد تطوع أكثرنا حماسًا ورغبة في لفت الأنظار بأن يكون هو قائد المجموعة الصغيرة حول المنضدة.. وتناثرت كتب (كننجهام) هنا وهناك.. وبرزت المباضع.. ودوت المصطلحات اللاتينية التي اصطكها (فيساليوس)..

وعرفنا أن اختبارنا الأول قد تم بسلام...

شريف:

إنك لتثير خيبة أملي يا د. (عصام).. فلم أتصور الأمر بهذه السهولة..

رفعت:

كل الأشياء تبدو من الداخل أتفه مما هي في الخارج....

عصام:

لكني لم أنته بعد.. لم أنتظر منتصف الليل لكي أخبركم بمدى شجاعتي.. إن القصة أكثر تعقيدًا كما سترون بعد قليل... يجب هنا أن أحكي لكم ما حدث قبل تجربة المشرحة بعام أو أقل قليلًا.. وكل ما أرجوه ألا تلوموني بأكثر مما أستحق.. فأنا بشر...

كان هذا في إحدى ليالي الشتاء...

ربما كان الليل قد انتصف أو لم يحدث بعد... لا يهم...

كنت عائدًا من سهرة في دار أحد أصدقائي.. كان الوقت متأخرًا والليل باردًا إلى درجة لا تصدق.. وكنت أجد السير في الأزقة المظلمة لاها من الزمهرير.. وبخار الماء يحيطنى بهالة من الضباب جعل زجاج عويناتي كأنه مصنفر.. وبيد مرتجفة أضم طرفي الـ (بول أوفر) الذي أرتديه على صدري طالبًا بعض الدفء..

عابر سبيل اصطدمت به في الظلام...

لم يكن الموقف يستحق الاهتمام؛ وكان من الممكن أن يمرّ ببساطة.. لكنه سبّني بفظاظة.. وقال شيئًا ما عن الحيوانات العمياء..

حاولت أن أنهي الموقف محافظًا على كرامتي.. لكنه كان يسعى للشجار.. ربما كان غاضبًا حقًّا أو يبغي التحرش.. لا أدري..

كل ما هناك هو أننا اشتبكنا بالكلمات ثم باللكمات.. كان قويًا.. لكنّ عويناتي لا تعني أبدًا أنني فريسة سهلة.. فأنا كتلة من العضلات.. ثم إنني ألعب دور الحليم في كل أطوار حياتي.. فإذا غضبت..

لا أدري كم لكمة وجهت إلى أنفه وفكه وأسفل بطنه.. كل ما أذكره هو أنه تهاوى على ركبتيه.. ثم سقط أرضًا...

وحين عاد إليّ رشدي، انحنيت - وقد استحال غضبي فرقًا - لأتفحص جسده الممدد هناك.. لم يكن يتحرك.. إن الظلام دامس لكنه لا يتنفس.. لا أسمعه يتنفس.... هل هو....؟

رفعت:

بالطبع فررت دون كلمة واحدة..

عصام:

طبعًا.. استولى الذعر على فؤادي.. وانطلقت في الأزقة لا ألوي على شيء... الدموع تغمر وجهي والشعور بأنني فقدت أثمن ما في حياتي.. لقد فعلت ما لايمكن أن تظل حياتي بعده كما كانت قبله..

المهم أنني عدت إلى داري ولم أخبر أحدًا بحرف.. لكنّ وجه الرجل ظل يطاردني..

عيناه الحادتان.. شاربه المنمق الجميل.. شعر رأسه الفاحم.. الشامة الكبيرة على خده الأيسر.. نظرة التحدي الوقح العدوانية..

وفي الصباح والصباح التالي رحت أطالع الصحف في نهم بحثًا عن خبر ما عن العثور عليه.. شهر كامل.. عام كامل لم أكف فيه عن البحث.. لا شيء.. لهذا معنى واحد: الرجل لم يمت.. إنّه حي يرزق.. لكنه قطعًا سيكف عن التحرش بعابري السبيل...

وبدأت أنسى الأمر تدريجيًا.. لكنه بالتأكيد زارني في أحلامي مرارًا.. كنت أراه تارة برأس مهشّم.. وتارة ببطن مبقور.. فأنا لا أعرف كيف مات إن كان قد مات حقًّا...

وجاءت لحظة مواجهة المشرحة التي بدأت بها قصتي..

كنت جالسًا وسط زملائي أتامل صفحات كتاب (كننجهام) البراقة.. وأصغي لما يقول قائد المجموعة بصوته الرفيع المبحوح..

كان يشرح الساق.. لهذا لم أحاول قط - ولم أرغب - أن أرى وجه الجثة التي يتم الشرح عليها.. كنت متبلد الشعور بشكل غير عادي.. فلم تطف بخيالى تلك الخواطر المألوفة عن الموت والحياة.. كنت أشعر أنّ هذه الجثة مجرد جهاز تالف نفتحه لنرى كيف كان يعمل.. ولا شيء سوى الحظ يمنعني أنا من أن أكون الجثة ويكون المتوفي هو طالب الطب..

لكن طالبة حمقاء قالت شيئًا ما عن الرأس المصاب للفقيد.. فرفعت عيني في خمول وتأملت ما تتكلم عنه.. ثم عدت أتابع الشرح وأتفحص عضلات الساق..

مهلًا! لقد أثار شيء ما اهتمامي في هذا الوجه...

عدت بعيني إلى أعلى.. كان هناك رأس... لقد صبغه (الفورمول) بلون الصلصال القاتم لكنّ ليس عسيرًا أن تدرك أن المتوفى ذو شارب.. ذو شعر أسود فاحم.. وشامة على الخد الأيمن.. عيناه مفتوحتان تقولان إنّه كان ذا نظرات حادة شرسة..

وكان الرأس مهشّمًا عند الفود الأيمن..

- «معذرة!»

في أدب أزحت الجالسين حولي.. واتجهت متثاقلًا إلى النافذة.. كنت في حاجة إلى هواء نقي..

شريف:

هل تعني أنه هو ذات الرجل؟

عصام:

بالتأكيد هو.. لقد أسميته (العابر) في خواطري الخاصّة..

شريف:

لكن كيف؟ لا بد أن أهله استردوا جثته..

رفعت:

ليس دائمًا.. لو لم يكن يحمل أوراقًا وقت وفاته.. ولو لم يتعرفه أحد.. عندها يُعتبر ناقص الأهلية وينقل إلى مشرحة كلية الطب.. إن الاحتمال وارد للأسف..

عصام:

لم أكن أعرف هذا.. كان تأثير رؤيتي وجهه أقرب إلى تأثير المشي فوق كابل من كابلات الجهد العالي.. ولا بد أنكم تفهمون سبب ذلك..

(رفعت) (كمن تذكر شيئًا):

لحظة يا دكتور.. هل (عصام) هو اسمك الحقيقي؟

عصام:

بالطبع.. ولماذا تسأل من جديد؟

رفعت:

أحاول استنتاج نهاية القصة.. فلو كنت قتلته حقًّا لما ذكرت اسمك الحقيقي...

عصام:

وما يدريك؟ لعلى أعترف طلبًا للعقاب وتخففًا من سر أضناني؟ على كل حال لن أخبرك بنهاية القصة إلا حينما تحين نهاية القصة.. يقولون إنك سريع الملل يا د. (رفعت).. وعجول جدًا.. يبدو أنهم على حق..

رفعت:

إذن.. أكمل كلامك...

عصام:

لك أن تتصور مدى هلعي ورعبي.. لم أنم ليلتها ولا في الليالى التالية.. كنت هناك.. في قاعة مظلمة تفوح فيها رائحة (الفورمول).. وعلى منضدة من مناضدها يرقد ذلك الرجل.. وعيناه لا تفارقان وجهي.. أينما ذهبت.. شرقًا أو غربًا.. شمالًا أو جنوبًا..

دائما يرنو لي بتلك النظرة الحادة وعيناه لا تطرفان.. تقولان بصوت عالٍ برغم كونه غير مسموع: أنت قتلتني!

لن أحكي لك عن المرّات العديدة التي اقتحم فيها حجرة نومي ليوقظني من النوم.. وفي كلّ مرّة كنت أملأ الكون صراخًا.. ثم أهدأ.. وأعرف أنه لم يأت قط.. إنّه مازال ينتظرني هناك...

رفعت:

لا أتوقع أنك صرت من المتفوقين في علم التشريح؟

(عصام) (في سخرية مريرة):

من يتحدث عن التشريح؟ إنني لم أضع قدمًا في المشرحة لمدّة ستة أشهر كاملة.. وكنت أقضي ساعات الدرس في الكافتريا.. أدخن وأرمق السقف.. وأتعرف الفتيات لأحدثهن عن النظام المحكم المسيطر على هذا الكون..

رفعت:

لكن المشكلة قد انتهت سريعًا دون شك.. فالجثث لا تظل جثثًا..

عصام:

هذا حق.. فمع مرور الوقت يغدو التعرف مستحيلًا.. وتستحيل الجثة إلى قطع متناثرة في كل صوب..

كانت نهاية العام الدراسي قد دنت.. وجرؤت على دخول المشرحة فلم أر إلا أشلاء على كل منضدة.. فهذه ذراع تمزقت أوتارها.. وهذا قلب شقوه بالطول.. وتلك رئة.. وهذا شريان أورطي ملقىً كخرطوم قديم على منضدة التف حولها الطلاب متكالبين؛ كأكلة لحوم البشر حول (ليفنجستون) رحمه الله[5].

لم يعد (العابر) هنا.. وانتهت متاعبي..

رفعت:

سؤال يتعلق بالأخلاق.. لماذا لم تبلغ الشرطة بمخاوفك؟

عصام:

لم أكن واثقًا مما يحدث.. فهناك احتمال ألا يكون نفس الرجل.. وإذا كان هو فلربما لست المسئول عن وفاته.. ثم إن شخصًا حساسًا مثلي يمقت الشرطة ويهابها بالتأكيد.. سمه الجبن أو الهرب من المسئولية لو أردت.. لكني لم أفعل....

رحت جاهدًا أحاول اللحاق بما فاتني.. وحشرت في رأسي - كمن يحشر الثياب في زكيبة - مئات من أسماء العضلات والشرايين والأعصاب.. لكني كنت أصطدم بأشياء غير معتادة حقًّا...

فحينما كنت أدرس تشريح الرأس كنت أبحث جاهدًا عن رأس يصلح.. وأسأل العامل ـ مع نفحة مالية مناسبة لشراء الدخان - عن رأس في حالة معقولة..

(وكل عمال المشارح يخفون أشياء كهذه لمن يدفع ثمن الدخان لهم من الطلبة)..

عندها كان الرجل يهز رأسه في فهم.. ويخرج لي من الثلاجة رأسًا له شعر فاحم وشامة على خدها.. وله نظرة حادة!

اتفقت مع زميل لي على أن يقوم بتشريح الرأس ليغير معالمه تمامًا.. لكني عندما أدرس تشريح الساعد كنت أجد ساعدًا له شعر فاحم كث..

ولا يصعب عليّ استنتاج صاحبه..

لقد تضاعفت المشكلة.. فبعد ما كنت أهاب شيئًا واحدًا غدوت أهاب عشرات الأشياء المبعثرة هنا وهناك..

دعاني بعض الأصدقاء إلى جلسة في دار أحدهم.. وكان الهدف هو دراسة تشريح المخ.. وبالطبع يتم التدريس على مخ ابتاعه أحدهم من عامل المشرحة النهم إلى الدخان دائمًا.. كلهم يفعل هذا..

فما إن جلست وأخرجوا المخ من كيس بلاستيكي صغير؛ حتى أدركت أنّ هناك تهتكًا واضحًا في الفص الصدغي الأيمن..

- «لا بد أنّ هناك من ضربه على هذا الفص فقتله!»

قالها أحدهم وهو يمصمص شفتيه حسرة على ضياع ماله في عينة فاسدة كهذه.. أمّا أنا فقد وصلتني الرسالة كاملة..

واعتذرت لهم وغادرت المكان...

شريف:

الخلاصة أنه جعل حياتك جحيمًا...

عصام:

كنت أقضي اليوم حائرًا ما بين التفكير في هجر الكلية.. أو تسليم نفسي للشرطة.. أو الانتحار.. لقد كان انتقام (العابر) كاملًا محكمًا..

ثم.. أذكر تاريخ ذلك اليوم جيدًا...

كنت في المشرحة أعوض ما فاتني.. وكان الوقت عصرًا وهو وقت هادئ مناسب جدًّا للتحصيل.. إن العامل يبقى المكان مفتوحًا إذا أنت راعيت حاجته للدخان...

رفعت:

كل هذه الأموال الطائلة من أجل الدخان! حتى لو كان يدخن سيجار (هافانا) فلا أحسبه بحاجة إلى هذا المال...

عصام:

لا أدري كيف مر الوقت.. لكنى أفقت من تركيزي لأدرك ـ فجأة ـ أنني وحيد جدًا.. والمكان صامت جدًا.. والضوء قد بدأ يخفت حتى ليدخل في دائرة الظلام...

انتابني القلق.. لم لا؟ إن شيئًا ما غير مريح في كل هذا..

واتجهت إلى الباب وناديت العامل مرة أو مرّتين فلم يرد...

امتدت يدي في قلق إلى المقبض.. جربت فتحه.. عندها أدركت أن حدسي كان صائبًا.. لقد سجنت ها هنا!

لا بد أن العامل كان شارد الذهن.. أو ذهب ليبتاع بعض الدخان.. المهم أنه أوصد الباب بالمفتاح..

وهأنذا وحدي في هذا المكان المريع بانتظار الظلام!

إنّه لموقف رهيب نوعًا بالنسبة لأي طالب آخر. أما أنا فلست كالآخرين.. أنا أعرف ما يوجد في هذا المكان جيدًا...

لقد سنحت له الفرصة أخيرًا ولن يتركها...

وقف شعر رأسي حينما سمعت صفيرًا.. ثم صريرًا..

ثمة ما يتحرك في هذه القاعة..

نهضت كالملهوف وضغطت زر الضوء.. الضوء الحكومي الشاحب ينبعث ملولًا من مصباح واهن معلق في السقف..

كانت المناضد كما رأيتها صباحًا وعليها الأشلاء.. من المستحيل تبين ما كان يخص (العابر) منها وما لم يكن له..

هنا حدثت الطامة الكبرى....

لقد انقطع التيار الكهربي..

وكان الظلام قد توغل إلى حد جعل الرؤية مرهقة بالفعل.. لكنّ الهلع الذي استبد بي جعلني أرى آلاف الأشياء في هذا الظلام...

رأيت ذراعًا مخلبية تتحرك على الأرض صوبي..

رأيت عينين حادتين ترمقاني في حقد وتحد..

رأيت شاربًا أسود يتحرك ذاتيًا على الجدار..

انتهى التعقل وجاء وقت الجنون.

ودون كلمة ولا صرخة اندفعت نحو النافذة...

كانت المشرحة في الطابق الثاني لكني لم أبال..

وثبت من النافذة وثبة حصان جموح.. ونجحت الأشجار في تخفيف سقطتي.. لكني هويت على ركبتي فكدت ـ أو ربما فعلت ـ أهشمها.. وبرغم الألم رحت أركض لاهثًا.. مغمغما بكلمات لا معنى لها.. مترنحًا.. قاصدًا الباب الرئيسي للكلية.. وفؤادي يخفق كجناح عصفور طنان..

ورحت أركض في الشوارع المظلمة أرمق أضواء السيارات الباهرة وأقول كلمات لا أفهم ما أعنيه بها..

الخلاصة أنني جننت...

رحت أجتاز الأزقة المظلمة نحو داري.. وأنا أرى الرجل في كل صوب من حولي.. واسمعه يقهقه في وحشية من ذعري..

هنا اصطدمت بعابر سبيل في الظلام...

كدت أواصل طريقي لكنه سبّني في فظاظة.. وقال شيئًا ما عن الحيوانات العمياء.. فتوقفت ونظرت إليه مشدوهًا...

الشعر الفاحم... الشارب.. النظرة الوقحة.. الشامة على الخد الـ.. الأيسر لا الأيمن.. إنّه هو! لا لم يمت...



وعندها تأكد لي أن اختلافًا كبيرًا يوجد ما بينه وبين (العابر) في المشرحة.. إنها ذات الصفات لكنّها لا تعني تشابه الرجلين.. لقد اعتدت شكل (عابر) المشرحة حتى نسيت وجه الآخر تمامًا.. وبشكل ما أقنعت نفسي بأنهما لذات الرجل.. لكني الآن أدرك خطئي.. إن الرجل الذي تشاجرت معه وأوقعته هو الماثل أمامي الآن.. ومن الواضح أنه لم يمت.. أما من رأيته في المشرحة ونغص حياتي عامًا كاملًا فهو مجرد شاب آخر له شارب وعينان حادتان...

هنا لمحت نظرة تذكر في عين الرجل.. وبشك هتف:

- «أنت! هل التقينا من قبل؟»

قلت كاذبًا:

- «لا...»

وأدرت وجهي مبتعدًا..

- «انتظر!»

صاح بي.. لكنى أطلقت لساق العنان..

لا أريد صدامًا مع هذا الرجل بالذات..

هو يريد الانتقام من الجرح الذي أصبته به يومًا.. لكنه لا يدري أنه قد نال هذا الانتقام بالفعل.. وأنه ـ لعام كامل ـ جعلني على حافة الجنون.. بل إنني لم أدن من الانتحار هذا الدنو قط...

وهكذا انتهت هذه القصة.. ولا أدري ما تعليقك عليها يا د. (رفعت)..

شريف:

نحن شاكرون لإسهامك يا د. (عصام).. ويمكننا الآن أن نسمع د. (رفعت).

رفعت:

لا يوجد ما يُقال.. فهي قصة نموذج لـ (الرعب الموجه في اتجاه خطأ).. ثم إنها ترينا كيف أن عقدة الذنب تستحوذ على العقل الباطن فتجعله يرى ما لا وجود له.. ولم يجد العقل الباطن هنا سوى المشرحة مكانًا للجثث.. عندئذٍ لا بد أن تظهر جثة من تظن أنك قاتله.. إنها ألاعيب (الأنا العليا) العتيدة...

شريف:

وما الذي نتعلمه منها؟

رفعت:

أكره لي أعناق القصص للحصول على مغزى ما.. ربما كان المغزى هنا هو: (إن كان لك شارب مثل شاربي فليس معنى هذا أننا نفس الشخص).. أو: (لاتقتل عابري السبيل في الأزقة ليلًا لأنّهم يعودون دائمًا).. أو: (إن عاملي المشرحة جميعًا يختفون في الوقت غير المناسب).. هل هذا كاف؟

عصام:

ثمة إضافة أخيرة عرفتها مؤخرًا.. يتحدث سكان الأزقة التي كنت أجتازها عن شبح شاب ذي شارب أسود.. وشامة على خده.. يقولون إنّه يقطع الطريق على من يعبرون الزقاق ليلًا....

رفعت:

حقًا؟

عصام:

يقولون إن هناك من قتله في هذا المكان منذ أعوام!

رفعت:

إنها لمصادفة طريفة حقًّا....

عصام:

ألا ترى شيئًا غريبًا في الموضوع؟

رفعت:

بلى.. أن الأشباح ذوات الشوارب قد ازداد عددها مؤخرًا....

شريف:

هل تعني أنه نفس الشخص؟

عصام:

هل ترى رأيًا آخر؟

رفعت:

يريد القول إن (العابر) قد مات حقًّا.. وإنه في تلك الليلة اصطدم بشبحه.. وفي كلا الحالتين - الصواب أو الخطأ - لا يوجد شيء من الصحة لمخاوف المشرحة.. إنني أنصحك يا دكتور نصيحة واحدة.. انس الموضوع برمته.. وتغلب على ولعلك الشديد بالمشي في الأزقة ليلًا.. هذا هو كل شيء.. إن حياتك تنتظرك ولا داعي لإضاعتها في تساؤلات لا جدوى منها.. وإلا فعليك أن تتوجه لأقرب قسم شرطة لتخبرهم بما تظن أنك فعلته منذ أعوام...

بالمناسبة.. أعتقد أن اسمك ليس (عصام) حقًّا... الآن تأكدت من هذا.. وإلا لوجدت كل شرطة المدينة في دارك بعد عشر دقائق..

عصام:

أنت محق.. ليس اسمي (عصام)..

رفعت:

إذن عمت مساء يا من لست (عصام)..

الفتى:

عمت مساء سيدي.. وشكرًا على إنصاتك....

* * *



الحلقة الثالثة

فكرة غير عادية

يحكيها : م. محمد عثمان

الحلقة الثالثة
(فكرة غير عادية)

يحكيها: م. محمد عثمان

«توجد طريقة واحدة لتقتل شخصًا يغلق الحمام على نفسه من الداخل.. إن هذا سهل جدًّا.. كما أنّ معرفة القاتل ليست مستحيلة..»

المقـدمــة

شريف:

صباح الخير سيداتي سادتي.. (شريف السعدني) يحدثكم على الهواء مباشرة من ستوديو (٨).. ومعي هاهنا د. (رفعت إسماعيل) الذي سيستمع معي إلى حكاياتكم ويناقشها ويقترح حلولًا لها.. (صوت أوراق).. جاءني خطاب من (ع.م.ع) يقول فيه إنّه يمقت الكلام في الهاتف ويرغب في أن نحل مشكلته المقروءة لا المسموعة.. وقد فعلنا ذلك.. فليتفضل د. (رفعت) بالإجابة..

رفعت:

لا تفعل يا (ع.م.ع).. أرجوك ألا تفعل... هذا هو ردي!

شريف:

ألن تشرح مشكلته للمستمعين؟

رفعت:

إنه لا يهوى الثرثرة وأنا كذلك.. وعلى كل حال إذا كان يريد حلًا لمشكلته فقد وصله هذا الحل كاملًا غير منقوص.. لا أعتقد أنه من هواة الشهرة...

شريف (في ضيق):

لكن المقصود من هذا البرنامج هو....

رفعت:

ليكن.. إن (ع.م.ع) يعتقد أن ثلاجته ألمانية الصنع مسكونة! هذا يحدث كثيرًا جدًا مع الثلاجات المصنوعة في ألمانيا - لا بد أنها روح البارون (لودفيج) أو أرشيدوق النمسا - لهذا نصحته ألا يحتفظ بها.. إن الثلاجات المصنوعة في مصر لا بأس بها وغير مسكونة غالبًا.. هل هذا كاف يا (شريف)؟

شريف:

ولكن هذا سخيـ....

(رنين الهاتف)..

آلو.. هنا برنامج (بعد منتصف الليل).. من معي؟

صوت رجل في منتصف العمر:

أنا (محمد عثمان).. مهندس من القاهرة.. متزوج وأب لطفلين... هل د. (رفعت) معك هاهنا؟

رفعت:

بالتأكيد يا سيدي.. فلا شيء يقدر على إزالتي من الوجود عدا الموت..

محمد:

أنا الآن وحدي في الدار.. إن زوجتي والأطفال عند حماتي... يبدو أنها واحدة من تلك المشاجرات العائلية التي تحدث دومًا ولا تنتهي بالطلاق أبدًا..

رفعت:

أفهم ما تعنيه.. إن الطلاق شيء درامي جدًا.. وعنيف جدًا.. إن من يطلقون شركاء حياتهم شجعان جدًا أو حمقى جدًّا.. أي أنهم يختلفون عني وعنك..

محمد:

لا أفهم تعبيراتك الملتفة هذه.. كل ما أعرفه أنها تطلق على الآن نعوتًا مشينة.. فلا بد أنها تسمع ما نقول حالًا.. لكنّ هذا ليس هو سبب اتصالي.. فالنساء دومًا غاضبات يرين أن أزواجهنّ حمقى على طول الخط.. لا عليك.

سأحكي لك يا د. (رفعت) حكاية عن مسابقة في مجلة..

رفعت:

غريب! لا أقابل قصصًا كثيرة تبدأ بمسابقات في مجلات...

محمد:

مجلة تافهة هي.. تحوي بابًا على غرار (فكر واربح) أو (للأذكياء فقط).. المهم أنّ هذه المجلة التعسة وقعت في يدي منذ ثلاثة أشهر.. ورحت أقلب صفحاتها.. إليَّ أن وجدت هذا الباب وفيه وجدت هذه المعضلة الذهنية:

المفتش (سراج) - هذا يدلك على أن للمعضلة أصلًا أجنبيًا - هو رجل شرطة ذكي لا يفوته شيء.. يتم استدعاؤه إلى مسرح جريمة قتل في ذلك اليوم الممطر.. هل أنت معي؟ حسن...

القتيل كان في الحمام.. وقد قلقت زوجته عندما عادت للدار فلم تجده.. وقرعت باب الحمام الموصد من الداخل فلم يرد عليها.. استعانت بالبواب واستطاعا أن يقتحما الباب.. وكان هذا كافيًا

لتنطلق في الصراخ فلا تهمد أبدًا كصفارة إنذار الغارات...

هو ذا زوجها المحاسب الذي أتم عامه الأربعين منذ أيام، ممددًا في حوض الاستحمام وقد غاب أنفه تحت الماء تمامًا.. ولم يكن الأمر يحتاج إلى (قومسيون) طبي لمعرفة إن الرجل ميت...

وجاء رجال الشرطة وقالوا إن الحادث نجم عن نوبة قلبيّة أو إغماءة أو اصطدام الرأس بالبانيو.. المهم أنّ هذا أدى إلى غرق المحاسب.. إن هذه الأشياء تحدث دائمًا.. ولا تستدعي سوى الحزن فنسيان الموضوع...

وحتى هذه اللحظة يظل اسمه (المتوفى) لا (القتيل)..

وهنا يصل عمنا الكبير المفتش (سراج) ليرى ـ كالعادة ـ ما لم يره الأغبياء الآخرون.. ويزيد الأمور تعقيدًا..

فهو يلاحظ آثار مقاومة في جسد المتوفي. ويلاحظ أن المنشفة ملقاة في ركن، وقطعة الصابون في ركن.. وأن الفوضى التي تجتاح الحمام توحي بوجود صراع.. هنا ـ ككل مفتشي القصص ـ يشعل سيجاره في حنكة.. ويضيق عينيه مفكرًا.. لماذا ومع من تشاجر المتوفى؟ هناك من تعمد أن يغرقه في حوض الحمام.. وبالتالي يمكننا يا سادة أن نتحدث عن المتوفى باعتباره (القتيل) ونعتبر ما حدث جريمة قتل..

هنا يفغر الكل أفواههم في غباء.. ويقول أحدهم:

ـ «لكنّ هذا مستحيل يا سيدي المفتش.. لقد كان الحمام موصدًا من الداخل.. ثم إنّه لا توجد نوافذ فيه.. هذا يجعل دخول شخص آخر مستحيلًا.. ولو حدث لوجدنا الباب مفتوحًا..»

هنا يقول المفتش في ثقة وهو يتأمل وجوه الواقفين:

ـ «بالعكس.. توجد طريقة واحدة لقتل شخص وحيد يغلق الحمام على نفسه من الداخل، إن هذا سهل جدًا.. كما أنّ معرفة القاتل ليست مستحيلة»

وهنا توجه المجلة سؤالين إلى القراء:

(أ) كيف تمت الجريمة؟

(ب) من هو القاتل؟

عزيزي القارئ.. أرسل لنا الحل مع عنوانك لتفوز بجائزة قيمة هي ساعة يد[6] الحل ينشر بعد أربعة أعداد...

رفعت:

بالنسبة للشق الثاني من السؤال أعرف أن الزوجة.. هي القاتل

شريف (بانبهار):

كيف عرفت؟

رفعت:

لا توجد شخصيّة سواها في القصة!

محمد:

دعنا من هذا الشق.. إن أي طفل يمكنه إدراك ذلك.. لكنّ الشق الأول هو المشكلة الحقيقية..

وكنت وقتها بحاجة إلى تحد عقلي.. وقبل هذا كنت أريد ساعة يد محترمة.. لهذا قضيت الليل بطوله أراجع فقرات اللغز.. وأبحث عن الحل بين الحروف..

رفعت:

في هذا النوع من القصص يكون هناك شيء ما متعلق بالأمطار أحد الأبطال غير مبتل.. أو يتعلق بالمقعد الذي تغير موضعه.. أو....

محمد:

لا شيء من هذا.. لقد توقعت هذا كله وبحثت عنه.. لكنّ لا جدوى.. وفي الصباح رأت زوجتي احمرار عيني والخطوط المتشابكة التي رسمتها في ورقة، فظنت أنني جننت أو أخطط لسرقة بنك..

لكنى واصلت رسم أشكال تخطيطية للموقف.. وعندما جاء المساء دخلت الحمام وأحكمت إغلاقه على نفسي.. توجد نافذة لكنّها مستحيلة الفتح لحسن الحظ.. ورحت - جالسًا على طرف حوض الاستحمام - أفكر في الوسيلة التي يستطيع بها أحدهم الدخول إليّ في هذا السجن..

رفعت:

لا يوجد حل على ما أظن.. ما لم تكن الرجل الخفي أو كتلة من الطاقة.

محمد:

بالعكس.. كان هناك حل.. وقد وصلت إليه في الساعات الأولى من الصباح.. ودهشت لغفلتي السابقة.. إن الحل أبسط مما توقعت.. لكنه حل عبقري.. وعلى الفور رحت أخط إجابتي على ورقة وضعتها في مظروف وأرسلتها إلى المجلة.. ورحت أنتظر اسمي بين الفائزين في الأعداد القادمة..

رفعت:

لا بد أنّ هذا حدث مادمت تعرف أننا في الواحدة صباحًا.. لقد نلت الساعة إذن!

محمد:

كلا.. صدر عددان من هذه المجلة المنحوسة ثم توقف صدورها لأسباب اقتصادية تتعلق بسعر الورق وانخفاض معدل الإعلانات.. إلخ...

ثم دارت بي الحياة، وبدأت في المشاجرات مع زوجتي، وحضور جلسات الصلح مع أسرتها، ولم تكن أعمالى على ما يرام، وأصيب أحد أطفالي بحمى شوكية كاد يقضي بسببها لولا عناية الله..

كل هذا كان كافيًا لكي أنسى الموضوع بكل تفاصيله...

إن مشاكل الحياة غيلان تلتهم كل طيور الإبداع أو الترف الفكري في عقلك.. يقولون إن معاناة الفنانين تجعلهم يخلقون فنًا أصيلًا.. لا أظن.. ما كان (باخ) ليقدم لنا رائعة من روائعه لو أنّ زوجته سليطة اللسان وابنه في شبه غيبوبة مخية.. أردت القول إن لغز الحمام هذا تراجع إلى مؤخرة اهتماماتي.. تراجع تمامًا...

ثم.. حدث ما أعاده إلى ذهني بقوّة..

كان هناك خبر في صفحة الحوادث بإحدى الصحف يقول.. ولكن.. دعني أقرأه عليك وقل لي ما تستخلصه منه (صوت حفيف أوراق)..

«تغرق في الحمام إثر أزمة قلبيّة..»

«كتب فلان الفلاني: توفيت زوجة في الثلاثين من عمرها في أثناء استحمامها، كانت المتوفاة قد أوصدت باب الحمام عليها من الداخل وبدأت في أخذ حمامها اليومي، حين سمع زوجها (فلان) صرختها، فتعاون مع الجيران على اقتحام باب الحمام، حيث تبين لهم أن الزوجة قد غرقت في البانيو، وانتقل إلى مكان الحادث كن من العقيد (فلان) والنقيب (فلان)، ويرجح رجال الشرطة أن السيدة قد أصيبت بأزمة قلبيّة جعلت رأسها يسقط تحت مستوى الماء، ولم تتمكّن من الاستغاثة لأن الحمام كان موصدًا عليها»

ما رأيك في هذا؟

رفعت:

لا ينقص الأمر سوى مفتشك (سراج) هذا...

شريف:

هل تعني أن المصادفة قد لعبت دورًا؟

رفعت:

ربما.. فالناس يموتون في البانيو منذ اخترعه الرومان وحتّى اليوم.. وسوف يظلون يموتون فيه حتى تقوم الساعة.. إن هذا ليس دليلًا على شيء..

محمد:

أنا أيضًا قلت ذلك لنفسي.. لكنّ اسم زوج الفقيدة بدا لي مألوفًا..

مألوف إلى حد غريب..

وسرت القشعريرة في جسدي حين تذكرت أين قرأته.. إنّه سكرتير تحرير تلك المجلة التي أفلست! إن هذا يجعل الفرصة شبه معدومة في أن يكون ما حدث صدفة...

رفعت:

لحظة.. هل تظن أنه قد؟

محمد:

حتمًا.. على كل حال.. بحثت عن اسمه في دليل الهاتف.. وعرفت أنه يعمل حاليًا في دار نشر كبيرة.. وقررت أن أذهب لأراه هناك.. فالفضول كان جامحًا لدي كي أفهم اللغز...

رفعت:

لحظة.. لم تقل لنا حل لغز المجلة بعد..

محمد:

لا تسخر مني حين أقول إنني كنت قد نسيته تمامًا.. نعم.. هذا ممكن.. لقد وجدت الحل بعد إرهاق عقلي كبير وبعد منتصف الليل.. ثم إنني غرقت في المشاكل بعد ذلك.. دعك من أنني أرسلت الخطاب بمجرد استيقاظ من النوم فلم أعد قراءته.. لقد كان الحل عبقريًا سهلًا ممتنعًا.. وباءت كل محاولاتي بالفشل كي أجده بعد ما ضاع مني.. كانت لحظة إلهام كإلهام الشعراء سرعان ما تفنى وتذوب..

شريف:

لنعد لقصتنا..

محمد:

طلبت مقابلة الرجل ودخلت مكتبًا فاخرًا يجلس خلفه ثور آدمي ذو خوار.. وكان يرتدي ربطة عنق سوداء على سبيل الحداد فهو أرمل (متماسك).. أرمل حديث العهد بالترمل..

صافحته وعرفته نفسي.. وعزيته على فقدان زوجته.. بدا مندهشًا لإلمامي بدقائق حياته وهو لم يرني قط..

ذكرته بالمجلة التي كان سكرتير تحريرها، وبأني كنت من قرائة شديدي النهم.. فأبدى سرورًا.. وقال إن توقف صدور المجلة خسارة فادحة.. لكنه سعيد بعمله في دار النشر هذه التي تلقفت خبراته ونشاطه قبل أن يحاول الآخرون..

ثم إنني دخلت في الموضوع مباشرة...

سألته عن مسابقة الحمام التي نشرتها مجلته قبل إفلاسها بأسبوعين.. قلت له إنني حللت اللغز وأرسلته لهم...

بدا كمن يتذكر.. ثم ضحك متهكمًا لتفاهة اهتماماتي.. وقال:

- «الأمر كله كان دعابة.. لغز وجدته في مجلة أمريكية فقمت بتعريبه ونشره بعد تحويل المفتش (إيلري كوين) إلى (سراج)..»

- «والحل الصائب له؟»

قال بنفس الابتسامة الودود:

- «لا أعرفه! لم تنشر المجلة الأمريكية حلًا.. ولم أكن أعتمد على شيء سوى على رسائل القراء.. فمن يقدم حلًا يقنعني يفز..»

ثم تنهد.. وقال:

- «على كل حال.. لم يتسع الوقت لنشر الحلول.. ولم يصلني سوى ثلاث خطابات أو أكثر قليلًا.. ولا بد أنها جميعًا تحوي حلولًا غبية»

- «حلي لم يكن غبيًا.. ولو سمحت لي بإحضار خطابي....»

قال في سأم وقد أدرك أنني لن أقدم له سوى الثرثرة:

- «لم تعد هناك خطابات.. لقد أحرقنا الأوراق قبل أن نغادر مقر المجلة للأبد.. إنها صفحة قد زالت من حياتنا.. وهاك صفحة جديدة»

ثم ابتسم ونظر لي نظرة مناشدة أن أرحل فقد طال الوقت..

وافترقنا صديقين على ما أظن.. لكني لن أنسى إحساسي بنظرته الثاقبة في مؤخرة عنقي حين أدرت ظهري له..

رفعت:

أه! ذلك الخوف العديد من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم...

محمد:

هو ما تقول.. لقد كان يظهر عكس ما يبطن حتمًا..

بعد هذا بدأت المطاردة....

مطاردة في شارعي.. في عملي.. في الحافلة.. دائمًا أجد ذلك الثور الآدمي يحاول أن يتظاهر بعدم رؤيتي.. لكنه يراقبني من بعيد.. من وراء عامود نور أو صفحات جريدة أو كتف عجوز يقف أمامه في الحافلة.. عيناه تنمان عن شر بهيمي..

وحين تلتقي عينانا كان يعود لارتداء قناع المودة البشوش.. فيضحك في رقة - لو كانت الثيران تضحك في رقة - ويقول لي كم أن الحياة حبلى بالمصادفات.. و. (مصير الحيّ يتلاقى)..

رفعت:

لابد أن العبارة الأخيرة كانت تجمد الدم في عروقك..

محمد:

حتمًا.. فهي تحمل من التهديد قدر ما تحمل من الانبهار بالمصادفات..

شريف:

وكيف عرف عنوانك؟

محمد:

هل نسيت أن عنواني مدون في خطاب المسابقة؟

رفعت:

إذن فلنرتب أفكارنا.. أنت تعتقد أن الرجل قرأ خطابك؟

محمد:

بالتأكيد.. وراقت له الفكرة التي حللت بها المعضلة..

رفعت:

بالتالي قرر استعمالها مع زوجته لأن الشرطة لن تفكر لحظة في كون الحادث اغتيالًا.. من يدري؟ ربما نشر اللغز في المجلة طالبًا اقتراحات القراء بخصوص الأسلوب الأمثل لقتل زوجته..

محمد:

وربما فكر في الأمر بعد قراءة خطابي.. إن النتيجة واحدة هي أن الزوجة قد قلت بأسلوب من ابتكاري..

رفعت:

ذلك الأسلوب الذي لا تذكر منه حرفًا..

محمد:

نعم.. ولهذا يملك الرجل كل الأسباب التي تدفعه إلى الخلاص مني أو إسكاتي، وأراهن على أنه يراقبني بحثًا عن فرصة..

رفعت:

لماذا لم تقابل رجال الشرطة؟

محمد:

فعلت وحياتك.. ذهبت إلى مديرية الأمن وحكيت لهم شكوكي.. لكني بدوت بالنسبة لهم مخبولًا أو مبتذلًا.. فما هي علاقتي بطرفي الحادث؟ وما هي مصلحتى في الإبلاغ وأنا لا أعرف مجرد اسم الزوجة؟ ثم كيف يمكن قتل شخص في غرفة موصدة من الداخل؟! قلت لهم إنني وجدت الحل..

قالوا لي أن أثبت لهم كيف يتم هذا...

هنا ازداد موقفي سوءًا لأني اعترفت لهم بأنني نسيت.. لكن بدا لهم كلامي سخيفًا ومبتذلًا! ونصحوني بالكف عن هذا الهراء قبل أن تتحول النصيحة إلى عقاب قانوني صارم...

وزاد الأمر سوءًا أنني حين هبطت في درج مديرية الأمن، لمحت على الرصيف المقابل ثورًا ذا خوار يتظاهر بأنه يمشي مصادفة ـ لو كانت الثيران تمشي مصادفة ـ في هذا الشارع بالذات..

لقد رآني!

والمعادلة السهلة تتضح في ذهن الثور تدريجيًا:

أنا صاحب الحل + خبر موت الزوجة + سؤال عن الخطاب + مديرية الأمن + كارثة!

كارثة يمكن تلافيها بشيء من الجهد الجاد.. والدم طبعًا!

رفعت:

الحل الوحيد هو إثبات كلامك لنا ولرجال الشرطة..

محمد:

وهذه هي كارثة الكوارث.. لقد سهرت ليلتين أو ثلاثًا في داري أحاول العثور على حل دون جدوى..

كان من حسن حظي أن زوجتي رحلت مع الطفلين غضبي كعادتها.. هي تحسب أنها بهذا تحرمني من نعمة وجودها، في حين أنها تقدم لي أغلى نفائس العالم: الهدوء.

وهكذا ـ وحيدًا في الدار ـ أحكمت غلق الأبواب، ورحت أعيد التفكير في حل لهذه المعضلة..

المحاسب غارق في بانيو الحمام.. الباب موصد من الداخل.. لا توجد نوافذ.. كيف يمكن الوصول إلى هذا الرجل؟



رفعت:

ربما لو كان الحمام مغلقًا بكالون (لاتش) يفتح بمفتاح من الخارج..

شريف:

لا أحد يغلق باب الحمام بكالون (لاتش).. كل الناس تستعمل المزلاج.. أفكر في احتمال وجود باب سرّي للدخول والخروج..

رفعت:

حتى في قصور (آل مديتشي) المشهورين بالمؤامرات؛ لم يخطر لعبقري سواك أن يصنع بابًا سرّيًا للحمام....

شريف:

المواد المنوّمة! لم لا؟ يدسّ في شرابك مادة منومة لا تعمل إلا بعد دخولك الحمام فتغفو ويسقط رأسك تحت الماء..

رفعت:

فكرة لا بأس بها.. لكنّ توقيت هذا مستحيل.. فهناك من يدخلون الحمام فور احتساء كوب العصير.. ومنهم من يتلكأ بحثًا عن منشفة أو (باشكير).. أو لمجرد مقته للاستحمام.. ثم إن الطب الشرعي قادر بسهولة على تحديد أمور كهذه..

محمد (في عصبية):

اصمتا! إنكما توتران أفكاري.. كل هذا هراء وبعيد عن الحل الحقيقي.. إنني أحاول الدخول في عالم القصة.. لهذا أحدثكما من الحمام!

رفعت:

الحمام؟ كل هذه المكالمة؟

محمد:

لم لا؟ إن الهاتف مع ها هنا.. وقد أحكمت غلق الباب بالمزلاج من الداخل.. ولا توجد سوى نافذة واحدة موصدة بإحكام.. البانيو ممتلئ بالماء.. كما أرجو لو تساعداني في حل هذا اللغز..

رفعت:

لا بد أن منظرك يشبه الأفلام الأمريكية القديمة.. فكل بطلات الإغراء كن يتحدثان هاتفيًا بينما هن في البانيو متدثرات بفقاقيع الصابون.. يالـ (هوليوود) هذه!

محمد:

أحاول أن أحرك القشرة الرمادية التي تخنق أفكاري.. أحاول.. أحاول.. الباب.. النافذة.. الباب..

رفعت:

قل لي يا (باشمهندس).. ألا ترى أن بقاءك وحدك خطر في هذه الأيام.. إذا افترضنا جدلًا أن قاتل زوجته يحاول إسكات شاهده الوحيد؟

محمد:

بلى.. بلى.. لكني بحاجة إلى التركيز.. كف عن الكلام قليلًا.

شريف:

هذا أول متكلم يطالب الجميع بالصمت هاهنا..

محمد:

الباب.. النافذة... الـ... (صوت صرير).. هل... هل تسمعان هذا؟ يبدو أن توتري يجعلنى أسمع أصواتًا غير مألوفة.. و.. (رفعت)! إنّه قادم! لقد استطاع التسلل إنّه يتحرك.. خلف.. خلف هذا الستار.

ثم.. لقد تذكرت! تذكرت الحل للمعضلة! لقد دخل بذات الأسلوب.. هيه! ابتعد عني! لآآآآآه!

رفعت (صوت صخب وعراك من الهاتف):

ثمّة ما يحدث هنا.. هل تظن أن؟ آلو! آلو!

(صوت ماء ينسكب.. حشرجة مختنق يحاول التنفس).

لقد هاجمه! دخل بالأسلوب ذاته إلى حيث اختبأ (محمد)..

لقد وضع هذا الأخير نفسه في وضع مثالي للقتل.. وبالطريقة التي ابتكرها!

شريف:

هل هل يمكننا عمل شيء؟

رفعت:

لا أدري إن مصدر المكالمة.... آلو!

(سكون تام.. ثم يضع أحدهم السماعة ليغلق الخط)..

لقد انتهى كل شيء.. وأظن أن الثور ذا الخوار نفسه هو من أعاد السماعة لمكانها وغادر المنزل كما جاء..

شريف:

هذا شنيع! لقد سمعنا أحداث مصرع المهندس بكل تفاصيلها..

رفعت:

على كل حال لقد مات بعد ما أشبع فضوله.. لقد تذكر.. أمّا نحن فلسوف نحترق بنيران الفضول طيلة حياتنا، ما لم ننس هذه القصة في أسرع وقت....

* * *



الحلقة الرابعة

الشقة رقم (9)

يحكيها : مجهول الاسم

الحلقة الرابعة
(الشقة رقم "٩")

يحكيها: مجهول الاسم

«لكنهم - جميعًا - لم يتكلموا.. ربما نظر أحدهم لك بعينين زائغتين وقال شيئًا ما عن (الشقة الدنسة).. ثم يصمت نهائيًا..

وكان هذا هو السؤال الذي أرقني دومًا..

ماذا يحدث في الشقة رقم (٩) عندما يحل الظلام؟»

المقـدمــة

شريف:

من جديد سيداتي سادتي نجلس جوار المذياع وأجهزة الهاتف.. لننعم بحلقة جديدة من برنامجكم (بعد منتصف الليل).. إن نجاح هذا البرنامج يعود لكم أنتم.. فأنتم تمدون آلة الرعب بالوقود الذي يجعلها تعمل فلا تتوقف أبدًا..

رفعت (يتنهد):

أعوذ بالله من الحمق!

شريف:

معنا هنا ضيفنا د. (رفعت إسماعيل).. إنّه يدمدم بعبارات غامضة لا أسمعها لكني أتوقع أنها تعبر عن الترقب.. الترقب الملهوف لقصتنا التالية..

(رنين الهاتف)..

هالو! (شريف السعدني) هنا.. من يتحدث؟

صوت فتاة:

مساء الخيغ! أنا (شيغين).. هل دكتوغ (غفعت) يسمعني؟

رفعت:

أنا أسمعك يا (شيرين).. وأرجو أن تسامحيني على نطقى الخاطئ للحروف..

شيرين:

كنت أعيد سؤالك يا دكتوغ.. لماذا لم تتزوج كط حتى الآن؟ هل أنت معكد أو شيء من هذا الكبيل؟

رفعت:

لو ترجمنا سؤالك عن لغته الفرنسية لقلنا إنك تتساءلين عن سر عدم زواجي.. وهل أنا معقد أم لا؟ لا أدري يا (شيرين).. أعتقد أنني لست معقدًا.. والدليل هو: هل تقبلين الزواج منى الآن؟

شيرين:

هكذا فوغًا؟

رفعت:

فوغًا يا (شيغين)..

شيرين:

لكن.. بسغاحة.. أنت لا تعغفني..

رفعت:

هذا سبب كاف لأعرفك أكثر.. ثم إن لديَّ ضعفًا تجاه الفتيات ذوات اللثغة..

شيرين:

لا.. لا! أنت أسلع وشكلك مغعب.. لقد كنت أمزح لا أكثغ.. باي باي!

رفعت:

وأنا كذلك أمزح يا (شيغين).. باي باي!

شريف:

لقد أحسنت التصرف حقًّا.. لقد كانت تحاول التسلية..

رفعت (في رضا):

لقد أثرت هلعها.. فهي لم تتوقع أن أكون متحمسًا إلى هذا الحد.. ولكني - برغم كل شيء - لا أجد نفسي مرعبًا إلى الدرجة التي تصفها..

(رنين الهاتف)...

شريف:

آلو! من معي؟

صوت رزين خافت:

لا داعي للأسماء.. فليس هذا ناديًا للمراسلة على ما أظن.. إن عندي حكاية لا بأس بها لهذا البرنامج... فهل تسمعونها؟

شريف:

حتما.. ولكن أتمنى لو رفعت صوتك قليلًا..

الصوت:

لا أستطيع.. لدي أسبابي.. أنا أتحدث من الشقة رقم (٩) المبنى رقم (٢٠٣) في شارع.. لا. لن أقول الشارع...

رفعت:

لا أستطيع أن أجد سببًا مقنعًا يمنع ساكني الشقة (٩) في مبنى (٢٠٣) من رفع أصواتهم عند الكلام في الهاتف..

الصوت (يضحك في عصبية):

لأنني متسلل يا حضرة الطبيب العبقري... متسلل.. فليس هذا بيتي.

رفعت:

ولماذا تسللت أيها المتسلل الغامض؟

الصوت:

ثمة أسئلة لا يمكن الإجابة عنها إلا بالتجربة وسرد القصة كلها.. لقد ولدت في هذا الشارع يا د. (رفعت) وأعرف كل حجر فيه.. وكل خط بالطبشور على جدرانه..

ومنذ نعومة أظفاري وأنا أعرف أن الشقة رقم (٩) محرمة على الناس.. وأن بواب العمارة يقرأ آية الكرسي بشفتين مرتجفتين حين يصعد أو يهبط مارًّا أمام بابها.. وأن اطفال العمارة ممنوعون من اللعب أمام هذا الباب.. إنّه لتحريم يسمو إلى مرتبة القداسة الدينية.. وعقاب الطفل الذي يخالف ذلك قريبة جدًا من الإعدام...

رفعت:

أعرف.. كان هناك في المنصورة بيت (الخضراوي).. وكان يعامل معاملة شبيهة بهذه.. إن هذه الأماكن تتحول إلى (تابو) مقدس دائمًا..

الصوت:

إن السماسرة يحذرون الباحثين عن مسكن من هذه الشقة، مضحين بفرصة لا بأس بها للكسب.. صبي الكواء يأبى الصعود إلى الطوابق التي تعلوها.. أمّا من يسكنون تحتها مباشرة فلا يكفون عن الشكوى من أصوات الصراخ التي تنبعث من داخلها.. والمطاردات التي لا تنتهي بين أشخاص لا تدري من هم...

رفعت:

لا بد أنّ هناك حادث انتحار أو قتل تم في هذه الشقة منذ أعوام.. فالقصة هكذا دائمًا..

الصوت:

بل هي قصة أكثر تعقيدًا.. لقد كان هناك ـ في عام ١٩٤٦ ـ شاب يدعى (يوسف إسحق).. وهو صراف يهودي يعمل في أحد البنوك.. يقولون إنّه كان مهذبًا جدًا.. وديعًا جدًا.. ويعيش في هذه الشقة بالذات.. ولم يكن متزوجًا..

كان بعض الأصدقاء يزورونه من وقت لآخر.. ولم يكن أحد الجيران يشك في أمره بشكل خاص.. ففي تلك الأيام لم تكن حرب ٤٨ قد نشبت بعد.. والمصريون معروفون بالتسامح الديني، فلم يكن لديهم عداوة خاصة تجاه اليهود.. كل ما هنالك هو أن الفتى بخيل أكثر من اللازم، معقوف الأنف أكثر من اللازم.. فيما عدا ذلك لا يوجد ما يريب بشأنه... لكن واحدة من الجيران لاحظت ملاحظة صائبة..

هناك من يزورون الفتى بمعدل ضيف في الشهر أو أكثر.. كلهم يصعدون إلى شقته.. فلماذا لا تراهم ينزلون منها؟!

لكن الجميع نسي هذا السؤال بعد حين.. فالعمارة كبيرة ولا تقع في حي شعبي.. بالتالي يغدو أمر من يصعد ومن يهبط ومن يزور من.. أمرًا يستحيل الإمساك به...

لكن الأمر افتضح ذات يوم.. وكان مهولًا مريعًا...

لقد أمسك أحد مخبري المديرية بالفتى عند المقطم..

وكان يحاول الخلاص من كيس قماشي كبير.. لقد كان يقود سيارته (الأوبل) السوداء إلى هذا المكان المنعزل ليتخلص من أحماله..

فتح المخبر الكيس بحثًا عن مخدرات فلم يجد لسوء الحظ.. كانت في الكيس أطراف آدمية..

رفعت:

أراهن على أن (يوسف) هذا وجد صعوبة في تفسير موقفه.. إن تفسير وجود أجزاء بشريّة في حقيبتك عسير دائمًا..

الصوت:

بالضبط.. إن استنتاجاتك تتسم بالعبقرية ياد. (رفعت)...

رفعت:

وماذا حدث بعد هذا؟

الصوت:

كانت قضية مدوية.. لقد اتضح لرجال الشرطة أن (يوسف) هذا كان يستدرج من يعرفهم إلى شقته.. ويقوم بتخديرهم.. ثم يعكف على استنزاف دمانهم بمدية خاصة...

شريف (في هلع):

يا للهول! يستنزف الدماء؟ لمه؟

رفعت:

إنه يهودي.. فلن أندهش كثيرًا لذلك.. كانت هناك قصة مريعة في القرن الماضي عن يهود (حارة اليهود) الذين كانوا يختطفون الأطفال - مسلمين كانوا أو مسيحيين - ليصفوا دماءهم.. ثم يقومون بمزج قطرات من هذه الدماء في الفطير الذي يلتهمونه في أعيادهم الدينية... لا بد لهم من هذه البركة...

شريف:

و.. وهل الديانة اليهودية بهذه القسوة؟

رفعت:

ليست الديانة اليهودية بل ما صنعوه هم منها.. إن كتاب (التلمود) يضم العجب العجاب.. وفي جميع الأحوال لم يكتشف سر جرائمهم هذه إلا حين قرروا تجديد قائمة الطعام بصنف جديد... مبشر مسيحي فرنسي هو الأب (توما) الذي أحدث اختفاؤه ضوضاء عامّة.. وفي هذه المرّة تم القبض على مرتكبي هذه البشاعات.. لكنّ من يضمن ألا يعودوا إلى العمل ذاته من جديد في أي وقت؟ إنهم يعتبرون ذلك واجبًا دينيًا[7]..

شريف:

وهل كان (يوسف) مندرجًا تحت هذه القائمة؟

الصوت:

بالطبع.. لقد كان لديه في الشقة رقم (٩) كل ما يلزم لممارسة هذه الهواية المسلية.. واعترف بالتفصيل.. وتم إعدامه شنقًا بعد محاكمة حاولت ضبط نفسها.. ووسط ارتياح كبير من الرأي العام..

رفعت:

ومن يومها ظهر الشبح في الشقة رقم (٩)..

الصوت:

بالطبع.. المزيد من استنتاجاتك العبقرية هاهنا!

رفعت:

ولكن شبح من؟ شبح السفاح اليهودى أم ضحاياه؟

الصوت:

أغلب المخمنين يقولون إن هناك عدة أشباح في الشقة.. شبح السفاح وشبح ضحاياه.. ولهذا تدور هاهنا مطاردات لا تنتهي طيلة الوقت.. يقول قاطنو الشقة السفلية إن هناك قطرات دماء تنضح من سقف شقتهم ليلًا.. لكني أعتقد أن في هذا مبالغة لا بأس بها..

رفعت:

جميل! وأنت تتحدّث من هذه الشقة الآن؟!

الصوت:

طبعًا.. الشقة رقم (٩) ذاتها..

رفعت:

وهل بها جهاز هاتف؟ حسبتها شقّة مهجورة..

الصوت:

جرت محاولات عدة لسكنى هذه الشقة من أشخاص حسبوا أنهم لا يبالون بهذا الهراء.. لكنهم كانوا يهجرونها دومًا بعد شهور.. آخرهم مدرس قام بتركيب جهاز الهاتف.. ثم غادر الشقة.. وهو مواظب على دفع فاتورة الهاتف وإيجار الشقة إلى أن يجد مسكنًا آخر ينقل الهاتف إليه..

رفعت:

شقة مسكونة مريحة حقًّا! بالمناسبة.. ماذا قال ساكنو الشقة عما يحدث فيها؟ لا بد أنهم رأوا ما يخيف..

الصوت:

لم يقل أحدهم شيئًا! الصمت.. الصمت الرهيب.. وهذا هو أفظع ما في الأمر.. فلو أنهم راحوا يثرثرون عن أشباح تعبر الصالة ليلًا أو تحرك قطع الأثاث لبدا هذا معقولًا وتقليديًا..

لكنهم - جميعًا - لم يتكلموا.. ربما نظر أحدهم لك بعينين زائغتين وقال شيئًا ما عن (الشقة الدنسة).. ثم يصمت نهائيًا..

وكان هذا هو السؤال الذي أرقني دومًا..

ماذا يحدث في الشقة رقم (٩) عندما يحل الظلام؟

رفعت:

وكيف تسللت إلى المكان؟

الصوت:

هذا هو سرّي الخاص الذي أرفض ذكر اسمي بسببه.. إن الأمر مزيج من الحيلة والذكاء مع قدر لا بأس به من خيانة الأمانة!

رفعت:

لا بد أنك تتحدّث عن سرقة المفتاح من البواب.. أو.....

الصوت:

لا داعي للاستنتاجات.. إنني هنا وكفى.. والشقة مغلقة عليّ وحدي..

شريف (في حماس):

إنها لحلقة مثيرة حقًّا.. هو ذا مراسلنا يا سادة يتحدث لنا من قلب الشقة رقم (٩) حيث لا يجرؤ مخلوق عاقل على التواجد وحيدًا.. ولسوف يجعلنا نرى ما يراه ونسمع ما يسمعه.. إنها لفرصة نادرة! هل لنا أن نعرف سر اهتمامك بالاتصال؟

الصوت:

بالطبع طلبًا للسلوى وأن أشعر بأنني لست وحيدًا في هذا المكان.. ثم إنني أمقت أن أضيع عليكم الاستمتاع بفرصة كهذه..

رفعت:

يبدو لي أنك شخص قوي الأعصاب إلى حد غير عادي..

الصوت:

لأنني لا أومن بوجود عالم غير مكون من ذرات كاربون وهيدروجين.. أو بوجود شيء غير قابل للرؤية والسمع والشم والإحساس.. إنني مادي جدًا إذا راق لكم هذا الوصف..

رفعت:

كنت أعتنق هذا الرأي منذ أعوام.. لكني شفيت! وعلى كل حال أنت لا ترى الأشعة تحت الحمراء.. ولا تسمع الترددات فوق الصوتية.. ولا تشم غاز الهيدروجين.. لكنّها أشياء موجودة..

الصوت:

الحديث عن الأشباح يختلف.. لكني على كل حال جئت بعقل منفتح تمامًا.. ولئن رأيت شبحًا الان فلسوف أقسم لك بأني حمار كبير...

شريف:

دعنا من هذا.. ولتحدثنا عن الشقة كما تراها..

الصوت:

لا أرى الكثير مما يمكن وصفه.. فهي شقّة من الشقق لها مزايا وعيوب كل شقّة أخرى.. لا توجد وطاويط كثيرة ولا نسيج عنكبوت إذا كان هذا ما تصبو إليه..

إنني جالس في الظلام - حتى لا يراني أحد من الجيران.. إن أضواء الشقق الموصدة تحدث مشاكل دائمًا - أستعين فقط بكشاف صغير أحطته بأسطوانة من الورق المقوى.. أنت تعرف طريقة المقاومة الفرنسية هذه لإرسال الإشارات إلى طائرات الحلفاء، دون بعثرة ضوء يراه النازيون.. إنهم يفعلونها دائمًا بنجاح ساحق...

شريف:

إذن صف لنا هذه الشقة العادية جدًا..

الصوت:

توجد صالة ضيقة جدًا.. تقود إلى حجرة جانبية وهي التي أجلس فيها الآن.. لم يعد هناك أثاث طبعًا سوى هذا الهاتف.. وهو موضوع على الأرض وعليه سحابة كثيفة من الغبار...

هناك غرفتان أخريان يبدو أنهما مخصصتان للنوم.. وهناك حمام يبدو أنه كان مخصصًا للطقوس إياها..

أنا جالس على الأرض فوق خرقة من القماش كانت هناك.. معي - إلى جانب الكشاف - مسدس ألماني من مخلفات الحرب، ولفافة بها بعض الشطائر، وجهاز مذياع صغير أتابع به برنامجكم..

وبالمناسبة.. برغم ثقتي بنفسي لم أستطع أن أمنع نفسي من الجلوس وظهري إلى الجدار...

رفعت:

أفهم هذا.. كما أجذب أنا الملاءة ليلًا لأداري عروق رقبتي برغم ثقتي من أن مصاصي الدماء لا وجود لهم..

الصوت:

إن للرعب ملكوتًا غريزيًا يجبرنا على أن..... لحظة! أسمع صوت قطرات ماء قادمة من الحمام! سأترككم لحظة كي أرى ما هناك..

شريف (في توتر):

إلزم الحذر أرجوك.. إنني..



الصوت:

سأعود حالًا.. (صوت وضع السماعة على الأرض.. صوت خطوات..)

شريف (بعد دقيقة):

إن هذا الانتظار يحطم الأعصاب.. ترى ماذا سيجد؟

رفعت:

لا أدري.. لكنّ صنابير الحمام تتلف سواء في وجود أشباح أم عدمها...

(تمر دقيقة أخرى)..

أعتقد أنه تأخر فعلًا..

(صوت الخطوات من جديد)..

الصوت:

لا شيء.. إن الصنبور يحتاج إلى (جلدة)..

رفعت (يتنهد):

دعني أصارحك أنك رجل شجاع حقًّا.. هذا بالطبع لو لم تكن تتلاعب بنا وكل هذه تمثيلية تؤديها تحت ملاءة فراشك..

الصوت (في حدة):

لو كنت تشك في هذا دعني أنه المكالمة حالًا..

رفعت:

بل أصدقك.. إن صوتك وصوت الهواء حولك والصدى يقولون إنك صادق.. أرجو أن تستمر من فضلك..

الصوت:

إنني في هذه اللحظة بالذات - أسمع أنينًا.. كأن هناك من يتثاءب في حجرة النوم.. هل تسمعه معي؟

رفعت:

لا أدري.. لا.. إن حساسية الهاتف كما تعلم..

الصوت:

سأذهب لألقي نظرة..

رفعت:

لكن.. لا تتأخر.. (صوت وضع السماعة على الأرض والخطوات).. أرجوك.. (يقول موجهًا الكلام لـ (شريف))..** لو أنّ هناك جهاز هاتف لا يحتاج الأسلاك!**

شريف:

هذا نوع من الخيال العلمي.. دعنا ننتظر عودته..

(صوت خطوات.. ثم شهقة)..

هيه! ماذا يحدث عندك يا أستاذ.. يا أستاذ (متسلل)؟

الصوت (في توتر):

هـ.. هناك.. لا.. لا شيء في غرفة النوم.. لكنّ هنا.. هناك من فتح لفافة الشطائر وقضم بعضها!

شريف:

أواثق من هذا؟

الصوت:

كل الثقة! أنا لم آكل لقمة واحدة منها.. إن هناك من يعابثني هنا.. هذا يفوق كل منطق.. (رفعت)! أنا خائف!

رفعت:

لا ألومك كثيرًا.. ربما فضلت أن تغادر الشقة الآن؟

الصوت:

لا.. لا.. إن وجود فئران هاهنا أمر وارد.. صحيح أن الفئران لا تقضم بهذا الانتظام كل هذا الحجم من الخبز.. لكنه تفسير لا بأس به.. ألا ترى هذا؟ سأعاود الجلوس والانتظار..

رفعت:

إن الأشباح الجائعة لا تبعث الراحة في النفس عمومًا..

الصوت:

لن أعلق لأنني أسمع صوت خطوات.. و... (همسًا).. (رفعت)! إنني أراه الآن.. إنّه يعبر الصالة أمامي خارجًا من غرفة النوم..

رفعت:

من هو؟

الصوت (هامسًا):

شبح رجل في الأربعين من عمره يرتدي منامة خضراء.. أراه على.. على ضوء خافت ينبعث منه شخصيًا! إنّه يضيء كأرقام الساعة في الظلام... إنه.. إنّه يمشي بتؤدة متجهًا إلى الحـ.. الحمام!

(رفعت)! أنا خائف! أنا أحمق كبير!

رفعت:

.. إذن - وقد أثبتّ وجود أذنين كبيرتين - يُمكنك الفرار...

الصوت (هامسًا):

لا أستطيع عبور الصالة.. سيراني! ولكن.. ها هو ذا يدخل الحمام.. أعتقد أنه لم يرني قط.. صوت مياه.. إنّه يفعل شيئًا ما بالداخل.. ثم.. هو ذا عائد إلى غرفة النوم.. لقد اطفأت الكشاف.. الظلام دامس إلا من ضوء الرجل الخاص.. إنّه يرمق غرفة الهاتف في ريبة.. لو دنا مني فلسوف....

حمدًا لله! إنّه يواصل مسيرته..

لقد اختفى عن عيني أخيرًا..

رفعت:

أشباح هذا البيت غريبة حقًّا.. بعضها جائع وبعضها مصاب بسلس البول..

شريف:

هذا طبيعي.. فهم يمارسون حياتهم كما كانت.. واضح أن ذا المنامة الخضراء هو (يوسف إسحاق) ذاته..

الصوت:

من جديد يسود الصمت.. سأنير الكشاف من جديد...

الشقة خالية تمامًا.. سأحاول الآن أن أقوم بجولة تفقدية.. سأرى ما يوجد في غرفة النوم هذه!

شريف:

لا تفعل! لقد أثبتّ ما تريد.. حاول الآن إثبات سرعتك في الركض..

الصوت:

لا.. لا بد من أن.. لكنّ لحظة! هذه المرّة توجد فتاة شابة حسناء.. إنها في السادسة عشرة من عمرها أو أكثر قليلًا.. ترتدى قميص نوم أسود.. إنها تعبر الصالة.. بل هي تتجه إلى.. إلى الغرفة التي أنا فيها!

رفعت:

لا بد أنها من ضحايا السفاح.. هلا حاولت أن.....؟

(صوت صرخة أنثى)..

هيه؟ ماذا يحدث عندك؟

صوت فتاة:

بابا! ماما! تعاليا حالًا (يبتعد الصوت)..

الصوت:

حسن.. لقد فرت مني.. والآن يا دكتور (رفعت) حان وقت الوداع.. لقد استمتعت بالحديث معك.. وأعدك أن أكرر التجربة مرارًا..

رفعت:

ما هو اسمك يا سيدي؟

الصوت:

اسمي هو.. (يوسف)!

(صوت ضجيج.. أشخاص يتحدثون في صوت واحد)..

صوت الفتاة:

هو ذا! أقسم إنني وضعت السماعة بنفسي قبل النوم.. وها هي ذي مرفوعة وموضوعة جوار الهاتف!

(صوت رجل):

إذن لم تكوني أنت في حجرة الجلوس! لقد رأيت الضوء وحسبتك تحدثين (نرمين) كعادتك ليلًا.. بل سمعت صوتًا..

(صوت امرأة):

إذن هو (بسم الله الرحمن الرحيم) كما قالوا لنا! إن الشقة مسكونة!

الرجل (غاضبًا):

اصمتي ولا تكوني بلهاء.. الأشباح لا تتسلى بالكلام في الهاتف ليلًا..

الفتاة:

لكن.. هناك شخصًا ما على الطرف الآخر من الخط!

الرجل في حزم:

آلو!

رفعت:

د. (رفعت إسماعيل) يا سيدي.. مساء الخير!

الرجل:

مساء الهباب! من أقحمك على الهاتف؟

رفعت:

إن لدى بعض الاستنتاجات.. لكنّ قل لي أولًا: هل ترتدي منامة خضراء؟

الرجل:

أتعاكس في ساعة كهذه يا وقح؟

رفعت:

إن أساليب المعاكسة الهاتفية متعددة.. لكنّها لا تتضمن أن أرفع السماعة من عندك بالتأكيد.. هذا أسلوب فذ للمعاكسة.. قل لي: منذ متى جئت إلى هذه الشقة؟

الرجل:

منذ أسبوع.. لماذا تسأل؟

رفعت:

لأنني أثرثر منذ ساعة مع من يُدعى (يوسف).. وقد جعلني أعتقد أنه هو الضحيّة وأنتم الأشباح.. تصبحون على خير يا سيدي.. (يضع السماعة)..

شريف:

هل.. هل تعتقد؟

رفعت:

بالطبع.. لقد عرفت أشباحًا كثيرة مصابة بالملل وترغب في المزاح القاسي مع البشر.. وأعتقد أن ساكن الشقة رقم (٩) الجديد لن يظل بها طويلًا.. لقد كنا نحدث (يوسف إسحاق) ذاته!

شريف:

والشطائر.. والكشاف.. والشقة الخالية من الأثاث.. والمسدس؟

رفعت:

كذب.. ألاعيب لا أكثر.. لقد كان في كلامه شيئان أثارا انتباهي للحظة ثم نسيت الأمر.. لقد تحدث عن المقاومة الفرنسية للنازيين باعتبارها ذكرى قريبة جدًا (وما زالت تحدث).. ثم هو يتحدث عن مسدس ألماني من مخلفات الحرب.. كيف يحصل شاب مصري في عام ١٩٦٩ على مسدس ألماني من عام ١٩٤٣؟ إن الشبح ما زال يعيش بعقلية عام ١٩٤٦ الذي شنق فيه!

شريف:

إذن تسلل أثناء نوم الأسرة إلى الهاتف ليتصل بنا..

رفعت:

أعتقد هذا.. وأعتقد أيضًا أن حياة الأسرة ستكون مفعمة بالمفاجآت طالما أقامت فترة أطول في الشقة رقم (٩) هذه..

* * *



الحلقة الخامسة

قُل لى يا (أونكل)

تحكيها : نهال فاروق

الحلقة الخامسة
(قُلْ لي يا "أونكل")

تحكيها: نهال فاروق

«إن وجود تمثال للشيطان ـ والعياذ بالله ـ في مكتبك لأمر جدير بإثارة الريبة في حالتك النفسية والعقائدية».

المقـدمــة

شريف:

مساء الخير.. أو ـ للدقة الجغرافية - صباح الخير.. إن مذيعكم (شريف السعدني) معكم على الهواء مباشرة.. لنبدأ برنامجكم المفضّل (بعد منتصف الليل).. والبرنامج كما تعرفون قائم على تلقي مكالماتكم التي تحكي قصصًا مثيرة أو مرعبة..

رفعت:

إن قصصكم هي وقود آلة الرعب التي لن تتوقف أبدًا..

شريف (في عتاب):

هذه كلمتي المفضلة..

رفعت:

أرحت نفسي من سماعها للمرة المليون.. إن الوقوف خلف المدفع يختلف كثيرًا عن الوقوف أمامه... وأن تثير أنت ملل الآخرين لخير من أن يثيروا هم مللك.. و.. (رنين الهاتف)...

شريف:

آلو! هل لي أن أتشرف بمعرفة المتحدث؟

صوت غليظ:

أنا (عباس).. لقد استمعت إلى الحلقة السابقة من البرنامج وبدت لي سخيفة.. أنتم تستخفون بعقول المستمعين..

شريف:

أكرر مرّة أخرى أن المستمعين هم صانعو الحلقة لا نحن.. لكني لا أفهم ما لم يرق لك بالضبط..

عباس:

موضوع الرجل الذي يحاصره الذباب حيثما ذهب.. تقولون إنها لعنة معينة جعلته لا يجد لحظة راحة واحدة[8]..

أنا شخصيًا محاط بحشد هائل من الذباب.. دون أن أرى في هذا ما يستحق التهليل والتحليل..

رفعت:

لا يصعب عليّ استنتاج مشاكلك مع مياه الحمام.. على كل حال أعدك بألا نستخف بعقول المستمعين ثانية..

(رنين الهاتف من جديد)..

شريف:

مرحبًا.. (شريف السعدني) يتحدث.. من معي؟

صوت طفلة:

أنا (نهال) يا أونكل (شريف).. (نهال فاروق)..

شريف:

أرجو ألا يكون اتصالك جزءًا من طقوس العشاء..

نهال:

لا أفهم.. أنا في السابعة من عمري.. في الصف الثاني.. ما معنى (طقوس)؟ إن أبلة (مها) لم تعطها لنا في المدرسة..

شريف:

لا عليك.. هل أنت وحدك؟

نهال:

بابا نائم.. وماما سافرت..

شريف:

سافرت؟ إلى أين؟

نهال:

لا أدري.. مرضت طويلًا ثم لم تعد إلى البيت.. بابا يقول إنها سافرت**!** لم أرها منذ عام.. (مايسة) تقول إنها ماتت.. أنا لا أدري كيف يموت الناس.. ربما مثل ما حدث للكتكوت الذي ابتاعه بابا من السوق لي.. فجأة لم يعد يأكل ولا يشرب ولا يزقزق.. صار نائمًا طيلة الوقت.. بعدها قال بابا إن الكتكوت قد مات.. ودفناه في الحديقة في علبة شاي قديمة..

شريف:

وهل حزنت عليه؟

نهال:

قليلًا.. لم يكن مسليًا جدًا.. لكنّ ماما كانت طيبة وتغني لي قبل النوم..

شريف:

لكن ماما سافرت ولم.....

(هنا نظرت له نظرة جعلته يسكت.. لا داعي للاسترسال في الخداع المزري لهذه البائسة الصغيرة.. إن الصمت هو خير سياسة)..

لماذا اتصلت وحدك يا (نهال)؟ ماذا أبقاك ساهرة إلى هذه الساعة؟

نهال:

أنا.. أنا خائفة يا أونكل..

رفعت لـ (شريف):

هذا هو بيت القصيد.. إن خوف الأطفال يخفي دائمًا أتفه الأسباب أو أشنعها..

نهال:

هل أحكي القصة من أولها؟

شريف:

طبعًا.. طبعًا.. خذي راحتك..

نهال:

بابا يعمل في الآثار.. إنّه يبحث عن آثار هؤلاء الناس الذين كانوا يعيشون في مصر زمان.. وقد أخذنا كثيرًا إلى المتحف المصري وإلى الأقصر وأسوان.. رأينا هناك تماثيل كبيرة جدًا.. وأخذنا إلى السيرك في العام الماضي حيث رأينا الأسود..

رفعت (في حنان):

هكذا الأطفال.. أفكارهم خيول جامحة لا تثبت على درب واحد.. كنت تتحدثين عن آثار قدماء المصريين يا حلوة.. لسنا في السيرك هنا..

نهال:

نعم.. نعم.. الآثار.. كان بابا يحضر إلى البيت كثيرًا من الأشياء.. أشياء حلوة.. تماثيل.. أوراق صفراء ملفوفة.. وفي مرة أحضر يد فتاة قديمة.. لم يرني إياها.. لكني دخلت مكتبه لألعب ووجدتها في الدرج.. يد سوداء قبيحة خفت منها كثيرًا.. لكنّ بابا قال لي إنها لا تؤذي..

رفعت:

والدك يحضر معه ما يجده من آثار؟!

نهال:

نعم.. ثم يأتي عمو (صليحة).. ويشتريها منه.. إنه يأتي دائمًا ليلًا.. وهو يرتدي جلبابًا أبيض وعمامة!

رفعت:

والدك يبيع الآثار لـ (عمو صليحة) هذا!

نهال:

نعم.. نعم.. (تبتلع ريقها من فرط الحماس).. وبابا يشتري لنا الأكل وأشياء حلوة كثيرة بهذا المال!

رفعت:

إن الأطفال لا يحفظون سرًا.. الآن أنا متأكد من أن أباها نائم في عمق..

نهال:

وفي يوم من الأيام أحضر بابا لنا تمثالًا صغيرًا لست.. تمثالًا وجده وهو يحفر..

شريف:

(ست)؟ تعنين امرأة؟

رفعت:

بل (ست) إله الشر عند الفراعنة وعدو (أوزيريس) اللدود.. إن حفظ الاسم ليس عسيرًا على الأطفال يا (شريف)..

نهال:

كان التمثال مخيفًا.. لكنّ بابا ظل يتأمله طيلة الليل.. كلما صحوت وذهبت إلى الحمام أجده جالسًا في الصالة ينظر للتمثال بنفس الطريقة..

ماما لاحظت ذلك.. وقالت لي (هذا التمثال ملعون).. لم أفهم ما تعنيه يا أونكل (رفعت).. لكن هذا هو ما قالته..

في الصباح قال بابا نفس الكلام.. لكنه لم يرم التمثال أو يبيعه.. بل وضعه على المكتب.. ومن يومها وهو هناك..

رفعت:

هذا شائق.. يبدو أن التمثال مس شيئًا ما في أعماقه.

شريف:

لكن (ست) لا وجود له.. إنّه مجرد إله وثني.

رفعت:

بعض المفكرين يرون أن (ست) محاولة وثنية متخلفة للتعبير عن الشيطان.. إن وجود تمثال للشيطان - والعياذ بالله - في مكتبك لأمر جدير بإثارة الريبة في حالتك النفسية والعقائدية..

نهال (محنقة):

هل ستتكلمان.. أم تتركاني أتكلم؟

شريف:

بل سنخرس يا (نهال).. تأكدي من هذا..

نهال:

بعد أسبوع من حصول بابا على تمثال (ست) جاءنا عمو (صليحة) ليلًا.. دخلت لهما بالشاي الذي أعدته ماما.. كانا يتشاجران بصوت عالٍ - بابا وعمو - ولم يلاحظا دخولي الحجرة.. مثلًا كان بابا يقول له (أنت لص! ما زلت مدينًا لي بألف جنيه).. وعمو (صليحة) يقول (عليا الطلاج لن تتقاضى مني مليمًا أحمر)...

شريف (بحذر):

هل تعرفين معنى (عليا الطلاج) هذه؟

نهال:

لا.. سمعتها مرة في السينما.. يبدو أنها قسم ما.. المهم أنهما كانا يقولان كلامًا كثيرًا من هذا النوع.. كان بابا غضبان جدًّا.. ولم يشرب عمو (صليحة) الشاي.. بل نهض وقال (أنت المسئول يا فاروج بيه)..

هنا رأيت بابا ينظر له.. ينظر له نظرة مخيفة.. رأيت لون (النني) في عين بابا قد صار أحمر.. أقسم لك يا أونكل.. (عليا الطلاج) كان أحمر!

رفعت (في ضيق):

هذا هو أثر السينما وعدم انتقاء الكبار لألفاظهم أمام الأطفال.. (نهال).. هذه الكلمة سيئة وبذيئة جدًّا.. أفهمت؟



نـهال:

حسن.. المهم أنني خفت من بابا كثيرًا.. يبدو أن عمو (صليحة) أيضًا قد خاف لأني رأيته يرتعش.. يرجع للوراء.. ثم يترك الدار سريعًا.

ثم.. ثم ظل بابا جالسًا وقد غطى وجهه.. كان يرتجف.. وأفزعني كثيرًا.. فجأة سمعنا صوت فرملة من الشارع..

كان هناك ناس كثيرون.. وبابا منعني من الخروج.. لكني سمعته يقول لماما بعد ما عاد من الخارج إن عمو (صليحة) داسته عربة..

لقد مات كتكوتي الصغير.. في هذه الليلة لم أنم قل لي يا أونكل.. هل سيضعونه في علبة شاي ويدفنونه في الحديقة هو الآخر؟

رفعت:

لا يا (نهال).. فلا توجد علبة شاي تناسب حجمه.. للأسف..

نهال:

بعد هذا جاء دور عمو (فرج) الجنايني..

شريف:

آخرون؟ هذا مريب حقًّا..

نهال:

كنت أحبه كثيرًا.. كان يعطيني الخرطوم لأروي الزرع بدلًا منه.. وفي مرة اصطاد يعسوبًا وربط ذيله بخيط.. وجعلني أمسكه..

وجدته يتشاجر مع بابا.. يبدو أن بابا طلب منه شيئًا ولم يفعله.. هنا لمحت بابا ينظر له ذات النظرة.. كان (النني) أحمر في عينه.. وراح عمو (فرج) يرتجف...

في المساء جاء الطبيب وقال إن عمو (فرج) مريض جدًا.. في اليوم التالي لم يعد موجودًا.. قالت ماما إنّه سافر..

رفعت:

وماذا فعل والدك؟

نهال:

لا شيء.. أحضر تمثالًا آخر لامرأة ترضع طفلًا ووضعه جوار تمثال (ست).. لكنه ظل يجلس أمام (ست) كثيرًا جدًا..

رفعت:

(إيزيس) وابنها (حورس).. لقد ظن (فاروق) بيه أن (إيزيس) قد تملك القدرة على مقاومة شر (ست).. كما ظن الفراعنة قديمًا.. لكني أتساءل: لماذا لم يتخلص من التمثال؟

شريف:

لقد استحوذ على روحه تمامًا.. هذا واضح.. وبعد هذا يا (نهال)؟

نـهال:

بعد هذا تشاجر بابا مع جارنا.. يبدو أن طانط (سمية) قد جعلت خادمها يُلقي القمامة في حديقتنا.. ونجح الجيران في مصالحتهما..

لكن عمو (صبري) - جارنا - مات في حريق كبير في الليلة ذاتها.. كانت النار تتصاعد من بيتهم... وجاءت عربة المطافئ بلونها الأحمر الجميل.. أنا أحب عربة المطافئ.. لكني كنت خائفة من النار..

رفعت:

ألم تقل أمك شيئًا؟

نـهال:

صحوت من النوم لأجدها تقول لأبي إنها مندهشة أو شيء من هذا القبيل.. قال لها بابا إنّه لا يعرف السبب.. لكنه يعتقد أن (اللى يجي عليه مايكسبش)..

رفعت:

وهل كان والدك معكم حين حدث الحريق؟

نـهال:

طبعًا.. كنا نتفرج على فيلم مضحك جدًا في التلفزيون.. لكنّ بابا كان شاردًا.. وأكثر من مرة غطى وجهه بيده..

بعد هذا تشاجر أبي مع ضابط مرور.. وسمعت بعدها أن الضابط مات ببطنه.. إنّه ذلك الشيء الذي ينفجر..

رفعت:

الزائدة الدوديّة! لا يمكن اتهام أحد هذه المرّة.. لكني ألاحظ إن أباك كثير الشجار حقًّا؟

نـهال:

ماما تقول إن بابا (دمه حامي)..

لكني رحت أسألها: لماذا يموت أو يسافر كل واحد يتشاجر مع بابا؟

قالت لي (اللى ييجي على بابا مايكسبش)..

لكنها تشاجرت معه هي أيضًا!

رفعت:

حقًا؟ أكان هذا منذ عام تقريبًا؟

نهال:

نعم.. صحوت عند منتصف الليل على صوت الصراخ، كانت أمي تقول كلامًا مثل (لقد أفسدت حياتنا) و(تخلص منه أرجوك).. وبابا يقول لها (أنت جاهلة) و(أبعد كل هذا التعب؟)..

مشيت حافية لأسمع أكثر..

ومررت أمام باب غرفة المكتب المفتوحة.. عندما.....

شريف:

آه ه ه! ومـ.. ماذا رأيت؟

نهال:

كان التمثال يضيء بضوء أحمر.. ضوء يخرج من العينين.. مثل اللعبة التي تعمل بحجارة البطارية عندي.. لعبة دب تضيء عيناه وأنفه.. ويمشي وهو يدق طبلًا..

في نفس الوقت سمعت ماما تصرخ:

- «(فاروق).. لماذا تنظر لي هكذا؟ (فاروق)! ماذا أصاب عينيك؟»

وبعدها انطفأت عينا التمثال..

وجريت أنا خائفة إلى الفراش.. فغطيت وجهي وأنا أرتجف..

رفعت:

لـ (شريف): هذا الجزء يفسر كل شيء.. إن التمثال هو المعادل الموضوعي للأب.. وهو يرسل إشارة الشر إليه في لحظات الغضب..

لـ (نهال): بعد هذا مرضت أمك طبعًا؟

نهال:

في الصباح لم تنهض من الفراش.. ولم تعد لنا الإفطار مع دادة (سعدية).. وقال بابا إنها مريضة.. وجاءت خالتي (زهيرة) لتأخذني لدارها حيث ألعب مع (مايسة) و(مجدي)..

بعد أسبوعين عدت للبيت حيث أخبرني بابا أن ماما مسافرة.. ومن يومها وأنا أعيش مع بابا وحدنا..

أنا أحبه كثيرًا.. لكني خائفة منه ومن التمثال.. وخائفة من أن يتشاجر معي وتحمر عيناه...

رفعت:

لهذا نهضت من النوم وجئت تتصلين بنا.. كيف عرفت الرقم؟

نهال:

بابا كان يريد أن يكلمك! وجدت النمرة جوار الهاتف..

والآن قل لي يا أونكل.. ماذا أفعل؟

رفعت لـ (شريف):

يمكننا الآن فهم القصة.. إن تمثال (ست) قد أصاب الرجل بلعنة خاصة جدًا: إن من يثير غضبه يحكم على نفسه بالموت.. ونظرته شبيهة بعلامة (الليزر) الحمراء التي يصوبون بها على الهدف في البنادق الحديثة..

والآن اسمعي ما أقول يا (نهال) ونفذيه حرفيًا.. هل أنت خائفة من الخروج إلى الحديقة الآن؟

نهال (بعد صمت محرج):

نعم؟ أنا خائفة.. لا.. لا.. لست خائفة!

رفعت:

هذا جيد.. الخطر لا يكمن في الحديقة بل في هذا البيت الذي تتكلمين منه.. قولى لي.. هل عندك علبة صغيرة؟ أي علبة؟

نهال:

نعم.. نعم.. عندي علبة كبيرة كنت أضع فيها دميتي..

رفعت:

حسن.. ستدخلين إلى المكتب الآن.. وتضعين تمثال (ست) مع التمثال الآخر - تمثال الأم - في ذات العلبة.. بعد هذا تخرجين إلى الحديقة.. وتدفنين العلبة كما فعلت بالكتكوت.. مفهوم؟

نهال (في تردد):

لكن.. لكنّ.. الظلام.....

رفعت:

الظلام ليس مخيفًا.. المخيف هو ما ينتظرك لو لم تفعلي ما أقول..

شريف:

ماذا تحاول عمله بالضبط؟

رفعت:

لا أدري هل تنجح أم لا.. إن (إيزيس) هي عدو (ست) الدائم.. (إيزيس) هي الجمال والأمومة والخصوبة والحنان.. ربما لو دفناها مع (س) كانت قادرة على إبطال شره..

شريف:

كلام نظري أكثر من اللازم..

رفعت:

هيا يا (نهال).. تحركي..

نهال (مذعورة):

لا وقت يا أونكل.. لقد استيقظ بابا! قل لي يا أونكل: ماذا أفعل؟

صوت غليظ يمسك السماعة:

آلو! لقد كنت أتنصت لسماع ما تقوله (نهال) يا دكتور (رفعت).. عرفت أنها تحدثك.. وأنها جعلت من أبيها وحشًا كاسرًا مرة.. وضحية للسحر الأسود مرّة أخرى.. هذه الفتاة تهرف يا د. (رفعت).. تهرف.. ولسوف أعرف كيف أربيها!

نهال (في هلع):

لاااه! إنني أقول الصدق يا أونكل! (صوت نزاع على سماعة الهاتف).. بابا! لا تنظر لي هكذا! ماذا دها عينيك؟

رفعت (صارخًا):

(نهال)! افعلي كما قلت! اركضي إلى المكتب حالًا..

نهال:

سأفعل.. سأفعل! (صوت خطوات تركض)..

الأب (صوته يبتعد):

أيتها اللعينة! سأعرف كيف.....

(صوت مطاردة، صراخ، أبواب تنغلق)..

شريف:

ليتني أعرف ما يدور هناك...

رفعت:

إن أسلوب الهاتف هذا يشعرني بالعجز.. لا أذكر كم مرة سمعت صوت جريمة قتل وأنا لا أدري كيف أتصرف...

الأب (لاهثًا):

لقد فرت المجنونة إلى الحديقة ومعها تمثال فرعوني كان على مكتبي.. لن أجدها في هذا الظلام.. هلا فسرت لي ما يحدث هنا؟

رفعت:

أعتقد ـ بعد هذه المكالمة ـ أنك الأجدر بالتفسير..

الأب:

تفسير ماذا بالضبط؟

رفعت:

مصرع (صليحة).. ومصرع الجنايني (فرج).. وجارك الذي تشاجرت معه.. ورجل المرور... وزوجتك..

الأب:

أولًا: زوجتي تعاني من السرطان منذ عامين.. إنها نهاية محتومة..

ثانيًا: الجنايني أصيب بأزمة قلبيّة وهذا مسموح به كما أظن..

ثالثًا: جاري أحمق حاول إحراق القمامة في حديقته ولم يدر أن الريح تتحرك في اتجاه داره.. أمّا عن رجل المرور فلا أعرف عنه شيئًا.. ومن العسير أن أتشاجر مع رجل مرور عمومًا..

رفعت:

لماذا؟

الأب:

لأنني لا أملك سيارة.. هذا من حقي على ما أظن..

رفعت:

وماذا عن تاجر الآثار (صليحة) هذا؟

الأب:

لماذا أتعامل مع تاجر آثار وأنا محام؟!

رفعت (مذهولًا):

محام؟ محام؟ لكنّها قالت.....

الأب:

نعم محام يا سيدي.. هو ذا عنواني (يذكر العنوان) ورقم هاتفي (يذكر الرقم).. يُمكنك أن تتصل بهذا الرقم للتحقق من المعلومة التي أؤكدها.. إن لي صديقًا يدعى (صليحة).. لكنه حي يرزق حتى هذه اللحظة..

رفعت:

وتمثال (ست) هذا؟

الأب:

لدي تمثال فرعوني في مكتبي ابتعته من (خان الخليلي).. ولا أدري من يمثل.. إن التماثيل الفرعونية كلها تتشابه..

شريف:

لكن (نهال) حكت قصة معقدة جدًا عن لعنة (ست) التي أصابتك، وجعلت لك نظرة مهلكة لكل من يثير غضبك..

الأب:

هذه هي مشكلة الطفلة.. إنها تعيش في عالم خيالي دائم.. وتخلط بين الحقيقة والخيال.. إنها لا تثق بي.. وتؤمن بأنني أحاول الفتك بها.. يقول الطبيب النفساني إن هذا ناجم عن مشاجرتي الأخيرة مع أمها والتي تلاها تدهور الأم مباشرة.. ثم إرسالها لتعيش عند خالتها.. وحين عادت كانت الأم قد ماتت - رحمها الله - وقيل لـ (نهال) إنها قد سافرت.. كل هذا جعل (نهال) تعتقد أنني خصمها.. وأنني سبب فقدها للأم.

ثم إن (نهال) تملك هواية تلفيق أحداث لم تكن، ولها موهبة قصصية غير عادية.. وذكاء يفوق عمرها بمراحل...

لقد داعبت الجميع مداعبة قاسية.. خدعتكم وأساءت إلى سمعتي.. لكنّ الحقائق لا تخرج من أفواه الأطفال دائمًا.. أنا كرجل قانون أعرف هذا....

رفعت:

الحق أنّ هذا وضع محير يا أستاذ (فاروق).. كلامك يحتمل الصواب تمامًا.. وكلامها يحتمل الصواب تمامًا.. من العسير معرفة الحقيقة..

على كل حال.. أشكرك.. وأرجو أن تعاود البحث في الحديقة عنها.. وحاول ألا يؤذيها شيء في الأيام القادمة، وإلا تأكدنا من صواب قصتها.. (يضع السماعة)..

شريف:

ما رأيك في كل هذا؟

رفعت:

لحظة.. ليس قبل أن أطلب الرقم الذي ذكره.. لقد دونته هنا.. (يدير قرص الهاتف.. صوت رنين متصل)..

شريف:

لا أحد هنالك..

رفعت:

هذا دليل كاف على صدقه.. من الطبيعى أنه يبحث عنها في الحديقة الآن.. ولو كان الرقم زائفًا لرد علينا شخص متذمر أو امرأة مذعورة إثر الاستيقاظ من النوم.. وعلى كل حال يمكننا التأكد من العنوان غدًا...

شريف:

ألاعيب الأطفال هذه!

رفعت:

لن نكف عن التعلم طيلة حياتنا.. وفي كل لحظة ندرك أننا مازلنا سهلي الخداع كالأطفال.. لكنني أؤمن بأن هذا البيت يحوي مأساة إنسانية حقيقيّة آمل أن يعالجها الأطباء..

نعم نحن لن نكف عن التعلم وارتكاب الحماقات، حتى تحين ساعتنا وندفن في صناديق شاي كبيرة تحت تراب الحديقة..

* * *



الحلقة السادسة

الحـــافلـــة

يحكيها : عباس الدكروري

الحلقة السادسة
(الحافلة)

يحكيها: عباس الدكروري

«لا شيء على الإطلاق.. الشارع المقفر المظلم في ضوء واهن لعمود نور واحد نسيت البلدية أن تهشّم مصباحه.. لا شيء.. لا فتاة.. لا رجل..»

المقـدمــة

شريف:

صباح الخير أعزائي.. هو ذا (شريف السعدني) معكم في الساعات الأولى من يوم الجمعة.. ونحن بانتظار قصتنا التالية التي أرجو ألا تقل جودة عن قصة الأسبوع الماضي..

رفعت:

هذا ما أرجوه.. وأتعشم أن تخلو من مصاصي الدماء والمذءوبين والقبور المفتوحة لأن هذا قد صار مملًا..

شريف:

إن هذه هي مفردات الرعب يا د. (رفعت)..

رفعت:

بالعكس.. هذه هي مفردات الرعب لدى القصص المصورة ومجلة (د. س. كوميكس).. لكنّ الرعب عالم لا ينتهي.. وكما قلت لك في أول حلقة إن الرجفة التي تشعر بها حين تجد جهاز التلفزيون يعمل وحده، لتعادل أي رعب تحدثه الوطاويط والموميأوات الحية.. ثم إن هناك بعد الرعب النفسي.. حين تشعر بانك عاجز عن معرفة ذاتك.. شيء ما في داخلك يتغير ولا تدري كنهه..

(رنين الهاتف)..

شريف:

آلو! من المتكلم؟

صوت قلق:

أشعر أنني عاجز عن معرفة ذاتي.. شيء ما في داخلي يتغير.. ولا أدري كنهه!

رفعت:

يا لها من مصادفة! إنّه يمزح إذن؟

شريف:

لا أظن.. ما كان ليملك رد فعل بهذه السرعة.. من أنت يا سيدي؟

الصوت:

أنا.. أنا..... (يغلق السماعة)..

شريف:

لقد أنهى المكالمة.. دعابة ثقيلة هي حقًّا..

رفعت:

الحق أنه اتصل بنا أسرع من اللازم كما تقول.. وإنني لأتساءل..... (رنين الهاتف)..

شريف:

آلو.. هل أنت الأخ الذي يتغير داخله؟

صوت غليظ:

عم تتحدّث؟ أنا (عباس الدكروري)..

شريف (متداركًا):

مرحبا بك في برنامجنا يا أخ (عباس).. يُمكنك أن تحكي مشكلتك..

عباس:

أنا.. أنا محصل التذاكر في حافلة.. لن أذكر رقمها ولا الخط الذي أعمل عليه.. لا أريدهم أن يعرفوا من أنا.....

شريف:

تفكير حويط لولا أنك ذكرت اسمك الكامل..

عباس:

بالطبع هو اسم مستعار.. ظننتك نبيهًا متعلمًا لتحدس ذلك..

رفعت:

(عباس الدكروري)! اسم معقد جدًا كي يتم ابتكاره.. إنك تملك موهبة أدبية لا شك فيها يا أخ (عباس)..

عباس:

كان هذا هو اسم (صول) عرفته في الجيش.. وهو ما تبادر إلى ذهني قبل الاتصال.. المهم.. دعنا من هذا الكلام الفارغ..

قلت لكما إننى محصل تذاكر.. وقد فرغت من عملي منذ ساعتين.. لقد حكيت مشكلتي للجميع لكنّ لا أحد يهتم بها ولا أحد يصدّق..

لهذا أردت أن أجرب هذا البرنامج...

أتحدث إليكما من هاتف البقال الذي أسهر معه حتى الفجر.. إنّه صديقي الوحيد.. ومحله تحت داري مباشرة.. لكنه ليس جواري الآن ليسمع حرفًا مما أقول.. (صوت قرقرة).. لا أستطيع النوم مالم آخذ كرسيًا من المعسل معه.. (صوت قرقرة)..

رفعت:

جميل منك أن تبدأ بوصف الظروف البيئية.. لكني أقترح أن تدخل في الموضوع مباشرة..

عباس:

(سعال).. كح كح! توه توه! صبرك عليّ! كح كح! كنت أقول إنني محصل.. محصل ماذا؟

رفعت:

تذاكر.. على خط لن تذكره..

عباس:

الله ينور عليك.. (صوت قرقرة).. بدأ كل شيء من شهر.. لا بل من شهرين.. كنت أعمل في وردية المساء.. وأنا أحب العمل مساء لأنّه أكثر راحة.. الازدحام قليل.. وضغط العمل معقول جدًا.. ثم إن زبائن الليل أكثر هدوءًا وأقل عصبية، وأكاد أعرفهم واحدًا واحدًا.. فهم يتكررون أكثر الوقت..

صعدت تلك الفتاة إلى الحافلة، ومدت يدها بورقة نقد تطلب تذكرة.. كنت جالسًا في مقعد المحصل نصف غاف.. لكني رأيت أمامي أجمل وجه رأيته في حياتي.. أية تقاطيع! أية عينين! صحيح أنها كانت نحيلة ـ وأنا أحب البدينات ـ وصحيح أنها ترتدي السواد.. لكنّها كانت أجمل الجميلات حقًّا..

وجلست جوار النافذة على مقربة مني.. وراحت تتامل الشوارع في شرود.. ثم مدت يدها إلى حقيبتها فأخرجت شطيرة راحت تقضم منها وتواصل النظر من النافذة..

لم ترفع عينها قط.. ولم تدر بنظرها في المكان.. (صوت قرقرة).. صدقني.. والله على ما أقول شهيد..

بعد ثلاث محطات صعد هو.....

جدار آدمي يرتدي جلبابًا أزرق.. في عينيه حول بسيط.. ناولني ثمن التذكرة ثم مشى بين المقاعد.. توقعت أنه (نطع) وأنه سيجلس جوار الفتاة الوحيدة ليضايقها.. لكنه مشى إلى مقعد خال على بعد صفين منها وجلس.. وراح ينظر خارج النافذة..

عدت أختلس النظر إلى الفتاة، فوجدتها قد تغيرت كثيرًا.. لم تعد تنظر خارج النافذة.. بل هي تنظر إلى الرجل في رعب.. وحياتك لم أر رعبًا كهذا في حياتي.. لقد كفت عن ازدراد الشطيرة.. ثم كومت ما بقي منها في ورقة جريدة وأعادتها لحقيبتها..

كانت خائفة حقًّا.. ورحت أسأل نفسي: ترى يا بنت الناس لماذا أنت خائفة هكذا؟ أتراه لص حقائب يطاردك؟ أتراه ممن يهاجمون النساء وانت فارة منه؟ أتراه زوجًا يحاول استردادك بعد الطلاق أم خطيبًا غيورًا؟ أم ماذا؟

ثم قلت لنفسي: لا تتدخل فيما لا يعنيك يا (فؤاد).. ربما الفتاة لصة يطاردها هذا المخبر.. لم لا؟ هذا الجسد العملاق لا بد أن يكون لمخبر.. (صوت قرقرة)..

في المحطة التالية لم ينزل أحد.. وصعد شاب رقيع مراهق من أولاد هذه الأيام.. وطبعًا لم يجد الوغد مكانًا للجلوس سوى المقعد الشاغر جوار الفتاة.. وراح يبتسم ويتمحك محاولًا تعرفها.. بيني وبينك.. أنا لا أطيق المسخرة.. لهذا أمرته في حزم وعيني تطق شررًا أن يجد لنفسه مقعدًا آخر.. قال لي في رقاعة إنّه قطع تذكرة ومن حقه أن يجلس حيث يشاء.. فأطلقت عليه سيلًا من السباب لن أذكره هنا لأننا على الهواء.. المهم أنه قام ووجهه كالطماطم عاجزًا عن غلق (جاعورتي) التي انفتحت..

رفعت:

متى ستبدأ القصة يا أخ (فؤاد)؟

عباس (سيصير اسمه [فؤاد] من الآن):

كـ.. كيف عرفت اسمي؟

رفعت:

هذه مهنتي.. أن أعرف أشياء تحاول إخفاءها.. والآن هلًا بدأت سرد المشكلة؟

فؤاد:

ليكن.. غريب أن تعرف اسمي وأنا لم أقله.. ما علينا.. أين كنا؟ آه.. حين زجرت الولد الرقيع الخنفس.. يبدو أنّ هذا جعل الفتاة تعتقد أنني قادر على حمايتها..

رأيتها ـ للمرة الأولى ـ تنظر في اتجاهي..

ثم نهضت محاولة ألا تفقد توازنها بينما الحافلة تتحرك، وجلست على المقعد المجاور لي تمامًا.. وقالت كلامًا كثيرًا..

أعني أنني لم أفهم حرفًا في البداية لأن صوتها كان خفيضًا جدًّا.. ثم بدأت أفهم أنها تطالبني بحمايتها من ذي الجلباب الأزرق.. كان ضمن ما قالته هو أنه يريد قتلها.. وأنه يقتفي أثرها عبر شوارع المدينة منذ ثلاث ساعات.. وأنها حاولت الفرار أو أن تفقده عبر المواصلات لكنه كان يجدها دائمًا..

طبعًا ـ (صوت قرقرة) ـ سألتها عن السبب الذي يجعل ذلك (النطع) يرغب في قتلها.. لكنّها قالت إنها لا تدري..

كح كح! وأنت تعرف بالضبط أن آخر شيء يمكن للرجل أن يرفضه، هو تقديم العون لفتاة حسناء تستغيث به.. ساعتها يمكنه أن يحرك الجبال أو يشرب النيل كله.. وكان في مقدوري وقتها أن أمزق هذا الرجل تمزيقًا.. لكنّ المشكلة هي أنه حتى هذه اللحظة كان جالسًا مهذبًا وفي حاله، يتسلى بمراقبة الشارع..

إذن فلأطلب من السائق أن يتجه إلى قسم الشرطة.. لكن الفتاة توسلت إلى ألا أفعل..

إذن ما هو المطلوب مني بالضبط؟

لا شيء.. كل ما تريده هو أن أظل بجوارها حتى نهاية الخط.. فقد يسبقها الرجل بالنزول أو يشعر بأنها ليست وحيدة..

ثم خطرت لي فكرة أفضل..

قلت لها أن تنزل في المحطة التالية.. وتعود لدارها بالمواصلات. عرفت أنها من (السيدة زينب) ـ وأنا سأتأكد من أن الرجل لن يهبط وراءها.. وقلت لنفسي إنها لو كانت صادقة سيتحرك الرجل مستعدًا للنزول بمجرد أن تصل هي إلى الباب..

وبعد ثوان توقفت الحافلة فأشرت لها كي تهبط...

فما إن وصلت إلى درجات السلم حتى رأيت الرجل يتأهب للنهوض.. مشيت نحوه.. وصحت فيه:

ـ «أين تذكرتك يا هذا؟ ألم أطلبها منك؟»

وأطلقت صفارتي كي تتحرك الحافلة قبل أن يجد ردًا...

أرغى الرجل وأزبد وهتف يصيح بالسائق:

ـ «انتظر! إن هذه محطتي..» ـ ثم صاح في وجهي ـ «هل تتعاطى شيئًا؟ ها هي ذي تذكرتي.. هل أفقأ بها عينيك؟»

كانت الحافلة قد تحركت مسافة معقولة مبتعدة عن الفتاة.. لهذا لم أر ما يمنع من ممارسة هوايتي في الصراخ والجعجعة.. ورحت أهدد الرجل بالويل إن لم يحسن لهجته معي..

وراح راكبو الحافلة القلائل الذين لم يروا فيما حدث ما يستحق كل هذا الصراخ؛ يهدئون النفوس.. كان الرجل قويًا حقًّا وشديد المراس ولولا حماسي لما جرؤت على التشاجر معه..

ومرت محطتان ونحن غارقان في المجادلة وتبادل الاتهامات.. ثم إنّه توقف عن الصراخ وتمنى لنا خراب بيوتنا جميعًا، وقال إننا جعلناه ينسى أن ينزل في محطته..

وعند المحطة التالية نزل وهو ينعتنا بنعوت كريهة..

وتحركنا مبتعدين لنغيب في الظلام.....

وكانت هذه هي الليلة الأولى!

شريف:

أولى؟ إذن هناك ليلة ثانية وثالثة؟

فؤاد:

وعاشرة إذا أردت.. ففي الليلة الثانية تكررت القصة بحذافيرها.. صعدت الفتاة ولم يبد عليها بتاتًا أنها تعرفني.. وحينما مدت يدها الخالية من الخواتم لتأخذ تذكرتها، قلت لها في فخر:

- «صاحبك لم يستطع الخلاص مني البارحة..»

نظرت إلى في حيرة غير فاهمة.. وتساءلت:

- «أفندم؟!»

ثم تناولت تذكرتها واتجهت لمقعدها جوار النافذة، لتخرج الشطيرة من حقيبتها وتبدأ في تأمل الشارع.. بعد قليل صعد ذو الجلباب الأزرق.. وجلس جلسته السابقة.. ظننت أنه سيتشاجر، لكنه تصرف بوقار غريب.. وقدرت أنه ينوي بدء صفحة جديدة معي.. لكني لم أفهم.. هل هو مستمر في مطاردة الفتاة؟

إذن لماذا لم تطلب مني العون؟

ثم قلت لنفسي: إن النساء جميعًا مخبولات.. كلهن ناقصات عقل ودين.. ولا يمكن فهم ما يفكرن فيه ولا لماذا يفعلن ما يفعلن.. هن أنفسهن لا يعلمن سبب ما يقمن به...

رفعت:

إن آراءك لن تروق لقيادات الحركة النسائية.. لكني أرى فيها شيئًا من الصواب.. أكمل قصتك..

فؤاد:

المهم أن كل شيء تكرر..

رفعت:

كل شيء؟

فؤاد:

كل شيء والله على ما أقول شهيد.. صحيح أنها لم تطلب عوني.. لكنّها ظلت تنظر إلى الرجل في ذعر وكفت عن قضم الشطيرة.. ثم.. حين تحركت الحافلة أو أنذرت بالتحرك في إحدى المحطات؛ هرعت هي إلى الباب وصاحت في السائق: أنا نازلة! وقبل أن تتوقف الحافلة تمامًا كانت قد هبطت منها وذابت في الظلام...

أما الرجل فهرع إلى باب الحافلة الذي كان قد انغلق فعلًا.. وراح يهيب بالسائق أن يفتح الباب.. لكن السائق كان قد ابتعد بما يكفي.. وفي المحطة التالية هبط الرجل وهو يسبنا بنعوت عدة.. هي الشيء الوحيد الذي تغير في الموقف كله..

(صوت قرقرة).. كوح كوح تفو!

رفعت:

طبعًا ظللت تضرب كفًا بكف..

فؤاد:

قلت لنفسي إن الوغد قد أجاد توقع تحركاتها.. لكنها فرت منه مرّة أخرى..

شريف:

والمرة الثالثة؟

فؤاد:

تكرر كل شيء.. وكاد الجنون يصيبني.. هل هما يتلاعبان بي؟ هل هما يمثلان دورًا ما في (السيما)؟ أنا أعرف هؤلاء الناس ممثلي (السيما).. إنهم يفعلون أي شيء في أي مكان ويغضبون إذا ما أبديت دهشتك.. لكني لم أجد (كمرة) في الجوار..

على كل حال لم أستطع أن أفعل أو أقول شيئًا.. فكلاهما لم يقارف خطأ ما.. ما لي أنا وكل هذا؟

لكن - والله على ما أقول شهيد - كان الرجل أكثر يقظة.. لقد جلس جوار الباب متحفزًا وعيناه على الفتاة.. وأدركت أنه سيسبقها بسهولة لو أنها قررت الفرار..

كان الحل بسيطًا.. لهذا صحت ونحن ندنو من المحطة إياها:

- «افتح ورا يا (بيومي)!»

وانفتح الباب الخلفي فأشرت لها كي تهبط منه.. ولم تكذب خبرًا.. أمّا هو فلم يتوقع هذه الخيانة.. نهض محاولًا اللحاق بها.. لكنّ...

- «اقفل ورا يا (بيومي)!»

وقد كان.. ودخل الرجل في شجار مرير معي.. إن الوغد سليط اللسان ويتمتع بقاموس شتائم غير مسبوق..

كان قد فاض بي.. لهذا أعلنت له أنني أشك في أنه يتحرش بهذه الأنثى البائسة مهيضة الجناح.. وأنني أعرف أنه يعرف أنّ هذا المشهد يتكرر منذ ثلاثة أيام..

ثم إنني قلت له إنني لن أسمح له بركوب هذه الحافلة ثانية.. فصاح في غل:

- «بأي حق؟ هل أنت مدير الهيئة؟ وزير المواصلات؟»

- «لا دخل للحقوق هنا.. أنا أستعمل شريعة الغاب..»

وهذا هو ما حدث بالضبط.....

في الليلة التالية صعدت الفتاة كالعادة وراحت تلتهم شطيرتها.. حاولت أن أخبرها بما كان، لكنّها لم تبد على علم بشيء..

كل ليلة تشعرني بأنني أراها لأول مرة.. وتتصرف بتحفظ كأنني وغد يضايقها أو أتحدث مع الشخص الخطأ..

ثم دنت المحطة التي ينتظر الرجل فيها.. وكان نفس الوضع المألوف لي كل ليلة.. وبيني وبينك قلت لنفسي: لو كان الوغدان يريدان أن أجن فأنا كفيل بإصابة بلد كامل بالجنون..

ثم صحت في السائق أن يستمر دون توقف..

ولمحت الرجل يركض وراء الحافلة محتجًا.. ثم ذاب في الظلام.. وقلت لنفسي: إن الفتاة لو كانت تعابثني لبدت عليها الدهشة.. لكنّها ظلت حيث هي تنظر خارج النافذة في شرود.. وتلوك ما بفمها من طعام حتى تستغرق كل لقمة دهورًا.. كأنها.. كح كح!

كح كح! يا (عبده)! يا (عبده)!

(صوت غير واضح)..

هات حجرًا آخر..

رفعت:

يبدو أننا سنزيد من استهلاكك من (المعسل) هذه الليلة..

فؤاد:

لا عليك.. إن (عبده) القهوجي يقدم ألعن أنواع الدخان لنا.. يُقال إنّه يجفف الصراصير ويطحنها ويقدمها لنا، لكني أرى في هذا مديحًا لا يستحقه.. أين كنا؟ آه.. عندما تركت الرجل واقفًا على المحطة..

جاءت الليلة التالية وتكرر كل شيء..

لكن الرجل لم يظهر في محطته ولا أي محطة أخرى..

وتجاوزنا المحطة المعتادة التي تنزل فيها الفتاة هاربة.. وبعدها بثلاث محطات جاءت محطة مظلمة في منطقة مقطوعة من الخط.. وهنا رأيتها تتهيأ للنزول..

ما الذي يدعو فتاة تعيش في (السيدة زينب) إلى النزول في هذه المحطة - لن أذكر اسمها - وحيدة وفي هذا الوقت المتأخر؟

لا أدري.. لكني لم أتساءل كثيرًا.. هي حرة تمامًا في اختيار محطتها.. لكنى حين نظرت من النافذة رأيت رجلًا عريضًا يرتدي جلبابًا أزرق ويقف في ثقة بانتظار من ينزل!

هنا صحت في السائق أن يستمر دون توقف.. وبرغم احتجاجات الركاب القلائل الذين لم يفهموا سر تحكمي هذا.. كيف لا أسمح لها بالنزول ولا للرجل بالصعود؟

لكنّ الفتاة كانت قد رأت ما رأته.. وعلى وجهها الجميل تلاعبت بسمة خافتة.. بسمة عرفان بالجميل..

لكني لم أتوقع أكثر.. غدًا تصعد إلى الحافلة وكأنها لم ترني قط.. لقد أنقذتها مرارًا، لكنّها في كلّ مرّة تبدو كأنها نسيت كل شيء..

رفعت:

وما الذي يدعوها إلى ركوب ذات الحافلة كل ليلة؟ لماذا لا تطلب من قريب لها أن يحميها؟

فؤاد:

علمي علمك.. أنا أحكي ما حدث دون نقص ولا زيادة..

شريف:

والليلة التالية؟

فؤاد:

لعدة ليال تكرر هذا الموقف بحذافيره.. وتعدل الفتاة عن النزول ويعجز الرجل عن الصعود.. وبعدها ـ عند نهاية الخط ـ تهبط هي بعد أن تقول لي (ميرسي).. وتغيب في الظلام...

ثم إن الرجل قام بخطوة جديدة.. في إحدى الليالي لم أجد الرجل على المحطة.. وتهيأت الفتاة للنزول.. وتحركت الحافلة مبتعدة عدة خطوات بينما أنا أرمق الفتاة من زجاج النافذة الخلفي.. هنا رأيت سيارة أجرة تتوقف ورأيت جلبابًا أزرق ضخمًا يخرج منها لينقد السائق ماله!

لقد لعبها ببراعة! هذه المرّة ركب سيارة أجرة ومشى وراء الحافلة بانتظار هبوط الفتاة.. فما إن هبطت حتى ترجل هو.. وها هو ذا قد صار وحيدًا معها في هذه المحطة المنعزلة..

(صوت قرقرة)..

هنا ـ والله على ما أقول شهيد ـ غلى الدم في عروقي.. أنا قد تربيت في الحارة ولا أملك ذرة من التهذيب... فقط يتظاهر الإنسان بشيء من الخلق كي لا يُطرد من وظيفته.. ولا يعجبني الحال المائل بحال.. لهذا صحت في السائق أن يتوقف..

وجذبت المفتاح الإنجليزي الثقيل الذي نضعه تحت (المانفستو) ووثبت من الحافلة.. وعيناي تتقدان شررًا..

الليلة سأبيت أنا في التخشيبة ويبيت الرجل فوق منضدة التشريح..

لمست قدماي الأرض ـ وسط صيحات الاستفسار من السائق والركاب ـ ورحت أسابق الريح، راكضًا إلى حيث كان الرجل يمشي في همة وراء الفتاة التي لم تدر بوجوده.. وأنا أتأمل المفتاح الثقيل في قبضتي..

نويت أن أفتح رأسه أولًا، ثم أفهم وجهة نظره..

وهنا حدث شيء غريب حين رفعت عيني..

رفعت:

لم تجدهما..

فؤاد:

كيف عرفت؟

رفعت:

القصة هكذا دائمًا..

فؤاد:

هذا هو ما وجدت - والله على ما أقول شهيد - حين وصلت لمكانهما.. لا شيء على الإطلاق.. الشارع المقفر المظلم في ضوء واهن لعمود نور واحد نسيت البلدية أن تهشّم مصباحه.. لا شيء.. لا فتاة.. لا رجل.. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي لعب فيها الفأر في عبي..

عدت للحافلة وأنا أبسمل وأحوقل.. وصعدت أمام العيون المرتابة في حالتي العقليّة..

رحت أردد في حيرة: ألم تروهما؟ ألم تروهما؟

وخلصت بعد قليل إلى أن الجميع رأى الفتاة.. لم أكن أخرف.. لكنّ أحدًا لم ير الرجل ربما لأن أحدًا لم ينظر خارج النوافذ..

لكنهما تلاشيا.. ذابا..

وكانت هذه هي نهاية عهدي بالعمل ليلًا..

لقد توسلت إلى رئيس الحركة والملاحظ كي يتم نقلي إلى خط آخر.. وفي ضوء النهار.. وكذبت مئات الأكاذيب لأبرر..

أنت تفهمني يا د. (رفعت).. أنا لا أهاب أي شيء له لحم ودم وقلب ينبض.. لكني أموت في جلدي من كل ما لا أفهمه...

ومضت الحياة على نحو هادئ (صوت قرقرة).. فيما عدا المتاعب التقليدية لدى كل محصل يعمل في فترات الذروة.. وعلى خط كثيف أصلًا مليء بالمتشاجرين والمتزاحمين والهاربين من دفع ثمن التذكرة والمدعين.. لكنّ هذا هو عملي.. وذلك رزقي.. المهم أنني أفهم ما يدور حولي..

ولكني سمعت في مكتب المفتش ما أدار رأسي.. فزميلي هو الآخر يشكو من أشياء مريبة تحدث في أثناء عمله ليلًا.

أشياء تتعلق برجل ذي جلباب أزرق وفتاة شابة ترتدي السواد.. وهنا تدخل السائق العجوز عم (سعد)، وهو بالنسبة للهيئة كتمثال (رمسيس الثاني) لميدان المحطة.. أقدم شيء وعلامة مميزة لا يمكن تصوّر الهيئة بدونها...

إن عم (سعد) على المعاش لكنه يعمل في شيء ما لا أدري ما هو.. دائمًا هو هناك منهمك في كتابة أوراق أو التدخين أو.. هو أول من يحضر صباحًا وآخر من ينصرف.. يبدو أنه لا يتقبل حقيقة أنه صار بلا عمل.. والكل يتقبل وجوده على كل حال.. فلا أحد يجرؤ على طرده أو سؤاله عن سبب وجوده معنا..

قال لنا عم (سعد) وهو يبصق - ومعنى هذا أن كلامه مهم - إن كثيرين ممن عملوا على هذا الخط ليلًا طيلة السنوات العشر الماضية، صادفوا ذات الموقف.. قال لنا إن هناك فتاة قتلت في

إحدى المحطات منذ أعوام.. يبدو أن زوجها أرسل من يقتلها لسبب لا أدريه.. منذ متى كف الأزواج عن قتل زوجاتهم؟ إنهم يفعلون هذا طيلة الوقت.. المهم أن القاتل جرها وراء جدار وخنقها بحبل ليفي، وسمع الضجة أحد الحراس الليليين فهرع ليرى، رأى المنظر ورأى القاتل ذا الجلباب الأزرق يحاول الفرار.. كان رد فعله سريعًا وأطلق رصاصة من مسدّسه الحكومي.. وسرعان ما تكوم القاتل على بعد أمتار من ضحيته..



فيما بعد انهار الزوج واعترف بأنه استأجر الرجل ليفعلها..

(صوت قرقرة)..

رفعت:

ومن يومها ومشهد المطاردة يتكرر في حافلات الهيئة.. كل ليلة في ذات الوقت تقريبًا..

فؤاد:

عليك نور.. واضح أنّ هذا هو ما حدث بالضبط يومها.. يقولون إن روح القتيل والقاتل لا تهمدان أبدًا.. أعوذ بالله.. لقد اقشعر جلدي..

رفعت:

بعض الأشباح تمارس ألعابًا من هذا النوع.. يسمونها (البولترجايشت) Poltergeist.. وهو لفظ ألماني معناه الحرفي (الأشباح التي تدق).. ويبدو أن هذين الاثنين يتسليان بتكرار ما حدث

يومها..

فؤاد:

لا أفهم ما ترطن به.. أنا أمقت أسلوب الأفندية هذا حين يسمون كل شيء واضح باسم يستحيل فهمه..

رفعت:

لا عليك.. أنت محق.. فالرطانة هي داء المثقفين.. يسمون حلاوة اللسان (ديماجوجية) والفقراء (بروليتاريا)، ويسمون النفعي (براجماتي).. دعنا من الرطانة وقل لي ما استنتجته..

فؤاد:

لم أستنتج شيئًا.. فقط قررت أنا واثنان من رفاقي - عيال جدعان حقًّا - أن نركب الحافلة معًا هذه الليلة لنرى ما يحدث بالضبط.. وقد كان..

جلسنا مع المحصل - وهو ولد من (العتبة) له قلب أسد - ورحنا نثرثر ونتكلم.. وهنا دنت المحطة إياها..

وفي صمت رأينا الفتاة تصعد إلى الحافلة وتدفع ثمن تذكرتها، ثم تجلس في مقعدها المختار جوار النافذة.. وتخرج شطيرتها إياها..

بعد دقائق صعد الجدار ذو الجلباب الأزرق وجلس على مقربة منا.. وكالعادة لم يبد عليه أنه لاحظ وجود الفتاة..

وهنا هزّ المحصل يدي.. كان يشير إلى جيب جلباب الرجل حيث جلس.. لماذا يحمل الإنسان حبلًا غليظًا من الليف في جيبه هو من الضخامة بحيث يتدلى طرفه خارج الجيب؟

شريف:

هل شعرتم بخوف؟

فؤاد:

بالعكس.. لا شيء على الإطلاق يثير الخوف في مظهرهما.. مجرد شخصين عاديين تمامًا.. حتى إنني شككت في الموضوع كله..

إن هي إلا دقائق حتى توقفنا أمام المحطة التي اعتادت الفتاة النزول فيها.. فما إن نزلت حتى تبعها الرجل.. بالطبع لم يتدخل أحدنا هذه المرّة حتى نرى ما سيحدث..

وعلى الفور انسللنا - نحن الثلاثة - وراء الرجل والفتاة، ورحنا نقفو أثرهما على مسافة معقولة..

تواريا وراء جدار عند نهاية الممشى (صوت قرقرة) فأسرعنا نهرول لنرى ما يحدث فلا يفوتنا شيء..

وأمام عيوننا المذعورة رأينا الرجل يحيط عنقها بالحبل، ولمحناها تحاول المقاومة.. عندها نسينا من نواجه بالضبط واندفعنا صارخين محاولين منعه..

وهنا وجدنا الشيء ذاته..

لا شيء سوى شارع خاو يتألق بصعوبة تحت انعكاس مصابيح واهنة لا جدوى منها...

لقد تلاشت الرؤيا.. ذابت كأن لم تكن...

وعندها - فقط - تملكنا الذعر.. وعدنا نتخبط إلى بيوتنا..

رفعت:

حسن.. تلك هي الحقيقة إذن.. وهل من جديد في القصة؟

فؤاد:

لا شيء.. كنت أريد رأيك..

رفعت:

هل تتكرر هذه القصة حتى اليوم؟

فؤاد:

ليس دائمًا.. وعلى كل حال لقد تعلم راكبو وسائقو هذا الخط أن يتجاهلوا أى فتاة ترتدي السواء يطاردها رجل ذو جلباب أزرق.. فمن الواضح أنهم لا يؤذون أحدًا.. تلك (الأشباح التي تدق) على حد كلامك.. كح كح!

شريف:

لكنهم يثيرون الرعب.. وهذا كاف جدًا لجعلهم مؤذين.. إنهم يخالفون نواميس الحياة التي نعرفها.. وهذا يكفي لجعلي أقشعر..

فؤاد:

ما يثير الغيظ هو أن أحدًا لا يصدقك.. كلما حكيت القصة لواحد راح ينظر لك كأنك أبله..

رفعت:

ليس من رأى كمن سمع.. وأنا نفسي لن أصدق ما تقول حتى أراه..

فؤاد:

والآن إلى اللقاء.. لقد صدعت رأسك بقصتي هذه.. (يضع السماعة)..

رفعت:

لا عليك.. يبدو أنها نهاية الحلقة يا (شريف).. (رنين الهاتف)..

شريف:

لحظة! آلو! برنامج (بعد منتصف الليل)..

صوت امرأة:

أنا (فاتن).. ربة بيت.. أعود بالحافلة إلى داري مساء بعد زيارة أمي.. هناك فتاة تركب معي يريبني أمرها.. فتاة ترتدي السواد وتلتهم الشطائر.. ثم يصعد إلى الحافلة رجل يرتدي جلبابًا أزرق.. و.....

* * *



الحلقة السابعة

بس بس.. ناو..!

تحكيها : مها شوقي

الحلقة السابعة
(بس بس.. ناو..!)

تحكيها: مها شوقي

«أي ذعر شعر به اللص البائس وهو يرى قطة آدمية.. تنقض عليه من بين أشجار الحديقة لتمزقه.. وتجره نحو البوابة وهي تزوم وتزمجر؟»

المقـدمــة

شريف:

صباح الخير.. ها هو ذا برنامجكم الممتع (بعد منتصف الليل).. هل أنتم جالسون جوار أجهزة الهاتف؟ حسن.. أديروا القرص.. واطلبوا رقمنا.. إن صاحب الحظ السعيد الذي سيسبق الآخرين هو وقود آلة الرعب لهذه الليلة..

رفعت:

صاحب الحظ السعيد الذي سيجد حرارة في جهاز الهاتف

شريف:

ترى عم سيحدثنا؟ عن جني يتربص به؟ عن قبر مفتوح؟ عن شبح يجول في منزله؟

رفعت:

عن امتحانات الثانوية العامة التي صارت على الأبواب؟

شريف:

كلها أشياء مخيفة.. لهذا هي جذابة شائقة..

(رنين الهاتف)..

آلو؟ من يتحدث؟

صوت فتاة رقيق:

أنا (مها شوقي).. أظن أنّ هذا برنامج (بعد منتصف الليل)..

شريف:

لو كان جهاز المذياع مفتوحًا يا (مها) فأنت تسمعين صوتك خارجًا منه.. وإنها لتجربة غريبة حقًّا.. تتحدثين في الهاتف فينبعث صوتك من المذياع!

مها:

أنا أحب برنامجكم وأحب (رفعت إسماعيل) غريب الأطوار الملول الساخر من كل شيء.. إنّه يذكرني بالشاعر (ابن لنكك) الذي سخر من كل شيء حتى نفسه.. وبرغم كل شيء أراه جميلًا..

رفعت:

هذا يسرني يا.. آنسة؟

مها:

نعم..

رفعت:

هذا يسرني يا آنسة (مها).. إنك تقولين ذات الأشياء التي أقولها عن نفسي، والتي لا يراها أحد في شخصي.. أتعشم أن يكون وجهك في جمال بيانك.. إن المرأة الوحيدة التي أبدت إعجابها بي كانت المرحومة أمي.. وكانت تعاني ضمورًا في شبكية العين..

مها:

إن موضوع الجمال هو سبب كل ما حدث..

دعني أقدم نفسي أولًا.. أنا (مها شوقي).. طالبة في كلية الآداب.. لست من النوع الذي يُمكنك وصفه بالقبح مهما تجنيت.. لكني ـ كذلك ـ لست (صوفيا لورين).. أحيانًا أكون عملية إيجابية جدًا..

وأحيانا أشعر بأنني هشة تعسة وأنني J'ai Bessoin de Tenderess..

رفعت:

ما.. ماذا قلت؟ إن لغتي الفرنسية.....

شريف:

تقول إنها بحاجة إلى الحنان.. أرجوك استخدام العربيّة يا مها..

مها:

ليكن.. باردون.. إن حالتي المالية لا بأس بها.. فعندي سيارة خاصة بي.. ولدى أثواب بعدد أيام السنة.. وأبي يملك كل شيء ويعرف كيف يحقق الأشياء الباقية.. لكنى تعسة يا د. (رفعت).. تعسة..

كنت أشعر بالفراغ.. ولم يعد النادي قادرًا على إسعادي.. قرأت كثيرًا جدًا بالعربية والفرنسية، لكني فقدت القدرة على الاستمتاع.. فهي مجرد كلمات يخدعوننا بها متظاهرين بأنهم يفهمون

الحياة..

إنها المرارة.. إنّه الألم.. إنّه القنوط..

رفعت:

أفهم ما تقولين.. أحيانًا يخيّل إلى أن الاستمتاع بالحياة يعتمد على غدة معينة في جسدنا.. فلو انتزعت أو فشلت لما صار شيء قادرًا على إسعادنا.. لا بد أن (هيمنجواي) أديب أمريكا العظيم شعر بشيء كهذا وهو يضع ماسورة البندقية بين شفتيه، ويضغط الزناد بإصبع قدمه.. لقد فعلها في ذروة مجده وانتصاره..

مها:

هناك من يسميه الفراغ.. ربما.. لكني لن أتردى إلى هاوية الابتذال لأقول لك: (المال لا يجلب السعادة).. كلا.. هو يجلبها ولكن لنفوس مستعدة لأن ترضى به...

شريف:

هلا تحدثنا عن قصتك غير العادية ونسينا هذه الدهاليز النفسية؟

مها:

نعم.. نعم.. كنت أحاول أن أوضح أن من يمرّ بحالي يكون على استعداد كي يخوض أغرب التجارب... لمجرد التجديد...

بدأ الأمر حين حدّثتني صديقاتي عن مدام (ليليان).. بعضهن قلن للأخريات، وبدأ عدد من يعرفن الأمر يتزايد.. ثم دعتني إحداهن لزيارتها..

إن مدام (ليليان) تسكن في فيللا من طابق واحد في أحد الأحياء الراقية بالقاهرة.. ليكن (الزمالك) أو (المعادي) أو (جاردن سيتى).. لا يهم.. امرأة من أصل أرمني هي تعيش وحدها بعد وفاة زوجها..

كنا هناك في الثامنة مساء.. وكان هناك كلبان شرسان مربوطان بالسلاسل، وخادم نوبي عجوز.. قادنا إلى الباب..

وفي داخل الفيللا كانت هناك قاعة فسيحة ملأى بالطنافس المبعثرة على الأرض.. ورائحة بخور تعبق الجو.. مع إضاءة حمراء كتلك التي لا تتخيل مساكن الجن إلا بها..

أما الغريب في الموضوع فهو عشرات ـ هل أقول مئات؟ ـ القطط تلهو أو تغفو هنا وهناك.. كل قطة تتصور شكلها أو رأيتها في دائرة معارف يمكن أن تراها هناك.. وكلها مكتنزة تشي بالصحة وحسن التغذية..

أما مدام (ليليان) نفسها فامرأة فاتنة.. صحيح أنها في الأربعين من عمرها لكنّها في أفضل حالاتها، كتفاحة في ذروة النضج قبل أن تذبل وتتجعد، كانت فارعة القامة ذات عينين زرقاوين شديدتي الجمال، وثمّة خصلة من الشعر الأبيض في مقدمة رأسها وسط الخصلات السوداء، لا أدري هل هي صناعية أم لا..

وكانت ترتدي روبًا احمر أنيقًا..

وعلى كتفها الأيمن كانت تنعس هرة إيرانية (ملظلظة) بشدة.. كتلة من الدهن المغطى بفراء أبيض نظيف..

كانت هناك أشياء غريبة كثيرة خطفت بصري..

صور عملاقة للقطط على الجدران.. قطط محنطة وقفت متخذة أوضاع القنص.. تماثيل فرعونية للربتين (سخمت) و(باستت) بما في منظرهما من صلة بالقطط..

صديقاتي حدثنني عن هذا كله لكني لم أتصوره قط..

كانت هناك ست فتيات يعرفن المكان جيدًا، وقد اتخذت كل منهن مجلسها على إحدى الطنافس، وأمسكت هرة غافية تداعب فراءها في حنان..

أما مدام (ليليان) فقد قالت لي في لطف:

- «أوه.. انشانتيه.. هل أنت (مها)؟»

كان في لكنتها طابع أجنبي محبب للنفس..

- «نعم هي..»

قالت وهي تقودني إلى إحدى الطنافس:

- «قطة جميلة هي أنت يا (مها).. تعالي لتجلسي مع أخواتك الهرر..»

مجاملة رقيقة.. وخطر لي هنا أن المرأة - هي نفسها - أقرب إلى قطة آدمية.. كل شيء فيها (قططي) بشكل أو بآخر..

رفعت:

إن التشابه بين المرأة والقطة قديم حقًّا.. وهناك من أضاف إلى هذا فوجد تشابهًا كبيرًا بين الرجل والكلب!

شريف:

هذا يضايقك حتمًا.. فأنت رجل لا كلب..

رفعت:

بالعكس.. كانوا يتحدثون عن إخلاص الرجل وثباته وشجاعته وصبره.. أمّا المرأة فيتحدثون عن نعومتها وتقلبها وشراستها أحيانًا.. وميلها للكسل.. وحرصها على مظهرها..

مها:

يصعب عليّ دومًا أن أتخيّل وجود قط ذكر أو كلبة أنثى.. ما علينا.. المهم أن مدام (ليليان) جعلتني اجلس.. ثم دارت امامنا وجلست.. وراحت تقول وهي تداعب قطتها:

- «إن كل فتاة هي قطة في أعماقها.. وما نحن بصدده وما نقوم به يتركز في أن نشعر بـ (قططيتنا).. إن القط هو أسعد كائنات الله.. فهو جميل مستقل بشخصيته.. يعرف كيف يستمتع بالحياة.. إنّه ليس مهددًا بالذبح كالأرنب ولا مكلفًا بالسهر في الشارع البارد يعوي كالكلب.. ولا هو كريه وحيد كالأفعى.. ولا هو مهدد بطلقة تنهي حياته كالعصفور..

إن القط كائن رائع.. قوامه الاسترخاء وعماده الثقة بالنفس.. ودعمه الوحيد في الحياة هو حبنا له..

تقول الأغنية الفرنسية: أحبوا الحياة كما يحبّها القط الصغير..

ويقول (شكسبير) في (كما تحبها): أنظر إلى الهريرة وقد أفعمها المرح.. إذ تتريض في الشمس المتألقة..»

(بالطبع قالت هذه الاقتباسات بأصولها الإنجليزية والفرنسية)..

رفعت:

هل أنت واثقة أنّ هذه المرأة ما كانت تبشر بنوع من عبادة القطط؟

مها:

شككت في هذا.. قلت لنفسي: هي ذي يا (مها) جمعية سرية أخرى تمارس عقيدة حمقاء.. ولن يمرّ شهر حتى يحتل خبر القبض على أفرادها ـ بوساطة أمن الدولة ـ مكانًا بارزًافي صفحة الحوادث..

لكن كلام المرأة راق لي..

كانت تدعونا إلى أن نقلد القط ولا تدعونا لعبادته والعياذ بالله..

بل إنها قالت صراحة إن الفراعنة في بحثهم المتخبط عن سر الخلق، عبدوا القط في صورة الربة (باستت) التي ما زال معبدها في الزقازيق الحالية.. لكن هذا هراء..

ثم سألتنا: لماذا يقول الناس إن القط له سبعة أرواح؟ لماذا يقر القط حين ينام؟ لماذا يتشاءم الناس من القط الأسود؟ لماذا تتبدل عين القط كدورة القمر؟

كلها أسئلة بلا جواب..

كلها تقول إن القط كائن غير عادي.. والناس يحبونه بقدر ما يخشونه.. فهو يجمع شراسة النمر ووداعة اليمامة ورشاقة الغزال..

ثم بدأ الحفل.. وياله من حفل! حفل جدير بالقط (توم) حقًّا..

كانت هناك أطباق اللحم.. كثير من اللحم..

رفعت:

هذا غريب! كل هؤلاء المتأملين نباتيون في العادة.. وهل أنت واثقة من أنّه لم يكن لحم فئران؟!

مها (متقززة):

يع ع ع ع! لا تمزح في هذا يا د. (رفعت)! كان لحمًا بقريًا.. ومعه كثير من السمك.. ودارت كئوس اللبن البارد.. أنا لا أحب اللبن، لكنّ هذه المرأة استطاعت أن تجعلني أحبه..

كانت تقول طيلة الوقت:

- «هيا يا بنات.. إن القط يعتمد على هذه المواد ليغدو ذلك الكائن الرائع.. لم لا نحاول أن نستخلص منها أروع ما فيها؟ لم لا نمنح أنفسنا الفرصة؟»

تقول هذا وتصدر صوتًا ناعمًا هادئًا من حلقها.. ثم تتكور حول نفسها على الأرض.. ولا أبالغ إذا قلت إنها تموء في رضا...

الأخريات أيضًا لم يكن على ما يرام.. كن بدورهن يصدرن أصواتًا غير طبيعية، ويتكورن حول أنفسهن..

وبعد قليل وجدت أنني أحذو حذوهن..

رفعت:

لا يبدو جوًا صحيًا مريحًا للنفس..

مها:

بتاتًا.. لكني اندمجت فيه.. مثلما نندمج في حفلات الزار ونجدها فرصة طيبة لإخراج النزعات الدفينة..

نفس الشيء حدث يومها.. وبعضنا غرق في بكاء هستيري.. وبعضنا راح يرتجف كالورقة.. هل تعرف مكانًا آخر في العالم يُمكنك فيه أن تصرخ وتضرب الأرض بقدميك.. أو تنفجر ضحكًا؟

رفعت:

لا أعرف سوى المصحة النفسية.. الحق أنّ هذه المرأة القط قد كانت طبيبًا نفسيًا بارعًا..

مها:

كل شيء كان غريبًا جميلًا جديدًا.. وحين افترقنا ـ في نهاية الأمسية ـ عرفت أنني سأعود..

قالت لي على الباب وهي تلثم خدي:

ـ «أوصيك بنظافة الجسد.. فهكذا تفعل الهرة الطيبة، أوصيك باستعمال هذا الدهان ليجعل لك عبق الهرة، أوصيك بشرب الحليب ثلاث مرات يوميًا، يُمكنك إحضار من تشائين من صديقاتك لكنّ لا رجال..»

وتركتها وعقلي يدور.. هي ذي تجربة مثيرة حقًّا يمكن أن تعزيني عن كل هذا الفراغ الذي أعيش فيه..

وفي اليوم التالي ابتعت قطة بارعة الجمال من أحد محال الحيوانات الأليفة في (الزمالك).. لقد آليت أن أمنح وقتًا أكثر لمعرفة هذا الكائن الساحر..

سألت أترابي عن هذه المرأة وماذا تريد...

قلن لي إن هذه المرأة ـ بعد موت زوجها ـ عاشت مع قططها، لا تحلم بشيء سوى أن يتحدث العالم ويفكر ويحلم بالقطط..

ربما هي مخبولة.. هذا واضح تمامًا.. لكنّ المخابيل قد يتمتعون بقوّة نفسية غير معقولة تؤثر فيمن حولهم.. وتريحهم...

شريف:

وهل استعملت الدهان إياه؟

مها:

طبعًا.. بحذر شديد في البداية.. ثم وجدت أنه يجعل بشرتي أنعم.. مع مسحة من صفاء نفسي عطر.. واعتدت استعماله..

وحين ذهبت هناك للمرة التالية: طلبت منا في أدب أن ندفع مبلغًا رمزيًا تحتاج إليه لإطعام قططها..

شريف:

آها! إذن عملية النصب تتضح..

مها:

لا أظن.. إن عشرة جنيهات تدفعها فتاة ثرية مثلي أربع مرات شهريًا ليست بالأمر المؤذي.. ثم إنها لم ترغمنا على شيء..

كانت تضع صندوقًا أمامنا وتتركنا وشأننا.. فمن شاءت الدفع فيها وإلا فلا لوم عليها..

رفعت:

وهل كان برنامجكن ثابتًا في كلّ مرّة؟

مها:

لا.. أحيانًا كنا نرى أفلامًا ملونة تعرضها بجهاز عرض صغير.. نرى فيها قططًا تتوالد وتلهو وتصطاد الفئران.. أحيانًا كنا نتأمل صورًا للقطط.. وأحيانًا كانت تدعونا للتأمل ككل مدربي (اليوجا) المحترفين.. ولقد تزايدت مشاعري الإيجابية وازددت ثقة بنفسي.. وازدادت حواسي رهافة..

رفعت:

ومتى شعرت أن الأمور ليست على ما يرام؟

مها:

ومن قال إنني شعرت بشيء كهذا؟

رفعت:

لابد أنّ هناك سببًا لاتصالك عدا شعورك بالهناء الروحي..

مها:

لا أدري متى بدأ هذا.. ربما بعد شهرين أو أكثر من تعرفي مدام (ليليان).. المهم أنني لاحظت رهافة غير عادية في حواسي.. صرت أسمع صوت خطوة النملة كما يقولون.. أسمع همسات الناس وضوضاءهم وصوت أنفاسهم الثقيلة..

لكم ضايقني هذا! صرت أصحو من نومي بسهولة غير عادية فأتمطع وأنهض.. لمجرد أن ورقة شجر قد سقطت من فوق غصنها في الحديقة.. قلت لنفسي إنني متوترة لا أكثر..

بعد هذا مررت بتجربة أثارت قلقي..

في تلك الليلة نهضت من نومي قلقة.. وأردت أن أرتب الأشياء التي عليّ أن أقوم بها في الكلية غدًا..

أمسكت بالورقة والقلم وكتبت ما ينبغي أن أقوم به.. ثم عدت إلى الفراش ونمت...

في الصباح أيقظتني أمي من النوم وقالت إنني أصدر صوتًا غريبًا بحنجرتي وأنا نائمة.

على مائدة الإفطار رحت أعب الحليب.. وألتهم الجبن والبيض بنهم لا أدري لماذا صرت أمقت الحلوى الطحينية والفول؟!

سألني أبي وهو يطالع الجريدة:

- «ماذا فعلت عندما انقطع التيار الكهربي أمس؟»

- «هـ.. هل انقطع التيار؟»

- «بالطبع يا (مها).. من العاشرة مساء حتى الفجر.. ألم تشعري بهذا؟»

- «يـ.. يبدو أنني نمت مبكرًا فعلًا..»

كنت حقًّا قد دخلت فراشي في تمام التاسعة.. لكنّ.. كيف لم ألحظ؟ كيف نهضت في الظلام الدامس وكتبت ما كتبت؟!

هناك تفسير واحد.. هو أنني صرت أرى ليلًا!

رفعت:

وهل سرك هذا؟

مها:

حتمًا لا.. إن قدرات الإنسان المحدودة هي التي تجعله إنسانًا.. ولو تبدل شيء منها فهذا مخيف أكثر منه سارًا.. تصوّر أنك جرحت إصبعك فلم ينزف دم.. هل يسرك هذا؟

رفعت:

هذا حق.. حتى الألم هو تعبير عن إنسانيتنا وصحتنا.. لو أنك لامست النار ولم تصرخ ولم تحس بألم، لكان هذا دليلًا على إصابتك بالجذام أو زهري الجهاز العصبي..

مها:

لقد أصابني الهلع.. وهرعت إلى مدام (ليليان) أسألها..

بدا السرور على وجهها وقالت:

- «هذا هو الطريق السديد يا ملاكي.. إنك تتعلمين من القطط بسرعة كبيرة.. لقد صرت مرهفة الحس خارقة القدرات.. لقد كان كل هذا موجودًا من البداية لكنك غطيته بغبار إنسانيتك.. اليوم زال الغبار.. وعاد كل شيء براقًا جميلًا كما خلقه الله.. أنت جديرة بأن تُحسدي..»

رفعت:

طبعًا لا أظنك من السذاجة بحيث تجهلين أن الدهان يحوي شيئًا..

مها:

للأسف لم يخطر هذا ببالي قط.. إن الأمر كله يبدو سخيفًا غير قابل للتصديق..

ولقد سألت صديقاتي عن أعراض مماثلة لكنهن سخرن مني جميعًا.. لكني لا أكتمك يا د. (رفعت) أنني لاحظت لديهن رهافة حواس غير عادية.. ذات مرة صرخت إحداهن في المحاضرة، إنها تشم رائحة حريق.. وحدث هرج ومرج.. وغادر البعض المدرج..

فيما بعد عرفنا أن أحدهم أحرق ورقة في الفناء.. أي على بعد مائة متر من مكاننا تقريبًا...

وكان بوسع واحدة منا أن تعرف نوع الطعام الذي يعده مطعم المدينة الجامعية، وهي على بعد نصف كيلومتر منه..

في هذه المرّة اتجهت إلى فيللا مدام (ليليان) في حزم.. كنت أريد أن أعرف تفسيرها..

كانت متحفظة باردة وهي تداعب قطتها المفضلة.. ثم قالت في كياسة إنها قدمت لنا هدية ثمينة يعجز عقلنا القاصر عن فهمها..

- «لماذا تظنين بشرتي لم تشخ ولم تتجعد؟ لماذا أنا مرحة أعرف كيف أستمتع بحياتي؟ لأنني عرفت كيف أحيا كقطة.. أفكر كقطة وأنام كقطة وآكل كقطة..»

ودون اكتراث قالت لي إنها تنتمي إلى جيل عريق من كاهنات (باستت) قطة الفراعنة المقدسة.. لقد توارثت أسرتها هذا الفن جيلًا بعد جيل حتى بعد رحيل بعض الأجداد إلى (أرمينيا).. ومفتاح هذا الفن يكمن في الدهان المقدس الذي ينقل صفات القطط إلى الإنسان...

كاهنات (باستت) عرفن كيف يصنعنه.. ولم يدون السر على ورق قط بل تناقلنه لفظًا...

ثم قالت لي بذات المرح إن الدهان سيظل يعمل عليّ.. سواء أردت أم لم أرد.. توقفت عن استعماله أم واظبت..

صحت فيها إنني سأبلغ الشرطة..

ضحكت وقالت:

ـ «هذا شأنك يا قطتي.. ماذا سيجد البوليس عندي؟ وما هي فرصتك في أن يصدقوك؟ دعك من عدم وجود شهود.. يجب أن تمنحي ذاتك لـ (باستت)... هذا هو الخلاص الوحيد..»

تركتها حائرة لا أدري ما أصنع ولا ما أقول..

شريف:

لم تبلغي أهلك بما حدث؟

مها:

أبلغهم بماذا؟ بأن هناك امرأة تهوى القطط؟ وهي كاهنة من كهنة (بوباسطي)؟ ظننتك أكثر واقعية يا أستاذ (شريف)..

على كل حال لم يكن الأمر بهذا السوء..

لقد تمكنت من سماع لصين ينويان اختطاف حقيبتي في أثناء خروجي من الكلية.. كانا يتهامسان على بعد خمسين مترًا، لكني سمعت كل شيء.. ووضعتها تحت إبطي في الوقت المناسب ورجعت أدراجي..

تمكنت من إيقاف أكثر من حريق قبل أن يتفاقم..

لكن الأمر صار لا يطاق مع موضوع الفئران!

رفعت:

فئران؟ هل تعنين؟

مها:

نعم.. ذيول فئران في درج مكتبي.. لا أدري كيف ولا متى.. مستحيل أن أرى فأرًا في يقظتي دون أن يغشى على.. لكني لا أدري ما حدث وأنا نائمة! د.(رفعت).. أعتقد أنني أصطاد الفئران في الحديقة ليلًا بينما أهلى نيام!!

رفعت:

يا للهول! أنت لا تمزحين يا (مها)..

مها:

حتمًا لا.. إنني أفعل في غفلتى أشياء غير مفهومة.. ذات مرة شرد ذهني وأنا أمشي في الحديقة وحين أفقت وجدت أنني قد اصطدت ثلاث فراشات ويعسوبًا.. بضربة واحدة.. وبانعكاس حركي لا يصدر إلا عن قطة.

(تتنهد).. بعد هذا جاء موضوع اللص..

لا بد أنه تسلل إلى حديقتنا ليلًا.. لا بد أنه أحمق.. لا بد أنه أحدث جلبة ما.. لا أدري كيف مات.. لقد وجوه رجال الشرطة ميتًا على بعد خطوات من بوابة الدار.. كان ممزقًا بفظاعة.. آثار أظفار وأنياب.. وجهه يكتسي بقناع الرعب.. وقال الطب الشرعي إنّه لم يمت بجراحه بل مات بالصدمة العصبية.. لقد رأى ما يخيف..

لقد بحثوا كثيرًا عن كلب مسعور أو ذئب يجول في المنطقة دون جدوى.. أبي يقول إنها العناية الإلهية.. لا جدال في ذلك.. لكنّ هناك عنصرًا آخر لا يفهمه أحد..

نسيت أن أقول لك إن كلبنا لم يفعل ذلك.. لقد مات كلبنا المسكين (ركس) مسمومًا بيد أثيمة قبل الحادث بشهرين..

إن كراهيتي للكلاب تتزايد يومًا بعد يوم.. لكني لا أصدق أن أفعلها..

د. (رفعت).. هل حقًّا تظن أنني (مقطوطة)؟!

رفعت:

(مقطوطة)! على وزن (مذءوبة).. تعبير جيد يا (مها).. لو كانت قصتك صادقة فالأمور لا تأخذ منحى آخر..

أي ذعر شعر به اللص البائس وهو يرى قطة آدمية تنقض عليه من بين أشجار الحديقة لتمزقه.. وتجره نحو البوابة وهي تزوم وتزمجر؟!

بالمناسبة يا (مها)... أظن أن اسمك ليس (مها) كما هي العادة في هذا البرنامج.. إن هذا يجلب متاعب هائلة لك..

مها:

بالطبع.. لكنّ اسمي قريب جدًا من هذا..

رفعت:

ليكن يا (مهيتاب).. ماذا حدث بعدها؟

مها:

لا تتذاك عليّ.. ودعني أكمل قصتي..

كنت أقول إن حالة التحول القططي هذه تحدث دون أن أشعر بها حين يجن الليل.. وأخشى ما أخشاه هو أن أوذي أحدًا دون أن أدري.. هل تنصحني بعلاج نفسي؟

رفعت:

أقترح أن ألقاك أولًا يا من ليست (مها) ولا (مهيتاب)..

شريف:

لا أظن أنها فعلت ما فعلته.. كيف لم تلوث الدماء ثيابها؟

رفعت:

هكذا القطط.. تلعق فراءها ومخالبها بعد الافتراس لتعود أنظف مما كانت.. بالمناسبة.. أرى أنك لم تتحولي بعد برغم أنها الثانية صباحًا..

مها:

لا أدري.. عسى هذا لا يحدث أبدًا.. د. (رفعت).. إنني مذعورة.. مذعورة حقًّا وأريد أن تساعدني Je suis un autre يا د. (رفعت)[9]!

رفعت:

الله يعلم كيف.. لكني سأحاول.. ألقاك في مكتبي بالكلية غدًا إن شاء الله.. هل تريدين شيئًا آخر؟

مها:

لحظة.. (صوت قرعات على الباب).. إن هذا.....

صوت امراة:

(مُهرة).. هل تسمعين المذياع الآن؟ ثمّة فتاة صوتها كصوتك تحكي مشكلة مضحكة.. (مُهرة).. ما كل هذا الظلام؟ ولكن الهاتف معك.. من تحدثين؟ يا للهول! ماذا دها عينيك؟ إنهما تتوهجان.. (مهرة)! إذن فأنت التي نسمعها الآن في المذياع!!

(مُهرة)! لاااااه!

* * *



الحلقة الثامنة

من أنا ؟

يحكيها : رفعت إسماعيل

الحلقة الثامنة
(من أنا؟)

يحكيها: رفعت إسماعيل

«ما هو الدليل على كينونتي؟ ما الذي يجعلني أنا؟»

المقـدمــة

شريف:

حلقة جديدة من برنامجكم (بعد منتصف الليل).. (شريف السعدني) معكم وضيفكم الدائم د. (رفعت إسماعيل).. أرجو أن تكونوا قد تأكدتم من أن الأطفال قد ناموا وأن نافذة الحمام مغلقة..

رفعت:

وأن الباب موصد بإحكام.. وأن تكونوا قد تفقدتم خزانة الثياب وألقيتم نظرة تحت الفراش.. فالأشياء التي لا تريدون أن تأتي تكون هناك دائمًا..

شريف:

لا تثر ذعرهم يا د. (رفعت)..

رفعت:

كل أطفال أوروبا وأمريكا يتحدثون عن (رجل الخزانة).. فكل طفل هناك يذكر شعوره حين نام وحيدًا في حجرته للمرة الأولى، وراح يرمق خزانة الثياب في جزع متوقّعًا أنّ هناك من ينتظر فيها..

شريف:

وصلتني مكالمات هاتفية عديدة بخصوص حلقة الأسبوع الماضي.. يقولون إن تحول إنسان إلى ذئب عندما يكتمل القمر أمر سخيف.. وإن هذا البرنامج هو فريسة سهلة لمجموعة من مؤلفي القصص والكاذبين وهواة التمثيل..

رفعت:

لا أدري.. أنا لم ألق مذءوبًا حقيقيًا حتى اليوم..

شريف:

لكن الذنب ليس ذنبنا.. فنحن نفترض الصدق في كل من يتصل بنا.. والمستمع هو من يمد آلة الرعب بوقود القصص حتى تعمل ولا تتوقف أبدًا..

رفعت:

للمرة المليون! إن لك مزية مهمّة يا (شريف) هي الإصرار.. مع عجز تام عن الشعور بالحماقة..

شريف:

أشكرك..

رفعت:

إن الذين لا يخشون أن يبدوا سمجين لهم قوم جديرون بالاحترام.. ولهم الأرض بما عليها ومن عليها..

(رنين الهاتف)..

هو ذا زبون الليلة..

شريف:

آلو.. هنا برنامج (بعد منتصف الليل).. من يتحدث؟

صوت رزين:

هل الكهل (رفعت إسماعيل) معك؟

شريف (مندهشًا):

يبدو لي الصوت مألوفًا.. إن د. (رفعت) معي.. لكننا نحافظ على الكلفة يا سيدي ونحرص على الألقاب.. فهلا تجنبت النعوت التي تدنو من الإهانة؟

الصوت:

أليس كهلًا؟ ولكنك قوى الملاحظ يا أستاذ (شريف).. إن نبرات الصوت واضحة تمامًا.. قل شيئًا يا د. (رفعت)..

رفعت:

ماذا أقول؟ إن بلاغتك تكفي شعبًا من البكم ليشفى للأبد..

شريف:

ذات الصوت! أنتما تملكان ذات الصوت بذات المقاطع! من أنت يا سيدي؟

الصوت:

أنا د. (رفعت إسماعيل)!

شريف:

ونفس الاسم أيضًا؟ إنها لمصادفة!

الصوت «سنسميه (رفعت إسماعيل) تمييزًا له عني»:

بل أنا هو.. أنا مجموع الصفات والعلامات والطباع التي اصطلح على تسميتها (رفعت إسماعيل)..

رفعت:

هذا مثير! إن المرء لا يتلقى مكالمة من نفسه كل يوم.. وماذا أكون أنا إذن يا د. (رفعت إسماعيل)؟

رفعت إسماعيل:

لا أدري.. كل ما أعرفه هو أنني (رفعت إسماعيل)..

شريف:

لحظة.. إن اسم (رفعت إسماعيل) شائع حقًّا.. ومهنة الطبيب شائعة تمامًا.. إن الأمر مصادفة طريفة لا أكثر ولا أقل..

رفعت إسماعيل:

حسن.. لنقل من أنا.. لنعرف ما أعنيه بالضبط..

أنا د. (رفعت إسماعيل) ابن قرية (كفر بدر) بمحافظة الشرقية.. توفي أبي في الصغر ورحلت مع خالي إلى المنصورة.. ثم درست الطب في (القاهرة).. وسافرت في بعثة دكتوراه إلى (أسكتلندا).. وعدت من هناك لأنشئ وحدة أمراض الدم بالكلية..

شريف:

هذا تاريخ سهل يعرفه كل من يعرف د. (رفعت إسماعيل)..

رفعت إسماعيل:

لي أخ يدعى (رضا) متزوج من امرأة متسلطة تدعى (نجاة)، وأخت تدعى (رئيفة) زوجها يدعى (طلعت).. أعز أصدقائي في الإسكندرية ويُدعى (عادل).. وقد خطبت شقيقة زوجته (هويدا) لفترة.. ولي جار يدعى (عزت) - مثّال - وسر فشل علاقتي مع الأنثى هو انعدام ثقتي بقدرتي على

أن أتحمل شريكًا لحياتي.. دعك من حب متغلغل في نفسي لفتاة إنجليزية تدعى (ماجي).. هل هذا كاف أم أتحدث عن الكاهن الأخير (هن - تشو ـ كان) الذي..

رفعت (في عصبية):

كفى!

شريف:

هل هذا الكلام صحيح يا د. (رفعت)؟

رفعت (متوترًا):

للأسف صحيح.. وبعضه لا يدري به أحد سواي.. إنه جزء من أعمق أعماق ذاتي.. إنني.. إنني.. لا أدري حقًّا.. هـ.. هذا الرجل يعرفني كنفسي!

رفعت إسماعيل:

لأنني أنت يا د. (رفعت)! هذا كلام واضح..

شريف:

ما هو الشيء الواضح هنا؟ أنت مجرد هاوٍ لتقليد الأصوات يا سيدي تحاول التسلية..

رفعت إسماعيل:

حسن.. إن فصيلة دمى (B).. ولدى قرحة مزمنة وربو شعبي وضيق في الشريان التاجي الأمامي بسبب الإفراط في التدخين.. ولدي وحمة حمراء في جدار البطن.. و.....

رفعت (مستسلمًا):

الأمر واضح.. هذه الصورة الشمولية لا يعرفها أحد من معارفي وأقاربي.. كل واحد منهم يعرف جزءًا صغيرًا منها.. إن أخي لا يعرف حكاية شرياني التاجي.. بينما (عزت) جاري لا يعرف اسم أخي ولا اسم زوجته.. ولا أحد يعرف (ماجي) سوى (عادل).. لكنّ (عادل) لا يعرف شيئًا عن الكاهن الأخير[10]..

شريف:

ومعنى هذا؟

رفعت:

معناه أن المتكلم هو (رفعت إسماعيل) حقًّا..

شريف:

ومن تكون أنت إذن؟

رفعت:

سؤال غريب! أنا (رفعت إسماعيل) طبعًا..

شريف:

هل لك أخ توءم متماثل؟

رفعت:

لا أخ لي سوى (رضا).. وعلى كل حال لا أحد يُسمّى التوائم بنفس الاسم..

شريف:

إذن.. ما معنى ما يحدث؟

رفعت:

لا أدري.. ربما كان د. (رفعت إسماعيل) هذا كريمًا بما يكفي كي يفسر لنا معنى هذا كله..

رفعت إسماعيل:

الأجدر بك أنت أن تقدم هذا التفسير لي.. فهأنذا جالس في داري أستمع إلى المذياع ثم أجد من يتحدث باسمي وصوتي.. تجدني في غاية الدهشة..

شريف:

لكن لحظة.. أنا واثق من أن من أمامي هو د. (رفعت إسماعيل) بشحمه ولحمه ـ إن كان يملك شيئًا غير العظام - ولن أصدق أنه نصاب.. لقد تقابلنا مرارًا.. وهو من يرد على الهاتف حين أطلبه.. وهو من توجد صورته في بطاقته الشخصية.. إذن هذا هو من اصطلح القوم على تسميته د. (رفعت إسماعيل)..

رفعت إسماعيل:

هذه ـ لعمري - قضية فلسفية مهمّة: ما هو الدليل على كينونتي؟ ما الذي يجعلني أنا؟ هناك (رفعت) يعرفه المستمعون.. وواحد يعرفه طلبته.. وواحد يعرفه أصدقاؤه.. وواحد يعرفه هو نفسه.. فمن بين كل هؤلاء هو العجوز (رفعت إسماعيل)؟!

رفعت:

أنا كل هؤلاء معًا.. على كل حال لا يوجد سوى حل واحد لهذا الإشكال.. هو أن نلتقي..

رفعت إسماعيل:

مستحيل..

رفعت:

آها! هو ذا التراجع.. إذن أنت مجرد نصاب عبقري..

رفعت إسماعيل:

لا أعني هذا.. الأمر - ببساطة - هو أن لقاءنا مستحيل.. لأننا نفس الشخص.. لكننا جانبان منفصلان متناقضان..

رفعت:

هل تعني أننا شخصيّة مزدوجة؟ ربما كنت أحمل بذور الجنون في روحي.. لكنّ - مهما بلغ الجنون من تفاقم ـ لم ير العلم الشخصية الأخرى تغادر الجسد لتعمل مستقلة.. إنّه أمر شبيه بأن يغادر أنفك وجهك ليتنزه ثم يعود إليه!

رفعت إسماعيل:

هذا هو المفترض.. لكنّ ـ في ظروف غير مفهومة ـ لم نعد ذات الشخص..

شريف:

لا أفهم كل هذا الجدل الميتافيزيقي.. إن هذا المزاح.....

رفعت:

لحظة يا (شريف). أستطيع فهم ما يريد هذا المعتوه قوله.. إن كلًّا منا ليس شخصًا واحدًا.. أحيانًا أنت قاس شرير كالشيطان.. وأحيانًا أنت رقيق كملاك.. أحيانًا أنت واهن كطفلة رضيعة.. وأحيانًا أنت أقوى من (طرزان)...

وفي كل لحظة من حياتك تلعب إحدى هذه الشخصيات الدور الأكبر.. وفي ظروف معينة ـ كالتي يزعمها هذا الأخ ـ قد تتحرر شخصيّة من الشخصيات العديدة لتمارس حياة مستقلة..

رفعت إسماعيل:

تماما كما تقول.. لست غبيًا جدًّا يا د. (رفعت)..

شريف:

إذن فهذا الأخ يمثل الجانب الإيجابي المندفع الوقح قليلًا في شخصيتك يا د. (رفعت).. لكنّ كل هذا عسير على التصديق..

رفعت:

بالطبع.. لهذا أرجح أنّ هذا الرجل نصاب يجيد تقليد الأصوات.. وأقترح إنهاء المكالمة حالًا..

رفعت إسماعيل:

مازلت تكابر.. ألم تقل منذ ثوان إنّه من المستحيل أن أعرف كل هذا عنك؟



رفعت:

إن الشخص الذي يعرف (رضا) و(عزت) و(ماجي) و(عادل) لقادر على تجميع محاور حياتي واستنباط قصة كاملة..

رفعت إسماعيل:

ومن هو هذا الشخص الذي يعرف كل هؤلاء؟

رفعت:

حسن.. لنفترض أنك محق.. فماذا تريد يا سيد (رفعت)؟ لا أظن أنك تعشق الثرثرة..

رفعت إسماعيل:

لا أريد سوى وضع الأمور في نصابها.. ليس (رفعت إسماعيل) الذي يلتقي به البرنامج هو (رفعت إسماعيل) الوحيد...

رفعت:

حسن.. لنرتب أفكارنا.. يمكن أن أفترض أنك قريبي؟

رفعت إسماعيل:

بالطبع لا..

رفعت:

ذات مرة حدث شيء مماثل مع كهنة (الفودو) في (الكاريبي)، وقد استطاعوا الحصول على صورة مجسدة إكتوبلازمية لي من عويناتي التي حصلوا عليها.. نسخة متقنة مني...

رفعت إسماعيل:

لا أدري أهذا ممكن أم لا.. لكنه ليس الحال هنا..

رفعت:

هل أنت من شعب الأطياف؟ (آشتا) آخر؟ أو ربما أنت آت من عالم مواز كالذي تحدث عنه (سالم) و(سلمى) يومًا ما؟ ربما أنت نسختي على ذلك الكوكب.. أو أنت نسخة جينية (كلون) صنعها، أحدهم من إحدى خلايا جسدي.. إن كتاب الخيال العلمي قد قتلوا هذا الموضوع كتابة..

رفعت إسماعيل:

لماذا تخلط الأمور؟ لقد استعرضت كل الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة.. والمعقولة والشاذة.. لماذا لا يكون الحل الوحيد هو أنني أنت؟

رفعت:

دعك من الفلسفة.. وقل لي.. ربما أنت توءم سيامي كان في جسدي وانتزعوه مني في الصغر ليغدو شخصًا آخر كامل النمو.. ويشبهني في كل شيء..

رفعت إسماعيل:

أنت إنسان غريب التفكير حقًا.. قلت لك حلًا بسيطًا..

رفعت:

حسن.. أشكرك على إبلاغك لي أنني اثنان ولست واحدًا.. هل يمكننا إذن إنهاء هذا السخف؟!

رفعت إسماعيل:

حسن.. أقترح أن نحل هذا الإشكال بطريقة متحضرة.. واحد فينا فقط يملك الحق في الحياة.. فالحياة لا تتسع لاثنين (رفعت إسماعيل) على ما أظن..

رفعت:

لم لا؟ إن شقتي واسعة.. وطعامي وفير..

رفعت إسماعيل:

هذا هو الإشكال الحق.. فأنا أرى أنّ هذه شقتي وطعامي أنا.. ولا أحب المزاحمة.. ثم من منا يملك الحق في العمل والحب والحياة عمومًا؟ لو أننا أردنا الزواج من (ماجي) مثلًا.. فمن هو الذي سيتزوجها بالضبط؟

رفعت:

أرى وجهة نظرك..

رفعت إسماعيل:

لهذا كله سأحرص على أن أجعلك تراني وتواجهني.. سيكون موعدنا غدًا في داري - أو دارك كما تشاء - ولحظتها ستدرك ما أعنيه حين تحدّثت عن كوننا ذات الشخص..

شريف (في عصبية):

لكنّ كل هذا هراء.. إن حديثكما يوشك أن يكون حديث معتوهين في مصحة أمراض عقليّة.

رفعت:

ربما.. لكني لا أبذل أي جهد في هذا الهراء.. هذا الأخ هو من اتصل وهو المطالب بإثبات صدق ما يزعم.. ثم هو قد قال منذ ثوان إنّه لا يستطيع مواجهتي لأنّه أنا.. الآن يؤكد أن المواجهة ممكنة.. وأنا أحب المتناقضين لأنّهم يشعرونني بقوّة مركزي...

رفعت إسماعيل:

سنتحدث عن القوة حين نلتقي.. لكنّ لتعلم أنني لا أمزح.. إن لقاءنا سيكون نوعًا من المبارزة تنتهي بانتهاء وجود أحدنا.. ويخلو المكان للآخر تمامًا.. وبهذا أسعد.. ولهذا قلبي يطرب..

رفعت:

هل أحضر شهودي ومسدسي إذن؟

رفعت إسماعيل:

ليس هذا محتومًا.. هناك أنواع عديدة من المبارزات، ولسوف ترى كيف تكون مبارزتنا هذه.. هادئة لكنّها فعالة..

رفعت:

حسن.. سأعد لك غداءً شهيًا.. إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم كما تعلم..

رفعت إسماعيل:

بل أنا من سيعد الغداء.. أنسيت أنها داري أنا؟ والآن وداعًا أيها الشيخ.. (يضع السماعة)..

رفعت:

وداعًا.. وبالمناسبة.. أنا كهل ولست شيخًا بعد..

شريف:

هل ستفسر لنا الآن معنى كل هذا؟

رفعت:

لو كان لدي تفسير لقلته.. لكنى غدًا أعرف كل شيء.. لكنّ هل لاحظت عبارة (به أسعد، وله قلبي يطرب) في كلامه؟ عبارة غريبة التركيب حقًّا.. وقد سمعتها من شخص واحد فقط كان يقرأ أوراق (التاروت).. وكان يدعى د. (لوسيفر)..

كان د. (لوسيفر) قارئ أفكار محترفًا.. أعترف له بهذا.. لكنه كان كذلك شيطانًا زنيمًا.. وأعتقد أنه كان يمقتني حقًا..

شريف:

هل تعتقد أنه هو من..؟

رفعت:

لا أدري.. لكنّ د. (لوسيفر) هو الوحيد الذي يستطيع معرفة كل ما أعرفه عن نفسي.. وإنني لأتساءل.....

شريف:

هل ستحكي لنا ما سيحدث غدًا؟

رفعت:

بالتأكيد.. هذا بالطبع لو ظللت أنا أنا.. من المستحيل معرفة من يجيء لكم في المرّة القادمة.. ربما أنا وربما (رفعت إسماعيل) هذا..

ومن الواضح من الكلام أن تمييزنا مستحيل..

شريف:

إن كل هذا يصيبني بالدوار..

رفعت:

أنا كذلك.. لكنّ عزائي الوحيد هو أنني سأعرف الجواب غدًا..

شريف:

أما نحن فسنعرفه في الحلقة القادمة..

رفعت:

ولربما ظل سرًا إلى الأبد.. من يدري؟!

* * *

خاتمة

يقدمها: د. رفعت إسماعيل

وبعد.. لقد وصل الشريط إلى نهايته، ولم يعد هناك سوى صوت دوران القرص بعد ما خمدت الأصوات الأخرى...

هذه هي نهاية حلقة الرعب الثالثة..

وقد سمعنا فيها ـ وربما استمتعنا كذلك ـ بعض الحلقات المختارة من هذا البرنامج، الذي أعتقد أنه كان جيدًا.. لكنه توقف لأسباب يطول شرحها... ليس شخصي من بينها لحسن الحظ..

إن لدي كثيرًا من حلقات هذا البرنامج - حوالى سبعين حلقة - ربما أقدمها لكم يومًا ما، لو شعرت بأنكم احببتموها حقًّا..

لقد حاولت تنويع الحلقات التي اخترتها لكم هذه الليلة.. فتجنبت قصص مصاصي الدماء والمذءوبين والموتى الأحياء..

قدمت لكم تنويعات على: تحضير الأرواح.. أكاذيب الأطفال.. السحر الأسود.. أشباح الضحايا العائدة لتملأ الحياة تعقيدًا.. بل والتشويق البوليسي الخالي من الميتافيزيقا...

ستكون المجموعة التالية من الحلقات مختلفة في موضوعاتها.. بعضها أفضل من حلقات اليوم وبعضها أسوأ بالطبع.. لكنّها جديدة تمامًا..

لا أدري متى أقدمها.. لكنّها بالتأكيد لن تكون الحلقة الرابعة منعًا للإملال.. وحرصًا على تغيير القالب في كلّ مرّة..

تسألونني عما فعلته مع (رفعت إسماعيل) الآخر..

يا له من سؤال! بالطبع تلاقينا وكانت لنا قصة لا بأس بها.. لكني سأقدمها لكم في كتيب منفصل هو (أسطورة رفعت إسماعيل).. ونلتقي به - بعون الله - في الكتيب الثاني والثلاثين..

وماذا عن حلقة الرعب التالية؟

لم أعرف بعد كيف ستكون.. لكنّها بالتأكيد مسلية وجديدة.. بها عدد لا بأس به من الأشباح والكهنة الحانقين.. والصناديق المغلقة على سر مريع.. والفتيات اللواتي تغطي القشور سيقانهن.. والأطفال الباكين الذين تعرف بعد قليل أنهم ماتوا منذ أعوام...

والقبور المفتوحة.. والمومياوات التي تنوي خراب بيت من يعبث بأكفانها..

إن جعبة (رفعت إسماعيل) لا تفرغ أبدًا..

(رفعت إسماعيل) الذي يعتبره البعض معتوهًا.. ويعتبره البعض نصابًا.. لكنّ الجميع يرونه مسليًا..

كل هذا وأكثر تلقونه في حلقة الرعب الرابعة..

ولكن هذه حلقة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مـقـدمـة ..

بعـد منتصـف الليـل

الحلقة الأولى (الزوج الذي عاد)

الحلقة الثانية (حكاية من المشرحة)

الحلقة الثالثة (فكرة غير عادية)

الحلقة الرابعة (الشقة رقم "٩")

الحلقة الخامسة (قُلْ لي يا "أونكل")

الحلقة السادسة (الحافلة)

الحلقة السابعة (بس بس..ناو..!)

الحلقة الثامنة (من أنا؟)

خـاتمـة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة بعد منتصف الليل..

نحن ننتظرك .. لو أن صديقك يتحول إلى مسخ فلا تتردد .. واتصل بنا ..، لو أنك ترى ضوءًا مريبًا فى دار جيرانك الذين هاجروا منذ أعوام .. فاتصل بنا ..، لو تحرك شىء ما فى قبو دارك ليلا .. فاتصل بنا ..، لو تبدّل وجهك فى المرآة إلى وجه آخر تعرفه .. فاتصل بنا .. صحيح أن الوقت متأخر .. لكن لا تتردد .. نحن بانتظارك ساهرون ...



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم:
أسطورتها..!

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
٨٩٠٨٤٨٨٠٠٠ - ٢٨٣٨٨٨٤ - ٢٨٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

Notes

[←1]

راجع الكتيب العاشر (حلقة الرعب) حيث مناقشة أكثر تفصيلًا عن عشق الرعب..

برنامج (رسالة) هو الجد الشرعي لبرنامج (أريد حلًا) الحالي..

[←2]

[←3]

[←4]

أرجو ألا ينسى القارئ أن ترتيب الحلقات هنا يختلف عن الترتيب الذي أذيعت به..

[←5]
ليس مؤكدًا أنّ هذا كان مصير المستكشف الإنجليزي الشهير (ليفنجستون)، والذي اختفى في مجاهل إفريقيا وهو يبحث عن منابع النيل..

[←6]
كان هذا النوع من الجوائز سائدًا في الستينات، قبل أن تصير جوائز اليوم من عينة السيارات والشقق والجنيهات الذهبية..

[←7]

حقيقة..

تقرءونها بالتفصيل في (أسطورة ملك الذباب).. [←8]

أنا أخرى.. وهو مقطع شهير للشاعر الفرنسي (رامبو).. [←9]

[←10]

في هذا الوقت لم يكن (رفعت) قد نشر أية قصة له من التي يعرفها قراؤنا..

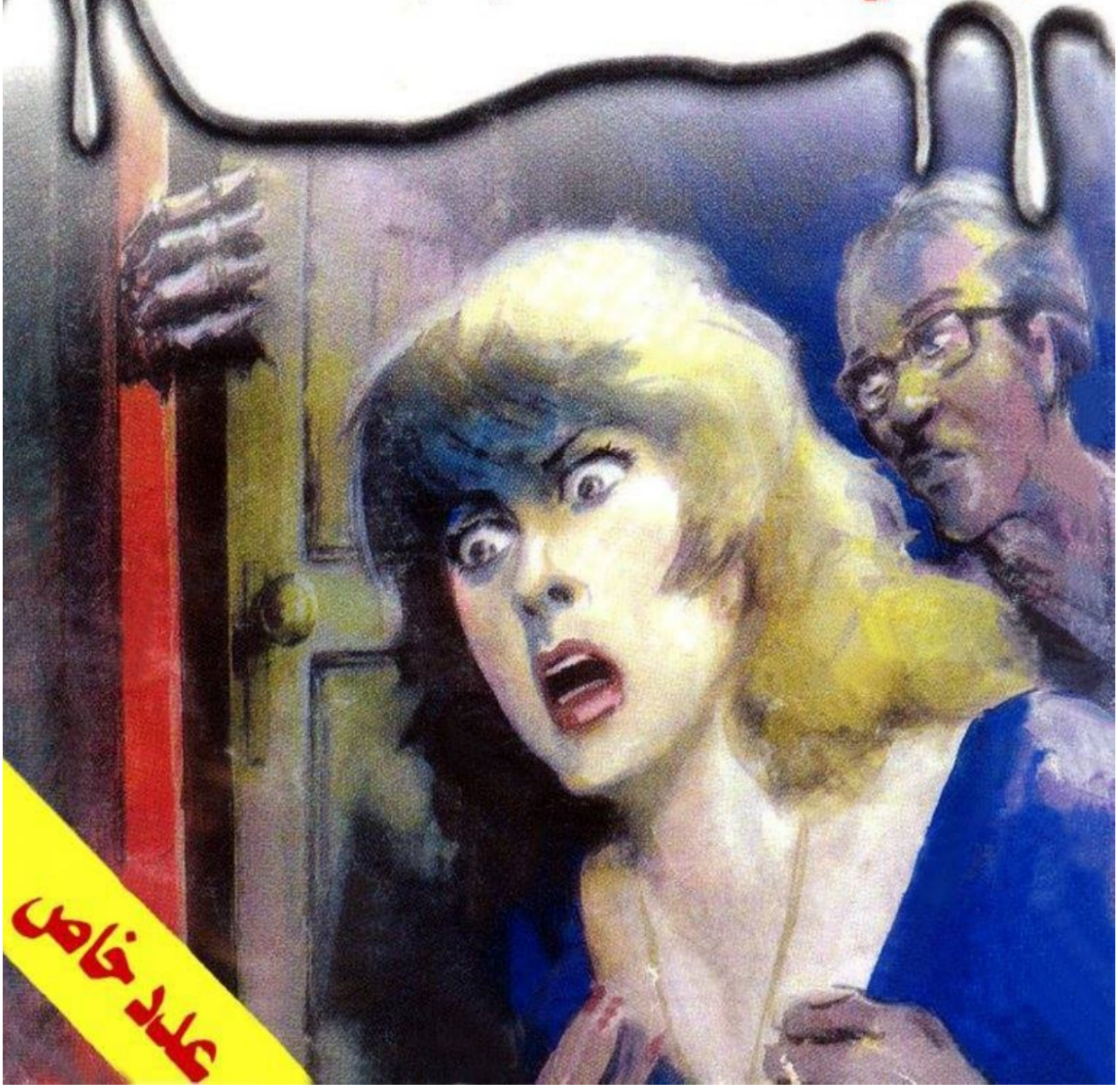
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

40

وراء الباب المغلق

ماوراء الطبيعة



عدد خاص

مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

مرحبًا بكم..

جميعكم يعرف تلك العادة السخيفة التي يصعب أن أتخلى عنها، ألا وهي تقديم حلقة رعب كلما فرغنا من عشرة كتيبات، وهي عادة لا أجد لها تفسيرًا، وككل العادات الضارة غير ذات التفسير يستحيل أنّ أتخلى عنها..

هذه هي حلقة الرعب الرابعة.. وهي كالعادة مجموعة من القصص القصيرة، والقصيرة جدًا تتحدّث جميعًا عن موضوعي المفضّل: الرعب..

في هذه المرّة نناقش جانبًا من الرعب، لا يختلف عليه اثنان أو - كما يقول أجدادنا - لا تتناطح عليه شاتان، وهو الرعب الذي يكمن خلف باب مغلق...

ما الذي ينتظرنا خلف الباب المغلق؟ ما الذي سيحدث لو مددنا أيدينا المرتجفة إلى المفتاح، ثم إلى المقبض، وسمحنا لفضولنا الإنساني أن يرتوي؟ هل نعود أحياء؟ هل نعود سالمين؟ هل تبقى بحلوقنا قوة تسمح لنا بسرد أي هول رأيناه؟ كثيرون تساءلوا.. وكثيرون لم تبق لهم حلوق قادرة على الكلام بعدها!!

ها أنتم أولاء حولي.. وها هي ذي النار وجلستنا المعتادة حولها، وبعض أقداح الشيكولاتة الساخنة طبعًا، والشوق في العيون اللامعة، أدعو الله ألا يتحول إلى خيبة أمل بعد انتهاء القصة..

واربوا هذا الباب، ولكن تأكدوا من أنّه لن..

ينغلق!!

آي!!

لا عليكم! إنها أمسية طويلة ولربما وجدنا المفتاح بشكل ما في نهايتها، أو لربما سمع استغاثتنا أحدهم بالخارج.. لا تحملوا هم الخروج، ولنصغ الآن إلى العجوز (رفعت إسماعيل) وهو يحكي لكم حلقة الرعب الرابعة..

* * *

وراء الباب المغلق

كنا سبعة.. تباينت وجوههم وثيابهم وأهواؤهم، لكننا اجتمعنا في تلك اللحظات التي لا تنسى..

كنا سبعة.. أربعة رجال وثلاث نساء، وحاول الرجال أن يتصرفوا كما يليق برجال مهذبين، لكنّ ظروف الرعب التي مررنا بها جعلتنا نفقد ميراث الحضارة في لحظات، وصارت قواعد اللياقة ترفًا لا يتحمله الموقف..

كنا سبعة.. وهو رقم تفاءلت به الثقافات على أنواعها، لكننا تمنينا للحظة لو ينخفض هذا الرقم قليلًا.. ولهذا أسبابه..

كنا سبعة.. لكنّ الاطمئنان لم يكن ثامننا..

* * *

بدأت القصة في خريف عام 1971..

والفصول في مصر قد تتشابه، وقد تختلط، لكنّ شيئًا واحدًا يميزها هو الرائحة.. رائحة الأسفلت المبتل في الشتاء.. رائحة حبوب اللقاح وزهور البرتقال القادمة من أرض محروثة: هذا هو الربيع.. رائحة العرق ورائحة أنسام الليل الرحيمة في الصيف.. لكن الخريف له روائح عديدة.. سيحدثك التلميذ عن رائحة ورق تغليف الكتب، ورائحة الممحاة في الحقيبة الجلدية الجديدة.. وسيحدثك الموظف عن رائحة (الجوافة) التي لا تفارق الثلاجة.. وستحدثك المراهقة دامعة العينين عن رائحة الحزن ذاتها.. وسأحدثك أنا عن رائحة المساء المبكر..

الخريف! يا لعذوبته.. يا لقسوته!

بدأت القصة في خريف عام 1971..

اتصل بي صديق قديم هو الدكتور (جابر إبراهيم)، يدعوني إلى قضاء سهرة الخميس في داره بـ (المقطم).. قلت له إنني سأمرض يوم الخميس، وإن صحتي لم تعد تحتمل السهر، لكنّ، انفجر ضحكًا:

- «يا (رفعت)! يا لك من مخبول! أنت تعرف أن سهرة في داري لا تعني سوى بعض المناقشات المثقفة الذكية، وربما بعض قطع (الجاتوه) مع الشاي.. لا شيء مما تخاف القدوم لأجله..»

كدت أصارحه أنّ هذا بالذات هو ما أخاف القدوم لأجله.. سيكون هناك كثير من الأوغاد الثرثارين الذين يتكلمون ويضحكون بصوت عالٍ، وكل منهم يحاول أن يبرهن للآخرين أنه بخير وهم ليسوا بخير...

في النهاية قبلت كي أخرسه، وإن كنت أعترف أن أسماء بعض الموجودين بدت لي مغرية بالتأكيد...

نظرت لنفسي في المراة، وقلت:

- «ألن تكف عن الذعر يا (رفعت)؟ متى تصير حيوانًا اجتماعيًا، وقد كاد العقد الخامس من عمرك ينتهي؟»

لكن الإجابة كانت جاهزة لدي:

- «لن أصير حيوانًا اجتماعيًا أبدًا.. فمن رابع المستحيلات أن تلقن كلبًا عجوزًا حيلة جديدة كما يقول الإنجليز..»

ولكن من هو (جابر إبراهيم)؟

* * *

لا أعرف الكثير عن هذا الرجل.. أعترف بهذا..

إنه أستاذ جامعي... يقوم بتدريس الجراحة لطلبة الطب، ولديه عيادة هي نافورة مال في واحد من أرقى أحياء القاهرة - وان أذكر الحيّ طبعًا حتى لا أمنحه دعاية مجانية - وهو متأنق جدًا، ولسبب ما صار من نجوم الإعلام الحقيقيين الذين يندر أن تخلو صحيفة من صورة لهم، ولا بد من أن تراه مرة أو مرّتين أسبوعيًا في التليفزيون..

نشأت بيننا صداقة ما، من طراز سطحي لا يخلو من المجاملة.. إنني رجل كثير المعارف، قليل الأصدقاء كما تعرفون...

ولم أتخيّل قط أن علاقتنا يمكن أن تكون أعمق من هزّ الرأس من على بعد كلما التقينا، وإخبار مرضى تضخم الطحال ـ الذين ينوي استئصال طحالهم ـ أن الجراحة لن تفيدهم بشيء..

فكيف أمضى أمسية عند هذا الرجل؟

لكن الإغراء كان قويًا كما قلت.. فالرجل يملك فيللا في (المقطم) يُقال إنها، أروع منظر يمكن أن تراه في حياتك، وقائمة المدعوين لا بأس بها، تتضمن أسماء مثل (محمود عوني) الكاتب الصحفي الشهير، و(هيام) الممثلة الشابة بارعة الحسن، ومطرب شاب نسيت اسمه يغني مثل (عبد الحليم حافظ) دون توفيق كبير.. لماذا أذهب إذن؟ لأن العمر يمضي، وأنا لم أر كل شيء بعد.. ما زالت هناك أشياء أخرى غير الزومبيين والمذءوبين تحتاج إلى أن أراها قبل أن أغمض عيني في رضا، وأموت..

* * *

وفي الثامنة من مساء الخميس، دخلت سيارتي العتيقة في حياء وتهيب ذلك الممر المحاط بالأزهار عند مدخل الفيللا.. كانت السيارات الواقعة تشي بالثراء ـ حسب مقاييس هذه السنة - وشعرت بالفعل بأن عجلات سيارتي ترتجف في خجل.. لحسن الحظ كنت أرتدي البذلة الكحلية التي تجعلني فاتنًا، وقد سكبت على نفسي نصف زجاجة من (الكولونيا) التي أهدتها لي ابنة أختي في عيد ميلادي العاشر..

فتح لي الباب خادم نوبي يرتدي طربوشا وحزامًا عريضًا من نفس اللون فوق جلبابه الأبيض، وبأدب اقتادني إلى قاعة فسيحة تتناثر فيها الأرائك في فوضى منظمة.. ثمّة موسيقا راقية قادمة من مكان ما أو إضاءة عادية ساطعة كإضاءة حفلات العُرس لا يميزها شيء..

عدد من القوم يجلسون أو يقفون، غارقين في محادثات فاتتني بداياتها بالطبع.. وسمعت من تقول لي في تهذيب:

- «مرحبًا يا د. (رفعت).. أنا (ناهد)..»

استدرت مرتبكًا لأجد سيدة في منتصف العمر، تضع على رأسها جمة صفراء عالية لامعة كأنها من الخزف - وهي المودة في هذا الزمن - وفيما عدا هذا لم تبد لي مجنونة أو بلهاء..

- «أنا حرم الدكتور (جابر).. كيف عرفتك؟ وهل يخفى القمر يا دكتور؟.. أنت اليوم أشهر من نار على علم، ولا يمكن إقامة حفل يضم نجوم المجتمع دون أن تدعى إليه!»

بحثت عن منديلي لأمسح قطرات العرق على صلعتي، وقلت:

- «هذا شرف لي.. وأين هو؟»

ضحكت في مرح ضحكة خنفاء أرستقراطية:

- «بعلي؟ ليس هنا.. ثمّة جراحة عاجلة جعلتهم يستدعونه.. إنّه لا يكف عن هذه اللعبة السخيفة: هجري وحدي دون صديق ولا معين.. لكنه سيعود بالتأكيد.. لا بد أن يعود، فلا دار له إلا هنا..»

وببساطة جذبتني من كم سترتي تقتادني إلى حيث اجتمع عدد من ضيوفها.. وبأناقة كالتي تراها في السينما قاطعتهم وأجرت عملية التعارف:

- «صبرًا يا شباب.. معي ضيف خارق للعادة هنا هو د. (رفعت إسماعيل).. قاهر الأشباح!»

بدا الغباء على الوجوه، فأدركت أن سمعتي لم تصل إلى هنا.. فحاولت أن تساعدهم على التذكر:

- «(بعد منتصف الليل)! البرنامج الرهيب الذي منعته الرقابة! لقد كان د. (رفعت) هو ضيفه الدائم..»

أخيرًا تذكر واحد أو اثنان شيئًا كهذا، لكني لاحظت في ضيق طريقتها في تقديمي، وهي طريقة لم تخل من السخرية.. سخرية خبيثة جدًا يصعب الإمساك بها.. وأدركت أن مظهري صدم هؤلاء القوم.. وأنهم يكتمون في أذهانهم بعض الخواطر الساخرة عن ذوق هذا الدكتور (جابر)..

صعد الدم إلى رأسي، وقررت أن أكون سيفًا باترًا عند أول بادرة تدلّ على التحرش.. من أنتم يا حمقى؟ وماذا تعرفون عن أي شيء كي تعطوا أنفسكم الحق في انتقادي؟!

قالت مدام (ناهد)، وهي تشير إلى مكان خال على الأريكة:

- «هلمّ أجلس يا دكتور (رفعت).. دعني أقدم لك هؤلاء السادة..»

إن هذه الحسناء لا تحتاج إلى تعريف.. لقد رأيت صورتها مرارًا، ولم أنس اسمها.. الممثلة الشابة (هيام) التي لو كان تمثيلها في مستوى جمالها.. لكانت لدينا (سارة برنار) أخرى...

والسبب الذي جعلني لم أنسها ليس مراهقة متأخرة، لكنّها تشبه (ماجي) كثيرًا، خصوصًا عندما تنظر للسقف وتضم شفتيها كأنما تتذكر.. هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أتذكرها جيدًا...

لقد قامت (هيام) بأداء ثلاثة أو أربعة أدوار في أفلام ملونة، لكنّ حال السينما المصرية قبل حرب أكتوبر كان مضطربًا، وكان مصابًا بانعدام وزن وتخلف عقلي واضح، مما جعل من العسير على السينما أن ترى في هذه الممثلة سوى جمالها.. وحقًا كانت (هيام) بارعة الجمال...

أما الشاب ذو النظرات الحزينة والسالفين الطويلين والشامة، والذي يتكلم همسًا وهو يسبل عينيه، فهو المطرب الشاب (سمير الصياد).. وهو قد أوغل في تقليد (عبد الحليم حافظ) حتى أنه يوشك على الإصابة بالبلهارسيا وتليف الكبد مثله.. له أغنيتان علقتا بأسماع الناس، لكني لا أذكر منهما سوى مقطع واحد يقول:

«أنا لو أنساكى حافتكر مين؟ من بعد هواكي حياتي أنين»

وذلك بسبب الكسر الواضح للوزن باستعمال (حافتكر) في الشطرة الأولى، ومن العجيب أن أحدًا لم يلحظ هذا أو يهتم له، وكلما أبديت تأففك من هذا، ضحك محدثك في استخفاف وقال: «إنّه غناء على كل حال.. ليس الأمر بهذه الخطورة!».. فتحمر أذناك خجلًا..

أما عن صوت الفتى فكان لا بأس به، ما خلا حشرجة معينة في حنجرته تغريك باستعمال أقرب عصا كي تحاول تسليك حنجرته بها..

ثالث الجالسين هو (محمود عوني).. الكاتب الصحفى الشهير، الذي يرأس تحرير ثلاث صحف واسعة الانتشار.. وهو متأنق يدخن الغليون، ويبتسم في وقار، وقد حرص على أن يطيل سالفيه الأشعثين الشائبين ليعطياه منظرًا غريبًا كقرود (البابون)..

كان كاتبًا لا بأس به، وقد أحببت كتاباته حقًّا، وأعتقد أنه إنسان ذكي.. الغبي بين الكتاب يفتضح أمره سريعًا..

رابعة الجالسين هي الشاعرة (نادية فهيم).. وهي شاعرة في الأربعين تدخن بإفراط.. وتكره الرجال، باعتبارهم اللصوص الذين ظلوا يسلبون المرأة حقوقها منذ فجر التاريخ حتى اليوم..

هذا نمط معروف، ولا داعي للكلام عنه أكثر..

كان هناك كذلك مخرج سينمائي عجوز هو الأستاذ (حسين أبو النجا).. وهو من جيل الرواد كما يقولون، ولم يكف يومًا عن الإخراج - السينمائي طبعًا - لذات الحبكة.. بنت الحارة الشهمة الشجاعة التي يقع ابن الأكابر في هواها، ثم تحاول خطيبة ابن الأكابر منع النهاية السعيدة لهذه القصة.. لقد قدم الرجل مائة فيلم، كلها على مستوى واحد من السوء.. لكن المعجزة التي جعلته يستمر دون أن يموت، جعلته بحق جديرًا بأن يكون من رواد فن السينما، وصار اسمه (المخرج الكبير)..

هؤلاء هم أهم الوجوه، وقد تناثر آخرون من حولنا، لكني لم أميز منهم واحدًا بعينه، وتساقطت الأسماء سريعًا..

بدأت الجلسة متحفظة، ثم دعا أحدهم المطرب إلى الغناء، وتعالت الأصوات ترجوه على غرار (غن يا وحيد)، فراح يتننح في تواضع ويشير لحنجرته بما معناه إنّه لم يستعد..

في النهاية برز عود من مكان ما، وبدأ الرجل يعزف، وانطلق صوته المشروخ يغني.. و.. وبدأ البعض يصفقون مع اللحن..

أعترف هنا أنني بدأت أصفق بدوري، ووجدتني أقهقه في سرور... هذا غريب! في البداية كنت متشككًا مشمئزًا من هذا الجو بأسره مع لمسة تعال لا بأس بها، وفجأة اندمجت وهزمت.. في نفسي تحرك ذات الطفل الموجود لدى الجميع، والذي يسره ويشعره بالفخر أن يجلس مع المشاهير.. حتى دعاباتهم التي - في مكان آخر - كنت سأجدها سمجة مبتذلة، بدت لي هنا جيدة لمّاحة لا تخلو من الذكاء..

راح الفتى يلوح برأسه يمينًا ويسارًا، وهو يردد دون كلل:

«أنا لو أنساكى حافتكر مين؟ من بعد هواكي حياتي أنين»

وخطر لي أن مؤلف كلماته أحمق دون شك.. يكفيه استبدال (راح أعرف مين؟) بـ (حافتكر مين؟) لتستقيم الأمور، ولما سمح لواحد مثلي بأن ينتقد ملكاته التأليفية..

دارت المرطبات - فقط لحسن الحظ - ومعها الجاتوه، وحلوى ما في أطباق تشبه ذيول حيوان (الأرماديللو)..

* * *

جلست جوار الأستاذ (محمود عوني) نناقش مستقبل البلاد.. متى تنتهي حالة اللاسلم واللا حرب، وهل لا بد من معركة فاصلة أم لا...

كان ذكيًا بالفعل، وقد قدمت لي آراؤه الكثير من الأفكار الجديدة، إنّه رجل يعرف أكثر بكثير مما يقول.. واحد من (الباصقين فكريًا) لو سمحتم لي بهذا التعبير.. ولاحظت أنه لا يعلن عن آرائه إلا همسًا، وهو يتلفت من وراء كتفيه.. هذا بالطبع يتناسب مع خطورتها..

لا أدري متى ولا كيف جرى بنا الوقت بهذه السرعة؛ لكنني نظرت إلى ساعتي لأجدها الواحدة بعد منتصف الليل..

كان عدد لا بأس به من الحاضرين قد انصرف بالفعل، والغريب أن الدكتور (جابر) لم يظهر بعد.. حفل في داره يوشك على الانتهاء، وبرغم هذا لم نره لحظة واحدة..

ونقلت خواطري للمدام (ناهد) التي كانت واقفة على الباب تثرثر مع رجل أصلع وزوجته التي تدثرت بالفراء على كتفيها..

قالت (ناهد):

- «هذا هو شأن الأطباء.. ألست طبيبًا يا د. (رفعت)؟»

شعرت بالخجل من نفسي لأنني أملك الوقت الكافي الذي أمضيه في حفل كهذا، دون أن أنهمك بجمع المال.. يا لها من فضيحة!

كدت أنهض لأنصرف مودعًا محدثي اللبق، وباقي الضيوف، لكنّ مضيفتنا النصف حسناء رفعت إصبعها السبابة إلى جانب رأسها في حركة أنيقة، وقالت:

- «لا.. لا! انصراف قبل عودة زوجي؟ مستحيل!»

صارحتها بأنني بدأت أميل للاعتقاد بأن زوجها قد توفي للأسف.. وأنني لن أنتظر هاهنا إلى ساعة الحشر بانتظار عودته..

نظرت لي في خبث، ثم نظرت للموجودين، وراحت تعدهم بإصبعها في شرود:

- «واحد.. اثنان.. خمسة.. ستة.. أنا السابعة.. لا بأس!»

ثم بانتصار هتفت:

- «لقد حان الوقت!»

تبادلنا النظرات، وكف المتحدثون عن الكلام، وتساءل سائل:

- «حان الوقت لماذا؟»

- «حان الوقت كي لا ينصرف أحد!»

سألتها في غباء:

- «سبعة لن ينصرف أحدهم؟ ما هذه اللعبة؟!»

اتجهت إلى مركز القاعة، وصفقت بيديها طالبة الصمت، ثم صاحت:

- «يا سادة أنا آسفة على الإزعاج.. لكنّ الحقيقة هي أننا جميعًا محبوسون هنا، وحتّى يعود زوجي.. لقد رحل الخدم وأغلق آخرهم الباب بالمفتاح.. النوافذ في الطابق الأول كلها مدعمة بالحديد.. الهاتف لا يعمل الآن لأن أحدهم عطله من الخارج!!»

هب الكل واقفين، وتعالت الكلمات الغاضبة كما لا بد أن تتخيل..

وصاح المخرج العجوز في عصبية:

- «ما معنى هذا؟ هل هذا مخطط إجرامي؟ أية لعبة هذه؟»

وصاحت الممثلة الحسناء بالهستيريا الواجبة:

- «ربّاه! ماذا تعني هذه المرأة؟!»

تراجعت مدام (ناهد) للوراء خطوتين لتهدئ حماس القوم، وقالت:

- «هذه هي تعليمات زوجي، وأنا هنا سجينة مثلكم.. لماذا؟ لو أنكم جلستم والتزمتم الصمت لاستطعت أن أشرح!»

تبادلنا النظرات، ثم عدنا لمجالسنا متوقعين الأسوأ.

في رزانة سألها الكاتب الصحفي:

- «مدام (ناهد).. واضح أننا في موقف بلا تفسير.. أو أنك تملكين تفسيره الوحيد.. وإننا لنكون مسرورين حقًّا لو قدمت لنا ما يزيل حيرتنا..»

ابتسمت، وجلست واضعة ساقًا على ساق، وقد اعتمدت بمرفقيها على ركبتها، وقالت في هدوء:

- «الأمر يتعلق بلعبة من نوع خاص..»

* * *

- «مرحبًا يا أصدقاء..»

- «أنتم جميعًا تعرفون هذا الصوت دون شك.. إنه صوتي.. لكنّ قليلين منكم يمكنهم ملاحظة الحشرجة التي بدأت تتسرب إلى نبراته.. ربما لم تلحظها سوى (ناهد)، وقلت لها كلامًا كثيرًا عن برد المساء والتهابات الحلق، وأحسبها صدقت ما قلت..»

كان الصوت ينبعث في تؤدة من جهاز التسجيل الذي وضعته مدام (ناهد) على المنضدة الزجاجيّة أمامنا.. ومع دوران الشريط كانت عيناها تتسعان بأهدابها الصناعية الكثيفة.. أدركت دون جهد أنها لا تفتعل شيئًا.. إنها تسمع هذا الشريط للمرة الأولى حقًّا...

كانت قد أحضرت لنا الجهاز، ومعه شريط تسجيل من الطراز العتيق ذي البكرات، وقالت لنا: إن هذه هي الرسالة التي تركها زوجها للموجودين هنا، وأمرها ألا تبدأ التشغيل إلا حين ينخفض عدد المدعوين إلى سبعة بمن فيهم هي ذاتها..

بالطبع وعدته بذلك.. وبالطبع - وإن لم تقل هذا - استمعت إلى الشريط خلسة كي لا تفاجأ بشيء.. الأمر الذي يؤكد لي أن زوجها قد قام باستبدال الشريط قبل أن ينصرف، وبعد ما تأكد من أنها لن تجد وقتًا لسماع هذا الشريط الجديد.. النتيجة هي أنها حائرة مندهشة، تسمع هذه العبارات للمرة الأولى وإن لم تعترف لنا بسبب حيرتها..

ويستمر الصوت من جهاز التسجيل:

- «لو كان الدكتور (رفعت إسماعيل) ما زال موجودًا، فلربما استطاع أن يفهم معنى ما أقول.. إن سرطان الحنجرة يصيب الجراحين كما يصيب سواهم، وسيكون مملًا أن أقول: يا ليتني امتنعت عن التدخين حين كان هذا بوسعي.. لكنّ الأوان قد فات، والبكاء على اللبن المسكوب يزيد الأمور سوءًا..»

هنا شهقت الزوجة، وغطت فاها المصبوغ بأناملها محاولة كتمان صرخة.. واضح تمامًا أنها لا تعرف عن الموضوع شيئًا..

الصوت يستمر:

- «سافرت إلى الخارج، ولم أخبر أحدًا بأنني أعتزم استشارة أساتذة جراحة الحنجرة في الولايات المتحدة، وقد قالوا لي ما كنت أعرفه.. لقد صار العلاج متأخرًا جدًا، ولم يعد من أمل لي إلا في العلاج التحفظي الذي يجعل لحظات الموت أكثر بطئًا..»

ساد صمت طويل بعدها..

كان السؤال الذي يتردد في أذهان الجميع هو: ما علاقة هذا كله بسجننا؟ لو أراد أن يموت فهذا شأنه، لكنّ ما دخلنا بهذا كله؟

عاد الرجل يتكلم بصوته الرصين، الذي بدات أميّز فيه الحشرجة الآن.. (فقط بعد ما قال ذلك، لأنني لست ممن يدعون الحكمة بأثر رجعي):

- «الليلة لن أكون في (مصر).. عندما تسمعون هذا الشريط سأكون في طريقي بالطائرة إلى (الولايات المتحدة) لأؤدي لنفسي آخر حقوقي نحوها، وهو تحصيل حاصل كما تعلمون، لكني مضطر لعمله..

«أسمعكم تتساءلون عن السبب الذي جعلني ألعب هذه اللعبة الغريبة.. أدعوكم إلى حفل ثم أتغيب عنه، وفي الغالب - لو سارت الأمور كما خططت لها - ستجدون أنكم سجناء في داري لسبب لا تفهمونه.. ويمكنني أن أخبركم بما هو أكثر..

«لقد عاد الخدم لديارهم سعداء بهذه العطلة.. أغلق واحد منهم الباب الرئيسي كي لا تتمكنوا من الرحيل، ولم ينس أن يفك بعض الأسلاك في صندوق توزيع الهاتف بالشارع لينتهي احتمال أن تستدعوا أحدًا[1]..

«كل هذا معروف لزوجتي، وبحماقتها المعتادة قبلت أن تشارك فيه لأنني أردت أن أضعكم في اختبار ذكاء لكيفية الخروج من هنا.. لكنّها لم تعتقد ولم تشك لحظة في أن الانتقام هو غرضي

ا
ل



كان الصوت ينبعث فى تؤدة من جهاز التسجيل الذى
وضعته مدام «ناهد» على المنضدة الزجاجية أمامنا ..

وحيد من كل هذا..

«إنني أكرهكم يا سادة! أكرهكم وأكره وجوهكم الكالحة التي تحتشد في داري طمعًا في التسلية، ولو لم يكن وجودكم في حياتي مهمًا للرونق الاجتماعي - مثلكم مثل كلاب (الداشهاوند)، والخيول الأصيلة - لطردتكم شر طردة، أو أبدتكم بأقرب علبة مبيد للصراصير أجدها في يدي!

«لا داعي للضيق! أنا لا أعني بكلامي واحدًا بعينه منكم.. فلا يعلم سوى الله (سبحانه وتعالى) من هم السبعة الذين تبقوا منكم في هذا الحفل.. وإنني لأتساءل..

«ترى هل بقي (عادل زكي)؟ تبًا له من منافق لص.. أنا أعرف جيدًا كم يكرهني وكم يلسن عليّ خلسة.. لكنّ الأقنعة التي علمنا المجتمع ارتداءها محكمة جيدًا، متقنة للغاية.. الآن وقد جاءت لحظة الحقيقة يسرني أن أعاقبه بطريقتي..

«ترى هل (سلوى عامر) هنا؟ كنت طيلة حياتي أمقت هذه المتصنعة المبتذلة التي تتظاهر بحبها للأدب.. إنها أغبى من القملة وأكثر خسة منها..

«هل المخرج الأحمق ضيق الأفق (أبو النجا) هنا؟ أنا أعرف جيدًا دناءته، وتلاعبه بالوجوه الجيدة، وأعرف أكثر من سواي أنه يكرهني..

«هل؟ هل؟ لن أعرف أبدًا..

«لكني متأكد من شيء واحد.. زوجتي هنا.. مهما كانت شخصيات الستة.. فلا بد أن (ناهد) هي السابعة..

«(ناهد) هي نموذج جيد للزوجة التي تصنع زوجها.. تصنعه عن طريق تعذيبه وإرغامه على أن يغرق همومه في العمل ومزيد من العمل.. إنها صنعتني بالطريقة التي تصنع بها الكلاب المسعورة بطلًا في العدو! وطيلة حياتي لم تكف عن إشعاري بالفشل، وبأنني منحتها أقل بكثير مما تستحق.. ما إن بدأ الثراء يدق بابي حتى قررت أن ترقي نفسها إلى طبقة جديدة، وسرعان ما تحول (أبويا) إلى (بابي)، و(أمي) إلى (مامي) بمعجزة ما..

«لقد انتحلت شخصيّة سيدة مجتمع، وقررت فجأة أنني غير جدير بها؛ لأن مثيلاتها يمشين على الذهب ويرفلن في الحرير في ظروف أخرى مع رجال آخرين.. وأصارحها أن مثيلاتها يضربن بالسياط يوميًا لو كان أزواجهنّ أكثر حزمًا مني!

«شخص واحد هاهنا لا أحمل له ضغينة معينة، وأرجو أن يسامحني لو كان لم ينصرف بعد.. د. (رفعت إسماعيل): هل أنت هنا يا دكتور؟

«أنا لا أكرهك بالتأكيد.. ربما كنت لا أطيقك، لكنّ هذا موضوع آخر.. أنت كائن فضائي عجيب، وما زلت أندهش كلما رأيت قامتك الناحلة، وكيانك المريض، والملل يطل من عينيك وراء عويناتك السميكة...

«حقًّا هذا لا يبرر الانتقام منك.. لكني كنت بحاجة إليك كما يحتاج أي حساء إلى ملح.. إلى توابل..

«أنت تعرف الكثير عن عالم الرعب والأسرار المستغلقة - أو هكذا يقولون - وإن لدى هاهنا كثيرًا من الرعب الذي يحتاج إلى وجودك..

«سامحني يا زميلي على ما قد تسببة لك هذه الأمسية من متاعب، واشكرني على ما قد تضيفه إلى خبراتك الرهيبة..

* * *

«إن قواعد اللعبة هي البساطة ذاتها، وقد استمددتها من كل أساطير الباب المغلق في تراث الإنسانية..

«أنتم هاهنا سجناء.. لا.. لا تحاولوا الهبوط من الطابق الثاني لأنني أغلقت الباب الرئيسي الذي يقود إليه، وأبواب الفيللا غير قابلة للتحطيم.. ربما الشيء الوحيد الذي سيتحطم هو عظامكم لو حاولتم اغتصاب باب منها..

«على أنني تركت ثلاثة أبواب موصدة في الطابق الأرضي.. ثمّة باب واحد يقود إلى الخلاص، وبابان يقودان إلى الهلاك التام لكم، ولن أقول كيف طبعًا..

«الباب الأول: هو الباب الذي يقود إلى غرفة مكتبي.. الباب الثاني: هو الذي يقود إلى غرفة المعيشة الصغيرة.. الباب الثالث: هو الذي يقود إلى غرفة السينما.. إن (ناهد) لم يكن عندها وقت لدخول هذه الغرف قبل الحفل..

«تشاوروا بعناية، واختاروا.. ثم افتحوا الباب الذي اخترتموه ولا تندموا على قراركم هذا.. سيكون الهول شديدًا لو كان قرارًا خاطئًا، ولسوف تظفرون بميتة تكتب عنها الصحف شهورًا بعد هذا..

«إن هذا الموقف هو ببساطة تمثيل دقيق لحياتنا كلها.. ثمّة باب قد يقودك إلى المجد والخلود، وباب قد يقودك إلى الهلاك الأبدي.. المشكلة هي أن تحسن الاختيار.. المشكلة هي ألا تختار الباب الخطأ أبدًا.. لا أدري كيف.. هذه هي أزمتنا جميعًا.. أنا قد اخترت بابي، وظفرت بسرطان في الحنجرة، وحقد لا ينتهي على الأدعياء مثلكم.. ترى ماذا تختارون أنتم؟!

«إن فرصتكم واهية لكنّها ليست معدومة.. سبعة عقول لا بد أن تصل للإجابة الصحيحة، حتى لو كانت عقولًا كعقولكم..

«وهنا يسأل سائل: لماذا رقم سبعة بالذات؟

«سؤال جيد وأنا أحب الأسئلة الجيدة..

«لقد كان رقم (سبعة) شديد الأهميّة في حياتي، وتركزت كل أحداثها المهمة حول رقم (سبعة) هذا، ومن الغريب أن أحدًا لم يندهش لكوني ولدت في اليوم السابع من الشهر السابع من عام 1917.. ربما في الساعة السابعة مساء كذلك...

«إن رقم (سبعة) شديد الأهميّة في الأديان، وشديد الأهميّة في قصص الشعوب.. وقد ظل رقم (777) يمثل الكمال المطلَق في وجدان البشريّة منذ زمن سحيق..

«لهذا قررت أن أمارس لعبتي على آخر سبعة حمقى يبقون في داري بعد ما يرحل الجميع..

«أعرف أنكم ستشيعونني باللعنات، وسوف ينهال سبابكم على رأسي، لكني أخرج لكم لساني بلا حرج، وأقول: إنني لا أعبأ بما تقولون؛ لأنني سأكون في قبري قريبًا، لا أهتم بشيء سوى ما أنا فيه..

«وداعًا يا سادة، وأتمنى لكم اختيارات موفقة!»

* * *

ظل الشريط يدور بلا صوت سوى صوت البكرة الرتيب، وفي النهاية تحرر الجزء الأخير الشفاف ليلحق بما سبقه..

كنت أنا أول من تكلّم:

- «صديد! هذا الرجل قد ضغط على (دمل) في روحه ليلوث كلماته بكل هذا الصديد..»

وقال الأستاذ (محمود عوني) وهو يشعل غليونه:

- «زوجك يا سيدتي مجنون تمامًا، ومن الغريب أن أحدًا لم يلحظ هذا، برغم أن (جنون العظماء لا يمرّ دون تعليق)، كما قال (شكسبير)..»

كانت في أسوأ حال ممكن، ولم تكن على استعداد لسماع العبارات المكررة السخيفة على غرار (إنّه مجنون يا سيدتي) و(يا للهول!) وما إلى ذلك..

الآن كان كل واحد منا يحتج بطريقته.. الممثلة تحتج بكثير من الهستيريا، مع بعض العبارات التي صارت تفلت منها، ولا تدلّ على أصل شديد الرقي للأسف.. المطرب يمد يديه في حيرة وعدم فهم تمثيليين كأنما هو يوشك على غناء أغنية عاطفيّة، ولسان حاله يقول: أنا لا أستحق هذا.. أمّا الصحفي الكبير فقطب جبينه بما معناه: لنكن عقلانيين بعض الشيء...

الشاعرة الغاضبة ازدادت كثافة وسرعة تدخينها، وراحت لفافة التبغ تهتز بين أناملها منذرة بزلزال عصبي، وراحت تقول عبارات من نوع (هذا لا يليق بنا).. (دعابة سخيفة من إنسان ظنناه على قدر ما من النضج)...

سألتهم وقد قررت أن أجلس:

- «من منكم أخبر الآخرين أنه هنا؟»

تبادلوا النظرات.. أخيرًا قال المطرب وهو يتحسس شامة جبينه:

- «إن طبيعة حياتنا الاجتماعية تجعل من المستحيل التنبؤ بميعاد معين نعود فيه لديارنا..»

هذه هي المشكلة إذن.. كل هؤلاء أشخاص من الممكن جدًّا أن يبيتوا خارج ديارهم، ولن يندهش أحد لغيابهم...

سألت الكاتب الصحفي الذي أعرف أنه يعيش حياة اجتماعية مستقرة قوامها الالتزام:

- «هل تعرف المدام أنك هنا؟»

نفث المزيد من دخان الغليون، وقال:

- «للأسف لا.. إنها مع الأولاد في (العجمي) هذه الليلة بالذات.. ولا تعرف أنني هنا..»

- «في (العجمي) في (أكتوبر)؟!»

- «إنها تعشق إسكندرية في الشتاء!»

هنا سألني المخرج العجوز بنفاد صبر:

- «وأنت يا د. (رفعت)؟ ما هي ظروفك؟»

ابتسمت في حزن:

- «أنا؟ إنني آخر إنسان يمكن أن يسأل عنه أحد أو يتساءل عن سبب غيابه.. إن موتي سيضايق جيراني لأسباب تتعلق بالرائحة لا أكثر!»

وطبعًا لم يكن من داع لسؤال السيدة (ناهد).. فالوحيد الذي يمكن أن يقلق عليها هو زوجها... زوجها الذي هو في طريقه الآن ليموت بـ (الولايات المتحدة)..

الحقيقة هي أننا في مأزق لا بأس به.. لكنّ هل هو مأزق حقًّا؟

* * *

نهضت (هيام) في هستيريا وعصبية متجهة نحو أحد الأبواب في طرف القاعة، وهي تصيح:
- «دعونا نخرج من هنا! إن هذه اللعبة بدأت تثير أعصابي.. لا أحب أن يتسلى أحدهم بي..»
لكنّ (ناهد) لحقت بها، فاعتصرت معصمها في عصبية أكثر، وهمست من بين أسنانها:
- «اهدئي يا (هيام).. هذا هو باب غرفة السينما.. وهي من الغرف التي تكلّم عنها الآن!»
- «لا يهمني ما يقول هذا الأحمق.. سأخرج الآن و.....»
- «**اهدئي!!**»
دوّت صرخة (ناهد) المنذرة المخيفة، وأدركنا أنها على حافة الانهيار بدورها.. ورأت الفتاة أن فتح الباب قد يكون خطرًا وقد لا يكون.. لكنّ الخطر الحقيقي الداهم هو (ناهد) التي تحولت إلى نمر شرس، وكان العرق مع الدموع قد غمر وجهها، وسال كل الطلاء الذي دهنت به سحنتها، فبدت كأحد محاربي (الأباش) بعد ما سلخ رأس الجنرال (كاستر).. منظر مخيف فعلًا..
سألتها في فضول علمي بريء:
- «غرفة سينما؟ هل لديكم غرفة سينما؟!»
أخذت شهيقًا عميقًا، وتراجعت عن الباب، وقالت في ملل:
- «لدى زوجي آلة عرض للهواة من طراز 16 مم.. وهو يهوي مشاهدة الأفلام في هذه الغرفة.. ليست سينما بالمعنى الصحيح، لأن أكثر الأفلام الروائية هي مقاس 35 مم...»
دعوتها إلى الجلوس، ثم طلبت منهم أن يلتزموا الصمت، كي نناقش بنظام ودون هلع موقفنا غير المعتاد هذا.. لست من هواة استعمال اللغات الأجنبية، ما دام في العربيّة ما يقابلها، لكني رحت أردد مرارًا بالإنجليزية (Don't Panic).. لأن لفظة (Panic) الإنجليزية تعبر بدقة عن الهلع الذي يسلبك القدرة على التفكير، والذي يجعل رواد السينما يتدافعون على الأبواب ويهشمون بعضهم البعض؛ إذا شموا رائحة دخان.. ولسبب كهذا تصمم أبواب قاعات المؤتمرات والمسارح بحيث تنفتح إلى الخارج لا الداخل..
قلت لهم محاولًا أن أكون باردًا عقلانيًا:
- «كما ترون نحن في وضع غير مسبوق.. ما زلت أشعر أن في الأمر مزحة أو دعابة ما، الغرض منها اختبار أعصابنا..»
- «مستحيل!»
كانت هذه من الزوجة التي قالتها دون أن ترفع عينيها، واعتصرت قدح الشاي بين يديها في عصبية، وغمغمت:
- «لو كنت تعرف زوجي لعرفت أنه لا يمزح.. وعندما يقول إنّه ينوي هلاكنا فلك أن تثق في هذا!»
- «هذا هو فصل الخطاب..»

وصببت لنفسي بعض الشاي من البراد الخزفي الأنيق.. كان قد يرد تمامًا.. لكني كنت بحاجة إليه.. وأردفت:

- «حسن.. يمكننا إذن أن ننطلق من فرضية ثابتة، هي أنّ هذا الموقف حقيقي.. وهو في رأيي لا يخلو من تشابه مع مواقف شهيرة في الأدب العالمي.. إن من يخطب الحسناء (بورشيا) في مسرحيّة (تاجر البندقية) عليه أن يختار واحدًا من ثلاثة صناديق.. الصندوق الأول من الذهب.. الثاني من الفضة.. الثالث من الرصاص.. وفي أحد الصناديق تنتظر صورة الحسناء..»

بالطبع يقع كل خطاب (بورشيا) في خطأ أحمق.. إذ يفترض كل منهم أن صورة حسناء كهذه لا بد أن توجد في صندوق من ذهب أو فضة.. فقط بطل المسرحية هو الذي يفطن للمغزى الأخلاقي للموقف، ويختار الصندوق المصنوع من رصاص.. وبالطبع كان هو الصندوق المطلوب..

- «أتذكر أيضًا.....»

في غيظ قالت (هيام):

- «وحياة والدك لسنا الآن في ندوة ثقافية..»

كتمت خواطري وصمت.. وكنت أوشك أن أحكي قصة (ستوكتون) الشهيرة عن الباب الذي تنتظر أميرة جميلة خلفه، والباب الذي ينتظر نمر شرس خلفه.. وعلى الأسير أن يختار أحد البابين.. المشكلة هي أن (ستوكتون) لم ينه القصة قط.. بل أعلن أنه عاجز تمامًا عن إنهائها، لهذا يفضل الانسحاب، تاركًا الأمر لخيال القارئ!

قال الأستاذ (محمود) وهو يعيد حشو غليونه:

- «بل الموقف يحمل روائح من مئات القصص في التاريخ، ومنها قصة ذي اللحية الزرقاء الذي أهدى زوجته قصرًا به مائة غرفة، لكنه أمرها ألا تفتح الغرفة المائة.. النتيجة هي أن الزوجة صارت حياتها جحيمًا، ما الذي يوجد في الغرفة المائة؟!»

- «إن قيمة الباب المغلق عتيقة راسخة في وجدان الإنسان، ربما منذ اخترع الباب.. وها نحن أولاء نواجه الموقف ذاته بوضوح وفجاجة لم يسبق لهما مثيل..»

ونظرت إلى العيون من حولي، وابتلعت ريقي، وقلت..

- «السؤال هنا هو: ما الذي نتوقعه لو فتحنا الباب الخطأ؟»

سأل الأستاذ (محمود) الزوجة في رفق:

- «هل زوجك يفهم شيئًا في المفرقعات؟»

ابتسمت ابتسامة مريرة بزاوية فمها، وغمغمت:

- «هل تمزح؟ بالطبع لا..»

- «وهل هو بارع في الأعمال المنزليّة؟»

- «كان! لكنّ وضعه الاجتماعي وانشغاله لم يعودا يسمحان له بإصلاح صنبور المطبخ، أو تركيب كشاف من (نيون) لو كان هذا ما تعنيه.. على كل حال أنا لا أثق في قدرته على عمل شيء بالشكل الصحيح..»

قلت في لهجة ذا مغزى:

- «هذا هو بالضبط ما جعله يضعك في قائمة الانتقام هذه.. يبدو أنه تحول بالنسبة لك إلى آلة لجمع المال لا أكثر..»

رشفت رشفة من قدح الشاي الذي تمسكه بكفيها معًا، وقالت:

- «الحق ما تقول.. أحيانًا كنت أتمنى ألا يعود إلى الدار.. فهذا يضيع بعض وقت جمع المال.. ربما كان من الأفضل أن يرسل ما يكسبه إلى الدار بحوالة!»

ابتسمت.. فلم أتوقع هذه الصراحة منها..

وكانت هذه ـ مع انهيار (هيام) - هي النوادر الأولى لما سيتكرر كثيرًا في هذه الليلة السوداء: انتزاع أقنعة الحضارة واحدًا تلو الآخر.. الظهور دون أي قناع اجتماعي من أي نوع..

حقًا هي تجربة فريدة..

* * *

من جديد تساءل الأستاذ الكبير:

- «ما الذي نتوقعه لو فتحنا الباب الخطأ؟»

- «لن نعرف أبدًا.. لكنّ الحلول السهلة مثل نمر حبيس، أو بعوض يحمل الحمى الصفراء، أو قنبلة تطيح بنا؛ كلها تبدو خياليّة جدًا وبعيدة جدًا..»

- «إذن هو يمزح..»

- «مستحيل!!»

من جديد قالتها الزوجة في ثقة، وكررت مسلمتها الشهيرة:

- «زوجي لا يمزح أبدًا..»

قلت أنا وأنا أضع قدح الشاي:

- «ليكن.. علينا الآن أن نختار ما بين البقاء هاهنا، أو تجربة أحد هذه الأبواب.. والسؤال هو: أي باب؟!»

تبادلنا النظرات.. حقًّا لم يكن هناك من يملك الإجابة.. باب مكتب.. باب غرفة السينما (وهو موحٍ بشيء ما).. وباب غرفة المعيشة الصغيرة.. كلها أبواب كأية أبواب أخرى، ولا يميزها شيء.. وفي ثقب مفتاح كل باب منها استقر مفتاح بريء المظهر فاخر إلى حد مستفز... كأنما يدعونا بصمت إلى الدخول..

ساد الصمت برهة (والبرهة كما يقول اللغويون فترة طويلة من الوقت، لا كما هو شائع.. الهنيهة هي ما يعبر عن الفترات القصيرة).. ثم تكلّم الأستاذ الصحفي في تؤدة، وكان ما قاله معقولًا:

- «لننفعل أي شيء.. سننتظر.. وحتمًا سيبحث أحدهم عنا.. سيجئ واحد من مكان ما.. بائع.. محصل كهرباء.. ضيف.. ولسوف يقرع الجرس عندها.....»

صاحت (هيام):

- «لكنّ هذا يحتاج إلى وقت.. على الأقل لن يحدث قبل شروق الشمس..»

- «وما هي المشكلة؟ نحن هنا مستمرون في حفلنا البهيج نتبادل مناقشات ممتعة.. البيت ملىء بالطعام والشراب.. حتى الطرب موجود هاهنا..»

وأشار في مماحكة إلى المطرب، فابتسم هذا في عصبية..

قلت وأنا أخلع سترتي:

- «لا بأس.. يبدو لي هذا حلًا مناسبًا بالنسبة لأشخاص لا يسأل عنهم أحد، ولا يهم أين يبيتون هذه الليلة..»

وبدأت الجلسة الثانية لنا..

حقًا لم يكن المرح ثامننا في هذه المرّة..

كانت هناك دعابات لكنّها مخنوقة خجول، وحاول المطرب أن يدندن شيئًا ما.. لكنّ مزاجه كان متعكرًا بحق.. هؤلاء المطربون الجدد لا يمكن لشيءٍ أن يمنعهم من الغناء سوى القنبلة الهيدروجينية، ومعنى صمته هو أن ما نمر به هو بحق كارثة..

في النهاية هبطت موجة المرح كما ارتفعت، ولم يبق من البحر سوى سطح راكد قلق صموت..

وبمرور الوقت تحررنا من وقارنا أو نسيناه.. نزعت (هيام) حذائيها، ووضعت ساقًا تحتها وهي جالسة، وفك الأستاذ الصحفي ربطة عنقه، على حين نسي المطرب التعبير الولهان الأسيان على وجهه، وبدا أكثر مرضًا وأقل رقة، حتى توقعت أن تنزع مدام (ناهد) جمتها الصفراء الثقيلة كي تريح رأسها قليلًا، أو يمد المخرج العجوز يده في فمه ليخرج طاقم أسنانه ويلقيه في كوب الماء أمامي..

كانت مدام (ناهد) أكثرنا راحة طبعًا، فهذا بيتها.. لهذا نهضت مرارًا، وغسلت وجهها، وعادت لنا أكثر من مرة حاملة شيئًا يؤكل أو يشرب.. ثم تجرأت أكثر فأعلنت:

- «من يرد استعمال الحمام يمكنه هذا..»

وكانت هذه هي جملة الخلاص لنا.. لحسن الحظ أن زوجها المخبول لم يضم باب الحمام إلى القائمة.. لن نموت باحتباس بولي على الأقل...

بدأت (هيام) تغفو بعد كل الطاقة الهستيريّة التي بذلتها، فأراحت رأسها على كتف الشاعرة، وغابت عن الوجود، وهنا نهضت (ناهد) فجلبت غطاء صغيرًا من (التريكو) فرشته على ركبتيها.. وعادت للجلوس..

قلت وأنا أتأمل الأبواب في شرود:

- «الرعب خلف باب مغلق.. لقد جربت هذه القصة مرارًا.. وكانت آخر مرة في (رومانيا) في كهف مظلم.. كان الباب يقود لعالم شيطاني يسموّنه (جانب النجوم) منه يجيء مصاصو الدماء إلى عالمنا!»

- «هراء!»

قالتها الشاعرة في اشمئزاز، وأشعلت لفافة تبغ أخرى..

لم أعلق لأن الجدل مع هذه السيدة مضيعة للوقت.. أحيانًا يكون من الذكاء ابتلاع الإهانات.. خاصة إن لم ينتج هذا عن ضعف..

قال الكاتب الصحفي:

- «ما من أحد منا إلا وكانت له تجربة رهيبة مع باب مغلق... الباب الفاصل بين عالمين.. بين الجهل والمعرفة.. بين الرعب والتوجس.. بين الانتظار ونهاية الانتظار...»

نظرت إلى الجالسين، وقلت:

- «هذه فكرة لا بأس بها لتمضية الوقت.. لم لا يحكي كل منا قصته مع الباب المغلق؟!»

- «ربما لا توجد قصة..»

- «أشك في هذا.. من يدري؟ إن عدم وجود قصة هو قصة مسلية في حد ذاتها..»

تساءل المطرب الصاعد، وهو يضع عوده جانبًا، كأنه (معبد) وقد فرغ من تعليم المقامات الـ (دنانير):

- «ما جدوى هذا؟»

قلت وأنا أنزع حذائي لأتربع على الأريكة:

- «جدواه ألا يشعر بمرور الوقت أولًا.. جدواه أن نزداد حكمة ويتسع خيالنا.. جدواه لي أن أعرف أكثر.. ظننت هذا السؤال لا يجيء من فنان، وقد امتلأ العالم بمن يشكون في جدوى الفن أصلًا..»

ولكني في سرى لم أجرؤ على اعتبار هذا الفتى فنانًا.. الفن كما أفهمه شيء أكثر رقيًا وشفافية ونورانية.. الفن هو ما يصنعه (رينوار) و(فان جوخ) و(صلاح طاهر) و(موتسارت) و(عبد الوهاب) و(لورانس أوليفييه) و(محمود مرسي)..

نقطة ثانية لا تخلو من الحذلقة: (الفنان) هو الحمار الوحشي في اللغة العربيّة، أمّا ما نعنيه هنا فهو (المُغن).. وهو نموذج آخر للخطأ الشائع حين يصير هو الصواب الوحيد.. ويحتاج الأمر إلى شجاعة غير عادية كي تكافحه...

قال المخرج العجوز:

- «ليكن.. إن الفكرة تروق لي، وربما ألهمتني بعض أفكار جديدة!»

(أدعو الله ألا يحدث هذا، وإلا كانت سهرة مملة حقًّا).. قلتها في سري، ثم طلبت أن يبدأ السرد من سيبدأ..

- «ومن يبدأ؟»

في تواضع قال المخرج وبلهجة من ينتظر تزلفًا مماثلًا:

- «لو كان بالأكبر سنًا فهو أنا.. ولو كان بالأكبر مقامًا فهو الأستاذ (محمود عوني)!»

قلت دون أن أوجه له أية مجاملة:

- «إذن يُمكنك البدء يا (سمير)!!»

* * *

وهكذا دارت حلقة الرعب الرابعة.....

ترى كيف دارت؟!

* * *

الباب الأول:
موعد مع الأستاذ



الباب الأول

« موعد مع الأستاذ »

يفتحه : «سمير الصياد»

«هذه القصة لن تنتهي إلا بنهاية من اثنتين :
إما أن الأستاذ العظيم يستعين بالسحر، أو ما هو أسوأ كي يصل إلى إلهامه، وإما أنك تظن هذا ثم يتضح أنك مخطئ!»

- ١ -

راح (سمير الصياد) يلهث، ويشهق وقد سبل عينيه، ممعنا في التهافت كعادته.. وكأنما يقلد (عبد الحليم حافظ) في أفلامه القديمة، حين كان يصارح محبوبته بأنه مريض بمرض مميت..
قال وهو ينظر للسقف:
- «قصتي مع الباب المغلق؟ يا لها من قصة!»

* * *

بيت الأستاذ (عزت عبد الحميد)..
كنت واقفًا هناك أمسح حذائي، في مؤخرة ساقي سروالي، وترتجف يدي في عصبية على العود، وبصعوبة أتمالك أعصابي..
لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي أجيء فيها إلى هذه (الفيللا) الفاخرة في حي (الزمالك).. لقد جئت هاهنا مرارًا.. اشتريت أكثر من رغيف (طرب) من الكبابجي الذي يقع محله في بداية الشارع، وأمشي حالًا حتى (فيللا) الأستاذ لأقف في الظلام وسط غطاء أوراق الشجر.. ألتهم (الطرب) وأشعر به ينفذ إلى روحي مباشرة.. فأحلم.....
أمضي ساعة أو بعض ساعة في المكان ذاته، ثم أرحل مدندنًا بالأحلام، وقد اكتسى كتفا قميصى بفضلات الطيور التي تغفو بكثافة فوق الأشجار..
(طرب) و(طيور) و(موسيقا).. يا له من مزيج جميل! لقد قضيت معه أعوامًا، وفي روحي امتزج مذاق (الطرب) بأعذب الألحان..
لكن هذه هي المرّة الأولى التي أجئ فيها لبيت الأستاذ (مدعوًا)..

* * *

كانت بدايتي هي بداية أي مطرب شاب.. نشأت في قرية قرب (الدلنجات) بالبحيرة، ومنذ طفولتي قيل لي إن صوتي يمتاز بشيء ما..
وفي العشرين من عمري بدا أنني لن أصلح لشيءٍ إلا أنّ أكون مطربًا، ونزحت إلى (القاهرة) لأدرس الموسيقا، وأقيم في فندق رخيص من فنادق القباقيب إياها..
اشتركت في عدة حفلات، ووقعت في أكثر من قصة حب كنت أنهيها دومًا - حين أملها - بأن أصارح المحبوبة بأنني مريض بالسرطان، وأغنى لها في شجن:
- «كنت أتمنى يطول العمر، وأعيش لياليه»
ثم أنصرف دامعًا وهي دامعة، لأشتري شطيرتي فول من (مسعد)، وألتهمهما في العشاء، ثم أنام قرير العين، أفكر في حب جديد!
رباه! لقد كانت أيامًا جميلة..

على أن أكثر من قائل صارحني بأنني أضيع شبابي بحق.. صوت جميل كصوتي يستحق أن أكرمة بلحن جميل أو أجمل.. لم يكن لديَّ ملحن سوى واحد من سني يُدعى (عباس)، ولم يكن واعدًا جدًا..

ونصحوني بأن أحاول الاتصال بالأستاذ (عزت عبد الحميد).. فهو يجيد تلميع المواهب الجديدة وصقلها.. ثم إنّه متهاود في أسعاره مع الشباب ولطيف المعشر كما قالوا..

حصلت على رقم الهاتف مذهولًا مبهور الأنفاس، وحاولت مرارًا أن أحصل على موعد، لكنه كان يصغي لي ببرود، ثم يقول عبارته الشهيرة: (ربنا يسهل) أو يعتذر في تهذيب أو غلظة..

ذات مرة طلب مني أن أنشد في الهاتف مقطعًا من أحد الموشحات، ولم أكن مستعدًا له.. بعد ما أصغى إليّ غمغم شيئًا عن عدم حاجته لأكل البيضة كلها كي يعرف أنها فاسدة..

لكني لم أيأس، ولم أقنط...

وفي النهاية وافق على مقابلتي في تمام العاشرة مساء ذلك اليوم السعيد...

* * *

نزلت من سيارة الأجرة - وكنت في حاجة لذلك، لأن العود معي - ملهوفًا متلاحق الأنفاس، ورحت أرمق الفيللا، الجاثمة في الظلام كأنها المجد ينتظرني..

دنوت من البوابة الحديدية فقرعت جرسًا، ونظرت إلى ساعتي.. إنها العاشرة وخمس دقائق.. تبًّا! شعرت في لهفتي أنّ هذه الدقائق الخمس قد تكون السبب في انهيار مستقبلي الفني..

جاء بواب لا يرتدي الجلباب ففتح لي الحديقة، وكانت هناك كلبته تحاول الوثب لتمزيق أحشائي، لكنه منعها في رفق، واسمها كأية كلبة تحترم نفسها هو (توسكا).. لا بد أنّ هناك قانونًا يمنع تسمية إناث الكلاب باسم آخر..

اجتزت المدخل الذي تم رصفه بقرميد صغير ملون، وتناثرت على جانبيه مصابيح سوداء أنيقة، كمصابيح الشوارع لكنّها أجمل بالطبع..

شعرت بضآلة حقيقيّة.. ترى كم أغنية ناجحة يجب أن أقدم قبل أن أمتلك ثمن ثلاثة عواميد من هذه؟

هنا رأيت من يمشي بين النباتات خارج المنزل، ودنوت منه فعرفته على الفور.. إنّه الأستاذ بشحمه ولحمه كما اعتدنا أن نراه في كل وسائل الإعلام.. أنتم تعرفون منظره المهيب دون شك.. الشعر الأبيض الناعم المنساب كخيوط الفضة.. النظرة (اللوردية) الأرستقراطية من وراء العوينات... الشامة الزرقاء فوق حاجبه الأيمن.. ربطة العنق التي يرتديها بكامل أناقتها تحت روب قصير براق..

فما إن رآني حتى وقف ويداه في جيبي الروب، وغمغم بانبهار:

- «(سمير).. (سمير القرموطي).. أليس كذلك؟»

احتبس الكلام في حلقي، فأشرت لصدري في بلاهة أنه أنا..

قال في وقار، وهو لا يكف عن تأمل وجهي بفضول:

- «هذا ليس اسمًا فنيًا.. (سمير الصياد).. هذا هو اسمك الجديد.. لم نبتعد عن البحر والقراميط كثيرًا!»

وطوح برأسه للوراء وانفجر في قهقهة معدنية مجلجلة كما يظهرون بشوات ما قبل الثورة في السينما.. وقبلت أنا في كثير من التواضع والحياء عملية تبديل اسمي التي لا دخل لي فيها...

ولحقت به إلى داخل الفيللا، بينما هو يتكلم في حرارة:

- «كنت أعني بزهوري.. أنت لا تتصور حساسية البنفسج لهذا الجو الذي نمر به.. ثم إنني كتبت لك لحنًا لا بأس به، وكنت أعتزم أن أضع عليه لمساتي الأخيرة في ظلام الحديقة..»

ثم - دون تحفظ - راح يدندن بصوت عالٍ:

- «را تاتاتارا را را تين.. را تاتاتارا را تين..»

وصمت قليلًا.. ثم قال:

- «أنا لو انساكى حافتكر مين؟ من بعد هواكي حياتي أنين.. هذه هي الكلمات التي تصلح لهذا الوزن.. سأقترح عليك اسم شاعر مناسب من يجيدون تركيب الكلمات على الألحان لا العكس.. وهو سيكمل لك القصيدة إلى آخرها..»

وكان هذا هو ميلاد أغنيتي الجديدة، التي اشتهرت بها لأول مرة في حياتي..

كيف كان حالي في هذه اللحظات، ومع هذه المودة الزائدة؟ طبعًا يمكنني أن أوفر هذا العناء على نفسي.. كنت ذاهلًا فاقد النطق تقريبًا.. لقد اختارني الحظ فجأة كي يقدم لي كل شيء، ولا أعرف التفسير..

* * *

كانت غرفته كما تخيلتها بالضبط بلا زيادة ولا نقصان...

يوجد أكثر من عود مزدان بالعاج على الحوائط، مع صورة عملاقة له وهو يبتسم في غموض... صورة لم أحسب قط أن حجمها ممكن.. كما أنّ هناك حوالي خمسة أجهزة تسجيل من ماركات مختلفة، وبعض نباتات الظل أمام نافذة عملاقة تحتل جدارًا كاملًا، ولا يظهر منها الآن سوى سواد الليل تنتثر فيه أضواء الحديقة..

قال لي وهو يجلس واضعًا ساقًا على ساق:

- «مشكلتك أنك تقلد (عبد الحليم حافظ) أكثر من اللازم.. وهذا لن يقودك لأي مكان لأن الأصل موجود وفعال.. عليك أن تتميز ولا تمتاز.. عليك بالبحث عن طابع جديد..»

وهنا دق جرس الهاتف، فرفع السماعة وراح يتكلم مع أحدهم في عبارات سريعة مقتضبة لم أفهم منها الكثير..

اختلست النظر إلى الحجرة من حولي.. كان حجمها هائلًا يذكرني بدوار العمدة في قريتي، لكنّ بابا ضخمًا كان ينتظرني في الركن.. ولا أدري سبب ذلك، لكني لم أستطع إبعاد عيني عنه...

انتهت المكالمة، فوضع السماعة وشرد بذهنه بعد هنيهة قال وهو يمتص إبهامه:

- «هذا (عادل شفيق) يريد تعديلًا في لحن أغنيته الأخيرة..»

بانبهار الأغبياء صحت:

- «الأستاذ (عادل شفيق) شخصيًا؟ المطرب؟»

ابتسم في سخرية:

- «طبعًا يا بني.. لا حاجة لي إلى معرفة طبيب أسنان بهذا الاسم.. أرجو أن تمهلني لحظة..»

ونهض في تؤدة متجهًا إلى ركن القاعة، حيث كان الباب الخشبي الضخم الذي لم تفارقه عيناي..

فتحة، وللحظة رأيت ضوءًا أحمر غريبًا يخرج من ورائه، وفي اللحظة التالية كان الباب قد انغلق وجلست وحدي..

وضعت العود الخاص بي على الأريكة، ورحت أتأمل المكان.. لشد ما تمنيت رؤية عملية الخلق لدى هذا الرجل العظيم.. يقول من يعرفون (محمد عبد الوهاب) إنّه لا يكف عن الزوام كالقطط في سرّه، من فرط الألحان التي تحتشد في ذهنه.. ويقول من عرفوا أمير الشعراء (أحمد شوقي) إنّه دائم الشرود، وكثيرًا ما يخرج علبة التبغ ليدون عليها بخط صغير بعض أبيات أتاه وحيها فجأة..

ترى ما هو دور الوحي في حياة الأستاذ (عزت عبد الحميد)؟

إنّه لمشهد مثير حقًّا.....

جلست أنتظر.. أصخت السمع والخيال إلى ما وراء الباب المغلق، وهنا خيل لي أنني أسمع صوتًا غريبًا.. صوتًا أقرب إلى شهيق الغريق في اللحظات المريرة التي يرتفع فيها لسطح الماء، فيحاول أن يعب الهواء عبًا، فلا يجني سوى ملء رئتيه بالفقاقيع..

ها آآآآه! هاااااه! ها آآآآه!

وتكرر الصوت نحو عشر مرات.. ثم دوى صوت شيء يسقط أرضًا..

بوم!

* * *



اننى اسمع صوتاً غريباً .. صوتاً اقرب إلى شهيق الغريق .

- ٢ -

قال (سمير الصياد) بصوته المبحوح:
هرعت إلى الباب فدققته في أدب مرارًا، وقلت:
- «هل من شيء أفعله يا أستاذ؟ هل أنت بخير؟»
مرّت فترة أطول من اللازم، ثم سمعت الباب ينفتح ورأيته يخرج..
كان في أحسن حال.. بأناقته المعهودة وانتعاشه، لكنّ شيئًا من التحفظ سرى إلى أسلوبه في الكلام، وقال لي:
- «لا داعي للقلق.. فلا أجد ما يدعوك للسؤال..»
ثم دعاني إلى الجلوس، ومد يده إلى عود مزخرف ملقى على إحدى الأرائك، فراح يدندن عليه لحنًا لم أتعرفه، وثني جذعه ليدون شيئًا من نوتة موسيقية على بعض الأوراق أمامه...
ثم حرّك شفتيه في استمتاع كمن يتلمظ:
- «هكذا.. لا بأس على الإطلاق..»

* * *

قلت للفتى وأنا أفرد ساقي طلبًا لإراحتهما:
- «هذه القصة لن تنتهي إلا بنهاية من اثنتين إما أن الأستاذ العظيم يستعين بالسحر، أو ما هو أسوأ كي يصل إلى إلهامه، وإما أنك تظن هذا ثم يتضح أنك مخطئ!»
ابتسم المطرب الشاب كمن حوصر في ركن من الحلبة، وقال:
- «هكذا لا تترك لي مجالًا لإكمال قصتي يا د. (رفعت).. إن قصتي أغرب على كل حال..»
هنا تدخل الأستاذ (محمود عوني):
- «لا يجب أن تكون كل القصص جديدة لا يمكن التنبؤ بنهايتها يا د. (رفعت)، وإلا كان من الخير لنا أن نظل صامتين..»
قلت في شيء من خجل:
- «معذرة.. لكني إن اشتهرت بشيء فبسرعة الملل.. يخيّل إلى أن كل ما يحدث ويُقال من حولي، قد حدث وقيل من قبل، لكنّ الناس جميعًا نسوا ما عداي!»
حقًا.. كان هذا هو الشعور الذي ضايقني طيلة حياتي..
في التسعينات كتبت الصحف عن حادث الزوجة التي قتلت زوجها، ووضعت أشلاءه في أكياس بلاستيكية.. أصيب الناس بالهلع، وراحت الصحف تكتب عن (الدموية التي تسربت إلى نفسية رجل الشارع) وعن تغير أنماط الجريمة في (مصر) وعن.....
لم يصدقني أحد حين قلت إن هذه الجريمة حدثت مرارًا في الثمانينات والسبعينات والستينات، وربما كانت تحدث قبل اختراع الأكياس البلاستيكية، لكنّ الجميع نسوا ببساطة، وصرت أنا المخبول الوحيد، وغير هذا كثير..

ولكن دعونا نصغ لقصة الفتى إلى نهايتها..

* * *

قال (سمير الصياد) بصوته الولهان:

- «توطدت صداقتي مع الأستاذ، ورحت أتردد على داره ثلاث مرات أسبوعيًا.. وأخيرًا جاءت اللحظة التي دخلت فيها (ستوديو) الصوت كي أسجل رائعتي الأولى.. «أنا لو أنساكي حافتكر مين..»، وبعدها قدمت رائعتي الثانية: «الحب اللي جاني.. غير الأولاني!»

بدأت الشهرة تنمو ببطء، واشتريت سيارة نصف عمر، ودُعيت إلى بعض حفلات، حيث كان عدد لا بأس به راغبًا في سماع (الحب اللي جاني).. وفي الواقع كنت مدينًا للأستاذ بكل شيء.. حقًّا صدق من قالوا: إنّه هو الحل السحري للمبتدئين في الغناء..

بشرط أن تروق له أولًا!

وضع ألف خط تحت هذه العبارة.. لماذا اختارني الرجل بالذات بعد ما وصف صوتي بأنه (بيضة فاسدة)؟ ولماذا احتفى بي كل هذه الحفاوة.. قد يقول قائل: إنّه غير وجهة نظره في صوتي، ولكن متى أعاد سماعه؟

دائمًا ظلت علامة الاستفهام معلقة.. بلا جواب..

* * *

علامة استفهام الثانية كانت تحيط بالباب المغلق..

ما الذي يفعله الرجل خلف هذا الباب المغلق؟ في كلّ مرّة يبحث فيها عن إلهام جديد كان يعتذر، ثم ينسحب إلى هناك، وتمر دقائق بعدها يعود إليّ بالجواب.. والجواب دائمًا جميل متقن.....

هنا تدخلت - آنا (رفعت إسماعيل) - في الموضوع - وسألته:

- «هل أنت واثق من أن ما خلف الباب المغلق ليس دورة مياه؟ كثيرًا ما يجيء الإلهام في الحمام للعظماء!»

ابتسم (سمير) كأنما كان يتوقع هذا، وقال:

- «كل الثقة.. الناس لا تشهق في الحمام كالغرقى، وتدخل في إغماءة.. هذا هو الصوت الذي أسمعه..»

- «حقًّا هذا غريب.. وبالطبع قمت أنت بفتح الباب يومًا..»

- «كيف عرفت؟»

- «أنا أعرف البشر.. لقد قتل الفضول القط كما قال الإنجليز منذ دهور..»

- «حقًّا فتحت الباب..»

وشردت عيناه إلى بعيد.. كان يتأمل المقبض الذهبي الغليظ..

* * *

لقد تركه الأستاذ، ودخل الغرفة المغلقة، ولبضع دقائق ظل جالسًا وحده يتأمل الباب في نهم.. المقبض الذهبي ـ المُذهّب للدقة اللغويّة ـ الذي ينتظر يدًا جريئة تفتحه..

أخيرًا سمعت صوت الـ (هاآآه! ها آآه!) المميز.. بعده صوت ارتطام المدوي، وكانت هذه هي اللحظة المناسبة..

وثبت إلى الباب وفتحته، وبحذر سكبت عيناي من الفرجة الضيقة التي أحدثتها..

كانت غرفة ضيقة جدًّا كأنها القبر، باردة إلى حد لا يمكن تصديقه، جدرانها حمراء تمامًا، عليها زخارف غريبة غير منسقة..

أما أغرب شيء في الموضوع فهو أنها كانت خالية تمامًا.. لم يكن بها أحد، ولم يكن الوقت كافيًا كي أبحث عن مخابئ في أي مكان بها..

تملكني الهلع بحق، وفي اللحظة التالية قف شعر رأسي، لأنني لمحت ما يشبه التجسد في مركز الحجرة.. التجسد الذي يتخذ هيئة إنسان ملقى على وجهه على الأرض..

أغلقت الباب وعدت لمكاني، وأنا أنتفض كورقة....

* * *

حقًا لم يكن الأستاذ بشريًا..

لم يكن ينتمي لعالمنا، ولا قواعدنا الماديّة الصارمة..

لقد اختفى بلا تفسير من غرفة مغلقة، وهو لا يجيد ألعاب الحواة، ولو كان يجيدها، فلماذا يمارسها وهو وحيد؟!

وانفتح الباب أخيرًا ليدخل الأستاذ، وفي هذه المرّة لم أستطع حتى أن أتحمل لمسة ساقه لساقي، وهو يحتك بها في أثناء عودته لمجلسه..

كنت أخشاه كثعبان، ولكني حرصت على ألا يرى هذا في وجهي، على أن أبادر بالفرار عند أول فرصة، فلا أعود هاهنا أبدًا..

راح يدندن كعادته محاولًا تذكر إلهامه الأخير.. كتب ما قال في وريقة صغيرة، ثم سألني عن سر شرودي، فابتكرت إجابة مرتجلة:

ـ «إنّه الاكتئاب.. الاكتئاب.. ربما الخوف من ألا أقدم جديدًا..»

نظر في عيني طويلًا حتى كدت أصرخ، ثم - دون مقدمات ـ سألني:

ـ «هل تؤمن بالجان؟!»

* * *

سؤال غريب في لحظة غير مناسبة على الإطلاق.. قلت له بعد ما بلعت ريقي:

ـ «الجان مذكور في القرآن الكريم.. هذه إجابة كافية على ما أظن..»

عقد يديه على صدره، واسترخي في مقعده، وقال:

ـ «لنضع السؤال بطريقة أخرى... هل تؤمن بقدرة البشر على تسخير الجان؟!»

- «لا أدري يا سيدي.. لا أدري..»
ما الذي يرمي إليه ولأية ورطة يقودني؟
قال وهو ينظر إلى السقف:
- «قديمًا كان العرب يعتقدون أن الشعراء يأتيهم الإلهام من جان وادي (عبقر).. فيما بعد كثر التعبير عن الإلهام بي. (جنية الموسيقا) و(شيطان الشعر) و.... و... هل تعتقد أن كل هذا خالٍ من الصواب؟»
وقف شعر رأسي إذ فكرت في معنى هذه المحادثة.. لقد صار الموضوع واضحًا إذن..
نهض وراح يذرع الغرفة جيئة وإيابًا ويداه في جيبي روبه، وقال كأنما يكلم نفسه:
- «هذه هي الطريقة.. هكذا يتحول موسيقار نصف موهوب مثلي إلى عبقري، ببساطة حين يتعلم الطريقة المثلى، وحين يقبل أن يحمله الجان إلى مملكتهم الجهنمية.. إن الأمر غريب لا يصدّق، لو رأيته لحسبته نوبة صرعية.. أمّا بالنسبة لموضوع التجربة، فالأمر شبيه بالموت.. بانتزاع الحياة من حلقومه..»
وابتسم ابتسامة خبيثة، والتفت لي:
- «هل تحسبني أحمق؟ لماذا لم أغلق الباب على نفسي؟ لماذا تركتك تتسلل كما يتسلل القط إلى المطبخ، ليسرق فخذ الدجاجة؟ لأنك مثلي تحمل العلامة.. يقولون إن هناك علامة.. وهذه العلامة ترشح المختارين للاتصال.. أنا رأيتها حين قابلتك في حديقة الفيللا، وكنت أزمع طردك بشيء من الرفق.. عندها تغير مسلكي تمامًا، كما لا بد أنك لاحظت؛ لأنني عرفتك على الفور.. العلامة! لا شيء يميزنا سوى هذه العلامة!»
وأشار إلى الشامة الزرقاء فوق حاجبه الأيمن..
عندها سقط قلبي في قدمي، وتحول عمودي الفقري إلى عمود من الجليد...
أنا أملك شامة مماثلة.. هذا هو السر إذن..
قال في شيء من الشراسة:
- «والآن لا توجد أنصاف حلول: أنت معنا أم ضدنا؟ اختر!»
- «لاااه!»
قلتها وأنا أثب كالزنبرك من مقعدي، ونظرت لوجهه فوجدت أنه قد تبدل إلى حد مروع.. لم أره من قبل بهذه الشراسة والتوجس...
وفي ثوان كنت قد اندفعت إلى الباب، إلى الحديقة، إلى باب الفيللا الحديدي، ورحت أضربه وأهزه في جنون.. بينما الكلب ينبح، والبواب يحاول إقناعي بالانتظار حتى يفتح لي بالطريقة العادية المحترمة..
بعد لحظات كنت قد ابتعدت كثيرًا جدًا عن المكان والزمان والحدث..

* * *

ومن يومها لم تلمس قدماي شوارع الزمالك..

صحيح أنني لم أكف عن الغناء، وكانت لأغنيتيه لمسة لا بأس بها في حياتي الفنية، لكني ـ وهذا مفهوم ـ لم أكن على استعداد قط لرؤية وجهه من جديد..

كثيرون تساءلوا عن سبب انقطاع صداقتنا، وأقنعوا أنفسهم بأن الرجل قد انتظر مني أشياء، وتوسم في صوتي أشياء، لم أحقق منها شيئًا.. وبالتالي قرر أن يتخلص مني...

لكني لم أتكلم.. فقط رحت أحاول أن أجد جراحًا بارعًا يزيل تلك الشامة فوق حاجبي.. لكنّ الأطباء نصحوني بألا أفعل.. إن الجراحة قد تترك أثرًا لا يفضل الشامة في شيء..

وحكيت القصة لأحد المطربين، فأغرق في الضحك، وقال:

- «هل نجح في خداعك؟ إن الأستاذ يداعب ضيوفه مداعبات عملية قاسية ليست هذه أسوأها.. وأعتقد أنه مل صداقتك، فقرر أن ينهيها بفاصل تمثيلي جيد يحكيه لضيوفه في سهرة ضاحكة..»

- «والاختفاء؟»

ـ «إنّه ثرى ويملك القدرة على بناء أكثر من جب سحري في تلك الغرفة.. هذه ألاعيب حواة..»

لكني لم أنس قط، ولم أجد تفسيرًا:

لو صدقنا كل هذا فكيف حدث التجسد البطيء؟ كيف تغيرت ملامحه بهذه السرعة، كأنما أعظم ممثلي الكون؟

شيء في روحي يخبرني أنه كان صادقًا، وأن ما حدث حدث فعلًا..

لقد كان الهول ينتظرني خلف الباب المغلق..

وما زال ينتظرني في منامي كل ليلة!

* * *

الباب الثاني:
مع الحَطَمَة!



الباب الثاني

« مع الحَطَمَة! »

تفتحه : «نادية فهيم»

«كنت أراه يزحف في بطء، خارجًا من البحر، يجر جسده بصعوبة.. لكن بإصرار، عازمًا على أن يقضي ليلته تحت سقفي، لا يفصلني عنه سوى باب يملك هو وحده مفتاحه! »

- ١ -

ساد الصمت إلا من أنفاسنا، وقد راح كل منا يتصوّر القصة في خياله بمواقع تصوير وممثلين مختلفين لا يجمع بينهم إلا (سمير الصياد)..

تساءلت مدام (ناهد) في حيرة محاولة التذكر:

- «هل (عزت عبد الحميد) له شامة فوق حاجبه؟»

قال (سمير) وهو يتثاءب:

- «له.. لكنّ لكي تلاحظيها لا بد من أن تكوني المعجبة رقم واحد به مثلي.. أو مثلما كنت..»

قلت وأنا أتأمل الوجوه:

- «لا بأس.. في القصة الأولى كان الباب هو الممر إلى وادي (عبقر)، أو ربما دعابة سمجة من ملحن ثرى قاس.. من يحكي القصة الثانية؟»

كانت (ناهد فهيم) شاعرتنا الـ (فيمينست) ترمقنا في شرود، وهي تريح أصابعها المصبوغة التي تحمل لفافة التبغ على ذقنها.. فلمّا رأتني أنظر لها قالت في ضيق:

- «أنا لا أملك قصصًا مماثلة، ولا أنوي لعب دور (شهرزاد)..».

- «لكنك لا تستطيعين لعب دور (محمد على كلاي).. إن (شهرزاد) كانت قوية بطريقتها، واستطاعت خداع عتل صفيق مثل (شهريار) بقصصها الممتعة.. هذا لم يتضمن أية تنازلات من أي نوع»

وألحت عليها (ناهد) في رقة مصطنعة:

- «أرجوك يا (نافي) أن تحاولي!»

(نافي)؟ يا له من اسم غريب للتدليل.. (نادية فهيم) قد تحولت إلى (نافي)، فلن تنتهي الأمسية قبل أن أتحول إلى جثة أو إلى (رفرف) دون شك، وكلاهما أسوأ من الآخر..

حولت (نادية) شفتيها إلى دائرة التخرج حلقة دخان كاملة الاستدارة، لا يستطيع أعتى المدخنين الرجال أن يصنعها، وقالت:

- «حسن.. لدي قصة عن باب... ولا يهمني ألا تروق لكم، لأنني لا أستمد ثقتي من الآخرين.. أنا كائن متكامل و(Self-managed) أو هذا هو ما كافحت من أجله طيلة حياتي..»

- «أصغوا إليّ إذن..»

* * *

سعلت الشاعرة الغضبي (نادية فهيم) مرّتين، ثم قالت:

- «متفردة أنا.. متوحدة.. متنائية عن كل القطيع.. لكم حاولت أن ألحق بموكب السارين ليلًا، لكنّ خطاي لم تكن كخطاهم، وقامتي لم تكن كقاماتهم، وأحلامي لم تكن كأحلامهم..

لذا تفردت، وتمثلت مقولة (رانبو) الشاعر الفرنسي: أنا آخر.. Te Suis un autre..»

تنحنحت، وبحذر قلت لها:

ـ «أ.. معذرة.. إننا في ظروف أسود من قلب الكافر، وكنا سنقدر لو تكلمت بشيء من التبسيط.. حتى الشاعر يمكن أن يقول كلامًا عاديًا أحيانًا!»

مطت شفتيها في اشمئزاز، وقالت:

ـ «أرأيت؟ أنت كذلك واحد من السارين ليلًا.. لهذا أشمخ برأسي في عليائي - حيث يحلم الطحلب الزغبي - وأزدريكم يا سادة.. صادقة أقولها.. حارة أقولها.. لاهبة أقولها!»

* * *

«بحياتي أبواب عشرة...
وحكايا عن جيش البربر...
والباب الموصد في قلبي...
يتحدى فرسان الغازي...
من منكم يدنو؟
أو يجسر؟»

* * *

ربما تعلمون أنني تزوجت مرّتين، وكان الطلاق هو النهاية في كلّ مرّة.. إن الرجال لا يحتملون المرأة التي تطالب ألا تعامل كامرأة..

هاك يا صغيرتي ما سيحدث:

سيجلس معك، ويكلمك عن (سارتر) وعن الوجودية، ويتلو أبياتنا من شعر (لوركا)، ويقول لك كلامًا كثيرًا عن انبهاره بعقلك، وأنه للمرة الأولى - يلقى المرأة التي تبدو كامرأة، وتفكر كرجل..

سيقول إن حياتك معه لن تختلف عن سلسلة من الأعياد الفكرية والمهرجانات العقلانية... لقد حان الوقت لنفهم ذلك الكائن المدعو (حواء) حق الفهم...

سيقول هذا وأكثر يا فتاة، ولسوف تصدقين.. كيف لا تصدقين هذه الكلمات من رجل رزين أنيق في منتصف العمر، عرك الحياة وعركته؟

ولن يمرّ وقت طويل حتى تجلسي جواره في (الكوشة) - إلى يمينه على وجه الدقة ـ وأنت تحلمين كمراهقة صغيرة..

بعد أشهر - لو حالفك الحظ ـ ستدركين الحقيقة.. إن الجمال عند الرجل أهم من أي عقل.. طبق الفول بالزيت على مائدة الإفطار أهم من كل كتابات (سيمون دي بوفوار).. مباراة الأهلى والزمالك أهم من ندوة شعرية يتكلم فيها (أبو العلاء المعري) شخصيًا لو أمكن هذا..

تدريجيًا تدركين أبعاد الخدعة، وتدركين أن الدور المختار لك هو دور الزوجة لا أكثر ولا أقل..

ستثورين يا فتاة.. لكنك ستتلقين كلمات قاسية جدًا، ربما بعض الصفعات كذلك لو كان زوجك شرسًا مثل زوجي الثاني..

ستكون معاناة طويلة، حتى يتم الطلاق، بعدها تقررين ألا تكرري الخطأ ذاته.. لكنّ سرعان ما يظهر رجل رزين أنيق في منتصف العمر، يحدثك عن (سارتر) ويتلو عليك شعر (لوركا)..
عندها تقولين لنفسك: لعل الأمر مختلف هذه المرّة؟

* * *

تم زواجي الثاني في بداية الشتاء..
بعدها رحلت مع زوجي (هشام) - وهو صحفي كما تعلمون - إلى شاليه في (بلطيم) يملكه أحد أصدقائه.. وكانت (بلطيم) في هذا الوقت شبه خالية من الشاليهات والمصطافين كذلك، لأننا كنا في الشتاء، وحتّى في فصل الصيف كانت الإسكندرية - خاصة (العجمي) - هي المصيف المرموق الذي يحلم به الجميع..
كان الشاليه يتكون من أربع غرف.. اثنتان منهما موصدتان بالمفتاح، وقد تركت لنا غرفتان هما كافيتان تمامًا..
وضعنا حقائبنا.. وقررنا الخروج للنزهة على الشاطئ.. بالطبع ارتدي كل منا ثيابًا شتوية ثقيلة، فالطقس لم يكن يسمح بالمزاح.. وكانت الأمواج ثائرة كأنما ضاقت بالبحر المتوسط، وودت لو فتح لها أحدهم الباب إلى المحيط...
مشينا بضع دقائق، وفي نفس كل منا شك لا يعترف بيه: هذه المعطلة لن تكون ناجحة جدًّا.. صحيح أننا متفردان.. تنائينا عن القطيع.. لكنّ كل هذا الفراغ الأثيري لم يكن ليناسبنا حقًّا..
لقد أنهينا أكثر ما لدينا من كلمات وملاحظات ودعابات، ونحن نمشي متشابكي اليدين بمحاذاة الشاطئ.. خمس دقائق لا أكثر.. والمفترض أن لدينا أسبوعًا كاملًا، فماذا نعمل فيه؟
السماء مكفهرة تنذر بالويل، والبرد قارس، وهدير الأمواج يقتل كلماتك ما إن تغادر فاك..
قلت له بعد ما حاولت إشعال لقافة تبغ ست مرات:
- «فلنعد إلى الشاليه...»
رفع كفه بمجافاة حاجبيه، ونظر للأفق، ثم قال:
- «ثمّة أناس هناك...»
- «أناس؟ غريب! حسبتني المجنونة الوحيدة هنا..»
وبالفعل ازداد المشهد وضوحًا إذ دنونا أكثر..
كان هناك عشرة من الرجال يقفون على الشاطئ، ورذاذ الموج يغمرهم من آن لآخر فتحتقن العيون، وتسعل الرئات، تعقبها البصقات.. وكان واضحًا من منظرهم أنهم يؤدون عملًا خطرًا أو يناقشون أمرًا جللًا..
دنونا أكثر، ثم سمعت (هشام) يقول لي:
- «لا تنظري!»
وكان هذا بمثابة أمر لي كي أنظر، ونظرت..
على الرمال رأيت ما يشبه جسدًا آدميًا في قميص وسروال، عاري القدمين، مبتلًا تمامًا.. غريق.. هذا واضح.. غريق تأخر إنقاذه كثيرًا جدًّا جدًّا...

كان منتفخًا، برز لسانه وارتسمت أوردته كالشجيرات على جلده.. بينما الرغاوي البيضاء تسيل من شفتيه، وحقًا لم أر غريقًا من قبل، ولم أكن سريعة التأثر.. لكنّ المشهد أثار هلعي بحق..

ما زال بوسعي أن أرسمه بدقة على الورق لو أردت..

كنت أقاوم هذه النوازع الأنثوية في نفسي - دليل عبودية قرون طويلة ـ لكنني لم أستطع أن أمنع شهقة، ثم أدرت ظهري للمشهد، وبدأت أتهانف..

من وراء ظهري سمعت (هشام) يتساءل:

- «كيف نزل البحر في طقس كهذا؟!»

صوت خشن يقول:

- «لم ينزل يا أستاذ.. لكنّها جذبته!»

- «من هي؟»

ـ «الْحَطَمَة طبعًا.. ربنا يحفظنا..»

صوت آخر يقول:

ـ «لا بد أنه في البحر من أسبوع على الأقل.. حالته تقول ذلك»

الصوت الأول يقول:

- «لا تحاول وزوجتك المشي على الشاطئ ليلًا.. لا تؤاخذني.. أنت غريب، والغريب أعمى ولو كان بصيرًا! هذا البائس لم يعرف هذا.. أو عرفه ولم يصدّق!»

* * *



رأيت ما يشبه جسدًا آدميًا فى قميص وسروال ، عارى القدمين مبتلاً تمامًا .. غريق .. هذا واضح ..

- ٢ -

دفنت (نادية) ما تبقى من لفافة تبغها في المطفأة الزجاجيّة، ومدت يدها إلى العلبة بحثًا عن أخرى، فطقطقت بلساني معترضًا:

- «إن هناك وسائل أكثر رحمة للانتحار... ليس بهذه الكثافة..»

والحقيقة هي أنها كانت شخصيّة عُصابية كما خلق العَصاب.. ولو أن (فرويد) نهض من قبره ورآها لمات فرحًا من جديد!

أحجمت.. فسألتها:

- «كانت لي مغامرة ما مع الحَطَمَة.. إنها نداهة البحر التي تدعو الشباب اللحاق بها،فالغرق... هل هذه هي القصة هنا؟»

هزت برأسها في عصبية:

- «لا.. واضح أن حَطَمَة (بلطيم) هذه كانت من النوع الذي يخرج يده من تحت الماء، ليقبض على سيقان من يمشون على الشاطئ.. إن أساليب الحَطَمَات تختلف كما تعلم..»

* * *

قالت الشاعرة الحانقة دومًا:

- «أفسد هذا المشهد يومنا تمامًا.. كما تتوقعون..

عدنا إلى الشاليه فتناولنا غذاءنا من المعلبات في صمت.. لاحظت في اشمئزاز أن (هشام) يملأ فمه بالطعام كالخرتيت قبل أن يبتلعه.. كان يأكل برقة العصافير حينما كان يخطب ودي، وكان يقضم حبة العنب على ست مرات.. وبدأت أشم رائحة التحول إياها..

صارحته بهذا، فابتسم ولم يعلق...

بعد الغداء لاحظت أنه يسلك أسنانه بعود ثقاب، ولما فشل مزّق قطعة خيط من كم منامته وراح يمررها بين الأسنان وبعضها، على سبيل الـ (Floss) المرتجل..

صارحته بهذا، فابتسم ولم يعلق...

أحضر جهاز الـ (بيك أب)، ووضعه على المنضدة، ثم انتقي أسطوانة لمطربة شابة اشتهرت بأغانيها عديمة المعنى، وكنت قد جئت بعدة ألبومات لـ (فاجنر) و(جانيس جوبلن)..

صارحته بهذا، فابتسم ولم يعلق...

أدرت أسطوانة لـ (فاجنر)، وجلست منتظرة أن يبدأ في الحديث الرومانسي معي، لا سيما لو كان ذا طابع ثقافي.. لكنه راح يحكى دعابات سمجة عن الحموات الشرسات، والزوجات المتسلطات، و... و... حاسبًا أنّ هذا يجعله أقرب لقلبي، وينهي كل دعابة بـ (هاع هاع هاع!)..

صارحته بهذا، فابتسم ولم يعلق...

جلس بمنامته ورفع قدمًا يريحها على المقعد، ثم راح يعبث في أصابع قدميه باستمتاع كما يحبّ الرجال أن يفعلوا..

صارحته بهذا، فانفجر في..

قال لي إنّه لم يتلق كل هذا القدر من الانتقادات منذ كان طفلًا في الرابعة من عمره، وإن أمّه لم تبذل كل هذا الجهد التربوي معه، وإنني بالتأكيد إنسانة متسلطة قررت أن تتحكم في كل التفاصيل، في أول نصف ساعة من حياتنا الزوجية..

راق لي هذا.. فالحرب هي أرضى التي أشعر فيها براحة حقيقيّة..

«من منكم يدنو.. أو يجسر؟»

بدأت معركتنا الأولى، ولم تكن عنيفة جدًا بطبيعة الحال، لكنّها انتهت به صامتًا كالأسماك، وبي أشعل لفافة تبغ في عصبية..

وفي المساء تشاجرنا ثانية مع صوت الأمواج..

في الصباح لاحظت في ضيق أنه يريد أن يلتهم الإفطار دون أن يغسل وجهه، وهكذا تشاجرنا مرة ثالثة..

عند الظهيرة تشاجرنا بعنف، لأنّه يريد أن يخرج النزهة، بينما أنا مصرة على أن نجلس ونستمع لـ (فاجنر)، والأدهى أنه دعا بخراب بيت (فاجنر) وكل أحفاد (فاجنر) إلى يوم الدين..

- «من فضلك.. أريدك أن تكون متحضرًا.. لا أسمح لك بسب (فاجنر)!»

ـ «هذا خير من أن أسبك أنت أيتها المتسلطة!»

وغادر الشاليه غاضبًا، والحقيقة هي أننا أحرزنا سبقًا هائلًا في عصر السرعة هذا.. لقد حققنا خلال أربع وعشرين ساعة من الجفاء والنفور ما يحققه سوانا في عشر سنوات!

* * *

عند المساء جاءني يتودد، طالبًا الصفح، لكني قررت أن أواصل المعركة للنهاية، وأعلنت رأيي في أنه يحاول أن يفرض على سيطرته، وهكذا تشاجرنا للمرة الـ... لا أذكر كم.. وغادر الشاليه غاضبًا معلنًا أنه لن يمضي الليلة فيه..

- «وأين ستذهب إذن؟»

ـ «هذه مشكلتي لا مشكلتك..»

يا له من نصر! لقد نجحت في استفزازه إلى حد أن يهجر البيت من ثاني يوم لزفافنا.. وهو نصر لم يتحقق مع زوجي الأول إلا بعد سنة كاملة...

وهكذا جلست وحدي، وأدرت أسطوانة (فاجنر) بأعلى صوت ممكن، ثم رحت أقرأ أشعار (إليوت)، وأنا أقول لنفسي: حقًّا لم أنخدع، وكانت توقعاتي صائبة.. كل الرجال سواء.. ما إن تغمدى سيفك لحظة حتى يحاولوا أن يحزوا رقبتك بسيوفهم..

كلهم يتظاهر بالشيء ذاته، وكلهم. في الحقيقة ـ الشيء ذاته..

ألا تبًّا لهم!

* * *

بحياتي أبواب عشرة..
وحكايا عن جيش البربر...

* * *

على أنني - عند منتصف الليل - بدأت أشعر بقلق غريب..
كان السكون تامًا إلا من صوت البحر الثائر، أتخيّل أمواجه السوداء العملاقة كجبال، فأرتجف هلعًا وأقشعر..
إن خوفي ضعف.. والأدهى أنني كنت سأغدو أكثر راحة لو كان الرجل بجانبي، لكني ضغطت على أعصابي، وواصلت القراءة..
وفي الواحدة صباحًا سمعت الصوت من وراء الباب المغلق..

* * *

كان هناك من يتحرك في الحجرة الأولى.. سمعته وقد انتهى صخب (فاجنر).. الحجرة التي لا أملك مفتاحها..
دنوت من الباب، وأصخت السمع، ثم ألصقت أذني.. وكان ما سمعته هو صوت إنسان يلهث.. يلهث في تعب.. يلهث في جشع للهواء.. يلهث كما يلهث الغرقى!
دنوت أكثر وطرقت الباب بسلامية سبابتي، وفي صوت كالهمس تساءلت:
- «من هنا؟»
فكرت في أن أرفع طبقة صوتي أكثر، ثم عدلت عن هذا.. لا أريد ألا يجيء الرد.. سيثير هذا رعبي، والأفظع أن يجيء الرد!
كان صوت شيء خشبي يرتطم بالداخل.. أدركت دون عسر أنه مصراع النافذة الخشبي إذ تحركه الرياح..
أيا من كان بالداخل، فقد دخل من النافذة، والنافذة منخفضة في مستوى قامة الإنسان، وتحتها تبة صغيرة من الرمال..
وأصخت السمع أكثر فأكثر..
كادت أذناي تمتزجان بالخشب، وأنا أحاول التركيز..
لا جدال في أنّ هذا صوت لهاث..

* * *

تمالكت أعصابي، وأشعلت لفافة تبغ بيد مرتجفة.. لا يجب أن تضعفي يا (نادية) لا يجب.. أنت لست فتاة واهنة هستيرية..

اتجهت إلى الحقيبة في غرفتنا، فانتقيت سكينًا هائلة الحجم، وخرجت لأرفع صوت الموسيقا إلى أعلى درجة ممكنة..

الآن أغادر الشاليه.. يجب ألا أبقى فيه لحظة أخرى..

لماذا لا أبقى في غرفتي؟ لأنهّا لا يمكن غلقها.. فهي لا تغلق إلا بمفتاح ليس معي.. وليس لبابها مزلاج من أي نوع..

لماذا لا أبقى في الشاليه؟ لأن الشخص - أو الشيء - الموجود في الغرفة يملك مفتاح الغرفة! كيف عرفت؟ لأنني سمعت صوت المفتاح يدور في الكالون من الداخل!.

وضعت على كتفي معطفًا، وانتعلت حذائي، وبحذر فتحت باب الشاليه، شاهرة السكين في يدي..

هذه هي فائدة الرجال الوحيدة.. أن يتقدموا الأنثى في مواقف كهذه، كي يتلقوا الطعنة الأولى، ويتركوا للأنثى فرصة الفرار..

أخيرا وقفت بالخارج في الظلام..

الريح لا تكف عن العواء.. وتمضغ معطفي كما يقول (نزار قباني)، والبحر من بعيد يشبه واديًا من الجبال السوداء الشامخة التي لم يرها بشر قبلي..

درت ببطء حول نفسي، فقط لأتأكد من أن أحدًا لم يتبعني، وهنا حدث الشيء الذي يحدث دائمًا للأبواب ذات كالون (اللاتش) في الأجواء العاصفة..

انغلق باب الشاليه وتركني بالخارج!

* * *

والباب الموصد في قلبي.

يتحدى فرسان الغازي..

* * *

وقفت بضع ثوان عاجزة عن اتخاذ قرار.. إن التعقل لا جدوى منه.. الهلع هو الحل الوحيد إذن..

كنت أرتجف كورقة، لكنني أقنعت نفسي بأن البرد هو السبب، وببطء - شاهرة السكين - رحت أدور حول المكان..

لم يكن الظلام دامسًا، فثمة مصباح صغير واهٍ عند مدخل الشاليه، وعلى ضوئه استطعت أن أرى النافذة المفتوحة التي راح شيشها يهتز مع الريح في إصرار غريب...

دنوت، أكثر، وقلت لنفسي:

- «لو كان المتسلل، كلبًا أو قطًا، لأمكنني أن أطمئن.. سأثب إلى الغرفة وأفتحها من الداخل.. وهكذا تنتهي المشكلة..»

لكنّ ما رأيته على الرمال لم يكن مريحًا..

في البدء كانت آثار جر كأنما جسد ثقيل يزحف أو يجر فوق الرمال المبتلة.. ثم تتحول الآثار إلى قدمين حافيتين غاصتا في الرمال غوصًا، وأخيرًا تتوقف الآثار أسفل النافذة..
هل أدخل؟

* * *

لا بد أنني وقفت في البرد والعاصفة أكثر من نصف ساعة..
لكنني كنت أرتجف لسبب آخر...
الغريق بوجهه المنتفخ، ولسانه البارز... كنت أراه يزحف في بطء، خارجًا من البحر، يجر جسده بصعوبة.. لكن بإصرار، عازمًا على أن يقضي ليلته تحت سقفي، لا يفصلني عنه سوى باب يملك هو وحده مفتاحه! كنت أراه رأي العين الآن....
في النهاية - وبعد وقت طويل - لمت نفسي على جبني، واتجهت إلى النافذة، وقد قررت أن أثب إلى الداخل: وليكن ما يكون.. أمامي حلان: إما أن أبقى حيث أنا للأبد وأتجمد، وإما أن أجرب حظي بالداخل..
استجمعت قواي، ووثبت إلى الداخل، حيث الظلام الدامس..
مرت لحظة لم أدر ما هي، ثم وجدت يدًا مبتلة قاسية تمسك بمعصمي الذي يحمل السكين.. بإصرار وغلظة..
هنا صرخت.. صرخت.. صرخت..

* * *

وحين استعدت وعيي كنت جالسة في غرفتنا أرتجف.. وكان (هشام) واقفًا أمامي يجفف شعره المبتلة بمنشفة..
قال لي دون أن أفهم تمامًا ما يقول:
- «حمقاء أنت حقًّا! كدت تفتكين بي بهذا السكين.. إن للخلاف حدودًا!»
- «أنت.. أنت.. كيف جئت؟»
هزّ رأسه في لا مبالاة:
- «لم أذهب قط.. لم أجد مكانًا أمضي فيه ليلتي، فدرت حول الشاليه وفتحت نافذة الغرفة المغلقة، ودخلتها.. منعني كبريائي من أن أعود كي أستسمحك للبيات!»
- «و.. وآثار الأقدام.. والبلل؟»
- «لقد حاولت أن أجرب السباحة ليلًا.. لكني وجدت الأمر أكبر مني... توغلت في الماء حتى خصري، ثم عدلت عن ذلك، وعدت إلى الشاليه وقد انقطعت أنفاسي..»
- «و.. والمفتاح؟»
- «وجدت نسخة منه داخل الغرفة، وأولجتها في الكالون لأتأكد من أنها صالحة له.. وكنت على وشك الخروج إليك لولا أن وجدتك تثبين لي من النافذة حاملة سكينًا!»

ساد الصمت، إلا من أنفاسنا، ومن هدير الموج..
أخيرًا سألته:
- «هل جننت حتى تنزل البحر في ساعة كهذه؟»
- «لا أدري.. لقد كان النداء أقوى مني، وشعرت بأن الأمر سهل جدًّا هين جدًا.. للحظة حسبت أنني قادر على قهر البحر ذاته..»
وبخجل ابتسم، وأضاف:
- «لا أدري.. لكنني أحسب أن (الحَطَمَة) نادتني!»
قلت له وأنا أنزع معطفي الذي صار باردًا كالرصاص:
- «إن لي مطلبًا واحدًا لا مجال لك كي ترفضه..»
- «وما هو؟»
- «أن نعود إلى (القاهرة) غدًا!»

* * *

فيما بعد ازدادت علاقتنا سوءًا، وتم الطلاق بعد أربعة أشهر..
إن (هشام) رجل، ولهذا كان يحمل كل عيوب الرجال ومنها الغرور، الذي يدفع رجلًا للسباحة في البحر عند منتصف الليل في الشتاء..
هل حقًّا نادته (الحَطمة)؟ حتى اللحظة الأخيرة كان مصرًّا على هذا، أمّا أنا فكنت مصرة على أنه مجنون..
لكن خلف الأبواب المغلقة قد يرى المرء ويسمع أي شيء..
ربما ـ لهذا ـ أستطيع أن أفهمه إلى حدٍ ما!

* * *

الباب الثالث:
جريمة شبه كاملة



الباب الثالث

« جريمة شبه كاملة »

يفتحه : «محمود عوني»

«كان يلهث بحق.. مُرهقًا بحق.. لكنّ جسده لم يكن هو الذي يؤدي كل هذا العمل الشاق.. كان عقله هو الذي يعمل ويأمر..»

- ١ -

انتهت قصة (نادية)، فابتسمت مدام (ناهد) بوجهها المرهق المتعب المجعد، والذي أظهر الماء حقيقته، وقالت:

- «حقًّا كانت تجربة رهيبة يا (نافي).. ومن الحظ الحسن أنك لم تجني ذعرًا..»

ارتجفت يدا الشاعرة، وهي تفتح حقيبتها بحثًا عن مرآة وقالت:

- «أنا لا أجن ذعرًا لأنني ثابتة الجنان.. الآخرون فقط يفعلون!»

نظرت في ساعتي.. كان الفجر دانيًا، ومعه يوجد احتمال لا بأس به في انتهاء معاناتنا.. أشرت إلى الأستاذ (محمود عوني)، وقلت:

- «أعتقد أن الوقت قد حان لسماع قصتك يا سيدي..»

ابتسم بوقار، وداعب سالفه الأشعث غريب الشكل مفكرًا، ثم قال:

- «قصة عن باب مغلق؟ كنت طيلة الوقت أفكر في واحدة لكني لم أجد.. لكني أعرف قصة حدثت الشخص أعرفه.. هل هذا مسموح به؟»

- «طالما كانت شائقة..»

- «أعتقد هذا.. والآن اسمعوا لما أقول..»

* * *

قال الأستاذ (محمود عوني):

- «عرفت (إبراهيم الغنام) من فترة طويلة.. ربما منذ عام 1936.. كنت وقتها في العشرينات من عمري؛ شابًا مجنونًا بالصحافة، وكان هو من أعظم مديري التحرير الذين عرفتهم الصحافة المصرية..

ارتقى الرجل بفنه إلى درجة دانية من الكمال، وجعل من الصحف التي عمل بها معرضًا مبهرًا للخبر حين يتزاوج مع الصورة والإطار الأنيق، وأعتقد أنني لو لم أعرفه لكنت بالتأكيد في موضع آخر من عالم الصحافة..

* * *

في الآن ذاته عرفت (صبحي محجوب)، وهو من جيل (فاروق)، لكنه يختلف عنه اختلافًا بالغًا.. لقد قابلته للمرة الأولى في أحد المقاهي التي يرتادها الرعاع، لماذا ارتدتها أنا؟ ليس لأنني من الرعاع إذا خطر لكم هذا؛ ولكن لأنني صحفي.. وعليّ أن أذهب لكل مكان وأعرف شيئًا عن كل شيء..

وفي مقهى من تلك المقاهي، جلست أدون بعض الملاحظات في مفكرتي، وأعد أوراقي.. حينما سمعت من المنضدة المجاورة صوتًا ساخرًا يقول:

- «هذا هو الصحفى الحق! فلنحييه!»

نظرت مدهوشًا، لأجد رجلًا أصلع بادنًا، تلتمع صلعته بالعرق، ويتطاير اللعاب من شفتيه الغليظتين، ويرتدي بذلة مليئة ببقع الزيت لا بد أن (تحتمس الثالث) ارتداها في زفافه.. كان يدخن (الجوزة) في نهم، ولا يكف عن البصق على الأرض كي يمسح البصقة بحذائه العتيق..

لما رأى دهشتي واستعدادي للقتال، قال:

- «لا تتضايق! أنا صحفي مثلك، وأعرف الصحفي حين أراه؛ لكنّ دعني أقل لك إن الحماس لن يقودك بعيدًا.. إن هذه المهنة لا ترحم!»

هذا صحفي؟ غريب حقًّا..

بالتأكيد حين دخلت عالم الصحافة لم تكن هذه الصورة في ذهني.. إن كل شاب يدخل عالم الصحافة لا يرى سوى صورة (التابعي) في ذهنه، وفيما بعد صارت صورة (محمد حسنين هيكل) الشبيه بلورد إنجليزي نبيل، هي الصورة التي يحلم بها الشباب.. أمّا هذا الشيء الذي يخاطبني؟

قال لي:

- «أنا (صبحي محجوب).. الماشي في الظلال، والذي يثير نفور الجميع..»

- «تشرفنا..»

سألني عن جريدتي، وعن مجال عملي، وطلب مني أن أدعوه إلى حجر آخر مع كوب شاي.. هكذا إذن! يتسول ببساطة..

سألني وهو يشفط الشاي في هيام:

- «هل تعرف الكلب (إبراهيم الغنام)؟ لا بد أنك معجب به..»

تحفزت في عصبية:

- «أنا لا أسمح لك بـ.....»

ضحك في مرارة كاشفًا عن أسنان تساقط أكثرها، وما بقي منها لم يعد جميلًا، وقال:

- «دعك من حماس الشباب الأحمق هذا.. هذا الرجل هو ببساطة أقذر لص عرفته المهنة، وهو مصاص دماء يعيش على جهود الآخرين وعرقهم وربما دمائهم..»

وفي اللحظات التالية، حكى لي بالتفصيل ما لم أعلمه قط عن الرجل...

لقد بدأ الرجلان بداية واحدة، لكنّ ما لم أعلمه عن (الغنام) هو أنه كان مستعدًا لكل شيء وأي شيء، وكان يسرق أفكار صديق عمره ببساطة وينسبها لنفسه، ويدس له عند كل الجهات بما فيها البوليس السياسي نفسه، وهكذا بدأ (الغنام) يصعد السلم بسرعة، ومع كلّ مرّة يصعدها كان (صبحي) يهوي درجة أو درجتين..

ثم ارتكب (صبحي) خطأ عمره: تزوج، وهكذا هبط درجة في السلم الاجتماعي، ثم أنجب وهكذا هبط درجة أخرى.. وهكذا حدث له بالضبط ما توقعه فيلسوف الانفجار السكاني (مالتوس)..

لا يدري (صبحي) متى ولا كيف وصل لهذه النتيجة.. صديق شبابه مدير تحرير لامع يتهافت الشباب لسماع حرف منه، بينما هو - (صبحي) - قد صار رائد مقاهٍ، يُطرد دائمًا من أي مكان يتواجد فيه أكثر من عشر دقائق..

وجاء العرض من (الغنام) تحت ستار مساعدة صديق في مأزق..

سيعمل (صبحي) معه، ولن يظهر في الصورة أبدًا.. فقط سيستمد منه الأفكار الجيدة الجديدة - وما أكثرها عند (صبحي محجوب) - ويقدمها للناس باعتبارها من أفكاره هو.. والمقابل؟ طبعًا

بضعة ملاليم لا تشبع ولا تغني من جوع، لكنّها على الأقل تُبقي أطفاله أحياء..
الآن صارت لدى (إبراهيم الغنام) مؤسسة كاملة من الصحفيين الشبان المتحمسين، وثلاثة من المترجمين الشيوخ ثقيلى الوزن، وصحفي عجوز هو (صبحي)، وكان كل هؤلاء يعملون ليل نهار مقابل ملاليم أو كلمة مديح بسيطة.. وفي النهاية تخرج الجريدة أو المجلة في أبهى صورة ممكنة تحمل للقارئ نبأ أن (مدير التحرير) هو (إبراهيم الغنام)؛ ومن النادر أن يلاحظ رجل الشارع اسم مخرج الفيلم السينمائي أو مدير تحرير الجريدة.. لكنّ القاعدة تتحطم مع مخرجين مثل (هتشكوك) أو (يوسف شاهين) أو (فيلليني)، ومع مدير تحرير مثل (إبراهيم الغنام)..
كان (صبحي) يكره الرجل بحق.. يحقد عليه بحق.. يحتاج إليه بحق.. يعجب به بحق...
علاقة معقدة جدًا، تحتاج إلى أديب من طراز (دستويفسكي) كي يعبر عنها بدقة..

* * *

أما ما حدث بعد هذا بشهرين؛ فأمر لم أره، لكني قرأته.. ولا أستطيع الإفصاح عن مصدر قراءتي له قبل أن أكمل القصة..

* * *

كان (صبحي) يغلي حقدًا كما قلنا؛ وكان في ذهنه يضع الخُطة تلو الخُطة للانتقام؛ حين اتصل به (إبراهيم الغنام) من (الإسكندرية) يطلب منه أن يوافيه هناك..
كانت المكالمة في المقهى بالطبع لأن (الغنام) يعرف بالضبط أين وكيف يجد فريسته، وجاء القهوجي الشاحب (سنقر) يخبره بأن هناك من يريده على الهاتف..
رفع السماعة في توجس، فسمع (العام) يصيح في مرح:
- «هذا أنت أيها العجوز! لم لا تنس أعباءك وتجيء إلى (الإسكندرية) بعض الوقت؟»
- «ليس معي ما يكفي لنسيان الأعباء كما تعلم..»
- «لا عليك.. الجيب سداد.. إنني بحاجة إليك في بعض أمور مهمّة.. إن رأيك لم يعد الاستغناء عنه ممكنًا..»
وكانت هذه هي البداية لموقف اعتاده (صبحي) وعرفه جيدًا.. عملية اعتصار الأفكار النهمة من صديقه القديم المتظاهر بالمودة..
وهكذا ذهب إلى بيته المتهالك الضيق، فقال لامرأته التي عصبت رأسها (علامة النكد الأزلي) إنّه سيقضي يومًا أو يومين في (الإسكندرية) وركل الطفل الذي ركل أخاه الأصغر، ثم اتجه إلى الباب دون أن يضيف كلمة واحدة..

* * *

جلس في القطار يجفف العرق المحتشد على جبينه..

كان الألم حادًا ضاغطًا عاصرًا.. وكان يعرف إلى حدٍ ما ما يعنيه هذا الشعور الممض خلف عظمة القص..

هي ذي سنوات من الفقر والإحباط والغضب المكبوت، تجتمع كلها في شرايين التاجية لتسدها..

ها هو ذا القلب الذي لم يذق لحظة سعادة واحدة، يحتج في صمت أولًا، ثم يصرخ ثانية.....

ها هو ذا ينذره بالصمت للأبد..

وعندما تجاوز القطار (دمنهور)؛ كانت النوبة قد انتهت، لكنّها أسلمته إلى إعياء شديد، لم يفق منه إلا حين شمّ رائحة محطة (الإسكندرية) المميزة..

كان (إبراهيم الغنام) يملك شيئًا هو ما بين (الشاليه) و(الفيللا) في (العجمي)، وفي ذلك الوقت كان (العجمي) شاطئا شبه مغلق ترتاده الصفوة، ويهابه العامة بشدة.. ولم يكن الوقت وقت اصطياف، لذا لم يندهش (صبحي) لكل الفراغ الذي قابله به الشاطئ المظلم..

أخيرا وجد الشاليه / الفيللا، ولم يكن المدخل مغلقًا، لذا انساب إلى الداخل، وقرع الباب حتى فتحه (إبراهيم الغنام)..

ولم يكن هذا الأخير مسرورًا جدًّا..

* * *

- ٢ -

قال (محمود عوني):

- «لم يكن (الغنام) بادي السرور بهذه الزيارة، لكنه رحب بصديقه القديم، ودعاه إلى الداخل.. قال شيئًا ما عن أنه كان يتوقع قدوم (صبحي) نهارًا.. لم يتوقع كل هذا الحماس المبالغ فيه..

في النهاية اضطر إلى القبول بالأمر الواقع، ودعاه ليجلس..

كان يرتدي منامة حريريّة، مما يدل على أنه استعد لدخول الفراش، وكانت هناك منضدة عليها لفافة ورقية مفتوحة بها كائن أسود عذب الرائحة، يسموّنه (كباب).. وكانت هناك سلّة أنيقة بها بعض التفاح طوح بواحدة منه إلى (صبحي)، ولم يناوله السكين بالطبع..

جلس في أريكة مريحة، وقال:

- «الموضوع - ببساطة - هو مجلة جديدة يريدون أن يعهدوا لي بأن أكون مديرًا لتحريرها، والأمر ليس بالسهولة التي يبدو عليها، لأنني مكلف بوضع تصوّر لكل شيء.. كل شيء بدءًا بشكل الغلاف وانتهاء بمن يكتب ومن لا يكتب.. والمطلوب ألا يشبه هذا العمل أي عمل سابق..»

ثم مد يده في جيب منامته، وأخرج مظروفًا صغيرًا:

- «هاك! خذ!»

وطوح به في الهواء، لكنّ (صبحي) لم يكن ممن يجيدون لعب التنس، وارتطم المظروف بكتفه ليسقط أرضًا..

قال (الغنام) وهو يعود لاسترخاء جلسته:

- «هذه أتعاب مقدمة.. وينتظرك مظروف مماثل بعد الانتهاء من كل شيء.. من المفروغ منه أننا لن نعود إلى (القاهرة) إلا بعد ما نضع تصورًا شاملًا محكمًا لكل شيء..»

وأشار لرأسه بسبابته:

- «نريد بعض (المخمخة) إذن..»

قضم (صبحي) نصف التفاحة مرة واحدة..

وراح يلوكها بصعوبة بأسنانه المنهكة، وتساءل:

- «هل لهذا جئت هاهنا؟»

وكان يعرف الإجابة.. بالطبع ليس لهذا فقط.. لكن (إبراهيم الغنام) قال في جديّة:

- «بالطبع.. لقد فررت من كل أعبائي.. لا أحد يعرف أنني هنا، ولسوف تنقلب (القاهرة) رأسًا على عقب بحثًا عني؛ لكنهم لن يفكروا في هذا الشاليه.. إنني متفرغ للتفكير العمييييق..»

لم يكن (الغنام) متزوجًا.. ربما تزوج مرة وطلق، ولشد ما حسده (صبحي) على هذا.. لهذا يحتفظ بنضارته وخلوه من الهموم.. صحيح أن المرء يتزوج، كي لا يكون وحيدًا في شيخوخته، لكنّ (الغنام) لن يكون وحيدًا أبدًا.. سيجد دومًا من يهتم به، ويقدم له ملعقة كبيرة من شراب السعال حين يتعالى سعاله ليلًا.. حتى لو ابتاع هذه الخدمات بماله..

قال (صبحي) وهو يُلقي ما تبقى من التفاحة في فمه:

- «معذرة.. لكني لا أستطيع التفكير بمثانة مليئة..»

- «هذا حقك البشري.. (التواليت) على يسارك عند نهاية السلم..»
ونهض (صبحي) متثاقلًا.. فوجد درجًا خشبيًا ينزل لأسفل إلى ما يشبه القبو..
كان الحمام كما وصفه الرجل.. وكالعادة كان عطرًا فاخرًا به مرآة هائلة الحجم، تراصت على رفها زجاجات من العطور و(اللوسيون) تفوق ما في أي متجر كبير..
غسل (صبحي) وجهة المبتل بالعرق من وعثاء السفر، ورش عطرًا ما من زجاجة تحت إبطيه..
بدأ ينتعش، وأضافت المثانة الفارغة انتعاشًا إلى انتعاشه، فغادر الحمام، عازمًا على العودة إلى جلاده..
هنا رأى الغرفة المفتوحة أمام الحمام..

* * *

كانت الجدران عارية تمامًا إلا من القرميد، ومن السقف تدلى مصباح متهالك.. أضاءه فوجد أن الغرفة أقرب إلى حمام آخر تحت الإنشاء.. بها صنبور ماء يتدلى من ماسورة عارية، وبها فتحتا صرف في الأرضية..
كانت هناك شكائر من الأسمنت مكدسة في الركن، وعدة صفوف متراصة من القرميد... كما كانت هناك أدوات بناء: رفش وتلك الأداة التي يستخدمها البناءون في وضع الأسمنت.. وكانت هناك كمية لا بأس بها من علب تحوي بلاطا قيشانيا ـ قبل عصر السيراميك طبعًا ـ وكل ما يوحي بأن هذه الغرفة ستتحول إلى شيء آخر، ما إن يسمح الوقت بذلك.. هذه الغرفة بدورها توحي بشيء ما لا يدري كنهه..
تأمل المكان في اهتمام، ثم غادره بعد ما أطفأ النور...
كان الباب مواربًا، لذا تركه كما رآه، وصعد في الدرج إلى حيث كان (إبراهيم الغنام) يفرز محتويات ملف كبير..
- «شفيتم!»
قالها باسمًا في سخرية، ثم دعاه إلى الجلوس بجواره...
- «أريدك أن تدرس هذه الأوراق.. كن حرًا تمامًا في التعديل أو الحذف..».
هنا رفع (صبحي) وجهه في تحد، وقال:
- «ومن قال إنني قبلت؟»
بهت (الغنام) قليلًا، ثم هتف:
- «لقد تقاضيت أتعابك!»
- «لم أمس المظروف.. أعتقد أنه في موضعه على الأرض لو لم أكن مخطئًا.. وعلى كل حال أنت لم تناولني شيئًا في يدي، بل ألقيته في وجهي إلقاء»
وضع (الغنام) الملف جانبًا، وقال بتؤدة:
- «(صبحي).. أنت لا تملك الرفض.. أنا بحاجة إليك، وليس من المعتاد أن أكرر هذا مرّتين..»
- «وأنا مصر على الرفض..»

- «والأسباب؟»
ابتسم (صبحي) في مرارة، ونظر إلى حيث كان المظروف:
- «كم في هذا المظروف؟»
- «خمسون جنيهًا.. لماذا تسأل؟»
- «لأنني سئمت الاستسلام.. لقد استسلمت لك مرارًا، وصنعت نجاحك، لكنّ المكافأة في كلّ مرّة كانت بضعة ملاليم.. حتى الكلاب قد تعض صاحبها إذا ما بالغ في إساءة معاملتها..»
- «خمسون جنيهًا؟! يا لك من جشع! إن طيبة قلبي مع صديق قديم تدفعني إلى إذلال نفسي دون مبرر.. أنت لم ترَ هذا المبلغ، وفي الغالب لن تراه أبدًا.. هل تعرف السبب؟»
- «إنني أتحرق شوقًا لمعرفته..»
اشتعل الغضب نارًا في عيني (الغنام) وصاح:
- «لأنك أحمق! لأنك بلا مواهب ولا قدرات.. إن الحياة تحسن اختيار من تهبه ثمراتها... فقط الموهوب والذكي والبارع ينالون كل شيء، بينما أمثالك ينحدرون.. ينحدرون.. ولا يكفون عن الشكوى من الظلم الفادح الذي يلقونه.. لقد استحقوا ما حدث لهم، ولا ظلم هناك.. دعهم ينعموا بلذة الشعور بالاضطهاد.. دعهم يمارسوا (البارانويا) على أوسع نطاق.. إنهم يستحقون كل شيء لأنّهم حشرات.. وأنت مجرد حشرة لا يجب أن نتملقها أكثر من اللازم كي لا تلدغنا!»
وأخذ شهيقًا عميقًا كي يواصل الهجوم:
- «(صبحي محجوب).. إنني أخفض عرضي إلى ثلاثين جنيهًا.. وأعرف أنك ستقبلها مهما تعاليت.. لماذا؟ لأنك بحاجة إليها.. لأن أطفالك جياع، ولأن أباهم جاهل معدوم الموهبة.. ولأن.....»
لم يكمل العبارة التالية، لأن (صبحي) غرس السكين في صدره حتى المقبض..

* * *

الآن صار المشهد دراميًا بحق..
يقف (صبحي) ذاهلًا يرمق الرجل الأنيق الممدد على الأرض، ينزف دمًا من صدره بلا انقطاع..
لم يحتج إلى أن ينحني ليتحسس صدر (إبراهيم) أو نبض معصمه.. فالموت شيء يمكن معرفته بالسليقة..
ومن الغريب أنه لم يفقد ترتيب ذهنه.. لقد أثار الرجل أعصابه إلى حد غير مسبوق، وصارحه بكل ما كان كلاهما يعرفه.. لكنه يداريه خلف قناع الحضارة والتهذيب..

الآن صار الموقف تجريديًا تمامًا.. مشادة انتهت بضربة سكين كما يحدث في مقهى (شيحة)، لا في بيت مدير تحرير كبير..
يمكنه الفرار.. لا أحد يعرف أنه هنا..
لكنه كان ذكيًا بما يكفي.. لا بد من بصمة هنا أو هناك.. لقد ترك دون تحرز بصماته في كل مكان، ويحتاج إلى عشر سنوات كي ينظفها جميعًا، هذا طبعًا بعد أن يحصل على دكتوراة في العلوم الجنائية..
في قرارة نفسه لم يكن نادمًا إلى هذا الحد.. لم يكن ندمه أكثر من ندمه بعد قتل فأر تسلل إلى المطبخ.. ربما الاشمئزاز هو الشعور الطاغي الآن..
وهكذا تركز فكره في الوسيلة الوحيدة للخروج من المأزق: إدفن أخطاءك.. الوسيلة التي توصل إليها (قابيل) وهو يتأمل جثة أخيه (هابيل) لكنّ لم يكن هناك غراب هاهنا..

* * *

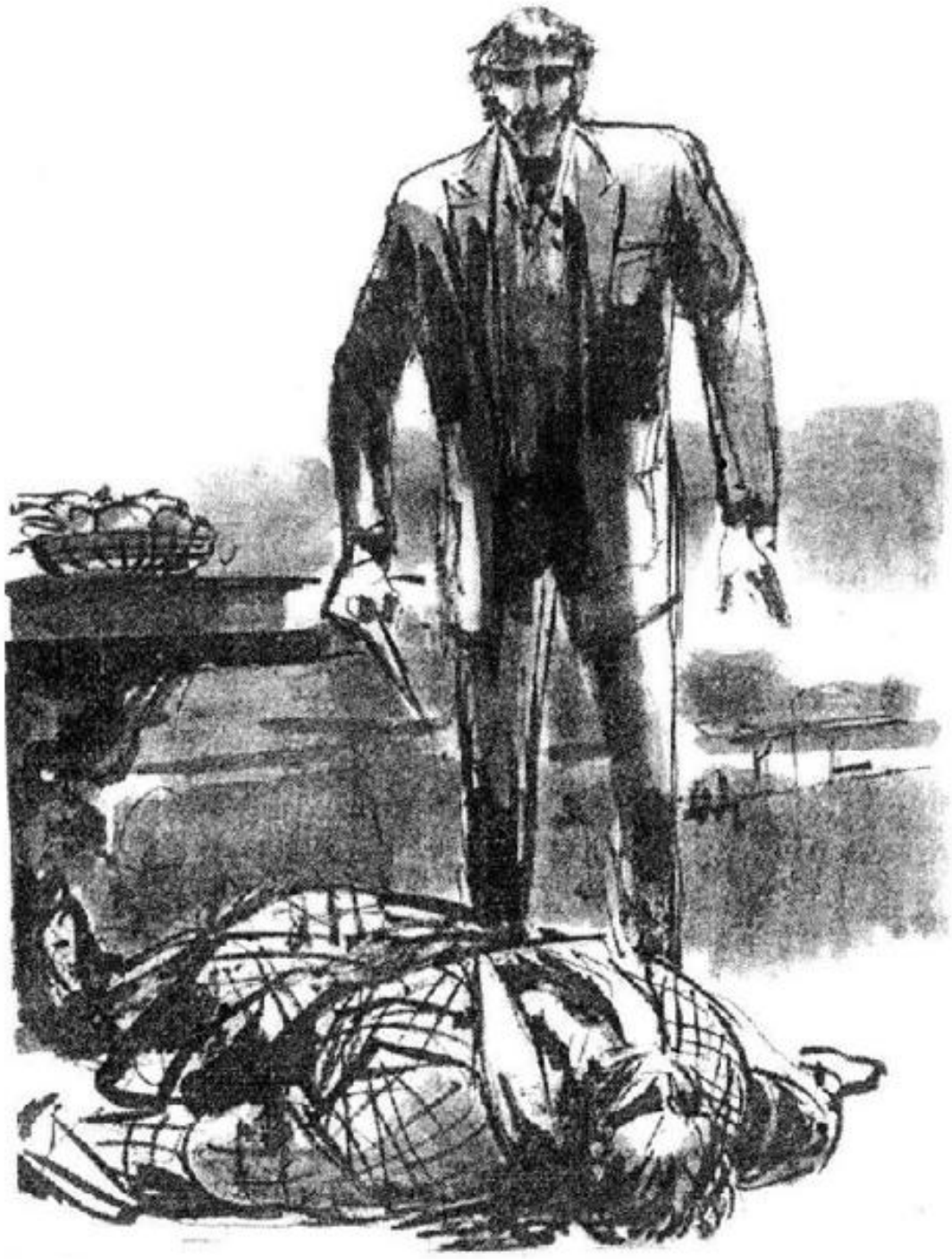
الغرفة التي أمام الحمام...
إنها توحي بشيء ما..

* * *

ولم يكن (صبحي) رياضيًا قط..
بالأحرى كان يملك جسد شيخ وقلب مومياء وعضلات طفل رضيع.. وكان داء السكري قد فتك به بشدة، مع تدخين (الجوزة) المستمر..:
لهذا لم يكن جر جثة (الغنام) عملًا شديد الإمتاع، لم يكن نزهة مريحة.. كان العرق ينساب على صلعته وتحت إبطيه، واستطاع أن يشم رائحة العطر الذي سرقه في الحمام، تفعم الجو.. إنها حقًّا رائحة (إبراهيم الغنام) المميزة، حتى كأن الرجل يملأ المكان..
هو ذا يهبط في الدرج الخشبي..
يجر الجسد جرًا إلى الغرفة التي تنتظر استكمال بنائها..

* * *

لا أحد يعرف أن (الغنام) هنا..
لا أحد يجيء لهذا الشاليه..
من المعروف أن (الغنام) كثير التنقل، كثير الاختفاء، كثير السفر إلى الخارج..
لا توجد جريمة دون جثة.. لا بد من جثة قبل البحث عن قاتل..
هذه هي المعطيات، وعليه أن يستفيد منها..



* * *

في كثير من العسر جر الجثة إلى الداخل.. تعلق الباب في خف إحدى القدمين، فحرره لكنّ الباب انغلق وراءهما..

لا بأس.. إنّه بلا قفل أصلًا..

أضاء النور الواهن، واستعد كي.....

هنا أطبقت عليه يد الجثة!

هلع ونظر مذعورًا إلى ساقه، ليجد (الغنام) وقد فتح عينيه في شراسة يعتصر ساقه بيد من حديد، ويحاول أن يمسك بالساق الأخرى..

كان المشهد مريعًا أشبه بالخضات التقليدية في أفلام الرعب، حين يعود الشرير الميت للحياة فجأة قرب نهاية الفيلم.. فقط ليتضح أنه لا يموت بهذه البساطة..

- «اتركها يا أحمق!»

وبصعوبة مد يده إلى حيث كان الرفش.. تمكّن من القبض عليه.. رفعة عاليًا ثم هوي به مرّتين..

* * *

من جديد عاد الهدوء واستتب الأمن..

عاد فؤاده إلى معدل خفقانه الطبيعي، فجلس جوار الجثة يلهث..

أخيرًا استرد قواه، فنهض...

كانت هناك قصعة فارغة ملأها بالأسمنت من جوال هناك، وجرها جرًا إلى ما تحت صنبور الماء..

الآن يجيء دور العمل الفني البارع..

جر الجثة إلى الجدار القرميدي وأراحها هناك، بحيث تحتل أقل مساحة ممكنة.. ثم مزج الأسمنت بالماء.. لو كان هناك رمل لصنع (مونة) رائعة بحق، لكنّ لا وقت للتدقيق في قواعد علم الخرسانة على كل حال...

وضع طبقة من الأسمنت على الأرض تمتد في خط بطول الجدار، ثم بدأ يرص قطع القرميد متلاصقة فوقها..

هذه هي خطّته.. لقد صنع جدارًا جديدًا يبتعد عن الجدار القديم بنصف متر.. وما بين الجدارين وجد فراغًا يصلح قبرًا دائمًا للجثة..

لن يجد أحد الجثة إلى يوم الدين.. ربما لو أزالوا الشاليه لوجدوها؛ لكنّ أحدًا لن يلاحظ أبدًا أن طول الغرفة قد انكمش نصف متر، دون سبب واضح..

- «كل شيء ينكمش في الشتاء!»

وراقت له الدعابة، فطفق يضحك، ويواصل مهمته في الضوء الخافت المؤذي للعينين..

ستفتش الشرطة كثيرًا، وستبحث في الشاليه، لكنهم لن يجدوا ما يدل على أن (الغنام) أمضى ليلتين هنا.. هو سيزيل كل الآثار وسيأكل الكباب والتفاح ويخفي الأوراق في حقيبته..

الآن يضع صنفًا ثالثًا من القرميد، ويزيد من كمية (المونة).. لحسن الحظ أن الصنبور هنا.. كان سيحتاج لنقل الماء من الحمام وياله من جهد!

لسوف يوضع اسم (إبراهيم الغنام) في قوائم من (خرجوا ولم يعودوا)، وبعد أشهر عدة سينسى الناس من كان..

بصمات؟ لن يهتم أحد برفعها، لأنّه لا جثة هنالك.. وحيث لا توجد جثة لا توجد جريمة.. سيبدو الشالية في نهاية عمل (صبحي) كأنما لم يزره أحد منذ عام..

صف سادس من القرميد.. الجدار يعلو.....

كان يلهث بحق.. مُرهقًا بحق.. لكنّ جسده لم يكن هو الذي يؤدي كل هذا العمل الشاق.. كان عقله هو الذي يعمل ويأمر..

* * *

السادسة صباحًا..

يا لها من ليلة ليلاء!

ونظر لأعلى ليجد أن الجدار قد علا تقريبًا.. حتى لامس السقف.. كانت آخر أربعة صفوف هي الأصعب، وقد احتاج إلى الصعود مرارًا على خمس شكائر من الأسمنت كدسها في شكل سلم.. رباه! لم يحسب قط أن شيكارة الأسمنت لها هذا الثقل المريع.. لا يُمكنك أن تصدق هذا ما لم تحاول جر واحدة على الأرض..

كان يدرك أنه سيمرض بشدة بعد هذا.. سيلازم الفراش شهرًا أو أكثر.. ربما.....

* * *

هنا بدأ الألم..

لم يكن تدريجيًا كما اعتاده، بل هو ألم مفاجئ صارم قاهر يتحين الفرصة في نهم.. وقد اعتاد هذا الألم وعرف مصدره جيدًا..

وأصابه الذعر وترك ما يقوم به..

كلا.. لن يموت هنا.. لن يموت بهذه البساطة.. عليه أن يهدأ قليلًا.. لكنّ محاولة الهدوء كانت تحتاج منه إلى جهد يزيد العناء على قلبه.. ما كان لهذا القلب أن يتحمل كل هذا الانفعال والجهد العضلي..

شهق في جزع.. عليه أن يغادر هذا الحمام الخانق.. عليه أن...

مترنحًا هرع إلى الباب الموصد، فقط ليكتشف المفاجأة غير السارة على الإطلاق.. الباب بلا مقبض طبعًا.. لكنه يحوي (الكالون) الداخلي، وله لسان قد برز الآن ليدخل في ثقبه..

يحتاج إلى مقبض.. يحتاج إلى جسم معدني مضلّع يدسة في الثقب ليدير به اللسان.. لكنّ كيف يجده والألم يزداد، والهواء أكثر ندرة من.. من (اليورانيوم)من الـ.....؟

دق الباب مرّتين أو ثلاثًا..

تحول الصراخ إلى عواء طويل كعواء ذئب جريح..

ثم لا شيء..

ظلام مطبق..

* * *

بعد ثلاثة أشهر فتح رجال الشرطة الشاليه / الفيللا، فوجدوا أشياء غريبة جدًا..

وجدوا جثة - تحولت إلى عظام الآن - خلف جدار نصف مكتمل.. ووجدوا هيكلًا عظميًا يحاول الزحف إلى باب بلا مقبض..

وكان هناك شيئان آخران لهما أهميّة خاصة:

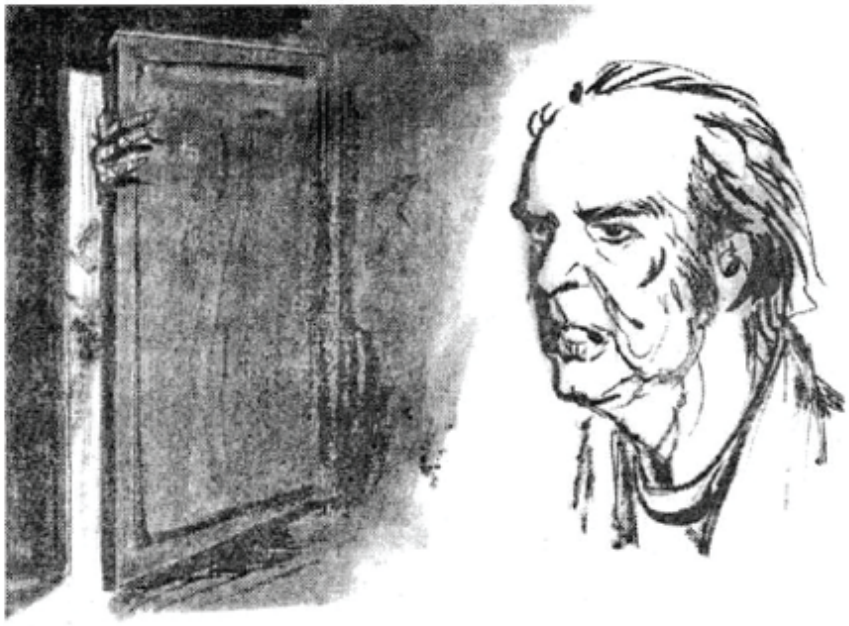
الأول هو جهاز تسجيل أداره (إبراهيم الغنام) منذ جاءه (صبحي)، وكان يزمع تسجيل كل تفاصيل المحادثة لتفريغه فيما بعد، وتنسيق أفكاره، وهو ما لم يخطر ببال (صبحي) قط، ولم ير الجهاز أصلًا..

الثاني هو مقبض باب - نصف مقبض إن صح التعبير - وجدوه مختلطًا بأسمنت جافة في قصعة..

وتساءلوا: من الأحمق الذي يخلط مقبض باب بالأسمنت؟ وما هو الغرض؟

* * *

الباب الرابع:
كلاكيت!



الباب الرابع

« كلاكيت ! »

يفتحه : « حسين أبو النجا »

« ملامح الرجل غريبة حقًا.. عيناه جاحظتان مليئتان بالذعر.. شعره منتصب كأشواك قنفذ، وها هو ذا يضع كفيه على جانبي رأسه ويصرخ.. طبعًا صرخة صامتة لم يسمعها أحد.. »

- ١ -

قلت لـ (محمود عوني) بعد ما انتهت قصته:

- «إذن كانت القصة هكذا! إنني سمعت تفاصيل القصة حين حدثت في زمنها، لكني لم أعلق عليها أهميّة كبرى، ولم أعش فيها كما أعيش الآن.. إذن كان مقبض الباب في قصعة الأسمنت من البداية!»

ابتسم في وقار، وقال:

- «طبعًا.. لكنّ من المبالغة أن يقول إن هذا كان سينقذ (صبحي)، فالمكان ناء والمجهود كان عنيفًا..

ثمة عدالة شعرية فيما حدث، وإن كنت أكذب لو زعمت أنني مسرور بهذه النهاية..»

قالت مدام (ناهد) وهي تضع بعض الشطائر أمامنا، كانت قد جلبتها من المطبخ:

- «لقد تعاطفت مع (صبحي) أكثر من (إبراهيم الغنام)، ولعلى شريرة في هذا التعاطف..»

قال المخرج العجوز، وهو يمد يده إلى شطيرة:

- «هذا لأن القصة كلها من وجهة نظر (صبحي)، وهذا يجعلك تعيشين تجربته، وتتبنين قضيته على الفور مهما كانت خاطئة.. هذا يحدث كثيرًا في السينما حين يجعلك السيناريو تتبنين قضية لص أو قاتل، وهو خطأ أخلاقي، لكنّ النهاية تبرره.. وثمة قاعدة قديمة في (هوليود) تقول: دع المشاهد يعشق الأخطاء ثلاثة أرباع الفيلم؛ إذا كنت تنوي جعله يمقتها في الربع الأخير.. ولو كانت القصة من وجهة نظر (الغنام) لكان تعاطفنا في اتجاه مختلف تمامًا..»

ساد الصمت برهة، ثم قلت بفم مليء:

- «الباب الأول كان يخفي سرًا جهنميًا لملحن شهير.. الباب الثاني كان يداري غريقًا اتضح أنه ليس كذلك.. الباب الثالث أفسد جريمة شبه كاملة.. ترى ماذا ينتظرنا خلف الباب الرابع؟!»

ونظرت إلى المخرج العجوز (حسين أبو النجا)، وقلت:

- «هذا دورك يا سيدي..»

في عصبية قال:

- «حان أوان ذلك.. ظننتكم ستتجاهلون قصتي للأبد..»

- «بل نحن نبقي الحلوى لنهاية الوجبة...»

قلتها مداهنًا متملقًا.. فلا أرغب في إثارة غضبه في ليلة كهذه..

* * *

قال المخرج الكبير (حسين أبو النجا):

- «كنت في ذلك الحين متعاقدًا مع المنتج الكبير (....) لتصوير آخر أفلامي (فاجعة فوق السطح)؛ مع النجمة الشهيرة (حسناء) والأستاذ (عمر عزت).. من المعروف عني أنني من

المخرجين سريعى الإنجاز، وأن فترة ثلاثة أسابيع كافية جدًّا لتصوير أطول فيلم لي، كما أنني أتحرك في حدود الميزانية المقررة لا أتجاوزها..»

يتهمني النقاد بضيق الأفق والسطحية.. لكنني - ببساطة - رجل فهم الجمهور، وعرف ما يتوقعون منه، ويمكنني إنجاز أي فيلم بخلطة سرية أعرفها وحدي.. بعض الجريمة.. بعض الحب.. بطلة حسناء.. رقصة شرقية.. عصابة ما.. النهاية السعيدة والزواج.. من يتزوج من؟ البطل والبطلة طبعًا مهما تباينت شخصيتاهما..

حقًّا لن يفوز فيلم من افلامي في مهرجان (برلين)، ولن يظل في دور العرض عامًا كاملًا، لكنه يحقق هامش ربح لا بأس به للمنتج، والسينما صناعة قبل أن تكون فنًا.. إنني أضمن سرعة دوران رأس المال، وهكذا يمكننا صنع فيلم ثان فثالث، كلها تكفل الحياة الرغدة لي ولأطفالي، وللمنتج والممثل.. والمونتير.. ولم يترك مشاهد دار السينما شاعرًا أنه قد خدع.. لقد حصل على كل شيء.. وبـ (الكيلو)..

من يشكو إذن سوى النقاد المعقدين منكوشي الشعر كثيري التدخين؟

* * *

- «أكشن!»

قلتها بلهجتي الآمرة الممطوطة التي أعشقها، وهكذا هرع صبي الـ (كلاكيت) المصاب بالأنيميا يتلو أمام العدسة رقم اللقطة، وعدد مرات تصويرها، ثم نزع اللوحة وانسحب..

هدير الكاميرا العالي.. الأضواء الباهرة.. الديكور.. الممثلون..

رباه! من يزعم بعد هذا أننا نقدم هراء؟!

إن كل هذا يكلّف مالًا.. لكنه رائع ولا يُصدق..

ودنا البطل من البطلة ليلقى العبارات التي حفظها من (السيناريو)..

طبعًا لا داعي للقول إنّه حفظ هذه العبارات من ربع ساعة لا أكثر، ورآها لأول مرة في حياته من ثلث ساعة.. لا وقت لديَّ ولا لديه لجلسات الاستماع ومناقشة السيناريو وكل هذا الهراء.. لسنا في (ستوديو الممثل الشهير في (هوليوود) حيث يكون على الممثل أن يفكر ويحلم ويتنفس كبطل الفيلم، دون أن يكف عن أن يظل هو.. هؤلاء القوم لديهم الوقت والمال، أمّا هنا فأنا بحاجة لبطل يجيد اصطناع أربعة أنماط من العواطف: الغضب - القلق - الفرحة ـ الهيام.. هذا كاف جدًا..

البطلة تعطيه ظهرها وتواجه الكاميرا (هذا هو الميزانسين المفضّل لدي مهما سخر الساخرون)، بينما هو يكلمها في هيام:

- «(مرفت).. أنت الأمل الذي انتظرته طيلة حياتي..»

فتقول في تعال:

- «لا تقل لي هذا... قله. لـ (نادية)...»

فيبدو الألم على وجهه.. ألم سينمائي مين الذي يحرك الملامح كلها...

ثم يقول:

- «(نادية) وأنا مجرد صديقين... لم يعد بيننا ما..... إلخ..»

هنا لاحظت أن الباب في خلفيّة الكادر يتحرك... المشكلة هي أنه واضح للعيان أكثر من اللازم، وهما وحيدان كما هو مفترض.. في العادة أنا لا أدقق كثيرًا.. في هذه الأمور، وفي أحد الأفلام دخلت البطلة غرفتها لتبكي أمام مرآتها، وحين عرض الفيلم ظهرت صورتي واضحة تمامًا في المرآة، ورآها النقاد جميعًا![2]

ماذا حدث؟ هل انطبقت: السماء على الأرض؟ هل توقفت الحياة؟ سرعان ما تمر أشياء كهذه، وينساها الناس.. لا أحد يعلق المشانق لأسباب واهية مثل هذه.. دعك من أنها أشياء تؤدي لرواج الفيلم..

ولرب من يدخل السينما فقط ليرى صورتي في مرآة البطلة، ويضحك!

- «ستووووب!»

دوّت صيحتي الغاضبة.. فهذه المرّة لم يكن من السهل أن أتجاوز عن هذا.. وما أحنقني هو أنني لا أصور اللقطة مرّتين إلا فيما ندر..

وصحت في عمال الاستديو المذعورين:

- «من الذي يحرك هذا الباب؟»

- «لا أحد يا سيدي.. لا أحد..»

وهرع أحد فنيي الكهرباء نحو الباب وفتحه.. لم يكن ورآءه شيء سوى ستار مفرود من الكتان.. إنّه ديكور مسطح ذو بعدين كل ديكورات السينما، ومن غير الوارد أن يتوارى أحد وراءه..

- «إذن تأكدوا من غلقه كي لا ينفتح..»

ولم يكن الباب مزودًا بقفل أو مزلاج، لذا تفتق ذهن أحدهم عن جلب قطعة قرميد ووضعها تحت الباب، حيث تظل بعيدة عن مجال العدسة، وتمنع الباب من الاهتزاز...

كان البطل قد انتهى من تدخين لفافة تبغه، والبطلة قد وضعت مساحيقها وأعادت لصق أهدابها الصناعية للمرة الألف هذا اليوم..

- «صمتًا! سنبدأ!»

ومن جديد جلست في مقعدي، وأطلقت صيحة البدء.. فالكلاكيت، ثم راحت آلة التصوير تهدر، و...

- «(مرفت).. أنت الأمل الذي انتظرته طيلة حياتي..»

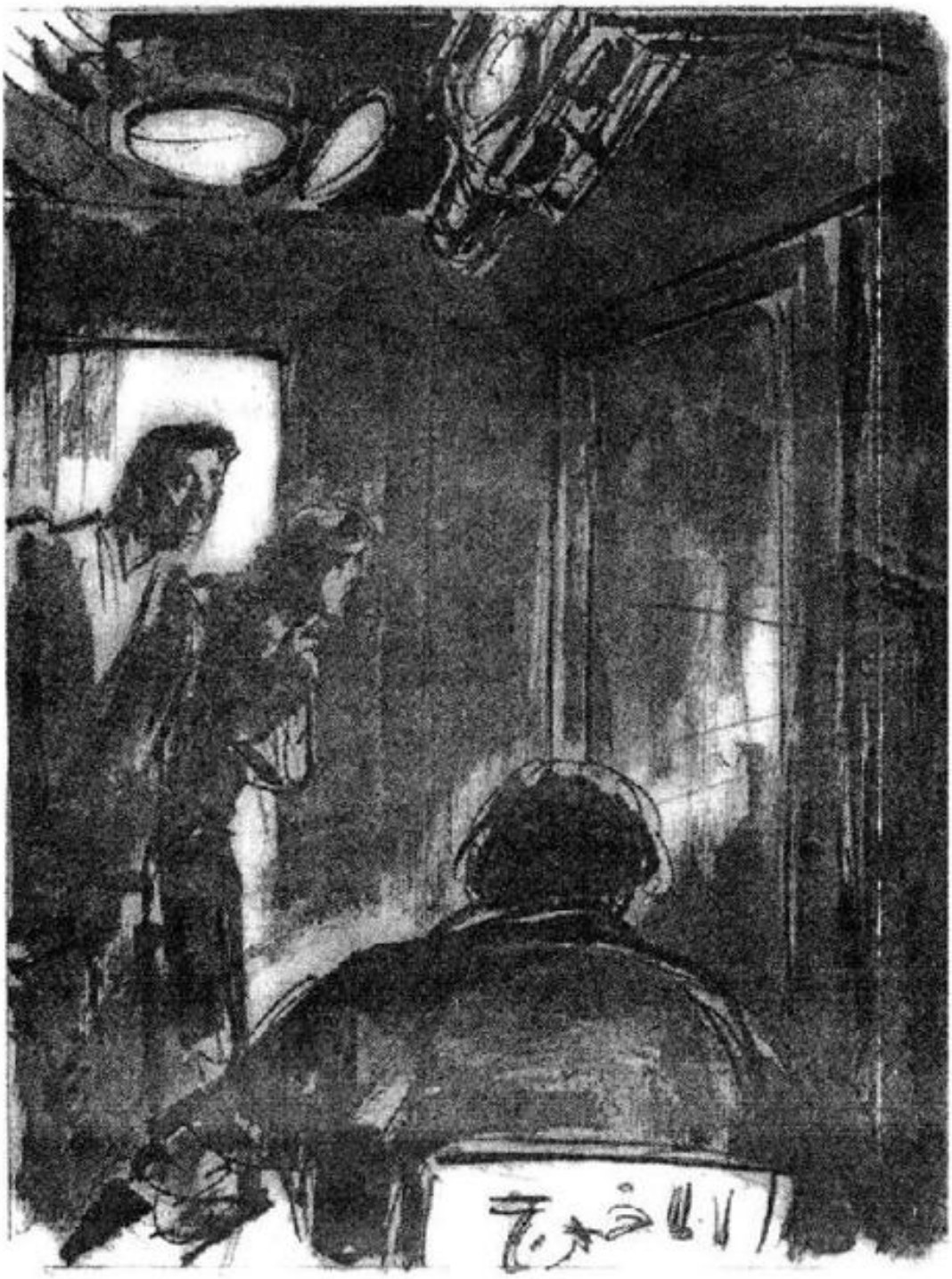
- «لا تقل لي هذا.. قله لـ (نادية)..»

- «(نادية) وأنا مجرد.....»

هذه المرّة تحرك الباب بعنف أكثر، وتعالى الصرير مع صوت قطعة القرميد إذ تحتك بالأرضية..

وتبادلنا النظرات مشدوهين.....

* * *



- ٢ -

قال المخرج العبقري (أبو النجا):

- «لكم أن تتصوروا غضبي وضيقي من هذا السخف.. نهضت بنفسي إلى الباب وتفحصته.. كان ثقيلًا إلى حدٍ ما، وقد ساعد قالب القرميد في جعل عملية فتحه جهدًا إيجابيًا، لا يمكن أن يتم بفعل الهواء..»

هنا قاطعته سائلًا:

- «لحظة.. تقول إن وراء الباب ستار قماشي.. فماذا وراء الستار؟»

هزّ رأسه، وقال:

- «لا شيء.. مجرد فرجة تقود إلى جدار.. وكان ما خطر لي هو أن أحدهم يتسلل إلى ما وراء الستار ليدفع الباب من خلاله...»

- «من هو؟»

ابتسم في تهكم، وقال:

- «كثيرون... كل الناس تملك حقدًا معينًا على العاملين في مهنة السينما، وتتمنى إفسادها.. قد يصرخ أحدهم انبهارًا حين يرى نجمة سينمائية حسناء، لكنه في قرارة نفسه يمقتها ويتمنى لها الفشل.. وكل سينمائي حاول أن يصور فيلمًا في شوارع (القاهرة)؛ يعرف جيدًا كيف يحاول الناس جاهدين أن يفسدوا ما يقوم به دونما سبب واضح..»

- «وهل وجدت رجلك الحاقد هذا؟»

- «لا.. طبعًا..»

* * *

قمنا بتفتيش الكواليس جيدًا؛ فلم نر إلا قطة وأطفالها الرضع، وقد قام العمال بطردها بالمكنسة بلا رحمة..

ثم إننا أحكمنا غلق الباب بمسمار محوى ثبتناه من الخلف؛ وبدأنا تصوير المشهد المقيت.. لثالث مرة..

- «(مرفت).. أنت الأمل الذي انتظرته طيلة حياتي..»

- «لا تقل لي هذا.. قله لـ (نادية)..»

- «ستووووب!»

لأن الباب تحرك من جديد، وبعنف يتناسب مع الإحكام الذي قمنا بتثبيته به..

ورأيت المصور يضرب كفًا بكف، على حين راح عمال التصوير يبسملون ويحوقلون، وقد أدركوا ما أدركته أنا..

ما يحدث هنا خارق لقوانين الطبيعة..

راحت البطلة تصيح في هستيريا:

- «أوف! هذه ليست سينما.. هذا ليس عملًا! لم لا تعلمونهم كيف يصنعون الديكورات قبل أن تبلونا بهم؟!»

وكنت معتادًا على هستيريا النجمات هذه؛ وأجدت امتصاصها طيلة حياته.. حقًّا لم أكن قط من المخرجين الطغاة..

- «أعرف أنّ هذا يثير الضيق يا (مدام).. لكنّ دعينا نصور هذه اللقطة، ولسوف أجد حلًا في أثناء تقطيع الفيلم..»

نفخت في ضيق، وهتفت من أنفها:

- «ماكياج!»

وللمرة الألف هرعت الماكييرة لتضع المساحيق على أنفها اللامع..

ومنى دنا مساعدي - وهو شاب ذكي سيصنع أفلامه الرديئة يومًا ما بالكيفية ذاتها - وهمس:

- «لقد انتزعت قوة ما المسمار المحوي من مكانه!»

- «أعرف.. فيما بعد سيكون لدينا وقت كاف لتطهير المكان بالبخور والأوراد؛ أمّا الآن فالوقت يعني مالًا..»

وبصوتي الجهوري المحبب صحت:

- «آكشاااان!»

ومن جديد هدرت آلة التصوير، والتمعت مصابيح (الآرك) بعد ما وضعنا (شارج) جديد في الآلة، وراح مكبر الصوت الصغير ينحدر من عل، ليواصل مهمته..

- «(مرفت).. أنت الأمل الذي انتظرته طيلة حياتي..»

هزت كتفها في ملل.. كان مللها ونفاذ صبرها اللذان بدأت التصوير بهما يرتفعان بأدائها إلى درجة الإعجاز:

- «لا تقل لي هذا.. قله لـ (نادية)..»

-«(نادية) وأنا مجرد.....

ومن جديد انفتتح الباب.. انفتح أكثر فأكثر.. كاشفًا عن الستار القماشي... ونظر لي مساعدي في قلق، لكنني أغمضت عيني بمعنى (لا مشكلة هناك).. دعوا! الأمور كما هي..

وواصل البطل حزنه، بينما الباب يواصل اهتزازه في مؤخرة الكادر:

- «(مرفت).. لو رفضت حبي سأقتل نفسي..»

ثم علا أداؤه أكثر.. وصاح:

- «سأقتل نفسي!»

تمثيل ردى جدًا أو مسطح للغاية.. لكنه يؤدي الغرض ما دام الفتى بحق وسيمًا، لا تكف مجلة (النجوم) عن نشر صورته، وتعلقها كل مراهقة حمقاء في غرفتها.. حالمة بأن يقتل نفسه من أجلها هي..

واستدار ليجري خارجًا من الكادر، على حين نظرت البطلة نحوه في شك، ثم صاحت وقد تزعزعت ثقتها:

- ((عادل)!! ((عادل)!!»

- «ستووب! رائع! إطبع!»

كذا صحت أنا وقد راق لي الأداء بشدة.. إنه ردئ.. لكنّ لن تجد أفضل منه مع هؤلاء الممثلين وبهذه الميزانية..

هنا انفجر مصباحان، وسمعنا صرخة البطلة في الظلام..

وساد الهرج والمرج...

* * *

لم تكن الحروق في وجهها مريعة.. ستشفى سريعًا وتحتفظ بجمالها الذي هو موهبتها الوحيدة...

وقبل أن تنصرف لدارها، دعت عليّ بالعمى والشلل، ودعت على الاستوديو بالخراب، واستعملت ألفاظًا يعاقب عليها القانون، تعلمتها في أزقة أجهل عنها كل شيء.. ثم أضافت:

- «لقد كان يومًا أسود من بدايته.. والآن يسرني أن أنسحب من تصوير هذا الفيلم الرديء...»

لا.. لا.. كله إلا هذا...

- «والعقد؟ والشرط الجزائي؟»

في لهجة مسرحيّة. فخيمة صاحت:

- «(بله واشرب ميته)!»

وغادرت المكان، وقد حولت الضمادات وجهها إلى ما يشبه الأخ (بوريس كارلوف) في أفلام (المومياء) التي أثارت رعبنا في شبابنا لفترة لا بأس بها..

صاح مساعد المخرج وهو يرتجف رعبًا:

- «إنّه الخراب!»

- «يا بني أنت حديث عهد بالمهنة.. لقد مررت بهذا الموقف مائة مرة، وفي كل منها كانت المياه تعود لمجاريها بمجرد أن يلمح المنتج بزيادة الأجر.. دع الأمر لي وأعد لي اللقطات التي لا تظهر فيها هذه الحدأة.. سنقوم بالبدء فيها غدًا..»

* * *

في الصباح يقول خفير الاستوديو أشياء غريبة حقًّا..

الرجل منهار متوتر الأعصاب، يقسم أنّ هذا الباب ظل ينفتح وينغلق طيلة الليل.. ثم إن أضواء الاستوديو المطفأة راحت تتوهج كلها مرارًا، ويقسم كذلك أنه سمع أنينًا متصلًا من وراء الباب، وفي كلّ مرّة كان يفتحه ويتحقق، ثم يدور حول الستار القماشي ليتنصت.. لكنه في كلّ مرّة لا يجد شيئًا..

- «الصوت يا أستاذ كان قادمًا من كل مكان ولا مكان.. كأنما الجدران ذاتها تئن!»

تأملت شاربة الغليظ ووجهه الأسمر الخشن، وقلت وأنا أبتعد:

- «يبدو أنك صرت شاعرًا على كبر! واحسرتاه على حال الرجال..»

صاح محاولًا جعلي أسمعه:

- «أنا لا أخرف.. والله على ما أقول شهيد..»

لكني كنت قد ابتعدت..

* * *

ودعاني المونتير (عباس) كي أرى معه (الراشز) Rushes، وهو مصطلح يعنى اللقطات التي تم تصويرها اليوم السابق، ومن المعروف أنه لا وقت لدى لمتابعة عملية تقطيع الفيلم.. يقولون: إن هذه فرصة رائعة للمخرج ليعيد إخراج فيلمه مرّتين، وأفضل مخرجي العالم هم من بدءوا مهنتهم في غرفة (المونتاج).. مخرجين على غرار (ديفيد لين) و(صلاح أبو سيف) و(كمال الشيخ)..

لكن من قال إنني أريد أن أكون أفضل مخرج؟ فقط أريد أن أكون أنجح مخرج.. أسرع مخرج.. أغنى مخرج..

وفي غرفة (المونتاج) - التي أمقتها - وضعوا أمامي كوبًا كبيرًا مليئًا بالقهوة.. على حين جلس (عباس) يدير آلة (الموفيولا) التي تعمل ببدال صغير، وتتيح لك رؤية المشهد على شاشة زجاجية صغيرة..

كانت تلك اللقطة الكريهة التي يصر الباب على أن ينفتح فيها في كلّ مرّة.. لدينا أربع نسخ منها، وإن كانت أول ثلاث نسخ غير مكتملة، لأن صوتي كان يقطع المشهد في لحظاته الأخيرة..

فقط النسخة الرابعة كانت كاملة؛ وحتّى مشهد هروب البطل من الكادر مصممًا على الانتحار..

وفي هذه المرّة انفتح الباب بالكامل، واستطعت أن أرى من يقف في فتحته، واقفًا خلف البطل إذ يتكلم..

- «من هذا؟»

كان هذا سؤال المونتير، فلم أرد.. لم يكن هناك جواب..

ملامح الرجل غريبة حقًّا.. عيناه جاحظتان مليئتان بالذعر.. شعره منتصب كأشواك قنفذ، وها هو ذا يضع كفيه على جانبي رأسه ويصرخ.. طبعًا صرخة صامتة لم يسمعها أحد..

وانتهت اللقطة هنا، إذ غادر البطل الكادر، وصاحت البطلة تناديه.. ثم صحت أنا بدوري أهنئهما على روعة الأداء..

وتبادلت النظرات مع المونتير أمام الشاشة الفارغة..

- «من هذا؟»

كرر سؤاله للمرة الثانية.. فقلت بصوت مبحوح:

- «لا أعرف.. ولم يره أحد في أثناء التصوير..»

وابتلعت ريقي، وأردفت:

- «هذا هو الشيء الذي كان يفتح الباب في كلّ مرّة.. لقد عجزت عيوننا عن رؤيته، لكنّ خامة الفيلم الحساس استطاعت ذلك..»

وأقشعر جلد لهول الفكرة..

لقد نجح الفيلم الخام في اقتناص دليل مادي على..... على.....

رباه!

* * *

ماذا يوجد خلف هذا الجدار؟

كانوا يراجعون التصميمات القديمة.. لا شيء سوى غرفة فارغة كانوا يستخدمونها قديمًا للمحولات، ويخزنون فيها مولد كهرباء.. ثم تم إلغاؤها منذ عدة أشهر.. وسدوا بابها بالقرميد..

كان مدير الاستوديو متشككًا كارهًا؛ لكني كنت مصرًّا، ووعدته بأن أعيد ترميم الفتحة على نفقتى الخاصّة..

وعند العصر جاء ثلاثة رجال، قاموا باستعمال المطارق والأوتاد الحديدية لتهشيم ثغرة في القرميد.. ثغرة تسمح بدخول رجل واحد لا أكثر..

وبعد نصف ساعة دخل أصغرهم حجمًا من حاملًا كشافًا ضوئيًا..

طبعًا سمعناه يصرخ..

هذا مفروغ منه وكنا نتوقعه..

* * *

وتم إجراء تحقيق سريع فعرفنا الكثير..

لقد حدث هذا في ذات الليلة التي كان البناءون عاكفين فيها على سد باب حجرة التوليد هذه..

إهمال معتاد حدث.. لقد عاد العمال إلى بيوتهم، وترك فني الكهرباء بعض الأسلاك العارية الخطرة.. وفي الليل تسلل متشرد ما لينام داخل الحجرة غير عالم بأن نهايته تنتظره في شغف..

في الصباح جاء فني الكهرباء ليجد جثة متخشبة على الأرض..

لقد حاول المتشرد أن ينام فوق قطبين عاريين لسلكين غليظين، والنتيجة هي أنه تفحم.. لم يجد الوقت الكافي ليصرخ...

وهنا اتخذ الكهربائي قراره...

لا أحد يعلم ما حدث.. لا أحد يعرف هوية المتشرد.. لن يبحث أحد عنه.. يمكن - بشيء من التدبير ـ أن يفلت من تبعات الإهمال الجسيم هذه..

وبسرعة أخلى الكهربائي الغرفة من كل ما يمت للكهرباء، ووارى الجثة المتصلبة في ركن مظلم وغطاها بالخرق القماشية، ثم خرج ليقف جوار الفتحة بانتظار عمال البناء حين يجيئون...

وخلال نصف ساعة ارتفع القرميد، ليسد باب الغرفة، وتحول المكان إلى قبر دائم للغريب، الذي لم يرتكب خطأ سوى محاولة النوم تحت أول سقف وجده..

لم يكن فني الكهرباء قد أخبر أحدًا بسره، لكنه انهار سريعًا حين استجوبناه، وحين أحسّ بأن جريمته لم تمت بعد... هناك أشياء لا يمكن دفنها تحت التراب مهما حاولت..

* * *

يمكن بشيء من الخيال أن نقول إن شبح القتيل - مجهول الاسم - أحسّ بالباب الذي وضعوه أمام الجدار.. كان بابًا وهميًا، لكنة افترض أنه يقوده إلى الخارج.. إلى حيث يعرف الناس المأساة غير الضروريّة التي جعلته يفقد حياته، ولا يحظى بدفن لائق..

لقد نجحت خطّته.. وإن تكتم الاستوديو كل شيء حتى لا يُساء إلى سمعته..

وحينما قمنا بتوسيع الفتحة، ودخلنا الحجرة المنسية، كان ما رأيناه هو كومة من الخرق البالية في ركن مظلم..

أزحنا الخرق.. فوجدنا هيكلًا عظميًا يرتدي بقايا ثياب متفحمة..

إن الجماجم تتشابه بالتاكيد.. والفارق بينها لا يعرفه سوى طبيب شرعي..

لكنّ من شاهدوا فتحتي العينين في تلك الجمجمة بالذات؛ شعروا بأنهما تحملان اتهامًا صامتًا.. اتهامًا لنا جميعًا..

* * *

الباب الخامس:
كلوستروفوبيا



الباب الخامس

« كلوستروفوبيا »

تفتحه : «هيام»

«لا تكوني بلهاء يا (هيام).. يجب أن تخرجي من هنا أو تجدي خطة ما، قبل أن يتكفل الظلام الدامس بشل حركتك نهائيًا..»

- ١ -

قالت مدام (ناهد) وهي تتثاءب:

- «بالله عليك! يا لها من طريقة لإمضاء الأمسية! لقد اقشعر جلدي من هذه الأقاصيص، وإنني لأتساءل عن صاحب هذه الفكرة..»

قلت في كبرياء:

- «يا له من سؤال! إنّه أنا طبعًا..»

ابتسمت وتأرجح رأسها كأنما ثملى دون طلا؛ والحقيقة هي أن الساعات التي أمضيناها هنا جعلتني أقل كراهية ومقتًا لهؤلاء القوم.. ليسوا بالسخف ولا التفاهة ولا الإملال الذي حسبته.. يُمكنك أن تحب أي إنسان - ولو كان إنسان (نياندرتال) - إذا أمضيت معه وقتًا كافيًا، وسمحت لوهجه البشري أن يلمس روحك.. حتى المخرج الأحمق والشاعرة التي تمقت الجميع.. كل هؤلاء يحملون طاقة إنسانية ما، وحين تدنو منهم تدرك أنهم ضحايا كسواهم...

قالت مدام (ناهد) وهي تنظر لضوء الفجر المتسرب على حياء من الخارج:

- «لقد نسيت ما نحن فيه.. تصوّر هذا! اندمجت في القصص حتى غابت عني تمامًا حقيقة موقفنا؛ وما ينتظرنا من علامات الاستفهام.. إن فكرتك لم تكن رديئة تمامًا يا د. (رفعت)..»

في هذه اللحظة بدأت (هيام) - ممثلتنا الصاعدة - تفتح عينيها.. لقد صار شكلها جديرًا بهذه الدقيقة.. دقيقة الاستيقاظ من النوم.. جفنان منتفخان، وشعر منكوش، ونظرة معادية كارهة للنور.. وبين شفتيها راحت تلوك ذلك الطعام الغامض الذي يلوكه النيام جميعًا..

راحت ترتجف قليلًا، فعقدت ذراعيها على صدرها، وقالت إنها تشعر ببرد شديد...

بعد ثوان.. غمغمت كالأطفال (عطشانة)، فجلب لها (محمود عوني) بعض الماء في كوب من دورق..

تثاءبت وتساءلت عن الساعة، فأخبرناها.. لطمت خديها غير مصدقة، واحتاج الأمر إلى عشر دقائق كي تعود لصوابها..

قلت لها بلهجة آمرة:

- «هيا.. قصتك!»

صاحت في رعب:

- «ماذا؟»

- «قصتك مع الباب المخيف!»

قال لي الأستاذ (محمود) في رفق:

- «صبرًا يا د. (رفعت).. المسكينة تصحو من النوم في مكان غريب ومع غرباء، لتجد من يأمرها بأن تحكي قصة عن باب مخيف!»

- «إنّه الحماس كما تعلم..»

أخيرًا عاد للفتاة وعيها - يا لها من بلهاء - وهرشت شعرها بطريقة غير رومانسية بالمرة، ثم قالت بعد ما تثاءبت كفرس النهر:

- «لدى قصة.. دعوني أحكها لكم..»

* * *

قالت (هيام):
- «يقولون إن حوادث الطفولة أشبه بالخدوش التي تترك على سطح لين من الأسمنت.. سرعان ما يجف فلا تمحى الخدوش أبدًا..
يقولون إن كل عقدنا ونحن بالغون، بدأت في طفولتنا..
يقولون.. يقولون..
وأحسبهم صادقين في هذا كله..

* * *

في طفولتي قارفت خطأ ما.. حقًّا لا أذكر ما هو.. لكنه كان هينًا بالتأكيد، وما هو الخطأ غير الهين الذي يمكن أن تقارفه طفلة في السابعة من عمرها؟
كان هذا في بيت عمتي، وكانت سيدة صارمة تؤمن بأن الأطفال (لازم يتربوا)، لهذا اعتصرت لحم ذراعي في غل بين إبهامها وسبابتها.. وراحت تضغط وتضغط، وهي تكشر عن أسنانها..
ثم دون مناقشة جرتني جرًا إلى السطح حيث (عشة الفراخ) الخالية، من بعد ما فتكت (الشوطة) بما فيها من دجاج..
كان المكان قذرًا، وفضلات الدجاج في كل مكان، لكنّ الأسوأ هو أنها أحكمت غلق الباب على من الخارج لأجد نفسي وحيدة في الظلام (كان الليل قد جاء)، دون بصيص من نور يتسلل من السلك المخصص للتهوية.. وسمعتها ـ وسط صراخي ـ تبتعد زاحفة بخفيها الثقيلين..
فقط قالت في لهجة محايدة تمامًا:
- «لازم يتربوا!»
وكذا وجدت نفسي أصرخ وأصرخ.. أضرب الجدار الخشبي بقدمي.. برأسي.. وفي ذهني تجمد كل شيء.. حتى (العاو) الذي كان يتحين فرصة كهذه ليخرج؛ أصابه الهلع فوقف فاردًا كفيه عاجزًا عن الكلام...
وبالنسبة للأطفال لا يوجد سوى المطلَق.. هم تركوني هنا، لذا سأظل حيث أنا للأبد.. لن أرى النور ثانية..
وبالنسبة للأطفال ـ كذلك ـ لا يوجد إحساس بالزمن.. لذا يصعب أن أقول كم لبثت.. بالنسبة اليّ بدا لي أنّ هذا امتد قرونًا، وبالنسبة لأبي بدا أنني لبثت ساعة..
لقد عاد ليجد أنني سجينة في (عشة فراخ) فوق السطح في الظلام، ولم أدر كيف وجدت نفسي في حضنه وهو يعتصرني بقوّة، ويقول مغضبًا لعمتي:
- «في (عشة الفراخ) يا (عنايت)؟! ماذا فعلته كي تستحق كل هذا في غيابي؟!»
ولم اسمع ما قالته عمتي بالتفصيل، لكنني ميزت آخر عبارة قالتها ألا وهي:

- «دول لازم يتربوا!»

* * *

حسن.. كانت هذه هي الخبرة العظمى في طفولتي، وكانت بداية مرض (الخوف من الأماكن المغلقة) الذي لم أشف منه قط..

فيما بعد قال لي الأطباء: إن مريض (خوف الأماكن المغلقة) لا يستطيع تذكر مناسبة معينة بدأت فيها شكواه.. كلهم يقول: لقد ولدت هكذا.. لكن - في حالتي هذه - كانت تجربة الطفولة واضحة وضوحًا مدرسيًا يثير الانبهار..

وفيما بعد عرف الجميع أنني لا أحتمل أن ينغلق باب علي، وفي الصف كنت أصرخ هلعًا لو خرجت كل الطالبات وتركنني وحدي.. كما أنني في الحمام كنت أترك الباب نصف موارب برغم أنّ هذا غير لائق، لكنّ فكرة الباب المغلق كانت تتحدى أي حياء، واعتادت زميلاتي أن يعابثنني بأن ينتهزن أول فرصة ليغلقن على أي باب؛ لكنّ رد فعلي كان في الغالب شرسًا يثير الهلع في نفوسهن..

* * *

كبرت وبدأت أميل إلى فن التمثيل.. لا أدري لِمَ، لكنّ يبدو أنّ هذا نوع من العلاج الذاتي.. ولهذا لم أعد أندهش حين أسمع عن الفرق المسرحية في المصحات النفسية.. إن التمثيل علاج لا بأس به..

اشتركت في مسابقة للوجوه الجديدة، وكان لي باع في الفرق المسرحية الإقليمية، ثم أرسلت لي مجلة (النجوم) خطابًا تدعوني فيه إلى مقابلة شخصيّة تتكون من عدة ممثلين وأستاذ مسرح عجوز..

وكما يحدث في الأسر المتوسـ... المتحفظة.. ذهبت مع (بابي) وأخي طبعًا.. و..

* * *

هنا تدخلت، لأنني لم أستطع منع نفسي:

- «تعنين بـ (بابي) أباك طبعًا؟»
- «هه؟ ماذا تريد؟»
- «الذي أنقذك من السجن في (عشة الفراخ) وأنت طفلة؟!»
- «د. (رفعت).. لا أفهم ما ترمي إليه..»
- «لا شيء.. أكملي قصتك..»

* * *

قالت (هيام) وهي ترمقني في لوم:

ـ «أجريت المقابلة الشخصية بنجاح، وأديت مشهدًا قصيرًا من فيلم لـ (فاتن حمامة) حفظته عن ظهر قلب.. الحق إنني كنت محظوظة، لأنني نلت قلوبهم وقبولهم من اللحظة الأولى، وعرفت أنني نجحت..

بعد هذا ترددت مرارًا على مكتب المنتج الذي رشحوه لي؛ وأعطاني (سيناريو) رديئًا لم يرق لي قط، لكنه أخبرني - في أدب ـ أنني لا أملك بعد الحق في الرفض..

وقال: Take it or leave it (خذيه أو اتركيه)، لكنّ أحدًا لن يقدم لك فرصة أخرى..

كان الإغراء شديدًا.. أن أرى وجهي مجسمًا على شاشة السينما العملاقة.. وعلى الملصقات.. إنها اللحظة التي يكفت فيها المرء عن أن يكون شخصًا عاديًا، ويتحول إلى رمز مطلق كالحق والخير والجمال..

كان عليّ أن أقبل، وظللت آمل أن أصل إلى درجة من القوة تتيح لي الاختيار.. لكنّ هذه اللحظة لم تأت قط..

وجاء اليوم الذي وقفت فيه أمام العدسة، و(الدوللي) يلاحق حركاتي، بينما الأضواء الساطعة تكشف كل تجعيدة وكل خلجة في وجهي.. الحق إنّه شعور رهيب، ولا داعي لأن أقول إنني فقدت الوعي في المرّة الأولى..

لكني - ببطء ـ بدأت أتخذ صورة النجمة متوسطة الشهرة، وكان التعليق الذي يلاحقني لا يتغير: فتاة بارعة الحسن لكنّها بلا موهبة، وصوتها مشروخ، ووجهها له كل القدرات المعبرة التي يمكن أن تجدها في وجه الحصان..

* * *

وضمت (هيام) شفتيها ونظرت للسقف كأنما تتذكر، فخفق قلبي، لأنهّا في هذه اللحظة بدت كـ (ماجي) تمامًا.. قالت:

- «لا يهم.. لقد صرت شهيرة، وظهر وجهي ثلاث مرات على غلاف مجلة (النجوم)، وصارت لي شقّة في (جاردن سيتى) تنهمر عليها مكالمات المعجبين والمعجبات..

لكن داء (الأماكن المغلقة) لم يتركني لحظة..

* * *

- ٢ -

قالت (هيام):

- «كان اسم الداء كما وصفه (مراد) معالجي هو (كلوستروفوبيا).. وهو مكون من مقطعين (كلوسترو فوبيا) يقولون إن معناها (رهاب الغرف المغلقة).. وقد حفظت الاسم بلا عسر لأنني كتبته في كل أوراقي، وعلى كل جدار من شقتي..

أنا مصابة بالـ (كلوستروفوبيا).. قلتها لأمي فضربت بكفها المفتوحة على صدرها، وصاحت:

- «يا لهوي! لا تقولي هذا علنًا يا مجنونة وإلا لن يتزوجك أحد! كنت دومًا أحذرك من الخروج للمدرسة دون إفطار!»

* * *

ظهر (عادل) في حياتي بعد ما عرض فيلمي الثاني..

تعرفته في حفل بعيد ميلاد إحدى الصاعدات مثلي.. كان مهذبًا له كل الصفات التي يمكن أن تصف بها رجلًا وسيمًا، لكنه ـ لا أدري السبب - بدا لي سمجًا يتطرف نوعًا، وفي طباعه شيء من طبائع الذبابة..

كان يلاحقني دائمًا، وله طريقة معينة يلتقط بها خيوط أية محادثة تخصني، ليتدخل فيها بالإجابة والتعليق كأنما هو مندوبي الصحفي أو خطيبي مثلًا[3]...

كان يهيم بي حبًّا، لكنّ هذه مشكلته لا مشكلتي.. لست مطالبة بأن أحب كل من يحبونني، وإلا لقضيت حياتي دون شاغل آخر..

لكن الفتى صار كابوسًا دائمًا.. ما من حفل أو مكان أرتاده إلا وأجده.. وحتّى في أثناء التصوير في الاستوديو كنت أجد وجهه السمج يبتسم في ثقة مشجعًا لي.. ومن نافلة القول أن أقول إنّه كان صاحب علاقات عديدة في الوسط الفني ولم يكن وجوده مستغربًا في أي مكان.. باختصار: لا مفر منه..

في النهاية استسلمت وتركته يحيط إصبعي بخاتمه الذهبي في حفل خطبة كان حديث الصحف وقتها..

* * *

لم أكن سعيدة على الإطلاق..

المفترض أن تسعد الخطبة أية فتاة، لكني لم أعد أية فتاة.. لقد صرت رمزًا كما قلت، ومن حقي اختيار أي شاب في أية لحظة يخطر لي هذا، وعليه أن يرقص فرحًا وفخرًا..

ما الذي يرغمني على معرفة هذا المهندس ثقيل الظل؟ إنّه لا يعرف سوى الإعجاب بنفسه، ولا يملك من الأفكار إلا كل ما هو قريب ومطروق وممل.. وكنت أنا مجرد ديكور أنيق يجمل به نفسه..

وجاء الأوان الذي صارحته فيه بأننا لا نصلح لبعضنا..

كان طفلًا عنيدًا اعتاد الاستحواذ على كل شيء.. لم يطق أن تتخلى عنه دميته الجميلة.. الأطفال يلقون ألعابهم من الشرفة حين يملونها، ولم يحدث قط أن ألقت دمية بطفل من الشرفة..

وكما توقعت توهج الغضب في عينيه.. غضب وحشي، وهتف:

- «لا يا (هانم)! أنا لا يسهل الخلاص مني.. لن يكون ذلك إلا بإرادتي واختياري!»

ثم فرد ذراعيه في دهشة تمثيلية:

- «ثم ماذا يقول أصدقائي عني؟ لقد تركته النجمة الكبيرة، لأنّه لا يناسبها؟ ما هي الصورة التي سيتركها انفصالنا لديهم؟»

كنت أرتجف خوفًا، لكني قلت في ثبات:

- «(عادل).. أنا أتحدث عن مستقبلي، وليس المستقبل رهنًا بنزوات المجاملة، وقد أغلقت كلماتك هذه باب الرجعة لو كان هناك واحد!»

ووضعت الخاتم في كفه دون كلمة، عندها ابتسم بخبث، وقال:

- «باب الرجعة! إن هناك أبوابًا مغلقة أخرى!»

* * *

كانت كلماته كنبوءات العرافين الغامضة، التي تتضح سطورها فيما بعد.. ولم أفهم هذا إلا في وقت متأخر جدًّا..

هأنذا أركب سيارتي الجديدة عائدة من الاستوديو بعد انتهاء التصوير.. النصيحة التي يقولونها دومًا للأنثى سائقة السيارة هي:

«انظري جيدًا تحت المقعد الخلفي قبل أن تقودي.. نصيحة جيدة لكني نسيتها..»

ها هو ذا من يقول لي: توقفي!

أوقفت السيارة على جانب الطريق، وأقول في دهشة:

- «(عادل)! كيف تسللت إلى سيـ...؟»

وفي اللحظة التالية هوى شيء ثقيل على مؤخرة عنقي، وساد الظلام...

* * *

الآن أصحو لأجد نفسي على أريكة قديمة مهترئة.. الغبار في كل مكان، غرفة ضيقة تمامًا.. هذا ما استطعت أن أراه على ضوء متراقص لشمعة مثبتة على المسند الخشبي للأريكة..

أين أنا؟ ماذا حدث؟

طبعًا من الواضح أنني مخطوفة.. وخاطفي هو (عادل) طبعًا..

يا له من أحمق! يظن أنني بهذا سألين؟ لعله شاهد فيلم (جامع الفراشات) حين قرر البطل المختل عقليًا أن يحتفظ بحبيبته في داره مع مجموعة الفراشات الخاصّة به، والغريب أنها بدأت تميل إليه في النهاية.. لكنّ (عادل) أحمق بالتأكيد..

ستنقلب الدنيا بحثًا عني، ولسوف يكون اسمه هو أول اسم في قوائم الشرطة، لأن قصة انفصالنا وتهديده على كل لسان..

ماذا يرمي إليه هذا المدلل؟

وكان أن وجدت ورقة موضوعة بعناية على الأريكة، تجيب باختصار على كل أسئلتي..

رحت أقرؤها في ضوء الشمعة وأرتجف:

«حبيبتي..

«ما كنت أتصور أن أعاملك (بهزه) الطريقة يومًا، لكنك قد أرغمتني على (هاذا).. [سأحاول أن أتجاوز عن أخطاء اللغة ما دمتم تعرفون أن (عادل) خالي العقل وجاهل]..

«حين تطالعين هذا الخطاب، سأكون في طريقي إلى (بيروت) لأستجم بعض الوقت، وهو وقت قد يطول حقًّا..

«هذا البيت يخص قريبًا بعيدًا لي، وهو مغلق منذ أعوام طوال، لكنّ قليلين يعرفون أن مفتاحه معي، وهو بعيد تمامًا عن العمران.. وبلا جيران على الإطلاق، وآيل للسقوط بشدة...

«ستجدين الكثير من الطعام والمعلبات، وصنبورًا يمدك بالماء لأني لا أريد لك أن تموتى جوعًا أو ظمأ..

«وماذا عن الموت رعبًا؟

«هذا وارد بالتأكيد.. فقد عرفت جيدًا خوفك من الأماكن المغلقة، وأنت الآن في أكثر الأماكن انغلاقًا في الأرض.. هذه حجرة ضيقة قمت بإحكام غلق بابها ونافذتها الوحيدة، والبيت كله عتيق متهالك، لا يمكن المشي فوق لوح خشب دون أن يتهشم إلى نصفين، ولا يمكن الوثب في المكان دون أن يتساقط المصيص من السقف على رأسك..

«لقد تعمدت التأكد من عدم وجود ثعابين أو فئران كي لا أكون قاسيًا، لكني سأتركك تستمتعين بحق برهاب الأماكن المغلقة كما تسمينه.. وستطول فترة استمتاعك كثيرًا جدًا، لأن أحدًا لن يبحث عنك هنا.. سيبحثون عنى ليستجوبوني، لكنّ كيف يجدونني في (بيروت)؟!

«سأعود يومًا، وعندها من يدري؟ ربما يكون كبرياؤك المرضي قد تهاوى بعض الشيء.. ربما يمكننا الكلام عن مستقبل مشترك

خطيبك (عادل)»

* * *

ما إن قرأت الخطاب، حتى تلاحقت أنفاسي، وشعرت بالشعور المعتاد في هذه المواقف: الاختناق.. الحاجة للهواء التي تدنو من الذعر..

ونظرت في هلع إلى الشمعة.. إنها الوحيدة ها هنا.. سيسود الظلام بعد وقت قد يطول أو يقصر، لكنه آت لا محالة.. وعندها.....

طار قلبي وعقلي شعاعًا، ورحت أبكي وأصرخ.. أصرخ وأبكي..

ومن جديد ـ كما في طفولتي - رحت أضرب الجدران مولولة طالبة الغوث.. أنا لم أفعل شيئًا.. لم أفعل شيئًا!

* * *

«دول لازم يتربوا!»

* * *

لبعض الوقت جننت تمامًا.. رحت أتوسل إلى عمتي كي تطلق سراحي.. أنادي أبي.. أتحاشى فضلات الدجاج على الأرض، ثم أثوب إلى رشدي.. فأنادي (عادل)..

وبعد ساعة رقدت منهكة أرتجف..

كانت الشمعة طويلة لحسن الحظ، كأنها من شموع الزفاف، وقدرت أن أمامي ساعة أخرى أنعم فيها بنورها المخيف..

ساعة.. و.....؟

من أشعل هذه الشمعة يا ترى؟ بالتأكيد (عادل) أشعلها جواري، ثم فر من المكان قبل أن أفيق، وأوصد الأبواب بعناية.. هل يعني هذا أن الوقت كان ضيقًا أمامه في أثناء عملية حصاري؟

حملت الشمعة في يدي، وأمرت نفسي بالتماسك.. لا تكوني بلهاء يا (هيام).. يجب أن تخرجي من هنا أو تجدي خطة ما، قبل أن يتكفل الظلام الدامس بشل حركتك نهائيًا..

كانت الحجرة ضيقة ـ كما قال ـ بها نافذة موصدة بعناية، وقد ثبت عليها لوحان من الخشب بعدد من المسامير يفوق الخيال.. لو لم أجد (بنسة) هاهنا لكان هذا السبيل مستحيلًا..

يوجد باب.. باب عتيق الطراز لا يبدو بهذا التماسك...

لقد أغلقه (عادل) بقطعة خشب رقيقة واهية.. وكان من الطراز الذي ينفتح للخارج.. يبدو هذا حلًا لا بأس به...

ونظرت في الحجرة حولي بحثًا عن جسم خشبي أو ثقيل.. كانت هناك في طرف الغرفة مكتبة متسخة مغطاة بالغبار ترتفع إلى مترين، أمامها مقعد خشبي يبدو ثقيلًا إلى حدٍ ما..

قمت بتثبيت الشمعة إلى الأرض.. وانتظرت حتى انتظم وهجها، وبدأت أتحرك في رقعة الضوء الخافتة..

حملت المقعد الخشبي بكثير من جهد، واتجهت إلى الباب، و.. بوم! دوى الصوت كالانفجار في الغرفة الضيقة.. وبدأ الخشب يذعن قليلًا.. ضربة ثانية ثم ثالثة..

توالت الضربات، وأملي يزداد..

أخيرا بدا الباب مترنحًا بانتظار الضربة الأخيرة التي تقهر عناده، وهي ضربة تحتاج إلى اندفاع.. ربما محاولة بالكتف كما يفعل المخبرون في السينما حين يقتحمون وكر عصابة..

تراجعت للوراء وأخذت شهيقًا عميقًا.. و.....

ثم لفت نظري شيء معين..

* * *

كان هناك باب وراء المكتبة!

باب ثان بالغرفة حاولت المكتبة أن تداريه لكنّها لم تستطع.. ظل إطاره بارزًا إلى جانبها.. وهذا – ببساطة - معناه أنّ هذا هو الباب الحقيقي، وإلا فلماذا داراه (عادل)؟

سؤال جديد: كيف خرج (عادل) من هذه الغرفة؟ النافذة والباب كلاهما مغلق ومُحكَم من الداخل، ولو خرج من باب تدارية المكتبة، فكيف عادت إلى مكانها بعد رحيله؟

إجابة منطقية: (عادل) في مكان ما في هذه الغرفة! ربما يتوارى في مخبأ سرّي أو وراء الأريكة أو.... لا بد أنه كذب بصدد السفر إلى (بيروت)... وهذا يفسر الشمعة المضاءة بجواري.. لا بد أنه كره ألا يرى منظري مذعورة.. درت حول الأريكة في توجس لأرى..

ولم أجد الوقت الكافي لأصاب بالذعر للاكتشاف الرهيب؛ لأن (عادل) وثب بالفعل من وراء الأريكة، صائحًا:

- «مفاجأة!»

كان يحمل مطرقة في يده.....

وهكذا أطلقت صرخة وتراجعت للوراء، نحو الباب الذي أوشكت على اقتحامه.. وأزمعت أن أحاول الآن..

لقد جن الفتى.. جن تمامًا.. في ضوء الشمعة بدا لي كشيطان رجيم يريد تهشيم رأسي..

اندفع نحوي فتراجعت مبتعدة عن الباب، وفي اللحظة ذاتها لم يستطع التوقف... اندفع نحو الباب كثور هائج، فلم يتحمل الباب هذه الضربة الأخيرة وانفتح للخارج..

وسمعت صرخة رعب هائلة، ثم اختفى (عادل) من أمامي..

ومن حياتي أيضًا..

* * *

كنت واقفة أرتجف أمام الباب المفتوح، أرمق الهاوية التي سقط فيها.. لقد كانت شرفة! شرفة سقطت منذ زمن.. لكنّ بابها ظل هناك، وكانت على ارتفاع ثلاثة طوابق من الطراز القديم... أي ما يعادل ستة طوابق من الطراز الحديث!

والهواء قد اصطبغ بلون الغسق المهيب..

كانت الشرفة تطل على فناء فسيح ملئ بالمهملات، وبعض برك الماء الآسن، ووسط القاذورات وجدت جثة (عادل) وهو يرمق السماء غير مصدق ما انتهت إليه دعابته..

وارتجفت في هلع..

هذا المصير كان بانتظاري لو حاولت اقتحام الباب المغلق..

(عادل) كان يتوقع هذا ويتمناه، وترك لي شركًا متعمدًا هو لوح الخشب الواهي على الباب، ليغريني بالمحاولة، بالطبع بعد ما أعد الباب لينفتح للخارج..

كان يلاعبني كقط يتسلى برؤية محاولات فأر للتملص..

* * *

وحين استطعت أخيرًا أن أزيح المكتبة الثقيلة، استطعت أن أمد يدي إلى مقبض الباب وأفتحه في حذر..

أفتحة متوقعة الأسوأ..

لا شيء سوى درجات تقودني إلى أسفل.. لقد نجوت، ولقي (عادل) مصيرًا لم يتوقعه قط.. والأقسى هو أنني لن أبلغ الشرطة كي لا أسبب شوشرة.. المنزل متهالك و(عادل) يملك مفتاحه.. لقد حدث خطأ جسيم يا سيدي.. لقد نسي أن الشرفة لا وجود لها.. هذه الأشياء تحدث..

من يدري؟ لربما انتحر بسبب فشل قصة حبّه لممثلة حسناء تُدعى (هيام).. هل تعرفها؟ إنها جميلة جدًا.. لكنّها لا تجيد التمثيل..

حقًا ما أخطر ما قد ينتظرنا خلف باب مغلق!

* * *

«دول لازم يتربوا!»

* * *

الباب السادس:
أمنية واحدة



الباب السادس

« أمنية واحدة »

تفتحه : «مدام ناهد»

«تقززت من الفكرة، لكننى تقززت أكثر من أن ينفتح الباب لأجد هذا الشيء المقيت أمامي.. ترى لماذا قبلت المبيت ها هنا؟»

- ١ -

الآن يمكن القول إننا في النهار..
الضوء الأبيض الساطع النقى يتسرب من كل الستائر، وتلك الدغدغة في أذهاننا جميعًا تجعل الرؤية مشوشة والخواطر مضطربة.. وقال (محمود عوني) ناظرًا في ساعته:
- «لقد قضينا الليل بأكمله ها هنا.. تصوروا هذا!»
لكنّ أحدًا لم يتصوّر لأن هذا هو ما حدث فعلًا.. ونهضت متثاقلًا لأفتح نافذة وأنظر إلى الخارج عبر القضبان الحديدية.. سعلت مرّتين بسبب الهواء النقي الذي لم أعتده من قبل، ثم عاودت النظر.. حقًّا هو منزل منعزل تمامًا، ناء عن العمران.. ومهما صرخنا منادين لن يسمعنا أحد..
قلت دون أن ألتفت:
- «لقد دنا موعد خلاصنا.. حتمًا سيحدث شيء في صالحنا..»
قال المطرب الولهان بصوته المبحوح:
- «حان وقت سماع قصتك يا د. (رفعت)..»
- «أفضل الانتظار للنهاية.. إن قصتي رهيبة بحق، وأفضل أن يكون النهار قد أعلن كامل ملكوته حتى لا أتلف أعصابكم..»
- «إذن هو دور مدام (ناهد)؟»
- «لو سمحت بهذا..»
جلست مدام (ناهد).. وأصلحت وضع شعرها المستعار الخزفي على رأسها، وكان قد اتخذ كل الأوضاع الممكنة منذ بداية السهرة، حتى لم يعد شعرًا مستعارًا، لكنّ عمامة على رأس (مهراجا) هندي مخبول..
قالت بعد شهيق عميق:
- «حقًّا كانت لي قصة مع باب مغلق.. لا أدري إن كانت مخيفة.. لكنّها بالتأكيد شائقة..»

* * *

الباب الأول كان يدارى سرًا شيطانيًا لملحن شهير..
الباب الثاني كان يداري غريقًا اتضح أنه ليس كذلك..
الباب الثالث كان سبب فشل جريمة..
الباب الرابع كان يخفى انتقام شبح من قاتليه..
الباب الخامس كان شركًا مميتًا..
أمّا بابي أنا فكان يختلف كثيرًا جدًّا..
كان هو تجسيد كوابيسي كلها.. ولكم تمنيت ألا ينفتح أبدًا..

* * *

سافر (جابر) إلى مؤتمر علمي في (اليابان).. مؤتمر له ذلك الاسم الطويل الذي لا يمكن حفظه على غرار (المؤتمر الرابع عشر لجراحات الأنسجة المكونة لعناصر الدم - ورشة عمل).. إلخ.

ولما كانت علاقتنا حميمة جدًا؛ كان الوداع مؤثرًا بحق...

- «حان الوقت.. سلام!»

- «حسن..»

ووضع جواز السفر تحت إبطه، ولحق بالسائق.. وهو مشهد رأيته عشرات المرّات في حياتي.. كنت أصر على أنه لا يحبّ شيئًا في الكون سوى عمله وسوى نفسه، بينما كان يرى أنني لا أحب سوى المال والمظهر الاجتماعي.. محاولة الظهور كـ (ليدي)، ذلك الداء الذي يصيب زوجات الأطباء الناجحين كثيرًا جدًّا...

أنا لم أطلب شيئًا سوى أن أجده بجانبي... طيلة حياتي الزوجية كنت أتصرف كأرملة.. أفعل كل شيء وحدي.. أحضر الحفلات وحدي.. أذهب للأعراس وحدي.. أتعاقد على الهاتف وحدي.. أدفع العوائد وحدي.. أزور شقيقاته وحدي.. أشتري ثيابي وحدي..

فقط حين يظهر - في الثالثة بعد منتصف الليل - أتذكر أنني متزوجة وأن زوجي حي يرزق.. لكنّ هذا لا يدوم أكثر من نصف ساعة بعدها يتعالى شخيره، وفي الغالب يغادر الدار في السابعة صباحًا وأنا نائمة، لهذا تعد له الخادمة طعام الإفطار..

والكارثة هي أن كثيرات يحسدنني على هذا الزوج الناجح، ويتململن من أزواجهنّ الموجودين بكثرة، ولا يكفون عن العبث في أصابع أقدامهم على الأريكة، وهم يتابعون بتوتر مباراة الأهلي الأكثر أهميّة لهذا الموسم...

زوج غير موجود أبدًا.. وزوج موجود دائمًا..

وعلى المرأة أن تختار أحدهما للأسف..

رفعت سماعة الهاتف وطلبت (نرمين) صديقتي، وهي أرملة شابة تعيش في (المقطم) بدورها:

- «(نرمين).. هل لديك ارتباطات لهذه الليلة؟»

دوّت ضحكتها الرفيعة الشبيهة بضحكة (عرسة) أصابها سرطان الرئة، وقالت:

- «لماذا تتحدثين بهذه الصيغة الرسمية؟ ليست لدى ارتباطات طبعًا.. إن بعضهن آتيات لزيارتي لو كان هذا لا يضايقك..»

- «البتة..»

وهذه من أوجه الخلاف بيني وبين زوجي، فأنا اجتماعية كأفراس النهر، بينما هو متوحد نوعًا، وإن كان يقبل الاجتماعيات، لأنهّا تتيح له التألق الإعلامي الذي يهواه...

وهكذا ركبت سيارتي الصغيرة، وتوجهت إلى منزل (نرمين)، وهي لا تعيش وحدها لكنّ لديها طفلين وخادمتين.. وهذا شيء محبب في مكان منعزل كهذا..

وفي دارها احتشدت أربع نساء من الشلة، بعضهن أعرف جيدًا، وهن جميعًا من نادي (الأرامل/المطلقات/المحبطات) الذي انضممت له من زمن.. في هذا النادي يغدو الرجال شيئًا منسيًا بعيدًا أو مكروهًا كالجحيم..

كان الكلام تافهًا سطحيًا... كالعادة، والدعابات مكررة.. باختصار كانت أمسية رائعة من الطراز الذي يروق لي!

وفي الحادية عشرة مساء فرغنا من العشاء، وجلسنا على مائدة مستديرة نلعب (الكونكان) ونصغي لغناء (أم كلثوم)، وكانت هناك امرأتان تدخنان، رفعت واحدة منهما رأسها للسقف، وراحت تنفث الدخان في هيام.. وتغمغم:

- «يا سلام يا ست!»

بعد نصف ساعة، وقفت (نرمين) وأعلنت أنها تشعر بالملل، وأن ألعاب الورق لم تعد تروق لها، ثم قالت وعيناها تلتمعان بالحماس:

- «سأريكن مفاجأة صغيرة!»

* * *

«اللي شفته.. اللي شفته..
قبل ما تشوفك عنيه، عمر ضايع يحسبوه إزاي عليا؟
اللي شفته.....

* * *

كلا لم تعد لنا بلوح (ويجا) الذي تستخدمه النساء لتحضير الأرواح، لو كان هذا ما جال بذهنكم، وهو تسلية نساء كثيرات من هذه النوعية..

عادت بشيء ألطف بكثير.. جمجمة آدمية موضوعة فوق وسادة من (الساتان) الأحمر، وقد وضعت شمعتان قصيرتان في مجرى العينين الرهيبين.. رباه! لم يكن منظرًا محببًا بالتأكيد؛ خاصة مع ضحكة الموت العابثة الساخرة على فم الجمجمة..

قالت إحدى النسوة ضاحكة:

- «يا ساتر! هل قررت استدعاء العفاريت لقضاء الأمسية؟»

نظرت لنا (نرمين) لترى تعبيرات وجوهنا، التي تباينت بين التقزز والفضول والاستمتاع، وقالت:

- «إن لهذه الجمجمة شأنًا كبيرًا.. وقد حصلت عليها مقابل مبلغ لا بأس به من المال من ساحر (تنزاني) جاء إلى (القاهرة) منذ أسبوع..»

انفجرت النسوة مقهقهات، وسعلت إحداهن كثيرًا ثم قالت بين ضحكاتها:

- «هوهوهوه! هيهيهي! أنت أيضًا وقعت في شرك هذا الساحر؟ لقد وقعت (نازك) هانم في شرك مماثل.. إن (القاهرة) تعجّ اليوم بهؤلاء السحرة الأفارقة؛ وقد تقاضى الرجل منها ألفي جنيه مقابل أن يجعل..... هي هي! هوهوهوه! يحبّها ويطلب يدها للزواج.. أنت تعرفين الفراغ الذي تعيش فيه منذ مات زوجها.. وحسبت تلك الشمطاء أن.....

هنا قاطعتها إحدى الجالسات في استمتاع:

- «يجعل من يطلب يدها؟»

قالت في مكر وهي تنفث دخانها:

- «لن أقول.. البيوت أسرار!»
- «بالله عليك قولي يا (سوزي).. إن هذا خبر الموسم..»
كانت (سوزي) تتمنى الإلحاح، وبالطبع كانت ستذكر الاسم:
- «الأستاذ (محمود عوني)!»
وانفجرت النسوة ضاحكات كما يضحك المعلمون في مقهى (بعجر)، فلم ينقصهن إلا أنّ يبصقن على الأرض، ويطلبن المزيد من الشاي (الكشري)...

* * *

وهنا قطعت مدام (ناهد) حكايتها، ونظرت معتذرة إلى الأستاذ (محمود عوني) قائلة:
- «معذرة يا أستاذ.. هذا هو ما حدث..»
لكنّ فارس الأحلام كان نائمًا، وقد تدلى فيه في غباء، وتصاعد منه شخير كفيل بإيقاظ الصم..
ابتسمت لي، فقلت لها:
- «لا عليك يا سيدتي.. إن الرجل لا يضايقه في شيء أن تستعين النساء بالسحرة كي يحصلوا على حبّه.. لربما كان هذا مصدر فخر له إلى حدٍ ما، حتى ولو كن من طراز (نازك) هانم هذه..»
قالت مدام (ناهد):
- «إن النساء قد ينجذبن إلى عقل الرجل الناضج أحيانًا..»
- «لكنّ ليس دائمًا للأسف! يمكنني أن أؤكد لك هذا!»

* * *

قالت مدام (ناهد):
الحقيقة هي أنّ هذه المجموعة من النسوة كن حشدًا من العقول الخاوية التافهة.. لا يثير شغفهن سوى آخر فضيحة، ويسيل لعابهن للقيل والقال.. إنهن عاطلات بالوراثة، ثريات إلى حد الاختناق، وفكرهن أضحل من فكر دجاجة...
حقًا! أحيانًا كنت أشعر أنني وسط مجموعة من الدجاج، لا يكف عن الصياح والتضارب بالمناقير، وبعثرة الأرز...
أعود لقصتى إذن....
قالت (نرمين) في كبرياء وهي تمسك بالجمجمة:
- «إن السحرة يختلفون.. هذه الجمجمة هي الساحر (تنزاني) فائق القدرات، ومن المؤكد أنها تحقق أمنية واحدة لكل من يطلب منها شيئًا..»
- «هذا ما قيل لـ (نازك) بالحرف!»
ومن جديد دوّت الضحكات الساخرة.. هي ي ي ي ي..
الآن يحمر وجه (نرمين) في عصبية.. تضع الجمجمة على المنضدة المستديرة بينهن.. تأخذ قداحة إحداهن لتشعل بها الشمعتين في المحجرين.. تقول في تحد سافر:

- «دعينا نجرب! وسنرى من يضحك أخيرًا...»
- «رهان؟»
- «رهان...»
- «فلتبدئى أنت يا صغيرة.. اطلبي شيئًا عسيرًا مثل.. مثل...»

وحكت (سوزي) ذقنها المزدوجة بظفرها، ثم قالت في خبث:

- «اطلبي أن يعود زوجك المرحوم للحياة!!»

* * *

- ٢ -

لثوان ساد صمت بليغ، وتلاقت عينا المرأتين في تحد واضح، ثم همست (نرمين) بصوت مبحوح:

- «ليكن.. سأتمنى هذا الآن!»

انتصب شعر ساعدي ذعرًا، وصحت:

- «لا يا (نرمين)! لا مزاح في أمور كهذه.. كله إلا هذا..»

في تحد همست دون أن تنظر لي:

- «تأخرت يا صغيرتي.. أتمنى أن يعود زوجي لي!»

* * *

نصاب يكسب رزقه من الثريات خاويات العقل..

هذا هو ساحرها الإفريقي.. حتمًا هو كذلك.

ولكن.. لو كان هذا صوابًا؛ فلماذا انطفأ النور الكهربي في اللحظة ذاتها؟!

* * *

دوّت بعض صرخات، وشهقت واحدة منهن حينما لم يعد من نور سوى البصيص الأحمر المنبعث من عيني الجمجمة..

ثم عاد النور الكهربي من جديد.. ومعه ساد جو من التوتر.. لقد مات المرح للأبد، وبدا أن الخوف قد انضم لمجلسنا..

همست إحداهن ويداها ترتجفان:

- «أخشى.. أخشى أننا ارتكبنا خطأً جسيمًا..»

في ثقة قالت (سوزي) وهي تنهض:

- «لا تكوني سريعة التأثر يا (ناني).. هل تتصورين أن نجيء غدًا لنجد (قاسم) بك جالسًا في غرفة المعيشة يشاهد التلفزيون؟ لو كان هذا ممكنًا لطرت فرحًا.. سأتمنى وقتها أن يموت زوجي أنا!»

وانفجرت ضاحكة لكنّ أحدًا لم يشاركها المرح..

وببطء بدأت الموجودات ينسحبن.. كل واحدة منهن تقبل (نرمين) وتشكرها على السهرة اللطيفة، ثم تهرع بخطا مرتجفة نحو باب الخروج، كأنما تتنفس الصعداء....

* * *

وكذا وقفت و(نرمين) نتبادل نظرات صامتة تقول الكثير....
قالت وهي ترتجف انفعالًا:
- «هل ستتركينني أنت أيضًا؟»
كدت أفتح فمي، لكنّها احتضنتني في عنف، وهمست والدموع تخنق صوتها:
- «أرجوك لا تذهبي! إنني خائفة.. أموت هلعًا..»
- «لكنّ.....»
- «إن زوجك مسافر لعدة أيام، ولا أطفال لك.. ما المشكلة لو أمضيت معي ساعات الليل هذه؟ سأطلق سراحك في الصباح.. فقط لا تتركيني في ساعات جزعى وتوجسي..»
ماذا أقول؟ لا شيء طبعًا..
وهكذا قبلت أن أمضي الليل مع (نرمين)، والحقيقة هي أنني خفت بدوري أن أعود لبيتي الخالي في هذه الليلة بالذات.. هي لديها خادمتان وطفلان وبرغم هذا خائفة.. ماذا عنى أنا؟

* * *

اتجهت (نرمين) إلى المطبخ، وعادت حاملة صحفة عليها كوبان من الشاي لا يدلان على براعة في التقديم.. ووضعتها أمامي..
- «أين الخادمتان يا (نرمين)؟»
- «في إجازة.. ألم تلحظي هذا طيلة السهرة؟»
- «والطفلان؟»
- «نائمان كالملائكة في غرفتهما.. سنتكلم قليلًا وتحكين لي عن آخر مشاكلك مع زوجك، ثم ندخل لننام في غرفتي.. ولن نتكلم عن السحرة الأفارقة أبدًا إذا كان هذا يروق لك..»
- «ليس أحب لي من هذا..»
وكذا أمضينا ساعة أو أكثر في ثرثرة نسائية سخيفة، ثم نهضت (نرمين) وتمطت وأعلنت أن الوقت قد حان للنوم..

* * *

كان هذا حين بدأ جرس الباب يدق...
تبادلنا نظرة فزعى.. نظرة أنثيين سمعتا جرسًا بعد منتصف الليل.. وهمست في رعب:
- «جرس الباب! هل تنتظرين أحدًا؟»
مطت شفتها السفلى أن لا، وأنصتت السمع..
- «لا بد أنه متشرد قد.....»
من جديد عاد الجرس يدق بإصرار، ضاغطًا على أعصابنا بإلحاح وازداد توترنا..
رأيتها تهرع لتفتح الباب، دون حيطة، فصحت بها:
- «توقفي يا حمقاء! لا بد من أن نعرف القادم أولًا..»

كان هذا سهلًا.. فالبيت يشبه بيتي.. (فيللا) من طابق واحد، لها باب رئيسي مزود بعدسة كاشفة..

أضأت نور المدخل، ونظرت عبر العدسة، فلم أر أحدًا.. كان المدخل خاويًا، فلابد أن من دق الجرس كان يقف جوار الباب الآن حيث لا يُرى بسهولة.. وبالتأكيد لغرض يختلف عن بيع اللبن..

كانت هناك خرق من قماش ملقاة كيفما اتفق أمام المدخل، لكني لم أدر سبب وجودها في تلك اللحظة..

- «من الطارق؟»

سألتني في لهفة، فهززت رأسي:

- «لا أدري.. لكنّ بوسعنا تركه حيث هو.. شيء يحدثني أن فتح الباب حماقة ما بعدها حماقة..»

دوى رنين الجرس ثانية..

ثم جاء صوت الطرقات العنيف المصر.. طرقات من يعرف أن له كل الحق في الدخول هاهنا..

بوم بوم! بوم بوم!..

ثم صوت رجل ينادي:

- «(نرمين)! (نرمين)!»

* * *

نظرت لوجه (نرمين) آملة أن أجد عدم الفهم على وجهها، لكني وجدت وجهها يتبدل ببطء - كما يتحول بطل الفيلم إلى مذءوب في السينما - ليمر بطور من الدهشة، فالرعب، فالحيرة، فالفهم، ثم بدأت ابتسامة ترتسم على ملامحها..

ابتسامة هي أقبح ما رأيت في حياتي...

- «(قاسم)! لقد عاد!»

- «هل تمزحين؟»

- «الصوت صوته.. لقد عاد بحق!»

ومن جديد عاد الطرق والرجل يصيح في نفاد صبر:

- «(نرمين)!»

رباه! وقطع القماش الممزقة أمام الباب!

ورأيتها تهرع إلى الباب، وتعالج المزلاج في هستيريا، وهي لا تكف عن الصياح كأنما جن جنونها:

- «زوجي! لقد عاد! ليس معه المفتاح! الأكفان لا تصلح لتعليق المفاتيح.. هذا طبيعي.. صبرًا يا (قاسم).. سوف.....»

- «هل جننت؟»

وهرعت أمنعها..

لن يدخل هذا الشيء إلى المكان، أكان زوجها أم لم يكن.. يجب أن أمنع هذه المجنونة من... كانت قوية بحق وقد منحتها اللهفة قوة عاتية.. لكني تشبثت بمعصمها فلمّا لم أفلح غرست أسناني بقوّة في لحمه.. صرخت وتراجعت للوراء، بينما الصوت يتوسل:

- «(نرميين)! البرد شديد ها هنا!»

صاحت في تنمر وهي تتحسس موضع العضة:

- «هل جننت أيتها الحمقاء؟»

- «بل أنت من جُن هنا.. كيف تسمحين لشيءٍ كهذا بدخول دارك؟ لو كان زوجك فهي كارثة، ولو لم يكن زوجك فالكارثة أعظم..»

- «لكنه (قاسم).. زوجي!»

- «يا سلام! ألا تجدين ما يخيف في كل هذا؟»

بدت على وجهها رقة بلهاء، وهمست بينما الطرقات تتعالى:

- «(قاسم) رقيق كالحلم، ولن يؤذينا..»

المصيبة هي أنني بدأت أصدق هذا.. كنت واثقة من أن الموتى لا يغادرون قبورهم، لكنّ ما هي قدرات السحر الأسود بالضبط؟ هل يمكن أن.....؟

- «(نرمين).. أرجوك لا تفتحى هذا الباب!»

- «أريني سببًا يمنعني! لقد تحققت أمنيتي الوحيدة!»

- «ولكن.....»

هنا وجهت ركلة لساقي، ثم كورت قبضتها ودفنتها في معدتي، وعندها وجدت نفسي أتلوى على الأرض، بينما هي تعالج المزلاج في صبر...

- «أين وضعت المفتاح؟ لقد أغلقته بالمفتاح.. سوف....»

وهرعت تفتش عن مفتاح الباب، بين كل تلك الأكواخ الخزفية التي يعلقونها جوار الأبواب لتتدلى المفاتيح منها...

لم تكن أمامي فرصة أخرى سوى.....

ها هي ذي الجمجمة.. مازالت تضحك ضحكة الموت الساخرة، وبقايا الشمعتين في المحجرين لن تنته بعد..

هل يمكن أن؟

تقززت من الفكرة، لكننى تقززت أكثر من أن ينفتح الباب لأجد هذا الشيء المقيت أمامي.. لماذا قبلت المبيت ها هنا؟

ودنوت من الجمجمة، وأغمضت عيني، وتمنيت بصوت عالٍ:

- «أتمنى أن يرحل هذا الشيء الآن!»

وانتظرت أن ينطفئ النور، فقد تعلّمت أنّ هذه هي علامة قبول الأمنية، لكنّ شيئًا لم يحدث..

أغمضت عيني وتمنيت بصوت أعلى.

- «أتمنى أن يرحل هذا الشيء الآن!»

وعندها حدث شيء غريب..

* * *



وهرعت أمنعها ..
لن يدخل هذا الشيء إلى المكان ..

انفتح الباب لأجد.. كل النسوة اللائي كن في الأمسية يدخلن للمكان، وكلهن يقهقهن في مرح مجنون، ومعهن بواب الفيللا الذي رأيته عند قدومي في بداية الأمسية..

والأغرب كان التبدل في موقف (نرمين).. لقد استندت بذراعها الأيمن إلى الباب كأنما لا تستطيع الوقوف، وراحت تهتز مرارًا بضحكة مجنونة.. ثم انتصبت مترنحة، وصاحت:

- «هي هي هي! هل رأيتن؟»

ثم أشارت إلى البواب الذي كان يضحك بدوره:

- «هذا هو صوت المرحوم زوجي!»

كنت الغباء مجسدًا، لذا قالت (سوزي) وهي تجفف دموعها ـ دموع الضحك - بمنديل:

- «معذرة يا (ناهد).. لقد راهنتني (نرمين) على أنها قادرة على جعلك تموتين ذعرًا.. قلت لها إنك قوية جريئة، لكنّها أصرت على هذا.. طلبت مساعدتي، وأعدت لك هذه التمثيلية من الجمجمة إلى الطرقات على الباب.. وطبعًا (عباس) هو من أطفأ النور لحظة التمني.. لقد بلغ بك الذعر إلى حد أن تتوسلي إلى هذه الجمجمة الحمقاء!».

نظرت لهن غير مصدقة، وقلت شيئًا على غرار:

- «أنتن.. أنتن.....»

ضربت (نرمين) على كتفي في مرح، وهتفت:

- «لا تنسى أنك مزقت لحم ساعدي.. هيا يا صغيرتي be a sport.. (كوني ذات روح رياضية)!»

انتزعت يدها في عصبية، وهرعت أغادر هذا المنزل المنحوس في الظلام...

مزحة! مزحة قاسية! من أي حجر قوت هذه القلوب؟ إمرأة تقحم ذكرى زوجها الراحل في مزحة كهذه، ونسوة ظللن ينتظرن في الظلام كل هذا الوقت كي يتسلين على حسابي.. وأنا.. أنا الحمقاء التي تم استغلالها عاطفيًا ونفسيًا دون ذنب جنته...

كنت أقود سيارتي، أكاد لا أرى شيئًا من الدموع، وأقول من بين أسناني:

- «حمقـاوات! عشيرة من الدجاج خاوى العقل! غبيات!

«غبيات! غبيات!»

* * *

الباب السابع:
زنزانة خريولسن



الباب السابع

« زنزانة خريولسن »

يفتحه : «د. رفعت إسماعيل»

«لم أعلم وقتها ما يرمي إليه الرجل حقًا، ولم أعلم أنني أول دم أجنبى يدخل هذا الكهف من سبعة أجيال..»

- ١ -

انتهت مدام (ناهد) من قصتها؛ وكان من السهل أن تدرك الأثر الحقيقي لما حدث لها، من رجفتها، والدمع الذي بدأ يحتشد في عينيها ويسيل من أنفها.. إهانة لم تعتدها ولا تجد لها داعيًا..

قلت وأنا أثنى ساقي تحتي:

- «كنت أتوقع هذه النهاية بسهولة.. فعودة الموتى من قبورهم أمر يتعارض مع الدين ومع العلم ما.. والإساءة الحقيقية التي سببتها لك هذه الدعابة هي جعلك تفترضين أنّ هذا ممكن.. لقد اصطدمت في حياتي بكثير من التجارب المماثلة؛ لكنّ هذا المقياس لا يخيب أبدًا.. ربما قابلت مذءوبين، وربما قابلت أشباحًا أو مصاصي دماء، لكنّ الموتى لا يعودون من قبورهم أبدًا..»

- «لم يكن ذهني بهذا الوضوح وقتها..»

هنا سألني المطرب الولهان بصوته المبحوح:

- «هل لديك بدورك قصة عن باب؟»

نظرت حولي.. كان (محمود عوني) نائمًا، وكذا شاعرتنا الثائرة.. وقد ضايقني هذا لأني فقدت اثنين من جمهوري.. لكنّ ما كنت أملك حماسًا زائدًا يجعلني أوقظهما...

قلت بعدما تثاءبت:

- «سأحكي لكم أفضلها.. ولكن لاتقا..آآآ.. طعوني..»

* * *

قلت لهم:

الباب الذي أتحدث عنه لم يكن في مصر..

لم يكن في مكان تعرفونه...

الباب الذي أتحدث عنه لم يكن بابا خشبيًا أو حديديًا؛ بل كان أقرب إلى جدار سميك يُهدم ولا يُفتح...

لكن الناس هناك كانوا يسموّنه بابًا...

* * *

كان هذا في (إنجلترا).. في كهف قرب قرية في (ويلز)...

كان الفلاحون يمرون أمام الكهف، ويتكلمون عن (خريولسن) الحبيس هناك، وعن الساحرة التي أنجبته، والتي أعدمتها محاكم التفتيش ودفنتها ها هنا.. في ما سموه بـ (زنزانة خريولسن)...

قالوا إن الساحرة في لحظة احتراقها قالت:

- «سيحل الشؤم بكم سبعة أجيال.. وسيعود ولدي (خريولسن) حين يفتح الباب له رجل من دم أجنبي..»

كانت هذه هي النبوءة وقد نسيها كثيرون....
لكن ما لم ينسه أحد هو أن المصائب لم تفارق القرية لحظة، طيلة تاريخها المديد...

* * *

وبعد أعوام طويلة جئت إلى الكهف، لأقف أمامة مع د. (هنري ليستر)، وقال لي الرجل كلامًا كثيرًا عن الآثار العتيقة التي وجدها في هذا الكهف، والتي تضيف الكثير إلى معلوماتنا عن تاريخ (ويلز) في القرون الوسطى...
ناولني مطرقة، وطلب مني أن أفتتح هدم هذا الباب الحجري، الذي يفصل ثلث الكهف عن ثلثيه، والذي لم يجرب أحد عبوره.
- «ولماذا أنا؟»
- «لأنك. ضيفنا.. وهذا شرف لنا..»
وانتشيت فخرًا، وبدأت أول ضربات أحاول بها تهشيم هذا الجدار.. ولم أعلم وقتها ما يرمي إليه الرجل حقًّا، ولم أعلم أنني أول دم أجنبى يدخل هذا الكهف من سبعة أجيال.. ولم....

* * *

وهنا توقفت عن سرد قصتي...
لقد سمعنا جميعًا صوتًا غريبًا جمد الدم في عروقنا...

* * *

الخاتمة

«أنا لو أنساكي حافتكر مين؟

.. من بعد هواكي حياتي أنين»

- ١ -

لم أجد الوقت الكافي لاستكمال قصتي عن زنزانة (خريولسن)، والتي أعد القراء بأن أحكيها بالتفصيل يومًا ما؛ لأن صوت جسم ثقيل يسقط ثقب مسامعنا.. وفتح من كان غافيًا عينيه في ذعر، وتساءل:

- «ما هذا؟»

نهضت مدام (ناهد)، ونظرت في حذر إلى الغرف المغلقة، وقالت:

- «الصوت من غرفة المكتب؟ ثمّة شخص هناك!»

وقفنا متصلبين؛ عاجزين عن اتخاذ قرار صائب، وقال المخرج العجوز (أبو النجا) في توتر:

- «فلنر ما هنالك!»

قلت له وأنا أضغط على معصمه في رفق:

- «لا تنس الاتفاق وما نحن فيه الآن.. ربما كانت هذه وسيلة لجعلنا ننسى الحذر، ونندفع بحماقة إلى الحجرة..»

في ضيق غمغم (محمود عوني)، وهو يفرك عينيه:

- «لقد طالت هذه الدعابة على كل حال؛ والساعة الآن الثامنة والنصف صباحًا.. لا بد من نهاية ما.. إن هذا موعد وصولي إلى الجريدة، فأنا طائر مبكر.. ولم أتخل عن هذا ثلاثين عامًا إلا لإجازة قصيرة..»

- «أنا كذلك لديَّ ما أحتاج للعودة إلى داري من أجله.. بالمناسبة أنا سعيد بكونك تعمل بهذا الحماس صباح الجمعة..»

- «ليست هناك عطلة أسبوعية للصحفي..»

- «لهذا أرى أن الوقت قد حان كي نعيد تقييم الموقف، ولربما قررنا أن نفتح أحد هذه الأبواب بعد كل شيء..»

* * *

شطائر وشاي من جديد!

لقد التهمت شطائرًا وشربت شايًا في هذه الليلة كما لن أفعل طيلة حياتي لو عشت؛ والمشكلة هي أن كل هذا الشاي ألهب معدتي، وجعلني أجتاز حالة (اللانوم - لا يقظة) التي أمقتها.. ذهني مبلبل كمن يتهيأ للنوم، لكنه متوتر مشدود كمن في ذروة يقظته.. لا أستطيع البقاء مفتوح العينين لكني - كذلك - لن أنام لو حاولت..

قلت لهم:

- «الموقف الآن بسيط جدًا.. لقد انتظرنا لفترة طويلة، وما زال من الممكن أن ننتظر أكثر، لكنّ هناك خيارًا آخر هو أن نحشد أعصابنا وندخل.. في هذه الحالة على كل منا أن يخمن الباب الصحيح، وعليه أن يقدم أسبابًا مقنعة...»

قالت (هيام) وهي تطرف بعينيها الحمراوين من فرط السهاد:
- «الأمر واضح.. الغرفة الآمنة هي غرفة السينما.. أكثرنا ها هنا فنانون لهم علاقة بفن السينما، ولا بد أنه يخبرنا أن الفن هو خلاصنا مما نحن فيه..»
- «ربما كان العكس!»
قالتها (ناهد) في ثقة؛ وأردفت وهي تنظر لعيوننا:
- «لقد كان زوجي يسخر في سرّه منكم، ويكره افتعال وضحالة بعضكم، ومن الوارد جدًا أن يضع انتقامه في هذه الغرفة بالذات..»
أضفت أنا وقد راق لي كلامها:
- «هذا يبدو معقولًا.. وأضيف أنا أنه لو كان قد قرأ (شكسبير)؛ فمن المنطقي أن يكون الباب الصحيح هو أقل الأبواب جاذبية وبريقًا.. مثلما حدث مع صورة الحسناء (بورشيا) في (تاجر البندقية).. إنني أرشح باب غرفة المكتب..»
نظرت لي (ناهد) غير فاهمة، وتقلص وجهها مستنكرةً:
- «أظن أن باب غرفة الجلوس هو الأدنى للصواب.. ما دام يعتقد أنه شهيد الحياة الزوجية مع امرأة مفترسة مثلي.. يريد أن يقول لي: إن النجاة هي في حياة منزليّة مستقرة..»
قال الأستاذ (محمود عوني) وهو يشعل غليونه، بعد إفطار حافل:
- «أنا أضم صوتي لد. (رفعت) بصدد غرفة المكتب.. فالرجل مثقف عالم؛ ولا بد أنّ هذه الغرفة مقدسة بالنسبة له هذا يضع النقاط على الحروف..»
في اشمئزاز قالت الشاعرة دون أن تنظر لأحدنا:
- «حمقى هم أنتم.. تمشون لنهايتكم في إصرار كدراما إغريقية كتبها (سوفوكليس)..»
- «معروف أننا حمقى.. لكنّ لماذا هذه المرّة؟!»
دست قدميها في حذائيها ووقفت، وقالت دون أن تنظر لنا:
- «رقم سبعة.. الرقم المختار.. ألا يشير لشيء ما؟»
هنا اتسعت عينا (ناهد) في فهم.. وارتجفت شفتاها:
- «رباه! غرفة السينما بها سبعة مقاعد.. أنت محقة يا (نادية).. إنها لم تنس هذا الرقم، لأنّها دخلت تلك الغرفة مرارًا، لترى أفلام الهواة التي كان زوجي يصورها.. لقد سألته يومها ساخرة عن سبب إصراره على سبعة مقاعد لا أكثر في هذه الغرفة.. لماذا لم تكن ستة أو ثمانية مقاعد، فقال لها إن رقم (سبعة) مهم بالنسبة له...»
هنا فرد (سمير الصياد) يديه كأنما يغني، ورفع حاجبية حائرًا:
- «وهذا معناه الدخول أم عدم الدخول؟»
- «ياله من سؤال! الرجل يتفاءل برقم سبعة.. ندخل طبعًا!»
قلت لها مفكرًا:
- «بالعكس.. لو فكرت بطريقة أخرى لأحجمت عن الدخول.. نحن سبعة ونهايتنا في غرفة ذات سبعة مقاعد.. رقم (السبعة) يأخذ طابعًا ملحميًا محببًا للنفس..»
من جديد ابتسمت الشاعرة في ثقة، ونهضت إلى مكتبة أنيقة على الجدار تراصت عليها كتب لم نلحظها طبعًا طيلة الأمسية، وأشارت إلى الكعوب، وقالت:

ـ «ثلاث نسخ من كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) الذي كتبه المغامر الشهير (لورانس) الذي لقبوه بـ (لورانس العرب).. هذه رسالة واضحة جدًا؛ ومشكلتكم هي أنكم سطحيون.. لقد اعتادت عيونكم أن تنزلق انزلاقًا فوق الكتب، بينما تثبت على تفاهات الحياة...»

وأخذت شهيقًا عميقًا وقالت:

ـ «الحل يكمن في غرفة المكتب!»

قال المخرج الكبير في سخرية:

ـ «يا سلام! بهذا الوضوح؟! لم لا يكون قد قصد فيلم (لورانس العرب) الذي أخرجه (ديفيد لين)، والذي قدم (عمر الشريف) للسينما العالمية؟ هنا يكون مفهومًا أنه يشير لغرفة السينما!»

ونهض متأوهًا، فقد تحولت ساقاه إلى لوحي خشب بعد كل ما جلس خاصة مع داء التهاب العظام المفصلي..

قلت بدوري بلهجة الحسم.

ـ «الحق أننا نطيل التفكير أكثر من اللازم.. ربما لم يكن الرجل يقصد شيئًا أصلًا. ربما ليس بهذه الثقافة وخلو البال.. لسنا ـ بعد كل شيء ـ في حلقة من حلقات (هولمز)، ولا نحن بصدد قصة (الحشرة الذهبية) لـ (إدجار آلان بو).. ربما كان الأمر أتفه من هذا.. من أية حجرة سمعنا صوت الارتطام؟»

قالت مدام (ناهد) مشيرة بأناملها نحو باب من الأبواب.

ـ «من غرفة المكتب.. هنا!»

ـ «إذن لنتوكل على الله ونفتحها.. لو ظللنا ها هنا إلى يوم الدين فلن نصل إلى قرار ما..»

* * *

ـ «أنت الأول يا د. (رفعت) ما دمت صاحب الفكرة!»

وتركوني أتقدم إلى الباب، وتراجعوا تحسبًا للأسوأ..

ارتجفت يدي قليلًا.. الحقيقة هي أن الباب اكتسب ثقلًا معنويًا رهيبًا بالنسبة لي، وشعرت كأنني على وشك فتح بوابة (جانب النجوم) ذاتها.. المقبض يدور.. ريقي يجف.. نبضي يتسارع..

صوت صرير خافت.. ثم...

ثم (هيام) تصرخ في هلع..

* * *

- ٢ -

ووثبنا جميعًا للوراء، بينما ركض الفأر الأبيض الصغير بين سيقاننا.. وكانت صرخة (هيام) شبيهة بامرأة ينتزعون عينها بمسمار صدئ..

- «فأر! إي ي ي ي ي ي!»

صحت في هيستريا:

- «صمتًا!»

إن النساء يصرخن دومًا حين يرين فأرًا، لا بسبب الذعر على ما أظن، ولكن لأن العادة تحتم أن يصرخن.. وذعرهن يكون مخيفًا أكثر من الفأر نفسه..

وعدت أنظر عبر فرجة الباب إلى الحجرة..

* * *

كانت مظلمة هادئة أنيقة، نضوع برائحة عطر خفيف رجولي، يمتزج مع رائحة الكتب المحببة امتزاجًا.. مكتب فاخر من طراز (لويس ما....)..

لا بد أنه أحد (اللويسات) الذين يخيّل إليك أنهم لم يفعلوا سوى صناعة الأثاث في فترات حكمهم..

الكتب على رفوف جدارية، أكثرها طبي طبعًا.. لمحت هذا في الضوء الخافت القادم من وراء ستار من القطيفة..

على الأرض أمام المكتب كان كتابان قد سقطا، وانفتحت صفحاتهما، وفي ركن المكان هرع فأر أبيض يتوارى مذعورًا...

قلت لمدام (ناهد) وأنا أدخل باطمئنان أكثر..

- «هذا هو مصدر ما سمعناه.. أحد الفأرين أسقط الكتابين من موضع حرج كانا فيه على حافة المكتب..»

قالت (هيام) في اشمئزاز، وهي تواصل النهنهة:

- «فئران في بيتك.. رباه! كنت أحسبه نظيفًا!»

قلت قبل أن تفترسها (ناهد).

- «فئران بيضاء! هذا يدل على أنه اشتراها خصيصًا ليضعها هنا.. لو كانت الفئران التي تتسلل للبيوت القذرة بيضاء؛ لبدا لي هذا جميلًا..»

- «وما معنى هذا؟»

- «لا شيء سوى العبث.. كان يعابثنا، بالإضافة إلى أن أصوات الفئران في أثناء حركتها ستملؤنا بالتساؤلات حتمًا.. إنها لعبة أعصاب مختارة بعناية..»

واتجهت إلى باب غرفة السينما لأفتحه..

* * *

ولم تكن هناك فئران بالداخل..

فقط سبعة مقاعد، وشاشة بيضاء، وآلة عرض، ومطفأة تبغ هنا أو هناك... ولاحظت أن آلة العرض معبأة بفيلم..

ساد الصمت.. ثم قالت الشاعرة الثائرة:

- «يبدو الأمر موحيًا.. يريد منا نحن السبعة أن نجلس ونشاهد هذا الفيلم، ولا يعلم إلا الله - تعالى - ما يحويه..»

دنا المخرج العجوز من آلة العرض، وعالج زرًا بها، من ثم بدأت الأرقام المميزة تتوالى على الشاشة، ثم بدأت الصورة مع الهدير...

كان هذا هو (جابر) شخصيًا.. على الشاشة.. ومن الواضح أنه قام بتصوير نفسه في غرفة المكتب؛ لأن الإضاءة لم تكن على ما يرام، ومعظمها من الناحية اليسرى حيث النافذة كما في لوحات (رمبرانت)..

- «مرحبًا بوصولكم إلى هنا!»

قالها وهو يبتسم في خبث، فتبادلنا النظرات.. هذه بالفعل رسالة واضحة مباشرة لنا.. قال المطرب:

- «إذن كان الأمر.....»

- «إخرس!»

- «إخرس!»

دوّت ست عبارات (إخرس)، فخرس، ولولا الظلام لقلت إن أذنيه احمرتا خجلًا.. آخر شيء تحتاج إليه هو الاستنتاجات الذكية..

وعلى الشاشة واصل (جابر) الكلام في تؤدة:

- «لا أدري من بقي منكم هنا ليشاهدوا هذا الفيلم، ولا أدري إن كنتم وصلتم إلى هنا بالصدفة أم بتفكير منظم.. لكني أرحب بكم.. في الواقع خطرلى أن تلميحي إلى رقم (سبعة) سيذكركم بالفن السابع: السينما، ويقودكم إلى هنا..

«الآن أعتذر عما سببته من أذى وقلق لكم...

«لو سارت الأمور كما أتخيّل؛ فلا بد أنكم أمضيتم ليلة سوداء تضربون أخماسًا بأسداس، وتتساءلون عن انتقامي.. في الحقيقة هذا هو الانتقام بعينه الذي رتبته لكم..

«أنا لست إرهابيًا ولا خبيرًا في تدريب الكواسر والوحوش.. أنا رجل مثقف مسالم، ولا بد من انتقامي أن يكون مثقفًا مسالمًا كهذا..

«لا باكتريا طاعون.. لا عناكب سامة.. لا ألغام أرضيّة.. ولا حتى إناء من الزيت المغلي يسقط فوق رأس من يفتح الباب..

«فقط الخوف من المجهول.. فقط عدم الاطمئنان...

«هذا هو انتقامي.. أمّا لماذا أنتقم منكم؟ فقد سمعتم شريط التسجيل، وهنا أضيف أن المجتمع يعاني من غثاثة وهشاشة وتفاهة لا تصدق.. وما فعلته هو بمثابة صرخة احتجاج أخيرة تقول: أنت

تافه بحق أيها المجتمع.. جرب مشاعر القلق مرة واحدة على يدي....
«والآن أفارقكم دون ضغائن.. وأعرف أننا لن نلتقي ثانية.. إن محامي يملك كل التفاصيل القانونية يا (ناهد)، ويعرف كيف يستعيد جسدي من الولايات المتحدة ليُدفن في قريتي: وهو سيرتب لك كل تفاصيل الميراث.. فلا تقلقي..»
هنا صاحت (هيام) وقد شعرت بأنه ينهى الكلام:
- «لحظة! أين المخرج من البيت؟»
كأنما سمع صيحتها، ابتسم بخبث على الشاشة وقال:
- «بالمناسبة كدت أنسى أن أخبركم بطريقة الخروج من هنا.. إن الباب الرئيسي مفتوح، وليس مغلقًا بالمفتاح كما توهمتم!
«والآن وداعًا!»

* * *

وخرجنا كأطفال أشقياء، سمحت لهم المعلمة القاسية بالفسحة نضحك في بلاهة.. نرمق السماء غير مصدقين.. نضرب أكفنا مصافحين، وراحت (هيام) تدور حول نفسها وقد فردت ذراعيها، مئات المرّات كأنها (نحلة) مما يلعب بها الصبية.. أمّا الشاعرة فراحت تسعل معبرة عن سرورها..
لقد كنا بلهاء بحق..
هذه إهانة عاتية، جعلت منا الغباء مجسدًا.. ولن ينسى أحدنا أبدًا هذه الصفعة الوهمية على خده، كلما فكر في ذكائه وبراعته..
لكن كل شيء انتهى على ما يرام..

* * *

وبعد أسبوعين توفي د. (جابر) في مستشفى بـ (منيسوتا)..
تفرقنا وتباينت مصائرنا، لكنّ كلًا منا لم ينس قط هذه اللحظة الإنسانية الحميمة التي وحدت بيننا، وشعوره بأن الآخرين لم يكونوا بهذا السوء..
ربما تستطيع أن تحبهم بشيء من الجهد لو أردت...

* * *

كانت هذه حلقة الرعب الرابعة....
ترى هل أخبركم الآن بمحتوى حلقة الرعب الخامسة؟
بالطبع لا.. هل تعرفون لماذا؟
لأن هذه حلقة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ٦٠ ١

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـدمة

وراء الباب المغلق

البـاب الأول: موعد مع الأستاذ

- ١ -

- ٢ -

البـاب الثانـي: مع الحَطَمَة!

- ١ -

- ٢ -

البـاب الثالـث: جريمة شبه كاملة

- ١ -

- ٢ -

البـاب الرابـع: كـلاكـيت!

- ١ -

- ٢ -

البـاب الخـامـس: كلوستروفوبيا

- ١ -

- ٢ -

البـاب السـادس: أمنية واحدة

- ١ -

- ٢ -

البـاب السـابـع: زنزانة خريولسن

- ١ -

الخاتمة

- ١ -

- ٢ -

الفهرس

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

وراء الباب المغلق

ماذا ينتظرنا خلف الباب المغلق ؟ ماذا لو مددنا أيدينا المرتجفة إلى المقبض ؟ ماذا لو سمحنا لفضولنا بأن يرتوي ؟ هل نعود أحياء ؟ هل تبقى بحلوقنا قوة تسمح لنا أن نحكي ما حدث ؟ هل تظل لدينا حلوق أصلاً ..



د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم:

أسطورة فرانكنشتاين

Notes

[←1] لا تنس أن القصة تحدث عام 1971 حيث لم يكن هناك هاتف محمول، ولو كان مع أحد الموجودين لانتهت القصة بعد صفحة واحدة!

حقيقة... لقد حدث هذا بالفعل مع مخرج آخر لن يذكر اسمه طبعًا!

[←2]

[←3]

على سبيل التحذلق: خطيبي لا تنطق إلا مع كسر الخاء وتشديد الطاء!

روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

50

فى جانب النجوم

ما وراء الطبيعة



د. أحمد خالد توفيق

عدد خاص

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقـدمة

هذا هو الكتيب الخمسون..

غريب أن يكتب المرء الكتيب الخمسين، لكنّها الحقيقة..

وإنني لأتذكر أول يوم التقيت فيه بكم، وكتبت أول سطر من قصتي الأولى: «أعتقد أن الوقت قد حان كي أمسك القلم وأكتب عن..».. ومن يومها لم أترك القلم لحظة واحدة حتى اليوم..

يومها بدا لي رقم الخمسين بعيدًا جدًا.. مرهقًا جدًّا.. ضربًا من الخيال العلمي.. حقًّا كنت أومن جديًا أنني سأتوقف عند الكتيب الخمسين لو بلغته.. وقد سبق أن قلت لكم إنني عدلت عن قراري السري هذا الذي لم يعرفه إلا القليل من أصدقائي.. والسبب؟ مازال لدي ما أقوله.. من العسير أن يخرس المرء لأنّه قرر أن يخرس...

هذا هو الكتيب الخمسون..

حكيت لكم تسعًا وأربعين قصة، اختلفت حولها الآراء، فما راق لبعضكم أثار أعصاب البعض، وما كرهه بعضكم هام به البعض، وما بدا للبعض مملًا بدا للبعض مثيرًا يحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة!

لكني - وسط اختلاف الآراء ـ أعترف بأنني لم أحك قصة إلا وأنا أعتقد ساعتها أنها جيدة.. ربما خانني التقدير أو خانتني الموهبة أو خذلني القلم في قصة أو أخرى، لكني كنت دومًا صادقًا وأحببت كل قصة حكيتها قبل أن أحكيها..

ما هي أفضل قصصي؟ لا أعرف.. أفضل قصصى لم أكتبها بعد.. ومازلت أشعر بأنني هاو يجرب ويبحث عن الأسلوب الأفضل.. حاو لم يبتكر أفضل حيله بعد.. لص – لو سمحتم لي بالتعبير ـ لم يضرب ضربة العمر بعد..

لهذا أستمر.. ولهذا أعجز عن التلفظ بكلمات الوداع التي حسبت أن حينها قد حان...

والآن دعونا من هذا الكلام، ولنتحدث عن حلقة اليوم..

هذه حلقة الرعب الخامسة.. تدور في جانب النجوم الذي تأتي منه المسوخ لتزيد الأمور سوءًا في عالمنا..

أنا أراها جيدة مثيرة فهل سترونها كذلك؟

اقرءوا هذا الكلام من أوله لعل فيه الإجابة!

المسافر الذي لا يحبّ الأضواء

كانت ليلة طويلة..

أضواء أضواء أضواء في كل صوب.. وهدير المحرك، وفي المذياع أغنية لأم كلثوم من تلك الأغاني التي تفعمها الكهرباء الاستاتيكية، والنتيجة هي أنك لا تميز حرفًا سوى همهمة طويلة تجعل عينيك تتثاقلان..

كانت أم كلثوم قد كفت عن تقديم حفلها الشهري، وبالتالي صار مدمنوها يفتشون عن صوتها في محطات المذياع، كما يفتش البيض عن ماسة في منجم بجنوب إفريقيا.. وما كنت لأغلق المذياع، فقد خطر إلى أن هذا الصوت هو الشيء الوحيد الذي يبقيني مفتوح العينين..

والحقيقة أنني كنت واهمًا.. لم يعد شيء يستطيع إبقاء عينيَّ مفتوحتين إلا ما بقي لدي من إرادة حديدية.. كنت في مأزق، وأعرف أنني في مأزق.. إنهم ينصحون السائق في مثل ظروفي أن يبحث عن أقرب يمين ليتوقف على جانب الطريق، ويغفو هناك حتى يفيق.. لكنهم واهمون! من قال إن جانب الطريق هنا أقل خطرًا من القيادة النائمة؟ وصوت (الست) يأتي من بعيد: «أغدا ألقاك؟ يا خوف فؤادي من غد..» أعرف أنها تقول هذا لأنني أعرف الأغنية من قبل فقط..

أضواء.. أضواء على الطريق المظلم الممتد إلى ما لا نهاية...

أضواء.. أضواء في مرآة الرؤية الخلفيّة.. وعيناي تدمعان كأي قصير النظر ليلًا..

كنت في حاجة إلى النوم.. لم تستطع كل القهوة التي ملأت بها جوفي في الكافتيريا أن تفعل شيئًا.. كل هذا (الكافيين) حاول أن يبقى جفني لأعلى وفشل..

كنت في حاجة إلى النووووم..

☆ ☆ ☆

أخيرا لم أجد بدًّا.. اتجهت بالسيارة إلى جانب الطريق الترابي، وأوقفتها وشغلت أضواء الانتظار المتقطعة..

نظرت إلى الظلام الدامس بالخارج.. ظلام أولي بكر لا يمكن أن تتبين معه يدك.. غمرت القشعريرة ظهري، وأغلقت الزجاج ما عدا فرجة للتنفس، وأغلقت زر التأمين..

وأرحت رأسي على عجلة القيادة وفي نعاس عميق غبت..

كم من الوقت نمت؟ لا أدري.. لكني فتحت عيني لسبب لا أعرفه.. ذلك الحافز الخفي الذي يوقظنا حين ينظر شخص بإمعان لوجوهنا ونحن نيام.. وهذا معناه الأوحد أن لنا أكثر من عينين.. ثمّة عين لا نراها يختص بها وعينا..

(بالمناسبة ليس ما سيأتي بعد هذا حلمًا.. أعرف أن القراء يحبون البحث عن لحظات النوم في بدايات القصص، والتي ستفسر القصة كلها على أنها حلم فيما بعد)..

كان هناك من ينظر لي عبر زجاج النافذة المجاور لي، وكان يقرع الزجاج في رفق..

كان رجلًا.. هذا ما استطعت إدراكه.. وكان أشيب الشعر له سمت حزين كئيب..

برغم حذرى البالغ وإيماني أن ما يحدث لي يختلف دائمًا عما يحدث للآخرين، فتحت زجاج النافذة ببطء ليدخل البرد والصوت، وسمعته يقول لي بنفس الصوت الحزين الكئيب:

- «هل لديك مشكلة ما؟»

هززت رأسي أن لا..

- «هل تأخذني معك إلى (...)؟»

لم أستطع أن أقول لا.. يُمكنك ببساطة أن تتجاهل من يحاول الركوب عن طريق (الأوتوستوب)، لكن من المستحيل أن تتجاهل من يطلبها منك والعين في العين.. والرجل على كل حال واهن مسن لا يوحي بأنه من (أهل ذلك)..

سألته دون أن أفتح الباب:

- «من أين جئت؟»

- «من (...).. لقد تعطلت سيارتي ولا بد من أن أجد ميكانيكيًا في البلدة المجاورة..»

لا بأس.. بالإضافة لكون هذه مهمّة إنسانية، أرى أنه سيكون عسيرًا على أن أنام في صحبة هذا..

مددت يدي، وفتحت له الباب الأيمن.. ثم أدرت المحرك بينما تربع هو على المقعد جواري وهو يلهث.. قال شيئًا عن جمال الدفء.. أضأت المصباح الداخلي الواهن، لكنه هتف بي أن أطفئه.. هو لا يحبّ الأضواء ولا يطيقها..

لم يكن مخيفًا.. وقالت لي حاستي السادسة الشهيرة إنّه لا غبار عليه.. كأنها جهاز كشاف من الذي يوضع على مداخل الفنادق والمطارات.. دعه يمرّ.. ليس معه أسلحة.. ليس مذءوبًا ولا مصاص دماء.. وبالتأكيد لم يمت منذ عامين..

راحت السيارة تتحرك في الظلام، وقد طار النعاس من عيني بمعجزة ما..

ونظرت لساعتي.. الثانية عشرة.. منتصف الليل.. لماذا فقدت صوابي ولم أنتظر حتى الصباح عند ذلك الصديق؟ لكني كنت في أمس الحاجة إلى الذهاب إلى مدينة (...).. لأن أعمالًا تنتظرني هناك في الصباح الباكر.. صباح باكر؟ مستحيل أن أجد في نفسي من القوة غدًا إلا ما يسمح لي بالنوم حتى الظهر..

ومن جديد كانت (الست) تترنم:

- «آه! كم أخشاه!»

مما قال لي إنني لم أنم أكثر من دقائق ما دامت الأغنية لم تنته بعد..

وجواري كان الرجل الذي يمقت الأضواء صامتًا كالقبر.. لكنه كان يتأملني باهتمام وتركيز.. شعرت بهذا من طرف عيني ولم أرتح له كثيرًا، لكني تجاهلته.. الجحيم هو نظرات الآخرين كما قال سارتر)، ونظرات الرجل جعلتني بحق شديد العصبية..

في النهاية قلت له دون أن أحول نظري:

- «هل ثمّة شيء ما؟ هل تتساءل إن كنت أشبه شخصًا تعرفه؟»

ونظرت له، لكنه كان ينظر خارج السيارة.. أنا أكره هذه الطريقة.. أكره هذا الإيحاء المخيف.. أنا متأكد من أن الرجل كان ينظر لي فمتى أدار رأسه؟ لكني قلت لنفسي إنِّه في الضوء الخافت يتساوى وضع الثلاثة أرباع الأمامي مع الخلفي.. أي أن ظلاله ستأخذ نفس المظهر سواء كان ينظر لي أم خارج النافذة.. وسمعته يتسال:

- «ماذا؟ هل قلت شيئًا»

- «لا شيء.. انس الأمر..»

وواصلت القيادة والطريق يتلوى أمامي مظلمًا كئيبًا غريبًا كالرجل الذي بجانبي بالضبط..

كان كل شيء جميلًا وكانت الحياة رائعة.. لم أدرك هذا إلا حين شقّ أول لسان من البرق السماء.. شرخ عملاق في القبة السماويّة يتسلل لأسفل ويغرس مخالبه في الأرض.. ثم دوى الرعد لأنّهم علموه في حصص الفيزياء بالمدرسة ألا يسبق البرق أبدًا..

حجب الرجل عينيه وقال في ضيق:

- «هذا برق..»

لم أصارحه بانبهاري بعبقريته الفذة في فهم الظواهر الكونية، وواصلت القيادة.. الجو متوتر يثير القلق.. كل هذه الشحنات الاستاتيكية لم تذهب سدى.. بل أشعر بها في كل خلاياي.. في كل

شعرة من رأسي..

إن السيارة حصن آمن لكنه هش.. حصن يمكن أن ينقلب أو يتعطل أو تتلف عجلاته، فلا تملك إلا الدعاء أن يظل متماسكًا حتى ينتهي هذا كله..

وهنا قال الرجال أغرب شيء سمعته اليوم:

- «سأنزل هنا!»

☆ ☆ ☆

هنا؟ ماذا هنا؟

ونظرت خارج السيارة.. لا أرى إلا واديًا مترامي الأطراف.. الظلام في كل صوب.. بعض أعمدة الهاتف أو الكهرباء تتناثر هنا أو هناك كأشباح عملاقة، ومن حين الآخر يلمع لسان آخر من البرق..

سألته في حيرة:

- «هل أنت متأكد مما تقول؟ لا يوجد شيء هنا..»

- «سأنزل هنا..»

- «ألم تتعلم شيئًا في المدرسة؟ حين تحدث عاصفة رعدية وأنت في السيارة لا تتركها.. لأن العجلات تعزل جسم السيارة المعدني عن الأرض.. ولو أنك نزلت من هنا لأديت عملًا رائعًا كمانع صواعق، يجتذب البرق من كل صوب؟»

- «سأنزل هنا..»

- «هل أغضبتك في شيء؟ أنا لم أقل سوى..»

- «سأنزل هنا من فضلك..»

هنا فقط قررت أنّ هذا من حقه تمامًا.. هذه هي قواعد الحرية.. افعل ماتريد دون أن تتدخل في حرية الآخرين.. إنّه رشيد عاقل ويمكنه اتخاذ قراراته بنفسه..

- «إذن افتح الباب وأغلقه وراءك لو سمحت..»

لم يقل شيئًا ولم يوجه لي عبارة شكر واحدة.. فقط فتح الباب وترجل..

ومن جديد عدت أنظر للأفق الذي صار الآن بركة من المياه، وقد توقف البرق والرعد، وساد الظلام الدامس...

ثم رأيت الضوء..

هناك بيت.. كيف لم ألحظ هذا من قبل؟ المسافات تخدع في الظلام لكني أعتقد أنه على بعد خمسين مترًا.. هل كان هناك طيلة الوقت؟ هل كان هناك حين رحل المسافر الغريب الذي لا يطيق الأضواء؟

بيت صغير كما يبدو لي.. يصلح كي يكون مخزنًا للغلال.. لكنه هناك بين أعمدة الهاتف والكهرباء المترامية.. ليس حوله شيء.. لا سيارات أمامه.. لكن الضوء معناه الحياة.. هناك أناس.. أناس ساهرون..

تقولون لي ألا أذهب؟ ماذا حدث لـ (حسن) حين اتجه إلى أول بيت مضاء وجده وسط الحقول؟ لم يعرف الأحمق أنّ هذا بيت الذئب، وارتكب أحمق الأفعال حين تعشى بطعام الذئب ونام في فراشه.. والآن عاد الذئب ليجد هذا الغريب نائمًا حيث لا يجب أن ينام...

أنتم تمزحون.. ليست هذه قصة أطفال، ولا يجب أن يحدث لي شيء مفزع لمجرد أنني في الموضوع.. ثم إنكم لم تجربوا ما أنا فيه.. الملل والبرد والجوع وتصلب الأطراف..

أغلقت السيارة بإحكام واتجهت نحو البيت، وقدرت أنني سأستطيع فيه المبيت أو أطلب العون.. ربما هناك هاتف، وربما هناك طعام..

☆ ☆ ☆

خطوات بعد خطوات في الظلام.. أنا أرى النور لكنني لا أرى ما تحت قدمي.. وتحت قدمي أوحال وماء، ولكني حين رأيت الوادي في ضوء البرق منذ ساعات لم أر حفرًا.. هذا طمأنني قليلًا..

تعثرت.. سقطت في الوحل.. نهضت.. تعثرت..

مشيت..

وأخيرا وصلت إلى البيت..

كان بيتًا صغيرًا بالفعل من طابق واحد، وثمّة ثلاث درجات تقود إلى باب بلا أية علامة تدلّ على ما خلفه.. هناك نافذة جانبية هي التي رأيت منها الضوء، لكن لا يمكن اختلاس النظر منها لأنهّا فوق مستوى النظر..

قرعت الباب بكياسة ثلاث مرات ثم بعنف ثلاثًا.. لا أحد يرد.. ثم فطنت إلى أنه موارب، وإلى أنه ينفتح ببطء مع قرعاتي.. كنت دائمًا أكره المجانين الذين يجدون الباب مفتوحًا ويدخلون، لكن - كما قلت لكم - لم أكن أعرف أنّ هذه قصة رعب..

وهكذا واريت الباب وزججت برأسي في فتحته بحذر.. وناديت أكثر من مرة..

لا أحد.. لا شيء إلا مكتبة صغيرة معلقة على جدار رطب متشقق، والغرفة مضاءة بذلك الضوء الغريب الذي جذب اهتمامي.. يبدولي أنه ما من شيء إلا غرفة واحدة هي التي أقف فيها، وثمّة مدخل صغير جانبي.. مشيت إليه وأطالت برأسي في حذر فلم أر إلا دورة مياه نظيفة جافة... وقد سرني هذا لأن... أنتم تفهمون ما هذا؟

كانت هناك مرآة فوق حوض الغسيل... مرآة تساقط الكثير من طلائها المفضض، لكنّها سمحت الى برؤية وجهي المنهمك الذي جعله السهر والنوم المتقطع يزداد قبحًا.. وهنا..

ما هذا؟

هل مر أحد في المرآة من خلف ظهرى؟ في الغرفة المضاءة التي كنت فيها؟

هذا وارد.. أنا لم أوصد الباب خلفي..

عدت مسرعًا إلى الغرفة فلم أجد أي واحد هنالك.. هذا هذيان لا شك فيه.. أنا أعرف السهر الطويل، وأعرف كيف تبدأ القطط في الكلام، والستائر في الحركة التلقائية.. هذه أشياء تحدث..

الآن فلنر المكتبة..

لست من الأشخاص الذين يقاومون أن يروا مكتبة ولا يعابثوا كتبها قليلًا..

لكني - حين جررت الكتاب الأول - شعرت بألم في إبهامي... هذا دبوس... دبوس صدئ يبرز من الجلد كأنه كمين.. وقد نزف إصبعي بعض قطرات، فأخرجت المنديل ولففته به.. تبًا! ما هي أخبار الكزاز (التيتانوس) هنا؟ أنا لا أعرف تاريخ هذا المسمار بالضبط ولا شك أنني سأعرف...

الآن لنر هذه الكتب..

لا لم تكن كتب سحر مصفرة متساقطة الأوراق والحواف.. بل كانت مجرد أعداد تم تجليدها من مجلة فنية كانت رائجة في الخمسينات.. حين كانت النساء كلهن نسخة من (فاتن حمامة) أيام كانوا يسندون لها دورًا واحدًا: البنت المظلومة.. وحين كان (عماد حمدي) هو النموذج الأوحد لفارس الأحلام...

لا بأس.. لقد وجدت المأوى حتى الصباح، ووجدت التسلية.. دعك من الحمام طبعًا، لأن هناك آنسات يقرأن هذا الكلام.. ولكن أين أنام؟ على الأرض طبعًا..

وهكذا غرقت في القراءة.. وهكذا غرقت في النعاس..

نمت..

☆ ☆ ☆

ماذا حدث لـ (حسن) حين اتجه إلى أول بيت مضاء وجده وسط الحقول؟ ولم يعرف الأحمق أنّ هذا بيت الذئب، وارتكب أحمق الأفعال حين تعشى بطعام الذئب ونام في فراشه.. والآن عاد الذئب ليجد هذا الغريب نائمًا حيث لا يجب أن ينام...

☆ ☆ ☆

كان اللون الأزرق الغريب في كل صوب.. لون أزرق لا ينتمي لأية درجة أزرق تعرفها، وفيما بعد عرفت أنّ هذا لون (الإكليديس).. لن أستبق الأحداث ولكني سأصفه بالـ (إكليديس) من الآن فصاعدًا..

كنت راقدًا على منضدة طويلة.. أدركت هذا حين شعرت بصلابة الخشب وقسوته على عظامي..

وكان أناس من حولي.. ليسوا مجموعة من الممرضات ولا الأطباء ولا حتى جامعي القمامة.. كانوا يرتدون عباءات فضفاضة تغطي الوجوه.. تعرفون بالطبع التأثير المخيف للعباءة التي تغطي الرأس، وتجعل الوجه في الظلال بقعة من اللون الأسود الذي يستحيل أن تتبين فيه أية ملامح..

قلت لهم وأنا أتأوه:

- «أين أنا؟»

لم يفتح أحدهم فمه لكني سمعت كلامهم، وكان بعربية واضحة تتردد في ذهني كالأفكار:

- «لا تسأل أسئلة أيها الغريب..»

- «من أنتم؟»

- «لا تسأل أسئلة أيها الغريب..»

- «لماذا لا أسأل أسئلة؟»

- «لا تسأل أسئلة أيها الغريب..»

ومن البداية كنت أعرف الحقيقة.. هؤلاء ليسوا بشرًا.. الأمر يفوق علمي، وحدود العالم المادي.. أردت أم لم أرد أنا في عالم من العوالم التي أدمن دخولها، وأجهل كل شيء عن الخروج منها...

وقال أحدهم ـ أعني فكر - وهو يفتح أزرار قميصي:

- «ليس مستعدًا بعد أيها الأخ (أبراكساس)..»

فكر الآخر:

ـ «أنت تقول أيها الأخ (بلفيجور)..»

- «ما دام قد جاء فهو يصلح لنا ونحن نصلح له.. مادام قد جاء فقد انتخبته الأقدار..»

ونظرت إلى يد الرجل الأول فأثار هلعي أنه ليست في أطراف أنامله أظفار.. بل مخالب سوداء قاسية.. أما ما كان يحمله بالضبط فلم أتبين كنهه، لكنه بدا لي كقلب نابض ملوث بالدماء! من أين جاء به؟ من صدري؟

لا داعي للخرف.. لاشيء كهذا يحدث وإلا ما كنت لأرى أنامله هذه.. لكني ـ برغم هذا كله ـ لم أجسر على النظر إلى صدري.. ماذا يحدث لو نظرت ووجدت فتحة حمراء تنز منها الدماء؟ بالتأكيد سيتوقف قلبي في يده هلعًا!

ثم شعرت بالرجل يعيد شيئًا لي وأغلق أزرار القميص التي فتحها، ثم فكر:

- «أرى أن ينتظر في الإكليديس، ولسوف يتقرر مصيره..»

صحت بصوت عالٍ:

ـ «من أنتم وأين أنا؟»

عاد يفكر في ذهني:

- «لا تسأل أسئلة أيها الغريب..»

- «لماذا؟»

- «لأنك في جانب النجوم... والفانون في جانب النجوم لا يسألون.. إنهم ينتظرون إرادتنا فحسب..»

جانب النجوم؟ هذا يعني؟

الأسطورة الرومانية القديمة عن العالم الموازي الذي يسكنه الشياطين والأشباح ومصاصي الدماء، والذي تربطه عدة ثغرات بالأرض.. من حين لآخر ينجح أحد هؤلاء في عبور الثغرة ويدخل عالمنا.. عندها يعم الهول، وتغمر الدماء الأرض المعشبة.. بعدها يعود، ويحسب البشر فقط أنهم قتلوه..

(رومانيا) هي أكثر بلدان الأرض ثراء بهذه الفتحات.. ليس أقل من سبع فتحات موجودة بها كما تقول الأسطورة.. بينما في مصر فتحة واحدة على الأقل..

كانت لي ـ تذكرون - قصتان دنوت فيهما من جانب النجوم أكثر من اللازم.. مرة كدت أشهد قدوم (فلاد الوالاشي) إلى عالمنا، ووقفت خلف الباب أصغي لصرخات صديقي الروماني (جوستاف) وهو يرى جانب النجوم لأول مرة.. ولم أستطع بعدها أن أفهم منه ما رآه حقًّا..

المرة الثانية كانت حين واجهت بعض الضيوف القادمين من هذا العالم، وكانوا مسئولين عن الاستحواذ علي الصغير (رامي).. فلم ينقذه وينقذني إلا حب أمّه وتمسكها به..

في كلّ مرّة كنت أدرك أنّ هناك لغزًا مخيفًا يحيط بجانب النجوم هذا.. هذا عالم لا يزوره المرء للسياحة.. لا يتمنى أن يراه ولا يتمنى أن يرى أحدًا منه.. فما الذي وضعني في جانب النجوم بهذه البساطة؟

☆ ☆ ☆

قال الأخ (بلفيجور) الذي صرت أعرفه لأن الصوت يأتي من جهته.. وإن كان ليس صوتًا.. لنقل إنّه انطباع عام يقول إنّه هو صاحب الفكرة التي تتردد في ذهني:

- «خذوه إلى الإكليديس..»

هذا كابوس.. بالتأكيد كابوس.. لأن الرجال الذين دخلوا ليصحبوني لم تكن على أكتافهم رءوس.. كانوا يرتدون ثيابًا تذكرك بثياب جنود العصور الوسطى، لكن لا خوذات لأنّه لا رءوس.. وكان انطباع أنني أخرف هو ما أبقى عقلي سالمًا.. هذا كابوس جميل سأتذكره فيما بعد وأضحك كثيرًا جدًّا.. لكم سأسر حين أصحو في فراشي الدافئ، لأدرك أن أمامي أربع ساعات أخرى من النوم قبل موعد العمل..

الرجال يأخذونني في مزيج من الجر والدفع إلى هذا الإكليديس الذي لا أدري ما هو...

نسيت أن أخبرك عن المكان.. لا مكان! هذا حق لا مزاح فيه.. أنت تمشي على الأرض وتتحسس أشياء لكنك لا ترى شيئًا.. فقط الكثير من الضوء الأزرق الغامض، والذي يطفو فيه من حولك طفوًا.. ثمّة حيلة تلفزيونية قديمة اسمها (الكروما) يقومون فيها بتصوير الممثلين في عالم أزرق بالكامل، ويتم مزج أية خلفيّة على الصورة الملتقطة.. هكذا يحلق الممثلون في السماء أو يمشون في قاع المحيط.. أنا كنت أمشي في عالم من (الكروما) البكر بلا خلفيات من أي نوع..

إذن لم يكن الطريق إلى الإكليديس طريقًا بالمعنى المفهوم، ولم يكن الإكليديس مكانًا لو كنت تفهم هذا..

كان مساحة لانهاية لها من اللون الأزرق الذي سأسميه هو الآخر (إكليديس) كما اتفقنا..

وأخيرا وقفت أنظر حولي في غباء..

ألن ينتهي هذا الكابوس؟؟ لقد حان الوقت.. الكابوس الحقيقي هو ألا تصحو من الكابوس...

وهنا أدركت أنّ هناك مجموعة من الناس من حولي.. أناس طبيعيون لوكان لي أن أقول هذا.. فتاتان.. امرأة في منتصف العمر.. شابان أحدهما أقرب إلى سن المراهقة.. شيخ..

كانوا مثلي يقفون وسط اللون الأزرق الذي لا نهاية له، وكانوا ينظرون لي في دهشة.. ربما في توجس.. أدركت أنهم أجانب.. كلهم لا يحملون ملامح عربية.. ثيابهم تتباين بين القدم والجدّة.. بين الغرابة والتقليدية.. بين القذارة والنظافة..

هذه المرّة سألتهم بالإنجليزية وأنا أرتجف:

- «أين أنا؟»

قال العجوز بإنجليزية لا بد أنها تحمل صبغة ولكنة ألمانية:

- «أنت في جانب النجوم..»

- «قيل لي هذا مرارًا اليوم.. لكني لا أجد الإجابة شافية أبدًا..»

قال وهو يجلس في الفراغ الأزرق:

- «أنت من التعساء الذين عبروا الثغرة بالعكس.. هذه ثغرات خلقت كي تعبر منها المسوخ إلى العالم الأرضي، ولم تخلق كي يعبرها الأرضيون إلى عالم المسوخ!»

صحت في غيظ وأنا أوشك على الإصابة بالفالج:

- «ما هذا الهراء؟ أنا لم أفعل أي شيء.. كان هناك ذلك البيت على الطريق وعاصفة الرعد.. والمكتبة.. ثم نمت وبعدها...»

ابتسم الرجل في مرارة وتبادل النظر مع الآخرين، ثم قال:

- «أنت اخترت مدخلًا لتنام فيه في ليلة عاصفة؟ ولعلك نزفت بعض قطرات الدم هناك! هل فعلت هذا عامدًا؟ إنها طريقة لا تخيب لعبور الثغرة!»

كأنني كنت أعرف أنّ هذه ثغرة.. وكأنني أهوى النوم في الثغرات التي يمرّ منها الشياطين، على سبيل التسلية بدلًا من لعب الشطرنج.. عدت أسأل في غيظ:

- «ليكن.. وهل أنتم جميعًا أرضيون؟»

- «جميعنا.. وكلنا ارتكب خطأً مشابهًا في وقت أو آخر..»

- «منذ متى أنتم هنا؟»

قالت إحدى الفتاتين بإنجليزية أمريكية لا شك فيها:

- «أنا هنا منذ أشهر حسب تقاويم الأرض!!»

وقالت الأخرى بلكنة فرنسية من التي تحيل الراء غينًا:

- «وأنا هنا منذ قرنين حسب تقاويم الأرض!»

هل هو سيرك؟ أنا رأيت وعشت أغرب الأمور في حياتي، لكني ما زلت بحاجة إلى الكثير من الصودا كي أهضم كل هذا الذي أسمعه.. ثمّة شيء واحد أنا واثق منه جيدًا: هذا ليس كابوسًا وإن بدا كذلك.. الكابوس لا يطول إلى هذا الحد.. ولا يأخذ هذا الإيقاع الرتيب المميز للواقع..

عدت أسألهم:

- «ولماذا يضعوننا هنا؟»

قال أحد الشابين بإنجليزية لابد أنها بريطانية:

- «لاندرى.. بعضنا انتهت مهمته وبعضنا لم يبدأ بعد مثلك.. معنى هذا أن الوقت قد جاء..»

آه ه ه ه ه ه ه ه! هذا هو بيت القصيد..

- «جاء الوقت لأي شيء بالضبط؟»

- «لا ندري.. لكن إحراقنا أو التهامنا أو تمزيقنا أمور واردة جدًا.. لا أحد يغادر الحياة حيًّا..»

- «وهل تأكلون أو تشربون هنا؟»

- «لا أحد يأكل أو يشرب في جانب النجوم.. الحقيقة هي أن جسدك الموجود هنا ليس جسدك بالضبط.. إنّه انعكاسه.. إن الأمر شبيه بالموت، لكنك لم تمت بعد وليتك فعلت!»

جلست على الأرض التي لا أراها، وسألت:

- «لا يبدو عليكم الخوف..»

- «كنا خائفين.. لكن أن تخاف كل ثانية في كل ساعة في كل يوم في كل عام في كل قرن من حياتك.. هذا أمر يفوق احتمال الفانين.. سرعان ماتتعلم أن تكف عن الذعر والأمل..»

وقال العجوز:

- «كلٌ منا قارف عملًا شنيعًا.. ولعل هذا هو عقابنا..»

- «لكن هذه ليست جهنم يا والدي.. الخطاة يذهبون إلى جهنم لا إلى جانب نجومكم هذا..»

- «ربما لم نعاقب بجانب النجوم بسبب خطايانا.. لكن خطايانا قادتنا إلى جانب النجوم..»

وفي سرّي قلت لنفسي إن هذه القاعدة خاطئة.. أنا لم أفعل شيئًا - أو هكذا أعتقد - وبرغم هذا جئت هنا..

- «مازلت لا أفهم.. هلا أوضحت كلامك قليلًا؟»

قال بصوت هادئ وهو ينظر إلى سقف لانراه:

- «ستفهم حالًا حين يأتي السادة..»

☆ ☆ ☆

وبدأ السادة الذين تحدث عنهم يأتون من مكان ما..

لم أتصور ما أراه، ولا يستطيع أي خيال أن يرسم صورة هؤلاء القادمين.. ربما رأيت أشياء مماثلة في أفلام المسوخ، لكن هذا يقرب لك الصورة ولا يفي بها..

أغرب مجموعة من العمالقة يمكن أن تتخيلها.. ليسوا عمالقة من طراز (كينج كونج)، لكن ارتفاع أغلبهم حوالي أربعة أمتار.. وهي ضخامة مفزعة لأنهّا ممكنة.. والوجوه تتباين بين من لا وجه له على الإطلاق، ومن لا رأس له على الإطلاق، ومن يشبه وجهه أخطبوطا كاملًا بأرجله الثمانية، ومن له عين واحدة تنزف الدم بلا انقطاع..

بعضهم كان لرأسه جزء خلفي طويل يتدلى على الأرض كذيل التمساح، وبعضهم كانت أوردته تزحف كالأفاعي حوله باحثة عن قنص ما.. وبعضهم كان له ست أذرع، وبعضهم كان بذراع واحدة في منتصف صدره.. وبعضهم كان له مكان الصدر رأس أسد يزأر بلا انقطاع.. أحدهم كان لطيف المنظر رقيقًا، لهذا كان جذعه كله عبارة عن رءوس متلاحمة تتلوى ألمًا..

لكنهم جميعًا كانوا يلبسون ما يذكرك بإقطاعيي القرون الوسطى، وكانوا مدججين بالسلاح - لا أدري ما قيمة السلاح مع غيلان كهذه. وكانوا جميعًا يمشون على قدمين مثلنا..

الخلاصة.. أنت لن تتخيل المشهد.. وأنا كذلك لم أتخيله، وقد فتحت عيني على اتساعهما لكني لم أستطع أن أستوعب كل هذا الهول.. لهذا ببساطة قلت لنفسي: إنّه كابوس وكل شيء ممكن في الكوابيس.. لكنّها كانت أفظع مجموعة من العاهات يمكن أن تراها في حياتك، وقد كدت أختنق من رائحة الكبريت والعطن المنتشرة في كل صوب..

ورفع أحدهم رأسه للسقف وعوى، فارتجت قلوبنا في الصدور...

ورأيت هؤلاء القوم يجلسون إلى مائدة طويلة تشبه حرف U اللاتيني - لا أدري متى وكيف ظهرت - بحيث وجدنا أنفسنا في الجزء المفتوح من الحرف.. الأمر يشبه المحاكمة فعلًا.. لا جدال في هذا..

وفي سقف القاعة التي ليست قاعة راحت كائنات مجنحة ضخمة تحلّق كأنما تمنحنا السلام! كائنات لا أجد وصفًا لها إلا (الهاربي) في الأساطير الإغريقية: الطيور التي لها رءوس بشر..

ودوى صوت ذهني خشن من مكان ما يقول:

- «أيها الفانون.. احتشدوا تحية لسادة جانب النجوم..»

واقفين في المنتصف.. ضئيلين جدًّا.. هشين جدًا.. خائفين جدًّا.. رحنا نستمع إلى الأسماء التي تجمد الدماء في العروق..

- «(سيجفريد الأميدي).. حارق الأراضي ومجفف الأنهار..»

زام الأخ (سيجفريد) وراح دخان أسود كثيف يتصاعد منه، الأمر الذي جعلني أخمن أنّ هذه علامة على الرضا عندهم.. أو ربما الخجل، كما تحمر أذناك حين يطريك أحدهم أكثر من اللازم..

- «(يوليان المغتصب).. هادم القصور وذابح الأسرى والأطفال..»

ومن جديد زار الأسد الذي يخرج من صدر الرجل، وراحت العيون الجاحظة المتناثرة على ثيابه ترمش بلا انقطاع.. أمّا هو فكان بلا رأس لهذا لم أر ملامح وجهه.. أنتم تفهمون هذه الأمور طبعًا..

- «(نيفار الأشوري).. الذي تتشاءم من اسمه أشباح الليل، وتنفتح المقابر..»

يالها من ألقاب.. واضح أن كلًا من هؤلاء تعب كثيرًا جدًا حتى استحق لقبه هذا، وهو فخور به كما تفخر أنت بلقب الطالب المثالي الذي نلته في أيام الدراسة بالكلية..

كان (نيفار) هذا هو الأخ الذي يحمل في مؤخرة رأسه ذيل تمساح هائل.. وقد راح الذيل يضرب يمينًا ويسارًا، بينما الرجل يعوي كالذئاب بلا انقطاع..

هذه هي النهاية! لقد انتهى أمري.. لو كان هذا حقيقة ماديّة فأنا قد انتهيت، ولو كانت هلوسة فأنا لن أسترد عقلي ثانية... لا توجد عقارات ولاصدمات كهربية تقدر على إعادة عقل كهذا إلى حالته الطبيعية.. لابد أن كل هذا وهم، وأنا الآن في مستشفى الأمراض العقليّة والكسرولة على رأسي، والممرضون يحيطون بي، بينما أنا لا أكف عن العواء مثل الأخ (نيفار الأشوري) هذا..

لكن جزءًا من عقلي ظل يقول إنني لم أجن..

يقول إن هذا حقيقي.. وإنني ما زلت محتفظًا بقدرتي على الملاحظة والاستنتاج... لقد لاحظت لحية (نيفار) العملاقة المجدولة وفهمت من هذا السبب الذي جعلهم يلقبونه بالأشوري.. لاحظت الألقاب التي يستعملونها وفهمت أنها شبيهة بألقاب فرسان القرون الوسطى..

- «(فلاد الوالاشي).. هو الذي يمشي في الظلام.. والنائم الأبدي في تابوت..»

هنا اقشعر جلدي.. حتى أنت هنا؟ إنها لمناسبة باسمة إذن..

كان أقل فظاظة من الآخرين إلى حدٍ ما.. على الأقل كان له مظهر آدمي نوعًا... لكن عينيه كانتا جمرتين حمراوين تلمعان في وجه لم تبق منه رقعة جلد بلا شعر أسود كثيف.. ذكرني شكله بالمذؤوبين كما كنا نراهم في أفلام الخمسينات المخيفة.. وعامّة لم يكن يشبة الكونت (دراكيولا) الذي عرفه العالم من خلال السينما، ولا يشبه صورة (فلاد) البشري الباقية في قلعته بـ (ترانسلفانيا).. لكني أعرف الآن أنّ هذا هو (دراكيولا) الحقيقي، الذي كان دومًا ينجح في العبور إلى عالمنا متخذًا شكلًا شبه آدمي..

ثمة سؤال هنا.. سؤال مهم جدًا..

☆ ☆ ☆

«سيبحث (فلاد الوالاشي) عن ثغرة ما يعبر من خلالها.. ولسوف ينجح حتمًا.. ويومها ستكون أنت أول رأس يقطعه.. فهو يعلم الآن أنك من أغلق بوابته!»

د. (لوسيفر) في (أسطورة دماء دراكيولا) صفحة 137

☆ ☆ ☆

أنذرني (لوسيفر) بهذا يومًا أنا لكني لم أهتم كثيرًا.. بدا لي هذا بعيدًا جدًا وسخيفًا جدًا بمنطق (يا مين يعيش؟).. لكني الآن أرى (فلاد) شخصيًا أمامي، فهل يعرف من أنا؟ هل يذكرني؟

حتى لو كان اسمي لم يذكر، فمن الوارد أنّ هذا العالم لا ينتظر البطاقات الشخصية كي يعرف من أنت.. ربما هو يقرأ أفكاري الآن فهل عرفني؟ ولو كان عرفنى لماذا لم يطير عنقي بمخالبه بعد؟

لا أعتقد أنني سأنجو من هذا الموقف بالذات.. هناك حدود للأمل البشري يجب أن يكف المرء بعدها عن تمني الحظ الحسن.. لقد نجوت كثيرًا جدًا من مواقف سيئة.. هناك نقطة للتوقف بالتأكيد..

على حين استمر الترحيب بالموجودين..

- «(روكيان الأماسي).. آكل قلوب الأطفال النابضة.. الوطواط الأزرق..»

وهكذا توالت الأسماء حتى اختلطت في ذهني.. لكني على الأقل أذكر أنه كان هناك نحو عشرة من هؤلاء.. يبدو لي أن (سيجفريد الأميدي) كان أهمهم وأضخمهم وأشرسهم.. كان الشر جليًا في كل حركة وكل كلمة من كلماته، وأنا لم أعتد أن أقابل الشر الخام بهذا الوضوح.. نحن نلقى الشر المستتر.. الشر اللعوب.. الشر الناعم.. لكننا لا نلقي أبدًا الشر الحقيقي حين (يأخذ راحته) ولا يتهيب قوة المجتمع وتقاليده.. الشر الفظ الأولى الذي يتمدد ولا توقفه جوانب الإناء..

لما انتهى (التمام)، تكلّم (سيجفريد الأميدي) بنلك الصوت الفكري، الذي يجعل مخك ذاته يغلي بالقيح وكأن شيئًا ما سيخرج من أذنيك.. شيئًا مقيتًا كريهًا مقززًا:

- «اجتمعنا نحن سادة جانب النجوم اليوم كي نقرر مصير الفانين الذين عبروا الثغرات إلينا.. بيننا نحن السادة خلافات وبيننا حروب.. لكننا في وجه الفانين جسد واحد يضرب لتسيل الدماء!»

ما شاء الله؟ هذه بداية الكلام فماذا عن نهايته؟

واصل الشيء المفزع الكلام:

- «جاءوا هنا لأن أقدارهم شاءت أن يجيئوا... وهم في هذا تورطوا في حبال الحظ العاثر، ودنسوا جانب النجوم الذي هو محرابنا.. وإن أبقينا عليهم حتى الآن فلأننا نعرف أنهم لم يأتوا إلا لحكمة..»

هنا تدخل (روكيان الأماسي) والوجوه المتناثرة على صدره وجسده تعوي بالصراخ، وحاول أحدها الفرار من مكانه فأعاده إلى مكانه بمخالبه:

- «أرى أيها الأميدي أنهم يصلحون لي.. لقد تكونت خلاياي من خلاياهم، وعظامي من عظامهم... في كل جزء من جسدي يوجد فان انتهى أمره إلى أن يكون مني.. فأعطوهم لي يا سادة جانب النجوم..»

اشتعلت النيران الزرقاء في رأس من عرفت أنه (هيفايستوس الجبال) وقال وهو يرتجف:

- «إنها الحقيقة إذن.. أحدهم منا وجدير بأن يبقى معنا.. الآخرون لك يا (روكيان الأماسي)..»

- «إذن هو أشرهم.. أكثرهم غلظة وأقساهم قلبًا وأوفرهم سفكًا للدماء..»

هنا فقط تدخل الأخ (فلاد الوالاشي)، وكنت أشعر نحوه بنوع من الألفة على الأقل لأنّه أقربهم إلى الشكل البشري.. كما قلت هو أقرب إلى المذءوبين كما تصورهم أفلام الرعب القديمة.. وهو في هذا ملك جمال بالنسبة للآخرين..

قال وهو يتلمظ:

- «إذن نختار أشرهم.. وهذا الذي نختاره سوف يغدو منا.. نمنحه القلعة والخدم والحياة، ويغدو من سادة جانب النجوم، ولسوف أمنحة بذرة الفامفيري كي يعيش من شرب الدماء، ويغدو (غير ميت)..»

وخرج لسانه المشقوق يتلوى في الهواء، وعلى طرف اللسان لمحت الدودة الصغيرة.. هذه الدودة التي سأعرف يومًا ما أنها بذرة الفامفيري، وهي التي بدأت منها شرور مصاصي الدماء على الأرض..

هنا قال (سيجفريد الأميدي) بصوته المخيف بطيء النبرات:

- «أيها الفانون.. سمعتم كلمتنا.. فليعلمن كل منكم أن منجاته فيما اقترف.. فليحك كل آثامه ولسوف نصغي ونتخذ قرارنا.. واحد منكم سينجو أمّا الآخرون فسوف يصيرون جزءًا من جسد (روكيان الأماسي).. وهي نهاية أفضل منها الموت بأنياب ألف ذئب..»

قلت لنفسي: إنني نجوت من أسوأ مواقف حياتي ببعض اللباقة والتهذيب.. ربما استطعت أن أخرج من هذا الموقف السخيف لو كنت واضحًا صريحًا.. لهذا تقدمت إلى الأمام وقلت بتحضر:

- «سيدي.. أنا غير راغب في دخول هذه المسابقة.. أعتقد أنني جئت هنا بطريق الخط...»

ولم أدر متى ولا كيف طرت في الهواء الأزرق ثم هويت على الأرض مقلوبًا وكل عظمة من عظامي مهشمة أو توشك على ذلك وسمعت صرخة غاضبة حازمة في ذهني:

- «اخرس أيها الفاني!!»

بينما كنت أنا أكمل ما قلت في ذهني:

- «.. طأ... لم أقترف من الشر ما يبرر وجودي هنا.. وعلى كل ليس البقاء حيًا بينكم بمطلب لي...»

تقدم العجوز خطوة إلى الأمام، وقال بلهجته الألمانية وبصوت راجف من رعب الموقف:

- «لو سمح لي سادة جانب النجوم.. إن اسمي (فيرنر فرايمان).. وأنا أكثر هؤلاء الفانين شرًا ويمكنني أن أبرهن على هذا..»

- «ابدأ السرد أيها الفاني.. ولتعلم أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «لن أكذب يا سيدي.. لن أكذب..»

وهكذا بدأت حلقة الرعب الخامسة.. بدأت في أغرب مكان يخطر لك، ومع أغرب مجموعة من المسوخ يمكن تخيلها.. فماذا قيل فيها وماذا - حدث؟

أعيروني آذانكم الفانية أيها الأرضيون واسمعوا..

☆ ☆ ☆

- ١ -

قال (فيرنر فرايمان) الذي عرفت أنه العجوز:

- «لم أرد أن أفعل ذلك.. لكنه حدث كأي شيء آخر في حياتنا..»

☆ ☆ ☆

أنا جراح.. لابد أن سادة جانب النجوم عرفوا هذا وإن لم يعد بوسع أحد من الأرضيين أن يثبته.. لماذا؟ لماذا أنكر أنني طبيب، وأنني مارست هذه المهنة الشريفة التي يجلها الجميع؟

السبب هو أنني كنت أعمل مع (يوسف منجيل) [1].. وأنني كنت جراحًا في (أوشفيتز)..

هل فهمتم السبب الآن؟

☆ ☆ ☆

كنت من البداية عضوًا في الحزب النازي.. كنت من القلائل الذين قرءوا كتاب (كفاحي) لـ (هتلر) ودرسوه بعناية فائقة... إن النسخة التي عندي مهترئة امتلأت بالخطوط والحواشي، وقد شربتها شربًا والتهمتها التهامًا، وأيقنت أن الجنس الآري يفوق الجميع، وعليه أن يسحق الجميع من أجل رفعته وعظمته..

ولما بدأت الحرب، ودخلت جيوش الفوهرر (بولندا)، لم يكن لي دور مهم في الحرب بسبب ضعف بصري وشيخوختي.. ولهذا التحقت بالخدمات الطبية لأنني كنت طبيبًا كما قلت..

وتقرر أن أكون في معتقل (أوشفيتز) في (بولندا)، وكان يديره في ذلك الوقت (هيس) قبل أن يسقط - (هيس) نفسه - في أيدي البريطانيين.. وعرفت فيما بعد أنه قضى بقية حياته في السجن حتى مات..

إن (أوشفيتز) هو اسم المعتقل الذي بناه (هملر) عام 1940 في المدينة التي تحمل الاسم ذاته في (بولندا).. على ضفة نهر (فيستيولا).. وكان (هملر) هو رئيس جهازين مرعبين لم ينسهما العالم منذ الحرب: هما قوات العاصفة SS والجشتابو (البوليس السري النازي)..

وقد قدر لهذا الاسم - (أوشفيتز) - أن يرتبط بكل فظائع النازي.. وأن يصير كابوسًا للأوروبيين عدة عقود.. ومن المؤكد أن نحو أربعة ملايين شخص هلكوا هناك.. منهم اليهود والسوفييت والغجر..

فيما بعد حاول اليهود أن يبتزوا أوروبا، وادعوا أن ستة ملايين منهم ماتوا في (أوشفيتز) وكأن النازية لم يكن لها من هدف سوى إبادة اليهود، لكني أؤكد لكم أن عدد السوفييت الذين هلكوا في (أوشفيتز) يفوق بمراحل عدد اليهود.. فقط برع اليهود في الدعاية وملئوا الدنيا بكلامهم عن المحرقة، التي كافأهم الله بعدها بأرض إسرائيل.. بينما لعب السوفييت دور العدو التقليدي للغرب، وكان الكلام عن معاناتهم في الحرب جريمة أية جريمة..

بعيدًا عن هراء اليهود المعتاد، أقول إن السجناء كانوا يصلون إلى (أوشفيتز) بالقطار في ثلاث مجموعات:

مجموعة تعد للإعدام فورًا في (بيركناو).. فيما بعد زعم اليهود أن (بيركناو) كان يحوي غرف الغاز (زيكلون - ب) والمحارق.. الأفران الآدمية حيث يتم إحراق 200 ألف سجين يوميًا.. وأنا لا أدري من أين أتى هؤلاء القوم بهذه الأعداد الضخمة..

هذا ببساطة ليس صحيحًا.. كنا نطلق الرصاص على من نعدمهم، كما يفعل أي واحد آخر.. لم تتم تجربة (زيكلون - ب) في (أوشفيتز).. هذه حقيقة مؤكدة لكن الإعلام اليهودي لن يسمح بإذاعتها أبدًا..

مجموعة أخرى من السجناء كانت تعمل سخرة في مصانع (فارين) و(كروب).. وكانت هذه عمالة رخيصة بلغت في فترة من الفترات نصف مليون عامل لم يكلفوا الدولة سوى طعامهم القليل... ومن الواضح أن هؤلاء أيضًا كانوا يُعدمون أحيانًا أو يموتون جوعًا..

المجموعة الثالثة وهي المهمة هنا كان يكلّف برعايتها الأطباء، وكان رئيس الأطباء هو (يوسف منجيل) وبالطبع كنت أنا أعمل معه وقتها..

☆ ☆ ☆

ما كان عمل الطبيب في (أوشفيتز) هو العلاج ولا الشفاء.. بل كان البحث العلمي..

وكان البحث العلمي من نوع خاص جدًّا.. كما سترون بعد قليل..

في البداية اصطحبني (منجيل) إلى العنابر حيث كان هناك عدد أكثر من اللازم من الحراس النازيين، وكان رجال العاصفة في كل مكان.. وأنا نازي متعصب لكني أعترف لك أنني مازالت أخشى رجال العاصفة هؤلاء.. بتعصبهم المجنون وقسوتهم، ونظرتهم إلى الغير نظرة احتقار متعال لا ينظر بها المرء إلى صرصور..

رحنا نمشي بين الأسرة، وأثار ذهولي أن كل مريض مكبل بأصفاد حديدية إلى سريره، وأن في عينيه نظرة ذعر تثير الهلع في القلوب.. كانوا في صحة سيئة.. الشحوب هو القاعدة، والعيون غائرة في محاجرها، والجلود على العظام..

سألته وأنا أبتلع ريقي:

- «ما هي مهمتنا هنا بالضبط؟»

قال (منجيل) وهو يربّت على سلسلة في قدم أحد المرضى:

- «هل تتفق معي على أن كل من ليس آريًا هو حيوان؟»

هززت رأسي مقتنعًا، فقال:

- «والأطباء يجرون تجاربهم على حيوانات.. من أجل المزيد من المعرفة البشريّة..»

كنت قد سمعت شيئًا كهذا فلم أندهش.. سألته فقط:

- «وما نوع هذه التجارب؟»

- «كل شيء وأي شيء.. كل ماكنت تتمنى أن تجربه على بشر ولم تجسر على ذلك قط.. نحن نجري تجارب على الجهاز العصبي والقلب والرئتين... نملأ المثانات بالماء ونحدد درجات الألم... نغرس إبرًا في النخاع الشوكي ونقيس الاستجابة الكهربية... كل شيء.. فقط يجب أن تكون خلاقًا..»

بدا لي المستقبل بهيجًا إلى حد لا يوصف.. وهنا يجب أن أقول إني لست ساديًا بشكل خاص.. ليس النازيون مجموعة من المرضى النفسيين كما يصورونهم.. لكن التمييز العنصري والإحساس بالتفوق العرقي هما اسم اللعبة.. ما إن تشعر أنك خلق خاص فريد من نوعه، حتى يصير الآخرون حشرات لا أكثر، وتبدأ المذابح.. ما من مذبحة شهيرة يمكن أن تقرأ عنها في كتب التاريخ إلا ووراءها تمييز عنصري ما.. من دون تمييز عنصري يُمكنك أن تنظر للآخرين على أنهم بشر مثلك، لهم الحق في الحياة والأمان والسعادة، وعندها يصعب عليك إيذاؤهم...

أنا لست وحشًا.. أنا نازي يؤمن بنازيته.. لا أكثر ولا أقل..

وهكذا عكفت على كتب الفسيولوجيا التي وضع الألمان أكثر دقائقها، ورحت أبحث عن شيء يصلح لتجربته.. بينما كنت أنهمك طيلة اليوم في التجارب التي يجريها فريق (منجيل) على التوائم..

كانوا يحبسون التوءمين - وهما من السوفييت غالبًا - منفصلين عن بعضهما.. ويبدعون في تعذيب واحد منهما مع ملاحظة ردود فعل الآخر.. وكانت النتيجة باهرة دائمًا.. هناك خيط

لاشعوري يربط بين الجهازين العصبيين للتوءمين فقط إذا تجاوز الألم حدوده.. أما الألم العادي المحتمل مثل وخز الإبرة فكان يمرّ مر الكرام..

كانت هناك كذلك وحدة مختصة (بعلاج) الحوامل.. كنا نقسم الحوامل إلى عدة مجموعات نعطي كل مجموعة منها عقارًا بعينه.. وبجرعات محسوبة، وفي النهاية نراقب ما تنجبه ونحدد بالضبط الناتج.. وهكذا استطعنا أن نحدد أكثر العقارات خطرًا كي تتلاقاها المرأة الآرية في أثناء حملها.. وما كان أحدنا ليسمح بأن يخرج إلى الوجود طفل آري مشوه..

هكذا ترون أننا كنا نوفر الكثير من الوقت، ولا نضيعه مع الفئران والأرانب كما يفعل العلماء الإنجليز والبريطانيون.. وفي كلّ مرّة يقولون في نشرات الدواء إنهم جربوا الدواء على الفئران، لكنهم لا يضمنون نتائجه مع الحوامل والمرضعات..

نحن كنا نعرف.. ونعرف بالتأكيد...

وكنت في هذه الأثناء أواصل أبحاثي.. أبحث عن بحث جديد كما يقولون!

وفي يوم وجدت شيئًا يصلح كي أجربه..

لكني - برغم أنني لا أعبأ بهذه الأمور - شعرت بالهلع مما توصلت إليه..

كانت فكرة رهيبة بحق لا تخطر إلا ببال شيطان..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

كنت قد قرأت عن تجارب العلماء الفرنسيين أثناء الثورة الفرنسية، حين كانت المقصلة تقدم الرءوس بلا عدد.. كانوا يوصلون الرأس المقطوع بمجموعة من الأنابيب تمنحة دورة دموية صناعية، وكان - كما قيل - الرأس يتحرك، ويحاول الكلام، وتتحرك عيناه لمدّة ساعات بعد الإعدام..

وكنت جراحًا أملك الموهبة، ولي إلمام لا بأس به بتشريح الرأس.. إن هناك بعض المشاكل مع الأوعية لكن هذه يمكن إزالتها، خاصة وأن لدى المجال الكافي للتجارب..

وعرضت على أستاذي المجنون بروتوكول الدراسة فأقرها.. كانت المشكلة هي أننا سنحتاج إلى إعدام بعض الأسرى، لكن هذه لم تكن مشكلة على الإطلاق في (أوشفيتز)..

وفي اليوم الموعود كنت أرتجف حماسة، بينما اقتاد الجنود رجلين إلى الأرض الخلاء خلف المعسكر... الأرض التي علقت عليها لافتة بالألمانية تقول: «فقط العمل يجعل الإنسان حرًا!».. وكانت تتناقض بشكل مضحك مع حقيقة ما يحدث هنا.. وسألت أستاذي للمرة الأخيرة:

- «هل أنت متأكد من أن الهر (هملر) سيوافق على.....؟»

قال في استهتار وهو يهز كتفيه:

- «لا مشاكل هنالك.. إن لديَّ تفويضًا كاملًا بعمل ما يروق لي، ما دمت سأقدم بهذا تقريرًا طبيًا وافيًا..»

ودخلت غرفة الجراحة مع اثنين من الأطباء، وشرعنا نتأهب للتعقيم، بينما جاءوا بسجين سوفييتي لا يكف عن الصراخ والاستغاثة.. قيدوه على المنضدة بينما شرع طبيب التخدير يعد عقاقيره..

كان السجين يفهم بعض الألمانية، وقد قال لي:

- «أتوسل إليكم أن ترموني بالرصاص! لا أريد أن أكون حيوان تجارب لكم!»

قلت له في برود وأنا ألبس القفازين:

- «هل تعرف ما نحن بصدده؟»

- «أعرف أنكم مجانين!! وهذا كاف..»

لم أحفل بالرد عليه، وأشرت إلى طبيب التخدير كي يحقنة بالمنوم، وسرعان ما غرق الرجل في سبات عميق..

وعاد الحراس من الخارج مسرعين يحملون الرأس الذي قطعوه، مغموسًا في محلول ملحي طبيعي.. كان رأسًا أسمر له شارب كث يبدو أنه لسجين غجري..

وعلى الفور رحت أشق الأنسجة بمبضعي، وأظهرت الشرايين والأوردة الحيوية في هذا القطاع، ثم ببراعة رحت أجري الخياطات اللازمة..

وقال طبيب التخدير وعيناه على البالون الأسود الكبير:

- «حذار! إن ضغطه ينخفض بسرعة..»

- «إذن احرص على ألا يحدث هذا..»

وواصلت العمل كالمجنون.. لكن كان لا بد من أن تمر ثلاث ساعات من الجهد المتواصل... وفي النهاية تراجعت للوراء ومسحت العرق عن جبهتي، وأمرت مساعدي الشاب أن يقطب الجروح في الجلد، وعدت أنظر لطبيب التخدير:

- «كيف الحال؟»

- «مات طبعًا.. كلاهما مات!»

نظرت لمساعدي وللمريض ولطبيب التخدير، ثم أصابني هياج بالغ جعلني أركل حامل المحلول فأسقطه أرضًا.. كل هذا الجهد بلا طائل! أي ظلم!

سمع (منجيل) صياحى من الخارج، فجاء إلى الداخل وربت على كتفي مواسيًا، وقال:

- «لا تتهور! مازالت أمامك فرص للنجاح.. لا أحد ينجح من أول مرة إلا الحمقى الذين يرفق بهم الحظ! ستنجح يا (فرايمان).. ستنجح!»

ثم أشار إلى أحد الحراس:

- «خذوا الجثتين إلى الفرن الكبير، وتيقن من حرقهما بعناية.. وتيقن كذلك من أنّه لا شهود عليك!»

لم أر داعيًا لهذا الحرص، لكن الرجل كان حذرًا وكان يتحسب برغم كل شيء لخطر أن يربح الحلفاء الحرب.. إن قتل الأسرى ليست تهمة محببة للنفس وقتها.. وكانت هذه عامّة سياسته مع كل موضوعات التجارب.. الفاشلة منها والناجحة.. إن فشل التجارب يعني وجود جثث.. ونجاحها يعني وجود شهود؟

وفي الحالتين تصلح النار لإخفاء كل شيء!

☆ ☆ ☆

وكررنا العملية أكثر من مرة في الأسابيع التالية.. كان الفشل يلاحقني بإصرار غريب.. وإن كنت في سرّي أعترف أن هؤلاء الذين هلكوا كانوا مجدودي الحظ حقًّا..

وجاءت التجربة السادسة.. هذه المرّة كانت الضحيّة امرأة غجرية، وكان الرأس رأس تاجر يهودي ضئيل الجسد.. وقد استمرت الجراحة ساعتين، لأن خبرتي بها كانت عظيمة، وانتهيت فألقيت القفازين ونظرت إلى طبيب التخدير منتظرًا إعلان الوفاة كالعادة، لكنه قال في دهشة:

- «العلامات الحيوية ممتازة! يبدو أنهما سينجوان!»

وكان هذا غريبًا... لقد اعتدت الفشل حتى صار للنجاح مذاق غريب شاذ كأنه نور المصباح لعينين اعتادتا الظلام دهورًا..

وفي المساء ذهبت لزيارة (مريضتي) فوجدتها على ما يرام...

لقد قمت ـ أنا (فرنر فرايمان) العظيم - بزرع رأس رجل في عنق امرأة.. وكلاهما يعمل بمريء واحد وقصبة هوائية واحدة ودورة دموية واحدة.. طبعًا ما زالت الجراحة حرجة، وما زالت المرأة عاجزة عن البلع وتتنفس بصعوبة بالغة، لكني رحت أمل أن يلتئم الجرح مع الأيام القادمة..

وكانت الأيام التالية بالفعل تفوق أكثر أحلامي جموحًا..

لقد بدأت الجراح تشفى.. وتوافد القوم ليروا هذه المعجزة، والتقطنا الكثير من الصور... بينما المرأة المسكينة لا تصدق ولا تفهم، ورأس اليهودي المتدلي على كتفيها ينظر لنا في حيرة وغباء..

هذه الجراحة نجحت من قبل مع الكلاب، لكنّها المرّة الأولى التي تُجرى فيها وتنجح مع البشر.

كان المشهد مريعًا لكني كنت فخورًا به.. وكنت أطرب حين يأكل كلاهما من طبق واحد.. أو يتبادلان بعض العبارات بلغة (اليديش) التي يتكلمها اليهود.. لقد ارتبط مصيرهما للأبد، وهو نوع غريب حقًّا من الزواج..

كانت المرأة تردد عبارات بلغتها الغجرية كلما رأتني، ولم أفهم ما تقول لكني أدركت أنه نوع من السباب.. أما الرجل فكان يبكي كثيرًا جدًّا.. وقد اعتاد أن ينام على كتفها لأن وضعه الجانبي لا يسمح له بأي وضع آخر، وأعتقد أنها كانت تشفق عليه لأنهّا كانت تضع كوب الماء أمام شفتيه، وتطعمه من حين لآخر.. إنّه تحت رحمتها لأنّه بلاجسد على الإطلاق.. وأعتقد كذلك أنها كانت تخشى أن يموت.. لا أحد يحبّ أن يموت جزء من جسده الخاص.. ولو حدث هذا لتصرفنا كما يتصرّف الجراح عند حدوث غنغرينا في الجسد.. كنا سنستأصل الرأس كي تعيش المرأة.. لكن أحسبنا ما كنا لنتجشم هذه المشقة..

إن أهميّة هذين لا تخرج عن كونهما أعجوبة.. وصاحب السيرك لا يترك سبيلًا للعناية بنماذجه النادرة لأنهّا مصدر فخره... كنت أمضي الساعات أراقبهما وأدرس سلوكهما، وألتقط عشرات الصور..

كنت أنا الآن النجم المتوج وسط أطباء (أوشفيتز)، وجاءتني تهنئة موقعة من (هملر) ملأتني فخرًا وتيهًا، وقررت أن أجري هذه التجربة على نطاق أوسع.. لربما تمكنت بشيء من البراعة والحظّ من زرع ثلاث رءوس أو أكثر.. لم لا؟

وهكذا اجتمعنا في مكتب المدير، وطرحت عليه اقتراحاتي، بينما دارت الأنخاب وغنينا (ألمانيا فوق الجميع)، لكن (منجيل) انتحى بي جانبًا وقال لي:

- «لا أريد أن أثير توترك.. لكني أريد أن تحرق كل شيء يختص بهذه التجربة..»

صحت محتجًا:

- «أوه.. لن نعود إلى هذا..»

- «الأمر لا مزاح فيه.. إن السوفييت قادمون.. ومن الواضح أن بولندا ستطير من قبضة الرايخ!!»

كان هذا أسوأ خبر سمعته في حياتي..

معنى هذا ببساطة أن كل ما قمت به هنا سيضيع..

- «بل أسوأ من هذا..» - قال (منجيل) - «لسوف يعاملوننا كمجرمي حرب يوم نقع في أيديهم..»

- «نحن لسنا مجرمي حرب.. نحن علماء!»

- «قل لهم هذا وهم يستخرجون بقايا مواطنيهم من حفر الموت الجماعي..»

اعتصرت كأسي في عصبية، وقلت:

- «والعمل؟ هل لديك خطة محددة؟»

- «لقد أعددت العدة للفرار..»

قالها وابتعد مما قضى على أي اعتقاد ساذج لدي أنه يلهو بي..

ووجدت نفسي في مأزق.. لو جاء السوفييت ووجدوا هذا المسخ الذي أنتجته تجاربي فما المصير؟ لن يكون أقل سوءًا من مصير هذا المسخ.. وفي اليومين التاليين أدركت أن (أوشفيتز) بالفعل يشهد عملية إخلاء واسعة النطاق، وتم تحميل آلاف الأسرى إلى القطارات متجهين إلى ألمانيا ذاتها..

طبعًا في ظروف كهذه بدا أن الجميع لا يعبأ بي.. فلينج كل بنفسه.. وليتحمل كل مسئولياته الخاصّة، وعرفت أن الوقت قد حان حين تبخر (منجيل) نفسه في الصباح، ولم يعرف أحد إلى أين ذهب..

هكذا اتخذت قراري..

هكذا اتجهت إلى غرفتي فحرقت كل أوراقي والصور..

بقي شيء واحد فقط عليَّ أن أتخلص من آثاره...

بحثت عن الكيروسين، ووجدت عود ثقاب مستعدًا للعمل، واتجهت أنا واثنان من رجال العاصفة إلى العنبر الخاص الذي احتفظنا فيه بالمسخ إياه..

بعد دقائق كانت ألسنة اللهب تتعالى، وكان الدخان الأسود يتصاعد إلى عنان السماء، وكنت أنا في طريقي للهرب..

☆ ☆ ☆

ما إن انطلقت بسيارتي الجيب مبتعدًا عن المعسكر حتى راحت الطلقات تنهمر على السيارة.. حقًّا لم أدرك من قبل كم أن السوفييت قريبون.. ولم أدرك من قبل كم هم بارعون في التصويب..

كنت أنزف من ساقي.. ثمّة طلقة اخترقت السيارة وإن كنت لم أدر متى اخترقتها..

لن أتمكن من الابتعاد.. إن حالة ساقي لن تسمح لي بالقيادة أكثر من هذا..

أوقفت السيارة على جانب الطريق، ورحت أنظر حولي.. كان النهر يترقرق من بعيد، وخلفي رأيت محجرًا مهجورًا يبدو أن عمالنا كانوا يعملون فيه منذ أيام.. حقًّا لم يستغرق الأمر أكثر من أيام...

قررت أن أتواري هنا بعض الوقت إلى أن أجد إحدى سياراتنا الفارة من زحف السوفييت..

توغلت في المدخل، وتركت نفسي أنزلق على الصخور الحادة التي تلوثت بالكثير جدًا من دمي..

وفي النهاية هأنذا أرقد على أرضيّة المحجر كاتمًا أنفاسي، وفي يدي المسدس بانتظار أول قادم.. لن أطلق عليه الرصاص لأن ذخيرتي لن تكفي.. ستكون الرصاصة من نصيبي أنا ولن ينالوني حيًّا...

كان دمي ينزف بعنف.. ولم أفهم أنّ هذا المحجر المهجور لم يكن سوى ثغرة.. الثغرة الوحيدة في بولندا ربما.. وقد دخلتها ونزفت دمي فيها لأنني المختار.. لا بد من حكمة لهذه المصادفة.. إن قدمي وحدهما لم تجلباني هنا، بل كانت قوىً أكبر مني وأعسر على فهمي..

ولم أدر متى غبت عن الوعي أم تراني نمت؟

☆ ☆ ☆

فقط حين أفقت من نومي أم من إغماءتي وجدت نفسي هنا.. في جانب النجوم..

أقف أمام السادة وأعترف: ما كانت الأرض لتعرف أشر مني في أعوامها الطويلة المفعمة بالشقاء والفظائع..

☆ ☆ ☆

فرغ النازي العجوز من سرد قصته، ووقف ينتظر رأى الوحوش الجالسة من حولنا..

كان الدخان الأسود يتصاعد من أكثرهم، وهي - كما تعلّمت - علامة على الرضا، وكان هناك واحد من الطراز الذي بلا عينين على الإطلاق، لكن له مخًا أخطبوطيًا لزجًا يتسرب على جوانب وجهه من حين لآخر، كي يلمع في جشع، ويبدو أنّ هذه كانت طريقته في النظر إلى ما حوله.. كان اسم هذا الشيء (داركون الجيلي) نسبة ـ فيما يبدو - إلى أسكتلندا، وليس إلى الجيللي إن كان شيء كهذا قد خطر لكم..

قال (دراكون) وهو يهتز:

- «بدا لي أنه ما من قصة قد تفوق هذه.. إن الأرضي منا، ومكانه الحق بيننا..»

قال (سيجفريد الأميدي):

- «كان ليبلغ مرتبة الكمال، لكنه ما زال عنها قصيًا.. اختار الطب مهنة.. وهو في هذا أراد يومًا أن يداوي الفانين مثله.. وكان بوسعه أن يعذبهم أكثر ولكنّه لم يفعل.. أرى يا إخوان أن نستمع لقصة الثاني من الفنانين..»

هنا بدا على الألماني الغباء ممزوجًا بخيبة الأمل، وتلفت حوله صائحًا:

- «إذن أنا خسرت؟ كيف أخسر؟ مستحيل أن أخسر!»

قلت له في ضيق (فأنا أكره الغباء حتى هنا):

- «لم تخسر يا دكتور.. مازال عليك الانتظار حتى تسمع بقية القصص.. وإن كنت أشك في أن يوجد من يتفوق عليك... لو كنت مكانهم لجعلتك تربح وانتهينا...»

هناك أناس مستعدون لأي شيء كي يبقوا أحياء، حتى لو كانت الحياة كمسخ وسط هؤلاء المسوخ.. أية حياة هذه؟ إن الموت أفضل بكثير، لكن هل يسمحون لي بخدمة بسيطة كهذه؟

هنا تقدم أحد الشابين ـ الأصغر سنًا ـ إلى الأمام وقال بلهجة من يريد إنهاء الأمر سريعًا:

- «أنا (جون بارتريدج) يا سادة.. من إنجلترا.. هل لي أن أحكي قصتي؟»

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الجشع:

- «ابدأ السرد أيها الفاني.. ولتعلم أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «لن أكذب يا سيدي.. لن أكذب..»

وبدأ الإنجليزي يحكى قصته..

☆ ☆ ☆

- ١ -

«ابتعدوا عن البئر الجافة..»

كانت هذه هي العبارة التي قلما لم يسمعها طفل في قريتنا.. كانت قرية صغيرة منسية في شمال البلاد، وبالتأكيد لم يأت منها رجل شهير أو ناجح إلى حد تخليد اسمها..

كنا أطفالًا شياطين لانترك حجرًا إلا قلبناه، ولا قطًا إلا شددنا ذيله، ولا نافذة إلا كسرناها بحجر..

كنا في كل مكان.. الإزعاج الدائم للجميع، والتعبير الصادق عن مقولة: إن الأطفال لانفع منهم على الإطلاق إلا التدمير.. لكننا برغم هذا لم نجسر قط على الدنو من البئر..

لقد اكتسب من كلمات أبائنا معنى مخيفًا مجسدًا لا يمكن تجاهله حتى لأكثرنا تمردًا وثورية..

وفي طفولتنا جرؤ أحمق واحد على خرق هذه القواعد.. كان صبيًا نسيت اسمه الآن، لكن وجهه كان مليئًا بالنمش، وكان له أنف يسيل دائمًا.. هذا ما أذكره عنه، ولا تنس أنّ هذا الكلام كان منذ عشرين عامًا تقريبًا..

نعرف فقط أنه راح يلعب عند البئر.. نعرف فقط أننا تركناه هناك لأن الليل قد جاء، ولأننا كنا خائفين.. ولأنه لم يصغ لنا حين طلبنا منه الابتعاد..

وفي الثامنة مساء دوّت صرخة هائلة من الطراز الذي يجمد الدم في عروقك، ويجعلك غير قادر على الوقوف.. لا بد من أن تجلس.. وقد جلسنا.. وعرفنا على الفور أنها صرخته..

ماذا دهاه؟ لا نعرف..

وعرفنا في الصباح أنّ بعض الرجال حملوا كشافاتهم ومصابيحهم وذهبوا إلى مصدر الصرخة... وكان البئر كما هو لكنه لم يعد جافًا.. عرفنا فيما بعد أن الدماء كانت تملؤه.. دماء لا يمكن لإنسان مهما بلغ حجمه أن يأتي بكمية هائلة مثلها، إلى درجة أن يملأ بئرًا..

قال الرجال العالمون ببواطن الأمور إن صديقنا خالف تعليماتهم... قالوا إنّه راح يلعب عند ثغر الشياطين.. والكلمة مستحدثة لم يطلقوها على البئر من قبل.. لكنها صارت اسمًا مناسبًا جدًا من حينها..

وأخبرتنا الجدات جوار المدفأة ليلًا أن البئر ـ أو ثغر الشياطين - هو بوابة.. بوابة غريبة الشأن حقًّا تقود إلى عالم غريب شرير.. وأحيانًا ينجح أحد الكائنات الغريبة الشيطانية في عبور هذه

البوابة ويصل إلى عالمنا.. وعندها تبدأ الأهوال..

- «ولماذا لا تسدون هذه الثغرة؟»

- «لأن من يجسر على هذا يلق نهايته فورًا.. إن لدينا قصصًا شنيعة لكنّها لا تصلح للأطفال..»

وكنا نصمت.. نتخيل.. ننام.. ننسى..

☆ ☆ ☆

صرت مراهقًا..

لم تكن مراهقة هادئة تلك التي عشتها فأنتم لم تلاحظوا أن في ساقي عرجًا.. عرجًا خفيفًا.. ثمّة ساق أطول بضعة ملليمترات من الأخرى.. لكن هذا بالنسبة للمراهقين مصدر تعذيب دائم لهم...

إنها سن وساوس الرجولة، والحاجة إلى أن تكون أقوى.. سن مصارعات الشباب على الكلأ ومسابقات العدو في الغابة.. من الجلي هنا أنني لم أفز قط بمسابقة من هذه المسابقات..

إنها سن الميل إلى الفتيات ومحاولة الفوز بما تعتقد أنه حقك المشروع في الحب.. لكن من الجلي أن أية فتاة لم تهتم بي، حتى بين فتيات القرية غير المعروفات بالجمال...

إنها سن أن تكون مفيدًا.. تحاول أن تعمل وتساعد الآخرين.. لكني لم أستطع قط أن أساعد أحدًا.. كنت بحاجة دومًا إلى من يساعدني..

وجاء اليوم الذي اصطدمت فيه بـ (جيمي الخطاف)، وهو بلطجي صغير من بلطجية القرية الساديين، الذين يكرهون أن يمرّ يوم من دون تعذيبي أو مضايقتي.. وقد آذيته جيدًا.. آذيته بقوّة وخمشت وجهه وعضضته.. لكنه في النهاية لقنني علقة ساخنة ودرسًا قاسيًا، خاصة أن العض والخمش جعلاه أكثر عصبية وتوحشًا..

وفي النهاية رحت أركض على ساقي السليمة، محاولًا الفرار منه ومن عصابته..

خرجت من القرية.. كانوا خلفي..

ركضت عبر الطريق الترابي الذي يقود إلى المزرعة المهجورة.. كانوا خلفي..

وفي النهاية وصلت إلى البئر الجافة، وكان الظلام قد حل..

وأدركت أنهم لن يفكروا أنني هنا... فقط على أن أنتظر وقتًا أطول، وسرعان ما يعودون أدراجهم..

☆ ☆ ☆

مر الوقت.. الظلام والبرد والخوف..

لكني لم أكن خائفًا من البئر ولا ما فيه من كائنات عجيبة لو وجدت.. إن الشر أكثر هولًا وأشد خطرًا بما لا يقاس...

ولهذا لم أخف كثيرًا حين سمعت صوت الأنين..

كان قادمًا من البئر بلا شك.. والغريب فيه أنه لم يكن أنين إنسان على الإطلاق.. كان أنين حيوان مسعور.. كأنين ذئب جريح.. وقد قررت على الفور أنه لا يوجد سوى شيء واحد يمكن أن يصدر صوت ذئب جريح.. إنّه ذئب جريح لا أكثر ولا أقل..

ودنوت من الحافة أكثر ونظرت..

برغم الظلام استطعت أن أميز ما يحدث هناك.. وقف شعر رأسي..

لم تكن الجدات مخرفات بصدد البئر.. لم يكن مخرفات على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

كان هذا الشيء يحاول الخروج من البئر..

استطعت أن أرى عيونه الأربع النارية تتوهج في الظلام، بينما أشياء لا أدري ما هي تتمسك بجدران البئر من الداخل.. فهمت على الأقل أنه شيء هلامي منزلق.. وأن له أطرافًا مثل الأخطبوط..

لا أدري لماذا لم أجر مبتعدًا.. لقد وقفت كالمسحور أرمق ما يحدث، وقلت لنفسي: إنني لو رحلت فلن أعرف أبدًا ما كان هذا الشيء..

- «سـ.. ا عـ... د... نـ.... ي ي!!»

كان هذا هو الصوت الذي خرج منه ممزوجًا بالأنين والعواء.. صوت رغوي غريب جدير بأن يصدر من كتلة الهلام هذه.. ولم أكن أعرف كيف أعين كتل الهلام، لهذا وقفت مرتجفًا عاجزًا عن رد الفعل..

- «سـ.. ا عـ... د... نـ... ي ي!! ولسوف أكسبـ... ك.. القـ... وة!!»

لسبب ما فهمت أنه صادق.. كائن كهذا بالتأكيد يعرف ما يتكلم عنه..

- «كيف.. كيف أساعدك؟»

- «لحم آدمي! لحم آدمي!»

سرني هذا.. على الأقل هو ليس الشيطان يبغى روحي.. لست متدينًا لكني أعرف أن بيع الروح للشيطان خطيئة.. أمّا هذا فهو مجرد غول.. غول أحمق يبغي لحمًا..

عرفت كذلك على الفور أنه قادم على الفور من ذلك العالم المخيف الذي تحدّثت عنه الجدات.. العالم الذي تسكنه المسوخ والغيلان.. وهو جدير بحق بأن يكون منهم.. من الواضح أنه استهلك قواه في عبور الثغرة، ومن الواضح أنه بحاجة إلى الغذاء كي يأخذ الخطوة الأخيرة..

قلت له وأنا أتراجع كي لا يبلغنى بمساته:

- «لحظة.. كيف أضمن أنك لن تبدأ بالتهامي لو ساعدتك؟»

عاد الصوت اللزج يتردد:

- «لك عهدي ي ي ي.. لك عهدي ي ي ي!»

- «وماذا أعرف أنا عن عهود المسوخ مثلك؟»

- «سـ...ا.. عـ... نـ... ي ي!! ولسوف أكسبـ... ك... القـ... وة!!»

كان الأمر مسليًا.. فهذا الكيان المخيف الذي يملأ البئر تحت رحمتي تمامًا.. وقررت أن ألعب اللعبة حتى أشعر بالخطر.. عندها سأفر وأجلب الرجال، ولسوف نشعل نارًا في البئر وما حولها..

ولكن كيف أجد له لحمًا بشريًا؟ هذه الأشياء لا تباع لدى القصاب..

هنا جاء الجواب..

سمعت صوت العصابة إياها يفتشون عني في المزرعة المهجورة، وسمعت صوت (جيمي الخطاف) يقول لرفاقه:

- «حل الظلام، وهو لن ياتي هنا.. إنّه جبان رعديد...»

- «لكن لا يمكن ألا يكون هنا.. نحن لم نره يرجع إلى القرية..»

كان قراري واضحًا والخطة لا ثغرات فيها...

بحثت حولي حتى وجدت حبلًا غليظًا.. وفي الظلام هرعت أربطة إلى جذع شجرة دانية، ثم هرعت إلى مكان قريب من البئر، ووقفت هناك.. أخذت نفسًا عميقًا وصحت:

- «هييه! يا (خطاف)! تعال واظفر بقطعة مني لو جرؤت!»

سمعت صوت السباب في الظلام، ثم ظهرت الكشافات.. وصاح (جيمي) في رفاقة:

- «إنّه هنا! سيندم على أنه لم يولد ميتًا!»

وسمعتهم قادمون.. نظرت إلى البئر المظلم الذي كان الآن قطعة من السواد.. يجب أن تعمل هذه الخُطة.. يجب..

وظهر الفتيان.. كانوا خمسة، وكانوا يحملون الكشافات، وصاح (جيمي) حين رآني:

- «أنت أيها الأعرج.. ستدفع ثمن لعبك دور الشجعان!»

وتقدم الفتيان..

في اللحظة التالية جذبت الحبل الذي لم يروه في الظلام، وتعثر ثلاثة منهم على الأرض، فوثبت من مكاني وهويت على رءوسهم بجذع شجرة، وقبل أن يفهم (جيمي) ما يحدث بالضبط رفعته من قدميه وتركته ينزلق إلى البئر..

لم يدر أحد ما حدث.. فهو لم يصرخ.. فقط تناثرت بعض قطرات الدم، ودوي صوت كائن عملاق يتجشأ في غلظة.. ثم عاد الصوت في انتشاء:

- «إليَّ بالمزيد !! إليَّ بالمزيد !!»

تصلب الفتيان جميعًا وراحوا ينظرون إلى البئر في غباء.. ثلاثة منهم على الأرض وواحد يقف مفتوح الساقين، كأنما فيلم سينمائي تم إيقافه عند لقطة بعينها.. وصاح أحدهم:

- «ما هذا؟ ما الذي يوجد هناك؟»

لم أترك له فرصة الفهم.. وقذفت بنفسي عليه ليسقط رأسه في البئر، وهذه المرّة استطعت أن أرى أحد الممسات الرهيبة يمتد لينغرس في محجري جمجمته، ولم يصرخ طبعًا..

ومسحت قطرات الدم التي تناثرت على وجهي ونظرت اللباقين، لكن الغول كان قد ازداد نشاطًا وحماسة.. ومن البئر خرجت ثلاثة ممسات - كأنها الأفاعي - ليحيط كل منها بساقي واحد من هؤلاء.. وسرعان ما كانوا يجرون إلى البئر جرا، بينما هم يملئون الدنيا صراخًا.. وتناثر المزيد من الدم..

ساد الصمت أخيرًا..

كنت أنا الآن واقفًا أرتجف، وقد فقدت تمامًا التحكم في ساقي اليسرى التي راحت تهتز كذيل الأفعى ذات الجرس.. وأدركت أن ما يسيل من سروالي ليس دمًا..

كان صوت المضغ والابتلاع لا يصدّق.. لا يصدّق ولا يتحمل..

وجدت الشجاعة كي أسأل سؤالًا واحدًا:

- «من أنت؟»

- «أنا (بيزار الأنتاسي) سيد الظلام.. الذي يأتي قبل الجموع..»

ثم جاء الأمر الرهيب الذي كنت أتوقعه على كل حال:

- «مازلت واهنًا أيها الفاني.. اذهب وآتني بالمزيد.. ويوم أخرج من هنا سأكافئك..»

- «وإن لم أجد يا سيدي (الأنتاسي)؟»

- «عندها سأجيئ إليك أنا، وستكون وجبتي.. لا أحد يفر من (بيزار الأنتاسي).. لا أحد..»

وهكذا رحت أركض كالمخبول نحو القرية، وعدت الفراشي مهمومًا.. لا أدري لماذا تذكرت موقف الصبي الذي وجد نفسه متورطًا مع السجين الهارب في قصة (ديكنز) (توقعات عظيمة).. لكن موقف الصبي كان أفضل بكثير.. لم يكن مطلوبًا منه سوى سرقة الطعام وتقديمه للسجين.. طعام من نوعية الخبز واللحم، أمّا أنا فكان على أن أقدم اللحم البشري لمسخ قادم من الجحيم..

وتمنيت أن أموت فلا أصحو..

لكني صحوت في الصباح برغم كل شيء، وسمعت أن الرجال خرجوا يبحثون عن الفتيان المختفين.. إن المراهقين يذهبون لأي مكان لأي فترة من الوقت.. ويعودون حين تحسبهم لن يعودوا أبدًا.. هذا ما قاله رجال الشرطة، وهم ينقبون في كل ركن من القرية..

بل إنهم فحصوا البئر! نعم فحصوه فلم يجدوا ما يريب..

وبدأت أعتقد أنني كنت أهذي أمس لا أكثر..

لكن جزءًا في عقلي قال لي إنني محق.. وحين قصدت البئر لألقي نظرة أدركت أنني كنت محقًا بالفعل.. لقد كان (بيزار) يلتصق بجدران البئر وقد تحول إلى مادة لزجة كالغراء، لا يراها كل من ينظر في البئر، لكني رأيته ورأيت العينين المتقدتين في الظلام، وسمعته يقول بصوته المريع الغروي:

- «إليَّ بالمزيد أيها الفاني!! إليَّ بالمزيد!!»

والحقيقة أن شيئًا ما بدأ يطرأ عليَّ في هذا اليوم.. لقد بدأ العرج يزول عني، وحين تأملت وجهي في المرأة وجدت أنني اكتسبت سحرًا خاصًا لا شك فيه.. السر هو النظرة.. النظرة الواثقة الهادئة في العينين.. وذلك الطابع العام برجولة رجل رأى كل شيء وعرف الكثير، وليست لديه أية رغبة في الجعجعة..

قلت لنفسي: هذا طبيعي.. ومن حقي بعد ارتكاب كل هذه الجرائم أن أكون جميلًا!

ومن يومها بدأت أمارس دورًا غريبًا بعض الشيء.. كنت أقتاد رفاقي ومن هم في سني إلى البئر.. نحن في سن تحب التحدي وتعشق خرق القواعد التي استنها الكبار.. أراهن على أنك تخاف البئر الجافة يا (توماس).. من قال هذا؟ إذن دعنا نذهب هناك هذه الليلة..

ويذهب معي (توماس) أو (جين) إلى البئر، وهناك ينحني ليلقي نظرة، فأدفعه دفعًا ليسقط فيه.. وأغمض عيني لكني أشعر بالدم يتناثر، وأسمع صوت القضم والبلع والازدراد..

مرت ثلاثة أشهر التهم فيها الوغد ثلاثة آخرين بعد وجبته الخماسية الأولى... من الجلي أنه لا يشبع أبدًا.. متى يجد القوة ليغادر البئر؟ لن أجد طعامًا له للأبد، ونحن في قرية صغيرة، ولن يمرّ شهر آخر إلا ويتسرب الخبر الكريه: كل من اختفوا شوهدوا متجهين للبئر مع الفتى (بارتريدج)..

لكني كنت كذلك أخشى لحظة خروجه إلى عالمنا.. كيف يمكن إيقاف وحش كهذا؟ وأنا؟ هل يفي بعهده معي؟ لو كانت الغيلان تفي بوعودها دائمًا لكان من حقي أن أطمئن!

- «إليَّ بالمزيد!! إليَّ بالمزيد!!»

وجاء اليوم المحتوم الذي لم أستطع أن أجد فيه من يخرج معي إلى البئر.. لقد ساد الذعر القرية وغدت حركتي محدودة جدًا، وكنت أعرف أن كل الوافدين الجدد على القرية ليسوا إلا مخبرين سريين يراقبون كل شيء..

كان الضغط العصبي قد بلغ ذروته لديَّ، حتى إنني لم أعد أهاب الموت.. لم أعد أهاب الغول في البئر.. أريد أن أنام ملء جفوني بلا هموم تنتظرني في الصباح الجديد.. أنام ملء جفوني في فراشي أو في قبري.. لا يهم..

وذهبت إليه في البئر ذات مساء، وقلت له:

- «حان الوقت لتغادر البئر يا سيدي..»

- «أنت لا تحدد لي متى ولا كيف أيها الفاني..»

- «سوف يجدونك سريعًا..»

- «لن يكون هذا خيرًا لهم.. اذهب وجئني بالمزيد..»

- «لم يعد هذا سهلًا..»

هنا ارتفع ممس من ممساته خارجًا من البئر، وصفعني على خدي صفعة جعلت الدماء تسيل مدرارًا.. وبدأت القطرات تتساقط على حافة البئر، وأنا أحاول جاهدًا منعها بمنديلي..

قلت له في غيظ وأنا أتأمل المنديل الملوث:

- «يُمكنك أن تقتلني.. لكني عاجز عن إيجاد ضحية أخرى..»

- «أنت لم تحاول بما فيه الكفاية..»

- «يُمكنك أن تقتلني.. أنا أكرر ما قلت.. لقد هددتني إن أنا لم أجلب لك المزيد من الضحايا أن أكون وجبتك التالية.. وأعترف لك أنني سئمت كل هذا الذعر والهلع.. يُمكنك أن تقتلني الآن وسأكون لك شاكرًا..»

دوى الصوت الغليظ من البئر:

- «أنا وعدتك أيها الفاني براحة الموت لو لم تحقق مطالبي؟»

- «هذا ما قلته لي.. كان وعيدًا لكني الآن أراه وعدًا.. وعدًا بهيجًا!»

- «لقد كذبت عليك!!»

ولم أدر متى ولا كيف هوى الممس عليَّ، فوجدت نفسي أهوي إلى البئر وأنا أصرخ..

ولم أدر كيف ولا متي غبت عن الوعي، لكني قلت لنفسي إن هذه هي النهاية.. لقد أن لي أن أستريح أخيرًا..

☆ ☆ ☆

وفتحت عيني أخيرًا لكن لأجد نفسي هنا.. أمام هذه المحكمة..

لقد اختار لي الغول في البئر نهاية أقسى وأبشع بكثير من الموت الفوري..

وإنني أعترف لكم يا سادة جانب النجوم أنني كنت أشر الأشرار، وأسلمت أعز أصدقائي لهذا الشيء القابع في البئر يغلي ويمور...

☆ ☆ ☆

لما انتهت القصة، ساد الصمت بعض الوقت.. ثم تمطى (سيجفريد الأميدي)..

هنا رأيت ظاهرة بيولوجية غريبة بعض الشيء، ولم تكن مما يريح النفس.. لقد خرج من صدره وهو يتمطى كيانًا هلاميًا غريبًا يذكرك بقنديل البحر، راح يزحف مبتعدًا، لكنه ـ (الأميدي) ـ انقض عليه ليلتهمه في ثانية واحدة.. هؤلاء القوم إذن من الطراز الذي يلتهم أطرافه التي تقرر الفرار..

قال بعدها بصوته الغروي الرغوي:

- «أرى أنّ هناك الكثير من الشر في القصة.. لكنه كان مرغمًا كي ينقذ حياته الخاصّة.. وبرغم كل شيء لا أجده بلغ القمة في غيه..»

- «ما زال أمام البشر الكثير كي يتعلموه!! لكن الأعشاب لا تغدو أشجارًا مهما تعلّمت فنون النماء!»

نظرت ونظر الجميع إلى مصدر الصوت، فوجدنا رجلًا فارع القامة منظره أقرب إلى البشر يتقدم وسط الفراغ الأزرق.. كل شيء فيه كان أسود.. شعره.. عيناه.. ثيابه.. أفكاره.. قلادته الذهبية العملاقة على صدره والخواتم الماسية في أنامله..

صوت البربر الحنجري، والنبرات الواثقة التي تحمل طابع شرق أوروبا..

لو لم يكن الدكتور (لوسيفر) هنا فأين يكون؟

مشى في تؤدة إلى المنصة، وكان صغير الحجم رقيقًا - ربما وسيمًا - بالنسبة لهذه الغيلان المخيفة، لكن من الواضح أن تأثيره نافذ وأن له هيبة ومكانة عظيمتين هاهنا..

التفت إلى الوراء فالتقت عينانا.. هزّ رأسه هزة مجاملة مهذبة، وابتسم ابتسامة جانبية.. ومن الغريب أنني حييته كذلك بحكم العادة، كأنه صديق لي قابلته في القطار..

قال وهو يفرك كفيه المغطيتين بقفازين:

- «ماذا أرى؟ ماذا أرى؟ إن لم يكن هذا هو الدكتور (إسماعيل) بشحمه ولحمه القليلين.. إنّه ضيفي.. به أسعد وله قلبي يطرب.. يبدو أننا سنمرح كثيرًا هنا.. كما اعتاد السادة أن يمرحوا!»

قلت له وأنا برغم كل شيء أشعر ببعض الألفة لوجوده على طريقة (إللي تعرفه..):

- «قل لي.. أين نحن وما معنى هذا كله؟»

- «أنت كما قيل لك بلازيادة ولا نقصان.. أنت في جانب النجوم.. تخاطب سادة النجوم.. وعليك أن تثبت أن لك قلبًا أشر من الشر.. إن للنجاة ثمنًا..»

- «وماذا أتي بي هاهنا؟»

- «أتى بك حظك العاثر، وأنت أدرى منا بحظك العاثر.. ربما كانت هناك مسحة إيحاء من صديق قديم.. هل تذكر العجوز الذي اصطحبته في سيارتك؟ ربما لم يكن عجوزًا.. ولربما كان هو الرجل.. ورهاني كان أنك من بعدي تدخل الثغرة... ورهاني كان أنك تدمي نفسك.. ورهاني كان أنك تنام هناك.. لقد تركت لك الأفكار، وتركتك تفعل..»

صحت في رعب:

- «كنت أنت مسافر الليل؟ إذن هو كمين! لا أكثر ولا أقل!»

قال بصوته البربري الذي يجعلك ترغب في سماع المزيد منه:

- «بل هي دعوة إلى حفل.. وفي الحفلات نلتقي دومًا.. حفل في (نيويورك) وحفل في (هالماجيو) وحفل في جانب النجوم.. د. (لوسيفر) لا ينسى أصدقاءه القدامى، حتى وإن كان في هذا ضعف بشري.. أي ضعف..»

- «والمطلوب مني؟ أنت تعرف أنني لم أقترف شرًا أخطر من سرقة المربى من مطبخ خالي..»

ضحك ضحكة عالية لكنّها بلاصوت على الإطلاق، وقال وهو يجلس في الفراغ:

- «حقًّا ما من بشري يحسب أنه ليس طاهر الذيل كالأطفال.. ربما أخطأت يا دكتور (إسماعيل)، وربما كانت خطاياك أفظع من خطايا هؤلاء.. أنت لا تعرف نفسك.. لكن الخطأ الأول أن تقول في تبجح الفانين: أنا لم أخطئ..»

ثم تركني أفكر في معنى كلماته، ووجه الكلام إلى رفاقي في هذه المحاكمة:

- «فليتكلم من عليه أن يتكلم.. وليصمت من عليه أن يصمت!»

كان من الواضح أن سلطته نافذة هنا.. كأنه مدرب السيرك الذي يتعامل مع الوحوش التي يفوق حجمها حجمه عدة مرات.. وتقدمت الفتاة ذات اللهجة الفرنسية، وكانت جميلة بحق لكن من الواضح طبعًا أنها لا تملك قلب طفل... فوقفت أمام المحكمة، وقالت:

- «أنا (بياتريس لوبير).. هل لي أن أحكي قصتي؟»

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الجشع:

- «ابدئي السرد أيتها الفانية.. ولتعلمي أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «لن أكذب يا سيدي.. لن أكذب..»

وبدأت تحكي قصتها..

☆ ☆ ☆

- ١ -

قالت (بياتريس لوبير): حين يغدو الدم في كل مكان، لا تضير بعض قطرات أخرى!

☆ ☆ ☆

العام 1789..

(باريس) كلها تغلي بالثورة، وبداية خيط الأحداث الدامي الذي قاد إلى إعدام الملك (لويس السادس عشر) والملكة (ماري أنطوانيت)..

كان الغضب في كل مكان من شوارع العاصمة المنهكة التي أدماها الفقر والحقد على النبلاء.. وكانت بذور الشر تغرس في كل مكان ضدّ ملوك البوربون، مع تهديد واضح بالانتشار في كل بقاع أوروبا.. وكانت الثورة الفرنسية هي كابوس الملوك في كل بقاع القارة..

كنت أنا وقتها فتاة تبيع الزهور في شوارع المدينة.. لم يكن هناك من يريد الزهور، ولا أحد يملك المال الكافي إلا للطعام.. أقل الطعام، لكن الناس كانوا يشترون مني لأنني حسناء.. وليس بوسع الرجال أن يقاوموا شراء أي شيء تعرضه عليهم فتاة حسناء..

كنت أبيع الخبز في السابق، ثم بعت اللبن بعض الوقت، ثم جاء دور الزهور.. ولم يزدد الدخل أو ينخفض كثيرًا.. فلو أنني جبت الشوارع بحجارة لبعت منها يوميًا ما يقيم أودي.

حياتنا نحن الهوام لاتتغير.. فقط يدخلها بعض التشويق وبعض الإثارة من حين لآخر.

أذكر يوم هدم العامة سجن الباستيل... كنت أرى جموعهم في الشوارع وهم يتصايحون ويهللون، ثم سمعت صوت الرصاص، وبعدها دوى صوت مدفع.. نعم.. عرفت بعدها أنهم ظفروا بمدفع وهاجموا به الحامية الصغيرة التي تحرس السجن.. وكان يومًا لا يمكن نسيانه.. رباه! أشياء كهذه تجعل الحياة أكثر جاذبية وقابلية للتحمل..

هنا يجب أن أعترف بشيء مهم...

أنا إنسانة باردة جدًّا.. لا تعترف لحظة بآلام الآخرين. لا أدري السبب ولا متى نشأت لدي هذه الخبرة.. فقط أذكر أنني كنت منذ الصغر قادرة بلا تردد على تحطيم عنق دجاجة أو خنق قطة.. لم أكن أهتز كالفتيات الحمقاوات حين أرى شخصًا ينزف أو طفلًا يدمع..

وحين تحمست للثورة المشتعلة في العاصمة، لم يكن هذا بسبب كبت طال، أو انحياز للفقراء الذين أنا منهم، ولكن كان هذا لأني توقعت أن أرى المزيد من العنف والدماء من حولي..

قاسية؟ ربما.. لكني أؤكد أن عواطف 60 بالمائة على الأقل من فقراء باريس كانت من هذا الطراز.. لم يكن الجميع ثوارًا وشهداء.. كان هناك عدد لا بأس به أحبوا الفرصة التي تمنحها لهم الأيام القادمة.. مزيد من التوحش والدماء وإطلاق غرائز العنف من عقالها..

متبلدة؟ لا... ليس إلى هذا الحد.. لأنني كنت في ذلك الوقت غارقة حتى الأذنين في قصة حب..

☆ ☆ ☆

كان اسمه (بيير)..

بالطبع هو وسيم قوي.. الرجل الذي أهيم به حبًا لا بد أن يكون وسيمًا قويًا..

كان خبازًا، وكان قد جاء من الريف من فترة قريبة.. وقد قابلته في المخبز، فأهداني رغيفًا ساخنًا وأهديته زهرة حمراء.. ومن يومها عرفنا أننا متحابان..

كان رقيقًا.. وما زلت لا أفهم سبب هذه الرقة في رجل يفترض منه الخشونة، بينما أنا الأنثى قادرة تمامًا على خنق كلب صغير دون أن أهتم بذلك..

اعتدنا اللقاء في غابة الكرز خلف المدينة، وتعاهدنا على أن نتزوج، وعلى أن نكون سعيدين.. لا أدري كيف، لكننا صممنا على هذا.. وكانت المدينة تغلي بعنف مما أشعرنا أن كل شيء ممكن في الأيام التالية..

ورحنا في استمتاع نراقب الأحداث المتصاعدة بلا هوادة..

السلطة تفلت بالتدريج من الملك و(دانتون) و(مارا) و(روبسبير) يسيطرون على كل شيء تقريبًا، بينما شارات الثورة مثلثة الألوان تنتشر في كل مكان..

وبدأ مشهد جديد مسل يستولي على ألبابنا..

العربات التي تجرها الخيول، يقف في مؤخرتها النبلاء الذاهبون إلى المقصلة، وهم يتجنبون نظراتنا في خزي.. بينما نصطف نحن على جانبي الطريق نقذفهم بالبيض والحجارة والسباب.. أذكر في مرة أن عربة كهذه مرّت بنا، ثم سقط من أحد النبلاء شيء ما في الوحل.. هرعت لأرى ما هو، فوجدتها وثيقة لم أعرف ما بها، لكني لمحت أسفلها توقيع الملك وخاتمه.. نظفتها ودسستها في صدري دون أن أعرف لماذا أفعل.. لكنّها بدت لي أثرًا نفيسًا..

كانت النساء يبكين، والرجال يتظاهرون بالتماسك، بينما نحن نخرج أعنف ما في أعماقنا من مقت وحقد.. ثم نهرع إلى الميدان العام، حيث يقف اختراع الدكتور (جيلوتين) الرهيب.. آلة الحصاد التي تم تحويلها إلى أداة لقطع الرءوس.. وكنا نتصايح ونهلل. بينما يتلو منفذ الحكم جرائم المحكوم عليه..

لم نكن نصغي لهذه الجرائم.. فهي لا تضيف شيئًا إلى الحقيقة التي نعرفها جميعًا... هذا النبيل يعدم لأنّه نبيل.. لأنّه ثرى ثيابه نظيفة ولم يعرف الجوع قط.. هذا سبب كاف والباقي تلفيق من (روبسبير) الجزار الذي يتفق ذوقه مع ذوقي..

ويضع النبيل رأسه في الفتحة ويهوى النصل الحاد، فنهلل جميعًا.. ويرفع الجلاد الرأس أمامنا - والأهم - أمام من ينتظرون دورهم..

قلت لكم إنها كانت من أجمل أيام حياتي! لكن هذه اللحظات كانت في سبيلها للنهاية.. لماذا؟

لقد ظهرت (ميشيل)..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

(ميشيل) كانت فتاة من الطراز الذي يصفه الرجال بالرقة وأصفه أنا بالموات..

كانت صانعة كعك جاءت إلى باريس أخيرًا، وقد عملت في المخبز الذي يعمل به (بيير).. وقد بدأت ألاحظ تغيرات عجيبة بعض الشيء.. في البدء صار يلاحقها بنظراته ثم بكلماته.. بعد هذا لم يعد يلحق بي في الغابة، أو يلحق بي ولكن بشكل غير منتظم..

سألته عن السبب فقال إنّه مشغول، لكني ألححت عليه فقال:

- «لاشيء.. فقط أحسّ أحيانًا بالرعب من قسوتك.. من عدم مبالاتك بآلام الآخرين..»

صحت في حماسية لا بد أنها جعلتني فاتنة:

- «البلد كلها في ثورة يا (بيير).. كل شيء يغلي.. لعل هذا هو السبب الذي لم تعد تحضر معه عمليات الإعدام.. أتراك تجدها قسوة؟»

- «عمليات الإعدام قد تكون مهمّة.. وقد تكون هي القانون.. لكن حضورها ليس واجبًا عليَّ... إنني أقبلها كما يقبل المريض أن يجرع العقار المر.. لكن ليس عليَّ أن أطرب لها..»

وابتلع ريقه وتحاشى نظراتي وأردف:

- «وأنت ـ كما أرى - تطربين أشد الطرب لها»

- «آه!! و(ميشيل) هي الأخرى لا تطرب لها!»

قال في ضيق وهو يعود لعمله:

- «لا تتكلمي عن (ميشيل) بسوء.. فالفتاة أطهر من طفل.. إنها فقط لا تطيق آلام الآخرين..»

وجن جنوني فركلت العجين الذي وضعه في إناء جوار الفرن، وغادرت المكان وأقسمت ألا أراه ثانية..

في المساء أرسل لي رسالة مع غلام أجرب.. لم أكن بالطبع أعرف القراءة إن كان هو يعرف الكتابة، وقد اتجهت إلى جارنا الذي يعمل مع الشرطة بصاصًا... فقرأها لي وكانت هي ذاتها كلمات (بيير) لي في المخبز، وإن جعلها أكثر ترتيبًا.. وقال لي جاري:

- «أيتها الحسناء.. هذا زمن خطر.. وكلمات كهذه ليس من المحب أن يجدها أحد معك.. أقترح أن تتخلصي من هذه الوريقة سريعًا..»

قلت له وأنا أدسها في صدري:

- «لا تخف.. سأفعل..»..

☆ ☆ ☆

كان اسمه (بيير).. وكان اسمها (ميشيل)..

وقد راح صدري يعلو ويهبط من فرط انفعال وغيظ، وأنا أراقبهما من وراء شجرة الصفصاف، وقد جلسا قرب الجدول وراحا يتهامسان.. وكان يغني لها.. وأدركت أنهما سعيدان بالبعد عن الزحام المجنون.. عن الدماء ومواكب النبلاء المتجهة إلى المقصلة وصخب الوحوش مثلي...

وحين انتهى اللقاء واجهت (بيير) بما أعرفه.. هذه المرّة لم يتحدث عن الملائكة والأطفال... فقط أشاح بوجهه عني وقال:

- «آسف يا (بياتريس).. لا أحد يسيطر على قلبه.. وقد وجدت النصف الآخر منه لدى (ميشيل).. حين أحببتك انبهرت بجمالك ونسيت أن لك روح جلاد، بينما (ميشيل) قد لا تحمل وجهك الخلاب لكنّها تحمل روح قدّيس..»

انتهى الأمر.. لن أجادل كثيرًا.. أنا لن أتوسل له.. (بياتريس) لا تتوسل.. لقد فقدته وعليَّ أن أقبل هذا.. لكن من قال إنني سأقبله؟ إن الحب كعصير العنب سرعان ما يتلف ويستحيل خلًا لا يمكن شربه.. لقد رأيت هذا يحدث مرارًا.. أعنف الحب لا يصير إلا أعنف المقت وهذه طبائع الأشياء..

وفي المساء اتجهت إلى جارنا البصاص وقلت له:

- «أريد أن أذهب إلى المحكمة الثورية.. لدي ما أقوله لهم..»

كان يحبّ هذه الأمور، لذا راح يتقدمني في الطرقات، وصوت مركوبه الخشبي يضرب أحجار الطريق..

هناك كان الثوار جالسين يثملون، وعلم الجمهورية ثلاثي الألوان يتدلى فوق رءوسهم.. تقدمت من الزعيم، وقلت له إنني أريد الإبلاغ عن (بيير لافون) الخباز..

- «إنّه جاسوس للملكيين.. ولدي الدليل..»

ثم أخرجت الخطاب الذي أرسله لي (بيير)، وكان يقول فيه بوضوح إنِّه لا يطيق ما صارت إليه الثورة من دموية.. وإنه لن يذهب ليرى الإعدام أبدًا..

قال الرجل وهو يتأمل الخطاب:

- «جميل يا حلوة.. لكن هذا كلام عام قد يقوله أي شخص مرهف الحس..»

هنا مددت له يدي بالخطاب الثاني الذي سقط من عربة النبلاء، وكنت قد جعلت أحد القوم يقرؤه لي.. وعرفت ما فيه.. وهكذا راح الرجل يقرأ بصوت عالٍ:

- «نحن (لويس السادس عشر) ملك فرنسا، نوصي كل رعايانا بالاهتمام بحامله نظرًا لكل ما قدمه لنا والملكية من خدمات جليلة.. ثم توقيع الملك وخاتمه..»

رفع الرجل عينيه المحتقنتين إلى الرجال، وهمس لي:

- «هذا خطير جدًّا.. أين وجدت هذا؟»

- «في المخبز.. إنّه يداريه تحت حجر كبير لكني سرقته منه..»

ونظر الرجل إلى أعوانه وهتف بلهجة آمرة:

- «اعتقلوا الخباز (ميشيل لافون) حالًا..»

- «وفتاة تدعى (ميشيل لاريف) كذلك... إنها جاسوسة معه!»

وهكذا تم الأمر.. كانت محاكمة صورية رأيت مثلها مرارًا.. تهريج لا أكثر.. ولم تكن لدى الفتى أية حجة ولم يصدّق أحد أنه لم ير صك الملك من قبل.. أمّا الفتاة فقد تطوعت بالشهادة بأنها جاسوسته.. كلاهما كان ينقل أخبار الثوار إلى الملكيين.. وكلاهما كان يضغط على أعصابه وهو يرى مواكب الإعدام اليومية..

وفي نفس الجلسة ونفس الساعة أصدرت المحكمة حكمها على الحبيبين بالإعدام.. فقدت الفتاة وعيها، على حين تماسك (بيير).. نظر لي بعينين من نار وقال ضاغطًا على أسنانه:

- «فلينتقم الله منك.. ولتكن دماؤنا البريئة وبالًا على رأسك..»

لكني لم أهتم..

وبعد ثلاثة أيام اتخذت مكاني وسط الجماهير.. كنت في أول الصف كي أرى بعيني انتقامي ينفذه حد المقصلة الرهيب.. هذا شعاري.. إما لي أو لن تكون لأحد..

وجاء الحبيبان.. وتمت العملية في سلاسة ويسر مما جعلني أنتشي من دون طلا.. لقد سال دم كثير، لكن ما أهميته جوار كل الدماء التي سالت من قبل؟ نحن في زمن مخيف يا رجال.. نحن في زمن مخيف!

☆ ☆ ☆

كان اسمه (بيير).. لكنه الآن لم يعد اسمًا.. وحين جاء المساء ذهبت إلى الغابة حيث اعتدنا اللقاء، وجلست وحدي.. هذه المرّة كان شيء من الندم يغمرني.. لماذا فعلت هذا؟ هل أنا حقًّا بهذه القسوة؟

ما زلت أحب نفسي وأحترمها.. ما زلت أشعر بأنني فقط إنسانة تعسة لم تؤت ظروفًا تناسب جمالها.. ولم تؤت روحًا تقبل ظروفها.. ولم تؤت حبيبًا يفهم روحها..

شعرت بأن الأحراش تتحرك من ورائي فارتجفت.. هل هي الريح؟

لا.. لا توجد ريح..

فقط كنت أراه قادمًا من خلفي يمسك بيده الفتاة.. وكلاهما من دون رأس.. وكان يقول لي من دون فم:

- «فلينتقم الله منك.. ولتكن دماؤنا البريئة وبالًا على رأسك..»

لم يكن هناك لكني شعرت به بقوّة.. أصابني الهلع فرحت أركض بين غصون الأشجار.. اصطدم غصن بوجهي فسال دم كثير.. لكني واصلت الجري..

فجأة.. تعثرت.. شعرت بالأرض تميد من تحت قدمي.. صرخت وأنا أنزلق لأسفل..

وفهمت أنني وقعت في حفرة غير ظاهرة..

فهمت هذا وأنا أنزلق وأفقد الوعي إثر ارتطام رأسي بالقاع..

وحين أفقت وجدت نفسي هنا أمامكم معشر سادة جانب النجوم.. ومن جديد وكما قال الآخرون: أشعر بأنني عن جدارة أستحق أن أفوز بالحياة وأستحق لقب أشر الفانين الذين جاءوا هنا..

☆ ☆ ☆

نظر (سيجفريد الأميدي) الرهيب إلى (لوسيفر) والدخان يتصاعد منه كعادته كلما رضي عن شيء.. وعوى (روكيان) و(فلاد) بينما راحت أوردة (يوليان) المغتصب تزحف على الأرض بحثًا عن شيء تشربه.. وقرب منه أحدهم دلوًا مليئًا بشيء أحمر - دماء غالبًا - فهوت الأوردة عليه وراحت ترشف ما بداخله في نهم.. كل هذا وصاحب الأوردة يتابع الكلام بلا احتفال بها..

قال (الأميدي) والدخان يزداد كثافة:

- «هذا شر خالص.. شر نقي قلما نراه في الفانين..»

قال د. (لوسيفر) وهو ما زال جالسًا يعبث في سلسلة عنقة الذهبية:

- «أنت تقول.. لكن فحواه ليست شرًا خالصًا.. ثمة هوى محبط.. والرغبة في الحب لا غبار عليها بالنسبة للفانين، ومن الوارد أن تغدو كراهية دموية.. أرى أن نستمع إلى القصة التالية..»

مقاطعًا سألته همسًا:

- «هل يعني هذا أن كل هؤلاء انتظروا كل هذا الزمن بانتظار أن أشرف أنا لتبدأ المحاكمات؟ إن الفتاة تحكي قصة وقعت منذ قرنين..»

- «لا وجود للماضي أو الحاضر أو المستقبل في جانب النجوم يا د. (إسماعيل).. الفتاة عاشت قصتها منذ قرنين لكنّها جاءت للمحاكمة فورًا.. هي تعرف أن لها هنا قرنين، لكنّها تعرف كذلك أنها حوكمت فور وصولها إلى جانب النجوم.. لا تناقض هناك! بل قل إن جانب النجوم هو التناقض ذاته حيث لا زمن.. لا أبعاد!»

هنا فوجئت بشيء مريع يظهر.. لقد اعتدت الأشياء المريعة لكن هذا كان أسوأها على الإطلاق..

كان ذئبًا هائلًا.. يمشي على قدميه الخلفيتين، ويعوي.. إن ارتفاعه واقفًا كان يدنو من ثلاثة أمتار.. أي أنه بارتفاع سقف الحجرة التي أنت فيها الآن... عيناه جمرتا نار والدم يسيل من فمه المفعم بالأنياب..

وقال أحد المجتمعين:

- «(أمبروزو المذءوب) يطلب العبور إلى عالم الفانين..»

قال (الأميدي) في غير اكتراث:

- «فليذهب.. وليكن الحظ حليفه..»

ورأيت (أمبروزو) يدفع رأسه دفعًا في جدار أزرق لا وجود له.. يضربه بعناد وهو يعوي بلا انقطاع.. يضربه.. والشرر الأزرق ينبعث من حوله.. وفي سقف القاعة راحت آلاف الأيدي ذات المخالب تصفق في استمتاع..

الجدار الذي لا أراه يمتثل ببطء.. الثغرة تتسع.. إنه يعبر..

سألت في لهفة وذهول:

- «هل هذا مذءوب؟ ماذا عن مذؤوبي الأرض لطيفي المعشر رقيقي الحاشية؟»

قال (لوسيفر) بلهجة الحكيم الذي يعرف أكثر:

- «هذا هو منظرهم الحقيقي.. هذا الذي رأيته سيخرج الآن من ثغرة ما في (رومانيا).. ربما في كوخ قديم أو كنيسة مهجورة.. الكنائس المهجورة ذات خطر جسيم لأنهّا أماكن كانت الصلوات تقام فيها ثم لم تعد.. أماكن العبادة التي كف الناس عن ارتيادها ونسوها هي أخطر الثغرات التي يعبر منها سادة جانب النجوم... بعد أن يخرج (أمبروزو) سيتخذ شكلًا أقرب لما تفهمونه أنتم، ويجرح أول عابر سبيل.. وهكذا يتفشي وباء المذءوبين لفترة طويلة..»

ثم عاد يكرر طلبه إلى المحكمة:

- «القصة التالية!»

تقدم الشاب الثاني من قلب المنصة، وسط ضوء (الإكليديس).. ورفع يده هاتفًا:

- «أنا (كاسيوس توماسوس).. من روما العظيمة.. هل لي أن أحكي قصتي؟»

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الجشع:

- «ابدأ السرد أيها الفاني.. ولتعلم أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «لن أكذب يا سيدي.. لن أكذب..»

وبدأ يحكي قصته..

☆ ☆ ☆

- ١ -

قال (كاسيوس توماسوس) بلغته اللاتينية العتيقة التي أثار دهشتى أنني صرت أفهمها فجأة:

ـ «الخبز وألعاب السيرك.. هذا هو كل ما يحتاج إليه الشعب الروماني في عصر أمجاد روما.. لقد قالها مؤرخون كثيرون، ولم يدركوا كم هي صادقة..»

☆ ☆ ☆

إن اسمي يوحي بالعظمة.. لكني لست قائدًا رومانيًا ولا من رجال مجلس الشيوخ لو خطر لكم هذا ببال.. أنا مجرد حداد.. صانع سيوف يجلب بها الرجال الآخرون المزيد من المجد لروما..

لكن المدينة العظيمة لم تقض وقتها كله في القتال.. كانت ترتقب بشغف يوم السيرك، حيث يذهب الجميع إلى (الأرينا)، التي تقام فيها المباريات.. كل شيء يمكن أن تراه هناك، بدءًا بسباقات عربات الخيول، مرورًا بالمعارك البحرية التي يتم ملء الحلبة بالمياه من أجلها، مرورًا بمصارعات العبيد حتى الموت، وانتهاء برمي المسيحيين إلى الأسود..

كانت روما كلها تنتظر هذه اللحظات في شغف، ويمكن لأي معاصر أن يتهمنا بالتهمة التي سيصكونها في القرن التاسع عشر: السادية... لكن لو فكرت في الأمر لوجدت أننا لم نكن بهذه القسوة..

نحن نعرف ما يدور على الأرض الآن.. ونعرف أنّ هناك في العالم المعاصر من يترك ديكين يتصارعان حتى الموت، وهناك أطفال يهوون إغراق الكلاب الصغيرة، وهناك مذابح جماعية وإبادات عرقية.. حقًّا لم يتخلص الإنسان من القسوة بعد، وما زال لا يختلف كثيرًا عن جمهور الرومان الذي يزدحم في (الأرينا).. ولا أستغرب كثيرًا حين أرى فتاة تصرخ في وحشية في إحدى مباريات المصارعة الحرة الحديثة، تطالب بطلها بأن يهشم عنق الآخر.. هذه الفتاة لا تختلف عن فتيات عصرنا اللواتي كن ينهضنا صارخات في توحش، وهن يشرن بإبهامهن إلى أسفل، بما معناه الموت للمصارع الساقط على الأرض..

كان السيرك الشهير هو (سيركس ماكسيموس).. أشهر سيرك على الإطلاق في التاريخ كله.. أنشأه (يوليوس قيصر)، وكان يتسع لمائتي ألف متفرج... ويقال إن (بومبي) العظيم أقام خمسة أيام. من ألعاب السيرك مات فيها خمسمائة أسد وعشرين فيلًا..

هناك كنا نستمتع بالمصارعات بين العبيد.. يخلب لبنا الريتياريوس الذي يقاتل بالشبكة، ويحاول أن يشل حركة خصمه السيكوتور.. والمصارعون على الخيول.. وحاملو الهراوات.. الخ..

لكن أسوأ الساديين كما تصفونهم.. أشر الأشرار.. كانوا هم الحكام الرومان أنفسهم.. يبدو أنهم جميعًا كانوا مجانين، ولم يكونوا يعيرون الحياة البشريّة أدنى اهتمام.. وكنا في عصر أكثر الحكام جنونا على الإطلاق: كاليجولا.. الابن الأصغر لقائد عظيم هو (جرمانيكوس).. الذي أطلق عليه اسم (كاليجولا) تهكمًا من أحذيته العسكرية.. إن (كاليجولا) باللاتينية: (الحذاء الصغير)..

هذا هو المنظر الخلفي لقصتي، وهو كما ترون غني بالعنف بالقسوة بحيث لا يحتاج إلى مزيد...

☆ ☆ ☆

متى صرت شريرًا؟

الإجابة المعروفة هي أنني لا أذكر.. لكني لم أر في نفسي خيرًا قط، ومنذ شبابي لم أتورع عن شيء، لأنني - كما قررت - لا جدوى من إصلاحي.. كنت أغش وأسرق وأخدع وأطفف في تجارتي، لكني لم أقتل قط ولم أتسبب في مقتل مخلوق.. حتى هذه اللحظة..

كنت أتعامل مع القصر، فأصنع الأسلحة للإمبراطور.. وكانت هذه الفترة هي فترة الرحمة في حياته.. كان ما زال عاقلًا يسوس البلاد بعناية، قبل أن يجن ويعتبر نفسه إلهًا، ويعين حصانه مستشارًا، ويقتل أقاربه، وما إلى ذلك من هذا الهراء الذي سمعه اللاحقون وضحكوا منه أو ارتعبوا..

أحيانا كنت أقابله في بلاطه وسط حراسه، فكان يتفحّص السيوف التي أصنعها ويختار بعضها ويجزل لي العطاء.. كان رجلًا عسكريًا يحبّ السلاح الجيد...

ذات يوم كان رائق المزاج (أم لعله ثمل؟) فراح يتجاذب أطراف الحديث معي.. سألني عن السيرك، وما إذا كان يروق لي، فقلت له وأنا أخفض نظري تأدبًا:

- «جميل يا سيدي.. هو بهجتنا ومصدر هنائنا.. لكني كنت أتمنى لو طعمته ببعض الدببة..»

- «دببة؟ هذا غريب..»

وفي تأدب شرحت له أن الأسود تقتل ضحاياها على الفور وكذا النمور... أمّا الدببة فتعبث بها عبثًا ولربما تجاذب دبان ضحيتهما.. مما يجعل المشهد مسليًا بحق..

- «من أين لك هذا العلم أيها الحداد؟»

- «رفاقي الجنود العائدون من آسيا أيها الإمبراطور.. وصفوا لي المشهد ببراعة كأنما رسموه لي..»

راح يفكر.. ولم أدر أن كلامي وقع من نفسه موقعًا حسنًا..

هنا ـ أكرر ـ لم يكن قد جن بعد، لكن أي إمبراطور روماني كان بحاجة إلى تسلية الجماهير.. وتسلية الجماهير ضمان الاستقرار الدائم.. وقد دفعته هذه الحاجة إلى جلب بعض الدببة من آسيا.. لامشكلة هنالك فالإمبراطورية الرومانية تمتد في أرجاء الأرض... من الجرمان المتوحشين في الشمال حتى وسط إفريقيا في الجنوب.. ومن أسوار الصين حتى ساحل البحر الكبير في الغرب..

وجاء اليوم الذي أعلنوا عنه طويلًا ونزلت الدببة الشرسة إلى الحلبة، وكان أداؤها رائعًا جعل المشاهدين يصرخون حماسة.. إن الدببة سادية تمامًا مثل المشاهدين.. ربما أكثر.. ومن الغريب هنا أن الأسود رحيمة تكتفي بالقتل والالتهام، لكنّها لا تلعب تلك الألعاب القاسية..

لا أدري إن كان هذا قربني للإمبراطور، لكنه في تلك الأيام كان قد بدأ مرضه العضال الذي أودى بعقله إلى الجنون..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

في (الأرينا) من جديد...

كان العرض قد بدأ وكان الناس يهللون وهم يشاهدون سباقات الخيول.. وأنا أراها مملة بحق لأنهّا لا تحتوي على العنف الكافي لي..

بعد هذا تأتي مصارعات العبيد.. وهي لا بأس بها حقًّا..

أرفع عيني لأعلى كي أرى (كاليجولا) ـ الذي بدأ عقله يختل تمامًا ـ جالسًا في المقصورة وسط النساء، يلتهم الفاكهة ويتأمل المصارعة من خلال بلورة نقية حمراء..

العبد يسقط خصمه ببضع ضربات، ويرتمى الخصم على الأرض عاجزًا عن النهوض.. فيرفع العبد الأول رأسه إلى الإمبراطور والمشاهدين طالبًا رأيهم... ببطء شديد ترتفع أصابع المشاهدين لأعلى.. الإبهام المصوب إلى السماء معناه الإبقاء على حياة الخصم.. لقد أبلى بلاء حسنًا ومن حقه أن يعيش...

لكن الإمبراطور يخفض إبهامه في إشارة واضحة إلى أنه يرفض قرار الجماهير.. على العبد أن يقتل ضحيته وإلا مات هو نفسه.. قديمًا تمرد عبد هو (سبارتاكوس) على القرار، فأبيد هو ومئات العبيد الذين حاول أن ينظمهم في ثورة تجتاح روما.. أحمق.. هل يمكن أن تقهر روما؟

وينتهي العبد من قتل خصمه وسط احتجاج الجماهير.. قلما اصطدم إمبراطور بإرادة الجماهير بهذا الشكل المباشر الفظ، والحقيقة أن (كاليجولا) كان يسير في الطريق الطويل المفضي إلى التمرد والثورة، ولهذا قتله قواده فيما بعد.. في مناسبة لم أحضرها بالطبع..

بعد هذا يجيء أهم أجزاء الحفل بالنسبة لي: إنهم يلقون المسيحيين إلى الحلبة.. المسيحيون الذين يمارسون عقيدتهم سرًا برغم أوامر الإمبراطور... هؤلاء كان يتم القبض عليهم في الأقبية والسراديب التي يجتمعون فيها، وكانوا يلقون إلى الأسود بلا مناقشة..

يقفون يبكون ويصلون، وتغطي الأمهات عيون أطفالهن... يتجمّعون في منتصف الحلبة محاولين أن يتحملوا اللحظات المريرة القادمة.. وسرعان ما تنفتح الأقفاص وتخرج الأسود التي طال جوعها وتوحشت..

إن هذه المشاهد معروفة على كل حال، ولن أطيل عليكم وصفها.. لكن الجمهور كان قد بدأ يتحول إلى وحش مسعور هائج لا يمكن إشباعه أو إسكاته..

كنت أراقب هذا الذي يحدث، وأختلس نظرة إلى أسفل الحلبة.. فلاحظت شيئًا فاتني من قبل..

كان هناك عدد من المتفرجين الأكثر حماسة قد غادروا مقاعدهم، وعبروا إحدى البوابات الحديدية المحظور عبورها على الجمهور.. هكذا صاروا في الحلبة فعلًا.. لكنهم كانوا يتسلقون بعض القضبان الحديدية المنصوبة هناك كي يروا المشاهد الرهيبة بشكل أفضل.. وكانوا يعلمون أن الباب وراءهم... يمكنهم أن يعودوا له في أي وقت يشاءون.. بالإضافة إلى أن الوحوش كانت مشغولة، وكان هناك عدد من الحراس بدروعهم ورماحهم يمنعون الوحوش لو قررت العودة إلى هؤلاء الدهماء..

خطرت لي فكرة.. فكرة من الطراز السابق..

توجهت إلى مقصورة (كاليجولا) وطلبت المثول أمامه، وكان الحراس يألفون وجهي، لكني برغم ذلك صحت:

ـ «أنا صاحب فكرة الدببة أيها الإمبراطور!»

نظر لي وأشار إلى الحراس كي يخفضوا رماحهم، ثم قضم قطعة من تفاحة.. بينما زحفت على ركبتي حتى صرت تحت قدميه.. قلت له خافض البصر:

- «لديَّ فكرة لإمتاعكم وإمتاع أهل روما العظيمة أيها الإمبراطور..»

لم يتكلم فرحت أقص عليه فكرتي.. وأدركت أنها راقت له لأن ابتسامة وحشية شاعت في وجهه.. كلا لم أكن أبغى التقرب له قدر ما أردت أنا نفسي أن أرى هذا المشهد..

☆ ☆ ☆

انتهت الأسود من آخر المسيحيين فتم إخلاء الحلبة.. دخل الجنود برماحهم ودروعهم واقتادوا الأسود إلى أقفاصها.. الرمال مازالت طرية بالدم..

ثم أعلن مقدم الحفل عن الدببة.. انفتحت الأقفاص وظهرت الدببة العشرة التي جاء بها (كاليجولا).. كانت جائعة كالعادة، وراحت تدور في الحلبة بحثًا عن الفريسة..

لم ير أفراد الجمهور المتحمسون - الذين يتسللون إلى خارج الحلبة ـ أن البوابة خلفهم قد انغلقت..

لم يروا أن الحراس انسحبوا إلى الوراء خلسة..

لم يفهموا أنهم تم استبعادهم من صفوف الجماهير ليجدوا أنفسهم داخل الحلبة فعلًا، وأن الحلبة ملأي بالدببة الشرسة..

وحين فهموا.. وحين سمعوا صياح الجماهير المتحمس.. عندها ركضوا إلى البوابة الموصدة وراحوا يضربونها..

راحوا يتوسلون إلى (كاليجولا) كي يُطلق سراحهم.. لكنه كان في حالة جهنمية من النشوة، ولم يكن على استعداد لإفساد متعته هذه.. كان أشد ما راق له في الأمر هو ذهول هؤلاء حين انتقلوا بسرعة البرق من خانة المشاهدين الآمنين إلى خانة الضحايا..

وسرعان ما انقضت الدببة.. وكالعادة كان أداؤها باهرًا وأطالت عذاب هؤلاء التعساء أطول وقت ممكن...

ولم نسمع صراخهم لأن (كاليجولا) كان يقهقه في هستيريا.. يقهقه كما لم يفعل من قبل..

☆ ☆ ☆

هل تسببت في جنونه؟

لا أزعم لنفسى شرفًا كهذا.. (كاسيوس توماسوس) مجرد حداد لا يقدر على تبديل الملوك.. لكن الحقيقة أن (كاليجولا) بعد هذا اليوم أدرك أن القسوة ميثاقه ودينه، وأن عليه أن يظفر بأقسى المتع في الحياة لأنّه سئم كل المتع العادية.. لقد تبدل (كاليجولا) من مجرد إمبراطور سادي قاسٍ إلى وحش مجنون..

وكنت أنا مذعورًا وأنا أراه يتخلص من أقرب الناس إليه، وكل من أسدوا له العون يومًا ما..

لماذا لا يجيء دوري؟ لماذا لا يتخلص مني يومًا ما؟

إنه مجنون.. والجنون لا يخضع للمنطق أبدًا... ولا يحفظ الجميل لو كان ما فعلته معه جميلًا..

وهكذا فررت خارج روما ذات ليلة مدلهمة، وتواريت في أطلال معبد قديم..

أعتقد أنني لم أجرح نفسي كما فعل كل من جاء هنا.. وربما فعلت..

فقط فتحت عيني لأجد أنني في جانب النجوم، وأن عليَّ أن أقضي ألفي عام لا أدري كيف مرّت.. لكني أشعر بأنني جئت هنا من دقائق لا أكثر..

صدقوني يا سادة جانب النجوم.. ليس من الموجودين هنا من هو أشر من (كاسيوس توماسوس).. لا لست أشر الناس قاطبة لأن (كاليجولا) كان أكثر شرًا مني.. لكني أشر الموجودين هنا على الأقل، ولهذا أطلب الحياة..

☆ ☆ ☆

انتهت القصة وكنت أنا بحق أمنع نفسي من القيء.. إن كل هذا الشر لا يناسب معدتي جيدًا خاصة في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لوكانت في جانب النجوم ساعات متأخرة..

قال د. (لوسيفر) بطريقته البطيئة المنهكة:

- «صدق إذ قال إنّه ليس أشر الناس قاطبة.. ربما كان أشر الموجودين أو لم يكن.. لكنه بالتأكيد ليس أشر من عرفت..»

ونظر لي وابتسم ابتسامته الصفراء الغريبة، فقلت:

- «لوكنتم تريدون مستوى أعلى من الشر فعندكم كفار قريش.. والفرنسيون.. وعندكم جزارو (دير ياسين) و(كفر قاسم)[2].. حقًّا إن العالم مليء بالشر الذي يكفي لجعل هؤلاء الواقفين هنا هواة..»

قال موافقًا وهو يمسح جبينه بمنديل حريري:

- «الحق قلت.. لكننا لا نختار زوار جانب النجوم.. هم يختارونا..»

قلت له في ملل لم أستطع الخلاص منه قط:

- «أنا لن أظل هنا للأبد.. إن قصصي لن تروق لكم.. تأكد من هذا.. يمكنكم بسهولة الفتك بي الآن أو تركي أعود إلى عالمنا وينتهي الأمر..»

- «بل تنتظر.. تنتظر حتى يسمعك (فلاد الوالاشي) ويعرف أنك من كان سبب هلاك (هالماجيو) التي صارت (إنفرنوس)!!»

كنت أخشى هذه النقطة بالذات، ونظرت إلى الأخ (فلاد) لكنه لم ينظر لي قط.. وبدا كأنه لم يسمع ما أقول.. ونظر (لوسيفر) إلى المحكمة الموقرة، وهتف:

- «الآن فليتكلم من عليه أن يتكلم.. وليصمت من عليه أن يصمت..»

هنا تقدمت الفتاة الثانية إلى الأمام.. كانت ترتجف تهيبًا لكنّها تماسكت.. من فمها خرج الصوت الواهن المتحشرج:

- «أنا (جين هاملتون).. أمريكية.. أرجو أن يؤذن لي بالكلام كي أبرهن على شري..»

يا للجنون! في هذا المكان العجيب فقط يمكن أن تقال كلمات هذه.. بينما في كل مكان من العالم يكذب الشرير كي ينجو.. هل تريد رأيي؟ معنى هذا أنّ هناك أملًا في عالمنا.. ما زال الخير هو الغالب وهو من يضع القواعد وهو من يحاسب الشر.. وما زال الشر هو الأضعف وهو المحتاج إلى الكذب والمداراة والاختباء والخداع.... ما دام الميزان لم يختل فالأمل موجود..

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الرغوي الذي يحطم أعصابك إن لم تكن تحطمت من منظره:

- «ابدئي السرد أيتها الفانية.. ولتعلمي أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «لن أكذب يا سيدي.. لن أكذب..»

وبدأت تحكي قصتها..

☆ ☆ ☆

- ١ -

قالت (جين) بصوتها المرتجف:

- «ليس كل ما يلمع ذهبًا، وليس كل ما يطير نسرًا..»

☆ ☆ ☆

أنا أعيش في (يوتاه).. والبلدة التي أعيش فيها بلدة صغيرة قرب (سولت ليك سيتي)، على ضفاف نهر الأردن..

بلدة من التي تكثر فيها القصص والأقاويل، لأنّه ما من أحد يجد طريقة أفضل للتسلية..

كانت أسرتي تدين بعقيدة (قديسو اليوم الآخر) التي تنتمي إلى (جوزيف سميث).. بعبارة أخرى نحن من (المورمون).. وهم طائفة دينيّة محافظة تعيش بقواعد أقرب إلى القرن الماضي، وباختصار كنا نحن الفتيات الأمريكيات الوحيدات اللاتي لا يكلمن الفتيان، ويعدن للبيت قبل التاسعة مساء..

وأنا هنا لا أتكلم عن المورمون.. إن عيوبي وأخطائي - التي سأحكى عنها - هي عيوبي وأخطائي أنا ولا دخل للمورمون في الأمر..

فقط أردت أن أبين لك الجو النفسي الذي تعيش فيه بلدتنا، وكيف أن مجموعة من الفتيات يخنقهن الملل إلى حد القيام بما قمنا به.. وكيف أن الخطر الذي يتهددنا كان عظيمًا سواء مما قمنا به، أو من أهل البلدة..

متى حدث هذا؟ حدث في الصيف.. إحدى أمسيات الصيف..

☆ ☆ ☆

كنت جالسة مع صديقاتي (روزلين) و(كاتي) و(ليا).. إننا في ذات سن المراهقة، وكلنا في المدرسة الثانوية معًا.. كنا نشعر بالملل الشديد وبحثنا عن أي شيء نفعله مما تفعله بنات الضواحي الصغيرة المهذبات اللاتي تربين جيدًا.. والمشكلة هي أننا فعلنا كل شيء تقريبًا وفعلناه مرارًا..

كانت (روزلين) أقوانا شخصيّة وهي المحرك الدائم لهذه المجموعة، وكان اقتراحها بسيطًا:

- هل تعلمن يا بنات ما كان يحدث في الغابة القريبة؟ على ضفة النهر؟»

قلنا لها إننا لا نعلم... من العسير أن تكون واحدة منا من العلم إلى درجة أن تعرف كل ما حدث في غابة معينة.. هذه مبالغة لا شك فيها...

قالت (روزلين) وهي تستمتع بإثارة فضولنا:

- «كانت الساحرات يجتمعن هناك في الليالي المقمرة...»

كنا نعرف هذا بالطبع.. كل البلدة تعرفه.. لكن هذا الكلام الفارغ كان يحدث منذ مائة عام.. ربما مائتين.. لا أحد يعبأ بهذا اليوم.. لو أنك عددت الأماكن التي حدثت فيها جريمة قتل أو الأماكن التي كانت فيها ساحرات، في المائة عام الماضية فلن تجد مكانًا تمشي فوقه..

قلنا لها في ملل:

- «كل جحش في البلدة يعرف هذا..»

قالت وعيناها تلمعان:

- «لا مشكلة.. أنا لا أطلب منكن التذكر بل أطلب المشاركة.. الليلة يكتمل القمر، وهناك فرصة لا بأس بها في ساعات من الإثارة.. سنلتقي الليلة هناك.. منتصف الليل.. لتحضر كل واحدة منكن عباءة سوداء ومكنسة!!»

- «حتى لو تحمست فكيف أغادر الدار ليلًا؟ أنا لن أتمكن من الخروج بعد العاشرة مساء يا (روزلين).. أنت تعرفين هذا..»

وقالت (ليا) شيئًا مماثلًا..

هنا قالت (روزلين) في مكر:

- «الأمر هين.. كلنا نعاني المشكلة ذاتها.. لكننا سنتسلل تحت جنح الظلام.. ماذا عن وسادة تحت الملاءة؟ ماذا عن مغادرة البيت من الباب الخلفي؟»

فكرنا قليلًا.. لا بأس.. من الممكن أن ننفذ هذا.. لا توجد واحدة منا لا تستطيع المجيء إذا أرادت، والتنصل من الأمر لا يعني إلا الخوف.. خوف من ماذا؟ لاشيء يخيف في هذه الغابة ولافي بلدتنا كلها.. ومعنى التنصل هو الجبن والظهور بمظهر مضحك أمام الأخريات... لأسباب كهذه يفعل المراهقون أي شيء.. أي شيء..

سألتها (كاتي) في تهكم:

- «هل أحضر معي قطة سوداء وقلب طفل؟»

- «لو كان عندك شيء كهذا فلا تبخلي به علينا!»

وعدت لداري.. كانت الأسرة بانتظاري للعشاء.. بعد العشاء أعلن أبي أن عليَّ دخول الفراش أنا وأخي وأختي.. والأعمار بالترتيب هي 17 - 11 - 7.. ثلاثة أطفال وهو عدد قليل جدًا بالنسبة للمورمون.. إنهم يؤمنون بكثرة النسل، كما أنّ الرجل يتزوج أكثر من واحدة، وأمي تعرف أن أبي سيتزوج يومًا ما لكنّها لا تعترض..

غرفتي في الطابق الثاني من البيت.. وعلى خلاف كل غرف المراهقين، ليست فيها صورة واحدة لأي من المشاهير ونجوم الغناء.. بالأحرى ليست فيها أية صورة على الإطلاق..

لكن فيها نافذة.. والنافذة تطل على المرج الخلفي..

لقد استعملت هذا الطريق سرًا مرارًا.. والسبب كما ستعرفون بعد قليل أنني شريرة.. نعم شريرة..

لم تكن (روزلين) جادة حين تكلمت عن الوسادة تحت الغطاء، ولكني فعلت هذا مرارًا من قبل، والانطباع النهائي يوحي لمن يراه أنني نائمة بعمق..

وحين تأكدت من أن الأضواء قد أطفئت في البيت كله، فتحت النافذة، وعضضت على الكشاف الصغير بأسناني، وغادرت الغرفة كاللصوص من النافذة..

طبعا لم أكن خالية الوفاض.. كانت معي عباءة سوداء، ومكنسة صغيرة علقتها بحبل في عنقي.. وبعض الأشياء الأخرى..

☆ ☆ ☆

من القادم هناك عبر الأحراش؟ الذي لا وجه له ولا اسم له؟

إنه أنا أيتها الأخت (مرلين).. أنا الأخت (برسياليوس).. هووووه! هووووه!

كنا قد بدأنا نتجمع في تلك الرقعة الخالية بين الأشجار، والتي غمرها ضوء القمر.. أربع فتيات في أربع عباءات سوداء، ومعنا المكانس.. وقد جلبت معها (روزلين) بعض الشموع والطبشور ورسمت نجمة خماسية على الأرض..

تعالت الضحكات وصيحات المرح.. هانحن أولاء نفعل نفس ما كانت الساحرات يفعلنه منذ قرون.. وكان الحرق أو الغرق مصيرهن.. أمّا نحن فلسوف نمرح قليلًا ثم نعود لديارنا..

كنا قد أطلقنا على بعضنا أسماء جديرة بالساحرات.. وكانت الأخت (برسياليوس) طبعًا هي (روزلين) وقالت لنا وهي توشك على فقدان وعيها من كثرة الضحك العصبي:

- «والآن ماذا نقول؟»

- «المفترض أنك تعرفين هذه الأشياء..»

- «أنا لا أعرف كيف كان الأمر يبدو..»

قلت أنا وقد رسمت على وجهي الجد:

- «حسن.. سأتكلم أنا.. إننا هنا في حضرة الساحرة الكبرى الأم (إيزادورا).. إنها ترانا وتحضر هذا الحفل معنا.. ولسوف أتلو التعاويذ التي تحبها هي..»

ثم أخرجت ورقة من ثيابي، بها بعض العبارات بلغة غامضة.. ربما كانت كلمات أشورية أو سريانية أو فينيقية.. لا أحد يعرف.. لكني رحت أرددها وأمرت الفتيات أن يرددنها معي..

رحن يرددن بأصوات رفيعة مبحوحة منفعلة، وهن يكتمن الضحكات..

وهمست (ليا) وهي تمسك ضحكتها بصعوبة:

- «أنت مقنعة حقًّا.. فقد بدأت أرتجف..»

- «شششششش!»

كانت هذه من (روزلين).. وهكذا ساد الصمت إلا من أصواتنا التي صارت خفيضة جدًا.. وفجأة صرخت (كاتي) في هلع:

- «هل رأيتم؟ وراء هذه الأشجار؟»

- «ماذا هنالك؟»

- «لقد رأيت جسمًا.. جسمًا آدميًا يركب مكنسة يحلق من أعلى ليتوارى وراءها!!»

☆ ☆ ☆

- ٢ -

كان هذا طبيعيًا.. من الذي لا تتملكه العصبية والهواجس في هذا الجو الشيطاني؟

قلت لها في ضيق:

- «أكره أن أفسد هذا الخيال.. لكنك تعرفين مانعرفه.. هذا الشيء طائر.. بومة في الغالب.. ومن الذي يلوم بومة على التحليق ليلًا في غابة؟»

- «البومة لا تركب مكنسة!»

- «والساحرات اللائي يطرن لا وجود لهن.. كفى بلاهة ودعونا نعد إلى ما بدأناه..»

عدت أتلو التعاويذ من الورقة، ورفعت رأسي إلى صف الأشجار البعيد.. وابتسمت.. كان هناك غراب أسود يقف فوق أحد الغصون يراقبنا.. أشرت لهن إليه فهدأن قليلًا.. الآن نعرف سر ماحلق واتجه خلف الأشجار...

قلت لهن وأنا أمد يدي في الكيس الذي أحمله:

- «الآن لا بد من التهام هذه الأشياء.. قلوب القطط!»

صاحت (ليا) في ذهول:

- «هل جننت؟»

- «لا تكوني سخيفة.. لا حاجة بي إلى أن أذكركن كل دقيقة بأننا نتظاهر.. نـ.. تـ.. ظـ.. اـ.. هـ.. ر... أية متعة تبقى لنا إذن؟ هذه قطع من الهلام الأحمر عديم المذاق..»

ومددت يدي أناول كلًّا منهن قبضة من محتوى الكيس.. فأمسكت كل واحدة بنصيبها وراحت تلتهمه في الظلام.. سرني هنا أن (روزلين) قوية الشخصية التي اعتادت لعب دور القائد صارت تطيعني في غباء.. فهي لم تضع كل هذه التفاصيل في ذهنها حين اقترحت الفكرة..

- «وهذا شراب الساحرات.. إنّه مصنوع من الأعشاب والضفادع وأجنحة الوطاويط!»

وصببت لكل منهن بعضه في أكواب ورقية.. شرعن يأكلن ويشربن وهن ينظرن لي في دهشة.. وضحكت (روزلين) حتى خرج ما تأكل من أنفها، وقالت وهي تسعل:

- «ما كنت أحسب الأمر بهذا التعقيد.. متى أعددت كل هذه التفاصيل؟»

- «هذا سرى الخاص... بالمناسبة هذا الشراب مصنوع من الجزر مع الخيار.. إنِّه صحي..»

- «كانت الساحرات يتحملن الكثير حقًّا!»

وحين انتهى الطعام رحنا نرقص لمدّة نصف ساعة حول الشموع والنجمة.. ولاحظنا أن الغراب ظل واقفًا يرمقنا في ثبات..

هتفت (ليا) وهي تنظر إلى الأفق خلف الأشجار:

- «الشيء الذي رأيته منذ قليل طار الآن على مكنسته مبتعدًا.. صدقن هذا أو لا تصدقنه..»

- «نحن لا نصدقه لكننا سنتظاهر بأننا نفعل..»

كانت الساعة الآن الثالثة صباحًا.. حان وقت العودة لديارنا والتظاهر بأننا نمنا ثماني ساعات متواصلة بلاأحلام.. وقالت لي (روزلين) ونحن نخرج من الغابة:

- «لم تكن ليلة رديئة.. الفكرة فكرتي لكنك جعلتها تبدو حقيقيّة.. وقد كانت أمسية مثيرة..»

وقالت (كاتي) وهي تمسح العرق عن جبهتها:

- «سنكررها كثيرًا.. أليس كذلك؟»

قلت لها إنني موافقة... لكن يجب أن يخبروني بهذا كي أعد للأمر عدته.. ومن الأفضل أن نختار الليالي التي يكتمل فيها القمر بدرًا..

وافترقنا شاعرات بالرضا والسرور..

☆ ☆ ☆

بعد يومين جاءت (روزلين) إلى دارنا، وحيَّت أمي، ثم طلبت أن تلقاني.. فسمحت لها أمي بالصعود إلى غرفتي.. كنت متمددة في الفراش أقرأ بعض الروايات حين دخلت صديقتي عليَّ..

قالت لي وهي تنظر إلى الغرفة غير المنسقة:

- «لم نرك منذ يومين..»

- «كنت مشغولة في القراءة.. إن الصيف يمرّ ببطء هنا..»

قالت لي في حذر وهي تعقد كفيها على ردفيها:

- «ثمّة أمور مهمّة يجب أن نتكلم فيها الليلة.. يجب أن نراك على انفراد في الغابة حيث كنا..»

- «لكن الليلة غير مقمرة.. فما أهميّة اللقاء؟»

قالت بلهجة ذات مغزى:

- «أرجوك..»

وهكذا فعلت كما طلبت مني.. لم يكن هناك اتفاق على اللّهو الليلة، لكني برغم هذا أخذت معي العباءة السوداء والمكنسة.. وسرعان ما قصدت الغابة بعد منتصف الليل..

كانت الفتيات هناك.. وأدركت حين رأيتهن أن الأمر خطير.. هذه الوجوه لا تتجهم إلا لأمر جلل.. هذه النظرات لا تتوهج إلا لسبب مقلق..

دون سلام قالت لي (روزلين) بكلمات صارمة:

- «كيف غادرت البيت؟»

- «كما غادرته في المرّة السابقة.. عن طريق النافذة في حجرتي.. لماذا تسألين؟»

ابتسمت ونظرت إلى (كاتي) و(ليا) وقالت:

- «لديَّ شاهدتان استطاعتا أن تراقبا غرفتك الليلة، وهما تزعمان - وضغطت على الكلمة الأخيرة - تزعمان أنك طرت على المكنسة التي تحملينها!!»

- «أه!! هل سنعود إلى هراء البنات هذا؟»

قالت (كاتي) وهي تنظر لي في ثبات:

- «لم نشك في شيء.. حتى عرفنا من نائب الشريف هنا أنّ هناك مجنونًا يقتل القطط!»

- «ما هذا السخف؟»

- «لقد وجدوا أربع قطط مقتولة.. قطط سوداء! والأدهى أن قلوبها قد نزعت نزعًا.. هذه القطط كانت في صندوق قمامة قرب هذه الغابة... والغريب أنّ هذه ليست المرّة الأولى التي تحدث فيها شناعة كهذه!»

وهنا تدخلت (ليا) في المحادثة وقالت في توحش:

- «أمّا أنا فقد تقيأت الشراب حين عدت لداري لأنني مشمئزة منه.. وجدت في القيء أشياء غريبة جدًّا.. وخطر لي هنا أن ما التهمناه في الظلام لم يكن هلامًا أحمر!!»

- «أنتن مجنونات!!»

قالت (روزلين) وهي تحيط صديقتها بذراعيها:

- «لهذا طلبت من (ليا) و(كاتي) أن يراقبا حجرتك الليلة.. وقد وجدنا الدليل القاطع على صحة شكوكنا.. لا داعي للخداع يا (جين).. أنت جعلتنا نلتهم قلوب قطط ونشرب شرابًا من الضفادع والوطاويط! أنت فعلت هذا عمدًا فلا تقولي إنّه كان اندماجًا في الخيال!»

هنا أدركت أنه لا جدوى من الاستمرار في الخداع.. هاته الفتيات لسن بلهاوات.. تراجعت إلى الوراء وصحت بوحشية:

- «نعم.. أنتن شاركتن في حلقة سحر حقيقيّة.. هل تعرفن معنى وجود الغراب الأسود الذي وقف على الشجرة يراقبنا؟ اذهبن فاقرأن عن الساحرات اللائي كن يجتمعن هنا لتعرفن معي ظهور غراب أسود!! لقد قبل التماسنا.. لقد جاء ليشاركنا الحفل، وأنتن الآن ساحرات حقيقيات أردتن هذا أو لم تردن! ولسوف نجتمع هنا كلما أردت أنا.. لسوف نستمر في الشيء ذاته وإلا كان انتقامًا شنيعًا!»

- «هل تردن معرفة أكثر؟ أنا أمارس الشيء ذاته منذ ثلاث سنوات! بدأت وحدي لكني كنت بحاجة إلى حمقاوات يمارسنه معي.. وإذا بالبلهاء (روزلين) تقترح الشيء الذي كنت أتمناه ولا أجرؤ على التصريح به.. والآن أنتن ساحرات شريرات.. ولن تستطعن التملص!»

- «أيتها الشيطانة!»

ولم أدر كيف انهالت الفتيات عليَّ ضربًا.. فسقطت على الأرض.. انهلن ركلًا هذه المرّة.. وكان جنونهن قد جن بحيث لم يعد الكلام ذا جدوى..

رأيت المقت المجنون في عيونهن، وعرفت أنهن سيقتلنني لا محالة..

- «لسوف تموتين كالكلب العقور!!»

- «أيتها المخادعة!!»

لا مفر.. من الواضح أنهن لن يتركنني إلا جثة هامدة.. لا أجد الكلمات التي تطردهن خاصة أنهن اكتسبن بعض قوى السحر فلم يعد بوسعي إحراقهن..

لا مفر من الهرب.. تحاملت على نفسي وأبعدتهن عني، ورحت أركض وسط الأحراش.. الدم يسيل من أنفي، والأغصان تمزق ثيابي لكني أركض.. أركض وألهث..

فجأة مادت الأرض من تحت قدمي.. يبدو أنني فقدت الوعي جوار شجرة غليظة عتيقة من الأشجار التي وجدت هنا من قرون..

ولما صحوت وجدت أنني هنا أمام سادة النجوم..

أحاول أن أثبت لهم أنني أستحق الحياة، وأن أحدًا من الموجودين هنا لا يجسر أن يزعم أنه كان أشر مني..

☆ ☆ ☆

لما انتهت القصة وقفت الفتاة تلهث انفعالًا ثم عادت إلى الوراء كأنما تنتظر الحكم عليها..

تدحرجت عشرات العيون من وجه (سانجينوس الأسود).. وراحت تركض كالبراغيث في كل أرجاء القاعة.. وزحفت إحداها على حذائي فأجفلت ووثبت إلى الوراء..

قال د. (لوسيفر) وهو يتأمل أنامله الطويلة الجميلة:

- «لا بأس.. هذا يروق لي.. ولعمري إن السحر من أشر شرور الفانين... اعتدنا أن نحضر هذه الاجتماعات في صورة قط أو غراب أسود.. أيامًا باسمة كانت.. لم ينته السحرة من الأرض لكن أساليبهم تبدلت كثيرًا..»

ثم نظر في عيني، وقال بثبات:

- «كاره أنت لكل ما لا تطيق سماعه!»

- «نعم.. أكره السحر والسحرة وأشمئز منهم، هل هذا يريحك؟»

- «أنت بين منكر للسحر ومتهيب منه.. وهذا كمن....»

- «أريد الذهاب حالًا أو الموت حالًا!!»

كنت قد وصلت إلى نهاية تحملي.. وتذكرت مشاعر الطفل في أول يوم من المدرسة: عاوز أروح! هذا هو كل ما يعيه من العالم.. لكني كنت أختلف عنه بالتأكيد.. فالمدارس - مهما ساءت - ليست جانب النجوم.. كما أنّ المدرسين لايشبهون (سيجفريد الأميدي) جدًّا.. أنا في عالم آخر.. عالم لن أخرج منه بمجرد أن أفتح الباب وأستقل أول سيارة أجرة..

ثم إن الطفل يبكي لأنّه يريد العودة إلى أمّه، فإلى من أعود أنا؟؟

ترى هل أعيش بعد هذه التجربة؟ هل أحكيها يومًا ما؟ أم أنّ هذه هي نهاية ذكرياتي وتجاربي؟

سمعت صراخًا عنيفًا وعويلًا من مكان ما فتصلبت، لكن (لوسيفر) قال لي وهو يضع ساقًا على ساق:

- «هذا مصاص دماء يحاول العبور إلى العالم الخارجي.. هذا شيء مريع.. هناك بوابات سلسة كالتي جئت منها.. وهناك بوابات مخيفة كالتي رأيتها في (هالماجيو) تحتاج إلى قدرات شيطانية لاجتيازها، ولعل أكفأ من يستطيعون عبورها (فلاد الوالاشي).. ومن يجتزها من البشر يفقد عقله على الأرجح..»

وبدأت الدماء تسيل من مكان ما.. وترتفع حتى صارت بحرًا يوشك أن يصل إلى ركبتي..

قال (سيجفريد الأميدي) في برود:

- «قد هلك الفامفيري.. لم يتحمل..»

وفي بحيرة الدماء راحت العيون التي تدحرجت من وجه (سانجينوس) تسبح كالأسماك.. وتطفو وتغوص كأنما وجدت أخيرًا لحظات من المرح..

قال (سيجفريد الأميدي):

- «لم يبق إلا اثنان.. فمن منهما يحكى قصته؟»

قال (لوسيفر) وهو يربّت على ركبتي بكفه الصلبة الصارمة الباردة:

- «يبقى هذا معي حتى النهاية.. إنّه ضيفي.. وأنا به أسعد وله قلبي يطرب.. أمّا الآخرون فهم من أجله سعداء.. أؤثر أن تتكلم المرأة..»

تقدمت السيدة إلى الأمام وقالت وهي توجه كلامها إلى (لوسيفر) بالذات:

- «أنا (إليزابيث كراوفورد).. هل لي أن أحكي قصتي؟»

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الشجع:

- «ابدئي السرد أيتها الفانية.. ولتعلمي أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «لن أكذب يا سيدي.. لن أكذب..»

وبدأت تحكي قصتها..

☆ ☆ ☆

- ١ -

قالت (إليزابيث كراوفورد):

- «الشر قاس.. لكن الجزاء قد يكون أكثر قسوة..»

☆ ☆ ☆

كنت أهيم حبًّا بابنتي (غادة)..

كانت رقيقة لطيفة لم تترب إلا على أجمل القيم في الحياة وأنظفها.. وكان من يراها يشعر كأنما خلقت من فورها من فرط نضارتها وطهرها.. وكنت ثرية فلم أكف عن جعلها تشعر بأنها ملفوفة في المخمل بعيدًا عن مخالب المجتمع الشرير..

كنت أهيم حبًا بابنتي (غادة)..

وكانت علاقتنا علاقة صديقتين تتجاوز بكثير علاقة أم بابنتها.. كانت تثق بي، وتعرف أنني أستطيع عمل أي شيء لها بعد وفاة أبيها.. وتعرف أنني لن أتركها تتألم..

ولهذا كنت مستعدة لعمل أي شيء لمن يؤذي شعرة من رأسها..

والبداية كانت عندما ذهبت إلى (لندن) لتعمل في تلك الشركة التي تقوم بتصميم الأزياء.. وكانت مراسلاتها معي تشي بسعادتها البالغة.. هناك كانت حياة جديدة مثيرة بالنسبة لفتاة في مقتبل العمر... وجوه جديدة لامعة.. نقود جديدة لامعة.. مشاكل جديدة لامعة..

ثم ظهر (بيتر) وهو مدير تنفيذي بهذه الشركة.. فيه كل ما يجذب فتاة لا تعرف شيئًا عن الحياة، وفيه كل ما يُنفّر أمًّا ويجعلها تتوجس خيفة..

كانت خطابات (غادة) تأتي من (لندن) تحكى لي كل شيء عن (بيتر) هذا.. كم هو مهذب.. كم هو جنتلمان.. كم هو رقيق.. كم هو ذكي.. كم هو حبوب.. لقد عاهدها على الزواج وقدم لها خاتمًا ماسيًا جميلًا..

وأنا يا سادة امرأة واسعة الخبرة لم يتهمني أحد بالحمق قط.. لقد أدركت على الفور الحقيقة التي لا شك فيها: هذا الفتى يخدعها.. وفي الغالب هو شيطان.. لاتوجد ملائكة على الأرض، خاصة لو كانت ملائكة تجيد استعمال الحاسب الآلي، وتعرف أفضل المطاعم في (وست إند)..

كنت كذلك أعرف جيدًا شعار الشاب الإنجليزي مع الفتيات:

..Find them.. Feed them.. Love them.. Leave them

أعثر عليهن.. أدعهن للعشاء.. أقم علاقة معهن.. تخل عنهن..

شعار لابد أن (بيتر) يعرفه وينفذه حرفيًا.. أعرف هذا.. أوقن به.. وإلا فلماذا أشعر بهذا السكين ينغرس في قلبي؟ إن (غادة) ابنتي وأنا أعرف أن قلبها هو قلبي..

طبعا انتهت العلاقة بأن تركها (بيتر).. لم يتزوجا.. لم يحاول حتى تفسير موقفه... وبالطبع كما لابد أنكم خمنتم انتحرت (غادة) بأن ابتلعت علبة كاملة من المنوم.. إنها كانت طفلة هشة لاتصلح لهذا العالم، وقد تداعت نفسيتها على الفور عند الصدام الأول.. بينما يمكن لأية واحدة من صاحباتها... لو حدث لها نفس الشيء.. أن تحول الموضوع إلى دعابة تحكيها على العشاء لصديقاتها.. أنا أخطأت في تربيتها.. لم أجعل منها قط فتاة إنجليزية من العنيدات الصارمات اللاتي يملأن الطرقات ليلًا عائدات من العمل.. الفتيات الخشنات اللاتي لم يعد شيء قادرًا على إدهاشهن أو إثارة حزنهن..

وهكذا رحلت (غادة).. فلم تترك لي إلا رسالة قصيرة: سامحيني يا أماه...

وذهبت إلى لندن لأرى جثتها في المشرحة.. كان هذا جهدًا عصيًا، حتى إنني تحاملت على ذراع ضابط الشرطة الذي أخذني إلى هناك، وهززت رأسي، ثم سقطت فاقدة الرشد على الفور..

ومن تلك اللحظة عرفت أنني لن أعود أبدًا كما كنت.. عرفت أنني سأنتقم..

ولكن كيف؟ لست من الطراز الذي يذهب إلى (بيتر) هذا في مكتبه لأفرغ المسدس في رأسه.. لا.. لن أفعل.. هو لايستحق هذه الراحة السريعة..

وهكذا يمكنكم الفهم.. لماذا استغرقت أكثر من عام حتى رسمت خطتي جيدًا.. كانت خطة محكمة لكنّها قابلة للفشل لمجرد خطأ صغير..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

كان البيت الذي استأجرته في ضواحي (لندن) منعزلًا تمامًا.. وقد اندهش السمسار الذي طلبت منه البيت حين عرف أنني وحدي.. قلت له إنني مجرد عجوز انطوائية أخرى لا تعبأ بالجيران..

قال لي في كياسة:

- «حسن يا سيدتي... أكره أن أفسد صفقة على نفسي، لكن الضمير يحتم على أن أقول عن هذا البيت هو الانعزال بذاته.. لا أحد يمرّ هنا.. لن ينقذك سوى الهاتف لو حدثت متاعب ما والهاتف يتلف كأي شيء آخر..»

قلت له في رضا:

- «أنا أعرف تمامًا ما تعنيه لكنني اتخذت قراري..»

وهكذا صار البيت لي بثمن زهيد.. كانت ألواح الخشب محطمة وكذا زجاج النوافذ، وكان الأثاث قليلًا ورثًا لكن الإقامة هنا لم تكن ضمن خططي..

بعد هذا جاء دور إحضار (بيتر) إلى هنا.. لم يكن هذا سهلًا لأن الرجل مشغول، وما من قوة تحمله على مغادرة (لندن) والمجيء إلى هنا إلا القوة! نعم.. لا بد من إرغامه على هذا.. وقد سألت أحد المخبرين الخاصين عن بلطجية ممن يأخذون المال، ولا يسألون أسئلة.. وقد أوصاني باثنين من المهاجرين هنا في (لندن)، وكانا حذرين لا يتعاملان إلا بالخطابات.. وكان لهما رقم هاتف سرّي لايعرفه إلا من يعرف شخصًا يعرف أحد عملائهما..

طبعًا هم يتقاضون نصف المبلغ مقدمًا، ويقومون بالمهمة ويأخذون النصف الآخر عند إتمامها..

أخبرتهما بصفات الرجل، فضربوا لي موعدًا عند المساء قرب الضاحية التي أقيم فيها..

وفي الموعد المحدد كانا هناك، وكنت ألبس منظارًا أسود وإيشاربًا على سبيل التمويه.. وقد سألاني أولًا عن المال.. طبعًا لم أكن لأجرؤ على التلاعب معهما لأن هؤلاء القوم نوع من الوحوش المفترسة التي لا يمكن التعامل معها إلا بمنتهى الحذر.. لم يظهرا دهشة لأن سيدة عجوزًا مثلي تهتم بهذه الأمور.. فقط فتحا لي حقيبة السيارة الخلفيّة وأخرجا الجسد المكمم المقيد الغائب عن الوعي..

- «خذي الحذر يا سيدة... سيفيق خلال نصف ساعة.. أين نضعه؟»

كان مخدرًا، وقد طلبت منهما أن يضعاه في حقيبة سيارتي الخلفيّة، ثم ودعتهما وأدرت محرك سيارتي مبتعدة.. وعند أول منعطف توقفت.. انتزعت الإيشارب والمنظار، ودرت حول السيارة لأنزع اللاصق الذي يحمل الأرقام المزيفة... نعم.. هذان وغدان قد يعمدان إلى الابتزاز.. أو - إن كانا شريفين - يقعان في يد الشرطة ويثرثران عن السيدة التي اختطفت مديرًا تنفيذيًا شابًا..

واتجهت إلى البيت الجديد وقلبي يخفق طربًا..

☆ ☆ ☆

كان الوغد وسيمًا بالفعل، لكنّها تلك الوسامة التي تدلّ على قسوة ونرجسية هائلة.. صاحب هذا الوجه لا يمكن أن يُحِب إنّه فقط يحب أن يُحب.. لكن من قال إن (غادة) يمكن أن تلاحظ هذه الأمور؟ ماذا تعرفه هذه الطفلة عن الحياة؟

إنه وغد.. بالإضافة إلى هذا هو ثقيل كالخراتيت.. وقد عانيت أشد المعاناة وأنا أجره إلى الطابق السفلي.. ثم وأنا أدحرجه على درجات السلم، ثم وأنا أمدده على أرض القبو، وأحكم ربط القيد على كاحله.. ثم فككت قيوده ونزعت كمامته..

الآن بدأ يفيق..

كنت خائفة من نقطة واحدة هي هل تتحمل السلسلة؟ لكني كنت أعرف أنني أحكمت تثبيتها وأن الحداد الذي صنعها لي حاول كثيرًا أن يجذب السلسلة من مكانها لكنه فشل..

ونظرت حولي.. كنت قد فتشت جيوبه بعناية فلم أجد شيئًا يمكن أن يستعمله لفتح السلسلة ولا القيد.. لم يكن حوله شيء يصلح.. القبو فارغ تمامًا إلا من وعاء الطعام ووعاء الماء، والدلو الصغير الصالح لقضاء الحاجة..

بدأ يفيق.. ولم يكن من الطراز التقليدي الذي يقول: أين أنا؟ بل نهض وفرك عينيه وتحسس القيد في كاحله.. نهض مترنحًا ومشى نحوي، لكن السلسلة انتهت.. وكنت أنا على بعد متر من آخر نطاق لها..

قال بلهجة عملية:

- «حسن يا سيدتي.. لقد انتهى المزاح.. فكي قيدي هذا..»

قلت له في برود وأنا أجلس على مقعد قديم:

- «يؤسفني أنك لا تفهم ما يدور هنا!!»

صاح في ضيق وهو يحاول فك السلسلة:

- «لو كنت تريدين فدية فقد أخطأت الطريق..»

قلت في برود:

- «أنا لا أريد فدية.. بل لا أريد شيئًا على الإطلاق..»

ثم أشرت إلى وعاء الطعام، ووعاء الماء وقلت له:

- «أنت حر الحركة إلى حدٍ ما.. لهذا يُمكنك أن تأكل وتشرب كما تريد.. والآن وداعًا!»

- «ماذا تريدين مني أيتها المخبولة؟»

- «أريدك أن تموت طبعًا.. حسبت هذا مفهومًا..»

صرخ بأعلى صوته طالبًا الغوث.. لكني وقفت أبتسم.. نصف ساعة كاملة وهو يصرخ حتى تلاشى صوته تمامًا.. فقلت له:

- «لو كنت تفكر قليلًا لعرفت أنه لو كان بوسع أحد سماعك هنا لقمت بتكميمك..»

هنا وثب إلى إناء الطعام، ورفعه بيديه وهوى به في اتجاهي.. كان تصويبًا متقنًا لكن السلسلة منعته من أن يحسن التصويب الأخير الفعال.. وسقط الوعاء بقربي وتناثر ما كان فيه من طعام جاف..

قلت له في ضيق وأنا أجمع الطعام المتناثر:

- «كف عن الحماقة.. لو حدث هذا وأنا لست هنا لقضيت جوعًا..»

ثم تناولت العصا الخشبية ودفعت بها إناء الطعام إلى متناول يده..

هنا انقض كالفهد على العصا وحاول انتزاعها لكنه صرخ.. وفتح كفيه فإذا بالدم يسيل منهما في غزارة.. إن الأحمق لم ير كل المسامير التي غرستها في العصا على طولها بحيث يبرز طرفها المدبب.. لم أضيع كل الوقت الذي أضعته سدى...

قلت له وأنا أتهيأ للرحيل:

- «والآن وداعًا..»

صاح من جديد:

- «إلى أين أيتها المخبولة؟ هلا شرحت لي ما يدور؟»

كان من الممكن أن أشرح له، لكني آثرت أن أتركه لعذاب عدم الفهم.. عذاب المحكوم عليه ولا يدري ماذا اقترفه..

وأغلقت البيت بعناية، واتجهت إلى المطار.. ومن هناك طلبت المصرف، وتأكدت من أن أقساط الضرائب على البيت ستدفع باستمرار طيلة سفري..

كنت ذاهبة في رحلة طويلة إلى مصر وباقي بلدان الشرق الأوسط...

☆ ☆ ☆

لن يلبث أن يكتشف أنني لن أعود..

لن يلبث أن يكتشف أن الصراخ لا جدوى منه..

لن يلبث أن يكتشف أن الطعام والماء لن يكفياه إلا شهرًا لو اقتصد..

سيموت من الذعر شهرًا، ثم يموت من الجوع والظمأ بعد هذا.. كنت راضية عن نفسي، وللمرة الأولى شعرت بلذة منذ ماتت (غادة)..

لكن متع الحياة لا تكتمل..

مر عام عليَّ، وكنت في (تركيا) أطالع بعض الجرائد البريطانية القادمة من الوطن، فاستوقفت نظراتي مقالة عن الجرائم التي فشل رجال (سكوتلانديارد) في استكشافها..

كانت هناك حادثة اختفاء غامضة.. شاب من شركة لتصميم الأزياء اسمه (بيتر أندرسون).. هذا الفتى اختفى منذ عام تقريبًا وكأنما تبخر، ومن الغريب أنه بلا أعداء على الإطلاق، وزوجته وطفله الآن لا يعرفان أين هو ولا إن كان حيًّا أم مات..

زوجته وطفله؟ (بيتر) الذي خدع (غادة) لم يكن متزوجًا..

كان اسمه ـ الذي لا أنساه ـ (بيتر هايمان).. ما معنى هذا؟

وهنا سقطت الجريدة من يدي..

القصة تتضح الآن.. لقد أخطأ البلطجيان اللذان استأجرتهما الشخص المطلوب.. خطفا أول (بيتر) في شركة الأزياء وجلباه لي.. ولم تكن معه أوراق، ولم أترك له أنا فرصة للشرح.. لو كنت حكيت له القصة وقتها فلربما عرفت أنه ليس هو..

عام قد مضى! يا للهول! عام قد مر على رجل برىء سجين بلا طعام ولا شراب..

عام قد مضى وكنت أنا السبب..

بينما الوغد الحقيقي يمرح الآن ويخدع فتاة أخرى في مكان آخر..

☆ ☆ ☆

أصابني المرض بضعة أيام، ثم قررت أن أنهى زيارتي لتركيا وأعود إلى الوطن.. يجب أن أنفذ انتقامي، ثم أسلم نفسي للشرطة، وأتلقى عقابي الذي أنا جديرة به..

لكن حوادث السيارات تقع في تركيا مثل أي بلد آخر، وقد انقلبت بي السيارة على الطريق، وسقطت في هاوية على جانب الجبل لأنزف دمًا كثيرًا جدًّا...

ولم أعرف أنّ هذه الهاوية كانت ثغرة مفتوحة وجاهزة للعبور إلى جانب النجوم الرهيب..

لم أعرف هذا إلا الآن وأنا أقف أمام هذه المحكمة الرهيبة أحاول أن أنقذ عنقي..

☆ ☆ ☆

قال (لوسيفر) بعد سماع القصة:

- «هذه قصة أم مطعونة.. لا أرى فيها من الشر الكثير.. لأن الانتقام يمكن فهمه إلى حدٍ ما..»

تراجعت المرأة إلى الوراء، وقالت في ثبات:

- «لست راغبة في خلودكم هذا على كل حال..»

في ثبات مماثل قال دون أن ينظر لها:

- «ولن تناليه.. والآن يجيء دور الدكتور (إسماعيل)..»

ثم نظر لي ونظر إلى (فلاد الوالاشي) الضخم كالكابوس، وقال في تؤدة:

- «من المحبب للنفس أن تعلم أنّ هذا الفاني كان سبب فشل (فلاد الوالاشي) - هو الذي يمشي في الظلام - في اختراق الثغرة إلى (إنفرنوس) التي كانت (هلماجيو).. وإنني لأعلم أن الانتقام مشتهاك يا (فلاد).. لكني أطلب منك التريث حتى نسمع قصته..»

أطلق (فلاد) عواءً مريعًا من فمه، مما جعل جدران القاعة التي لا أراها تترجرج، وسرني أن أعرف أنني المقصود بالعواء هذه المرّة.. هذا شخص لن يجدي معه التفاهم بالعقل، أو أن أزوره مع كبار أسرتي متحدثًا عن أن له (حق عرب)، أو أن أحمل له الكفن على يدي..

قال لي (لوسيفر) باسمًا:

- «هلم احك لنا شرورك يا دكتور (إسماعيل)..»

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الجشع:

- «ابدأ السرد أيها الفاني.. ولتعلم أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «أنا لم أعتد الكذب أصلًا..»

وبدأت أحكي قصتي..

☆ ☆ ☆

الاعتراف السابع
من شفتي (رفعت إسماعيل):
الجريمة الكاملة

قلت لهم:

- «الشر هو الشر.. والجريمة هي الجريمة..»

☆ ☆ ☆

برغم أن الكثيرين يعتبرونني ملاكًا فإني كنت وغدًا نجح في ألا يبدو كذلك..

في سن السابعة اعتدت أن أخدع زوجة خالي.. كانت تعد لي الحمام، وتطلب مني أن أستحم بنفسي.. ولم يكن لديها سخان في هذا الزمن البعيد لذا كانت تسخن الماء في إناء كبير، وعليّ أن آخذ الماء منه بالكوز، ثم أخلطه ببعض الماء البارد من الصنبور، وأصبه على جسدي..

ولما لم أكن راغبًا في الاستحمام في هذا الجو البارد، اعتدت أن أسكب الماء الساخن بالكوز في البالوعة، ثم أبلل شعري بمياه الصنبور، وأخرج من الحمام لاهثًا أرتجف وأقول لها إنني استحممت.. صحيح أنها تلاحظ الغبار على أذني والحبر على كفي، لكنّها تبرر ذلك بأنني لا أجيد الاستحمام جيدًا كأي طفل آخر..

هذا نوع من الجرائم الكاملة.. الجرائم التي يستحيل إثباتها..

في نفس الفترة اعتدت أن أتسلل للمطبخ بعد نوم الجميع، لأتسلق النملية العتيقة هناك، وأفتح مرطبان المربى، وآخذ ملعقتين كبيرتين أدسهما في فمي، ثم أعود إلى الفراش متظاهرًا بأن شيئًا لم يحدث..

وحين لاحظت زوجة خالي أن المرطبان ينفد بسرعة اتهمت ابن خالي (عماد) بأنه يتسلل ليلًا إلى هناك..

هذه جريمة أخرى لم يستطع أحد إثباتها..

إن هناك جرائم كاملة كثيرة تحدث من حولنا لكن أحدًا لا يعرف هذا..

وفي سن العاشرة.....

- «كفى!»

كانت هذه من (لوسيفر) الذي لم يعد يتحمل سيل الاعترافات الرهيبة هذا..

قال د. (لوسيفر) في ضيق:

- «كنت أعرف ماستقوله.. الهراء هو ما تقوله.. وأرى أننا نضيع وقتنا معك هاهنا..»

قلت له في أمل:

- «إذن حان وقت قتلي؟ أريد الانتهاء من هذا كله..»

نظر (لوسيفر) في اشمئزاز إلى الستة الواقفين ينتظرون الحكم النهائي عليهم، وقال لـ (سيجفريد الأميدي) بلهجة لا تقبل المناقشة:

- «هؤلاء استحقوا ما يحدث لهم.. هم حق مشروع لـ (روكيان الأماسي)! فليظفر بهم!»

تصايح الجميع في هلع.. ركعت الفتاة الفرنسية باكية على ركبتيها وهتفت:

- «أيها السيد.. أنت عرفت أنني كنت أشر الأشرار..»

ولطمت (جين) خديها صائحة:

- «أنا ساحرة.. ألا تفهم معنى هذا؟»

وصاح النازي المتقاعد وهو يضرب صدره بقبضته:

- «أنا حولت البشر إلى مسوخ! أليس لهذا ثمن في عالم الشر هذا؟»

وقال الروماني مذهولًا:

- «والدببة؟ وكل من التهمتهم؟ أنا السبب في جنون (كاليجولا)..»

بينما قال الفتى الإنجليزي (جون بارتريدج):

- «لا تقل إنك اخترت حكايات هذه الفزاعة الصلعاء التي لا تملك قصصًا أشر من سرقة المربى.. أنت وعدتنا أيها السيد أن أكثرنا شرًا ينجو..»

مبتسمًا في غموض قال (لوسيفر) وهو ينهض من مكانه وينظر لساعته الذهبية:

- «في جانب النجوم أنتم.. أليس كذلك؟»

- «بلى..»

- «لا تصدقوا الوعود.. ليكن هذا درسكم الأخير في جانب النجوم... الكذب هنا هو القانون الأول.. والقانون الثاني أن القتل هو الابن الشرعي للسأم.. وأنا لم أعد أطيقكم..»

وعلى الفور نزل (روكيان الأماسي) من مكانه الشامخ.. كان ارتفاع قامته لا يقل عن ثلاثة أمتار.. والوجوه التي تلتحم في كل شبر من جسده تتلوى في مزاج من الولع والألم والتوحش والنشوة.. ذيل الثعبان العملاق المتدلي من مؤخرته يضرب الأرض مرارًا.. ومن فمه خرج لسان ثلاثي الفروع يبحث عن فريسة..

كان هناك الكثير من الصراخ، بينما هذا الغول يفترس الضحايا بلا ترفق ولا آداب مائدة.. كما أنه - للأسف - لم يكن ممن يلتهمون الطعام بسرعة.. كان بطيئًا كالعدالة..

☆ ☆ ☆

- «أمّا الآخرون فسوف يصيرون جزءًا من جسد (روكيان الأماسي).. وهي نهاية أفضل منها الموت بأنياب ألف ذئب..»

☆ ☆ ☆

قطرات دم انتثرت على ثيابي ووجهي فأدرت ظهري للمشهد الرهيب، وأنا أرتجف..

قال (لوسيفر) وهو لا ينظر للوراء:

- «لقد ماتوا لكن أجسادهم صارت جزءًا من كيان (روكيان الأماسي).. لا بد أنه التهم ألف شخص كي يصنع جسده.. هم بأشخاصهم ماتوا وفروا من جانب النجوم، لكن مكانهم ينتظرهم في جهنم..»

ومن مكان ما دوى صوت (فلاد الوالاشي) يتلمظ:

- «إليَّ بهذا الفاني كي أمزق أشلاءه ألف قطعة.. ولسوف تنعم بها كلابي ذات الرءوس المائة!»
صمت (لوسيفر) قليلًا ثم قال دون أن ينظر لأحد:

- «بالعكس أي (فلاد الوالاشي).. الفاني استحق حريته واستحق أن يغدو من سادة جانب النجوم.. إنه منكم ومنا!»

يا نهار اسود! عم يتكلم هذا الرجل؟ ماذا يريد بالضبط؟ هل يريد القول إنني أنا الفائز في هذه المسابقة؟ كيف؟ لكنه لا يمزح، ولم تهتز عضلة في وجهه توحي بالمزاح أو الخداع..

لما رأى دهشتي قال بصوت الببر الشبعان الراضي عن الحياة:

- «حقًّا أشر الموجودين أنت.. كلهم اعترف بجرمه وعرفه بينما التزمت أنت الصمت.. لعبت دور الطاهر الذي لم يقترف إثمًا أدهى من خطايا الأطفال! وما أتفه خطايا الأطفال! الآخرون عن الدم تكلموا.. عن السحر والقتل تكلموا.. بينما عن المربى تكلمت أنت.. والأدهى أنك تصدق نفسك... قد قلت لك آنفًا: من أخطر الأمور ألا تعرف آثامك.. أن يملأ الكبر نفسك فتتشدق: أنا لم أقترف إثمًا.. إن في حياتك آثامًا أنت أدرى بها مني.. العميان لا يرون الشمس لكنهم يدركونها.. وأنت لست كفيفًا ولا غبيًا.. فقط أنت مغرور يخدع نفسه.. ولعمري هذا هو الشر الذي يروق لي..»

ثم نظر إلى سادة جانب النجوم وهتف:

- «إن الدكتور (رفعت) سيبقى معنا!»

صحت أنا وكل خلية في جسدي ترتجف:

- «هذا لن يكون: اقتلني الآن فورًا؛ فليتسل الأخ (روكيان) بالتهامي إذا لم يضايقه نحولي»

كأنما كان يعرف أنني سأقول هذا، قال (لوسيفر) وهو يعود للجلوس في الفراغ:

- «كما في كل لقاء لنا أتركك لحالك.. أتركك وأنا قادر على ألا أتركك.. أنت حر تمضي أنى أردت فلن يجسر أحد على منعك.. لقد قلت كلمتي ولم يوجد في جانب النجوم من لا يطيع كلمة د. (لوسيفر).. لكني إذا أتركك أوقن أنني في أحشائك منحتك ذكرى لن تنساها ما حييت.. ذكرى الخوف.. الهلع.. الإشفاق.. الوجل.. ذكرى كل هذا الشر الذي قابلته في مكان واحد.. لسوف يطاردك في كل حلم، ووراء كل منعطف، وفي كل قدوم ليل.. لسوف تمضي حياتك تتذكر (فلاد الوالاشي) وتتساءل متى يجيء لينتقم منى؟ ومع الخوف ألم أكثر إيلامًا: الخجل.. لا تحسب أنك الملاك الذي حسبته أنت!»

ثم هتف مناديًا الحراس:

- «أعيدوه إلى حيث كان!!»

ولم أدر إلا والحراس مقطوعو الرأس يحيطون بي ويحملونني حملًا خارج القاعة التي لا جدران لها..

ومن جديد صحت وهم يحملونني:

- «د. (لوسيفر).. من أنت حقًّا؟»

اعتدل في جلسته وقال في مكر:

- «ما أحسبك إلا تعرف لكنك تخشى أن تعترف بأنك تعرف.. عساك تظفر بالنوم ليلة أخرى..»

- «هل ستتركني وشأني؟»

- «بالطبع لا.. فأر وقط هما أنت وأنا.. فلن ينجيك مني إلا القبر.. الفرار من د. (لوسيفر) لا يكون إلا لأسفل أو لأعلى! حافظ على نفسك من أجل لقائنا التالي!»

- «سأحاول لكني - كالعادة ـ لا أعدك بشيء!»

☆ ☆ ☆

وحين فتحت عيني كنت في سيارتي، وكنت أرى الآن الوادي الذي أغرقته مياه الأمطار ليلًا، يستحم في نور النهار الوردي البكر..

هل كان هذا حلمًا؟ لا أظن.. ما زال إصبعي يؤلمني حيث جرحته بالدبوس.. وما زالت الكدمات على ساعدي من جراء قبضات الحراس القوية..

والبيت المجهول؟ لم يعد هناك.. هذا طبيعي.. لن يتركوه لي كي أجرب العبور من جديد أو أحضر من يجرب.. هناك ثغرة موجودة هنا بالتاكيد لكنهم أحسنوا إخفاءها..

أدرت محرك السيارة بعقل مخدر.. إنّه يدور.. لابد أن نوم الليل قد أفاد المحرك كثيرًا..

فقط أدعوا الله ألا يتسبب ذهني الملبد الضبابي في حادث أليم.. لا أريد أن أغادر جانب النجوم إلى المشرحة مباشرة.. لابد من وقت أتأمل فيه وأتذكر ما حدث بالضبط..

«كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»..

تعلمت هذا منذ نعومة أظفاري، وما كنت بحاجة إلى كل غيلان جانب النجوم كي أعرفه..

لكني كنت بحاجة إليهم كي أتذكره!

إن الغرور يتسلل إلى قلب المرء - كما يتسلل الحقد والنسيان والكوليستيرول ـ دون أن يدرك هذا... ولو سألت ألف إنسان عن عيوبه، لقال لك: عيوبي أنني أثق بالناس أكثر من اللازم، أو أنني صريح أكثر من اللازم.. الخ...

وتتساءل: من أين يجيء اللصوص والقتلة والزناة والمرتشون إذن؟

لا يتساوى الغرور مع كل ما سمعت في جانب النجوم من فظائع، لكن د. (لوسيفر)- وهو يعرف ما يقول - وجد أنني أجدر هؤلاء البؤساء بالبقاء مع سادة جانب النجوم!

لابد أنه كان يمزح.. لابد أنه كان ينتقم.. لابد أنه كان يعابثني أو يلقنني درسًا قاسيًا..

.....

وربما كان يعني ما يقول..

وأخذت شهيقًا عميقًا وأنا أرمق الطريق الراكض أمامي، وقد بدأت مدينة (...) تلوح من بعيد بعد ما طالت رحلتي إليها إلى هذا الحد..

ربما كان عليَّ أن أعرف نفسي أكثر..

☆ ☆ ☆

كانت هذه رحلتي إلى جانب النجوم..

لقد نجوت من المعركة، لكني لم أنج من الحرب..

وكانت هناك حلقات رعب أخرى سمعت وخبرت فيها عوالم أخرى من الجانب المظلم من القمر، كما يقول د. (لوسيفر) في أحد تعبيراته الشعرية التي يحبّها كثيرًا.. عوالم أعرف أنها موجودة لكني لم أعرف أية تفاصيل عنها إلا حين ارتدتها..

ولكن هذه حلقات أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

المسافر الذي لا يحبّ الأضواء

الاعتراف الأول من شفتي (فيرنر فرايمان): شيء من الألم

- ١ -

- ٢ -

الاعتراف الثاني من شفتي (جون بارتريدج): ابتعدوا عن البئر

- ١ -

- ٢ -

الاعتراف الثالث من شفتي (بياتريس لوبير): المقصلة

- ١ -

- ٢ -

الاعتراف الرابع من شفتي (كاسيوس توماسوس): آرينـــا

- ١ -

- ٢ -

الاعتراف الخامس من شفتي (جين هاملتون): اجتماع في الغابة

- ١ -

- ٢ -

الاعتراف السادس من شفتي (إليزابيث كراوفورد): انتقـــام

- ١ -

- ٢ -

الاعتراف السابع من شفتي (رفعت إسماعيل): الجريمة الكاملة

Notes

[1←] يوسف منجيل شخصيّة حقيقيّة طبعًا..

[2←]
القصة تحدث في أوائل السبعينات ولم تكن (صبرا وشاتيلا) و(قانا) وآلاف المذابح الأخرى قد حدثت بعد..

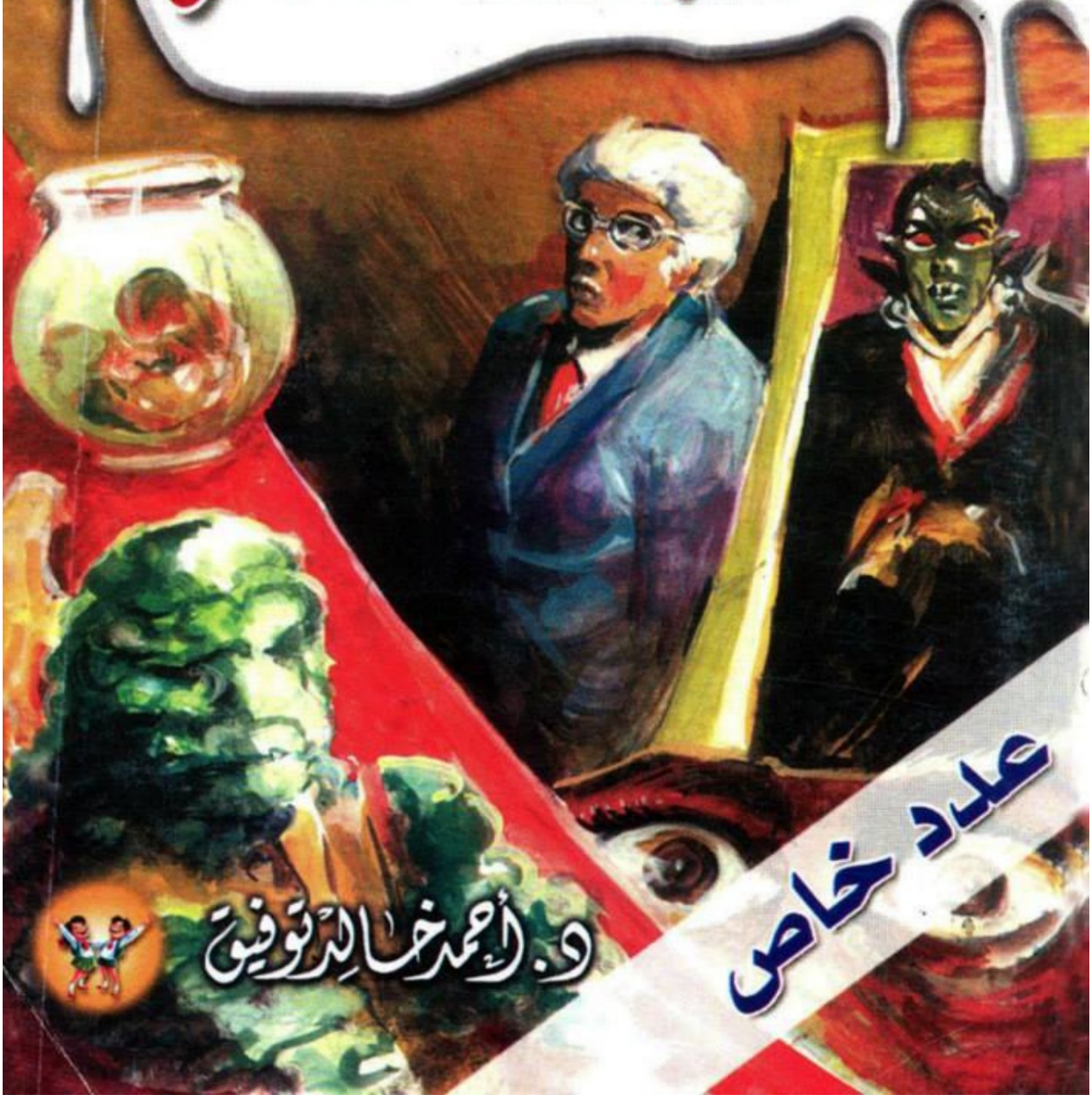
روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

60

المُتحف الأسود

ما وراء الطبيعة



عدد خاص

د. أحمد خالد توفيق

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة المقدمة

لمن لم يلحظوا أنّ هذه حلقة رعب.. أقولها بصراحة ووضوح وصدق: هذه حلقة رعب..

ولمن يتساءلون عن معنى (المتحف الأسود) أقول بصراحة ووضوح وصدق: هناك متحف في هذه القصة.. ويبدو أنه أسود..

ولمن لا يعرفون أنني (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم المسن، أؤكد هذا بلا تردد..

قدمت لكم عددًا من حلقات الرعب من قبل.. ذات مرة جلسنا في الإسكندرية عاجزين عن العودة إلى القاهرة، وراح كل منا يحكي عن خبراته مع طراز معين من الرعب.. في مرة جربنا طالعنا مع أوراق التاروت، وكانت نبوءاته كلها مما تتقلص له الأحشاء.. في حلقة رعب أخرى قمت بإذاعة بضع حلقات من برنامج (بعد منتصف الليل) الذي يحكى فيه المستمعون عن خبراتهم المخيفة.. ثمة حلقة تحدث فيها كل منا عن خبرته مع باب مغلق يكمن وراءه ما يخيف.. وآخر حلقاتنا كانت مع جانب النجوم، حيث تنتظر المسوخ كي تحكم علينا.. أينا الأكثر شرًا..

إنه ذلك الأسلوب الذي أحكي فيه قصصًا قصيرة كحبات في عقد قصة أكبر تربط بينها جميعًا.. ولعل أقدم المحاولات في هذا الصدد كانت (ألف ليلة وليلة) وقصص (الديكاميرون Decamerone) للإيطالي (بوكاتشيو Boccaccio).. وفيما بعد اكتسب هذا النوع من القصص - كالعادة - مصطلحا مرعبًا هو (بورتامنتو Portamento)، وهو مصطلح موسيقي أصلًا.. هناك شركة بريطانية اسمها (أميكوس) تخصصت في هذا الطراز من أفلام الرعب.. و....

لماذا أقول هذا الكلام الفارغ؟

لا أدري.. يبدو أنني لن أتخلص من هذه العادة الذميمة: أن أذكر ما أعرفه حين توجد مناسبة لذلك..

على كل حال هذه هي حلقة (البورتامنتو) الـ.. معذرة.. حلقة الرعب السادسة..

ماذا جرى فيها؟ من كان ضيوفها؟

أحسب أن الأمر صار واضحًا الآن.. فما دام هناك متحف أسود فالقصة لا تحتاج إلى شرح أكثر..

هل جاء الجميع؟

جميل.. جميل.. لقد ازداد عددكم ثلاثة أو أربعة، لكن هناك وجهًا أفتقده.. أين هو؟ آه! ها هو ذا.. أفسحوا له من فضلكم.. إنّه صغير الحجم ولن يسمع أو يرى شيئًا وسط هؤلاء العمالقة الجالسين في الصف الأول..

وأنت كم سنك يا بني؟ عشرة أعوام؟ لا أعرف إن كان ماسأقصه الآن مما يناسبك.. ستقول لي إنّه كذلك ولسوف تضحك ملء شدقيك.. وبعد انتهاء القصة ستعلن في فخر أنها غير قادرة على إخافة قط صغير.. أعرف هذا.. أصدقه.. لكنك ستعود لدارك وتخلو بنفسك.. عندها تفكر: مضحك هذا العجوز.. ولكن كم يكون مخيفًا لو حدث بالفعل أن..

ثم تفكر قليلًا.. تقرر أن تبقى إضاءة الغرفة فترة أطول قبل النوم.. إن القط الصغير لا يملك خيالًا.. أمّا أنت فتملك.. أنا لا أتحدث عنك بالذات.. لم أقصد أن أهينك.. فقط قلت إنني أفترض..

حسن؟ تريد البقاء؟ ليكن..

والآن نبدأ حلقة الرعب السادسة، فأصغوا إليَّ..

☆ ☆ ☆

مقدمة

إنّه الخريف أخيرًا..

أنا أعشق هذا الفصل بحق، وأعتبره أجمل فصول السنة في مصر.. لو أنصف (فريد الأطرش) لغنى: «وآدي الخريف عاد من تاني».. احتفظ أنت بربيعك بعواصف خماسينه، والرمد الحبيبي الذي يحرق عينيك، وجو الامتحانات المخيف الذي لا يعنيني في شيء. لكنه يسمم الجو بما يكفي بحيث تتقلص أمعاؤك كلما فتحت الشرفة؛ لترى ذلك الطالب يقف بالفانلة الداخلية في الشرفة، ممسكًا بكتاب عملاق وهو يحك رأسه محاولًا إيصال بعض الدم إلى مخه المكدود انظر لليمين لترى جارتك الشابة تجلس على الأرض في الشرفة، منكوشة الشعر مثل (ميدوسا) وهي لا تنفك تحملق في الأفق محاولة تذكر مساحة (كورستاريكا).. أضف لهذا أغنية (شادية) «الشمس بانت من بعيد».. خارجة من المذياع ليكتمل الجو الجدير بأفلام الرعب..

لا من فضلك.. إن عندي ألف سبب لأكره الربيع.. أمّا عن الصيف فلا تعليق.. الشتاء يمكن أن يكون محببًا لو لم تكن تمطر طينًا في كثير من الأحيان، ولو كانت عظامي تتحمله..

إنه الخريف.. الفصل العذب الراقي الذي لا يلبس (المايوه) ولا يعطس في وجهك، ولا يتنهد وهو يقطف الورد من المرج..

كنت جالسًا في الشرفة بعد الفجر بقليل أتحسس لذعة برد محببة، وأرشف الشاي، وأتسلى بقراءة خطاباتي..

تلك المجموعة المعتادة من الخطابات التي تهددني بخراب بيتي، أو تلومني على شيء لا أذكر أنني فعلته، أو تطلب أشياء يستحيل أن أفي بها.. ثمّة خطاب من (ماجي) أبقيته إلى النهاية طبعًا.. ثمّة خطاب من ابن خالي في (المنصورة).. خطاب من شخص يهددني بأن يفضحني لأن عنده الوثائق كلها.. طبعًا لا أعرف حرفًا عن الموضوع، ومن حقه أن يفضحني لكنني أرجو أولًا أن يشبع فضولي..

ثم كان الخطاب..

كان مقتضبًا إلى حد كبير، لكنه أثار اهتمامي.. وكان مكتوبًا بالعربية بخط أنيق نضيد يذكرك بالأسنان في إعلانات معجون الأسنان.. يقول:

عزيزي د. إسماعيل:

«أعرف أنك رأيت الكثير.. ومازال أمامك الكثير لتراه.. يقولون إن المال يجلب المال.. وأنا أعتقد أن الرعب يجلب الرعب كذلك.. ما أطلبه هو زيارة منك لداري المتواضعة للقاء.. ولسوف تشرح الأمور نفسها، لأني أمقت المقدمات..»

وفي نهاية الخطاب كان هناك اسم (مازن أبو يوسف) مطبوعًا وليس بخط اليد وتحته توقيع أنيق يصلح شعارًا لأسرة من نبلاء القرون الوسطى.. وكان هناك رقم هاتف يبدو أنه من الإسكندرية..

طبعًا لا يحمل الخطاب أي وعد ولا يقول أية تفاصيل هذا بالضبط هو المثير فيه.. أذكر منذ سنوات أن أمريكيًا نشر في الصحف كلها يقول: «إنها فرصتك الأخيرة.. أرسل دولارًا إلى العنوان التالي..»

هذا الإعلان لم يتضمن أي وعد من أي نوع، لهذا أرسل كل الناس تقريبًا دولاراتهم إلى العنوان المذكور، فلابد أنّ هذا العبقري الخبير بعلم النفس قد صار مليونيرًا!

هكذا وضعت الخطابات جانبًا.. وانتظرت حتى يأتي وقت مناسب للاتصال.. أعتقد أنه العاشرة صباحًا.. وطلبت الرقم المذكور..

جاءني صوت (مازن) وقورًا هادئًا يتساءل عمن هنالك، فأخبرته.. قال في سرور حقيقي:

- «سعيد باستجابتك هذه..»

- «أنا أحب الأشخاص الذين لا يعدون بشيء..»

- «وأنا أحب الأشخاص الذين لا ينتظرون وعدًا..»

- «فقط أطلب وعدًا بأن الموضوع ليس تافهًا.. أنت تفهم هذه الأمور..»

- «أعدك بأن الموضوع ليس تافهًا..»

- «هناك من يطلبون مني أن أذهب إليهم للأهمية، ثم يتضح أنهم يريدون معرفة رأيي في دواء الإمساك الذي يأخذونه على الريق، أو حيرتهم في الاختيار ما بين ابنة خالتهم الجميلة لكنّها بلهاء قليلًا.. وزميلة الدراسة المتزنة لكنّها قبيحة كالأبالسة..»

ضحك طويلًا ثم قال:

- «لا شيء من هذا. اطمئن.. أنا لا أعاني الإمساك وأكبر سنًا من العواطف..»

كان التفاهم ممتازًا كما ترى، وهكذا حصلت منه على عنوان داره.. إنها في الإسكندرية كما قلت لك، لكني لن أذكر تفاصيل أكثر من فضلك.. لا داعي لأن أقول كذلك إن اسم الرجل وهمي..

اتفقنا على يوم الخميس في السادسة مساء، وهكذا عادت حياتي لانتظامها..

لماذا قبلت؟ لا أعرف كالعادة.. هناك هذا الخليط من الفضول والشعور بالوحدة والرغبة في جمع الخبرات الجديدة كدأبي.. دعك من حدسي الخاص الذي قال لي إن هذا الرجل ليس أحمق..

أما السبب الأكبر والأهم فهو أنني لم أر الإسكندرية منذ فترة، وأنا مُغرَم بالإسكندرية في الخريف والشتاء كما تعرفون..

☆ ☆ ☆

في السادسة مساء دققت الجرس..

هل وصفت لكم المكان؟ لا؟ حسن.. الأمر هو البساطة ذاتها.. فيلا أنيقة من طابقين. لها طابع فيلات الستينات الذي لا تخطئه العين، ومن الواضح أنها حديثة البناء.. ذوقها راق بلا شك.. وذلك الحرص الموسوس على استخدام اللون الأبيض في كل شيء.. إنها تذكرني بفيلا الدكتور (سامي) إلى حدٍ ما مع فارق هائل في الثراء طبعًا.. إن د. (سامي) يربح الكثير كما هو واضح..

يجب أن أذكر هنا أنه لا يوجد بواب ولا حراسة.. أنت تدخل بحريتك كأي لص عبر البوابة المفتوحة، لأنّه لا أحد يجيب على الجرس.. تمشي في ممر طويل مرصوف بحجر الإسكافي بين أنواع من الأزهار يؤسفني أنني لا أعرف ما هي.. إن الأزهار بالنسبة لي حمراء وصفراء وبيضاء.. برائحة أو بلا رائحة.. لابد أن لها اسمًا مثل (الدالكونيا) أو شيء من هذا القبيل..

وفجأة رأيته أمامي..

أسود اللون.. يتطاير الشرر من عينيه.. يكشر عن أنيابه بينما انتصبت شعيراته كلها.. وهو يقف تلك الوقفة التي تباعد بين السيقان قليلًا ليكسب مساحة ارتكاز أكبر كما يفعل أي لاعب (جيدو) محترف قبل المواجهة..

لا يهز ذيله القصير.. ذيله؟ طبعًا.. إنني أتكلم عن كلب طبعًا.. حسبت هذا واضحًا..

كلب (دوبرمان) شرس المظهر يذكرك برجال العصابات.. يقف في الممر منذرًا بالويل.. عندما تكف الكلاب عن هزّ ذيولها وتصدر ذلك الزئير المكتوم، تكون لحظة المواجهة قريبة جدًّا..

تصلبت حيث أنا وقلت له وأنا أتراجع خطوة للوراء حتى انغرست قدمي في حوض (الدالكونيا):

- «اهدأ يا أحمق.. أنا لست عدوًا.. اهدأ..»

ونظرت للأرض كي لا أستفزه.. لكنه واصل التحرش.. لا مفر من هنا وعليَّ أن أتصرف..

دنا مني قليلًا، فتذكرت القاعدة القديمة: من يستطع مداعبة ما تحت ذقن الكلب يكسب وده. لكن لا تربت على رأسه أبدًا لأنّه يفترض أنك ستضربه..

هكذا مددت كفي كأنني متسول نحو رأسه محاولًا أن أنزل بها تحت ذلك الفم المخيف..

- «صبرًا.. صبرًا.. كلب لطيف..»

أين ذهب هؤلاء الحمقى؟

كدت أقترب أكثر حين دوى الصوت من مكان ما:

- «لا تحاول... لا تصدق كلام الكتب!»

نظرت إلى مصدر الصوت فرأيته.. وكان قادمًا بسرعة وحزم نحو الكلب.. وهو يقول:

- «دعه يا (نوسفيراتو).. إنّه صديق..»

(نوسفيراتو Nosferatu)؟ ماشاء الله! إنّه اسم مناسب جدًّا، لكنه يحمل نذيرًا ما.. لا أحد يُسمّي كلبه (نوسفيراتو) ما لم يكن هو الكونت (دراكيولا) نفسه..

تصلب الأخ (نوسفيراتو) وهو ينظر لصاحبه مترددًا نظرة البلطجي الذي يقول: دعني ألتهم حنجرته هذه المرّة فحسب.. سأكون كلبًا مطيعًا في المرّة القادمة..

ثم قرر أن يستسلم وبدأ يهز ذيله، على حين تقدم السيد (مازن) ليربت على عنقه، وأطبق أصابعه على الطوق.. على حين رحت أحرر قدمي من حوض أزهار (الدالكونيا).. وقال لي وهو يحك عنق الكلب بعنف:

- «معذرة لهذا الاستقبال البارد.. لكن لا تثق كثيرًا بموضوع التربيت تحت الذقن مع كلاب الدوبرمان.. أحيانًا تدعي هذه الكلاب أنك لم تفعل..»

قلت في ضيق:

- «كان عليك أن تربطه بعناية.. إن مواعيدي دقيقة.. ولو لم تشعر بنا لوجدت بضع عظام وكلبًا مصابًا بعسر الهضم..»

- «فلننس ما فات.. ما دام لم يؤذك..»

- «بالمناسبة.. أنت تجيد زراعة (الدالكونيا)..»

- «زراعة ماذا؟»

- «لا عليك.. لا عليك..»

وأشار لي في تهذيب، فتقدمت عبر الممر إلى باب الدار نفسها..

☆ ☆ ☆

طبعًا كنت مشغولًا بالكلب فلم أصفه لك - الرجل لا الكلب طبعًا - وهذه مهمّة سهلة.. كان ضئيل الحجم دقيقًا إلى حد لن تصدقه ما لم تره.. وهو من الطراز الذي تندهش كيف يصدر منه هذا الصوت العميق الضخم.. له شعر أبيض تمامًا مما يوحي بأن هذا ليس شيبًا عاديًا إنما هو أمر يتعلق بالجينات.. له شيء مبهم أبيض على شفته العليا، فلا تستطيع أن تتذكر إن كان بشارب أم لا.. عوينات؟ لا.. إنّه ينزعها ويضعها عشر مرات في الدقيقة فلا يمكن أن تصفه بامتلاكها.. أما عن السن فهو من الطراز مشدود الجلد الذي لا يشيخ بسهولة لذا يصعب التكهن بسنه، لكن لو تذكرنا كلامه عن العواطف فلا أستبعد أنه تجاوز الخمسين.. أضف لهذا عشر سنوات لأنني أحمق كالعادة، فلابد أنه في الستين إذن..

كان يلبس الروب القصير اللامع وتحته ربطة العنق، حتى ليذكرك بالأوغاد في السينما المصرية.. أعني من يمثلون أدوار الأوغاد طبعًا.. الذين يقشرون التفاح ويصبون الشامبانيا ويخدعون الفتيات البريئات طيلة اليوم..

البيت راق جدًّا وجدير بمظهره الخارجي.. لا أعرف كيف أصفه لك لأنّه من الطراز المبهر الذي ينسيك التفاصيل.. على كل حال نحن لم نأت لشرائه.. لا داعي لإطالة الوصف..

فتح جهاز تسجيل ما لتنبعث أوبرا (مدام باترفلاي).. ثم استرخى على أريكة مريحة واضعًا ساقًا على ساق، ومد يده إلى علبة سيجار فقضم طرف واحد، وعرض عليّ واحدًا.. لكن صحتي لم تعد تتحمل هذه الطوربيدات..

قال وهو ينفث السحابة كثيفة في الغرفة:

- «خذ راحتك.. أنا وحدي هنا..»

- «هل توفيت زوجتك؟»

ضحك حتى غلبه السعال.. وقال:

- «ليس بالضرورة. ثمّة احتمال أن أكون مطلقًا.. ثمّة احتمال ثالث أن أكون عزبًا.. هل لك في بعض المياه الغازية؟»

- «سيكون هذا محببًا..»

لكنه لم ينهض.. هذا رجل يتقيد بحرفية الكلمات كأنه كان يسأل للعلم فقط وليس للاقتراح.. دار بعدها الحديث في كلام فارغ، وما أكثر الكلام الفارغ في هذا العالم.. ربما نصف ساعة أو أكثر..

ثم إنّه استرخي في مقعده أكثر، وقال لي وهو يعيد إشعال السيجار:

- «على أنني لم أطلبك لأجل ذلك.. القصة يطول شرحها.. أنت طبعًا واسع العلم بعالم ما وراء الطبيعة يا دكتور (رفعت)..»

قلت باسمًا:

- «سأكون صريحًا معك يا سيدي.. لا أحد يستطيع أن يزعم ذلك.. وأعتقد أنني أزداد جهلا بهذه الأمور يومًا بعد يوم.. لقد فقدت غرور الشباب التقليدي، واكتسبت كآبة الشيوخ وعلمهم بحدود إمكاناتهم..»

- «إذن لنقل إنك شديد الاهتمام بذلك العالم..»

- «ولا حتى هذه النقطة.. فقط تصادف أنني دائمًا الشخص الخطأ في المكان الخطأ في الوقت الخطأ.. وكنت دائمًا أنجو لأن أجلي لم يحن بعد وليس لبراعة خاصة مني..»

كنت أعرف خيبة الأمل التي تسببها كلماتي هذه لمن يسمعها.. لكن الرجل لم يبد متأثرًا بما سمع.. إما انه يعتبرني كاذبًا أو أنّ هذا لا يحدث فارقًا..

قلت له:

- «كنت أتمنى لو بدأنا الكلام فورًا.. أنا لم آت إلى الإسكندرية لأشرح وجهة نظري في الحياة.. كما أنني اخترت السادسة كي لا أعود في ساعة متأخرة.. إن القيادة مرهقة فعلًا..»

- «معك حق..»

كانت مدام (باترفلاي) لا تكف عن الصراخ، حين راح يتأمل طرف السيجار المشتعل، ثم قال بتؤدة:

- «قضيت حياتي أطارد أسرار ما وراء الطبيعة.. أنت تورطت فيها بالصدفة أو بحكم الشهرة، أمّا أنا فكنت أبحث عنها بحثًا.. جربت كل شيء.. والسبب هو أني كنت أقوم بتدريس الفلسفة فيما سبق..»

قلت بلهجة من وجد الخلاص:

- «فهمت.. يا**آآه!** علاقة قوية فعلًا..»

ابتسم.. هذا الرجل يفهم الدعابة فعلًا.. وقال:

- «أنت تسخر مني، لكني بالفعل حسبت أن السبيل الأمثل لفهم الكون هو فهم ما وراء الكون.. من نحن وماذا نفعل هنا؟ إن الفلسفة تحاول فهم الجدار.. وأنا حاولت أن أنظر إلى ما وراء الجدار.. يجب أن أقول هنا إنني لم أفهم الكثير، فالإجابات عملة نادرة، لكن أكثر ما اصطدمت به هو الرعب.. إن الأشياء الغامضة مخيفة يا د. (رفعت).. مخيفة ولا أفهم لذلك سببًا..»

في هذا كان أحمق.. نحن نخاف ما لا نعرفه.. كل حمار جر يعرف هذا.. انظر إلى عيني طفل في الخامسة تطلب منه أن يصافح (عمو).. (عمو) الذي يراه الآن للمرة الأولى.. انظر إلى بدائي من صحاري أستراليا يرى التلفزيون لأول مرة.. راقب عيني طالبة يستوقفها غريب في الشارع ليسألها عن شيء ما.. سوف ترى دومًا تلك النظرة.. نظرة الأرنب الخائف الذي يفر ليختبئ منك وقد رآك قادمًا..

قلت له بنفس التهكم السابق:

- «هكذا رحت تبحث عن عملتك النادرة بين تراب الرعب..»

- «حاولت واتسخت أناملي كثيرًا.. لكني لم أفهم أفضل وسؤالي لك بعد كل خبراتك هذه.. هل فهمت أفضل؟»

قلت له في غيظ:

- «ألم أنذرك من أن تأتي بي إلى الإسكندرية للكلام عن خواطرك الخاصّة؟»

لم يولِ كلامي اهتمامًا وقال في جديّة:

- «أنا لم أفهم الكثير عن عالم ما وراء الطبيعة.. لكني فهمت الكثير عن فلسفة الرعب.. ولو قررت أن أكتب في الرعب لصرت أبرع من (بو Poe) ذاته.. إن للرعب ست ثيمات أساسية في رأيي المتواضع.. يمكن القول إن لحصن أمنك النفسي ستة أبواب.. يمكن أن تُداهم من أحدها في أية لحظة.. ولو اتخذت عدتك لهذا الاقتحام لصرت في أمان..»

- «سيكون أمنى النفسي في خير حال لو تكرمت بالدخول في الموضوع..»

ضحك من جديد.. هذا الرجل يضحك بلا انقطاع كالضباع.. وقال وهو ينهض:

- «إنني أكتب كتابًا عن (سيكولوجية الرعب).. وهذا الكتاب ليس بالكتاب الهين.. إنّه كتاب عمر كامل.. لسوف يتخذ مكانه على رفوف أية مكتبة محترمة مثله مثل (الوجود والعدم) و(تفسير الأحلام) و(عن حركة القلب).. إلخ.. لاحظ أنني لا أتحدث عن الكتب الدينية هنا طبعًا.. لكني لن أعتبر أنني بلغت الكمال إلا لو أخذت رأي خبير رعب مثلك..»

ثم أشار لي باتجاه الدرج وأردف:

- «لو تكرمت معي بالذهاب إلى الطابق الثاني لفهمت بعض ما أريد منك..»

نهضت بصعوبة ومشيت معه..

إنه يتجه إلى درج خشبي أنيق يصعد فيه.. ومن موضعي العالي هذا اختلست نظرة فهمت بها جغرافية المكان وإحداثياته.. هذه فيلا كأية فيلا أخرى، وإن لم يكن صاحبها ثريًا جدًّا.. ذوقه راق بحق، لكنه ليس مفرطًا في البذخ..

هناك ممر.. والممر يقود إلى قاعة واسعة في نهايته..

ابتسم وقال لي وهو يعالج الباب:

- «هذا مكتبي.. سوف تحب المكان..»

بالفعل كان في الداخل مكتبة.. لكني لم أحب المكان.. غرفة مكتب واسعة هي، تزدان جدرانها بالكتب من الأرض إلى السقف كل الكتب مجلدة بعناية دون كتابة على كعوبها.. لكنّها مراجع ثقيلة.. يمكن أن تكون عن القانون المدني أو الفقه الإسلامي أو الفلسفة الإغريقية أو تشريح الرقبة أو حتى مجلات (ميكي) منذ صدورها حتى اليوم..

يوجد مكتب مهندم عليه بعض الأوراق.. وثمّة إضاءة خافتة جدًّا.. لقد أعد هذا الضوء بعناية كي يسقط على وجه الجالس أمام المكتب، بينما يظل من خلفه في الظل، كما يفعل رؤساء منظمات التجسس في القصص الرديئة..

طبعًا مع غرفة مكتب مثل هذه أتوقع أن....

بالفعل.. إن الرجل يتجه إلى مكتبة جدارية عملاقة، فيلفها.. إنها تتحرك حول محور رأسي لتنفتح كالباب لقد صار هذا المشهد مملًا.. خلفها توجد قاعة لا أعرف ما فيها..

وقف على باب القاعة وقال بطريقة مسرحيّة:

- «إن هذا هو مقري الخاص يا دكتور (رفعت).. وإنني لأقضي فيه من الوقت أضعاف ما أقضيه في المكتب نفسه..»

دخلت القاعة في حذر..

يمكن أن أقول تقريبًا إن طولها ستة أمتار وعرضها أربعة.. تذكرني إلى حدٍ ما بمتحف علم الأمراض في كليتي أو أي متحف عمومًا.. والسبب هو تلك الواجهات الزجاجيّة المتراصة بطول الجدارين.. ثمّة رائحة عضوية قوية وأنا أكره تلك الروائح التي يكون مصدرها حيوانيا أو آدميا.. إنها تثير تقززي نوعًا.. أمّا سبب الجو الخانق فهو أنه لا توجد نوافذ هنا هناك جهاز تكييف لكنه يعمل بأقل طاقة لديه..

- «لا بد من التكييف حتى لا تفسد العينات.. برغم أن الطقس معتدل.. أنت تفهم هذا..»

الإضاءة خافتة تنبعث من مصابيح جدارية مركبة بحيث ينبعث الضوء منها لأعلى.. راسمة مثلثات مخيفة من النور على مسافات منتظمة.. لكنّها تتعطف بعض الشيء على الواجهات فتلقي عليها ضوءًا بخيلًا لا يزيل الغموض..

هناك لوحات على الجدار.. لوحات تذكرك برسوم (دالي Dali) السيريالية العجيبة، التي تمزج المقاييس التشريحية الصارمة بتشوه الهلاوس..

لم أستوعب ما أراه.. فوقفت هنيهة صامتًا ثم قلت:

- «لا أعرف كنه هذا المكان.. لكنه أقرب إلى متحف..»

- «بل هو متحف.. لكنه أغرب متحف في العالم..»

ثم نظر لي ليرى وقع الكلمات على وقال:

- «إنّه المتحف الأسود..»

لم يكن الاسم غريبًا عليّ.. هناك متحف أسود في (سكوتلانديارد) يضم آثار الجرائم التي حيرت رجال الشرطة في الماضي.. لكن من الواضح أن الأمر يتعلق بتشابه أسماء لا أكثر..

دنوت من الواجهات الزجاجيّة متوجسًا.. فأدركت أن محتواها يناسب هذا التوجس..

في الواجهة الأولى ثمّة يد بشريّة.. يد مبتورة عند المعصم محفوظة في سائل (الفورمالين).. هذا جميل وربما هو من المناظر المبهجة بالنسبة لطبيب مثلي.. لكن ما يثير الحيرة - وربما الرعب - هو تلك الأظفار الطويلة الشبيهة بالمخالب التي تخرج منها وعلى الزجاج كانت صورة رجل وقور يبتسم.. هل هذه يده؟ إذن لماذا يبتسم؟

في الواجهة الثانية لا يوجد شيء مخيف، باستثناء هيكل عظمي كامل.. هيكل متآكل يبدو عليه القدم.. لكن.. لحظة من فضلك.. ثمّة خطأ هنا.. إن له أنيابًا حادة قاطعة بدلًا من الأسنان..

هناك قفازان من الجلد الأسود في واجهة ثالثة.. هناك مادة هلامية متجمدة كأنها شمعة عملاقة ذابت كلها هناك قطع من مادة حمراء كأنها مشعة أو كأنها حجر كريم.. ثمة عباءة في واجهة، ومجموعة من أوعية حفظ العينات كما في متاحف علم الأمراض..

هناك كلب محنط يقف متحفزًا في إحدى الواجهات.. لا شيء يميزه غير أن لونه أحمر بالكامل كأنه الدم.. هل تم طلاؤه؟ الخلاصة أنني لا أستطيع استيعاب كل شيء بهذه السرعة..

في انبهار التفت إلى الرجل الذي كان يرمق دهشتي، وقلت:

- «هذه مجموعة مثيرة للاهتمام.. لكنك لم تتقاض مني رسم الزيارة..»

قال في مرح أخافني:

- «فيما بعد.. فيما بعد.. هذه أمور يمكن أن تنتظر..»

قلت له وأنا آخذ نفسًا عميقًا:

- «حسن القصة واضحة.. أنت قضيت حياتك تجمع آثار عالم الرعب الذي نجهله..»

- «هو ما تقول.. ولكل واجهة من هذه الواجهات قصة مثيرة أتمنى لو سمعتها.. وأتمنى لو حاولت الفهم معي.. من أين يأتي الرعب؟ ما سرّه؟»

عقدت ذراعي على صدري وانتظرت ما سيقول..

لم لا؟ أنا متأكد من أنّ هذا الرجل ليس د. (لوسيفر) وليس خصمًا قديمًا لي.. لقد صرت ذا خبرة في هذه الأمور.. إن ما سيقصه عليّ قد يكون مهمًا لأقصى حد، وقد يكون مجرد تفاهات..

هكذا بدأت حلقة الرعب السادسة..

وكان مقدرًا لي ألا أعود إلى داري في تلك الليلة كما توقعتم..

☆ ☆ ☆

- ١ -

وقف (مازن) ينظر إلى الواجهة الأولى من نهاية القاعة.. لم تكن شيئًا خارقًا للعادة، فيما عدا عباءة سوداء قديمة مغبرة تمزقت بعض أطرافها، معلقة في إهمال على غصن شجرة.. طريقة عرض أراها كثيرًا في محلات وسط القاهرة، ولا أرى فيها شيئًا غريبًا..

قال لي:

- «قصة هذه العباءة غريبة بعض الشيء.. وقد اقتضاني الأمر أن أرتحل إلى (ترانسلفانيا) كي أحصل على القصة والعباءة معًا..»

قلت باسمًا:

- «القصة واضحة الآن.. (ترانسلفانيا) وعباءة سوداء أنت تتحدّث عن مصاص دماء يا صديقي.. ربما كان الكونت (دراكيولا) ذاته..»

ضحك بدوره وقال:

- «نعم فلن أنسى أنك محترف إلى حدٍ ما واسع الخبرة، لكني أراهنك على أن القصة التي سأحكيها من الطراز الذي يروق لك.. إنها تمثل طرازًا معينًا من الرعب.. رعب الغفلة.. رعب (كان الأمر واضحًا لكني لم أنتبه له وقتها).. الدخان ينقشع ببطء وأنت لا تعرف ماذا يحدث. هو ذا يشكل المعالم الخارجية لجسد.. الآن يزول الدخان تمامًا وتفهم أنك تقف أمام شيطان.. هنا تدرك أن الأمر كان واضحًا.. كيف لم تنتبه لهذا في اللحظات الأخيرة؟»

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

بدأت القصة منذ فترة في (ترانسلفانيا)..

كان المخرج الأمريكي الشاب (جوناثان بيكر) يجيد عمله حقًّا.. إنّه واحد من جيل (الصبيان المزعجين) في السينما الأمريكية.. يمتازون بالذكاء والنشاط.. هم دومًا قادرون على تحقيق أفضل نتيجة ممكنة بالميزانية المطلوبة في الوقت المطلوب.. لكن لا تتوقع منهم عبقرية خارقة..

وكان الفيلم المزمع تصويره والذي قبل السيناريو الخاص به هو فيلم آخر من أفلام مصاصي الدماء..

حين عرض عليه المنتج المنفذ السيناريو، تصفحه بسرعة ثم قال في ضيق:

- «لم يعد أحد يتحمل أفلام مصاصي الدماء يا (ويلي) لقد انهارت شركة (هامر Hammer)..»

كان المنتج رجلًا ضخم البطن راضيًا عن نفسه، وبالتالي يعتبر أن الجميع حمقى أو أوغاد، وقد قال له وهو يفتح علبة من الجعة:

- «لقد قدمت شركة (هامر) محاولات تجديد لا بأس بها..»

- «لكنّها انهارت برغم هذا.. لقد عزف الناس عن محاولات التجديد لأنهّا (ليست مما ألفوه).. بينما عزفوا عن أفلامها التقليدية لأنهّا (مما ألفوه).. هناك لحظة تقرر فيها الجماهير فجأة أن اللعبة انتهت.. ولا أحد يعرف متى ولا لماذا..»

قال المنتج وهو يفرغ محتويات العلبة في بطنه العملاق:

- «لقد صار الناس أكثر ميلًا إلى الرعب الأمريكي بعد ما قدمنا (طارد الأرواح الشريرة Exorcist) و(طفل روزماري Rosemarys Baby).. انتهى الرعب البريطاني رخيص التكاليف.. رعب الأحمر والأسود.. لم يعد أحد يخاف من رجل يضع أنيابًا من البلاستيك ويزأر متظاهرًا بالوحشية.. الآن جاء عصر الرعب الأمريكي بلونيه الأزرق والأخضر رعب الميزانيات العملاقة.. رعب المؤثرات التي لا تصدقها ما لم ترها..»

فكر الفتى وهو يداعب لحيته الشقراء القصيرة:

- «لا أعرف يا (ويلي).. ما زلت مترددًا..»

هشم المنتج العلبة التي فرغ من شربها.. ثم قال في برود:

- «هذا هو السيناريو.. وأنا أريد منك أن تصنع منه شيئًا خارقًا للعادة.. خذه أو اتركه.. هناك عشرات المخرجين غيرك يتمنون فرصة كهذه..»

لم يفكر المخرج مرّتين طبعًا.. كان طموحًا وكان يعرف أن الطريق لتحقيق طموحه وأن يفعل ما يريد هو أن يبدأ بفعل ما لا يريد.. قال وهو يأخذ السيناريو:

- «ليكن يا (ويلي).. سأخرج هذا الفيلم..»

☆ ☆ ☆

كما هي العادة في السينما الأمريكية، كانت الميزانية سخية جدًّا.. الجديد هنا أن التصوير سيتم في (ترانسلفانيا) بالذات.. في قلعة الكونت دراكيولا ذاتها..

وقد انتقل فريق العمل إلى هناك، وتمت إعدادات المعسكر التي تشبه أية إعدادات (لوجيستية) لأي جيش معاصر إن الجزء الذي سيتم تصويره في (ترانسلفانيا) معقد وهو الأصعب في عملية التصوير، بينما الجزء الخاص بالولايات المتحدة سهل على الأرجح.. مجموعة من العلماء يتناقشون في شك.. حسناء خائفة في غرفة نومها.. إلخ.

يتضمن السيناريو أن سائحًا أمريكيًا يضل طريقه في قلعة الكونت (دراكيولا).. يصرخ كثيرًا ويحاول كثيرًا وفي النهاية يقهره التعب فينام.. آخ.. كيف لم يعرف هذا الأحمق أن المكان الذي اختاره للنوم هو القبو؟ كيف لم يعرف أنه ينام إلى جوار تابوت الكونت (دراكيولا) نفسه؟ التابوت الذي فشل من بحثوا في القصر في العثور عليه، لكنه وجده بضربة حظ أو سوء حظ..

الآن تتسرب رائحة اللحم البشري إلى منخري الكونت لقد بدأ هذا ينعش خلاياه.. إنّه ينهض.. إنّه يرفع غطاء التابوت.. إنّه يستولي على روح السائح.. لكنه ما زال واهنًا لا يقدر على مغادرة القلعة..

بعد هذا يصير السائح خادمًا له.. يكلفه بإحضار الناس إلى مقبرته.. والهدف هنا أن تتم طقوس معينة فوق تابوت الكونت.. هذه الطقوس سوف تعيد له قدراته كاملة.. إن الضيوف يعتبرون مايدور مزاحًا لكن السائح الأول هو الوحيد الذي يفهم معنى ما يحدث..

وفي اللحظة المروعة يتحرر (دراكيولا) وقد صار قويًا كما كان.. ينقض على الضيوف ويفتك بهم.. ثم يخرج إلى العالم الخارجي ويعبر المحيط إلى الولايات المتحدة..

كان (جوناثان) الشاب يعرف أن الجزء الفائت لا جديد فيه.. يمكن أن تقدمه (هامر) بسهولة أو تكون قد قدمته منذ أعوام في أفلامها التي لا حصر لها عن (دراكيولا)..

وقالت له مساعدته ذلك.. وهي فتاة فاتنة بالمقاييس الأمريكية - تدعي (ويلما).. كانت جالسة تتأمل القلعة الجاثمة كالكابوس وسط الضباب من بعيد..

قال لها وهو يريح ساقيه على مقعد أمامه ويرفع رأسه ليتأمل الشمس:

- «أعرف هذا.. لكني أراهن على عدة اشياء.. أولًا شخصيّة (دراكيولا) ذاتها لن تكون مسطحة مثل شخصيات (هامر) المعتادة.. سوف نتحاشى أسلوب التنميط أو القولبة Archetyping الذي تجيده تلك الشركة.. (دراكيولا) كما سنقدمه نحن شخصيّة ثلاثية الأبعاد لم ترد في السينما قط ثانيًا: أراهن على مجموعة المؤثرات البارعة التي سنحاول أن نقدمها.. هذه أشياء لا يقدر البريطانيون عليها ثالثًا: سأحاول أن أستفيد من أخطائنا هنا لأصححها في الولايات حين نعود.. يمكن أن يقوم الكونت بأشياء مرعبة فعلًا حين يذهب إلى هناك..»

راحت تدون بعض الأرقام في لوح الكتابة الذي تمسك به.. ثم سألته:

- «هل حددت أماكن التصوير داخل القلعة؟ إن تصريح الحكومة الرومانية لن يدوم للأبد..»

كان لا يعترف.. لنفسه بالحقيقة.. هو بالفعل لم يحبّ قط هذه القلعة.. إن لها شخصيّة قميئة لو كانت للأماكن شخصيات.. وهذه الشخصية القميئة لا علاقة لها بالهستيريا أو التأثر بما قيل عن القلعة قديمًا هو ليس من هذا الطراز.. إن لهذه القلعة وجودًا نفسيًا لا شك فيه، والعارفون بهذه الأمور يقولون إن أي مكان جرت فيه مذابح سابقة يحمل هذا الوجود النفسي..

لهذا ظل يؤجل لحظة البدء بالتصوير داخل القلعة.. راح يضيع الوقت في التقاط مشاهد عامّة لها من الخارج.. وكان من الواجب أن يسعده كون القلعة كئيبة.. هذا يسيل له لعاب أي مخرج رعب.. لكن الحقيقة هي أنها كانت كئيبة أكثر مما يلهم مخيلته أو يسعده..

عادت (ويلما) تسأله:

- «لم تستقر بعد على ممثل (دراكيولا)..»

كانت هذه ورقة لعب مهمّة يحتفظ بها.. إن ممثل دور (دراكيولا) سيكون - للمرة الأولى على قدر علمه - نبيلًا رومانيًا أصلًا.. رجلًا يتكلم الرومانية بطلاقة ويتكلم الإنجليزية بصعوبة ولكنة شرق أوروبية ثقيلة..

قال لها في ضيق:

- «سوف أجده حتمًا.. لا تقلقي..»

وكان مساعده الآخر الروماني أو ما يمكن أن نطلق عليه (منسق الجزء الروماني من التصوير) شابًا متحمسًا يدعي (إيزاك).. مهمته كانت أن يقابل هؤلاء الراغبين في التمثيل.. يطلب منهم تلاوة بعض السطور ثم يهز رأسه ويعد بالاتصال بهم.. كان الوقت يمرّ والمخرج يزداد قلقًا لكنه لم يكن مستعدًا للاستعجال:

- «للمرة الأولى أعطي دورًا محوريًا بهذه الأهميّة لشخص لم يقف أمام الكاميرا في حياته.. هذه مقامرة مريعة..»

قال مساعده الروماني وهو يشعل لفافة تبغ:

- «لهذا بالذات لا أحد يصلح حتى هذه اللحظة.. كلهم لا يجيد قراءة سطر واحد..»

هكذا أمضى المخرج أيامًا قلقة.. إن اليوم يكلّف مالًا باهضًا، وبدأ يتساءل إن لم يكن من الواجب استدعاء ممثل روماني أو أمريكي محترف عبر المحيط لإنقاذ الموقف؟

في اليوم الثالث جاءه المساعد يلهث وهتف:

- «وجدتها.. أعني وجدته!»

- «من هو؟»

- «ممثلك المرموق.. الكونت (دراكيولا).. تعال معي حالًا..»..

هكذا ترك ما في يده، واتجه عبر المقطورات المتراصة إلى حيث كان بعض رجاله يحيطون برجل فارع القامة.. من النظرة الأولى عرفه أنّه هو.. كان مهيبًا غريبًا له طابع ارستقراطي لا تخطئه العين، لكن الأهم من هذا أنه كان لا يشبه (كرستوفر لي Christopherlee) في شيء وهذه مزية مهمّة لمن يحاول أن يختلف عن (هامر)..

دنا من الرجل كانت له عينان ثاقبتان رائعتان..

قال المساعد الروماني:

- «هذا هو (يوجين أولاف) مدرس متقاعد يهوي التمثيل، وهو يرغب في فرصة معنا..»

راح المخرج يدور حول الرجل بتلك الطريقة غير الإنسانية التي يجيدها المخرجون، كأنما يتعاملون مع مقعد حمام أو مضخة ماء.. كانت ملامح الرجل الحادة ونظراته الثاقبة لا تقاوم..

- «هل يعرف كيف يمثل؟»

تكلّم المساعد مع الرجل بالرومانية، فنفش هذا صدره وبلهجة فظيعة قال:

- «أكون أو لا أكون.. تلك هي المسألة..»

واستمر في أداء مونولوج (هاملت) الذي يحفظه جيدًا، لكن ملامح وجهه كانت تعبر بصدق أكثر مما يعبر لسانه يمكن أن تتابع الحوار من عينيه..

قال له (جوناثان) بعدما فرغ من الكلام:

- «أنت تعرف (هاملت).. هذا جميل..»

قال بنفس اللهجة وبوقار لا حد له:

- «كنت أدرّس الأدب الإنجليزي منذ أعوام.. إنني أجيد الإنجليزية يا رئيس..»

وبصرف نظر عن موضوع ما يعتقد أنه إجادته للإنجليزية وبصرف النظر عن مناداة (جوناثان) بـ (رئيس) وهي طريقة لم يحبّها قط، فإن المخرج بدأ يعتقد أن الحظ قد أسدى له خدمة.. لقد وجد ممثلًا لا بأس به.. بعض التدريبات ستكون كافية.. ولسوف يتساءل الناس عن عبقرية المخرج الذي وجد هذا الممثل البارع الذي لم يمثل قط من قبل.. سيكون (يوجين أولاف) حديث (هوليود) لفترة، إلى أن يُنسى موضوع الفيلم، عندها لن يجد من يهتم به أبدًا..

☆ ☆ ☆

بالفعل برهن (أولاف) على أنه ممثل بالفطرة.. كان مطيعًا واجتاز كل اختبارات الكاميرا بتفوق، كما أنه خضع لعدة دروس في الإلقاء.. لم يكن المطلوب إخفاء لكنته الثقيلة بل إظهارها أكثر..

كما أنه لم يتحدث في الماديات على الإطلاق.. لقد قبل أي مبلغ عرضوه عليه.. وإن راقت له فكرة أن الجزء الباقي من التصوير سيستكمل في الولايات المتحدة..

ذهب مصمم الإنتاج مع مساعد المخرج إلى البلدة هناك ابتاعا بعض الإضافات الضروريّة للشخصية، ووجدا لدى أحد الغجر المسنين الذين كفوا عن الترحال أشياء مهمّة.. عباءة سوداء تصلح للدور وقلادة غريبة الشكل.. كلها أشياء مهمّة وتنشط الخيال بلا شك..

أخيرًا جاء اليوم الموعود وسُلطت الأضواء.. وارتدى (أولاف) الثياب السوداء وتدثر بالعباءة، فشعر كل من راه برجفة تزحف عبر عموده الفقري.. وهمس (جوناثان) في أذن مساعدته:

- «لا أحب كثيرًا أن أمشي في طريق مقفر مظلم لأجد هذا الرجل أمامي.. وهل تعرفين معنى هذا؟»

نظرت له متسائلة، فهتف في مرح:

- «معناه أننا سننجح يا صغيرة! سننجح!»

كان المشهد يمثل الكونت (دراكيولا) وهو راقد في التابوت.. وقد بدأ يستعيد قواه..

كان ذلك التابوت العتيق موجودًا في القبو منذ زمن، وقد راق للمخرج لأنّه من طراز فريد.. إنّه حجري ثقيل عليه نحت قوطي لا بأس به أبدًا.. تحتاج إلى ثلاثة رجال كي تزيح غطاءه.. والأهم من هذا أنه كان فارغًا..

من المثير أن الممثل الصاعد رفع قدمه بلا تردد وخطا داخل التابوت كأنما كان يفعل هذا طيلة حياته.. أمّا الأهم فهو أن التابوت كان يناسبه بالضبط.. لا يوجد سنتيمتر واحد أطول ولا أقصر.. يذكرك هذا بأسطورة (أوزيريس Osiris) الفرعونية الشهيرة.. حينما لم يكن في الحفل كله من يصلح جسده للتابوت إلا هو..

ماذا فعل المخرج وطاقم التصوير؟ هللوا طربًا لكل هذه المصادفات السعيدة..

في رأيي أنه توجد علامات مريبة.. الكثير منها في الواقع..

ألا تراها معي؟ إن الصورة تتجمع.. تحتشد ببطء لكن أحدًا لا يراها

☆ ☆ ☆

- ٢ -

قال (مازن):

ظل المخرج الشاب (جوناثان) يعمل في الأيام التالية.. لقد بدأ يتغلب على نفوره من القلعة والتقط فيها مشاهد ناجحة.. لقد اقتربت مشاهد (ترانسلفانيا) من الانتهاء على كل حال، بعد هذا يعود إلى الوطن ومعه ذلك الممثل البارع الذي لم يمثل قط..

وسأل مساعدته وهو يفتح علبة من المياه الغازية:

- «كيف حال ممثلنا الصاعد؟».

- «إنّه قليل الكلام لكنه بخير حال.. ملتزم تمامًا بمواعيد التصوير.. يأتي قبلها بساعتين، ويعود بعدها بساعتين.. أنت تعرف أنه يسكن قريبًا من هنا.. وهو غير متزوج وبلا أطفال.. لعل هذا يفسر كل هذا الالتزام..»

- «ولماذا لا يقيم مع طاقم العمل هنا؟»

- «إنّه غير مولع بالاجتماعيات.. ولا يحبّ مخالطة البشر.. على كل حال لن يبدأ تحطيم عاداته الانعزالية بالاختلاط بأمريكيين..»

وضحكًا معًا.. إن الأمريكيين قوم غير متحفظين بطبعهم أميل إلى المرح والصخب، بينما هذه الطباع المنغلقة يناسبها البريطانيون أكثر.. وهذه من نقاط تهكم الأمريكيين على البريطانيين التقليديين بناة الإمبراطورية التي لم تعد كذلك..

نظر إلى لوح الكتابة الذي ثبتت إليه الأوراق بمشبك في يده، وسألها:

- «هل أعددت كل شيء لمشهد الحفل؟»

- «كل شيء جاهز لكنه سيكون مشهدًا معقدًا.. إن هناك مجاميع.. وليكونن التتابع مشكلة..»

- «إنهم لم يرسلوني هنا لأنني درست الإخراج بالمراسلة..»

وبدأ الفتية يتوافدون.. هم مجموعة من الرومانيين من الجنسين أكثرهم يجيد الإنجليزية.. وكانوا سعداء بفكرة الظهور على شاشة السينما في (هوليوود) مع احتمال ضئيل جدًّا أن يروا أنفسهم، لأن الحكومة لن تسمح بعرض الفيلم على الأرجح..

راح (جوناثان) يراجع الأحداث مع الفتاة.. مط شفته السفلى وبدا غير مستريح، ثم غمغم:

- «الطقوس التي ستقام على تابوت الكونت لا تريحني.. فيها افتعال واضح.. كأنما هم أطفال يلعبون.. أريد أن تبدو أكثر أصالة..»

- «وهل تعرف كيف نجعلها أكثر أصالة؟»

- «أطلبي (إيزاك).. هذا الفتى يعرف الكثير من الحلول..»

وجاء الفتى (إيزاك) المتحمس، وهو يلهث ويعرق بغزارة كعادته.. لقد أمضى أسود ساعات حياته مع كل هؤلاء الشباب الذين لم ير أي منهم كاميرا من قبل، لكنّها أسود وأهم ساعات حياته كذلك..

قال لـ (جوناثان) بعد ما أخبره بمشكلته:

- «يمكن أن أستشير الغجر (التسجاني).. هناك واحد منهم في البلدة.. أعتقد أن كل هؤلاء القوم مارسوا السحر يومًا ما.. أو كان لهم قريب يمارسه..»

ألح عليه (جوناثان):

- «أريد تفاصيل كاملة دقيقة.. هذه الأشياء قد لا تعني الكثير لمشاهد أمريكي، لكن لا بد في هذا الزمن الأسود من أمريكي من أصل روماني أو كان ساحرًا أو مصاص دماء ليقول لنا إن ما قدمناه في الفيلم هراء..»

لم يفهم (إيزاك)، لكنه فهم شيئًا واحدًا فقط.. عليه أن يكون دقيقًا..

وهكذا عاد بعد يومين حاملًا ثلاث ورقات مليئة بالتفاصيل.. يبدو أنّ هناك دم طائر سيسيل على التابوت هناك شمعة سوداء.. إلخ.. هذه تفاصيل لن أخوض فيها يا د. (رفعت).. أنت تفهم هذه الأمور..

تمت عدة بروفات على المشهد.. ثم أعلن (جوناثان) أنهم سيبدءون التصوير حالًا..

رقد (أولاف) في التابوت، وحرصوا على رفع الغطاء قليلًا عن طريق وضع رافعة معدنية تحته كي لا يختنق الرجل.. فالتابوت - كأي تابوت آخر - سيئ التهوية..

وهكذا بدأت الكاميرات تدور.. نعم كاميرات لأن (جوناثان) قرر أن يصور هذا المشهد بالذات بثلاث كاميرات، لأنّه معقد بما يكفي.. ولسوف يستطيع فيما بعد انتقاء اللقطات الصالحة..

الشباب يحتشدون حول التابوت.. يتبادلون عبارات المزاح بالرومانية.. زجاجات.. ضحك.. فتاة تنهض لترقص في هيستيريا.. هذا الحوار كتبه (إيزاك) بالرومانية طبقًا لتعليمات المخرج..

(ستيفن) الممثل الأمريكي الذي يقوم بدور خادم (دراكيولا) يقف وسط الشباب.. يلوح بيده طالبًا الصمت:

- «لحظة يا شباب.. إن هناك لعبة مرحة ستضفي إثارة على الأمسية..»

قالها بالإنجليزية.. واتسعت عيناه كأنما يخيف طفلًا، فصاحت فتاة:

- «هل ستمارس السحر الأسود؟»

- «تقريبًا..»

وببطء بدأت الطقوس.. ذبح الطائر.. الشمعة السوداء النجمة الخماسية اللعينة على الأرض.. ثم وقف (ستيفن) عند رأس التابوت وفرد ذراعيه.. وبدأ يتكلم بالرومانية.. لقد كان يحفظ ما يُقال عن ظهر قلب، وإن كان بالطبع لا يفقه منه حرفًا.. فقط كان يعرف متى يتحمس ومتي يخفض صوته إلى درجة الهمس.. الخلاصة أنه بدا ممثلًا شكسبيريًا يؤدي دورًا لا يعرف حرفًا واحدًا عنه..

وشعر الواقفون بتلك الرجفة التي خلقت فينا منذ مشينا على ظهر الأرض.. الرجفة الوحشية الأولى التي تشعر بها وأنت تمرر يدك على ظهر قط متوتر لسبب ما..

الحق أن تأثير صوت الرجل وكلماته التي يستحيل فهمها.. مع الإضاءة الخافتة.. والصمت التام ما عدا ذلك كل هذا كان له تأثير التنويم المغناطيسي (المدوخ).. وبدا أن كل من يقف أمام الكاميرا أو خلفها يعاني الشيء ذاته..

هل كل هذا تمثيل؟ لقد ود (جوناثان) لو يقول هذا ويصف الممثل بأنه عبقري، ويصف نفسه بأنه أفضل مخرج عرفه، لكنه كان يعرف ما هو أفضل..

ثمة شيء ما لا يريح في هذا كله..

هنا فقط سمع الجميع صوت الأنين..

وبدأ غطاء التابوت يتحرك..

كري ي ي ي ي!

صرخت إحدى الفتيات وقد أفزعها المشهد، وارتجف (ستيفن) ذاته وبدت عليه علامات الغباء..

- «اقطع!!»

كذا صاح (جوناثان) وقد أدرك أن التناغم الأولي للمشهد قد فسد..

وهب الجميع نحو التابوت الذي انفتح إلى النصف الآن.. وتعاون الرجال على إزاحة الغطاء الثقيل ليخرجوا (أولاف) منه.. كيف انفتح هذا الغطاء الثقيل الذي لا يستطيع إلا ثلاثة رجال زحزحته؟

خرج (أولاف) من التابوت.. وبدا كأنما هو مذعور أو مذهول؛ لذا طلب منهم الإذن وابتعد مسرعًا..

وهتفت المساعدة في عصبية:

- «لماذا أوقفت التصوير؟ كان من المفترض أن ينفتح التابوت..»

نظر لها (جوناثان) نظرة ذات معنى، وقال:

- «كان الغطاء سينفتح قليلًا.. لكن ليس في هذه اللحظة بالذات.. وكان سينفتح بأيدى العمال الذين يشغلون الرافعة وليس من تلقاء ذاته..!»

☆ ☆ ☆

في اليوم التالي اختفى (أولاف) تمامًا..

لقد بحثوا عنه كثيرًا، وذهب مساعد المخرج إلى البلدة فلم يجده..

كان (جوناثان) الآن في أسوأ حال من التوتر والعصبية.. لقد انتزع أكثر شعيرات لحيته شبه النامية.. لقد اختفى الممثل الرئيس، ومعنى هذا أن كل ما تم تصويره لم يعد ذا جدوى..

طلب الشرطة لكنه كان يعتقد أنهم يستقلون شأنه.. هم لا يهتمون إلا بالحوادث ذات الشأن، لكنهم لا يحترمون كثيرًا هؤلاء السادة المترفين الذين يبحثون عمن يؤدي دور (دراكيولا)..

واتصل بالولايات المتحدة ليخبرهم بالكارثة، فانهالت عليه الصواعق.. عبثًا حاول إفهامهم أنه لم يقتل الرجل ولم يخفه في جيبه.. لكن (العمل هو العمل) ولا مجال للعواطف أو الأعذار..

وعبر المحيط سمع المنتج يزأر من دون حاجة للهاتف:

- «وماذا تنتظر يا أحمق؟ ابحث عن ممثل آخر فورًا وعليك أن تعيد تصوير كل هذه اللقطات في زمن قياسي.. إنك متأخر عن جدولك أصلًا، وإنني لأتوقع منك معجزة..»

- «سأفعل يا (ويلي)..»

لكنه بشكل ما أدرك أنه انتهى.. لن يعهدوا له بفيلم عن بالوعات المجاري فيما بعد.. هذا الارتباك الذي لا ذنب له.. فيه لا يفعل إلا أن ينثر الغبار من حوله.. ومع الغبار لا يستطيع أحد أن يعرف من كان المخطئ..

وهكذا جلس مع مساعدته يحاولان إنقاذ ما يمكن إنقاذه..

بعض اللقطات لم يظهر فيها (أولاف) وهذا جيد.. المشهد الكارثي لم يكن مفروضًا أن يظهر فيه (أولاف) إلا كلمحة عابرة.. هذا شيء يمكن إنقاذه بالمونتاج دون إعادة تصوير الحفل الصاخب ثانية..

قال لها وهو يتأمل ما ينبغي إعادته من لقطات:

- «أعتقد أننا سننجح.. لكننا قد عدنا إلى نقطة البحث عن ممثل..»

- «سنجد واحدًا، لكن سيكون عليك أن تتنازل قليلًا.. لم نعد نملك كل الوقت كما كنا في الماضي..»

- «إن جدّتي تصلح للدور.. فلو استطعت أن آتي بها لأنقذت الموقف، لكنّها متوفاة منذ عامين..»

هكذا عادت الحياة إلى انتظامها ما عدا عملية البحث المحمومة عن رجل يصلح لأداء دور الكونت..

وفي اليوم الخامس ظهر (أولاف) من جديد..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

قال (مازن):

كان ظهور الرجل دراميًا، حتى شعر (جوناثان) بأنه موشك على البكاء.. فلولا الوقار لارتمى في أحضان الرجل وبكى ساعتين على كتفه.. فما إن انتهت إجراءات الترحيب، حتى سألوه عن سبب اختفائه غير المبرر..

اكتفي الرجل بأن هزّ رأسه في وقار وابتسم:

- «إنها أسباب دينية يا رئيس..»

- «دينية؟»

- «أنا أنتمي لجماعة تمارس ديانة خاصة لا يعترف بها القوم هنا، وهذه من مناسباتنا الدينية التي نعتزل فيها في جبل (زاراندولي)..»

تماسك (جوناثان) كي لا ينفجر في الرجل.. لن يتكلم كذلك عن الشرط الجزائي في العقد.. لا يريد أية مشاكل.. إنه بالفعل تحت رحمة الرجل تمامًا..

- «كان بوسعك أن تخبرني.. المرء لا يذهب للتعبد فجأة..»

- «لا بد من أن يتم التعبد فجأة يا رئيس..»

على كل حال لم يعد باستطاعة (جوناثان) أن ينفعل أكثر من هذا حتى لا يموت بنوبة قلبيّة.. وقد حاول عبثًا إقناع نفسه بأن أسوأ ما في الموضوع قد مر..

ومن جديد عاد النشاط إلى عالم التصوير..

في اليوم التالي كان (جوناثان) مشغولًا بالعمل، حين سمع الرومانيين يتهامسون وساد جو عام من القلق.. ثمّة مشكلة ما لا يعرف ما هي..

- «هيه! (إيزاك)! ماذا هنالك؟»

دنا منه الفتى وهو يجفف عرقه بمنديل عملاق، وبصق على الأرض ليظهر انهماكه وقال:

- «جثة يا سيدي..»

- «آه.. حسبت الأمر مقلقًا..»

ثم تنبه لخطورة ما قاله الفتى، فعاد يستزيده من التفاصيل.. قال هذا وهو يشير لما وراء الأطلال:

- «جثة أحد الكهربائيين الرومانيين.. وجدوها صباح اليوم خلف هذا الطلل.. من الواضح أن الوفاة غير طبيعية..»

- «وهل طلب أحدكم الشرطة؟»

- «إنهم في الطريق.. دعني فقط أشرح لك كيف أن الوفاة غير طبيعية.. لقد وجدوا ثقبين في عنق الرجل هنا..»

وأشار إلى عنقه حيث الوريد الودجي.. وأردف:

- «ثم إن الجثة خالية من الدماء!»

هنا - كما نتوقع - جن جنون المخرج، فصاح وهو يمسك بالفتى من سترته:

- «كف عن السخف.. ليس لأننا نمثل فيلمًا عن مصاصي الدماء تأتي لتقول..»

- «أنا لم أقل شيئًا يا سيدي.. الجثة هي التي تقول..»

وهرع (جوناثان) يشق زحام الأهالي الواقفين.. ليجد بين أقدامهم تلك الجثة التي لن تصدق وجودها مالم ترها.. كانت جدة (جوناثان) قد أصيبت بسرطان المعدة، وكانت تنزف دمها كله من الفم والشرج.. يذكر وجهها في آخر أيامها حين كان يخاف الدخول إلى حجرتها في دارهم.. هذا الوجه المصفر الذي لو اعتصرته لما خرجت منه قطرة دم واحدة.. العينان الغائرتان الجاحظتان.. إن المشهد الآن يتكرر لكن ما يجعله مرعبًا بحق هو هذان الثقبان في العنق..

هل مصاصو الدماء حقيقيون؟ نعم هو يعرف أنهم حقيقيون.. لكن ليس بالشكل الأسطوري الذي تراه في السينما أو تقرأ عنه في القصص.. ليسوا وطاويط آدمية تنام النهار وتصحو ليلًا.. وتموت لو غرس وتد في صدورها.. هم مرضى نفسيون يحبون مذاق الدم لا أكثر ولا أقل.. بعض حالات (البورفيريا Porphyria) تحتاج إلى الحديد وتحصل عليه بشكل شنيع.. فلو أضفنا لهذا ملامح مريض البورفيريا الشاحب ذي الجلد المتسلخ، والعينين الحمراوين، والشحوب البالغ والأسنان المدببة والخوف من الضوء، لأمكننا أن نعرف من أين ولدت أساطير مصاصي الدماء والمذءوبين..

كان الرومانيون يرددون لفظة:

- «فامفيري.. فامفيري..»

وهو لم يكن غبيًّا ولم يحتج إلى عبقرية كي يعرف أنها تعني (مصاص دماء).. هي تشبه (Vampire) إلى حد كبير..

الخلاصة أنه كان يومًا عصيًا خاصة حين جاء رجال الشرطة وأجروا تحقيقاتهم مع الجميع.. أين (أولاف)؟ لماذا يختفي هذا الأحمق كلما احتاجوا إليه؟

عرفوا أن الكهربائي - الذي يسموّنه حسب مصطلحات السينما الأمريكية بـ (الفتى الأفضل Best Boy) - شوهد للمرة الأخيرة ليلة أمس، وقد ترك رفاقه في المعسكر وذهب إلى الأطلال.. لماذا؟ للتبول طبعًا.. لا توجد أسباب أخرى.. هناك دورة مياه هنا لكن هؤلاء الأشخاص يتبعون قدرهم بإصرار غريب..

هكذا مرّت ليلة سوداء أخرى..

كان (جوناثان) في مقطورته يشعر بأنه بحق ملعون.. كل الكون قد خرج ليظفر به ويمنعه من النجاح.. المصادفات حين تحتشد تجعل الأمر موحيًا بعدم الكفاءة.. من الناحية الأخرى من المحيط لا يعبأ أساطين الشركة كثيرًا بالقصص عن اختفاء الممثل الأهم من أجل عيد ديني لا يعرفه أحد، ولا عن مصاص الدماء الذي يتسلى بامتصاص فريق العمل.. كل ما يعرفونه هو أن (جوناثان بيكر) فشل مع أول ميزانية ضخمة تمنح له..

في الثامنة صباحًا سمع من يدق على باب المقطورة..

فتح الباب فوجد المساعد الروماني مع رجل نحيل أسمر له شاربان طويلان شائبان يتدليان على جانبي فيه إلى أعلى عنقه.. وكانت ثيابه مبهرجة الألوان، وفي قدميه حذاءان برقبة.. على كتفه حقيبة يبدو أنها ثقيلة، وقد نزع قبعته وضمها إلى صدره احترامًا..

قال له المساعد:

- «هذا الرجل من غجر (التسجاني).. إنّه من عرفنا منه تلك الطقوس.. يبدو أن لديه أشياء مهمّة يجب أن تعرفها..»

سمح للرجل بالدخول وهو ينظر في ريبة إلى شكله العجيب.. وتبادل نظرة مع المساعد من طراز (ما - هذه - المخلوقات - الغريبة - التي - تحضرها - لي -؟)، فمط المساعد شفته السفلى بمعنى الاعتذار..

جلس الغجري على مقعد خشبي في وسط المقطورة وبدأ يتكلم بالرومانية، فراح المساعد يترجم:

- «نحن غجر (التسجاني) كنا خدم الكونت (دراكيولا) منذ كان يدعى (فلاد الوالاشي) ويعيش هنا.. نحن نعرف الكثير من الأسرار.. لقد منحنا الكونت ثقته.. ونحن نعرف منذ زمن أنه يحاول العودة والعودة قد لاحت علاماتها بشكل غير مسبوق.. نعرف أنه سيأتينا رجلًا عاديًا.. وسيكون علينا أن نقيم له بعض الطقوس التي نعرفها من فوق التابوت الذي سيرقد فيه.. هذا يعيد له قواه الكاملة.. هكذا يتحول إلى (فامفيري) ويستعيد القدرة على الطيران واختراق الحجب ببصره، مع القوة الخارقة التي لا يصمد أمامها صامد..»

في نفاد صبر قال (جوناثان)

- «هل يُمكنك أن تختصر؟»

قال الغجري بعد ما نقلت له الترجمة:

- «لهذا أرجو أن تلحق بي إلى الأطلال المجاورة الآن.. هناك ما أن تراه..»

- «هل يمكن أن ينتظر هذا حتى ينتهي يوم التصوير؟؟»

في ذعر هتف الغجري:

- «لا.. لا.. لا يمكن.. يجب أن يحدث هذا ليلًا..»

وهكذا تحرك الرجال الثلاثة الأطلال.. لم تكن الحركة في موقع التصوير قد نشطت بعد، لذا لم يسأل أحد أسئلة مريبة.. واتجه الجميع إلى منحدر وعر يقود إلى حفرة تحيط بها بقايا الحجارة حجارة ربما تعود إلى القرون الوسطى أو أقدم.. حين كان الرومان يحتلون هذا المكان..

كانت هناك فتحة في جدار مهدم.. مد الغجري يده وراح يعبث حتى أزاح بعض الأعشاب والنباتات التي تسدها.. وفي النهاية وجدوا أنهم يحدقون في تابوت خشبي رديء الصنع..

تعاونوا على إخراجه من موضعه.. وهتف (جوناثان) وهو يتحسس الخشب بيده:

- «من جاء بهذا هنا؟ لا يبدو عتيقًا..»

مد الغجري أظفارًا كالمخالب وانتزع الغطاء.. كان غير مثبت.. وفي ضوء الشمس عرف (جوناثان) حقيقة ذلك الجسد المسجى بالداخل.. إنّه (أولاف).. كان نائمًا.. لا بل كان ميتًا.. لا بل كان (غير ميت)..

وعلى شفتية المسترخيتين كانت قطرات من دم لم يجف بعد..

دم ليس دمه هو.

☆ ☆ ☆

قال الغجري:

- «كما ترى.. لقد عاد بكل قواه.. طقوسكم أعادته للحياة.. لقد حسبتم أنكم تمثلون لكنه كان بحاجة إلى هذه الطقوس.. وهو الآن ينام هنا صباحًا ويجول في المنطقة ليلًا ليظفر بأي عاثر حظ يقابله..»

كان (جوناثان) يرتجف بالكامل - ومن يلومه على ذلك؟ - لكنه قرر أن يحتفظ بدور (الرئيس) كما كان (أولاف) يناديه، لهذا وقف ينظر إلى الجثة وسأل المساعد:

- «لا أفهم.. هل هذا هو الكونت (دراكيولا) ذاته؟ هل هذا ما تحاول بيعي إياه؟»

قال الغجري بعد ما سمع السؤال:

- «لا.. إنّه تجسيد آخر له.. وقد وجدت القبر باستعمال عيني.. إن الطيور لا تحلّق أبدًا حيث يوجد قبر مصاص دماء...»

- «ولماذا لجأ لهذه الحيلة؟ كان بوسعه أن يجد من يقوم له بهذه الطقوس بدلًا منا؟»

- «لم يكن ليجد من يقبل، وما كان ليجد سبيلًا للدخول إلى القلعة من دون مساعدتكم.. في ذلك الوقت كانت قواه لم تتطور بعد.. كان بشرًا عاديًا..»

- «ولماذا تخبرني بهذا كله؟ لقد حصلنا على الطقوس منك.. أي أنك في صفه..»

- «كنت مرغمًا على هذا.. أمّا الآن فلن أحمل على رأسي دم الضحايا الذين سيهلكون.. إنني أعترف بما فعلت.. وأطالب بتصحيحه..»

- «ولماذا لا يبيت في القلعة حيث تابوته؟»

- «لأن الزحام شديد بالداخل، وهو معرض طيلة الوقت لمن يفتح التابوت من أجل التصوير..»

وساد صمت ثقيل لا يقطعه إلا صوت أنفاسهم وصوت ذباب يحوم لا تعرف من أين أتى..

في النهاية قال (جوناثان) مطرقًا:

- «تتحدّث عن إصلاح الخطأ.. كيف؟»

فتح الغجري حقيبته وببطء - كما يفعل بائع فخور يعرض عليك ما بجعبته من تحف - أخرج مطرقة ووتدًا وسكينًا هائلة الحجم.. ثم نظر إلى (جوناثان) متسائلًا..

هتف (جوناثان) في ذعر:

- «أنت لن تفعل هذا! هذه جريمة قتل!»

قال المساعد في رفق:

- «سيدي.. لا توجد محكمة في العالم تتهم هذا الراقد في التابوت بأنه مصاص دماء.. لكننا نعرف ذلك.. كلنا نؤمن بذلك الآن.. هل لديك شك في حقيقة ما رأيناه؟»

هزّ (جوناثان) رأسه عاجزًا عن الإجابة بنعم.. عاجزًا عن الإجابة بلا..

- «سيدي هذا هو الحل الوحيد..»

هتف (جوناثان) في رعب:

- «لن أفعل هذا.. لماذا لا يفعله هو ما دام مستريح الضمير؟»

- «إنّه مستريح الضمير.. لكنه حسب أنك مهتم بمعرفة ما حل بممثلك الأول.. إنّه ميت ياسيدي وقد دفن نفسه بالفعل.. لن نفعل أكثر من أن نصحح مسار الطبيعة ونريحه للأبد.. ولن يعرف أحد أننا فعلناها..»

صرخ (جوناثان) وهو يدير ظهره:

- «أنتما مجنونان..»

وسمع من وراء ظهره مساعده يقول في تؤدة:

- «نحن في (ترانسلفانيا) و(ترانسلفانيا) ليست (لندن)..»

نفس الكلمة التي قالها الكونت (دراكيولا) في قصة (ستوكر Stoker) الشهيرة..

وسمع صوت شيء يدق على الوتد، ثم سمع صوت العظام وهي تهشّم واللحم وهو يتمزق.. كان هذا مريعًا لعل الصوت كان أشنع من المشهد ذاته، لهذا راح يركض نحو المقطورة وهو يسد أذنيه..

☆ ☆ ☆

ظل طيلة اليوم في المقطورة لا يغادرها، زاعمًا أنه متوعك..

لكن مشاهد النهار لم تفارق خياله..

وعند منتصف الليل سمع من يطرق على الباب فهتف أن أدخل.. كان هذا مساعده الشاب (إيزاك).. وقد بدا راضيًا عن نفسه والحياة برغم كل شيء..

قال له وهو يجلس على المقعد الخشبي:

- «لقد أرحناه يا سيدي.. ثق من هذا..»

لم يستطع (جوناثان) التخلص من فكرة أنّ هذا الفتى قطع رأس رجل وغرس وتدًا في صدره هذا الصباح بالذات.. وبرغم هذا هو هادئ مرح.. سأله دون أن ينظر له:

- «هل دفنتموه حيث كان؟»

- «نعم.. لكننا حشونا فمه بالثوم.. لا بد من هذا.. أحيانًا يحرقون الجثة لكن هذا كان سيلفت الأنظار..»

ابتلع (جوناثان) قرصًا من المهدئ وقال:

- «جميل.. جميل.. لقد بحثنا عمن يمثل الكونت (دراكيولا).. ووجدنا واحدًا بارعًا.. ثم اتضح لنا أنه مصاص دماء فعلًا.. وأننا أعطيناه قدرة غير محدودة بسبب حماستنا البلهاء في التصوير..»

- «يبدو هذا يا سيدي..»

ثم بعد قليل تساءل المساعد في كياسة:

- «هل سنبحث عن ممثل آخر؟»

صاح في هياج وهو يضرب المنضدة بقبضته:

- «ألم تفهم بعد؟ لا أريد كلمة واحدة عن هذا الفيلم اللعين. لقد انتهى عملي هنا وانتهت قصتي ومستقبلي.. غدًا سأجد عملًا في مغسلة سيارات أو موزعًا للصحف! ولا كلمة عن الفيلم اللعين!»

قال المساعد في رفق:

- «لا أريد أن أضايقك يا سيدي.. لكن هناك فرصًا أخرى.. لقد أجاد الغجري تصوّر ما حدث.. لكنه أخطأ في بعض التفاصيل.. الأمر لم يكن متعلقًا بمحاولة الكونت (دراكيولا) للعودة.. الأمر يتعلق بتلك العباءة التي كان الغجري يحتفظ بها..»

وطوح بالعباءة لتسقط عند قدمي (جوناثان) وأردف بلهجته ذات الطابع الشرق أوروبي:

- «كانت هذه عباءة مصاص دماء فعلًا.. ويبدو أنها كانت تحوي لعنة ما.. الغجري لم يكن يعرف وقد تخلى عنها لي لأنّه يجهل خطرها فقط كان يشمئز منها ولم يجسر على تجربتها قط.. حينما جاءك (أولاف) لم يكن مصاص دماء.. لم يكن متآمرًا.. كان مجرد شخص له منظر فريد ويريد أن يمثل في فيلم أمريكي.. لكنه بدأ يتغير مع ارتداء العباءة.. لقد بدأ يتحول بالتدريج، ولم يكن لتلك الطقوس أي دور.. برغم أنها جعلته يفتح غطاء التابوت بقواه المخيفة.. والآن انظر لي يا سيدي..»

رفع (جوناثان) وجهه ليرى أشنع منظر رآه في حياته.. لقد تغير وجه (إيزاك) بالكامل.. هل كانت أذناه بهذا الطول؟

منذ متى كان له نابان يوشكان على تمزيق شفته السفلى؟

قال (إيزاك) وهو يبتسم تلك الابتسامة القذرة التي تجيدها المسوخ:

- «أنا جربت العباءة أمام المرأة على سبيل الدعابة.. ومن هنا عرفت السر.. وقد اكتمل تحولي الليلة..»

وثب (جوناثان) فوق فراشه وراح يبكي بصوت مبحوح متقطع.. لقد فقد القدرة على الصراخ..

قال (إيزاك):

- «بدأت اليوم بالتخلص من منافس لي.. لكن لا تخف يا سيدي.. سوف أتركك وأبحث عن دماء أخرى.. أحب أن أبدأ حياتي كـ (فامفيري) بدماء رومانية خالصة.. لكني أنصحك ألا تلعب بالنار كثيرًا.. وأنصحك كذلك بالتخلص من هذه العباءة.. إنها لعنة تتوارثها الأجيال.. فلا تدع أحدًا يعشها من بعدي!»

ورفع (جوناثان) عينية المخضلتين بالدموع، فلم ير (إيزاك)..

فقط خيل له أن وطواطًا يحلق خارجًا من المقطورة..

من يدري؟ لربما كان واهمًا في هذا.. إن تأثير الدموع على البصر قد يكون غريبًا.

☆ ☆ ☆

- ١ -

مد (مازن) يده ففتح الواجهة.. وتناول منها العباءة السوداء، وفردها على ساعده كما يفعل تاجر الجلود بقطعة من جلد ثعبان، وقال في تأمل أقرب إلى التلذذ:

- «ما رأيك؟ هل تصدق هذا؟»

أجبت عن سؤاله بسؤال آخر كما يفعل أي لص احترف التحقيقات في المخفر:

- «وكيف عرفت أنت هذه القصة؟»

- «أنا لست من الهواة يا دكتور (رفعت).. قلت إنني قضيت حياتي بحثًا عن الحقيقة.. وها هي ذي الحقيقة..»

- «تبدو لي حقيقة غريبة مغبرة نوعًا..»

قال ضاحكًا:

- «هل نجرب ارتداء هذه العباءة؟ ها هوذا السؤال ماثل أمامك.. إن تحولت إلى مصاص دماء فالقصة صادقة وإن لم أتحول فهذه أكذوبة أخرى.. لا أنكر أن الموضوع قد اكتسب صبغة غير مريحة، وأنّ هذه العباءة صارت تزن أطنانًا بكل ما اكتسبته من هالة نفسية..»

- «وهل جرؤت أنت على ارتدائها؟»

ابتسم ابتسامة غامضة، ولم يرد.. فقط اتجه إلى الواجهة الأخرى.. وقلت لنفسي: لقد ارتداها.. بالتأكيد ارتداها.. لكن ماذا كانت النتيجة؟

وأمام الواجهة الثانية وقف لحظة، ثم أشار إلى محتواها.. هناك جنين كامل محفوظ في سائل الفورمالين.. لا مشكلة هنا... الأمر أقرب إلى متحف الطب الشرعي في أية كلية طب بها متحف طب شرعي.. لكن لا بد أنّ هناك قصة ما تحيط بهذا الجنين..

وقال بنفس الصوت الخفيض الغليظ:

- «النوع التالي من الرعب هو رعب ستتعرف طرازه على الفور..»

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

حين تزوجت (هالة) كانت سعيدة بحق..

(هالة) مهندسة شابة رقيقة من الطراز الذي لا يعتقد أن في العالم أي نوع من الشر.. وأحيانًا كان يخطر لأهلها أنها تعاني نوعًا خاصًا من الغباء.. تكلمها عن المذابح.. عن السرقات.. عن خيانة الأصدقاء فيتقلص وجهها في ألم غير مصدقة.. ثم تنسى الموضوع بعد ثوان وتثق بالجميع كما كانت دومًا..

بالنسبة لأبيها كان هذا نوعًا خاصًا من التخلف العقلي الذي لا يمكن قياسه علميًا.. كان مستشارًا متقاعدًا وقد عاش حياة حافلة رأى فيها النفس البشريّة في أشنع حالاتها.. باختصار لم يعد يثق بأحد على الإطلاق، وأعاش أولاده في قوقعة بعيدًا عن عالم الواقع تمامًا.. لكنه الآن صار في حاجة إلى أن يخبرهم بتلك الحقيقة: إنِّه عالم قاس شرير ذلك الذي ينتظركم بالخارج..

لكن دروسه ظلت عسيرة على أفهام أولاده.. وكان هذا يثير جنونه..

ذات مرة سمع باب الشقة يُفتح، فنظر إلى المنبه المضيء بجوار الفراش، ليجد أنها الرابعة صباحًا.. من يفتح الباب في الرابعة صباحًا؟ أيقظ امرأته في هلع، وركض ليبحث في الشقة.. هنا كان الخبر المروع.. إن (هالة) ابنة الخامسة عشرة - وقتها - ليست في الدار..

هبط في الدرج يبحث عنها حافي القدمين وبمنامته..

خرج إلى الشارع المظلم الساكن.. وراح يناديها.. إن قلبه يتمزق جزعًا.. يتمزق فعلًا..

في النهاية وجدها راكعة على ركبتيها على الإفريز تنظر تحت سيارة واقفة.. لقد فرت قطتها من النافذة كعادتها في الأشهر الماضية.. لكنّها لم تعد حتى الساعة، ومعنى هذا أن مكروهًا أصابها..

تمالك أعصابه وراح يرتجف كورقة.. ثم مد يده تحت السيارة فلمست كتلة الفراء الساخنة الغاضبة.. حملها في غل عائدًا إلى الدار وهو لا يصدّق.. فتاة في الخامسة عشرة من عمرها تغادر الدار في الرابعة صباحًا من أجل قطة.. أي جنون! أى غباء! أي بعد عن الواقع!

مشكلة هذه البلهاء أنها لا تعرف أي خطر هنالك في الشوارع المظلمة.. تعتبر العالم كله مكانًا آمنًا مناسبًا للأطفال والفتيات والقطط..

☆ ☆ ☆

كبرت (هالة) وجاء ذلك الذي يعتقد أنها ممتازة، لهذا ستكون زوجة صالحة له هو بالذات.. إن الرجل يبحث عن أفضل واحدة لمجرد أنه هو، ولا يفكر لحظة إن كان هو الآخر أفضل واحد أم

لا.. فلابد أنه كذلك..

لكن (كمال) كان هو الأفضل فعلًا..

كان (كمال) مهندسًا، وكان على درجة من الثراء سمحت له بأن يدرس في الخارج.. رجل وسيم هو، وعلى درجة من الثراء والتهذيب.. لهذا كانت محاولته الأولى للزواج هي الأخيرة، لأنّه ما من أسرة بكامل قواها العقليّة ترفضه.. وبالنسبة للأب بدا له الفتى بلا غبار عليه.. فقط هو يهوى المزاح أكثر من اللازم، لكنه بالتأكيد يمكن أن يحل محله في رعايتها..

وكما اتفق الجميع، كان سيتزوج ثم يأخذ زوجته معه إلى ألمانيا الشرقية حيث يدرس ويعمل.. في تلك الأيام كان كل مهندس يذهب إلى ألمانيا الشرقية يومًا ما..

وتم كل شيء.. دموع كثيرة ذرفها الجميع وهي تصعد على سلم الطائرة بثوب الزفاف مضفية لمحة درامية ما على المشهد.. وكان عليها للمرة الأولى في حياتها أن تبدأ وحدها..

لم ينغص ليلة الزفاف الأولى خارج الوطن إلا شيء واحد.. شيء بسيط في الواقع..

في الليل كانت تشعر بظمأ شديد، فنهض زوجها المحب يحضر لها كوبًا من الماء من المطبخ.. وأثار دهشتها أنه يتحرك بسلاسة تامة في الظلام.. لم يتعثر مرة، ولم يرتطم بشيء مرة.. لا غرابة في هذا، على كل حال لو كان هذا بيته.. لكنّها شقّة استعارها من صديق مصري، إلى أن يفرغ من استكمال شقّة الزوجية.. بعبارة أخرى كان يجرب المشي هنا لأول مرة..

وفي الصباح كان في الحمام، فجربت بنفسها أن تغمض عينيها وتمشي في المسار ذاته فاصطدمت بألف قطعة أثاث وكادت تحطم عنقها..

فجأة شعرت بأنها تغوص بين ذراعين قويتين، فأجفلت وفتحت عينيها لتجده ينظر لها في ثبات ضاحكًا:

- «ماذا تحاولين عمله؟!»

شهقت في رعب.. ثم ضحكت وقالت:

- «أحاول أن أعرف كيف تمشي في الظلام الدامس في هذه الشقة..»

اعتصر أذنيها في رفق كأنها طفل شقي وقال:

- «ملاك صغير هو أنت.. لهذا اخترتك.. لهذا همت بك حبًّا..»

كانت هذه إجابة كافية على كل حال..

أحبت (برلين) وأجادت اللغة الألمانية إلى حدٍ ما.. وصارت لها صديقتان أو ثلاث..

الأولى تدعي (إنريكه) والأخرى (هيلدا).. وكانت الأولى تعمل مع زوجها من قبل.. أمّا الأخرى فجارتها في البناية التي تسكن فيها.. صديقتان لطيفتان جدًّا لو طلبت رأيي..

الحادثة الثانية كانت (هيلدا) طرفًا فيها..

كانت (هالة) وزوجها جالسين يتناولان طعام الغداء.. طعامًا مصريًا صميمًا برعت هي في إعداده وأحبته صديقتاها.. هنا سمعا صوت صراخ يمزق السكون.. كان آتيًا من الشقة المجاورة..

وثب زوجها وبأربع خطوات واسعة كان عند باب الشقة المجاورة.. فتحه واندفع إلى الداخل..

(هيلدا) تقف على باب الحمام تعوي كالذئاب.. الحمام له نافذة من الزجاج المصنفر تتراقص من ورائه تلك الزهرة البرتقالية المخيفة.. لا يحتاج الأمر إلى أن تكون عبقريًا كي تعرف أنّ هناك حريقًا وأنّ هناك شخصًا بالداخل..

نظرة تبادلها الجميع.. فهتفت (هيلجا) وهي تركل الباب بساقها بعنف:

- «(كارل) بالداخل! لا بد أنه سخان الغاز! إنِّه لا يرد!»

هتفت (هالة) والطعام الذي كانت تمضغه يتساقط من فمها:

- «المطافئ! لماذا لا؟ ماذا عن؟»

لكن زوجها كان أسرع من المطافئ وأكفأ.. أدار المقبض بعنف فانفتح.. ثم - قبل أن تفهم ما يحدث - اجتاز الباب وبعد دقيقة كان قد غاب وسط ألسنة اللهب..

- «يا أحمق! انتظر! أنت لن..»

قبل أن تكمل العبارة كان يخرج من وسط اللهب سليمًا تمامًا وهو يحمل الأخ (كارل) بين ذراعيه.. لم يكن (كارل) قطة صغيرة خفيفة الوزن، لكن (كمال) أيضًا لم يكن ضعيفًا.. لقد شقّ طريقه إلى الخارج، وهتف في جنون:

- «ماء!! أريد ماء!»

وألقى بالزوج على الأرض.. كان هذا الأخير ما زال بثيابه كاملة لحسن حظه.. لا بد أنه أوقد السخان وتأهب لنزع ثيابه حين حدث ما حدث.. وكانت الثياب كلها تحترق في حماسة غريبة..

هرعت الزوجة من المطبخ حاملة دلوًا من الماء تساقط أكثره على الأرض.. وأفرغته مرة واحدة على زوجها وسرعان ما تحولت ثيابه إلى عجينة من الرماد المبتل..

- «أطلبي المطافئ الآن..»

وحينما جاء رجال الإطفاء أخيرًا أثنوا على (كمال) بشدة..

بينما وقفت (هالة) ترمقه في انبهار.. كان يقف لامعًا عريض المنكبين.. منهكًا بشكل رجولي.. تفوح منه رائحة الشياط وقد تفحم نصف شاربه، لكنه - كذا خطر لها - كان رائعًا.. الرجال يبدون رائعين حين تلوح عليهم علامات المعاناة والصراع.. إنّه النسر المصري الذي جاء عبر البحر المتوسط لينقذ ابن الراين.. كذا فكرت وهي تتأمله في افتتان تام..

رباه! لكم أنا محظوظة!!

☆ ☆ ☆

- ٢ -

قال (مازن):

في اليوم الذي تلا عودة (كارل) من المستشفي أصر الزوجان على دعوة (كمال) و(هالة) إلى بيتهما للاحتفال.. وقد قبلا على الفور.. كان الجو العام - كما لك أن تتوقع - هو مزيج من الامتنان من جهة والفخر المهذب من جهة أخرى..

وقال الزوج وهو يتحسس الضمادات على أعلى صدره:

- «سخانات الغاز هذه لا تؤدى أي عمل إلا أن تنفجر في وجهك.. من حسن الحظ أن زوجك كان هنا..»

وبدأت المأدبة العامرة بالطعام الألمانى كريه المذاق.. لم يتفق الأوروبيون بعد على ما إذا كان أسوأ طعام هو الألماني أو البريطاني، لكنهما متقاربان جدًّا في هذا اللقب الفريد..

وفي المطبخ وقفت (هالة) مع جارتها الألمانية تحاول أن تكون مفيدة.. الحقيقة أن إجادتها للغة لم تصل لهذا الحد بعد، لكنّها كانت تحاول جاهدة، وكان الألمان الذين يكلمونها يضغطون تلقائيًا على كوابح ألسنتهم ليخرج الكلام أبطأ وأوضح..

قالت (هيلدا) وهي تقطع كعكة كبيرة:

- «إن زوجك رائع وأراهن على أنك فخور به..»

في صدق وحرارة قالت (هالة):

- «بالتأكيد..»

- «هل يحبك كثيرًا؟»

ابتسمت (هالة) في خجل.. هذه أشياء لا تسأل ولا يرد عليها.. هذا يشبه سؤالك (هل ستدخل الجنّة؟).. طبعًا أنت تتمنى ذلك، لكنك لا تملك القرار ولا تملك الإجابة.. فقط تحاول..

نقلت (هيلدا) شريحة كبيرة إلى طبق، وقالت:

- «هل هو ساحر؟»

- «إنّه كذلك..»

- «أحدثك بالمعنى الحرفي للكلمة هناك أشياء غريبة لاحظتها في لحظة الحريق.. أشياء أردت أن أفهمها منه.. مثلًا كيف استطاع فتح باب الحمام؟ لقد كان موصدًا بإحكام من الداخل كيف اخترق النيران وعاد دون أن يحترق شيء ما عدا نصف شاربه؟»

فكرت (هالة).. حقًّا خطر لها هذا السؤال لكن الأحداث كانت متلاحقة لا تسمح لك بإدارة الأفكار في فمك لتحسن تذوقها.. إنّه قام بما يشبه المعجزة.. بل هي معجزة.. فهل يقلل من شأنها أنها كانت معجزة أكثر من اللازم؟

وهكذا عادا إلى غرفة المعيشة، وإن خطر لها أن الغيرة ليست بالشيء المستبعد حتى على زوجة ألمانية.. إن الغيرة قد تتخذ شكلًا مخادعًا لا تميزه بسهولة.. قد تتخذ شكل موضوعية مبالغًا فيها..

☆ ☆ ☆

في السوبر ماركت وقفت (هالة) مع (إنريكه) تنتظران دورهما للدفع.. كانت (هالة) مرتبكة لأنهّا لم تتعامل قط مع (سوبر ماركت) من قبل[1].. وهو سوبر ماركت اشتراكي فقير جدًّا يشبه محل بقالة مما نراه اليوم، لكنّها لم ترَ مثله من قبل على كل حال.. وكانت المعلبات الكثيرة تسبب لها الارتباك وقد اكتشفت أنها وضعت علبتين من اللحم المحفوظ المخصص للقطط في السلة..

قالت لها (إنريكه) ضاحكة:

- «زوجك من هواة أطعمة الحيوانات المحفوظة هذه.. كما أنه يبتاع كميات لا تصدق من اللحم.. هل لديكما أسد في بيت الزوجية؟»

بدا عليها الارتباك.. لا يوجد لديهما أي حيوان في الدار فمتى وكيف أبتاع زوجها هذه الأشياء؟

قالت (أنريكه) وقد وقفت أمام الصراف:

- «كان يشتري أشياء غريبة جدًّا قبل قدومك إلى هنا كنت أتسوق معه من حين لآخر.. وكان يقول إن هذه الأشياء للكلب..»

- «لم يكن لديه كلب قط.. لا الآن ولا قبل قدومي..»

ابتسمت (إنريكه) في رفق، وهزت رأسها بمعنى أن الزوجات قد يعرفن كل شيء في العالم إلا أزواجهنّ.. وهكذا توارت هذه الذكرى لتتخذ مكانها على رف الأرشيف.. الأرشيف الذي سيفتح في لحظة معينة كي يجيب عن أسئلة عديدة.

☆ ☆ ☆

- «لم يكن عندي كلب قط.. هذه المرأة تخرف..»

قالها في ثقة منها هذا الجزء من المناقشة، وراح يتحسس شاربه في عصبية وهو لا يرفع عينيه عن الجريدة..

قالت له في كياسة:

- «إذن ماذا نفعل بكل هذا اللحم الذي تشتريه؟»

لم يرفع وجهه عن الجريدة وقال بنفس اللامبالاة:

- «لم أشتر لحمًا بكميات، لكن لو فعلت.. فما المشكلة في إنسان أكول؟ لاحظي أنني لم أفعل هذا قط منذ جئت إلى هنا..»

- «هذا حق..»

مع امرأة أخرى كانت هذه الإجابات - التي لا تسمن ولا تغنى من جوع - غير كافية، لكنّها بالنسبة لـ (هالة) البريئة التي تعتقد أن أفظع شخص قابلته في حياتها هو نفسها، كانت إجابات مقنعة جدًّا وكافية جدًّا..

وهكذا جلست تشاهد التلفزيون شاعرة برضا تام عن الحياة.. بدأت تكتب خطابًا لأمها تحكى فيه كم هي سعيدة.. كم هي راضية.. كم هي محظوظة..

إنها نائمة الآن.. ظلام دامس.. هدوء محبب.. تشعر بأنفاسه المنتظمة بقربها.. إنّه ينهض.. إلى أين؟ لا شك إلى الحمام.. تريد أن تتكلم لكنّها واهنة جدًّا ومفككة الأوصال جدًّا..

هل هذا صوت باب الشقة؟

نعم.. إنّه يفتحه.. لكنّها لا تريد النهوض.. لا ترغب في النهوض.. إنها تنزلق من حين لآخر إلى ما (خلف جدار النوم) كما يقول (لافكرافت Lovecraft) ثم تعود إلى ما أمامه.. حلم غريب.. هناك ضيوف.. هناك حفل مأدبة.. كل شيء جميل وهي مسرورة، فيما عدا تفصيلًا بسيطًا.. إنها هي الوجبة الأساسية لهذا الحفل!

الضيوف هم (هيلدا) و(أنريكه) وآخرون.. زوجها يقف وسطهم يقطع أوصالها بالسكين، ويقدم لكل واحدة قطعة في طبقها.. المخيف هنا أنها راضية.. أنها مسرورة.. أنها ترحب بمن يأكلونها كأنها ربة بيت حريصة على إرضاء ضيوفها..

ثم تعود إلى ما أمام جدار النوم فتسمع زوجها يتكلم مع أحدهم.. من هذا؟ من هو؟ ثم تنزلق من جديد خلف الجدار لتعاود الحلم.. ثم.. لا شيء..

إنه الظلام الدامس هذه المرّة..

☆ ☆ ☆

في الصباح لم تكن تشعر بأنها على ما يرام..

ذهب زوجها إلى العمل، على حين جلست هي أمام التلفزيون تشاهد برامج الأطفال.. خطر لها أن تتناول الإفطار لكن الفكرة جعلت العصارة الحمضية تصعد إلى أعلى مريئها..

هل هي حامل؟ ارتجفت للفكرة.. بالنسبة لها كانت هذه آخر فكرة ممكنة في العالم.. طفل حي يصرخ ويبكي ويرضع يخرج من أحشائها هي؟ هذا نوع من الخيال العلمي لا شك فيه..

دق جرس الباب ففتحته..

على الباب كانت جارتها (هيلدا).. وهي كما نعرف لا تعمل هي الأخرى.. هكذا يبدأ حفل الزوجات الذي يتميز بالنميمة كطقس أساسي.. لم تكن (هالة) من الطراز الذي يشكو زوجها.. أولًا لأنهّا لم تجد فيه عيوبًا حتى الآن.. ثانيًا لأنهّا ليست من هذا الطراز.. يمكن أن تجلس لتمتدحه وعينها متورمة زرقاء من لكمته، أو وهي تضع قطعة ثلج على خدها لتخفف من آلام صفعته لها..

كانت جلسة طويلة عرفت فيها كل شيء عن عادات (كارل) وطباعه.. عن طفولته ومراهقته وأمراضه..

في وسط الكلام قالت الصديقة الألمانية بشكل عابر:

- «لا أحب التدخل فيما لا يعنيني.. لكن ما سر هذه الزيارات الليلية؟»

- «زيارات ليلية؟»

- «هؤلاء القوم الذين يأتون بعد الثانية صباحًا لداركم.. إننا نسمعهم.. أعترف أنهم لا يحدثون صخبًا لكن هذا غير مريح.. خاصة أنني لمحت وجوههم من فرجة الباب لا يوحي مظهرهم بالراحة أبدًا..»

قشعريرة عبرت ظهر (هالة) وهي تسمع هذه الكلمات..

هل هذا صوت باب الشقة؟

نعم.. إنّه يفتحه.. ثم تعود إلى ما أمام جدار النوم فتسمع زوجها يتكلم مع أحدهم.. من هذا؟ من هو؟

لم تكن تخرف إذن..

بالفعل هناك من زارهم ليلًا.. وهو يحرص على أن يزيل أي أثر لزيارته بعد رحيله.. يزيله بدقة لا توصف، لأن الشقة في الصباح تبقى كما هي..

ولكن كيف ولماذا؟ أشد ما يثير الضيق في هذه الأمور أن تشعر بأنك آخر من يعلم.. لهذا شعرت بمقت شديد لـ (هيلدا) وتمنت لو تخرس قليلًا..

قالت لها (هيلدا) وقد لمحت حيرتها الواضحة:

- «واضح أنك لا تعرفين شيئًا عن الموضوع.. على كل حال أن أقول إنك تثقين بزوجك أكثر من اللازم.. ولو كنت مكانك لفتشت حاجياته بعناية.. ولظللت ساهرة أنتظر..»

- «سأسأله.. هذا سهل..»

- «ما دام أنكر حتى الآن يا صغيرة فلسوف ينكر إلى الأبد..»

وصمتت (هالة) وراحت تراقب المرأة على الشاشة وهي تعد نوعًا ما من الحساء.. تتكلم لكنّها لا تفهم حرفًا من كلامها..

لكنّها لم تسأله عن شيء..

للمرة الأولى في حياتها تصرفت بخبث وكتمان.. إلا أنها لم تصح قط في الليل كي تحضر هذه الزيارة الغامضة.. دومًا كانت تنام كلوح الخشب إلى أن يشرق النهار، وعلى كل حال كانت قد بدأت تنسى تلك الكلمات المسمومة التي سمعتها.. وعامة حرصت على أن تتجنب لقاء (هيلدا) أو التعامل معها.. هذه المرأة على أسوأ حال من الخلاف مع زوجها، وبالتأكيد صممت على أن تهدي للوجود هدية هي المزيد من المقت..

مرّت الأيام وجاء اليوم الموعود..

لقد كانت تلاحظ ذلك الانتفاخ في بطنها لكنّها لم تعره أهتمامًا بالقدر الكافي.. ثم صار الأمر حقيقيًا لا ريب فيه.. ذهبت إلى المستشفى وهناك حللوا بولها وأخبروها بأنها حامل..

هذا يفسر كل ما كانت تمر به من مقت للطعام ومن حموضة، ومن قيء صباحي..

إنها ستصير أمّا.. هي الطفلة الخائفة ستصير أمًّا لطفلة خائفة أخرى..

حين عاد (كمال) من العمل، راحت تلعب دور الزوجة اللطيفة في الأفلام المصرية.. لدي مفاجأة لك.. اليوم شعرت بتوعك.. ذهبت للطبيب.. قال لي.. إنك.. بعد أشهر.. سوف..

قاطعها في نفاد صبر:

- «حامل؟ أعرف هذا.. لا داعي لهذه المقدمات..»

شعرت بخيبة أمل.. كانت تتوقع أن يكون رقيقًا ويقبل بلاهتها هذه.. وأدرك أنه جرحها فقال في رفق:

- «يا ملاكي لا يحتاج الأمر إلى طبيب.. عروس شابة انقطع منها الطمث وتقيء يوميًا ويكبر بطنها يومًا بعد يوم.. فهل هذه مجرد غازات؟»

قالت لنفسها إن كلامه منطقي بلا شك، وإن كانت تفضل أن يكون أكثر شاعرية ورقة..

على كل حال جلست تكتب لأهلها هذه المفاجأة الصاعقة، وبرغم كل شيء لم تنكر في خطابها لحظة أنها سعيدة.. سعيدة أكثر من اللازم..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

قال (مازن):

بعد أشهر كانت في السوبر ماركت مع (إنريكه).. وكانت تبتاع ما يلزم من ثياب للفترة القادمة.. لقد اشترت ثياب الوليد وبعض الألعاب لحجرة نومه، وكانت تسأل صديقتها باستمرار عما يخطر ببالها.. إن (إنريكه) أم مطلقة..

لكن (إنريكه) لم تكن على ما يرام.. كانت شاردة ترد باقتضاب.. وفي مرة من المرّات خيل لها أنها ترى دمعة في عينها..

فجأة قالت لها ونظرة غريبة في عينها:

- «(هالة).. نريد أن نتكلم في مكان منعزل..»

سقط قلبها في قدميها، فهي لا تحب أبدًا هذه المقدمات.. لكنّها وافقت..

وفي إحدى الكافتيريات الهادئة طلبت (إنريكه) لنفسها قهوة وابتلعت قرصًا مهدئًا أخرجته من حقيبتها، ثم أشعلت لفافة تبغ - فهي من هذا الطراز - وقالت في تؤدة:

- «هل قرأت قصة (طفل روزماري Rosemarys Baby)؟»

هزت (هالة) رأسها أن لا.. بدا لها الاسم مألوفًا فأردفت (إنريكه):

- «هذه من قصص الرعب الشهيرة جدًّا.. وقد تحولت إلى فيلم بالغ النجاح أخرجه (رومان بولانسكي).. إن القصة تدور حول زوجين اختارا لسكنهما بناية تعجّ بالسحرة.. هما لا يعرفان ذلك.. لكن الزوج ينقاد إلى الفخ ببطء شديد وهكذا تكتشف الزوجة أنها حامل.. لكن ليس من زوجها.. بل من الشيطان ذاته.. وأن الطقوس تقام كل ليلة حول جسدها الغائب عن العالم بفعل المخدر.. وفي النهاية تنجب.. تنجب ابنًا للشيطان!»

اتسعت عينا (هالة) رعبًا.. لماذا تخبرها بهذا الكلام؟

قالت (إنريكه) وهي تنفث الدخان بكثافة:

- «الحقيقة هي أنّ هذا السيناريو يتم تطبيقه معك حرفيًا إن (أبراكساس) يتردد على دارك كل ليلة ومعه أتباعه.. إن زوجك العزيز يقوم بتخديرك كل ليلة بقرص من المنوم يدسة لك مع العصير الذي تشربينه بعد العشاء..»

- «(أبراكساس)؟»

- «نعم.. (أبراكساس) وهو من شياطين العالم السفلي أنت حامل منه يا صغيرة..»

هبت (هالة) واقفة في عصبية وأوشكت على الصراخ، لكن يد (إنريكه) المعروقة قبضت على معصمها بقوّة:

- «لا داعي للهستيريا.. لم نأت هنا كي نلفت الأنظار..»

جلست (هالة) صورة مجسمة للغباء والبلاهة.. فأردفت (إنريكه):

- «أنت حكيت لي عن زوجك.. كيف يمشي في الظلام بلا عائق.. كيف اخترق النار والدخان وأنقذ (كارل).. أنا حكيت لك عن كميات اللحم التي يبتاعها.. ألم تلحظي ذلك؟ ألم تلحظي أنه متكامل إلى حد يصعب تصديق أنه بشري؟ الحقيقة أنك حمقاء.. لقد لمّحت لك مرارًا وكذا فعلت (هيلدا) إلى الحقيقة، لكنك لا تريدين الفهم.. الحقيقة أننا من أتباع هذه الجماعة السرية التي تحاول إعادة (أبراكساس) إلى العالم، والتي زوجك عضو فيها.. لكنك بريئة جدًّا.. طاهرة جدًّا، وبصراحة لم تعد واحدة منا ترغب في أن تدفعك أنت بالذات لهذا الدور القذر.. لهذا أنصحك بشيء واحد: فتشي حاجياته جيدًا.. ابحثي مرارًا.. هذه الليلة بالذات لا تشربي العصير.. يجب أن تعرفي من يدخل بيتك ولماذا.. فإن كان كلامنا صحيحًا فعليك بالفرار بأسرع وقت.. ربما تولت سفارتكم حل هذه المشكلة..»

ثم أفرغت باقي قدح القهوة في فمها، وأخرجت ورقة مالية دستها تحت الطبق، وغادرت المكان من دون كلمة واحدة..

☆ ☆ ☆

لو أن (إنريكه) فجرت لغمًا تحت المنضدة، أو أوصلت سلكًا كهربيًا عالي الجهد بأصابع قدميها وأولجت الفيشة في القابس، لما أحدثت كل هذا التأثير لدى (هالة)..

كأنها ثملة عادت (هالة) إلى دارها.. احتاجت إلى وقت لا بأس به حتى تجد المكان..

دخلت الشقة شاردة.. ظلت تدور حول نفسها ساعة على الأقل وتمشي من غرفة الأخرى.. في النهاية وجدت أنها تتجه كالمنومة مغناطيسيًا إلى غرفة مكتب زوجها..

وقفت وراء المكتب لحظات، ثم فتحت الدرج الكبير إنّه يضع فيه المفتاح الذي يفتح الأدراج الصغرى.. هي تعرف هذا وهو يعرف أنها تعرف، لكنه يثق بها ويعرف أنها أطهر من أن تتسلل لتتفحص أسراره..

أخرجت المفتاح وعالجت الدرج الأول..

انفتح..

لا شيء..

الدرج الثاني.. به..

به أشياء تخصها.. هذا هو الجورب الذي لا تفهم كيف أضاعته.. هذا هو دبوس الشعر الذي اختفى فجأة.. هناك عدة صور لها.. من أين أتى بها؟ إنها تخصها حين كانت في مصر.. صور من المدرسة الثانوية.. لابد أنه أخذها من أهلها ولم يخبرها.. ثمّة دمية صغيرة مصنوعة من القماش المخيط.. ما معناها؟ هناك شعيرات على رأس الدمية.. ملتصقة به كأنه شعرها هي.. الحصول على هذه سهل لأنهّا تحرص على قص الخصلات الزائدة، وأحيانًا تهمل التخلص منها..

ثمة علبة أقراص كتب عليها (باربيتيوريت).. هي تذكر الاسم.. إنِّه منوم كان أبوها يتعاطاه أحيانًا..

هناك لوحة ملفوفة حول نفسها.. فتحتها فوجدت ذلك الرمز المخيف.. النجمة الخماسية وحولها كلمات بلغة لا تعرف ما هي..

لا تفهم أكثر هذه الأشياء.. لكن القصة واضحة..

☆ ☆ ☆

- «ملاك صغير هو أنت.. لهذا اخترتك.. لهذا همت بك حبًّا..»

☆ ☆ ☆

المهندس المصري الشاب تورط في خبرة مريعة حين ذهب إلى ألمانيا.. ووعد جماعته بأن يذهب إلى مصر ليعود بعروس (أبراكساس).. إن ما تراه في الدرج لغامض لكنه يخبرها بوضوح أنها هدف لعمل سحري..

في المساء عاد.. كان ضحوكًا متألقًا، أمّا هي فكانت في أسوأ حال.. لكنّها قررت ألا تثير ريبته بأي شكل..

راح يتناول العشاء ويثرثر، ثم نهض كعادته إلى المطبخ ليعد لهما العصير.. للمرة الأولى تفطن إلى أنّ هذه عادته وأنه حريص عليها.. عاد حاملًا الكوبين وبحرص وضع كوب اليد اليمنى أمامها واختار هو كوب اليد اليسرى..

- «لا أريد أن أضايقك.. لكني أطمع في مزيد من التدليل..»

- «قولي ما شئت.. فأنت الحامل لا أنا لو لم تخني الذاكرة..»

- «نسيت إحضار الفاكهة من الثلاجة.. فهل جلبت لي بعضها؟»

هكذا انصرف، وهكذا وجدت وقتًا كافيًا كي تتخلص من العصير.. أين؟ أين؟ المزهرية الموضوعة على المنضدة..

في اللحظة المناسبة قبل أن يعود، وحين عاد كان كوبها فارغًا وهي تمسح شفتيها في امتنان..

بعد دقائق أعلنت أنها راغبة في دخول الفراش..

بدأ يخلي المنضدة من الأطباق.. على حين اتجهت إلى الحمام لتغسل وجهها، ثم دلفت إلى الفراش.. وبعد دقائق تعالى صوت تنفسها المنتظم..

لن تنام.. مهما كان الإغراء فلن تنام.. يجب أن تعرف.. أناملها تعتصر السكين تحت الوسادة.. السكين التي أخفتها في الحمام ثم تحت الروب..

لابد أنها استعادت ذكريات شبابها كاملًا وحينما نظرت إلى المنبه جوار الفراش.. إنها الثالثة صباحًا.. هو يرقد جوارها ويبدو نائمًا في عمق، وهي لا تجرؤ على أن تتحرك..

الآن ينهض ببطء.. الآن يمشي في الخارج.. الآن يفتح باب الشقة..

هذه هي اللحظة التي تعرف فيها كل شيء..

كانت تشهق في انفعال.. ترتجف كورقة.. لكن أذنيها مرهفتان كقط صغير..

تسمع صوت أناس يتكلمون بالخارج.. رجال ونساء يتحدثون.. زوجها يقول:

- «إنها نائمة.. لا تقلقوا.. خذوا راحتكم..»

صوت غليظ يقول:

- «إذن ماذا تنتظر أيها البشري؟»

زوجها يقول لصاحب الصوت في لهفة:

- «أنت سيدي.. أنت سيدي.. إن الشرف يغمرني..»

ثم صوت واحدة.. تبًّا.. إنها هي (هيلدا) ذاتها.. تقول:

- «خذوا الحذر.. لقد بدأت تشعر بريبة..»

الصوت الغليظ يقول:

- «إن البذرة فيها الآن.. لا أحد يقاوم (أبراكساس) أبدًا..»

الآن كانت تبكي بلا انقطاع.. وصار جسدها متوترًا كأنه وتر القوس..

الأصوات تدنو.. والصوت الغليظ يقول:

- «هلموا يا أبنائي لنبدأ الطقوس..»

يقول زوجها:

- «بالمناسبة.. هي متيقظة الآن وتتابعنا! لقد أفرغت كوب العصير في المزهرية بينما كنت أنا في المطبخ! تحسبني لم ألحظ ذلك!»

إنهم على باب الغرفة الآن..

إنهم..

وفي اللحظة التالية وثبت من الفراش.. اندفعت كالسهم نحوهم..

لم تستطع إلا أن ترى زوجها وسط بعض الناس، وكان ينظر لها بدهشة.. وفي اللحظة التالية وثبت فوقه كقطة مسعورة، وغرست السكين في عنقه..

غرسته.. غرسته.. غرسته.. وشعرت بالزوج يتهاوى كالبالون المثقوب أمامها..

وقبل أن تغيب عن الوعي سمعت (هيلدا) تصرخ في هستيريا:

- «ماذا فعلت يا حمقاء؟! هذه كانت دعابة.. مجرد دعابة ثقيلة! إن زوجك يهوى الدعابات!»

☆ ☆ ☆

- ١ -

قال (مازن):

- «فيما بعد عرفت الزوجة القصة كاملة.. في الحقيقة لم يكن المشي في الظلام موهبة ما.. هناك أشخاص يرون أفضل من سواهم في الظلام.. بعد موضوع حريق الحمام وشجاعة الزوج الحقيقية النادرة خطر لـ (هيلدا) أن تبدأ نسج هذه الدعابة التي راقت للزوج.. كان يحب أن يتندر على سذاجة (هالة) واستعدادها لتصديق كل شيء.. وببطء راحت (هيلدا) و(إنريكه) تسممان حياة الزوجة بأكاذيب عن الزوج.. لم يكن هناك زوار يأتون ليلًا بل (هيلدا) وزوجها طرقا الباب ذات مرة ليكلمهما الزوج ويغرسا قصة ملفقة عن الزوار الليليين.. لم تكن هناك أقراص منومة ليلًا لكنهما أقنعا (هالة) بذلك.. في النهاية عرف الجميع أن (هالة) لن تتناول العصير وستبقى متيقظة، ولسوف تفتش مكتب زوجها.. طبعًا كان كل شيء معدًا كي تجد ما وجدته.. هنا تتم الزيارة المرهوبة.. لكنهم لم يقدروا أن الدعابة قد تتحول إلى مأساة، وأن الشخص الرقيق كالزوجة يمكن أن يتوحش عندما يقتله الرعب..»

قلت له وأنا أبتلع ريقي الذي جف:

- «دعابة ثقيلة جدًّا، وأشعر أن الزوج استحق الذبح فعلًا.. كما أرى أن (هيلدا) و(إنريكه) كانتا بالفعل تحقدان بشدة على الزوجة المصرية الهانئة..»

هزّ رأسه موافقًا.. ثم أضاف:

- «لكن الأمور ليست بهذا الوضوح دومًا.. هنا يبرز سؤال مهم عن كيف فتح (كمال) مقبض الحمام؟ لم تكن الدعابة واردة في ذلك الوقت.. ولم تكن الزوجة لتترك زوجها يحترق لمجرد أن تكون الدعابة محكمة.. هذه نقطة..»

ثم مد يده إلى الوعاء الذي حفظ فيه الجنين وهو يقول:

- «لم تحتفظ (هالة) بوليدها في المصحة التي نقلت إليها.. لقد أجهضت.. وقد احتفظ أحد الأطباء بالجنين إلى أن حصلت عليه أنا.. والسبب هو هذا..»

وأدار الوعاء.. فرأيت بوضوح تام أن الفقرات العصعصية للجنين كانت متحورة على شكل ذيل كامل.. ذيل كامل مشقوق..

هتفت في رعب:

- «هل تعني أن؟»

قال وهو يبتسم:

- «ثمّة رواية شهيرة اسمها (36 ساعة) للأديب (كارل هيتلمان Carl Hittleman) تحكي عن ذلك الضابط الأمريكي الذي كان يعرف كل كلمات الشفرة وموعد هجوم الحلفاء على ألمانيا.. كان من المستحيل أن يتكلم مهما عذبوه وقد عرف الألمان هذا، لذا خدروه واختطفوه وأجروا جراحة جعلته يتقدم في العمر شكليًا.. نقلوه إلى مكان أعدوه سلفًا يبدو في كل شيء كأنه قاعدة أمريكية.. الأطباء الذين يحيطون به يبدون أمريكيين ويتكلمون الأمريكية بطلاقة.. حين أفاق أفهموه أنه في قاعدة أمريكية، وأن الحرب انتهت منذ أعوام، وأنه فقد وعيه وذاكرته، لكنه الآن بخير.. عليه أن يأخذ راحته..

«ثم بدأ العلاج النفسي.. مطلوب منه - على سبيل تنشيط الذاكرة - أن يذكر كل شفرات القوات الأمريكية في الحرب.. متى كان الهجوم.. أين؟ إلخ.. بالطبع تكلّم الرجل.. لكنه فيما بعد اكتشف الحقيقة لأن جرحًا كان في إصبعه منذ أيام، ومن المستحيل أن تنتهي الحرب ولما يشف هذا الجرح بعد.. هكذا صار عليه أن يبرهن على أنه اكتشف الخدعة مبكرًا وأنه كان يخدع النازيين من البداية.. ويبدو أنه نجح في ذلك..»

كنت أعرف القصة جيدًا بل رأيت الفيلم عدة مرات، فقلت له في عصبية:

- «ما دور هذه القصة هنا؟»

ابتسم في غموض وقال:

- «لعب أتباع (أبراكساس) نفس الدور تقريبًا.. لقد خُدعت الزوجة مرّتين.. فكر في الأمر جيدًا ولسوف تجد أنني على حق.. إن الشبه بين القصتين شديد..»

ثم تنهد واتجه إلى الواجهة الثالثة ووقف يتأملها بعض الوقت، حيث كانت تلك المادة الهلامية المتحجرة.. كأنها شمعة عملاقة ذابت تمامًا..

كنت الآن قد وصلت إلى حقيقة مفروغ منها: هذا الرجل ليس رجلًا.. سوف تشرق الشمس لأجد أنه لا وجود له.. لقد عشت هذا الموقف مرارًا.. لكني على الأقل أعرف أن قصصه حقيقيّة.. ثم كيف أتأكد من نظريتي هذه؟ لا سبيل إلا أن أنتظر..

قال لي بصوته الغليظ:

- «القصة الثالثة تتحدّث عن نوع ثالث من الرعب (ماذا يجري في ذلك البيت؟).. إنّه شعور بدائي مخيف لكنه موضوع قصتنا التالية..»

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

في العام ١٩٦٥ كان هناك مختبر قرب (كييف Kiev) في الاتحاد السوفييتي..

كان هذا المختبر يمارس بعض التجارب الغامضة التي لم تتضح طبيعتها.. كنا في ذلك الوقت في ذروة عصر الحرب الباردة.. والعلاقة بين القوتين العظميين علاقة من الشك المتبادل والمقت.. وكانت أمريكا لا تعرف بالضبط مدي ما بلغه السوفييت من تقدم علمي، مما أدى إلى المبالغة في أحيان كثيرة.. إلى حد أنهم سألوا أحد علماء الفضاء الأمريكيين عما يتوقع أن يجدوه لو وصلوا إلى القمر، فقال بثقة: السوفييت طبعًا!

لهذا لنا أن نتوقع أن أحدًا على وجه البسيطة لم يعرف بكنه التجارب التي تدور في ذلك المختبر ولا طبيعتها.. باستثناء أفراد محدودين جدًّا في الحزب وفي الجامعة.. ولما كان هذا المختبر قد تلاشى تمامًا الآن فإنني أعتقد - بلا فخر - أنني وأنت الوحيدان اللذان يعرفان يقينًا ما كان يحدث هناك..

كان المشرف على المختبر أستاذًا سوفيتيًا يدعى (أندريه أنسيمفتش خارين) - يمكننا أن نكتفي باسم (خارين) فهو يبدو محببًا للسمع - وكان طبيبًا بشريًا قبل أن يهتم بالظواهر الخارقة للطبيعة، والسوفييت كما نعلم هم أول من اهتم بهذه الأشياء بشكل علمي وحاولوا أن يقننوها..

وكان (خارين) كثير السفر واسع العلم، وقد ارتحل مرارًا إلى إفريقيا وأمريكا الجنوبيّة.. رأى الكثير جدًّا وشاهد ما هو أكثر.. وفي النهاية عاد إلى مختبره ليطبق ما وجده..

لكن الحكومة وجدت بعد أعوام أنّ هذه التجارب لم تقدم شيئًا.. إنها تستهلك الكثير من الإنفاق الحكومي ولا تبدو لها نتيجة ملموسة ولهذا قررت أن تغلق هذا المختبر وأن توقف التجارب..

كانت الصدمة عنيفة على (خارين)، لهذا اعتكف في داره لفترة، ثم طلب إذنًا لحضور أحد المؤتمرات في (بلجيكا).. وذهب هناك مع مساعده.. ثم ذاب تمامًا لم يعد أحد يعرف أين هو ولا ماذا فعل.. هؤلاء القوم حمقى، فلو سألوني لقلت لهم إن هذا هو ما سيحدث بالضبط..

لم تكن هذه حادثة غير مسبوقة على كل حال.. كثيرون حاولوا الفرار من وراء الستار الحديدي.. بعضهم نجح وحصل على حق اللجوء السياسي واستغله الأمريكان كبوق دعاية ضدّ الشيوعية، وبعضهم فشل.. عندها لا نسمع عنهم ثانية.. ربما تعامل معهم الـ KGB بشكل ينهي أوهامهم.. هذا هو الأرجح على كل حال..

حسن.. لا أحد يعرف شيئًا عن الدكتور (خارين) منذ العام ١٩٦٨.. وبمرور الوقت لم يعد هناك مختبر قرب (كييف).. ولكن القصة لم تنته..

بالواقع كانت قد بدأت

☆ ☆ ☆

كان (جان بيير) الصغير يقول: جارنا غريب الأطوار..

كان (جان بيير) الصغير يقول: جارنا لا يتكلم كثيرًا..

كان (جان بيير) الصغير يقول: جارنا لا يحبّ الأطفال..

كان (جان بيير) الصغير يقول: جارنا يبدو ككائن من كوكب (يوريك) ينتظر لحظة الغزو..

وكان الأب يقول: اخرس يا (جان بيير)..

هذه طريقة تربوية أثبتت فعاليتها منذ الأزل.. وقلما تفشل..

لكن الأطفال في السابعة لا يستجيبون للطرق التربوية الناجحة.. لقد راح الصبي يأخذ حوض السمك الكروي الفارغ ويثبته على رأسه، ثم يخرج فاردًا ذراعيه في الصالة وهو يردد بلا توقف:

- «يا أهل الأرض.. استسلموا لجيش (يوريك) العظيم قبل أن نحرقكم بالأشعة الكونية..»

ويطارد أخته الصغرى عبر الحجرات وهي تصرخ.. فلا ينقذها إلا أن تركض إلى غرفة المكتب حيث الأب يراجع أوراقه.. هنا يدخل الصغير فيثب الأب مذعورًا ويصرخ:

- «ستختنق يا أحمق!!»

وينزع الحوض عن رأسه ثم يأتي بفرشاة الشعر، ويرقد (جان بيير) على ركبتيه كي يوسع مؤخرته ضربًا..

هذه طريقة تربوية ناجحة أخرى.. والحقيقة أن الصغير لن يفكر بعد اليوم في ارتداء الحوض على رأسه من دون أن تؤلمة مؤخرته..

☆ ☆ ☆

إنّه (إبريل) حيث كل شيء جميل براق.. نظيف..

في الصباح كان الأب يذهب إلى العمل.. يقبل زوجته ويعبر الحديقة إلى حيث تنتظر سيارته الصغيرة الحمراء فكان أحيانًا يلقى جارهم وهو يأخذ بريده فيحييه بهزة رأس..

بالفعل لا يعد السيد (روسكوف) ودودًا على الإطلاق.. إنّه عجوز أصلع الرأس لكن ما بقي منه على جانبي رأسه يوشك أن يبدو كقطع قطن لصقها هنالك على عجل.. وله وجه قاتم مكفهر يجعلك تتوقع أن تبدأ يومك بنيزك يهوي فوق رأسك..

يبدو أنه مهاجر من شرق أوروبا.. للغته الفرنسية طابع شرق أوروبي لا يمكن أن تخطئه.. وقد جاء إلى المنطقة منذ أشهر، وهو لا يتكلم كثيرًا.. لا يتكلم على الإطلاق، ولا يخرج تقريبًا.. واضح أنه يحصل على كل حاجياته من السوبر ماركت هاتفيًا.. وحتّى هذه اللحظة لا يبدو أنه كان يمارس عملًا معروفًا..

في هذه المرّة بدا أن الرجل راغب في بعض الكلام لقد هزّ رأسه مرّة أخرى..

سأله الأب:

- «يوم جميل.. هه؟»

فهز الرجل رأسه من جديد بمعنى أنّ هذا يوم جميل..

كانت هذه أطول محادثة ممكنة مع الرجل، وبدا للأب أنّ هذا يوم خارق للعادة.. هكذا انتهى من هذه الثرثرة وأدار محرك سيارته مبتعدًا.. إنّه (إبريل) حيث كل شيء جميل براق... نظيف..

وقف الضيف يرمق السيارة حتى ابتعدت تمامًا ثم عاد إلى داره..

☆ ☆ ☆

- «أؤكد لكما أنه غريب.. قادم من الفضاء..»

- «لماذا؟ الغرباء لا يبدون كذلك.. دائمًا هم يبدون مثلي ومثلك، لكن حين يجرحون يسيل منهم دم أخضر أو يخرج شعاع نور ساطع من الجرح..»

- «من الممكن أن يأتي غريب يبدو غريبًا..»

كان هذا طبعًا هو (جان بيير) مع صديقية (سيمون) و(كلود).. إنهم ثلاثة شياطين فقط لو فهمت كيف يمكن لطفل في السابعة أن يكون شيطانًا.. وكل منهم لديه أخت صغيرة مزعجة لا تكف عن الشكوى، وأم تصدق الأخت دومًا، وأب يصدّق الأم طبعًا لأنّه لا يستطيع أن يفعل غير هذا..

كانوا يتحدثون عن المسكين المسيو (روسكوف) طبعًا..

وهكذا قضى الصبية الوقت يلعبون أمام باب الرجل محاولين أن يروه في لمحة ما.. ولما لم يخرج كما هي العادة تمددوا على بطونهم عبر الطريق من الجهة الأخرى، كما يفعل رجال العمليات الخاصّة إذ يراقبون معسكرًا..

كان البيت من طابقين، صغيرًا جدًّا، وله حديقة غير منسقة.. لكن حرص الرجل على أن يغلق كل الستائر بدا لهم مرضيًا.. أحيانًا كان يفتح نافذة ما، بحيث لا يبدو منها ثم يغلقها ثانية..

ثم قرروا أن يبدءوا تقنية أخرى هي لعب الكرة.. لعبها بحيث تضرب باب الرجل من آن لآخر.. إن الصبية يجيدون هذه الأعمال المزعجة.. وفي مصر هناك مثل شعبي معناه (إن أردت أن تطرد أحدهم من القرية، فأطلق عليه الأطفال)..

بوم!!

هكذا ارتطمت الكرة بالباب.. فارتج..

انفتح الباب وبرز الجار العجوز وقد ازداد وجهه كآبة.. ونظر عبر الطريق فرأى الصبية واقفين في نوع من التحدي له.. كان قد اعتاد هذه الأمور كما هو واضح.. لا بد أن كثيرين تحرشوا به من قبل.. والسبب هو الاستفزاز الذي يسببه الرجل المنغلق الغامض.. كأنه يهين الآخرين.. أو كأن في انغلاقه درجة ما من التعالي.. لو كان ثرثارًا يقف في وسط الطريق ولا يكف عن السباب لتركه الناس وشأنه..

لكن الرجل كان عمليًا.. نظر إلى الأرض فوجد الكرة.. انحنى وحملها تحت إبطه كما تحمل أنت بطيخة وعاد إلى الداخل وأوصد الباب خلفه..

- «كرتي!!»

كذا صاح (كلود) وهو يركل الأرض في عصبية..

ثم إنّه استدار إلى (جان بيير) وصاح مغضبًا:

- «أنت صاحب الفكرة.. هذه الكرة غالية الثمن ومفضلة لدي..»

قال (جان بيير) في برود:

- «أنا لم آخذها.. هو فعل.. لو كنت تريدها بهذا القدر فلماذا لا تطلبها منه؟»

- «أنت صاحب الفكرة..»

- «وأنت صاحب الكرة..»

هكذا دار الجدل المحتدم العصبي.. وبدا أنه ما من واحد من هؤلاء الشجعان يرغب في الدنو من الرجل أكثر من اللازم.. لماذا؟ ألم نتفق على أنه غريب من كوكب (يوريك) جاء ليعد للغزو؟

في النهاية قال (جان بيير) وهو بالمناسبة أكبر الثلاثة سنًا.. صحيح أن الفارق بضعة أشهر، لكن هذه الفوارق تغدو قرونًا في عالم الأطفال:

- «سأدق بابه أنا وأستعيد الكرة...»

☆ ☆ ☆

- ٢ -

قال (مازن):

بخطوات مرتبكة متعثرة عبر (جان بيير) الطريق متجهًا لباب الرجل.. نظر للوراء نحو صديقيه، ثم رفع قبضته دق على الباب.. ثم إنّه لاحظ وجود جرس هناك فضغط عليه..

وفي هذه اللحظة بالذات خطر له أن يفر هاربًا، ثم تماسك وقد أدرك أن صديقيه يرمقانه..

انفتح الباب وظهر الوجه الكئيب العجوز..

- «معذرة يا سيدي.. نحن لم نقصد أن نضرب بابك بالكرة..»

ظل الرجل يرمقه في ثبات كأنما هو صامت لا يتكلم.. فابتلع الفتى ريقه اللزج، وقال:

- «هل تسمح لنا باسترداد الكرة؟»

لدهشة الصبيين أفسح الرجل الطريق ليدخل (جان بيير) من الباب..

وكما حكى (جان بيير) فيما بعد اقتاده الرجل إلى الحديقة الخلفيّة.. هناك كان صندوق من الخشب موضوعًا على العشب، وكان يشبه صناديق الاقتراع ذات الفتحة في أعلاها..

دنا منه الرجل وأشار إليه باشمئزاز ولا مبالاة وقال:

- «كرتك بالداخل.. خذها ولاتعد هنا أبدًا..»

كانت الفتحة صغيرة لا تسمح برؤية ما بداخل الصندوق ولم يتساءل الصبي لحظة عن كيف دخلت الكرة هنا، فقد افترض أن للصندوق بابًا جانبيًا أو سفليًا.. لكن الفتحة كانت تسمح بدخول اليد.. هكذا أدخل يده دون تفكير وبلا حذر..

بخ خ خ خ خ خ!

دوى الصوت الحاد البري من داخل الصندوق، وشعر بشيء يخمش يده فوثب إلى الوراء مذعورًا.. هنا انفجر العجوز ضاحكًا..

لم تكن ضحكة عادية، إنما هي ضحكة من ضحكات السينما المفتعلة المبالغ فيها.. كان يرجع رأسه للوراء ويغمض عينيه، وقد فتح فاه كاشفًا عن فم خال من الأسنان تقريبًا ما عدا سنين مصفرتين في الفك السفلي..

ها ها ها ها ها؟

ولم يعرف الصبي متى ولا كيف فر من أمام الرجل عابرًا المنزل ركضًا..

ها ها ها ها ها!

ها ها ها ها!

ها ها ها!

الضحك مستمر لكنه يخفت تدريجيًا وهو يخرج من الباب الأمامي باكيًا.. يعبر الطريق في ثلاث وثبات ليكون مع صديقيه.. ولم يدر الصبيان لماذا ولأي سبب راح ثلاثتهم يجرون مذعورين، بينما الضحكات المجنونة تلاحقهم..

لا بد أنهم كفوا عن الجري عند حدود (تنزانيا) مثلًا..

هناك وقفوا يلهثون ويلتقطون الأنفاس.. أخيرًا رفع (جان بيير) يده ليرى ما دهاها.. كان هناك خدش واضح دام على ظهر يده وفي كفها.. وقد راح يمتص الدم وهو يبكي في غل:

- «إنِّه شرير.. لقد أخافني..»

قال (سيمون):

- «ألم تعرف ما كان في الصندوق؟»

- «كيف لي ذلك؟ غالبًا هو قط أو كلب صغير.. لكنه شرس..»

- «سنخبر بابا..»

- «لا.. هذا سيضعنا في مشكلة.. لماذا تضايقون هذا العجوز الطيب؟ طاخ طاخ!»

للأسف كان هذا حقيقيًا.. لكنهم فقط كانوا يدركون شيئًا واحدًا: هذا العجوز قد خدعهم بشكل خسيس قاس ولابد من انتقام.. آه ه! إن تصوّر ضحكة النصر على ثغره القبيح الآن لأمر يثير الجنون! كان كل منهم الآن على استعداد لمصارعة أسد - لو اقتضى الأمر - فقط كي يزيل هذه الضحكة عن وجه الرجل.

☆ ☆ ☆

قال الأب وهو يلتهم الجبن في نهاية الوجبة كما هي العادة الفرنسية:

- «لقد دعوته إلى العشاء معنا..»

قالت الأم محتجة:

- «لا يبدو لي ضيفًا مريحًا..»

- «لكنه مثير.. لا بد أن عنده قصصًا غريبة.. هؤلاء المهاجرون من شرق أوروبا يملكون حكايات مسلية للغاية، وأنا أعترف لك هنا بأن الفضول يقتلني لمعرفة من هو..»

- «وهل قبل الدعوة بهذه البساطة؟»

- «لم أترك له فرصة الاعتراض.. قلتها وانصرفت قبل أن يرفض..»

كان (جان بيير) يلتهم غداءه في اشمئزاز كعادة الصبية في سنه.. لكن ما قاله الأب جعله يلتهب حماسة، وفي عينيه التمعت نظرة غادرة شيطانية..

- «لن يكون في داره هذه الليلة.. هذه فرصة نادرة..»

قال (كلود) وهو ينظر له بتشكك:

- «كيف تضمن هذا؟»

- «لأنّه سيكون في دارنا.. يلتهم طعام أمي!»

- «أوه! يا للقرف!»

- «المهم أن بيته سيكون خاليًا.. ولسوف نعرف كيف ندخله..»

- «والغرض؟»

- «سنتلف كل شيء! سنرى ما يهتم به ونتلفه لو كان رسامًا سنخلط الأصباغ على سجادته.. لو كان كاتبًا سنسكب الحبر على أوراقه.. لو كان فضائيًا سنتلف مكوكه المخصص للعودة!»

- «لا تعتبرني معكم..»

نظر (جان بيير) إلى (سيمون) نظرة من يستثير نخوته:

- «وأنت؟ المفترض أن تغضب لأن الرجل أهان صديقك..»

بدا التردد على وجه (سيمون) ثم قال:

- «نعم.. أريد الانتقام لكن دخول بيته.. آسف.. هذه جريمة.. ثم من أدرانا ما يوجد هناك؟ لربما كان يربي النمور..»

- «ولو كان يربي النمور فلسوف نطلق سراحها!»

ثم قال في قلق:

- «إذن لا أحد معي؟»

قال (سيمون) الحل الوسط الذي وجده ما بين المخاطرة الزائدة والجبن الملوم:

- «سأراقب المخرج حتى لا يفاجئك أحد..»

- «إذن موعدنا الثامنة مساء..»

☆ ☆ ☆

في السابعة والنصف جاء الضيف..

لم يقابله (جان بيير) لأنّه أخبر أمّه أنه لا يرغب في تناول العشاء، وكان على كل حال يعرف أنّ هذا سيسرها آخر شيء تريده لدى قدوم ضيف للبيت لأول مرة أن تجد طفلًا مزعجًا عليك أن تراقب تصرفاته.. هكذا سمحت له بعدم تناول الطعام.. بل الخروج إذا أراد..

وكان السبب الآخر الذي راق له هو أنه لا يرغب بأي شكل في أن يراه الرجل.. سيكون هذا محرجًا..

وفي الثامنة مساء كان يقف قرب بيت الرجل على الجهة الأخرى من الطريق، في ذات الموضع الذي راقبوه منه أول مرة..

بعد قليل جاء (سيمون) وهو يجر قدميه.. يسهل معرفة كيف تتم هذه المواقف.. إنها عبارة عن مجموعة أشخاص يخشى كل منهم أن يتهم بالجبن هكذا تتحرك عجلة التاريخ..

- «أنا هنا!»

قالها وهو يرقد على العشب..

قال (جان بيير) وهو يخرج كشاف الجيب الصغير:

- «هناك باب خلفي.. على الأرجح سأتمكن من الدخول منه.. سأدخل وأفسد أشياء ثم أعود إليك.. لو رأيت أحدًا أطلق صيحة البومة..»

- «أنا لم أسمع بومة في حياتي!»

- «إذن اصرخ بأعلى صوتك..»

ونظر حوله في الظلام فلم ير أحدًا.. إن غرفة الطعام في داره مضاءة والمأدبة على قدم وساق.. ما زال هناك وقت.. وهكذا عبر الطريق جريًا، ودار حول منزل الرجل.

كانت الحديقة الخلفيّة مهملة تناثرت فيها بعض الصناديق الخالية.. مشى في حزم وخفة وأدار المقبض، لكن الباب لم ينفتح.. جرب مرّتين دون جدوى.. هذا الوغد حذر.. وهو - (جان بيير) - لم يلق قط من يتذكر غلق باب المنزل الخلفي..

هكذا راح يدور حول البيت بحثًا عن ثغرة ما..

كانت هناك فتحة قرب الأرض.. واضح أنها مخصصة الدخول وخروج الكلاب.. هو لم ير أي كلب هنا على الإطلاق.. إنها لا تكفي لدخول أي لص يحترم نفسه، لكن ماذا عن الصبية؟

هكذا دسّ جسده في الفتحة وراح يحشر.. ويحشر أخيرًا وجد نفسه في الداخل..

كان قلبه الآن يخفق كطبل هذه أكبر جريمة ارتكبها منذ ولد، وقد ارتكبها فعلًا، ولم تعد هناك أعذار..

الظلام دامس بالداخل.. يشعل الكشاف فيرى أقذر بيت يمكن تخيّله.. كل شيء ليس في مكانه.. كل شيء مهمل أو مبعثر.. لو كان خنزير يعيش هنا لكان تفسيرًا منطقيًا..

هكذا راح يفتش البيت في رفق.. في حذر.

وفي كل لحظة يزداد الانطباع في ذهنه.. هذا الرجل مجنون.. لا يمكن أن يتحمل الحياة هنا إلا مجنون..

هذه هي الثلاجة.. ترى ما الذي يأكله؟

فتحها فدهش لأنّه لم يجد بها أي طعام.. بل عشرات من الزجاجات.. حجم الزجاجة أقل من زجاجة المياه الغازية.. ربما النصف.. ربما كانت تحوي خمرًا لكنه نوع من الخمر كتب اسمه بحروف عجيبة.. هذا الرجل إذن لا يأكل بل يشرب..

كان هناك قبو تقود له درجات سلم..

وخطر له أن القبور في القصص يخفي دومًا الشر الأكثر إرعابًا.. لو كان الرجل من كوكب (يوريك) فلسوف يحوي القبو أسلحة الدمار الكوني.. فليلق نظرة..

☆ ☆ ☆

نظر الرجل في ساعته ومسح فمه بالمنشفة، ثم قال بلهجته الثقيلة:

- «عشاء ممتاز يا سيدتي.. لكني تأخرت!»

تبادل الزوج وزوجته نظرة ذات معنى، ثم هتف في العجوز:

- «لم نتكلم بعد.. كنا سنجلس في غرفة المعيشة وندخن بعض الوقت..»

- «أنا لا أدخن..»

ضحك الزوج طويلًا:

- «ولا أنا.. فقط أردت أن نجلس قليلًا و...»

تجشأ الرجل في فظاظة وهو ينهض وأفرغ بقايا الكأس في فمه وقال:

- «مأدبة عظيمة يا سيدتي.. لكني مضطر للانصراف أكره ألا أدخل فراشي قبل التاسعة..»

قال الزوج مجاملًا:

- «أنت عسكري سابق حين كنت في (تشيكوسلوفاكيا).. لا بد أن حياتك كانت تتحرك بدقة الساعة..»

- «هذا صحيح..»

قالها وهو يتجه إلى الباب..

وهمست الزوجة من بين أسنانها:

- «إنّه فظ فعلًا.. التهم طعامي الطيب ثم هو ينصرف.. من دون أن نتبادل عشر جمل مفيدة.. في المرّة القادمة يجب أن تحسن انتقاء من تدعوهم للعشاء..»

وكان الرجل قد فتح الباب فعلًا:

☆ ☆ ☆

- ٣ -

قال (مازن):

كان الأمر أقرب إلى مختبر..

الآن يفهم (جان بيير) سر الشيء الذي خمش يده هذه الأقفاص تحوي تلك القردة الصغيرة الصلعاء التي يعرفها لكنه لا يعرف اسمها.. وهي ترمقه بعيون متسعة خائفة تلتمع في وهج الكشاف..

(تبًّا! هل القردة تنقل السعار؟)

إذن هذا الرجل يربى القردة سرًا.. لا بد أن سيارة جاءته منذ أيام في الليل ونقلت له حمولتها.. إن القبو يجعل سرها مكتومًا لا يعرفه أحد.. لن يسمع أحد صراخها..

كانت هناك أنابيب اختبار.. أجهزة علمية لا يفهم ما هي..

وكان هناك (مرطبان) كبير ألصقت عليه بطاقة مكتوبة بحروف لا يمكن قراءتها.. (المرطبان) يحوي مسحوقًا أبيض غامضًا أقرب إلى السكر.. وقد دون تحته تاريخ أمس بالذات..

هناك لوح كتابة دونت عليه كتابة غريبة.. ثمّة صور فوتوغرافية معلقة على الجدار.. صور بالأبيض والأسود مع لمسة البني المميزة لصور الماضي.. هذا هو (روسكوف) إنّه شاب لكنه أصلع الرأس كما هو، يقف باحترام جوار رجل عسكري كث الشارب.. ثمّة صور له في مختبر.. صورة له يقف مع رجال عسكريين ويشير إلى شيء ما على الأرض في حقل..

كانت فكرة الانتقام قد خطرت له الآن..

اتجه إلى (المرطبان) وفتحه.. بحث حوله فوجد كيسًا صغيرًا من البلاستيك، فتحه وأفرغ فيه ملء قبضة اليد من محتوى (المرطبان).. ثم غادر القبو..

لسبب ما بدأ يشعر بالذعر الآن.. لسبب ما قرر جهاز الهلع النائم في عقله أن يعمل..

لكنه لن يخرج من هنا قبل أن ينهي مهمته..

اتجه إلى الثلاجة ففتحها.. أمسك بأول زجاجة فأزال غطاءها.. كانت لحسن حظه من الطراز غير (المبرشم).. هكذا أفرغ بعض المسحوق الكريه فيها وأغلقها بإحكام.. مهما كان مضمون هذا المسحوق فالرجل سيتلقاه في أحشائه وكرر الشيء ذاته مع باقي الزجاجات التي كانت على السطح..

(الباب ينفتح!)

وفي اللحظة ذاتها سمع صراخ (سيمون).. صراخًا سخيفًا يحاول التظاهر بأنه بومة أو وحش ليلي..

وثب قلبه في فمه.. ركض إلى.. لا.. ليس القبو..

(هل انتهت المأدبة؟ كيف عاد بهذه السرعة؟)

ركض إلى حجرة الجلوس.. المشكلة أنه نسي أين كانت الفتحة التي دخل منها.. هل كانت في الصالة؟؟؟

في النهاية قرر أن يتوارى خلف مقعد عملاق من الطراز الذي يسموّنه Arm Chair.. وحبس أنفاسه وهو يسمع الرجل يتكلم.. كان يسب لكن بلغة غريبة.. لا يصعب أن تعرف السباب حين تسمعه.. أغلق الباب.. الضوء يغمر المكان..

سمع الرجل يمشي في الصالة.. صوت الثلاجة يفتح ثم.. الرجل يدخل الغرفة التي هو فيها.. يسترخي على المقعد الذي يتواري وراءه.. رائحة أنفاسه كريهة لا تطاق.. إنها بالفعل تلوث المكان الذي يجلس فيه..

كان يغني في إنهاك وبلا اتساق أو تناغم كما يفعل السكارى: كالينكا.. كالينكا!

صوت (لق لق لق).. الرجل يجرع من زجاجة ما بنهم شديد.. أبهذه السرعة؟ لقد فرغت.. يلقيها أرضًا لتقع جوار (جان بيير).. ثم يبدو أنه يشرب زجاجة أخرى بذات النهم..

فجأة دوّت صرخة مريعة..

لم يدر الصغير المذعور ما حدث.. فقط شعر بأن الرجل يسقط من على المقعد.. يصدر صوتًا مخيفًا كأنما شخص يذبح حيًّا.. الحشرجة من حلقه وصوت الرغاوي المقزز..

الرجل يصيح كمن لا يصدّق بشيء ما.. إنّه مذهول لكن لماذا؟

هنا فقط كان الذعر قد بلغ نهاية الفتيل.. فخرج (جان بيير) من تحت المقعد..

الرجل العجوز ممدد على الأرض وقد بدا فاقد الوعي.. كرشه في الهواء يعلو ويهبط.. جواره زجاجتان فارغتان من ذلك المشروب الذي كان يملأ الثلاجة.. لا يمكن المرور من هنا إلا من فوق ذراعه.. ترى هل يشعر؟

قرر أن يجازف.. رفع ساقه بحذر وعبر فوق الذراع..

وفي اللحظة التالية هب الرجل من رقدته..

شعر (جان بيير) بيد كالملزمة تطبق على كاحله فصرخ، وسقط على الأرض..

على حين جثم العجوز فوقه كالجاثوم.. بدا أكبر من الواقع.. أكبر من الحياة ذاتها..

- «أنت أيها الفأر الصغير! أنت من فعل هذا!!»

أطلق الصبي أنينًا وحاول التملص بلا جدوى..

قال الرجل وهو يقرب وجهه من (جان بيير):

- «ما دامت هذه لحظة الحقيقة فلتعلمن أنني البروفسور (أندريه أنسيمفتش خارين) من كبار علماء الاتحاد السوفييتي.. حاليًا أنا هارب من هناك.. متخفٍ كي لا يجدني رجال (كي جي بي).. أنت نزلت إلى القبو أيها الفأر.. لا تنكر ذلك! لقد رأيت صورتي مع (ستالين) الحديدي ومع المارشال (زوكوف).. لقد كنت رجلًا شديد الأهميّة وفي لحظة قرروا أن أبحاثي هراء.. والسبب أنني لم أكن أعرف ما أعرفه.. حتى العام ١٩٦٨ لم أكن أعرف ما أعرفه..»

فتح الصبي فمه وأطلق صرخة كفيلة بشفاء الصم لكن الرجل كوم منديلًا قذرًا ودسه في فمه بحنكة وبراعة لا تصدقان.. هنا فقط أدرك (جان بيير) أن مصيره أسود.. بالتأكيد يختلف عن شد أذنيه.. لماذا لا يريد الرجل أن يسمع صرخاته أحد؟ لماذا لم يجره من أذنه إلى داره كي يطلب أن يعاقبه أبواه؟

قال الرجل بلهجته الغريبة ذات الطابع الروسي:

- «أنت دسست لي المسحوق في زجاجة (الفودكا).. لقد شعرت بالشيء.. لا تكذب.. وأنت لا تعرف بالضبط ما دسسته لي ولا خطره.. كان هذا خطأ لأنك ستشرب زجاجة كاملة منه معي!!»

أنَّ الصبي في وهن.. وانتفض جسده لكن لا مجال لمقارنة الوزنين..

أردف (خارين) وهو يحك ذقنه:

- «كان هذا نيزكًا سقط في أمريكا الجنوبيّة.. وقد حصلنا عليه قبل أي واحد آخر عن طريق أجهزة استخباراتنا.. يقولون إن فرصة أول لقاء مع كائنات حية من الفضاء الخارجي لن تكون مع أشخاص خضر اللون لهم هوائيات على الرءوس.. إن فرصة اللقاء - حسب القوانين الإحصائية - ستكون مع بكتريا أو فيروس أو كائن وحيد الخلية.. هذا هو نوع اللقاءات الممكنة.. وقد حدث هذا بالفعل.. إن ما يحتويه النيزك كان نوعًا معقدًا من الحياة أقرب إلى فطر.. نعم فطر كامل.. لم تقض عليه رحلته وقد حاولت كثيرًا أن أعيد له الحياة بلا جدوى.. وحينما فررت من الاتحاد السوفييتي كنت أحمله معي..»

ثم صمت وراح يلعق شفته بلسانه كأنما يستوثق من تغيرات جديدة هناك.. وأردف:

- «عدت أمارس تجاربي بدقة.. وفي النهاية عرفت مكمن الخطأ.. لقد عادت الحياة إلى هذا الفطر بعد أعوام من السكون.. وقد جربته على القردة والقطط.. هذا الفطر هو أعتى سلاح

بيولوجي عرفه الإنسان على الإطلاق إنّه يحيل قردًا كامل النمو إلى كتلة هلامية من العجين خلال دقائق.. يكفي أن يأكله أو يحقن في دمه ولسوف ترى القرد يذوب أمامك.. تصوّر هذا!»

ثم اتسعت عيناه ونظر في وجه الصبي:

- «وأنت دسسته لي في شرابي؟! لقد شربت زجاجتين منه.. لقد عرفت هذا على الفور.. هل تعرف لماذا؟»

وفي اللحظة التالية كانت كفه في وجه الصبي.. لكن لم تكن هناك أصابع.. لقد تحولت اليد الآن إلى عجين هلامي أقرب إلى شمعة ذائبة..

قال الرجل وهو يمد يده إلى زجاجة على الأرض:

- «لقد انتهى أمري.. لكني لن أموت قبل أن أراك تشرب زجاجة كاملة منه!»

وانتزع المنديل من فم (جان بيير) فراح هذا يصرخ ويركل.. الزجاجة تقترب من فمه.. الـ...

فجأة بدأ وجه الرجل يذوب بالفعل كأنه تمثال من الشمع وضعت تحته شمعة.. ثمّة نوع من العفن الأخضر كعفن الخبز ينتشر فوق ملامحه بسرعة. أحيانًا يزحف على السطح وأحيانًا يتواري.. لكنك تراه طيلة الوقت.. لو أنك أحرقت منديلًا ورقيًا مكومًا لرأيت شعلات النار تفعل الشيء ذاته..

إنه يتهاوى.. بصعوبة سحب الصبي نفسه من تحت الشيء البشع الجاثم فوقه..

- «ستش بو.. بلو... بلو!!»

صدر هذا الصوت من كتلة الهلام الذائبة التي ما زالت تحتفظ بحقد غريب..

إنّه يتحرر.. يركض نحو الباب.. ينظر للوراء فيرى الكتلة تتهاوى والسائل الهلامي يخرج من كل فتحات ثيابها.. الباب.. أدار المقبض فانفتح.. الحديقة والليل.. حمدًا لله!

راح يركض عابرًا الطريق وهو يولول.. لا يصدّق أنه نجا..

وهناك كان (سيمون) ينتظره ممتقع الوجه.. وفتح فمه ليتكلم لكن الصبي أخرسه صائحًا:

- «اجر معي!! إنّه قادم!»

وظل الصبيان يجريان.. ويجريان.. ويجريان!

☆ ☆ ☆

عاد إلى البيت فلم يقل لأبويه شيئًا..

كان أول ما يريد هو أن يغسل وجهه ويبدل ثيابه كي لا تكون هناك أسئلة مريبة..

وقف أمام المرآة وبدأ يغسل أذنيه فوجهه.. تمضمض بالماء عدة مرات إن ملامح وجهه تكشف عن كارثة لا بد من أن يبقى في غرفته لفترة ما..

كل عضلة في جسده ترتجف.. لقد ذاب الرجل في دقائق.. ذاب في دقائق.. وكان سيرغمني على شرب ذلك الـ.. كان سيرغمني على شرب.. كان سيرغمني على شرب.. كان سيرغمني على شرب.. ذاب في دقائق.. لقد ذاب الرجل في دقائق..

ثم تصلب..

لقد لاحظ للمرة الأولى منذ يوم ذلك الخدش في يده اليمنى.. الخدش الذي أصابه من القرد في الصندوق

(يكفي أن يأكله أو يحقن في دمه، ولسوف ترى القرد يذوب أمامك.. تصوّر هذا!)

هو أمسك بالمادة التي تشبه السكر بقبضته.. هو قد..

وهنا لاحظ للمرة الأولى شيئًا لم يلحظه من قبل.. منذ متى كان إصبعه الأوسط ملتحمًا بالسبابة بهذا الشكل؟

وكلما أطال النظر أدرك أنهما يذوبان ليلتحما معًا على حين راح خنصره يلتوي كأنما هو شمعة تذوب..

هرع إلى باب الحمام وجثا على ركبتيه صارخًا بصوت مبحوح:

- «ماما!! ماما!!»

- ١ -

قال (مازن):

«بالطبع تحول الصبي (جان بيير) إلى كتلة هلامية هي التي تراها أمامك.. وقد حصلت على الكتلة وحصلت على المسحوق إياه.. قبل أن ينتهي الصبي تمامًا حكى القصة لأبويه كاملة، وقد جرى تحقيق عن الموضوع ولم تعرف الصحف شيئًا عنه.. وظل المسحوق في المختبرات الفرنسية لكني حصلت على بعضه..»

قلت له وأنا أعيد تأمل الكتلة خلف الواجهة:

- «إذن هذا طفل أو ما بقي منه!»

- «هو كذلك.. ويجب القول إنّه تلقى أقسي عقاب ممكن على شيطنته.. هذه طريقة تربوية ناجحة أخرى..»

- «وهل جربت المادة؟»

قال باسمًا وهو يتجه إلى الواجهة الرابعة:

- «ماذا تظن؟ إن الفضول هو القوة المسيطرة على الوجدان الجمعي.. أقوى من أي شيء آخر.. والآن لنر هذه الواجهة..»

نظرت إلى ساعتي.. لقد توغل الليل كثيرًا.. لقد صارت العودة إلى القاهرة اليوم وهمًا.. والغريب أننا كنا واقفين طيلة هذا الوقت فلم تتعبنى ساقاي.. لكنني قدرت أن أمامي ساعتين على الأقل قبل أن أعرف ما يجب معرفته، ومعنى هذا أن عليَّ أن أمضي ما بقي من الليل في الإسكندرية..

طلبت منه أن نستريح قليلًا فوافق، وعدنا إلى غرفة مكتبه..

غاب بعض الوقت ثم عاد حاملًا صحفة عليها بعض الشاي والشطائر.. وقد سرني هذا.. جلس يراقبني وأنا ألتهم الطعام وهو يتأمل سيجاره أكثر مما يدخنه..

- «هناك غرفة نوم يمكن أن تقضي فيها ما تبقى من الليل..»

ابتلعت ما بفمي، وقلت ضاحكًا:

- «لا أعتقد أن الأمور بهذا السوء.. إن النهار قد اقترب..»

صمت وراح يراقبني في نفاد صبر، ولسان حاله يقول: ألن تنتهي أبدًا من هذا الأكل؟ ما زال أمامنا الكثير..

بالفعل فرغت من الطعام وشربت الشاي، فنهض متعجلًا إلى المتحف دون أن يقول كلمة أخرى، وهكذا نهضت وراءه وأنا لم أفرغ من المضغ بعد..

ووقفنا أمام الواجهة الرابعة..

كانت الواجهة تحوي إناء آخر من أوعية الفورمالين الشفافة.. وبالداخل كان هناك قضيبان من الزجاج ثبتت على كل عود عين بشريّة كاملة.. كأنه عود من المكرونة في نهايته بيضة مسلوقة؛ لو لم تكن ممن يكرهون هذه التشبيهات.. على العموم كل أطباء علم الأمراض يحبونها ويطلقون عليها (باثولوجي مطعم الوجبات الجاهزة.. Deilcatessen Pathology)..

قال الرجل:

- «النوع الرابع من الرعب يتعلق بالتغيرات التي تطرأ ولا يمكن تفسيرها، على أكثر مخلوق تعرفه في الوجود - أو هكذا تحسب - أنت!»

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

لم يحبّ (عادل السلاموني) زيارته لـ (موسكو) قط..

كان يشعر طيلة الوقت بأن هناك جوًا خانقًا يحيط به طيلة الوقت، وبأنّه مراقب وبأن هناك نوعًا من التوتر في كل شيء.. كانت هذه فترة السيطرة المطلقة للحزب، مما يعطي الجو كله طابعًا (أورويليًا) لا يُمكنك أن تتحمله..

كان (عادل) طبيبًا في العقد الثالث من عمره، لم يتزوج بعد.. وقد جاء إلى الاتحاد السوفييتي في بعثة تعليمية بهدف الحصول على درجة الدكتوراه في أمراض العيون.. كانت أكثر البعثات الدراسية تتجه إلى الاتحاد السوفييتي في ذلك الوقت..

قلت إن (عادل) لم يحبّ (موسكو) قط.. والسبب على الأرجح كل قصص الجاسوسية وأفلام (جيمس بوند) التي قرأها في صباه، والتي جعلته يشعر بأن (موسكو) مخبر كبير يراقب كل سكناته، وكان يؤمن بأن لدى الناس ما يقولونه لكنهم خائفون..

هكذا راح في لهفة يترقب الفرصة التي تنتهي فيها بعثته ويعود إلى مصر..

(أولجا)؟ من أخبرك بموضوع (أولجا)؟ إنها فتاة رائعة حقًّا من ناحية الجمال وتمثل كل أحلامه عن المرأة، حتى إنّه يتخيل صورتها في أي قاموس تحت كلمة (امرأة).. وهي تحبه بجنون ويعتقد أنه يحبّها بجنون.. لكن هناك تلك المشكلة التي لا حل لها.. إنها لا تؤمن بشيء.. تكتب في خانة الديانة في أية استمارة تملؤها كلمة (لا يوجد)..

وكان (عادل) متدينًا وقد أدرك أنه لا يستطيع الزواج منها لأنّه - ببساطة - لا يريد لها أن تربي أطفاله..

لهذا - يمكننا أن نفهم - لم تحمل له (موسكو) أية ذكرى سارة على الإطلاق سوى ذكرى الحب المستحيل.. وهي ذكرى تناسب الشعراء والأدباء، ويمكنها أن تجلب لهم رزقًا واسعًا بكل القصائد التي سيكتبونها عنها.. لكنّها لا تناسبه هو الإنسان العملي الذي لم يقرأ قصيدة ولا رواية في حياته..

كان يعد الأيام والأشهر بانتظار انتهاء البعثة، إلى أن صار شهر يفصله عن الوطن..

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

كان الأستاذ السوفييتي (يوري زاجالوف) رجلًا غاية في البدانة.. ثقيلًا جدًّا من الطراز الذي لو جلس لجلس للأبد، ولو وقف لوقف للأبد.. هناك نظرة منهكة في عينيه من الطراز الذي يقول: (أنت لن تبهرني بشيء فلا داعي لأن تتعبني معك).. كان هو المشرف على دراسة (عادل)..

قال له وهو يعبث في نموذج صغير للكرة الأرضية على مكتبه:

- «يؤسفنا أنك سترحل قريبًا يا د. (عادل) كنت طالبًا مجدًا وأعتقد بشكل ما أنك لم تحب (موسكو). لكني ما زلت أتمنى ألا تنسي أصدقاءك هنا..»

لم يرد (عادل) حتى لا يتورط في مجاملة هي أقرب إلى كذبة.. لكنه كان متأكدًا من شيء واحد: لربما كره (موسكو) لكنه أحب الكثيرين من الموسكويين بلا شك..

قال البروفسور وهو ينهض:

- «إنني راغب بحق في أن أهديك شيئًا.. كلما رأيته تذكرت أستاذك (زاجالوف).. لو جئت معي إلى مكتبي..»

كانا يتكلمان في غرفة الجلوس في منزل البروفيسور.. الثلج ينهمر بالخارج، والمدفأة مريحة تجعل فكرة الانصراف من هنا كابوسًا.. لا بد أنك ستتلقى نزلة برد تزيلك من على وجه الأرض..

كان يشرب الشيكولاتة الساخنة، وهو يستشعر لذة المشروب الساخن الدسم يتسرب إلى أحشائه.. لهذا حمل الطبق في يده ومشى وراء البروفسور..

كان مكتب البروفسور مريحًا دافئًا هو الآخر، ومنسقًا بعناية.. هناك جدار تحتله بالكامل كتب طبية أكثرها كتب بالروسية.. الجدار الآخر تحتله مكتبة أدبية عملاقة تحمل أسماء مثل (تشيكوف Chekhov) و(جوجول Gogol) وغيرهم من الكتاب الكبار الذين لم يعد أحد يرحب بهم في الاتحاد السوفييتي (لأنّهم رجعيون)..

ثمة جدار ثالث تحتله واجهة زجاجية ملأى بالتذكارات.. تشبه الواجهة التي نقف أمامها..

أشعل البروفسور سيجارًا روسيًا غليظًا كريه الرائحة وقال مفكرًا:

- «هل درع التميز الطبي؟ لا.. إنني بحاجة إليه.. ثمة قلادة من سيبيريا أحتفظ بها. لكن.. ماذا عن هذه الرصاصات؟ إنها ألمانية من أيام حصار (ستالينجراد).. وهذه؟ قطعة من شظية.. هل تحب الدمى؟ هناك دمية من (أوكرانيا).. لكن.. نعم.. هي الدمية.. إنها جميلة..»

ومد يده الممسكة بالسيجار والتقط دمية خزفية تمثل فلاحة روسية تربط شعرها بإيشارب..

فوجئ (عادل) بذلك الإناء الزجاجي.. الإناء الذي نراه أمامنا الآن.. وكان متواريًا بين التذكارات فلا تكاد ترى ما فيه.. فقال في دهشة:

- «ما هذا يا بروفسور؟»

نظر البروفسور إلى الإناء وهز رأسه في تقزز:

- «هذا.. كلام فارغ.. قل إنِّه تذكار لحماقتي..»

عاد (عادل) يلح على الرجل:

- «ما الذي يدعوك للاحتفاظ بعينين كاملتين في خزانة ذكرياتك؟»

قال البروفسور:

- «في شبابي كنت أحمق.. مثلك.. كل الشباب حمقى في الواقع.. وكان هناك ذلك العراف الذي قالوا إنّه يعرف الكثير من الأسرار.. وقد باعني أشياء كثيرة، غريبة لكن أغربها كان هاتين العينين..»

ثم ابتسم في سخرية ونفث سحابة كثيفة من الدخان:

- «ما رأيك في امتلاك عيني (راسبوتين) ذاته؟»

☆ ☆ ☆

- ٢ -

قال (مازن):

بالطبع ارتجف (عادل) لهذه الكلمات الغريبة.. وعاد يستوثق من المعلومة..

قال البروفسور وهو يتأمل الدمية الخزفية:

- «زعم العراف أن جثة (راسبوتين Rasputin) لم تدفن بعينيها.. لكن هناك من انتزعهما، ووضعهما في سائل حافظ ثم حقنا المحجرين بالصلصال.. ومن يومها يتوارث العرافون هذه التحفة العتيقة قال لي إن لهاتين العينين قوة مغناطيسية لا يمكن وصفها، وإنه من الخير لي ألا أطيل النظر فيهما.. قال كذلك إنني لو زرعتهما لأي شخص لاكتسب قوة (راسبوتين).. دعني أقل لك إنّه لو كانت هاتان عيني (راسبوتين) لوجدت منظمة (اليونسكو) كلها تقف خارج باب هذه الغرفة، ولربما أرسلوني إلى (سيبيريا) بتهمة اختلاس أملاك الدولة.. طبعًا انبهرت بهذا الشيء وقتها وابتعت هذه العينة المقززة، وحرصت على ألا أنظر إليها أبدًا.. ومن حينها هي عندي في هذه الخزانة لا أجد الشجاعة كي أتخلص منها..»

قال (عادل) باسمًا:

- «هذا العراف كان يفترض أنهم يزرعون العين كاملة في محجر العين..»

- «طبعًا.. هذا ما يعتقده العامة. لا يعرفون أننا نأخذ القرنية فقط بال (كيراتوم Keratome).. وحتّى على هذا الصعيد لا يمكن أن تزرع قرنية تعود لعام ١٩١٦ الخلاصة أن مالي ضاع هباء»

وقف (عادل) يرمق الإناء في نهم.. الحقيقة أن العينين فتنتاه ولا يعرف لهذا سببًا..

- «بروفسور.. هل تهديني هاتين العينين؟»

مضغ البروفسور سيجاره ونظر لـ (عادل) كأنما مجنونًا.. نفث سحابة كثيفة وقال:

- «هل جننت؟ هل هذه هدية؟»

- «قلت إنك راغب في الخلاص منها..»

- «نعم.. لكني لا أحب إهداءها لأصدقائي..»

- «إن هذه ما أتمناه فعلًا..»

نظر له البروفسور طويلًا، ثم مد يده في الخزانة وأخرج الإناء الزجاجي..

☆ ☆ ☆

كلما ذكرت كلمة (كاريزما) تداعت إلى الذهن صورة الروسي (جريجوري يفيموفتش راسبوتين)[2].. الرجل الذي كان راهبًا جوالًا ثم مرق واتجه إلى حياة الرذيلة.. إن صوره ما زالت حية بعينيه القويتين الثاقبتين ولحيته السوداء الكثيفة وثيابه السوداء التي تجعله ينضم بجداره إلى عالم المسوخ.. الفارق هنا أنه كان شخصًا من لحم ودم يمشي على الأرض..

كان يقدم نفسه للناس على أنه معالج روحاني..

كانت له سطوة نفسية لا يمكن وصفها، وكانت عيناه قادرتين على جعل أقوى الرجال يرتجف خوفًا.. أمّا النساء فكن يسقطن صرعى هواه بلا تحفظ، ويقال إنّه نموذج للرجل الذي تعلن النساء أنهن يكرهنه ويشمأززن منه فقط لأنهن يعرفن كم هن ضعيفات أمامه..

يجب أن نضيف هنا أنه كان في غاية الفجور، وكان يتحدث دومًا عن أن الأرض السوداء تنتج أشهى الثمار.. لهذا كان يبحث عن الرذائل بالمجهر ليرتكبها..

بشكل ما وصل صيته إلى البلاط القيصري، حيث كان ابن القيصر يعاني مرضًا نزفيًا متكررًا هو (الهيموفيليا Hemophilia).. وكان هناك من نصح القيصرة بأن تجرب قدرات هذا الرجل العجيب..

هكذا بدأ الطفل يتحسن، وسرعان ما تنامى نفوذ (راسبوتين) في البلاط إلى حد أنه كان بالفعل يحكم روسيا كلها من خلال القيصر وزوجته.. فقد كانت الزوجة تثق به ثقة عمياء وتعتقد أنه أطهر رجل عرفته..

وفي العام ١٩١٦ قررت مجموعة من نبلاء البلاط أن يتخلصوا من هذه الكارثة.. هكذا دسوا له السم في شرابه.. فقط ليعرفوا أن السم لا يؤثر فيه.. وقد كاد يفتك بهم بجسده العملاق المخيف، هكذا أطلقوا عليه الرصاص..

ويقال إن (راسبوتين) كان هو المسمار الأخير في قبر آل (رومانوف Romanov) الذين لاقوا نهاية مفجعة في ثورة ١٩١٧ التي جاءت بالشيوعيين إلى الحكم وأطاحت بالنظام القيصري..

أين دفن (راسبوتين)؟ لست متأكدًا من هذه النقطة لكن السؤال الأهم هو: هل دفن وعيناه في محجريهما؟

☆ ☆ ☆

هكذا عاد (عادل) إلى مصر وهو يحمل في متاعه إناءً زجاجيًا حرص على تبطينه وتغليفه بعناية كي لا يتهشم، ولحسن حظه لم يفتح أحد حقائبه لأنّه كان سيجد عسرًا في تفسير حمله لعينين آدميتين معه..

التذكار الوحيد الذي يحمله من (موسكو) هو هاتان العينان وبعض الصور مع (أولجا) وخطابات منها..

لم يكن (عادل) متزوجًا كما قلنا، ولم يكن له بيت في المدينة.. كان حتى هذه اللحظة يقيم في بيت أسرته بقريته وهي قرية تتبع محافظة (...) لديهم هناك بيت من الطوب من طابقين.. فهي أسرة على قدر من اليسر.. لكنه كان يخطط للحياة في المدينة فقط ما إن يستقر ويجد زوجة المستقبل.. وقد حرص على أن يعد غرفته هناك بعناية، ووارى الإناء في خزانته التي احتفظ بمفتاحها منعًا للحوادث المؤسفة..

فلمّا جاء الليل وانتهى مسلسل استقبال الأقارب والأصدقاء صعد إلى غرفته وارتدى جلبابًا للنوم..

لا يعرف السبب.. لكن لهفة غير عادية كانت تغمره، مع رغبة عارمة في أن يتأمل هاتين العينين..

فتح الخزانة وأخرج الإناء ووضعه على منضدة صغيرة هناك.. ثم جذب مقعدًا خشبيًا عتيقًا وجلس عليه ينظر إلى هاتين الكرتين ترمقانه من خلال الزجاج عبر السائل الشفاف..

من الخطأ أن يتكلم المرء عن عينين قويتين.. إن ما يعطي الانطباع بالنظرة هو أشياء أخرى.. شكل الأهداب.. شكل الحاجبين.. اتساع فتحة العين.. كل هذه أشياء لا بد منها لتعرف إن كانت النظرة قوية أم لا.. أمّا أن تضع كرتين في حوض زجاجي فهما ذات الكرتين لدى أي شخص آخر.. كأنك تتأمل إطار سيارة منزوعًا ثم تحاول الكلام عن فخامة السيارة ذاتها وانسيابيتها..

لكن هاتين العينين كانتا تملكان قوة جذب لا يعرف سببها..

ولوقت لا بأس به ظل يتأملهما في ضوء الغرفة الشاحب الخافت الذي يبعثه مصباح وحيد يتدلى من السقف..

كانت تنقلاته إلى عوالم غريبة لم يرها من قبل.. إنِّه يرى (الكرملين) والثلج يتساقط من حوله.. هناك عربية تجرها الخيول.. أميرة روسية تغمض عينيها في افتتان.. حفلات راقصة صاخبة.. الضباط بثيابهم الأنيقة المزركشة يرفعون سيوفهم في رشاقة.. وجوه تضحك.. وجوه تبكي خيول.. ذئاب بيضاء..

كل هذا وهو ينظر إلى العينين الثابتتين..

فجأة نظر إلى ساعته ففطن لحقيقة مروعة.. إنّه هنا ينظر لهاتين العينين طيلة ساعتين كاملتين! هكذا أعادهما إلى الخزانة.. وأطفأ النور..

كانت هذه أول ليلة له في مصر منذ أعوام، وقد نام نومًا عميقًا بلا أحلام..

☆ ☆ ☆

قال الأستاذ المصري وهو يقلب صفحات الرسالة السميكة:

- «ليس بوسعنا الانتهاء من هذه سريعًا.. أعتقد أنك ستتأخر خمسة أشهر على الأقل..»

قال (عادل) في ضيق وهو ينهض من مقعده:

- «سيدي.. أنا في وضع معلق بين مصر و(الاتحاد السوفييتي).. أريد الانتهاء سريعًا كي أعرف موضع قدمي.. هم قد فرغوا من هناك ولم تبدءوا معي هنا.. لا يمكنني العودة لهم.. ولا يمكنني معاودة حياتي هنا..»

قال أستاذه وهو ينزع عويناته:

- «أفهم كل هذا لكني لا أعرف كيف أفيدك.. هل أجيز بحثًا لم أقرأه؟»

- «إذن لماذا لا تفعل؟»

لاحظ دون قصد أنه يتكلم في حدة.. الأستاذ نفسه لاحظ هذا فرفع عينه متسائلًا..

فجأة اتسعت عيناه.. نبتت قطرات عرق على جبينه، فأخرج منديله بيد مرتجفة. وقال:

- «نعم.. نعم.. أعدك أن أنتهي من ذلك في أسرع وقت..»

بنفس اللهجة الحازمة التي لم يتعمدها قال (عادل):

- «أسبوعًا واحدًا على الأكثر؟»

قال الأستاذ وهو يجفف العرق على جبينه:

- «نعم.. نعم.. أسبوعًا على الأكثر..»

- «شكرًا يا سيدي..»

قالها بذات الطريقة الحازمة الآمرة.. ودون أن تفارق عيناه عيني الرجل، ثم غادر المكتب..

حينما اختلي بنفسه لم يصدّق أنه فعلها.. قال لنفسه: لا بد أنني أملك تأثيرًا نفسيًا هائلًا لا أستخدمه.. كل هذا الحزم وكل هذا الإصرار.. والغريب أنه لم يتعمد ذلك قط..

من الغريب أن تكتشف في سن الثلاثين أنك قوي الشخصية.. يحسب المرء أنه عرف كل شيء عن نفسه متى بلغ العشرين.. لكن النفس البشريّة تشبه البصلة.. كلما أزلت المزيد من الأغشية عنها بدت لك طبقات أخرى لامعة نظيفة لم ترها من قبل..

لا بد أن تجربة الغربة قد أفادته وصقلته.. هو يكره أن يخاطب أستاذه بهذه الطريقة، لكنه إلى حدٍ ما كان يرغب في ذلك.. إن حياته متوقفة على رأي هذا الأستاذ..

☆ ☆ ☆

- «السينما هذه الليلة؟ مستحيل!!»

قالتها (تغريد) وهي تتراجع إلى الوراء في غضب..

كانت (تغريد) هي مشروع زواجه قبل أن يسافر إلى الاتحاد السوفييتي، وهي فتاة لا بأس بها لكنّها لا تقارن بـ (أولجا) من ناحية الجمال طبعًا.. لا يزعم أبدًا أنه أحبها لأنّه كما قلنا رجل عملي جدًّا.. كان يريد زوجة وكانت هي تصلح، وقد راق له أنها لم تكن قد ارتبطت بأحد لدى عودته من البعثة..

قال لها بلهجة حازمة:

- «لا أرى ما يضير في دخول السينما معي.. لست مراهقًا سخيفًا..»

- «هذا هو بيت القصيد.. لست مراهقًا سخيفًا ولا أنا مراهقة سخيفة.. لهذا لا أرى داعيًا على الإطلاق لهذه الدعوة.. أنت وعدت بأن تطلب يدي هذا الأسبوع.. فلنفترض أن أبي رفض؟ لماذا أختلي برجل لن يكون لي؟»

- «لن يرفض..»

- «وقد يفعل.. لهذا أرى أن الانتظار قد..»

نظر لها بحدة وقال وهو يضغط على كلماته:

- «(تغريد).. ستذهبين معي إلى السينما لأنني أريد ذلك.. موعدنا في السادسة مساء يجب أن أنتهي مبكرًا كي أعود إلى قريتي..»

كانت تنظر له وقد اتسعت عيناها.. متى رأى هذه النظرة من قبل؟.. شفتاها منفرجتان ترتجف السفلى منهما.. ثم قالت بصوت مبحوح:

- «ليكن.. أمرك.. أمرك.»

سُرَّ من نفسه.. لم يكن يريد شيئًا من هذه الدعوة إلا أن تقبلها.. فقط يريد أن تحقق إرادته انتصارًا ما.. وقد حققه.. حياته كلها تتحول إلى انتصارات متلاحقة...

وقال لنفسه وهو ينتظر أمام باب السينما:

- «إن شخصيتي تزداد قوة.. إنني أتمتع بكاريزما لا شك فيها!!»

☆ ☆ ☆

- ٣ -

قال (مازن):

في الفترة التالية توالت انتصارات (عادل) في معركة الإرادة.. الأب رحب به بلا تردد ووافق على أن يتزوج ابنته.. صاحب البيت الذي كان متمسكًا بمبلغ معين، وجد نفسه يتنازل عن نصفه بسهولة مطلقة.. وهكذا وجد (عادل) نفسه وقد خطب (تغريد) وامتلك شقّة لا بأس بها في المدينة، وأجيزت رسالة الدكتوراه الخاصّة به..

وقد أخبر أهله في القرية أنه سينتقل إلى المدينة.. إنّه بحاجة إلى البحث عن عيادة..

لم يرفض أحد.. بالواقع لم يعد أحد يرفض أي طلب له من زمن..

وهكذا نجد الآن أن (عادل) يقيم في شقّة وحده في المدينة، وقد كون عادات جديدة.. لكن العادة الوحيدة التي لم يتخل عنها هي الجلوس أمام العين ومراقبتها لمدّة ساعات.. لقد أدمن تلك العوالم الغامضة التي تنقله إليها..

قالت له (تغريد) ذات مرة وهو في دارها:

- «لا أعرف السبب لكن هل ثمّة مرض ما في عينيك؟»

مط شفته السفلى في تهكم، لكنّها واصلت الكلام:

- «أنا لا أمزح.. لقد تغيرتا كثيرًا وإنني لأخافهما أحيانًا..»

تجاهل ما تقول.. لكنه إذ دخل الحمام وقف بعض الوقت أمام المرآة.. وهو لم يكن من الأشخاص المولعين بوجوههم على الإطلاق.. كان يعرف أنه لابد من وجه حتى لا يمشي بعظام الجمجمة عارية.. لكنه في هذه المرّة أطال النظر وبرغمه شعر برجفة تتخلل عموده الفقري.

كأنما قد أحاط عينيه بكحل كثيف قبل أن ينزل من داره.. الحاجبان صارا كثين جدًّا يتدليان فوق عينيه.. فتحة العين ذاتها صارت واسعة جدًّا.. الخلاصة أنّ هناك بحيرة كاملة من اللون الأسود تحيطان بعينين لايمكن مقاومتهما.. عينين من الطراز الذي لا تستطيع معه تذكر إن كان هناك وجه أم لا..

شعر بقلق فحاول أن يبعد المنظر عن ذهنه..

إنه طبيب عيون.. ولو كان هناك مرض اسمه (نظرات العين الثاقبة أكثر من اللازم) لكان هو أول من يسمع به.. قال لنفسه إن عينيه نافذة على روحه. وروحه قلقة عجول لا تريد أن يضيع من

العمر يوم واحد آخر.. لهذا لم يعد يقبل من يجادله أو يخالفه الرأي.. يريد طاعة عمياء..

هذا هو كل شيء..

☆ ☆ ☆

على أن القلق عاوده حين كان في ذلك المتجر تلك الليلة، وكانت هناك أم تحمل طفلًا رضيعًا على كتفها وتمسك بيد طفلة في الثامنة.. وقف وراءها فرأى الرضيع يرمقه بعينين متسعتين في رعب ثم انفجر في صراخ هستيري مجنون.. عواء إذا أردت الدقة..

نظر لأسفل فرأى الطفلة تنظر له بذات الرعب.. ثم تنكمش في ثوب أمها دون أن تفارقه بعينيها..

نظر لأعلى من جديد فوجد الأم تنظر للوراء.. تغمغم في جزع:

- «بسم الله الرحمن الرحيم..»

ثم تجر طفليها بعيدًا عنه بسرعة الفار من المجذوم..

ما معنى هذا؟ والأسوأ هو أن البائع ظل يرتجف وأوقع أشياء على الأرض.. وبدا كأنما لا يريد شيئًا في العالم قدر أن يرحل هذا القادم..

في اليوم التالي كان في المستشفى.. حين صرخت الممرضات أن المريضة الفلانية تعاني ألمًا عنيفًا..

دخل العنبر ليجد مجموعة من الأطباء الشبان يحيطون بفراش مريضة.. هناك الكثير من الصراخ والهستيريا.. هناك من يحقنها بأشياء.. نظر لهم متسائلًا رافعًا حاجبيه على شكل علامتي استفهام، فقال له طبيب شاب يعرق بغزارة:

- «إننا نعدها للجراحة غدًا.. لكنّها تصرخ من ألم مبهم في عينيها.. تشعر بأنهما ستنفجران..»

راجع التذكرة الخاصّة بالمريضة، ثم غمغم:

- «جراحة حول بسيطة ستجرى لها غدًا.. هذه المريضة لا تعاني ألمًا حقيقيًا.. هذه هستيريا لا أكثر..»

- «قل لها ذلك يا سيدي.. لقد حاولنا كل شيء..»

كانوا قد جربوا كل الأساليب المعروفة فعلًا بدءًا بالكلام الهادئ المطمئن، مرورًا بحقن محلول الملح الزائفة، وانتهاء بالصفعات.. لكنّها كانت تصرخ كقطار السكك الحديدية، وبدا أنها لن تكف

حتى تموت..

- «ربما لو طلبنا من يخدرها يا سيدي..»

- «ليس إلى هذا الحد..»

ودنا من المرأة.. الحقيقة أنها كانت قد كفت عن الصراخ فعلًا في اللحظة التي رأت فيها عينيه.. نظر لها في ثبات ووضع أنامله على جبهتها وإبهامه على جفنها العلوي.. بدأت تصمت.. تراخت معالم وجهها، ثم أغمضت عينيها ونامت.. لماذا فعل هذا؟ من أخبره أنه قادر على هذا؟ لا يعرف..

وقال أحد الأطباء الواقفين:

- «هذا سحر يا سيدي..»

الحقيقة أنه كان يعرف ذلك.. يعرف أن الكلمة تعني معناها حرفيًا..

ابتسم في تهكم يدارى الكثير من التوجس وانصرف..

هكذا بدأ القلق يعصف به.. وكان أول ما ابتاعه في طريق العودة إلى الدار نظارة سوداء.. هكذا يخفي هاتين العينين القويتين فلا يكشفهما إلا عند الضرورة، وكما يفعل الفارس الذي لا يخرج سيفه من غمده إلا عند الحاجة.. الآن يفهم كلام شعراء العرب عن (جردت نظرتها) أو (أعادت عينيها إلى غمدها)..

من الغريب أنه - وهو الذكي - لم يربط حتى هذه اللحظة بين العينين وما يحدث..

وهكذا راح يمضي أيامه في تأمل العينين وفي مراقبة ما يحدث لعينيه هو في دهشة بالغة..

إن الأمر يزداد وضوحًا.. الكل يفسح له الطريق حين يمشي في الشارع.. في الحافلة يتحاشى الناس الاحتكاك به ويطرقون بأبصارهم.. في العمل لم يعد أحد يواجهه على الإطلاق..

كان قد أطال شعر رأسه قليلًا في الفترة السابقة، وهو ناعم منسدل بطبعه.. مما جعله يبدو بالفعل مثل صور (راسبوتين) التي نراها ذات خشونة في بدايات القرن العشرين..

لكنه لم يعِ هذا التحول إلا في وقت متأخر للغاية..

وفي مساء يوم جلس كعادته إلى المنضدة يراقب العينين خلف السائل الشفاف هذا اللون الأزرق الغريب.. هذا الصفاء الذي يخترق كل شيء..

بعد ساعة من المراقبة غمغم هو يغمض عينيه..

- «الآن أعرف أن الأسطورة حقيقيّة.. هاتان العينان هما عينا (راسبوتين).. لا أرى الموضوع على أي ضوء آخر!!»

☆ ☆ ☆

ثم ماذا؟

إن هذا الاكتشاف لم يفقده حياته.. لم يكلفه مالًا.. فقط جعله أكثر نجاحًا وتأثيرًا.. فقط جعل الناس يعاملونه على أن أحلامه أوامر.. على قدر علمه لم تسبب التجربة أي ضرر..

إنها الثامنة مساء..

عليه أن يبدل ثيابه لأن لديه موعدًا مع خطيبته.. يجب أن أقول هنا إن الفتيات صرن ينظرن له بمزيج من الخوف والانبهار في كل مكان.. إنها تلك النظرة الثاقبة التي تخبرهن أنهن بلا دفاع.. وخطيبته (تغريد) لم تكن استثناء..

هكذا وقف أمام المرآة يصلح من ربطة عنقه.. إنّه وسيم على الأقل هو يعتقد هذا.. لو تناسى متاعبه الأخرى فهو شاب ناجح في الثلاثين من عمره وما زال العمر أمامه و....

إنها التاسعة والنصف!

نظر في هلع إلى الساعة المعلقة على الجدار خلفه..

هذا صحيح! ساعة ونصف مرّت وهو أمام المرآة يصلح ربطة عنقه..

الأخطر أنه مشعث مغبر.. وأنّ هناك بقعة دم على كتف القميص!!

متى حدث هذا؟ كيف؟

من الواضح أن (تغريد) انتظرته طويلًا.. ثم رحلت.. ولكن هذه ليست المشكلة الآن..

ماذا حدث وما الذي فعله في ساعة ونصف ظل يرمق فيها نفسه في المرآة؟ من أين جاء الدم؟

في كل لحظة كان يدرك الحقيقة المخيفة أكثر.. لقد صارت عيناه ضده إنهما تتلاعبان به!

ما حدث هو أنه نوَّم نفسه مغناطيسيًا وهو أمام المرآة!!

☆ ☆ ☆

من هذه اللحظة صارت عيناه غريبتين عليه.. إنهما عدوان خطران..

صار يقضى أغلب اليوم حتى في الظلام واضعًا النظارة السوداء على عينيه.. ما الذي فعله في تلك الساعة والنصف؟ ومن أين جاء الدم؟

هذا ما لم يعرفه قط ولم يحاول معرفته.. لقد غاب عن العالم ساعة ونصف ساعة صار فيها مشعثًا مغبرًا ببقعة دم على قميصه.. إن النتائج واضحة لكن التفاصيل لا تهم.

لقد صار غريبًا مخيفًا.. الناس يهابونه وهو يهاب نفسه.. والسبب....

هاتان العينان اللعينتان.. اللتان حملتا كل شرور صاحبهما..

إنه يملك قوة هائلة لكن ما نفعها لو استدارت هذه القوة نحوه هو نفسه؟ إنها نوع من الأسلحة الفاسدة في حرب ١٩٤٨ التي كانت تنفجر في صدور أصحابها بدلًا من صدور الصهاينة..

جلس إلى مكتبه وأمسك بالقلم وكتب في حسم جملة واحدة:

- «هاتان العينان.. يجب أن تزولا للأبد..»

اتجه إلى الخزانة حيث احتفظ بالوعاء الزجاجي..

في حسم حمله إلى الحمام..

أزال الغطاء الذي أغلقوا به الوعاء يومًا ما منذ خمسين عامًا.. ومن الوعاء تصاعدت أبخرة زيت الغنطرة الكريهة الحارقة.. نظر إلى المرحاض وأخذ نفسًا عميقًا..

سيقوم الآن بعمل كان يجب أن يقوم به منذ أشهر.. إنِّه سهل لكنه كان عسيرًا أمس فقط..

نظر إلى المرآة المعلقة فوق الحوض فرأى وجهه الصارم ينظر له في حدة.. هل هذا وجهه فعلًا؟ بشيء من الخيال يمكنه أن يقول إن هذا وجه (راسبوتين) ذاته..

إنِّه.....

لقد اقتنصته العينان!

إنه يرى (الكرملين) والثلج يتساقط من حوله.. هناك عربة تجرها الخيول.. أميرة روسية تغمض عينيها في افتتان.. حفلات راقصة صاخبة الضباط بثيابهم الأنيقة المزركشة يرفعون سيوفهم في رشاقة.. وجوه تضحك.. وجوه تبكي.. خيول.. ذئاب بيضاء.. فلاحون يرقصون (الكازاتشوك).. رجل مدثر بالفراء يمشي بصعوبة وسط العواصف.. طفل ينزف من أنفه.. طلقات رصاص.. خيول (القوزاق) تنقض من أعلى التلال..

لا داعي لتدمر عيني (راسبوتين).. إنهما أثر ثمين إنهما لشاهدتان على تاريخ بأكمله.. هناك عينان مؤذيتان يمكن تدميرهما ولن تسببا خسارة لأحد...

لا يعرف متى ترك الإناء سليمًا بما فيه.. متى ذهب إلى المطبخ.. متى انتقى سكينًا حادًا مدببًا.

متى عاد ليقف أمام مرآة الحمام..

متى..

إن مأساة (أوديب Oedipus) قد تتكرر بذات التفصيل في زمننا هذا..

☆ ☆ ☆

- ١ -

قال (مازن):

- «هكذا فقد (عادل) عينيه.. وقد عرفت منه القصة فيما بعد، واحتفظت بهاتين العينين كأثر ثمين لا يجب أن نبدده، برغم أنه توسل إليَّ ألا أفعل.. أعتقد أن اللعنة قد تركته الآن لكنّها دمرته إلى الأبد.. والآن أسألك عن رأيك في هذه القصة؟»

فكرت قليلًا.. إن هذه القصة بالذات تحمل الكثير من الجو المقبض الكريه..

قلت في كياسة:

- «لست متأكدًا.. لكن هل حاولت أن تطيل النظر في هاتين العينين أنت نفسك؟»

ابتسم ابتسامته الغامضة إياها وقال:

- «كثيرًا جدًّا! ربما عدة ساعات..»

- «نظراتك لم تزدد حدة أو إقناعًا..»

- «لم تزدد حدة لكن كل شيء في أعماقي تغير.. إن كل جزء من هذا المتحف الأسود قد ترك علامة دائمة في ذاتي.. وأعتقد أن نفسيتي تشبه هذه الواجهات ذاتها..»

وقبل أن أعلق قال:

- «القصة التالية سأريك الواجهة الخاصّة بها فيما بعد.. فقط أقول الآن إنها تحكي عن رعب (إن ما فعلته لن يمرّ لا بد من انتقام مخيف)..»

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

في الواحدة بعد منتصف الليل على الطريق الزراعي قرب (بنها).. هناك تلك الشاحنات المندفعة بأقصى سرعة، وسائقها الذي لم ينم منذ وقت طويل.. إن (التباع) يغفو جواره منذ زمن، وصوت المذياع الذي يبعث بصوت (فايزة أحمد) لا يساعده على الاستيقاظ..

في الواحدة بعد منتصف الليل والمطر قد بدأ يهطل والطريق زلق كظهر ضفدع.. والسائق يشعل لفافة تبغ أخرى متظاهرًا بأن الدخان يساعده على البقاء متيقظًا لكنه يعرف أنّ هذه أكذوبة..

هنا تأتي اللحظة الدرامية المتوقعة.. هناك من يعبر الطريق..

يا للكارثة! يضغط على آلة التنبيه.. يحرك الضوء متراقصًا.. لو ضغط الفرملة الآن لأنقلب فورًا.. كلا.. لا يستطيع.. فقط يأمل أن يتوقف هذا العابر أو يتراجع للوراء..

أو يسرع..

لكن العابر يواصل طريقه في تؤدة كأنما لديه كل الوقت..

ورأى السائق شيئًا يختفي تحت مقدمة الشاحنة.. ثم لا شيء..

إنه يستطيع التوقف بعد خمسمائة متر، لكن ما جدواه؟ هو يعرف أنّ هذا العابر العابث قد انتهى أمره.. وهو لم يكن ممن يملكون الشجاعة الأدبية الكافية.. على الأقل هو لم يرتكب خطأ.. القتيل هو من فعل..

وهكذا واصل طريقه وكل عضلة في جسده ترتجف..

☆ ☆ ☆

هناك من وجد الضحيّة وحملها إلى المستشفى..

كان الدكتور (ممدوح) طبيب الامتياز الشاب يحاول أن فقط يبقى ساهرًا باحتساء كوب شاي أعدته الممرضة.. لكنه كان يتوقف للحظات وكوب الشاي في الهواء.. يغيب عن العالم.. ثم يفيق فيشرب جرعة أخرى.. إن البرد مع تأثير الدفء داخل المستشفى لمما يجعل النعاس قوة لا تقهر..

فقط سمع صوت سيارة الإسعاف الكئيب وهي تقف كان يحفظ هذه الأصوات جيدًا.. صوت الباب المنزلق في ظهرها يفتح.. صوت فرد المحفة.. صوت العجلات وهي تجري على الأرض.. كان لهذا تأثير أقوى بمراحل من أي منبه يأخذه بالفم أو بالحقن..

هب على قدميه وضم المعطف.. وركض إلى الخارج ليرى المصيبة القادمة..

بالفعل كانت مصيبة.. هناك رجل أشيب في الخمسين من عمره، يرقد على المحفة وهو متدثر بخرق لا تدري كنهها بالضبط لكنّها ملوثة بالطين والدم ومبتلة.. وبدا من شحوبه أنه لم يعد بوسع (ابن سينا) نفسه أن يساعده لو كان ساهرًا في الاستقبال العام في هذه اللحظة..

بقدمين ترتجفان جرى الطبيب الشاب محدود الخبرة، وطلب من الممرضة التي كانت شبه نائمة بدورها أن تلف جهاز الضغط حول ذراع المصاب.. ودس طرفى المسماع في أذنه.. لاشيء

يحدث.. لا يوجد صوت على الإطلاق.. جرب مرّتين فلم يسمع شيئًا..

ألصق المسماع بصدر الضحيّة فلم يسمع شيئًا.. راح يفرك صدره.. لاشيء..

لا داعي لإيقاظ الطبيب المقيم إذن.. إن يومًا عصيبًا ينتظره غدًا، ولسوف تنهمر عليه الصواعق لو أيقظه من أجل رجل ميت فعلًا..

هكذا مط شفتيه علامة العجز، ونظر إلى المسعف نظرة تقول كل شيء..

ومن دون كلمات جاءت الممرضة بملاءة وغطت بها وجه المتوفي، على حين اتجه المسعف إلى الهاتف ليطلب جهة ما.. كان الدكتور (ممدوح) يشعر الآن أنه حارس مرمى لم يختبر، لكن - على الأقل - لم تهتز شباكه.. لم يتسبب في موت المريض.. هذا يعوضه بعض الشيء عن، وفاته..

وبيد مرتجفة كتب الديباجة التي حفظها عن ظهر قلب: يبلغ السويتش وينقل المتوفي إلى المشرحة بعد ساعتين..

بعد قليل جاء ذلك المريض المعتاد.. المريض الذي أصابه مغص كلوي في الثالثة صباحًا.. إنّه قادم مع خمسة من أهله وهو لا يكف عن العواء.. بعض العواء مفتعل لا شك في ذلك، يبرر به المريض إزعاج كل هولاء في ساعة كهذه وتحت هذه الأمطار..

هكذا انهمك د. (ممدوح) في عمل يعرفه ويجيده وينجح فيه.. ووقفت معه الممرضتان الموجودتان تعينانه.. الكثير من الصخب والصراخ والضوضاء.. لا بد أن الأمر استغرق نصف ساعة..

ثم عاد الهدوء الى المكان..

وعاد د. (ممدوح) يشرب آخر جرعة من الشاي الذي تحول الى ماء بارد سكري أسود..

هنا سمع الممرضة تشهق.

- «د. (ممدوح)..»

- «هممممم..»

- «د. (ممدوح)..»

صاح بلهجة متذمرة وقد نفد صبره:

- «ماذا عندك؟»

- «المتوفي الذي كان على المحفة.. لقد اختفى!»

نهض (ممدوح) مذهولًا لا يفهم ما يحدث.. ركض إلى الردهة الجانبية حيث كانت المحفة.. حقًّا لا يوجد أحد.. لكن أين وكيف ولماذا؟

لا يوجد إلا احتمال واحد هو أنه لم يسمع جيدًا.. لقد كان الرجل حيًّا لكنه فقد الوعي.. لا بد أن الارتباك جعله عاجزًا عن قياس ضغط الدم وسماع القلب.. هذا هو التفسير الوحيد..

وشعر بالدم يحتشد في وجهه.. ماذا يقول للشرطة حين تصل بعد قليل؟ ماذا يقول للطبيب المقيم حين يصحو؟

ليته يستطيع أن يكذب عليهم.. ليته يستطيع أن يقول إن القتيل قد نهض وانصرف لحال سبيله..

لكنه لم يدر أنّ هذه هي الحقيقة.. بالضبط هي الحقيقة..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

في الثانية صباحًا وبعد رحيل آخر المواسين دخلت (محاسن) الغرفة الأخرى في الدار.. فلم يكن ممكنًا أن تنام في ذات غرفة الزوجية بعد كل ما حدث..

كانت مرهقة، لكنّها قدرت أن الأرق نديمها هذه الليلة..

شريط الأحداث يتوالى أمام عينيها فلا تملك أن تبعده.. (سليم) زوجها، صحيح أنه لم يكن أفضل زوج في العالم.. صحيح أنه لم يكن بذلك اللطف.. لم يكن بذلك الكرم لم يكن بهذه الأريحية.. لكنه زوجها، والمرء لو اعتاد أن ينام جوار ثعبان (بوا) لمدّة عشرين عامًا فلا بد أن يفتقد هذا الثعبان إذا مات..

تزوجا منذ عشرين عامًا.. وأقاما في هذه القرية.. كان يحبّ حياة القرية.. ويرفض الحياة في (بنها) أو الابتعاد عن أقاربه.. وقد ابتنى هذا البيت منذ خمسة وعشرين عامًا، وبالتدريج صارت حياتهما مزيجًا خاصًا فريدًا من حياة القرية وحياة المدينة.. لم تحب هذه الحياة أصلًا لكنّها قبلتها كما يقبل المرء كل شيء آخر في حياته.. وكانت تدرك أن فرصها في الاعتراض محدودة لأنهّا لم تنجب، وهناك ألف شخص ينصحون رجلها بالزواج كي يحافظ على اسم الأسرة (وكأنها أسرة محمد علي).. لكنه قاوم.. حتى هذا الشهر بالذات..

الحقيقة التي لا يعرفها القراء هي أنها قتلته..

هي لا تعتقد أنّ هذا يجعلها زوجة غير صالحة.. فهي تشعر بأنها تفتقده برغم كل شيء..

لقد جاء أخوها عصرًا ولم يكن في الدار غيرهما.. دارها بعيدة عن باقي القرية منعزلة من الطراز الذي (يقتل فيه القتيل فلا يعرف أحد).. وكان هذا هو المطلوب بالضبط.. جلس الرجلان يشربان الشاي على سطح البناية.. بعد قليل بإشارة سريعة من عينيها قامت وأخوها بقتله.. إن صفحات الحوادث تعجّ بالقصص الرهيبة المماثلة، فلا داعي لوصف التفاصيل.. فقط نقول إنها وأخاها قتلاه لأنّه كان ينوي أن يتزوج امرأة أخرى.. إنها لم تنجب، وكان الميراث الذي سيضيع من العوامل المهمة التي جعلها لا تفكر مرّتين.. لم تكن من النسوة البلهاوات اللاتي يقتلن بسبب الغيرة، ولكن لأسباب ماديّة ملموسة يمكن تحويلها إلى أرقام..

كانت فترة غروب الشمس حافلة بالأحداث، حيث تعاونت مع أخيها في حمل الجثة قرب الدار.. تحت شجرة التين العجوز.. لم تفضل إلقاءها في (الرياح) لأن هذه الطريقة تفتضح دائمًا.. إنها ليست بلهاء..

لكنها على الأقل احترمت الجثة فتركت أخاها ليستكمل الدفن، وعادت إلى دارها..

الآن قد أزالت آثار كل ما حدث داخل البيت.

عندها فقط راحت تجوب القرية بحثًا عن زوجها.. طرقت كل دار وأطلقت الكثير من الصراخ الهستيري.. ليس من دأبه أن يتأخر إلى هذه الساعة، لا بد أن مكروهًا أصابه..

وتدخل خوفها من افتضاح أمرها، ليجعل من أدائها عملًا أكاديميًا يمكن تدريسه في معاهد المسرح العالمية.. لقد كانت خائفة فعلًا، وقد نجحت في استخدام هذا الخوف في أدائها، كما يفعل أي محترف تدرب في (ستوديو الممثل) في (هوليوود)..

وبالتالي بدأت ليلة عصيبة كريهة.. كانت عليها واجبات اجتماعية هائلة من العويل ولطم الخدين إلخ.. كل هذا باعتبار ما سيكون.. لكن أحدًا لم يعرف كم هي صادقة..

وعندما توغل الليل انصرف الجميع مع كلمة عن (النهار الذي له عينان) و(غدًا يأتي الفرج)..

الخلاصة أنها الآن مرهقة تمامًا..

ترغب في النوم.. تشتهيه.. وقد ساعدها هذا على نسيان خوفها.. أضف لهذا أنها كانت امرأة شديدة المراس أقوى أعصابًا من أي رجل عرفته.. المرأة التي تخاف من النوم في بيت قتلت فيه زوجها هي امرأة مدللة مائعة.. هذا رأيها..

ترقد في الفراش تتأمل الجدار المطلي بالجير، والذي أحالته إلى شاشة ذكريات..

لكنّها تسمع من يدخل الغرفة.. تسمع صوت خطوات..

توقف تنفسها.. إنها وحيدة تمامًا في هذه البناية.. ما معنى هذا؟

رفعت رأسها وفي الظلام استطاعت أن ترى ذلك الشخص الذي يدخل غرفة النوم.. من هذا القادم؟ فتحت فمها لتصرخ لكن الصرخة احتبست في حلقها..

إنّه هو.. هو بالذات..

كان يلبس ذات الثياب وإن صارت حالتها رثة.. ممزقة متسخة بمزيج من الدم والأوحال مبتلة تمامًا.. وكان يتصرّف بطريقة عادية تمامًا كأن شيئًا لم يكن..

- «مساء الخير يا (محاسن)..»

قالها بصوته الذي تعرفه جيدًا، ثم أردف وهو ينزع الثياب عن نصفه العلوي:

- «هاتي لي جلبابًا.. إن هذه الثياب مبتلة تمامًا..»

هنا فقط خرجت الصرخة من فمها.. عميقة حادة رفيعة تصم الآذان..

☆ ☆ ☆

كان اليوم التالي أسود يوم في حياتها كما يحق لنا أن نتوقع..

لقد كان عليها أن تصمت وأن تمارس حياتها بشكل طبيعي.. الجيران والجارات يأتون ليهنئوها على عودة الرجل، ويسألن ترى أين كان.. بينما هو يجلس في وسط الدار صامتًا كئيبًا لا يفتح فمه ولا يقول شيئًا.. نظرة ذاهلة كمن نوم مغناطيسيًا..

لقد فقدت وعيها لدى رؤيته في المساء.. حسبته شبحًا وهو التفسير المريح، أو هو لم يمت وجاء للانتقام.. لكن الغريب في الأمر أنه لم يقل شيئًا ولم يفعل شيئًا.. ارتدى جلبابًا ما ورقد في الفراش ليواصل النوم كأن ما مر به كان يومًا معتادًا..

هي خارج الغرفة ترتجف.. ولقد فكرت أكثر من مرة في أن تحضر الفأس لتكمل ما بدأته.. أو تتخلص من حياتها.. أو تهيم على وجهها صارخة في أزقة القرية..

لكنها عدلت عن هذه الحلول جميعًا.. كلها غير عملية، وسوف تلفت إليها الأنظار.. ولسوف يعرف الناس ما كان.. هكذا ظلت ما بقي من الليل وحدها خارج الدار ترمق صوت الكلاب البعيد وتصغي للظلام وتشم البرد نعم.. لا يوجد خطأ هنا.. لقد اختلطت حواسها بالفعل..

كانت موقنة من أنها وأخاها قتلاه فأحسنا القتلة.. لا توجد أخطاء.. ضربتان محكمتان على رأسه، ثم الخنق.. هل كان يجب إزالة رأسه تمامًا؟ دفناه بعناية فكيف ومتى استعاد وعيه وغادر القبر؟

هكذا كان العذاب الأول هو أن تبقى وهذا الشيء في دارها.. والعذاب الثاني - والأشنع - أنها لن تظهر أبدًا أية علامة هلع أو ذعر.. ليس أمام الناس.. ليس أحب إليها من أن تصرخ قائلة: لكنه ميت! أنا متأكدة من هذا!؟ أنا قتلته!! لكن هذه الأشياء لا تقال طبعًا.. هي لا تملك هذا الترف..

هي الآن في الدار.. الجيران يأتون ليطمئنوا.. لا تجرؤ على النظر إليه.. لا تجرؤ على النظر إليهم..

أحد الرجال يقول:

- «إنّه لا يتكلم.. لماذا لا تطلبون له الطبيب؟»

ويقترح آخر أن الحل الأمثل هو عصير القصب.. كان له عم أصيب بشيء كهذا فابتاع له عصير قصب.. ولكن من أين عصير القصب في قرية كهذه لا توجد فيها معصرة؟ هكذا يتطوع أحدهم ويحمل (شفشق) من البلاستيك ويتجه إلى (بنها) لإحضار بعضه، وقد رسم على وجهه علامات الخطورة كأنه ذاهب للبحث عن (يورانيوم ٢٣٥) من أجل مفاعل نووي..

لكم ودت لو تتخلص منهم! وفي الآن ذاته لم تتمن لحظة أن يرحلوا لتواجه هذا الشيء وحدها..

هي لا تعرف شيئًا اسمه (الزومبي) طبعًا، فلو كانت تعرفه لكان أدق وصف هو (ثمّة زومبي في داري)..

وكان أول ما خطر لها هو أن تهرع إلى المكان الذي دفناه فيه..

يجب أن تتأكد من آثار الحفر.. هل هناك من أخرجه أم هو من أخرج نفسه..

هكذا تأكدت من أن الجميع انصرف، ثم خرجت من الدار جارية حافية القدمين تقصد تلك البقعة التي تعرفها جيدًا، والتي حفرتها مع أخيها أمس..

لون الغروب الأزرق يغلف المكان.. في هذا الوقت بالضبط كانت منهمكة مع أخيها في حمل القتيل.. واليوم؟

إن الحفرة موجودة.. هل كانت بهذا الاتساع من قبل؟

من الواضح أنّ هناك من أزال عنها طبقة التراب الكثيفة التي كانت تغطيها.. لكن الأمر يبدو وكأن إزالة الغبار تمت من الداخل..

هذا هو ما توقعته.. لقد كان حيًّا عندما دفناه، وقد راح ينبش حتى أخرج نفسه.. لكن هذه الأمور يمكن تصحيحها.. لسوف تعود إلى أخيها وتخبره بكل شيء.. وهذه الليلة ينتهيان من هذا كله..

هكذا فكرت في اشمئزاز وهي تقف في ضوء الغروب تتأمل المشهد..

لكن.. صبرًا.. تكاد تقسم إنها ترى قدمين عاريتين في هذه الحفرة.. ليست خالية.. بل إن هناك من يرقد فيها وإن لم يتم دفنه بعناية.. ولكن..

هناك جسدان متجاوران!

ما معنى هذا؟

دنت من الحفرة أكثر..

إن ضوء الغروب الأزرق الخافت يجعل الرؤية عسيرة.. لهذا تنتظر أكثر حتى ترى..

الآن تقبض على الغبار وتزيله عن الوجه الأول وهي ترتجف.. هذا الوجه.. هذا الوجه.. هذا الوجه..

كما توقعت بالضبط..

هذا الراقد في الحفرة الآن ليس زوجها..

إنه أخوها!

ملامح الرعب على وجهه تقول إنها لم تكن ميتة سهلة على الإطلاق..

راحت تشهق محاولة أن تمنع الصرخة من أن تغادر فمها.. يجب أن تتماسك.. يجب.. يجب أن تفهم..

هنا سمعت من يتنحنح من خلفها:

- «إن الحفرة تكفي ثلاثة يا (محاسن)!!»

عرفت الصوت.. نظرت للوراء فوجدت زوجها يقف هناك تحت الشجرة العتيقة..

وكان يبتسم.. للمرة الأولى منذ عصر أمس تراه يبتسم..

☆ ☆ ☆

- ١ -

نظرت إلى ساعتي.. من العسير أن تعرف في هذه الحجرة إن كنا في الليل أم النهار، لكن ساعتي تقول إنها الثامنة صباحًا.. ليلة كاملة قضيتها في المتحف الأسود ومن الغريب أنني لست منهكًا..

قلت لـ (مازن):

- «هذه القصة على كل حال يمكن تفسيرها.. الزوج لم يمت.. لم يمت جيدًا لو أردت الدقة.. وقد انتصر على الأخ ودفنه هو في الحفرة، ثم عاد ليصفي الحساب مع زوجته..»

ابتسم ابتسامته الودود الشهيرة وقال:

- «هذا تفسير لا بأس به.. لكننا لم نفهم بعد كيف نجا من ارتطامه بالشاحنة ولا كيف شخَّص الطبيب وفاته، ثم لم يجده على المحفة.. ثم كيف نفهم معنى حديثه عن الحفرة التي تسع ثلاثة..»

في حدة قلت:

- «الموتى لا يعودون للحياة إلا عندما تقوم الساعة.. لا تبنِ أية افتراضات على أسس غير هذه..»

- «ثمّة تفصيل آخر لا يعرفه سواي.. لقد قطع الأخ الرأس بعد رحيل أخته.. كان هذا على سبيل الانتقام!!»

هززت رأسي غير مصدق يصعب أن أتخيّل الزوج يعيد تثبيت رأسه على كتفيه ثم يغادر القبر ليقتل الأخ، ثم يعود لداره..

قال (مازن) ضاحكًا كعادته:

- «كلانا لا يؤمن بصحوة الموتى من دون قيامة، لكني لا أعتقد أنك ترفض فكرة الأشباح التي عادت لتنتقم.. الأشباح التي اكتسبت وجودًا ماديًا من الاكتوبلازم يجعلها لا تبدو كذلك.. لقد قتل (سليم) أو شبحه الأخ ودفنه، ومشى متجهًا لداره شارد الذهن لا يعرف أين هو.. لم يصدّق لحظة أنه شبح حتى دهمته تلك السيارة.. الحقيقة أنها لم تفعل شيئًا يذكر.. وفي المستشفى لم يعرف الطبيب أنه يفحص قشرة من الإكتوبلازم.. ثم فر الزوج وقد بدأ يستعيد توازنه.. كان يريد الخلاص من زوجته، لكن - الأهم - كان يريد أن يثير ذعرها.. لقد عاشت عذابًا لم يرد في الأساطير الإغريقية في يومها الأخير..»

قلت له في ضيق:

- «اسمح لي.. أنت تبني افتراضات.. لكن لا يمكن البرهنة عليها.. أعتقد أنها مجرد قصة قتيل لم يكن كذلك..»

لم يعلق واتجه نحو الواجهة التالية..

قال (مازن):

- «النوع التالي من الرعب هو نوع شهير جدًّا.. ربما أقدم أنواع الرعب.. ألا وهو الرعب مما ينتظرنا خلف الباب المغلق..»

كان يقول هذه الكلمات وهو يقف جوار شظية صخرية هائلة الحجم يبدو كأنما انتزعت من جدار قديم..

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

الباب الذي أتحدث عنه لم يكن في مصر.. لم يكن في مكان تعرفه..

الباب الذي أتحدث عنه لم يكن بابًا خشبيًا أو حديديًّا، بل كان أقرب إلى جدار سميك يهدم ولا يفتح..

لكن الناس هناك كانوا يسموّنه بابًا..

☆ ☆ ☆

كان هذا في كهف قرب قرية في (ويلز)..

كان الناس يمرون جوار الكهف، ويتحدثون عن (خريولسن) الحبيس هناك.. عن الساحرة التي أنجبته.. والتي أعدمتها محاكم التفتيش هناك وكيف دفنوها فيما يعرف بزنزانة (خريولسن)..

هنا قاطعته في دهشة:

- «لحظة.. (خريولسن)! أنا كنت هناك!»

نظر لي كأنما أنا أكذب وقال بشك:

- «أنت من دون غيرك يا دكتور؟ وفتحت الجدار؟»

- «نعم..»

- «ورأيت ما وراءه؟»

- «بالتأكيد.. كانت هذه أشنع خبرة واجهتها في كل حياتي.. أحمد الله على أنني سأموت فتموت هذه الذكرى معي..»

عاد يسألني في شك:

- «رأيت كل شيء؟ حتى الـ.....؟»

صحت في عصبية:

- «لا تقل من فضلك.. دعنا نصغِ إلى باقي قصتك لنرى إن كانت تختلف عن خبرتي..»

عاد يقول:

- «عندما احترقت الساحرة أنذرت الناس بأن ولدها (خريولسن) سيعود بعد أعوام حين يفتح الزنزانة رجل أجنبي.. وما لم ينسه أحد هو أن المصائب لم تفارق القرية لحظة طيلة عمرها المديد..

«وبعد أعوام جاء مغامر إلى الكهف.. كان هذا بريطانيًا يدعى د. (هنري لستر).. فتنته الأسطورة وصمم على أن يجد رجلًا أجنبيًا يفتح تلكم الزنزانة..

«كانت فكرته أن يناول الضيف المطرقة، ثم يطلب منه أن يفتح الجدار بنفسه لأنّه ضيفهم..

«طبعًا ما كان الضيف الأحمق ليعلم أنه أول دم أجنبي يدخل الكهف منذ سبعة أجيال. حقًّا لم أتصور أنك كنت أنت هذا الضيف.. إن معلوماتي تقول إن.....»

☆ ☆ ☆

هنا قطع (مازن) كلامه لأن..

☆ ☆ ☆

الخاتمة

كان هناك صوت سيارة من الخارج..

صوت المحرك الدائر ثم صوت التوقف.. ثم صوت الأبواب تُفتح..

قال لي (مازن) في عجلة وهو يخرج من المتحف:

- «إنهم جاءوا.. تعال يا د. (رفعت) فهناك أشخاص أرغب بحق في أن تقابلهم..»

قلت له وأنا أرمق باقي الواجهات:

- «لكن.. ألن نستكمل هذه الواجهات؟ هناك....»

ونظرت إلى نهاية القاعة.. كان هناك رأس.. رأس آدمي محنط موضوع فوق عمود كأنه نصب تذكاري.. ولسبب ما بدا لي مألوفًا إلى حدٍ ما..

عدت ألحف عليه:

- «وهذه الواجهة.. إن هذا الرأس يبدو..»

قال وهو يقتادني إلى الخارج ويدير المكتبة ليغلقها:

- «فيما بعد.. فيما بعد.. سنكمل المشاهدة بمجرد أن تقابل هؤلاء السادة..»

- «من هم؟»

نظر لي نظرة ذات معنى، وغمغم وعيناه متسعتان في خطورة:

- «فقط حاول أن تبدو طبيعيًا.. سأخبرك بحقيقتهم فيما بعد.. والآن انزل..»

مترددًا نزلت في الدرج الخشبي، وأنا أتساءل عن كنه هؤلاء القوم.. ما معنى أن (لهم حقيقة ما)؟ ما القصة التي يحملها هؤلاء؟ في الغالب هذه هي لحظة الحقيقة.. لقد انتهت سهرتي مع هذا الشيء.. نظرت للوراء فلم أر (مازن) يتبعني طبعًا..

انفتح الباب وسمعت صوت طفلة تصيح.. ثم رأيت في الضوء القادم من الخارج رجلًا وامرأة شابة وحقائب.. ثم لمحت الطفلة ذاتها وكانت تتواثب في مرح.. كان ظلهم يمتد على الأرض مستطيلًا غامضًا كأنما جاءوا من كوكب آخر..

لكن الدهشة لم تطل.. فقد أدركت أنهم طبيعيون جدًّا، وبدأت أفهم القصة..

☆ ☆ ☆

كنت الآن قد وصلت إلى حقيقة مفروغ منها: هذا الرجل ليس رجلًا.. سوف تشرق الشمس لأجد أنه لا وجود له.. لقد عشت هذا الموقف مرارًا.. لكني على الأقل أعرف أن قصصه حقيقيّة.. ثم كيف أتأكد من نظريتي هذه؟ لا سبيل إلا أنّ أنتظر..

☆ ☆ ☆

الآن أرى الرعب في عيني الرجل والمرأة.. والطفلة ذاتها كأنما رأت شبحًا..

هتف الرجل:

- «من أنت؟»

ابتلعت ريقي وقلت في كياسة:

- «أنا ضيف السيد (مازن).. هل لي أن أسأل نفس السؤال؟»

صاح الرجل وهو يمسك بيد زوجته متوترًا متأهبًا للانطلاق كالسهم نحوي:

- «(مازن)؟ (مازن) من؟»

الآن بدأت أجد شيئًا مألوفًا في المشهد.. أكره أن أكون على صواب في كلّ مرّة.. لكن التفسير سيكون عسيرًا بعض الشيء، فأنا الآن متسلل بلا إذن إلى دار هؤلاء القوم.. وكان من أنقذني هو الزوجة التي قالت وهي تربت على كتفه:

- «إنّه منهم يا (محمود).. منهم.. لقد تكرر الأمر..»

كوَّر الرجل قبضته كأنما هو يمثل أحد أفلام (جون واين)، الأحمق.. أنا لا أبدو تهديدًا لبعوضة..

قلت له:

- «أتمنى أن تهدأ قليلًا.. تبدو لي عصبيًا لا يسعدك شيء في الوجود إلا أن تهشم وجهي..»

- «هو كذلك فعلًا..»

قلت وأنا أجلس على أريكة هناك:

- «واضح أنّ هذا الموقف تكرر معك مرارًا.. يحدث كلما سافرت في رحلة طويلة. أليس كذلك؟ بلى؟ وليس هناك من يدعى (مازن) هناك؟»

قالت الفتاة التي كانت أقرب إلى التعقل والهدوء:

- «(مازن أبو سيف) هو زوجي يا سيدي.. لكننا في كلّ مرّة نجد من يتحدث عن (مازن) الذي دعاه للبيت وأراه مجموعته من تذكارات الرعب..»

- «والمتحف؟ لا وجود له؟».

- «بالفعل لا وجود له.. يقولون إنّه موجود في غرفة المكتب خلف مكتبة جدارية عملاقة.. الحقيقة أنه لا يوجد أي تجويف خلفها.. لقد أزحناها وفحصنا المكان بعناية..»

قلت وأنا أنهض وأداعب شعر الطفلة المذعورة:

- «هناك متحف أسود.. بالفعل هناك واحد، فأنا لم أكن فريسة هلاوس بصرية بهذا التعقيد.. لكن ما يقودنا إليه ثغرة ما.. ثغرة في عالم الواقع.. هي هناك وراء المكتبة لا يفتحها إلا مضيفي نفسه.. ويبدو أنه لا يكف عن استعراض مجموعاته كأي هاوي جمع تحف في عالمنا حتى الأشباح تملك نقاط ضعف مثل البشر..»

وهنا فقط استعدت ذكرى الرأس المقطوع الذي كان آخر ما رأيته في المتحف..

كان هو رأس (مازن) نفسه.. أعني رأس من ادّعى أنه (مازن).. لقد تعجلني فلم أستغرق الوقت الكافي كي أحفر الانطباع في ذهني..

لقد ضم رأسه إلى مجموعته بكل رضا وسرور.. ولا شك أن المتحف يضم قطعًا أخرى منه حين كان حيًّا..

هو قال إنّه جرب كل شيء في المتحف.. لو كانت قصصه صحيحة فما من بشري يمكن أن يمرّ بهذه الخبرات جميعًا.. إما أنه لم يعد بشريًا أو لم يكن كذلك منذ البداية..

ثمّة افتراض أكثر جرأة: لماذا لم أر الواجهة الخامسة؟ هل الواجهة الخامسة هي تلك التي تحوي رأسه؟ هل كان هو (سليم) نفسه؟ لقد استبقى هذه الواجهة للنهاية باعتبارها سرّه الأخير.. والحقيقة أنني حين أستعيد قصته أتساءل: كيف عرف كل هذه التفاصيل؟ لقد هلك (سليم) وهلك الأخ وهلكت الزوجة.. فكيف عرف هذا كله؟ في كل القصص السابقة كان هناك من يحكي القصة كاملة: المخرج.. الزوجة.. الصبي الذي قتله الفطر.. الطبيب الذي فقأ عينيه.. في هذه القصة بالذات بدا لي (مازن) كأنه هو الراوي كلي المعرفة Omniscient الذي يعرف كل شيء ويتواجد في كل مكان يمكن أن يقص هذه القصة لو لعب دور (الشخص الثالث المحدود).. أي لو كان هو (سليم) ذاته..

قلت للزوج الذي بدأ يهدأ قليلًا:

- «هل كونت فكرة عما يحدث؟»

- «لا.. لقد طلبت رأي الكثيرين لكن أحدًا لا يعرف.. تكرر هذا السيناريو ثلاث مرات وأنت الرابع.. من الواضح أنّ هناك شبحًا يتسلى هنا.. يجلب عابري السبيل ويقنعهم أنه صاحب المكان.. يدخن السيجار الخاص بي ويقدم لهم الشاي والشطائر من مطبخي.. يحكي لهم قصصًا حتى يأتي الصباح.. هو لا يفعل هذا إلا حين نسافر لفترة.. وتتم القصة ليلة عودتنا.. ذات مرة راقب رجال الشرطة البيت في أثناء سفري، لكن - كما هي العادة في تلك الأمور - لم يحدث شيء.. وقد افترضوا أنني مخبول لا أكثر أعتقد أنني سأبيع هذا المكان.. فلم أعد أتحمل..»

وقفت أفكر حينًا.. ثم سألته:

- «أنا تحت تصرفك.. لو أردت أن تستدعي الشرطة لاتهامي بالتسلل إلى دارك فهذا حقـ..»

قال باشمئزاز وهو يسترخي على أريكة ويفك ربطة عنقه:

- «لا شيء من هذا.. لقد فعلت هذا مرّتين من قبل بلا جدوى.. انصرف من فضلك ولا تعد هنا أبدًا..»

اتجهت إلى الباب شاعرًا بالامتنان.. فلا أريد أن أقضي بقية اليوم في تفسير موقفي.. أدرت المقبض ووقفت أرمق الحديقة التي غمرتها الشمس وقلت:

- «والكلب؟»

- «كلهم يقول هذا.. لا يوجد كلب يا سيدي.. أنا أكره الكلاب...»

وراح ينظر إلى السقف كمن انهارت كل آماله..

هكذا أغلقت الباب ومشيت شارد الذهن.. مبلبل الفكر.. غير قادر على موازنة خطواتي بعد ليلة طويلة منهكة من سماع القصص الغريبة.. أمر بحوض أزهار (الدالكونيا) مودعًا..

وفي سرى تمنيت لو أنّ هذه الأسرة اللطيفة تأخرت قليلًا.. كانت الواجهات عديدة، ولكم اشتهيت لو سمعت باقي القصص.. مثلًا ما هو ذلك الكلب الأحمر؟ ما سر اليد المبتورة؟ ماذا عن الهيكل العظمي ذي الأنياب؟

لكني كنت أعرف أنني سأقابل (مازن) يومًا ما لنستكمل مشاهدة المتحف الأسود.. نعم.. بالنسبة لي كان ذاك الذي أمضيت معه أمسيتي هو (مازن) الأول. الحقيقي.. والأكثر تسلية..

إنه يعرف عنواني.. ويعرف كيف يكتب خطابًا.. وكيف يرسله..

لسوف يجدني..

عندها أريد أن أسأله أسئلة كثيرة.. أولها: من هو فعلًا؟ هل استنتاجي صحيح بصدده؟

إن قصته - بالتأكيد - لجديرة بأن تكون من قصص حلقة الرعب القادمة..

☆ ☆ ☆

كانت هذه حلقة الرعب السادسة..

المزيد من (البورتامنتو).. لكن حتى (البورتامنتو) - برغم اسمه المرعب - ينتهي ككل شيء آخر..

والشيء كان ينتظرني.. إنها قصة مقززة تحكي عن شيء ما.. هذا هو ما يمكن قوله عن الموضوع.. و...

لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت اسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة المقدمة

مقـــدمة

الواجهة الأولى: حكاية الرجل الذي أجاد دوره

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

الواجهة الثانية: ابن (أبراكســـاس)

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

الواجهة الثالثة: جـارنـــا

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

الواجهة الرابعة: عينـا راســبوتين

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

الواجهة الخامسة: (سليم) قد عـاد

- ١ -

- ٢ -

الواجهة السادسة: زنزانة خـريولسن

- ١ -

الخـاتمة

Notes

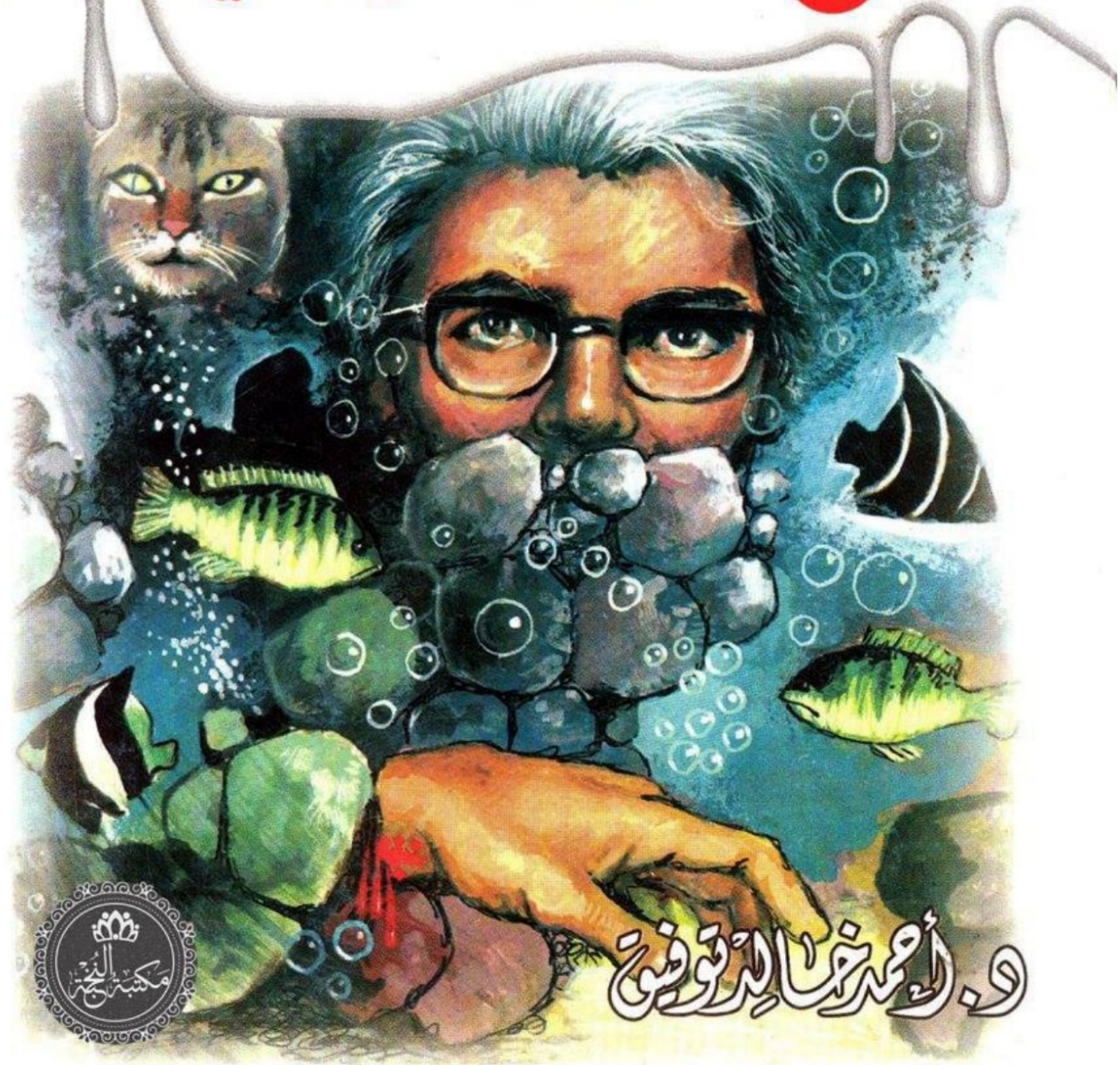
[1←]
لا تنس أننا نتحدث عن زمن قديم.

[2←]
سنتحدث عنه بالتفصيل في كتيب (فانتازيا) رقم ٣٨ إن شاء الله..

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

70 الحلقات المنسيّة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



المقدمة

هذه هي حلقة الرعب السابعة..

أنا العجوز (رفعت إسماعيل)، وهذه سلسلة ما وراء الطبيعة، وأنتم القراء.. جميل.. يمكننا أن نبدأ..

ماذا؟.. مقتضب أكثر من اللازم؟

غريب.. كنت أعتقد أن أسوأ صفحات الكتاب هي الصفحات التي أقف فيها لأتكلم قبل السماح لكم بدخول القصة.. رأيت في طفولتي مشعوذًا يقف على باب خيمة ملاه، وهو يعدنا نحن الأطفال بالمرأة الأفعى والفارس مقطوع الرأس وفتاة النار والكهرباء. كان يسد الطريق بجسده العملاق، وأعتقد أنه ظل يتكلم نصف ساعة.. كنا نتحرق شوقًا ونوشك على الجنون، لكنه لم يصمت قط.. في النهاية سمح لنا بالدخول.. كان لكلامه الطويل أثر مهم هو أننا لم نحب قط ما قدمه لنا ولم ننبهر به.. لم يقدم لنا طبعًا سوى الألعاب المعتادة السخيفة من عينة الحلقات المتداخلة وأوراق اللعب والكرات التي تخرج من فمه.. لكنه لو طار في الهواء وخرج الشرر من أذنيه وكمش أحدنا ليضعه في قبضته، لما انبهرنا كثيرًا.. لقد أشعل حماسنا إلى درجات غير مسبوقة؛ لذا بدا أنه ليس بوسعه إطفاء هذا الحماس..

مهما فعل.

لهذا أقول إنني لن أتكلم كثيرًا.. سوف نبدأ على الفور..

كنت قد قدمت في الكتيب الثلاثين عدة حلقات من البرنامج الإذاعي القديم (بعد منتصف الليل)، الذي كنت ضيفه الدائم عامي 1969 و1970.. أنتم تعرفونه الآن وتعرفون أن حلقاته اندثرت.. إنِّه كان يمثل للمستمع العربي في بداية السبعينات ما تمثله حلقات (منطقة الشفق Twilight Zone) و(مختارات رود سيرلنج Rod Serling) للمشاهد الغربي، وإن اختلف الأمر لأن حلقاتنا كانت تتعامل مع مكالمات المشاهدين الساخنة الحية وليست حلقات مكتوبة سلفًا يؤديها ممثلون محترفون.. أعترف أنها كانت فكرة سابقة لعصرها في ذلك الوقت قبل أن يبدأ عصر الفضائيات و(مداخلات المشاهدين).. إلخ.. بثلاثين عامًا والسبب هو ذلك الشاب النشط الشبيه بشلال أفكار وحماس لا يهدأ: (شريف السعدني)، دعك من أنها كانت شجاعة لا ننكرها من الإذاعة أن تسمح للمتصلين بالكلام على الهواء مباشرة مهما قالوا.. في هذا الزمن لم تكن لدينا تلك التقنية التي تؤخر صوت المتكلم بضع ثوان تسمح بقطع مكالمته - لو خرج عما هو مقبول - قبل أن يصل صوته للمستمعين ومن جديد كان على (شريف) أن يخوض حربًا إدارية مع المسئولين كي يقدم هذا العمل الثوري.

تعرفون أن الكثير من الشكاوى انهال على الإذاعة وقتها لأن البرنامج يخيف الصغار، وأنا لا أفهم من هو الصغير الذي يبقى متيقظًا يستمع للمذياع في الواحدة صباحًا؟.. لابد أنه غول صغير مفزع لا يقدر شيء على إخافته.. إنّه هو الذي يصنع الرعب ولا يتأثر به..

المهم أن نفسية الأطفال انتصرت وأوقف البرنامج، وقد فقدت الكثير من حلقاته للأسف.. أعرف يقينًا أن عندي سبعين حلقة منه، لكني لا أجدها مهما بحثت ومهما نقبت..

إلا إنني كنت أفتش في حاجياتي الأسبوع الماضي، حينما وجدت بكرة من شريط تسجيل.. جربتها على جهاز التسجيل العتيق ذي البكرتين الموجود في مكتبي فسمعت أصواتًا واضحة.. إنّه شريط قابل للاستماع إليه.. حلقات كاملة نسيتها تمامًا (من بعد منتصف الليل) لكنّها ما زالت عندي..

هكذا لم أنم ليلتها ولا لمدّة أسبوع كامل، وأنا ساهر في مكتبي أفرغ هذه التسجيلات على الورق، وفي النهاية ظفرت بعدة قصص لا بأس بها..

هذه إذن هي الحلقات المنسية من (بعد منتصف الليل)..

إن الجو مألوف لكم وأنتم تعرفون قواعد اللعبة.. هل فهمتم لماذا كنت مقتضبًا؟

تعالوا نبدأ إذن..

الصفحات التالية هي تفريغ لحلقات مختارة من البرنامج الإذاعي (بعد منتصف الليل)، الذي كان يذاع في الواحدة صباحًا أسبوعيًا ونال شعبية كبيرة في عامي 1969 و1970، ثم منعت الرقابة إذاعته بسبب تأثيره السلبي على نفسية الأطفال.

مقدمة البرنامج الثابتة:

صوت صرير باب ينفتح ببطء..

ثم صرخة امرأة..

بعدها تبدأ موسيقا فاخرة متوجسة

ويدوي صوت المذيع هادرًا بلهجة منذرة:

بعد منتصف الليل

عزيزي المستمع:

هل لديك خبرة معينة بعالم ما وراء الطبيعة؟.. هل هناك خطر معين يطاردك؟.. هل ترى أشياء لا يمكن تفسيرها؟.. لا تتردد ارفع سماعة الهاتف واطلبنا فورًا.. سنصغي إليك ونحاول حل مشكلتك وإزالة مخاوفك، مع ضيفنا الدكتور (رفعت إسماعيل)

عزيزي المستمع..

أنت لست وحدك..!

(تتعالى الموسيقا من جديد ويبدأ ذكر اسم الفنيين)

تقديم: شريف السعدني

الهندسة الإذاعية: أسامة نجم

إخراج: جلال القصاص

(أخيرًا تخفت الموسيقا وتبدأ الحلقة)..

بعد منتصف الليل

شريف:

أعزائي المستمعين.. من جديد نلتقي في الساعات الأولى من صباح الجمعة في برنامجكم (بعد منتصف الليل).. كما تعرفون أنتم تتصلون بنا لتحكوا مشاكلكم المتعلقة بعالم ما وراء الطبيعة.. ونحن نستمع ونقترح حلولًا، ومعنا دائمًا د. (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم بكلية طب (.....)، والذي قضى حياته يواجه مشاكل من هذا النوع؛ لذا هو صاحب خبرة عظمى.. د. (رفعت).. هل يمكن أن تقدم نفسك للسادة المستمعين؟

رفعت:

هذا طلب غريب يا شريف.. ما داموا هنا فهم يعرفون من أنا، وإلا لما كانوا هنا.. ظننت هذا واضحًا.. على كل حال أنت قدمت اسمي ومهنتي واهتماماتي.. لم يعد هناك جدوى من إضافة شيء آخر..

شريف:

هناك دائمًا مرة أولى كما تعرف.. نحن بانتظار مكالمتكم الأولى لتقدم الوقود لآلة الرعب فلا تتوقف..

رفعت:

كلما سمعت هذه العبارة تذكرت عبارة (إلقاء بعض الجثث للكلاب)!.. إن لها نفس الرنين..

شريف (حرج واضح):

نعتذر للسادة المشاهدين، فهم على كل حال اعتادوا أسلوب د. رفعت الساخر من كل شيء.. إن له طريقة معينة في السخرية لا تدرك معها أنه يمزح.. هل اكتسبت طريقة السخرية هذه يا د. (رفعت) من تعاملك مع كل الرعب الذي مررت به في حياتك؟.. كأنك لو لم تسخر لجننت كما يقول لورد بيرون: أنا أضحك حتى لا أبكي؟

رفعت:

بل على العكس اكتسبتها من تعاملي مع البشر.. هناك مزية مهمّة لدى المسوخ هي أنك لا تشعر معها بالملل أبدًا.. لم ألق قط مومياء تكرر نفسها، أو مصاص دماء يقول نفس الآراء، أو مذءوبًا مصرًّا على نفس النكات التي يقولها ويكون أول من يضحك عليها.. كل شيء حدث من قبل.. كل كلام قيل من قبل لهذا أشعر بأن الناس ضعاف الذاكرة بشكل لا يصدق.. ولهذا لو لم أسخر لجننت.

شريف (في قلق):

تأخرت المكالمة الأولى فعلًا.. أعتقد أننا سنستمع إلى أغنية لـ (عبد الحليم حافظ) بانتظار المكالمة الأولى..

رفعت:

في كلّ مرّة يحدث هذا.. ننتظر وننتظر ثم تأتي المكالمة، لكني في الحقيقة لا أملك تفاؤلك.. أحيانًا أتخيّل الحلقة التي لا تصلنا فيها أية مكالمات فلا يحدث شيء سوى أن أثرثر معك لمدّة ساعة..

شريف:

لعل نشأتي في حي شعبي علمتني شيئًا من إيمان الحرفيين المطلَق بحتمية الرزق.. لا أحد ينام جائعًا.. الله يرزق الجميع، والطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا، إذن لن ينتهي البرنامج من دون مكالمات.. والآن تعالوا نستمع إلى الفنان (عبد الحليم حافظ).

(تبدأ الأغنية)..

(صوت رنين الهاتف)..

شريف:

يبدو أنّ هذه مكالمتنا الأولى.. آلو.. برنامج (بعد منتصف الليل).. تفضل..

صوت شاب:

هل د. (رفعت إسماعيل) هنا؟

شريف:

فعلًا.. هل لنا أن نعرف من أنت؟

الشاب:

أنا (ميدو)..

شريف:

هل هذا اسم مستعار أم اسم تدليل أم هو اسمك فعلًا؟

الشاب:

لا عليك.. هذه تفاصيل لا تهم.. أنا أمر بظروف نفسية خطيرة.. إن زوجتي تريد أن تأكلني..

شريف:

منذ متى؟.. وكيف عرفت هذا؟

الشاب:

أنذرني أحد رفاقي منها.. قال لي إنها تلتهم البشر وإنها تبيت النية لالتهامي..

شريف:

وكيف عرف صديقك هذا؟

رفعت (مفكرًا):

أعتقد أنه.. لا داعي أن....

الشاب:

عرف ذلك لأنها زوجته..!

شريف:

هل تقصد أن زوجتك متزوجة من رجلين؟.. هذه جريمة يعاقب عليها القانون.. إن..

رفعت:

(شريف).. دعك منه.. أعتقد كذلك أنك غير متزوج أصلًا أيها الشاب؟.. أعتقد أنك ساهر مع أربعة من رفاقك وقد قررتم التسلية...!

الشاب:

أنت مخطئ على طول الخط يا دكتور.. هل تعرف السبب؟

رفعت:

لا..

الشاب:

لأنني ساهر مع خمسة من رفاقي لا أربعة!.. هأو أو أو أو؟ (ضحك جماعي ماجن)..

(يضع السماعة)

رفعت:

توقعت هذا منذ البداية.. أشم رائحة التهريج عندما تلعب برأس الشباب.. تعرف ذلك الظريف الذي يشطب كلمة (عدم) من عبارة (نرجو عدم التدخين) في الحافلات، والذي يركب الدراجة ليصفع الناس على أقفيتهم.. إن التهريج له شيطان حقيقي.. هذا الذي يجعل خمسة شبان يتصلون

ليتسلوا على حسابنا وهذا يعطيك فكرة لا بأس بها عن إحساس الشعوب باحترام الذات.. إحساسها بالمسئولية والفارق بين الجد والهزل..

شريف:

لربما اعتقدوا أننا ما دمنا نتكلم عن الأشباح فنحن غير جادين..

رفعت:

كما يقولون: نحن نمزح هنا فلا داعي للتهريج!.. هذا صحيح ودقيق تمامًا.. حتى المرح له قواعده التي تفسد بالتظرف الزائد.. ثم إننا نحاول أن نكون علميين منطقيين، فلا مجال للمقالب الظريفة هنا.. ما علينا.. يبدو أننا سننتظر مكالمتك هذه من جديد..

(الأغنية من جديد)..

شريف:

يبدو أن الانتظار.. (رنين جرس الهاتف).. آلو؟

صوت رجل:

هالو.. هل د. (رفعت) معك؟

رفعت:

نعم.. نعم.. هل من مشكلة يا سيدي؟

الرجل:

اسمي (مسعد أبو الدهب).. ولدي مشكلة.. هل يمكنني الكلام؟

شريف:

تفضل.. نحن موجودون هنا من أجلك..

مسعد:

أعتقد أن زوجتي كانت تريد أن تأكلني..!

الحلقة الأولى

الزوجة تعرف أكثر

يحكيها (مسعد أبو الدهب)

كدت أدنو لأسألها عما هنالك، ثم أحجمت عن ذلك.. لقد كان المشهد مهيبًا رهيبًا لا يغري بأن تجرب حظك وتقترب.. في هذه اللحظة فقط عرفت أنني لا أعرف الكثير عن (شيرلي) زوجتي الأمريكية..

رفعت:

هذه مشكلة فريدة من نوعها.. ولسبب ما يتعلق بالحدس أعتقد أنك لا تمزح يا سيدي.. يبدو أن لدينا حشدًا من الرجال توشك زوجاتهم على التهامهم الليلة..

مسعد:

لا أفهم ما تقول فأنا لا أسمع البرنامج.. أنا أتكلم من مكتبي..

شريف:

يبدو لي صوتك وقورًا يا سيدي، فلو اتضح أنك تمزح....

رفعت:

لا أعتقد.. يا شريف.. ثق بي.. أعرف نبرة الصدق عندما أسمعها كما عرفت نبرة التهريج من قبل.. فقط لنسمع القصة من البداية يا أستاذ مسعد..

مسعد:

أنا مهندس في الخمسين من العمر.. قضيت شطرًا لا بأس به من حياتي في الولايات المتحدة وعدت مؤخرًا.. أصلًا أنا من المنوفية، وقد ادخر أهلي كل قرش كي يجعلوا مني مهندسًا، ثم تخرجت في الكلية وظفرت بتلك البعثة للحصول على الدكتوراه..

رفعت:

أنت تحكي قصة حياتي بشكل آخر..

مسعد:

في ذلك الوقت حدث الخلاف الشهير بين الرئيس عبد الناصر وحكومة الولايات المتحدة، وتم إلغاء كل البعثات التي تدرس في الولايات المتحدة، وتم تحويلها إلى الاتحاد السوفييتي يصعب أن تجد دكتوراه من الولايات المتحدة في تلك السنين، ولكني كنت قد تزوجت من فتاة أمريكية لذا تركتها في الولايات وعدت لمصر حيث قمت ببعثة الاتحاد السوفييتي.. بعد الحصول على الدكتوراه عدت إلى الولايات وعملت هناك..

رفعت:

كل هذا جميل.. لكنه لا يدل على أن زوجتك تريد التهامك لو أردت رأيي..

مسعد:

اصبر عليَّ قليلًا.. عرفت زوجتي ساقية في كافتيريا في كاليفورنيا.. كانت جميلة أو هكذا رأيتها، وعندما تكلمت معها وجدتها على استعداد لأن تعرف المزيد عن المصري الأسمر القادم من بلاد التماسيح حيث يركبون الأفيال.. أنت تعرف هذه الصورة الضبابية لدى الغربيين عن مصر.. جوار وعبيد سود وأفندية بالطرابيش.. هكذا وقعت في حبي وتزوجنا.. اسمها كان (شيرلي دونر) قبل أن تصير (شيرلي أبو الدهب) كما تنص العادات الأمريكية، وقد كانت مدرسة ثم تركت التدريس.. سرعان ما رزقت بطفلين (نانسي) و(محمود)، وبشكل ما شعرت بأنني غرست جذوري في ذلك البلد للأبد.. لديك طفلان يتكلمان الإنجليزية ولا يعرفان لهما وطنًا سوى تلك الأرض..

رفعت:

يبدو من كلامك أنها زوجة طيبة.. ليست من الطراز إياه..

مسعد:

لقد عرفت طباعي.. على كل حال استمرت حياتنا هادئة.. الآن طفلاي في سن المراهقة، وقد خطر لي أن الوقت قد حان لأن يمرّا بهذه المرحلة العسيرة في مصر.. أنت تفهمني.. لا أريد أن تطالبني الفتاة بالخروج مع صديقها، أو أن أجد الولد يدخن الماريجوانا مع رفاقه..

شريف (في قلق):

المشكلة يا سيدي.. المشكلة من فضلك.. ليس البرنامج أبديًّا..

مسعد:

اصبر قليلًا.. يا أخي أنت العربي نافد الصبر، بينما أنا القادم من بلاد العجلة الدائمة أطالبك بالتمهل..

شريف:

ربما أنت مصري أصيل.. والآن أرجو أن تدخل في الموضوع..

مسعد:

في سن الأربعين، بدأت زوجتي تمر بأعراض عصبية غريبة.. كانت تتشاجر بسهولة وتضرب الطفلين، ولم تعد تطيق أية كلمة أقولها..

رفعت:

هذه سن مبكرة بالنسبة لتغيرات سن الإياس الفسيولوجية.. سن الإياس هي سن انقطاع الدورة، وهنا تلعب الهرمونات ألعابًا شيطانية كما تعرف.. إن بعض النساء يتحولن إلى نمور مفترسة لأن فكرة فقدان الأنوثة تثير جنونهن.. دعك من أن فقدان هرمون الأستروجين كارثة..

مسعد:

ليس الأمر كذلك.. إنها من أسرة تحتفظ بأنوثتها طويلًا.. أقول إنها صارت عصبية، وصارت مولعة بأن تعض من يختلف معها!!

رفعت:

تعض؟!!

مسعد:

نعم. ربما تحسبني أمزح لكنّها الحقيقة.. كانت عندما تضايقها (نانسي) تمسك بمعصمها وتعضه.. عندما ضايقها (محمود) اعتصرت حلمة أذنه بين أنيابها حتى صرخ ألمًا.. دعك من أن شهيتها لأكل اللحوم تزايدت بحق.. كانت تتناول اللحم في الإفطار والغداء والعشاء.. أصابها هذا بإمساك مزمن عنيف.. رائحة أنفاسها تذكرني برائحة قفص الأسود في حديقة الحيوان..

رفعت:

هذا لا يدل على شيء.. إن اختيارنا لطعامنا يعتمد على حالتنا النفسية بشكل كبير.. دعك من أنني لا أعفيك من المسئولية إن الملل وفتور الحياة الزوجية بسبب طول المدة يشعران الزوجة بأنها شيء مهمل في البيت.. ماذا تفعل؟.. تخرج عصبيتها على شكل شراهة زائدة..

مسعد:

ربما.. لكن ليس إلى حد اختفاء القط!

رفعت:

هناك قط مختف كذلك؟

مسعد:

أنت تعتقد أنني مجنون.. لكني أؤكد لك أننا كنا في الولايات واختفى القط الجميل (بتسي).. بحثنا عنه طويلًا فلم نجده.. هل التهمته الفئران؟..

رفعت:

هناك ألف سبب لاختفاء قط سوى السبب الذي تحاول إقناعي به..

مسعد:

على كل حال كان هذا هو الوقت الذي ظهرت فيه (سامانتا).. كنا نستعد للسفر إلى مصر وقد اعتادت (شرلي) أن تغادر البيت للتسوق وإعداد الأشياء التي ستأخذها معها، وكنت وحدي في

الدار عندما دق جرس الباب.. فتحته فوجدت سيدة عجوزًا قالت الى إن اسمها (سامانتا بلامر).. كأن هذا مبرر كاف للسماح لها بالدخول.. قالت لي إنها خبيرة أنساب وإن ما لديها مهم جدًّا ولن يستغرق شيئًا من وقتي.. يجب أن تتكلم قبل أن تعود السيدة (أبو الدهب) من الخارج.. سمحت لها بالدخول.. كانت قصيرة القامة نحيلة جدًّا، في ثيابها شيء من الخبال.. خطر لي أنها أقرب إلى ساحرة عجوز أو وسيطة روحانية.. أغرب شيء أنه كانت لها ضفيرة طويلة بيضاء تصل إلى ردفيها.. لمسة طفولية جدًّا لا تناسب سنها..

على كل حال كان كلامها مختصرًا جدًّا.. قالت لي إنها تعتقد أن زوجتي من أسرة (دونر).. قلت لها إن هذا استنتاج عبقري اسم زوجتي كان (شيرلي دونر) فماذا تتوقع؟..

هنا أخرجت تلك الشمطاء لفافة تبغ أشعلتها وضحكت حتى غلبها السعال، ثم قالت: هذه حادثة شهيرة جدًّا في التاريخ الأمريكي.. في العام 1846 كانت الهجرة إلى الغرب في ذروتها.. ملايين الرواد انطلقوا بعرباتهم نحو الغرب وسط أراض معادية وبيئة قاسية وهنود صمموا على الدفاع عن أرضهم.. من بين هؤلاء كانت جماعة (دونر Donner) التي سافرت في قافلة تتكون من 87 مهاجرًا متجهين إلى كاليفورنيا.. كانت الطبيعة قاسية معهم وقد حاصرهم الجليد في يوتاه.. البرد والجوع والخوف.. مات أربعة منهم.. ثم وجد الباقون أن الطعام قد نفد وأن عليهم إذا أرادوا الحياة أن يلتهموا اللحم البشري.. في البداية أجروا قرعة لكنهم لم يجدوا الشجاعة لتنفيذ ما أملته هذه.. فكروا في أكل الأدلّة الهنود لكن هؤلاء فضلوا الفرار وسط الثلوج.. هكذا اضطر البؤساء لأكل من ماتوا منهم.. بعضهم فضل الانتحار وبعضهم جن.. ولم ينج إلا نصفهم في يناير 1847..

قلت لها: إنها لقصة رهيبة لكني لا أعرف علاقتها بي..

قالت: لقد نجا كثيرون من أسرة دونر.. من بين هؤلاء الشقيقتان الطفلتان (جورجيا) و(إليزا دونر).. لكن القصة الرهيبة اشتهرت في التاريخ الأمريكي ونسجت حولها أساطير عدة.. أنا مهتمة بهذا الموضوع ويمكنني أن أعرف بالضبط أين ذهب كل واحد من هؤلاء اليوم.. زوجتك الرقيقة واحدة من أحفاد (جورجيا دونر) التي تزوجت ابن عمها..

قلت لها في عصبية: وعلام يدل هذا؟.. البشر يتكاثرون ويتزاوجون وينتشرون في الأرض.. ربما كنت أنا من أحفاد دراكيولا أو يوليوس قيصر.. فهل يدل هذا على شيء؟

قالت لي إنها كلما بحثت عن واحد من أحفاد (دونر) وجدت أن شيئًا مريعًا أصابه في سن الأربعين.. أكثرهم يُصاب بانحراف نفسي ويدخل المصحة في هذه السن، وبعضهم ينتحر.. لكن هناك أكثر من حالة موثقة من حالات أكل لحم البشر.. هذه هي الحقيقة.. ثمّة ميل غير مفهوم لدى أحفاد دونر لأكل اللحم البشري.. هذا الميل يبدأ في سن الأربعين.. لا أحد يعرف سبب تحول هؤلاء إلى عشيرة من الغيلان ولا لماذا ورثت هذه الصفة، لكنّها الحقيقة..

رفعت:

لحظة.. أنت تعرف كما أعرف أن كلام تلك السيدة هراء.. (لامارك) قال إن الصفات المكتسبة تورث، لكن من قال إن التهام اللحم البشري لمدّة تقل عن عام صفة قابلة للتوريث؟.. هل دخلت هذه العادة التركيب الجيني لهؤلاء؟

مسعد:

أنا لست طبيبًا يا د. (رفعت) ولا أفهم حرفًا مما تقول.. فقط أنا أنقل لك بأمانة ما قيل لي وما رأيت..

شريف:

أرجو أن تكمل..

مسعد:

سألتني السيدة عما إذا كنت لاحظت تصرفات غير مفهومة لدى زوجتي، فقلت لها لا.. قالت إنها تأمل ألا أكون كاذبًا.. كنت عنيفًا غليظ الطبع معها، وأعتقد أنني كنت أقرب إلى طردها من داري.. من الصعب أن يتظاهر المرء بالرقة مع امرأة تقول له إن زوجته غول.. قالت لي وهي تهم بالانصراف: فقط أردت أن أنذرك.. عرفت أنك وزوجتك ذاهبان مع الأطفال إلى مصر.. هناك ستجد نفسك بعيدًا عن الولايات وعمن يعرفون ما يجب عمله.. أريد أن تكون حذرًا..

رفعت:

طبعًا انصرفت تاركة لك تذكارًا مهمًا: القلق..

مسعد:

سأكون مبالغًا لو قلت هذا.. ما قالته كان كلامًا عامًا لا أهميّة له ولا تفوح منه رائحة الصدق.. عادت زوجتي من الخارج بعد قليل فلم أخبرها بحرف عن هذه السامانتا.. فقط أثناء تناول العشاء رحت أوجه أسئلة حذرة عن أسرتها.. قالت لي إنها لا تعرف الكثير عن جدودها.. لقد جاءوا من الشرق في زمن الهجرة الكبرى، واستقروا في أرض كاليفورنيا الخصيبة بعد هذا تركنا الولايات وجئنا إلى مصر..

رفعت:

هل حدث شيء غريب؟

مسعد:

بعد زيارة أهلي في المنوفية ابتعت بيتًا هو أقرب إلى فيلا في الهرم، واستقررت فيه، كما اتخذت لنفسي مكتبًا قريبًا.. كانت هي منبهرة بمصر الفرعونية لا المعاصرة ككل الأجانب.. وقد

كونت عدة صداقات والتحق الطفلان بالمدارس هنا.. في البداية كان كل شيء على ما يرام والحياة هادئة، وبدا لي أننا نتأقلم بسرعة.. حتى كانت تلك الليلة..

كنا قد نمنا مبكرًا، وفي الثالثة صباحًا صحوت من النوم لأن مثانتي توشك على الانفجار.. نهضت فلم أجدها في الفراش جواري.. نهضت أبحث عنها في البيت كله لكن لا أثر لها.. ثم وجدتها.. كنت قد غادرت البيت من الباب الخلفي، ودرت حوله عبر مساحة خالية فيها رمال رطبة.. هكذا رأيتها من بعيد تقف قرب الباب الأمامي.. وجدتها تقف في الخارج في ضوء القمر كانت حافية القدمين متصلبة تنظر إلى القمر في ثبات.. كان ظهرها لي فرأيتها تتحسس رأسها كأن قنبلة توشك على الانفجار فيه، ثم جثت على ركبتيها وراحت تتلوى وهي تمسك بصدغيها.. كدت أدنو لأسألها عما هنالك، ثم أحجمت عن ذلك.. لقد كان المشهد مهيبًا رهيبًا لا يغري بأن تجرب حظك وتقترب.. في هذه اللحظة فقط عرفت أنني لا أعرف الكثير عن (شيرلي) زوجتي الأمريكية..

رأيتها تنهض وهي تتشنج.. كل عضلة في جسدها تتشنج ثمّة شيء غير بشري في هذا المشهد.. ذيل السحلية.. نعم.. ذيل السحلية المبتور.. هل رأيت كيف يتلوى؟..

ورأيتها تدخل إلى البيت.. هكذا مشيت وراءها خلسة فرأيتها تتجه إلى غرفة النوم.. فتحت فمي لأقول لها إنني هنا، لكني توقفت..

كانت الآن توليني ظهرها حيث وقفت داخل الغرفة عند رأس الفراش في الظلام، وهي تنظر إلى الغطاء المكوم الذي يفترض أنني نائم تحته.. رأيتها تفتح أصابعها وتغلقها كأنها المخالب ثم تنحني في حذر لتقبض على طرف الغطاء.. وهنا فقط عرفت أنها تزوم كالوحوش.. تزوم..

في لحظة انتزعت الغطاء بحركة درامية مفاجئة.. فلم يكن تحته شيء طبعًا.. أقسم أنها أصدرت زئيرًا يعبر عن خيبة الأمل..

استدارت لكني كنت قد توقعت هذا، فهرعت أركض عبر الردهة إلى غرفة الأطفال وقلبي يتواثب في فمي..

في الداخل كانت نانسي ومحمود نائمين.. كل واحد في فراشه يحتضن دميته المفضلة. لا تنس أنهما لم يجتازا عتبة الطفولة بعد ليصيرا مراهقين بالكامل.. لسبب لا أعرفه دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفي بالمزلاج..

وقفت في الظلام متلاحق الأنفاس أصغي للصوت في الخارج.. ثم سمعت اللهاث.. سمعت الفحيح.. رأيت مقبض الباب يتحرك في محاولة للفتح.. وسمعت صوتها تقول بالأمريكية: هيه.. افتحا أيها الطفلان!.. مامي هنا!.. لماذا أغلقتما الباب؟

نهض الصغيران ولم يفهما ما يحدث.. نظرا لي في رعب فاحتضنتهما..

ماذا أقول وماذا أفعل؟

بعد قليل توقفت القرعات.. وشعرت بأنها ابتعدت.. فتحت باب الحجرة في حذر وخرجت.. أين هي؟.. وجدتها نائمة تغط في الفراش وقد بدا كأنها مشت عدة أميال.. في الصباح لاحظ الأطفال أن قطنا اختفى.. القط الشيرازي الجميل الذي ابتعته من المعادي قد اختفى..

رفعت:

قط آخر كالعادة.. تلك الحيوانات البائسة التي تضحي بأنفسها من أجلنا.. يمكن القول إذن أنها أخمدت هذا الجوع الوحشي الحيواني الذي باغتها..

مسعد:

لا يمكن فهم الأمور على ضوء آخر.. ثمّة نداء سمعته وهي نائمة.. حاولت أن تقاوم.. خرجت إلى الهواء الطلق لكن الأمور ساءت.. الزوج الأحمق لم يكن في الفراش، إذن ماذا عن غرفة الأطفال؟

شريف:

وعلاقتك معها بعد تلك الليلة؟

مسعد:

لا يمكن القول إنها تغيرت.. في الصباح بدا لي الأمر سخيفًا شعرت بأنني كنت أهلوس لا أكثر، وقد سألتها عن سبب خروجها فأنكرت في صدق أنها غادرت فراشها أصلًا.. الأولاد سألوها أسئلة محرجة لكنّها أنكرت كل شيء.. في الواقع بدا لي أنني كنت أحلم.. فقط عندما يأتي الليل تعاودني تفاصيل المشهد، وأقول لنفسي إنني أنام وأولادي في بيت فيه امرأة من أسرة (دونر).. امرأة يبدو أنها تعاني حنينًا شديدًا لجدودها ومزاجهم في الأكل.. أحيانًا أشعر بذلك الشعور الغريب بأنها غريبة عني تمامًا. من جاء بها هنا تحت سقف بيتي؟

رفعت:

يطلقون على هذا الشعور بالاغتراب اسم Jamais vu.. يمكن القول إنك لا تنام على الإطلاق إذن..

مسعد:

نعم.. نعم.. أظل مفتوح العينين طيلة الليل وأنهض كل ربع ساعة لألقي نظرة على الأطفال النائمين.. أخفي مدية تحت الوسادة وأصمم على بيع نفسي بثمن باهظ.. اللعينة تنعم بحياتها وتنام في سلام.. لن تصحو إلا عندما يغلبني التعب.. وعندها....

رفعت:

هل فكرت في احتمالية أن تقوم بتخديركم؟

مسعد:

نعم.. لهذا لم أكن أتناول أي شيء من يدها قرب المساء لا أعتقد أنها ستخدرنا يومًا كاملًا على كل حال..

رفعت:

لاحظت أنك تستعمل الفعل الماضي على طول الخط.. هل تغيرت الظروف؟

مسعد:

إلى حد ما..

رفعت:

أين زوجتك الآن؟

مسعد:

في الحمام..

رفعت:

وأين الأطفال؟

مسعد:

عند عمتهم في المنوفية..

رفعت:

حسين.. أنت تتكلم من المكتب فكيف عرفت أن زوجتك في الحمام؟.. لا أعتقد أن العلاقة الروحية بينكما بهذه القوة.. إلا لو كانت قد أخبرتك هاتفيًا..

مسعد:

دعك من هذه التخمينات.. أردت أن أخبرك أنني وجدت الليلة مظروفًا يحوي بعض الأوراق التي قررت زوجتي أن تخفيها عني.. أنها مصابة بنوبات صرعية من نوع فريد.. يبدو أنه ما يطلقون عليه الصرع النفسي الحركي.. هناك تقرير من الولايات منها في حاجياتها..

رفعت:

هل يفسر هذا تلك التشنجات الغريبة والسلوك العجيب؟.. أعتقد هذا.. إن الصرع النفسي الحركي يمتاز بسلوكيات غريبة وفي الآن ذاته لا يسقط المريض على أرض ويتشنج كما يعرف

الناس عن الصرع..

مسعد:

ربما.. لكن الأوان قد فات لمعرفة هذا.. أنا كنت مرهقًا بعد سهر طال عدة أيام، والأطفال لم يكونوا في الدار.. نمت في حجرتنا بعض الوقت وكانت هي في المطبخ.. صحوت من نومي فجأة لأجدها تقف بجوار الفراش وهي تتشنج بتلك الطريقة الغريبة.. عيناها جاحظتان والزبد يسيل من شدقيها.. جن جنوني.. لم أعد أطيق هذه الحياة ولا أتحملها.. لقد انهار جهازي العصبي فعلًا هكذا مددت يدي تحت الوسادة وأخرجت المدية، ورحت أغمدها فيها مرارًا وأنا أصرخ: موتي أيتها الشيطانة..!.. موتي!.. لم أكن أنا من يصرخ ويطعن.. توتري هو الذي كان بفعل.. سقطت على الأرض جثة هامدة فجررتها إلى الحمام حيث المغطس.. بدلت ثيابي ثم جريت لأفتح الخزانة التي تحفظ فيها أوراقها الخاصّة.. أردت أن أعرف.. كان أول ما وجدته هو تلك التقارير.. زوجتي كانت مريضة جدًّا.. زوجتي لم تكن غولًا.. عندما دخلت غرفتي وانتزعت غطاء الفراش وعندما دقت على باب الصغيرين كانت تبحث عن عون بشري لا أكثر.. فقط تلك الـ (سامانتا) كهربت حياتي وملأتها ذعرًا..

شريف:

لكن هنالك قطان اختفيا.

مسعد:

كما قال د (رفعت): القطط تختفي لألف سبب غير أن يكون أحدهم قد التهمها..

رفعت (في ذهول):

هل تعني أنك؟.. تتكلم معنا بعد أن..؟

مسعد:

نعم.. أنا قاتل يا سيدي.. لقد انتهى كل شيء، لكني قررت أن أذهب لمكتبي لتناول آخر قدح قهوة له رائحة الحرية، سوف أتصل بالشرطة بعد انتهاء مكالمتي هذه لكني أردت أن أتصل بك أولًا..

شريف:

لماذا؟.. إن قصتك واضحة كالشمس الآن.. أليمة لكنّها واضحة.. ما الغامض فيها؟

مسعد:

ليست هذه القصة سبب اتصالي.. فقط أردت أن أسأل د. رفعت عن موضوع مطاردة أشباح القتلى لقاتليهم. هل هذا صحيح؟.. هذا هو سبب المكالمة!

رفعت:

أحيانًا يحدث هذا وأحيانًا لا يحدث.. هذه هي إجابتي وأرجو أن تكون مرضية لك**!**.. لكني سأقدم لك عزاءً بسيطًا.. على الأرجح يكون سبب الصرع النفسي الحركي شيئًا ما في الفص الصدغي للمخ.. أعتقد أن زوجتك تعاني ورمًا في هذا الموضع.. لو لم تكن قد ماتت لأعلن الورم عن نفسه، وكانت ستموت على الأرجح..

مسعد:

في هذا بعض العزاء لرجل فقد زوجته وأسرته ومستقبله في ليلة واحدة.. شكرًا لكما.. سوف أفرغ من لفافة التبغ هذه وأطلب الشرطة..

(يضع السماعة)..

شريف:

يا لها من مأساة..

رفعت:

هي امرأة فقدت حياتها لأن اسم أسرتها (دونر).. علي المرء ألا يتصرّف بشكل غريب عندما يكون من نسل أسرة تأكل لحوم البشر.. أرجو أن تكون الحلقة القادمة أكثر مرحًا..

الحلقة الثانية

تحـــــت !

يحكيها (كامـل)

لا أعـرف إن كـان هذا كله صـحيحًا أم أننـي أهذي.. القصة أنـهم أحياء وموجودون وعليك أن تتصرف يا دكتور (رفعت)..

شريف:

هذه حلقة أخرى من (بعد منتصف الليل).. قصصكم هي الوقود الذي يشغل آلة الرعب للأبد، وفي ظني أن المكالمة الأولى لن تتأخر كثيرًا..

رفعت:

كلما قلت هذه العبارة تأخرت المكالمة الموعودة.. أقترح أن تصمت..

شريف:

هل أنت فعلًا متشائم كما يقولون عنك يا د. (رفعت) وكما تحاول إقناعنا؟

رفعت:

هذه هي فلسفتي.. دائمًا أتوقع الأسوأ وفي كلّ مرّة يتضح أن توقعاتي كانت أسوأ من الحقيقة.. هذا جعل الحياة بالنسبة لي من المفاجآت السارة!.. المتفائلون في رأيي هم أكثر الناس إصابة بخيبة الأمل، بينما أنا أتوقع مثلًا أن يسقط علينا نيزك في هذه اللحظة.. لو لم يحدث هذا شعرت بأنني محظوظ وأن الحياة أجمل مما نظن!.. قرأت قصة حياة (ماجلان) فعرفت أنه كان يؤمن بأنه ولد في برج نحس.. هذا جعله شكاكًا أكثر من اللازم.. أي رحالة سواه كان التفاؤل سيدفعه إلى عدم الاستكشاف داخل اليابسة، لكن ماجلان بسبب شكه في حظه توغل أكثر من اللازم، ووجد مضيق ماجلان..

شريف:

أي أن التشاؤم نوع خاص جدًّا من التفاؤل..

رفعت:

لا أدري.. فقط هو طريقة تجعلني أرى الحياة جميلة!

(يدق جرس الهاتف)

رفعت:

هل ترى؟.. كنت أتوقع ألا يتصل أحد..

شريف:

نعم.. نعم.. المهم ألا تكون ربة بيت تطلب من البقال شايًا وكيلوجرامًا من السكر.. آلو.. مساء الخير..

سيدة:

مساء الخير.. من حسن الحظ أنكم لم تغلقوا بعد.. أنا لن أتعامل معكم ثانية..

شريف:

هذا غريب.. نحن لم نتعامل بعد يا سيدتي كي تقرري هذا القرار..

السيدة:

هل أنت (مصطفى)؟.. قلت لك إنني أريد أن تكون العكاوي بلدية.. وطلبت أن تكون الأقارع (بناتي) ولا تكون منفوخة.. عندما جلب لي الولد هذه الأصناف حسبت أنه أخطأ العنوان.. أعتقد أن المعلم (بيومي) قد انصرف الآن.. سوف تكون لي كلمتان معه صباحًا..

شريف:

في الحقيقة يا سيدتي نحن هنا في برنامج (بعد منتصف الليل) ولم نبع لك أي لحم أو أقارع.. أعتقد أنك أخطأت الرقم مع جزار الحيّ..

السيدة:

آه.. عدم المؤاخذة.. لكنك تفهم هذا الشعور بالغش.. لو لم أتصل في ذات الليلة لجننت ولما استطعت النوم لحظة.. لم يعد لدى الناس ضمير..

(تضع السماعة)

رفعت (يضحك في استمتاع):

هناك نقطة إيجابية في هذا الموقف..

شريف:

ما هي؟

رفعت:

إن المشاهدين متأكدون يقينًا من أن مكالمتنا أصلية وليست ملفقة.. هناك من اتهمنا بأنها مكالمات مكتوبة سلفًا يؤديها ممثلون..

شريف:

أنا حريص على ألا يتم أي نوع من ترشيح المكالمات قبل سماعها.. يمكن التخلص من هذه المضايقات بسهولة لو أنّ موظفًا أخذ منها بيانًا مختصرًا عن سبب المكالمة قبل تحويلها، لكني مصر على ألا يحدث هذا..

رفعت:

على كل حال العكاوي موضوع محبب للجميع.. لا أحد يتضايق من الكلام عن العكاوي لو أردت رأيي..

شريف (في ضجر):

بصراحة لا أعرف ما هي ولا يهمني أن أعرف.. أنا بانتظار المكالمة..

رفعت:

المذيع المحترف لا يعترف أبدًا بأنه يجهل العكاوي.. في الواقع المذيع المحترف لا يعترف أبدًا بأنه يجهل أي شيء.. العكاوي هي ذيل الذبيحة.. من الممتع دائمًا أن تعدها مع البطاطس في صينية تدخل الفرن.. غير أن الكوليسترول سوف..

(رنين الهاتف)

شريف:

آلو.. برنامج بعد منتصف الليل.. نحن بانتظار مشكلتك يا سيدي..

صوت شاب:

مساء الخير أو صباح الخير.. أنا (كامل)..

شريف:

على الأرجح هذا اسم مستعار.. لا يهم.. تفضل..

كامل:

لا أعرف إن كان هذا كله صحيحًا أم أنني أهذي.. القصة أنهم أحياء وموجودون وعليك أن تتصرف يا دكتور (رفعت)..

(يرتجف صوته منذرًا بالبكاء)..

رفعت:

أعرف هذه النغمة.. هل أنت متأكد من أنك لا تتعاطى علاجًا يا بني؟.. هل ثمّة طبيب نفسي يتابعك؟

كامل:

أنت مثل الآخرين.. تتكلم مثلهم.. من الواضح أنني أخطأت بالاتصال بك..

رفعت:

سامحني يا بني.. المرء يسمع الكثير من الهراء، لكن السمة العامة لهراء هذه الأيام هي نغمة (إنهم يلاحقونني).. يطلقون على هذا اسم (البارانويا).. لابد من وجود (إنهم) في الموضوع..

كامل:

على كل حال أنا فعلًا راغب في أن أتكلم حتى لو لم تصغ.. أنا الآن في كابينة سنترال عموميّة في مركز.. لا لن أقول.. العامل غاف على المكتب والكابينة مغلقة فلن يسمع أحد ما يُقال..

رفعت:

لكنك تتكلم عبر الراديو.. ولا تسألني عن رأيي في السر الذي يُقال ليسمعه كل من يملك جهاز مذياع..

كامل:

لا أحد يهوى برنامجك ممن أعرفهم.. ثم إن المركز فقير جدًّا.. لا أعتقد أنّ هناك أكثر من أربعة أجهزة مذياع ولا يوجد جهاز تلفزيون على ما أعتقد [1]..

رفعت:

حسن.. واضح أن مشكلتك ملحة.. هل لك أن تبدأ..

كامل:

قلت لك إنهم هنا.. في البدء كانت مجرد قصص وكنت أسخر منها.. ثم جاء (صالح) باحتمالاته وتحدياته.. من المصادفة أن يذاع برنامجك في هذا الوقت بالذات..

شريف:

(كامل).. نحن لا نفهم أي شيء..

كامل:

حسن.. أنا طالب آداب من قرية (....) التي تقع ضمن هذا المركز.. أدرس في القاهرة طبعًا.. (صالح) هو ابن عمي الذي عاش كل حياته في القاهرة.. إنّه شاب قوي الشخصية والجسد معًا.. ربما قوي العقل كذلك.. باختصار هو قادر على قيادة أية مجموعة يكون فيها..

لقد عاد (صالح) إلى القرية.. عاد ومعه عشرات القصص عن القاهرة ومغامراته هناك.. كنا نجتمع حوله قرب حقل الذرة ونسمع قصصه التي لا تنتهي.. كان خبيرًا في شيئين..

رفعت:

النساء والعفاريت!

كامل:

كيف تعرفت؟

رفعت:

القصة دومًا هكذا.. هناك قصة رائعة ليوسف إدريس تحكي عن شباب التفوا حول خبير منهم مثل هذا.. لكنه كان يحكي عن المنصورة.. وكلفهم هذا رحلة قاسية إلى المدينة التي لم ترحمهم..

كامل:

عندما كنا نعود إلى الدار كان يحتفظ لي بقسط خاص من القصص لأنني قريبه.. على المرتبة على الأرض كان ينام على ظهره محدقًا في الظلام ويحكي لي الكثير جدًّا.. أحيانًا يتسلل ضوء انفجر الشاحب ليغمرنا ونحن لم ننم بعد..

قال لي إن مقابر القرية ليست خالية ولا تمتلئ بالعظام النخرة كما أظن.. سألته عما يقصد.. فالتزم الصمت.. فقط قال إن كل شيء (تحت).. (تحت) هي الكلمة التي كان يصف بها عالمًا غامضًا تحت الأرض لا أعرف ما هو لكنه مخيف بما يكفي.

لم أفكر في الأمر جدّيًا إلى أن اختفي (عند الستار).. هذا طفل في السابعة من أطفال القرية.. في العادة يُعامل الأطفال هنا كالدجاج.. في الصباح تطعمهم الأمهات ثم تطلقهم.. يلعبون ويلتقطون رزقهم، ثم في المساء تقف كل أم بانتظار عودة دجاجها إلى العشة لتطعمه وتنيمه.. (عبد الستار) لم يعد في المساء وبحث الجميع عنه.. الأماكن المختارة للعثور على الجثث في الريف محدودة ومنها (المسقى) ووسط أعواد الذرة وتلك الوهدة خلف الجمعية الزراعية.. لم نجد جثثًا.. جاء من يحقق في الأمر من المركز، ولم يتبين شيء وتقرر حفظ القضية..

نحن قرية وادعة.. كلنا يعرف بعضه.. لا يمكن أن أجد من يصلح لخطف طفل أو قتله.. لكن ابن عمي كان يعرف..

رفعت:

طبعًا قال: إنهم هؤلاء الذين يقيمون (تحت)..

كامل:

بالطبع.. قال لي وعينه متسعتان: إنهم هم يا (ناجح).. أنا أعرف أنهم هم.. الصبي كان يلعب قرب المقابر فأخذوه..

قال لي إنهم عشيرة أو أسرة تعيش هناك منذ قرون ولها قوانينها الخاصّة.. يأكلون ما يجدون وهو كثير فإن لم يظفروا بطعام خرجوا يبحثون عن الأحياء.. منذ زمن لم يمت في القرية أحد،

لهذا يمكن أن نفهم لماذا اختفى الطفل.. لقد كانت المقابر خاوية لفترة وهذا جعلهم يجوعون..

لم أصدق حرفًا.. سخرت منه كثيرًا..

رفعت:

لحظة.. لماذا عرف ابن عمك ما عرف؟.. ما الذي ميزه عن عجائز القرية مثلًا؟

كامل:

هو سمع هذه القصة من عمي - رحمه الله -.. وقد صدقها تمامًا كان يرغب في أن يتخذ مدفنًا جديدًا لعمي، لكن عمي قال له إن عليه أن يعامله كأي واحد من أبناء القرية.. فليحدث له ما يحدث لهم..

رفعت:

مفهوم.. وماذا بعد ذلك؟

كامل:

أعتقد أنني تجاوزت بسخريتي الحد المعقول.. أعتقد أنني جرحت كبرياء ابن عمي.. أعتقد أن الأمر صار أقرب للكرامة لأنّه أصر على أن ينزل إلى المقابر بنفسه ليرى ما يحدث (تحت).. قال لي إنّه سيعود بالصبي أو جثته، ولسوف يخرسنا جميعًا.. حاولت أن أثنيه فقال لي في سخرية: أنت تخاف مع أنك تؤمن بأنه لا يوجد شيء.. كيف؟

رفعت:

الإجابة هي فوبيا الموت طبعًا.. كل ما يتصل بالموت رهيب غامض.. القبائل البدائيّة تحكم على من يلمس ميتًا بأنه تابو Taboo وقد يموت جوعًا لأنّه ممنوع من لمس الطعام. لو صح كلام (يانج Jung) فإننا في لاوعينا الجمعي نفكر كالقبائل البدائيّة تمامًا..

كامل:

سأكون شاكرًا لو ادخرت الفلسفة إلى وقت آخر.. ليس هذا وقتها

رفعت:

هي ليست فلسفة بل علم أجناس.. على كل حال سأصمت..

كامل:

كانت ليلة جمعة وقد أعد كشاف وحبلًا وخنجرًا.. ثم ودعني.. حتى اللحظة الأخيرة كنت أحسبه يمزح.. لن يفعلها.. لكنه انطلق نحو المقابر بينما بقيت أنا في الدار أرتجف.. وبالطبع مرّت الليلة

كلها ولم يعد. في الصباح جاءت زوجة عمي تسأل إن كان بات عندنا أم لا.. آخر ما سمعته عنه هو أنه شوهد متجهًا للمركز بعد منتصف الليل.. طبعًا أنت تعرف أنّ هذا كلام خاطئ على الأرجح.. هنا فقط بدأت أشعر بذعر حقيقي.. ماذا حدث؟.. ماذا رآه؟

ظللت صامتًا بضعة أيام بينما البحث جار عنه.. في النهاية لم أعد أتحمل.. أنا أصدق أصدقائه وقريبه.. أنا الوحيد الذي يعرف أين هو..

قلت لأقاربنا إنِّه (تحت).. فضحكوا وسخروا مني.. لم يكن أحد على استعداد لسماع ما أقول.. ولكن.. (**في رعب**).. لحظة..

(لحظات صمت)

شريف:

(كامل).. هل ما زلت معنا؟

رفعت:

اسمه (ناجح).. لقد تعثّر لسانه كما يحدث دائمًا.. في كل مكالمة ينسى المتصل اسمه المستعار في ثلثها الأخير.. لكن أين هو؟

كامل (يتنهد):

لا شيء.. خيل لي أنّ هناك من يسترق النظر لي عبر زجاج الكابينة.. لا يوجد أحد سوى الموظف النائم وأنا.. المنطقة مهجورة.. إنني متوتر جدًّا..

رفعت:

معك كل الحق.. لكن أكمل القصة..

كامل:

هكذا قررت أنا بدوري أن أنزل (تحت) لأرى ما يدور هناك..

شريف:

هذه شجاعة غير مسبوقة..

كامل:

الشجاعة الحقيقية كانت أن أبقى في داري وأتحمل تأنيب الضمير والقلق.. لا.. صدقني.. لقد اخترت أهون الخطرين كان هذا منذ ساعتين..

رفعت:

هل تعني أنك عائد من هناك لتوك؟

كامل:

نعم. ما زال تراب المقابر يلوث ثيابي وشعري.. لقد تزودت بكشاف وحبال وخنجر.. لا أعرف نفع هذه الأشياء لكني قدرت أن ابن عمي كان يعرف ما يفعل.. ثم غادرت الدار بعد ما نام الجميع متجهًا إلى المقابر.. كنت أعرف أنّ هناك مقبرة مفتوحة خالية فيها درجات تقود إلى حوش تحت الأرض.. هذا هو الموضع الذي كان (صالح) يتكلم عنه..

لا صوت سوى نباح الكلاب من بعيد.. عواء ذئب في مكان ما.. الظلام.. صراصير الحقل.. استكشفت موضع النزول ثم دسست جسدي وانزلقت إلى أسفل على ضوء الكشاف.. أخيرًا وجدت نفسي في ذلك الحوش..

كانت مقبرة حقيقيّة معدة للاستقبال لكنّها كانت خالية، وكان علي أن أزحف على قدمي ويدي كي أبحث فيها..

شريف:

بيني وبينك.. أنا متوتر أكثر منك.. لابد أنها تجربة مرعبة..

كامل:

نعم.. لو أنني سمعت صوتًا أو رأيت شيئًا يتحرك لتوقف قلبي ومت.. على أنني وجدت ممرًا ضيقًا يقود إلى قاعة مجاورة.. هكذا زحفت على يدي وركبتي إلى أن وصلت هناك واستكشفت المكان بالكشاف.. فئران كثيرة حمراء العيون كانت تحدق فيَّ غير وجلة.. رحت أقذفها بما وجدت من حجارة وشققت طريقي أكثر.. هنا رأيتهم!

رفعت:

ما الذي رأيت بالضبط؟

كامل:

رأيتهم!.. كانوا أحياء!.. كانوا يزحفون كالديدان.. كانوا يتسلقون الجدران الترابية.. يلبسون مثل البشر.. فقط ثيابهم في حالة زرية.. أطفأت الكشاف بسرعة حتى لا يروا وهجه لكنني أدركت أنّ هناك ضوءًا أحمر غامضًا يشبه الذي يحمض فيه المصورون الأفلام.. نفس الجو تقريبًا.. وعندما استدار أحدهم نحوي أدركت أنه لا وجه له!.. هناك فجوة كبيرة دامية تحتل موضع وجهه!

كنت قد اكتفيت من الرعب.. رحت أزحف خارجًا من هذه القاعة، وخرجت من المقبرة، لكني رأيتهم في الظلام يدورون حولها.. يبدو أنهم يخرجون من مخرج آخر.. كانوا يمشون مترنحين كالسكارى وأيديهم مفرودة.. كانوا يقصدونني..!.. لا شك في هذا.. لقد شعروا بي..

رفعت:

رحت تركض كالمجانين في الظلام وسط الكلاب المسعورة..

كامل:

الكلاب المسعورة تبدو شيئًا محببًا في ظروف كهذه.. هذه أشياء تعرفها وتعرف قواعد لعبها.. أشياء قبيحة تنتمي لعالمك وليست أشياء لا تفسير لها..

لقد كان (صالح) على حق، وأعتقد أنه لم يرزق حظي الحسن..

ركبت جرارًا إلى المركز حيث جهاز الهاتف.. هناك في قريتنا هاتف واحد موجود لديَّ العمدة، وهو معطل منذ فترة لا توجد طريقة للذهاب إلى المركز سوى على ظهر جرار.. ربما كنت أتخيّل لكني بالفعل شعرت كأنهم تبعوني إلى هناك..

لا أعرف من أكلم ولا من أسأل.. فقط تذكرت شيئًا عن برنامجك.. لقد كان صالح يحبه وقد أعطاني رقم الهاتف لأطلبك لو حدث شيء.. هكذا جئت إلى السنترال الوحيد بالمركز.. إن العامل نائم لم أستطع إيقاظه.. هكذا طلبتك بنفسي..

أنا الآن أطلبك سائلًا النصح.. ماذا أفعل؟

رفعت:

لماذا لا تعود للقرية و(الصباح رباح)؟

كامل:

من رابع المستحيلات أن أعود للقرية في الظلام على ظهر جرار. وأن أمشي وحدي وسط أزقة القرية المظلمة حتى أصل الداري.. يا أخي لم تعد أعصابي تسمح بذلك.. سأبيت في المركز.. ربما أبيت على الدكة الخشبية في هذا السنترال حتى الصباح.. السؤال هو: وماذا بعد ذلك؟

رفعت:

أعتقد أن عليك أن تكلّم كبار القرية.. لابد أنهم سمعوا شيئًا عن الموضوع...

كامل:

سوف يتهمونني بالجنون..

رفعت:

ستجن فعلًا لو قضيت حياتك تداري هذا السر..

كامل:

لحظة.. هناك من يتحرك في السنترال.. هو ليس العامل لكن.. لقد أزاح العامل بيده فسقط على الأرض بلا حراك العامل لم يكن نائمًا إذن.. إنّه ميت!.. ميت منذ دخلت إلى السنترال.. وهذا القادم.. إنّه..

(يصرخ):

إنه من دون وجه!!.. (رفعت)!.. إنّه منهم!.. لقد وجدوني!.. لابد أن (صالح) فعل نفس الشيء عندما لم يستطع أن يبقى في القرية لحظة أخرى.. حاول الاتصال بشخص يعرفه من نفس السنترال لكنهم قابلوه في الخارج.. لابد أنهم توقعوا ما سأفعله هذه المرّة، وربما كان أحدهم يتعلق بالجرار الذي جئت به..!

(صرخة طويلة أليمة.. صوت حشرجة.. الخط ينقطع):

شريف:

كامل أو ناجح.. ماذا حدث؟

رفعت:

ناجح..!

(صمت طويل):

شريف:

ما رأيك؟

رفعت:

إما أننا عشنا هواجس حالة بارانويا متقدمة، وإما أننا عشنا أحداث قصة من أفظع ما مررت به.. هؤلاء الذين يعيشون (تحت) قادرون على الحركة وعلى السفر إلى المركز.. قادرون على أن يحتفظوا بسرهم ويقتلوا من يعرفه..

شريف:

وإلى أي الرأيين تميل؟

رفعت:

لا أدري.. لكني لم أر مريض بارانويا متماسك المنطق إلى هذا الحد.. أعتقد أنه يمكن تضييق البحث نوعًا.. هناك قرية اختفى فيها طفل يدعى (عبد الستار) - لو كان الاسم صحيحًا - ثم شاب

ثم ابن عمّه طالب الآداب واسمه بالتأكيد (ناجح).. لو أمكن تحديد القرية لاستطعنا أن نفتش المقابر بحثًا عن شيء ما (تحت)..

شريف:

هذا يعني أنك تبنيت الرأي الثاني: هذا الذي سمعناه حقيقي..؟

رفعت:

ربما نعم.. ربما لا.. فقط أعرف شيئًا واحدًا: إنها لقصة مخيفة جديرة بأن تذاع في هذا البرنامج..

الحلقة الثالثة

مـــرب فاضـــل

يحكيها (مـرب فاضـل)

لا أعتقد أننا في سيبيريا، لكن النوّة كانت عنيفة جدًا وقد راحت البناية كلها تهتز من الرعد والريح، هكذا جلست في فراشي ورحت أشرب الحلبة الساخنة.. هنا لاحظت أن ضوءًا غريبًا يدخل من أسفل الباب.. أنا أغلقت كل الأنوار.. من أين جاء هذا الضوء؟

شريف:

كما اعتدنا يمكننا أن نناقش الحلقة السابقة إلى أن تأتينا المكالمة الأولى.. ما رأيك في قصة الأسبوع الماضي ياد. (رفعت)؟[2]

رفعت:

تلك الفتاة التي تعيش مع أخيها الصغير، وتزعم أنها عرفت أنه مات في حادث أليم منذ ثلاثة أعوام؟.. تقول إن أحدًا لم يعرف بالحادث سوى سجلات الشرطة، وأنها لم تعرف بحدوثه إلا بالصدفة.. هذا النوع من القصص صار مملًا، ولو عددت لك المرّات التي قابلت فيها فتاة تكتشف أن أخاها ميت لاحتجت إلى الليل كله..

شريف:

وماذا يحدث في كلّ مرّة؟

رفعت:

هذه من القصص التي تنتهي نهاية ضبابية. لا تعرف أبدًا ما حدث بعدها.. لا تجد دليلًا ملموسًا يريحك..

شريف (في غيظ):

كنت أحسب أن عندك إجابات قاطعة...

رفعت:

هذا عالم ما وراء الطبيعة يا صاحبي وليس فاتورة البقال سوف نموت دون أن نعرف.. سنموت ورأسنا يوشك على الانفجار من فرط علامات الاستفهام.. وعندما نعرف الحقيقة سيكون من المستحيل أن ننتفع بما عرفناه.. لقد رحل القطار وهأنتذا تقف على المحطة وحدك.. تتمنى اللحاق بمن عليه كي تخبرهم بما وجدت.. طبعًا هذا مستحيل.. حتى نفسك الأصلية تشعر بأنها على متن القطار.. لا يمكن أن تخبرها بما عرفت..

شريف:

هذا يثير الغيظ.. نحن بحاجة إلى من يعرف فعلًا

رفعت:

وهذا لا وجود له وعليك أن تقبل.. هناك بعث وحساب ويوم قيامة.. هذا ما نعرفه يقينًا لكن هل هناك أشباح مثلًا؟.. هل هناك تجسدات؟.. أحيانًا تكون الإجابة في رأيي يقينًا (نعم) وأحيانًا تكون (لا) والأغلب أن تكون (لا أدري)..

(جرس الهاتف)..

شريف:

آلو..

صوت رجل وقور:

برنامج بعد منتصف الليل؟

رفعت:

تفضل..

الرجل:

هل لابد من أذكر اسمي؟

شريف:

اسمك أو اسم مستعار المهم أن نجد من نكلمه..

الرجل:

ليكن.. أنا مرب فاضل**!**

رفعت:

هذا غريب.. لا أحد يُطلق على نفسه لقب مرب فاضل ما لم يُطلق واحد على نفسه اسم (رجل شفاف نقي النفس).. لكن تفضل أيها المربي الفاضل.. أعتقد أننا عرفنا مهنتك على كل حال.. لا يمكن أن تكون مهندسًا مثلًا..

الرجل:

أنا لست مهندسًا.. أنا مرب فاضل.

رفعت:

نعم.. نعم.. ولا يجيد المزاح كذلك.. تفضل..

الرجل:

أنا مرب فاضل كما قلت لك، وقد أمضيت حياتي كلها في تربية النشء.. أنا في الخامسة والخمسين من عمري.. لم أتزوج.. فقط قضيت حياتي معلمًا للجغرافيا ثم موجهًا للجغرافيا.. بعد هذا أنشأت مدرستي الخاصّة..

شريف:

هل هي في القاهرة؟

الرجل:

لا.. لقد ابتعت قطعة أرض عند أطراف مدينتي، وقد أنشأت فوقها مدرسة جميلة لا بأس بها أبدًا.. إنني أقبل الصف الابتدائي والإعدادي.. نتائج مبهرة جدًّا..

شريف:

لا تذكر اسم المدرسة من فضلك وإلا خربت الإدارة المالية بيتنا وطالبتنا بثمن هذا الإعلان غير المدفوع..

الرجل:

لن أذكره ولكن لأسباب تختلف نوعًا.. على فكرة بما أنني غير متزوج فأنا أقيم بالمدرسة، والناس في هذه المنطقة السكنية يعرفون معنى النور في الطابق الثاني حيث يوجد مكتبي الذي أكلمك منه الآن.. عندي هنا فراش وثلاجة.. لا تلفزيون لأنني أمقت تلك البرامج الرقيعة وعمة (راقية إبراهيم).. و...

رفعت:

لحظة من فضلك.. لا أفهم من هي عمة (راقية إبراهيم) وما دورها في الموضوع؟.. لا أذكر أي فيلم كانت فيه عمة لـ (راقية إبراهيم)..

الرجل:

أؤكد لك.. هناك أفلام مليئة بعمات (راقية إبراهيم).. لم أعد أرى هذا الهراء على كل حال.. عندي كل ما يلزم للإقامة.. أعيش على الطعام الجاهز الذي يأتي به الخفير (بركات) أو هو الطعام تطهوه لي امرأة من عاملات المدرسة في بيتها وتجلبه معها.. إن طهيها ليس سيئًا لو تغاضينا عن هواية ملء الطعام بشعر رأسها كأنها فهمت معنى (الشعرية) بشكل حرفي خاطئ..

رفعت:

نحن الآن في الصيف.. لم لا تبحث عن إجازة في مكان ما؟

الرجل:

ليس هناك مكان ما.. العالم ضيق جدًّا كسم الخيّاط في رأيي أنا أعيش هنا وغالبًا سأموت هنا.. أعرف كل جدار وكل طبقة طلاء، وكل جزء رطب نبت عليه الطحلب، وأعرف أسرار كل وصلة كهرباء متوارية..

رفعت:

ومتى بدأت المشكلة؟

الرجل:

من قال إن هناك مشكلة؟

رفعت:

لا أعتقد أنك تتصل لتحكي تاريخك التربوي.

الرجل:

بالطبع لا.. كنت أقيم في المدرسة كل ليلة مع الخفير (بركات). كان يفرش بطانية أمام باب المدرسة في هذا الحر، ويدخن الشيشة ويشرب الشاي.. طبعًا لا أختلط به لكن مودة عميقة صارت تجمعنا بعد كل هذه الأعوام.. اعتبرته أخي بشكل ما وإن كنت لا أصارحه بهذا، وقد قمت بالحج معه العام الماضي على حسابي!

رفعت:

تؤثر في فعلًا علاقات صديقي عمر من طبقتين مختلفتين هذه أمور تثير شهية أي مؤلف درامي له ذكاء صرصور.. الأكثر إيلامًا هو عندما يموت الأكثر ثراء منهما!

الرجل:

يا أخي (الملافظ سعد)!.. على كل حال أنا أمضي الليل في مكتبي، وأحيانًا كان يصعد لي هناك ومعه كوب شاي أسود.. ثم يعود للسهر عند الباب.. أعتقد أنه يدخن أشياء أخرى غير الجوزة لكني أتساهل على كل حال.. وهو كذلك يجمع سبع صنائع فهو يعرف بعض الشيء عن السباكة والكهرباء وتثبيت البلاط..

بدأت القصة في شهر مارس الماضي.. كان هناك خلاف بين صبيين في المدرسة.. غالبًا هو خلاف على فتاة.. لماذا يختلف الفتية إن لم يكن على فتاة؟

(أمجد) و(هاني) في الصف الثالث الإعدادي..

رفعت:

ألا تجد نضجًا هرمونيًا مبكرًا في أطفال مدرستك هؤلاء؟

الرجل:

لا أفهم ما ترمي إليه لكني أعرف شيئًا واحدًا.. الفتية أوغاد.. قد تختلف معي في هذه النقطة لكن جميع الفتية أوغاد.. أؤكد لك هذا..

رفعت:

نعم.. نعم. وأنت مرب فاضل تمقت عمة (راقية إبراهيم) عندما تظهر في أفلام..

الرجل:

نعم. نعم.. أعتقد أن الخلاف بين الصبيين كان عميقًا بحق، لم أتبين حجمه ولا أبعاده إلا عندما وقع (أمجد) من الطابق الثالث في بئر السلم.. صرخة مدوية طويلة ذات صدى، فهرعت خارج مكتبي لأجد الكثير من الصراخ والهستيريا ووجدت جثة (أمجد) وسط بركة صغيرة من الدماء.. وكان الطلبة في حالة جنون وذعر.. لقد سقط بينما هم يتدافعون في الطابق الثالث.. ليس الترابزين منخفضًا ولا هشًّا لكنه سقط.. مال فهوى الجزء الأثقل من جسده لأسفل..

نظرت لأعلى لأرى وجوه الطلبة تطل على من فوق.. الصف الثالث كان خارجًا للفسحة ويبدو أن عادة تدافع الأغنام لعبت دورًا، لكني رأيت وجه (هاني) من أسفل.. على وجهه ابتسامة شيطانية مروعة.. أنا متأكد من ذلك.. كان يضحك في تشف وارتياح..

رفعت:

ليس كل الناس ملائكة.. هناك أشرار يتشفون في الآخرين لكن هذا لا يعني أنهم قتلة..

الرجل:

ربما.. على كل حال قد اعتقدت ما اعتقدته أنت، وقضيت أيامًا سوداء في الإدارة أبرهن على أن المدرسة مأمونة، وأن الفتى لم يمت نتيجة إهمال.. الآباء لا يبعثون أبناءهم للموت في المدارس.. على كل حال أجريت تحقيقاتي الخاصّة وتأكدت من أن (هاني) لم يدفع صديقه.. هذا ما قاله الزملاء..

رفعت:

ولم تصدق حرفًا..

الرجل:

إلى حد ما.. نعم.. وظللت أشك في الأمر إلى أن جاءت ليلة مظلمة عاصفة من شهر أبريل.. لاحظ الخفير أن أضواء المختبر مضاءة.. هكذا صعد ليغلقها.. فعل ذلك وعاد ليستقر في غرفته

مدثرًا بالبطاطين.. لا أعتقد أننا في سيبيريا، لكن النوة كانت عنيفة جدًّا وقد راحت البناية كلها تهتز من الرعد والريح، هكذا جلست في فراشي ورحت أشرب الحلبة الساخنة.. هنا لاحظت أن ضوءًا غريبًا يدخل من أسفل الباب.. أنا أغلقت كل الأنوار.. من أين جاء هذا الضوء؟

فتحت الباب فوجدت أن الردهة كلها مضاءة.. لابد أن الخفير هو من فعل هذا.. في اللحظة التالية دوّت صرخة مريعة ولمحت جسدًا يهوي من حالق في بئر السلم.. يمرّ بي ثم يهوي.. لكن فترة عشر الثانية كانت كافية كي أعرف أنه هاني..

هرعت للطابق السفلي وناديت الخفير.. كان الفتى في ذات موضع هلاك صاحبه، وفي ذات الوضع.. فقط كان شعره معجونًا بالدم والماء وثيابه كلها مبللة..

من أتي به هنا؟.. لماذا جاء ليلًا؟.. كيف سقط؟

أهل الفتى قالوا إنّه خرج من البيت ركضًا تحت العاصفة ولا أحد يعرف لماذا فعل ذلك.. رجال الشرطة رأوا أن ضميره عذبه فقرر أن ينهي حياته بنفس طريقة وفاة صاحبه.. هذا الانتحار اعتراف كامل إذن.. طلبة المدرسة كلهم آمنوا أن أمجد عاد لينتقم وهو قد استدرج صاحبه إلى ذات المكان ليلًا..

رفعت:

أعتقد أن النظريتين مغريتان..

الرجل:

على كل حال آذاني هذا بشدة، ولا شك أن معدلات الالتحاق بالمدرسة في العام القادم سوف تتأثر كثيرًا..

رفعت:

أعتقد أن المشكلة انتهت عند هذا الحد..

الرجل:

لا.. لقد بدأت إجازة الصيف وبدأت أعيش وحدي.. تكررت ظاهرة الأضواء التي تشعل نفسها مرارًا.. ثم جاء اليوم الذي.. حدث هذا منذ ثلاثة أيام..

رفعت:

ماذا؟.. هل مات الخفير؟

الرجل:

نعم.. (بركات) قد مات.. كان قد قضى النهار يعمل في الطابق السفلي، قائمًا بلصق بعض البلاط المهشم من أثر سقطة الولدين.. إنه يقوم بهذه الأعمال من حين لآخر مقابل مال، ثم ترك حاجيات العمل من (غلق) وبقايا أسمنت وبلاط متبق عندما سمعت الصرخة رأيت أن جسده قد هوى في ذات الموضع ومن على نفس الارتفاع.. سقط وسط الأسمنت والبلاط المهشم.. هل عندك سبب لانتحار خفير مسن رب أسرة وقد قام بالحج منذ عام؟

رفعت:

لا.. حادث أو قتل.. لا يوجد تفسير آخر..

الرجل:

أعترف أنني تشاجرت معه.. أثرت غضبه بحق، وهددته بالطرد.. هذه أشياء لا تقال، لكنّها حدثت.. لا أعتقد أنه يمكن أن ينتحر لهذا.. لطالما تكرر هذا الموقف..

رفعت:

بيني وبينك.. أنا الآن أعتقد أنه لا توجد أشباح.. هناك طاقة نفسية شريرة كاسحة في المدرسة ذاتها.. لو فسرت الأشباح موت الصبيين فلا يمكن أن تفسر موت الرجل.. هذا يدل على أن شبح أمجد بريء!

الرجل:

طاقة نفسية؟.. وما مصدرها؟

رفعت:

في العادة تكتشف أنّ هذه المدرسة أقيمت على بقايا مقبرة.. ربما كانت أرضك هذه مقبرة منذ مائتي عام.. اللعنات من هذا الطراز تنبعث عندما ترتوي أرض المقبرة بالدم.. لقد نزف (أمجد) هناك أول مرة، وهكذا بدأ كل شيء..

الرجل (في قلق):

إحم.. ولماذا هاني؟.. ولماذا الخفير؟

رفعت:

أعتقد أن (هاني) كان يعاني عقدة ذنب هائلة.. لا أعرف إن كان تعمد الحادث أم لا، لكنه كان يتعذب.. وقد شعر الشيء الذي يخيم على المدرسة بهذا.. شعر بهشاشته النفسية وقرر أن يستدرجه في الليل أثناء العاصفة.. أما الخفير فأمره سهل..

الرجل:

ماذا تعني؟

رفعت:

لقد كان يقوم بترميم البلاط.. (أمجد) سقط في ذات الموضع وتسرب دمه عبر الشقوق.. معنى هذا أن البلاط غير محكم.. الأرضية تقود لشيءٍ ما، والكيان الذي يسيطر على المدرسة أو المدرسة نفسها لا يريدان اكتشاف هذا الشيء.. يمكن تخيل أن الخفير كان منهمكًا في العمل.. فجأة فقد صوابه.. ترك ما يقوم به وركض إلى الطابق الثالث ووثب..

الرجل:

هذا مقلق.. وماذا تعتقد أنه موجود تحت الأرض في البهو؟

رفعت:

لو أعرف لقلت لك.. أعتقد أن عليك أن تقوم بالاستكشاف صباحًا مع بعض العمال..

الرجل:

هل تريد رأيي؟..

رفعت:

لا.. لا أريد رأيك..

الرجل:

أنا مرب فاضل.. لن أجبن أمام خرافات العجائز هذه، وسأقدم القدوة للأجيال القادمة.. سوف أنزل وأرى ما هنالك بنفسي لقد أزال (بركات) - يرحمه الله - الكثير من البلاط فعلًا، فلن أحتاج إلا إلى بعض ضربات بالعتلة..

رفعت:

سيدي.. هذه بطولة لا داعي لها.. فكر في سنك ومركزك يستطيع رجلان أن يتما هذه المهمة في دقائق صباح الغد..

الرجل:

لا.. هذه مدرستي.. هذا بيتي.. سوف أنزل الآن ومعي الكشاف وأعرف سر هذه اللعنة، وأقول لك إنني لن أجد شيئًا..

شريف:

فعلًا يا سيدي هذا حماس لا داعي له.. دعك من أن الظلام دامس.. لو هويت وحطمت رقبتك فلن نعرف إن كان هذا بسبب المدرسة أم بسبب..

الرجل:

سوف أفعل.. وبعدها سوف أتصل بكما.. سلام..

(يضع السماعة)

رفعت:

هذا رجل شجاع آخر.. أعرف هذا النمط متصلب الشرايين الذي يؤمن أن الفتية أوغاد وأن الأفلام تعجّ بعمات (راقية إبراهيم).. إنّه لا يغير رأيه أبدًا.. لكننا لن نعرف ما حدث له لأن وقت البرنامج انتهى..

شريف:

ربما يتصل الأسبوع القادم..

رفعت:

لا أظن.. كل هذا التوتر والذعر والأدرينالين.. لو أنّ فارًا وثب على قدمه لمات.. أعتقد أن أسباب وفاته أكثر من أسباب نجاته.. ولو مات فلن نعرف لأن احتمال النوبة القلبيّة وارد.. رجل مسن وحيد في مدرسة مظلمة واسعة مات فيها ثلاثة ليست هذه هي الطريقة المثلى لقضاء أمسية صيفيّة..

شريف:

وكيف نعرف ما وجده؟

رفعت:

على الأرجح لن نعرف إلا لو اتصل بنا مرّة أخرى.. قلت لك إنّه لا إجابات.. هناك الكثير من الرعب والتوجس والحيرة.. لا تنكر هذا.. ماذا سيجده في الحفرة؟.. هذا سؤال يتسع لكل شيء.. كل شيء!

الحلقة الرابعة

نوبتجيـــة

يحكيها د. (مـراد)

لا تقل لي إنك مذعور.. لا تكن كالذي يرسم الوحـش ثم يموت خوفًا من الصورة.. أو الذي يلبس قناعًـا مرعبًا ثم يملأ الدنيا صراخًا عندما يرى وجهه في المرآة..

شريف:

ها نحن أولاء مع حلقة جديدة من (بعد منتصف الليل).. في الأسبوع الماضي استمعنا إلى السيدة التي وجدت رقعة فراء غريبة على ساقها.. الأشخاص العاديون سوف ينصحونها برؤية طبيب تجميل.. د. (رفعت إسماعيل) رأى أنّ هذه علامات التحول إلى الجانجريل Gangrel.. وهو موديل من موديلات مصاصي الدماء.. هذه أمور مسلية كما تلاحظون على كل حال نحن بانتظار حكاياتكم التي هي الوقود لآلة الرعب فلا تتوقف أبدًا..

رفعت:

تصور أنك أوصلتني بتكرار هذه العبارة إلى حالة من الاستسلام المطلَق فالاستمتاع.. ثمّة قصة يحكيها (مارك توين) عندما حكى للمجتمعين في قاعة من قاعات مدينته قصة سخيفة مملة.. عندما لم يضحك أحد حكى القصة ثانية والعرق يتفصد منه.. بدأت الضحكات ترتفع.. حكاها مرة ثالثة فانفجر الجميع يضحكون..!.. الإصرار على الملل يصير جذّابًا مع الوقت..

شريف:

لا أعتقد أنني مصر على الملل، فقط هي ديباجة احترافية لابد أن تقال لأنهّا علامة على البرنامج... هذه هي خصائص العمل الإعلامي..

رفعت:

وأنا لا أفهم الإعلام لذا لابد أن أصمت.. بيني وبينك صار موضوع التخصص يجعلنا عاجزين عن إبداء الرأي في أي شيء.. ترى لوحة فتشعر أن من رسمها فأر سقط في دلو طلاء، لكنك تفتح فمك فيقولون لك إن عليك أن تخرس لأنك غير دارس أكاديميًا.. تقرأ قصيدة تحكي عن الذبابة التي سقطت في طبق عسل، مما أدى إلى أن تصاب السلحفاة بسرطان المستقيم.. توشك على أن تقول إن هذا كلام فارغ فيقولون لك إنك غير مؤهل لتحليل النص.. الآن أتهمك بالتكرار فتقول إنني لست إعلاميًا..

شريف (في غيظ مكتوم):

المستمعون قد اعتادوا د. رفعت على كل حال، لهذا لن نعلق..

رفعت:

على كل حال نحن بانتظار وقودك هذا..

شريف:

نعم. نعم..

(رنين الهاتف)

آلو.. برنامج (بعد منتصف الليل).. تفضل..

صوت شاب:

مساء الخير.. أنا د. (مراد).. هذا ليس اسمي الحقيقي على فكرة.. هل د. رفعت هنا؟

رفعت:

بالتأكيد.. أتمنى أن أتلقى مكالمة واحدة من دون هذا السؤال هل سبق أن اتصل بي أحد وكنت في الحمام؟

مراد:

لا شيء.. هو مجرد تصرف تلقائي.. غريزي.. أنا طبيب مقيم في مستشفى (....) وأنا ساهر الآن في العيادة الخارجية لأنني نوبتجي.. لكن الجو هادئ فقررت أن أتصل بك..

رفعت:

أرجو ألا تكون التسلية هي السبب الوحيد..

مراد:

لا. هناك قصة تحتاج إلى رأيك.. على كل حال الجو هادئ تمامًا.. الممرضات نائمات في مكان ما، وهذا يعني أن عليّ أن أعمل وحدي لأن البحث عنهن يعني أن أدخل حجرة مظلمة، فأكتشف أنهن نائمات فيها ويملأن الدنيا صراخًا.. عندما تنام الممرضات فمن الأفضل أن تعتبر نفسك وحيدًا وتتصرف على هذا الأساس..

رفعت:

مفهوم.. مفهوم.. أنت الآن وحيد تمسك بالهاتف وتتسلى هل يمكن أن تبدأ السرد؟

مراد:

نحن هنا مجموعة من الأطباء المقيمين الشباب.. بيننا من هو يقظ الضمير يعرف واجبه حقًّا..

رفعت (نافد الصبر):

مثلك طبعًا..

مراد:

نعم.. وبيننا من هو مستهتر قاس.. د. (جودت) كان من هذا الطراز.. إنِّه وسيم لكنّها وسامة الشيطان.. ملامح قاسية باردة تدلّ على أنه يستمتع بآلام الآخرين.. ثري جدًّا ولا يحتاج لهذه المهنة؛ لذا هو يمقتها ويشمئز من المرضى المجانين..

رفعت:

أحيانا يدفعك الثراء للعناية بالطب أكثر.. (هالستد Halsted) الجراح العظيم كان ثريًا متأنقًا لدرجة أنه كان يكوي قمصانه في الخارج!.. وكان يؤمن أن الطبيب يجب أن يكون ثريًا من الأصل حتى لا يشغل وقته في الجري وراء المال.

مراد:

الآراء تختلف.. هناك من يرى أن الفقر يولد الرحمة في النفس. ما علينا.. لم يكن (جودت) شريرًا لأنّه ثري.. كان شريرًا لأنّه شرير.. وغد في كل شيء.. مع الفتيات هو وغد يتسلى.. فكم من فتاة حطم قلبها.. مع المرضى هو وغد يستمتع بسماع أنينهم ودعواتهم عليه..

لم يكن يتواجد في أية نوبتجية.. الأطباء الذين يهربون من النوبتجيات عندنا يفعلون هذا بداعي الفقر.. يحاولون جمع بعض المال في ذات الوقت.. لكنه كان يفر من النوبتجية ليقابل فتاة ما يخدعها طبعًا.. فإذا سألت عنه قالت الممرضات بارتباك إنِّه (في بنك الدم).. طيلة حياته في بنك الدم كأنه موظف هناك، والغريب أن الأحمق غير مبتكر.. حيلة بنك الدم هذه نسمعها منذ كنا في المهد وهو عاجز عن ابتكار عذر آخر..

ثم جاءت القصة إياها..

شريف:

جميل..

مراد:

لم أرها لكني سمعت القصة من المرضى والممرضات اللاتي شعرن بأن الصمت خطير هذه المرّة.. هذه المرأة التعسة تدعى (نجاة أبو مندور).. هذا هو الاسم الحقيقي الوحيد في هذه القصة، والسبب هو أني أريد أن يبقى اسمها إدانة دائمة للغباء والانحطاط والظلم البشري.. هي نموذج الفلاحة القادمة من أحراش الريف لتضيع في أحراش المدينة، يبدو أنها من الطراز الذي جاء العالم كي يتعذب ويهمل ويموت لقد طلقها زوجها وتخلى عنها أولادها وهي تعاني منذ عشر سنوات للحصول على معاش، ثم أصيبت بسرطان الدم وجاءت تطلب العلاج فأوقعها حظها الأسود في نوبتجية الدكتور (جودت) لتكتمل المأساة الإغريقية.. لم أر ما حدث لكني أتصوره.. لابد أنه كان يداعب شاربه الرفيع الأنيق.. ربما كان يُلقي بكلمات غزل على ممرضة ما.. لابد أنه لاحظ شحوب المرأة فطلب من الممرضة أن تنقل لها وحدة من الدم، ثم انصرف ليلبي أحد المواعيد

الغامضة التي لا يعرف إلا الله كنهها والتي تتم دومًا في المقطم.. بما أنه ذو اهتمامات شديدة بعلم الجيولوجيا وإما إنّه ما علينا..

لحظة يا حاجة.. أرجو أن تجلسي إلى أن أنهي هذه المكالمة. معذرة يا دكتور رفعت لكن هناك مريضة دخلت الاستقبال عندي الآن.. بالطبع وحدها بلا ممرضة ولا مرافق...

رفعت:

يمكنك أن تفحصها وتتصل بنا ثانية.. لا نريد أن نعطلك عن مريض بينما أنت ما زلت تتكلم عن انعدام ضمير صاحبك..

مراد:

لو قطعت المكالمة لفشلت في طلبكم ثانية.. على كل حال لا يبدو أنها في خطر داهم.. ثلاث دقائق فقط أحكي فيها قصتي..

أين كنا؟.. آه..

أعرف أن (نجاة) تمددت في الفراش لاهثة مستسلمة كأنما تعرف أنها تتلقى آخر شكة إبرة في حياتها.. لابد أن الممرضة قامت بتثبيت قناة وريدية غليظة في ذراع المريضة، ونجاة تتلقى الألم الحارق في ذراعها شاكرة.. فعلى الأقل لم يجلدوها بالسياط كما كانت تتوقع، وقد كانت هذه المرأة تعتبر أن المعاملة الممتازة هي ألا تُضرب بالأحذية أو تُجلد بالسياط.. علمتها الحياة ذلك.. كيس الدم الأحمر علق هناك جوار الفراش وبدأ سائل الحياة يتسرب إلى عروقها.. أعرف أن الممرضة انصرفت لتناول العشاء، وأن العنبر كان خاليًا إلا من مريضة غيبوبة لا تفقه شيئًا.. لابد أن (نجاة) حركت ذراعها ففكت الخرطوم البلاستيكي.. هكذا بدأ النزف من جهتين: الدم يسيل من الخرطوم المتدلي، ويسيل من القناة الوريدية المثبت في ذراع المريضة..

لابد أن المأساة استغرقت نصف ساعة.. لقد فرغت الممرضة من العشاء وعادت للعنبر لتجد بركة دم وقد فرغ الكيسان: الكيس البلاستيكي والكيس الحي.. وبالطبع كانت (نجاة) قد أسلمت الروح ففقر دمها لم يكن ليتحمل مزيدًا من النزف.. كانت قد فهمت ما يحدث وتلوت كثيرًا جدًّا وهي تحاول النهوض من الفراش.. تحاول انتزاع القناة الوريدية من ذراعها.. لابد أنها تألمت لأنّهم قالوا إن علامات الرعب والذعر ارتسمت على وجهها..

رفعت:

هذه كارثة.. تتكرر كثيرًا لكن هناك من ينقذ الموقف دومًا..

مراد:

لم يكن هذا الـ (من) موجودًا هنا.. أعرف أن تحقيقًا جرى، وأن (جودت) خرج من الموضوع كالشعرة من العجين.. الوغد المحظوظ.. في كلّ مرّة يخرج كالشعرة من العجين برغم أنه المسئول

الأول عما حدث.. أعرف أنه اتهم الممرضة بكل شيء وأن بيتها خرب على الأرجح.. أعرف أنه أحضر أوراقًا من كل جهة تثبت أنه كان في المستشفى وقت وفاتها.. أعرف أن خاله ذا النفوذ قابل مدير المستشفى وأمضيا ساعة ما بعدها خرج المدير راضيًا وهو يدسّ كارتًا في جيبه، ويبدو أن (جودت) تلقى عقابًا من طراز (إخص عليك) أو العقاب الأشد صرامة (أنا زعلان منك).. أعرف أن الموضوع انتهى وأن دم المرأة راح هدرًا.. أضاعه زوجها وأضاعه أولادها وأضاعه طبيبها..

هكذا اجتمعت مع صديقي المخلص د. (فوزي) ورحنا ننسج الخطط معًا.. سوف ننتقم.. لن يكون انتقامًا مريعًا لكنه ممتع برغم هذا..

اتفقنا مع عددٍ من الأطباء والممرضات على هذه الدعابة بدأ كل شيء عندما استقبلت الممرضات (جودت) قائلات إن واحدة من قريباته جاءت بعد منتصف الليل تسأل عنه وقالت إنها ستعود.. سألهن جودت عن اسمها فقلن بصوت واحد: (نجاة أبو مندور).. احتبس صوته في حلقه وسأل متحشرجًا كيف تبدو، فقلن إنها في العقد الخامس شاحبة جدًّا فقيرة جدًّا..

اعتبرها صدفة، لكنه شعر بقلق لا شك فيه.. وفي اليوم التالي قابل دكتور (فوزي) فإذا به يسأله عما إذا كانت له قريبة تدعى (نجاة) ولم يتذكر باقي الاسم لأنهّا ظلت تنتظره طويلًا ثم انصرفت على وعد أن تعود ليلًا.. قال له إنها غلبانة جدًّا وانه أعطاها بعض المال..

وعند العصر نزل من مسكن الأطباء فقابل زميلتنا (هند) التي أخبرته في براءة أن من تدعى (نجاة أبو مندور) كانت تنتظره امرأة فقيرة جدًّا شاحبة جدًّا في العقد الخامس من عمرها.. ثم سألته: مم تشكو هذه المرأة؟.. فلتقطع ذراعي إن لم تكن مصابة بسرطان دم.. لكن لا تقلق.. سوف تعود هذا المساء لأنهّا تريدك في أمر مهم..!

وهكذا أمضى ليلته خارج المستشفى، وحين عاد في الصباح كان منتفخ العينين أحمرهما منكوش الشعر يشبه العاشق الفاشل في الأفلام المصرية.. فقط لتقول له ممرضات الصباح وهن منهمكات في العمل إن امرأة تدعى (نجاة) ظلت تنتظره طيلة الليل على هذا المقعد، وفي الصباح انصرفت وقالت إنها ستعود حتمًا..

رفعت (ضاحكًا):

يا له من مقلب... برغم قسوته هو رائع.. ثمّة الكثير من العدالة الشعرية هنا..

مراد:

بعد أسبوع من هذه المواعيد الغامضة، دخل (جودت) في نوع من الانهيار العصبي.. صار متوترًا قلقًا يكفي أن تضع يدك على كتفه ليثب في الهواء مترًا.. ثم طلب إجازة من المدير لأن أعصابه لم تعد تتحمل العمل..

رفعت:

إذن هو في إجازة الآن..

مراد:

نعم.. لكن.. ما زالت تلك المريضة تأتي!.. صدق أو لا تصدق.. ما زالت بعض الممرضات ممن لا يعرفن القصة يقلن لي في الصباح مثلًا أنها جاءت وسألت عن د. (جودت)!

رفعت:

لا شيء في هذا.. إنها الدعابة حين تتراكب على دعابة.. اللاتي يعرفن السر قررن أن يشركن فيه من لا يعرفن.. من الصعب أن تقابل الشخص الكتوم في الشعب المصري..

مراد:

هناك أسباب لتوتري.. لحظة.. لا تقلقي يا حاجة.. سوف أنهى المكالمة حالًا.. هل أعطوك تذكرة؟.. جميل.. أرجو أن تنتظري قليلًا..

أنا قلق لسبب مهم يا د. رفعت.. هذه النوبتجية التي ماتت فيها المرأة هي نوبتجيتي أصلًا.. كانت هناك ظروف قهرية جعلتني أستبدل العمل مع (جودت).. كل شيء رسمي ومدون على الأوراق.. تقول إن هذه جريمة؟.. ربما هي كذلك من الناحية الأدبية لكنّها ليست كذلك رسميًا.. أعرف أنه من أكثر الأفعال حمقًا أن تترك النوبتجية لمستهتر مثل (جودت).. ربما كان من الأفضل أن تتركها بلا بديل على الإطلاق ولعل نتائج ذلك تكون أفضل!.. لكن من الناحية الإدارية لا مسئولية على الإطلاق..

فقط أخبرك بهذا لتفهم أن (جودت) لم يكن المخطئ الوحيد هنا.. هل فهمت ما أريد قوله؟.. أنا أيضًا لست نقي الضمير إلى هذا الحد..

رفعت:

لكن لا تقل لي إنك مذعور.. لا تكن كالذي يرسم الوحش ثم يموت خوفًا من الصورة.. أو الذي يلبس قناعًا مرعبًا ثم يملأ الدنيا صراخًا عندما يرى وجهه في المرآة..

مراد:

نعم.. نعم.. أفهم كلامك لكني قلق.. أشعر بأنني سأدفع الثمن بدوري.. كلامك يريحني من دون شك.. وعلى كل حال أنا مضطر لأن أتركك لأن هذه المريضة نافدة الصبر معذرة يا حاجة.. أعرف أنني تركتك وقتًا طويلًا لكن الموضوع مهم كما سمعت قلت لي ما اسمك يا حاجة؟.. لا أسمع؟.. (نجاة)؟.. (نجاة أبو مندور)؟.. لا أعرف لماذا أشعر أنني سمعت هذا الاسم من قبل سلام يا دكتور رفعت.. شكرًا لوقتك..

(يضع السماعة)

شريف:

مكالمة غريبة.. لا توجد مشكلة ما ورائية من أي نوع.. كأنه فقط كان يريد (الفضفضة)..

رفعت:

نعم.. نعم.. (في شرود).. هل سمعت اسم المريضة؟

شريف:

أية مريضة؟

رفعت:

تلك التي قطع مكالمته من أجلها.. يبدو اسمًا مألوفًا مشكلتي هي سرعة نسيان الأسماء..

شريف:

بصراحة لم أركز جيدًا.. لا عليك.. لقد انتهت هذه الحلقة وإننا لنعتذر للمستمعين على خلوها من أية قصة ما ورائية..

رفعت:

لا يمكن أن تتوقع قصة مخيفة في كل حلقة على كل حال. ربما يكون حظ الحلقة القادمة أوفر..

الحلقة الخامسة

على الإيقـــاع

تحكيها (فيفي الشوربجي)

بدأت أسمع الأغنية مرارًا، ثم صار الأمر يعذبني.. أصحو من النوم لأراه راقدًا على ظهره في ضوء الغرفة الخافت القادم أكثره من النافذة.. عيناه لا تنغلقان جيدًا أثناء النوم لذا تبدوان مفتوحتين لونهما أبيض مخيف.. أبيض شبه مضئ بسبب انعكاس النور.. ثم يصر على أسنانه كعادة العصبيين أثناء نومهم.. الصرير يحدث إيقاعًا يقول: (الموت.. الموت).. هكذا.. كيف تتوقع مني أن أنام؟..

شريف:

هذه حلقة جديدة من برنامج (بعد منتصف الليل) مضيفكم هو (شريف السعدني) ومعه ضيف البرنامج الدائم د. (رفعت إسماعيل).. نحن بانتظار مكالماتكم التي ستكون وقود آلة الرعب.. هذا البرنامج ليس الغرض منه إيجاد الحلول، قدر ما هو أن نجد الخيال..

د. (رفعت).. هناك عدد كبير من الشكاوى التي وصلت إلى الإذاعة تقول إن الأطفال يخافون كثيرًا لدى سماع البرنامج.. هناك من يرفضون النوم ومن يصابون بحالات تبول لا إرادي.. ما رأيك؟

رفعت:

أعترف أنّ هناك حلقات مفزعة مثل حلقة الرجل الذي تدب الحياة في فراشه ليلًا.. لكن من قال إن هذه الحلقات للأطفال؟.. لماذا قررنا أن نجعلها في الواحدة بعد منتصف الليل؟. كنا نأمل أن يكون الآباء ما زالوا يملكون بعض السيطرة على أطفالهم ويمكنهم إرغامهم على النوم في التاسعة.. لكن الحقيقة هي أن الأطفال صاروا كائنات مرعبة تتحدى الآباء وكل شيء.. هل يمكن أن تخيف الغول؟.. مستحيل.. إذن لا تقل لي إن أطفالك خافوا من هذه الحكايات.. بهذا المنطق يمكن للآباء أن يحتجوا على وجود مقابر لأن أطفالهم يحبون دخولها ليلًا ويصابون بالذعر..

شريف:

لا يبدو أنك تحمل مودة كبيرة للأطفال..

رفعت:

هذه هي المزية الوحيدة لعدم الزواج.. أنا أحب الأطفال في بداية العمر وهم أقرب لكائنات هشة ندية لعوب.. قطط صغيرة.. فإذا تحولوا إلى تلك الكائنات المرعبة ذات الأسنان الأماميّة الناقصة والميركيروكروم على الركب، فإنني أكرههم كالطاعون.. إنهم يمزقون كتبك ويبعثرون أوراقك ويكسرون أطباقك ويخدشون سيارتك ويقذفون الطوب على رأسك، فإذا حاولت الانتقام قال المجتمع: «إياك أن تلمس هؤلاء الملائكة الصغار أيها السادي المنحرف!».. إنهم يكذبون كالأبالسة، شرهون كالجراد ويتمتعون بسادية غير مسبوقة.. راقب ما يفعله أحدهم مع قط صغير ضعيف.. راقب ما يفعله إذا رأى حشرة غير مؤذية.. إنه يسحقها على سبيل الملل ولمجرد أنّ هذا بوسعه.. نعم.. لولا مركزي الاجتماعي لقمت بخنق أي طفل أراه..

شريف:

من حسن الحظ أنني لست طفلًا.. على كل حال سوف نستمع إلى أغنية للمطربة (فتكات حمدي) بانتظار المكالمة الأولى..

(رنين الجرس):

شريف:

يبدو أنه لا حظ لنا مع (فتكات حمدي) الليلة..

رفعت:

للأسف.. إنها مرعبة بما يكفي..

صوت امرأة:

مساء الخير..

رفعت:

صباح النور يا سيدتي.. إنِّه لخطأ جغرافي شائع على كل حال..

المرأة:

أنا (فيفي الشوربجي).. اسمي (فيفي) فعلًا وليس اسمًا مستعارًا أو تدليلًا.. زوجة وست بيت.. لا أعمل.. إن زوجي مهندس بترول ويسافر كثيرًا جدًّا، ونحن لم ننجب بعد.. لقد تأخرنا كثيرًا لكن الأطباء يقولون إن السبب هو أننا لم نتواجد معًا فترة كافية.. أنا في الثلاثين على فكرة.. وقد تخرجت في معهد الموسيقا العربيّة لكني لم أفعل شيئًا بما تعلمته هناك..

شريف:

مفهوم.. مفهوم المشكلة لو سمحت..

فيفي:

منذ طفولتي أسمع الإيقاعات خلف أي صوت متكرر وأجد أنني أربط بينها وأغنية ما.. مثلًا لا أركب سيارة إلا وأسمع المحرك يدندن لحن الفيشار الغربي الشهير الذي استعملناه في الأغنية العربيّة (طير وفرقع يا بو الشعر.. مثل حبة الفيشار)..

الحافلات تجعلني أسمع الإيقاع شبه الأسباني أغنية (جفنه علم الغزل).. صوت أجهزة التكييف يجعلني أستعيد مقدمة أغنية (سكن الليل) لفيروز.. ارتطام عربات القطار هو إيقاع أغنية (الملاحة) لشفيق جلال التي تحكي قصة (ريا وسكينة).. خطواتي وأنا أصعد الدرج تذكرني بإيقاعات (روك السجن) أغنية إلفيس بريسلي الشهيرة..

تدريجيًا أجد أنني أدندن هذا اللحن تلقائيًا مع صوت الإيقاع[3]..

رفعت:

هذا نوع من الوسواس القهري السمعي.. أعتقد أنه يدل على حاسة موسيقية لا بأس بها.. كل من يعرفون الموسيقار (عبد الوهاب) قالوا إنّه لا يكف عن الدندنة في سرّه، ويقر كالقطط طيلة الوقت..

فيفي:

لا أحسب عندي الموهبة على الإطلاق.. الأمر كما وصفته أنت: وسواس سمعي قهري..

شريف:

هل هناك مشكلة أخرى؟

فيفي:

لا أعتقد.. أظن أن د. رفعت قد أهداني التفسير الصحيح لما أعانيه.. شكرًا..

(تضع السماعة)

شريف:

كانت حلقة قصيرة جدًّا

رفعت:

والمشكلة سهلة إلى حد لا يصدّق..! أشعر بأنني عبقري..

شريف:

يبدو أنّ علينا أن ننتظر مكالمة أخرى..

(رنين الجرس):

صوت رجل:

مساء الخير.. برنامج (بعد منتصف الليل)؟

رفعت:

نعم يا سيدي.. هل لنا أن نتعرف؟

الرجل:

أنا مهندس (محمود الشوربجي).. زوج السيدة التي اتصلت منذ لحظات..

رفعت:

آه.. إذن أنتم تستعملون الطريقة الغربية في إطلاق اسم أسرة الزوج على الزوجة.. عندما كنت طفلًا كنت أعتبر أن الغربيين يتزوجون أخواتهم!

الرجل:

أنا أتكلم من السويس. لقد سمعت المحادثة على البرنامج وأردت أن أتصل لأوضح الأمور.. زوجتي جنت أو كادت، وهذا الداء الذي أصابها جعلها تعتقد أن كل شيء في العالم يغني.. نحن موشكان على الطلاق لأنهّا لم تعد تفعل أي شيء سوى الإنصات لإيقاع الأشياء.. كنت أنام في الفراش فأصحو فجأة لأسمعها تدندن متابعة صوت شخيري أو دقات الساعة.. هذه حياة لا تطاق..

لو كان على امرئ أن يجد حلًا فهو أنا وليس هي..

رفعت:

ألم تفكر في طلب رأي طبيب نفسي؟

الرجل:

بالطبع نعم.. لم أطلب.. الطبقة الوسطى تعتبر العلاج النفسي اعترافًا بالجنون.. هي تأبى ذلك بقوّة وعنف.. هي لم تترك لي حلًا سوى الطلاق..

رفعت:

هل للأمر علاقة بعدم الإنجاب؟

الرجل:

ربما.. لكن الفحوص الطبية تقول إننا سليمان.. على كل حال لا توجد مشكلة في زوجة تدندن ليلًا.. لكن هناك مشكلة في زوجة تحتفظ بخنجر تحت الوسادة أثناء النوم.. لقد صحت مذعورة ذات ليلة وألقت بالوسادة على الأرض ففوجئت بأن خنجرًا سقط لينغرس في الأرض الخشبية.. خنجر طويل له مقبض مزخرف.. وهالتني حقيقة أنني أنام جوار زوجة مسلحة بخنجر طيلة الليل.. في رأيك من الذي أعدت له الخنجر؟.. من الشخص الوحيد الموجود معها؟

رفعت:

البعض تسيطر عليه فكرة تسلل لص للدار.. البعض يحتفظ بسلاح يرهب به الموت لو جاءه ليلًا.. هكذا كان يفعل لورد بيرون الشاعر البريطاني غريب الأطوار.. كان يحتفظ تحت الوسادة بمسدس محشو ليس لقتل اللصوص طبعًا!

الرجل:

أنت قلتها.. شاعر غريب الأطوار.. من يفعلون هذا مجانين وليس من السهل أن تلتمس لهم العذر..

رفعت:

المهم.. ماذا قالت لي عندما اكتشفت هذا؟

الرجل:

لم تقل أي شيء.. فضلت الصمت برغم صراخي في وجهها وبرغم أنني كدت أفتك بها فعلًا.. إن عملي هنا في السويس رحمة.. يمنحني مزايا الطلاق بلا طلاق.. لقد قللت من إجازاتي جدًّا على فكرة.. لم أعد أرى القاهرة إلا لمامًا..

رفعت:

على كل حال نحن ما زلنا نتحرك في جمهورية المرض النفسي.. لم ندخل بعد إلى مملكة الميتافيزيقا.. إذن ليس هذا ضمن اختصاص البرنامج..

الرجل:

هي اتصلت بكم.. لذا اتصلت بكم.. هذا هو السبب.. على كل حال سوف أعود إلى القاهرة وأطلقها.. لم يعد هناك حل آخر.. لقد فضحتني بالاسم على الهواء.. لا شك أن كل إنسان يعرف مشكلتنا الآن.. سلام..

(يضع السماعة)

رفعت:

لو سمحت لنفسي بأن أعلق، لقلت إنِّه هو الذي قال كل شيء.. هي لم تتكلم سوى عن سماع الإيقاعات بينما حكى هو كل دقائق حياتهما..

شريف:

مهما كان الأمر فمشكلتهما ليس مكانها هنا.. لقد أخطأ كلاهما طلب رقم برنامج (رسالة)..

(جرس الهاتف):

شريف:

آلو.. برنامج (بعد منتصف الليل)..

فيفي:

أنا من اتصلت منذ دقائق.. (فيفي الشوربجي).. التي تسمع الإيقاعات..

شريف:

آه!.. بأية معجزة تمكنت من الوصول لنا ثانية؟

فيفي:

سمعت هذه المكالمة العجيبة من زوجي.. يجب أن أرد..

شريف:

سيدتي.. لسنا في محكمة أحوال شخصيّة هنا.. لا نريد أن نضيع وقت البرنامج في كلمة منك وكلمة منه..

فيفي:

كلا.. الحقيقة أنني كنت على وشك استكمال قصتي وجبنت في المكالمة الأولى، لكني لا أرى ما يمنع بعد ما قاله على الهواء..

شريف:

إن كان هناك جديد فنحن مستعدون للإصغاء..

فيفي:

حسن.. إنني.. **(صوت ضوضاء من بعيد)**.. الجيران يدقون شيئًا في شقتهم في هذه الساعة المتأخرة.. صوت الضوضاء هو بالضبط إيقاع أغنية (كعب الغزال) لمحمد رشدي..

ما علينا.. في البدء لاحظت صوت التنفس لزوجي أكثر من مرة، ثم لاحظت صوت شخيره.. إنّه نفس إيقاع أغنية تقول (حاخد روحك.. حاخد روحك)..

رفعت:

على قدر علمي لا توجد أغنية بهذا الاسم.. لو كان هناك من غناها فهو مجنون..

فيفي:

لا توجد.. لكنني أسمعها موقعة كاملة التلحين.. فقط شخيره يمنحها الإيقاع اللازم..

بدأت أسمع هذه الأغنية مرارًا، ثم صار الأمر يعذبني.. أصحو من النوم لأراه راقدًا على ظهره في ضوء الغرفة الخافت القادم أكثره من النافذة.. عيناه لا تنغلقان جيدًا أثناء النوم لذا تبدوان مفتوحتين لونهما أبيض مخيف.. أبيض شبه مضيء بسبب انعكاس النور.. ثم يصر على أسنانه كعادة العصبيين أثناء نومهم.. الصرير يحدث إيقاعًا يقول: (الموت.. الموت).. هكذا.. كيف تتوقع مني أن أنام؟.. إنني أوشك على الانهيار العصبي عندما يكون في البيت..

لسبب يتعلق بالشعور بالأمان ابتعت هذا الخنجر وأخفيته عنه.. فقط عندما يكون تحت الوسادة وأقبض بيدي عليه أشعر بأنني قادرة على النوم..

رفعت:

لكنك تعرفين أنّ هذا كله وهم؟

فيفي:

أعرف أنه على الأرجح وهم..

رفعت:

جميل... الفارق الشهير بين الوساوس والضلالات الذي نجده في أي كتاب للطب النفسي.. الوساوس يقاتل المريض كي يتخلص منها، بينما الضلالات يقاتل المريض كي يحتفظ بها.. الأولى تعبر عن اضطراب نفسي.. الثانية تعبر عن جنون مطبق إذن أنت ما زلت في مرحلة الاضطراب النفسي.. لم تعبري إلى الجانب الآخر بعد..!

فيفي:

على كل حال لا يهمني أن أعرف حالتي النفسية قدر ما يهمني أن أعرف حالة زوجي..

رفعت:

لا أفهم هذا الجزء..

فيفي:

منذ نعومة أظافره وزوجي شبه مخطوب لابنة عمته.. أنت تعرف كيف تبرم العائلات هذه الصفقات للأطفال في صغرهم.. (مي) ابنة عمته وهي.. هي..

رفعت:

نعم.. نعم.. حدأة ملطخة بالأصباغ لكنّها تفتن الرجال لأنّهم أطفال بلهاء يحبون الألوان الزاهية..

فيفي:

بالضبط.. أنت واسع الخبرة كما هو واضح.. طبعًا ظل هذا العهد قائمًا حتى تخرج في كلية الهندسة، وصار عريسًا مرموقًا.. راتبه مرتفع بالمناسبة وشكله يشبه ممثلي السينما. هنا قرر أن يتحرر من عهده وأن يقع في حب تلك الفتاة النحيلة خريجة معهد الموسيقا العربيّة..

رفعت:

وهو ما لم يرق للأسرتين طبعًا..

فيفي:

طبعًا.. لابد أنهم استمطروا عليّ الكثير من اللعنات.. وفي حفل الزفاف حضروا على مضض وأقسم أن عمته كانت دامعة العينين وهي تبارك لي.. حضرت (مي) الزفاف وكانت لها ابتسامة مسمومة كريهة.. بعدها لم تعد الحياة كما كانت.. هل تؤمن بالأعمال؟

رفعت:

أؤمن بالسحر.. نعم.. وأؤمن أنّ بعض الناس يمارسون هذه الأشياء، لكن هل ما يمارسونه فعال؟

فيفي:

على كل حال لابد من شخص يفسر لي سبب عدم إنجابي ولا ذلك الحاجز الغريب بيني وبين زوجي.. لقد صرنا على حافة الطلاق فعلًا بلا سبب من أي نوع.. أعتقد أن الطريق ممهد كي يتم الطلاق ويسقط هو كثمرة ناضجة في كف الآنسة (مي) هذه.. أ.. معذرة للخروج عن الموضوع لكن هل تسمع هذا الصوت الخفيض المنتظم؟.. له ذات إيقاع أغنية (بقرة حاحا).. هل تعرفها؟.. أغنية الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم..

شريف (في ارتباك):

فلنعد للموضوع يا فيفي من فضلك[4]..

فيفي:

من حين لآخر أفتح باب الشقة لأجد تلك العلبة الصغيرة المليئة بشيء قذر لا أدري ما هو.. أحيانًا هناك بقعة من الماء مسكوبة بطريقة ترغمني على أن أخطو فوقها عندما أغادر الدار زوجي قال لي في لحظة صفاء إن عمته من هذا الطراز وتؤمن بهذه الأمور.. إنها من طراز (أشتاتا أشتوت) إياه..

الأخطر أنني منذ أيام وجدت في غرفة نومي التي أكلمك منها الآن.. بل تحت وسادتي قطعة قماش ملفوفة على شيء ما.. تخلصت منها من دون أن أفتحها..

رفعت:

لا شيء يخيف في هذا.. غالبًا هي عظام موتى مع تراب من المقابر، وبعض التعاويذ مكتوبة بطريقة معينة.. هناك الكثير من سحر الأرقام كذلك..

فيفي:

حقًّا؟.. أنت تملؤني سرورًا واطمئنانًا.. تراب مقابر؟.. خشيت أن يكون الأمر مخيفًا... على كل حال كان زوجي في البيت وقتها وأعتقد بشدة أنه هو من وضع هذه اللفافة..

رفعت:

هذا مقلق.. ليس لأنني أعتقد أن ما يقمن به فعال، ولكن لأنّه من المخيف أن يعرف المرء أنّ هناك من يكرهه إلى هذا الحد.. إلى درجة الكفر.. نعم.. ما يقمن به كفر سواء كان فعالًا أم لا..

فيفي:

حتى عندما أكون وحدي أقضي الوقت شاعرة بذعر جهنمي من هذا الذي يحدث.. يدق قلبي بسرعة فأميز نغمة أغنية (اجري اجري) لعبد الوهاب.. ويطير النوم من عيني.. علي فكرة أنا أكلمك ولحن (بقرة حاحا) لا يفارق سمعي..

رفعت:

هل أنت مقيمة وحدك فعلًا؟

فيفي:

طيلة الليل.. نعم.. أحيانًا أسافر إلى الزقازيق حيث يقيم أهلي، لكني أعود هنا دائمًا لأن بيتنا ضيق ولا مكان لي فيه.. لكن هناك امرأة مسنة تدعى (أم عصام) تأتي لتساعدني في البيت وتخفف من وحدتي.. لكنّها تنصرف في التاسعة مساء اليوم بالذات انصرفت متعجلة حتى أنها لم تخبرني بانصرافها..

رفعت:

من الذي جاء بها لتعمل عندك؟...

فيفي:

زوجي طبعًا.. لم تسأل؟

رفعت:

ومن أين يأتي الرجل بامرأة عجوز تساعد في البيت إن لم يكن عن طريق أمّه؟

فيفي:

أمه توفاها الله بعد زواجنا مباشرة..

رفعت:

إذن.. عمته هي من قدمها له؟

فيفي:

ربما.. احتمال وارد..

رفعت:

ألم يخطر لك أنّ هذه العجوز هي من يضع تلك الأعمال السحرية على وسادتك؟.. يصعب عليّ أن أتصور زوجك المهندس المثقف يفعل هذا..

فيفي:

هل تعتقد هذا؟.. بصراحة لم يخطر لي ببال. إنها عجوز طيبة فعلًا..

رفعت:

احتمال وارد وقوي.. فخذي الحذر أو تخلصي منها.. إن لم تلعب دور القاتل فلسوف تلعب دور الجاسوس.. لا شك أن أخبارك كلها تتسرب إلى عمته الشمطاء..

شريف:

توخ الحذر يا دكتور.. نحن نتعامل مع أسماء حقيقيّة الآن..

فيفي:

لقد حكيت لك كل شيء.. أرجو أن تخبرني برأيك.. هل زوجي فعلًا تحت تأثير عمل سحري؟.. على فكرة لحن (بقرة حاحا) لا يفارق مسمعي.. هذا غريب..

رفعت:

بيني وبينك.. أنا سمعت تلك الأغنية من قبل.. إنها عمل عبقري لأحمد فؤاد نجم.. واللحن الذي.... (حاحا)؟.. متأكدة من ذلك؟.. ليست أغنية (أنا الميلامين جامد ومتين)؟

فيفي:

أنا لا أمزح.. هذا ما أسمعه.. سأصمت قليلًا وحاول أن تركز..

رفعت:

لا داعي.. من المستحيل أن يصل هذا الصوت الخافت عبر أسلاك الهاتف.. فقط أريد منك أن تنزلي بحذر من فوق الفراش.. بحذر شديد.. هاتي كشافًا وألقي نظرة تحت الفراش.. هلمّ!

شريف:

ما معنى هذا؟

رفعت:

اصبر قليلًا.. لم تختر من كل أغاني الكون إلا هذه الأغنية لماذا؟

فيفي:

د. رفعت..

رفعت:

ماذا؟

فيفي:

هل سمعت؟.. هناك.. هناك ثعبان ضخم تحت الفراش أعتقد أنه كوبرا!.. عندما رآني أصدر فحيحًا غاضبًا مروعًا..

(تبكي وتشهق)..

رفعت:

هذا ما توقعته.. إن أذنيك حساستان لدرجة لا تصدق.. الفحيح الخافت للكوبرا المصرية بدا قريبًا جدًّا في أذنيك من إيقاع (بقرة حاحا) التي يتردد فيها فحيح حرف الحاء في إلحاح مريب.. الآن سوف تضعين السماعة في هدوء، وتغلقين باب الحجرة وتطلبين الجيران أو الشرطة..

فيفي:

حاضر.. حاضر..

رفعت:

ولا تثقي أبدًا في أم (عصام) هذه..

فيفي:

نعم.. نعم.. هي من فعل هذا.. فهمت هذا الآن..

(تضع السماعة)

شريف:

ما معنى هذا؟

رفعت:

معناه أن تلك العجوز الطيبة التي أرسلتها العمّة قد دست كوبرا مصرية تحت فراش الزوجة البريئة.. لابد أنها أحضرتها في جوال وفتحته تحت الفراش ثم فرت.. عندما يسود الظلام والهدوء سوف يخرج الثعبان باحثًا عن الجسد الوحيد الدافئ في الحجرة كلها.. طريقة قتل غريبة لكنّها تناسب من امتلأ عقله بالأعمال السفلية وهذا الهراء، وبالطبع سوف تحضر العجوز رفاعيًا في الصباح الباكر ليتخلص من الثعبان.. هكذا لا تجد الشرطة ما يريب ولسوف يعتبرون الحادث نوبة قلبيّة في سن مبكرة أو شيئًا من هذا القبيل..

شريف:

هذا صعب التصديق..

رفعت:

سوف تصدق لو رأيت كوبرا تحت فراشك.. إن الزوجة ذات موهبة سمعية لا شك فيها، ولولا هذه الموهبة لهلكت لا أعرف إن كان الزوج يتكلم في نومه أم هي أوهام سمعية سببتها حالتها النفسية، لكن النتيجة واحدة..

شريف:

لعل الزوج يسمعنا في السويس الآن.. حان الوقت كي تعرف زوجتك حقًّا، والأهم أن تعرف عمتك حقًّا..

رفعت:

بل حان الوقت كي يعرف نفسه أولًا..

الحلقة السادسة

حكاية بيسة

تحكيها (بيسة)

لن أسمح لها بذلك.. أنا أخافها وأهابها.. تصور الفتاة الباردة الصموت التي تعاملك كأنك تمثال طيلة الوقت، وفجأة يشرق وجهها وتتأبط ذراعك وتقول: هيا بنا نتناول الغداء عندك اليوم.. مستحيل أن أقبل هذا ولا استسيغه.

شريف:

نحن ما زلنا بانتظار المكالمة الأولى لحلقة الليلة.. حتى يحين هذا الوقت يطيب لي أن أسأل الدكتور رفعت عن رأيه في موضوع الحلقة السابقة.. تلك الفتاة التي تشعر أنّ هناك كائنًا ما تحت فروة رأسها.. كلما أزاحت الخصلات وجدت جزءًا منه..

رفعت:

بصراحة.. نحن نقف عند البوابة السحرية بين عالم الخوارق والخبال الصريح.. من السهل أن تجتاز البوابة لتجد أننا نتحدث مع مجانين.. لن نتأخر كثيرًا حتى نقابل الرجل الذي تتحرر قدمه لتجول في البيت ليلًا..

شريف:

لكن هذا حدث فعلًا.. تلقينا مكالمة مماثلة.. هل نسيت؟

رفعت:

لابد من الترشيح.. لابد من ذلك (الفلتر) الذي وضعه الله في أذهاننا.. أنت تعرف مشايخ الطرق في مصر، وكيف أن كل واحد منهم يزعم مريدوه أنه يمشي على الماء ويلحق بمواعيده طيرانًا.. هل تعتبر هذه قدرات ميتافيزيقية أم هلاوس؟.. هناك ظواهر غريبة لا تفسير لها وما أكثرها.. قابلت من يقرأ الأفكار ومن يحرك عن بعد.. لكن حتى مع هذه الغرابة هناك منطق ما يجعلك تقبل القصة أو ترفضها..

شريف:

على كل حال، نحن بانتظار المكالمة الأولى.. سنرى إن كانت غريبة أم لا.. هل غرابتها من النوع القابل للابتلاع أم لا..

(رنين الهاتف)

شريف:

آلو.. هل لنا أن نتعرف؟

فتاة:

هل (تغريد) موجودة؟

شريف:

لا.. واضح أنها مكالمة خاطئة أخرى.. شكرًا..

الفتاة:

لا تتعجل بهذا الشكل.. يبدو لي صوتك ظريفًا.. هل لنا أن نتعارف؟...

شريف:

أنا لست (تغريد).. هذه معلومات كافية على ما أظن شكرًا.

الفتاة:

ومن قال إن هناك (تغريد) أصلًا؟.. أنا أشعر بفراغ في منزلي ولا أجد ما أعمله؛ لذا أطلب أي رقم.. هل تحب أن تعرفني.. إنني جميلة كأجمل أحلامك.. رقيقة كأرق خواطرك لطيفة كألطف دعابة سمعتها..

شريف:

نحن هنا على الهواء في برنامج (بعد منتصف الليل).. مهمتنا سماع القصص الخوارقية الغريبة.. القصص المرعبة أو التي لا تصدق.. أعتقد أنّ هذا الهدف يختلف عن تسلية الفتيات الوحيدات..

رفعت:

شيطان التسلية المعتاد.. عندما أسمع عن سفاح، أعتقد أحيانًا أنه كان يشعر بملل وأراد التسلية..

الفتاة:

أنتما اثنان إذن.. صوت صاحبك يشي بأنه ناضج كبير السن..

رفعت:

أنا كبير السن لكني غير ناضج.. أرجو أن تضعي السماعة يا آنسة.. نحن هنا نعمل فعلًا.. قد يبدو عملًا عجيبًا لكنه عمل نتقاضى عنه أجرًا..

الفتاة:

ليكن.. أنتما تريدان سماع قصص مخيفة؟.. سأحكي لكما عن (سوسو) زميلتي.. أنا أدعى (بيسة) على فكرة..

رفعت:

بيسة وسوسو.. طبعًا تتحدثين عن (سوسن) و(بثينة).. عندما تطلق الفتيات على أنفسهن هذه الأسماء تشعر بأنهن يبحثن عن المشاكل وأنهن متعبات فعلًا..

بيسة:

أنا طالبة في كلية ما.. هي طالبة في ذات الكلية.. كلانا التحق بالدراسة منذ ستة أشهر.. أي أننا مستجدتان..

لم تكن لنا علاقة ببعض.. هي طالبة شابة ملائكية نوعًا أو تبدو كذلك.. تحضر المحاضرات بانتظام وأميل إلى الصمت والتأمل.. لكن عينيها تتكلمان.. عيناها لا تكفان عن ملاحقة الناس ومتابعة كل شيء.. أمقت طراز الناس الذين لا يكفون عن اختلاس النظر إليك وأنت منهمك..

ثم لاحظنا ما هو أغرب.. إنها لا تكف عن تفحص حاجياتنا عندما تنسى دفترك على المكتب لدقائق تجدها تقلب فيه في فضول ونهم..

لما كانت الجامعة موقعًا أمنيًا مهمًا، فقد رجحت الطالبات أنها تعمل مع الأمن.. هذا دور شائع وغالبًا ما يجذب صاحبه الأنظار لنفسه لأنّه أحمق.. هكذا بدأن يخشينها ويتجنبنها، وعندما كان أحد زملائنا في الجامعة يوزّع مجلة طبعها هو تنتقد بعض المواقف الحكومية، نصحناه أن يخفيها عن (سوسو)..

لكن الأمور كانت أعقد من هذا..

رفعت:

إذن موضوع تغريد هذا لم يكن مجرد دعابة أنثويّة.. أو هي دعابة أنثويّة قائمة على إقناعنا بأنك تداعبيننا مداعبة أنثويّة ثم يتضح أنها ليست دعابة أنثويّة.. عندك قصة طويلة ومتشعبة لا يمكن أن تكوني قد تذكرت القصة فجأة..

بيسة:

لا يهم.. أسمع فحسب..

كانت (سوسو) غريبة الأطوار فعلًا.. مثلًا كانت تتكلم مع أية فتاة فتمد يدها لتكشف عن معصمها بلا سبب واضح.. ليس هذا كل شيء..

كنا في المختبر ذات مرة نلتف حول واحد من (البنشات) أنا وبوسي وفافي وماهي. كلنا كنا نعمل على تجربة كهربية واحدة.. ثم لحقت سوسو بنا لتقف جوارنا.

رفعت:

أنت في كلية عملية إذن..

بيسة:

نعم.. كان على (بوسي) و(فافي) أن تقوما بتركيب الأسلاك العارية بأيديهما، ولهذا كنا قد انتزعنا القابس بانتظار توصيل الدائرة.. كانت الفتاتان منهمكتين غارقتين في المزاح وفجأة صرختا كأن الشيطان مسهما..

اكتشفنا أنهما ترتجفان.. ونظرت بسرعة إلى القابس فوجدته قد أعيد لمكانه!.. لقد تم توصيل الكهرباء في الدائرة بينما الفتاتان تعملان.. ومن فعل هذا؟.. (سوسو) طبعًا.. جريت وانتزعت القابس، ولم تكن الفتاتان قد تضررتا بقوّة فيما عدا الصدمة العصبية.. التففنا حول تلك المجنونة نلومها على هذا العمل الأخرق، فقالت في خجل إنها أرادت أن تساعد بأي شكل.. وخطر لها أن وضع القابس في مكانه سوف يساعدنا بشكل ما..

هذا كان أغبى عمل رأيته في حياتي..

في مرّة أخرى كنا في مختبر الكيمياء.. كان المعيد قد شرح لنا ما يجب القيام به بصدد التجربة وانصرف.. هكذا عكفت كل واحدة منا على الأملاح والأحماض تجرى التجربة بنفسها.. كانت (سوسو) واقفة تتفحص أنبوب الاختبار في اهتمام..

فجأة تصاعدت رائحة غاز (ثاني أكسيد الكبريت Sulphur Dioxicle) المهيجة للأغشية المخاطية والعينين.. تصاعدت بكثافة غير عادية فرحنا نسعل ورحنا نتلمس الطريق للخروج.. نظرت إلى الخلفي فرأيت أن سوسو هذه هي مصدر الرائحة.. لقد استعملت ما هو موجود في المختبر لتصنع هذا الغاز السام.. كانت تمسك بأنبوب الاختبار وتنظر لنا في ثبات.. كنا نتدافع نحو الباب لكن الخروج كان مستحيلًا بسبب المجنون الذي صمم الباب بحيث ينفتح إلى الداخل.. في العالم المتحضر تصمم هذه الأبواب بحيث تفتح للخارج، لكن ما حدث هنا هو أننا كنا نزيد من إحكام غلق الباب بأجسادنا..

هنا فقط هوي أحد الفتية على زجاج النافذة الموصدة بمقعد من المقاعد فهشمه، وبدأ الأكسجين يتسرب إلى الداخل..

كانت هناك حالات إغماء بسبب هذا الغاز اللعين.. لكننا نجونا..

وحينما جاء المعيد مذعورًا أخبرناه أن تلك الحمقاء قامت بتحضير غاز سام في مكان مغلق..

كانت تبكي، وقالت دامعة العينين إنها لا تفقه شيئًا في الكيمياء.. لقد صبت حمض الكبريتيك على أول ملح صادفته وكانت النتيجة كارثية..

أمام دموعها ووجهها الرقيق لم يجد المعيد إلا أن يذكرنا بخطورة ما نقوم به.. على المرء أن يعرف ماذا يفعل بالضبط قبل أن يفعله..

رفعت:

من الواضح أنك لا تصدقين البتة أنها فعلت ذلك عن جهل.

بيسة:

لا أصدق أي حرف تقوله.. هذه الفتاة تتصرف عن عمد ورغبة قوية في الإيذاء. لكنك ترى وجهها الملائكي فتتأكد من أنك تهذي..

رفعت:

على كل حال.. نحن لم نبتعد عن المشاكل النفسية كثيرًا.. إن الشخصيات السيكوباتية موجودة في كل مكان..

بيسة:

لم تستطع أية فتاة أن تتقرب منها.. دومًا هي تحافظ على حاجز بينها والفتيات الأخريات.. لم تزرها واحدة في بيتها برغم أنها زارت الكثيرات.. لا نعرف أي شيء عن أسرتها ولا أهلها..

شريف:

على الأقل قد زارتك أنت..

بيسة:

لقد طلبت مني هذا يومًا وهي تتأبط ذراعي وتلقي نظرة فاحصة على معصمي.. لكني رفضت بقوّة.. لن أسمح لها بذلك.. أنا أخافها وأهابها.. تصوّر الفتاة الباردة الصموت التي تعاملك كأنك تمثال طيلة الوقت، وفجأة يشرق وجهها وتتأبط ذراعك وتقول: هيا بنا نتناول الغداء عندك اليوم.. مستحيل أن أقبل هذا ولا أستسيغه..

وأنا اجتماعية جدًّا ولّى صديقات كثيرات؛ لذا أشعر أن أمثال هذه كائن غريب مريب..

على كل حال من ضمن صفاتي أنني فضولية كقط؛ لذا راحت أفكاري تتركز على خزانتها في الكلية.. الخزانة التي يسلمونها لنا في بداية العام.. إنها موجودة في بهو طويل في الطابق السفلي من الكلية..

كانت قد نسيت مفاتيحها على المنضدة ونحن في المختبر، هكذا سرقت المفاتيح.. وجدت أنها منهمكة في تجربة فيزيائية معقدة فتسللت خارجة..

جريت إلى البهو.. بحثت عن خزانتها وهي تحمل رقم 313 جربت مفتاحين أو ثلاثة حتى وجدتها.. انفتح الباب المعدني الصغير، فلم تكن محتويات الخزانة غريبة.. معطف قديم.. كتب دراسية ثم.. مجموعة فاخرة جدًّا من الخناجر الطويلة المدببة.. حوالي ستة منها..

لماذا تحتفظ الأنسة اللطيفة بشيء كهذا في خزانتها؟

هنا سمعت صوت خطوات قادمة فوثب قلبي إلى فمي، وهرعت أغلق الخزانة وجريت إلى خزانتي ورحت أتظاهر بأنني أبحث فيها.

كانت هي بالفعل!

كانت هي وقد أحسنت صنعًا عندما تواريت في الوقت المناسب لكنّها اتجهت في ثقة إلى خزانتها وفتحتها!....

رفعت:

حسبت المفاتيح معك!

بيسة:

نعم هي معي.. كنت أفكر في طريقة إرجاعها..

شريف:

وما المشكلة في أن تكون مع سوسن نسخة احتياطية؟

رفعت:

نعم. هذا وارد، لكن يجب أن يندهش المرء أولًا.. يقلب الدنيا بحثًا عن مفاتيحه.. يسأل الجميع.. ثم بعد وقت طويل يتذكر أن معه مفاتيح احتياطية، لكن هذه الفتاة تصرفت كأنها تعرف كل ما حدث..

بيسة:

هذا أثار رعبي.. ما أثار رعبي أيضًا أنها التفتت لي.. لا شك في أن الذنب كان مرسومًا على وجهي.. ضحكت ضحكة شيطانية وقالت بطريقة عارضة: «كيف حالك يا (بيسة)؟.. بعض الناس يحبون أن يضعوا خيوطًا شفافة تحيط بحاجياتهم كي يعرفوا إن كان أحد عبث بها!»

سألتها في رعب عما تقصده فلم تقل شيئًا.. فقط قالت: «هو مجرد خاطر».. ثم أغلقت خزانتها ورحلت..

د. (رفعت).. أنا أخاف هذه الفتاة كالموت..

رفعت:

معك حق.. هي كذلك.. لكني ما زلت أميل إلى أنها شخصيّة سايكوباتية تجد لذتها في إيذاء الآخرين.. لا أكثر ولا أقل..

بيسة:

إنها تعرف الكثير عنى الآن..

رفعت:

لست ميالًا إلى أنها ستغمد هذه الخناجر في جسدك.... كل ما عليك هو أن تتجاهليها.. كفي عن الفضول المؤذي ودعي الخلق للخالق..

بيسة:

هذا كل شيء.. هل لي أن أطمئن؟

رفعت:

أعتقد ذلك.. تجاهل بعض المرضى النفسيين أكثر نفعًا..

بيسة:

شكرًا يا دكتور رفعت.. سوف أفكر في هذا.. لكن لو وجدتم جثتي ممزقة بالخناجر يومًا ما فعليكم أن تتذكروا هذه المكالمة..

رفعت:

أعدك بهذا..

(تضع السماعة)

شريف:

مشكلة سهلة نسبيًا..

رفعت:

ليس إلى هذا الحد.. هناك علامات استفهام كثيرة تحيط بهذه القصة، ويبدو أن النهاية لم تكتب بعد..

الحلقة السابعة

حكاية سوسو

تحكيها (سوسن)

هكذا صارت شكوكي منحصرة في فتاة واحدة..
فتاة واحدة تعرف كل شيء وتتظاهر بالبراءة..
فتاة واحدة تدعو الفتيات إلى أماكن غريبة من أجل التغيير والمرح.. طبعًا سوف تتضمن هذه الأماكن المقابر قريبًا جدًا..

شريف:

من جديد أيها المستمعون الكرام مع حلقة جديدة من (بعد منتصف الليل).. نحن في انتظار مكالمتكم الأولى التي ستكون وقودًا يشغل آلة الرعب..

رفعت:

فلا تتوقف أبدًا.. أرجو ممن يريد التكرار أن يكون دقيقًا..

شريف:

كالعادة نستمع إلى الأغاني وننتظر المكالمة الأولى.. مع الفنان (محمد رشدي) وأغنية (كعب الغزال)..

رفعت:

هذا يذكرني بالمستمعة التي كانت تسمع إيقاع أغنية (كعب الغزال) عندما يدق جيرانها شيئًا..

شريف:

لم أعد أذكر.. إن الحلقات تتداخل في ذهني.. فقط كلها ممتع.. استمتعنا فيها وأمتعنا.. واستفدنا وحاولنا أن نفيد..

رفعت:

ولم ننجح..

شريف (يضحك في عصبية):

السخرية.. دائمًا السخرية..

(تبدأ الأغنية)

(رنين الهاتف)

شريف:

ألو.. يبدو أن المكالمة سريعة اليوم.. من المتكلم؟

صوت فتاة:

أنا.. أنا (سوسن)..

شريف:

مرحبًا يا سوسن.. عساك تعرفين أنّ هذا برنامج بعد منتصف الليل الذي يناقش التجارب الغريبة للمستمعين..

سوسن:

بالطبع.. أنا لست غبية..

شريف:

لا أتهم من لا يعرف هذا بالغباء، لكننا نتلقى مكالمة على الأقل من هذا النوع في كل حلقة.. البعض يحسب أننا البقال والبعض يحسبنا السجل المدني.. وهكذا..

سوسن:

نعم.. نعم..

شريف:

سوف أكون مسرورًا لو عرفت أنّ هذا اسمك الحقيقي..

سوسن:

نعم ولا.. على كل حال أنا معروفة باسم (سوسو) بين صديقاتي..

رفعت:

سوسو.. الحلقة السابقة كانت مع من تدعي بيسة.. مصادفة عجيبة..

سوسن:

ليست مصادفة.. أنا هي (سوسو) ذاتها التي حكت عنها (بيسة).. وقد سمعت الحلقة؛ لذا قررت أن أكون هنا هذا الأسبوع..

رفعت:

هي مصادفة كذلك..

سوسن:

على كل حال أنت تعرف أنني لم أكن في الكلية منذ أشهر.. هذا صحيح.. لكني أتيت للكلية بعد (بيسة) مباشرة.. قبل هذه الستة الأشهر لم أكن في كلية أخرى. لم أكن في مصر.. لو أردت الدقة: لم أكن في مكان تعرفه..

رفعت:

هل بدأنا هذه النغمة إذن؟

سوسن:

من الخطأ الجسيم أن أقدم لك هذا الاعتراف المجاني، خاصة على جهاز الراديو.. لكني مضطرة لأن (بيسة) هذه أقوى مني أقوى منا جميعًا.. يجب أن يحترس الناس..

رفعت:

هل من مزيد من الإيضاح؟.. ما سر قوتها؟.. هل هي قريبة وزير ما؟

سوسن:

لا.. يجب أن أقول لك إن رئيسي استدعاني.. يمكن أن تعتبرني عميلة في جهاز سرّي.. هذا أقرب شيء ممكن لفهمكم.. رئيسي في عالمنا الذي لا تعرفون عنه أي شيء، قال لي إن أحد الشياطين من أبناء (بعلزبول) موجود في مصر.. بالتحديد في مدينتكم بالتحديد في هذه الكلية التي صرت فيها..

رفعت:

عم تتحدثين بالضبط؟

سوسن:

الأمر كما سمعته وفهمته.. هناك شيطان قد تحرر وهو طليق اليدين في عالمكم، وقد تنكر في شكل طالبة جامعية. لهذا كان على أن ألحق به.. هذه مهمتي في الحياة.. قال لي رئيسي إن هذا الشيطان تخفي في شكل فتاة، وهو يحمل علامة الوحش 666 على معصمه غالبًا، وهو من الكبريت لذا يتحمل أبخرة الكبريت، ولا تقتله النيران.. فقط عليّ أن أفتش بحذر.. إن تغيير الشكل أمر غاية في السهولة عليّ وعليه.. هكذا هبطت على مدينتكم العجوز.. وعلى الفور صرت فتاة اسمها (سوسن).. فجأة صارت كل أوراق الكلية تحمل معلومات عن تاريخ التحاقي وشهاداتي السابقة..

الآن صار عليّ أن أندمج في الحياة الجامعية وأن أراقب بعناية..

رفعت:

عزيزتي.. لقد بدأنا طور الهلاوس..

سوسن:

اسمع ولا تعلق.. فقط الحمقى لا ينتظرون نهاية القصة قبل أن يعلقوا عليها..

لقد حصرت دائرة شكوكي في الفتيات، ورحت أراقبهن في حذر.. أراقبهن كالصقر.. بعضهن كانت له تصرفات غريبة.. لهذا رحت أحاول أن أتبين الحقيقة أكثر.. ولهذا رحت أفتش أوراقهن.. كنت أبحث في معصم واحدة منهن عن علامة الوحش.. إن علامة الوحش خالدة ولا تتبدل أو تختفي مهما أتقن التنكر.. هكذا استطعت أن أضيق دائرة البحث لتنحصر في سبع فتيات.. كلهن في ذات الدفعة التي أدرس فيها.. ذات القطاع الدراسي (السكشن)..

هؤلاء الفتيات كانت أكمامهن طويلة دومًا.. فشلت تمامًا في رؤية سواعدهن.. اثنتان كانتا تضمدان معصميهما هما (فافي) و(بيسة)..

قررت أن أجرب الكهرباء كما حكت لك (بيسة).. تظاهرت بالغباء ومررت الكهرباء في أجساد مجموعة من الفتيات في مختبر الفيزياء.. جرعة غير قاتلة لكنّها مؤلمة بحق.. ما لم تقله لك (بيسة) هو أنها كانت بين الفتيات اللاتي تلقين الصدمة، والوحيدة التي لم يحدث لها شيء..

جربت أن أركب غاز ثاني أكسيد الكبريت في المختبر، والنتيجة كانت صاعقة.. معظم الموجودين كادوا يختنقون لكن واحدة فقط بقيت هادئة تفتح عينيها عن آخرهما وتراقب ما يحدث.. إنها بيسة طبعًا..

أين بيتها؟.. من أسرتها؟.. لا أحد من الفتيات يعرف وهي بالطبع لم تخبرك بذلك.. عندما طلبت أن أزور أسرتها رفضت في عصبية..

هكذا صارت شكوكي منحصرة في فتاة واحدة..

فتاة واحدة تعرف كل شيء وتتظاهر بالبراءة..

فتاة واحدة تدعو الفتيات إلى أماكن غريبة من أجل التغيير والمرح.. طبعًا سوف تتضمن هذه الأماكن المقابر قريبًا جدًّا..

عرفت أنّ هذه الفتاة فتشت خزانتي بعد ما سرقت مفاتيحي بالطبع نحن لا نحتاج للمفاتيح لفتح أي شيء.. أي مفتاح يصلح لكنّها وجدت الخناجر التي خصصتها لقتلها.. سرقتها مني.. لم تقل لك إنها سرقتها لكنّها فعلت..

رفعت:

صبرًا يا بنيتي.. رأفة بأعصابي.. هل تحاولين إقناعي بأنك لست بشريّة؟

سوسن:

ولا هي..

رفعت:

وتريدين أن أصدق هذا؟

سوسن:

يجدر بك أن تفعل بسرعة.. إن ثمن الخطأ باهظ جدًّا لن يتحمل عالمك ولا مجتمعك دفعه..

رفعت:

وماذا تنوين عمله؟

سوسن:

لقد فشلت في مهمتي.. لن أستطيع تدميرها من دون الخناجر كل ما أستطيع عمله هو إنذار العالم من خطرها..

سوف أرحل وأعتقد أنني سأعاقب.. لكني على الأقل حاولت..

رفعت:

هل تعتقدين أنها ستحاول قتلك؟

سوسن:

يمكنها ذلك ما دامت الخناجر معها.. لكن....

صوت امرأة:

لا تقاومي يا صغيرة!

(صوت جلبة وصراخ) لا.. دعوني.. لا!!

رفعت:

(سوسن).. هل أنت معي؟.. (سوسن)..

صوت امرأة:

(سوسن) لم تعد هنا يا دكتور رفعت..

رفعت:

ماذا؟. ماذا حدث لها؟. من أنت؟

المرأة:

لا شيء.. أنا د. (صافيناز الخولي) استشارية الأمراض النفسية في هذه المصحة.. آسفة جدًّا لأن سوسن تمكنت من الإفلات والاتصال بك من غرفة المدير.. لكننا بحثنا عنها ووجدناها ممسكة

بالهاتف وهي منكمشة جوار المكتب سنحقنها بمهدئ وسوف تنام حالًا..

رفعت:

هذا يعني أن..؟

المرأة:

نعم.. (سوسن) مريضة بارانويا تقليدية.. تعتقد أنها مرسلة من عالم آخر ومهمتها القضاء على شيطان تسلل إلى عالمكم.. كل هذا سخف طبعًا.. أكرر اعتذاري..

رفعت:

توقعت هذا على كل حال من كلماتها الأولى.. لكن شد ماهي مقنعة!

المرأة:

المرضى العقليون يشعون طاقة نفسية تقنع.. هذا معروف والآن أكرر اعتذاري.. سلام..

(تضع السماعة)..

رفعت:

هكذا تصير الحياة منطقية..

شريف:

للمرة الأولى لا أشعر براحتك هذه..

رفعت:

لماذا؟

شريف:

لقد بحثوا عنها في المستشفى فوجدوها تختبئ ممسكة بالهاتف جوار مكتب المدير.. من ثم أمسكوا بها وقيدوها.. متى ذكر اسم (رفعت إسماعيل) وكيف عرفت الطبيبة أنك من يتكلم على الطرف الآخر؟

رفعت:

ربما كانت الطبيبة تصغي للراديو عندما فوجئت بمريضتها تحكي القصة..

شريف:

ربما.. لكن ماذا عن صوت الطبيبة؟.. أليس شبيهًا للغاية بصوت سمعناه الأسبوع الماضي؟

رفعت:

هل تثق بذاكرتك لهذا الحد؟

شريف:

لا تنس أنني مذيع.. أي أنني رجل يعيش بأذنيه.. المذيع الذي ينسى الأصوات لا يستحق مهنته.. رأيي الخاص أن القصة الثانية حقيقيّة وأن (سوسن) سقطت في يد (بيسة) هذه ولسوف تتخلص منها، لكنّها أرادت أولًا أن تقنعنا أن كل ما قيل هذيان مجانين لذا تكلمت بلسان الطبيبة.

رفعت:

حكاية (سوسن) ضدّ حكاية (بيسة).. فمن من الفتاتين نصدق؟.. قصة (بيسة) أقرب إلى المنطق، لكن قصة (سوسن) أقرب إلى ما نشعره في قلبينا الآن.. أعتقد أنّ علينا أن نحاول معرفة مصدر هذه المكالمة بالاستعانة بالشرطة.. لو كانت من مصحة عقليّة في (بيسة) على حق.. أمّا لو لم تكن فنحن في مشكلة.. مشكلة كبيرة بالفعل!

الحلقة الثامنة

الأخ السابع

يحكيها (مجهول الاسم)

ومن قال إن الانتقام عاطفة راقية؟.. على قدر علمي كل الحيوانات تنتقم، وقد قرأت ذات مرة قصة فيل حديقة الحيوان الذي ظل يختزن الحقد ضد حارسه عدة أشهر إلى أن أتيحت له فرصة سحقه..

شريف:

هنا برنامج (بعد منتصف الليل).. نحن في انتظار مكالمة الليلة.. أرجو أن تكون الحلقات السابقة قد راقت لكم.. في الحلقة الأخيرة سمعنا قصة المستمع الذي يذيع جهاز التلفزيون الخاص به برامج لم تبثها أية محطة.. قصة غريبة ومرعبة، لكننا ما زلنا نأمل فيما هو أفضل..

رفعت:

القصة الأفضل لم تحك بعد على كل حال.. نحن ننتظرها منذ بدأ البرنامج في البث..

شريف:

نعم.. هذا يجعل الحياة محتملة.. وكما يقول (ناظم حكمت): إن أجمل الأطفال من لم يولد بعد، وأجمل البحار ما لم يوجد بعد، وأجمل ما قلته لك يا حبيبتي لم أقله بعد.. مصيبة أن يعرف المرء يقينًا أنه سمع أفضل شيء ممكن..

رفعت:

على كل حال هذا أفضل من أن تتوقع أن الأسوأ لم يأت بعد كلما حسبت أنك بلغت القاع اتضح أنه ما زال بعيدًا..

(رنين الهاتف)

شريف:

آلو؟

صوت رجل:

مساء الخير.. برنامج (بعد منتصف الليل)؟

شريف:

نعم يا سيدي.. حتمًا..

الرجل:

أنا (عبد السلام البسطاوي) من (منية شننتنا عياش).. الواقع أنه لا توجد قصص مرعبة في حياتي، لكني أكتب شعرًا جيدًا هل لي أن أقول شيئًا؟..

بعد منتصف الليل.. تعود لي ذكراك

بعد منتصف الليل.. أستعيد هواك

عندما كنا نحب بعضنا.. وكانت الـ..

شريف (مذعورًا):

سيدي.. سيدي.. ليس هذا مجال الشعر.. للبرنامج غرض محدد..

الرجل:

وكانت الطيور تغرد باسمنا..

وكنت أحبك كثيرًا.. وكنت تحبينني أنا..

ثم جاء البعاد.. وطفح بي الكيل

عندما استعدت ذكراك.. بعد منتصف الليل..

شريف:

أستاذ (عبد الرحمن).. أرجوك أن تنتظر قليلًا..

الرجل:

بعد منتصف الليل.. حيث رفعت اسماعيل

يحل مشاكلنا.. بصبره الجميل

وشريف السعدني.. يا أعظم مذيع

تقدم لنا الرعب الغني.. والخيال السريع

(يقطعون الخط)

رفعت:

كان هذا رأيي دومًا.. عندما يتحمس الشاعر ويبدأ في إنشاد قصيدة فلا طريقة لمنعه إلا وضع الديناميت في فمه..

شريف:

إنه متحمس..

رفعت:

أخطر الناس طرًا هم المتحمسون.. سوف ينتهي العالم يومًا على يد واحد متحمس.. على كل حال الأخ (عبد الرحمن) هو أول من يكتب شعر الرعب في التاريخ.. هناك محاولات ساذجة لإدجار آلان بو، لكن (عبد الرحمن) تفوق على نفسه.. لم أشعر بمثل هذا الذعر من قبل.. الذعر من أن يستكمل قصيدته..

(رنين الهاتف)

شريف:

هل من شاعر آخر؟.. آلو؟

صوت رجل:

لن أذكر اسمي لو سمحت.. أنا أتكلم من هاتف عمومي لو خطر لكم أن تتابعوا الاتصال..

رفعت:

بداية قوية..

الرجل:

أنا قتلت (عباس).. هذا صحيح.. لكنه استحق ذلك..

شريف:

بداية أقوى.. لكن لنا طبعًا أن نفترض أن اسم (عباس) مستعار..

الرجل:

طبعًا.. ما معنى أن أخفى اسمي وأذكر اسم من قتلته؟.. إن (عباس) صديقي وهو الابن السابع من أسرة كبيرة في قريته.. أبوه أنجب ذكورًا فحسب، وكلهم أكبر من عباس لهذا أتوقع أن يكون انتقامهم مريعًا.. ليس البوليس هو ما أخشاه.. هؤلاء لن ينتظروا البوليس ليأتي بحقهم..

رفعت:

هلا شرحت لنا؟

الرجل:

عباس كان مدللًا فاسدًا.. إنّه الصورة الأولية للكذب.. ما إن تخرجنا في الكلية حتى جاء لي واقترح أن نبدأ مشروعنا الخاص بانتظار التعيين.. قال لي إن الوظيفة الحكومية لن تحل أو تقدم أي ربط.. قال لي إن بوسعنا أن نقيم مشروعًا لبيع المواد الغذائية بسعر الجملة.. هذا مشروع

مرعب لكنه كان قد رسم كل شيء، ويبدو أن دراسته الجامعية في كلية التجارة جعلته يعرف كل هذه التفاصيل..

لقد استدنت وحصلت على كل قرش يمكن أن أحصل عليه، كما تشاجرت مع أسرتي إلى أن أقنعتهم بأن يبيعوا قطعة من الأرض تخصنا.. كل هذا المال وضعته في يد عباس كي نبدأ..

ابتعنا بعض الثلاجات الأفقية المناسبة للحوم.. استأجرنا المكان ثم توارى عباس تمامًا..

بحثت عنه في كل مكان.. في قريته.. في المقاهي. لدى أصدقائه.. لا أثر له..

أخيرًا وجدته لدى صديق من أصدقائه.. كانا يمضيان ليلة ماجنة واعترف لي وهو لا يفقه ما يقول إنّه أنفق مالي كله.. لا يعرف فيما أنفقه لكنه لا يملك مليمًا منه..

قال لي ضاحكًا: تجارة مواد غذائية هل تحسبها لعبة؟.. السوق مليء بأباطرة قادرين على تمزيق طفلين مثلنا..

سألته عما أفعله وقد أخذ هو كل مليم في عالمي، فقال ضاحكًا: الله يعوض عليك..

هذه كانت الإجابة، وهذا يضعك في الحالة النفسية التي صرت فيها..

لقد أمضيت يومين أجوب المقاهي شاردًا.. لا أستطيع العودة إلى أسرتي ولا أستطيع أن أنام.. شربت ألف لفافة تبغ وألف قدح قهوة..

رفعت:

الأحمق وماله يفترقان سريعًا.. يؤسفني قول هذا لكنه دقيق..

الرجل:

نعم.. كنت أحمق.. لكني لست سهل الهضم.. هكذا يصير الناس مجرمين.. هكذا رحت أبحث عن عباس من جديد.. قلت له إنني بحاجة إليه لبيع تلك الثلاجات التي ابتعناها..

رفعت:

أوشك أن أقرأ قصة ما حدث في صفحة الحوادث..

الرجل:

بالضبط.. لقد جاء وهو يأمل في سرقة جديدة يظفر بها.. أنت تعرف باقي القصة.. أغلقت المحل وطلبت منه أن يفتح الثلاجة ليرى إن كانت تعمل أم تالفة.. لما انحني هويت على رأسه بثقل حديدي.. هوى كالزكيبة على الأرض.. تحسست نبضه فأدركت أنه ميت.. بالتأكيد ميت.. لكني برغم هذا حملته ووضعته في إحدى الثلاجات وقمت بتشغيلها، ثم أغلقتها بالمفتاح بإحكام.. أنت تعرف تلك الثلاجات الشبيهة بالتوابيت..

عندما أغلقت النور وغادرت المحل كنت أشعر براحة عظمى..

رفعت:

هذه حماقة كبرى.. هل كنت تعتقد أنك ستنجو بفعلتك؟؟ الجرائم غير المحسوبة من هذا الطراز تدلّ على سيطرة ما تحت قشرة المخ.. أي أنك كنت حيوانًا..

الرجل:

نعم.. ومن قال إن الانتقام عاطفة راقية؟.. على قدر علمي كل الحيوانات تنتقم، وقد قرأت ذات مرة قصة فيل حديقة الحيوان الذي ظل يختزن الحقد ضدّ حارسه عدة أشهر إلى أن أتيحت له فرصة سحقه..

رفعت:

أكمل..

الرجل:

قضيت يومين بين منازل أصدقائي ثم عدت إلى المحل..

فتحت الثلاجة لأرى الجثة.. كانت حيث تركتها تمامًا في ذات الوضع، لكن إحدى الساقين مفتوحة عن آخرها لتستقر قدمها في ركن الثلاجة أو التابوت.. كان هذا غريبًا.. طبعًا كان أول شيء خطر لي هو أنه كان حيًّا في المرّة الأولى وأنا جاهل..

على كل حال أعدته لوضعه السابق وأغلقت الثلاجة وفارقت المكان.. كانت خطتي هي أن أتركه عدة أيام ثم أرتب سيارة أنقله بها إلى حيث أدفنه في الصحراء.. عندما يتأكد اختفاؤه سيكون عليّ مواجهة أسئلة الشرطة.. لكن يمكن تحمل هذه ما دمت أدرك يقينًا أنني لم أترك خلفي أثرًا..

رفعت:

طبعًا عندما عدت وجدت ساقه في ذات الوضع..

الرجل:

نعم.. وجن جنوني.. أنا متأكد من أنّه مات.. لو لم يكن قد مات من الضربة فمن البرد والجوع والظمأ.. هكذا أغلقت الثلاجة بإحكام من جديد وغادرت المحل بعد ما أحكمت غلقه وقررت أن أتغيب أسبوعًا..

عدت بعد أسبوع لفتح الثلاجة.. وماذا تتوقع أنني وجدته؟..

رفعت:

الساق في ذات الوضع؟

الرجل:

لا ساق.. لا جثة..!!.. الثلاجة خالية يا دكتور.. خالية تمامًا!.. المحل مغلق كما تركته والثلاجة مغلقة كما تركتها برغم هذا اختفت الجثة!

فررت إلى قريتي وقضيت أسبوعًا لعينًا.. كنت محمومًا بلا مرض معين..

والحقيقة أن مخاوفي تحققت لكن ليس فيما يتعلق بي، وليت هذا حدث لي أنا.. لقد وجدوا أخي ميتًا في الحقل.. كان يعمل هناك في ساعة متأخرة عندما غربت الشمس.. لا يعرفون كيف ولا لماذا مات، لكن من غسل جثته قال إنها كانت خالية من الدماء!.. الفلاحون فسروا الأمر بأنه رأى ما يخيف..

أنا كنت هناك وقت الدفن ورأيت ثقبًا في عنقه.. ثقبًا صغيرًا لم يلحظه طبيب الوحدة الصحية، لكني لاحظته..

شريف:

آها!.. هذه النغمة تبدو مألوفة.. لا تقل لي إن صاحبك تحول إلى مصاص دماء من فضلك..

رفعت:

لا أرى أي شيء سخيف فيما قال بفرض أنه صادق.. بفرض أنه غير مخبول.. عباس صديقك هو الابن السابع في أسرة من الذكور.. الحقيقة أن وضعه ممتاز كي يكون مصاص دماء.. قالوا في الغرب إنّه يسهل عليك معرفة مصاص الدماء؛ لأنّه يكون الطفل السابع لأخوة من نفس الجنس.. أمّا عن موضوع الساق.. فلو افترضنا أن الثلاجة تحولت إلى تابوت لقلنا إن هذه علامة أكيدة على مصاصي الدماء.. عندما يموت الرجل وتفتح قبره تجد قدمه موضوعًا في ركن التابوت.. هكذا يعرفون أنه سيصير مصاص دماء ويغادر قبره، وهكذا يقطعون رقبته ويحشون فمه بالثوم..

شريف:

د. رفعت.. هذا كلام مفزع فعلًا، لكنه غريب عن ثقافتنا تمامًا..

رفعت:

كل شعب في العالم لديه قصص مصاصي الدماء الخاصّة به.. صحيح أن الأسطورة بدأت في أوروبا الشرقية لكنّها موجودة في العالم كله.. إن أهم أساطير مص الدم موجودة عند السلافيين لفظة Vampire ذات أصل سلافي.. تذكر أن دراكيولا روماني.. هناك انقسام كنسي مهم حدث عام 1054 عندما اعتنق الصرب والروس والبلغاريون العقيدة الأرثوذكسية، بينما اعتنق التشيك

والبولنديون الكاثوليكية. كانت هناك مشكلة الجثث التي لا تتعفن في التربة.. هذه الجثث اعتبرها الكاثوليك جثث قديسين بينما لأسباب واضحة اعتبرها الأرثوذكس جثث مصاصي دماء..

الجانجريل GANGREL كما قلنا نوع من مصاصي الدماء يفضلون الأماكن المقفرة، ولهم قدرة فائقة على تغيير الشكل إلى ذئب أو وطواط.. إنهم يحبون معاشرة الحيوانات الضارية لأن هذا يناسب طبيعتهم أكثر. مع الوقت ينمو لهم شيء حيواني مثل عين القطة أو الفراء أو أذن الوطواط..

في الهند يؤمنون أن البطيخ الذي يترك في البيت حتى يفسد يبدأ في الحركة ويتحول لكائن يمتص الدم!.. الهند عامرة بأساطير مصاصي الدماء.. هناك الـ (بوتا) الذي يجوب الليل ويهاجم الأحياء كالغول.. بعض تلك المخلوقات لها جمجمة قابلة للنزع لشرب الدم فيها.. إلا أن أشهر مصاص دماء هو (كالي) ذات الأربعة الأذرع والتي تلبس حول عنقها جماجم الموتى ولها أنياب حادة.. يُقال إنها بهذا تهزم الإله (راكتابيجا) الذي كان يعيد التجسد من قطرة دم واحدة.. لهذا تحرص على ألا تترك أية قطرة دم.. هناك الأساسابونسام في غانا وهو مصاص دماء يتوارى بين الأشجار ويهاجم العابرين... الداشنافار في أرمنيا الذي يمتص الدماء من أقدام المسافرين ليلًا.. في ألبانيا (اللوجات).. في أستراليا (يارا ما يها هو).. في بلغاريا (أوبور).... في الصين (شيانج شيه).. يخرج من جثة منتحر ويبدو بشريًا لكنك تعرفه عندما لا يتمكّن من عبور الماء.. الفرايكولاكاس في اليونان الذي يأتي لدارك ويناديك بالاسم طالبًا الدخول..

خذ عندك الوحوش حمر العيون خضر الشعور في الصين وخذ (لاميا) اليونانية التي هي امرأة وأفعي معًا، والثعالب مصاصة الدم التي تمشي في مواكب عندما يكتمل القمر في اليابان، والرأس الزاحف (بينانجالانج) في ماليزيا.

شريف:

لا أعرف كيف تذكر كل هذه الأسماء من الذاكرة؟

رفعت:

لو عشت حياتي لعرفت ما أعرفه..

شريف:

هل يعني هذا وجود مصاصي دماء أم يعني أن الإنسان يخرف في كل مكان وزمان؟

رفعت:

يعني أنّ هناك شيئًا ما..

الرجل:

هذا عرض شائق يا د. رفعت.. لكنك لم تشرح لي ما يريده مني..

رفعت:

سؤال غريب.. الانتقام طبعًا..

الرجل:

وماذا أفعل؟

رفعت:

من دون مصاصي دماء في القصة، سوف أنصحك بأن تسلم نفسك للشرطة كأي قاتل.. ربما كان السجن أكثر أمنًا.. لا توجد جثة على كل حال وسوف يتعب رجال الشرطة كثيرًا جدًّا..

الرجل:

على كل حال أنت أنرت لي طريقي بحق.. ثمّة نقطة أخيرة.. أرجو أن تكلّم صاحبي هذا..

رفعت:

صاحبك؟.. عم تتكلم؟

صوت ثان:

مساء الخير يا دكتور.. أنا عباس!

رفعت:

ماذا؟.. عباس من؟

عباس:

عباس الذي مات ودفن في ثلاجة.. الحقيقة أنني كنت ساهرًا مع صديقي وقررنا أن نتصل بك.. يقولون إن عندي موهبة في كتابة قصص الرعب، وقد خطر لي أن أجرب.. كتبت سيناريو صغيرًا قام بأدائه صديقي الذي اتصل بك.. إن صوته مقنع وواضح النبرات.. أردنا معرفة تأثير هذه القصة عليك وعلى مستمعيك..!

رفعت:

هل هذه محاولة للتظرف؟

عباس:

بل هي عرض لعمل أدبي مع طلب رأيك.. أعتقد أننا كنا مقنعين.. لقد نجحنا في إقناعكم وهذا يعني أنني أديب موهوب! والأجمل أنك التقطت طُعم الأخ السابع والساق..

شريف:

كنت تضيع وقتنا إذن..

عباس:

لم نتعمد شيئًا.. أنتم تريدون قصة ممتعة مخيفة ونحن فعلنا ذلك. نعتذر لو كنا قد سببنا أي إزعاج لكما..

(يضع السماعة)

شريف:

برغم كل شيء، هذا مقلب ممتاز..

رفعت:

نعم.. أشعر بغيظ لا حد له وأتمنى أن يتشاجرا الليلة فيهشم صاحبه رأسه.. لو أنه فعل ذلك ووجد ساق عباس في ركن الصندوق غدًا فليعلم أننا لن نساعده في حل هذه المعضلة!

الحلقة التاسعة

محمـــووود!

تحكيها (مدام فاتن)

كان القط يقف الآن في ركن الصالة ينظر لي تلك النظرة الوقحة المزعجة ولا يبدو أنه ينوي أن يطرف بجفنيه.. لا عجب أن اعتبره الفراعنة إلهًا واعتبره المحدثون شيطانًا....

شريف:

هذه حلقة جديدة من برنامجكم (بعد منتصف الليل).. البرنامج الذي تبقون ساهرين بانتظاره حتى الساعة الأولى من صباح الجمعة.. معكم (شريف السعدني) وضيفنا الدائم د. (رفعت إسماعيل). أستاذ أمراض الدم.. لهذا أسأله: لماذا أمراض الدم؟

رفعت:

أنت تحاول تزجية الوقت طبعًا حتى تأتي أول مكالمة.. ليكن لقد جربت فروع الطب عامّة كطالب ثم كخريج شاب.. لم أكن مولعًا بالجراحة ففكرت في فرع من فروع الطب الباطني، وقد بدا لي الإنسان لغزًا وقواعد اللعبة تتغير في كل دقيقة.. لا يوجد شيء ثابت أو مؤكد.. لو رأيت مائة مريض بالتيفود لرأيت مائة شكل مختلف.. مريض الذئبة الحمراء قد يتساقط شعره وقد تتلف كليته سيان.. الكلية قد تتلف على مدى أيام أو أعوام.. قد يعاني مريض الصدفية من مجرد بقعة خشنة صغيرة على ساعده وقد يتحول لشيءٍ مريع شبيه بالسحلية.. كل شيء وارد وكل شيء مستبعد.. فقط في أمراض الدم وجدت قواعد شبه ثابتة، ووجدت أن التفكير المنطقي يمكن أن يقودك إلى الصواب..

شريف:

إذن لا علاقة لمصاصي الدماء بالأمر..

رفعت:

عندما اخترت تخصصي لم أكن قد قابلت الكثير من القصص المخيفة.. فقط اخترت الفرع الذي تقلد فيه الطبيعة الكتب وتلتزم بها.. ثم سافرت إلى أسكتلندا ونلت الدكتوراه، وبدأت حياتي واهتماماتي تتشكل..

شريف:

هل أحببت أسكتلندا؟

رفعت:

كان هناك جو عام من المودة والصفاء جعلني أحب البلاد فعلًا.. البروفسور (ماكيلوب) عاملني كابن له، وإن كان حازمًا أقرب إلى الشدة أحيانًا.. انطباعي عن البريطانيين سلبي غالبًا، لكن أسكتلندا تختلف.

شريف:

ألم تفكر في الاستقرار هناك؟

رفعت:

الغرض ليس استمتاعي بالحياة.. لقد أرسلتني الدولة إلى هناك على نفقتها كي أغترف ما أستطيع من علم وأعود به.. أعود به إلى (حميدة) و(باتعة) وعم (شعبان) وعم (بسيوني) العجوز الذي يعمل في الحقل، ويشعر أنه شاحب وأنفاسه متقطعة وأنه لم يعد على ما يرام.. هذا هو فهمي للأمور.. للدقة أكثر: أنا ذهبت هناك لأدرس على نفقة عم (بسيوني) وأمثاله. لو كان الغرض هو إمتاعي لكنت هناك الآن متزوجًا من ابنة البروفسور، ولكنت آتي في إجازة الصيف كل خمسة أعوام مع ابني (جيمي) و(سارة)، لأحدثهما عن الأهرام وعظمة الفراعنة بينما هما غير مكترثين..

شريف:

أنت اخترت مصر إذن..

رفعت:

بعبارة أدق: اخترت ما أحبه في مصر.. هناك أشياء عديدة لا أحبها لكني أحاول أن أنساها.. مع أول انقطاع للتيار الكهربي أو المياه، أو أول مشاجرة مع موظف في السجل المدني، ومع أول طوبة أتلقاها في جبيني وأنا أقود سيارتي على الطريق السريع، ومع أول برنامج تلفزيوني أبله، أقول لنفسي: لماذا عدت؟.. لكني أتذكر عم (بسيوني) العجوز الطيب الذي يشرب الشاي الأسود بالنعناع في الحقل ليلًا، فأهدأ..

شريف:

هذا جميل.. لكننا ما زلنا في انتظار أول مكالمة..

رفعت:

لماذا؟.. أنا مستمتع جدًّا.. أتكلم في الموضوع الوحيد الذي يروق لي فعلًا وهو أنا.. للمرة الأولى أتمنى أن تتأخر هذه المكالمة.. ككل إنسان أتمنى أن تصدر جريدة مخصصة للكلام عن آرائي في الحياة، وعلى صفحتها الأولى أخبار عن استيقاظي من النوم وخروجي من الحمام. إلخ.. أنا مندهش لماذا يضيع الناس وقتهم في الكلام عن المال والفلسفة والسياسة ولا يكرسون حياتهم للكلام عني أنا..

(رنين الهاتف)

شريف:

للأسف يبدو أننا سنتكلم في أمور مملة لا تهمك من جديد..

رفعت:

هذا مؤس..

شريف:

ألو.. برنامج (بعد منتصف الليل).. تفضل..

صوت امرأة:

صباح الخير

شريف:

هل لنا أن نتعرف بك؟

المرأة:

لنتظاهر بأن اسمي (فاتن).. ربما تقولون كلامًا محفوظًا تبرهنون به على أنني مخطئة، لكني أعرف ما أتكلم عنه.. هذا هو خطأ الرجال الدائم عندما يرون امرأة رقيقة هشة مثلي فيفترضون أن عقلها كذلك رقيق هش..

رفعت:

نعم.. لكن تذكري من فضلك أن الهستيريا داء أنثوي لأن (هوستيرا Hustera) باليونانية معناها (الرحم)..

المرأة:

توقعت هذا لكن صدقوني بالله عليكم.. لقد توفي زوجي (محمود) منذ ثلاثة أشهر..

رفعت:

تعازينا الحرَّى..

المرأة:

ربما أبدو قاسية، لكن (محمود) - رحمه الله - لم يكن أفضل ولا أرق زوج في العالم.. كان يعرف كيف يجعلني تعسة.. كان يعرف كيف يجعلني أبكي وحدي في الفراش.. والنفاق كل النفاق أن أزعم أن وفاته لم تطلق سراحي.. منذ طفولتي كانوا يعتبرونني نسمة تنكرت في شكل إنسان، وكان أبي يتساءل كيف استطاع الفول والطعمية أن يصنعا تحفة فنية مثلي بينما لا يصنعان لدى الناس الآخرين إلا كروشًا متدلية وغازات بطن.. لم أكن أقرأ إلا الشعر ولا أنسج إلا الكانافاه.. لم أكن أنام إلا على وسادة محلاة بالدانتيلا.. كنت حلمًا..

رفعت:

سوف نفترض أنّ هذا صحيح، برغم أن تجربتي مع النساء تخبرني أنهن جميعًا يحملن هذا الانطباع الذاتي عن أنفسهن.. (صورة الذات Self image) عندهن قد تعوزها الدقة..

المرأة:

صدق أو لا تصدق فهذا شأنك.. على كل حال كبرت وصرت مطمع العرسان في المنطقة، وجاء زوجي (محمود) الذي قرر لسبب ما أن عليه أن يكافئني على رقتي بأن يجعلني زوجته.. وتحولت حياتي إلى جحيم.. إنِّه فظ.. بخيل كالبراغيث.. لم يحبّ في حياته سوى اللعب في أصابع قدميه ومشاهدة مباريات كرة القدم وقد كان أهلاويًا بعنف.. فإذا تناول العشاء تجشأ ونام.. دعك طبعًا من البصق على السيراميك فهذه هواية محببة له..

على كل حال هو قد توفي ولن يستطيع أن يجلس هنا معنا ليدفع هذه الاتهامات عن نفسه.. لبست الأسود الذي ناسب لون بشرتي بشدة فصرت أكثر بياضًا.. أنا لست قاسية.. ما أريد قوله هو أنه كان يملك قطًا.. تزوجته وهذا القط معه وقد جاء به لبيتنا ضمن جهازه..

رفعت:

آه... لا يمكن أن توجد قصة رعب من دون قط.. هذا شيء مقدس فيما يبدو.. كنت أنتظر لحظة ظهوره.. القطط عنصر جوهري في قصص الرعب كلها، فلا عجب أن صنع (إدجار آلان بو) شهرته من قصة القط الأسود. لكن ألا ترين غريبًا أن يهتم رجل هذه صفاته بالقطط؟.. العناية بالحيوانات تشي بقدر من الإنسانية لا بأس به، والاستثناء الذي يحضرني الآن هو (إميلي برونتي) مؤلفة (مرتفعات وذرنج) القصة الحساسة الأليمة.. كان لديها كلب عملاق مرعب تربيه كي تخرج فيه توترها العصبي واضطراب روحها.. كانت تسدد اللكمات لأنفه حتى يسيل منه الدم!

المرأة:

هذا قياس خاطئ.. أعتقد أن الكثير من الناس يربون الحيوانات كمصدر لإخراج ساديتهم المريضة بمن فيهم مؤلفتك هذه.. نعم أنا لا أعرف كيف أحب زوجي قطًا لكن هذه هي الحقيقة، ولعل الطيور على أشكالها تقع.. فالقط كان يناسبه بالفعل.. قط سيامي قبيح جدًّا على وجهه نظرة شهوانيّة مزعجة وله عينان ثابتتان وقحتان..

مات زوجي فقررت أن أحتفظ بالقط على سبيل الذكرى.. لكن هذا الوغد لم يترك لي فرصة كي أحبه.. كان يجول بين الغرف في توتر مجنون.. ثمّة نوع من النمور رأيته في حديقة الحيوان لا يكف عن الدوران حول نفسه في القفص وقد تذكرت هذا المشهد على الفور..

بدأ يموء وفى البداية لم أفهم ما يقول، ثم ميزت أذناي حروف الكلمة التي لا شك فيها:

- «محمووووود!.. محموووووود!»

كل القطط تقول (داووووود).. لكن يُمكنك بوضوح أن تميز حرفي الميم والحاء في نداء هذا القط..

رفعت:

من الواضح أنّ هذا خداع سمعي.. على كل حال القطط تصدر فعلًا حرفي الحاء والميم وأحيانًا العين والنون والدال..

المرأة:

منذ أسبوع فتحت التلفزيون فوجدت مباراة للأهلي.. وقبل أن أغلق الجهاز وجدت القط يثب إلى الأريكة ليشاهد المباراة في اهتمام جنوني.. وأصدر عواءً مريعًا مع فحيح ثعباني في وجهي عندما كدت أمد يدي لمفتاح الغلق.. كل القطط تعرف كيف تصير مرعبة متى أرادت..

هناك أشياء غريبة.. القط يحبّ أن يجلس على الأريكة ويلعق أصابع قدميه.. لم تكن هذه عادته فيما سبق..

ومن حين لآخر يردد:

- «محمووووود!... محمووووود!»

صرت أرتجف كلما رأيته.. وصرت أغلق باب غرفة نومي عليّ ليلًا، لكنه يواصل خدش الباب وهو يكرر هذا النداء المُلح المعذب..

رفعت:

كل هذا منطقي.. القط صار هو المعادل الموضوعي لزوجك مسألة نفسية معروفة..

المرأة:

لم تنته القصة بعد.. ذات ليلة كنت نائمة والباب موصد، ثم صحوت من النوم على شيء يلعق وجهي وشفتي.. فتحت عيني لأجد هذا المخلوق جاثمًا على صدري.. كيف دخل؟.. لابد أنه وثب على مقبض الباب ففتحه.. جريت وراءه بالمكنسة فكان يتوارى في مكان ما، ثم يظهر عندما تكون هناك مباراة للأهلي أو ليسرق قبلة مني أثناء نومي..

تكلمت مع أخي (ثروت) فجاء بتلك الحقيبة، وبصعوبة بالغة دسّ القط فيها، وقد كلفه هذا جروحًا لا حصر لها في يديه وساعديه، ثم حمله بسيارته إلى الصحراء وتركه هناك.. بعد يومين وقفت على باب الشقة أثرثر مع جارة لي عندما فوجئت بقط سيامي أهلاوي يندفع كالبرق من جوار قدمي ليتوارى داخل الشقة.. لقد عاد!!.. كنت أسمع قصصًا كهذه لكني لم أصدقها..

قمت بتركيب مزلاج لغرفة النوم، لكن كان على أن أتحمل خدش هذا الشيء للباب طيلة الليل..

الآن يمكنني تلخيص الموقف: إن روح زوجي الشريرة لم ترد مغادرة البيت بهذه السهولة لذا تقمصت هذا القط لتعيش من خلاله معي.. يصعب تخيل هذا لكن لا أري الوقائع على ضوء آخر..

نقدت البواب بعض جنيهات فجاء مع ولده وقد بدا كأبي زيد الهلال وهو يحمل تلك الشومة وابنه يحمل أخرى.. وقال لي:

- «معذرة يا هانم.. أرجو أن تغلقي الباب عليك لأنك لن تتحملي ما سترين..»

كنت موافقة.. فقط قلت له:

- «لا تحطم أي شيء في الشقة.. أرجوك..»

أشار لعينيه بمعنى أنه تحت أمري، ثم تواريت في الغرفة وأنا أسمع صراخ الرجل وابنه وعواء القط.. سوف يحطمان رأسه بلا شك.. إن الرفق بالحيوان شيء لا يعرفه هذا الرجل الذي يتسلى بإغراق القطط الوليدة بعد وضعها في كيس قماشي..

ضرب.. صراخ.. ضرب.. أشياء تقع.. ثم دق الباب ففتحته لأجد الرجل منهكًا يقول لي:

- «إنّه سريع الحركة يا مدام.. أي شيطان هذا؟»

ثم انصرف خائب الأمل وإن وعد بأن يحضر بعض السم لإنهاء العملية بالطريقة السهلة..

سم!.... كيف لم أفكر في هذا؟

كان القط يقف الآن في ركن الصالة ينظر لي تلك النظرة الوقحة المزعجة ولا يبدو أنه ينوي أن يطرف بجفنيه.. لا عجب أن اعتبره الفراعنة إلها واعتبره المحدثون شيطانًا....

قلت له:

- «سامحني يا (محمود).. أنا أعرف أنك تعرف أنني أعرف أنك (محمود) ولست القط.. من فضلك اترك هذا البيت.. إن هذا ليس طبيعيًا.. إنّه يخيفني..»

لكنه لم يتحرك.. ظل في البيت يأكل ويتابع مباريات الأهلي..

ثم جاءت ساعة الصفر.. لقد نمت الليلة مبكرًا لكني صحوت بعد نصف ساعة لأجده يلعق وجهي بذات الطريقة.. لكن الجديد في الأمر هو أنني أعرف جيدًا أنني أغلقت الباب بالمزلاج.. لقد انتهت المجاملات ولم تعد هناك أقنعة.. لا مزيد من التظاهر بأنه قط رقيق.. إنّه يعترف بوضوح بأنه كائن شيطاني

- «محمووووود!.. محمووووود!»

اتجهت إلى المطبخ.. قمت بسلق سمكة صغيرة له.. ثم قمت بهرسها.. فتحت زجاجة السم ونظرت خلفي لأتأكد من أنّه لا يراني، ثم أضفت منه كمية وافرة إلى طعامه.. لا أريد أن يتعذب

لكني كذلك لا أريد أن ينجو.. من المحزن لمن كانت في رقتي أن تقوم بتسميم قط، لكن هذا هو الخيار الوحيد أمامي قبل أن أنتحر.. هكذا خرجت إلى الصالة مصدرة الكثير من (البسبسة) ووضعت الطبق الصغير على باب الشقة..

هو الآن قد أكل.. منذ ساعتين.. ترى كم الوقت يلزمه حتى يموت؟.. ليست لديَّ خبرة بالموضوع في الحيوانات..

رفعت:

هذا يعني أنه لم يمت بعد.. القصة ما زالت طازجة..

المرأة:

نعم.. هل عندك فكرة؟.. لماذا يأبى قط أن يموت بالسم؟..

رفعت:

لا أعتقد أنه راسبوتين.. هل السم ما زال صالحًا؟.. بعض السموم تتلف بالتخزين..

المرأة:

لا أعتقد أنّ هذا هو التفسير..

رفعت:

هناك سؤال مهم هنا: لماذا تحتفظ امرأة رقيقة مدللة مثلك بزجاجة سم؟.. لماذا تشعرين بهذا التوتر الذي يذكرني بتأنيب الضمير؟.. لماذا قلت: «ليست لديَّ خبرة بالموضوع في الحيوانات..»؟.. هل لديك خبرة في غير الحيوانات؟

المرأة:

(صمت طويل)

رفعت:

هل تنوين الإجابة؟.. لا أحد يعرف اسمك ولن نتمكن من متابعة المكالمة لأن كل تجاربنا السابقة فشلت كما تعرفين.. لابد أن تستعد مباحث التليفونات مسبقًا..

المرأة:

حسن.. إن اختلاف الجرعات مشكلة.. مثلًا استغرق الأمر ساعة مع (محمود) كي يموت بهذا السم الذي دسسته له في الكفتة، فهل تعتقد أن قط (محمود) يمكن أن يستغرق الفترة ذاتها؟!!

رفعت:

الإجابة هي: لا أعرف.. ما لم يكن القط غير طبيعي فعلًا..

(المرأة تضع السماعة على الفور)

شريف:

لقد قطعت المكالمة..

رفعت:

بالطبع.. بدأ الأمر كشك ثم بدأ يتراكم حتى صار يقينًا.. على كل حال أعتقد أن القط لن يموت بسهولة.. القط الذي يأكل كمية وافرة من السم ويظل حيًّا ساعتين هو قط غير طبيعي.. بالتأكيد ليس طبيعيًا!

الحلقة العاشرة

في غرفة نومي

تحكيها (هانم الخلفاوي)

الرعب المقترن بخزانة الثياب شهير جدًا لدى أية حضارة لديها خزانة ثياب.. إنها تمثل بابًا خلفه عالم مظلم مبهم، ويقود إلى قلعتنا الخاصة التي نشعر فيها بالأمن: غرفة نومنا.. لاحظ أنك ستنام وتصير هشًّا معدوم الحيلة، فماذا عساه يخرج من تلك الخزانة؟

شريف:

هذه حلقة أخرى من (بعد منتصف الليل).. د. رفعت إسماعيل هنا وهو متأهب ومتشوق للرد على مكالماتكم..

رفعت:

متأهب لكن غير متشوق لو شئت الدقة.. لا يمكن أن تصف المحكوم عليه بالإعدام الذي ينتظر أن تنفتح (الطبلية) تحت قدميه بأنه متشوق.. هو فقط متأهب جدًّا..

شريف:

سمعنا في الحلقة السابقة قصة الطالبة التي تنظر لها خزانة الثياب كلما أدارت ظهرها.. تقول إن هذا الشعور قوي لدرجة أنها لم تعد تبدل ثيابها في غرفة النوم.. هل تعتقد أنّ هذا ضرب من الهستيريا؟

رفعت:

الهستيريا تفوح من كل حرف في هذا الكلام.. قلت لها هذا في الحلقة السابقة.. على كل حال، الرعب المقترن بخزانة الثياب شهير جدًّا لدى أية حضارة لديها خزانة ثياب.. إنها تمثل بابًا خلفه عالم مظلم مبهم، ويقود إلى قلعتنا الخاصّة التي نشعر فيها بالأمن: غرفة نومنا.. لاحظ أنك ستنام وتصير هشًا معدوم الحيلة، فماذا عساه يخرج من تلك الخزانة؟ الأطفال في الغرب يتحدثون عن رجل الخزانة ويعرفونه جيدًا.. على كل حال الشعور بالمراقبة أمر جوهري في العصاب..

شريف:

على كل حال نحن بانتظار المكالمة الأولى، وكلنا أمل في أن تكون شائقة.. ربما نستمع لأغنية في هذا الوقت..

(رنين الهاتف)

شريف:

أو ربما لا..

صوت امرأة:

مساء الخير.. أنا (هانم الخلفاوي).. ربة بيت..

شريف:

مرحبًا بك..

هانم:

سمعت برنامجكم.. الحلقة السابقة.. أنا مقيمة في (الجيزة).. والغريب أن المشكلة واحدة..

شريف:

هلا أوضحت من فضلك؟

هانم:

كنت قد فتحت خزانة الثياب لوضع الثياب الشتوية.. أنت تعرف أن أية ربة بيت تنهي موسم الشتاء بغسل الثياب الشتوية وطيها، ثم تفتح خزانة الثياب لوضعها بعد أن تدس بين طياتها حبيبات (النفتالين) منعًا للعثة..

رفعت:

للأسف لم أجرب هذا لأنني كنت بلا أسرة تقريبًا..

هانم:

ألا تفعل المدام الشيء ذاته؟

رفعت:

ليست لي مدام.. لا أدري هل هذا خبر محزن أم مفرح، لكنّها الحقيقة.. بعض الرجال يعتبرونني عبقريًا والنساء يعتبرنني مجنونًا أو مريضًا.. هذا موضوع يطول شرحه.. المهم أنّ هذه من طقوس البيت المصري.. هل لديك أبناء؟

هانم:

نعم.. لديَّ (مروة) في الصف الثاني الثانوي، و(ريهام) في الإعدادية، و(سامي) في الصف الخامس الابتدائي.. زوجي موظف..

شريف:

جميل.. لكن دعينا نواصل لو سمحت..

هانم:

إن خزانة الثياب من طراز عتيق.. ضخمة جدًّا.. بها قسم علوي يصلح لوضع حقائب السفر والبطاطين والثياب التي لا تناسب الموسم، وقسم سفلي للثياب المستعملة.. كنت أقف على أطراف أصابعي فوق الفراش وأنا أضع هذه الثياب.. ثم..

رفعت:

يبدو وضعًا عسيرًا.. على كل حال أكملي قصتك..

هانم:

كما قلت لك رحت أضع الثياب في الركن العلوي.. هنا خيل لي أن شيئًا يتحرك هناك. معنى هذا شيء واحد كما تعلم: فأر.. وأنا لست من الطراز الهستيري الذي يملأ الشارع صراخًا لدى رؤية فأر.. أنا ربة بيت (جدعة) لذا أحضرت المكنسة ورحت أفتش بها هناك.. لا شيء.. هذا مؤكد..

أنهيت مهمتي وتأهبت للانصراف.. لكن ذلك الشعور ظل يضايقني.. هناك من ينظر لي عبر باب خزانة الثياب.. هناك من يراقبني..

جربت عدة مرات أن أنظر إلى الخلف فجأة، لكني كنت دائمًا أرى الباب موصدًاكما تركته.. شعرت بأنني مخبولة لا أكثر..

كنت وحدي في الدار في ذلك اليوم؛ لذا ذهبت إلى المطبخ أعد الطعام لكتيبة الجياع التي ستصل بعد قليل..

عدت إلى غرفة النوم فوجدت أن باب خزانة الثياب موارب!.. أنا أعرف يقينًا أنني أغلقته

رفعت:

قمت طبعًا بحملة تفتيش أخرى..

هانم:

نعم.. فتحت الخزانة وبحثت في كل ركن.. لا شيء.. أغلقت الخزانة بإحكام وواصلت عملي في البيت، لكني عندما عدت إلى غرفة النوم وجدت الباب مواربًا..

رفعت:

لكن هذا لا يدل على شيء.. أبواب خزانات الثياب تنفتح لأسباب عدة.. النجارون ليسوا عباقرة أو معصومين..

هانم:

على كل حال هناك مرآة تجميل في الناحية الأخرى من الغرفة جلست أمامها متظاهرة بأنني أمشط شعري، بينما عيني لا تفارق خلفيّة المشهد التي تظهر خزانة الثياب بوضوح تام..

ماذا تتوقع؟.. رأيت الباب ينفتح ببطء.. في البداية انفتح القسم العلوي، ثم بدأ القسم السفلى ينفتح..

التفت إلى الخلف بسرعة وبحركة درامية، فانغلق البابان كأن شيئًا لم يكن..

لو أردت الدقة لقلت إنني شعرت بأن هناك عينين تتوهجان في ظلام الخزانة، لكني بالطبع لا أستطيع أن أؤكد ذلك..

رفعت:

ولم تخبري زوجك طبعًا..

هانم:

ماذا أقول؟.. إن تهمة الجنون تلاحق النساء أينما ذهبن أنا فتهت الخزانة وعرفت أنها خالية.. ماذا يمكن أن أضيفه لو اعتبرني زوجي مجنونة.. لا شيء.. لقد ابتلعت ما رأيت ابتلاعًا وكتمته.. فقط جلست في الغرفة طويلًا أقرأ القرآن.. كنت أعرف يقينًا أن الأمر لا يتعلق بمفصلات تالفة أو وضع مائل للخزانة.. هذا لم يحدث من قبل طيلة سني زواجي، فلماذا يحدث الآن؟

رفعت:

لابد من بداية لكل شيء.. لكن يبدو أن الأمر لم يتكرر؟

هانم:

عم تتحدّث؟.. عندما جاء الليل رقد زوجي وغاب في نوم عميق.. إنّه دائمًا مرهق شقيان كأنني أقضي يومي في اللعب مع القطط الصغيرة.. تعالى شخيره ومع الشخير شعرت بذلك الشعور الممض بأننا لسنا وحدنا.. كانت خزانة الثياب تقع إلى ناحيته من الفراش والمرآة إلى ناحيتي.. الظلام يعم الحجرة لكن هناك قبسًا خافتًا من الصالة.. مصباح واهن كالعادة..

رفعت:

تلك (السهرية) اللعينة.. المصباح الخافت الذي يصر الناس على إيقاده في الصالة ويجعل الدماء تجف في عروقك.. أنا أعتقد أن الظلام المطلَق المسطح أكثر بعثًا على الاطمئنان..

هانم:

في هذا الضوء الخافت الأصفر كنت أرى انعكاس خزانة الثياب في المرآة وأنا راقدة على جنبي مفتوحة العينين وظهري لزوجي بين النوم واليقظة رأيت الباب ينفتح في بطء..

هكذا وثبت جالسة ونظرت إلى خزانة الثياب خلف ظهر زوجي النائم فرأيتها مغلقة.

رفعت:

هذا أسلوب روايات الرعب البريطاني.. الرعب خارج مجال الرؤية.. الرعب الذي لا يحدث أمامك بشكل واضح أبدًا..

هانم:

لهذا تعتقد في كل لحظة أنك تخرف.. على كل حال عدت إلى النوم على جانبي وأنا أنظر إلى المرأة في ثبات.. لو كان هناك شيء فسوف أظل ساكنة حتى أراه.. في الضوء الخافت الذي لا يظهر شيئًا تقريبًا بدا لي أنني أرى فتاة تخرج من الخزانة فتاة مدثرة في الظلام.. تنظر لزوجي ولي.. تقف جوار الفراش للحظات، ثم تتراجع بظهرها لتغيب في الخزانة من جديد..

كان قلبي يوشك على أن يثب من فمي، لكنك بالتأكيد لاحظت أنني قوية الأعصاب؛ لذا فقد أضأت الغرفة فتململ زوجي ومضغ شيئًا ما.. ركضت إلى خزانة الثياب وفتحتها.. لم أجد شيئًا سوى الثياب المعلقة إياها.. أزحتها جانبًا ورحت أفتش.. لا.. لم يكن هناك ظهر متحرك للخزانة ولا باب سرّي..

وكان تقديري للموقف أنني جننت أو أنّ هناك (بسم الله الرحمن الرحيم)..

رفعت:

بطبيعة الحال ملت للرأي الثاني..

هانم:

بالطبع.. يحتاج المرء إلى جهد كبير حتى يشك في قواه العقليّة، وقد احتفظت بصمتي على كل حال، إلى أن حدث بعد ثلاثة أيام أنني ظللت أعمل بعد ما نام الجميع.. كان زوجي قد أحضر طنا من السمك البلطي الذي لا يمكن حفظه في الثلاجة من دون تنظيف.. انتهيت من عملي في الثانية بعد منتصف الليل.. دخلت غرفة النوم لأنام عندما وجدت الخزانة مفتوحة.. لم أوقد النور ومشيت نحوها حثيثا..

رفعت قدمي وخطوت إلى الداخل.. وقفت بين الثياب المعلقة هنا أدركت لشدة ذعري أنه لا يوجد ظهر للخزانة.. يمكنني أن أدخل بلا نهاية..

تقدمت وأنا أتحسس طريقي إلى الداخل مدركة مدى غرابة وسخف موقفي.. لكن العالم الذي عبرت إليه كان مظلمًا تمامًا.. لا أرى أي شيء. فقط تعثرت في شيء طري على الأرض فأوشكت على السقوط.. إنّه جسد.. صرخت.. هنا سمعت صرخة مماثلة عالية وانغرست مخالب في وجهي..

لا أعرف كيف تمكنت من العودة إلى داخل خزانة الثياب وخرجت منها متلاحقة الأنفاس..

ما رأيك يا د. رفعت؟.. أنا لن أستطيع المبيت في الشقة يومًا واحدًا بعد اليوم..

شريف:

نفس قصة الأسبوع السابق تقريبًا.. هل نحن نعاني وباء خزانات الثياب المفتوحة؟

رفعت:

القصة السابقة كانت من الجيزة كذلك.. أليس كذلك؟

شريف:

بلى.. وما معنى هذا؟

رفعت:

قبل أن تكملي.. هل أنت واثقة من أن (مروة) ابنتك ليست هي الطالبة التي اتصلت بنا الأسبوع الماضي؟

هانم:

نعم؟.. فتاة الأسبوع الماضي كان اسمها (غادة)..

رفعت:

الأسماء لا تدلّ على شيء.. كل من اتصل بنا كان له اسم مستعار.. أتكلم عن الصوت..

هانم:

بيني وبينك.. لا أعتقد.. ربما لو سألتها.. أنا كنت جوار المذياع ولم تكن أمامي وقتها.. ربما كانت في غرفة الجلوس تتصل بكم؟.. من الوارد أن تغير نبرات صوتها..

رفعت:

تلك الفتاة كانت تشكو من شعورها بأن الخزانة تراقبها.. في ذات ليلة شعرت بأن هناك بابًا مفتوحًا عبرت منه إلى عالم مظلم فجأة شعرت بأن شبح امرأة يوشك على الانقضاض عليها ففرت.. في مرّة أخرى فوجئت بامرأة تخرج من خزانة الثياب وتصرخ.. فصرخت بدورها وغرست أظافرها في وجهها..

هل لي أن أعرف إن كانت ابنتك اعتادت النوم على الأرض؟

هانم:

نعم.. الفراش مخصص لـ (ريهام) و(سامي).. (مروة) تفضل النوم على الأرض، إلى أن ننتهي من تخصيص غرفة لـ (سامي)..

رفعت:

وخزانة الثياب في غرفة الأطفال تستند على نفس الجدار..

هانم:

لا.. هناك خزانة لكنّها لا تستند إلى الجدار ذاته..

رفعت:

يمكن القول بسهولة إنك كنت في الظلام.. لم تعرفي أنّ هذه غرفة أبنائك.. وأن من خطوت فوقها على الأرض هي (مروة).. (مروة) بدورها تعاني رعبًا هائلًا من خزانة الثياب.. لا تعرف أن المرأة التي خرجت من خزانة ثيابها في الظلام هي أمها..

شريف:

رفعت.. هي أنكرت أن يكون الجدار مفتوحًا في ظهر خزانة الثياب..

رفعت:

من تحدث عن فتحة؟.. الأمر يتعلق بفجوة مكانية تتحدى القوانين الفيزيائية.. خزانة الثياب هي بوابة هذه الفجوة.. والفجوة تنقلك من خزانة الأم إلى خزانة الأبناء.. مروة كانت تشعر أن الخزانة تراقبها.. نفس الشيء مع الأم..

شريف:

كلام صعب التصديق.. وما سبب هذه الظاهرة لو صح كلامك؟

رفعت:

شيء أضيف إلى خزانة الثياب مؤخرًا.. شيء استجد هل أنت واثقة من أن الثياب الشتوية لم تكن تحتوي تعويذة ما؟

هانم:

بالطبع لا.. لكن انتظر.. من السهل أن نتأكد من نظريتك إن مروة لم تنم بعد.. مروة.. هل اتصلت ببرنامج إذاعي الأسبوع الماضي؟.. خذي السماعة وكلمي عمك د. رفعت..

مروة:

آلو؟.. من؟

رفعت:

برنامج (بعد منتصف الليل) يا مروة لو كان هذا اسمك الحقيقي.. هل كنت أنت ضيفة الحلقة السابقة؟

مروة:

لا أفهم شيئًا.. لم أعرف أنّ هناك برنامجًا بهذا الاسم، وبالتأكيد لم أتصل.. هل لي أن أفهم؟

شريف:

شكرًا يا مروة.. سوف تفسر لك الوالدة كل شيء. أرجو أن تعطيها السماعة..

مروة:

إنها ليست هنا.. لقد هرعت مسرعة إلى غرفة النوم، كأنها سمعت صوتًا ما من هناك.. سوف أناديها لك..

شريف:

هكذا تنتفي نظرية الفجوة هذه.. بيني وبينك هي نظرية غريبة..

رفعت:

ما زلت أعتقد أنها فجوة تقود إلى مكان ما.. ربما عالم ما.. فقط هي لا تقود لغرفة نوم الأولاد..

شريف:

ولماذا انفتحت؟

رفعت:

من خبرتي مع (جانب النجوم) أعرف أنّ هناك فجوات تظل مغلقة إلى أن يقرر شيطان ما أن يوسعها ويخترقها إلى عالمنا.. لا أعني أنها فجوة تقود لجانب النجوم، لكنّها شيء شبيه..

شريف:

والأدهى أن تكون هناك أكثر من فجوة في الجيزة بالذات.. إن كلام الطالبة في الحلقة السابقة لا يفارق مخيلتي..

مروة:

د. رفعت!.. أمي ليست في غرفة النوم.. ليست في البيت كله!.. فقط خزانة الثياب مفتوحة وبداخلها أحد خفيها!.. لم أجد الخف الآخر.. ما معنى هذا الذي يحدث؟.. بالله عليك قل لي!.. د. رفعت.. لماذا لا تتكلم؟!!!

الحلقة الحادية عشرة

أكـــواريـــوم

يحكيها (ســامـح)

فقط حوض الأسماك المضيء كالعادة والأسماك تنظر لي في حيرة.. لقد رأت كل شيء.. تعرف كل شيء لكنها لا تعرف كيف تشرح لي..

شريف:

هذا برنامجكم (بعد منتصف الليل).. اليوم نحتفل بالحلقة الخمسين من البرنامج.. خمسون حلقة قدمنا فيها عشرات القصص المرعبة.. فبعض الحلقات كان يضم مكالمتين أو ثلاثة..

رفعت:

وبعض الحلقات لم يحدث فيه شيء على الإطلاق.. فقط مكالمات خاطئة ومعاكسات.

شريف:

على الأقل هذا يدل على الأصالة.. لو كان البرنامج مرتبًا من قبل لكان في دقة الساعة.. على كل حال نحن في انتظار أول مكالمة للحلقة الخمسين، وقصتك ستكون هي وقود آلة الرعب حتى لا تتوقف أبدًا..

(رنين الهاتف)

شريف:

آلو.. برنامج بعد منتصف الليل..

صوت طفل:

أنا (سامح)..

شريف:

يبدو أنّ هذا واحد من الصغار الذين لا ينامون ويشكوننا بلا انقطاع لأننا مرعبون.. هل معك واحد كبير يا صغيري العزيز؟

سامح:

لا.. كلهم ناموا..

رفعت:

في العادة عندما يتصل طفل، يكون السبب تافهًا إلى درجة أن تصاب بنزف مخي، أو مرعبًا إلى درجة تجعل قلبك يتوقف!

شريف:

هذا صحيح فعلًا.. لم نتلق مكالمة من طفل إلا وتندرج تحت واحدة من هاتين القائمتين.. ذروة التفاهة أو ذروة الرعب ربما هناك قائمة ثالثة هي قائمة الكذب.. الأطفال يحبون الكذب جدًّا وكذبهم مقنع دائمًا لأنّه يأتي من حيث لا نتوقعه.. كم سنك يا صغيري؟

سامح:

أنا في التاسعة..

شريف:

جميل.. جميل.. الصف الثالث الابتدائي ما لم يكن متخلفًا عقليًا.. هل تعرف ما هو هذا البرنامج يا سامح؟

سامح:

نعم.. لا تعاملني كطفل من فضلك.. أكره طريقة (برافو) و(هل أنت مجد في المدرسة؟) هذه.. هذا البرنامج يناقش القضايا المخيفة بالمشاركة مع د. (رفعت إسماعيل).. أنا أعرف ما أفعله.. صدقني.. تأكد من أنك لن تلقى طفلًا في ذكائي وثبات أعصابي مهما حاولت..

شريف:

هذا واضح.. آسف يا عم سامح.. قل لي ما يضايقك..

سامح:

لقد نجحت في الامتحان وكانت أمنيتي حوض أسماك زينة صحيح أن عندي كلبًا لكنه لم يعد يسليني.. وعدني أبي بالحوض وابتعته معه منذ ثلاثة أيام.. حوض كبير جميل به عدة أسماك رائعة.. الفانتيل وسمكة السيف والموسى وسمكة القط.. كان هناك مقاتل سيامي لكنه مات في نفس اليوم..

شريف:

هذا محزن..

سامح:

صرت أقضي أكثر وقتي أمام هذا الحوض.. أنا أكلمك وهو أمامي الآن.. أحب هذه الإضاءة الخافتة عندما تكون الغرفة مظلمة.. ألوان السمك جميلة فعلًا..

رفعت:

لكن هذا ليس مرعبًا على قدر علمي..

سامح:

أمي تكره السمك وتقول إنِّه كائن مقزز.. تقول إن للحوض رائحة كريهة أفسدت جو البيت

رفعت:

كل الأمهات لهن رأي سلبي في أي شيء يحبه الأطفال الشيكولاتة تتلف أسنانك.. البلل بالماء يسبب لك الالتهاب الرئوي.. لعب الكرة يتلف الثياب.. القطط الصغيرة تجلب الأمراض باختصار: كل ما يحبه الأطفال مؤذ كريه.. والعكس صحيح طبعًا..

شريف:

فعلًا.. أعتقد أنها رغبة خفية في التدخل في كل شيء لا تقبل الأم أن يمارس الطفل حياة هي ليست فيها..

رفعت:

مع الرغبة في الشعور بالأهمية.. ذلك الشعور اللذيذ بأن الحياة ستفسد والشهب ستهوي لتحرق المدن الآمنة لو لم نكن موجودين.. عرفت مديرين يتغيبون عن العمل لبضعة أيام، ثم يستشيطون غيظًا عندما يكتشفون أن كل شيء كان يسير بدقة الساعة في غيابهم.. هذا يثير جنونهم..

شريف:

نعم.. لا يرضيهم إلا أن يعودوا ليجدوا أن الخراب عم كل شيء..

رفعت:

كذلك الآباء.. معظم الأمهات يشعرن بضيق خفي لو سافرن وعدن فوجدن أن أبناءهن بخير.. هن لا يقلن هذا صراحة، لكنك ترى لمسة خيبة أمل على وجوههن كأن..

سامح:

هل الحلقة مخصصة لسماع كلامكما؟.. إذن لماذا تكلفان الناس مالًا وجهدًا؟

رفعت:

هذا صحيح.. معك حق.. كنا نتكلم عن حوض السمك..

سامح:

نعم.. نعم.. حوض السمك الذي أقف أمامه الآن.. يوم ابتعناه نام الجميع، لكني نهضت من غرفة نومي ليلًا لأقف أمامه في الظلام.. مع الوقت شعرت بأنني داخله فعلًا، وشرعت أسبح مع الأسماك وأناور معها.. هناك قلعة. هناك سفينة قراصنة غارقة..

رفعت:

كل هذا جميل..

سامح:

ليس تمامًا.. كانت هناك تلك السمكة من طراز (سمكة القط) التي تعابث الحصى في قاع الحوض.. يبدو أنها تهوى الحفر هكذا بدأت طبقات الحصى تنزاح جانبًا ورأيت.. رأيت ذلك الإصبع البشري ذا الظفر المسود..

شريف:

ماذا؟.. أنت رأيت إصبعًا؟

سامح:

نعم.. ليس إصبعًا بل ما يبدو أنها يد كاملة مدفونة تحت طبقات الحصى.. لقد أحضرت شبكة السمك ورحت أحاول كشف الحصى أكثر.. نعم هي يد مبتورة.. لا شك في هذا.. صحيح أنها منتفخة أتلفها الماء لكن لا شك في طبيعتها.. هناك خاتم صدئ حول الإصبع. إنها لامعة ملساء تشعر بأنها لزجة..

رفعت:

ظاهرة اسمها التصبن الرمي.. يتحول الجسم إلى ما يشبه الصابونة الزلقة.. هذا يحدث للأجسام التي تغمر تحت مياه باردة..

شريف:

أنتما مجنونان.. طفل يجد يدًا مبتورة في حوض السمك فيصف المشهد بدقة، وعجوز لا يهتم سوى بالتفسير العلمي للموضوع!

رفعت:

أعتقد أن وقت الصراخ انتهى وحان وقت الفهم.. أمقت الناس الذين يجدون كفًا في حوض السمك، فيضيعون الوقت في الهستيريا..

سامح:

نعم.. نعم.. لقد بكيت كثيرًا وارتجفت..

رفعت:

لا ألومك، لكن لا تقل لي إنك لم تخبر الكبار.. هذا يفوق طبائع الأمور..

سامح:

قلت لأبي لكنه لم يصدّق، وقد مد شبكة السمك وراح يعبث في الحصى بعض الوقت فلم يجد شيئًا غريبًا.. أنا متأكد من أنّه بحث في ذات الموضع.. ثم قال لي إنّه من الخطأ بعثرة حصى الحوض وإن الفرصة قادمة بعد أشهر عندما نقوم بتغيير الماء.. أمّا الآن فلا مجال للهلاوس..

أمي لم تصدق طبعًا.. نسيت أن أخبرك أنني واسع الخيال وأؤلف قصصًا كثيرة.. لهذا لم يصدقني أحد..

شريف:

أرجو ألا تكون هذه القصة من ضمن أعمالك الإبداعية!

سامح:

لا.. لكني لا أستطيع أن أثبت كلامي.. إما أن تصدقني أو لا..

رفعت:

واضح أنك رأيت هذه الكف مرّة أخرى..

سامح:

نعم.. بعد يوم رأيتها وكانت في موضع مختلف تمامًا.. هل تعتقد أنها تمشي؟

رفعت:

لا.. لا أعتقد.. الشيء الميت يظل كذلك لو أردت رأيي لكن دعنا نرتب أفكارنا.. هل أنت متأكد من أنّ هذه اليد ليست ضمن زينة الحوض؟.. ربما هي شكل تجريدي عجيب للزينة، أو هي شعبة مرجانية غريبة الشكل..

سامح:

لو لم أعرف شكل اليد البشريّة فأنا أبله.

شريف:

إذن.. لو لم تكن كذابًا تتسلى علينا، فالقصة هي أن من باع لكم الحصى وهو طبعًا بائع أسماك الزينة وضع هذه اليد دون أن يدري.. فهل يعرف صاحب اليد؟

سامح:

إنه مجرد متجر صغير.. يبدو أن صاحبه صديق أبي.. اسمه (صالح) ولا يبدو من هذا النوع.

رفعت:

لا أعرف كيف يبدو الذين من هذا النوع، لكن يحتاج التصبن الرمي من ثلاثة أسابيع إلى ستة أشهر.. هذه اليد في الماء منذ وتلك الفترة، وهذا ينفي أنها كانت ضمن حصى الحوض.. هذه اليد كانت مغمورة في الماء منذ زمن..

شريف:

والتفسير؟

رفعت:

لا تفسير عندي الآن.. لكن هذه من مزايا التصبن الرمي.. كل شيء يظل سليمًا يمكن فحصه.. لربما استطاع رجال الشرطة معرفة الكثير عن صاحب اليد.. كل أصابع الاتهام تشير إلى صاحب متجر السمك.. هذه اليد كانت عنده مغمورة بالماء وقد قرر التخلص منها..

سامح:

المشكلة هي أنني لا أجد اليد أمامي الآن.. لحظة حتى أقلب أكثر.. أقلب.. أقلب.. لقد صار الحوض كأن عاصفة رملية هبت عليه.. لكن.. بالفعل لا أجدها..

رفعت:

ابحث في القلعة أو السفينة الغارقة.. أنت تعرف أن قاع تلك الأحواض يكون مزدحمًا..

سامح:

لا.. نحن لا نفتش عن حصوة.. لا يوجد شيء..

رفعت:

هذا جميل.. على الأقل أنت تخلصت من المشكلة.. لا أعتقد أن الأطفال يصابون بهستيريا لكنك طفل غير عادي..

شريف:

هل عندك خبرة بشيء مشابه؟

رفعت:

لم أجرب كثيرًا التعامل مع الأيدي المبتورة، فقط لي قصة واحدة منذ عامين مع يد قاتل ممسوس اسمه (بيزارو).. كان هذا المجنون إيطاليًا مولعًا بخنق الناس، ويبدو أنه كان مصابًا بلعنة

من لعنات القرون الوسطى تلك. وخلال صراع بيننا بترت يده اليمنى وألقيتها في النهر، وكانت النتيجة هي أن الرجل عاد بشريًا ولم يخف امتنانه لي من أجل تحرير إرادته، بينما اليد جاءت في حقائبي إلى مصر وراحت تطاردني مثبتة أن لها إرادة خاصة بها.. كانت تنوي الانتقام مني في يوم ثلاثاء، وهو يماثل اليوم الذي وقعت فيه الواقعة.. وكانت تعرف عنوان البيت.. يا لها من ذكريات جميلة!

شريف:

قصة مفزعة.. وكيف تخلصت منها؟

رفعت:

شيء يشبه ما يقومون به للتخلص من القط.. أغريتها بدخول صندوق، ثم قمت بإلقائها في مياه البحر في الإسكندرية..

شريف:

هل تعرف ما أفكر فيه؟..

رفعت:

نعم.. تفكر في أنني أكذب..

شريف:

لا.. أفكر في إمكانية أن تكون هذه اليد تحررت.. عاشت في قاع البحر أو على الشاطئ، ومضت تزحف بين الرمال وجدت طريقها إلى صندوق رجل يجمع المحار والقواقع من على الشط من أجل أحواض سمك الزينة.. في المتجر تمكنت من دخول هذا الحوض بينما صاحبه يعده للمشتري الجديد المشتري الذي هو أبو (سامح).. توارت هناك بين طبقات الحصى تنتظر..

رفعت:

فكرة رهيبة لكنّها عسيرة التصديق..

شريف:

هذا هو الحل الوحيد.. لا أتصور أن يقوم رجل بإعداد حوض سمك من دون أن يلاحظ يدًا وسط الحصى.. كما قال (سامح): اليد ليست حصوة.. لا يمكن ألا تراها. أعتقد أنه سيكون غريبًا أن توجد يدان حيتان في مصر في الوقت ذاته.. نحن نتكلم عن ذات اليد غالبًا..

سامح:

د. رفعت!. لقد وجدتها!.. إنها في ركن الحوض عند طرفه العلوي.. تحاول التسلق والخروج لكن الزجاج زلق لهذا تسقط في كلّ مرّة..

رفعت:

سوف تتمكّن من الخروج.. لو كانت هي يد (بيزارو) فعلًا فسوف تتمكّن من الخروج.. (سامح).. لا أجد حلًا سوى أن تخبر أباك بكل شيء.. تضعان هذه اليد في صندوق محكم وتتخلصان منها في مكان جاف يستحيل أن تجد البلل فيه.. من الواضح أنها تنتعش كلما وجدت الماء.. لم أكن أعرف هذا عندما ألقيتها في النهر، ولا عندما تخلصت منها في البحر. الآن يبدو الحل منطقيًا واضحًا.. خذ الحذر!.. إنها أقوى مما تظن، وهي قادرة على خنقك أو تمزيق وجهك في أية لحظة إنها تثب كالعناكب!

سامح:

لا وقت لهذا.. لقد خرجت فعلًا!.. أزاحت الغطاء وانسلت من تحته.. مبللة يسيل منها الماء وتزحف على المنضدة..! د. رفعت!.. ماذا أعمل؟

رفعت:

اجر!.. أغلق عليها الحجرة واجر بسرعة!..

سامح:

إن سلك الـ.. سلك الهاتف طويل.. سوف..

(صوت نباح):

إن كلبي (روي) قد شعر بها.. إنّه شرس جدًّا وها هو ذا يهاجمها.. إنّه في حالة غير طبيعية.. يبدو أنها أثارت هلعه..

رفعت:

لا بأس.. قد يكون هذا هو الحل.. لكن لا تنتظر.. اخرج وكلمني من غرفة أخرى!

(صوت نباح يستمر ثم ينقطع)

سامح:

لقد أغلقت الباب.. لحسن الحظ أن أحدًا في الشقة لم يسمع كل هذا الصخب.. نومهم ثقيل جدًّا وباب الغرفة مغلق.. لقد توقف النباح.. أعتقد أنه مزقها إربًا..

شريف:

لا بأس بإلقاء نظرة لكن كن حذرًا.. لتر إن كان (بوي) هذا قد..

رفعت:

روي.. اسمه (روي).. لا يوجد كلب ذكر إلا واسمه (روي)، ولا توجد كلبة إلا واسمها (توسكا).. هذا هو القانون..

شريف:

هلم!.. انظر ماذا حدث..

سامح:

المكان هادئ و... ولكن.. أين (روي)؟.. د. رفعت!.. إنه راقد في ركن الغرفة المظلم!.. لقد تحطم عنقه!.. لقد مات!

رفعت:

ماذا؟.. وأين اليد؟

سامح (يبكي بكاء طفل صغير):

لا أثر لها!.. لا أثر لها يا د. رفعت.. فقط حوض الأسماك المضيء كالعادة والأسماك تنظر لي في حيرة.. لقد رأت كل شيء.. تعرف كل شيء لكنّها لا تعرف كيف تشرح لي.. هه؟.. لقد انغلق باب الغرفة عليَّ!!!.. من أغلقه؟.. د. رفعت.. أنا خائف.. خائف!

الحلقة الثانية عشرة

زنزانة خريولسن

يحكيها (نيازي إبراهيم)

كلامي اليوم عن باب.. هذا الباب الذي أتحدث عنه لم يكن في مصر.. لم يكن في مكان تعرفه.. الباب الذي أتحدث عنه لم يكن بابًا خشبيًا أو حديديًا، بل كان أقرب إلى جدار سميك يُهدم ولا يُفتح.. لكن الناس هناك كانوا يسمونه بابًا..

شريف:

صباح الخير.. كما تعرفون هذا برنامجكم (بعد منتصف الليل).. نحن بانتظار مكالماتكم التي تحكي لنا عن خبراتكم المروعة..

رفعت:

إن مكالماتكم هي وقود آلة الرعب التي نريد لها ألا تتوقف أبدًا..

(رنين الهاتف)

رفعت:

هذا حظ حسن أكثر من اللازم..

شريف:

آلو.. مساء الخير يا سيدي..

صوت رجل:

أنا (نيازي إبراهيم).. أدرس التاريخ في كلية آداب (....)

رفعت:

مرحبا بك..

نيازي:

أنا مثلك يا د. رفعت درست في إنجلترا.. في (ويلز) بالذات كانت لي خبرة غير مألوفة مع عوالم ما وراء الطبيعة، وهي خبرة مخيفة بحق لدرجة أنني أجد صعوبة في بدء النوم منذ ذلك الحين..

رفعت:

جميل.. جميل هذا ما نريده.

نيازي:

كلامي اليوم عن باب.. هذا الباب الذي أتحدث عنه لم يكن في مصر.. لم يكن في مكان تعرفه.. الباب الذي أتحدث عنه لم يكن بابًا خشبيًا أو حديديًا، بل كان أقرب إلى جدار سميك يهدم ولا يفتح.. لكن الناس هناك كانوا يسموّنه بابًا..

كان هذا في كهف قرب قرية في (ويلز)..

كان الناس يمرون جوار الكهف، ويتحدثون عن (خريولسن) الحبيس هناك.. عن الساحرة التي أنجبته.. والتي أعدمتها محاكم التفتيش هناك.. وكيف دفنوها فيما يعرف بزنزانة (خريولسن)..

رفعت:

أشعر أن القصة مألوفة.. (خريولسن)؟.. هل أنت متأكد؟

نيازي:

بالطبع لا يوجد عندهم حرف خاء، لكن النطق العربي ينطق حرفي KH تلقائيًا بهذه الطريقة..

رفعت:

المشكلة أنني كنت هناك!

نيازي:

هذا عجيب.. أنت من دون غيرك يا دكتور؟.. وفتحت الجدار؟

رفعت:

نعم.. ورأيت ما وراءه.

نيازي:

إذن توافقني على أنّ هذه أشنع خبرة واجهتها في كل حياتك.. أحمد الله على أنني سأموت فتموت هذه الذكرى معي.. رأيت كل شيء؟.. حتى الـ...؟

رفعت:

لا تقل من فضلك.. دعنا نصغ إلى باقي قصتك لنرى إن كانت تختلف عن خبرتي، لكن لا تصف أي شيء.. فقط أعط انطباعًا عامًا.. أكرر: هذا خطر جدًّا..

نيازي:

عندما احترقت الساحرة أنذرت الناس بأن ولدها (خريولسن) سيعود بعد أعوام حين يفتح الزنزانة رجل أجنبي.. وما لم ينسه أحد هو أن المصائب لم تفارق القرية لحظة طيلة عمرها المديد..

وبعد أعوام جاء مغامر إلى الكهف.. كان هذا بريطانيًا يدعى د. (هنري لستر).. فتنته الأسطورة وصمم على أن يجد رجلًا أجنبيًّا يفتح تلكم الزنزانة..

كانت فكرته أن يناول الضيف المطرقة، ثم يطلب منه أن يفتح الجدار بنفسه لأنّه ضيفهم..

طبعًا ما كان الضيف الأحمق ليعلم أنه أول دم أجنبي يدخل الكهف منذ سبعة أجيال.. حقًّا لم أتصور أنني كنت هذا الضيف.. إن معلوماتي تقول إن.....

رفعت:

نعم.. نعم.. من يتكلم يدفع الثمن..

نيازي:

دعك من هذا الهراء.. إنني..

(صوت ارتطام بالأرض ثم صوت فحيح وحشرجة. ثم صمت)

شريف:

د. نيازي.. هل أنت معنا؟

رفعت:

لا تتعب نفسك.. لو كان صادقًا بصدد هذه الزنزانة فمن المستحيل أن يكون معنا.. الشيء الوحيد الذي أنقذني كل هذه الأعوام هو أنني لم أجد الفرصة لاستكمال تلك القصة اللعينة قط..

شريف:

هذا يعني أن الحلقة انتهت..

رفعت:

بالضبط..

شريف:

وسوف نسمع غدًا عن وفاة مدرس بكلية الآداب بنوبة قلبيّة؟

رفعت:

على الأرجح لو لم يكن الخط قد انقطع فحسب.. لا يمكن أن تلوم الرجل على أنه مات وأفسد عليك الحلقة..

شريف:

وهل تنوي أن تحكي لنا ما رأيته هناك؟

رفعت:

في آخر لحظة في حياتي وعندما أوقن بالموت سأفعل.. ليس قبل ذلك.. صدقني..

الحلقة الثالثة عشرة

مـــو هبتـــي

تحكيها (رانية محمود)

حاولت إقناعهم فلم يقتنعوا.. ثم وجدت أن هذا يعطيني مزية لا شك فيها ومن الخسارة أن أفسدها بأن أخبر بها الجميع.. هذا سلاح سري فلأبقه في جيبي..

شريف:

هذه حلقة جديدة من برنامجكم (بعد منتصف الليل).. وصلتنا مكالمات عديدة الأسبوع الماضي تطالب بتقديم موعد البرنامج قليلًا؛ لأن هذا الموعد يتوافق مع نوم الكثيرين.. في الحقيقة لو قدمنا البرنامج قبل منتصف الليل، لما صار اسمه (بعد منتصف الليل).. نحن هنا نبحث عن الليل.. عن السكون.. عن صوت المذياع الهادئ الذي تسمعه وحدك فتشعر بأنه يكلمك أنت ..

رفعت:

الرعب كائن ليلي عندما تسمع قصة مرعبة ظهرًا تبدو لك سخيفة.. (لافكرافت) نفسه قالها.. أعتقد أن سادة الرعب القوطي مثل (ستوكر) و(والبول) ما كانوا ليحققوا نجاحهم في عصر الكهرباء. تصوّر سماع قصة (دراكيولا مصاص الدماء) جوار المدفأة ليلًا والعواصف تزأر بالخارج.. لابد أنها منحت رجفة ممتازة للكثيرين..

شريف:

يقولون لنا كذلك إن نسبة الذين يلقون حتفهم أثناء المكالمات صارت عالية.. أربعة موتى كل شهر.. هذا كثير..

رفعت:

هذا شيء مهم في هذه المكالمات.. الضحيّة يكلمك وأنت عاجز عن مساعدته أو عمل شيء.. وأنت تدرك أن ما يحدث له يحدث في الوقت الحقيقي.. في هذه اللحظة بالذات.. هذا شيء مخيف..

(رنين الهاتف)

شريف:

أعتقد أنّ هذه مكالمتنا.. آلو..

صوت فتاة:

مساء الخير.. أنا رانية محمود تخرجت في كلية التجارة.. أبي نحات شهير لكني لن أذكر اسمه..

رفعت:

مرحبًا يا رانية..

رانية:

أعتقد أنك تؤمن بالقدرات الخارقة.. أنا أملك قدرة خارقة لم أسمع عن شخص امتلكها من قبل.. لم أسمع عنها أصلًا..

رفعت:

وما هي؟

رانية:

أنا أرى الهالات الحيوية المحيطة بالناس.. قرأت عن تصوير (كيريليان) وعرفت أن الناس تنبعث منهم أشياء كهذه، لكني أراها بعين المجرّدة.. كنت في الثالثة عشرة من عمري عندما رأيت هذا.. في البدء أصابني الهلع، ثم عرفت معنى ما أراه..

رفعت:

كيف ترين هذه الهالات؟

رانية:

كيف تبدو الهالات؟.. تبدو كهالات... فقط لونها يتغير حسب مزاج الشخص عندما تكون زرقاء أعرف أنه هادئ.. المزاج المتعكر يجعل لونها قرمزيًا أو أحمر.. المرض يجعل لونها أصفر أو أخضر.. مثلًا قابلت صديقة لي كانت في أحسن رونق لها، وكانت مرحة متأنقة.. لكني رأيت تلك الهالة بلون أخضر لذا سألتها عما إذا كانت مريضة.. قالت لي إنها تشعر بتوعك شديد وإن برازها مدمم، لكنّها صممت على أن تبدو بحالة طيبة..

عندما مرضت جدّتي قال جميع الأطباء إنها ستشفى من النوبة القلبيّة، لكني دخلت العناية المركزة لأراها فوجدت بقايا هالة خضراء تشحب ببطء حولها. خرجت وقلت لأمي إن جدّتي لن تعيش، وقد لامتني واغتاظت مني، لكن جدّتي لم تعش حتى المساء..

رفعت:

لا شك أنها موهبة مفيدة بشدة، لكنّها ككل المواهب التي تزيد من حساسية المرء تجعل الحياة صعبة. ذو السمع المرهف أكثر من البشر العاديين يجن بعد فترة.. الصمم يسبب البارانويا على فكرة.. الأصم يعتقد أن كل الناس يسخرون منه أو يتآمرون ضده هذا يدلك على أن الله أعطانا القدر الكافي الصحيح من الحواس.. زيادة الحواس تقود للجنون.. نقصها متعب..

رانية:

هذا صحيح.. من العسير أن تعيش وسط هذا المهرجان من الألوان.. الأسوأ هو تلك الحساسية التي تجعلني أميز الكاذبين بسهولة، وهذا يزيد الأمر خطورة.. لن تصدق كون قابلية الانخداع نعمة حتى تعيش ما عشته أنا..

رفعت:

هل يعرف ذووك بهذه الموهبة؟

رانية:

حاولت إقناعهم فلم يقتنعوا.. أبي فنان متفتح الذهن، لكنه ليس على استعداد لقبول كلام كهذا.. ثم وجدت أنّ هذا يعطيني مزية لا شك فيها ومن الخسارة أن أفسدها بأن أخبر بها الجميع.. هذا سلاح سرى فلأبقه في جيبي..

كان هذا إلى أن ظهر (عصام) في كليتنا..

رفعت:

اسمه يوحى بقصة حب..

رانية:

ولا حتى قصة مدينتين.. هو مجرد شاب صموت غريب الأطوار ظهر في الكلية في السنة الأخيرة.. لسبب ما قرر أنني فاتنة وبدأ يحاول التعرف بي..

هو ليس منفرًا لكني في الحقيقة عجزت تمامًا عن رؤية أية هالة تخرج منه..

هذا غريب، لكني تعودت على أن أناسًا كثيرين لا تخرج منهم الهالات في كل الأوقات.. هناك الناس المرحون الصريحون وهؤلاء يبدون كالألعاب النارية.. هالاتهم لا تتوقف لحظة..

إلا أن (عصام) لم يبعث أية هالة في أي وقت، وهذا جعلني أنفر منه.. ذات مرة كان جالسًا في الحديقة مع فتاة أعرفها، وكانا يتكلمان همسًا.. لم أسمع حرفًا فرحت أتابع هالة الفتاة كانت غاضبة لأن الهالة كانت حمراء جدًّا.. هنا من عصام يده وأمسك بيد الفتاة.. أمسكها برغم إرادتها..

في اللحظة التالية بدا أن الفتاة مرهقة فعلًا.. ترنح رأسها وأغمضت عينيها.. كل هذا معتاد ويمكن أن يمرّ مر الكرام، لولا أن هالتها انطفأت.. فجأة لم تعد حولها هالة..!

أصابني هذا بالذعر ورحت أراقب المشهد.. رأيت الفتاة تمسك برأسها وتصمت.. نهض وابتاع لها بعض العصير فشربته وعندما عادت تتكلم كانت قد هدأت.. وبدأت هالة زرقاء تنبعث منها..

رأيت موقفًا مماثلًا عندما احتكت سيارته - وهو يملك سيارة على فكرة - بسيارة أجرة عند باب الكلية.. كان سائق الأجرة سليط اللسان عالي الصوت وقد نزل من سيارته وراح يُطلق السباب.. دفع (عصام) في صدره مرّتين هنا احتد (عصام) وأمسك بمعصم الرجل..

رأيت الرجل يترنح ويتهاوى على ركبتيه.. لحظة ثم هزّ رأسه كأنما يفيق من كابوس مريع.. لا داعي لأن أقول إن هالته انطفأت للحظات..

أخيرًا ركب الرجل سيارته وابتعد، وعلى وجهه نظرة غبية كأنه كان في الحمام عندما فتح أحدهم الباب عليه..

أمّا القصة الأغرب فهي موضوع أستاذ الكلية الذي عاقب (عصام) على كلامه في المحاضرة، وعده بأنه سيرسب هذا العام في مادته..

بالنسبة للناس العاديين، يعتبر هذا موقفًا معتادًا، لكن (عصام) انتظر الأستاذ بعد المحاضرة ولحق به وراح يتكلم، ثم مد يده يمسك بمعصم الرجل.. كان هذا خرقًا صارخًا لقواعد حدود الجسد.. لا أحد يمسك بالأستاذ من معصمه. توقعت أن الأمور ستسوء، لكني رأيت الأستاذ يترنح، ثم يستند على سيارة وجدها بجواره.. انطفأت هالته.. لما استعاد روعه تملص من عصام وابتعد كأنه يرى ثعبانًا..

وجدته يقف أمام (كشك) في شارع الكلية ويلتهم ثلاث قطع من الشيكولاتة وزجاجتي عصير.. هذه سمة مهمّة للذين يلمسون عصام.. إنهم يصيرون جوعى بتوحش..

بعد هذا دخل الأستاذ المستشفى في تلك الليلة.. كان مصابًا بإعياء غريب.. زرناه نحن تلاميذه فلاحظت أنه لا هالة حوله على الإطلاق.. فقط يخرج منه خيط أخضر أو خيطان من حين الآخر.. وعرفت أنها النهاية..

بعد هذا بثلاثة أيام توفي إلى رحمة الله..

لقد انتهى العام الدراسي وتخرجنا، لكني أعرف يقينًا أن (عصام) هذا ليس كائنًا بشريًا عاديًا.. ما رأيك؟

رفعت:

قصة غريبة هي، لكني سمعت مثلها من قبل.. ما تتكلمين عنه هو مصاص دماء نفسي!

شريف:

هل هناك شيء كهذا؟

رفعت:

نعم.. مصاص الدماء النفسي لا يمتص دمك ولكن يمتص حيويتك وطاقتك النفسية، ويتركك مجوفًا خاويًا.. تشعر بالحيرة والضياع والجوع.. ومن الملاحظ طبعًا أن أعماله تمر بلا ملاحظة ولا إدانة، والأهم أن الخبراء يؤكدون أنهم كثيرون من حولنا. لكن (رانية) بموهبتها رأته متلبسًا بالجريمة..

شريف:

وما هو الحل؟

رفعت:

لا يوجد حل.. لا يُمكنك أن تذهب وتقتله وتقول لرجال الشرطة إنك قتلته لأنّه مصاص دماء نفسي.. لا يوجد حل سوى تجنبه..

شريف:

ومن أين جاء؟

رفعت:

لا أحد يعرف.. على الأرجح هو يبيت ليلته في المقابر كأي مصاص دماء يحترم نفسه.. لا يمكن أن تكون له أسرة..

رانية:

هذه معلومات غريبة، لكني على كل حال لا أحتاج إلى نصيحة كي أتجنبه.. الغريب أنه تقدم لي مؤخرًا!

رفعت:

هذا عجيب..

رانية:

نعم.. جاء بيتنا وطلب يدي.. أبي يفكر في الأمر كما قال لكني طلبت منه ألا يقابله ثانية ولا يصافحه بأي ثمن..

رفعت:

جميل. جميل.. أعتقد أنك أحسنت صنعًا.. هل من شيء تضيفينه؟

رانية:

لا.. شكرًا.. لقد أكسبت القصة معنى جديدًا.. سوف أفكر في الأمر..

(تضع السماعة)

شريف:

موضوع غريب، لكن الحلقة قصيرة جدًّا به رغم هذا..

رفعت:

لا يمكن أن تطالبها بأن تموت في نهاية الحلقة كي تكون الأحداث مشبعة..

(رنين الهاتف)

شريف:

آلو

صوت رجل:

برنامج بعد منتصف الليل؟.. أنا (عصام)!.. (عصام) الذي كانت تلك الآنسة (رانية) تتكلم عنه.. لقد سمعت جلسة النميمة الممتعة هذه..

رفعت:

إذن أنت مصاص الدماء النفسي إياه؟

عصام:

ليس اسمي (عصام) طبعًا.. إن كلامك دقيق بالفعل.. لا يهم أن تعرف من أين جئت ولا متى كانت بدايتي.. فقط هي قد فضحتني على مسامع الجميع.. دعك من رأيها السلبي في شخصي، وليكونن انتقامي مروعًا ما لم تسمح هي لي بتفسير موقفي!

(يضع السماعة)

رفعت:

هذا جميل.. إنّه مجنون كذلك.. بيني وبينك من مصلحته أن يتخلص منها.. من يملك سرًا كهذا يهمه أن يتخلص ممن يملك موهبة كهذه..

شريف:

وماذا تفعل؟

رفعت:

تأخذ الحذر طبعًا.. لا يوجد الكثير مما يمكن عمله..

(رنين الهاتف)

شريف:

هذه الحلقة ناجحة أكثر من اللازم.. آلو..

رانية:

ألو.. هل سمعت يا د. رفعت؟.. لقد عرف نفسه على الفور ماذا أفعل؟.. أنا وحدي هنا في البيت لأن الجميع سافروا..

رفعت:

يا لك من حمقاء!.. لماذا لا تفتحين باب الشقة لتسهيل الأمور عليه؟.. أشياء كهذه لا تعلن في المذياع..

رانية:

أنا أخاطبه عبر برنامجكم وأقول له: أنا أدعوك يا عصام. أدعوك لأن نجلس ونتفاهم وتفسر موقفك.. أنا أعتذر لك بشدة..

رفعت:

أنت أغبى من عرفت، وهذا يدل على أن الذكاء والقدرات الخارقة ليسوا مرتبطين..

رانية:

د. رفعت.. هناك من يعبث في باب الشقة.. هذا حقيقي أقسم بالله..

رفعت:

ما هو عنوانك؟.. سوف نبلغ الشرطة حالًا..

رانية:

رقم 8 شارع الزهور.. الطابق السادس..

رفعت:

جميل جدًّا.. هناك عشرات المدن وفي كل مدينة عشرة من شارع الزهور هذا.. أنت دقيقة جدًّا..

رانية:

إن الباب ينفتح.. إنّه يمشي في الصالة..

رفعت:

هذا لأنك دعوته يا حمقاء.. قلت له (أنا أدعوك) مرّتين.. مصاص الدماء لا يهاجم إلا من يدعوه، وقد وجد الباب مفتوحًا.. قولي لي.. من أين تتكلمين؟

رانية:

من غرفة الصالون.. الهاتف هنا..

رفعت:

هل توجد أمامك تلك (البونبونيرة) القبيحة التي تجدينها في كل صالون مصري؟

رانية:

نعم..

رفعت:

اجمعي في قبضتك كل ما تجدين من بونبون وعندما يظهر انثريه على الأرض..

شريف:

ما معنى هذا؟

رفعت:

لو كان هذا مصاص دماء فعلًا، فهم مصابون بوسواس قهري يجعلهم يتوقفون ليجمعوا أي شيء على الأرض.. كانوا ينصحون من يمشون في مناطق موبوءة بمصاصي الدماء أن يملئوا جيوبهم بحبيبات الفول.. عندما يظهر الوغد بعثر الفول على الأرض.. هذا يشغله مؤقتًا..

رانية:

هذا هو!..

رفعت:

انثري البونبون ثم اركضي نحو الباب..!

(ضوضاء - صراخ)..

رفعت:

رانية..!.. ماذا حدث؟

(صرخة مريعة ثم صمت)..

رفعت:

رانية!

رانية:

أخيرًا.. لقد تم كل شيء..!

رفعت:

ما الذي تم؟

رانية:

عندما انحنى يجمع البونبون وثبت من خلف ظهره.. جريت إلى ورشة عمل أبي وأحضرت الإزميل الثقيل.. عدت إلى الصالون لأجد هذا الفتى منهمكًا فيما يجمعه.. هويت على ظهره بين لوحي الكتف بالإزميل!

رفعت:

يا حمقاء!.. هل جننت؟

رانية:

أنت قلت إنّه مصاص دماء وأنا فعلت ما يجب عمله!

رفعت:

ما زال احتمال أنه مجنون أو أنك مجنونة قائمًا!.. قلت لك إنّه من المستحيل أن نقتل شخصًا ونقول للشرطة إنّه مصاص دماء نفسي!.. أنت مخبولة!.. أنا قلتها من قبل..

رانية:

أنا فعلت ذلك وأشعر براحة.... أنظر لأناملي فأرى الهالة الزرقاء الهادئة.. لقد فعلت الشيء الصحيح.. هذا الرجل اقتحم البيت والباب موصد.. انشغل بجمع البونبون.. كل من لمسه مرض.. هل ما زال عندك شك؟

رفعت:

نحن لا نقتل الناس لأسباب كهذه..

رانية:

لكن الناس تموت لأسباب كهذه.. والآن يا د. رفعت أنا مضطرة لتركك.. الجثة التي أغرقت الغرفة كلها بالدماء.. الإزميل.. الباب المفتوح.. استدعاء الشرطة.. علي طن من الأعمال قبل أن يعود والداي من الخارج!.. شكرًا لك وشكرًا للبرنامج..

(تضع السماعة)

رفعت:

لقد صار هذا البرنامج خطيرًا..

شريف:

حتى لو كانت القصة صحيحة مائة بالمائة فكيف تقنع بها أية محكمة؟

رفعت:

على كل حال هناك محاولة اقتحام شقّة على فتاة وحيدة.. هناك تهديد واضح سمعناه في الهاتف.. كانت حالة دفاع عن النفس لا شك فيها وأعتقد أنها ستنجو بما فعلته.. المهم ألا يكون هذا الفتى مجرد بريء أحمق آخر..

الخاتمة

هذه آخر مجموعة عندي من حلقات (بعد منتصف الليل) ولا أعتقد أنني سأجد المزيد لأنني لا أعيش في قبو بل في شقّة يصعب أن تتوارى فيها أشياء كثيرة.. لقد استنفذت ثلاث عشرة حلقة بمعجزة ما..

جولة هي بين عدة قصص تتراوح بين مصاصي الدماء وأحواض السمك التي تحوي أطرافًا مبتورة، والذين يخرجون من تحت القبور، وخزانات الثياب الوقحة، والقطط الأهلاوية الثرثارة.. بعض القصص كان مقلبًا وبعضها كان حقيقيًا.. بعض القصص انتهي نهاية مفتوحة مما يروق لي ويستفزكم، وبعضها انتهي نهاية موصدة.. بعض القصص ينتمي فعلًا لعالم ما وراء الطبيعة، وبعضها ينتمي لعالم الواقع المفزع.. أرجو أن تكون هذه الحكايات قد راقت لكم وأن تكونوا قد وجدتم فيها بعض التسلية..

كانت لي قصة مع شريف السعدني ربما أحكيها لكم فيما بعد، لكن لا علاقة لها بالبرنامج..

هذه آخر مجموعة من (بعد منتصف الليل) وعلى الأرجح هي آخر حلقة رعب كذلك.. لقد أحببت حلقات الرعب كثيرًا لأنها تخرق الجو الروتيني العام للأحداث، لكن كل شيء يجب أن ينتهي يومًا ما..

والآن أترككم لإجازة الصيف التي فات منها وقت لا بأس به.. لا أعرف الكثير عن نظم التعليم الحديثة هذه، لكن ما سمعته هو أن أول دقيقة من العام الدراسي التالي تبدأ بعد انتهاء آخر امتحان في العام الدراسي الحالي!

لا أعرف إن كان هذا سيجعل منكم عباقرة أم مجانين، فأنا لست خبيرًا تربويًا.. أنا مجرد شيخ مسن يحكي قصصًا مخيفة..

لنا لقاء - إن شاء الله - في الكتيب القادم، وأرجو أن يكون ممتعًا أو مسليًا أو على الأقل غير ممل.

إن (أسطورة الظلال) كما تعرفون هي قصة أخرى!..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم *الإيداع*: ٦ ٦٠ ١

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقـــدمـة

الخـاتمـة

Notes

[1←]
لا تنس الزمن الذي تدور فيه الأحداث.

[2←]
آمل ألا ينسى القارئ أننا لا نراعي الدقة في ترتيب الحلقات..

[3←] فكرة وسواس الإيقاعات مستوحاة من إحدى قصص مختارات هتشكوك، لكن لا علاقة بتاتًا بين أحداث هذه القصة والقصة الأصلية..

[4←] في هذا الوقت لم تكن هذه الأغنية معروفة إلا لقلة من اليساريين. ومن الواضح أن الكلام عنها محرج للمذيع الشاب باعتباره كلامًا في السياسة..

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

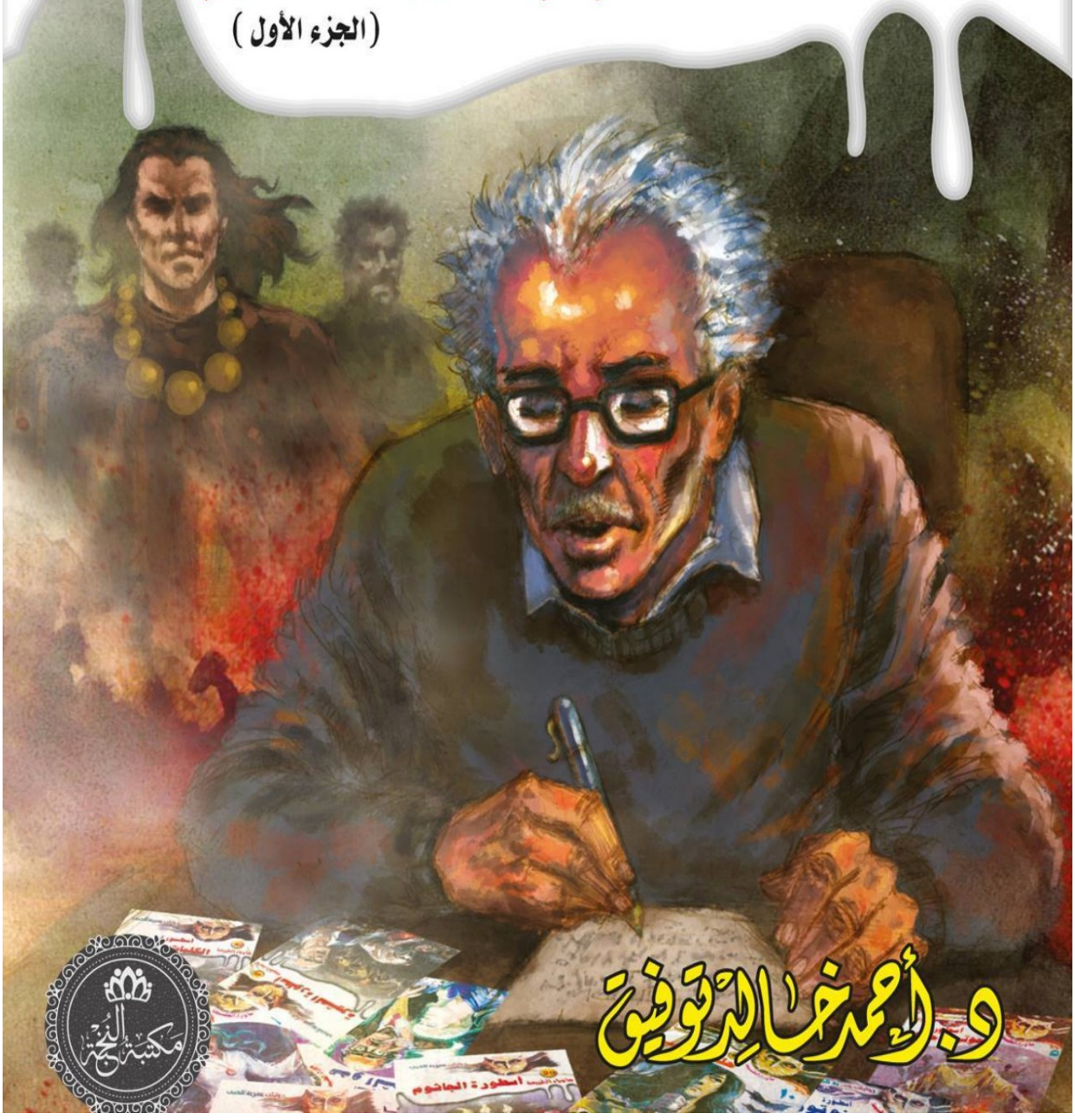


ما وراء الطبيعة

80 (1)

أسطورة الأساطير

(الجزء الأول)



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



80 (1)

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة الأساطير

الجزء الأول

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبـس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصـرى مائة فى المـائة
لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

●

إشراف
الأستاذ / حمدى مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر سواء النشر الورقى أو الإلكترونى ، وكل اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر ورقى أو إلكترونى دون الحصول على تصريح كتابى من الناشر يعرض المرتكب للمساءلة القانونية .

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ـ منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ـ 4 شارع الإسحاقى : بمنشية البكرى هاتف المطابع : 24677371 ـ 24677183 ـ فاكس : 24677188 .. هاتف الفجالة : 25908455 ـ 25885346 ـ فاكس / 25890401 هاتف روكسى مصر الجديدة 26823792 ـ22586197 فاكس/ 22596650
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ـ هاتف / 03/4970840 ـ 03/4970850

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

80

•

أسطورة الأساطير

(الجـزء الأول)

بقلم : د. أحمد خـالد توفيق

الغـــلاف بريشـــة : أ. أيمـن القـاضي

المؤسسة
العربيـــة الحديثـــة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

المقدمة

أنا مرهق فعلًا..

ظللت أتكلم عشرين عامًا بلا توقف.. حكيت أشياء كثيرة جدًّا. هناك بالتأكيد قصص لم أحكها أو نسيت أنني مررت بها.. هذا شيء طبيعي لمن عاش حياة كحياتي لقد تعبت وأشعر أن جفني ثقيلان جدًّا، وأن كتفي يزنان عدة أطنان..

يقول لي المؤلف:

- «سوف تواصل الكلام..»

فأقول وأنا أحك رأسي:

- «لا تستطيع إرغامي على شيء.. أنا أقوى منك في كل شيء، وقد برهنت عشرين عامًا على أنني أقوى وأكثر حقيقة منك.. إن الناس يكفون عن الكلام عندما أدخل قاعة مزدحمة.. الفتيات الشابات الحسناوات يطلبن الزواج مني.. هناك أكثر من لوحة فنية تمثلني، رسمها أصدقائي.. وهناك عدة تماثيل صغيرة.. أمّا أنت فمجرد مؤلف، لا يعبأ بك أحد..»

يقول المؤلف وقد بدا أن كرامته جرحت:

- «سوف تتكلم..»

- «حاول أن ترغمني..»

هنا يتحول صوته إلى ما يشبه التوسل أو التسول ويقول:

- «لا تكف عن الكلام.. لا أقدر على الحياة من دونك.. لقد اعتدت أن أكتبك..»

قلت له متثاقلًا:

- «لا أعرف إن كنت أنت قد اعتدت كتابتي أم أنا الذي اعتدت أن تفعل هذا بي.. لا يهم.. أنا تعبت.. أريد أن أناااااااااااااام..»

أنا الدكتور رفعت إسماعيل، أستاذ أمراض الدم المتقاعد وخبير الأشباح وعوالم ما وراء الطبيعة، ما زال كثيرون لا يعرفون ما يعتقدونه بصددي، نصاب أم عالم أم شخص مسل لا أكثر.. لا أعرف..

لكني عشت حياة حافلة ورأيت الكثير..

يبدو لي أنه ما من مومياء أو شبح أو مكان لعين في الأرض كلها لا يعرفني، ومن جديد أكرر أن رجل الثلوج الرهيب لو دق بابي لرحبت به مهللًا. عندما تبتعد عن المستنقع تكتشف أن مغامراتك فيه لم تكن سيئة جدًّا..

أنا د. رفعت إسماعيل سأحكي لكم اليوم قصة أخيرة.....

إنها أسطورتي الخاصّة..

تمهيد

ماجي يا ملاكي..

سامحيني على ما سأسببه لك من ألم. سامحيني على حشد الذكريات الذي سأتركه لك، وعلى الدموع التي ستسيل من عينيك الساحرتين في ليالي الشتاء.

أحب أن أموت في صمت دون صخب. أحب أن أموت كصرصور لا يعبأ أحد به. لكنك هنا، ولم يعد عمل شيء آخر ممكنًا..

في الثالثة صباحًا سمعت كعبي حذائيك.. أعرف هذه المشية ثم سمعت اللكنة البريطانية الراقية الممتازة وأنت تتكلمين مع ممرضة..

عرفت أنه أنت لأنّه لا توجد ماجي أخرى، وشعرت بخجل شديد. أكره أن تريني في هذه الصورة هناك أوغاد في كل مكان ويبدو أن أحدهم كره ألا يبرق لك في إنفرنسشاير. أعرف أنك جئت من المطار توًّا.. يمكنني أن أرى قامتك النحيلة الرشيقة، وذلك البول أوفر على ساعدك.. الوجه النحيل النبيل الجميل البليل.. تعبير (وجه طويل) يستعمل بمعنى (وجه حزين)، وهذا تعبير دقيق فعلًا.. التنورة الكاروهات السكوتش التي أعشقها..

ماجي هنا..

في الظلام تشعر بالشفتين الدافئتين على كفك المجعدة المعروقة، وصوت من ترانيم الملائكة يقول:

- «يا صغيري العزيز.. ماذا فعلوا بك؟..»

في 90% من لقاءاتي مع ماجي أسمع هذه الجملة. المرأة الوحيدة التي لا أخفي ضعفي أمامها.. بل لربما أظهره أكثر لأنعم بحنان الأمومة الدافق هذا.. لو كانت امرأة أخرى لفردت عضلاتي ورسمت ابتسامة مستهترة على وجهي كأنني فتوة السيرك.. سرطان؟.. وماذا يهم؟

قلت بذلك الصوت المبحوح المذبوح الذي صار صوتي منذ سنة:

- «تمنيت كثيرًا ألا تري هذا المشهد..»

كنت محاطًا بالأجهزة والخراطيم كأنني في فيلم خيال علمي. الإمبراطور الأخطبوط أو ذلك المخ المحفوظ في قارورة زجاجية ويحكم الفضاء.. رأتني هي مرارًا في العناية المركزة، لكن لا بد من أن نعترف بأن الموقف أسوأ من المعتاد هذه المرّة..

لا بأس.. لن أزعم أبدًا أنني فقدت صحتي فجأة. لا أذكر نفسي إلا مريضًا.. حتى في طفولتي كنت أصاب بنزلات شعبيّة في كل لحظة..

لقد صار الوهن والمرض جزءًا رئيسًا من حياتي. لهذا لا أعرف كيف يعيش غير المرضى، ولا معنى أن تصعد الدرج دون أن تتقطع أنفاسك ويؤلمك صدرك وتسود الدنيا أمامك. لم آكل أي وجبة دون نار في معدتي. لم أشم أي شيء دون أزمة ربوية...

لم أملك الصحة قط لهذا لا أشعر بفقدها..

ماجي!... هل هي حقًّا تقترب من عمري؟.. لم أشعر قط بذلك وإنما ظلت هي هي كما كانت منذ.. منذ كم عامًا؟.. هي لا تشيخ أبدًا كأنها الأنهار أو القمر.. بينما أبدو أنا كالرنجة المجففة إذا غمرت في حمض الكبريتيك لمدّة أسبوع، ثم انتزعوها من فم كلب مسعور..

صباح اليوم سمعتها تتكلم في الردهة الخارجية، وهي لا تعرف أن أذني حساستان لا تفقدان كلمة... كانت تتكلم مع د. منصور أستاذ جراحات الأنف والأذن والحنجرة. كانت تتساءل إن كان السفر لبريطانيا يمكن أن يفيدني.. مستشفيات جامعة (داندي)..

كان يرد عليها بصوت يحاول أن يجعله خفيضًا.. يقول:

- «هناك ثانويات في كل مكان.. لهذا لم نستأصل الحنجرة. لم يعد أمامنا سوى العلاج الإشعاعي والكيماوي. هذا هو العلاج هنا وفي كل مكان في العالم..»

ساد صمت ثم سمعتها تقول:

- «كم من الوقت؟..»

- «كم ماذا؟..»

- «أنت تفهم..»

ساد الصمت من جديد ثم قال:

- «لا أحد يعرف.. لكننا قريبون جدًّا..»

كنت أرمق السقف مفكرًا..

قال لي د. لوسيفر إنّه يرى في داخلي المرض العضال الذي سوف يودي بي، وقد راق له هذا كثيرًا. قال إنّه سيرى سيناريو عذابي من جانب النجوم ويستمتع به جدًّا.. لابد أنه جلب كيسًا كبيرًا من اللب وعلبة فيشار ضخمة وعدة عبوات من الكولا.. لا شك أن الشياطين جميعًا تحتشد حول أجهزة التلفزيون.. المقاهي كلها كاملة العدد في جانب النجوم..

لن يمسني لوسيفر.. الكتاب مربوط بشريط لاصق إلى بطني، وقد رفضت بإباء أن أنزع هذا الكتاب بأي طريقة إلا وقت الاستحمام. برغم هذا أعرف أن بوسعي التخلي عنه.. لوسيفر يفضل أن ينتظر لينعم بعذابي على أن ينهي ألمي بطريقة سهلة..

يبدو أن كولبي محظوظ.. ألم يقل لي:

- «الآن سوف أعلق هذه المشنقة.. وسوف أتدلى من الملاءة جثة هامدة. إنّه سوف يأتي من أجلك.. كلاهما آت من أجلك سواء لوسيفر أو كراولي.. لذا أنصحك أن تفعل مثلي فلا يوجد حل آخر.. ابحث عن ملاءة تتدلى منها.. هذا هو الحل الوحيد صدقني..»

سمعت الخطوات الرشيقة..

رأيت الملاك القادم من الشمال يدخل إلى الحجرة..

جلست على مقعد جوار الفراش. أدركت بسهولة أنّ هذا البلل تحت عينيها ليس بسبب الأمطار..

تقاطعت أناملنا وهمست في لطف:

- «للأبد؟..»

تساءلت في الظلام:

- «ماذا؟..»

- «ستكون ملكي للأبد؟..»

ساد صمت طويل، ثم قلت عن غير اقتناع:

- «وحتّى تحترق النجوم كلها وحتّى... ... ...»

هنا سمعت من يتنحنح.. وإلى الغرفة دخل عزت وكاميليا..

كان هناك جو من المرح الصناعي المفتعل. أعرف هذا الجو جيدًا.. تقول أنت إن عزت يبدو أكثر سمنة وتضحك في افتعال، فيقول وهو يضحك في افتعال أكثر أنه يأكل كالحلاليف. فتقول د. كاميليا بافتعال أكثر وأكثر: يا عم ياعم.. لماذا لا تدعونا لنأكل معك؟ إذن أنت بخيل.. فيتظاهر بأنه لا يسمع الكلام ويقول إحم.. تذكرت أن عندي موعدًا!... إلخ!

طيبا القلب لطيفان.. لكن أهم المتع التي تنتظرني يوم الرحيل هي أنني سأتخلص من هذا السخف..

لتذكر الأرض أنني لم أتحمل الملل والتكرار والشعارات المحفوظة طيلة حياتي. أرجو الله ألا يتحقق كابوسي القديم أن يجلبوا رجلًا سخيفًا مملًا ليدفنوه فوقي في القبر. سوف أصاب بالجنون فعلًا.

لم تكن هناك صعوبات لغوية مع ماجي كلاهما يتكلم الإنجليزية نوعًا ويفهمها، كما أنّ ماجي تجيد فن إبطاء كلامها كلما قابلت من هو ليس بريطانيًّا.. ثم إنها تعرف الكثير من العربيّة.. لا تنس الأيام التي عاشت فيها في قريتي مع أختي..

✷ ✷ ✷

كنت أعرف بالضبط سبب آلام العظام هذه..

سبب لحظات التوهان وفقدان الوعي..

إنها الثانويات.. أنا طبيب وأعرف القصة جيدًا.. الورم الخبيث في حنجرتي يرسل أزهاره وهداياه القاتلة في كل صوب. إنه مثل دين جديد يحاول أن ينتشر.. لديه أتباع مخلصون في كل جزء من جسدي بعد قليل سيصير جسدي كله مؤمنًا وأنتهي أنا...

في تلك اللحظات كنت أعيش تجارب كاملة وأخوض مغامرات مدهشة.. سوف أبهرك لو أنك سمعت بعضها لكني للأسف كنت أصحو ناسيًا كل شيء..

مشكلتي الأخرى التي تعلمتها من حياتي هي أن الغرفة غير خالية.. إنها مزدحمة كأنها حافلة في وسط القاهرة ساعة الذروة.. لكننا لا نرى. في قصة شهيرة للافكرافت مُنح البطل القدرة على رؤية هذه الكائنات عن طريق جهاز خاص، حتى أنه جُنّ..

يهتز رأسي..

هييه إنّه يفقد الوعي!

يميل..

إنّه يغيب.. هل يفعلها في هذه المرّة؟.. فلننتظر ولنحبس الأنفاس..

أرفع رأسي بسرعة مذعورًا..

للأسف.. لقد صحا ثانية.. محاولة جيدة. دعونا نعد اللقطة ببطء..

ويتصاعد الهتاف من مدرجات الشياطين.. كل الشياطين التي مررت بها في حياتي يشاهدون الإعادة ويتناقشون حول المشهد. حول أخطاء اللاعبين الآخرين.. لو أحسنوا اللعب لكنت جثة هامدة الآن..

فقط تدخل الممرضة لتحقني بشيء ما ثم تخرج..

أنام من جديد..

أفتح عيني لأرى ماجي تفعل شيئًا ما جوار الفراش.. تنسق علب الدواء. تنسق أزهارًا.. ثم يحل الظلام فأطلب منها متوسلًا أن تعود للفندق، فتطلب مني في حرارة أن أظل بخير حتى الصباح..

أكره نفسي يا ماجي..

لا أريد أن أعذبك أو أؤلمك بأي شيء. تمنيت أن تصلك البرقية النظيفة الباردة وأنت في إنفرنسشاير في القصر جوار المدفأة.. كنت ستتنهدين في حزن ثم تنسين الأمر برمته. لكنك هنا في الحرب ذاتها.. ليتني أعرف من الحمار الذي طلب من سيدة الدياجير أن تأتي..

أنت الآن تعرف القصة.. تعرف أنني كنت أحكي جل ذكرياتي وأنا مصاب بسرطان الحنجرة. وقد توغل هذا الداء الوبيل جدًّا.. التدخين له ثمن فادح على الأرجح. ربما لهذا لاحظ بعضكم أن صوتي صار مبحوحًا مع الوقت، وأن انتباهي يتشتت كثيرًا.. أخطائي صارت بالجملة.. هناك قصص تغير فيها اسم البطل عدة مرات.

هذه النبتة التي أطل عليها من النافذة.. أوراق نصف خضراء نصف صفراء.. تذكرك بورقة التوت التي تستر بها فينوس نفسها في لوحة بوتيتشيلي الشهيرة.. ما اسمها؟. اسم النبتة لا اللوحة.. لكن لو سألت أحدًا لاتهموني بالجنون..

في الفراش لا تسلية لي إلا القراءة والكتابة..

جلب لي عزت بعض الأوراق والأقلام. هكذا رفعت الوسادة ورحت أحاول أن أدون هذه التجربة. ما الجدوى؟.. لن أستعمل هذه الخبرات فيما بعد. لكن ما جدوى حياتنا ذاتها إن لم ننقل خبراتنا لجيل تال؟..

سوف أبحر وسط ذكرياتي.. سأحاول أن أتذكر ما فاتني ما لم أحكه لك.. ما كنت قد نسيت أنني عشته..

سوف تكون هناك هلوسة كثيرة، لكن تذكر أن دمي مفعم بالمورفين والبيتادين.. اقبل كلماتي كما هي ولا تلمني يا صاحبي..

فريكيكو لا تلمني.. على رأي سيد الرواية نجيب محفوظ في (ميرامار)..

اسمي رفعت إسماعيل..

ر.. ف.. ع.. ت.. إ.. س.. م.. ا.. ع.. ي.. ل..

- 1 -

الغابة عميقة مظلمة عذبة..

لكن لديَّ مواعيد يجب أن أفي بها..

وأميالًا يجب أن أقطعها..

قبل أن أنام...

روبرت فروست

✷ ✷ ✷

أعتذر بشدة أولًا لأنني لا أنتوي سرد أي تفاصيل عن الكينونة.. كما قلت لك هناك أسرار من الخير أن تموت مع المرء. لن أحكي لك كيف عرفتها ولا من هي.. أعرف أنك راغب بشدة في معرفة الأمر لكني لا أستطيع. يكفينا استنتاج أنها كيان واسع المعرفة.. خطر جدًّا.. على الأرجح يمكن أن أقابلها في صورة بشرية متنكرة. نتبادل الرسائل التي أكتبها بدمي وأحرقها.. رسائلها أجدها تحت وسادتي وهي تستعمل ورقًا مريبًا أعتقد أنه من جلد بشري مدبوغ. لم تقل هي هذا لكن بوسعي أن أخمن..

بسهولة أعرف شكل خطاباتها. شكل المظروف الغريب طريقة الغلق مع خاتم من الشمع. الكتابة بالحروف القوطية على المغلف. جو محاكم التفتيش وصكوك الغفران..

اليوم وجدت تحت وسادة فراش المستشفى الخطاب التالي:

عزيزي رفعت:

هذا هو خطابي الأخير لك سواء رددت أو لم ترد أنت على وشك ممارسة عادة الفناء والتلاشي ككل قومك. ولعمري هذه عادة سيئة لا أعرفها وقد فشلت في أن أخلص البشر منها. لسبب ما يحبون أن يموتوا وتتوقف أنفاسهم ويخضر لونهم وتمتلئ بطونهم بالديدان.. لن أفهمهم أبدًا..

على كل حال تذكر أنّ هذه ليست سوى مرحلة، وأن الحياة مستمرة.. أنت ذاهب للقاء خالقك حيث يتم الحساب النهائي والحقيقي لحياتك. سوف تعرف إن كنت موفقًا أم لا. لا أجد ما أقوله

سوى أن أطلب منك ألا تحزن.. يؤسفني الفراق، لكن تذكر أنني فارقت آلاف البشر ممن كانوا مثلك من قبل لا يمكن أن أقول إن لك وضعًا خاصًا أو متميزًا..

هذا هو خطابي الأخير.. ربما أحاول أن أخفف آلام النهاية عنك إذا فشل المورفين، لكن أعتقد أن الأخير كاف.

شكرًا لك.. كانت معرفتك ممتعة..

بإخلاص:

أنت تعرف من.... ...

✷ ✷ ✷

كان خطابًا رقيقًا مفعمًا بالأمل كما ترون.. أجمل خطاب يمكن أن ترسله لشخص مريض..

هذه الكينونة لن تكف عن إشعاري بالخجل من لطفها ورقتها.

لا أستطيع حرق الخطاب هنا، لذا دسسته بين صفحات الكتاب العملاق الذي أربطه لبطني، ورقدت أنظر للسقف.. كم مرة في حياتي نظرت للسقف لأرى كائنًا مخيفًا يتشبث به؟؟؟ هذه المرّة لا أرى سوى كشاف النيون الأنيق البارد المحايد. كشاف سمج لا مبال من فرط ما رأى من موت ومرض..

وأحاول أن أتذكر....

تلك الرسالة التي وصلتني يومًا ما منذ أعوام:

عزيزي رفعت:

أنت تعرف أنني أنذرك من الخطر في أوقات بعينها، وهذا لأنني أرى ما خلف الأستار كأن الأستار لا وجود لها. في عالمك يوجد مخلوق مريب..

كانت هناك في القرون الوسطى أمة من الوحوش تحيا في جزيرة في المحيط، ثم بادت فلم يبق منها إلا عشرة مخلوقات أو أكثر قليلًا هذه الكائنات تبدو كقطط أو أفاع أو كلاب أو وطاويط.. لا يهم...

هذه المسوخ تدعى (مولوخات). ولديها قدرة مذهلة على تغيير الشكل..

ما لا تعرفه ولا يعرفه البشر هو أنّ هناك مخلوقًا منها في مصر الآن... هذا المخلوق يغتذي بالدم واللحم البشري، ولكنّه يبدو للناس شيئًا طبيعيًا برئ المظهر. لا أحد يقدر على القبض عليه أو

الكشف عن حقيقته. اليوم أعرف أنه قريب منك جدًّا.. إنه في دائرة عالمك..

ربما كان هذا بطريق الصدفة، وربما أرسله خصمك العتيد لوسيفر. المهم أن عليك أن تجده وتحاول تدميره بأي شكل.. لا أقدر على أن أفصح أكثر لكني أقدم لك هذه النصائح:

- أنفك قد يخبرك بالحقيقة

- النار قد تحل المشكلة

- سوف تجد المعلومات اللازمة قرب شجرة عتيقة

- ليس هذا أفضل وقت لطلب يد فتاة

- الصباح المبكر أفضل وقت

تذكر هذا فلربما نجحت في أن تبقى حيًّا....

بإخلاص:

أنت تعرف من.... ...

✷ ✷ ✷

يجب أن أكرر هنا إن هذا خطاب قديم.. ربما يعود لعشر سنوات سابقة..

كنت في ذلك الوقت أمشي وآكل وأتشاجر وأصعد الدرج لابد إذن أنّ هذه من القصص التي لم أحكها لك بعد..

شعرت بقلق بالغ.. الكينونة تعرف ما تقول، ومعظم نبوءاتها لها طابع مصيري قدري يذكرك بنهاية العالم.. دائمًا لا تعطى تعليمات واضحة، لكنّها تعطي كلمات عامّة.. بعضها مفيد وبعضها يضلل أكثر مما يفيد..

هناك خطر داهم إذن..

أنا أعرف الكائنات التي تغير شكلها هذه Shapeshifter. هناك تراث هائل منها في قصص الرعب والأساطير. ألف ليلة وليلة تعجّ بها.. تذكر السندباد مع الساحر الشرير الذي بدا أولًا كشيخ مسن واهن.. الأمير الضفدع في الأساطير الغربية.. بحارة أوديسيوس.. النداهة في إحدى أشكال القصة تتخذ شكل صديق لك وتدعوك للخروج معها. الفكرة مرعبة دائمًا...

لا تنس أن المذءوب في النهاية هو شكل من أشكال تغير الشكل. لفظة لايكانثروب (مذءوب) في حد ذاتها هي اسم رجل مسخه زيوس إلى ذئب..

لكن من أين أبدأ...

لا أعرف..

اتجهت إلى جهاز التلفزيون وفتحته.. تلك كانت الأعوام الأولى التي نرى فيها التلفزيون بالألوان.. جلست شارد الذهن أتابع برنامجًا ثقافيًا. مذيعة شقراء تتحدّث مع ضيف ممل يغوص في مقعده، ويردد بلا توقف:

- «الديالكتيك.. لابد من المزيد من الديالكتيك..»

كنت أفكر بلا توقف. هل هناك أشخاص وافدون إلى حياتي مؤخرًا؟.. هل من وجوه جديدة.. كانت تلك فترة من الفترات الهادئة في حياتي فعلًا. لا شيء يحدث ولا مخاوف..

لكن.. هذه المذيعة.. اسمها (صفاء حجازي). هاتان العينان الخضراوان اللتان تشعان نارًا.. ياقة بيضاء وثوب أسود أنيقة جدًّا.. رشيقة الحركات والإيماءات..

وماذا عن صوت المحرك الخافت هذا؟.. هناك شيء في سماعات التلفزيون بلا شك.. لكن لا.. أنا متيقن من أن الصوت يأتي من المذيعة ذاتها..

لكنها مذيعة معروفة وشهيرة.. أراها منذ ولدت على ما أعتقد.. لا تشيخ أبدًا كأنها زومبي، ولعل هذا دليل آخر. لكن مغيري الأشكال يفعلون ذلك أحيانًا.. أعني أنهم يحلون محل شخصيات نعرفها. فكرة مرعبة أخرى.. قد يعود أخوك من الشارع وقد صار آخر.. كما قلت إن هناك صيغًا لقصة النداهة قريبة من هذا...

هل يمكن أن يكون مولوخ - على شكل قط - قد حل محل هذه المذيعة؟

مستحيل. هل تعرف السبب؟.. لأن هذا مستحيل.. لا توجد مصادفات بهذه القوة..

تبًّا.. سوف أصاب بالبارانويا حتمًا..

هنا أجفلت لأن جرس الباب دق..

✷ ✷ ✷

القادم كان رجلًا غليظًا بدينًا يخنفر بلا توقف.. لابد أن السلم أتعبه فعلًا. كان يلبس ثيابًا رثة متسخة قليلًا.. قال لي وهو يلتقط أنفاسه:

- «دكتور رفعت؟..»

قلت في حذر:

- «أنا هو للأسف..»

نظر حوله وأخرج منديلًا مسح به عرقه الغزير، وقال:

- «اسمي صبحي.. محاسب في بنك (...).. هناك مشكلة لابد أن أحكيها لك.. عرفت أن عندك خبرة ممتازة في أسرار ما وراء الطبيعة. هل تسمح لي بالدخول؟..»

وقفت أتأمله بعض الوقت.. أعتقد أنه شخص مسالم، لكن هناك تلك الرائحة.. رائحة كريهة فعلًا تتصاعد منه. أعرف قومًا يعانون البخر بشدة وأنفاسهم لا تطاق، لكن رائحة هذا الرجل عامّة.. تنبعث من مسام جلده ومن خلاياه...

- «أنقك قد يخبرك بالحقيقة..»

الكينونة قالت هذا.. فهل نحن في هذه اللحظة؟..

المتحولون أو مغيرو الشكل جاءوا من فروع عدة.. ربما كان أحد فروعهم ينتمي للخنازير البرية. من يدري؟

لو أردنا أن نشبه الكائن القادم لقلنا إنّه خنزير.. خنزير بري آدمي عملاق..

قلت له وأنا أوارب الباب:

- «لا أتلقى زيارات من غير موعد..»

كان قد اندفع نحو الباب محاولًا أن يبقيه مفتوحًا.. لحسن الحظ أنه لا يعرف حيلة (بوارو) الشهيرة في وضع قدمه في فرجة الباب ليمنعه من الغلق..

أغلقت الباب بحزم بينما راح يدق بقبضته ويردد:

- «ماذا هنالك؟؟ قلت لك إن عندي مشكلة! أنا في خطر..»

- «لا أتلقى زيارات من دون موعد.. كلامي واضح..»

ماذا لو كان هو؟.. ما الذي يثبت أنه من مغيري الشكل؟.. ولو كان كذلك فماذا أفعل؟ هل أجلب سكين المطبخ وأولجها في صدره؟.. هل أطلب الشرطة؟.. أقول لهم: «أنا أشك فيه يا سيدي.. يبدو لي كأنه خنزير متحول» ولو سمحت له بالدخول فلربما كان هذا خطأ عمري....

وقفت ألهث خلف الباب.. لم أكف عن اللهاث إلا عندما توقف لهاثه وعرفت أنه رحل..

-2-

شجرة عتيقة؟.. أين أجد شجرة عتيقة؟

في ساعة مبكرة من النهار، رحت أدور حول البناية التي أسكن فيها عدة مرات.. هناك مجموعة من أشجار السنديان في شارعنا، وعلى قدر علمي هي أشجار عتيقة معمرة..

ترى أين يوجد السر الذي يمكن أن يدلني على الحقيقة؟..

«أنفك سيدلك على الحقيقة..». من قال لها إن أنفي سليم؟.. لكنّها الحقيقة.. ما زلت أشم جيدًا لشدة الغرابة..

رحت أتشمم الهواء وأنا أمشي في ذلك الممشى الضيق..

رائحة كريهة.. لا شك في هذا..

كلب مذعور أشعث نظر لي ثم هرع يفر.. هل هو مصدر الرائحة؟.. هل يعني هذا أنه مولوخ آخر؟.. ما الذي يمنع أن يتخذ المولوخ شكل كلب أو قط؟ لماذا أفترض أنه كائن بشري؟

ثم اصطدمت قدمي بذلك الشيء..

بدا لي أولًا كأنه متسول ينام على الأرض، ثم رأيت حالة التجرد من الوجود التي يمرّ بها.. حالة تحلل الخلايا.. حالة اللا حياة... الفارق الواهن الذي يجعلك ترتجف وتجفل لو اطلعت عليه لوليت منه فرارًا ولملئت منه رعبًا كما يقول التعبير القرآني الدقيق...

دققت النظر أكثر فعرفت أنه رجل.. رجل بدين غليظ.. رجل كان يطلب مقابلتي منذ فترة وجيزة. هذا لم يكن (مولوخ) إذن وإنما هو ضحية..

دققت النظر في الجثة فرأيت أن لحم الوجه ممزّق.. وأدركت أنّ هناك من أفرغها من الدم.. هذه أشياء لا تفوتني وأدركها بسهولة تامة. بعد عمر من مقابلة مصاصي الدماء لا يخطئ المرء هذه الأمور..

الجثة على بعد خطوات من جذور الشجرة العتيقة..

بالفعل كانت الشجرة والرائحة الكريهة هما من قاداني إلى هنا كما قالت الكينونة..

هذا البائس كان يخشى شيئًا وأراد أن أساعده لكني خذلته يمكن القول بلا خطأ كبير إنّه نزل من بيتي فهوجم، ثم تركت جثته هنا طيلة الليل.. لا أحب أن أتصور أن الكلب الذي قابلني ظفر

بقضمة.. هذه أشياء بشعة..

شعرت بيد باردة على كتفي فأجفلت..

استدرت للخلف فوجدت فتاة فارعة الطول تلبس ثوبًا أسود طويلًا..

كانت جميلة.. هذا ما استطعت أن أدركه مع أول نظرة..

قالت لي بصوت مبحوح من الرعب:

- «ماذا هنالك؟...»

قلت وأنا أتراجع للخلف:

- «ميت.. هناك من هاجمه هنا..»

راحت ترتجف كورقة.. ترتجف لدرجة أثارت شفقتي، ثم اقترحت أن أتصل بالشرطة.. سأفعل هذا طبعًا.. أحيانًا يتمتع الناس بغباء مذهل..

كان المارَّة قد بدءوا يحتشدون.. ضوضاء..

أحد البوابين قال إنّه طلب رجال الشرطة.. حالة عامّة من الفخر تغمر الناس كأنهم هم من قتلوه.. وكانت هذه هي الفرصة المناسبة.

حان الوقت لأذوب وسط الزحام وأختفي. ليس لديَّ ما يفيد رجال الشرطة ولا يوجد ما يُقال، ولن أكتم شهادة أو أعطل العدالة. إذن لا داعي لإضاعة اليوم في التحقيقات.. ما لم أجد نفسي متهمًا بالقتل آخر الأمر.. أعرف هذه المواقف..

انسحبت وسط الزحام فلم يلحظ أحد رحيلي، ووجدت أن يد الفتاة الباردة الراجفة في يدي فسرقتها لتكون معي..

كنا نبتعد..

وهناك عند ناصية الشارع كانت تلك الكافتيريا قد بدأت العمل، فدعوتها إلى الدخول.. لا تقلقي.. أنت بحاجة إلى قهوة مركزة.. هل أفطرت؟.. نعم؟.. أنا لا أتناول الإفطار أبدًا لا أمارس أي عادة مفيدة أو صحية. هذا شيء التزمت به نحو نفسي..

هكذا جلسنا في ذلك المكان الهادئ الدافئ الناعس.. لم يأت زبائن بعد، وقد بدا أن النادل يشعر بضيق منا لأنّه يريد أن نتركه يلتهم الطعمية ورغيف الخبز الأسود الذي كان ينوي البدء بالإفطار به.

قلت له في رفق:

- «سوف تجلب لنا القهوة ثم أعدك أنني لن أطلب منك أي شيء للأبد..»

بدا عليه الرضا وانصرف..

قلت الفتاة:

- «اسمي رفعت إسماعيل.. وأنا لا أتحرش بك أو أحاول أن تقعي في حبي. كل ما هنالك أنني أكره أن أتركك ترحلين وأنت تحملين ذكرى جثة ممزقة..»

لماذا لم تبك قط؟.. لماذا لم تصرخ؟

لماذا لا ترمش جفونها بالمناسبة؟

قالت وهي تبحث عن شيء في حقيبتها:

- «اسمي (أسيل).. كنت ذاهبة لعملي عندما رأيتك تتأمل شيئًا خلف تلك الشجرة عندما دنوت رأيت ذلك المحاسب وكانت الصدمة قوية..»

ثم راحت ترتجف أكثر.. حتى عندما جاء النادل بالقهوة ورشفت أول رشفة..

كنت أفكر في عمق.. المحاسب؟.. هل جاء الحل بهذه السرعة؟.. هذا حسن حظ لا أتوقعه.. وماذا عن رائحتها؟.. لها رائحة عطرة غريبة تذكرك بالبلل..

أرى ساعدها العاري حيث انحسر الكم.. هل هذه حراشف أم بقعة من داء الصدفية اللعين؟

قلت لها باسمًا:

- «بلا أي انفعال زائد.. من قال لك إن هذا محاسب؟.. وددت لو فهمت...»

نظرت لي ثم اتسعت عيناها.. أقسم أنني سمعت صوت فحيح.. ثم قالت:

- «إنّه زميل لي في المصرف اسمه صبحي..»

هذه إجابة معقولة.. لكن هل هي صادقة؟.. هل كان المحاسب يحتمي بشقتي وخبرتي من خطر معين شعر به؟.. هل كان يخشى السير في الشارع؟.. هل كان هناك مولوخ يبدو كالبشر يلاحقه؟

هذه الفتاة تذكرني بالأفاعي.. لا شك في هذا..

هل من إجابة؟؟..

لما انتهت من شرب القهوة وهدأت قليلًا غادرنا الكافتيريا نقدت النادل الذي امتلأ شدقاه بالطعمية نقوده فلم يكلّف نفسه بالعد..

في الخارج ودعتها.. وطلبت رقم هاتفها..

- «لماذا؟..»

- «لأطمئن..»

قالت في خبث وهي تبتعد:

- «أنت قلت إنك لا تتحرش ولا تحاول الإيقاع بي..»

- «هذا صحيح..»

- «برهن!..»

وسرعان ما انسلت مبتعدة..

و هل هذه هي؟.. أعتقد هذا. هذا أقرب الاحتمالات الممكنة ربما هي أو الكلب المذعور الذي رأيته.. لكن ماذا أفعل بعد هذا؟ أحرقها لأتأكد؟ لو ماتت فهي بريئة ولو ماتت فهي مولوخ؟.. يذكرني هذا باختبار الساحرات الأحمق في القرون الوسطى ارم المرأة في الماء.. لو ماتت فهي بريئة.. لو طفت فهي ساحرة وعليك أن تحرقها!!

✷ ✷ ✷

لكنكم تعرفون رفعت إسماعيل العجوز..

إنّه يبحث عن المتاعب دائمًا..

لهذا - في اليوم التالي - ذهبت إلى المصرف الذي ذكر لي المحاسب اسمه.. من الصدفة أن لي صديق دراسة يعمل هناك بعد شرب الشاي والقهوة والشاي والقهوة ثم الشاي والقهوة، وقبل أن أموت بقرحة معدية سألته عن صبحي يرحمه الله..

قال وقد تقلص وجهه ألمًا وحزنًا (ربما بسبب انتفاخ القولون):

- «هذا البائس.. وجدوه ممزقًا في شارع بالدقي.. لا يعرف أحد من فعلها ولمه.. لقد كان يعاني حالة نفسية معينة، وكان يعتقد أنّ هناك من يطارده ليقتله.. حالة نفسية لا شك فيها..»

فكرت قليلًا ثم سألته عن...

- «(أسيل).. هل عندكم فتاة اسمها أسيل...»

حك رأسه ليتذكر.. ثم هتف في مرح:

- «تلك الأفعى الآدمية!... بالطبع!..»

قلت في حيرة:

- «أفعى آدمية فعلًا.. هذا أقرب تشبيه..»

- «هل تنوي التقدم لها؟.. إنها جميلة لكنّها غير قابلة للمعاشرة..»

- «أفكر فيها لأحد أقاربي.. أ.. هل يمكن أن أراها؟..»

مد يده المكتنزة ليمسك بيدي واقتادني خارج مكتبة الصغير إلى ردهة مليئة بالموظفين الجالسين خلف شاشات الكمبيوتر. هناك كانت جالسة تجرى بعض الحسابات.. مررت جوارها فناداها الرجل محييًا. التفت لنا وهزت رأسها محيية في برود ثم عادت لما تقوم به..

لم تعرفني!.. أسيل هذه لا تعرفني.. ربما هناك أسيل أخرى تعرفني وتذكرني.. السبب واضح وهو أن من قابلتها في شارعنا ذلك اليوم لم تكن هي.. كانت أخرى..

هناك احتمال آخر لا بأس به.. هي لا تذكر من أنا.. من قال إن وجهي يعلق بالذاكرة؟.. إنّه غطاء جمجمة لا أكثر كما قلت من قبل.. لقد قضت معي ربع ساعة بعد ما رأت زميلها في المصرف ممزقًا.. لابد أن وجهي قد محي بالكامل من ذاكرتها وسط هذه الضوضاء البصرية..

هل رأت الجثة فعلًا؟.. هذا وارد. ولربما فضلت ألا تتكلم ولا تحكى لأحد كما فعلت أنا..

لكن كيف أتأكد؟

✷ ✷ ✷

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي نزلت إلى الشارع..

أردت أن أبحث عند تلك الشجرة التي وجدت الجثة عندها الكلب الأجرب راح يحرك ذيله وهو يرمقني في رعب.. ترى هل هو أنت؟..

لا أعتقد.. لكن ماذا يؤكد أنك لست كذلك؟..

سألته بصوت عالٍ:

- «هل أنت مولوخ آخر؟..»

لم يرد هذا الأحمق وابتعد مذعورًا..

ما هذا؟.. أذكر أن الشجرة كانت هنا بالذات.. جوار هذا الكشك المغلق هناك خطأ.. لا بد أنني صرت أبله أو ذاكرتي قد محيت..

رحت أبحث عن الشجرة التي رأيت الجثة جوارها.. الرائحة أين هي؟

ثم سمعت أنينًا..

هرعت نحو شجرة قريبة.. شجرة غليظة كسا الطحلب جذعها، وامتدت جذورها الغليظة في الرصيف.. عندها رأيت مشهدًا عجيبًا بعض الشيء..

لقد كانت الفتاة أسيل هناك.. راقدة على الأرض ممزقة الثياب تئن بلا توقف، وكانت في حالة لا تسمح بالصراخ. من يهاجمها؟.. لا تسخر مني.. كانت الشجرة تفعل ذلك.. لقد تحول جذع الشجرة إلى شيء أشبه بفم عملاق مفتوح ينهش الفتاة، ومنها خرجت ممصات عدة تتمسك بعروقها محاولة سحب الدم.. الشجرة كائن حي.. الشجرة تنبض بالحياة..

الآن أفهم..

غبي أنا كما كنت دومًا..

هذه الشجرة لم تكن هنا أمس.. كانت في مكان آخر. أشجار ماكبث التي تزحف في الغابة نحو القلعة.. هي ليست شجرة أصلًا.. هذا هو مولوخ يغير شكله.. من قال إن المولوخات لا تقدر على أن تبدو كنباتات؟ لم يجل هذا بذهني..

الكينونة كانت صادقة جدًّا.. لكنّها أغرقتني في لعبة الشك المتواصل شككت في الجميع تقريبًا ووجهت إصبعي في كل اتجاه..

المحاسب رأى لمحة جعلته يشك.. الفتاة سقطت في الفخ وهي ذاهبة لعملها..

وثبت نحو الإفريز، وتمسكت بساقيها ورحت أجرها.. كان هذا عسيرًا مع حالتي الصحية.. وسرعان ما طرت في الهواء ممسكًا بحذاءيها.. وسقطت جوار جدار السور المجاور...

هناك بواب صعيدي سمع الأنين في هذا الوقت المبكر وهرع ليرى أشنع منظر يمكن أن يراه.. هكذا أمسك بساقيها معي وجرها بعيدًا وهو يبسمل ويحوقل..

لا أعرف كيف استطعنا أن نحررها لكننا فعلنا..

وهتف البواب بلهجته الجنوبيّة الجميلة:

- «أعوذ بالله... من أين جاءت هذه الشجرة؟..»

قلت وأنا ألهث عاجزًا عن العثور على هواء:

- «اسمع.. هذه ليست شجرة.. ولن نكون آمنين ما لم نحرقها هنا والآن..»

كنت جالسًا هناك على الإفريز أرمق ذلك الشيء يفور ويمور ويعلو ويهبط أرجو ألا يتحرر المولوخ ويلاحقنا... أرجو ألا يسترد شكله الأصلي قبل أن نواجهه كشجرة..

✷ ✷ ✷

همست ماجي وهي تسمع أنيني في الظلام:

- «حاول أن تنام.. لا أفهم معظم ما تقول لكنه كابوس..»

قلت بشفتين جافتين:

- «ليس كابوسًا بل هي ذكرى.. ذكرى قاسية.. هلا ناولتني رشفة من الماء؟..»

- 1 -

ويوم أغيب.

وراء المغيب.

يقولون كان عنيدًا..

وكان يقول القصيدا..

وراح يحاول شيئًا جديدا..

ومات وخلّف هذا الوجودا..

كما كان قبلًا.. غبيًّا بليدا!!

(دكتور غازي القصيبي)

✷ ✷ ✷

رائحة الديتول هذه.. رائحة المستشفيات هي رائحة المرض ذاته.. لكني كطبيب تعلّمت أن أعشقها..

في الليل تصحو الثانويات في العظام، ويتحول ظهر مريض السرطان إلى أداة تعذيب من القرون الوسطى.. وفي الليل تحقنني الممرضة ببعض ذلك السائل.. سوف يسمحون لي بأقراص المورفين فيما بعد، لكن هذا يتطلب إجراءات معقدة..

في ظلام الحجرة كان واقفًا..

رأيته في الضوء الخافت القادم من الخارج، وخطر لي أن أصرخ طالبًا الممرضة، لكني خشيت أن تكون هذه هلاوس بسبب المخدرات التي يعطونها لي.. تداخل الحقيقة مع الواقع مروع وكابوسي.. لو جاءت وقالت إنِّه لا يوجد شيء لساءت حالتي النفسية جدًّا..

لا أعرف شكله لكنه بدا لي كصبي.. مراهق في الخامسة عشرة من عمره.. ربما..

تلك الوقفة الثابتة.. لا أعرف عينيه بسبب تأثير السلويت لكني أعرف أنه ينظر لي. كل المسوخ تعرف كيف تستخدم الإضاءة كأفضل مدير تصوير في العالم. لا يوجد شبح أحمق أو مبتدئ في

فنون الإضاءة..

قلت في صوت خافت مبحوح:

- «من أنت؟..»

بعد صمت قال بصوت يناسب منظره:

- «أنت تعرف.....»

هذه محادثة مناسبة جدًّا لكي يكون هو الموت.. لو قرأتها في عمل أدبي لقلت إن بطل العمل يموت الآن، لكن الموت لا يبدو كهذا..

عدت أكرر بذلك الصوت الشبيه بصوت صرصور:

- «من أنت؟.. أنت تفترض فيَّ ذكاء لا أملكه....»

منذ صباي يضايقني ذلك الوغد الذي يستوقفك.. يشد يدك ويعتصرها في قسوة وهو يحملق في وجهك مردِّدًا (حقًّا لا تتذكرني؟) فأصرخ ألمًا وأتلوى محاولًا انتزاع يدي لكنه يضغط أكثر وتتسع عيناه ويجز على أسنانه.. هلمّ... نشط ذاكرتك!.. تذكر!.. فتقسم بالله أنك لا تذكر.. لكنه مصر على أن تتعلم الدرس بنفسك. في النهاية يخبرك أنه (محمود أبو سلامة) الذي قابلته في حفل زفاف (أحمد الفقي).. أنت لا تعرف أي اسم ولا تتذكر أي شيء، لكنه مصر على أن يعتصر يدك حتى تتهشم..

قل من أنت أيها الطيف فأنا لا أتذكر..

في اللحظة التالية أدركت أنني وحدي في الغرفة..

لا إجابة.. سوف أموت دون أن أعرف من كان هذا..

✷ ✷ ✷

لابد أن الوقت كان مساءً.. العواصف عاتية.. الأمواج تتعالى كأنها جبال أو مردة أصابهم الجنون، وبرغم هذا حاول القارب الصغير أن يتوغل في الماء..

صاحب القارب إدموندو أبراهان كان في حالة جنون حقيقيّة، وقد أصر على أن يظفر ببعض الأسماك فالأطفال جياع.. هناك أفواه مفتوحة في البيت كأفواه الطيور..

مساعده إرنستو فابياو راح يحاول إقناعه بالعكس، لكن الرجل بدا متحمسًا.. كأن جنية بحر نادته لموعد محتوم مع الانتحار.. من ينزل للبحر في طقس كهذا لن يعود. لا يحتاج الأمر لذكاء

كثير.

ولكن كل محاولات النزول للبحر تفشل. الموج يتقيأ القارب على الفور، ليجدا أنهما ملقيان على الشط مهشمًا الأوصال.. يحملان القارب من جديد..

بدا الأمر كأن هذا عملاق حكيم يحاول منع أطفال عابثين من مضايقته.. ابتعدا.. أنا لا أريد الإيذاء.. سوف أغضب.. غضبي قاس متوحش..

لكنهما كانا مصرين.. في النهاية ردا على الشط في الظلام وسط الزبد يلهثان. على الأطفال أن يبيتوا جياعًا إذا لم يريدوا أن يبيتوا يتامى..

وهنا نهض فابياو ونظر لبعيد ثم صاح في معلمه:

- «انظر هناك!..»

نظر إدموندو لما يشير له الفتى وهو مستعد لأن يلعنه لعنًا لو كان هذا شيئًا تافهًا، لكن الكلام احتبس في حلقه.. لا يمكن الكلام وأنت ترى هذا الوحش الجاثم على الشط...

هذا هو العام 1872.. وهذا هو ساحل البرتغال قرب جبل طارق..

في الصباح جاء رجال كثيرون وأفراد من الشرطة ووقفوا في رهبة ينظرون إلى السفينة الجاثمة التي قذفها الموج إلى الشط سفينة عملاقة مرعبة بدت كأنها ديناصور نائم..

كان الاسم المكتوب على الخشب المهشم المبتل هو (ماري سلستي).. اسم سيخلد طويلًا في عالم ما وراء الطبيعة والظواهر الفورتية.. هذه سفينة أمريكية.

تسلق الرجال إلى السطح بالحبال، وراحوا يمشون في حذر فوق الخشب المبتل والطحالب.. من وقت لآخر تتهشم قطعة خشبية ويوشك أحدهم على السقوط..

كان الأمر واضحًا.. لا يوجد أحد على سطح السفينة.. السفينة خالية تمامًا. هناك مشهد شبيه بهذا للسفينة التي اجتاحها الطاعون في رواية دراكيولا، لكن على الأقل كانت هناك جثث على تلك السفينة وكان هناك قبطان ربط نفسه لعجلة القيادة..

لم يكن شيء من هذا هنا..

المؤن سليمة تمامًا.. لم تمس تقريبًا. البضاعة سليمة والأشياء الثمينة كلها في موضعها.. هذا ينفي فكرة هجوم قراصنة على السفينة.. أما أسوأ ما في الأمر فهو أن هناك أطباقًا على الموائد بها طعام مسكوب لكنه لم يفسد.. ما حدث لهذه السفينة حدث فجأة ولم يمهل الطاقم حتى يأكلوا وجبتهم الأخيرة.

عندما أقلعت السفينة من نيويورك كان على ظهرها عشرة أشخاص، ولا أثر لهم الآن. دفتر مذكرات السفينة موجود لكن لم يكتب فيه شيء منذ فترة طويلة.. البوصلة مهشمة..

اتهموا القبطان الأمريكي بسوء التصرف، لكن الجميع كانوا يعرفون أنه قبطان بارع يحسن الملاحة.. الخطأ البشري غير وارد هنا..

هل أغرق القبطان السفينة لينال مبلغ التأمين؟.. للأسف لا.. مبلغ التأمين كان ملاليم لا تستحق هذه المغامرة..

هجوم القراصنة فكرة مرفوضة كما قلنا..

التصق لقب النحس بهذه السفينة بعد هذا.. كل من تعامل معها مات في ظروف مؤسفة، في النهاية لم تجد مشتريًا وتركوها حتى تسوست وتلاشت..

بعد أعوام درس العلماء مسار السفينة فعرفوا أنها كانت تمر عبر منطقة تقع بين برمودا وبورتوريكو وولاية فلوريدا الأمريكية مثلث متساوي الأضلاع..

هذا جعلهم يعتقدون أنهم وجدوا التفسير الصحيح لاختفاء الطاقم..

نحن نتكلم عن مثلث برمودا إذن!

✷ ✷ ✷

أنت تعرف مثلث برمودا حتمًا..

آلاف الكتب التي تحكي عن الأساطير الفورتية حكت عنه وهناك من ربطه بالجان والمسيخ الدجال.. إلخ..

هناك من يزعمون أنه لغز الألغاز، وهناك من أجروا إحصائيات دقيقة خرجوا منها بأنه قصة وهمية وحوادث الاختفاء فيه ليست أكثر من أي موضع آخر من المحيط من هؤلاء المشككين لورانس كوش، الباحث في جامعة أريزونا.

في العام 1945 حدثت الحادثة الأشهر عندما اختفى سرب طائرات أمريكية يعبر مثلث برمودا. خمس طائرات اختفت ثم اختفت طائرة ذهبت للبحث عنهم.. وانفجرت طائرة أخرى ذهبت للبحث عن كل هذه الطائرات..

هكذا دخل مثلث برمودا إلى الثقافة الشعبيّة ولم يخرج. أنت رأيت فيلم (لقاءات حميمة من النوع الثالث) حيث تخيل ستيفن سبيلبرج أن هؤلاء الطيارين كانوا مخطوفين على متن سفينة فضاء.. وقد عادوا في نهاية الفيلم في عملية إعلان عن حسن النوايا..

وفي العام 1964 كتب فنسنت جاديس المقال الأشهر عن مثلث الشيطان.. وصار كل واحد في العالم يعرف هذا المثلث، وانهالت نظريات التفسير بدءًا بالجان، مرورًا بالكائنات الفضائية، مرورًا

بقراصنة البوكانير كما في قصة (الجزيرة) لبيتر بنشلي.. لقد شكل المثلث اللعين كنزًا لكتاب الخيال العلمي والسينما ولولاه لأفلس الجميع وخرب بيتهم..

فيما بعد ظهرت الحاجة إلى كشف هذا السر بشكل واضح وحاسم.

كنت أنا من المهتمين جدًّا بقصة السفينة (ماري سلستي)، فهي خليط عجيب من النحس والاختفاء الغامض.. لها نفس مذاق غرق التيتانيك، لكن تمت دراسة غرق التيتانيك جيدًا ونحن نعرف اليوم أنه لا توجد أسرار.. بينما ما زال لغز هذه السفينة محيّرًا فعلًا...

بالطبع تعرفون ما حدث لقد اتصلت بي مجلة أسكتلندية مهتمة بالظواهر الخارقة تطلب أن أشارك في بحث مدقق عن تلك الظاهرة.. ظاهرة مثلث برمودا. أنا طبيب عربي ولّى خبرة عريقة بهذه الأمور.. لديهم في الفريق عدة جنسيات ومعتقدات دينيّة وثقافية. هذه الأمور؟.. صدقني أنا لا أعرف ما هذه الأمور!!.. بالطبع حتى هذا الجزء كنت متأهبًا للفرار والاعتذار. لن أذهب لآخر العالم لأفتش في أساطير بحارة ثملين على الأرجح..

لكن.... ... ...

هناك فريق ممتاز من عدة جامعات، وكان هناك جزء مهم من الدراسة يقوم على استعمال السونار لدراسة الأعماق في تلك المنطقة..

تعرفون طبعًا من الأستاذ الأسكتلندي المهتم بالسونار ودراسات الأعماق.. ماجي ماكيلوب.. من سواها؟

وهكذا وجدت نفسي أقبل العرض بحماس غريب...

- 2 -

وأمامك أيها البحار.. أمامك محيط السلام..

ادخل بقاربك.. ادخل وارفع راية الذهاب نحو السلام..

(طاغور)

✷ ✷ ✷

الألم يعتصرني..

أوشك على فقدان الوعي.. لا حل لهذه المعاناة سوى فقدان الوعي، لكني من الأغبياء الذين لا يغيبون عن الوعي عندما يقسو الألم يظلون متنبهين. قالوا لنا في كلية الطب إن المحترق يموت على الأرجح بصدمة عصبية قبل أن يشعر بالنار تحرق لحمه، لكني أختلف.. سوف أشعر بكل شعرة وهي تتفحم كل عضلة وهي تتقلص..

ألم شديد.. شدييييد..

تصفيق حاد من شياطين جانب النجوم. لوسيفر يردد في سرور: إنني لهذا المشهد أسعد وله قلبي يطرب.. إن لوسيفر هذه الليلة - والحق يُقال – سعيد..

تصفيق حاد.. صفير..

لا تمت يا رفعت.. لا تمت بهذه السرعة.. نريد أن نتلذذ أكثر.

سقطت على المنضدة الصغيرة التي وضعتها في ركن الغرفة. سال الحبر ليغرق (أسطورة طفل آخر) التي كنت أكتبها..

وفي النهاية تشبثت بالملاءة.. تنفست بقوّة إلى أن استعدت تنفسي.. لن يشمت فيَّ هؤلاء الملاعين.. ليس الليلة...

وتحسست الكتاب المثبت إلى خصري. قد أفقد الوعي ويجردونني من الثياب وينزعون هذا الكتاب.. سوف أصير تحت رحمة لوسيفر التي لا وجود لها أصلًا، لكن لماذا القلق؟.. هو يعرف أن الكتاب له في النهاية...

وبينما أنا غارق في سكرات الألم تذكرت ما حدث في ذلك العام...

✷ ✷ ✷

عندما التقينا في فلوريدا لم أصدق..

لقد اعتدت أن أرى ماجي في ظروف خاصة هنا على أرضي أو في أرض أبيها، لكننا تقابلنا هذه المرّة في الولايات المتحدة لا أحمل أي حب لهذا البلد كما تعلم. لكن ماجي كانت هناك لتخفف المعاناة.

المشروع كان عملاقًا بالفعل... تشرف عليه البحرية الأمريكية بالتعاون مع هيئات علمية عدة، وهذا يعني أن دوري كان أقرب لـ (الفاسوخة) لو سمحت لي بهذا التعبير. لست خبير غطس وليست لي خلفيّة عسكرية ولا أفقه في الطيران، ولست عالم فيزياء. باختصار لا دور لي سوى أن أكون قرب ماجي في فلوريدا على حساب المجلة الأسكتلندية والجيش الأمريكي..

هيئة المشروع تدعى BTE وهي الحروف الأولى من عبارة (استكشاف مثلث برمودا). مدير المشروع جنرال أمريكي ممن تراهم في السينما، اسمه (ويليام وايلر).

كانت خطة المشروع تقوم على خروج عدة سفن عملاقة تمخر في مثلث برمودا، وتقوم بإرسال موجات سونار للأعماق والتقاطها ثانية. كان هناك فريق آخر يدرس فرضية ثلج الميثان الذي يكسو قاع المحيط في تلك البقعة والذي قيل إنّه يسبب اضطرابات تغرق السفن.. انفجارات هذا الغاز تغير كثافة الماء فلا تصير السفن قادرة على الطفو فيه وتغوص.. قد يفسر هذا غرق السفن، لكن كيف يفسر خلوها من الطاقم؟.. كيف يفسر سقوط الطائرات؟

استغرقت الدراسات ثلاثة أسابيع، ولا أعرف بالضبط دور ماجي في هذا لكنه كان بالغ الأهميّة.. الفتاة الرقيقة ماجي يمكن أن تكون مهمّة ومرعبة..

كل شيء كان سريًّا.. معظم أعضاء الفريق لا يعرفون ما يقوم به الآخرون..

كانت ماجي تبدو قلقة مهمومة.. تمضي معظم يومها في العمل ودراسة تقارير السونار كما ترسلها السفن التي تجوب المثلث، ولم تكن قد انضمت للفريق الذي يبحر في المحيط كانت تمارس عملها في القاعدة في فلوريدا..

بعد أيام خرجت معها بعض الوقت في نزهة قصيرة..

مشينا وسط الغابات متشابكي الكفين كأننا عاشقان قديمان ووجدت شجرة صفصاف وارفة، وحول جذعها تتواثب سناجب صغيرة مرحة.. دعوتها للجلوس هناك..

جلست واضعة ذقنها على ركبتيها وابتسمت لي.

- «للأبد؟..»

تساءلت:

- «ماذا؟..»

- «ستكون ملكي للأبد؟..»

- «وحتّى تحترق النجوم كلها وحتّى.... ... ...»

لكنّها لم تكن تصغي.. كانت تفكر في شرود..

قطعت جملتي وقلت لها:

- «يبدو أنك قلقة..»..

صمتت قليلًا ثم قالت في حذر:

- «ما وجده السونار مريب فعلًا.. أنا واثقة من أنني أهذي.. لكن النتائج لا شك فيها.. كثيرون رأوا الصور معي، وقد التزمنا بالسرية وعدم تسريب أي شيء للصحافة خاصة تلك المجلة الأسكتلندية. سوف ينالون ما دفعوه من مال لكن ليس الآن..»

- «وما هو المريب حقًّا هذا؟..»

- «وجدنا هرمين!... هرمين من زجاج! وهما على عمق كيلومترين...»

تصلبت مفكرًا.. هذا سخف بالتأكيد، لن ندخل في عالم هذيان إدجار رايس بوروز.. لن ندخل عالم أطلنطيد المفقودة وكل هراء الخيال العلمي السابق...

في ذلك الوقت لم أكن قد سمعت عن د. (ماير فيرلاج).. عالم أمريكي خبير في أعماق المحيطات، ظهر وأعلن أنه وجد هرمين من الكريستال في قاع المحيط. البعض صدقه والبعض قال إن القصة كلها هذيان.. إن فيرلاج شخص غامض يشك كثيرون في وجوده أصلًا، خاصة أن اسم فيرلاج بالألمانية معناه (ناشر)..

كان عقد كامل من الزمن ينتظر اكتشاف الأخ فيرلاج، لكن ماجي وجدت مع فريق عملها نفس الشيء المحير في ذلك الوقت..

- «هذا سخف يا عزيزتي...» ا

- «ربما هو سخف لكنه حقيقي.. قل هذا لصور السونار التي عادت بها السفن. هذان الهرمان هما مركز المثلث بالضبط...»

- «هذا ممتع.. وما حجم الهرم؟..»

- «ثلاثة أمثال هرم خوفو لديكم..»

قلت في غيظ وأنا أقذف بعض الفول السوداني للسناجب:

- «هل تدركين ما تقولين؟.. هناك أمة تعيش في القاع وأفرادها هم الذين يخطفون السفن. لابد أنهم قوم مزودون بخياشيم وزعانف.. أليس كذلك؟..»

فكرت قليلًا ثم أخرجت علبة سجائر وأشعلت لفافة تبغ. كانت هذه هي الفترة القصيرة من عمر ماجي التي كانت تدخن فيها، ربما لأن التدخين كان وقتها من لوازم الأناقة الأنثوية. قالت:

- «النظرية التي يعتنقها معظم الفريق هي أنّ هذه أمة بادت وغمرها المحيط.. هذا هو أقرب سيناريو محتمل. من يدري؟.. ربما كان هذا هو مكان قارة أطلنطيد الغارقة فعلًا....»

- «أفلاطون قال إن أطلنطيد عند أعمدة هرقل... أي عند جبل طارق....»

- «ربما كان أحمق..»

كان مزاجي قد تعكر نهائيًا.. لا أشعر بأي شيء رومانسي بعد هذا الكلام الغريب.. الكلام الذي يشكل تحديًا لمنطقي.. أنا رأيت أغرب الأشياء في حياتي، لكن عندي نفورًا طبيعيًا من كتب الأسرار هذه.. من بنى الهرم؟.. أين أطلنطيد؟.. الأطباق الطائرة... إلخ.

هل نحن على باب اكتشاف يغير وجه البشريّة للأبد؟

- 3 -

كنت أفرغ معدتي بلا توقف في الحمام..

هذا هو تأثير عقار فينكريستين الذي يعطونه لي. يشبه الأمر أن يمشي قطار على جسدك عدة مرات، والمشكلة أنّ هذا يحيل المعدة لبركان..

في ذلك اليوم منذ أعوام، كنت أفرغ معدتي بذات الشكل على حاجز السفينة (جيرونيمو - 3) التي تتجه إلى بورتوريكو راسمة قوسًا طويلًا يتعمد المرور في قلب مثلث برمودا اللعين.. لست ممن يصابون بدوار البحر عادة، لكني في ذلك اليوم فهمت معنى الكلمة..

لم أتصور أن معدتي تحوي هذا كله.. لابد أنني أفرغ قطعة البسكويت التي أكلتها في فسحة ذلك اليوم من الصف الثالث الابتدائي.. وجاءت ماجي تقف جواري تراقبني ثم سألتني:

- «هل أنت بخير؟..»

قلت متحشرجًا:

- «لم يسألني أحد قط أثناء القيئ عما إذا كنت بخير أم لا.. أنا أكره الأسئلة الغبية..»

- «أعني: هل تعتقد أنك تحتضر؟..»

قالت بلهجة عملية، وهي تربت على كتفي:

- «اليوم يبدأ أكثر الأجزاء إثارة.. البحرية الأمريكية سوف ترسل كرة أعماق.. هل تعرف كرة الأعماق كالتي كان د. (بيب) يستعملها؟.. سوف تهبط هذه الكرة لمسافة هائلة.. تصور وتحاول أن ترسل لنا شيئًا..»..

ابتلعت ريقي وقلت:

- «أووووع.. سيدلونها لمدّة كيلومترين؟..»

- «بل لكيلومتر واحد.. لا نملك القدرة التقنية على إرسال كرة أعماق لعمق كيلومترين..»

عند العاشرة صباحًا وقفنا نراقب الكرة تهبط بينما الونش يئن من ثقلها.. الكرة تتدلي بحبل غليظ طبعًا يلتف حوله كابل يشبه الحبل السري هو الذي ينقل ما تلتقطه الكاميرا في مقدمة الكرة من حسن الحظ أنه لن يكون بداخلها بشر.. د. بيب كان في كرته.. وهي شجاعة لا توصف، لكننا اليوم نشبه من يرسل طائرة بغير طيار..

قال لنا القبطان إن بوسعنا الذهاب إلى غرفة المراقبة لمشاهدة ما تلتقطه الكاميرا..

على قدمين من مطاط مشيت مع ماجي لنهبط عدة درجات، فنجد أننا في غرفة خانقة يفعمها لون أزرق كئيب هنالك حشد من الشاشات وخمسة علماء أو مصورين..

على الشاشة رأينا المياه تزداد سوادًا.. الكرة تبتعد عن نور الشمس وتدخل عالمًا لم نره من قبل..

أسماك تسبح نحو العدسة.. فتتوهج في ضوء الكشاف المضاء داخل الكرة، ثم تبتعد. مخلوقات غريبة جدًّا. لا تتوقع أن ترى هنا سمكة بلطي أو بوري.. كلما توغلنا لأسفل صار المشهد أكثر شناعة والأسماك كأنها جاءت من أعماق كتب الباليو إكولوجي....

ساد الصمت.. أشعلت ماجي لفافة تبغ وراحت تراقب الصورة المهزوزة على الشاشة..

قالت لي وهي تضغط على بعض الأزرار:

- «سوف نشغل السونار ليمسح القاع....»

ثم راحت تراقب الشاشة التي بدت عليها أشباح مبهمة تذكرك بصور بطن الحامل.. لا أفهم شيئًا البتة، لكنّها تتبادل حوارًا تقنيًا مع عالم أمريكي يجلس جوارها..

فجأة تجمدت..

استدارت لنا وقالت بصوت مبحوح:

- «هناك كائنات تتحرك!..»



قلت لماجي وأنا أرمق الشاشة:

- «ما الغريب في هذا؟.. هناك أسماك كما تعلمين..»

- «هناك أشياء تبدو كبشر.. بشر فارعي القامة يخرجون من القاع!...»

- «هل عدنا لخرافة أطلنطيس إذن؟..»

- «لا أعرف.. أنا أصف ما أراه..»

يخرجون من القاع؟؟؟؟

وفجأة صرخ القبطان كالفتيات صرخة رفيعة طويلة، فاستدرنا كانت هذه واحدة من شاشات الفيديو التي تصوّر ما تراه الكاميرا في الكرة..

رأينا جميعًا في ضوء الغرفة الخافت أشنع وجه يمكن أن تراه.. وجها يذكرك بالأسد.. بالجمجمة.. بالثور الهائج.. بالغيلان...

هذا الشيء يحملق في عدسة الكاميرا للحظة ثم يتحرك بجسد حرشفي مخيف لأعلى...

تبادلنا النظرات.. ما هذا الذي رأيناه؟

فجأة تلقى القبطان اتصالًا من الهاتف الصغير في الغرفة مد يده يلتقط السماعة، أصغي بعض الوقت ثم نظر لنا في قلق وقال:

- «مجال كهرومغناطيسي غريب البوصلة تلفت.. معظم الأجهزة لا تعمل بكفاءة.. ماذا يدور هنا؟..»

قلت له في عصبية:

- «ارفع الكرة.. الآن.....»

بدا أنه اتخذ نفس القرار، فاتجه لمكبر الصوت وأصدر القرار لمشغلي الونش...

سمعنا الصرير وبدأت السفينة تهتز.. ونظرنا للشاشة فرأينا الكاميرا ترتفع فوق مستوى الماء.. ترى نظرة بانورامية للبحر من أعلى ثم دارت الكاميرا مع دوران الكرة فرأينا مشهدًا عجيبًا..

- «يا إلهي الرحيم!..»

أولًا كان الدخان يتصاعد بكثافة من سطح المحيط.. غاز غريب لن أندهش لو تبين أنه غاز الميثان.. ثم دارت الكاميرا أكثر...

صرخ القبطان في الهاتف:

- «شغل المحركات فورًا.. أقصى سرعة.. أطلقوا نداء استغاثة (ماي داي)..»

لكن بدا أنه ما من أحد يصغي له. كان المشهد مفزعًا..

* * *

على سطح السفينة كان البحارة يصرخون ويركضون... ما الذي يطاردهم؟.. لا أعرف.. حتى اللحظة لا أستطع وصفه ألعن مجموعة من الشياطين والكائنات التي تشبه المذؤوبين، وكائنات

أقرب لمصاصي الدماء وخفافيش آدمية....

كان البحارة يتساقطون كالذباب....

كانوا يتمزقون...

ورأيت كائنًا من تلك الكائنات يرتفع للسماء بجناحين كجناحي وطواط...

سمعت الضحكة السوداء في أذني.. صوت كالببر يغريك بأن تسمع أكثر.. صحت وقد بدأت أفهم:

- «الهرم!.. هذه فتحة لجانب النجوم..!.. الهرم فتحة تخرج منها كائنات جانب النجوم لعالمنا... عندما تمر سفينة فوق مركز المثلث في لحظة بعينها تهاجمها هذه الكائنات بعضها يحلق فلا غرابة في أنها تسقط الطائرات أو تعطل محركاتها!.. ما نراه أمامنا هو إعادة تمثيل لما حدث للسفينة (ماري سلستي)»

قالت ماجي في عدم فهم:

- «لا أعرف ما جانب النجوم هذا..»

- «هي فكرة راسخة في التراث الروماني والمجري لكنّها حقيقيّة.. أنا ذهبت هناك من قبل.. لا وقت للشرح.. إنهم قادمون لنا!..»

هتف القبطان والعرق يغمر وجهه:

- «ورجالي...»

- «لقد ماتوا بالفعل.. صدقني.. أنا أعرف ما أقول علينا الآن أن ننقذ أنفسنا. يجب غلق هذه الغرفة بإحكام..»

قالت ماجي وقد بدأت تتوتر:

- «وهل يصمد أي باب أمام هؤلاء؟..»

- «أعتقد أنه سيصمد.. فلنلزم الصمت ولنأمل ألا يشموا رائحتنا..»

أغلقنا الأبواب الثقيلة بإحكام، ثم قبعنا نصغي لصوت الصراخ والتمزيق والاستغاثة.. للأسف كان كادر الكاميرا مظلمًا الآن ويبدو أن المسوخ قطعت الحبل السري... وارتجف القبطان وهمس وهو يعض على شفته السفلى:

- «رجالي.. كان يجب أن أموت معهم..»

قلت في غلظة:

- «صه.. لن تفيدهم بشيء بهذه المواقف المسرحية.. لا شيء يضايقني مثل الحماقة. سيموتون هم أو نموت جميعًا عليك أن تختار. ربما تنتهي المذبحة وترحل تلك الكائنات....»

فجأة سمعنا صوت محرك طائرة عمودية في الخارج. بدأت أنفاسنا تهدأ قليلًا، وتوقعنا النجاة.. هنا.. بووووم!... سمعنا صوت انفجار مدو اهتزت له السفينة.. ثم خمد الصوت..

قلت همسًا:

- «سقطت على الأرجح.. رقم جديد يضاف لضحايا مثلث برمودا..»

يمكن تخيل ما حدث لطاقم الطائرة.. أسوأ شيء أن تعتقد أنك منيع محصن فوق الأجواء ثم يقتحم شيطان قمرة القيادة..

لابد أن الكابوس استمر ساعات لا حصر لها.

كنا هناك في الظلام نسمع صوت العواء والزئير والخوار والصراخ والتمزيق والأنين.. كنا هناك في الظلام نرتجف.. كنا هناك في الظلام نحاول التماسك.. أعتقد أن طاقم السفينة هلك كله. شياطين جانب النجوم لا تبقي شهودًا.. لكن ربما لم تستطيع الوصول لنا في هذه الغرفة.. ربما لم تدر بوجودنا..

من هلكوا كان حظهم أفضل بالتأكيد من حظ من تم جرهم إلى جانب النجوم ليعيشوا هناك للأبد.

ساد الصمت من جديد في النهاية..

وعندما جاء الصباح التالي لم يجسر أحدنا على الخروج ليعرف.. لكننا سمعنا محرك طائرة عمودية أخرى، وبدأ جهاز اللاسلكي يصحو.... لقد جاءت طائرة أخرى تبحث عنا.. وهذه المرّة لم يحدث انفجار مروع ولم تسقط..

✷ ✷ ✷

أمضينا أيامًا عدة نحكي القصة في فلوريدا.. لم يستطع أحد فهم أي شيء. ما يعرفونه هو أن طاقم السفينة اختفى كله في ظروف غامضة وأن طائرة هليوكوبتر جاءت لنجدتنا تحطمت..

احك لهؤلاء القوم العصبيين نافدي الصبر عن جانب النجوم ولتر كم هم ظرفاء يصدقون كلامك لأنك أنت... بالطبع لا أحد يصدّق حرفًا مما أقول..

في النهاية قرر الجنرال (وايلر) اعتبار العملية فاشلة، يتم تأجيلها إلى وقت آخر. جل ما استطاع فهمه هو أن مخلوقات بحرية متوحشة هاجمت السفينة.. وبدا له أنّ هذا جدير بحملة أخرى من علماء الأحياء المائية.

كنت أعرف أنهم لن يجسروا على عمل حاسم.. مثل قصف المنطقة بقنبلة ذرية، لأن المنطقة مأهولة وتقع على خطوط ملاحية هامة.. سوف تبقى الفجوة مفتوحة وسوف تتدفق منها المسوخ إلى يوم الدين، وهكذا تدفع بعض السفن ثمنًا غاليًا بينما تنجو أخرى بمعجزة..

المجلة الأسكتلندية ظفرت بتقرير ملفق وغامض.. تقرير يثير خيال القراء لكن من دون حقائق كالتي رأيناها، ولهذا لم يعرف أحد قصة الهرمين إلا بعد أعوام مع (ماير فيرلاج) لو كان له وجود فعلًا.

أما نحن فقد أجبرونا على تقديم وعد بأن تظل القصة سرية.. يحبّ الأمريكان لفظة Classified بخاتمها الرسمي الصارم كما تعلم..

لن نحكي أي شيء مما رأيناه.. وقد التزمت بهذا الوعد لفترة طويلة جدًّا، لكني اليوم أشعر بحاجتي للتخفف من وعدي، خاصة وموعدي مع الرحيل يقترب، وكل الناس تعرف تقرير (فيرلاج) الآن..

هذا هو تفسيري الخاص للغز مثلث برمودا ربما هو التفسير الوحيد وربما هو خليط من عدة عوامل مثل الموجات الكهرومغناطيسية وغاز الميثان. بعض العلماء يعتقد أنه لا يوجد لغز آخر لأن الدراسات الإحصائية تؤكد عدم وجود اختلاف بين معدل غرق السفن في المثلث وخارجه.. حسن.. موافق بشرط أن يفسروا لنا حادث السفينة (ماري سلستي).

فجوات جانب النجوم مخيفة دومًا، لكنّها في كل مكان وعلينا أن نقبل وجودها ونتفاداها قدر الإمكان. فقط تأكد من أنه لا توجد فجوة في بئر السلم في داركم أو مدفن أسرتك.. تأكد من أن الفجوة ليست في خزانة ثيابك...

- 1 -

في حديقة المستشفى جلست.. مقعد خشبي ومنضدة صغيرة هناك. لا أشعر بأي ألم.. اقترحت على الممرضة أن أجلس في الشرفة، لكني كنت أشتهي الشعور بالعشب تحت قدمي. الشعور الندي المحبب.. رائحة الأرض.. رائحة الأزهار مع دنو المساء..

جو حزين مرهف يوشك على أن يبكي..

هناك قط وقف يرمقني في شك، ثم تثاءب وابتعد..

رائحة الجو هذه.. رائحة الجو العذبة هذه.. تعتصر قلبي اعتصارًا. يحز في نفسي أنني سأترك هذا كله عن قريب، لكن أعتقد أنه لن يكون عندي وقت لإدراك ما فقدته. هل أعرف بعد الموت من أنا كما تساءل إيليا أبو ماضي يومًا؟..

هناك على مقعد قريب في الحديقة جلس د. سامي يفعم صدره بالهواء..

الطبيب النفسي السكندري الراقي، الذي مررت بأغرب القصص في الفيلا التي يعيش فيها.. منذ أعوام اجتمعنا عنده في ليلة عاصفة وراح كل منا يحكي قصته مع الرعب، وأي نوع من الرعب يثير فزعه أكثر من سواه.. وفي مرّة أخرى كان هناك حفل غريب الشكل.. حفل بدا كأنه تكرار للتاريخ الفرعوني.. في مرة كان زميلي عضوًا في ناد للغيلان وأنقذته بصعوبة بعد أن كاد يصير غولًا..

أي تاريخ طويل! تفاصيل عديدة لدرجة أنني لا أتذكر الكثير..

وضع د. سامي ساقًا على ساق ونظر في ساعته.. بالتأكيد يتعّجل العودة للإسكندرية. كدت أبكي.. ابق معي بعض الوقت أرجوك.. أنا بحاجة لصديق...

كانت هناك أغنية قديمة يطلب فيها المطرب من طائر أبي الحن أن يظل معه وقتًا أطول، ثم يتذكر أن من مصلحة الطائر أن يطير مبتعدًا..

قال لي وهو يرفع جوربه:

- «هل أنت خائف يا رفعت؟..»

سؤال غريب.. قلت له في صدق إنني لست خائفًا. لست خائفًا من تجربة الموت لكنني أخشى الحساب.. أخشى اللحظات الرهيبة القادمة..

ثم أضفت مستدركًا:

- «طبعًا لا أريد أن أتلوى ألمًا لحظة الاحتضار.. أريد نهاية نظيفة كلحظة انقطاع الكهرباء..»

كان يعرف وأنا أعرف أنّ هذا احتمال واه جدًّا.. الألم قادم لا يؤخر موعدًا.. إنّه موجود لكنه لم يتوحش بعد...

ساد صمت ثقيل.. رائحة الليل المعذبة العذبة هذه..

قال بعد قليل:

- «هل أنت نادم على عدم تكوين أسرة؟..»

- «بصراحة لا.. لم أشعر قط بحاجة إلى أن تكون لدي أسرة.. لا أعتقد أن جيناتي ثمينة لدرجة أنه لابد من بقائها على الأرض، ولو كانت ثمينة فلابد أن إخوتي قد قاموا بدورهم وحافظوا عليها. ثم إنني لم أشعر قط بأنني وحدي. كان هناك دائمًا من يساعدني..»

ثم أضفت باسمًا:

- «هل تعرف قصة بلدينا الذي وثب بالمظلة وقيل له أن يشد الخيط على ارتفاع 300 متر..؟.. نسي أن يشد الخيط، ثم تذكر ذلك على ارتفاع 10 أمتار.. هنا قال لنفسه: لا مشكلة عشرة أمتار ستكون هينة ويمكن وثبها!.. حياتي كلها تكرار لهذه القصة. تأخرت في الزواج قليلًا ثم وجدت أنه لا بأس من استكمال الأعوام الباقية بلا زوجة..»

ضحك طويلًا هذه مزية مهمّة في د. سامي.. وقاره وأرستقراطيته جعلاه لم يسمع معظم النكات. كل النكات جديدة بالنسبة له حتى (واحد جه يقعد على قهوة قعد على شاي)...

قال لي بعد ما هدأ قليلًا:

- «لا تخف.. سوف تقهر هذه الأزمة..»

قلت في فتور:

- «أنت لا تجيد الكذب يا صاحبي.. لست حزينًا.. كل شيء ينتهي.. فقط نهايتي اتخذت هذه الصورة.. لكن أرجو أن تسدي لي خدمة مهمّة. أريد أن أجد د. رمزي حبيب.. اتصل به وقل له إنني هنا..»

وعدني بأن يبحث عن رمزي.. المشكلة هي أن هاتفه لا يرد ولربما كان خارج مصر..

ثم نظر لساعته وطلب مني الإذن كي يعود إلى الإسكندرية فوافقت آسفًا.. طر يا طائر أبي الحن.. طر بعيدًا عني...

وجلست وحدي في ضوء الغروب الخافت أرقب القطة التي ترقبني. ولا أعرف متى جاءت الممرضة لتقودني لغرفتي...

✷ ✷ ✷

بينما الممرضة تقتادني للغرفة، رأيت نهاية الممر تسبح في ذلك الضوء الخافت السقيم..

رأيته يمشي هناك مبتعدًا.. من؟.. ليس د. سامي طبعًا إنّه ذلك الطيف الذي رأيته جواز فراشي منذ أيام.. نفس الطيف المراهق.

قلت لها في توتر وأنا أعتصر ذراعها بشراسة ضايقتها:

- «هل ترين هذا؟..»

قالت في ضيق وقد توصلت لقرار بسيط هو أنني وقح أو ذئب:

- «هذا ماذا؟..»

- «الفتى الذي يمشي في الممر..»

تحول صوتها إلى كتلة من الثلج تنهال على رأسي:

- «لا يوجد فتى يمشي في الممر لو كان الأمر يهمك!..»

هكذا يمكن القول إنني دخلت مرحلة اختلال الحواس.. إذن فليمت قيصر.. قالها قيصر قبل أن يهوي أرضًا بطعنات المتمردين.. وخاصّة طعنة بروتوس..

كنت أخشى الخرف.. أخشاه كثيرًا.

ها هو ذا قد جاء....

وفي الفراش رحت أحاول الكتابة بعض الوقت.. كنت في تلك الآونة أسجل أحداث أسطورة العلامات الدامية. قصة كتاب نيكرونوميكون، عندما خطر لي خاطر مروع.. هل عشت حقًّا هذا كله أم أن حياتي كلها هلوسة؟... لربما كان هذا كله هذيانًا وقع في الفترة الأخيرة تحت تأثير السرطان وتأثير العقارات المخدرة التي أعيشها؟..

كم من مرة عشت حياة كاملة في الحلم، ثم صحوت لأدرك أنني لم أنم سوى ربع ساعة؟ لربما اخترع عقلي الباطن ماضيًا كاملًا لي؟

لكن هذا مستحيل.. معي عزت وماجي ود. سامي وقد زارني كثير من أهل قريتي وأختي.. ما أنا فيه حقيقي.. لا شك في هذا..

بدأت أسترجع خيوط حياتي القديمة..

قصة الدمية.. دمية الفتيش.. هناك أكثر من دمية في حياتي كنموذج للسحر بالمحاكاة.. لكن هناك قصة دمية لم أحكها بعد..

كنت مع عزت في أحد المعارض بالإسكندرية.. أنت تعرف اهتمام عزت بالفنون التشكيلية.. النحت بالذات. صحيح أنه نحات فاشل (وصديق رائع) بالفعل، ورأيي أن تماثيله قبيحة، لكنه علمني الاهتمام بهذا الفن.. وأعتقد أنني صرت أملك عين ناقد فني محترف..

كنت أمشي مع عزت بقامته النحيلة ومحياه القاتم بين المعروضات. يبدو أن كل فنان في مصر قضى عدة ساعات ليصنع خرشوفة مشوهة أو نمر بلا ذراعين ولا قدمين ولا رأس ولا ذيل.. كنت أشعر بملل رهيب..

فجأة تصلب عزت وهو يرمق تمثالًا غريبًا..

الواقع أنه جميل.. لو دققت النظر أكثر لأدركت أنه نحت بارع فعلًا. صورة كاريكاتورية جميلة للمطربة الجنوب أفريقية التي كانت فائقة الشهرة وقتها (ميريام ماكيبا).. ماما أفريقيا..

درت حول التمثال وبدأت أشهق.. أعترف أنّ هذا عمل متقن..

هناك لدى الغربيين ما يدعى (متلازمة ستندال).. أي الشخص الذي تتسارع أنفاسه ويوشك على فقد وعيه عندما يرى عملًا فنيًا متقنًا.. للمرة الأولى أفهم هذا المصطلح وأنا أرى عزت..

دنا من البطاقة الموضوعة جوار التمثال وتفحصها وتلا الاسم بصوت عالٍ:

- «بيتر كراكوس.. ماكيبا..»

الاسم أجنبي كما هو واضح.. رنينه غريب فعلًا... لا أعرف جنسيته، وإن أمكن أن يكون يونانيًا..

تركني عزت وهرع إلى صاحبة القاعة يسألها عن بعض البيانات، ثم راح يدون العنوان في بطاقة صغيرة. بيتر كراكوس.. شارع (...).. محرم بك...

قال لي بلهجة متوسلة:

- «رفعت.. لا بد أن أقابل هذا الرجل. لابد أن أراه.. لو أردت العودة اليوم القاهرة فأنا أعفيك من مرافقتي..»

قلت له في ملل:

- «لا مشكلة. سوف أوصلك هناك ثم نعود معًا بسيارتي لن أقود السيارة وحدي كل هذه المسافة ليلًا....»

هكذا تم ترتيب الأمور ووجدت أن عزت أجرى اتصالًا بالنحات وبعد دقائق كننا ننطلق بالسيارة للقائه.. لم يقل حرفًا عن هذا الاسم العجيب.. هو في غيبوبة إذن...

عندما فتح لنا الرجل باب شقته عرفت أنّ هناك شيئًا غير مريح بصدده..

- 2 -

كراكوس في الستين من عمره.. ملامحه ضخمة غليظة أصلع الرأس تحيط بفمه لحية دائرية من طراز (دوجلاس). نظرات ثاقبة عابثة قليلًا. هل تعرف صور أنطون لافي مؤسس كنيسة الشيطان في أمريكا؟.. يُمكنك إذن أن تعرف كيف يبدو كراكوس...

شعرت بتقلص في معدتي والحمض يتزايد..

قال لنا وهو يفسح الباب:

- «زيارتكما تسعدني.. قلمًا يلقى المرء من يهتم بالفن لهذه الدرجة..»

لم أستطع قط تبين لهجته.. غامضة.. لا يشوبها شيء من ناحية كونها عربية، لكن بالتأكيد - ليس هناك عرب كثيرون اسمهم كراكوس..

سألته مباشرة ونحن ندخل:

- «أنت لست مصريًا يا سيدي.. من أين أنت؟..»

كنت أعرف على الأقل أنه ليس د. لوسيفر.. د. لوسيفر أتعبني في حياتي كثيرًا حتى صرت أشعر بوجوده بسهولة. ليس هو...

قال باسمًا:

- «الجنسيّة لا تهم.. كلنا بشر نعيش تحت شمس واحدة ولنا مصير واحد..»

هكذا عرفت أنه لن يرد.. سوف يعابثني أولًا... كنت أتصبب عرقًا بعد صعود هذا الدرج المرعب (طابقان) لهذا قدم لي بعض المناديل الورقية لأجفف وجهي، وكان يبتسم بخبث..

عزت لم يكن يتابع هذا الحديث.. كان يشهق وهو ينظر إلى التماثيل التي تناثرت في المرسم. تحف فنية حقيقيّة. الحقيقة أنه كان على وشك دخول نوبة ستندال أخرى..

الشقة لم تكن فاخرة جدًّا، لكن لها ذلك الطابع المحبب للنفس الذي يميز أتيليهات الفنانين. في كل ركن قطعة لم تكتمل أو لها قصة.. على الجدار أوراق معلقة مثبتة بدبابيس ضغط عليها إسكتشات عدة بقلم من الفحم. هناك أحجار في كل ركن.. هناك تماثيل خشبية.. هناك معدات تحت وأزاميل هناك علب طلاء فارغة امتلأت حتى الحافة بأعقاب السجائر.. هناك جو يعبق بالدخان. هناك جهاز تسجيل عملاق يردد أغاني أم كلثوم..

لا أعرف من هو كراكوس هذا لكنه يستمتع بالحياة كفنان حقيقي..

مشى الرجل معنا وهو يراقب تعبيري وجهينا في استمتاع ورضا، ثم إنّه بدأ يعد لنا الشاي على موقد بريموس صغير شاي الفنانين هذا حيث يتم وضع مسحوق الشاي بكف اليد أرجو أن يقلل كمية الصراصير فهي تتعب معدتي..

رجل غير متزوج.. هذا واضح هذا واضح.. لا أحد يملك هذا العالم ويتزوج. لكن منظره وغد.. هناك نساء ماجنات كثيرات حبيسات خلف هاتين العينين. لا بد أن له امرأة مختلفة كل يوم.

الجو قريب جدًّا من مرسم عزت مع اختلاف المستوى الفني طبعًا.

أمّا عن التماثيل فكانت تتناثر في كل ركن..

كانت هناك تماثيل فتيات مستحمات يشعرن بالخجل ويغطين أجسادهن في خفر. لا أفهم في أنواع الصخور لكن أعرف هذه الخامة السوداء.. يبدو أن تمثال خفرع في المتحف المصري من نفس الخامة..

هناك تمثال رجل يسقط على الأرض ويصرخ.. هناك كلب يتلوى..

أتذكر مشاهد كهذه من بقايا مدينة بومبي..

لكن هذه كلها أعمال تقليدية.. بارعة جدًّا لكنّها تقليدية، لكن السحر كل السحر كان في تلك التماثيل الكاريكاتورية لأشخاص تشعر أنك تعرفهم.. كان هذا فنًا جديدًا وقتها بالنسبة لي.. وجه شخص تشوهه وتبرز عيوبه بشدة ثم تصنع تمثالًا مجسمًا لهذا الوجه هناك تمثال أو اثنان بهذا الطابع في متحف محمد محمود خليل..

هذا رجل بارع فعلًا..

كانت هناك كاميرا مثبتة إلى حامل، وكشاف ضوء ومظلة..

قال وقد رأى اتجاه نظري:

- «أتعامل مع عدة مجلات.. هذه طريقة جديدة كالرسم الكاريكاتوري.. تمثال مجسم للوجه..»

أمّا عند باب الغرفة فكان هناك كلب ممشوق يقف في وضع متنبه.. يذكرك جدًّا بتمثالي ابن آوى على باب مقبرة توت عنخ آمون..

قال كراكوس:

- «أنت تعرف ارتباط ابن آوى بالتحنيط عند الفراعنة الإله أنوبيس ليس سوى رجل له رأس ابن آوى..»

قلت في ملل لأن هذه معلومات أعرفها:

- «المصريون القدماء لاحظوا أن ابن آوى يرتاد المقابر دومًا بحثًا عن رزقه.. لهذا اعتقدوا أن له دخلًا بالتحنيط.. هذا مفهوم..»

قال لي كراكوس وهو يناولني كوب شاي صغيرًا ساخنًا:

- «لقد تشرفت هاتفيًّا بمعرفة صاحبك.. لكن لم أعرف من أنت بعد..»

قدمت له نفسي فأخرج قلمًا صغيرًا ودون الاسم في مفكرة..

في الغرفة المجاورة وجدت مشهدًا غريبًا بعض الشيء.. عددًا من الجماجم على منضدة.. سبع جماجم على وجه التحديد كل جمجمة في محجريها شمعتان قصيرتان. يمكن أن تشعل الشموع ليصير التأثير مفزعًا.. هناك فيلم رعب قديم مخيف اسمه (جماجم جوناثان دريك السبع). كان الساحر يحبس أرواحًا في الجماجم ويستردها عندما يشعل الشموع وكان الغرض هو عرض في الملاهي يعتمد على أصوات مختلفة. ألا ترى أن التشابه قوي جدًّا؟

للأمانة كانت هناك عظام ملقاة هنا وهناك.. مما يجعل مشهد الجماجم مبررًا نوعًا.. كراكوس نفسه قال لي:

- «فن النحت يرتبط بعلم التشريح جدًّا. فيما مضى كان الفنان يدرس التشريح في روما قبل أن يبدأ النحت..»

هذا مفهوم.. لكن سبع جماجم؟.. ولماذا الشموع؟.. الأمر يبدو أقرب للسحر الأسود بالنسبة لي.. لكن سأظل صامتًا..

ازداد الشك عندما رأيت مجموعة من الدمى القماشية متقنة الصنع معلقة فوق مشجب.. لو لم تكن هذه دمي (فتيش) فماذا تكون؟

كان عزت قد أنهى جولته المنبهرة.. أحب هذا فيه كثيرًا.. هناك درجة من الغرور وضيق الأفق لدى كل فنان تجعله عاجزًا عن رؤية تميز الآخرين.. تجعله مغلقًا لا يرى سوى نفسه ويظلم الموهوبين الذين هم مثله أو أفضل.. لكن عزت يختلف يمكنه أن يصرخ لو رأى عملًا فنيًّا متقنًا.. وكان دومًا يردد مقطع شعر صلاح جاهين:

- «أنا أحب أقول الشعر في الحلوين.. والحلو أقول له يا حلو ف عيونه..»

أعلن عزت أنّ هذه الجرعة من الانبهار تكفيه. فقط يتمنى أن يسمح له كراكوس بالعودة من وقت لآخر..

قال كراكوس في لطف:

- «بالتأكيد.. بيتي مفتوح لك في أي وقت. اسمح لي بأن أقدم هدية صغيرة..»

ودخل غرفة داخلية ثم عاد حاملًا صندوقًا صغيرًا مغلقًا بورق أصفر..

تناول عزت الهدية في رضا.. وشكر الفنان وانصرفنا...

- 3 -

الغابة عميقة مظلمة عذبة..

لكن لديَّ مواعيد يجب أن أفي بها..

وأميالًا يجب أن أقطعها..

قبل أن أنام...

روبرت فروست

✷ ✷ ✷

في القاهرة احتجت لوقت طويل جدًّا حتى يفيق عزت من انبهاره.

في الطريق للبيت تصرفنا كالعزاب الحقيقيين، وابتعنا بعض الجبن والزيتون والخبز. في شقّة عزت أعد لنا الشاي بالصراصير ورحنا نلتهم عشاءنا بسرعة.. أنا مرهق فعلًا من القيادة. سوف أتناول عشائي وأنام ولتكونن من الليالي النادرة التي أنام فيها ليلًا!

لما فرغ عزت من هذا فتح الهدية التي جلبها معه.. كانت عبارة عن كف.. نحت لكف من حجر البازلت الأسود - لو كنت على حق - شديد الإتقان. أعتقد أنها تصلح كمطفأة سجائر كذلك..

في الواقع لست متحمسًا جدًّا للنحت القريب جدًّا من الواقع.. كل الفنون القريبة من الواقع تحدث غصة في حلقي، لأنني لا أشعر بوجود الفنان في هذا كله..

قال عزت وهو يتفحّص الكف:

- «مذهلة.. هذا الرجل كارثة..»

قلت مفكرًا:

- «هو كارثة فعلًا لكن ليس كما تقول أنت.. كراكوس من أي بلد جاء هذا؟.. دمى فتيش؟.. جماجم؟.. هذا ساحر أسود ومن لا يرى هذا أعمى أو أحمق..»

أضاف في افتتان:

- «إنّه فنان.. هذا كل شيء..»

- «وأنت غبي.. هذا كل شيء..»

بهذه الكلمات الرقيقة انتهت الأمسية.. وعدت لشقتي..

✷ ✷ ✷

عدد من رجال كفر بدر جاءوا يزورونني في المستشفى ومعهم أختي..

التلفيعات والشوارب وعلب السجائر المربعة البيضاء ونظرة الخطورة والجديّة..

من جديد ذلك الجو المتوتر المفتعل والضحكات التي تدرك على الفور أنها ليست من القلب. فقط مال زوج أختي على يسألني إن كنت بحاجة إلى مال. بالطبع يدركون جيدًا أنني زاهد. لا أملك سوى راتب الجامعة ولا أملك عيادة، وبالطبع لم أعتن لحظة بأن أملك أرضًا..

من يعرفونني جيدًا يدركون أنني لست ثريًا..

لكن من يهتم؟

عندما لا تكون لديك أسرة، وعندما لا تنجب، فأي مبلغ يكفيك.. بل يفيض.. لهذا اعتدت أن أعتبر نفسي ثريًا كلما أردت وجدت.. هل هناك وضع أفضل من هذا؟ بينما الناس من خوف الفقر في فقر..

قلت له شاكرًا إن كل شيء على ما يرام..

نفقات العلاج ليست باهظة.. عندما تضيق سبل العلاج فهو لا يكلّف تقريبًا. من يكلّف علاجهم الكثير هم الذين ما زال لديهم أمل ما..

الدموع في عين أختي، لكنّها تتماسك..

كفر بدر.. المنصورة.. أقرب مكانين لقلبي حيث الجذور..

لكنني صرت غريبًا بالنسبة لكفر بدر دائمًا. قضيت وقتًا طويلًا في المدينة بحيث لم أعد أفهم مشاكل الفلاحين والجمعية الزراعية وسماد الأرض وبنك التسليف وأوبئة الماشية، وصرت بالنسبة لأقاربي أغرب وأغرب.. دعك من أنهم عاجزون فعلًا عن فهم الرجل الذي لم يتزوج.. لا بد أنه منحل أو مجنون..

عندما رحلوا جلست على الفراش بعض الوقت، ثم تحاملت على نفسي إلى الحمام..

سوف تأتي ماجي بعد قليل.. يجب أن أحلق ذقني الشائبة هذه تجعلني أبدو مرهقًا شائخًا جدًّا..

بينما كنت أحلق ذقني أمام المرأة كنت أتساءل عن سبب اختفاء عزت..

✷ ✷ ✷

في تلك المرّة اختفى عزت مدة أسبوعين بعد زيارة ذلك النحات السكندري..

كم من مرة قرعت الجرس أو انتظرته فلم يظهر..

كنت أعرف أنه يمضى الخميس كل أسبوع في الإسكندرية، وأعرف أنه بالتأكيد يزور هذا الكراكوس لكن أين هو؟.. لماذا لا يظهر يوم السبت؟

مر الوقت وبدأت أشعر بقلق حقيقي..

لم يعد مفر من فتح الشقة والبحث عن شيء.. ربما ترك عزت رسالة لي. أنت تعرف أن كل واحد منا قد ترك نسخة من مفتاح شقته لدى الآخر.. احتاج عزت لهذا المفتاح ذات مرة لينقذ حياتي عندما راحت سني تصغر...

هذا هو الوقت كي أدخل أنا..

في حذر فتحت باب الشقة ودخلت.. أضأت النور الكهربي. رائحة خانقة فعلًا لأنّه لم تتم تهوية الشقة منذ فترة. لا أعتقد أنني سأجد جثة عزت شاخصة البصر ملقاة هنا أو هناك لا أشم رائحة تعفن، ثم إن عزت ليس من الطراز الذي يموت بسهولة وصمت.. سوف يملأ الدنيا صراخًا..

لا يوجد أحد.. لا يوجد أثر..

وقفت ثابتًا أنظر للكف الحجرية التي جاء بها من عند كراكوس هذا..

دنوت منها أكثر وتأملتها.. ثم شعرت بشعر رأسي ينتصب أعني ما تبقى منه..

✷ ✷ ✷

فتح كراكوس الباب ليجدني أمامه. لم يبد مرحبًا وبدت نظرة شيطانية غير مريحة على وجهه:

- «مرحبًا يا دكتور.. يؤسفني أنك قطعت كل هذه المسافة فأنا مشغول ولا أقدر على استقبالك..»

قلت في براءة:

- «اسمح لي على الأقل بالتقاط الأنفاس.. لا تتوقع أن أعود للقاهرة حالًا..»

أفسح لي الباب في ضجر، وسألني:

- «أين صديقك؟..»

- «كنت أنوي أن أوجه ذات السؤال..»

فارع القامة قوي البدن فعلًا.. يمشي راسخًا أمامي وهو يكذب.. أعرف أنه يكذب.. نساء كثيرات في عينيه خلف القرنية..

قال بصوت هادئ:

- «لم أره منذ زمن.. حسبت هديتي لم ترق له...»

قلت وأنا أمشي بين التماثيل المتقنة التي تأثرت هنا وهناك:

- «هل تعرف أسطورة ميدوسا؟.. المرأة التي لعنها زيوس فتحول شعرها إلى ثعابين، وصارت لها نظرة تحول من تنظر له إلى حجر؟..»

قال ضاحكًا:

- «من لا يعرف هذه الأسطورة؟.. تمنيت لو عندي هذه الموهبة إذن لما بذلت أي جهد في صنع التماثيل.. كنت سأنزل إلى الشارع فأنظر للناس وأجمع ما يتحوّلون له..»

- «من أنت حقًّا؟..»

توقف واستدار نحوي.. نظرة نارية التمعت في عينه. ليست نظرة من أهين بل نظرة من افتضح أمره.. قال لي في ثبات:

- «اسمي كراكوس..»

وجدت مطرقة عملاقة مستندة إلى جدار فأمسكت بها.. وقلت وأنا أتحسس ثقلها على يدي:

- «اليوم وقع شيء جعلني أهشم هديتك لعزت.. جلبت مطرقة عملاقة وهشمتها. السبب هو أنني ارتبت في الدقة التشريحية غير العادية. أنت تعرف أنه اتهموا النحات الفرنسي أوجست رودان بأنه يستعمل موديلات حية يغطيها بالنحاس الذائب. ما فعلته أنا هو أن هشمت الكف، فوجدت ما تعرفه أنت.. هذه كف بشريّة مقطوعة تغطت بطبقة حجرية....»

ثم أضفت وأنا أرفع المطرقة:

- «ليس الأمر قاصرًا على نحات نصاب يستعمل بقايا جثث هذا سهل.. لكني أعتقد أنّ هناك نوعًا من اقتناص الأرواح.. نوعًا من السحر الأسود. تلك التماثيل الكاريكاتورية توحي بوجوه شياطين.. أليس كذلك؟.. أنت تنحت وجوه شياطين لم ألق نحاتين كثيرين يستعينون بتماثيل فتيش وجماجم فيها شموع..»

وقبل أن يفهم ما فعلته هويت بالمطرقة على تمثال مستحمة عارية تداري عورتها بأوراق اللوتس.. تهشّم الحجر واستطعت أن أرى لحمًا بشريًا. لحمًا اسودَّ وتحلل منذ زمن... كأنه جسم مومياء..

نظرات نارية سلطها عليَّ وبدأ يبتسم في وحشية، فقلت:

- «كل هذا المعرض يعتمد على جثث خطفتها أنت وكسوتها ربما لم تخطفها ولكن قتلتها.. لا أعرف كيف نجد عزت هنا لكني أعرف يقينًا أنه تمثال يقف في هذا الأتيليه..»

مشى كراكوس في ثبات نحو المشجب الذي علق عليه الدمى..

قال وهو يتناول شيئًا من جيبه:

- «هذا غباء يا صاحبي.. لا أحد يزور الآخر في بيته ليقول له هذا الهراء...»

كان يغرس الإبرة في دمية قماشية معلقة على المشجب.. هل تشبهني هذه الدمية فعلًا؟.. لا أريد أن أبقي هذه الفكرة في رأسي.. مستحيل.. ليس لديه شيء من جسدي.. لا أظفاري ولا شعري.. فماذا بوسعه أن يفعل؟

كان يغرس الإبرة.. بالضبط في الموضع الذي كانت فيه حنجرة الدمية.. ضحك..

قال وقد فهم ما يدور برأسي:

- «أحيانًا يكفي منديل ورقي استعملته الضحيّة.. واضح أنك لا تعرف الكثير.. لقد تركت مناديل ورقية كثيرة في زيارتك الأولى.. والآن.... ....»

هنا دق الباب عدة مرات وبغلظة، فقلت له بلهجة انتصار:

- «أصدقائي من رجال الشرطة قد جاءوا.. سوف يرحبون جدًّا بتفتيش هذه الشقة. لو لم أتفق معهم فلربما قررت أن تضمني إلى مجموعتك..»

ثم أسرعت نحو الباب وفتحته.. دخل ضابطان ومعهما عدد من رجال الشرطة...

انتشروا في الشقة.. وهنا أدركت الحقيقة المروعة كراكوس ليس هنا. لا أعرف كيف اختفى لكنه فعل ذلك..

عندما رأوا التمثال المهشم عرفوا أنني لم أكن أهذي. كانوا قد رأوا تمثال الكف قبل هذا طبعًا، وتأكد صديقي العتيد رجل الأمن عادل من أنني لن أكون وحدي...

أمّا عزت فلا أثر له في الشقة....

عندما عدت للقاهرة أخيرًا وجدت أن أنوار شقّة عزت مضاءة.. دققت الباب مرارًا ففتح لي مذعورًا.. كان قد بدأ بدوره يتساءل عن سبب اختفائي...

سألته أين كان.. يا له من أحمق..

قال إنّه.. إحم.. إنّه كان يزور قصة حب قديمة. لقد أمضى أسبوعين في الزقازيق.. لا أعرف خلفيات هذه القصة على كل حال، لكني ظلمت كراكوس برغم كل شيء. إنّه سفاح لكنه لم يمس صديقي..

✷ ✷ ✷

من أين جاء كراكوس؟

من هو؟

لا أحد يعرف.. لكنه قتل كثيرين أو نبش قبورهم ليستعمل جثثهم كقوالب لتماثيله. في التسعينيات من القرن العشرين سمعنا عن مثال مصري استعمل أجزاء من جثث حقيقيّة في تماثيله، ثم فاحت الرائحة وافتضح.. طبعًا لم أندهش.. كل الحياة حدثت من قبل لكنهم ينسون..

اليوم وجدته في المستشفى. أتكلم عن كراكوس وليس المثال المصري طبعًا. يقف في الظلال جوار فراشي بالضبط وفي يده تلك الدمية التي تمثلني. المناديل الورقية قد تؤدي الغرض كما قال..

كان يحمل دبوسًا.. نظر لي في توحش وهو يمسك به في نوع من الغل. ثم قربه من الحنجرة..

هذا ما فعله معي منذ أعوام. لاحظ أن الحنجرة هي قاتلتي فهل هي مصادفة؟ يبدو أن سحر الوغد يتأخر أعوامًا عدة..

قلت له بصوت مبحوح:

- «كراكوس. انتهت القصة.. لا تغرس هذا الدبوس..»

لكنه فعل هذه المرّة.. كان الألم جهنميًا وارتميت على الفراش أعوي إنّه يغرس الدبوس من جديد.. الحقد في صورة إنسان..

فقط لمست يدي الجرس فظهرت الممرضة أخيرًا.

قلت لها:

- «كراكوس..»

لكنها ملأت محقنًا بالبتيدين وأفرغته في قناتي الوريدية. وبعد ثانية لم أعد في عالمنا هذا.. لقد ذاب كراكوس.... ....

- 1 -

أنا الآن جالس في الاستراحة بالمستشفى. هي خاصة بالأطباء، لكنهم يسمحون لي بالجلوس.. فأنا منهم لو كنت قد نسيت..

كنت منهمكًا في تدوين ذكرياتي عن (أسطورة الجاثوم) عندما رفعت رأسي لشاشة التلفزيون، فوجدت مشهدًا من فيلم عربي.. هناك صياد في قارب والقارب في نهر...

بدأ سطح مياه ذكرياتي يترقرق.. وتذكرت قصة أخرى..

✷ ✷ ✷

قريتي.. قريتي..

برغم أنني رأيت أغلب بلاد العالم، فما زال ذلك الحنين يحركني كلما عدت لها، لأتذكر طفولتي ورائحة الأرض ورائحة الليل.. حتى رائحة روث البهائم الجاف تثير شجني.. وحتّى صوت الغربان.. كل شيء هنا هو جزء من خلاياي لو فحصتها تحت المجهر لرأيت - هناك - في نواة الخلية كتابًا صغيرًا ودار ضيافة وحقول ذرة وحظيرة ماشية..

كما قلت لك: أشعر بأنني غريب عنهم.. مشاكلهم بعيدة عني.. أحلامهم ليست أحلامي، وبرغم هذا أنا منتم بقوّة.. ربما للأرض.. ربما للطين.. ربما لمياه الترعة الرمادية.. أنا ليمونة زرعت هنا ثم اقتلعها أحدهم واحتفظ بها في ثلاجة باردة بالقاهرة..

سوف أدفن هنا.. لن أدفن في القاهرة. بل إنني دفنت هنا من قبل فعلًا... هل تذكر؟

لم أكن مسنًا وقتها. كنت في ميعة الصبا كما يقولون.. مفعمًا بالصحة والعافية. آكل كالثيران وأدخن كمقلب قمامة وأضحك كالمجانين..

كانت هذه أيام بعثتي الشهيرة في بريطانيا - البعثة التي غيرت حياتي كلها كما تعرف - وكنت في إجازة عدت فيها إلى الوطن بعض الوقت..

عندما أعود للوطن، أقصد قريتي على الفور.

عندما جاء المساء التقيت مع صديقي الصبا (جمال) و(محمد).. أحدهما مهندس والآخر محام.. لقد كانت مراهقة طويلة حافلة، وإن كنت أمضى أغلب وقتي في المنصورة لكن لقاءاتنا كانت

صاخبة دائمًا. عشاء دسم.. مراهنات على التهام أكبر عدد من أعواد القصب أو ثمار اليوسفي.. لعب الكرة.. لم تكن لياقتي عالية قط، وكانت أنفاسي تتقطع بعد خمس دقائق لكني كنت أجلس على كومة من الدريس وأراقبهما..

جمال قوي البنية، أسمر.. محمد هزيل، ذو روح دعابة عالية.. يعرفان معظم أسراري وأعرف معظم أسرارهما..

قال لي جمال إنّه يدعوني للعزبة..

كان الظلام دامسًا فشعرت بقشعريرة تسري عبر عمودي الفقري. مشينا وسط الزراعات المظلمة لا نسمع سوى صوت كلب ينبح من بعيد.. أقدامنا تنغرس في الطين طيور الليل الغامضة تصدر صوتها المميز..

هنا تهبط منحدرًا صعبًا.. خذ الحذر لأن الترعة - البحر كما يصفونه - هي نهاية هذا المنحدر، وأنت لا ترى أي شيء فعلًا كأنك تنحدر إلى عالم أسود مطلق..

تمسك بيد جمال محاولًا ألا تتعثر، بينما محمد يضيء الكشاف الخافت في يده إنهما يتصرفان بسلاسة لأنهما ابنا القرية ويحفظان موطئ القدمين..

أخيرًا تجد القارب المتأرجح الذي ينتظرك. تضع جسدك فيه بحذر.. أي حماقة هذه التي تقوم بها؟! أي غباء؟! لو أنك سقطت في الماء هنا فلا دية لك ولن يجدك أحد.. بالطبع إلى أن يجدوا جثتك الطافية المنتفخة..

كما قلت لك.. أعتقد أن كل عمل أخرق في التاريخ كان سببه الخوف من الاتهام بالجبن.

القارب يتأرجح بينما يتبادل الشابان المزاح، وينزلق القارب في خفة فوق الماء كأنه قطرة زيت بينما جمال يمسك بالمجدافين..

طش.. طش..

كأننا نسبح في بركة من حبر أسود..

أنظر للسماء فأراها مدهونة بنفس الحبر.. لكنّها مليئة بالثقوب.. ثقوب يعتقد الناس أنها نجوم.. تذكرت نكتة (شيرلوك هولمز) عندما نام في الخيمة مع واطسن ونظر للسماء.. سأل (واطسن): «ما الذي تقوله لك هذه النجوم؟». ذكر واطسن استنتاجات كثيرة، فقال هولمز: «معنى هذا أنّ هناك من سرق الخيمة من فوقنا!!»

القارب ينسل وسط الترعة.. واضح أن صفحة الماء ممتدة إلى أقصى الجانبين، والأشجار المطلة مدثرة في الظلام كأنها أشباح تراقبنا.. وورد النيل ينزاح لنعبر من خلاله..

جمال يلهث... يلهث...

الوقت يمضي... يمضي ببطء..

نظرت إلى بعيد.. الظلام دامس حقًّا.. لكن ما هذا الشيء الذي يقف في وسط الترعة على بعد عشرين مترًا؟

- 2 -

كلما دققت النظر أكثر، بدا لي الأمر مريبًا.. كأنني أرى النصف العلوي لإمرأة تقف منتصبة وسط الماء.. الظلام دامس والأضواء الواهنة خادعة جدًّا، لكني أعتقد أنّ هذا هو المشهد فعلًا..

ثم أدركت أنني أسمع غناءً خافتًا...

نظرت في الظلام إلى جمال وهمست:

- «هل ترى هذا الشيء؟ شجيرة في وسط الترعة؟!»

صمت قليلًا.. ثم قال بلهجة ذات معنى:

- «تجاهلها.. لن يحدث شيء...»

ونظرت لمحمد فوجدت شفتيه تهتزان.. كان يقرأ بعض قصار السور القرآنية..

ماذا يحدث؟.. هذا الغموض مخيف...

بدأنا نقترب من الضفة الأخرى، فوثب محمد إلى الأرض المظلمة ومد يده يساعدني على الصعود.. جهد فظيع كي أتسلق..

أخيرًا مشينا وسط المزروعات السوداء، إلى حيث كانت نار مشتعلة في (قوالح) الذرة.. وهناك جلس (عبد المعطى) الفلاح الذي يستأجر أرضًا في العزبة، وكان قد أعد لنا النار وبدأ في شي بعض الذرة مع الشاي بالنعناع.. باختصار كل ما يجعل الحياة رائعة.. بينما جلس جوارنا يراقبنا في رضا ويدخن الجوزة..

بعد رشفات من الشاي بدأت أشعر بانتعاش، وبأنني لست خائفًا لهذا الحد من رحلة العودة..

سألت محمدًا عن هذا الذي رأيناه في رحلتنا إلى هنا، فالتفت إلى (عبد المعطي) وطلب منه أن يحكى، كانت الوجوه تتوهج في اللهب فتشعرك بالرعب.

نفث عبد المعطي سحابة كثيفة من المعسل، ثم قال بصوت مبحوح:

- «لابد أنكم رأيتم المزييرة.. اللّهم احفظنا».

حاولت أن أنطق الاسم بصعوبة:

- «مزييرة؟!»

- «نعم.. مزييرة.. هي الجنية التي تسكن هذه الترعة إنها تسبح في الليل باحثة عن أي شاب يصطاد أو يمرّ بقربها تناديه وتغني له.. لو لحق بها فلسوف تجذبه تحت الماء ليغرق وفي الصباح يجدون جثته. أمّا لو نجح في أن يقتلها....»

قال جمال ضاحكًا:

- «لو نجحت في قتلها فلسوف تجد معها طاقية الإخفاء هكذا تقول الأسطورة. بما أن أحدًا لم يجد طاقية الإخفاء بعد فإن بوسعك فهم أن أحدًا لم يقتلها!»

بدت لي القصة شبيهة جدًّا بقصة النداهة... النداهة تنادي تحت البيوت ليلحق الشباب بها، أو تتقمص شكل أحد رفاقك وتقنعك بالخروج معها ليلًا تكتشف بعد قليل أنّ هذا ليس رفيقك!!

لكنها بالفعل فكرة تثير القشعريرة، دعك من أن ما رأيته كان فعلًا أقرب لأنثى.. لكنّها أنثى ضخمة لابد أن قامتها تقارب أربعة أمتار..

✷ ✷ ✷

كل الثقافات البشريّة فيها نمط عروس البحر التي تنادي الناس ليلًا.. أنت تعرف عرائس بحر (أوليس) وكيف كن ينادين البحارة، حتى اضطر أوليس ورفاقه لأن يربطوا أنفسهم إلى الصواري حتى لا يلحقوا بالنداء ويلقوا حتفهم.. قصص ألف ليلة وليلة تعجّ بعرائس البحر. كما تعلم.

يبدو أن عرائس البحر كن موجودات في كل مكان في القصص الإغريقية. هن منتشرات كقطط الشوارع عندنا، وكن في رتبة أقل نوعًا من الآلهة.. أو هن نتيجة زواج إله مع أنثى بشريّة.. كن يغنين أغاني حزينة بعد ما خطف بلوتو برسفونه إلى مملكته.. وكانت أغانيهن لا تقاوم.. تدفعك لأن تسقط في الشرك وأنت سعيد.. هذا فن أنثوي جدًّا..

أحيانًا ينام البحارة فتتسلق العرائس إلى السفينة وتلتهمهم.. سوف تجد الكثير من قصص عرائس البحر في كتب المؤرخين العرب. سوف تجد قصصًا حكاها القزويني والمسعودي وأغلبها يتعلق بزواج بشر من عرائس بحر.

في ألمانيا تجد أسطورة لورالاي وهي أسطورة قوية وراسخة جدًّا.. (لورالاي) لا تغني لكنّها تفرد شعرها كالشباك لتسقط فيها السفن..

هل تذكر (الحطمة)، القصة التي سمعتها في قصص وراء الباب المغلق؟.. أعتقد أنها قريبة جدًّا من المزييرة..

كعادة العلماء في هدم كل ما هو ساحر، يقولون إن القصة كلها تتعلق بالفقمة هذه تظهر في الظلام والأمواج.. البحارة أنهكهم الصراع وأنهكهم الحرمان من الأنثى مع طول الرحلة، لذا

يعتقدون أنهم يرون فتاة بارعة الحسن نصفها العلوي امرأة والنصف السفلي سمكة..

كلها قصص تتراوح بين المسلية والمخيفة.. لكن لا تنكر أن جو (المزييرة) مفزع فعلًا..

✷ ✷ ✷

المزيد من أكواب الشاي الصغيرة بالنعناع.. الكثير من أكواز الذرة..

إنها الواحدة بعد منتصف الليل.. خليط لذيذ من النعاس والقشعريرة.. الشعور ببرد خفيف.. رائحة المعسل من ناحية (عبد المعطي)..

في النهاية قلت - وأنا أحاول بعث الروح في قدمي التي صارت عش نمل:

- «أعتقد أن وقت العودة قد حان»

هكذا عدنا نقطع المساحة المظلمة، لا تعرف حقًّا ما تدوس عليه ولا أين أنت.

المنحدر الرهيب المتجه للماء.. هذا الكشاف اللعين الخافت لا ينير أي شيء.

أخيرا ينتظرنا القارب وهو يتأرجح بلا توقف.. أمسك جمال بالمجداف وبدأ يضرب الماء الأسود.. لا أرى شيئًا تقريبًا، ولهذا أنظر للنجوم في السماء..

- 3 -

ساد الصمت.. بينما القارب يشق الماء المكسو بورد النيل.. لهاث جمال وأنفاس محمد الثقيلة. أحب هؤلاء المهندسين العضليين الذين يقدرون على العودة بك لشط النجاة..

صوت الماء.. صوت المجدافين.. صوت الأنفاس..

لا أعرف ما حدث ولا كيف..

هناك شيء جعل القارب يرتج بقوّة، ثم يدور حول نفسه ليمارس مع جسدي أعنف قوانين الطرد المركزي التي هي في الحقيقة قصور ذاتي. وكان وضعي حرجًا فعلًا على الحافة بالضبط.. فعلت ما يفعله أي شخص لا يجيد التحكم في جسده..

وجدت أنني أنحدر..

وفي لحظة وجدت نفسي وسط المياه المظلمة.. لا أراها لكن أشعر ببردها وثقلها.. عقلي يخبرني بشيء واحد فقط:

- «أنت سقطت!»

أهوى لأسفل وسط ما شعرت كأنه أعشاب مائية أو جذور عامّة ثم ضربت قدمي الطمى في القاع... ركلت القاع فارتفعت من جديد نحو السطح.. هذا هو سيناريو الغرق المعتاد إلى أن تمتلئ رئتي بالماء. أنا لا أسبح بل أطفو كجثة غارقة، لكن هذه المياه لا تسمح بالطفو.. تختلف تمامًا عن مياه البحر..

قلت لنفسي إنها النهاية وأنا أهوي للقاع ثانية..

ثم ارتفعت.. ظلام.. لا أثر للقارب..

فتحت فمي لأصرخ.. لكن الماء الآسن ملأ فمي..

ما لم أعرفه وقتها هو أنهم لم يلحظوا سقوطي للمرة الأولى كانت هناك دوامة، لهذا انهمك جمال في السيطرة على المجداف.. بينما حاول محمد التماسك.. لم يلحظ أحدهما صوت (طششششش) العالي وكان الظلام الدامس يمنع رؤية أي شيء..

كنت أموت أعتقد أن نقص الأكسجين بدأ يعبث بدماغي.. بدأت أغيب عن الوعي ودعوت الله أن تكون النهاية سريعة..

هنا شعرت بتلك اليد الصلبة تمسك بقميصي..

قوة غير عادية تجرني..

وهنا فقدت الوعي.. ظلام..

✷ ✷ ✷

كنت ملقى هناك على أرض صلبة.. مبتلًا ككلب صغير في يوم مطر..

أسعل فينبعث الماء من كل فتحات وجهي، فلولا معلوماتي التشريحية لقلت إنِّه يخرج من عيني..

الظلام من حولي.. ضوء النجوم الشبيه بثقوب في جدار الكون..

نهضت بصعوبة وتقيأت الكثير من ماء الترعة بمذاق الطمى..

ثم جلست.. أين أنا؟! هذا لسان من الأرض يبرز وسط الترعة.. لا شك في هذا..

عيناي تعتادان الظلام نوعًا.. هنا أرى أمامي في الظلام هذا الشكل..

امرأة عملاقة يبرز نصفها العلوي فقط من الماء أدرك بسهولة أن عينيها مشعتان.. لون أخضر فوسفوري مخيف، وأرى شعرها المنتفش الذي يوحي بأنها أنثى.. لكني لا أرى ملامحها..

أردت أن أتكلم لكن الكلام احتبس في حلقي...

وأدركت في هلع أنها تغني.. لا شك في هذا.. ترنيمة مبهمة خافتة لا تتبين أي حرف منها لكنّها مسموعة..

المزييرة!

هل هي من جذبني للماء؟.. هل هذه هي النهاية؟ لماذا لم تتركني للموت إذن؟.. هل تتصرف مثل التمساح الذي يجذب ضحاياه ليدفنها في الطين حتى تتعفن ويقدر على مضغها؟

أدركت أنّ هذا الشيء المرعب يحمل شيئًا في يده..

طوحه فسقط جواري..

عندما دققت النظر رأيتها تستدير.. تبتعد.. ومع ابتعادها إلى قلب الماء كانت تغطس أكثر فأكثر حتى توارت نهائيًا..

وسمعت من بعيد صوت محمد يهتف:

- «رفعاااااااااات!..»

صرخت بما بقي في حلقي من صوت:

- «محماااااااد!.. جماااااااال!»

مزيد من الصراخ ثم سمعت صوت الضربات.. المجداف ضوء خافت يتوهج في مقدمة القارب.. لقد عثرا على..

وسرعان ما رأيت جمال واقفًا يمسك بالمجداف بينما محمد يصوب الكشاف نحوي، وهتف جمال:

- «تبًّا لك!... حسبنا أننا لن نجدك ثانية..»

- «من جاء بك لهذه الجزيرة؟! لم نمر من هنا.. هل تجيد السباحة لهذا الحد؟!»

لم أرد إلى أن وجدت نفسي في القارب المتأرجح كنت أرتجف بالكامل..

كانت الأسئلة تنهال علي، فقلت في شرود:

- «المزييرة أنقذتني!»

- «هل تمزح؟!»

- «لا أعرف تفسيرًا آخر لما مررت به».

ومددت يدي أتفحص الشيء الذي ألقته جواري.. كان شيئًا صوفيًا مبللًا.. وصوبوا عليه الكشاف ليروه بشكل أفضل هتف محمد في عدم تصديق:

- «هذه طاقية الإخفاء! لقد تركتها لك..»

في غيظ قال (جمال):

- «حتى بمنطق الخرافة نفسه، فهذا مستحيل.. هو لم يقتلها».

الشيء كان تلفيعة طويلة مما يلبسه الفلاحون، وقد عقدت على شكل أنشوطة... لم يكن طاقية الإخفاء، للأسف..

✷ ✷ ✷

كانت هذه الساعات الأولى من الصباح لكننا لم نعد لبيوتنا..

كنت هناك في بيت (جمال) جوار النار التي أشعلها لأصطلي بها. أشعل لفافة تبغ وجلس جواري.. ثم قال وهو يتأمل التلفيعة بين يديه:

- «هناك أسطورة أخرى حكاها لي عبد المعطي منذ زمن هناك فلاح قتل زوجته خنقًا ثم تخلص من جثتها في هذه الترعة.. حدث هذا منذ عقود عديدة. قال البعض إنهم يرونها من حين لآخر تسري فوق الماء. طبعًا لا أحتاج لقول إنّه خنقها بالتلفيعة والآن هل يقودنا هذا التفسير؟»

قال محمد مفكرًا:

- «لا أؤمن بالأشباح.. هل تعرف ما أفكر فيه؟.. لربما كان هناك نوع من الكائنات الغامضة يعيش تحت هذه الترعة ربما يجد لنفسه موطنًا في الأوحال، ويبقى هناك في وقت الجفاف. لربما كان هذا هو الكائن الذي قابلناه مرّتين هذه الليلة ولربما وجد هذه التلفيعة بالصدفة..»

قلت أنا وأنا أجرع الشاي الثقيل الساخن الذي أعده (جمال) لي:

- «النظريتان جديرتان بالتأمل.. لكن هناك نظرية لم تذكراها وأميل لها..»

- «ما هي؟..»

شفطت شفطة من الشاي وقلت:

- «إن (المزييرة) هي ما قابلناه فعلًا... لكنّها ليست كائنًا قاتلًا كما يحلو للأساطير أن تتصور».

وساد صمت ثقيل..

بدأ ضوء الفجر يتسلل للغرفة، عندها قررت ومحمد العودة لدارينا...

- 1 -

يؤمل دنيا لتبقى له..

فوافى المنية قبل الأمل

حثيثًا يروي أصول الفسيل..

فعاش الفسيل ومات الرجل

(سيبويه)

✷ ✷ ✷

أين الكاهن الأخير؟ أين (هن تشو كان)؟

أفتقده كثيرًا في هذه اللحظات.. لقد كان خير صديق لي منذ قابلته مذعورًا كقط في ذلك المخزن في قريتي لا يعرف أي شيء. ثم عرفت أنه يعرف الكثير جدًّا...

أتمنى لو رأيته وأدعو له بالخير...

في فيلم (أشياء للحياة) بطولة (ميشيل بيكولي)، مات البطل في حادث سيارة.. أظهره المخرج يسبح في المحيط.. سفينة تقترب منه. على السفينة يرى وجوه أمّه وزوجته وحبيبته وصديقه.. كلهم يضحكون ويلوحون له فيلوح لهم في مرح.. يدنو منهم أكثر، لكن السفينة لا تتوقف ولا تلتقطه.. تبتعد وهم ما زالوا يلوحون له. هنا يدرك الحقيقة المرعبة: حياتهم مستمرة من دونه. يتبدل وجهه إلى الذعر والحزن.. ثم تخور قواه فينزلق لأسفل ببطء...

اليوم.. هناك سفينة عليها (ماجي) و(عزت) و(كاميليا) و(هن تشو كان) وكل أسرتي في كفر بدر.. هذه السفينة تبتعد وهم يلوحون لي.. لكنهم لن يلتقطوني..

وفي القاع تنتظرني أسرة أخرى صغيرة لطيفة من (لوسيفر) و(ليليث) و(بهموت) و(أبراكساس) و.. و.... ..

تناولت المصحف الصغير جوار الفراش ورحت أقرأ...

بعد ساعة بدأ جفناي يثقلان..

لا أدري متى دخلت (ماجي) الغرفة.. تمضي معظم وقتها هنا وهذه إشارة واضحة: أنت ستموت.. لن أتركك حتى تقضي نحبك.. لو كانت مطمئنة لعادت لأسكتلندا..

تنسق الأزهار التي جلبتها بجوار فراشي، برغم أنني أخبرتها مرارًا أنني أمقت الأزهار..

تجلس جوار الفراش وتبتسم.. ثم تبدأ في الغناء بصوت رقيق خافت..

صوتها يحملني لأعلى.. لأعلى..

هناك مكان ما. في زمن ما.. ليس فيه ألم ولا حنين..

كنت أحلم ثم بدأت الرؤيا تتعكر بفعل كابوس..

كنت أرى د. رتشارد كامنجز...

✷ ✷ ✷

أيها الموت.. إن خادمك على الباب.

لقد قطع بحار الغيب وجلب نداءك إلى بيتي.

إن الليلة مظلمة وقلبي يرتجف من الخوف..

غير أنني سوف آخذ المصباح، أفتح بوابتي وأنحني له مرحبًا.

إنه رسولك هذا الذي يقف عند بابي. سوف يعود إليك منجزًا المهمة، تاركًا وراءه ظلامًا دامسًا..

وفي بيتي المنعزل سأكون أنا القربان الأخير الذي أهديه لك.

(طاغور)

✷ ✷ ✷

أنتم تذكرون لا شك تلك التجربة المخيفة التي كان د. (كامنجز) ينوي تنفيذها..

محاولة إعادة إحياء مومياء الكونت (دراكيولا) كما يزعم هو، والتي جاء بها من ترانسلفانيا..

كان يؤمن أنّ هناك من يكرر المحاولة كل مئة عام.. من ثم يظهر الكونت وتنتشر عقيدة مصاصي الدماء، إلى أن يموت بيد شخص لم يتلوث..

الحقيقة أنني كنت مستجدًا في تلك الأوقات، ولم أكن ذا خبرة تقريبًا..

ثم جاء موعد التجربة فنمت. أيقظتني ابنته (كاترين) لتخبرني أن البيت خال.. أبوها وأمها وضيفهم د. (لوفارسكي) اليهودي ليسوا بالبيت. لقد صار على كاهلي أن أقوم بالطقوس المخيفة.

جربت وفشلت.. أو هذا ما بدا لي.. الفكرة هي أن (كاترين) راحت تضحك في توحش، ثم غمست إصبعها في دلو الدم ولعقته.. بدا لي أنها تحولت لمصاص دماء فعلًا، فهرعت أفر من المكان وكان أقرب النظريات لي هي أن روح (مصاص الدماء) تقمصتها وقتلت باقي الأسرة.. ربما هي مزحة ثقيلة من (كامنجز)... ربما قتلها أبوها عندما تحولت! لا أدري حقًّا..

فيما بعد، اختفى د. (رتشارد كامنجز) من حياتي تمامًا.. لم يرد على خطاباتي، وعرفت أنه هاجر إلى أستراليا مع أسرته.. هذا ما قيل لي، ولو كان صحيحًا فهو ما زال حيًّا..

ظلت أسئلة كثيرة تحوم حول هذا الموقف.. ماذا حدث بالضبط وما مصيره؟

- 2 -

راح المغني ينشد مستخرجًا ذلك الصوت الأجش الغريب من أعماق حنجرته.. لا بل من أعماق روحه. كنت أمقت (الروك آند رول) بشدة وأجده سخيفًا، لكني كنت مضطرًا للحضور لأن (هاري شيلدون) أصر على هذا..

هل تذكر (هاري شيلدون)؟ صديقي الأمريكي الوسيم قوي البنية والمندفع كالطوربيد لم تكن زوجته معنا لأن المرء لا يصحب زوجته لتلك الأماكن..

كنا في (ميامي)، وكان هناك صخب شديد وزحام من النوع الذي يجعلك عاجزًا عن التنفس..! الكل يرقص.. الكل يتمايل الكل في حالة جنونية تذكرك بحفلات (الزار) عندنا.. هذا علاج نفسي على أعلى مستوى كما هو واضح.. معظم الناس يستعملون الإسبانية، وهذا شيء شائع في (ميامي)..

رائحة العرق.. رائحة التبغ..

مطرب (الروك) يقف فاتحًا ذراعيه ثم يثب فوق الناس كأنه يثب من طائرة.. هذا هو أسلوب (الملاحة في الزحام) المعروف.. تتلقفه الأيدي وتطوح به في الهواء عدة مرات ثم تقذفه للمسرح..

ثم رأيت مطربة (الروك) الحسناء..

امرأة بارعة الحسن تلبس ثيابًا جلدية ضيقة، وقد ملأت ذراعيها بالوشم وهي تمسك بالميكروفون وتصرخ بجنون.. الحق أنها أشعلت المكان وسط الدخان ووهج الليزر..

قال لي (هاري) وسط الصخب:

- «كاااتين كفز.. بريييييية.. أباب»

كانت أذني تدق من تلقاء نفسها، لذا دنوت منه أكثر لأسمع بشكل أفضل:

- «كاترين كامنجز.. بريطانية.. يعشقها الشباب»

هززت رأسي موافقًا ثم تابعت الحفل ولكن.. لحظة.. (كاترين كامنجز)؟.. هل يفسر هذا الشعور الذي داهمني بأن وجهها مألوف برغم كل الأصباغ التي وضعتها؟.. الفتاة البريطانية المحتشمة الهادئة تغيرت جدًّا.. برغم هذا لا تختلف كثيرًا.. لن أنسى هذا الوجه. كانت في سن الثامنة عشرة وقتها أعتقد أنها اليوم على أعتاب الخامسة والثلاثين..

ولكن.. هل هي حقًّا؟!

كيف صار هذا؟! ومتى؟!

حاولت أن أدنو أكثر وسط هذا الصخب.. أشق زحام الشباب المجنون الذي يدخن الماريجوانا. كانت هي على المسرح راكعة على ركبتيها وتغنى كأنها تصلي، وهو وضع شهير لدى مطربي الروك..

هنا رأيت عينيها الرماديتين الزرقاوين تنظران لي عبر هذه المسافة وتتسعان..

لقد تذكرتني....

معنى هذا أنها هي فعلًا..

كنت أتمنى أن أتكلم لكنّها لن تسمعني. ولا فرصة للاقتراب أكثر. قال لي (هاري) - وقد لاحظ توتري - إن بوسعي أن أقابلها في غرفتها بعد العرض.. شيء كالذي يفعلونه في الأفلام العربيّة في الكباريهات..

هكذا في ساعة متأخرة من الليل، انتهى الحفل وحطمت الجيتار الذي تحمله كالعادة ثم هرعت إلى الداخل. هرعت مع (هاري) إلى خلفيّة المنصة.. هاري يجيد استعمال الرشوة في الحصول على ما يريد..

على باب غرفتها قلت لهاري متوسلًا:

- «أريد الانفراد بها.. لو كنت ترغب في العودة حالًا فلتفعل، وأنا سأعود بسيارة أجرة»

نظر لي في خبث.. لم يعتد أن يرى رجلًا متحمسًا لهذا الحد لابد أنه قال لنفسه إن هناك هرمونات ما زالت حية لدى رفعت إسماعيل.. لو كان لدى الأمريكيين تعبير مثل (هع هع.. ماشي يا سيدي) لقاله..

أشعل لفافة تبغ ودس يديه في جيبي سترته ثم انصرف...

قرعت الباب مرارًا فسمعت ذلك الصوت المبحوح يقول:

- «من؟»

من أنا؟.. ماذا أقول؟

- «أنا الدكتور إسماعيل.. رفعت إسماعيل.. أعتقد أنني كنت صديق أبيك منذ.. منذ سبع عشرة سنة تقريبًا»

نظرت لي كاترين في رعب عندما فتحت الباب وهتفت:

- «أنت من دون الناس؟..»

- «وأنت من دون الناس؟..»

ثم أنها أفسحت لي فرجة الباب كي أدخل..

كان هناك جو عام من الحرج. هذا متوقّع.. آخر مرة التقينا فيها كان هناك تابوت يرقد فيه (كونت دراكيولا)، وكانت تلعق الدم وتنبعث منها رائحة الكبريت.. لا أعتقد أنّ هناك زوجين مطلقين شعرا بهذا الحرج لدى لقائهما بعد أعوام..

قلت لها وأنا أتأمل الغرفة:

- «كاترين كامنجز.. دهر قد مضى على لقائنا وعلى تلك الأمسية.. التقينا بأغرب الصدف الممكنة..»

(غرفة في الكواليس بلا مرآة واحدة؟.. كيف تستعد للمسرح إذن؟!)

كانت تضع طبقة سميكة من الماكياج جديرة بمطربة روك. لم يكن هذا زمن التثقيب Piercing لهذا اندهشت جدًّا لما رأيت خرزة في حاجبها وخرزة في شفتها السفلى. بدا لي هذا شيطانيًا.. كما أنها كانت غارقة في العرق بعد الحفل مما أذاب هذا كله..

(تضع جالونًا كاملًا من العطر.. كل شيء معطر بلا تحفظ)

أشعلت لفافة تبغ ونفثت في وجهي سحابة كثيفة وقالت:

- «أعتقد أنني مدينة بتفسير لك».

- «فعلا... لقد كان فراقنا بطريقة عجيبة فعلًا.. كدت أموت رعبًا..»

انفجرت تضحك ثم قالت:

- «كانت دعابة عملية.. دعابة قاسية.. أبي ولوفارسكي قررا أن يداعباك ولم يتوقعا أنك بهذا الجبن..»

- «أعترف أنك كنت مفزعة فعلًا.. وماذا عن لعق الدم؟..»

حكت لي عن أستاذ الجامعة الأمريكي الذي علم تلاميذه شيئين: دقة الملاحظة، وعدم الاشمئزاز من أي شيء في العلم. ثم خلط مزيجًا من الكيروسين والزيت والعسل وتذوقه بإصبعه ومرر أنبوب الاختبار على التلاميذ ليجرب كل واحد أن يلعق. اشمأز أكثرهم وبعضهم فعل. هنا قال لهم: لو كنتم قد تعلمتم الدرس جيدًا لكنتم أدق ملاحظة.. الإصبع الذي غمسته في المزيج ليس هو الإصبع الذي لعقته!!

- «أنا كذلك لم ألعق الإصبع الذي غمسته في الدم.. يسهل خداعك في ظلام القبو وجو التوتر العام».

- «ورائحة الكبريت؟»

- «هناك شموع وأعواد ثقاب.. إلخ..»

نظرت لها مليًّا..

إنها تكذب.. حتمًا تكذب.. لكن ما الحقيقة؟

- 3 -

لماذا لم أبتعد؟.. لماذا لم أفر؟

لنفس السبب الذي جعلني أظل في القبو تلك الليلة وأجرى التجربة وحدي.. لابد أن أعرف وإلا فتك بي الفضول..

قالت لي وهي ترتدي سترة جلدية برغم أن الطقس دافئ كعادة هذه البلاد:

- «هل معك سيارة؟»

- «لا».

- «هذا حسن.. سنركب سيارتي».

لماذا لا توجد مرايا جانبية في السيارة؟. هذا غريب فعلًا

(تضع جالونًا كاملًا من العطر.. كل شيء معطر بلا تحفظ)

كان هناك باب خلفي يقود لزقاق خال.. وهناك كانت سيارة رياضية رشيقة - لا أعرف الموديل - تنتظر. هذه طريقتها للفرار طبعًا لأنها لن تخرج من الباب الأمامي.

ألقت نفسها في مقعد القيادة ثم طلبت مني أن أركب..

انطلقت السيارة في شوارع (ميامي).. الظلام والأضواء..

هذا هو شارع (أوشين درايف) وهو من أجمل شوارع المدينة حيث أروع مجموعة من الفنادق في (فلوريدا) كلها. برغم هذا الإبهار أمقت الولايات المتحدة فعلًا.. ربما بسبب هذا الإبهار كبيرة جدًّا.. حديثة جدًّا.. سريعة جدًّا.. غالية جدًّا..

سألتها وهي تنهب الطريق:

- «فتاة بريطانية خجول تعيش في ضاحية بريطانية، واليوم مطربة (روك) أمريكية يعشقها الشباب.. رحلة طويلة جدًّا!!»

قالت وهي مستمرة في القيادة:

- «أنت لا تعرف بالطاقات البركانية التي قد تكون لديك.. لقد رحلنا إلى أستراليا وحاولنا التأقلم فلم نستطع، ثم قرر أبي أن يأتي للولايات اندمجت أنا مع بعض فرق (الروك) ثم اكتشفت أنّ هذا

ما أريد عمله طيلة حياتي..»

كنت أرمق الطريق.. وأختلس نظرات للمرأة التي تريك خلفيّة السيارة.. لا أقدر على توجيهها نحوها لكن بالفعل أتمنى أن أرى ما سينعكس فيها..

عدت أسألها:

- «هل تزوجت؟»

- «لا.. وأنت؟»

- «بالطبع لا.. وماذا عن أبيك؟»

قالت ضاحكة:

- «سوف نزوره.. لا تقلق!!..»

فيما بعد عرفت أنها تعبر منطقة الشط الجنوبي، أو ما يُطلق عليه الأمريكان كالعادة بـ (SoBe). أقدم مناطق ميامي لكنّها حديثة البناء حسنة التنسيق، والسبب أنها دمرت تقريبًا بالكامل عام 1926 بسبب إعصار مريع ثم بنيت من جديد..

أخيرًا اندفعت عبر شوارع جانبية..

في النهاية وجدت بيتًا صغيرًا ليس حديث الطراز جدًّا حديقة جميلة لكن من الواضح أن أحدًا لا يعني بها هناك شجرة عتيقة عجوز، وهناك مصباح واهن معلق جوار الباب وهناك ممر بين الأشجار يقود لهذا الباب.. باب قديم من خشب البلوط من الطراز الذي يضعون جواره مقبضًا للدق على شكل قبضة يد. تعرف هذا الطراز طبعًا.

فتحت الباب ثم دعتني للدخول.. وصاحت منادية:

- «داد.. هناك مفاجأة لك!»

داد؟ بهذه البساطة؟.. الويل!

لم أتصور لحظة أن د. (رتشارد كامنجز) سيظهر في حياتي من جديد بهذه السرعة والسهولة. لكني عرفت أنها محقة كان هناك درج يقود لطابق علوي من البيت. ورأيت ذلك الكهل الوقور الذي يلبس روبًا قصيرًا حريريًا تحته ربطة عنق، يهبط في الدرج..

لم يتقدم في العمر عن آخر لقاء، برغم أنني أبدو كمن شاخ خمسين عامًا..

هتف غير مصدق:

- «رفعت!! أيها الشيء القديم! أنت ما زلت حيًّا؟!»

هذا الرجل يحمل لي ذكريات عديدة.. بالنسبة لي هو أول ضربة هوت على سد ذكريات ما وراء الطبيعة، وبعدها صرت أنا أنا.. لا أعرف إن كنت أشكره على هذا؟

هؤلاء القوم يعيشون في بركة من العطور الفاغمة.. لا أعرف السبب..

راح يثرثر..

حكي لي عن طقوس مصاص الدماء التي كنا نرتب لها.. قال إنّه أدرك أن الطقوس فاشلة فطلب من (كاترين) أن تداعبني دعابة أخيرة وتتظاهر بأنها تحولت لمصاص دماء. قال إنني برهنت عن خنع شديد وفررت كالفئران.. قال إنّه لم يتوقع قط أنني بهذا الجبن. بعد هذا سافرت الأسرة كلها إلى (ملبورن) وقام بالتدريس عدة أعوام..

- «سئمت أستراليا. بلد جميل آمن لدرجة الملل.. لم أتحمل أكثر وأخذت أسرتي وانتقلنا إلى الولايات....»

كل هذا جميل.. لكن لم أستطع وضع كلماته في موضعها.. كان متحمسًا للتجربة ووضع كل رهان حياته عليها وأعد لها كل شيء، وفي اللحظة الأخيرة قرر أنها سخيفة وقرر أن يدبر لي مقلبًا. هذا يبدو لي غريبًا.. الحياة - وأنت توافقني حتمًا - لا تسير هكذا.. الناس لا يتصرفون هكذا..

تقضي حياتك محاولًا تحقيق فكرة ما، وفي اللحظة الأخيرة تقرر أنها فكرة فاشلة فتتناسى الأمر وتقرر عمل دعابة في شخص آخر... مستحيل..

دعياني للعشاء فاعتذرت وإن وعدت بأن ألبي الدعوة غدًا..

- 4 -

قضيت النهار كله مع (هاري) في (إيفرجليدس) أو ما يطلقون عليه (نهر العشب)، وهو حديقة وطنية وحديقة للحيوانات النادرة.

سمع قصتي كلها، فكان رأيه أن أتناسى هذه الأسرة تمامًا..

لكني كنت مقيدًا بأصفاد قوية من الفضول.. لم يكن بوسعي الرفض.. كل تجاربي مع (كامنجز) تضعني في هذا الموقف..

قلت له:

- «سوف أذهب للعشاء».

- «هل آتي معك؟»

قلت في تصميم:

- «لا أعتقد.. لم يدعك أحد.. هذه نقطة.. ولن يكونوا على راحتهم وهذه نقطة أخرى».

حصل مني على العنوان بدقة، وهذا لو لم أعد إلى داره في موعد محترم..

وعندما جاء المساء قصدت الدار التي حفظت مكانها.. يشبه الأمر ليلة مماثلة مررت بها منذ أعوام طويلة، لكنّها كانت في إنجلترا وليس الولايات..

رحبت بي كاترين.. كانت هذه المرّة تلبس ثوبًا أنثويًا عاديًا بدلًا من الثياب الجلدية الشيطانية تلك.. أمّا أبوها فكان يلبس بدلة سوداء أنيقة، وفوجئت أن زوجته ما زالت حية.. رحبت بي بحرارة ثم اقتادوني إلى المائدة..

لاحظت هذه المرّة أنه لا توجد أية أيقونات دينيّة.. كانت هذه الأسرة تضع صورًا للمسيح والعشاء الأخير وتعلق نصف دستة من الصلبان. ماذا حدث كي يكفوا عن ذلك؟ هل فقدوا إيمانهم فجأة؟!

لماذا لا توجد مرايا في هذه الدار؟

جلست إلى المائدة، وجلست كاترين جواري.. ذهبت السيدة للمطبخ ثم عادت حاملة عدة صحاف من الطعام تفوح منها رائحة طيبة..

جلسوا جميعًا حولي وراحوا يغرونني بأن آكل بشهية..

كل هذا جميل.. لكن لماذا لا تأكلون، تقريبًا؟.. يكتفون بجرعات بسيطة من النبيذ ولا يمسون الطعام، بينما أنا طبعًا أكلت بشهية ولم أمس النبيذ.

رحت أتأمل الانعكاسات على الكئوس.. على أدوات الطعام الفضية..

في لحظة.. لم أعد أتحمل أكثر..

ألقيت بالشوكة والسكين على المنضدة وقلت في حسم:

- «د. ريتشارد.. أعتقد أنه لا داعي لمزيد من العبث صورتكم لا تنعكس في أي شيء.. أنتم مصاصو دماء! لقد تحولتم جميعًا في تلك الليلة».

ساد الصمت.. ثم ابتسم وتبادل نظرة مع زوجته..

قال لي - وقد رأى الرعب في عيني:

- «هل هناك ما يحميك؟ كيف تصارح أسرة من مصاصي الدماء بهذا وأنت في بيتها؟!»

لم يكن هناك ما يحميني فعلًا.. تصرفت بحماقة، لكني قلت مراوغًا:

- «بالطبع هناك طريقة للحماية.. إنها تحت هذه البدلة لو هاجمني أحدكم فلسوف تكون العاقبة وخيمة..»

- «لا داعي.. لن يهاجمك أحد.. ولتعلم أنني لا أصدق حرفًا مما تقول.. عيناك تشيان بالخوف والكذب».

ثم رفع كأسه وراح يرمق السائل الأحمر ويتكلم:

- «في لقائنا القديم قلت لك إنني أشك في أن ما قيل عن (مصاصي الدماء) حقيقة هناك من تحدثوا عن مصاصي الدماء عند الفراعنة.. سوف تجد مصاصي الدماء بقوّة في الأدبيات البابلية والأشورية.. لاميا.. لاماستو.. ليليث.. الأخوات إمبوسي أو مور موليسيا (الذئاب المخيفة).. كلهن الشيء ذاته. في كل الثقافات السامية سوف تجد ذلك النموذج.. إنها موجودة في الأساطير البابلية.. الآشورية... العربيّة.. العبرية.. حتى العرب لديهم الهامة.. التي يُقال إنها كائن يخرج من المقابر ليلًا ليمتص دماء الناس... في اليونانية تجد كلامًا عن (لاميا) الرهيبة التي كانت ملكة ليبيا.. عند الأشوريين كانت هناك الشيطانة (لاماستو) التي تقتل الأطفال الصغار ربما وهم في أرحام أمهاتهم، وهي صورة أخرى من (ليليث).. الأمر مريب فعلًا!»

كنت أعرف معظم هذا الكلام لكني ظللت لا أفهم ما يريد قوله..

أردف:

- «لفظة Vampire ذات أصل سلافي.. (فام) معناها (دم) و(بير) معناها (وحش)... إن أهم أساطير مص الدم موجودة عند السلافيين.. تذكر أن (دراكيولا) روماني.. لكن لفظة Vampire دخلت إنجلترا وفرنسا عندما اشتهرت قصتان مخيفتان عن (بلوجويوفيتز) و(أرنولد باول)... الأول ألماني مات في الثانية والستين لكنهم يقولون إنِّه عاد مرّتين ليطلب طعامًا من ابنه. رفض الابن فوجدوه ميتًا في اليوم التالي.. وعاد (بلوجويوفيتز) مرّة أخرى ليفتك ببعض الجيران. الثاني فلاح وجندي متقاعد مات من ثم بدأ الجيران يموتون وقد خلت عروقهم من الدماء.. باحث فرنسي محترم هو (أوجستنين كالميه) كتب عن (مصاصي الدماء) عام 1746 وأقر أنهم موجودون.. هكذا صارت كلمة (مصاص دماء) على كل لسان.. عام 1816 قدم (جون بوليدوري) قصة (مصاص الدماء) التي كرست فكرة مصاص الدماء الأرستقراطي في الأذهان. وقد استوحى الشخصية من الشاعر البريطاني لورد (بيرون). حتى في العصر الحديث هناك كتاب ظهر عام 1928 اسمه (مصاص الدماء: أصله وفصله). للكاتب البريطاني مونتاج سامرز».

قلت في عصبية وقد نفد صبري:

- «ما لزوم هذه المحاضرة الطويلة؟!»

- «أردت أن أوضح لك أن الأمر جزء من الطبيعة، ومن العسير أن تقاومها.. محاولة إحياء المومياء التي قمت بها لم تحيي المومياء، لكنّها جعلت روح (دراكيولا) تحل بنا جميعًا.. كلنا تبدلنا في تلك الليلة، والحقيقة أن تحولنا بدأ قبل الثانية عشرة بكثير.. كل منا في فراشه كان يحلم.. العرق يغمره.. يحلم أحلامًا شنيعة دموية.. يتقلب.. يئن.. يزأر.. ولهذا لم نلحق بك في القبو، ولو أنك فتحت غرفة واحد منا لشممت رائحة الكبريت تؤذي عينيك، ولرأيت كلًّا منا في غيبوبة لكنه مفتوح العينين أحمرهما، يغرق الزبد شفتيه.. من حسن حظك أنك لم تفعل. (كاترين) كانت تعلم ما يحدث لكنّها قررت أن تتماسك وتتم التجربة.. لكن الوقت تحرك وفي النهاية صارت مصاص دماء كاملًا مثلنا، لكنك لم تتبدل»

قلت في صوت كالهمس:

- «إذن كنت أنا محقًا»

- «بالفعل كنت كذلك. وهذا مؤسف..»

- 5 -

قبل أن أتكلم، وجدت هؤلاء يقفون من حولنا..

كانوا نحو عشرة..

عرفت منهم د. (لوفارسكي).. عرفت د. (وينسلو) وهو من أصدقاء (كامنجز).. عرفت كثيرين، والأهم أنني عرفت (ما) هم..

في الضوء الساقط من أعلى كانت الظلال تغمرهم.. لكني شممت رائحة الكبريت الخانقة، ورأيت الهالات السوداء تحت العيون والشحوب الواضح. أنا لست طفلًا.. رأيت مصاصي دماء بعدد شعر رأسي (وهذا يدل على أن العدد ليس كبيرًا) لكني أعرفهم على الفور..

أي وجوه هذه! بعضهم كان رأسه يميل على كتفه كالمشنوقين، وتلك المرأة التي غطى الشعر وجهها على طريقة الشياطين اليابانية (يوري Yarei)، هناك طفل مخيف فعلًا..

أنا بطة ميتة كما يقول الأمريكان..

مررت بمواقف مخيفة فعلًا، لكني - على قدر ما أذكر - لم أوجد قط في بيت مغلق مع كتيبة من مصاصي الدماء..

قال د. كامنجز:

- «هذه هي أسرتنا الصغيرة.. أنت تعرف د. (لوفارسكي) الذي شاركنا التجربة.. تذكر (وينسلو) (ومايكل)...»

ثم أشار إلى كاترين:

- «كاترين العزيزة تخرج كل ليلة لتغني مع حفلات الروك وتعود لنا برجل أحمق ثمل لا يدرك الورطة التي وقع فيها، ويكون هو حفلنا الليلي.. كاترين تعيش حياة صاخبة وتنعم بوقتها..»

قلت من بين أسناني شيئًا فقال لي:

- «ماذا تقول؟»

- «أنا لست ثملًا»

- «لكنك أحمق.. هذا يكفينا!»

- «إنها النصيحة القديمة.. لا تترك فتاة مصاصة دماء تأخذك إلى دارها ليلًا.. هكذا كانت أمي تنصحني».

- «إن الكبار يعرفون مصلحتنا دائمًا..»

بدأت أفك ربطة عنقي كي أسهل لهم عملية الامتصاص، فأنا لا أحب إطالة لحظات الأخيرة كما تعلم هذه ليست سيمفونية يجب الاستماع لها في استرخاء، وليست قطعة (كباب) لا بد أن تمررها على لسانك مرارًا لتطيل تذوق طعمها.. لكن (كامنجز) رفع يده ليوقفني:

- «أنت لا تفهم.. نحن لسنا سعداء..»

نظرت له في حيرة، فقال:

- «تلك اللعنة التي أصابتنا جميعًا، جعلتنا نفقد أبسط حقوق الإنسان: الحق في أن يموت.. الحق في أن يمشي في الشمس وينعم بالربيع.. حياة الأطياف هذه لا تناسبنا، والمشكلة هي أننا مرغمون على أن نصنع كائنات أخرى مثلنا.. أي أن بقاءنا أحياء يؤذينا ويؤذي الآخرين. لهذا أردت أن تأتي الليلة، ولهذا لن نفتك بك ولن نضمك لنا..».

ثم وقف كأنه على خشبة مسرح وسط الأضواء وقال:

- «يجب أن ترى كيف ننام..»

مشيت وسطهم كأنني أمشي نحو طبلية المشنقة. هناك ممر جانبي رطب مظلم ثم درجات تقود لقبو.. هناك دائمًا قبو..

ظلام دامس لكن أحدهم أضاء مصباحًا كهربيًا واهنًا بعث جوًا من الوحشة في كل صوب.

رأيت التوابيت.. الصناديق الخشبية الكئيبة متراصة بجوار الجدار. كلها مفتوح وقد بدا بوضوح أنها مبطنة بالحرير ومريحة جدًّا.

هؤلاء مصاصو دماء تقليديون جدًّا.. يتصرفون كمصاصي دم فعلًا.. كنت أتوقع بعض التجديد..

كان هناك ذلك التابوت المغلق الذي يخرج من تحت غطائه الكثير من القش.. هو الوحيد المغلق هنا ومنظره مألوف..

قال د. (كامنجز) وقد رأى اتجاه نظراتي:

- «بالفعل.. صديقك معنا هنا.. أنت تذكر (المومياء) التي سرقناها من ترانسلفانيا.. ذهبت معي إلى كل مكان ذهبت له..»

ثم جلس على تابوت مفتوح، والتف كل الموجودين حولنا قال:

- «كما قلت لك: حياتنا كئيبة ونحن غير فخورين بها على الإطلاق، لذا فكرنا في أن يخلصنا شخص لم يتلوث.. أنت الأقدر على ذلك.. لا أحد سوف يصدقنا أو يقبل القيام بهذا الدور».

نظرت له مذهولًا:

- «هل تريد مني أن أقتلكم؟!»

- «وتخلص البشريّة من شرورنا.. وتخلص أرواحنا».

- «وهل تعتقد أننا في القرون الوسطى لأفعل ذلك؟!»

قالت كاترين التي ظلت صامتة حتى هذه اللحظة:

- «هذا سهل.. لا أحد يعرف أنك هنا.. لا أحد يربط بينك وبيننا. سوف يجد الجيران مجموعة من الجثث ولن يعرف أحد تفسير هذا اللغز..»

تقدم د. (وينسلو).. رأيت في يده ذلك الوتد الكريه المدبب، ومعه مطرقة ضخمة.. وقال لي:

- «سوف يكون الأمر سهلًا.. سنموت أثناء نومنا.. كل ما عليك هو أن تغرس الوتد في صدر كل واحد منا وتدقه بالمطرقة.. يُمكنك أن تنجز المهمة خلال عشر دقائق».

- «والثوم وقطع الرأس؟؟!»

قال كامنجز ضاحكًا:

- «لا تصدق هذا الهراء في السينما.. قطع رأس مصاص الدماء وحشو فمه بالثوم.. هذا كلام فارغ.. الوتد كاف جدًّا».

كنت أترنح شاعرًا بالحيرة..

وجلست على تابوت خشبي بدوري شاعرًا بالحيرة..

لابد أنني جلست طويلًا جدًّا.. ثم بدأ ضوء خافت يتسرب من خارج القبو النهار يقترب.. رأيت الموجودين يتحركون في صمت كأنهم أطياف. ثم يتجه كل واحد منهم لتابوت ليرقد فيه.. ثم يعقد يديه على صدره.. (وينسلو).. (كاترين).. ثم دنا مني (كامنجز) وهمس:

- «حان موعد السبات لنا.. فكر جيدًا.. أنت تنقذ عشرات الأرواح.. ربما مئات»

ولم أدر كيف تسلق إلى داخل أحد التوابيت وتمدد...

وفي اللحظة التالية وجدت نفسي وحدي مع أكثر من عشرة مصاصي دماء نائمين!

✷ ✷ ✷

ظللت لساعة عاجزًا عن اتخاذ قرار.. جالسًا في الضوء الشاحب.

من المستحيل أن أقتل شخصًا.. خصوصًا لو كان هذا بغرس وتد في صدره، لكن من قال إن هؤلاء أشخاص؟!

يمكنني بسهولة أن أغادر المكان ولا أعود أبدًا، لكني سأذكر للأبد أنني المسئول عن أي جريمة أخرى وأي شخص يموت..

ربما كان بوسعي إنهاء الأمر.. أنا سأقتل ووحوشًا وبإرادتها الكاملة..

لا أعرف متى ولا كيف وجدت الشجاعة.. ولا متى اتخذت القرار..

دنوت من أول تابوت وأخذت نفسًا عميقًا.. قمت بتثبيت الوتد بيد ترتجف، ثم رفعت يدي بالمطرقة.. وحاولت ألا أنظر إلى الوجه.

هنا سمعت ذلك الصوت..

نظرت للخلف فرأيت التابوت المغلق الذي يتدلى منه القش يتفتح..

يد متآكلة تتحسس الحافة..

صوت زئير يتعالى من الداخل..

هنا أدركت الحقيقة: يبدو أنهم نجحوا!.. التجربة التي كانت منذ نحو ربع قرن قد نجحت..

ولماذا يصحو؟! هذا ببساطة يدل على أنني ملوث..

لست الشخص النقي الذي حسبه د. (كامنجز)..

غطاء التابوت يرتفع..

ضربات قلبي تتسارع وذلك الألم يولد في صدري مع شعور واجف كأنني أهوي في بئر مصعد.. لو فقدت الوعي هنا لكانت النهاية..

استندت إلى الجدار حتى بلغت الدرج وتحاملت على نفسي إلى أن صعدت.. وجدت بشكل ما الردهة.. وجدت باب البيت.. فررت منه..

ثم سقطت ميتًا.. أعني سقطت فاقد الرشد، في الحقيقة..

✷ ✷ ✷

عندما استطعت أن أمشي فررت من المكان..

فررت من الولايات المتحدة كلها، ولم أستطع نسيان تلك اللحظات.. نسيان أنني لم أستطع تنفيذ مخططي، لأنني ملوث.. نسيان أنّ هناك أسرة مصاصي دماء تعبث بحرية في ميامي.

مرت على هذه اللحظة أشهر..

ثم تلقّيت خطابًا من الولايات بخط مألوف يقول:

«ميامي في...

«للمرة الثانية استطعت خداعك يا رفعت. للمرة الثانية أضحك من أعماقي كلما تذكرت رعبك بعد تلك التمثيلية القاسية، للمرة الثانية تثبت أن قلبك ضعيف جدًّا وأنك لا تفقه شيئًا في عوالم ما وراء الطبيعة، وأنك سهل الانخداع..

«لا تنكر أن المقلب الذي أعدته لك (كاترين) كان محكمًا فعلًا، وأن صديقنا النائم في التابوت أدى دوره ببراعة. آمل أن نلتقي من جديد يومًا ما، وعندها أعدك أن أتصرف بشرف وأكف عن هذه الألعاب!

د. ريتشارد كامنجز..»

مزقت الخطاب في عصبية.. هذا الرجل مصر على أن يجعلني أحمق. في كلّ مرّة أهرب كالبلهاء ثم يضحك هو الضحكة الأخيرة.. لقد نال مني فعلًا. ليتني أستطيع تدبير مقلب مماثل..

على أنني بدأت أهدأ مع الوقت وأفكّر بهدوء...

من جديد، هذه دعابة بالغة التعقيد. هل أعد كل هذه التوابيت ليمازحني؟ وهل جلب كل هؤلاء الضيوف ليضحك؟! وماذا عن المرايا والفضيات التي لا تعكس صورًا؟ لا أظن..

تري.. هل كان كل شيء حقيقيًا وفشل ببساطة لأنني ملوث؟!

أمر جدير بالاهتمام..

سأعيش وأموت ويظل د. (كامنجز) لغزًا عاصيًا على الحل.. للأسف لم يعد هناك وقت كاف لمعرفة الحقيقة..

- 1 -

جاءت د. كاميليا تزورني ومعها هدية تخفف من آلامي..

هذا كتاب يقارن بين الفلاسفة الغربيين في عصر العقل..

هدية ممتازة فعلًا. لم أندهش من ذوقها الغريب في الاختيار، لكن اندهشت جدًّا من قدرتي على الخداع بعد هذا العمر الطويل لم تفهم بعد أنني لا أطيق الفلسفة.. لكني لم أجرؤ على التصريح بهذا قط إلا عندما صغر سني، وصرت مراهقًا غرًا.. تذكرون هذه القصة؟ لقد ظللت أخدعها لمدّة طويلة جدًّا ولم ينكشف أمري قط. لا أدري لماذا كنت أتذكر (يوسف وهبي) في ذلك الفيلم الذي يقنع فيه زوجته الشمطاء (ماري منيب) أنه مخلص كالملائكة، بينما هو أكبر وغد على البسيطة..

برغم هذا لست نادمًا على معرفتها.. كانت صديقًا مخلصًا متفتحًا.. (صديقًا) فأنتم تعرفون رأيي في أنوثتها مجرد صديق رائع..

عمر كامل ضاع وهي تعتقد أن بوسعنا أن نقضي ما بقي من عمر معًا..

وبالطبع لم يكن هذا واردًا.. وحتّى هذه اللحظة هي لا تدرك أنني راحل فعلًا، وأنّ هذه آخر أيام لي..

قالت لي - وهي شاردة:

- «كنت لطيفًا جدًّا عندما كنت طفلًا أسخن لك الرضعة وأبدل الكافولة»

قلت بصوت مبحوح:

- «هل هذا مديح أم ذم؟ هل يعني هذا أنني لست لطيفًا؟!»

قالت بيت الشعر الجميل:

- «هذا مجاج النحل تمدحه.. وإن شئت ذمًا فقل قيئ الزنابير».

ثم اتجهت إلى الدورق المجاور للفراش فصبت لنفسها كوب ماء، وشربته.. لم تعبأ بكون هذا كوبي أنا.. قلت لها ممازحًا:

- «على فكرة.. السرطان ينتقل بالجراثيم.. أنت في خطر داهم!!»

نظرت لي مليًّا ثم قالت بلهجة لم أسمعها من قبل:

- «ليتني أصاب بالسرطان بدلًا منك..»

وقبل أن أفهم ما يدور، طبعت قبلة على جبيني وغادرت الغرفة بسرعة.. أدركت أنها تمسح شيئًا سال من عينيها....

لماذا تعقدون الأمور يا شباب؟.. لماذا تجعلون الرحلة صعبة؟

القصة أبسط من هذا بكثير..

طر يا طائر أبي الحن.. طر بعيدًا عني..

✷ ✷ ✷

لكن السفينة لا تتوقف ولا تلتقطه.. تبتعد وهم ما زالوا يلوحون له. هنا يدرك الحقيقة المرعبة: حياتهم مستمرة من دونه. يتبدل وجهه إلى الذعر والحزن.. ثم تخور قواه فينزلق لأسفل ببطء.

✷ ✷ ✷

كنت أرتجف من التأثر.. تذكرت موقفًا مماثلًا وقبلة مماثلة على جبيني..

كان ذلك في (ويلز) بإنجلترا..

كلامي اليوم عن باب.. هذا الباب الذي أتحدث عنه لم يكن في مصر.. لم يكن في مكان تعرفه.. الباب الذي أتحدث عنه لم يكن بابا خشبيًا أو حديديًّا، بل كان أقرب إلى جدار سميك يهدم ولا يفتح.. لكن الناس هناك كانوا يسموّنه بابًا..

كان هذا في كهف قرب قرية في (ويلز)..

كان الناس يمرون جوار الكهف، ويتحدثون عن (خريولسن) الحبيس هناك.. عن الساحرة التي أنجبته والتي أعدمتها محاكم التفتيش هناك.. وكيف دفنوها فيما يعرف بزنزانة (خريولسن)..

كانت أشنع خبرة في حياتي تنتظرني هناك.. ربما كانت كل قصص حياتي في كفة وهذه القصة بالذات في كفة..

لا أحب أن أحكيها..

لكن الحين قد حان!!

عندما احترقت الساحرة أنذرت الناس بأن ولدها (خريولسن) سيعود بعد أعوام حين يفتح الزنزانة رجل أجنبي.. وما لم ينسه أحد هو أن المصائب لم تفارق القرية لحظة طيلة عمرها المديد..

وبعد أعوام جاء مغامر إلى الكهف.. كان هذا بريطانيًّا يدعى د. (هنري لستر).. فتنته الأسطورة، وصمم على أن يجد رجلًا أجنبيًا يفتح تلكم الزنزانة..

كانت فكرته أن يناول الضيف المطرقة، ثم يطلب منه أن يفتح الجدار بنفسه؛ لأنّه ضيفهم..

طبعًا ما كان الضيف الأحمق ليعلم أنه أول دم أجنبي يدخل الكهف منذ سبعة أجيال.. حقًّا لم أتصور أنني كنت هذا الضيف.. إن معلوماتي تقول: إن من يتكلم أكثر يدفع الثمن..

لكن هل يوجد ثمن أغلى مما أنوي دفعه اليوم؟

قلت من قبل: إنّه في آخر لحظة في حياتي وعندما أوقن بالموت سأتكلم.. ليس قبل ذلك..

بدأت القصة عندما.....

ما هذا؟! هناك من يصرخ في الردهة...

نهضت من الفراش وفككت جهاز المحلول المعلق هناك، ثم دسست قدمي في الخف وفتحت الباب..

كانت الممرضة السهرانة تغطي وجهها وتبكي، بينما راحت ممرضة أخرى تخفف عنها، وكان هناك رجلا أمن.. أحدهما بدأ كأنه عاد من جولة سريعة..

استندت إلى الباب وسألت:

- «هل هناك شيء؟..»

قال رجل الأمن بصيغة رسمية باردة وهو يتأبط ذراعي:

- «عد للفراش يا جدو.. الممرضة تقول كلامًا غريبًا فلا تهتم..»

قالت الممرضة التي صار وجهها متوحشًا كالنمر.. وانتثر شعرها وسقط الكاب من على رأسها:

- «مصطفي.. قلت لك: إنني متأكدة.. كان هناك صبي مراهق يمشي على أربع.. يمشي على أربع كالكلاب، واتجه نحو غرفة مريض سرطـ....»

ثم ابتلعت لسانها لما تذكرت أنه أنا بالذات..

هل تعتقد هذه الحمقاء أنني وأنا الطبيب لا أعرف دائي وأتصور أنها نزلة برد لا أكثر؟!

صبي مراهق؟! وأين ذهب؟

قالت وهي ترتجف:

- «لما صرخت ركض مسرعًا وتوارى في ركن الردهة المظلم البعيد.. كان المشهد لا يصدّق.. هذا شيطان بالتأكيد..»

قالت زميلتها وهي تربت على كتفها:

- «لا عليك يا أختي.. أنت تعرفين أن المكان يعجّ بأرواح الموتى..»

- «أرواح الموتى تبدو كقطط سود ولا تبدو كهذا..»

كنت أنا قد عدت للغرفة..

أغلقت الباب وجلست على طرف الفراش.. شبح صبي مراهق.. هذا الشبح يخصني فعلًا.. هذا ملكي.. أنا أعرف أشباحي بسهولة.

ولكن.. كنت أكلمكم عن شيء آخر منذ دقائق.. ما هو؟.. نسيت..

لا عليكم.. تصبحون على خير..

«أنا أعلم أنه سيأتي يوم أضيع فيه هذه الأرض عن ناظري..

إن الحياة تغادرني في صمت، بعد أن تسدل على عيني الستار الأخير..

ومع هذا فإن النجوم ستلمع ساهرة في الليل، وسيسفر الفجر كما أسفر أمس، وستمتلئ الساعات كما تمتلئ أمواج البحر حاملة اللذات والآلام..»

طاغور

✷ ✷ ✷

جاء أحد عمال المستشفى لي في غرفتي جالبا خطابًا مغلقًا..

كنت منهمكًا في تدوين أحداث (أسطورة الرجال الذين لم يعودوا كذلك).. هكذا وضعت القلم وأمسكت بالخطاب..

جميل.. يبدو أنني صرت من معالم هذا المكان لدرجة أنه عنواني الجديد. أمقت الخطابات طيلة حياتي لأنّها تحمل مصيبة لكن تلقي خطاب في هذا المكان أمر يستحق أن ألقي نظرة..

بيد مرتجفة فتحت الخطاب فوجدته مكتوبا بإنجليزية أنيقة لكن لا أعرف هذا الخط..

«د. إسماعيل:

«عرفت ببالغ الأسى أنك تواجه مضاعفات هذا المرض الوبيل، وقيل لي إنّه انتشر في كل جسدك، وأنك تتلقى جرعات هائلة من المسكنات دون جدوى. بالتأكيد هذا خبر مؤسف. لكن أزعم أن عندي العلاج لك، وهو علاج غير تقليدي كما لك أن تتخيل.. سوف يزول الداء عن كل خلاياك وتعود كما كنت منذ أعوام وأفضل. أنا أضمن لك هذه النتيجة.

«لكن لكل شيء ثمنًا...»

ابتسمت وقلت لنفسي:

- «حسن.. هذه هي لحظة بيع روحي للشيطان.. كان لابد أن تأتي، لكن كيف إذا كانت الشياطين تنتظر موتي وتتسلى بقزقزة اللب والترمس؟.. لن تفسد هذه المتعة على نفسها..»

استطرد الخطاب:

«كلا.. لن تبيع روحك للشيطان. لقد مر أوان عرض كهذا.. أنا أعلم أن لديك كتابًا معينًا تحتفظ به ولا يمكن انتزاعه منك، وبمجرد موتك سوف يفوز بالكتاب شخص معين لا ينتمي لعالمنا. أعرف هذا. لكني أرغب في الحصول على هذا الكتاب هنا والآن..

«العرض كما هو واضح: الكتاب مقابل نجاتك من السرطان. أعرف أنك تحمل روح بطل، وهذا البطل يغريك بأن ترفض. لكني أؤكد لك أنك لن تعيش سوى حياة واحدة، ولا أحد يترك الحياة حيًّا. انتهز الفرصة..

«سوف أزورك في المستشفى غدًا، وأتوقع أن تعطيني الكتاب وتنال الخلاص.

«موعدنا هو الغد..»

رحت أتأمل الخطاب في شرود.. لا يوجد توقيع..

ولا شعوريًا تحسست موضع الكتاب حول خصري. إنّه هنالك..

الخلاص من السرطان ومن الألم. هل هذا وعد حقيقي؟ ولو كان حقيقيًا فهل أقدم على هذه المبادلة الخطرة... هذا كتاب خطير شرير. ومن الوارد أن يقع في أيد غير أمينة..

دعك من أنّ هذا الكتاب هو بوليصة تأميني الوحيدة ضد لوسيفر.. لو لم يعد معي فلسوف ينسفني نسفًا.. لن يقتلني بل سوف يمرح كثيرًا..

- «هناك الزيجول الذي يلتهم طبقات الجلد ثم العضلات ويترك الأعصاب ملتهبة حارقة حتى آخر لحظة.. الريموزا الذي يتم إدخاله في فم الضحيّة.. تتزايد حرارته مع الوقت حتى يتحول إلى نار محمية تشتعل في أحشاء الضحيّة.. هذا موت بطيء يستغرق عدة ساعات.. هناك ديدان الناكاخ

التي تقتحم الرأس من الأنف، وتشق طريقها في جمجمة الضحيّة حتى المخ مدمرة كل شيء تقابله..»

إنّه قريب مني يتشمم كذئب مستعد للهجوم في أي لحظة لو تركت العصا..

لا أحسب أنّ هناك من يقدر على حمايتي منه سوى الله تعالى.. لكن لا يوجد كائن أرضى يستطيع.. إلا بالطبع الكائن الأرضي الذي يقدر على القضاء على هذا السرطان. لو فعل فهو يستحق الكتاب.. لكن كيف أعرف ما لم أعطه الكتاب أولًا؟

من صاحب الخطاب؟

يصعب عليَّ أن أسترجع من خيط ذكرياتي كل هؤلاء الذين يمكن أن يرغبوا في كتاب كهذا.. عشرات الوجوه والقصص والأشخاص.. لا يمكن تذكر أحد، لكن على الأقل يمكن استبعاد من يتكلمون العربيّة.. وهو بالطبع واسع العلم، ويتصل بالكائنات الشيطانية، وهو ليس لوسيفر..

سوف يأتي غدًا...

لن أشغل ذهني أكثر.. عندما ألقاه سوف أتخذ قراري فورًا..

سوف أنام وغدًا أعرف الحقيقة...

في القصة القادمة نستكمل أسطورة الأساطير –

(الجـــزء الثـــاني)

لاحظ أن الكتيب سيحمل الرقم 80 (2)

الفهرس

المقـدمة

تمهيـد

(ر) رسالة من الكينونة

- 1 -

-2-

(ف) في المثلث

- 1 -

- 2 -

- 3 -

(ع) عـزت والنحات

- 1 -

- 2 -

- 3 -

(ت) ترنيمة المزبرة

- 1 -

- 2 -

- 3 -

(أ) أسـرتنا

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

(س) سـر الزنزانة

- 1 -

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

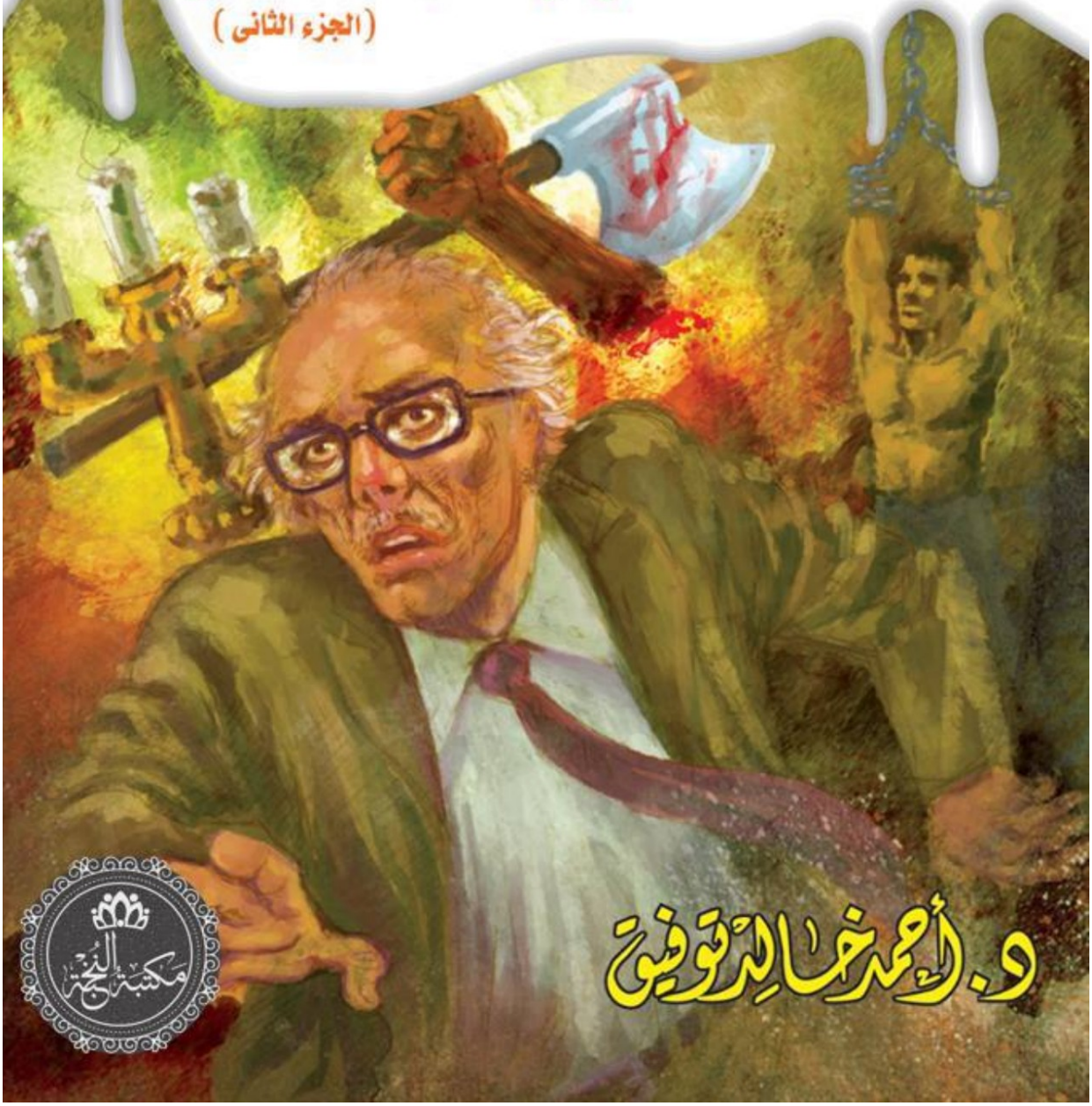


ما وراء الطبيعة

80 (2)

أسطورة الأساطير

(الجزء الثانى)



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



80 (2)

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة الأساطير

الجزء الثاني

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبـس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصـرى مائة فى المـائة
لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

●

إشراف
الأستاذ / حمدى مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر سواء النشر الورقى أو الإلكترونى ، وكل اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر ورقى أو إلكترونى دون الحصول على تصريح كتابى من الناشر يعرض المرتكب للمساءلة القانونية .

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ـ منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ـ 4 شارع الإسحاقى : بمنشية البكرى هاتف المطابع : 24677371 ـ 24677183 ـ فاكس : 24677188 .. هاتف الفجالة : 25908455 ـ 25885346 ـ فاكس / 25890401 هاتف روكسى مصر الجديدة 26823792 ـ22586197 فاكس/ 22596650
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ـ هاتف / 03/4970840 ـ 03/4970850

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

80

•

أسطورة الأساطير

(الجـزء الثاني)

بقلم : د . أحمد خـالد توفيق

الغـــلاف بريشـــة : أ . أيمـن القـاضي

المؤسسة
العربيـــة الحديثـــة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

- 1 -

سؤال مصيري:

هل هو سعار في الضياء؟ أم سعار في الفجر؟ أم هو سعار في العتم؟

الإجابة تقرر مصير الكثير من الأشياء..

✷ ✷ ✷

أنت تعرف أنني اجتزت الباب الغامض..

تعرف أنني عبرت النهر الذي تتشابك فوقه أغصان نبات ما، وتسبح فوق مائة ألف جزيرة من ورد النيل. هذا نهر كأي نهر آخر لو كان لون ماء الأنهار أحمر..

انعكاس الوجه في صفحة الماء يذوب.. يتحول لألف صورة تتلوى وتبكي ألمًا، وكأنها أرواح الخطاة تسبح في بركة من الحمم..

تعرف أن المعداوي الذي يشبه (شارون) في الأساطير الإغريقية لم ينطق بحرف. نهر ستيكس.. خطر لي هذا، لكنه بالطبع غير وارد.. خرافات إغريقية كانوا يعتبرونها دينًا فلا محل لها من عالم الواقع.

الزورق يتوقف عند الضفة الأخرى ويهتز..

رائحة العشب المبلل.. رائحة الأرض المحروثة.. رائحة أنفاس البرمائيات وصوت العلاجيم.. رائحة الدم...

أخطو في الماء الأحمر الذي يبلغ ركبتي. أنظر للخلف فلا أرى الزورق ولا المعداوي. أخطو فتتساقط كرات اللهب من أخطو فترتجف الثعابين في جحورها.. أخطو فيثب قلبي مرّتين..

السماء أنا لا أحلم..

أعرف أنني لا أحلم..

كل هذا حقيقي تمامًا مثل وجودي وملمس الماء الأحمر ورائحته..

لقد مت.. لا شك في هذا. كان الانتقال سهلًا إذن، ولم أتألم.... تقريبًا. الموت بطريقة (الآن تراه - الآن لا تراه). أنا اجتزت البوابة ويمكنني أن أقول لك إنها محاولة سهلة.

لكن شيئًا في الأعماق.. شيئًا تحت جلد رأسي وبين خلايا مخي، كان يصارحني بالحقيقة: أنت لم تمت.. ليس هذا هو العالم الآخر. ليست هذه هي الأرض التي تكلّم عنها الفلاسفة والشعراء وآمن بها الأنبياء. أنت تعرف أنّ هذا ليس العالم الآخر. أنت ما زلت حيًّا يا صاحبي.

إذن أين أنا؟... الإجابة واضحة: لا أدري..

مشيت ومشيت شاعرًا أن ما تحت قدمي ليس أرضًا بل هو إلى القطن الأبيض أقرب. طراوة تراودك عن نفسك.. طراوة كآلاف أذرع مخملية لعذارى من عوالم الحلم. طراوة تغريك بأن ترقد على الأرض وتموت... لكن كيف تموت إن كان هذا هو الموت ذاته؟

أن تذوب لتجد نفسك في إحدى قصائد ت. س. إليوت أو ميلتون.. هذا هو الموقف بالضبط.. هكذا يكون ملمس القصائد تحت القدمين..

هكذا يكون ملمس القصائد تحت القدمين..

ثم سمعت العواء من بعيد..

أنا أعرف عواء المذءوبين وسمعته عشرات المرّات، لكن هذا ليس عواء مذءوب.. إنّه عواء ذئب حقيقي وربما كلب.

استدرت للخلف لأرى فلمحت ذلك الشيء قادمًا نحوي.. يثب فوق الحفر.. خيط رغوي من اللعاب يتطاير من فيه ويطير خلفه. شعر عنقه منتفش وكل شيء يشي بشراسة لا شك فيها وسمعت صوت الببر المغري يقول:

- «استسلم له!.. استسلم حتى لا تطول معاناتك أيها الفاني..»

لوسيفر ينصحني بأن أستسلم، وهذا معناه أن أفعل أي شيء سوى ذلك. عندما أدقق النظر أكثر أدرك أنّ هذا الذي يطاردني هو كلب أحمر اللون.. كلب له لون الدم المؤكسج لو كنت تذكر دروس الأحياء. حجمه يقترب نوعًا من حجم عجل صغير.

الكلب الأحمر.. لقد عرفته من قبل في حياتي وحسبت أنني قهرته، لكنه هنا.. وهو مصر على الظفر بي.

سقطت على الأرض...

جوار أناملي وجدت علبة ثقاب.. هناك جركن من البلاستيك تفوح منه رائحة البنزين. من وضع هذا هنا؟.. وهل من رسالة أوضح وأبلغ؟

تعلقت بجذع الشجرة، وعندما اقترب هذا الشيء المخيف أفرغت السائل عليه. الموت له رائحة البنزين. كاد أن يقضم ساقي لولا أنني تسلقت بسرعة أكثر. من أين أتيت بهذه الرشاقة؟.. يبدو بالفعل أنني تخففت من أعباء الجسد.. اللحظة التي وصفها كل من....

وصفها؟.. لا.. تخيلها الجميع. لم يعد أحد من هناك ليحكي ما رآه.

لكني كنت أعرف أنني حي..

هناك من مكان قصي لا وجود له، دوى الصوت الهادر:

- «أنت ما زلت حيًّا.. لم تأت ساعتك بعد..»

ورأيت ألسنة النار تتمسك بالكلب يعوي ويتلوى جاريًا.. كلب أحمر يحتضر.. مشهد جدير بالكوابيس، لكن من قال إن هذا ليس كابوسًا؟

أراه يركض.. يتواثب، وهو لا ينبح بالطريقة الرفيعة المثيرة للشفقة التي تسمعه من الكلاب المحترقة، لكنه يزأر فترتج الأشجار... يزأر فتهوي الشهب. يزأر فتفنى الأعشاب..

لم تأت ساعتك بعد.. لكنّها اقتربت كثيرًا بالتأكيد..

أرمق غصن الشجرة الغليظ يتحرك.. هذا ثعبان عملاق مغطى بالحراشف، وقد استيقظ الآن معلنًا عن مجيئه، وعن أن اللحظة قد جاءت. لكنه لا يبالي بي ويزحف مبتعدًا...

أنت في أرض الأحلام أيها الفاني.. العالم الذي يتجاوز قوانين الفيزياء والطبيعة. العالم الذي ظل بقربك منذ ولدت. بل هو في ذات الغرفة التي تعيش فيها.. إنّه في فراشك.. لكنه على موجة أخرى فلا ترى من فيه ولا يراك من فيه.. فقط مخلوقات نادرة تقدر على الانتقال بين العالمين. بعض الجان.. بعض الساحرات.. التاليسات.. بنات آوى. أنت لا تعرف التاليسات ومن حسن حظك أنك لا تعرفها. أمّا بنات آوى فبعض البشر يعرف الحقيقة.. أنت تجلس وحيدًا في الصحراء المظلمة، وفي لحظة ترى ابن آوى مقعيًا على الرمال ينظر لك.. بعد لحظة تجده قد اختفى ولا تعرف كيف ولا أين. قليلون يعرفون أنه اجتاز الفجوة وانتقل لعالم آخر..

أنزل من على الشجرة وأبحث حولي في حذر...

يجب أن أجد طريقًا.. طريقًا يقود لماذا؟ لا أعرف... لا أبحث عن أحد ولا أعرف لي وجهة في أرض كهذه.. الشرق الغرب الشمال الجنوب.. كلها تتساوي.. لا خطر أفر منه أو ملجأ أفر له... أنا ذرة غبار تتقاذفها العواصف، مع فارق بسيط هو أن ذرة الغبار تدرك أنها تنتمي للأرض.

عندما مشيت بضع خطوات وجدت بلطة..

بلطة قصيرة يبدو أن حطابًا محترفًا كان يستعملها.. لا أعرف ما هي لكن من الجلي أنها تصلح سلاحًا ممتازًا... هذا عالم غامض غريب فيه بلطات.. إذن عندما تجد واحدة فلابد أن تأخذها. لا

يوجد مزاح هنا...

سوف أمشي بلا وجهة ما.. ربما أجد ثغرة تقودني لعالم الأحياء الذي أعرفه..

✷ ✷ ✷

كاتي ديد... كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد..

✷ ✷ ✷

كنت هناك راقدًا في المستشفى عندما جاءت ماجي، ويبدو أنها كانت جالسة في الردهة تطالع كتابًا ما.. كانت مرهقة محمرة العينين، وحالها - إذا سمحت لي بالتعبير العامي الصادم - (زي الطين)، لكنّها تبتسم ابتسامة مشرقة نضرة رسمتها رسمًا.. قالت لي:

- «هل نمت جيدًا؟»

لا أذكر أنني نمت جيدًا وهذا معناه - على الأرجح - أنني نمت جيدًا فعلًا. أفضل النوم هو الذي لا تذكر بعده كيف نمت هززت رأسي أن نعم واعتدلت في الفراش.

فتحت الستائر ليتسلل الضوء الخافت الواهن المميز للعصر إلى الغرفة، ونظرت من حولي.. دورق الماء.. علبة الدواء العوينات... أزهار في دورق صغير.. الجريدة.. جديرة بفنان تأثيري خاصة في هذ الضوء الشاحب، وهي جديرة بأن يكون اسمها (الاحتضار).

«ونظارتاه.. أيسلو الزجاج عيونًا أشف من المغرب؟»

بيت شعر لنزار قباني بعد موت أبيه مشهد العوينات الموضوعة على الكومود يقول أشياء كثيرة.

لوحة كنت أفكر في عمق هناك أشياء مهمّة جدًّا تتعلق بالأمسية السابقة، لكني لا أذكر حرفًا.. كلام كثير عن خطاب وصفقة و... لكن ما هي التفاصيل؟

قالت لي وهي تجلس إلى طرف الفراش:

- «هناك ضيف غربي ينتظرك في الخارج...»

- «غربي؟»

قالت باسمة:

- «ليس غربيًا بالضبط.. له طابع شرق أوروبا بوضوح..»

لوسيفر!

هل جاء كي يتشفى في، أو يعرض صفقته الأخيرة؟ ليس هذا ما اعتقدت أنه مسار الأمور. هو يعرف أنني سأموت وسوف يكون الكتاب له في ذات اللحظة..

قلت لها في توجس:

- «يلبس ثيابًا سودًا تمامًا واسمه دكتور.....»

قالت تكمل كلامي:

- «ميلفسكو.. د. ميخائيل ميلفسكو.. هذا ما قاله..»

أذكر هذا الاسم.. ما زالت ذاكرتي تعمل جيدًا أغلب الوقت. صحيح أنها تتلف كثيرًا وتمحي كثيرًا لكني أعرف الرجل وأعرف التجربة..

ساحر روماني وعدني بالشباب منذ أعوام، ولم أدر أنه زرع جعرانًا فرعونيًا تحت جلدي. النتيجة هي أنني ظللت أصغر وأتراجع في العمر... صرت أكثر شبابًا ثم أكثر نزقا ثم أكثر طفولة وسخفًا، حتى جاءت مرحلة تغيير الكافولة التي قام بها أستاذ في الفلسفة هي كاميليا..

عرفته بفضل سام كولبي. وسام كولبي قد رحل للأبد إلى عالم آخر بلا آلام بروستاتا.. من يدري؟.. لربما كان ينتظرني هناك...

اليوم بعد أعوام يعود د. ميلفسكو.. ليس من الصعب أن أستنتج من كتب لي خطاب أمس.

- «أين هو؟»

- «ينتظرك في الاستراحة. لو شئت أن آتي به هنا..»

لكني لم أحب أن يدخل محراب الموت الخاص بي.. لا أريد للمحراب أن يتدنس...

هكذا وضعت الروب على كتفي، وتوكأت على ماجي وخرجنا للممشى.

رأيت الجسد الضخم الجالس على مقعد وتذكرته على الفور. لم يكن ضخمًا في الحقيقة لكن وجهه كبير جدًّا.. أي أنك تكمل الصورة في ذهنك فتفترض أن صاحب هذا الوجه لابد أنه في حجم كينج كونج.. لكنك تكتشف أنه ليس عملاقًا بشكل خاص لو كان جسده أصغر من هذا لاستحق لقب القميء..

هو نفسه... نفس الوجه الذي قابلته في نيويورك في ذلك... اليوم..

أحاطت كفه الغليظة المكتنزة بكفى وقال بطريقته الإنجليزية الرومانية المميزة:

- «يا للسماء.. أنت فقدت الكثير من الوزن..»

قلت باسمًا وأنا أتهيأ للجلوس:

- «أفعل كل شيء بذمة وأمانة.. عندما أصاب بالسرطان فأنا أصاب به جدًّا.. ليس كهؤلاء الأشخاص المتوردين المرحين الذين يزعمون أنهم مصابون بالسرطان.. أرى هذا شيئًا رقيعًا!»

لم يفهم طريقتي في المزاح.. فقط أبدى تعاطفًا واضحًا..

وعندما جلست أمامه نظرت لماجي طالبًا أن تسمح لنا بالانفراد، فهزت رأسها وابتعدت وقد بدا عليها الشك.. ثمّة لعب عفن هنا كما لابد أنها تقول لنفسها...

ساد صمت ثقيل.. كنت أجاهد كي أجد أنفاسي وسط رياح عطره الخانق. لابد أنهم يصنعون العطور الرومانية من الجثث المتحللة.. جثث الكلاب طبعًا.. ثم قلت له:

- «لا تقل إنك جئت خصيصًا لمصر من أجلي. كل هذه المسافة...»

قال وعيناه لا تفارقان وجهي:

- «بالفعل.. الأنباء في عوالم السحرة تنتقل بسرعة.. كلهم يقولون: إنك موشك على الموت.. اسمك قد ذكر في كل بلورة سحرية وكل أوراق تاروت وجلسة استحضار أرواح في العالم مؤخرًا..»

- «هل أنا مهم لهذا الحد؟»

قال ببساطة:

- «لا قيمة لك على الإطلاق.. أنت جناح بعوضة لا أكثر لكن ذلك الكتاب الذي تربطه إلى جسدك هو ما يريده الجميع..»

وضعت ساقًا على ساق ورحت أرمق الخف المتدلي متأرجحًا وقلت:

- «سوف أموت. وعندها يفوز به من يريد.. لا أعرف سر هذا التعقيد..»

قال د. ميلفسكو:

- «لن يكون الأمر سهلًا... قوى الظلام تنتظر كي تحصل على الكتاب.. لن تسمح لأي بشري فان بأن يحصل عليه.. أمثالي سيصيرون غبارًا تذروه الريح لو حاولوا... لا يوجد حل لي سوى أن تعطيني الكتاب بكامل إرادتك... هذا سيجعلني منيعًا ولن يستطيع سادة جانب النجوم أن يظفروا به.. لوسيفر لن يمس شعرة من رأسي..»

- «ورأسي أنا؟»..

ضحك واهتز كرشة العملاق قليلًا وسعل ثم قال:

- «لن يمس أحد شعرة من رأسك.. أنت ورقة انتهت.. عندما أكون في سهول رومانيا أمارس صيد الأرانب فأنا لا أبدد رصاص بندقيتي لاصطياد أرنب يحتضر بالفعل...»

- «أنت تتجاهل نزعة مهمّة في الحياة: السادية.. هناك من يحبّ أن يركل هذا الأرنب ويمزقه وهو ما زال حيًّا..»

- «لا أعتقد.. إن السرطان يحمل لك آلامًا هائلة، ومن يملك بعض السادية سيفضل أن يتركك له.. إنّه ينهي أمرك بشكل أفضل..»

محادثة مبهجة باسمة جدًّا كما ترى..

قال د. ميلفسكو وهو يُطلق المزيد من العطر الروماني اللعين:

- «الكتاب.. وسوف تنجو....»

- «أنجو؟»

- «نعم.. لديَّ القدرة على نزع السرطان من جسدك.. سوف تقهره.. أنت تعرف أنني أستطيع..»

يستطيع.. هذا صحيح.....

قلت ساخرًا على سبيل المشاكسة لا أكثر:

- «آخر مرة جربت معي جعرانًا فرعونيًا تحت الجلد..»

- «ونجح.. أعتقد أنه كان ناجحًا أكثر من اللازم في الواقع لكنك الآن تفهم ما أنا قادر عليه...»

- «وهل لي أن أعرف لمحة عن الطريقة؟»

اهتزّ لغده العملاق في ضحكة مكتومة وقال:

- «يمكنني أن أخبرك بالأمر. فلا أحد سواي يمكنه أن يجرب هذه الطريقة..».

وفي اللحظات التالية شرح لي طريقة المعالجة التي ينتويها.. بدا لي الأمر ممكنًا فعلًا. ثمّة نوع من المنطق في طريقته. لم لا؟... ماذا يهمني من ذلك الكتاب اللعين؟.. هو ليس كرامتي ولا شرفي ولا ديني ولا مبادئي. كتاب يخص الشياطين ترغب فيه الشياطين.. فلتأخذه!

ماذا يهمني؟.. ولماذا أتعذب وأتلوى ألمًا من أجل شيء لا يهمني؟

وهكذا وافقت..

وهكذا حددنا مساء اليوم لنبدأ العلاج في غرفتي..

✷ ✷ ✷

تمضـي الحيــاة وكلنـا في دربهـا .. ونغيب عنهـــا.. والخـطـى لا تندثـرْ
من قبلنـا يمشي الألـى جاءوا بنـا .. مـــن بعـــدنـا يفنـى ملاييـــن البشرْ
فاسمع صرير الريح تبكي حولنا .. واسمع صدى الأشباح تعوي في سقرْ

- 1 -

أنت في زانادو أيها المحارب حيث تفنى الحقائق وتحيا الأحلام..

✷ ✷ ✷

- «يا (ماري الدموية).. أنا قتلت أطفالك!»

✷ ✷ ✷

كل بلدة في العالم لها أشباحها الخاصّة بها.. هناك أكثر من بناية مسكونة في الإسكندرية، وهناك قصص قوية عن قصر البارون في مصر الجديدة. أنا زرت قصر البارون وأعترف أنني لم أر شيئًا غريبًا، لكنه بالتأكيد يحوي طاقة نفسية هائلة.. طاقة يُمكنك أن تشعر بها، وهي الطاقة التي رأى بعض العلماء أنها شحنات إستاتيكية ناجمة عن المياه الجوفية تحت المكان..

في إنجلترا أتيحت لي فرصة ممتازة كي أزور أكثر الأماكن ازدحامًا بالأشباح في العالم. كان هذا هو بيت بورلي Borley Rectory.. وقد تم تشييده عام 1862..

كنت أقيم في أحد فنادق لندن في السبعينيات منهمكًا في أشياء كثيرة، عندما تلقّيت خطابًا ممن يدعى (تريفور هول)...

قال في الخطاب:

«عرفنا بوجودك في لندن، وإنه ليسرنا أن تنضم لنا في البحث عن سر بيت بورلي. لو كنت قد سمعت الاسم فأنت تعرف أنّ هناك علامات استفهام عظيمة تدور حوله. أمّا من نحن، فنحن نمثل جمعية البحوث الروحانية SPR. هناك من يعتبرون هذا المكان يعجّ بالأشباح، وهناك من يعتبرون القصة كلها كذبة عظيمة. نحن بحاجة إلى شهود وإلى خبير مثلك يكون معنا في هذا التحقيق. كل النتائج سوف تنشر في المجلة التي نصدرها ثم ننقلها للصحافة. في حالة موافقتك نرجو الرد على هذا الخطاب. وسوف تصل سيارة لنقلك إلى البيت المذكور.. سوف نمضي يومًا واحدًا هناك وبعدها نقدم تقريرنا. سنكون معًا فلا مجال للكلام عن قضاء الليل وحيدًا مع شمعة وكل هذا الهراء..»

قرأت الرسالة عدة مرات، وكنت في ذلك الوقت شابًا راغبًا في تجربة كل شيء... لذا كتبت موافقتي. لم تكن هناك شبكة إنترنت لذا كان من الصعب جدًّا أن تعرف ما هي SPR هذه ولا نشاطها.

على كل حال كل ما لا يقتلني يقويني، وأنا لا أعتقد أن تجربة كهذه ستكون قاتلة.. أنا أؤمن على كل حال أنّ هذه التجارب تثري وجدانك.. سواء كانت كاذبة أم صحيحة فهي تنقل لك خبرات جمعية مهمّة.

وفي المساء، وبعد ما اعتذرت عن باقي مواعيد اليوم وقفت على باب الفندق في ذلك الشارع الضيق الذي يشبه معظم شوارع لندن الكلاسية. معي حقيبة صغيرة فيها لوازمي لليلة واحدة.

وصلت السيارة.. وفي الظلام لم أتبين وجه من فيها جيدًا لكني ميزت وجه رجل له ملامح وقور هادئة وقال:

- «د. إسماعيل كما لي أن أفترض؟»

الطريقة البريطانية الشهيرة، كما حدث عندما قابل ستانلي ليفنجستون في مجاهل أفريقيا فقال له العبارة الباردة ذاتها.. هززت رأسي أن نعم.

قال وهو يفتح لي الباب:

- «أنا جيسون.. من الجمعية..»

بعد ربع ساعة من القيادة توقفت السيارة جوار متنزه عام مظلم، ولحق بنا فيها ثلاثة رجال مغمورين بالظلام.. عرفت أن الأول يدعي هاري برايس. وهو رجل أشيب يضع نظارة سميكة ويرمقني في شك. حياني وأدركت أنه يزنني بعينيه. هل أصلح؟.. أم أنا سأزيد الطين بلة؟ الرجل الثاني يدعى إريك دنجوول قال إنّه سكرتير الجمعية.

فيما بعد عرفت أن برايس باحث روحاني اهتم كثيرًا ببيت بورلي وقضى عدة ليال فيه، ثم كتب عدة مقالات عن الظواهر الغامضة هناك. يرى كثيرون أن ما حكاه ملفق وأنه لم ير شيئًا غريبًا أمّا دنجوول فقد أجري تحقيقًا مطولًا حول ما حكاه برايس!

على كل حال انطلقت السيارة، وفي الطريق راح هاري برايس يحكي لي قصة ذلك المكان:

- «بيت بورلي هو مركز الكثير من الحكايات المرعبة.. يقولون إنّه أكثر الأماكن ازدحامًا بالأشباح في العالم. يُقال إنّه قد بُني فوق دير قديم اسمه (دير بندكت) بُني بدوره عام 1362.. وأنّ هناك امرأة مدفونة في الجدران..»

ثم ناولني لفافة تبغ، ونفث سحابة كثيفة من الدخان خارج النافذة وقال:

- «تكررت قصص رؤية الأشباح في هذا البيت.. هناك أصوات خطوات سمعها الكثيرون عام 1863.. بعد هذا رأى كثيرون شبح امرأة على بعد من البيت كأنها تجول حوله. بعد هذا تكثر القصص المحيرة.. عربة يقودها سائق بلا رأس تدور حول البيت.. إلخ... في ذلك الوقت كان صاحب البيت يدعي (هنري داوسون)..»

لم أر شيئًا غريبًا في هذا.. لقد قضيت حياتي وسط الأشباح فلم يعد شيء يثير دهشتي.. قد يكون هذا البيت مسكونًا فله احترامي، وقد لا يكون مسكونًا فله حبي.. لكن لا يمكن أن يلفت نظري سوى وجود شيء غير معتاد.. هل تعرف ما هو غير المعتاد؟ الكثرة.. كثرة الأشباح التي يحكون عنها.. المكان المسكون المحترم يحوي شبحين أو ثلاثة، لكنهم يتحدثون عن أتوبيس من أتوبيسات القاهرة..

الحقيقة أنني لم أتحمل قط فكرة أن يوجد مكان مسكون لهذه الدرجة ولا أراه... يومًا ما سأحكي للرفاق في ليالي الشتاء:

- «أنا زرت بيت بورلي و.. إلخ.. إلخ...»

وسوف يرمقونني بإعجاب...

- «مات هنري مالك البيت..»

واصل هاري برايس الكلام:

- «المالك الجديد للمنزل وجدت زوجته لفافة أوراق في خزانة.. اللفافة فيها جمجمة فتاة شابة. بالإضافة لذلك هناك أصوات أجراس وخطوات.. دائمًا الخطوات.. دائمًا الأضواء هناك دقات من خلف المرايا.. كأن هناك روحًا حبيسة.. طبعًا لا داعي لذكر أن المالك الجديد قد رحل وجاء بعده مالك آخر.. وهذا المالك قد لاحظ تطاير أحجار من النوافذ، وكتابة على الجدران.. الزوجة المالكة الجديدة حُبست في غرفة لفترة طويلة وراحت قوى خفية ترميها في كل اتجاه في الغرفة. هذه الحوادث نشرت كلها في جريدة دايلي ميرور وسال لها لعاب كثيرين...»

كان يتكلم ومن بعيد رأيت البيت العتيق جاثمًا في الظلام....

عرفته على الفور بالطريقة التي تعرف بها أنت شرير الفيلم عندما تراه في فيلم تجهل لغته...

قال برايس بلهجة درامية:

- «هذا هو بيت بورلي... مرحبًا بك..»

- 2 -

عندما اقتربنا وجدت أن الظلام قد خدعني..

كان بيتًا ريفيًّا جميلًا، يذكرك بلص أمسكه رجال الشرطة فوجدته أنت وديعًا رقيقًا لا يتمشى مظهره مع هذه الاتهامات...

فتح أحدهم الباب بمفتاح معه مما أثار دهشتي. قال وهو يفسح لي الطريق لأدخل:

- «استأجرنا البيت لمدّة عام كامل... هناك أكثر من ثمانين متطوعًا سوف يجرب المبيت هنا.. تجربتنا هذه ليست سوى واحد على عشرين من التجارب التي ننوي عملها..»

لم تكن هناك كهرباء بالداخل.. هذا متوقّع طبعًا بعد هذ الأعوام.. الأشباح لا تدفع الفواتير... لابد من الشموع كما يحدث في أي بيت مسكون يحترم نفسه. الكثير من السجاجيد المغبرة.. الكثير من العنكبوت.. كل الأبواب تحدث صريرًا مما يذكرك بالعبارة القديمة: كل قصص البيوت المسكونة يمكن أن تنتهي لو وجدت علبة زيت جيدة!

أشعل برايس شمعدانًا وأشعل إريك دنجوول شمعدانًا آخر..

انتشرت دائرة الضوء وهزمت الظلال... ضوء متراقص يثير الهلع في النفوس. كم من مرة قرأت هذا الموقف؟ في قصة (الغرفة الحمراء) لـ هـ. ج. ويلز كاد البطل يجن بسبب الشموع.. لعبة الشموع المنطفئة القاسية جدًّا...

هناك ألف قصة في الأدب الغربي عن رجل يمضي ليلته وحيدًا في بيت مسكون هذه قصص مخيفة لكن بشرط أن تقرأها وأنت وحيد ليلًا.. عندما تقرؤها في ضوء الشمس تبدو سخيفة جدًّا. إنها كالشموع لا تأثير لها إلا في الظلام...

قام زميلنا الثالث بتوزيع بعض المقاعد، ثم دعانا للجلوس ووضع الشمعدان في منتصف المنضدة. قال لي برايس:

- «ننتظر هنا.. نحن في مدخل البيت.. أي صوت أو حركة ستكون كافية..»

دائمًا تأتي الأصوات من الطابق العلوي.. تسمع شيئًا يتحرك فتهرع هناك.. يتهشم الدرج الخشبي المتهالك تحت قدمك فتسقط.. إلخ... هذه تقاليد قصص الأشباح..

أخرج دنجوول رزمة من أوراق اللعب، وقام بتفنيطها ببراعة المقامرين، ثم قال:

- «على سبيل تزجية الوقت.. هل ترون أن نلعب البوكر؟»

رآني أفكر بعمق فقال مرغّبًا:

- «سوف نسهر حتى الصباح.. صدقني لابد من طريقة لإضاعة الوقت..»

قلت في ارتباك:

- «لا أعرف كيف ألعب البوكر. هناك لعبة مصرية اسمها (الشايب) ولعبة اخرى اسمها (الكومي).. لا أعرف سواهما ويمكن أن أعلمهما لكم..»

لم تبد عليهم الحماسة.. هؤلاء القوم لا يحبون تعلم الجديد مع أنني أراهن على أن شخصًا سيقع في غرام الكومي فورًا.. هكذا تركتهم يلعبون وأنا أسمع مصطلحات اللعب الغريبة (كاريه آس).. (كنت فلوش)... إلخ.

كانت هناك حقيبة جلبها دنجوول.. فتحتها فوجدت بعض الشطائر وترموس به شاي.. هكذا انقضضت ألتهم شطيرة محاولًا أن أترك لهم ما يأكلون..

كنا في دائرة الضوء المتراقص.. من حولنا يشحب كل شيء ويسود ظلام دامس.. لو أن أسدًا جاء من على بعد خمسة أمتار فلن نراه... هذا مقلق..

لا أحب كذلك فكرة أننا جالسون في المركز بالضبط لا يوجد جدار يحمي ظهورنا... نحن في وضع هش جدًّا....

فجأة انتفضت...

هناك صوت خطوات بالفعل.. والخطوات في ركن القاعة التي نحن فيها. ليست بعيدة..

قلت لهم بطريقة درامية ولا تخلو من الهستيريا المطلوبة:

- «هل تسمعون؟ صوت خطوات..»

نهض برايس وأوقد كشافًا صغيرًا ثم مضى يبحث عن مصدر هذا الصوت... بالفعل من المؤكد أنّ هناك خطوات، لكن المشكلة هي أنك لا ترى صاحبها أبدًا. كما ترى خطوات الرجل الخفي على تراب الأرض في الأفلام.

ثم بدأت الدقات.. دقات منتظمة تدفعك إلى الارتباك.. دقات تأتي من لا مكان. كانت هناك أخوات أمريكيات ثلاث في القرن الماضي يجرين جلسات تحضير أرواح، وكانت الدقات هي لغة الكلام. طبعًا تبين بعد هذا أنهن مصابات بالروماتزم المفصلي.. وكن يحدثن الدقات بأصابعهن المدفونة في الحذاء. لكن هذا الصوت الغريب لا يوحي بطقطقة مفاصل.

أخرج برايس جهاز تسجيل وضغط على المفتاح.. ثم قال لي:

- «أنت شاهدي يا دكتور.. أليس كذلك؟... فيما بعد سيقول قائل إن التسجيلات مزيفة. وقتها سأطلب شهادتك..»

قلت باسمًا:

- «بالطبع سأشهد معك لأنني لا أكتم الشهادة أبدًا. سأشهد أنني سمعت دقات وخطوات، لكني لم أر أشباحًا.. ربما كان مصدر هذه الضوضاء شيئًا آخر..»

الرجل الثالث الذي عرفت أن اسمه (مكدوجال) نهض حاملًا جهازًا غريبًا.. يشبه عصا الهوكي نوعًا. بالتأكيد هي من تلك الأجهزة التي تقيس النشاط الروحي.. تقيس الكهرباء الاستاتيكية أو تبحث عن رائحة الاكتوبلازم.. أي شيء..

راح يجوب أركان القاعة وهو يهمهم.. ثم عاد لنا. ومن جديد عاد الرجال يلعبون الورق.

رفعت رأسي إلى الطابق العلوي.. هناك ترابزين سلم يمتد في ردهة طويلة. الترابزين الذي تراه في أفلام رعاة البقر والذي يسقط من فوقه الشرير برصاصة البطل. إن الظلام دامس هناك.. لا يوجد ما يبدده نوعًا سوى اللهب الخافت القادم من حيث جلسنا..

يمكنني أن أرى من يتحرك هناك.. لو شئنا الدقة لقلنا إنها امرأة. امرأة بلا رأس طبعًا... تمشي في تؤدة كأنها تراقبنا من أعلى..

قلت لبرايس في كياسة:

- «أ.. مستر برايس.. هلا نظرت لأعلى؟»

رفع رأسه.. لم تعد المرأة هناك.. لقد اختفت. لا غرابة في هذا فهي أشباح بريطانية من التي تملأ قصص هنري جيمس. تراها بركن العين ولا تحتل مركز الكادر أبدًا... وعندما تنظر لها مباشرة لا تراها...

قلت في ارتباك ما معناه إنني متأكد، فبدا متفهمًا تمامًا هذه أشياء تحدث.. كلنا ذلك الرجل..

نهض مكدوجال من جديد وهو يحمل العصا، وقال إنّه سيفحص الطابق الثاني... وحمل في يده الحرة كشافًا.. ثم اتجه إلى الدرج وراح يصعد بحذر. كلنا يعرف أنّ هذه السلالم تنهار تحت قدميك كأنها من بسكويت. توارى الضوء الذي يحمله بينما ظللنا نحن الثلاثة جالسين....

بعد دقائق قال إريك دنجوول إنّه يريد أن يتفقد الغرف الخلفيّة في هذا البيت. بيت بورلي متسع وبه ألف غرفة كما هو واضح. هكذا نهض بدوره معتمدًا على كشاف صغير في يده هل سمعت صوت ضحكة يأتي من أحد الأركان المظلمة؟ لا أدري فعلًا...

مرت لحظات ثقيلة..

فجأة..

آه ه ه ه ه!

من الطابق العلوي.. مذعورة. كريهة.. طويلة.. أليمة..

صرخ برايس في رعب:

- «مكدوجال!»

ونهض مسرعًا وهو يحمل شمعدانًا... فصرخت فيه أن يأخذ الحذر. لو تعثر فلسوف يهشم ساقه أو على الأقل سوف يسقط الشمعدان ليحرق البيت كله..

من الواضح أنّ هناك كارثة قد أصابت مكدوجال.. لا أحد يصرخ بهذه الطريقة لو كان قد رأى شبحًا..

أمّا أنا فظللت حيث أنا.. من الخطأ أن ينهض اثنان معًا.. يجب أن تكون هناك نقطة ارتكاز بدلًا من أن نتشتت في كل صوب.. يسهل الانفراد بأي واحد منا وقتها، وأنا لم أنس بعد قصة البيت الذي كانت شيراز تنتظرنا فيه..

مرّت دقائق... وأنا أرقب الظلام في وهج الشمعدان الباقي..

للنار أثر مدوخ يدفعك للنعاس فعلًا. أنت تغيب وسط اللهب كأنك ذبابة.. لكني تماسكت برغم إرهاق اليوم. عندما رفعت عيني بدا لي كأن شيئًا لم أره من قبل يوجد في الظلام. مع الوقت بدأت أدرك إن هذا شخص فارع القامة يقف في ثبات في دائرة الظل وينظر لي..

قلت في ثبات نوعًا:

- «من أنت؟»

لم يرد.. فعدت أسأل:

- «ماذا تريد؟»

لم يرد

- «هل أنت مالك البيت السابق؟»

فجأة سمعت صرخة تدوي.. نظرت إلى صاحب الصرخة رأيت دنجوول يحمل الكشاف ويشير لشيءٍ من خلفي. استدرت لأرى ذلك الشيء الذي يهوي ببلطة عليَّ!..

لقد انشغلت في النظر إلى ذلك الرجل في الظلال، فلم أدرك أنّ هناك من ينوي قطع رأسي بالبلطة من الخلف..

أجفلت ووثبت للخلف بينما هوى ذلك الشيء بالبلطة على المنضدة التي أجلس عليها. وصرخ دنجوول من جديد:

- «اهرب ولا تنظر للوراء!»

واندفع يلتحم بذلك الشيء الذي هاجمني بالبلطة... رأيت حربًا عنيفة بين الاثنين، والحقيقة أن شجاعتي تخلت عني فعلًا... لم أعد قادرًا على لعب دور الرجل الشهم.. قبل أن أفكر كانت ساقاي تركضان نحو الباب. ضوء يتراقص من خلفي نظرت فوجدت أن الضربة أسقطت الشمعدان وقد تمسكت النار بالأرضية..

هرعت أفتح الباب وأركض..

كانت هناك سيارة تمر عن بعد فجريت نحوها أستوقفها وكان السائق شابًا بريطانيًّا طويل الشعر يشبه نجوم البيتلز طلبت منه في لهفة أن يقودني إلى أقرب هاتف عمومي. ونظرت من نافذة السيارة إلى البيت المشتعل وهتفت:

- «البؤساء!.. سيموتون حالًا!»

لم يعلق كأنه لم يفهم وانطلق بالسيارة، وأخيرًا بعد خمس دقائق وجدت نفسي أمام كابينة هاتف حمراء من هواتف لندن. دخلت وطلبت رقم المطافئ المدون على الجدار. قلت لهم:

- «بيت بورلي يحترق.. ثلاثة أشخاص هناك!»

- «ماذا؟»

- «بيت بورلي.. لا داعي للأسئلة السخيفة.. أنتم تعرفون المكان..»

ثم وضعت السماعة وعدت إلى الفندق مرتبكًا مفكك الأوصال..

✷ ✷ ✷

في الصباح كانت الإجابات جاهزة بانتظاري كيف يحترق بيت بورلي يا سيدي وهو احترق فعلًا عام 1939 واختفى من على ظهر الأرض عام 1944؟

هؤلاء القوم يمزحون..

لكن شيئًا كهذا لا يمكن أن يختلط على الناس.. عندما تأكدت من المعلومة، وجدت أن مالك البيت الأخير كان يفتح بعض الصناديق، وتسبب في أن يسقط مصباح مشتعل ليحرق كل شيء.. كان هذا عام 1939.. لم تبق من البيت سوى أطلال متهدمة...

لهذا كان سائق السيارة لا يبدي أي فهم لما أقول...

وماذا عن الرجال الذين كانوا معي؟ بحثت في الهاتف عن رقم جمعية البحوث الروحانية SPR.. في النهاية ردّت عليَّ سكرتيرة ملول تتكلم بلهجة الكوكني.

سألتها عن مستر هاري برايس وإريك دنجوول. هل لي أن أكلمهما؟.. قالت في ملل:

- «سيكون هذا صعبًا يا سيدي.. مستر برايس مات عام 1948 وكذلك مستر دنجوول!»!

.....!

بالفعل كان بيت بورلي يعجّ بالأشباح. لو أردت أن ألخص القصة لقلت إنني أمضيت الليل في شبح بيت احترق بالفعل، مع أشباح رجال اكتسبوا صفة ماديّة مؤقتة، لدرجة أنهم يدخنون ويفتحون الأبواب ويلعبون الورق.. هذا هو كل شيء....

لم تكن خبرتي ببيت بورلي بالتفاهة التي توقعتها في البداية...

- 1 -

سمبر كريسيس..

أوت دكريسيس

فيتا ديتستابيليس..

نونك أوبدورات

إتونك كيورات

لودو منتيس آسييم..

✷ ✷ ✷

عند المساء جلست في غرفتي بالمستشفى.. هناك (أنتريه) صغير في ركن المكان بقرب الفراش، وقد جلست إليه أحاول بذراع ترتجف أن أرفع كوبًا من عصير البرتقال إلى ثغري.. ثم تذكرت أنني سأمر بشبه جراحة بعد قليل، فعدلت عن الشرب... المعدة الخالية أكثر أمنًا..

قالت لي ماجي:

- «هل ستجرب هذا حقًّا؟»

قلت وأنا أبتسم بشكل مفتعل:

- «لن أخسر شيئًا...»

- «قضيت حياتك كلها تسخر من هؤلاء المعالجين النصابين...»

- «المشكلة هي أن الرجل برهن عن براعته ذات مرة.. لا يوجد ما يمنع أن ينجح مرّة أخرى..»

سألتني وهي ترمقني في شفقة:

- «هل أنت خائف من الموت فعلًا؟»

قلت في صدق:

- «نعم.. لست متأهبًا لمواجهة ما ينتظرني هناك.. هل تذكرين مونولوج هاملت الشهير عن الخنجر المسلول الذي يمكن أن ينهي كل شيء. لكننا نخاف أن نحلم؟ ثم أنّ هناك عاملًا أخطر وأكثر أهميّة وهو الألم.. أخشى أن تكون نهايتي مصحوبة بكثير من الألم...»

- «لن تتألم..»

- «بل سأتألم.. قالها لي لوسيفر في شغف وقال إنّه سيتلذذ بكل لحظة أتعذب فيها. هذا الشيء يعرف ما يقول..»

ولاحظت في سخرية صامتة أنها لم تنف عني الموت.. فقط نفت عني الموت الأليم، لقد تقدمنا كثيرًا إذن..

بعد نصف ساعة دق الباب..

فتحته ماجي فدخل المعالج الروماني ضخم الرأس.. د. ميخائيل ميلفسكو يدخل وهو يحمل حقيبة صغيرة، ومن خلفه فتاة شقراء نحيلة يبدو أنها غربية. كانت ترتدي بلوزة بيضاء جعلني لسبب ما أشعر كأنها ممرضة..

حيانا الرجل ثم قال وهو يشير لها:

- «مساعدتي إيلين... سوف تقوم بتمريضك..»

كان معي الحق إذن.. إيلين ممرضة ولكن ما دورها؟

قال لي الدكتور الروماني:

- «أريد أن ترقد على الفراش... وسوف أحقنك بدواء منوم..»

كنت أعرف أن الباب موصد ولن تدخل أي ممرضة. لن يرانا أحد.. بالتأكيد لن يقبل المستشفى أن يتم علاج مستقل عن علاجه.. وعلى يد طبيب لا يعرف أحد عنه شيء. ربما ليس طبيبًا أصلًا بل هو معالج روحاني أقرب للنصابين..

قلت له وأنا أنام على الفراش:

- «سأقول لك حقيقة مهمّة... الآنسة ماكيلوب لن تفارق الغرفة.. سوف تراقبك مهما فعلت..»

هزّ رأسه في وقار ونظر لماجي وهز رأسه:

- «تشرفنا.. توقعت هذا بالطبع..»

أضفت باسمًا وأنا أنزع الروب:

- «الكتاب في مكان ما.. لن تأخذه إلا بإرادتي وإلا فلن تجده أبدًا. لا تحاول أن تقتلني إذن... لا تحاول أن تسرقه أثناء غيبوبتي كذلك...»

قال بنفس الهدوء:

- «هذه شروط عادلة.. توقعت مثلها وأكثر.. والآن اسمح لي بأن أجرى الانتقال.. سوف تغيب عن العالم لكنك ستعود لتدرك أنك قد شفيت.. عندها أريد تنفيذ الجزء الخاص بي.. لن تلعب بي بدورك لأني أستطيع أن أشفيك وأستطيع أن أعيد لك الداء...»

كانت ماجي ترتجف هلعًا.. ابتسمت لها مهدئًا مطمئنًا، ثم كشفت عن ساعدي.. جاءت الأخت إيلين وأخرجت محقنًا صغيرًا ودسته في أوردتي الغليظة.. شعرت بشيء بارد ينساب هناك..

لا جدوى... لم أنم...

قال الطبيب الروماني:

- «سوف نزيد الجرعة.. أنت تتعاطى جرعات عالية من المورفين، لهذا صار تخديرك صعبًا..»

زادت الجرعة.. بالفعل رأيت وجه ماجي يترقرق كأنه على صفحة ماء.. ومن موضع ما ظهر أبي يلومني على شيء ما، ثم جاء عادل صديق شبابي يحمل لي قصيدة جميلة قرأها... هل هذه الأجسام الصلبة الخشنة تحت قدمي في البحر هي سرطانات تلتهمها؟ أبكي لكن زوجة خالي مصممة على أن أمشي في البحر. السيجارة الأولى كانت لذيذة.. وكان سرطان الحنجرة شيئًا نقرأ عنه في المجلات... و...

لقد تم الانتقال فعلًا..

✷ ✷ ✷

إيجستاتيم

بوتستايم..

ديزولفيت أت جلاسيم

✷ ✷ ✷

كنت هناك..

أمشي بالبلطة التي وجدتها بين أشجار الغاب الكثيفة، وأدرك بوضوح أنّ بعض هذه الأشجار حي يتنفس... يتصاعد صوت الشهيق والزفير، والبخار يتكاثف على زجاج عويناتي.. الغابة تتنهد.. الغابة تراقبني.. الغابة تعرف..

حقًّا لا أعرف أين أنا.. لكنني موجود فيه بقوّة..

غصن شجرة يتلوى محاولًا أن يمسسني، وأنا أعرف أنها شجرة تمتص الدماء. من علمني هذا؟ لا أعرف. فقط أهوي على الغصن بالبلطة فيصرخ كمن يذبح.. يتهشم ويسقط على العشب ينز دمًا..

هذه النبتة.. كنا نسميها ذيل القط في طفولتنا، ويبدو أنّ هذا مصطلح دقيق جدًّا لأنهّا تتلوى في غنج كأنها ذيول قطط حقيقيّة.

أعبّر الممر بين الأشجار عالمًا أنني أقترب من نهاية الدغل..

كانت تلك القلعة الشامخة قلعة عتيقة الطراز تهدمت جدرانها وتساقطت الحجارة منها. من الواضح أنها صارت مأوى للثعابين والبوم والوطاويط لابد أنها كانت شيئًا رائعًا يومًا ما.

أراه... أرى ذلك الشيء الهلامي المخيف يلتف حولها.. يغلي.. يفور في جشع.. كنا في الوحدات الريفية نسكب ماء الأكسجين على الجروح المتقيحة، فكان الصديد الممزوج بالدم يفور.. يتصاعد منه البخار ويخرج ليسيل أنهارًا على الأرض..

هذا الشيء الهلامي ينتمي لعالم الجروح المتقيحة..

أقف عن بعد أرمق هذا الشيء المقزز، وأحاول أن أتجنب القطرات الثائرة التي تتطاير.. بشكل ما عرفت أنها قاتلة..

كنت أعرف منذ البداية هذا الذي أراه..

أدرك معنى هذه الممسات الملتفة.. وصوت الرغوة الذي يغلي في جشع.. ووش ش ش!..

هذا هو السرطان..

لا شك في هذا..

القلعة هي أنا.. لا شك في ذلك أيضًا...

عليَّ أن أقطع هذه الممسات.. عليَّ أن أحرر القلعة من هذا الوحش البشع..

سوف أهوى بالبلطة على هذه الألسنة، ولكن كيف أمزقها جميعًا..؟ إنها تتكاثر كرؤوس الهيدرا.. وأنا لست هرقل...

هذا الشيء أقوى مني..

السرطان.. لابد من أن أقضي عليه.. سوف يساعدني ميلفسكو. سوف يمنحني سلاحًا أقهره به.. سوف أنتزع هذه الممسات الجاثمة على القلعة...

هناك ممس يلتف حول ساقي ويحاول أن يجذبني.. خذ ساقي كما أخذت حنجرتي.. لا فارق عندي...

سقطت على الأرض.. خيل لي أنني أرى يدًا.. يدًا آدمية مبتورة.. في الواقع هي أقرب ليد تمثال.... لكن الأنسجة طرية تنبض بحياة زالت. هل هذه الممسات فتكت بشخص قبلي في هذا العالم الموازي؟ من أين يتصاعد الدخان؟

أنا متورط.. لا أقدر على الفرار....

✷ ✷ ✷

- «(معات) هنا.. المجد للقادمين من أيونو!»

✷ ✷ ✷

ماجي.. لا تخافي..

أنا أسف.. أسبب لك إزعاجًا ورعبًا طيلة الحياة منذ التقينا أول مرة...

عندما فتحت عيني كنت راقدًا على الفراش، وكنت أرى العالم ضبابيًا بحق.. لكن عندما رفعت رأسي رأيت أنه ما من أحد يعني بي. كنت أنت على الأريكة فاقدة الوعي غائبة كجثة، وقد انهمك ميخائيل ميلفسكو والممرضة في تبليل وجهك بالماء وصفعك.. إلخ..

لم يعد أحد يبالي بي..

نهضت في صعوبة وقلت بصوت واهن:

- «هل هي بخير؟»

المشكلة لو أنها لم تكن بخير، فلن أقدر على عمل شيء لا أستطيع أن أحرك ساقي. ضعيف جدًّا كقط وليد...

قال ميلفسكو وهو يواصل الصفع برفق على الخدين:

- «لا تخف هي فقط لم تتحمل أن تتابع العملية.. كانت أرق مما يجب..»

في النهاية سمعتها تتنحنح.. تفتح عينيها.. لكنّها لم تغير وضعها الراقد على الأريكة..

بدأ الضباب ينقشع عن ذهني، وبدأت عقدة في لساني تنحل.. السؤال الأول هو: ماذا فعلوا بها؟ السؤال الثاني هو: ماذا فعلوا بي لدرجة أن تفقد وعيها؟..

هناك ملاءة على صدري، والملاءة ملوثة بدم أحمر قان لكن لا أشعر ألمًا ولا أحسّ جرحًا... أنا بخير فعلًا.. يمكن أن أقول: إن هذا ليس دمي.

عاد لي ميلفسكو ونزع الملاءة وكورها في كيس من البلاستيك، بينما راحت الممرضة تزيل بقعًا من دم وهمي على وجهي وعنق. قلت له على طريقة الأطباء:

- «هل نجحت الجراحة؟»

- «بالطبع...»

قالت ماجي وهي راقدة على الأريكة:

- «أنا رأيت الأمر يا رفعت.. لقد استطاع أن ينتزع السرطان.. رأيت كتلة اللحم المفزعة في يده وهو ينزعها من رقبتك.. هذا الرجل ليس نصابًا. كان المشهد مروعًا.. فجأة دار رأسي ولا أعرف ما حدث بعدها..»

هذا عجيب.. ثمّة شاهد موثوق به هنا، والأغرب أنها لم تتحمل المشهد.. غالبًا ما تكون المشاهد البشعة حقيقيّة...

الأنسجة.. الممسات.. القلعة..

ثمة رؤيا مخيفة تتراءى من موضع ما. لا أعرف متى ولا أين. هل هو كابوس قديم؟... هل خبرة عشتها في زمن سحيق وأنا آخر؟

كنت أرى السرطان يتوغل في قلعة.. وكنت أدرك أن القلعة هي أنا بالذات..

لكني أشعر براحة جسدية.. هذا أكيد... هل زال السرطان فعلًا؟

قال ميلفسكو عاقدًا ذراعيه على صدره:

- «الآن قد بررت بالجزء الخاص بي.. انتظر الجزء الخاص بك.. أين الكتاب؟»

قلت مشتت الذهن:

- «وكيف أعرف أنك بررت بالجزء الخاص بك فعلًا؟»

- «أنت تشعر براحة وبأن الألم زال. لا تنكرن هذا....»

الواقع أنّ هذا صحيح... هل الإيحاء؟

- «الكتاب من فضلك... الكتاب الذي سبب لك كل معاناة حياتك وجعل لوسيفر يلاحقك عبر القرون..»

هذا الرجل يعرف الكثير فعلًا...

بالطبع لم يكن الكتاب ملتصقًا بجسدي.. الأحمق فقط هو الذي يخضع لجراحة بينما كتاب خطير كهذا ملتصق بجسده... الأحمق هو من يخضع للتخدير بينما أهم كتاب في عالم الشياطين والسحر معه..

ماجي؟.. بالطبع لا.. لم أكن لأقحمك يا ملاكي في لعبة قذرة قاسية مثل هذه.. هذه ألعاب خطرة.. ألعاب لا يلعبها سوى الخاسرين مثلي. لن أعطيك الكتاب لتتحرك كل شياطين سقر خلفك..

قلت له في وهن:

- «الحمام.. الحمام الملحق بالغرفة..»

- «أين؟»

ابتسمت في خبث وقلت:

- «ابحث وسوف تجده...»

نظر لي في حقد... لم يحبّ الدعابات في هذا الوقت بالذات وليس لديه مزاج رائق، لكنه نهض ونظر لي نظرة أخيرة قاسية ثم دلف إلى الحمام..

قالت لي ماجي في رعب:

- «هل ستعطيه إياه فعلًا؟»

- «بالطبع..»

- «هكذا لن تصير لحياتك قيمة عند الراغبين في الكتاب وهم كثر...»

- «سأموت في جميع الظروف.. سأموت بالسرطان لا محالة، بينما ربما أجد فرصة للفرار من سادة جانب النجوم لو شفيت من المرض الوبيل.. سوف أفر وأنا سليم الجسد.. سوف أقاتل وأنا بكامل قواي هناك أمل..»

الصرخة!

أخ!

هذه صرخة شخص ينتزعون أحشاءه وهو حي.....

ماذا يحدث هناك في الحمام؟

- 1 -

ترى هل تألموا؟ إن لم يكونوا قد تألموا فلماذا صرخوا؟

✷ ✷ ✷

كيف كان لها أن تعرف؟

عندما رأت يوهانا عينيه الصافيتين الزرقاوين وضحكته الرقيقة، عرفت أنها وقعت في الحب. إن (هياليمار) قد ظهر في حياتها بشكل غير مسبوق ومذهل..

يوهانا ممرضة سويدية رائعة الجمال تعيش في إحدى ضواحي ستوكهولم. بلاد متقدمة ثرية جدًّا لكنّها باردة كالثلج.. باردة بشكل مجازي وشكل حرفي فعلًا. الجليد يحيط بالبيوت ويحيط بأعصابك وقلبك.. هنا لا يوجد شيء اسمه حب لا يوجد شيء اسمه دفء. يمكن للفتاة بسهولة أن تجد علاقة حيوانية عابرة، وتشارك غريبًا مسكنه أو مسكنها لأيام، لكنهما يعرفان أن كل شيء سينتهي سريعًا.. هكذا تتلخص كل عواطف الدنيا في شهوة عابرة تزول سريعًا..

هكذا كانت يوهانا.. وهكذا كانت حياة يوهانا..

كان هذا أحد أيام يناير. لابد أنه يناير فعلًا.

ابتاعت العشاء لنفسها، ثم عادت بالقطار إلى بيتها الجميل الصغير في الضواحي..

وأولجت المفتاح في باب الشقة بأصابع متجمدة ودخلت وضعت الطعام في الميكروويف.. بدلت ثيابها.. هنا بدأت تتوتر..

أغلقت نور الصالة قبل مغادرة المنزل، فلماذا هو مضاء؟.. هل بلغ بها السهو هذا الحد؟ أم أنّ هناك من أضاء النور فعلًا؟

أمسكت بسكين المطبخ في وضع التهديد، وبدأت تزحف كالثعبان خارجة من مكمنها. هناك وقفت وظهرها للثلاجة وراحت تلهث.. التوتر يقتلها.. دقات قلبها مسموعة لكل من هو أصم..

يوهانا الحسناء في لحظات صعبة..

كل هذا ليس حقيقيًا.. سوف تكتشف بعد قليل أنّ هذا وهم أو كابوس.

لكن هذا كله حقيقي.. إنها ملقاة على الأرض وقد قام أحدهم بلي ذراعها خلف ظهرها، وهناك من يضع نصل سكين على عنقها.. وقد طار السكين الذي كان في يدها...

كان يهمس بما يشبه فحيح الأفعى:

- «هيا.. ستكونين فتاة عاقلة.. لن تصرخي...»

قالت شيئًا على غرار (مممممم).. لكن يدًا حازمة قبضت على شعرها وضربت رأسها في الأرض.. هل (مممم) صرخة؟

كانت تبكي من الذعر.. هذا لا يحدث لها هذا لا يحدث لها حقًّا..

يمكنها أن تدرك أنّ هناك رجلين.. رجلين شرسين تفوح منهما رائحة التبغ والعرق. كان هناك بيت سهل الاقتحام وتصادف أنّ هذا بيتها هي..

لا فرصة أمامها.. إنها كقطة صغيرة في يديهما..

قال الأول وهو يلهث انفعالًا:

- «إنجولف... أبقها حيث هي.. أريد البحث عن طعام في هذا المطبخ..»

- «هيدفيج... هل هذا وقت الأكل؟»

- «الطعام أولًا... ما من جائع يقدر على عمل شيء..»

كانت ترتجف وتبكي... ومن الغريب أن الخاطر الذي يضايقها الآن هو حذاءاهما القذران في مطبخها، والتهام الطعام الذي أعدته لنفسها في الميكروويف.. غريب ما يمارسه المخ البشري من ألعاب. هي موشكة على الموت مع ما هو أسوأ غالبًا، وبرغم هذا عقلها يفكر في الطعام...

لاحظت كذلك في محنتها أن اسميهما غريبان غير معتادين.. الأسماء السويدية غريبة كلها على مسامعنا لكن يجب أن تكون أذنك سويدية كي تميز الأسماء الأغرب. بالنسبة للغربيين لا مشكلة في أن يحمل مصري اسم (حرفوش) لكنه غريب جدًّا بالنسبة للمصري..

سمعت صوت ذلك الرجل يدخل المطبخ، بينما كان المدعو إنجولف يمرر أنامله على شعرها.. يقول بصوت مبحوح:

- «شعرك جميل.. ناعم.. نظيف...»

لو تحركت لمزق النصل عنقها...

فجأة شعرت بأن النصل يبتعد عن عنقها، ولم تفهم ما يحدث إلا عندما سمعت صوت التلفزيون يتهشم. رفعت رأسها في ذعر لتجد أن من هاجمها قد طار ليسقط فوق المنضدة التي عليها

التلفزيون، وسقط أرضًا.. من الغريب أنه لم يبد قويًا كما ادعى.. لقد تهاوى أرضًا كرقاقة ابتلّت بالحساء..

من المطبخ اندفع رجل فظ ضخم الجثة.. استنتجت أنه هيدفيج.. كان يحمل عصا حديدية ويصيح في وحشية، وهوى بالعصا على رجل قوي البنية وسيم يبدو كأبطال القصص المصورة، لكن هذا الأخير تلقف العصا بقوّة ثم مد ساقه ليتعثر هيدفيج، وعلى الفور حمله من كتفيه كأنه كيس غسيل متسخ وطوح به في الجدار.. طاخ!!

هذه المرّة لم تعد هناك تساؤلات كثيرة.. من يرتطم رأسه بالجدار بهذه الطريقة مائت لا محالة.

أخيرًا استطاعت أن ترى منقذها... هذا هو لقاؤها الأول مع (هياليمار). الشاب الذي يبدو كأنه جاء من عالم الأساطير...

هتفت من بين دموعها ورجفتها:

- «من أنت.. من أنتم؟»

قال في رفق:

- «أنا أدعى (هياليمار)... لا شك أنك تعرفين الآن معسكر الأخيار ومعسكر الأشرار.. تعرفين من في صفك ومن ضدك.. لا تخشي شيئًا واعتبري نفسك محظوظة...»

ثم هرع إلى باب الشقة ففتحه.. اندفع الهواء البارد للداخل..

قال لها:

- «اطلبي الشرطة... لقد تسلل هذان وهاجماك.. كنت أنا مارًّا وسمعت صراخك فاقتحمت المكان وفتكت بهما هذا ما حدث فعلًا...»

لا لم يحدث هذا فعلًا.. أرادت أن تقول له ذلك. لم يكن الباب مفتوحًا. فكيف دخلت أنت وكيف دخل هذان؟

كادت تسأله أكثر لكنه مد يده بالهاتف لها، وقال في إلحاح:

- «افعلي ذلك الآن.. أعتقد أن واحدًا منهما على الأقل قد مات..»

كانت في حالة من الضبابية وقد تفككت أفكارها في كل صوب لا تقدر على جمع هذا كله. لكنّها بطريقة ميكانيكية اتصلت بالشرطة..

ما بعد هذا كان شبيهًا بهذيان طويل.. استجواب.. صور تحقيق.. وكان رأي رجال الشرطة أن هذين الوغدين وجدا بيتًا مفتوحًا فاقتحماه... ووجدا امرأة وحيدة فهاجماها.

- «لولا هذا الفتى الشهم لانتهى أمرك..»

تاك.. تاك (شكرًا) أيها الوسيم..

لكنها كانت تدرك يقينًا أن منزلها كان مغلقًا وأنها لم تفتح أي باب أو نافذة.. كيف دخل الجميع؟

كان هذا لقاءها الأول مع المحارب ذي الخوذة..

- 2 -

الآن يذوب الثلج ويسري الدفء في العروق..

الآن صار لكل شيء مذاق مختلف، والحياة أجمل، والأطفال أروع، والغد واعد بكل شيء..

لقد احتل هياليمار كل شيء في حياتها.. الفارس القادم من أساطير الفايكنج القديمة.. بالفعل هياليمار معناها بالسويدية (الفارس ذو الخوذة)..

ألا يبدو غريبًا أن مهاجمها كان اسمه إنجولف ومعناها (ذئب الآلهة)؟.. لقد استطاع الفارس ذو الخوذة أن يذبح ذئب الآلهة كما هو واضح.. وبالطبع انتقل ليعيش في دارها. نحن نتكلم عن السويد هنا طبعًا.. حيث ينظرون للأخلاقيات بشكل مختلف.

سألتني يوهانا إذ جلسنا في تلك الكافتيريا المطلة على الشارع:

- «أنت لا تصدق ما أقول؟»

قلت في هدوء بعد ما أخذت رشفة من القهوة:

- «ليس قبل أن أراه...»

ليس من السهل أن تصدق كل هذا الكلام الفارغ عن الأرض الغارقة.. أنا لم أصدق حرفًا، لكن ما تفسير كل هذا الذي حكته لي وهي ترتجف؟

أولًا هو لم يكن يأكل تقريبًا. هذا شيء مقبول ولربما كان شاعريًا كذلك.. من الجميل أن تلقى الفتاة رجلًا لا يملأ بطنه بالطعام ويتجشأ.. هذا رجل نادر يجب ألا تتركه الفتاة..

- «طريقة ظهوره الدرامية.. ألا تجدها غريبة فعلًا؟»

غريبة بحق.. لكن من أدراني أنه ليس لصًا اختلف مع رفيقيه؟.. إذا تسلل رجلان للبيت فلماذا لا يتسلل رجل ثالث؟.. لماذا لا تتسلل كتيبة من الجيش الصيني؟

وعندما كان يطبخ الطعام معها في مطبخها، وسقطت السكين العملاقة من الرف عموديًا على قدمه لتخترقها وتمزق أنسجتها. هل تذكر ما فعل؟

- «راح يمرر كفه على الجرح البليغ يمرر ويهمس بشيء ما.. وهنا فوجئت أن الجرح قد اختفى تمامًا. سألته عن هذا الذي حدث فقال إنها حيلة قديمة تعلمها. على قدر علمي لا توجد أي حيلة تغلق الجروح!»

كل هذا جميل..

ولكن ماذا عن لعب الورق معها حيث يبدو كأنه يرى كل أوراقها..؟ يقول: إن ذاكرته حديدية.

لم تذهب معه للبحر قط. لكن لو فعلت لذهلت من براعته في السباحة. يسبح كالحيتان أو أفضل..

طيلة الوقت يلمح إلى سر رهيب يخفيه عنها.. ما هو بالضبط؟

معظم حياتها معه كانت تشعر أنه سوبرمان بشكل أو بآخر تذكرت كلارك كنت والصحفية المشاكسة لورا لين.. وكيف كانت تشك في أنه وسوبرمان نفس الشخص.. كل شيء كان يشعرها أن لديه قوى غريبة...

هذا ليس مجرد بشري متميز.. هذا كائن آخر...

✷ ✷ ✷

في في فو فام!

✷ ✷ ✷

ثم جاءت الطامة الكبرى عندما كان يأخذ حمامًا..

تأخر كثيرًا بالداخل، فظلت تنتظر ثم أنها نادته في رفق.. لم يرد.

رفعت صوتها أكثر فلم يرد..

هكذا أزاحت الباب الزجاجي المنزلق..

كان نائمًا أو ميتًا.. راقدًا في مغطس الحمام، ووجهه بالكامل وأنفه تحت مستوى الماء لا توجد فقاعات تتصاعد من منخريه..

كاد قلبها يتوقف.. لقد مات سمعت كثيرًا عن الحوادث المماثلة.

صرخت ومدت يدها تحيط بعنقه، هنا انتفض.. نهض فاتحًا عينيه وجلس في المغطس....

وثبت للخلف مترًا بينما هو ينهض من المغطس فاتحًا كفه بما معناه (اسمعيني - أولًا - ليس - الأمر - كما - تظنين).. الماء يسيل من جسده كأنه وحش بحري أفاق فجأة...

صرخت في هستيريا:

- «أنت لست كائنًا بشريًا!... من أنت؟.. ما أنت؟».

- «أنا هياليمار الذي تحبينه...»

- «بل أنت الشيطان!»

وقف أمامها.. لف خصره بالمنشفة ثم أطرق للأرض بينما الماء يقطر منه، وقال:

- «لست الشيطان. تأكدي من هذا.. وإن كنت أعترف أنني أتمنى لو كنت بذكائه وحيطته.. لقد تصرفت بحماقة..»

- «إذن؟»

أخذ شهيقًا عميقًا ثم قال:

- «هل سمعت عن الأطلنطس؟»:

✷ ✷ ✷

واحسرتاه على حبيب.. قد سلاني للأبد

لما حرقت أنا البخور.. عليه لم يحزن أحد

✷ ✷ ✷

في ذلك الوقت كنت في هلسنكي، في بعثة قصيرة من بعثات ما بعد الدكتوراه بوحدة أمراض الدم بكلية الطبHelsingfors universitet، وقد كسبت أصدقاء كثيرين هنا، فهم قوم ظرفاء برغم انطباع البرود الذي تشعر به لأول مرة معهم. لكن سمعتي كطارد أشباح هاو تسربت إلى الناس هنا.. طلبوا مني ضاحكين تقديم محاضرة قصيرة عن خبراتي في عالم ما وراء الطبيعة. لم تكن محاضرة بالضبط بل هي أقرب إلى دعابة طريفة، وقد ألقيتها في قاعة الاستماع بالمستشفى وأعتقد أنها كانت مسلية وتلقيت ألف (تاك).. لكن دعني أقل لك إنهم لم يصدقوا حرفًا...

يوهانا كانت هناك وسط الجلوس، وكانت تجيد الإنجليزية لذا سمعت كل حكاياتي عن الزومبي ومصاصي الدماء والفجوات بين عالمين و... و...

هكذا حزمت أمرها..

بعد انتهاء المحاضرة اقتربت مني وقدمت لي نفسها وطلبت أن نجلس في كافتيريا قريبة..

ولديها مشكلة... لديها أسئلة.. لديها حيرة لا تنتهي..

هياليمار.. من هو؟ هكذا سردت عليَّ القصة التي سمعتها أنت.. قالت لي:

- «كان هذا أحد أيام يناير. لابد أنه يناير فعلًا.. بلا بلا بلا.. رجل قوي البنية وسيم يبدو كأبطال القصص المصورة إلخ إلخ..... وقال لي: هل سمعت عن الأطلنطس؟»

هناك في المقهى كنت أحتسي القهوة وأنظر لعينيها الواسعتين وأفكّر..

بدت لي القصة عجيبة جدًّا.. عسير أن تصدقها إن موضوع الأطلنطس محبب لديَّ كتاب الخيال العلمي، لكنك لا تلقى كل يوم من يزعم أنه جاء من أطلنطس..

الاحتمالات:

1 - الفتاة حمقاء.

2 - الفتاة كذوب.

3 - الرجل كذوب وهذه دعابة قاسية.

4 - كل هذا حقيقي وأنا لا أفقه شيئًا.

لو كانت الأطلنطس خدعة كبرى فإن ذنبنا يقع على رأس (أفلاطون) الذي وصف تلك القارة عام 350 قبل الميلاد، قال إن يونانيًا عظيمًا اسمه (سولون) زار مصر، وعرف من الكهنة هناك قصة هذه القارة لقد وصف لنا كم كانت الأطلنطس ثرية متقدمة قوية عسكريًا، وكيف سيطرت يومًا على أوروبا كلها. وقال: إن الشعب الوحيد الذي هزمها كان اليونان.. ثم بعد الهزيمة - ولأن المصائب لا تأتي فرادى - حدث زلزال أو شيء ما وغاصت أطلنطس في المحيط.. وقد استشهد الرجل بكلام الكهنة المصريين الذين عاشوا قبله بمائتي عام. الحق أن (أفلاطون) وصف أطلنطس بالتفصيل الممل قال: إنها مليئة بقنوات الماء وفيها نظام ري متكامل يسمح لأهلها بجني محصولين في العام هناك نقطة ضعف في هذه القصة لأن الفراعنة كانوا ثرثارين يحكون عن كل شيء. فلماذا لم نجد سيرة أطلنطس فيما بقي من نقوشهم وآثارهم؟

هناك من قالوا: إنّه لم يحدث زلزال ولكنّه استخدام قوتها بشكل خطأ.. وهناك من قالوا: إن السبب هو التحلل الأخلاقي.. بهذا يكون ما حل بها شبيهًا بما حل بـ (سدوم) و(عمورية). لا أعرف كيف يؤدي التحلل الأخلاقي لفناء قارة لكن هذا ما قالوه. على كل حال يقول (مارسلوس) إن الناجين من أطلنطس فروا إلى غرب أوروبا..

نسي العالم الأسطورة حتى العام 1882 حينما ظهر كتاب (أطلنطس.. العالم الموغل في القدم)، كتبه أمريكي عضو سابق في الكونجرس اسمه (إجناتيوس دونلي).. وقد ملأ الكتاب بالهراء على غرار أن أطلنطس كانت مكان جنة عدن!.. وإن أهلها أول من ابتكر الحروف الأبجدية. بل زعم أن ملوك أطلنطس هم الذين اتخذتهم الشعوب القديمة آلهة. وما زال بعض الناس يعتقدون أن الإنسانية بلغت الكمال في ذلك العهد ثم انحدرت إلى ما نحن فيه.

نصابة أخرى اسمها (هيلينا بلافاتسكي) أعلنت أن أهل أطلنطس جاءوا من قارة أخرى هي (ليموريا).. وزعمت أنها عرفت هذه المعلومات من كتاب مخفي في التبت اسمه (كتاب ديزان).

مؤخرًا أعلن خبير روحاني اسمه (إدجار كليس) أنه دخل السجلات الأكاشية وزار أطلنطس.. وقال: إنها انهارت بسبب انفجار ذري، وحدد موقعها قرب جزر البهاما.

أغلب الظن أن أطلنطس كانت في المحيط الأطلنطي فعلًا. قال أفلاطون: إنها كانت موجودة في المحيط الأطلنطي غربي أعمدة هرقل.. بلغتنا الحالية نقول إنّه كان يتكلم عن مضيق جبل طارق.. أنت تعرف أن الإغريق كانوا يعتقدون أن قبضة هرقل صنعت ثقوبًا في الجبال في هذه النقطة بالذات..

على الجانب الآخر، هناك من يلاحظون كيف أن الهنود الحمر يشبهون الهنود في آسيا.. من ثم يعتقدون أنها هجرة تمت عبر البر.. وأن أطلنطس كانت هي الجسر الذي تم بوساطته هذا العبور.. وهذا يعني أنها كانت في المحيط الهادي!

آخرون يعتقدون أن (أعمدة هرقل) التي وصفها (أفلاطون) لم تكن إلا مضيق البوسفور أو مضيق سردينيا.. هذا يجعل مكان أطلنطس في تركيا أو سردينيا.. هناك رجل متحمس تملا آراؤه الإنترنت متأكد من أن أطلنطس كانت في (بوليفيا)!

باختصار:

هل هي موجودة فعلًا؟

إن كانت موجودة فأين هي؟

لماذا فنت؟

- 3 -

في في فو فام!

✷ ✷ ✷

قلت للحسناء يوهانا:

- «حتى لو وجدت أطلنطس فعلًا، فمن قال إن أهلها بيننا أو أحياء؟ قيل إن سكان القارة فروا إلى غرب أوروبا، لكن لا يمكن البرهنة على هذا...»

قالت وقد اتسعت عيناها الساحرتان:

- «لا تصدق إذن؟»

- «لو صدقت الفتاة كل رجل يقول لها إنِّه من أطلنطس فلن يبقي عندها وقت كاف لأي شيء آخر!...»

- «وتلك الظواهر الغريبة؟.. أنا لست حمقاء...»

- «هناك أشخاص يمتازون عن سواهم.. رأيت من يأكل نصف ثور، أو يجر شاحنة بأسنانه أو يأكل الزجاج... لا شك أن حبيبك هذا مختلف لكن من قال إنِّه من أطلنطس؟»

ظلت تنظر لي في عناد، فقلت لها:

- «اسمعي.. لابد أن أقابله...»

- «وهل تعتقد أنه سيتكلم معك بهذه البساطة؟.. المفترض أصلًا أنني لم أقل لك حرفًا...»

هذا صحيح.. لن أقابله لأسأله: مساء الخير يا سيد؟.. فتاتك قالت إنك من أطلنطس فهل هذا صحيح؟ وأتوقع أن يضحك ويقول: فعلًا. جميل أن أعرف أنك عرفت قصتي إلخ..

لكني قدرت أنه من أصعب الأمور في العالم أن تحكم على رجل إن كان جاء من أطلنطس أم لا من دون أن تقابله..

✷ ✷ ✷

كان دامع العينين وهو يجلس جوار المدفأة يتأمل اللهب ابتلع ريقه وضغط أكثر على كوب الشراب الدافئ بين أنامله وقال:

- «هناك أشياء لا يمكن أن تلمى بها أو تفهميها.. لن أحدثك عن حضارة أطلنطس ولا تقدمها، تلك اللمحة التي وصلتكم بشكل ما عبر كتابات الأقدمين.. هذا شيء يصعب فهمه. لاحظي أننا نتكلم عن تسعة قرون قبل الميلاد تقريبًا.. لكن التقدم العلمي كان يحمل معه عيوبه الكامنة.. لقد استطاع ذلك المجتمع أن يدمّر نفسه. بدأت الزلازل والصدوع وأدركنا أن القارة ستزول عما قريب. هنا خطر لعلماء القارة أن يستخدموا علمهم المتقدم في فتح عالم مواز لهذا العالم.. عالم فر له الجميع، قال بعض المؤرخين إن قوم أطلنطس نزحوا إلى غرب أوروبا، والحقيقة هي أن مدخلنا الرئيس يقع في شمال أوروبا حيث ما تدعونه (أسكندنافيا)، ولهذا نتكلم لغتكم.. بل إن أسماءنا قريبة منكم جدًّا. وهكذا عندما فنت أطلنطس للأبد وغابت تحت أعماق المحيط، كنا نحن قد صرنا في أطلنطس أخرى في عالم لا ترونه أنتم.. يشبه الأمر الزجاج المطلي من جهة واحدة. أنتم ترونه سطح مرآة أمّا نحن فنراه زجاجًا شفافًا هكذا نتابع حياتكم بالكامل وأنتم لا تشعرون بنا ونجيد لغتكم.. عدة أجيال عاشت وترعرعت وماتت بهذا الشكل.. لقد فنت أطلنطس لكن أهل أطلنطس لم يفنوا....»

نظرت له عاجزة عن معرفة ما تصدقه وما تنكره.. الأسهل أن تنكر كل شيء... وهل يتوقع منها أن تهز رأسًا موافقة؟

قالت له في حذر:

- «أمثالك ممن يقولون هذا نائمون الآن في المصحات العقليّة حول العالم..»

هزّ رأسه وابتسم كمن اعتاد هذه الشكوك..

بعد قليل أردف:

- «اللصان اللذان اقتحما شقتك هاربان من أطلنطس.. وجدا فجوة جاهزة سهلة فاجتازاها، وتصادف أن كانت الفجوة في شقتك. وكان عليَّ أن أعبّر خلفهما وأظفر بهما قبل أن يفتكا بك إن لنا قدرات جسدية هائلة اكتسبناها مع الوقت.. أنت رأيت بعضها.. كما رأيت أن الشقة كانت مغلقة بإحكام، فكيف دخلنا إن لم يكن عن طريق الفجوة؟، والفجوة تخرج من لجين مرآة على فكرة..»

في خبث تساءلت:

- «لم تقاتلوا سوى بالمدى والعصي. يصعب عليَّ أن أتخيّل أمة بلغت التقدم الذي تصفه وتحارب بهذه البساطة. توقعت شيئًا كمسدسات الليزر أو بنادق أشعة كونيّة..»

- «لا يمكن عبور الفجوة بأسلحة متقدمة..»

نظرت له في عينه وقالت:

- «ولماذا لم تعبر الفجوة عائدًا؟»

رفع خصلات شعره المبتلة عن عينه وقال:

- «لأنهّا انغلقت من خلفي ولا أستطيع فتحها لأعود.. أليس هذا واضحًا؟.. أمّا السبب الثاني فهو أنني وقعت في الحب...»

✷ ✷ ✷

«هكذا ينتهي العالم.. ليس بالانفجارات بل بالأنين..»

ت. س. إليوت

✷ ✷ ✷

حكى لها الكثير عن أطلنطس الجديدة.. صار بوسعها أن تري كل دقائق ذلك العالم. ترى الميادين الواسعة التي تتوسطها تماثيل عملاقة.. ترى الجسور العلوية المحيطة بالتماثيل، وترى النار العملاقة المشتعلة ليل نهار في ساحة المدينة الرئيسة. ترى قنوات الماء في الشوارع، وترى موكب زوارق الكهنة التي تعبر النهر عند الغروب. ينثرون على الناس أزهار الزيثرا التي تشبه الفراشة..

إن أطلنطس قارة تقارب الصين من ناحية المساحة، وبالتالي ليست كبيرة جدًّا كقارة.. هذا العالم الخلاب يوجد معنا في نفس المكان والزمان، لكن له بعدًا آخر.. يصعب تخيل هذا، لكن تذكر أن إذاعة لندن وإذاعة صوت العرب موجودتان في نفس الحيز الأثيري.. فقط لكل منهما تردد مختلف..

حكى لها عن الأهازيج الليلية وعن موكب الحاكم، وعن سباق العشاق بين أشجار الماتادو... كل من يمسك بفتاة هي له زوجة، بشرط أن تقدم له زهرة زيثرا...

حكى لها عن الأمراض التي قهروها والتقدم الذي بلغوه..

ولكن الحنين ما زال يراود هؤلاء القوم لقارتهم التي ضاعت، وما زالوا يهبطون إلى قاع المحيط ليشاهدوا الأطلال الحبيبة..

- «هناك أناس في هذا العالم جاءوا من أطلنطس الجديدة لا يُمكنك أن تعرفيهم لأنّهم اندمجوا فيمن حولهم، لكن لو دققت النظر لوجدت أنهم أقوى ممن عداهم.. أذكى ممن عداهم أجمل ممن عداهم عندها سوف ينتابك الشك..»

قال لها وهو يتأمل وجهها الصبوح:

- «أحيانًا أحسبك جئت من هناك ونسيت ذلك.. لقد فقدت الذاكرة.. لكنك تنتمين لعالمي..»

وكانت الدعوة.. سوف يجد الفجوة من جديد وسوف يفتحها ويعبر. وقتها يريد منها أن ترحل معه.. سوف يتم هذا قريبًا جدًّا.. يجب أن تتخذ قرارها بسرعة..

في يوم بارد غائم دعتني إلى شقتها..

لم يكن هياليمار هناك لأنّه كان يتسوق. قالت لي إنّه عائد بعد ساعة...

اتفقنا على أني صديق مصري، ولا أعرف شيئًا عن الموضوع سوف أسأله بعض الأسئلة وأحاول أن أتصور الحقيقة.. للأسف هو لا يتكلم الإنجليزية وأنا لا أتكلم السويدية لكنّها ستحاول أن تنقل كلامنا لبعض..

هو بيت جميل صغير في الضواحي، يحوي الكثير من الجمال لكنه كذلك يحوي الكثير من الوحشة والرهبة. لا أحب كثيرًا أن أمضي ليلتي في مكان كهذا..

قالت لي وهي تنزع معطفها:

- «سأعد لك شرابًا.. يُمكنك أن تجلس وتستريح..»

- «أريد بعض الشاي.. الكثير من الشاي..»

ورحت أفرك أناملي المتجمدة.. ثم سألتها عن مكان الحمام فأشارت إلى ركن من الشقة..

دخلت وأغلقت الباب الزجاجي المصنفر على نفسي، ورحت أتأمل المغطس.. هنا كان نائمًا ثم سقط رأسه تحت الماء فلم يمت. هناك صيدلية صغيرة ذات مرآة.. الطراز الذي تغلقه لتجد مسخًا يقف خلفك في أفلام الرعب المعتادة. فتحت الصيدلية ورحت أعبث.. هنا حشد ممتاز من العقاقير النفسية.. مزيلات اكتئاب. كلوربرومازين.. مشتقات البنزوديازين..

هذه صيدلية جديرة بمصحة نفسية.. الفتاة مخبولة حتمًا إنها تتلقى علاجًا عنيفًا..

أغلقت الصيدلية حائرًا.. عندما خرجت من الحمام تلصصت قليلًا على المنزل.. هناك نافذة صغيرة تطل على حديقة خلفيّة يغطيها الثلج. هناك باب غير مغلق يؤدي إلى قبو... هناك باب

خلفي يمكن فتحه بسهولة.... من قال إن هذا البيت محصن؟ أي شخص يمكنه الدخول في رأيي..

عدت لغرفة الجلوس الدافئة لشرب الشاي الساخن، وتظاهرت بأنني لم أفتش مسكن الفتاة جيدًا..

أسئلة عديدة في ذهني.. الفتاة تعاني أمراضًا نفسية. هذا واضح.. صحيح أنها متماسكة ويمكن أن تخدعك، لكن من يتعاطى هذه الأدوية سواها؟ لاحظ أنها ممرضة وقادرة على الحصول على هذه العقاقير..

من الممكن كذلك أن يكون الفتى هو من يتعاطى هذه الأدوية ما دام يقيم في الدار معها...

الاحتمال الأول: الفتاة مخبولة والرجل لا وجود له، أو هو موجود لكنّها لفقت قصة أطلنطس هذه.. ربما لأنهّا منبهرة به..

الاحتمال الثاني: الرجل كاذب أو مخبول.. لاحظ أن التسلل للبيت ممكن.. أنا نفسي أستطيع التسلل في أي وقت للداخل برغم افتقاري للياقة. إذن هي تهذي بصدد كون البيت محصنًا وهؤلاء نبتوا من الداخل. ربما هو أنقذها من اللصين فعلًا أو كانت كل هذه لعبة مدبرة..

إن رأسي يوشك على الانفجار..

لكن الاحتمال الأول قد ألغي أو ألغي نصفه.. الفتى جاء بالفعل في هذه اللحظة عائدًا من جولته.. دخل البيت ليجدني.. إذن هو موجود. مبللًا والثلج يغطى كتفي سترته وقلنسوته وكيس المشتروات في يده، ينزع قفازيه لاهثًا وهو ينظر لي في دهشة. وسيم فعلًا قوي البنية، لكنه وسيم على الطريقة السويدية.. أي أنه أشقر شاحب بارد كالثلج كتماثيل المتاجر.

- «جود نات. فم ايي دييو؟»

- «جود نات..»

هنا كانت الفتاة قد ظهرت فاحتضنته ودفنت رأسها في صدره وتبادلا بعض الكلام باللغة السويدية. بدا لي منظرهما أسطوريًا كأنهما محارب فايكنج وحبيبته على ظهر سفينة. برغم هذا لم أعد أتحمل أكثر.. لا أطيق من يفترض فيّ الغباء..

قلت لها:

- «أرجو أن تنقل له كلماتي.. أنا لا أصدق حرفًا مما حكاه لك. المنزل مليء بالمنافذ التي يمكن اختراقها... هذا الفتى يعبث بك أو أنت تكذبين بصدد خرافة أطلنطس...»

نظرت لي في حيرة ولم تترجم.. لكن الفتى التقط كلمة مريبة في كلامي.. فعاد يردد:

- «أطلنطس؟ أطلنطس؟»

ثم نظر لها ودارت محادثة غاضبة. أمسك بكتفيها وراح يهزهما بقوّة.. المعنى واضح كما أعتقد: من هذا الحيوان الأصلع وكيف حكيت له ما دار بيننا؟.. ثم عاد ينظر لي في مقت..

قالت الفتاة باكية:

- «يقول إن الرجلين قاتلان من أطلنطس....»

هناك ثغرات عندي.. مثلًا كيف يداوي جرح قدمه الذي أحدثته السكين؟... لو كانت قصة الفتاة صحيحة، فهو خبير في خداع البصر أو أنا لا أملك أي تفسير.. قلت من جديد:

- «وأدوية الاكتئاب والشيزوفرنيا في الصيدلية الكلوربرومازين والديازبين... هل هي لك أم له؟»

- «هي له.. إنّه مضطرب نفسيًا منذ جاء لعالمنا..»

من جديد التقط اللفظتين الغريبتين فنظر لي ولها واتسعت عيناه.. واضح أنها أخبرتني بكل شيء لقد صار وجهه نموذجًا للمقت والصدمة والاشمئزاز...

راح يردد وهو يتراجع للخلف:

- «أنترين إيي كلار.. أنترين إيي كلار...»

لم أفهم.. في اللحظة التالية اندفع إلى الحمام بسرعة البرق وأغلق الباب خلفه. قالت لي الفتاة:

- «قال إن المدخل صار مفتوحًا.. أي مدخل؟؟؟..»

هنا سمعنا صوتًا (فلام!) يشبه صوت انفجار فرن البوتاجاز المعبق بالغاز عندما تقرب منه عود ثقاب.. ثم صوت (وووووش!) عاليًا جدًّا..

هرعنا إلى الحمام.. سبقتني هي وفتحت الباب.. ثم إنها استدارت لي في كره وانهالت على صدري ضربًا بقبضتيها وهي تردد في توحش ووسط الكثير من البصق والسباب:

- «أنا أكرهك!... ليتني لم أر وجهك قط!»

أزحتها بصعوبة ودخلت الحمام.. لم يكن هناك شيء ولا أحد، سوى أن المرآة كانت محطمة.. لم يكن خلفها جدار صامت بل بدا كأنها تقود لنفق أو شيء مماثل.. أنترين إيي كلار.. لقد انفتح المدخل.. فهل قرر أنها لا تستحق أن ترحل معه؟

في الحوض وجدت شيئًا.. زهرة عجيبة تشبه الفراشة..

لقد تركها لها كذكرى أخيرة.. ترى ما كان اسم هذه الزهرة؟.. بصراحة قد نسيت...

- 1 -

لوس دوس سولادوس إخبسيوس استين إن لاس روناس..

✷ ✷ ✷

عندما هرعنا إلى الحمام في المستشفى، مادت الأرض تحت قدمي الواهنة أصلًا... هاتان قدمان لم تعودا صالحتين للركض للحمامات..

لقد كان الدم يلوث كل شيء.. يتناثر على الجدران.. يملأ المغطس.. وعلى الأرض تكوم جسد المعالج الروماني ذي الوجه الضخم..

لا أعتقد أنّ هناك نمرًا في الحمام، لكن هذا أقرب تفسير لما حدث..

لقد تم تمزيقه فعلًا وبقسوة شديدة..

تذكرت موقفًا مشابهًا منذ أعوام في طائرة تتجه للهلاك مدفوعة بسحر أغنية الموت...

لكن الروماني كان حيًّا... صرخت الممرضة وصرخت ماجي، بينما جثوت أنا جواره أحاول فهم ما حدث..

كان يشير إلى اتجاه ما... نحو حوض الغسيل..

لو أردت الدقة لقلت إنّه يشير إلى مرآة الحمام...

قلت له وأنا أبحث عن مكان يصلح لأضغط عليه لوقف النزف:

- «ماذا حدث لك يا أحمق؟»

قال بصوت مبحوح بسبب حنجرة تمزقت:

- «الفتى.. المراهق.. الفتى في الـ.... المرآة..»

هذه عادة المحتضرين.. الغموض... يُلمِّحون ولا يصرّحون. ربما لأنّهم مشغولون برؤى صاخبة لا تسمح لهم بالكلام بالتفصيل. هنا كان الصراخ قد جلب الممرضات، وصرخن بدورهن، ثم جاء عمال ورجال أمن ليصرخوا.. الكل يصرخ.. لسبب ما يصرخ الناس عندما يرون جثة ممزقة إلى أشلاء..

برزت محفة من مكان ما، لكني كنت أنظر لعين الروماني العين الثابتة الشاخصة وحركة الصدر الميكانيكية التي تشي بأن مركز اللهاث صار هو المسيطر على التنفس..

إنه يموت أو مات... هذه لحظة اللاعودة...

كنت أرتجف انفعالًا..

وجذبتني ماجي جذبًا إلى الفراش، ورفعت قدمي وشدت منهما الخف... فأرحت رأسي للخلف وأنا أحاول أن أعيد لقلبي ضرباته السليمة..

لو لم أهدأ فلسوف ألحق بالرجل. لن يشعر بالوحدة في رحلته....

سوف أعفيك من التفاصيل المملة بصدد قدوم الشرطة والتحقيق.. الملاءة المغطاة بالدم على المحفة والكل يتجنب النظر. ومحاولة الفهم... لا أحد يعرف ما حدث فعلًا ولا يمكن توجيه التهمة لنا أننا قد مزقنا الرجل بأنيابنا.

بالفعل كانت هذه الجراح ناجمة عن أسنان.. أسنان من؟

مرت اللحظات ثقيلة... وفي النهاية جاءت مشرفة التمريض تخبرنا أنها ستنقلني من الغرفة. الغرفة التي تمزق فيها معالج روماني ليست أفضل حجرة لمريض سرطان.. أنت تدرك هذا.. هذه أمور تتعلق باللياقة والفهم المشترك.

طلبت من ماجي أن تنتظر..

نهضت مترنحًا إلى الحمام الذي تحول منذ ساعة إلى غرفة في قسم الأزبكية.. فوضى وأعقاب سجائر ومسحوق بصمات ودخان تبغ في الجو...

سألتني عما أريد فقلت لها في دهشة:

- «منذ متى تم تحريم التبول؟»

كانت الدماء تلطخ كل شيء.. ليس المشهد محببًا.. آثار مذبحة. يمكن أن أتذكر صوت الرجل ونظرته العميقة الفاحصة كما كانت منذ ساعتين..

هناك صيدلية صغيرة جوار المرأة فتحتها في حذر ومددت يدي إلى القاع حيث الرف السفلي، تحت مجموعة من المطهرات، وأخرجت لفافة الكتاب..

لقد حان الوقت كي تعود للالتصاق بجسدي..

لقد كنت صادقًا عندما أردت أن أمنحه له، لكن شيئًا حدث شيئًا مروعًا لا يمكن فهمه...

هناك شيء خرج من المرأة وانقض عليه. هذا على الأقل ما يمكن استنتاجه من كلمات الاحتضار الأخيرة... ما هو هذا الشيء؟

صبي مراهق؟

من هو؟

هل هو من جانب النجوم؟... هل هو شيطان؟.. الشيء الذي يخرج من المرآة لا يمكن أن يكون شيئًا آخر...

غادرت الحمام وأنا أتحسس الكتاب الذي أعدت تثبيته إلى جسدي.. قالت لي ماجي:

- «هل ترى أن ننتقل الآن؟»

بالتأكيد همست وهي تتأبط ذراعي:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «هل ستكون لي للأبد؟»

كدت أقول لها (حتى تحترق النجوم) ثم وجدتها كذبة لا داعي لها.. سوف أكون لها إلى أن أموت.. بالمناسبة.. ألم أشف؟... أم أن وفاة الروماني أدت لعودة السرطان؟

✷ ✷ ✷

صبوا لنا بعض الدم المختمر، ولتسمعونا صرخات المعذبين في أقبية (هيدز)... ولترقص الجثث المتحللة في انتشاء.. إن لوسيفر والحق يُقال راض...

✷ ✷ ✷

- «أوه إنّه الصداع.. الصداع اللعين.. بحق (أبراكساس).. خطر لي أن المرء سعيد الطالع إذ يكون في الغرفة المجاورة له بروفسور في الطب»

✷ ✷ ✷

انتهى د. منصور أستاذ جراحات الأنف والأذن والحنجرة من فحصي. تفقد الأشعات والفحوص.. له وجه مذعور يشعرك بأنك ضائع لا محالة، لكني أعرف أنه بارع حقًّا... سأضيع لكن بشكل علمي راق متحضر..

قال لي وهو يهز رأسه:

- «الورم موجود يا دكتور رفعت.. وكذلك الثانويات لماذا اعتقدت أنك تتحسن؟»

لم أكن قد أخبرته قط بموضوع المعالج الروماني.. أعني أنه يعرف قصة ضيف روماني مات بطريقة غامضة في حمام غرفتي لكنه لا يعرف تفاصيل أخرى.. لذا أظهرت الدهشة وقلت:

- «لكني أشعر أنني أفضل..»

- «للحالة النفسية دور في ذلك.. هناك أيام سوف تشعر بأنك أفضل.. لا شك في هذا..»

يريد القول إن حالتي سيئة جدًّا، لكن لا بأس ببعض التفاؤل..

كانت علامات استفهام عديدة تحوم حولي.. خاصة بعد حادث المعالج الروماني، وتهامست الممرضات أنني ممسوس أو أن لي علاقة بالشياطين. فليعتقدن ما يردن.. الحقيقة أن كلامهن لا يخلو من بعض الحقيقة. واحد على علاقة بلوسيفر وأبراكساس ونوسفيراتو.. من قال إنّه ليس على علاقة بالشياطين؟

قامت الممرضة بتركيب المحلول في ساعدي، فرقدت على الفراش أنظر للسقف.. الكشاف النيون الأنيق.. لقد خدعني الروماني إذن كانت هذه ألعاب حواة مما دأب المعالجون الروحانيون على ممارستها. منذ أعوام جاء لمصر معالج فلبيني استأصل المرارة بدون جراحة لعشرات المصريين.. وكان يعطي المريض مرارته في قطعة قطن. لما عاد لبلاده بعد ذلك عاودت آلام المرارة كل مرضاه، واكتشفوا جميعًا أن المرارة موجودة. كان هذا في عصر ما قبل الأشعة التلفزيونية طبعًا لذا كان البحث عن المرارة صعبًا، ولهذا تأخر الاكتشاف طويلًا إلى أن فر النصاب.

خدعني الروماني..

لم تكن هناك أوراق في كمه، ومعنى هذا أنني كنت سأقدم له الكتاب مجانًا.. كنت سأمنحه قوة هائلة وقدرة على الشر لا حد لها ومن الجلي أنه تلقى عقابًا قاسيًا على هذه اللعبة التي مارسها، مهما بلغت خصوبة خيالك فأنت لا تتخيل أبدًا أن يخرج شيء من المرآة ليمزقك...

من الذي قتله إذن؟... معنى هذا أن القاتل أنقذ الكتاب من الضياع..

هل لي ملاك حارس؟....

كان المحلول يسري في عروقي، وأعتقد أن الممرضة حقنتني كذلك ببعض الميدازولام.. صرت أحب هذه اللحظات فعلًا عندما يذهب الألم العقلي والجسدي.. هناك وحشان يلتهمان أعصابي: السرطان الشرس.. ووحش الأفكار والقلق... أريد بعض الراحة. الموت سوف يريحني من الوحشين على ما أعتقد لكني مذعور برغم ذلك..

هل الموت شبيه بهذا؟ النعاس... الجفنان الثقيلان.. الـ....

بالفعل..

لهذا لم أستطع أن أقضي على الممسات التي تحاول الظفر بي..

هويت على أكثرها بالبلطة وقطعت العديد منها، كأنني هركيول وهو يحارب الهيدرا... لكن ذلك الشيء المرعب الفائر كان يلتف حول القلعة وينفث السم والدماء والصديد.. هذا هو السرطان.. لا شك في هذا..

ووش ش ش! القلعة هي أنا وقد عجزت عن الفرار..

الأرض تميد تحت قدمي. هذا عالم موازٍ، فهل الموت فيه يعني أنني ميت؟، وهل يمكن الموت فيه أصلًا؟

ولو كان هذا عالمًا موازيًا، فأين الأحلام المنسية وقصص الحب المنهزمة والذكريات الضائعة؟

أين وجوه من غابوا عنا؟ وأين قدراتي التي فقدتها؟ أين ضحكاتي ودموعي فيما سبق؟

كان هذا الشيء يوشك على التهامي..

الأرض تميد بي أكثر.. هل من قاع في هذا العالم؟ هل تمس قدماي شيئًا أم هي الهاوية اللانهائية؟ اللانهاية مفزعة أبدًا بالنسبة لعقولنا الواهنة. كيف يمتد الكون إلى ما لا نهاية؟ كيف تمتد بنا الحياة في العالم الآخر إلى ما لا نهاية؟ كل هذا مرعب.. أملي الوحيد أن أتوقف عن السقوط أو أموت..

ثم شعرت بذلك الشيء يتدلى إلى جواري.. حبل أتعلق به أو....

تمسكت به.. تمسكت بقوّة.. ورفعت رأسي بحثًا عن يمد لي يد العون هذه فلم أتبينه لأن الظلام كان يغمر هذا الجزء من مجال الرؤية...

- «تشبث أو مت...»

ولكن من أنت؟

- «تشبث أو مت...»

أنا أشتهي الموت، لكن هل هو موت حقًّا أم سقوط يستمر للأبد؟

- «تشبث أو مت...»

أتشبث.. أتشبث وأرتفع.... أحلق...

فوق الممسات الشرسة النهمة أحلق..

فوق الأرض التي تذوب أحلق...

يمكنني أن أفهم هذا الذي أتمسك به.. أقرب إلى حرام صوفي أو (تلفيعة) من التي كنا نضعها حول أعناقنا في القرية..

في النهاية وجدت نفسي راقدًا وسط ذيول القطط المتأرجحة.. القلعة قد التهمها الكائن بالكامل تقريبًا لكنه لم يعد يهتم بي..

من الذي ينقذني في هذا العالم؟

رفعت رأسي فوجدت السماء تسيل بسائل أزرق غريب يبللني ويبلل خلاياي... سائل لزج بارد مقيت.. كأنها لوحة زيتية تسيل..

كان يقف هناك في مكان من هذا المشهد.. أرى شبحه وأسمع صوته...

ليس لوسيفر.. أنا أعرف قامة الأخير وصوته.. أعرف حضوره الأسود القاتم...

من أنت؟

كان هذا هو اللقاء... اللقاء الأخطر والأهم والأخير في حياتي....

- 1 -

اخرج يا من تأتي في الظلام وتدخل خلسة. هل أتيت لتقبل هذا الطفل؟؟ لن أسمح لك. هل أتيت لتأخذه؟ لن أسمح لك بأخذه مني..

✷ ✷ ✷

ومن جديد تحملني موجات الذكريات إلى شط آخر..

أنا ريشة تحملها الأنواء من موضع لموضع، ولا إرادة لي هكذا أطير حول (عادل مينا) عدة دوائر ثم أبتعد ثم أقترب من جديد...

لابد أنّ هذا كان في أوائل الثمانينيات. كنت في مكتبي بالكلية أراجع رسالة ماجستير ما، وكان رأفت صديقي جالسًا يمتص كوبًا من الشاي.. عندما انفتح الباب وظهر ذلك الرجل..

كان عادل أقرب للوسامة والأرستقراطية.. لكني أدركت من الشعر الساقط على وجهه ورجفة زاوية فمه، ومن عينيه المتسعتين.. أدركت أنه تحت وطأة تهديد مرعب... هذا رجل يطارده الموت أو هو يتخيل هذا..

- «د. رفعت إسماعيل؟»

- «بالطبع.. ولكن اهدأ قليلًا بالله عليك..»

جلس على أول مقعد وراح يجفف عرقه وقال:

- «أنا عادل مينا.. مهندس.....»

- «تشرفنا.. لكن هذا ليس سببًا كافيًا للقلق... لي صديق مهندس مثلك لكنه ليس قلقًا لهذا الحد. أعرف مهندسين كثيرين غير قلقين..»

تنهد في عمق وقال:

- «قيل لي إنك قادر على حل مشكلتي؟»

استندت بذقني إلى قبضتي وتساءلت:

- «هل أنت مصاب بفقر دم متقدم؟ هل تنزف من أنفك بلا سبب؟»

- «لا.. أريد الجانب الثاني منك.. جانب ما وراء الطبيعة.. الميتافيزيقي..»

هذا غريب.. هناك حالات من أمراض الدم تجعل المريض يبدو مذعورًا فعلًا.

أجلسته وطلبت منه أن يتكلم.. أشعل لفافة تبغ وانتظر حتى بدأت رجفة يده تزول، ثم قال:

- «أنا محكوم عليَّ بالموت.. لا شك في هذا..»

✷ ✷ ✷

قال عادل:

منذ أعوام كان مكتبي الهندسي ناجحًا فعلًا.. كان لدي هامش من الربح يتيح لي رؤية العالم، وبالفعل خصصت مبلغًا سنويًا لأرى بلدين أو ثلاثة لم أرهما من قبل..

لم أكن قد رأيت البرازيل، ولهذا ذهبت لها في ذلك الصيف.. منذ عام..

البرازيل بلد غريب فيه تنوع عرقي مذهل، وعندما ترمق الفتيات فأنت تشعر للحظات أنهن زنجيات وللحظات أنهن هنديات وللحظات أنهن برتغاليات شقراوات.. كل شيء غريب هناك بالفعل هذا بلد يحوي كل ألوان الببغاء المبهرجة..

كنت في رحلة سياحية أتعرف معالم البلاد الساحرة، وكنت في الخامسة والثلاثين من عمري.. لم ألمس امرأة قط ولم تكن لديَّ علاقات عاطفيّة.

هنا اكتشفت باولا.. بركان الأنوثة الحارق رائع الجمال..

لا أحد يصمد أمام باولا الجميلة المفعمة بالحيوية، خاصة أنها تعتقد أن جميع الرجال وسيمون أقوياء جديرون بالحبّ. لم تكن تجد غضاضة في الحب الجسدي أو القبلات الحارة، وكانت سمراء لها طابع شبه أفريقي.. بالفعل عرفت أنها من جالية تدعى (لوكيمي) وهم قادمون من أفريقيا أصلًا..

مع باولا رأيت البرازيل كما لم يرها أحد من قبل... لا أعتقد أن مصريًّا رأى كل هذا الذي رأيته في البرازيل.. لقد تحوّل هذا البلد الساحر إلى فتاة سمراء تحبني، وظل قلبي يخفق كلما سمعت حرفًا من حروف اسم البرازيل مثلما يقول قيس بن الملوح:

أُحِبُّ مِنَ الأَسماءِ مَا وافَقَ اسمهَا أو أشبَهَهُ أو كانَ مِنهُ مُدانِيَا

هنا تدخلت - أنا رفعت إسماعيل - في الكلام وقد تغلبت عليَّ غدة السخرية التي لا أجد منها فرارًا:

- «إذن أنت تحب لفظة (البراز).. معظم حروف (البرازيل) فيها..»

ثم اعتذرت بشدة.. لقد كان هذا أقوى مني. واصل عادل السرد بعد ما شفي من امتقاع وجهه:

- «عشت قصة حب ممتازة.. وطلبت منها أن تعود معي إلى مصر...»

لم يكن أهل الفتاة في مثل جمالها ولطفها، وقد اعتبروا أن زواجها من جنسيّة أخرى إهانة لهم.. هم عنصريون جدًّا يشعرون بأنهم طبقة متميزة..

مع الوقت حاصروها.. صارت عصفورًا حبيسًا في شباكهم. الفتاة في البرازيل تملك قسطًا مرعبًا من الحرية، ولعمري تلك من المشاكل التي كنت أتوقعها في مصر.. كيف أضع هذه الفتاة في أصفاد المجتمع الشرقي، وكيف أجعلها تلبس شيئًا؟ المرأة هنا فخور بأنوثتها ترى أنها يجب أن تعرضها طيلة الوقت.. تخرج وترقص في أي وقت وكل وقت....

أقول هذا بغرض توضيح أن حياة الفتاة صارت جحيمًا لما حوصرت...

كانت لها أم تبدو كساحرة عجوز، وأب هو شيخ مسن عصبي ضيق الخلق.. تراه جالسًا في حديقة البيت ممسكًا بخرطوم الماء يسقى به النباتات، وهو يلبس الشورت والفانلة الداخلية، فتقشعر لفكرة أنّ هذا حموك.. الأسرة غير مشجعة على الإطلاق ولا أعرف سبب هذا الغرور العنصري لديهم أعتقد أنني سأضيف شرفًا لهذه الأسرة بلا شك..

في النهاية أدركت أن قصة الحب هذه مستحيلة..

أرسلت لها خطابًا بالبرتغالية التي بدأت أتقنها.. قلت لها إن قصة الحب هذه بلا جدوى. أرجو أن تنساني وأن تتمكّن من أن تحيا حياة عادية...

بعد يومين من إرسال الخطاب فوجئت بالصبي (راموس) الذي كان يلعب دور مرسال الغرام بيننا، يركض للفندق الذي أقيم فيه.. يطلب لقائي..

عندما نزلت لألقاه كان دامع العينين شاحب الوجه يتدلى خيط مخاط طويل من أنفه..

قال لي وهو يولول إن الآنسة باولا قد ماتت..

كيف ماتت؟..

وجدوها في الحمام وقد قطعت شرايين معصمها...

- 2 -

والآن انبطحي.. لا تنسى يا سيدتي أن تنبطحي..!

✷ ✷ ✷

قال عادل:

عندما ذهبت إلى الجنازة رأيت الأسرة كلها واقفة هناك مطرقة.. الكل يلبس الأسود.. الجثة الحبيبة ممددة على منضدة وقد أغمضت عينيها للأبد... ورأيت معصمها مربوطًا..

كانت هذه حديقة الأسرة وقد دنا وقت الغروب، وتضوع الهواء برائحة حزينة من أكمام الزهر. وقد وقف صف من الرجال يهومون بنغمة حزينة خفيضة.. الحق أن الجو لم يكن مسيحيًّا.. لم يكن مسيحيًّا على الإطلاق، بل هناك طابع وثني واضح..

لربما رقصوا حول الجثة.. لربما أحرقوها بعد انتهاء هذه الطقوس..

دنوت من الجثة لألثم جبينها وأنا لا أتمالك نفسي من البكاء، لكن يدًا مخلبية أوقفتني رفعت وجهي لأرى الأم منكوشة الشعر جاحظة العينين ترمقني كأنني أفعى سامة..

وراحت تردد وهي تشير لخارج الحديقة:

- «ديشا-لا!!.... ارحل!.. ديشا-لا!!...»

تراجعت ببطء متظاهرًا بأنني لم أفهم أنها تطردني.. كانت تتكلم بعصبية وبسرعة بحيث لم تعد لغتي البرتغالية الضعيفة تسمح لي بالفهم.. فقط على باب الحديقة قالت وهي ترسم في الهواء علامة معقدة لا أفهمها:

- «سوف تموت ميتة بشعة في أولوبا.. عام من الآن!!»

- «ستلحق بباولا!»

فررت من الساحرة العجوز وأنا أرتجف.. بالفعل هي ساحرة عجوز.. لم يخالجني أي شك في أن تهديدها صادق. لا أعني أن ما قالته سيتم، لكن أعني أن كرهها حقيقي وخطر..

بالنسبة لها أنا من حرمها من ابنتها الرائعة..

لا داعي لأن أقول إنني أنهيت كل ارتباط لي في البرازيل وفررت بجلدي. عدت لمصر وحاولت أن أبدأ حياتي من جديد..

شعور غريب مضن أن تعرف أنّ هناك من يمقتك بجنون في الجانب الآخر من العالم..

✷ ✷ ✷

قلت للمهندس المذعور وأنا أدون بعض بيانات قصته:

- «بالطبع أنت جئت الآن لأن موعد انتقامها قد حان.. قالت (بعد سنة) منذ سنة.. إذن فقد حان الحين..»

هزّ رأسه في رعب، ثم أضاف:

- «على فكرة.. لقد كانت باولا تحتفظ بقميص لي... قالت إنّه يذكرها بي..»

حككت صلعتي مفكرًا ثم قلت:

- «هذه فكرة سيئة.. أنت تعرف سحر الاقتران.. لدى المرأة كل ما يلزم كي تصنع لك دمية فتيش أو أي طقس آخر يؤذيك..»

أضاف راجفًا وهو يحاول اقتناص لفافة تبغ أخرى باللهب:

- «الأسوأ أن لديَّ عملًا يقتضي السفر إلى المكسيك عما قريب... لا أعرف هل أذهب أم لا...»

تدخل صديقي د. رأفت في حماسة وقد سمع القصة كلها:

- «كل هذا سخف لكن لا أنصحك بالذهاب إلى المكسيك أنت بهذا تعود للبرازيل..»

قلت في غيظ:

- «المكسيك ليست في أمريكا الجنوبيّة.. كف عن الخلط الجغرافي يا رأفت...»

ثم قلت للمهندس:

- «سوف أتصل بك قريبًا.. لا تقلق.. اللعنات في كل مكان لكن قليلًا جدًّا منها ينجح.. معظم السحرة نصابون يتظاهرون بأنهم كذلك..»

✷ ✷ ✷

بعد يومين اتصلت بالمهندس عادل على الرقم الذي تركه لدي.. لما جاء صوته الملهوف قلت له:

- «أعتقد أن عليك أن تلغي رحلة المكسيك هذه...»

- «كنت أفكر في هذا لكن ما السبب؟»

ابتلعت ريقي وقلت:

- «بحثت في دائرة المعارف.. أولوبا محافظة صغيرة في جواتيمالا.. قريبة من المكسيك جدًّا.. هكذا تصير نبوءة المرأة منطقية ومفهومة. الموت ينتظرك في أولوبا.. من قال لها إنك ستكون هناك بعد عام؟.. بيني وبينك.. أعتقد أنه من الحكمة ألا تذهب..»

- «يا للهول!»

وشكرني مرارًا.. لو كان هذا التفسير صائبًا فأنا قد قدمت له خدمة العمر فعلًا. وضع السماعة ونمت راضيًا عن نفسي..

إلا أنه اتصل بي بعد يومين.. وفي موعد نومي كالعادة قال لي وهو يرتجف:

- «تصوّر أن الرعب أنساني تلك الرقيقة التي بخعت نفسها من أجلي... إن الإنسان مخلوق أناني فعلًا..»

قلت متظاهرًا بالحكمة:

- «بل هو عملي جدًّا.. لكنك لم تتصل بي لهذا الغرض كما أظن..»

قال لي:

- «هناك بالفعل أشياء غريبة.. هناك من يحوم حول مكتبي.. هناك من يراقب بيتي أمس كادت سيارة تدهمني.. إن أعصابي قد انتهت فعلًا...»

- «لحظة.. من الجائز أنّ هذه هستيريا بسبب الرعب..»

- «هستيريا لكنّها تقودني للجنون فعلًا.. لم أعد قادرًا على ممارسة حياتي وأنا أتوقع الذبح في أي لحظة..»

قلت له:

- «حاول أن تبتعد بعض الوقت.. لكن ليس لجواتيمالا لو سمحت..»

وضع السماعة.. وأعرف أنه لم ينم لحظة بعد هذا...

✷ ✷ ✷

لأنّه من النار تأتي النار، وإلى الدخان يصير الدخان، وفي الرماد يفني الرماد. تعال إليَّ يا دم دمائي وابن أبنائي.

✷ ✷ ✷

عندما عدت إلى مكتبي في الكلية بعد يومين، كنت مبعثر المظهر شاحب الوجه. وجدت د. رأفت منهمكًا في البحث في مرجع، فلمّا رآني هش وبش وطلب لي قدح قهوة، ثم قال:

- «ما هي أخبار ذلك الشاب الذي كان عندك منذ أيام؟»

تنهدت ونزعت سترة بذلتي وعلقتها على المشجب وقلت:

- «ماذا تتوقع؟ مات طبعًا.. احترق حيًّا..»

نظر لي في ذهول وتقلص فمه غير مصدق ما أقول.. وارتفع حاجباه في عدم تصديق، فقلت:

- «كانت النبوءة صادقة للأسف.. لقد شعر بالخطر في كل لحظة، وقرر أن يقضي اليوم الصعب الذي يكمل العام في قسم الشرطة. هناك في حماية الشرطة يمكن أن تمر اللحظات القاسية. لو كان هناك قاتل يبغي قتله فلن يستطيع أن يظفر به. افتعل مشاجرة وذهب لقسم الشرطة حيث تشاجر مع الضابط وشتمه، وهكذا برغم مهنته المحترمة لم يجد الضابط مفرًا من إبقائه في الحجز.. بدا له ذلك المهندس مصرًّا على السجن وعدوانيًّا جدًّا...»

قال رأفت في دهشة:

- «إذن كيف مات؟»

- «حدث ماس كهربي في الحجز.. اشتعل مصباح وامتد الشرر لبطانية صوفية ودكة خشبية.. حاول الكثيرون الهرب لكن النار تمسكت بعادل من دون سواه واحترق وهو يصرخ لأنّه كان يلتف بتلك البطانية.. حاولوا إنقاذه فلم يستطيعوا. آخر ما قاله قبل الاحتضار هو اسمي ورقم هاتفي، ولو لم يفعل لما فهمت سبب اختفائه إلى أن أقرأه في الصحف...»

تساءل رأفت:

- «والتفسير؟»

ارتشفت بعض القهوة وتلمظت.. لقد كان مذاقها جيدًا قويًا وقلت:

- «لقد صدقت النبوءة فعلًا.. الساحرة العجوز انتقمت لابنتها.. وما لم يخطر لنا هو أن أسرة الفتاة من جالية لوكومي المقيمة في البرازيل.. أي أنهم يستعملون الكثير من مصطلحات لغة (يوربا) المستخدمة في نيجيريا والكونغو...»

- «ومعنى هذا؟»

- «استعنت بصديق سيراليوني يقيم في القاهرة لأفهم.. أولوبا لفظة يوربية معناها (البوليس) أو (قسم الشرطة).. الأم أنذرته من أنّه سيموت ميتة بشعة في قسم شرطة! وهذا بالذات هو المكان الذي لجأ إليه طلبًا للاحتماء!».

- 1 -

- لِمَ انطفأ المصباح؟

- لقد أحطته بمعطفي، ليكون بمنجى من الريح،

ولهذا فقد انطفأ المصباح.

- لِمَ ذوت الزهرة؟

- لقد شددتها إلى قلبي، في شغف قلق

ولهذا فقد ذوت الزهرة.

- لِمَ نضب النهر؟

لقد وضعت سدًّا في مجراه لأفيد منه وحدي،

ولهذا فقد نضب النهر.

طاغور

✷ ✷ ✷

هناك جيتار عند قدمي..

جيتار في هذا العالم؟ لو عزفت عليه لماجت العواصف وزارت الدببة في الكهوف. هذا الجيتار يخفي الأبدية في أوتاره.. لا شك في هذا...

فئران في كل موضع.. فئران تحيط بي. فئران تثب فوق قدمي.. منتفشة مغطاة بالحراشف.. كريهة الرائحة.. أهوى عليها بالجيتار..

على قدر علمي أنا أول شخص في التاريخ يقتل الفئران بالجيتار..

وهناك وسط الأرض التي تذوب تحت قدمي رفعت رأسي....

رأيت ذلك الشخص معلقًا وسط الغيوم الصواعق والبروق.. لا أرى وجهه لكني أعرف أنه هناك.. مكبلًا كأنه بروميثيوس المعلق بين جبلين يتلقى العقاب على سرقة النار..

ليس لوسيفر.. أنا أعرف قامة الأخير وصوته.. أعرف حضوره الأسود القاتم...

من أنت؟

- «أبي!»

الكلمة تدوي كالصدى، وتتردد عبر السهوب.. يبصقها الثلج وأمواه المحيط...

- «أبي!»

أنا لست أبا أحد.. لماذا تناديني بهذا الاسم؟

- «أبي!»

أنت سمير... أنت الصبي الذي ظفرت به خلال أشهر ابن إليانور الساحرة أو بعبارة أخرى رونيل السوداء.. لقد كان لي ابن لعدة أيام ثم تلاشى...

بلاد القوط الشرقيين...

الرحلة في بحر البلطيق الرهيب الذي يقع بين (ألمانيا) و(فنلندا) و(الدنمارك) و(السويد) و(أستونيا) و(بولندا) بحر العواصف الذي لا يرفق بالسفن أبدًا.. تربطه قناة (القيصر فلهلم) ببحر الشمال الأسطوري..

بحر ثائر متوحش لا يمكن التنبؤ به مثل.. مثل (رونيل) السوداء..

الجزيرة. الجزيرة الى يتطير البحارة من ذكر اسمها...

هناك كنت مقيدًا.. وهناك كان سمير مقيدًا.. وهناك قيدت رونيل السوداء نفسها بالأصفاد وأحرقوها... لكن التعويذة كانت خطأ...

كانت تريد تحرير الساحر الشيطاني جيلبرت..

جيلبرت المكبل منذ قرون ينتظر لحظة الخلاص...

السحرة وعبدة الشيطان الذين اتخذوا شكل الفئران.. كانوا هم الذين يحيطون بي هناك وهنا...

سمير.. أين سمير؟

- «لن تجد إجابة.. ربما رحل مع هؤلاء القوم الفئران وربما هو سجين مع (جيلبرت).. لن تعرف أبدًا..»

- «أبي!»

- «سمير!.. هذا أنت!»

من الذي كان يظهر في المستشفى؟.. من الذي رأته الممرضة وتلاشى؟ من الذي مزّق المعالج الروماني...

- «سمير.. أنت حي!»

- «ليس بالضبط يا أبي.. إنني سجين في هذا العالم.. منذ فشلت محاولة تحرير جيلبرت صرت أنا وهو هنا.. مكبلين.. ظلي يسقط في عالم البشر ويمكنني أن أفعل أشياء كثيرة، لكني لن أغادر هنا أبدًا... سوف أبقى معلقًا إلى يوم الدينونة..»

- «من قتل المعالج؟ هل كان هذا أنت؟ أنت من خرج من المرآة؟»

- «لم يكن أنا.. كان ظلي الساقط في عالمكم...»

- «ولماذا فعل الظل ما فعله الظل؟»

- «لأن الكتاب ثمين.. وما كان لك أن تسمح بأن يستولي عليه النصاب.. هذا الكتاب قادر على تحريرنا.. هذا الكتاب له عشرات الأذرع إنِّه مخيف.. وأنت عقدت صفقة مع نصاب كذوب. ما كان بوسعي أن آخذ الكتاب لكن بوسعي أن أمزق النصاب تمزيقًا...»

- «ولماذا الآن؟ ظللت غائبًا هذه الأعوام ثم قررت الاتصال..»

- «لأنك بين عالمين يا أبي.. لك قدم على الأرض وقدم على حافة الأبدية... أنت قادر على العبور إلى عالمي.. قادر على سماعي... وعما قريب ترحل إلى عالم آخر.. لن أتبعك وقتها..»

- «وكيف تتحرر؟»

- «عليك أن تجد السبيل يا أبي.. سوف تجد السبيل يا أبي لقد أخفي كاتيوم السبيل وجعل من العسير أن تجدني أو تجد جيلبرت، لأنّه يريد الانتقام. إنما ترك لك أتباع جيلبرت الرموز التي تقودك للحل. لو استطعت حل الرموز فلسوف تصل إلى محبسنا...»

- «ووقتها؟»

- «وقتها تقوم بالتضحية الكبرى...»

وبدأ الظل يرتفع في الأفق وسط الأضواء والسحب والغيوم، ومن الأرض تعالى دخان أخضر غريب مخيف.. وسمعت صوته يصرخ:

- «حررني يا أبي... أن أهبط على ثرى الأرض أو ألحق بك في عالم الفناء.. هذا أهون وأحب إليَّ من هذا السجن الأبدي.. حررني يا أبي..»

✷ ✷ ✷

- «داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت!!»

✷ ✷ ✷

كنت على الثرى وسط الدخان الأخضر...

كنت أسمع صوت الفتى يناديني:

- «حررني يا أبي..»

نداء الدم هو ما يحركني، أمّا عن الحب الأبوي فأنا لم أعرفه بما يكفي قط.. كانت تجربة ملعونة، لكن هذا الفتى برغم كل شيء يحوي جزءًا من جيناتي... كان يمكن أن يكون لي بالكامل لو تزوجت بطريقة عادية، لكنه يحمل كذلك جينات رونيل السوداء.. ربما كل جيناتها، وهذا يجعله مرعبًا..

هل يعبث بي؟

كنت على الثرى وسط الدخان الأخضر..

هناك وجدت تلك الدمية.. دمية فتيش قماشية.. لا يمكن أن أخطئ في تمييز هذه الأشياء. دمية فتيش بدائية مخيطة بشكل فظ أخرق، ويخرج منها قش وشعر.. لا بد أنها محشوة بأظفار..

هناك أشياء متناثرة في هذا العالم، لا يبدو لي أنها تركت بمحض الصدفة. ثمّة رسالة لكني لا أعي ما هي...

من أجله يجب أن أعرف....

- 1 -

ما زلت لا أعرف:

هل هو سعار في الضياء؟ أم سعار في الفجر؟ أم هو سعار في العتم؟

الإجابة تقرر كل شيء..

✷ ✷ ✷

يا لوعيي المضطرب..!!!

المورفين والميدازولام يفتكان بعقلي فعلًا، ومن جديد أشعر بأن كل ما عشته وعرفته كان هلوسة ربما أنا أحتضر بالسرطان منذ البداية، وكل هذا الذي عشته كان حلمًا طويلًا معقدًا...

لكني آخذ شهيقًا عميقًا وأحاول العودة لوعيي... أنا موجود ذكرياتي هي ذكرياتي وليس هوسي...

أنا ما أعرفه عن نفسي بالضبط...

اليوم زارني عادل صديق الصبا.. لا بد أنه مساعد وزير الداخلية أو وزير الداخلية نفسه الآن. شائب الشعر مجعد الوجه ترهقه المسئوليات. من جديد يكرر عرضه بأن يسعى في سفري للعلاج بالخارج، لكني أقسمت له أن العلاج واحد.. لا يوجد ما يمكن عمله، وأطباء المستشفى هنا أكفاء فعلًا.

ما زال عادل هو عادل.. تؤرقه الرغبة في عمل شيء ما.. أي حركة في أي اتجاه..

تبادلنا الحكايات عن الماضي. وحكى لي عن هويدا وأولادها الذين تزوجوا منذ أعوام....

عندما نهض ليرحل، انحنى وعانقني بقوّة وقال:

- «في الزيارة القادمة ستكون حيًّا... ستكون أفضل.. هه؟»

- «حاضر.. ثق بي.. سأكون ذا شعر ناعم غزير كذلك ولربما صارت عيناي زرقاوين..»

- «سيكون هذا رائعًا..»

ثم انصرف. وجلست بعض الوقت أنظر في الاتجاه الذي ذهب فيه.. السفينة تبتعد وعليها كل رفاقي وأنا في البحر وحدي خذوني معكم.. يا حمقى...

قصة أخرى تداعب ذاكرتي الآن....

✷ ✷ ✷

مجموعة النداء الثاني:

أشيوست ديمترا - أرسادوك

(في وجه القمر)

إينياس (تعمل وحدها دون معين)

لا تحاول ترديد هذه العبارات بصوت يعلو على صوت وجدانك إلا بنية الاستعمال.. فيما عدا هذا تتم القراءة سرًا وبالعينين فقط...

✷ ✷ ✷

حضرت هذه التجربة عندما كنت في لندن منذ أعوام...

لا بد أنني كنت مع مجموعة من المختصين بعوالم الخوارق والظواهر الفورتية. المشكلة هي أنهم يضعونني دومًا في هذه المجتمعات ويدعونني إلى إبداء الرأي.. الفكرة هي أن إبداء الرأي صعب جدًّا في هذه الأمور، لكن لي مزية واحدة مهمّة هي أنني صرت خبيرًا بالنصب.. أشمه وأشعر به بسهولة باختصار صار من العسير خداعي...

بهذا كنت ألعب الدور الذي لعبه بعد أعوام جيمس راندي، ولعبه هوديني في بداية القرن العشرين.. دور الـ Debunker أو كاشف الخداع..

كان هناك بروفسور - لا أدري في أي شيء بالضبط - اسمه (ردیارد ریدنج).. وهو رجل بدين متحذلق أصلع الرأس وله سوالف منفشة، لهذا يذكرك جدًّا بقردة البابون..

وكان هناك خبير تنويم مغناطيسي اسمه (جون ويتلاند) رجل نحيل عصبي لكن له عينان ثاقبتان قويتان، تميزان مهنته.. كل منوم مغناطيسي عرفته في حياتي كانت عيناه كالمثقابين سواء كان صادقًا أم نصابًا....

كان ويتلاند منومًا ذائع الشهرة، وقد حقق نجاحًا عظيمًا في أوروبا وقام بجولات إلى العالم الجديد. لما سمع الجميع عنه وعن قدراته الخارقة دعاه العلماء إلى أن يريهم فنونه عن قريب..

قال لي البروفسور ريدنج وهو يغمز بعينه:

- «سوف ترى.. لن يجرؤ على الحضور. جمهور هؤلاء ليسوا من العلماء المدققين، بل من الجمهور العادي الأبله قليلًا الذي يؤم المسارح...»

هززت رأسي.

لم أعد واثقًا من شيء في العالم، لذا أفضل أن أنتظر وأرى..

جلست على مقعد وثير أدخن السيجار الذي قدموه لي. موضوع السيجار مهم جدًّا في الأندية البريطانية المتحذلقة...

فجأة سمعت شهقات عندما دخل ويتلاند المكان ومعه امرأة جميلة شاحبة الوجه. مناسبة جدًّا كي تكون زوجته، وتذكرت مقولة أن الزوجين يبهتان شكلًا على بعضهما..

حيانا ويتلاند وقدم لنا السيدة.. ويلما زوجته التي تساعده في العروض. تذكرت زوجة هوديني على الفور.. لا بد أنها مخادعة مدربة على هذه الألاعيب..

التف العلماء حول ويتلاند. شرب كأسًا من الكوكتيل ودخن سيجارًا.. ثم طلب أن نخفض الإضاءة.. هو بحاجة لهذا بشدة..

انخفضت الإضاءة أكثر فأكثر.. صارت درامية جدًّا وظلت بقعة نور على عيني المرأة الواسعتين المخيفتين، وبقعة نور أخرى على عيني المنوم..

الحقيقة أن الأمر بدا لي كأنه صراع بين وحشين.. وحشين لهما شكل العيون. فقط هناك عينان ترغبان في التهام عينين أخريين.. تحول كل من الرجل وزوجته إلى بقعة في الظلام...

قال لها بصوت عالٍ:

- «راقبي عيني يا ويلما.. لا تنظري إلى أي شيء آخر لا تفكري في شيء آخر..»

رأيت المرأة جاحظة العينين، ثم بدأ جفناها يثقلان.. إنها تدخل سباتًا واضحًا....

هذا العلم المعقد أو شبه العلم الذي ابتكره الألماني فرانتس.. لفظة (مسمرة Mesmerism) دخلت كل اللغات الغربية بمعنى (الغائب عن الوعي شبه المنوم مغناطيسيًا).. فكرة المغناطيسية الحيوانية.. هذا موضوع يطول شرحه..

لكن ما الجديد الذي يقدمه هذا الرجل؟ الكل يفعل ما يفعله.. من النادر أن تقابل اليوم من لا ينوم الناس مغناطيسيًا.. أنا الأحمق الوحيد الذي لا يفعل..

قال لها بصوت هادئ مخيف:

- «ويلما.. هل تسمعينني؟»

- «نعم..»

قالتها بصوت جدير بامرأة نائمة مغناطيسيًا..

- «هل أنت مستعدة؟..»

- «نعم..»

- «عندما أفرقع بأناملي ستموتين... تموتين تمامًا إلى أن تسمعي كلمة (استيقاظ)...»

ارتجفت رعبًا.. هذا هو الجديد إذن هذا هو الجديد إذن... لكن هذا اللعب السخيف على الحدود الفاصلة بين عالمين أمر مرعب فعلًا.. سوف تحترق أناملكم..

كان قد فرقع بأنامله.. فعلًا.. كليك...

هنا سقطت المرأة من على المقعد..

- 2 -

عسى أن يقبض أفعوان على أفعوان..

✷ ✷ ✷

عادت الإضاءة لقوتها الأولى، بينما تعاونوا على وضع السيدة على سرير كشف.. والتفوا حولها. ناولني أحدهم جهاز قياس ضغط ومسماعًا باعتباري الطبيب الحقيقي الوحيد هنا، بينما قام آخر بتوصيل أقطاب جهاز تخطيط القلب...

لم أكن أعرف ما أبحث عنه حقًّا، لكني لففت جهاز الضغط و... فس فس فس....

لا شيء.. أصوات كوروتكوف المألوفة المحببة غير موجودة هنا..

هنا فتحت عين السيدة وسلطت ضوء كشاف صغير عليها الحدقتان واسعتان لا تستجيبان...

وضعت المسماع على موضع القلب بالضبط.. لا شيء..

نظرت لهم في ذهول ونظرت للمنوم الذي وقف يبتسم في ثقة، ثم مددت يدي أفرد شريط تخطيط القلب.. خط واحد مستقيم هذا قلب بلا كهرباء....

قلت وأنا أجفف عرقي:

- «لا أدري.. هذه السيدة ميتة!»

قال ويتلاند وهو يضع قبضتيه في خصره:

- «بالطبع.. هل كنت تشك في هذا؟»

سألني البروفسور ريدنج:

- «ما احتمالات وجود خدعة يا دكتور رفعت؟»

نظرت له وابتلعت ريقي:

- «لا توجد حيلة تخفي ضربات القلب.. تمنع التنفس تشل حدقة العين.. حتى لو افترضنا أن جهاز التخطيط وجهاز الضغط مزيفان..»

- «إذن هي ميتة؟»

عاد ويتلاند يقول في غيظ حقيقي:

- «يا سادة قلت هذا مرارًا....»

سأله أحد الواقفين:

- «هلا أعدتها للحياة؟.. أخشى أن يفتك بها نقص أكسجين الدماغ أو شيء كهذا....»

- «ليس قبل أن تسجلوا هذا المشهد.. أنتم شهودي لدى المجلات العلمية..»

قالوا في لهفة:

- «نحن شهود.. نحن شهود..»

في ثقة قرب يده من وجه السيدة وطرقع بإبهامه والإصبع الوسط كليك.. وهتف:

- «استيقاظ!»

شهقت السيدة بقوّة كأنها حوت يغرق.. ثم فتحت عينيها المخيفتين.. ورأيت في ذهول أن تخطيط القلب بدأ يتشكل.. قمت بقياس ضغط الدم فوجدته 70/110.. إنها كائن حي..

نهض ويتلاند في ثقة وطلب كأسًا آخر للسيدة...

✷ ✷ ✷

وقفت مع البروفسور ريدنج في الشرفة.. كان مفعمًا بالحيرة وكنت مفعمًا بالأسئلة. قلت له إنني شاهد على كل شيء لكن لا تفسير لدى.. يمكن القول إن السيدة لم تمت لكن أجهزة جسدها توقفت عن العمل تمامًا...

لحق بنا ويتلاند نجم الساعة.. قال لنا: إن ما حدث ليس جديدًا..

حكى لي عن تجربة علمية مسبقة حدثت عام 1835. سمع مهراجا (لاهور) عن فقير هندي اسمه (هاريداس) ظل حيًّا عدة أعوام بعد دفنه.. وقد كرر الرجل التجربة أمام المهراجا، ووجد الأطباء الذين فحصوه قبل التجربة أن الرجل قطع عضلات لسانه ليسمح له بأن ينثني للخلف ليسد مجرى الأنف، وفي اليومين اللذين سبقًا موعد الدفن لم يأكل شيئًا إلا اللبن والزبادي (يوجورت)، ثم في آخر يوم راح ينظف مجراه الهضمي بطريقة اليوجا كأن يبتلع شريط قماش طوله 27 مترًا ثم يخرجه من فمه ثانية. ثم سد فتحات أذنيه وأنفه بالشمع، حتى لا تدخلها الحشرات. وجلس في

وضع القرفصاء. هنا لم يعد نبضه محسوسًا. لفوه في البياضات ووضعوه في صندوق.. وضع عليه المهراجا خاتمه. ودفن الصندوق وزرعوا فوقه الشعير. ثم تم بناء سور وأحاط به الحراس.

بعد 14 يومًا تم هدم الجدار وفتح الصندوق فوجدوا هاريداس في الوضع ذاته. وخلال ساعة أفاق وصار بصحة طيبة. حاكم البنجاب (رونجيت سنج) قدم هو الآخر عرضًا ظهر في مجلة طبية رصينة في ظروف لا تسمح بالخداع.. لقد تم حبس الفقير داخل صندوق في حفرة. لم تكن هناك دقات قلب برغم أن جسده كان دافئًا. ثم أخرجوه فبدأ يدخل في تشنجات وعاد له التنفس.

كان كل هذا يبدو غريبًا بالنسبة لي.. رأيت الكثير لكني لم أر هذا من قبل...

قلت له في شرود:

- «هذا يذكرني بالجعران Scarab.. لقد استرعي انتباه قدماء المصريين لأنّهم كانوا يعتقدون أنه يموت ثم يبعث من جديد..»

نظر لي في إعجاب وهز رأسه:

- «جعران.. فعلًا.. هذا أدق وصف ممكن.....»

لقد نال تصديق العلماء وثقتهم، لكني لم أستطع أن أستريح لا بد من تفسير ما....

على كل حال لقد أوشكت أيامي في إنجلترا على الانتهاء هذه المرّة.. بقي لي أسبوعان. سيكون عليه أن يجد شخصًا غيري يفضح أمره!

- 3 -

حادث مروع وقع لصاحبنا..

كنت أعرف أنّ هذا اللعب بالنار سوف يؤدي إلى كارثة.. لا أحد يعبث على الحدود بين الحياة والموت وينجو...

لقد قدم لعبته أو تجربته هذه عدة مرات.. وفي ظروف علمية محكمة..

يقول ريدنج إن الرجل نوم زوجته مغناطيسيًّا ثم همس لها بشيء ما بعدها دخلت في طور الموت المعتاد وتم إجراء التجارب عليها.

قال لها: استيقاظ..

وفرقع بأنامله فلم تصح كرر الطلب عدة مرات فلم تصح..

فجأة انفجر يصرخ ويلطم خديه:

- «أنقذوني!... إنها لا تفيق!... ويلما قد ماتت فعلًا!!!..»

حاولوا أن يعيدوها للحياة، واتصلوا بالإسعاف.. لا جدوى.. ساعة كاملة مرّت في محاولات خرقاء للتنفس الصناعي وصدمات القلب.. لكن لا جدوى..

انتزعوه من جوارها وهو يصرخ.. لم يكف عن اعتبار أنه هو من قتلها.. راح يلثم أناملها ويحاول أن يلثم قدميها.. وفي النهاية أجلسوه بعيدًا..

لقد انهار تمامًا.... ولا ألومه على ذلك..

✷ ✷ ✷

بعد يومين اتصل بي بروفسور ريدنج وقال: إنّه يريدني أن ألحق به في مستشفى (رويال فري) في هامبستيد هناك شيء يجب أن أعرفه..

ثم أضاف بلهجة ذات معنى:

- «ويتلاند قد مات مساء أمس..»

ما هذا؟... لم أتوقع أنه يحبّ زوجته بجنون لهذه الدرجة.. لم أعتقد أنه نموذج للإخلاص. الأزواج الذين يموتون بعد وفاة زوجاتهم بيومين هم أشخاص نادرون... لكن لماذا المستشفى إذن؟.. الموتى لا يعالجون في المستشفى على قدر علمي...

ذهبت إلى المستشفى المذكور. قابلت ريدنج هناك..

قال لي وهو يتقدمني إلى غرفة جانبية:

- «الفتاة في حالة انهيار عصبي تام.. لكنّها تحكى قصة غريبة. أعتقد أنها جنت...»

- «فتاة؟»

- «نعم.. سكرتيرة ويتلاند.. اسمها دوروثي..»

دخلنا الغرفة لأجد فتاة رائعة الجمال.. أجمل وجه رأيته في بريطانيا منذ فترة، لكنّها كانت في حالة عصبية سيئة. قلت لنفسي إنِّه غرام السكرتيرة المعتاد بمديرها.. لم تتحمل أن يموت بهذه السرعة.... هذا رجل محظوظ مع أنه مات....

لكن ريدنج جلس جوارها على طرف الفراش وعاد يسألها:

- «دوروثي.. لا أريد أن أذكرك بما حدث.. لكن لا بد أن يسمع هذا السيد قصتك..»

قالت وهي ترتجف والدمع يسيل كصنبور من مقلتيها:

- «المقبرة.. أخذني جون ويتلاند لنزور المقبرة في الليل... كان يضحك وقال لي: إن ويلما قد ماتت بحق هذه المرّة... لم تعد مثل الجعران... وراح يكرر: الجعران.. ها ها.. الجعران.. هاها...»

ثم غطت وجهها في الملاءة وانفجرت في بكاء هستيري:

- «انشقت الأرض.. فجوة حدثت وسط التراب الذي يغطي القبر.. كانت هناك يد.. يد أطبقت على كاحل جون.. صرخ وحاول التراجع، لكن اليد كانت قوية كالكماشة.. وأعتقد أنها جرته معها تحت التراب.. سمعته يصرخ ويحاول المقاومة.. كان الظلام دامسًا فرحت أجري بحثًا عن نجدة.. تعثرت مرارًا.. ثم فقدت رشدي.. عندما عدت للوعي عرفت أنهم وجدوا جثة ويتلاند جوار القبر.. لقد اصطدمت رأسه بشاهد القبر.. و.. مات.....»

هنا دخلت الممرضة وطلبت منا أن نكتفي.. الفتاة مرهقة ونحن أوغاد...

خرجت ورأسي يدور وقلت لريدنج:

- «هل فهمت؟»

- «لا..»

- «ألم تدرك أنه كان علاقة حب مع سكرتيرته؟»

- «هذا واضح.. ولكن؟»

- «وضع خطة ممتازة للخلاص من زوجته ويلما بحيث لا يتم توجيه أي اتهام له. أجرى هذه التجربة مرارًا وكان يأمرها أن تصحو كلما قال (استيقاظ)... في هذه المرّة قال لها: إنها ستعود للحياة لو لفظ كلمة (جعران). أنا أوحيت له بهذه الكلمة عندما كلمته عن قدماء المصريين.. ويبدو أنها تركت أثرًا عميقًا في نفسه. لم يقل لزوجته أثناء العرض لفظة (جعران) بل استعمل اللفظة القديمة (استيقاظ). لم تفق طبعًا واعتبرت ميتة.. لقد قتلها بدم بارد ووقف متظاهرًا بالتأثر أثناء دفنها وبكى كثيرًا جدًّا.. تعلّمت أن هؤلاء القتلة يبكون من التوتر فيحسبهم الناس يبكون بسبب الثكل. بعد يومين جاء ليلًا مع السكرتيرة ليحتفل بالخلاص من زوجته.. وعلى سبيل المرح راح يردد لفظة (جعران) ساخرًا من زوجته وهو واقف على قبرها ما حدث هو أنها سمعت اللفظة التي تجعلها تعود للحياة!»

اتسعت عينا البروفسور في رعب وقال:

- «هل تمزح؟.. هل تدرك معنى ما تقول؟.. هذا هذيان..»

- «هل تجد تفسيرًا أفضل؟.. على كل حال سيكون الأمر هينًا.. لو نبشتم القبر ووجدتم أن الجثة نزعت الغطاء عنها فأنا على حق لقد انتقمت الزوجة من الزوج القاتل ثم عادت للموت..»

- «ولماذا عادت للموت؟»

- «ربما كانت تجربة الدفن أقوى منها....»

والعبرة الأخلاقية المستفادة من هذه القصة، هي ألا تلفظ كلمة (جعران) جوار أي قبر.. خصوصًا إذا كان قبر زوجتك التي قتلتها...

- 1 -

أي هدية تقدمها إلى الموت يوم يقدم ليقرع بابك؟ آه، سأضع أمام زائري كأس حياتي المترعة ولن أدعه يعود فارغ اليدين.. كل قطوف كرومي العذبة، من أيام خريفي وليالي صيفي.. كل حصاد حياتي الدءوب وجناها، سأضعه أمامه، حين ينتهي أجل أيامي، يوم يقدم الموت ليقرع بابي..»

طاغور

✷ ✷ ✷

أعتقد أن وعيي ينسحب فعلًا..

من وقت لآخر أفيق لأجد نفسي في الفراش.. أنظر للساعة لأكتشف أن أربع ساعات قد مرّت. متى؟.. ماذا فعلت فيها؟ لا أذكر.. لا بد أنني أجلس مفتوح العينين في غيبوبة Coma Vigil فيخيل لمن يراني أنني متيقظ..

هذه علامة مهمّة.. الثانويات تزحف على مخي.. ستكون الغيبوبة قريبة..

جلست في الفراش ورحت أكتب بسرعة البرق ما أستطيع تذكره في أي اتجاه وأي مكان.

جاء عزت حاملًا بعض حلوى جوز الهند - يطلقون عليها (الحمام) - وأصر على أن ألتهم بعضها فأنا أفقد وزنًا بلا توقف. لو كانت المشكلة تحل بقطعتين من الحلوى لكانت الحياة رائعة..

ملأت فمي بالحلوى.. فقال لي:

- «يجب أن تتحسن من أجل ماجي.. إنها لا تنام. تشرب القهوة كأنها الماء.. أمس سقطت مغشيًّا عليها من الإرهاق وهي جالسة في الاستراحة...»

توترت ونهضت..

وهذا هو ما أمقته.. لا أطيق أن يعاني شخص من أجلي. في كل مغامراتي ومحنتي كنت أفضل أن أكون وحدي حتى لا أرهق شخصًا آخر بمشاكلي.. أرهقه وأتحمل مسئوليته... هذا عسير فعلًا..

لكن كيف أتحسن؟.. لقد حاولت.. يعلم الله أنني حاولت..

سألت عزت:

- «أين هي الآن؟»

- «في الفندق.. قد أرغمناها على العودة...»

تمددت في الفراش.. أغمضت عيني ورحت أفكر في عمق....

لا أدري متى ولا كيف تم الانتقال.....

فجأة عدت لذلك العالم. هل هو عالمي الحقيقي؟.. ربما كان كذلك... ربما هو الموضع الذي جئت منه. ربما وجودي في عالمنا هذا مجرد ظل كما قال سمير؟

عزت يسألني:

- «ألست نادمًا يا رفعت على أنك لم ترزق بابن؟.. لماذا لم تأت للعالم بواحد؟»

نظرت له ولم أرد...

الحقيقة أنني فعلت ذلك فعلًا. لكنّها أبوة معطلة من طراز غريب..

✷ ✷ ✷

وداعًا يا صديقي المخلص

لقد عرفنا بعضنا منذ كنا في سني التاسعة والعاشرة..

معًا تسلقنا الجبال والأشجار..

تعلّمنا الحب وتعلمنا حروف الهجاء..

خدشنا قلبينا.. وخدشنا ركبتينا..

وداعًا صديقي.. عسير أن يموت المرء

بينما الطيور تغرد في السماء

لأن الربيع يفعم الجو الآن..

الفتيات الجميلات في كل مكان..

فكر فيَّ وسأكون هناك.

أغنية لتيري جاكس

✷ ✷ ✷

كنت أواصل المشي مبتعدًا عن مكان اللقاء..

الأرض لا أراها.. هناك طبقة كثيفة من غاز أخضر بنفسجي تغطي قدمي، وهو شعور مقلق لأنني لا أعرف ما الذي أدوس عليه فعلًا...

صف من بنات آوى تسد عليَّ الطريق وهي تصدر عواءً طويلًا.. صدق المصريون القدماء عندما اعتبروه إله التحنيط ورمزوا له بأنوبيس. بالفعل هو كئيب مقبض يرتبط بالمقابر..

أحاول أن أدور حول ذلك الموضع.. ثمّة ربوة أتسلقها ببطء..

ثم أفطن إلى أنها تذوب تحت قدمي.. ليست ربوة بل هي ملايين الديدان الطويلة المتلاحمة التي حسبتها جسمًا صلبًا إنها حية...

إنها بشعة متعطشة للدماء، ومن فم كل دودة تخرج دودة، ومن فم الدودة تخرج دودة أخرى بشكل تليسكوبي مريع.. أنت لا تعرف التاليسات أيها الفاني ومن حسن حظك أنك لا تعرفها لكن من الواضح أنها هذه.. أنت تعرفها الآن. التاليسات.. يُمكنك أن تعرف الهول عندما تراه...

تدحرجت على الأرض بينما الربوة تتفكك وتحاول أن تحيط بي... هذه ميتة شنيعة أن تجد نفسك مغلقًا بملايين الديدان مصاصة الدماء وسط الضباب الأخضر... لن تقف على قدميك ثانية أبدًا...

لكن معنى كلام من كان يخاطبني أنّ هذه الكائنات موجودة في عالم البشر.. لكن أين؟

عندما تدحرجت قبضت يدي على شمعدان.. شمعدان عتيق الطراز لا أعرف كيف وجد هنا.... هل هو سلاح ما؟.. كيف يكون الشمعدان سلاحًا؟

و.. ثم بدأت فكرة تتردد في ذهني....

نظرت إلى الأفق وحاولت أن أستوعب الاتجاهات...

متى بدأ كل شيء..؟

أين الشجرة؟.. أين القلعة؟... أين أنا الآن؟

ثم خطر لي أن أمشي بضع خطوات في اتجاه قدرته لنفسي... لقد زال الضباب عند قدمي، ويمكن أن أدرك أنني أمشي على عشب أحمر لين ينزف شيئًا كالدم عندما تهرسه...

عيناي تفتشان في عمق...

وسمعت الصوت يتردد:

- «أنت في الطريق الصحيح.. سوف تراه الآن....»

هنا وجدت ما أبحث عنه..

الجعران المدفون وسط العشب.. جعران فرعوني من حجر أخضر لا أعرف ما هو بالضبط لأنني لا أملك خبرات جيولوجية كافية... هل هو بازلت أم يشب أم..؟... لا بد أنه من الشازيمايت.. ما هو الشازيمايت؟.. لا أعرف.. لقد ابتكرت الاسم بنفسي..

التقطته ووضعته في كفي...

شجرة.. جعران شازيمايت... جيتار.. بلطة..

شمعدان... شملة أو تلفيعة.. دمية.

يد مبتورة...

هذا غريب لكنّها الحقيقة..

كل رمز من هذه الرموز جاء من قصة من القصص التي تتردد في ذهني مؤخرًا، كأنها وسواس هناك من يذكرني بهذه القصص بلا انقطاع...

الشجرة كانت في قصة مغيري الأشكال..

الجعران المصنوع من الشازيمايت في قصة الزوجة المنوّمة مغناطيسيًّا..

الجيتار من قصة أسرة كامنجز...

البلطة من زنزانة خريولسن..

الشمعدان من سهرتي في بيت بورلي..

التلفيعة في قصة المزييرة..

الدمية هي دمية السحر الذي لحق بالمهندس في البرازيل..

اليد المبتورة كانت في مرسم كراكوس...

إن هذه الأشياء مبعثرة حول شكل هندسي معين... لو كانت حساباتي صحيحة فلسوف أقابل المرآة بعد قليل..

مشيت مسافة لا بأس بها.. أنظر من حولي وأتفحص الأرض..

في النهاية وجدت المرآة على الأرض.. مرآة مهشمة لكنّها كافية لتثبت صحة نظرياتي.. المرآة التي جاء منها الفتى الذي زعم أنه من أطلنطس...

إن الرموز التي تركها لي جيلبرت دقيقة فعلًا..

الأهم أن الأشياء مبعثرة بالضبط على حدود مثلث شاسع متساوي الأضلاع.. تذكر مثلث برمودا..

لو كانت ظنوني دقيقة للنهاية، فالشيء الذي يريدون أن أجده موجود في مركز المثلث...

ولكن ما هو؟

✷ ✷ ✷

كنت في الفراش أرتجف وأئن.. العرق يبلل الوسادة...

لا أعرف ما هو هلوسة وما هو حقيقي...

هناك قصة أخرى تتداعى إلى ذاكرتي...

لماذا أتذكرها الآن؟

- 1 -

- «هناك الزيجول الذي يلتهم طبقات الجلد ثم العضلات ويترك الأعصاب ملتهبة حارقة حتى آخر لحظة... هناك الريموزا الذي يتم إدخاله في فم الضحيّة.. تتزايد حرارته مع الوقت حتى يتحول إلى نار محمية تشتعل في أحشاء الضحيّة.. هذا موت بطيء يستغرق عدة ساعات هناك ديدان الناكاخ التي تقتحم الرأس من الأنف، وتشق طريقها في جمجمة الضحيّة حتى المخ مدمرة كل شيء تقابله..»

✷ ✷ ✷

قال ماكلويد وهو يطفئ النور:

- «الآن سوف أربطكما معًا بجنزير من الفضة... وهذا الجنزير ينقل الطاقة الحيوية من واحد لآخر...»

قال (آرثر):

- «هل أغمض عيني؟»

- «لا بأس.. إن الظلام يجعل الأفكار أكثر حدة.. في الظلام تصل للحقيقة بسرعة..»

وهكذا أغمض الرجلان عينهما برغم أن الضوء كان خافتًا فعلًا...

✷ ✷ ✷

كان ماكلويد من الشخصيات العجيبة التي عرفتها في حياتي. لدي متحف ممتاز في ذاكرتي أحتفظ فيه بأغرب الشخصيات وأغرب الأطوار.. لا شك أن الرجل له مكان بارز في ذلك المتحف. لو كان العمر قد امتد بي وأتيحت لي الفرصة لأوقفت كل هؤلاء في معرض، بدءًا بعزت جاري وانتهاء بماكلويد.. لو حصلت على جنيه عن كل جولة في هذا المتحف لصرت مليونيرًا منذ زمن...

من هؤلاء الذين عرفتهم في لندن في تلك الفترة الحافلة من حياتي، كان البروفسور (جون ماكلويد)... ككل الآخرين هو بروفسور في شيء لا تعرف ما هو بالضبط... دائمًا تكون هناك

رحلة لرومانيا أو بلغاريا.. يبدو أن شهادات الدكتوراه تباع هناك على قارعة الطريق.

ثم يعود الرجل ويعذبنا بغرابة أطواره... ويرينا أغرب الأشياء طرًا..

هكذا أنت تعرف نمط ماكلويد...

أمّا عن شكله فهو في الستين من عمره بدين مستدير ككرة.. وفخور بنفسه جدًّا...

في أمسية شبيهة بأمسية التنويم المغناطيسي تلك، استدعوني الحضور تجربة مثيرة يقدمها هذا الماكلويد..

قال لنا: إنّه كان تلميذ المشعوذة الشهيرة هيلين بلافاتسكي وقد ذهب معها إلى التبت ورأى معها كتاب ديسان المخيف..

أنت تعرف أنّ هناك كتابًا دائمًا...

قال: إنّه تعلم هذه الطريقة من أحد رهبان التبت..

- «كان البطل أيبار واهن الجسد ضعيفًا برغم أن له قلبًا من ذهب.. بينما الأعداء يهاجمون قريته ويحرقونها، هكذا ذهب لأحد الرهبان كي يبدل وعيه مع وعي أسد الثلوج. هكذا صار أسد الثلوج يملك عقل وعواطف أيبار، لكنه بالطبع قوى شرس فتاك... وقد خرج على الأعداء فمزقهم وأنقذ قومه.. هذه هي الأسطورة.....»

ثم أضاف وهو يقف أمامنا مستعرضًا كرشه العملاق:

- «تعلّمت هذه الطريقة وأعرف كيف أطبقها...»

سأله البروفسور ريدنج في شك:

- «وماذا حدث لأيبار الذي صار يحمل عقل أسد الجبال؟»

ابتسم ماكلويد من الدعابة وقال في كياسة:

- «لم تحك لنا الأسطورة كل التفاصيل...»

- «وأنت تزعم أنها ليست أسطورة...»

- «بالضبط..»

التففنا حوله وظهرت كاميرات تصوير عديدة.. لم يكن هناك تصوير فيديو في ذلك الوقت، لكن أحدهم قام بتشغيل كاميرا سينمائية من سعة 8 ملم..

قدم لنا البروفسور المتطوعين:

- «آرثر باكستر... مهندس... 35 سنة.. عزب...»

كان آرثر مهندسًا في الخامسة والثلاثين وعزبًا كما لا بد أنك لاحظت... له شعر ثائر منكوش يذكرك بعلماء الذرة في أوائل القرن الماضي..

- «مورجان داوسون محام في الخمسين من عمره.. متزوج...»

كان مورجان محاميًا في الخمسين متزوجًا كما لا بد أنك لاحظت.. أصلع الرأس له ذقن مزدوجة مضحكة.. وهو من الطراز الذي يتعرق بلا توقف... يمكنني القول إن ضغط دمه مرتفع.. لا أعرف كيف عرفت هذا لكنه انطباع معين....

هنا تدخلت في المحادثة:

- «لحظة.. لماذا يرغب هذان السيدان في تجربة كهذه؟»

قال ماكلويد:

- «سوف أسمح لنفسي بالإجابة عن هذا السؤال إنهما يعانيان مللًا شديدًا ويرغبان في تجربة شيء جديد تصوّر نشوة وإثارة أن تجرب بضعة أيام في ثياب وحياة شخص آخر؟»

قلت وأنا أتمالك نفسي كي لا أنفجر من فرط العصبية والغيظ بسبب عدم التصديق:

- «لكن هذا يجلب مشاكل قانونية لا حصر لها هل سيتولى داوسون حل قضايا العملاء وهو يحمل وعي مهندس؟... وماذا عن حياة آرثر مع امرأة ليست زوجته لمجرد أنه يحمل وجه داوسون؟ القصة معقدة جدًّا...»

قال ماكلويد وقد بدا أنه تأهب لكل الأسئلة:

- «كل هذه أمور توقعناها ورتبنا لها... هناك عدة محامين يراقبون كل شيء، أمّا عن الزوجة فهي في إجازة خارج لندن.. التجربة سوف تدوم أسبوعًا وبعدها يعود كل شيء كما كان..»

تعالت همهمات الموافقة...

عدت أسأل وقد شعرت أنني صرت أكثر شخص مكروه في هذه التجربة:

- «هل سيتم الانتقال حالًا؟»

- «بل خلال يومين...»

قال ريدنج:

- «الآن يمكننا البدء.. أرجو أن تراقبوا كل شيء هذه تجربة يجب أن نراقبها بعناية ولا نفشلها، لكن لا نسمح لنفسنا بأن نخدع..»

وهكذا بدأت التجربة..

- 2 -

جلس الرجلان متلاصقي الرأسين، بينما راح ماكلويد يلف جنزيرًا من فضة حول جسديهما.. ثم رسم دائرة من طبشور حول مجلسهما هذا وراح ينثر قطرات من سائل من قارورة معه..

بعد هذا أخرج مدية صغيرة وأحدث جرحًا صغيرًا في كف كل منهما.. تماسك الرجلان ولم يصرخا... قرب الكفين ليتلامسا ويمتزج الدمان..

قلت لنفسي: إن هذه الطقوس تماثل طقوس أي ساحر هندي نصاب، عندما يعلن الأخوة بين محاربين.. كنت أتوقع شيئًا أكثر ثورية.. ربما سريرا فحص وخوذة على دماغ كل واحد من الرجلين على طريقة أفلام الخيال العلمي...

الآن هل يرقص حولهما بالرمح وهو يترنم؟

لم يفعل لحسن الحظ.. لقد راح يردد مقاطع رصينة من كتاب (ثليما) لكراولي...

بعد قليل فك الجنزير.. ووقف لاهثًا ثم قال لنا:

- «بعد ثلاثة أيام يا سادة نلتقي هنا.. سوف تدركون بوضوح أن آرثر صار يتكلم كمحام في الخمسين، وأن داوسون صار مهندسًا في الخامسة والثلاثين.. سوف تدركون أن كل واحد صار يحمل ذكريات الآخر...»

كانت الإثارة شديدة وتفرق الجميع وهم يتكلمون ويناقشون ما رأوه..

طبعًا الاحتمال الأكبر هو أننا رأينا عملية نصب ممتازة... بل كل شيء يقول إنها نصب، فكيف رتب أوراقه ليقنعنا بعد ثلاثة أيام؟

سوف نرى.. سوف ترى.

قال لي بروفسور ريدنج:

- «صدقني.. في مهنتي هذه تعلّمت أن النصابين بارعون واسعو الحيلة جدًّا، ويستحقون كل مليم أخذوه.. إنهم أذكى عينة من البشر على الإطلاق وما يحصلون عليه هو مكافأة على عبقريتهم!.. سوف يتصرّف هذا الماكلويد ولسوف تزداد ارتباكًا!»

سوف نرى.. سوف نرى..

✷ ✷ ✷

تشا سارايانا..

كيو سارايانا..

جوانغ سارايانا..

✷ ✷ ✷

الجو يعبق بالدخان والإثارة والثرثرة.. لا أميز لفظة إنجليزية واحدة لأن الكل يتكلم في صوت واحد. هناك صحفيون في مجلات غير محترمة جاءوا بحثًا عن خبر مسل لقارئ تافه...

دنت الساعة فحبسنا أنفاسنا..

وفي لكن ماكلويد جاء وحده.. وحده ممتقع الوجه جاحظ العينين جفف عرقه وقال لنا:

- «داوسون مات فجأة... أول من أمس!»

المحامي الخمسيني مات؟.. كيف؟

- «لم يستطع الطبيب تحديد سبب الوفاة.. كان في حالة صحية ممتازة يمزح مع زوجته ويقرأ الصحف، ثم فجأة سقط رأسه ومات...»

تعالت الشهقات ودوي أكثر من صوت يقول:

- «لا بد أنها تجربتك اللعينة...»

فقط ريدنج تميز ببعض المنطق والهدوء فسأل ماكلويد في كياسة:

- «داوسون مات.. إذن أين آرثر؟ أين المهندس؟»

- «لا أعرف.. إنِّه مختف تمامًا..»

سادت الفوضى.. ونظرت لريدنج في خبث وقلت همسًا:

- «هذا هو التصرف البارع الذي تنبأت به.. تملص من نجاح التجربة بأناقة..»

قال ريدنج وهو يحك ذقنه:

- «لا أدري يبدو صادقًا...»

فجأة خطرت لي فكرة مرعبة....

قلت لماكلويد وأنا أجذبه من سترته حتى كاد يصفعني من هذا التبسط:

- «اسمع... يجب أن نجد آرثر.. أنت قادر على أن تجده.. اطلب الشرطة واسأل في المشارح والمستشفيات..»

ثم صحت في دكتور ريدنج:

- «هات ثلاثة رجال وتعال معي.. أرجو ألا يكون الأوان قد فات..»

- «لماذا تريد رجالًا؟»

- «ليس رجالًا فقط.. بل نريد أدوات حفر كذلك!»

تحركت الأمور بسرعة البرق..

عند المساء عرفنا أن آرثر توفي في حادث سير منذ يومين.. لقد دفنه أقاربه في مقبرة على أطراف لندن. هرعنا إلى هناك وسألنا عن المقبرة..

أخيرًا نقف أمام قبر حديث مغطى بالأزهار، وهناك شاهد قبر رخامي يقول (آرثر باكستر).. وعلى ضوء الكشافات رحنا نزيل التراب عن هذا القبر..

هتف ريدنج وهو يسعل مما ابتلعه من تراب:

- «ماذا تريد إثباته؟»

قلت وأنا مستمر في الحفر وقد أوشكت على الإصابة بنوبة قلبيّة:

- «رجلان تم تبديل وعيهما.. واحد مات بدون سبب واضح.. ماذا تستنتج؟.. معنى هذا أن الآخر هو الذي مات.... ماذا حدث لوعي الأول؟.. صار في جسد الجثة الممزقة في القبر!.. معنى هذا أن أحدهما أفاق ليجد نفسه مدفونًا في قبر تحت الأرض!»

كنا مستمرين في الحفر وقد تقطعت أنفاسنا..

أخيرًا ظهرت الجثة.. جثة الشاب آرثر.. كانت جثة هامدة تمامًا، لكننا أدركنا في رعب أن نظرة هلع واضحة على الوجه وأن اليدين متشنجتان كأنما كان يحاول جاهدًا أن يزيح غطاء التابوت...

كنا نرتجف.. كل شيء يؤكد أنّ هذه النظرية صحيحة..

قال ريدنج وهو يركع على الأرض جوار الجثة:

- «حتى لو كان وعي داوسون في هذا الرأس. فهو لم يكن قادرًا على أن يحرك جسد جثة هشمتها سيارة والسؤال الأفظع هو: هل تعتقد أن وعى داوسون ما زال في هذا الرأس؟ يسمعنا ولا يعرف كيف يخاطبنا أو كيف يخرج مما هو فيه؟»

نظرت له في رعب ونظرت لوجه الميت..

لا أعرف شيئًا.. لا أعرف شيئًا على الإطلاق...

هذا الجزء لم يكتبه د. رفعت بخط يده، ويقال إنّه تم جمعه عن طريقة لوحة الويجا فيما بعد:

هناك في مركز المثلث أقف..

هناك في مركز مثلث الرموز الذي تركوه لي في هذا العالم أقف..

جسدي هناك في المستشفى.. وقد وضعوا قناع الأكسجين على وجهي...

المرقاب يدوي باحتفال قصير لكل ضربة من ضربات قلبي إنّه ما زال حيًّا.. هناك أمل يا شباب..

شياطين جانب النجوم تجلس أمام التلفزيون تشرب المثلجات وتأكل الفيشار، وتهلل مع كل شهقة لم تصدر عني. لا بد أن لوسيفر مسترخ في مقعد وثير يشرب الدم في جمجمة وهو يربّت على كتف ابنه في استمتاع... رفعت يتعذب.. أليس هذا مُضحكًا؟

لكن في الوقت نفسه أنا هنا في ذلك العالم، وبصحة ممتازة.

برغم هذا لم أمت.. ليس هذا هو العالم الآخر.. أنا في عالم مواز غريب الأطوار أواجه لغزًا أخيرًا..

الفئران المشعثة كريهة الرائحة كثيرة هنا... لو أطلقت لخيالي العنان فهؤلاء أتباع جيلبرت كما قلنا. اليوم هم يبتغون أن يساعدوني..

إن تحرر جيلبرت هو كذلك تحرر ابني..

لكنه اختيار مروع.. مروع بحق... أن أطلق هذا الوحش في عالم البشر..

تذكرته عملاقًا مخيفًا لا تتبين وجهه لكنه مقيد في كهف في تلك الجزيرة، وقد كبلت يداه إلى عارضة خشبية كبيرة على كتفيه.. الكثير من الجنازير والقيود والأقفال مشهد من الأساطير الإغريقية..

ترى كيف يبدو كاتيوم أستاذه؟

هناك في مركز المثلث أقف..

أبحث بعيني عن الحل..

تصلبت عيناي على رقعة من الأرض، وعلى الرقعة أزهار جافة وهناك لوحة من الرخام كتب عليها شيء ما...

عندما دققت النظر أدركت أنه قبر..

بل هو ثلاثة قبور متجاورة.. كل قبر عليه أزهار وعليه رقعة رخام هذه هي القصة الأخيرة التي استرجعتها.. كان فيها قبر يشبه هذا..

دنوت أكثر لأتبين المكتوب...

إنّه شاهد قبر عليه حروف عربية.. لكن لا أفهم معناها..

الشاهد الأول: سعار في الضياء

سعار في الضياء؟ لا بد أنّ هذا شيء شاعري.

الشاهد الثاني: سعار في العتم...

الشاهد الثالث كتب عليه: سعار في الفجر..

لا بد أنّ هذا موقف شكسبيري آخر من مواقف الاختيار الشهيرة.. دائمًا ثلاثة خيارات.. أحد الاختيارات صحيح والباقي معناه الهلاك حتمًا.. لماذا أختار نوعًا معينًا من السعار؟

أحد هذه القبور يقود للحل..

أقف هناك والدخان يتصاعد من التربة.. والسماء تسيل من جديد لتصير سائلًا أحمر مقززًا... هناك شمس زرقاء مخيفة غريبة تتوسط الأفق وعلى الشمس رسمت البقع وجه جمجمة..

✷ ✷ ✷

لست عدَّاء ولا ملاكمًا.. لست موسيقارًا أسكب ألحان حبي في أنغام يسمعها الناس ويتساءلون: من هي تلك المحظوظة؟.. لن ترى صورتي في كل الصحف مقرونة بالمديح لتقولي لصاحباتك: هو ذا رجلي.. ومع ذلك تحبينني؟؟

غريبة أنت.. وذوقك أغرب.. لن أفهمك أبدًا.. لكني سعيد وفخور.. وهذا هو كل ما أستطيع قوله الآن...

✷ ✷ ✷

بعد تفكير بدأت أتبين خيط الحقيقة..

الأمر يشبه أسلوب الـ anagram.. أو إعادة خلط الكلمة لتصنع حروف كلمة أخرى.. سعار في العتم... نفس حروف اسم رفعت إسماعيل...

الساحر جيلبرت يقودني للإجابة، وهو بهذا يحاول خداع كاتيوم المخيف.. لا يعرف كاتيوم أن تلميذه المخيف السجين قد ترك لي طريقة إنقاذه كاملة عن طريق الرموز..

سعار في العتم...

رفعت إسماعيل...

هذه وهي الإجابة..

ركعت جوار القبر.. وتحسست الشاهد الرخامي.. إنّه ينفتح..

هناك حفرة تسمح بنزول إنسان.. أعتقد أنني سأكون ذلك الإنسان.. لا شك لدي في هذا....

أسمع الصوت يدوي بلا توقف في ذهني.. يدق كالجرس أو كالطبل.. يدق.. يدق..

- «هذا هو الخيار الأخير... تقدم.. سوف يتحرر ابنك سوف يعود لعالم البشر أو يفنى كالفانين ويصير ترابًا.. كلاهما ضرب من الحرية...»

إضاءة زرقاء غامضة..

أخشى دومًا تلك الإضاءة التي لا يوجد لها مصدر.. تعطيني انطباعًا شيطانيًا مفزعًا..

ما أراه يبدو كمحراب.. محراب تحت الأرض.. هناك ممر طويل وسط صفين من الأعمدة... في نهاية الممر هناك شيء مبهم لا أدري ما هو لكنه ضخم جدًّا...

هناك شموع.. آلاف الشموع لا تدري من أشعلها ومتى ومن أين استمدت الأكسجين، ولماذا تصدر ضوءًا أزرق؟

أنا في عالم يتحدى المقاييس التي نعرفها..

- «تقدم إلى المحراب وضع ما معك.. الأمانة التي أثقلتك عبر الأجيال....»

الأمانة؟

تحسست خصري.. إنني أحمل الكتاب!

هذا الكتاب مثلي قادر على التواجد في عالمين.. نسخة منه في عالمنا على فراش المستشفى، ونسخة منه في عالم مواز غريب!

إذن هي المقايضة.. الكتاب مقابل حرية ابنك..

لو وضعت الكتاب على المحراب فلسوف ينهار الكهف المحيط بجلبرت في تلك الجزيرة في بحر البلطيق.. سوف يتحرر من سجنه ومن أصفاده..

يقولون: إن التاريخ سيتغير..

يقولون: إنها نهاية العالم كما نعرفه..

يقولون: إنها بداية عصر من الشر لم يسبق له مثيل..

وفجأة في ظلام المحراب رأيت ذلك الشبح الأسود فارع الطول... شيء يقف في الظل وكل ما فيه أسود.. ثيابه سوداء.. أفكاره سوداء.. صوته أسود...

بصوت يشبه البر يغريك أن تسمع أكثر، وبلكنة شرق أوروبية، سمعته يتكلم:

- «إنني بلقائك أسعد ولك قلبي يطرب برغم أنها آخر مرة أيها الفاني!»

صحت في هلع:

- «لوسيفر!»

لم يهتم باللياقة أو المجاملة.. قال في إصرار:

- «لا تفعل.. لا تفعل أيها الفاني.. سوف يأخذ منك الكتاب ويسحق ولدك... إنِّه يكذب....»

يا سلام!.. وهل أثق بك أنت؟ هذا مستحيل... كلكم ذئاب جائعة لا تريد سوى الكتاب اللعين...

قال لوسيفر في إصرار:

- «أؤكد لك أنها النهاية.. بي أنت لا تثق... هذا شيء أفهمه.. لكن لماذا به تثق؟؟... من يثق بساحر شرير من بلاد القوط الشرقية سجين منذ قرون؟»

معك حق.. لا أحد....

✷ ✷ ✷

سمبر كريسيس.

أوت دكريسيس

فيتا ديتستابيليس..

نونك أوبدورات

إتونك كيورات

لودو منتيس آسييم..

✷ ✷ ✷

ماجي تهمس في أذني

- «نم يا صغيري.. نم.. لا أريدك أن تتألم أكثر من هذا.. اتل الشهادتين. أنت أخبرتني أن المسلمين يفعلون ذلك.. هلمّ.. هلمّ.. اتل الشهادتين واضغط على أصابعي جيدًا. أعرف أنك تتألم والألم قد تفوق على المورفين.. تفوق على البتيدين... نم.. لن أكون فتاة شريرة أنانية. يُمكنك أن تتركني إذا كان هذا سيريحك...»

اضغط على أناملي جيدًا.. هذا يريحك.. أليس كذلك؟

مررت يدها على بطني وخطر لها أنها لا تشعر بالكتاب الذي لا أفارقه أبدًا، لكن من يهتم؟ فليذهب الكتاب إلى الجحيم...

✷ ✷ ✷

أناملها تريحني..

وأنا أحاول أن أجد مخرجًا من هذه الورطة...

فجأة اهتزّ المكان وبدأت الصخور تنهمر من أعلى.. هل هو زلزال؟ هل هو ديناصور يطأ المقبرة؟

ثم رأيت هذا الشيء العملاق المخيف ينتصب أمامي.. كان أقرب لكائن بشري ضخم. ضخم ترتفع قامته أربعة أمتار.. لا أرى ملامحه بوضوح لكني أدرك أن شعره ثائر منتفش ولحيته استطالت إلى الأرض.. بخار الكبريت يتصاعد من منخريه رائحة أنفاسه مقيتة خانقة..

كان له ذلك الصوت الثلاثي أو الرباعي الذي تتكلم به الشياطين في أفلام الرعب.. لكن هذا كله كان حقيقيًا...

عرفت الإجابة على الفور.. أنت كاتيوم..

كاتيوم الساحر المفزع الخارق الذي سجن جيلبرت في ذلك الكهف.. سجنه لأنّه أهانه.. لقد وجدنا وعرف ما يجري هنا..

- «كاتيوم..»

قال بالألمانية العتيقة، والتي صرت أفهمها فجأة:

- «الكتاب!»

لا أحد يقدر على انتزاع الكتاب مني دون إرادتي.. هذه قاعدة لا تفشل.. هذا يعطيني قوة لا بأس بها..

حاولت أن أقف في ثبات وقلت:

- «كاتيوم.. الأسطورة تقول إنك رجل عادل سيكون الكتاب في أمان معك، بينما لو أخذه لوسيفر أو جيلبرت أو أي وغد آخر فهي الكارثة ونهاية الجنس البشري ليبق الكتاب معك وليبق جلبرت في محبسه..»

ثم ابتلعت ريقي وقلت:

- «شرطي هو أن يتحرر ابني.. هنا والآن.. أرسله إلى حيث يستحق.. إلى الأرض ليصير بشريًّا كباقي البشر، أو اقتله ليتوفاه الله.. فقط حرره من هذا الجحيم. ودعني أؤكد لك أنك لن تمس الكتاب قبل أن أعرف أنك حررته...»

ساد الصمت، فهو لم يعتد هذا التحدي..

بعد قليل قال بصوت عميق:

- «هذا مطلب عادل لكنك لا تعرف ثمن أن تتخلى عن هذا الكتاب لي. سوف ينغلق عليك هذا القبر وتكون نهايتك إنّه الموت. فهل تقبل؟»

- «أقبل...»

رفع رأسه للسماء وصاح بعدة كلمات.. كلمات قوطية طبعًا لا أفهمها..

بدأت عواصف ونيران خضراء تتفجر في كل مكان.. الكهف يميد تحت أقدامنا... وطاويط حمراء تحلّق.. الأرض مد من الفئران المشعثة تجري كأنها أمواج بحر..

وسمعت صوت سمير الذي صرت أعرفه جيدًا:

- «أبي.. أنا تحررت!!... أبي!... أنا تحررت!... هلمّ تعال لي.. عد معي!»

سمعت هذا الصوت فابتسمت.. لقد فات الأوان....

لم أعد أرى سوى يد عملاقة مخلبية تمتد لي كأنها تطلب ثمنًا ما.. يد بحجم الكهف كله..

انتزعت الكتاب من على خصري ووضعته في اليد....

- «موتًا تموت!... موتًا تموت!»

- «موتًا تموت!... موتًا تموت!»

- «موتًا تموت!... موتًا تموت!»

- «موتًا تموت!... موتًا تموت!»

- «موتًا تموت!... موتًا تموت!»

✷ ✷ ✷

في وقت رحيلي هذا، ادعوا لي يا رفاقي! إن السماء تشع بالفجر ودربي جميل يرقد أمامي.

لا تسألوا ما الذي هو لديَّ لآخذه إلى هناك. إنني أبدأ رحلتي بيدين خاويتين وقلب يرتجي.

لسوف أرتدي حلة عرسي، إن ردائي ليس هو بالأحمر الذي يرتديه المسافر، ورغم أنّ هنالك أخطارًا في الطريق فلا خوف في رأسي.

إن نجمة المساء سوف تبزغ عندما تتم رحلتي، وألحان المغيب سوف تنطلق من بوابة ملكي.

طاغور

✷ ✷ ✷

أتلو الشهادتين..

وماجي تهمس في أذني:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «هل ستزور أحلامي للأبد؟»

- «وحتّى تحترق النجوم.. وحتّى تأتي لي هناك.. آنذاك عديني أن تكوني لي... سوف نظل معًا للأبد لا يفرقنا شيء... هيا.. لا تضعفي... عديني.. عدي.....»

في الساعة الثالثة صباح يوم الثلاثاء 8 أغسطس توقف قلب الدكتور رفعت إسماعيل عن الخفقان. لقد رحل الشيخ الذي اعتبره البعض نصابًا واعتبره البعض مخبولًا واعتبره البعض خبيرًا في الماورائيات. وجدنا بعض المذكرات المتناثرة التي كتبها في أيامه الأخيرة ويبدو أنّ بعض هذه قصص لم يحكها قط. سوف نحاول أن نقدم لك بعضها من حين لآخر في أعداد خاصة.

الفهرس

(م) محـادثـة

- 1 -

(ا) البيــت

- 1 -

- 2 -

(ع) علاج غامض

- 1 -

(ي) يوهانا في حيرة

- 1 -

- 2 -

- 3 -

(ل) لقـــاء

- 1 -

(ي) يــوم خـاص

- 1 -

- 2 -

(م) مـن أجـله

- 1 -

(و) ويلما قد ماتت

- 1 -

- 2 -

- 3 -

(ت) ترنيـمـة

- 1 -

(!!)

- 1 -

- 2 -